موجز تاريخ العالم

تأليف
هـ. ج. ويلز

ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد

موجز تاريخ العالم

تأليف

ه. ج. ويلز

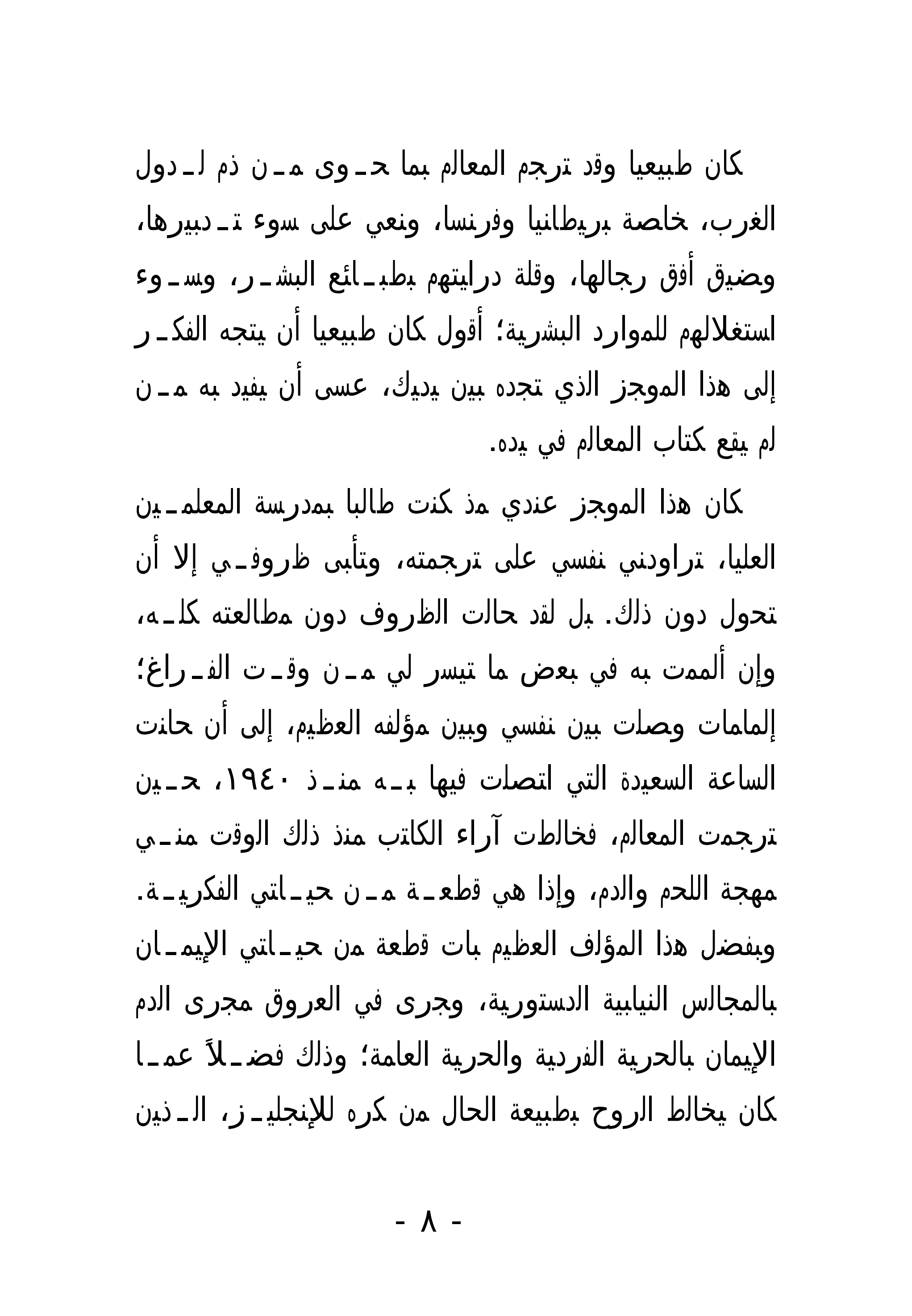
ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد



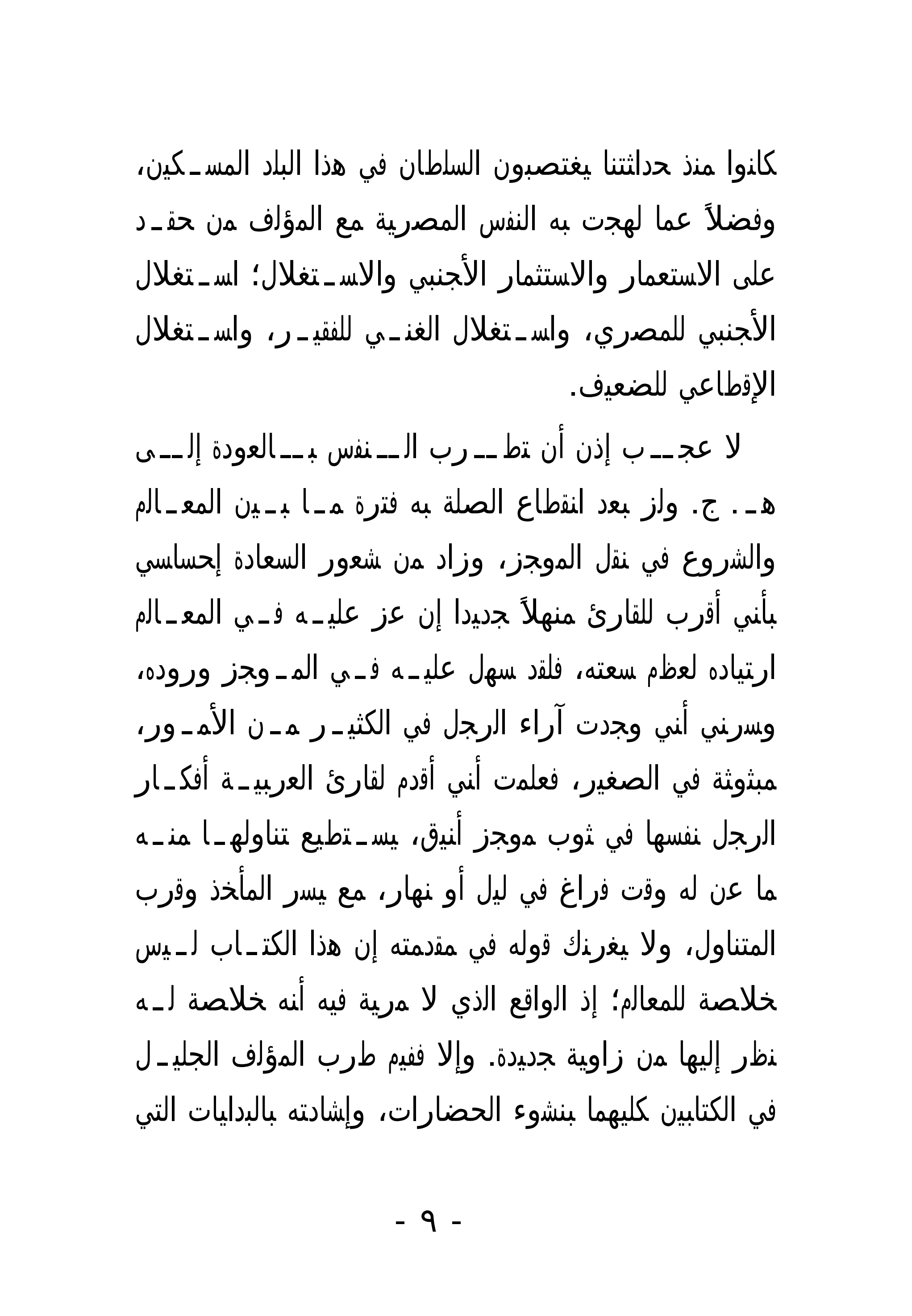
كلمة المترجم

كان طبيعيا وقد ترجمت "المعالم" أن يتجه الفكر إلى شـقيقه "الموجز"؛ ذلك أن "المعالم" ليس سفرا يسجل التـاريخ ويـدون أحداثه فحسب؛ بل هو قوة دافعة تكاد تجعله من صناع التاريخ، فهو بما جمع من دعوات ومذاهب وتعاليم مـن بنـات أفكـار مؤلفه؛ يعد من الصور التي تتحول عندها أحداث هذا الكوكب. وبحسب القارئ ما به من تبصرة لمن حجب عنه البصر بأمور الدنيا، وتنوير لمن أحاطت به سدفة الظلمات، بحسبه ما فيه من إحاطة شاملة بأحداث هذا الكوكب الذي عليه نعـيش، ونعـده إقليما واحدا بل قطرا واحدا... أستغفر ا بل قرية واحدة يجب أن يقوم فيها من التكافل والتحاب والتعاطف ما يقوم فـي كـل ريف، ويجب أن يزول منه من أسباب الخلاف والتنـافر مـا ينبغي أن يزول من الريف السعيد الذي ترفرف عليـه ألويـة الوئام. وبحسب القارئ أيضا ما بالكتاب مـن نظـرة عمليـة بيولوجية إنسانية إلى سكان هذه الدنيا، ترجو أن تعمهم المساواة والإخاء والصفاء، فلا أبيض ولا أصفر ولا أسود ولا أسـمر، ولا استعماري ولا مستعمر ولا استغلالي ولا مستغل؛ بل الكل في حظ الحياة سواء، والـرزق والثمـرات وركـاز الأرض وخيراتها قسمة بين الجميع، وقسمة عادلة لا قسمة ضيزى.



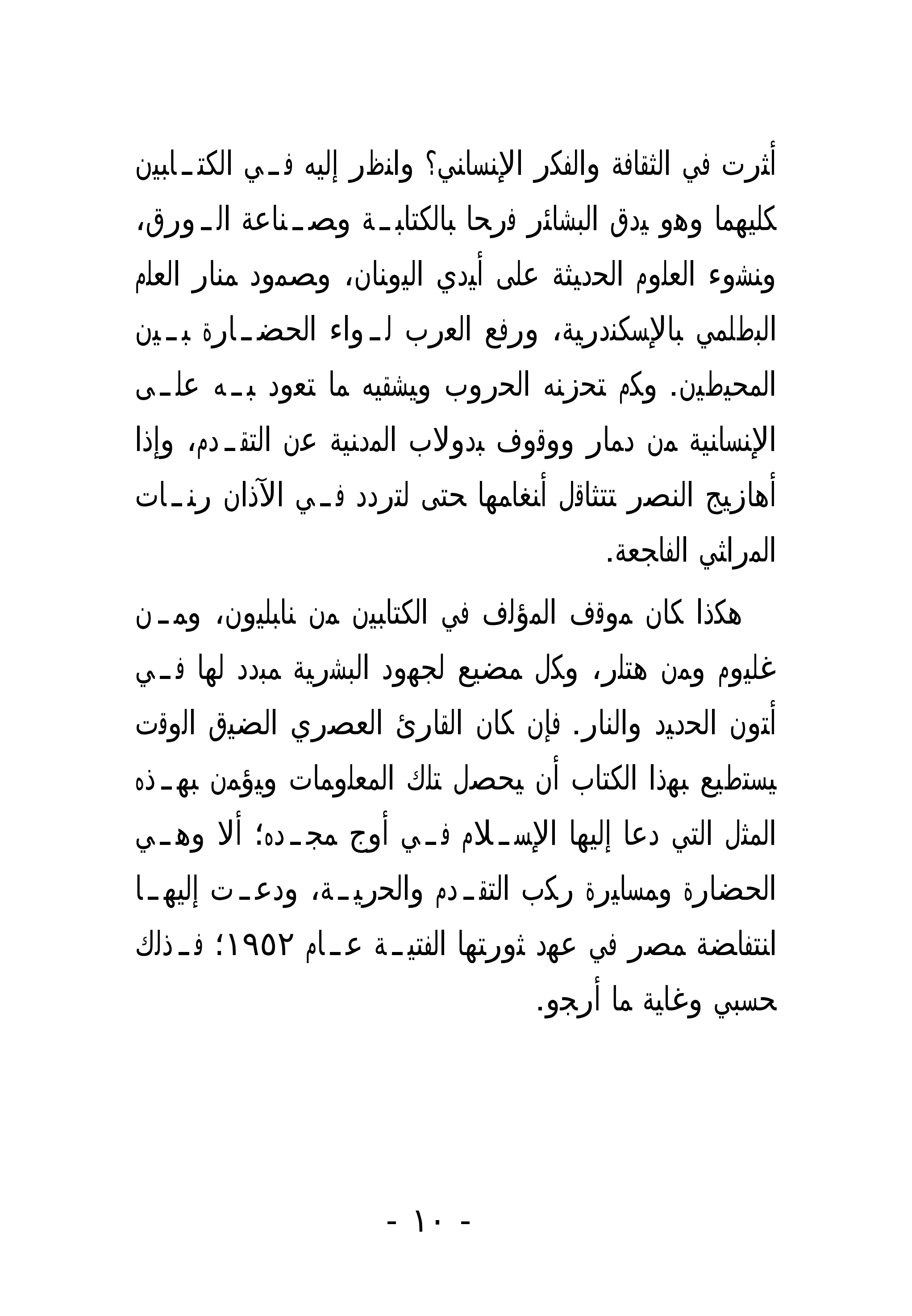
كان طبيعيا وقد ترجم المعالم بما حـوى مـن ذم لـدول الغرب، خاصة بريطانيا وفرنسا، ونعي على سوء تـدبيرها، وضيق أفق رجالها، وقلة درايتهم بطبـائع البشـر، وسـوء استغلالهم للموارد البشرية؛ أقول كان طبيعيا أن يتجه الفكـر إلى هذا الموجز الذي تجده بين يديك، عسى أن يفيد به مـن لم يقع كتاب المعالم في يده.

كان هذا الموجز عندي مذ كنت طالبا بمدرسة المعلمـين العليا، تراودني نفسي على ترجمته، وتأبى ظروفـي إلا أن تحول دون ذلك. بل لقد حالت الظروف دون مطالعته كلـه، وإن ألممت به في بعض ما تيسر لي مـن وقـت الفـراغ؛ إلمامات وصلت بين نفسي وبين مؤلفه العظيم، إلى أن حانت الساعة السعيدة التي اتصلت فيها بـه منـذ ١٩٤٠، حـين ترجمت المعالم، فخالطت آراء الكاتب منذ ذلك الوقت منـي مهجة اللحم والدم، وإذا هي قطعـة مـن حيـاتي الفكريـة. وبفضل هذا المؤلف العظيم بات قطعة من حيـاتي الإيمـان بالمجالس النيابية الدستورية، وجرى في العروق مجرى الدم الإيمان بالحرية الفردية والحرية العامة؛ وذلك فضـلاً عمـا كان يخالط الروح بطبيعة الحال من كره للإنجليـز، الـذين



كانوا منذ حداثتنا يغتصبون السلطان في هذا البلد المسكين، وفضلاً عما لهجت به النفس المصرية مع المؤلف من حقد على الاستعمار والاستثمار الأجنبي والاستغلال؛ استغلال الأجنبي للمصري، واستغلال الغني للفقير، واستغلال الإقطاعي للضعيف.

لا عجب إذن أن تطرب النفس بالعودة إلى هـ. ج. ولز بعد انقطاع الصلة به فترة ما بين المعالم والشروع في نقل الموجز، وزاد من شعور السعادة إحساسي بأني أقرب للقارئ منهلاً جديدا إن عز عليه في المعالم ارتياده لعظم سعته، فلقد سهل عليه في الموجز وروده، وسرني أني وجدت آراء الرجل في الكثير من الأمور، مبثوثة في الصغير، فعلمت أني أقدم لقارئ العربية أفكار الرجل نفسها في ثوب موجز أنيق، يستطيع تناولها منه ما عن له وقت فراغ في ليل أو نهار، مع يسر المأخذ وقرب المتناول، ولا يغرنك قوله في مقدمته إن هذا الكتاب ليس خلاصة للمعالم؛ إذ الواقع الذي لا مرية فيه أنه خلاصة له نظر إليها من زاوية جديدة. وإلا ففيم طرب المؤلف الجليل في الكتابين كليهما بنشوء الحضارات، وإشادته بالبدايات التي



أثرت في الثقافة والفكر الإنساني؟ وانظر إليه في الكتابين كليهما وهو يدق البشائر فرحا بالكتابة وصناعة الورق، ونشوء العلوم الحديثة على أيدي اليونان، وصمود منار العلم البطلمي بالإسكندرية، ورفع العرب لواء الحضارة بين المحيطين. وكم تحزنه الحروب ويشقيه ما تعود به على الإنسانية من دمار ووقوف بدولاب المدنية عن التقدم، وإذا أهازيج النصر تتثاقل أنغامها حتى لتردد في الآذان رنات المراثي الفاجعة.

هكذا كان موقف المؤلف في الكتابين من نابليون، ومن غليوم ومن هتلر، وكل مضيع لجهود البشرية مبدد لها في أتون الحديد والنار. فإن كان القارئ العصري الضيق الوقت يستطيع بهذا الكتاب أن يحصل تلك المعلومات ويؤمن بهذه المثل التي دعا إليها الإسلام في أوج مجده؛ ألا وهي الحضارة ومسايرة ركب التقدم والحرية، ودعت إليها انتفاضة مصر في عهد ثورتها الفتية عام ١٩٥٢؛ فذلك حسبي وغاية ما أرجو.

وفي الكتاب آراء للمؤلف قد تخالف رأينا، ولكنا أبقيناهـا في موضعها عملاً بحرية الـرأي، ومـن قبيـل مـا جـاء بالصفحات ١٧٣ و١٧٦ عن قصة صلب المسيح؛ فقد أبقيناها لأنها تمثل وجهة النظر المسيحية، أما رأي الإسلام في هـذه القصة فمعروف لا يحتاج إلى بيان.

وقد ضبطنا الترجمة على آخر طبعة أصـدرها المؤلـف قبيل وفاته، وأضاف إليها فصلاً عن الحرب العظمى الثانيـة (أكملنا ما ينقصه من حلقات)، وضـمنه أمانيـه الخالصـة للبشرية، محذرا إياها من عواقب أخطائها، وموضـحا لهـا سبيل النجاة.

مصر الجديدة في ١٤ يونية ١٩٥٨

عبد العزيز توفيق جاويد

الفصل الأول

العالم والفضاء

إن قصة عالمنا لا تزال بتراء يعتورها النقص مـن كـل جانب. فإن كل ما كان لدى الناس من معلومات تاريخية قبل زماننا هذا بقرنين لم يكن مداه يتجاوز الثلاثـة آلاف عـام الأخيرة. أما ما حدث في العالم قبل ذلك؛ فكان أمرا تضرب فيه الأساطير والظنون بسهم وفير، وكان الناس فـي شـطر كبير من العالم المتحضر يعتقدون ويلقنون أن العالم قد خلق على حين بغتة في عام ٣٠٠٤ ق. م، وإن اختلف الثقات فيما إذا كان ذلك الخلق قد حدث فـي خريـف تلـك السـنة أو ربيعها!!. وقد قام هذا الوهم الخاطئ العجيب في دقة تحديده على المبالغة في تأويل "العهد القديم" العبراني تأويلاً حرفيـا، أو بالأحرى على افتراضات وتفسـيرات لاهوتيـة رائـدها التعسف، ولقد تخلى معلمو الأديان منذ أمد بعيد عن مثل هذه الأفكار، وجمهرة الناس اليوم يرون أن العالم الذي نعيش فيه كان – فيما توحي به جميع الظواهر - موجودا طوال حقبـة هائلة من الزمان، ربما لم تكن لها بداية، ومـن البـديهي أن تلك الظواهر ربما انطوت على شيء من الخداع والتضليل، على غرار الهيئة اللانهائية التي تتراءى لنـا عـن حجـرة وضعت بها مرايا متقابلة في كل من طرفيها. أما القول بـأن العالم الذي فيه نعيش لم يخلق إلا منذ ستة أو سبعة آلاف من الأعوام؛ فهو فكرة لا يمكن اعتبارها إلا باطلة تماما.

والأرض كما يعرف كل إنسان اليـوم ذات شـكل شـبه كروي؛ أي إنها كرة مضغوطة قليلاً، على نمط برتقالة ذات قطر طوله ثمانية آلاف من الأميال تقريبـا. وكـان شـكلها الكروي معروفًا لدى عدد يسير على الأقل من نجباء الناس، منذ قرابة ٢٥٠ سنة، ولكن الناس كانوا قبـل ذلـك الـزمن يظنون أنها منبسطة، كما كانوا يذهبون في شـأن علاقاتهـا بالجو والنجوم والكواكب السيارة مذاهب شتى تبـدو اليـوم غريبة. ونحن اليوم نعرف أنها تدور حول محورها (الـذي هو أقصر من قطرها الاستوائي بأربعة وعشرين ميلاً تقريبا) مرة في كل أربعة وعشرين ساعة، وأن ذلك هو السبب فـي تعاقب الليل والنهار، وأنها تتم دورة كاملة حول الشمس مرة في كل عام، في مدار بيضاوي منحرف قليلاً، ومتغير تغيرا بسيطًا. ويتراوح بعدها عن الشمس، بين واحد وتسعين مليونًا ونصف المليون من الأميال في أقرب أوضاعها، وبين أربعة وتسعين مليونًا ونصف المليون من الأميال.

وتدور من حول الأرض كرة أصغر حجما هـي القمـر، على مسافة متوسطها ٢٣٩,٠٠٠ ميـل. وليسـت الأرض والقمر الكتلتين الوحيدتين اللتين تسبحان حول الشمس. فهناك كذلك من الكواكب السيارة عطـارد والزهـرة علـى بعـد ٣٦ و٦٧ من ملايين الأميـال، وفيمـا وراء مـدار الأرض

وبغض النظر عن منطقة مكونة من أجرام كثيـرة أصـغر حجما هي السيارات الصغرى (الكويكبـات) Plauetoids؛ يوجد المريخ والمشترى وزحل وأورانوس ونبتـون، علـى أبعاد متوسطها ١٤١، ٤٨٣، ٨٨٦، ١٧٨٢، ٢٧٣٩ مليـون ميل على التعاقب، ولا شك أن من العسـير علـى الأفهـام تصور هذه الأرقام المقدرة بملايين الأميـال. وربمـا يسـر الأمر على خيال القارئ تصغير حجم الشمس والكواكب إلى مدى أصغر يكون أدنى إلى التصور.

وربما أعانتنا تلك الأرقام على تكوين صورة عن الخواء الذريع الذي يعم الفضاء الذي فيه تتوالى مسرحيات الحياة.

ذلك أننا في كل هذا الخواء الذريع الـذي يعـم الفضـاء لا نعلم يقينا بوجود الحياة إلا على سطح أرضنا؛ تلك الحيـاة التي لا نغوص في باطنها لأكثر من ثلاثة أميال من الأربعة آلاف التي تفصلنا عن مركز كرتنا الأرضـية، كمـا أنهـا لا تعلو إلى أكثر من خمسة أميال فوق سطحها. وكل ما بقي بعد ذلك من فضاء لا حد له ولا نهاية يتكون حسبما يبدو من خواء وعدم.

وأعمق ما بلغه الغوص في أعماق المحيطات هو خمسة أميال. كما أن أعلى ما سجله الطيران من ارتفاع في أطباق الجو لم يتجاوز الأربعة أميال إلا قليلاً. حقًا إن الإنسان قد صعد في الجو إلى سبعة أميال بالمناطيد، إلا أنه كابد في سبيل ذلك آلاما ذريعة. ولا يستطيع طائر أن يرتفع إلى خمسة أميال؛ إذ إن صغار الطيور والحشرات التي حملتها الطائرات تفقد وعيها قبل بلوغ ذلك المستوى من الارتفاع.

الفصل الثاني

العالم والزمان

ذهب العلماء في السنوات الخمسين الأخيرة مذاهب شـتى وممتعة في تقدير عمر الأرض وأصلها. ولسنا ندعي ههنـا أننا سندلي بموجز لتلك الآراء؛ وذلك لانطوائهـا علـى أدق الاعتبارات الرياضية والطبيعية، والحق أن العلوم الطبيعيـة والفلكية لا تزال حتى الآن بعيدة عن الاكتمال بعدا يجعل كل ما بذل في مضمارها مجرد افتراضات تخمينيـة. والاتجـاه العام للعلماء يجنح كل يوم إلى زيادة العمر المقدر للأرض. وأرجح تقديراتهم الآن أن الأرض كان لها وجود قائم بذاتـه ككوكب دوار يواصل الدوران حول الشـمس لأكثـر مـن بليونين (٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) من السنين. وربما كانت المدة أطول من ذلك كثيرا، ولكنها مدة يعجز الخيال تمامـا عـن تصورها.

ولعل الشمس والأرض والكواكب الأخرى التـي تـدور حول الشمس كانت قبل تلك الفترة السـحيقة مـن وجودهـا المنفصل دوامة هائلة من المـادة المنتشـرة فـي الفضـاء. ويكشف لنا المرقب (التلسكوب) في أجـزاء مختلفـة مـن السماوات عن غمامات لولبية منيرة من المادة هـي السـدم الحلزونية التي تبدو في دوران مستمر حول مركز. ويظـن

كثير من علماء الفلك أن الشمس وكواكبها السيارة كانت يوما أحد تلك السدم الحلزونية، وأن مادتها قد تحولت بالتركز إلى شكلها الحالي، وتواصل ذلك التحول التركيزي دهورا هائلـة حتى أصبحت الأرض وقمرها مميزين في تلك الحقبة البعيدة من الماضي السحيق، الذي ترجمناه بالأرقام، وكانا يـدوران آنذاك بسرعة أكبر من سرعتهما الحالية؛ إذ كان بعدهما عن الشمس أقل؛ لذلك كانا يسبحان حولها بسرعة أشد، ولعلهمـا كانا عند ذلك متوهجين أو منصهري السطح، وكانت الشمس نفسها شعلة في السماء أكبر كثيرا مما هي عليه الآن.

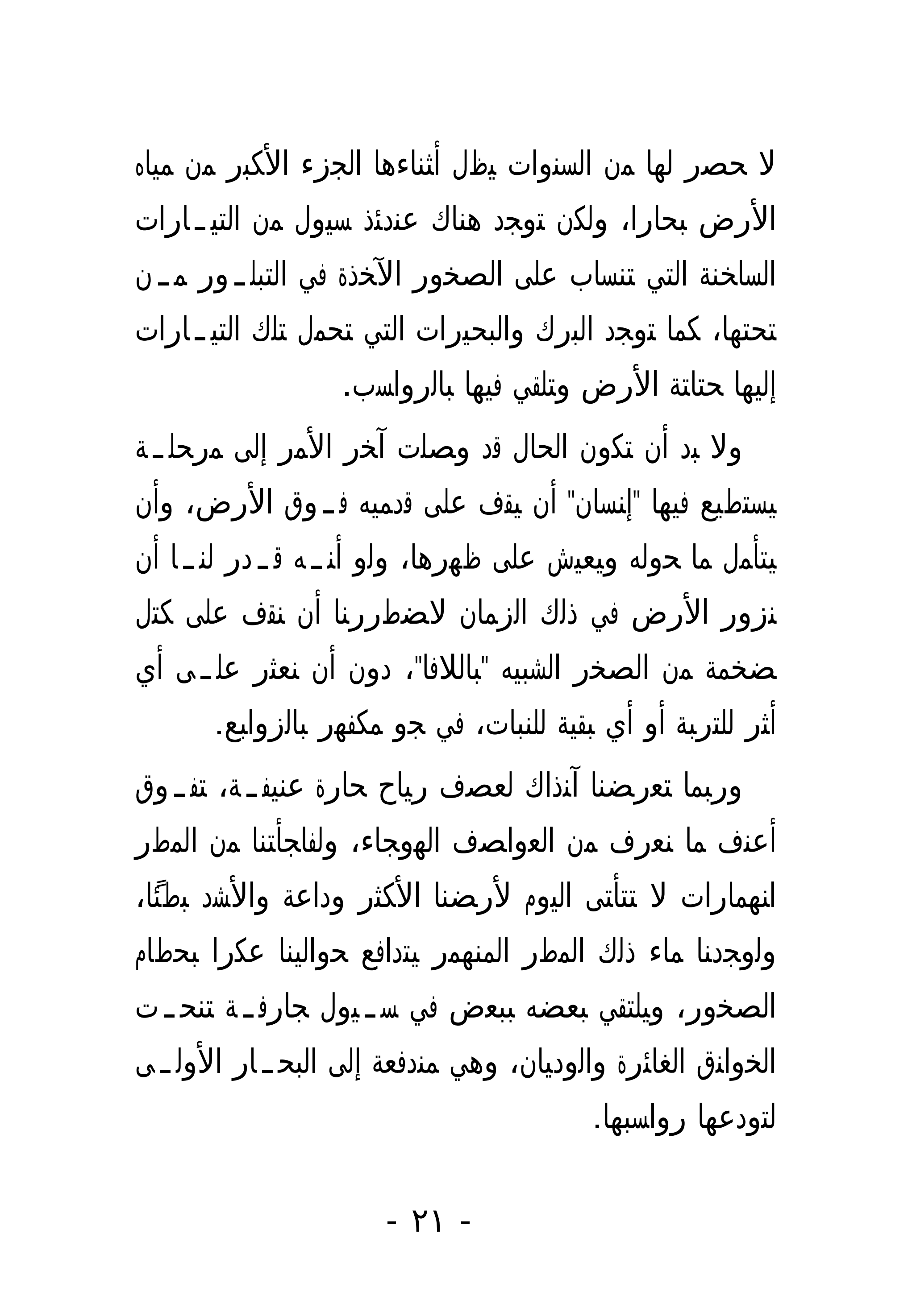
ولو أننا استطعنا أن نخترق آماد ذلك الزمـان السـرمدي، لنرى الأرض في تلك المرحلة المبكرة من تاريخهـا لشـهدنا منظرا أشبه بباطن أتون الصهر، أو سطح دافق من اللافـا[1] المنصهرة قبل أن تبرد وتتصلب؛ منه بأي مشهد آخر معاصر. ولن نجد الماء هناك بطبيعة الحال؛ إذ إن الماء الموجـود قـد استحال إلى بخار مستعر في جو عاصف من الأبخرة الكبريتية والمعدنية. ولعلنا نجد من دون هذه الأبخرة بحرا متلاطما مـن المواد الحجرية المنصهرة. وإن وهج الشمس والقمر ليمر مارقًا كسهم من لافح اللهب عبر جو من سحب نارية.

([1]) اللافا (Lava) هي المادة الذائبة التي تقذفها البراكين من فوهاتها.

وبتعاقب السنين مليونًا في إثر مليون يأخذ ذلـك المشـهد الناري البركاني في فقدان لظاه المتـأجج بـبطء تـدريجي، وتنساب أبخرة السماء إلى الأرض مطرا فيقل تركزها فـي الجو. وتظهر على سطح ذلك البحر المنصهر كتل عظيمـة من زبد الصخور الآخذة في التصلب، ثم تهبط دون السـطح ليحل محلها كتل أخرى طافية. وتندفع الشمس والقمر عبـر السماوات في سرعة متضائلة، وقـد أخـذا يـزدادان بعـدا ويصغران حجما. وعند ذلك تكون حرارة القمـر – نظـرا لصغر حجمه - قد بردت بالفعل إلى ما دون التـوهج، ثـم يأخذ على التوالي يحجب ضوء الشمس عن الأرض ويعكسه إليها في سلسلة متعاقبة من الكسوف والبدور الكاملة.

وعلى هذا النحو من البطء الذريع فـي خـلال الـزمن السرمدي أخذت الأرض تزداد قربا من حالها التـي نعـيش عليها اليوم، حتى جاء في النهاية عصر بدأ فيه البخار يتكثف سحبا في الهواء البارد نوعا، ثم تساقط أول المطـر محـدثًا نشيشًا[1] على ما تحته من الصخور الأولى. وتنقضي آلاف

([1]) النشيش: صوت الغليان، وذلـك لأن المطـر عنـدما مـا يلتقـي بالصخور الساخنة يتبخر على الفور.



لا حصر لها من السنوات يظل أثناءها الجزء الأكبر من مياه الأرض بحارا، ولكن توجد هناك عندئذ سيول من التيـارات الساخنة التي تنساب على الصخور الآخذة في التبلـور مـن تحتها، كما توجد البرك والبحيرات التي تحمل تلك التيـارات إليها حتاتة الأرض وتلقي فيها بالرواسب.

ولا بد أن تكون الحال قد وصلت آخر الأمر إلى مرحلـة يستطيع فيها "إنسان" أن يقف على قدميه فـوق الأرض، وأن يتأمل ما حوله ويعيش على ظهرها، ولو أنـه قـدر لنـا أن نزور الأرض في ذلك الزمان لاضطررنا أن نقف على كتل ضخمة من الصخر الشبيه "باللافا"، دون أن نعثر علـى أي أثر للتربة أو أي بقية للنبات، في جو مكفهر بالزوابع.

وربما تعرضنا آنذاك لعصف رياح حارة عنيفـة، تفـوق أعنف ما نعرف من العواصف الهوجاء، ولفاجأتنا من المطر انهمارات لا تتأتى اليوم لأرضنا الأكثر وداعة والأشد بطئًا، ولوجدنا ماء ذلك المطر المنهمر يتدافع حوالينا عكرا بحطام الصخور، ويلتقي بعضه ببعض في سـيول جارفـة تنحـت الخوانق الغائرة والوديان، وهي مندفعة إلى البحـار الأولـى لتودعها رواسبها.

ولابد أننا كنا نلمح من خلال السحب شمسا هائلة تتحرك أمام نواظرنا عبر السماء، كما كنا نشهد في أعقابهـا حـين تمر، وفي أعقاب القمر؛ حركة مد يومي قوامهـا الـزلازل والارتفاعات والتقببات في القشرة الأرضية، ولا بد أن القمر الذي يطل الآن على الأرض بوجه واحد لا يتغير؛ كان حينئذ يدور منيرا مرئيا كاشفًا الوجه الذي يداوم الآن ستره.

فلما شاخت الأرض، وطال اليوم، وغدت الشـمس أبعـد مسافة وأهدأ حدة، وبطئت سرعة القمر في السـماء؛ خفـت وطأة الأمطار والعواصف، وتزايد الماء في البحار الأولـى، وجرى جملة إلى المحيط الذي أصبح منذ ذلك الحين دثـارا لكوكبنا.

ومع ذلك فلم تكن ثمة حياة على الأرض، فكانت البحـار خلوا من الأحياء، والصخور جرداء قاحلة.

الفصل الثالث

بدايات الحياة

المصدر الذي نستقي منه إلى حد كبير معلوماتنـا عـن الحياة قبل ابتداء المحافظة على الذكريات والتقاليد الإنسـانية الأولى؛ هو الآثار والحفريات التي خلفتها الكائنات الحية في الصخور الطباقية؛ ذلك أن الطفل والإردواز والحجر الجيري والرملي؛ كلها تحتفظ لنا بالعظـام والأصـداف والأليـاف والجذوع والفواكه، وآثار الأقدام والخدوش وما إليها، ومعها آثار المد والجزر منذ أقدم العصور، والخدوش التي أحدثتها أقدم الأمطار، وقد تم لنا جمع التاريخ القديم لحيـاة الأرض فلذة بعد فلذة بطريق الفحص المضـني عـن هـذا السـجل الحجري؛ وذلك أمر يعد اليوم من المعلومات العادية، ولكـن الصخور الطباقية (الرسوبية) لا ترقد طبقة فوق طبقة بنظام دقيق أنيق؛ بل إنها تغضنت والتوت وتبعثرت وتعوجت، ثـم اختلطت على نحو ما يصيب صحف مكتبة منيـت مـرارا وتكرارا بالنهب والحريق؛ ولذا فلم يتسن تنظيم هذا السـجل وقراءته إلا بعد أن استنفدت في سبيل ذلك أعمار كثيرة تفانى أصحابها في الإخلاص لذلك العمل. ويقدر المدى الزمـاني الكامل الذي يمثله سجل الصخور ببليون وستمائة مليون سنة (١,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة).

والجيولوجيون (علماء طبقـات الأرض) يسـمون أقـدم صخور ذلك السجل الصخري باسـم الصـخور "الآزوريـة Azoic"؛ أي التي لا يبدو فيهـا أي أثـر للحيـاة، وتوجـد مساحات مترامية من هذه الصخور الآزورية عارية جـرداء في شمال أمريكـا، وهـي بدرجـة مـن السـمك جعلـت الجيولوجيين يقدرون عمرها بما لا يقل عن نصـف عمـر السجل الجيولوجي بأكمله، وإني لمكرر على مسامعكم هـذه الحقيقة الخطيرة؛ وهي أن نصف الحقبة الزمنية العظمى التي انقضت منذ أن تمايز اليابس والماء لأول مرة علـى ظهـر الأرض؛ لم يخلف لنا أي أثر للحياة. حقًا لا تزال توجد على تلك الصخور آثار تموجات الماء وخدشات الأمطار، ولكـن ليس بها دلالات ولا آثار لأي كائن حي.

فإذا صعدنا درجات السجل بعد ذلك، بدت علامات الحياة الماضية وأخذ عددها يتزايد. ويسـمي الجيولوجيـون هـذا العصر من حياة العالم الذي نجد فيه هذه الآثار الغابرة باسم الزمن الباليوزوي Palaeozoic السفلى.

وأول الدلالات على وجود الحياة؛ الآثار والرفـات الباقيـة لكائنات بسيطة ودنيئة نسبيا؛ مثل أصـداف أسـماك محاريـة صغيرة، وجذوع لحيوانـات نباتيـة[1]، ورءوس لهـا تشـبه الأزهار، وأعشاب بحرية، وآثـار لحركـات ديـدان البحـر والقشريات وبقايا لها. وتظهر منذ زمن مبكر جـدا مخلوقـات معينة تكاد تشبه قمل النبات، وهي كائنات زاحفة لها قدرة على تكوير نفسها، كما يفعل قمل النبات، وتسـمى الترپلوبيـت؛ أي المثلثة الفصوص[2]. وبعد ذلك ببضعة ملايين مـن السـنين تظهر أنواع معينة من العقارب البحرية؛ وهي كائنـات ألـين حركة من كل ما شهده العالم من قبل من كائن حـي، وأكثـر كفاية وقدرة.

([1]) مثل ذلـك الإسـفنج والمرجـان واسـمها العلمـي المريجـات Zoophytes.

([2]) المثلثة الفصوص Trliobite هي حفريات من العصر الباليوزوي السفلي العتيق لحيوانات ذات فصوص ثلاثة، وبدون فقار، وهـي من فصيلة العناكب Arachmida.

ولم تحظ أي واحدة من هذه المخلوقات بضخامة الحجـم، وأكبرها صنف من العقارب البحرية، وكـان طولـه تسـعة أقدام، وليس هناك أي دليل يشهد على وجود أي نـوع مـن الحياة في البر؛ نباتية كانت أو حيوانيـة، ولا يحتـوي هـذا الجزء من السجل على أسماء ولا كائنات فقاريـة. وجميـع النباتات والكائنات التي تخلفت لنا بقاياها عن تلك المدة مـن تاريخ الأرض ليست بالضرورة إلا كائنات ميـاه ضـحلة، أو مياه المناطق التي يتعاورها المد والجزر. وإذا شـئنا أن نجد في العالم اليوم شبيها لنبات وحيوان الصخور المتكونـة في الزمن الجيولوجي (الباليوزوي) السفلي العتيق، لوجـدناه على أحسن صورة من كل النواحي إلا في الحجم، في قطرة من الماء نأخذها من بركة صخرية، أو حفرة مزبدة آسنة، ثم نتفحصها تحت الميكروسكوب (المجهر)، فما نجده هناك من القشريات والسمك المحاري الضئيل، والحيوانـات النباتيـة والطحالب يكون ذا شبه أخاذ بتلك الأصناف الأولى الفجيجية الأكبر حجما التي كانت في يوم من الأيام أسمى مـا بلغتـه الحياة على "كوكبنا" الأرض.

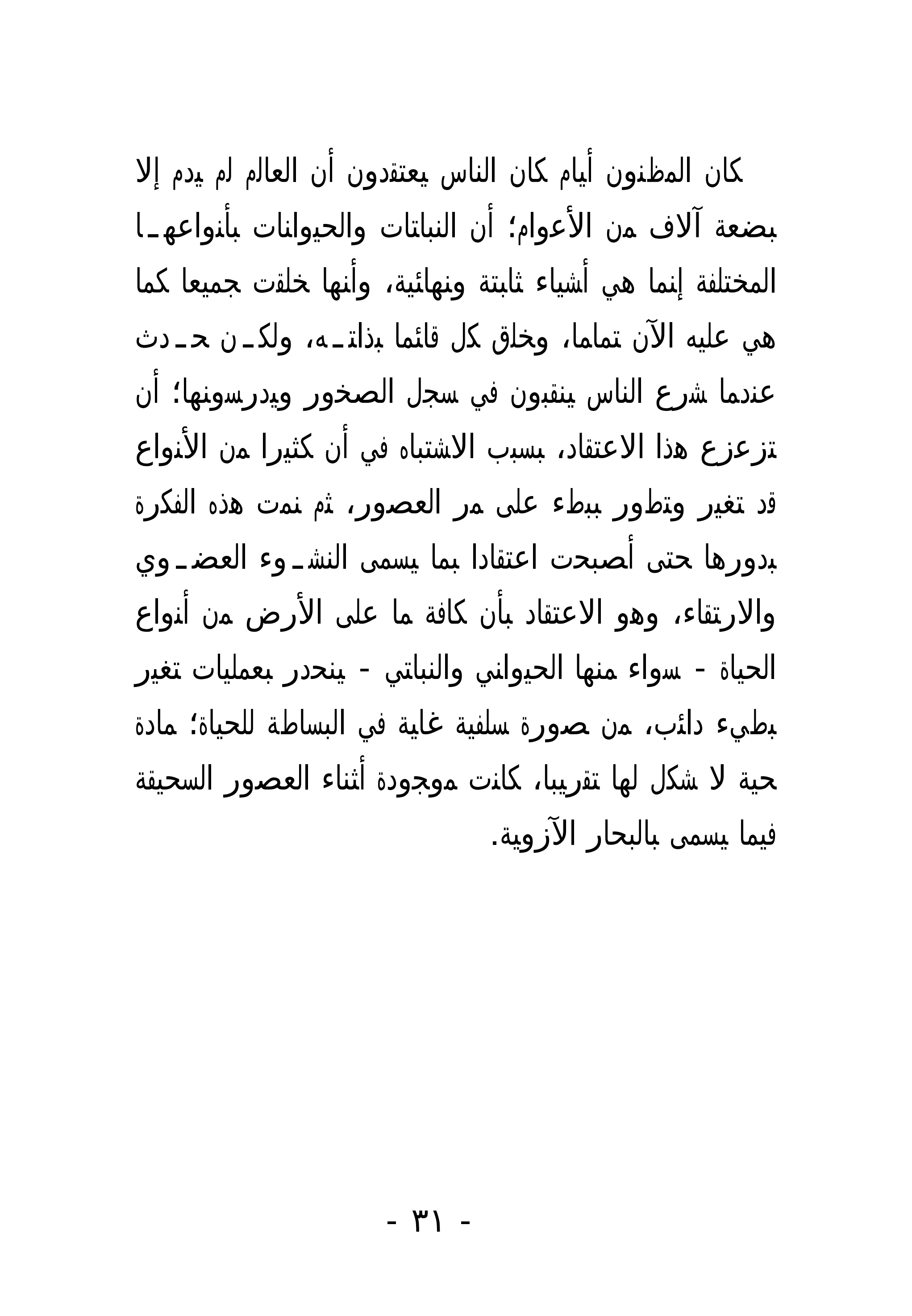
ومع ذلك فمن الخير أن نتذكر أنه يحتمـل أن صـخور الزمن الباليوزوي السفلي قد لا تزودنـا بشـيء مـا يمثـل أول بدايات الحياة على كوكبنا. فإذا لم يكن للمخلوق عظـام أو أجزاء أخرى صلبة، وإذا لم يكن مكتسيا بقشرة صـدفية أو ذات حجم كبير وافٍ وثقلٍ كافٍ ليطبع على الطين آثـارا بارزة للأقدام والدروب المطروقة، فمن غير المحتمل تخلف آثار حفرية بعده تدل على وجوده. ويوجد في العـالم اليـوم مئات الآلاف من أنواع من المخلوقـات الصـغيرة الهشـة الأجسام التي لا يتصور عقل إمكان تركها أي أثـر يطـوع لجيولوجي الغد العثور عليه. ولعل الماضي السـحيق لهـذا العالم كان يعج بملايين الملايين من أنواع تلـك المخلوقـات التي عاشت وتكاثرت وازدهرت، ثم بادت من غير أن تترك أدنى أثر لها. وربما كانت مياه البحار والبحيـرات الدفيئـة الضحلة في ذلك الزمن المسمى بالآزوي Azoic؛ زاخـرة بعينات لا آخر لها من أنواع الكائنات الدنيئة شبه الهلاميـة، والمجردة من الأصداف والعظام، وعينات أخرى لا حصـر لها من النباتات الرغوية، منتشرة فوق الصخور والشـواطئ المعرضة للمد والجزر، والمغمورة بضياء الشمس. ولم يصل

السجل الصخري للحياة الغابرة بعد إلى درجة الكمال، مثاله في ذلك مثل دفاتر أحد المصارف من حيث عدم وفائها بحصر كل فرد بالمنطقة المجاورة للمصرف، ولا يتيسر لأي نوع من الأنواع أن ينطبع على السجل حتى يأخذ في تكوين محارة أو شويكة أو درقة أو جذع متكلس[1]، يحفظه على هذه الصورة للمستقبل. على أنه يحدث أحيانًا أن يوجد الجرافيت في صخور سابقة في عصرها على تلك التي تحمل آثار الحفريات، والجرافيت الذي يسمى عادة باسم الرصاص الأسود؛ صورة من الكربون غير المركب، ويرى بعض الثقات أنه ربما فصله عن مركباته النشاط الحيوي لكائنات حية مجهولة.

([1]) الكلس: هو المادة الجيرية التي تتكون منها العظام والمحار.

الفصل الرابع

عصر الأسماك



كان المظنون أيام كان الناس يعتقدون أن العالم لم يدم إلا بضعة آلاف من الأعوام؛ أن النباتات والحيوانات بأنواعهـا المختلفة إنما هي أشياء ثابتة ونهائية، وأنها خلقت جميعا كما هي عليه الآن تماما، وخلق كل قائما بذاتـه، ولكـن حـدث عندما شرع الناس ينقبون في سجل الصخور ويدرسونها؛ أن تزعزع هذا الاعتقاد، بسبب الاشتباه في أن كثيرا من الأنواع قد تغير وتطور ببطء على مر العصور، ثم نمت هذه الفكرة بدورها حتى أصبحت اعتقادا بما يسمى النشـوء العضـوي والارتقاء، وهو الاعتقاد بأن كافة ما على الأرض من أنواع الحياة - سواء منها الحيواني والنباتي - ينحدر بعمليات تغير بطيء دائب، من صورة سلفية غاية في البساطة للحياة؛ مادة حية لا شكل لها تقريبا، كانت موجودة أثناء العصور السحيقة فيما يسمى بالبحار الآزوية.

وقديما كانت مسألة النشوء والارتقاء العضوي هذه مثـار مجادلات أليمة كثيرة بين الناس، على غرار المسألة المتعلقة بعمر الأرض، حتى لقد أتى على الناس حين من الدهر كانوا يظنون فيه أن الاعتقاد فـي النشـوء والارتقـاء العضـوي Organic Evolntion لا يستقيم- لعلة لا نعلمها- وتعـاليم المسيحية واليهودية والإسلام الصحيحة. وقد انقضـى ذلـك الزمان، وأصبح أشد النـاس تمسـكًا بالعقائـد الكاثوليكيـة الصحيحة والبروتستانتية واليهودية والإسلامية، لا يتحرجون من قبول هذا الرأي الأحدث والأشمل القائـل بـأن لجميـع الكائنات الحية أصلاً مشتركًا؛ إذ لا يلوح أن الحيـاة نشـأت فجأة على ظهر الغبراء. بل إن الحياة قـد نمـت ولا تـزال تنمو. انقضت عصور بعد عصور، ومرت دهور من الزمان يكل الخيال دون تصورها، والحياة تتطور من مجرد هزة في الصلصال المخضل بمياه المد والجزر إلى بحبوحة الحريـة والقوة والإدراك.

تتكون الحياة من أفراد، وهؤلاء الأفراد أشـياء محـددة، فليسوا مثل القطع والكتل، ولا هم يماثلون البلـورات غيـر المحددة وغير المتحركة، المكونة من المادة غير الحية، ثـم إن لهم خاصتين مميزتين لا تشاركهم فيهما أي مادة في عالم الجماد؛ ذلك أنهم يستطيعون أن يتمثلوا فـي أنفسـهم مـادة أخرى، ويحيلونها إلى جزء منهم، كما أنهـم يسـتطيعون أن ينتخبوا لأنفسهم خلفًا؛ فهم يـأكلون وهـم يتناسـلون، وهـم يستطيعون أن ينشئوا أفرادا أخر يشبهونهم إلى حد كبير، وإن اختلفوا عنهم مع ذلك نوعا ما. وإن هناك لمشـابهة نوعيـة وعائلية بين الفرد ونسله، كما أن هناك فارقًا فرديا بين كـل والد وكل مولود له، وهذا صحيح في كل نوع من الأنـواع، وفي كل مرحلة من مراحل الحياة.

ورجال العلم لا يسـتطيعون حتـى الآن أن يبينـوا لنـا ما الذي يوجب على النسل أن يشابه والديه، وما الذي يوجب عليه أن يختلف عنهما. ولكن نظرا لأن الذرية يجتمع فيهـا الشبه والاختلاف في وقت واحد؛ فإن من المعقـول وإن لـم يثبت علميا أنه إذا تغيرت الظروف التي يعيش فيها النـوع؛ وجب أن يطرأ على النوع بعض تغيرات مناسبة. ومرد ذلك

إلى أن أي جيل من أجيال النوع يجب أن يوجد فيه عدد من الأفراد تهيئ لهم فوارقهم الفردية قدرة أكبر علـى التكيـف بالظروف الجديدة، التي لا بد للنوع أن يعيش فيهـا، وعـدد آخر فوارقه الفردية تجعل من العسير عليـه نوعـا مـا أن يعيش. والقسم الأول يكون أطول في الجملة عمـرا وأكثـر نسلاً من القسم الثاني؛ وهكذا يتطور مستوى النوع جيلاً بعد آخر في الاتجاه الملائم. وهذه العملية التـي يطلـق عليهـا "الانتخاب الطبيعي" ليست نظرية علمية بقدر ما هي نتيجـة حتمية لحقائق التوالد والفوارق الفردية. قـد تكـون هنـاك عوامل كثيرة تعمل عملهـا فـي تبـديل النـوع أو إبادتـه أو صيانته، دون أن يتنبه العلم إليها إلى اليوم أو يبت فيهـا برأي، ومع ذلك فالرجل الذي يتأتى له أن ينكر سريان عملية الاختيار الطبيعي هذه في الحياة منذ بدايتها؛ لا بد أن يكـون إما جاهلاً بالحقائق الأولية للحياة، وإما غير أهـل للتفكيـر العادي.

ولكثير من رجال العلم آراء وتأملات، ونظر حول البداية الأولى للحياة، وغالبا ما تكون نظراتهم تلك عظيمـة النفـع، ولكن أحدا منهم لم يصل إلى أي معلومات باتة محـددة، ولا

فرض علمي يركن إليه عن الصورة التي بدأت بها الحيـاة. على أن جميع الثقات يكادون يجمعون على أنها ربما ابتدأت على الطين أو الرمل بالمياه الدفيئة الضحلة القليلة الملوحـة، والمعرضة لنور الشمس، وإنها امتدت على السواحل حتـى بلغت منطقة تعاقب المد والجزر، ثم إلى خارج ذلـك مـن المياه المكشوفة.

كان ذلك العالم الغابر عالم مد وجزر، وتيـارات قويـة، ولابد أن إبادة الأفراد لم تكن تقف عند حد قذف التيارات لها إلى الشواطئ ثم جفافها هناك، أو عن طريـق دفعهـا إلـى عرض البحر، وغرقها فيه في غـور، لا تصـله الشـمس ولا الهواء. وكانت الظروف الباكرة تلائم كل تطـور يتجـه إلى تثبيت الجذور والبقاء، وتشجع أي اتجاه لتكـوين قشـرة خارجية وغلاف يقي الفرد المتخاف علـى الشـاطئ شـر الجفاف المفاجئ. ومنذ البداية البعيدة كان أي اتجاه شـعوري للذوق يجر الفرد إلى ناحية الطعام، وأي اتجاه شعوري إلـى الضوء يهديه إلى التخاص من الظلمة فـي أعمـاق البحـر ومجاهله، أو إلى التلوي فرارا مـن التـوهج الشـديد فـي الأضحال[1] الخطرة.

([1]) الأضحال جمع ضحل؛ وهو الماء القليل الغور.

ولعل أول المحارات والدروع الواقية لأجسام الكائنات الحية؛ كانت وقايات لها من الجفاف لا من أعدائها، ولكن لوحظ أن الأسنان والأظافر تظهر في حقبة مبكرة من تاريخ الأرض.

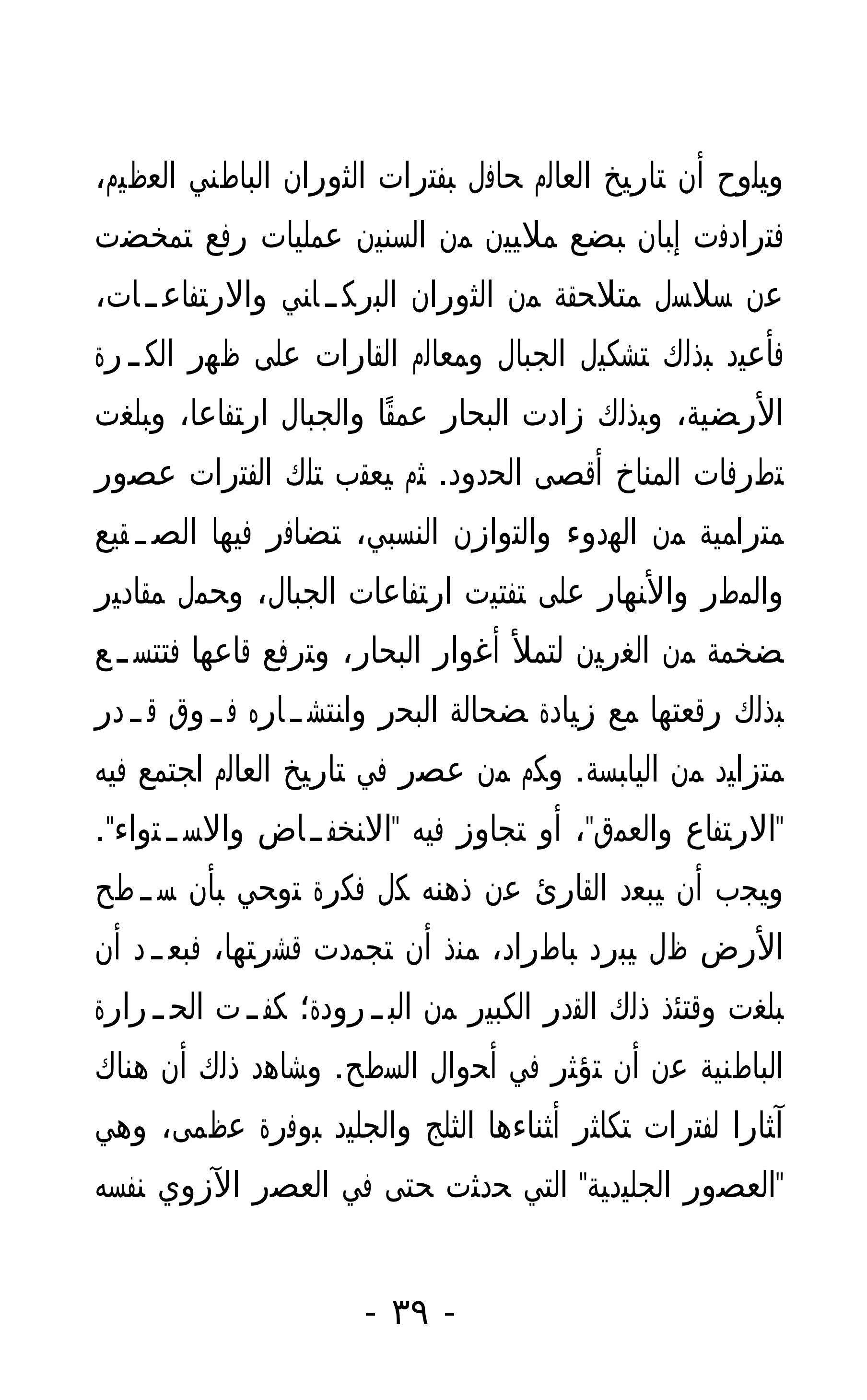
وقد سبق أن ذكرنا حجم العقرب المائية الأولى. وانقضت عصور طويلة، ومثل هذه المخلوقات هي صاحبة السيطرة في الحياة. ثم يظهر بعد ذلك في قسم من الصخور الباليوزوية يسمى بالقسم السيلوري Silurian، (الذي يعتقد كثير من الجيولوجيين اليوم أن عمره ٥٠٠ مليون سنة)؛ طراز جديد من الكائنات مزود بالأعين والأسنان، والقدرة على السباحة بشكل قوي لم يسبق له مثيل؛ ذلك الطراز الجديد أول ما نعرف من الحيوانات ذوات العمود الفقري، وهو أقدم "الأسماك"؛ أول الفقاريات المعروفة.

الفصل الخامس

عصر مستنقعات الفحم

كانت اليابسة أثناء عصر الأسماك هذا خالية من الحيـاة تماما كما هو واضح؛ فإن شـوامخ الصـخور والأراضـي الجبلية المرتفعة الجرداء كانت تسبح في أشعة الشمس ومياه المطر، أما التربة بمعناها الصحيح فلم تكن موجودة؛ إذ لـم توجد حتى آنذاك أي ديدان أرضـية تسـاعد علـى تفتيـت جزئيات الصخور، وتحولها إلى تربة، كما أنه ليس هناك أثر مطلق لطحلب أو عشب بحري. وكانت الحياة لا تزال تلازم البحر وحده.

وتناولت هذا العالم الصخري الأجرد عوامـل تغيـرات عظيمة في المناخ. وأسباب هذه التغيرات المناخية في غايـة التعقيد، كما أنها لا تزال بحاجة إلى مـن يقـدرها التقـدير الصحيح. ولعل من أسباب ذلك تغير شـكل مـدار الأرض، والتزحزح التدريجي في ميل محور الدوران، وتغير أشـكال القارات، بل ربما أيضا ما ألم بحرارة الشمس من تقلبـات؛ لعل هذه الأسباب مجتمعة قد تضافرت تـارة علـى غمـر مساحات واسعة من سطح الأرض بالبرد والجليد إبان أحقاب طويلة من الزمن، وتارة أخرى علـى نشـر منـاخ دفـيء أو معتدل أمد ملايين من السنين على سطح هـذا الكوكـب.



ويلوح أن تاريخ العالم حافل بفترات الثوران الباطني العظيم، فترادفت إبان بضع ملايين من السنين عمليات رفع تمخضت عن سلاسل متلاحقة من الثوران البركـاني والارتفاعـات، فأعيد بذلك تشكيل الجبال ومعالم القارات على ظهر الكـرة الأرضية، وبذلك زادت البحار عمقًا والجبال ارتفاعا، وبلغت تطرفات المناخ أقصى الحدود. ثم يعقب تلك الفترات عصور مترامية من الهدوء والتوازن النسبي، تضافر فيها الصـقيع والمطر والأنهار على تفتيت ارتفاعات الجبال، وحمل مقادير ضخمة من الغرين لتملأ أغوار البحار، وترفع قاعها فتتسـع بذلك رقعتها مع زيادة ضحالة البحر وانتشـاره فـوق قـدر متزايد من اليابسة. وكم من عصر في تاريخ العالم اجتمع فيه "الارتفاع والعمق"، أو تجاوز فيه "الانخفـاض والاسـتواء". ويجب أن يبعد القارئ عن ذهنه كل فكرة توحي بأن سـطح الأرض ظل يبرد باطراد، منذ أن تجمدت قشرتها، فبعـد أن بلغت وقتئذ ذلك القدر الكبير من البـرودة؛ كفـت الحـرارة الباطنية عن أن تؤثر في أحوال السطح. وشاهد ذلك أن هناك آثارا لفترات تكاثر أثناءها الثلج والجليد بوفرة عظمى، وهي "العصور الجليدية" التي حدثت حتى في العصر الآزوي نفسه

(مع شدة قدمه). ولم تتمكن الحياة من الانتشار من الماء إلى اليابسة بطريقة فعالة حقًا إلا عند قرب نهاية عصر الأسماك، في فترة كثرت فيها البحار والمستنقعات الفسيحة الضـحلة، ولا شك أن الأنماط الأولى من الأشكال التي بدأت عندئذ في الظهور بوفرة كبيرة؛ ظلت تتطور قبل ذلك تطورا نادرا خفيا إبان عشرات ملايين من السنوات، ولكن ها قد وافـت الآن فرصتها.

ولا شك أن النباتات سبقت الأشكال الحيوانية في غزوهـا هذا لليابسة، ولكن الراجح أن الحيوانات تعقبت خطى النبات في هجرته. وأول مشكلة وجب على النبات حلها هي مشكلة الحصول على عماد صلب يدعم خويصاته[1] Fronds التي يدفع بها نحو ضياء الشمس، عندما تنسحب المياه التي يطفو عليها. والمشكلة الثانيـة هـي صـعوبة الحصـول علـى الماء – الذي لم يعد آنذاك قريبا في متنـاول اليـد - مـن الأرض الموحلة في أسفل إلى أنسجة النبـات. وقـد حلـت المشكلتان بنشوء الألياف الخشبية التي صلب بها عود النبات

([1]) الخويصات Fronds وتسمى أيضا الفروئات هي نباتات بدائية لـم يتمايز فيها الساق من الورق؛ فهي سيقان ورقية أو متورقة.

وأوصلت الماء إلى أوراقه، وعلى حين بغتة يكتظ سجل الصخور بأضرب جمة من النباتات الخشبية للمستنقعات، كان الكثير منها ضخم الحجم، كالطحالب الشجرية الكبيرة والسراخس الشجرية وأشجار الأموسخ[1] الهائلة وما أشبهها، وسايرت زحف هذه النباتات من الماء عصرا بعد عصر أضرب كثيرة من الأشكال الحيوانية؛ مثل أم أربعة وأربعين، والدود ذو الألف رجل، وأوائل الحشرات البدائية، ثم مخلوقات قريبة الشبه بالنوع العتيق المسمى ملك الكبوريا[2] King-Crab والعقارب البحرية التي تحولت إلى أقدم العناكب والعقارب الأرضية، وسرعان ما وجدت حيوانات فقارية.

([1]) الأمسوخ هو ما يسمى بذيل الفرس.

([2]) هو عنكبوت بحري عجيب له درع على شكل حدوة الحصان، وهو آخر من تبقى من فصيلته.

وكان بعض الحشـرات الأولـى كبيـرا جـدا. فهنـاك رعاشات[1] (Dragon Files) ربما بلغ امتداد جناحيها تسعا وعشرين بوصة.

وقـد اسـتطاعت هـذه الرتـب (orders) والأجنـاس (genera) الجديدة أن تكيف نفسها بطرق مختلفـة لتـنفس الهواء. وكانت الحيوانات حتى ذلك الحـين تتـنفس الهـواء الذائب في الماء، والحق أن ذلك نفسـه هـو مـا لا تـزال الحيوانات جميعا مضطرة أن تفعله. ولكن مملكة الحيوانـات كانت قد شرعت عند ذلك أن تكتسب، بطرائق منوعة، القدرة على تزويد نفسها بما يعوزها مـن رطوبـة حيثمـا دعـت الحاجة؛ فإن رجلاً له رئة جافة تماما لا منحاة له اليوم مـن الاختناق؛ إذ لا بد لسطوح رئته من أن تكون رطبة لكي ينفذ الهواء من خلالها إلى دمه. والتكيف لتنفس الهواء قوامه في جميع الحالات أحد أمرين؛ فإما أن يتكون للخياشيم القديمـة الطراز غطاء يوقف عملية البخر، وإمـا أن تنشـأ أنابيـب أو مسالك أخرى جديدة للتنفس، تندس فـي صـميم الجسـم

([1]) وتسمى بالسيرمان أيضا؛ وهي حشرة زاهية الألوان ذات إشـعاع شفافة الجناحين.

وترطبها إفرازات مائية؛ ذلك أن الخياشيم القديمة التي كـان السمك الذي يعد سلفًا للسلالة الفقارية يتنفس بها؛ كانت غير صالحة للتنفس على البر. وقد حدث في هذا القسم من مملكة الحيوان أن مثانة العوم هي التي أصـبحت عضـوا جديـدا متأصلاً للتنفس هو الرئـة. والحيوانـات المعروفـة باسـم البرمائيات (وهي الضفادع وسمندل الماء الحالية) تبدأ حياتها في الماء، وتتنفس بالخياشيم؛ ثم يحدث بعد ذلـك أن الرئـة تتولى عملية التنفس؛ إذ تتطور على نفس النمط الذي يحـل بمثانات العوم عند كثير من الأسماك؛ كنمو في الزور شـبيه بالكيس، فيبرز الحيوان إلى الأرض، وتضـمحل الخياشـيم وتختفي شقوق الخياشيم (تختفي جميعا إلا نتوءا فـي شـق واحد من شقوق الخياشيم، يصـبح فتحـة الأذن وطبلتهـا)، وعندئذ لا يستطيع الحيوان البرمائي أن يعيش إلا في الهواء، ولكن لابد أن يعود إلى حافة الماء على الأقل لكـي يبـيض بيضه وينتج نوعه.

وكانت جميع الفقاريات المتنفسة للهواء في هذا العصـر (عصر المستنقعات والنباتات) تنتسب إلى فصيلة البرمائيات، وكلها تقريبا أشكال ذات قربى بسمندل لعصر الراهن، كمـا كان بعضها يصل إلى حجم ضخم. حقًا إنها كانت حيوانـات برية؛ غير أنها حيوانات برية تحتاج إلـى أن تعـيش فـي الأماكن الرطبة والمستنقعات وبالقرب منها، وكانـت جميـع الأشجار الكبرى في ذلك العصر برمائية هي الأخرى؛ مثـل حيوانه تماما، ولم يكن شيء منها قد أنتج حتى ذلك الحـين ثمرا ولا حبا يمكن أن يقع على الأرض وينبت بدون مساعدة أي رطوبة إلا ما قد يجلبه الندى والمطر؛ إذ لم يكن أمامهـا فيما يلوح مفر من أن تسقط أبواغها spores [1] في الماء إن قدر لها أن تتوالد.

ومن أمتع نواحي ذلك العلم الجميل ("التشريح المقارن")؛ اهتمامه بتعقب التكيفات المعقدة المدهشة التي حدثت للكائنات الحية وفق ما يستلزمه العيش في الهواء؛ فجميـع الكائنـات الحية - سواء منها الحيوانية أو النباتية - إنما هي قبل كـل

([1]) البوغ: spore جسم (أو "بذرة") مفرد الخلية منـتج بغيـر نشـاط جنسي.

شيء كائنات مائية. مثال ذلك أن جميع ما يعلو الأسماك من الحيوانات الفقارية العليا في تصاعدها، حتى تشمل الإنسـان نفسه؛ تمر أثناء تطورها داخل البيضة أو في الـرحم قبـل الميلاد؛ بمرحلة تكون لها فيها شقوق خياشيم تنمحـي قبـل خروج الجنين.

والعين التي هي في السمكة عارية متصلة بالماء، يمنعها من الجفاف في الأشكال الحيوانية العليا جفون وغدد تفـرز الرطوبة، وتموجات الصوت الخافتة في الهواء تخلق الحاجة إلى طبلة للأذن. وإنك لتلاحظ في كل عضو مـن أعضـاء الجسم تقريبا تعديلات وتكييفات مماثلة لهـذه، فضـلاً عـن توفيقات أخرى مماثلة لمواجهة الهواء وظروفه.

وكان عصر الطبقات الفحمية (Carboniferous) هـذا (أي عصر البرمائيات) عصر حياة في المستنقعات والبرك، وعلى الشطوط المنخفضة في تلك المياه، وكـان هـذا هـو أقصى انتشار بلغته الحياة. فأما التلال والمرتفعـات فكانـت لا تزال مقفرة تماما من كل حياة. لقد تعلمت الحياة أن تتنفس الهواء، ولكن كانت لا تزال متأصلة في الماء موطنها الأول، وكان عليها أن ترجع إلى الماء للتوالد وتنتج سلالة نوعها.

الفصل السادس

عصر الزواحف

مرت فترة وفرة الكائنات الحية لعصر تكـوين الطبقـات الفحمية، وجاءت في أعقابها دورة مترامية من عصـور جفاف وعسرة، ويمثلها في سجل الصخور رواسب سـميكة من الحجر الرملي وأضرابه؛ الحفريات فيها قليلة نسبيا؛ ذلك أن درجة حرارة العالم كانت تتقلب تقلبا شديدا، فثمـة آمـاد طويلة من الزمهرير القارس، ترتب عليها هلاك تلك الـوفرة الشديدة من نباتات المستنقعات فوق مساحات واسـعة مـن الأرض، حتى إذا غطتها الرواسب الأحدث عهدا؛ بدأت فيها عملية الضغط والتمعدن[1] التي منحت العالم معظم رواسـب الفحم في هذا العصر.

ولكن الحياة إنما تتعرض لأسرع التعديلات أثناء فتـرات التغير، كما أنها إنما تتلقى أثمن ما تتعلم مـن دروس إبـان المحن والشدائد. حتى إذا ارتـدت الأحـوال نحـو الـدفء والرطوبة؛ وجدنا سلسلة جديـدة مـن الأشـكال الحيوانيـة والنباتية قائمة متأصلة، ووجدنا في السجل بقايـا حيوانـات فقارية تبيض بيضا لا يتفتح عن أبي ذنيبـات تحتـاج إلـى

(1) التمعدن أو المعدنة أو التفلز: اكتسـاب الأشـياء غيـر المعدنيـة خصائص المعادن.

العيش فترة ما في الماء؛ بل هو شيء ارتقى في سلم التطور قبل الفقس إلى مرحلة تقارب صورة الفرد التام الناضج من أبناء جنسه، فربما يستطيع الصغير معه أن يعيش في الهواء منذ اللحظة الأولى التي ينفصل فيها ويستقل بوجوده. لقد ذهبت الخياشيم تماما، ولم تظهر شقوق الخيشوم إلا كمرحلة من مراحل الجنين.

هذه المخلوقات الجديدة المجردة من مرحلة الذنيبات هي الزواحف. وصحب تطورها تطور للأشجار الحاملة للبذور، والتي كانت تستطيع أن تنشر بذورها دون حاجة إلى المستنقع أو البحيرة. فكانت هناك آنذاك حزازيات شبيهة بالنخيل، وكثير من أشجار المخروطيات الاستوائية، وإن لم يوجد حتى ذلك الحين نباتات ذات أزهار ولا عشب.

كان عناك عدد عظيم من السراخس، وتزايد كذلك في ضروب الحشرات وأنواعها؛ فكانت هناك الخنافس، وإن لم يكن النحل قد ظهر بعد ولا الفراشات. ولكن لا شك أن الدعامة الأساسية لجميع الأشكال الجوهرية لحيوانات ونباتات جديدة أرضية؛ قد وضعت حقًا أثناء هذه العصور المترامية من العسر والشدة. ولم يكن يعوز هذه الحياة الجديدة على اليابسة إلا شيء واحد هو الظروف الموائمة لازدهارها وانتشارها.

وجاءت تلك الظروف وأخذت قساوة الجو تخف عصـرا بعد عصر، ومع كثير من التقلبات، وتكاتفت حركات القشرة الأرضية التي لم تبرح تتعاقب بغير حصر، وتغيرات مـدار الأرض، وتقلب زاوية الميل المتبادل بين المـدار والمحـور زيادة ونقصانًا، وراحت تعمل جميعها علـى إيجـاد فتـرة عظيمة من الدفء الواسع النطاق. ويروي العلماء اليـوم أن تلك الفترة دامت في مجملها ما يربو على مائتي مليون مـن الأعوام. وهي تسمى باسم الزمن الميزوزوي؛ تفريقًا لها عن الزمنين الآزوي والباليوزوي السابقين لها، والمتفوقين عليها تماما في الضخامة (ومجموعهما ألف وأربعمائة مليون سنة) وتمييزا لها أيضا عن الزمن الكاينوزوي (أي فتـرة الحيـاة الجديدة) الذي جاء بين نهايتها وعصرنا الراهن، كمـا أنهـا تسمى أيضا باسم عصر الزواحف؛ بسبب تسلط هذا الشـكل من أشكال الحياة فيها، وكثرة أضربه إلى حد يبعـث علـى الدهشة. وقد انتهى ذلك العصر منذ حوالي ثمانين مليونًا من السنين.

وأجناس الزواحف قليلة نسبيا في العالم اليـوم، كمـا أن توزيعها فيه محدود جدا. نعم إنها أكثر تنوعا من القلة القليلة الباقية من أعضاء رتبة البرمائيات التـي كانـت صـاحبة السلطان في العالم في عصر الرواسب الفحمية؛ إذ لا يـزال لـدينا الثعـابين والترسـة البحريـة والسـلاحف البريـة (Chelonia)، والتمساح الأمريكي (Alligator)، والتماسيح العادية والسحالي[1]، وكلها بلا استثناء مخلوقات تحتاج إلـى الدفء على مدار السنة؛ فهي لا تستطيع أن تتحمل التعرض للبرد، والراجح أن جميع زواحف الزمن الميـزوزوي قـد كابدت الأهوال لنفس هذا السبب. كانت حيوانات مما ينمـو في البيوت الزجاجية الدافئة، تعيش بين نبات مما يربى فـي تلك البيوت الزجاجية نفسها. فلم تكن تتحمل صقيعا. ولكـن العالم كان قد وصل إلـى حيـوان ونبـات الأرض الجافـة الحقيقي، والمختلف تمامـا عـن حيـوان ونبـات الطـين والمستنقعات في العصر السابق من عصور ازدهار الحيـاة على سطح الأرض.

وكان جميع أنواع الزواحف المعروفة لنا الآن أكثر عددا

([1]) السحالي: Lizzads دويبة ملساء تمشي مشيا سـريعا ثـم تقـف، وتسمى أيضا العظايـة والعظـاة، وجمعهـا عظـاء وعظايـات (المترجم).

في تلك العصور، فهناك ترسات وسلاحف كبيرة، وتماسـيح ضخمة وكثير من السحالي والثعابين، ولكن كان هناك عـدا ذلك عدد من عائلات من المخلوقات العجيبة التي اختفت الآن تماما من هذه الأرض. فثم أنواع جمة من كائنـات تسـمى الدناصير: (العظايا المهولة). وكان النبات قـد شـرع فـي الانتشار حينئذ فوق ما في العالم من المستويات المنخفضـة. فتكاثر القصب (البوص) وآجام السرخس وما ماثلها؛ وفـي هذه الوفرة من الخيرات أخذت جمهرة غفيرة من الزواحـف المقتاتة بالأعشاب (Herbivorous) تعيش وترعى، وأخـذ حجمها يتزايد باطراد كلما تقدم الـزمن الميـزوزوي إلـى ذروته. ومن هذه الوحوش ما تفوق في حجمـه علـى كـل حيوان بري عاش على ظهر البسيطة قبلها؛ فهـي تضـارع الحيتان في حجمهـا فكانـت العظـاءة مزدوجـة العـاتق (الديبلودوكس كارنيجاي Diplodocus Carnegii) مـثًلا تمتد أربعة وثمانين قدما من البوز إلى الذيل، كما أن العظاءة الماردة (الجيجانتوصور) كانت أكبر منها أو تكاد؛ إذ كـان طولها مائة قدم، وكان يعيش على هذه الوحوش حشـد مـن العظايا المهولة (الدناصير) آكلـة اللحـوم (Carnivorus) المتناسبة معها حجما. وكثير من الكتب تصور أحد أفراد هذا النوع؛ وهو العظاية الجبارة (التيرانصور)، وتصفه بأنه قـد بلغ الغاية في شناعة الزواحف.

وبينما كانت هذه المخلوقات الضخمة ترعى وتتعقب بعضها بعضا بين السيقان الورقة (Fronds)، والنباتات الدائمة الخضرة للآجام الميزوزوجية؛ إذا قبيلة أخرى من الزواحف تطورت أطرافها الأمامية حتى أصبحت تشبه المضرب (ولا وجود لها الآن) تتأثر الحشرات وتتعقب بعضها البعض، بادئة بالوثب والهبوط، ثم طائرة بعد ذلك بين أغصان الغابة وسيقانها الورقة، وتلك هي التيروداكتيل (أي ذو الإصبع المجنح)[1].

وهو أول الكائنات الطيارة ذات العمود الفقري، ووجوده يشير إلى فوز جديد أحرزته القوى النامية للحيوانات الفقارية.

([1]) وهي إحدى الحفريات: زاحفة طيارة لها جمجمة كبيرة كجمجمة الطير، وغشاء للطيران يتصل بالإصبع الخامس الطويل.

وفضلاً عن ذلك فإن بعض الزواحف أخذت في العـودة إلى مياه البحر؛ فإن طوائف ثـلاث مـن كائنـات كبيـرة سباحة عادت إلى انتجاع البحر الذي خرجت منه أسـلافها؛ هي عظايا نهر المـوز (الموسوصـور)، وأشـباه العظايـا (البلسيوصور)، وعظايا البحـر المنـدثرة (الإخثيوصـور). وبعض هذه يقارب في حجمه حيتاننا الراهنـة، ويلـوح أن الإخثيوصور كان حيوانًا تام القدرة على ارتياد البحر، ولكن البلسيوصور طراز من حيوان ليس له الآن ما يماثله؛ فجسمه كان بدينًا ضخما له مجاديف عريضة، مكيفـة إمـا للسـبح أو الزحف في المستنقعات، أو فوق قـاع الميـاه الضـحلة. أما الرأس الصغيرة نسبيا فمنصوبة فوق رقبة كالثعبان هائلة لا تكاد تدانيها رقبة البجعة. والظاهر أن البلسيوصور كـان يعوم ويبحث عن الطعام تحت الماء، ويغتـذي كمـا تفعـل البجعة، أو يتربص تحت الماء ويختطف ما يمر به من سمك أو بهيمة.

تلك هي أهم أنواع الحياة الموجودة في البر طوال الزمن الميزوزوي؛ فهي تعتبر – بمقاييسنا البشرية - تقدما فاق كل شيء سبقها؛ إذ إنها أنتجت حيوانات برية أكبر حجما وأوسع انتشارا، وأعظم قوة ونشاطًا، وأحفل بالحيوية (كمـا يقـول الناس) من أي شيء شهده العالم قبلها. أما البحار فلم يحدث بها تقدم مماثل لذلك؛ بل ظهر تكاثر عظيم لأشكال جديدة من الحياة، فظهرت في البحار الضحلة أضرب هائلة العدد مـن مخلوقات تشبه أم الحبرزات؛ محار مقسـم إلـى تجـاويف معظمها حلزوني، وهي العمـوني[1] بأنواعـه، وللعمـوني أسلاف قديمة في بحار الزمن الباليوزوي، ولكن ها قد حـل الآن عصر مجده، غير أنه انقرض كله ولم يبق منه اليوم أي كائن يمثله، وأدنى الكائنات شبها به في الوقت الحاضر هـو النوتي اللؤلؤي[2]، الذي يعيش في المياه المدارية، ثم ظهـر بعد ذلك طراز جديد من سمك أكثر نسلاً وأشد تكاثرا، وذي قشور أخف وأرق من تلك الأغطيـة الشـبيهة بالـدرقات، والشبيهة بالأسنان التي كانت منتشرة حتى آنذاك، فأصبح هو النوع السائد في البحار والأنهار، ولا يزال كذلك إلى اليوم.

([1]) العموني Ammonites صدف حفري منسوب للإله عمون.

([2]) النوتي اللؤلؤي Nauilus صنف من الحيوانات البحرية جميل الصدف.

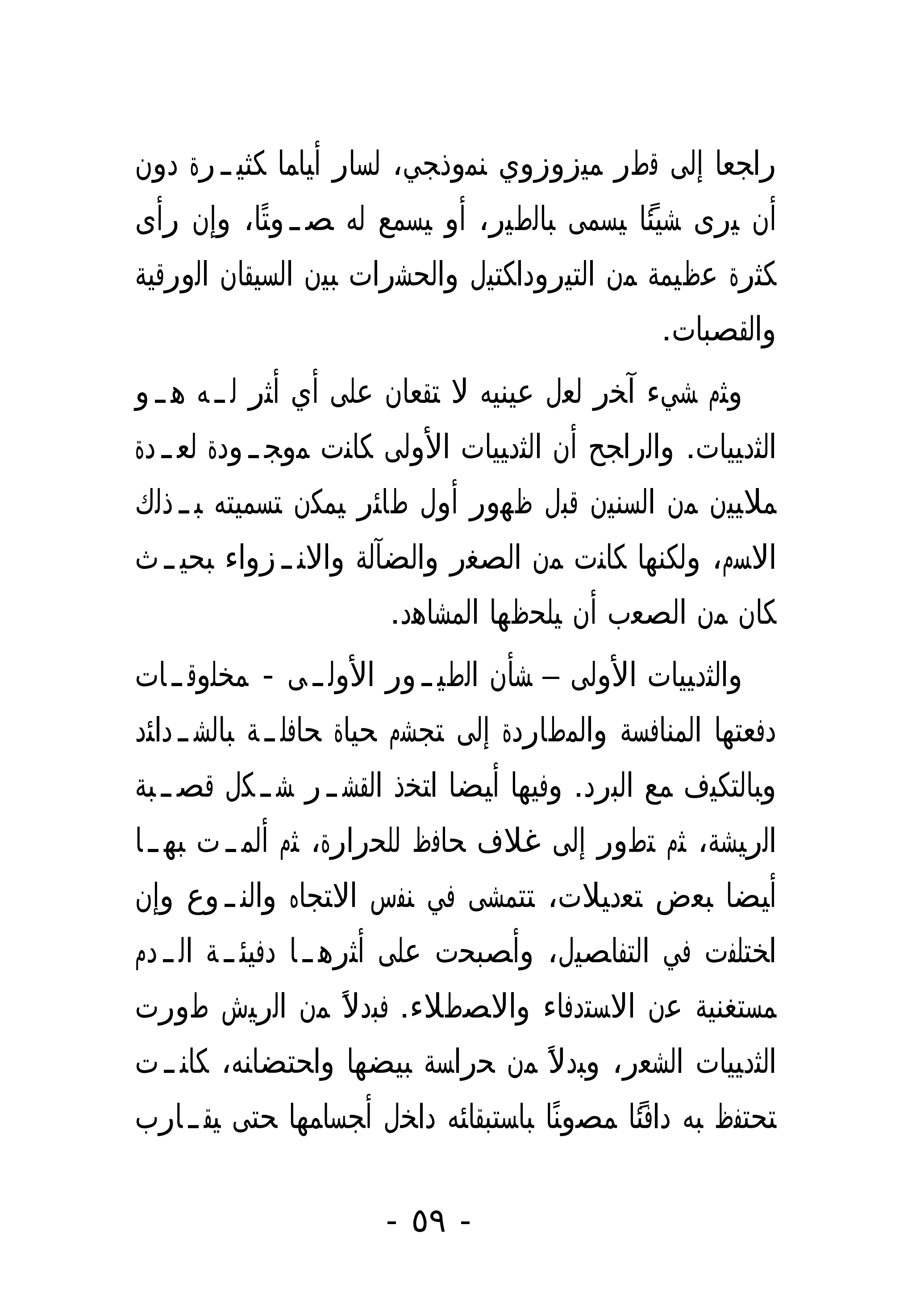
الفصل السابع

الطيور الأولى والثدييات الأولى

أوضحنا لكم في إيجاز حالة النبات الـوفير، والزواحـف الحاشدة التي كانت تمرح في ذلـك الصـيف العظـيم الأول للحياة؛ أعني الزمن الميزوزوي. وبينما كانت الدناصير تسود ذلك العصر في مراعي السـلفاس، وسـهول المسـتنقعات الحارة، والتيروداكتيل يملأ سماء الغابات برفرفة أجنحته، بل وربما يشق الجو أيضا بصـرخاته ونعيقـه، وهـو يتعقـب الحشرات الطنانة بين الشجيرات والأشجار، التي لم تزل بعد مجردة من الزهر؛ كانت أشكال حيوانية أخرى أقـل أهميـة وأدنى في عدد أشكالها تعيش على هامش هذه الحياة الوفيرة الزاخرة، وتحرز قوى خاصة، وتتعلم دروسـا معينـة مـن الاحتمال عادت على نوعها بالخير العميم، عندما حل أخيرا اليوم الذي شرعت فيه الشمس والأرض تضنان بسـماحتهما الباسمة.

والظاهر أن مجموعة مـن قبائـل وأجنـاس الزواحـف النطاطة، وهي مخلوقات صغيرة من طراز الديناصور؛ قـد أكرهتها المنافسة وتعقب الأعداء لها علـى المفاضـلة بـين أمرين؛ إما الانقراض، أو التكيف وفـق الظـروف الأكثـر برودة فوق التلال العالية، أو إلى جوار البحر. وفـي هـذه القبائل التي ابتليت بالمحن تطور طراز جديد من القشـور؛ قشور مطت فأصبحت ذات أشكال تشـبه أنابيـب الـريش، وسرعان ما تفرعت تلك الأنابيب، وأصبحت بـدايات فجـة للريش. وكانت هذه القشور الشبيهة بأنابيب الـريش ترقـد إحداها فوق الأخرى مكونة غلافًا حافظًا للحرارة أكثر مـن أي غلاف للزواحف وجد حتى ذلك الحين؛ وبذلك أتاحت لها أن تغزو المناطق الأكثر برودة، والتي كانت قبل ذلك غيـر مأهولة. وربما صحب تلك التغيرات زيادة في اهتمـام هـذه المخلوقات ببيضها، فمن الجلي أن معظم الزواحف لا تعنـى ببيضها أقل عناية؛ بل تتركه لتتولى فقسه الشـمس والوقـت المناسب، ولكن بعض أنواع هذا الفرع الجديد مـن شـجرة الحياة أخذت تكتسب عادة حراسة بيضها والمحافظـة علـى دفئه بواسطة حرارة أجسامها.

وفضلاً عن هذه التكيفات وفق البـرودة؛ كانـت تجـري تكيفات باطنية أخرى، جعلت هذه المخلوقات (وهي الطيـور البدائية) دفيئة الدم، مستغنية عن الاصـطلاء والاسـتدفاء. ويبدو أن أقدم أنواع الطير كافة كانت طيورا بحرية تعـيش على السمك، وأطرافها الأمامية لم تكن أجنحة بل مضـارب أو مجاديف تكاد تشبه مـا يوجـد فـي طـائر البطريـق. (البنجوين)، وإذا نظرت إلى طائر الكيوي النيوزيلندي؛ ذلك الطير البدائي الممعن في بدائيته؛ وجدت له ريشًا ذا طـراز بسيط جدا، ورأيته لا يطير ولا يبدو عليه أنه ينحـدر عـن سلاف طيار؛ ذلك أن الريش ظهر في عملية تطور الطير قبل الأجنحة. ولكن ما كاد الريش يتطور، حتى أصبح من المحتم أن يؤدي إمكان انتشاره انتشارا خفيفًا إلى ظهـور الجنـاح، وإنا لنعرف حفريات لطائر واحد على الأقل كانت له في فكه أسنان من نوع أسنان الزواحف، كما كان لـه ذيـل كـذيل الزواحف طويل، ولكن كان له أيضـا جنـاح طيـر حـق، ولا مراء أنه كان يطير ويقوم بشئون نفسه بين التيروداكتيل في الزمن الميزوزوي. ومع هذا فالطيور لم تكن بالمتنوعـة ولا الوفيرة في الأزمنة الميزوزوية، فلو تهيأ لإنسان أن يكر



راجعا إلى قطر ميزوزوي نموذجي، لسار أياما كثيـرة دون أن يرى شيئًا يسمى بالطير، أو يسمع له صـوتًا، وإن رأى كثرة عظيمة من التيروداكتيل والحشرات بين السيقان الورقية والقصبات.

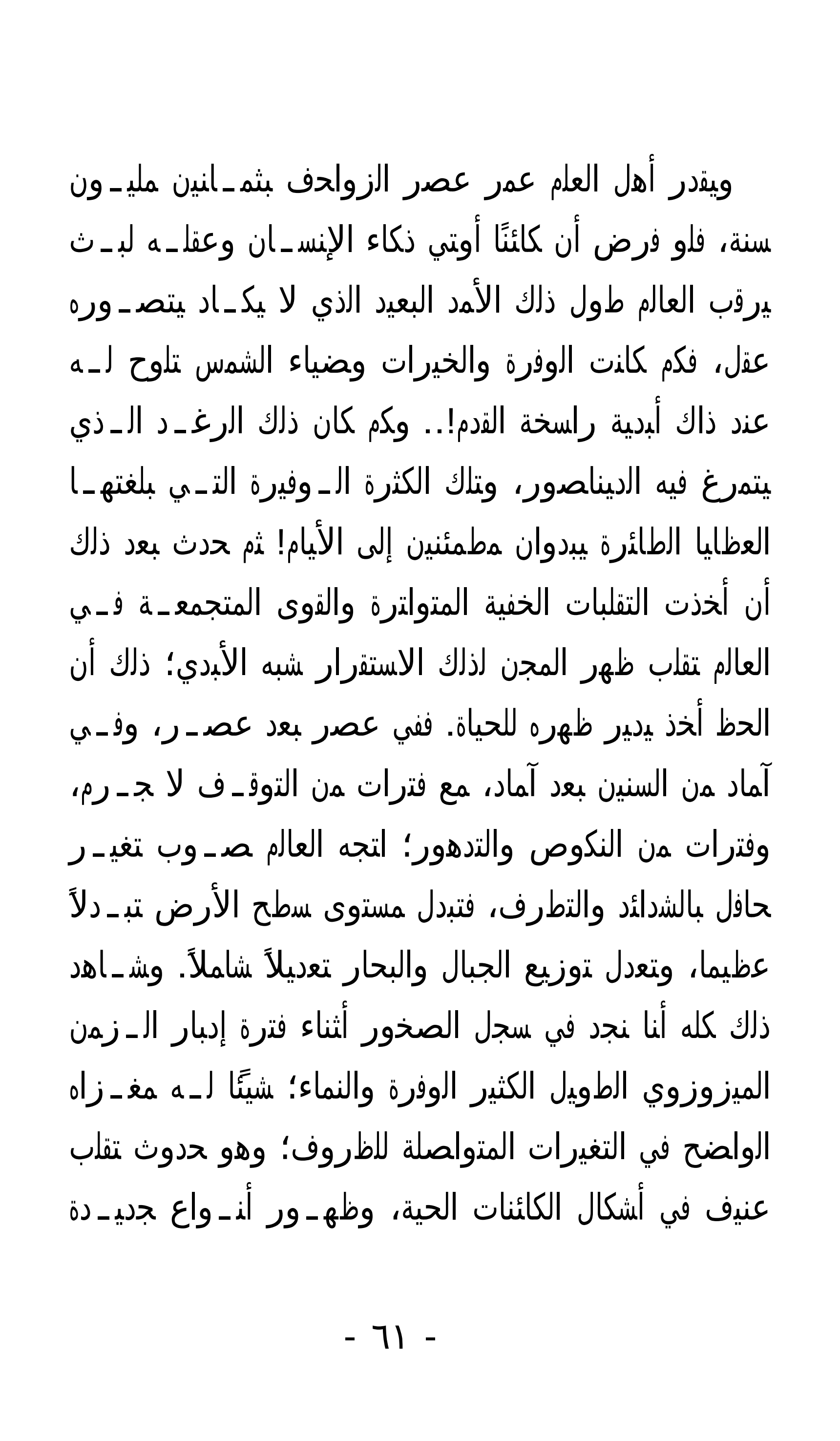
وثم شيء آخر لعل عينيه لا تقعان على أي أثر لـه هـو الثدييات. والراجح أن الثدييات الأولى كانت موجـودة لعـدة ملايين من السنين قبل ظهور أول طائر يمكن تسميته بـذلك الاسم، ولكنها كانت من الصغر والضآلة والانـزواء بحيـث كان من الصعب أن يلحظها المشاهد.

والثدييات الأولى – شأن الطيـور الأولـى - مخلوقـات دفعتها المنافسة والمطاردة إلى تجشم حياة حافلـة بالشـدائد وبالتكيف مع البرد. وفيها أيضا اتخذ القشـر شـكل قصـبة الريشة، ثم تطور إلى غلاف حافظ للحرارة، ثم ألمـت بهـا أيضا بعض تعديلات، تتمشى في نفس الاتجاه والنـوع وإن اختلفت في التفاصيل، وأصبحت على أثرهـا دفيئـة الـدم مستغنية عن الاستدفاء والاصطلاء. فبدلاً من الريش طورت الثدييات الشعر، وبدلاً من حراسة بيضها واحتضانه، كانـت تحتفظ به دافئًا مصونًا باستبقائه داخل أجسامها حتى يقـارب

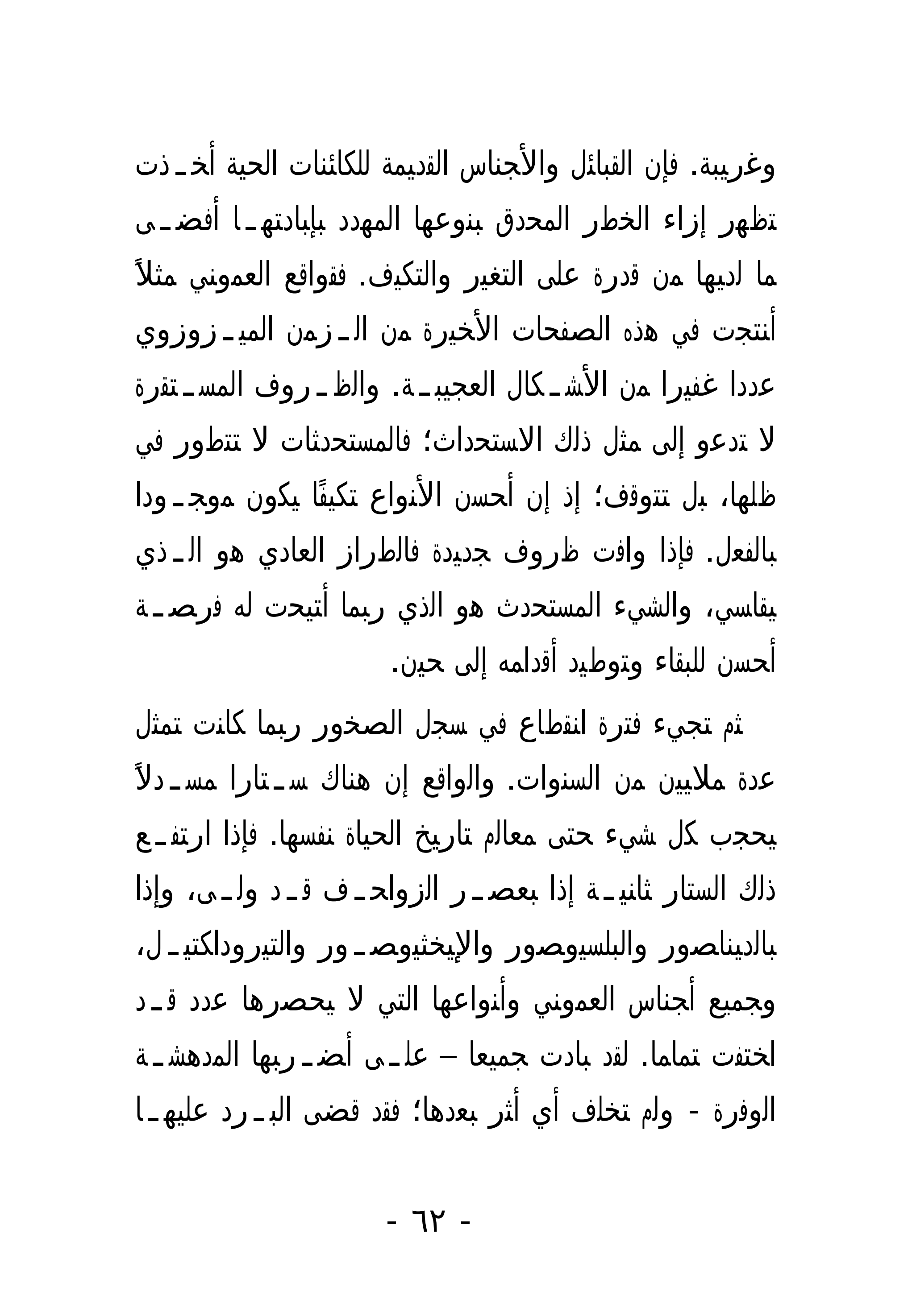
النضج، وأصبح معظمها ولودا بصفة نهائية، وأخـذ يخـرج صغاره إلى الدنيا حية، وحتى بعد ميلاد صغارها ظلت تجنح إلى الارتباط بها ارتباطًا يقوم على الوقاية والتغذيـة، وجـل الثدييات اليوم إن لم تكن كلها ذات أثداء وترضع صـغارها. ولا يزال هناك حيوانان ثدييان يبيضان البيض وليس لهمـا أثداء بالمعنى الصحيح، وإن غذيا صغارهما بـإفراز مغـذ يخرج من تحت جلدهما؛ وهما البلاتيـب البطـي المنقـار والإخيدنا[1]. والحيوان الأخير يبيض بيضا يشبه الجلد، ثـم يضعه في كيس أسفل بطنه؛ وبذلك يحمله أينما ذهب وهو في دفء وأمان حتى يفقس.

وكما أن الزائر للعالم الميزوزوي ربما بحث أياما وأسابيع قبل العثور على طائر؛ فربما اضطر أيضا إلى البحث عـن آثار الحيوان الثديي دون جدوى، ما لم يكن يعرف بالضـبط أين يبحث عنه. ولا شك أن كلاً من الطيور والثدييات كانت تبدو في العصر الميزوزوي مخلوقات غريبة الأطوار ثانوية الدرجة غير ذات أهمية.

([1]) الإخيدنا Echidna ويسمى الصلول؛ وهو حيوان مـن الثـدييات المسلكية يسكن أستراليا.



ويقدر أهل العلم عمر عصر الزواحف بثمـانين مليـون سنة، فلو فرض أن كائنًا أوتي ذكاء الإنسـان وعقلـه لبـث يرقب العالم طول ذلك الأمد البعيد الذي لا يكـاد يتصـوره عقل، فكم كانت الوفرة والخيرات وضياء الشمس تلوح لـه عند ذاك أبدية راسخة القدم!.. وكم كان ذلك الرغـد الـذي يتمرغ فيه الديناصور، وتلك الكثرة الـوفيرة التـي بلغتهـا العظايا الطائرة يبدوان مطمئنين إلى الأيام! ثم حدث بعد ذلك أن أخذت التقلبات الخفية المتواترة والقوى المتجمعـة فـي العالم تقلب ظهر المجن لذلك الاستقرار شبه الأبدي؛ ذلك أن الحظ أخذ يدير ظهره للحياة. ففي عصر بعد عصـر، وفـي آماد من السنين بعد آماد، مع فترات من التوقـف لا جـرم، وفترات من النكوص والتدهور؛ اتجه العالم صـوب تغيـر حافل بالشدائد والتطرف، فتبدل مستوى سطح الأرض تبـدلاً عظيما، وتعدل توزيع الجبال والبحار تعديلاً شاملاً. وشـاهد ذلك كله أنا نجد في سجل الصخور أثناء فترة إدبار الـزمن الميزوزوي الطويل الكثير الوفرة والنماء؛ شيئًا لـه مغـزاه الواضح في التغيرات المتواصلة للظروف؛ وهو حدوث تقلب عنيف في أشكال الكائنات الحية، وظهـور أنـواع جديـدة



وغريبة. فإن القبائل والأجناس القديمة للكائنات الحية أخـذت تظهر إزاء الخطر المحدق بنوعها المهدد بإبادتهـا أقصـى ما لديها من قدرة على التغير والتكيف. فقواقع العموني مثلاً أنتجت في هذه الصفحات الأخيرة من الـزمن الميـزوزوي عددا غفيرا من الأشـكال العجيبـة. والظـروف المسـتقرة لا تدعو إلى مثل ذلك الاستحداث؛ فالمستحدثات لا تتطور في ظلها، بل تتوقف؛ إذ إن أحسن الأنواع تكيفًا يكون موجـودا بالفعل. فإذا وافت ظروف جديدة فالطراز العادي هو الـذي يقاسي، والشيء المستحدث هو الذي ربما أتيحت له فرصـة أحسن للبقاء وتوطيد أقدامه إلى حين.

ثم تجيء فترة انقطاع في سجل الصخور ربما كانت تمثل عدة ملايين من السنوات. والواقع إن هناك سـتارا مسـدلاً يحجب كل شيء حتى معالم تاريخ الحياة نفسها. فإذا ارتفـع ذلك الستار ثانيـة إذا بعصـر الزواحـف قـد ولـى، وإذا بالديناصور والبلسيوصور والإيخثيوصـور والتيروداكتيـل، وجميع أجناس العموني وأنواعها التي لا يحصرها عدد قـد اختفت تماما. لقد بادت جميعا – علـى أضـربها المدهشـة الوفرة - ولم تخلف أي أثر بعدها؛ فقد قضى البـرد عليهـا

جميعا، ولم يغن عنها شيئًا أقصى ما استحدثته بنفسـها مـن تغييرات لعدم كفايته؛ فهي لم تصب ظروف البقاء؛ وذلك لأن العالم مر في دور من المناخ المتطرف يتجاوز قوة احتمالها؛ ومن ثم حدثت إبادة بطيئة كاملة للحياة الميزوزويـة، وهنـا نشهد أمامنا منظرا جديدا؛ إذ استولت على العالم مملكة نباتية جديدة أقوى بأسا، ومملكة حيوانية جديدة أشد قوة.

وإنه لمشهد لا يزال به أثر الزمهرير والجدب؛ ذلك الذي يفتتح به هذا المجلد الجديد من سفر الحياة، فإن الحزازيـات والمخروطيات[1] الاستوائية حلت محلها إلى حد كبير أشجار تنفض أوراقها توقيا للهلاك من ثلوج الشتاء، كما أن نباتـات وشجيرات ذات أزهار قد ظهرت، وأخذت أنواع متزايدة من الطيور والثدييات تستولي على تراث كثـرة عظيمـة مـن الزواحف.

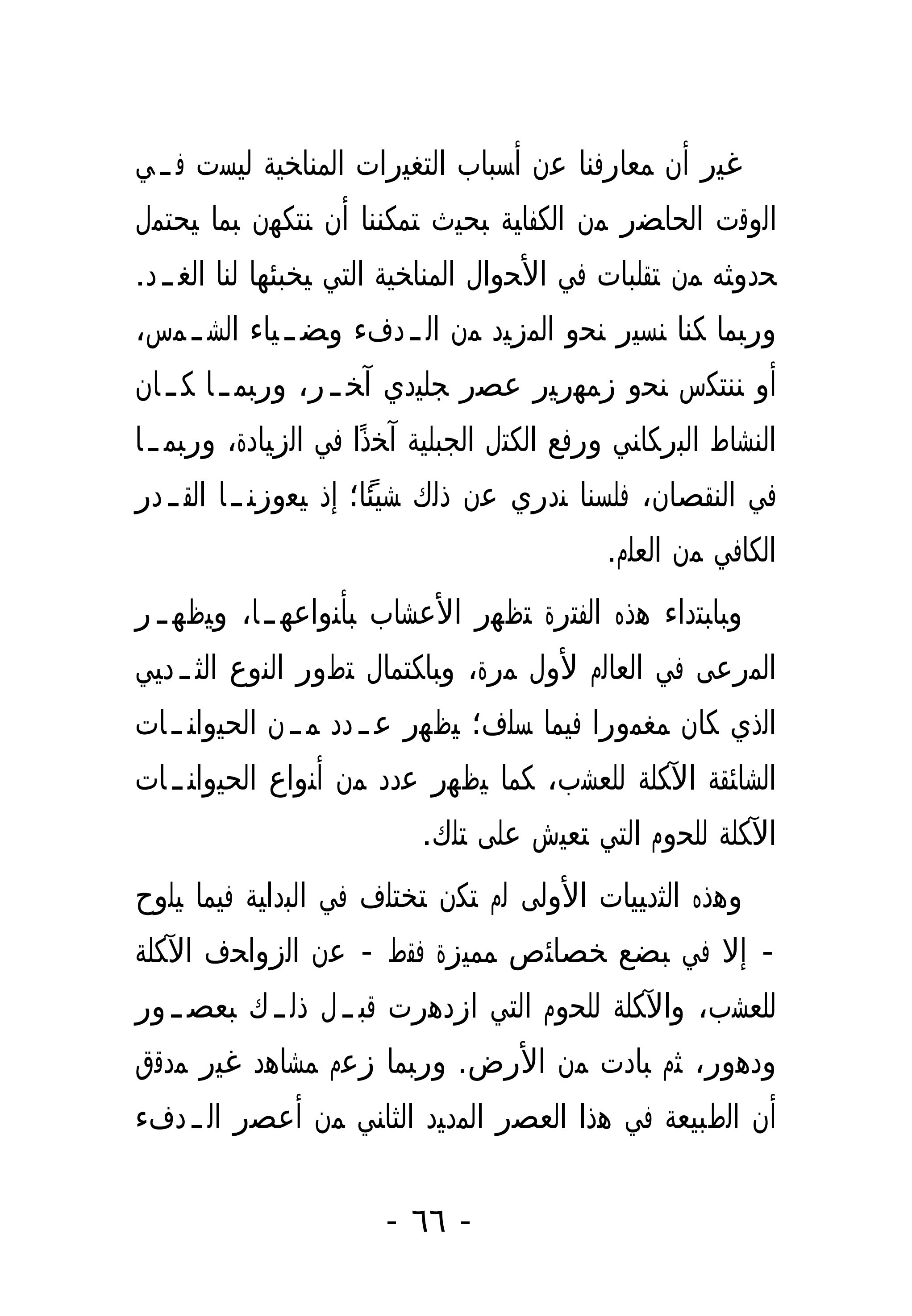
([1]) المخروطيات: Conifers قبيلة من النبات من أمثال الصنوبر.

الفصل الثامن

عصر الثديات

كان مطلع الزمن الكاينوزوي (الفترة التالية الكبرى مـن فترات حيـاة الأرض) حـافلاً بالارتفاعـات فـي القشـرة الأرضية، والنشاط البركاني الشديد؛ وذلك هو الأوان الـذي دفعت فيه إلى أعلى الكتل الجبلية الشاسعة (الألب والهمالايا)، كما رفعت سلاسل جبال روكي والأنديز، التـي يشـبهونها بالعمود الفقري؛ وذلك أيضا هو الأوان الذي ظهـرت فيـه المعالم الإجمالية لمحيطاتنا وقاراتنا الراهنة، وفي ذلك الأوان أيضا تتخذ خريطة العالم مسحة مشابهة أولية طفيفة لخريطة أيامنا هذه، وتقدر المدة التي تفصل عصرنا وأوائـل الـزمن الكاينوزوي بما يتراوح بين أربعين وثمـانين مليونـًا مـن السنين.

كان مناخ العـالم صـارما قاسـيا عنـد بدايـة الـزمن الكاينوزوي، ثم أخذ يتدرج إلى الدفء على وجـه العمـوم، حتى دخل في دور جديد من أدوار الوفرة والنماء الغزيـر، ما لبث أن تحول بعده إلى دور جديد من العسر والإمحـال، ومرت الأرض في سلسلة من الدورات المفرطة البرودة؛ هي العصور الجليدية التي يلوح أنها تخرج منها الآن ببطء.



غير أن معارفنا عن أسباب التغيرات المناخية ليست فـي الوقت الحاضر من الكفاية بحيث تمكننا أن نتكهن بما يحتمل حدوثه من تقلبات في الأحوال المناخية التي يخبئها لنا الغـد. وربما كنا نسير نحو المزيد من الـدفء وضـياء الشـمس، أو ننتكس نحو زمهرير عصر جليدي آخـر، وربمـا كـان النشاط البركاني ورفع الكتل الجبلية آخذًا في الزيادة، وربمـا في النقصان، فلسنا ندري عن ذلك شيئًا؛ إذ يعوزنـا القـدر الكافي من العلم.

وبابتداء هذه الفترة تظهر الأعشاب بأنواعهـا، ويظهـر المرعى في العالم لأول مرة، وباكتمال تطور النوع الثـديي الذي كان مغمورا فيما سلف؛ يظهر عـدد مـن الحيوانـات الشائقة الآكلة للعشب، كما يظهر عدد من أنواع الحيوانـات الآكلة للحوم التي تعيش على تلك.

وهذه الثدييات الأولى لم تكن تختلف في البداية فيما يلوح - إلا في بضع خصائص مميزة فقط - عن الزواحف الآكلة للعشب، والآكلة للحوم التي ازدهرت قبـل ذلـك بعصـور ودهور، ثم بادت من الأرض. وربما زعم مشاهد غير مدقق أن الطبيعة في هذا العصر المديد الثاني من أعصر الـدفء

والوفرة، الذي شرع يبدأ آنئذ؛ إنما كانت فقط تكرر العصـر الأول، مع قيام الثدييات الآكلة للعشب واللحوم مقابل العاشب واللاحم من الدناصير، ومع حلول الطير محل التيروداكتيل، وهكذا. على أن هذا إنما يكون مقارنة سطحية بحتة؛ ذلك أن تغير الدنيا لا ينتهي ولا يقف عند حد؛ فهو يتقدم تقدما أبديا، والتاريخ لا يعيد نفسه أبدا، وليس هناك أي متماثلات تتطابق صورها بالضبط تماما. والفروق بين صورتي الحيـاة فـي الزمن الميزوزوي وشقيقه الكاينوزوي أعمق كثيرا من أوجه التشابه.

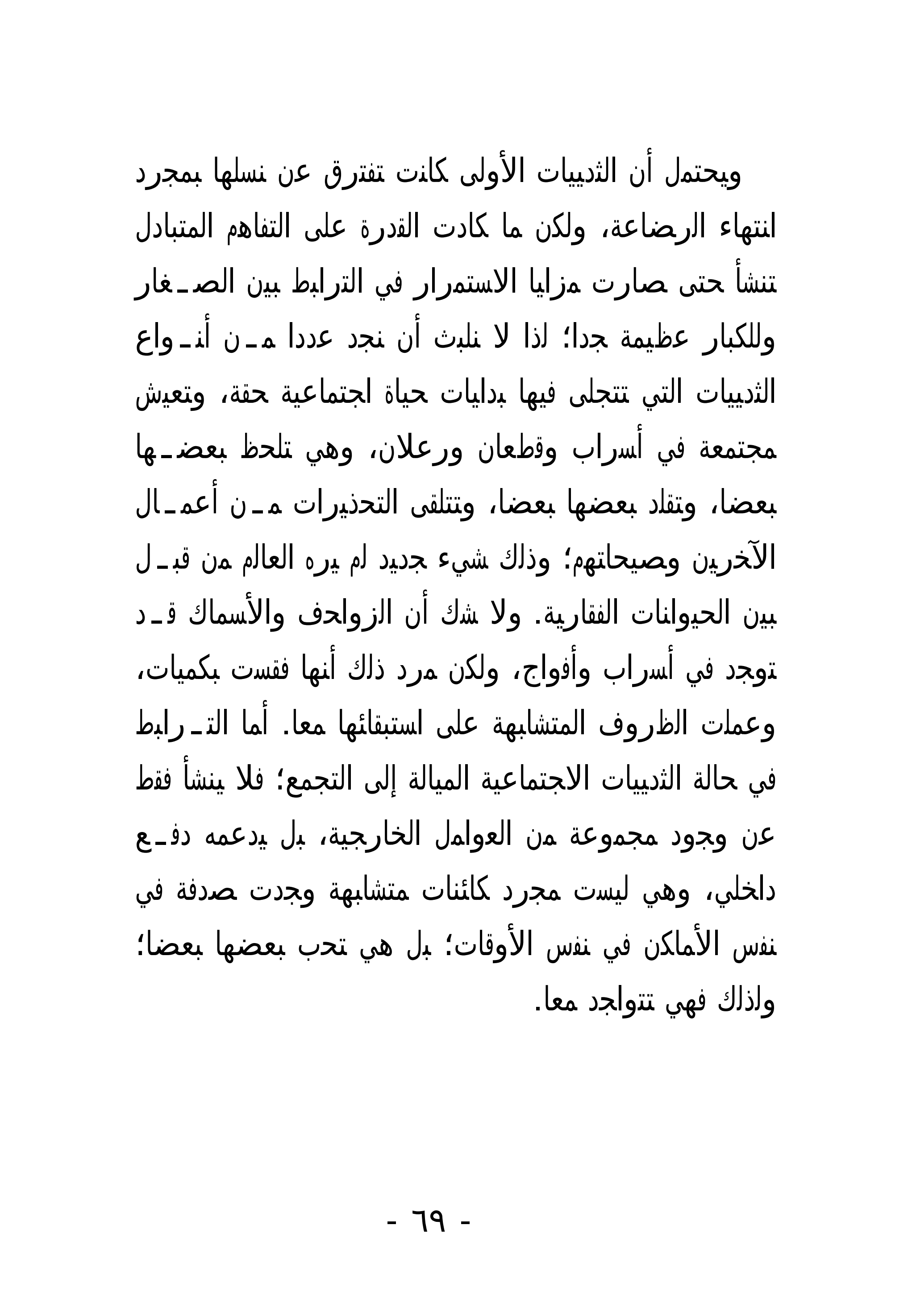
وأهم هذه الفوارق الجوهرية إنما يقوم في الحياة العقليـة للفترتين. وهو ينشأ بالضرورة عن استمرار العلاقـة بـين الوالد والولد؛ تلك العلاقة التي تميز حياة الثـدييات (وحيـاة الطيور بدرجة أقل) عن حياة الزواحف، والزواحف باستثناء القليل النادر منها تترك بيضـها يفقـس وحـده. فـالزاحف الصغير لا يعرف والديه أدنى معرفة، وحياته العقلية – كمـا هو الواقع- تبدأ وتنتهي بخبراته الخاصة، وربما سمح بوجود أبناء نوعه إلى جواره، ولكن ليس بينه وبينهـا أي اتصـال، وهو لا يقلدها أبدا، ولا يتعلم منها أبدا، كما أنه غيـر قـادر

على القيام بأي جهد مشترك معها؛ فحياته حياة فرد منعزل، ولكن نشأت مع إرضاع الصغار وتدليلهم (وهما من مميزات السلالتين الجديدتين؛ الثدييات والطيور) حالة جديـدة؛ هـي إمكان التعلم بالمحاكـاة، والتواصـل بصـيحات التحـذير، وغيرهما من الأعمال الجمعية، والهيمنة والإرشاد المشترك. لقد ظهر في العالم طراز من الحياة قابل للتعلم.

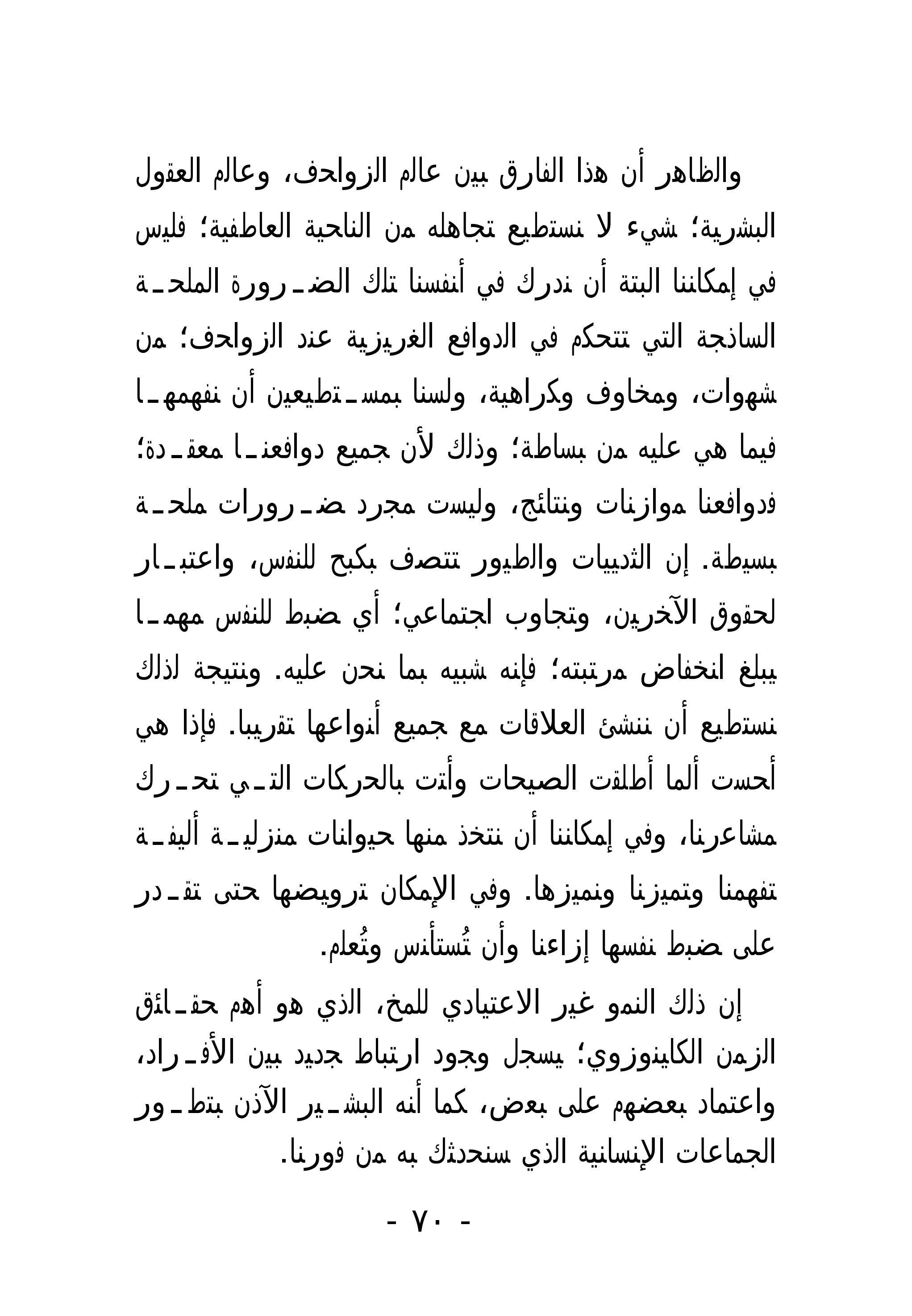
والمخ عند أقدم ثدييات الزمن الكاينوزوي لا يفـوق فـي الحجم إلا قليلاً مخ الدناصير الآكلة للحوم والأكثر نشـاطًا، ولكن كلما قلبنا صفحات السجل متجهين نحو الزمن الحديث؛ وجدنا زيادة عامة ثابتة في سعة الفراغ المخي[1] فـي كـل قبيل وسلالة من سلالات الحيوانات الثديية. مثال ذلـك أننـا نلحظ في مرحلة مبكرة نسبيا وجود وحوش تشبه الكركـدن، فإنا نجد في أبكر عهود تلك الفترة مخلوقًا هو التيتـانوثيروم؛ الراجح أنه كان شديد الشبه بالكركدن العصري فـي عادتـه وحاجاته، ولكن فراغ مخه لم يصل إلى عشر ما لخلفه الحي.

---

(1) سعة الفراغ هي حجم المخ، ومدى اتساع الجمجمة من الداخل.



ويحتمل أن الثدييات الأولى كانت تفترق عن نسلها بمجرد انتهاء الرضاعة، ولكن ما كادت القدرة على التفاهم المتبادل تنشأ حتى صارت مزايا الاستمرار في الترابط بين الصغار وللكبار عظيمة جدا؛ لذا لا نلبث أن نجد عددا من أنواع الثدييات التي تتجلى فيها بدايات حياة اجتماعية حقة، وتعيش مجتمعة في أسراب وقطعان ورعلان، وهي تلحظ بعضها بعضا، وتقلد بعضها بعضا، وتتلقى التحذيرات من أعمال الآخرين وصيحاتهم؛ وذلك شيء جديد لم يره العالم من قبل بين الحيوانات الفقارية. ولا شك أن الزواحف والأسماك قد توجد في أسراب وأفواج، ولكن مرد ذلك أنها فقست بكميات، وعملت الظروف المتشابهة على استبقائها معا. أما الترابط في حالة الثدييات الاجتماعية الميالة إلى التجمع؛ فلا ينشأ فقط عن وجود مجموعة من العوامل الخارجية، بل يدعمه دفع داخلي، وهي ليست مجرد كائنات متشابهة وجدت صدفة في نفس الأماكن في نفس الأوقات؛ بل هي تحب بعضها بعضا؛ ولذلك فهي تتواجد معا.



والظاهر أن هذا الفارق بين عالم الزواحف، وعالم العقول البشرية؛ شيء لا نستطيع تجاهله من الناحية العاطفية؛ فليس في إمكاننا البتة أن ندرك في أنفسنا تلك الضرورة الملحة الساذجة التي تتحكم في الدوافع الغريزية عند الزواحف؛ من شهوات، ومخاوف وكراهية، ولسنا بمستطيعين أن نفهمها فيما هي عليه من بساطة؛ وذلك لأن جميع دوافعنا معقدة؛ فدوافعنا موازنات ونتائج، وليست مجرد ضرورات ملحة بسيطة. إن الثدييات والطيور تتصف بكبح للنفس، واعتبار لحقوق الآخرين، وتجاوب اجتماعي؛ أي ضبط للنفس مهما يبلغ انخفاض مرتبته؛ فإنه شبيه بما نحن عليه. ونتيجة لذلك نستطيع أن ننشئ العلاقات مع جميع أنواعها تقريبا. فإذا هي أحست ألما أطلقت الصيحات وأتت بالحركات التي تحرك مشاعرنا، وفي إمكاننا أن نتخذ منها حيوانات منزلية أليفة تفهمنا وتميزنا ونميزها. وفي الإمكان ترويضها حتى تقدر على ضبط نفسها إزاءنا وأن تُستأنس وتُعلم.

إن ذلك النمو غير الاعتيادي للمخ، الذي هو أهم حقائق الزمن الكاينوزوي؛ يسجل وجود ارتباط جديد بين الأفراد، واعتماد بعضهم على بعض، كما أنه البشير الآذن بتطور الجماعات الإنسانية الذي سنحدثك به من فورنا.

وكلما انكشف لأبصارنا المزيـد مـن صـفحات الـزمن الكاينوزوي؛ تزايدت درجة المشابهة بين حيوانه ونباته، وبـين ما يقطن العالم اليوم من حيوان ونبات. أجل إن الوينتـاثيرات (Uintatheres) والتيتانوثيرات (Titanotheres) الضـخمة القبيحة الشكل قد انقرضت؛ وهي وحوش ضخمة قبيحة لـيس بين أحياء هذا العصر ما يشبهها، غير أن جماعات متسلسلة من الأشكال الحيوانية أخذت ترتقي بخطى ثابتـة متواصـلة مـن أسلاف بشعة مضحكة؛ حتى تحولت إلى زرافة عالمنا الحاضر وجمله وحصانه، وفيله وظبائه وكلابه، وأسوده وببوره[1].

أما الحصان فنشوءه وتطوره تقرأ سـطورهما واضـحة بوجه خاص في صفحات السجل الجيولوجي. فإن لدينا سلسلة كاملة نوعا ما من أشكال الحصان تبدأ فـي بكـور الـزمن الكاينوزوي بسلف صغير يشبه التابير[2]. ثم إن هناك سلسلة أخرى من سلاسل التطور تم اليوم تجميع أجزائها في شـيء من الضبط؛ هي سلسلة اللاما والجمل.

([1]) الببر وجمعه الببور Tiger: ضرب من الأسد مخطط وليس هـو النمر كما تسميه العامة.

([2]) التابير Tapir أحد الثدييات آكلة العشب يشبه الخنزيـر، موطنـه أمريكا الوسطى والجنوبية وجزائر الهند الشرقية.

الفصل التاسع

القرود والقردة[1] العليا وأشباه الإنسان

---

(1) القردة العليا هي أرقى أنواع القرود التي تشبه الإنسان، ولا ذيل لها أو تكاد.

يقسم علماء الطبيعة الثدييات إلى عدد من الرتب، ويجعلون على رأس هذه رتب الثدييات العليا التي تحتوي على الليمور والقرود، والقردة العليا والإنسان. والأصل في ذلك التصنيف هو وجود أوجه تطابق تشريحية بينها، ولا دخل فيه لأي صفات عقلية.

والواقع إن من أشق الأمور تبين معالم التاريخ القديم للثدييات العليا في السجل الجيولوجي؛ ذلك أنها في الغالب حيوانات تقطن الغابة كالليمور (الهبار)، أو القردة التي تقيم في الأماكن الصخرية الجرداء كالبابون (الرباح)، ومن ثم قلما غرق الواحد منها وغطته الرواسب، كما أن معظمها من أنواع قليلة العدد؛ ولذا لا يكثر وجودها بين الحفريات؛ كأسلاف الحصان والجمال وما إليها. ولكنا نعلم أنه حدث في عهد مبكر من الزمن الكاينوزوي (أي منذ ما يقارب الأربعين مليونًا من السنين) أن ظهرت القردة البدائية والمخلوقات شبه الليمورية الأولى، وكانت أصغر مخا وأدنى تخصصا من أخلافها المتأخرة.

وما لبثت أن دنت نهاية الصيف العالمي العظيم الذي ساد الدنيا في الزمن الكاينوزوي الأوسط. وكان مصيره مصـير الصيفين العظيمين الآخرين فـي تـاريخ الحيـاة؛ صـيف مستنقعات الفحم، والصيف الهائل الذي هو عصر الزواحف، وللمرة الثانية دارت الأرض دورتها واتجهت نحـو عصـر جليدي، فبرد مناخ العالم، ثم اعتدل فترة من الزمن، ثم تثلج مرة ثانية، وكانت أفراس البحر ترتع في الماضي الدفيء بين نباتات غضة شبه مدارية، وكان ببر هائل له ناب مثل السيف هو الببر المسيف؛ يتصيد فرائسه في المنطقة التي يـذرعها الصحفيون اليوم ذهابا وجيئة في شارع فليت بلندن[1]، ثـم جاء عصر مكفهر قارس؛ فعصور أشد بـردا وزمهريـرا؛ فأدى ذلك إلى غربلة[2] كثير من الأنـواع، وإبـادة كثيـر غيرها، وظهر في المشهد خرتيت صـوفي مكيـف للمنـاخ البارد، كما ظهر الماموث، وهو ابن عم ضـخم للفيـل، ذو صوف غزير، وظهر ثور المسك القطبي وغزال الرنة.

([1]) هو حي الصحافة بالعاصمة البريطانية.

([2]) الغربلة: التنقية وإزالة ما لا خير فيه.

ثم أخذ وشاح الجليد القطبي، وأخذ شبح الموت الثلجي في العصر الجليدي يزحف نحو الجنوب قرنًا بعد قرن، فامتد في إنجلترا حتى دانى منطقة التايمز، ووصل في أمريكا إلى نهر الأهيو، ثم جاءت آماد أكثر دفئًا، ذرعها بضـع آلاف مـن السنين، ولكن أعقبتها ارتكاسات نحو البرد المرير.

ويطلق الجيولوجيون على هـذه الأدوار الشـتوية اسـم العصر الجليدي الأول والثاني والثالث والرابع، كما يطلقون على ما بينها من فترات اسم العصور "بين الجليدية".. ونحن إنما نعيش اليوم في عالم لا يزال يـئن مـن آثـار الجـدب والجراح التي خلفها ذلك الشتاء الرهيب. والعصر الجليـدي الأول قد حل بهذه الدنيا منذ ستمائة ألف سنة؛ على حين بلغ العصر الجليدي الرابع أقصى زمهريره المرير منذ خمسـين ألف سنة تقريبا.

وفي هذا الشتاء الطويل الشامل، وبين الثلـوج القارسـة؛ عاشت على كوكبنا هذا أول الكائنات الشبيهة بالإنسان.

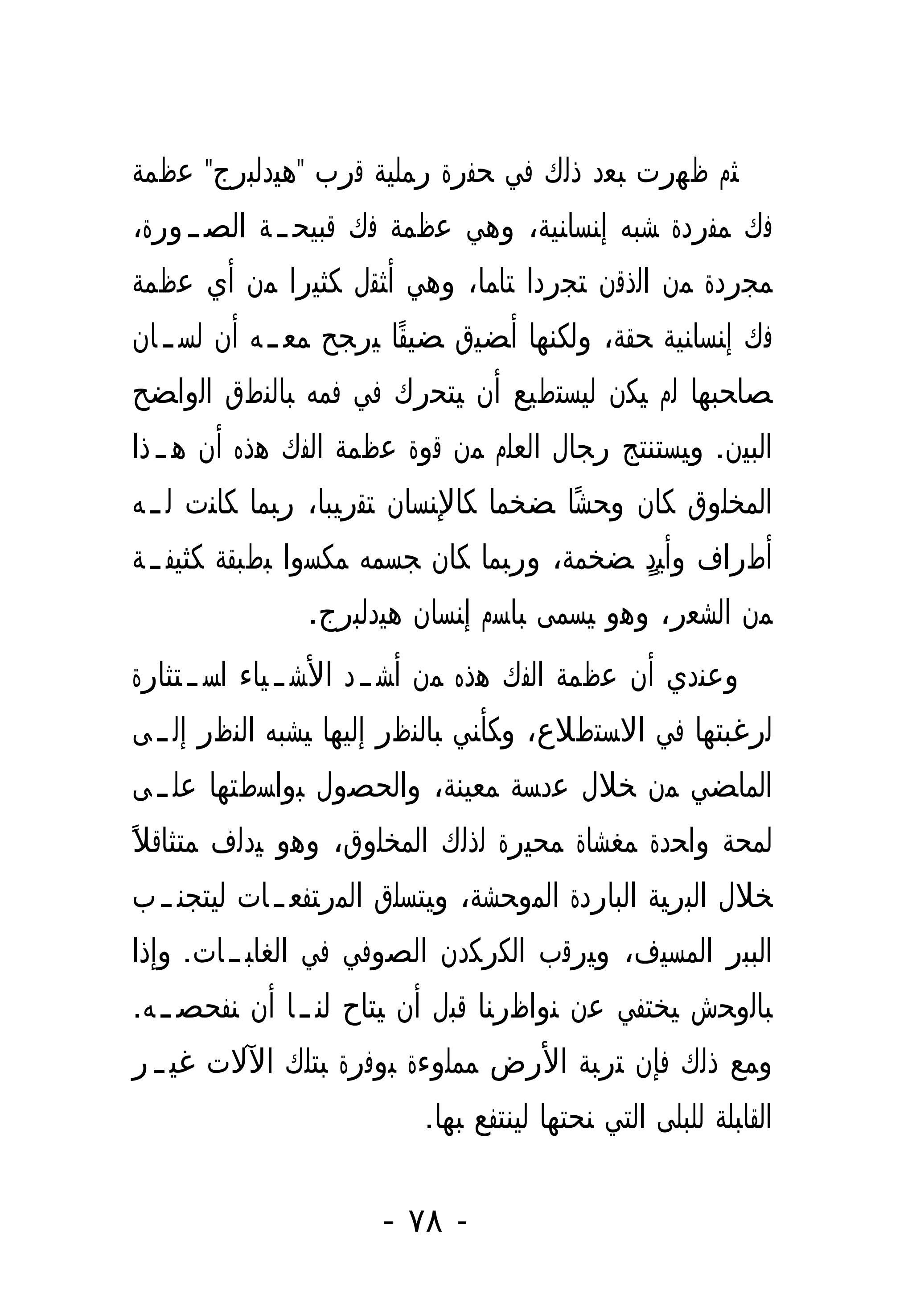
وعندما حل الزمن الكاينوزوي الأوسط؛ كانت قد ظهرت قردة عليا متعددة، ذات خواص شبه إنسانية كثيرة في الفك وعظام الساق، ولكننا لا نعثر على أي آثار لمخلوقات نستطيع أن ننعتها بأنها "إنسانية على وجه العموم"، إلا عند اقترابنا من هذه الأعصر الجليدية، وليست هذه عظاما؛ بل أدوات؛ إذ عثر المنقبون في أوروبا، في وراسب تعود إلى تلك الفترة (عمرها يتراوح بين نصف المليون أو المليون من الأعوام) على ظرانات وأحجار يتجلى فيها بوضوح أنها نحتت قصدا بيد مخلوق ذي مهارة يدوية، يريد أن يطرق أو يخدش أو يقاتل بالحد المشحوذ.

وقد سميت هذه الأشياء باسم الأدوات الحجرية الأولى (Eolihths)، وليس في أوروبا أي عظام ولا أي بقايا أخرى لذلك المخلوق الذي صنع تلك الأشياء؛ وإنما توجد الأشياء نفسها وحسب، ومهما يكن قدر ما يخالجنا من يقين أو شك في شأنه، فلعله لم يكن إلا قردا غير إنساني تماما، وإن يكن ذكيا، ولكن حدث أن أحد العلماء عثر في "ترينل Trinil" بجزيرة جاوة، وبين ركام يعود إلى ذلك العصر نفسه، على قطعة من جمجمة وأسنان وعظام مختلفة لنوع ما من إنسان

قردي، له وعاء مخي[1] أكبر من وعاء أي قرد راقٍ يعـيش الآن، ويلوح أنه كان يسير منتصف القامـة، ويسـمى هـذا المخلوق الآن باسـم الإنسـان القـردي المنتصـب القامـة (Pihecanthropus)، كما أن هذا المقـدار الضـئيل مـن عظامه هو كل ما لقيه خيالنا مـن العـون حتـى الآن فـي تصوره لصناعة الأدوات الحجرية الأولى.

ثم لا نعثر بعد ذلك في السجل على أي جزء آخـر مـن كائن شبه إنساني إلا عندما نبلغ رمالاً يقارب عمرهـا ربـع مليون سنة. ولكن الأدوات كثيرة، كما أنها تتحسـن تحسـنًا مطردا كلما تقدمنا في مطالعة صفحات السجل؛ فهي لم تعـد أدوات حجرية أولية قبيحة الصورة؛ بل هـي أدوات حسـنة المنظر صنعت بمهارة كبيرة، فضلاً عن أنها أكبر كثيرا من مثيلاتها من أدوات صنعها بعد ذلك الإنسان الحق.

([1]) الوعاء المخي (Brain Case) هو الجمجمة، وتسـمى فـي علـم الأحياء بالقحفة، ويسمى اتساعها من الداخل بالفراغ المخي.



ثم ظهرت بعد ذلك في حفرة رملية قرب "هيدلبرج" عظمة فك مفردة شبه إنسانية، وهي عظمة فك قبيحـة الصـورة، مجردة من الذقن تجردا تاما، وهي أثقل كثيرا من أي عظمة فك إنسانية حقة، ولكنها أضيق ضيقًا يرجح معـه أن لسـان صاحبها لم يكن ليستطيع أن يتحرك في فمه بالنطق الواضح البين. ويستنتج رجال العلم من قوة عظمة الفك هذه أن هـذا المخلوق كان وحشًا ضخما كالإنسان تقريبا، ربما كانت لـه أطراف وأيدٍ ضخمة، وربما كان جسمه مكسوا بطبقة كثيفـة من الشعر، وهو يسمى باسم إنسان هيدلبرج.

وعندي أن عظمة الفك هذه من أشـد الأشـياء اسـتثارة لرغبتها في الاستطلاع، وكأني بالنظر إليها يشبه النظر إلـى الماضي من خلال عدسة معينة، والحصول بواسطتها علـى لمحة واحدة مغشاة محيرة لذلك المخلوق، وهو يدلف متثاقلاً خلال البرية الباردة الموحشة، ويتسلق المرتفعـات ليتجنـب الببر المسيف، ويرقب الكركدن الصوفي في الغابـات. وإذا بالوحش يختفي عن نواظرنا قبل أن يتاح لنـا أن نفحصـه. ومع ذلك فإن تربة الأرض مملوءة بوفرة بتلك الآلات غيـر القابلة للبلى التي نحتها لينتفع بها.

وثمة بقايا أخرى أشد فتنة وغموضا وجدت في "بلتداون" بمقاطعة ساسكس، في طبقة يقدر عمرها بما يتراوح بين مائة ألف ومائة وخمسين ألفًا من السنين، وإن جنح بعض الثقـات إلى إرجاع عمر هذه البقايا بالذات إلى زمن أقدم من عظمـة فك "هيدلبرج".

وهذه البقايا هي جزء من جمجمة غليظة شـبه إنسـانية، أكبر كثيرا من جمجمة أي قردة عليا موجودة فـي الوقـت الحاضر، ومعها عظمة فك تشبه عظام الشـمبانزي، ربمـا كانت تابعة لنفس المخلوق وربما لم تكن، هذا إلـى جانـب قطعة من عظم الفيل على شكل المضرب، تتجلى فيها العناية في الصنع، وقد ثقب فيها ثقب واضح لا شك فيـه. وهنـاك أيضا عظمة فخذ الغزال، عليها قطوع وحزوز كالتي توجـد على قائم العد[1]، ثم لا شيء بعد ذلك؛ فأي نوع من الوحش كان ذلك المخلوق الذي كان يجلس ويثقب العظام؟!.

([1]) قائم العد أو عصا الحساب: Tally؛ قطعة من الخشب تخدش فيها خدوش للدلالة على الأرقام.

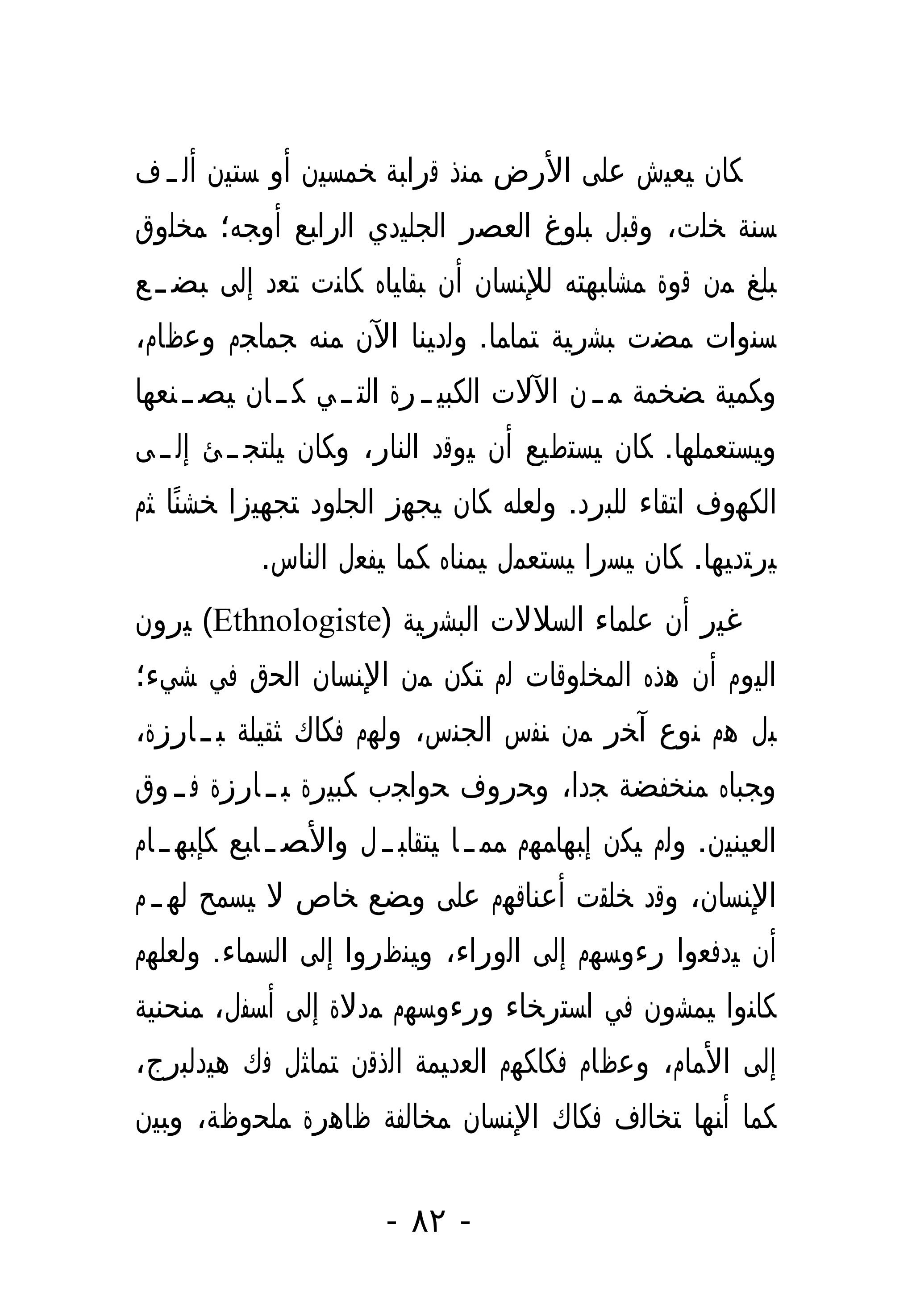
لقـــد ســـماه رجـــال العلـــم باســـم إنســـان الفجـــر (Eoanthropus)، وهو يختلف عن ذوي قرباه؛ فهو مخلوق مختلف جدا عن المخلوق الهيدلبرجي، وعـن أي قـرد راقٍ آخر يعيش اليوم، وليس هناك أي بقايا أخرى تماثـل ذلـك الكائن، غير أن الحصباء والرواسب التي انقضى عليها مائة ألف سنة فصاعدا تزداد غنى بما يكشف فيها كل يـوم مـن آلات الظران وما شابهه من أحجار. ولم تعـد هـذه الآلات مجرد "أدوات حجرية أولية" غير مهذبة؛ إذ لا يلبث علمـاء الآثار (الأركيولوجيون) أن يتبينوا فيها المكاشط والمخاريز، والسكاكين، والنبال، وأحجار القذف والبلاط اليدوية..

فنحن إنما ندنو كثيرا من الإنسان، وسنصـف لـك فـي الفصل التالي أعجب هذه الأنواع المؤذنة بظهور البشـرية، وهم النياندرتاليون، القوم الـذين كـانوا تقريبـا – وليسـوا تماما - أناسا حقيقيين.

ولكن لعل من الخير أن نذكر ههنا بمنتهى الوضوح أنـه ليس بين رجال العلم من يرى أن أيا من هـذين المخلـوقين (إنسان هيدلبرج، وإنسان الفجر)؛ هو السلف المباشر للإنسان العصري، وإنما هما – مهما دنت قرابتهما - أشـكال تمـت إليه بالقربى.

الفصل العاشر

الإنسان النياندرتالي والروديسي



كان يعيش على الأرض منذ قرابة خمسين أو ستين ألـف سنة خلت، وقبل بلوغ العصر الجليدي الرابع أوجه؛ مخلوق بلغ من قوة مشابهته للإنسان أن بقاياه كانت تعد إلى بضـع سنوات مضت بشرية تماما. ولدينا الآن منه جماجم وعظام، وكمية ضخمة مـن الآلات الكبيـرة التـي كـان يصـنعها ويستعملها. كان يستطيع أن يوقد النار، وكان يلتجـئ إلـى الكهوف اتقاء للبرد. ولعله كان يجهز الجلود تجهيزا خشنًا ثم يرتديها. كان يسرا يستعمل يمناه كما يفعل الناس.

غير أن علماء السلالات البشرية (Ethnologiste) يرون اليوم أن هذه المخلوقات لم تكن من الإنسان الحق في شيء؛ بل هم نوع آخر من نفس الجنس، ولهم فكاك ثقيلة بـارزة، وجباه منخفضة جدا، وحروف حواجب كبيرة بـارزة فـوق العينين. ولم يكن إبهامهم ممـا يتقابـل والأصـابع كإبهـام الإنسان، وقد خلقت أعناقهم على وضع خاص لا يسمح لهـم أن يدفعوا رءوسهم إلى الوراء، وينظروا إلى السماء. ولعلهم كانوا يمشون في استرخاء ورءوسهم مدلاة إلى أسفل، منحنية إلى الأمام، وعظام فكاكهم العديمة الذقن تماثل فك هيدلبرج، كما أنها تخالف فكاك الإنسان مخالفة ظاهرة ملحوظة، وبين

أسنانهم والأسنان البشرية بون بعيد؛ فـإن أضراسـهم أشـد تعقيدا من أضراسنا، ومن عجب أنها أشد تعقيدا من أسـناننا وليست دونها في التعقيد؛ إذ ليست لديهم الأسـناخ الطويلـة التي لأضراسنا، وكذلك لم يكن لأشباه الإنسان هـؤلاء تلـك الأنياب التي للكائن الإنسان العادي. على أن سعة جمـاجمهم إنسانية تماما، ولكن المخ أكبر في المؤخرة، وأخفـض فـي المقدم من المخ الإنساني، وكان لمقدراتهم وملكاتهم العقليـة ترتيب آخر مغاير؛ فهم ليسوا أسلافًا للسـلالة الإنسـانية؛ إذ يختلفون عن الأرومـة الإنسـانية مـن النـاحيتين العقليـة والجسمانية.

وقد وجدت جماجم وعظام هذا النوع البائد من الإنسـان قرب نياندرتال، وبضع أماكن أخرى؛ ولذا أطلق على هـذا الجنس العجيب من الإنسان الأول اسـم إنسـان نيانـدرتال، ولعله ظل يقطن أوروبا مئات كثيرة بل آلافًا من السنين.

وفي ذلك الأوان كان مناخ عالمنا وجغرافيته مختلفين جدا عما هما عليه في الحاضر؛ فكانت أوروبا مثلاً مغطاة بجليد يمتد جنوبا حتى نهر التايمز، ويتوغل حتى ألمانيا الوسطى والروسيا، ولم يكن هناك مضيق إنجليزي (بحر المانش) يفصل بين بريطانيا وفرنسا، أما البحر المتوسط والبحر الأحمر فكانا واديين عظيمين، وربما احتوت أجزاؤهما الأكثر انخفاضا على مجموعة من البحيرات، كما أن بحرا داخليا عظيما كان يمتد من البحر الأسود الحالي عبر الروسيا الجنوبية، ويتوغل إلى آسيا الوسطى، وكانت إسبانيا وكل ما لا يغطيه الجليد فعلاً من أجزاء أوروبا؛ تتكون من مرتفعات جرداء باردة، مناخها أشد قسوة من مناخ لبرادور، ولم يكن الإنسان ليجد المناخ المعتدل إلا حين يصل إلى إفريقية الشمالية.

وكانت تنتقل عبر السهوب الباردة بأوروبا الجنوبية، بما حوت من نبات قطبي متناثر؛ مخلوقات شديدة التحمل للبرد، من أمثال الماموث الصوفي، والخرتيت الصوفي، والثيران الضخمة، وغزلان الرنة، وكلها ولا مراء تتعقب النبات نحو الشمال في الربيع، ونحو الجنوب في الخريف.

ذلك هو المشهد الذي كان الإنسان النياندرتالي يتجول بين ظهرانيه، متلقفًا من الغذاء ما كان يستطيع أن يلتقطه من أنواع الصيد الصغير، أو الفواكه والثمار والجذور، ومن المحتمل أنه كان نباتيا في معظم أمره، يمضغ العساليج والجذور؛ ذلك أن أسنانه المسطحة المحكمة توحي بغذاء يغلب فيه النبات، ولكنا نرى في كهوفه أيضا عظاما نخاعية طويلة لحيوانات كبيرة، وقد كسرت لاستخراج ما بداخلها من نخاع، ومن البديهي أن أسلحته لم تكن كبيرة الجدوى في القتال مع الوحوش الضخمة وجها لوجه، ولكن يظن أنه كان يهاجمها بالحراب عند المعابر الصعبة للأنهار؛ بل حتى يحتفر لها الحفائر ليوقعها، ويحتمل أنه كان يتعقب القطعان ويفترس أي فرد منها يموت في القتال، ولعله قام بدور ابن آوى إزاء الببر المسيف الذي كان لا يزال حيا في أيامه. ومن الممكن أن هذا المخلوق قد جنح في أثناء محن العصر الجليدي وشدائده المريرة إلى مهاجمة الحيوانات بعد عصور طويلة من التكيف للنبات.

ولسنا نستطيع أن نتخيل هيئة هذا الإنسان النيانـدرتالي، وأكبر الظن أنه كائن غزير الشعر جدا، ذو هيئة غير إنسانية حقًا؛ بل إننا لفي شك من أنه كان يسير منتصب القامة، ولعله كان يستعمل يديه بالإضافة إلى قدميه لحمل جسمه، والراجح أنه كان يضرب في الأرض بمفرده، أو في جماعات عائليـة صغيرة، ويدل تركيب فكه على عدم قدرتـه علـى الكـلام بالصورة التي نفهمها.

وقد ظل هؤلاء النياندرتاليون آلاف السنين، وهـم أعلـى ما شهدت القارة الأوروبية من حيوان، ثم حدث منذ حـوالي ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف سنة مع تقدم المناخ نحو الدفء قليلاً؛ أن نزح إلى عالم النياندرتاليين من الجنوب جنس مـن كائنات تمت إليهم بالقربى، ولكنه أكثر ذكاء وأوسع معرفـة، ثم إنه يتكلم ويتعاون بعضه مع بعـض؛ فطـردوا الجـنس النياندرتالي من كهوفه ومنتجعاته، وتصيدوا نفـس الطعـام الذي كان يأكله، ولعلهم قد قاتلوا سابقيهم هـؤلاء البشـعين وأعملوا فيهم الفناء. هؤلاء الوافدون من الجنوب أو الشـرق (فلسنا نعلم في الزمن الحاضر بلادهم الأصلية) الذين أبـادوا النياندرتاليين آخر الأمر إبادة تامة؛ كائنات من نفـس دمنـا

وجنسنا، وهم الإنسان الأول الحق، وآية ذلك أن جمـاجمهم (أوعية أمخاخهم) وإبهاماتهم وأعناقهم وأسنانهم؛ هـي مـن الناحية التشريحية نفس ما لدينا، وقد عثر الباحثون في كهف عند كرومانيون، وفي آخر قرب جريمالدي؛ على عدد مـن الهياكل العظمية؛ هي أقدم ما نعرف إلي اليوم مـن البقايـا البشرية الحقة.

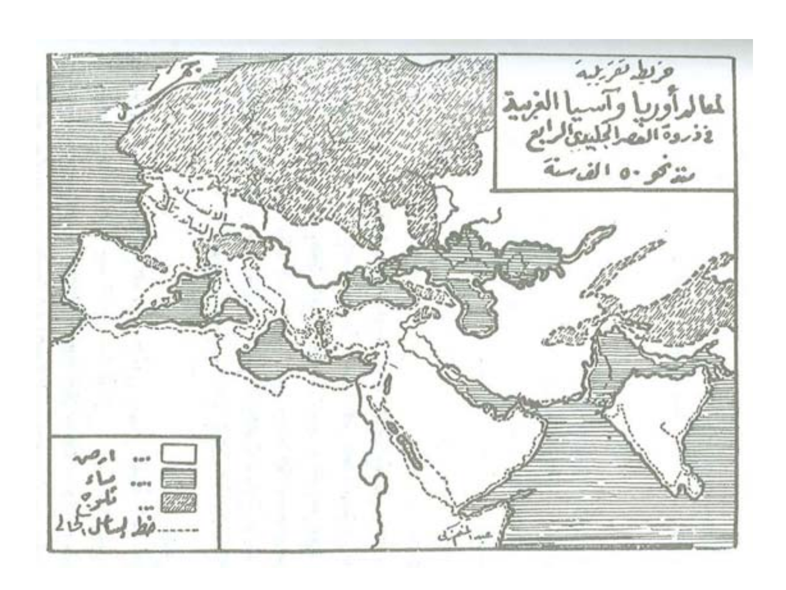
وبذلك يدخل جنسنا في سجل الصـخور، وتبـدأ قصـة البشرية.

في تلك الأيام أخذ العالم يصبح أشبه بعالمنـا، وإن بقـي المناخ شديدا قاسيا. وقد أخذت ثلاجات العصر الجليدي فـي التراجع بأوروبا، وسرعان ما أخلت غزلان الرنـة بفرنسـا وإسبانيا مكانها لأسراب عظيمة من الخيول كلما تكاثر الكلأ على السهوب، وأخذ الماموث يزداد في جنوب أوروبا، حتى تراجع في النهاية نحو الشمال تراجعا مطلقًا..

ولسنا ندري أين نشأ الإنسان الحقيقي أولاً، ولكن حـدث في صيف ١٩٢١ أن اكتشفت جمجمة بالغـة الأهميـة مـع أجزاء من هيكل عظمي قرب بروكن هل بإفريقيا الجنوبيـة؛ جمجمة يلوح أنها بقية صنف ثالث من الإنسان، وسـط فـي

خواصه المميزة بين النياندرتالي والكائن الإنسـاني الحـق، ويدل الوعاء المخي على أن مخه أكبر في المقدمة وأصـغر في المؤخرة من مخ النياندرتالي، كما أن الجمجمة منتصـبة فوق العمود الفقري على شاكلة إنسانية تماما، وكذلك الأسنان والعظام؛ فإنها إنسانية بحتة، أما الوجه فالراجح أنه كان شبه قردي، له حروف حواجب هائلة، مع بروز على امتداد وسط الجمجمة. أجل إن ذلك المخلوق إنسان حق، ولكن على وجه التقريب فقط؛ لأن له وجها نياندرتاليا شـبه قـردي. ومـن الواضح أن هذا الإنسان الروديسي أوثـق شـبها بالإنسـان الحق من الرجل النياندرتالي.

والراجح أن هذه الجمجمة الروديسـية ليسـت إلا الدفعـة الثانية من مكتشفات قد تتكون منها في النهاية قائمة طويلة من أجناس شبه إنسانية عمرت هذه الأرض، في الفتـرة الزمنيـة الهائلة الممتدة بين بدايات العصر الجليـدي، وبـين ظهـور الإنسان الحق وريثها جميعا، ولعله أيضا مبيدها جميعا، وربما لم تكن الجمجمة الروديسية نفسها مفرطة القدم؛ إذ إن العلمـاء لم يصلوا حتى يوم صدور هذا الكتاب إلى قرار دقيق بشـأن عمرها المحتمل، وربما كان هذا المخلوق شبه الإنساني يعيش في إفريقيا الجنوبية حتى أزمنة حديثة جدا.

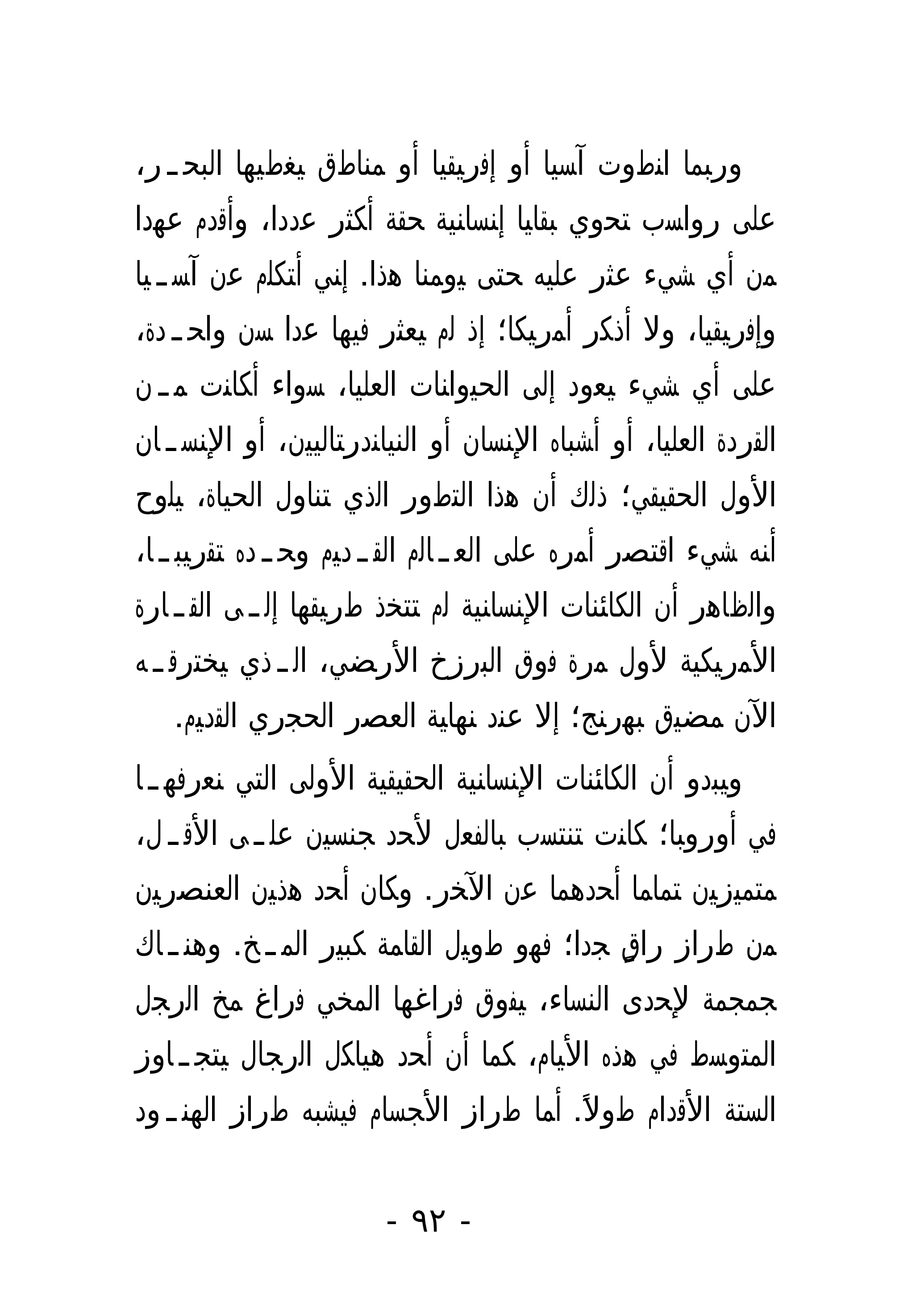

خريطة تقريبية
لمعالم أوربا وآسيا الغربية
في ذروة العصر الجليدي الرابع
منذ نحو ٥٠ ألف سنة
أرض ...
ماء ...
ثلوج ...
خط الساحل الحالي ------

الفصل الحادي عشر

الإنسان الحقيقي الأول

إن أقدم ما يعرفه العلم في زماننا هذا من العلامات والآثـار لبشر لا يتطرق الشك إلى قرابتهم لذوات أنفسنا؛ عثر عليه في أوروبا الغربية، وخاصة فرنسا وإسبانيا؛ فقد اكتشفت في كـل من هذين القطرين عظام وأسـلحة وخـدوش علـى العظـام والصخر، وقطع من العظام المحفورة، ورسوم على جـدران الكهوف، وعلى سطوح الصخور، ترجع فيما يظن إلى ثلاثـين ألف سنة أو أكثر. وإسبانيا هي في الوقت الحاضر أغنى بقـاع العالم بتلك البقايا المتخلفة عن أسلافنا من بشر حقيقيين.

ومن البديهي أن ما لـدينا فـي الوقـت الحاضـر مـن مجموعات من تلك الأشياء؛ ليس إلا قطرة من البحر الطامي الذي ينتظر جمعه مستقبلاً، يوم يتواجد العـدد الكـافي مـن المنقبين للقيام بفحص استقصائي شـامل لجميـع المصـادر الممكنة، ويوم يتاح لعلماء الآثار ارتياد بقية أقطـار العـالم الأخرى التي يحال بينهم اليوم وبين دخولها، فيفحصونها في شيء من التفصيل. فمن المعلوم أن الشطر الأكبر من إفريقيا وآسيا لم يتيسر اختراقه البتة حتى لمشاهد مدرب يهتم بهـذه الأمور، ويستمتع بحرية الارتياد، وعلى ذلك ينبغي لنـا أن نحرص الحرص كله من أن نستنتج أن الإنسان الحق الأول امتازت به أوروبا الغربية، أو أنه ظهر أولاً بتلك المنطقة.



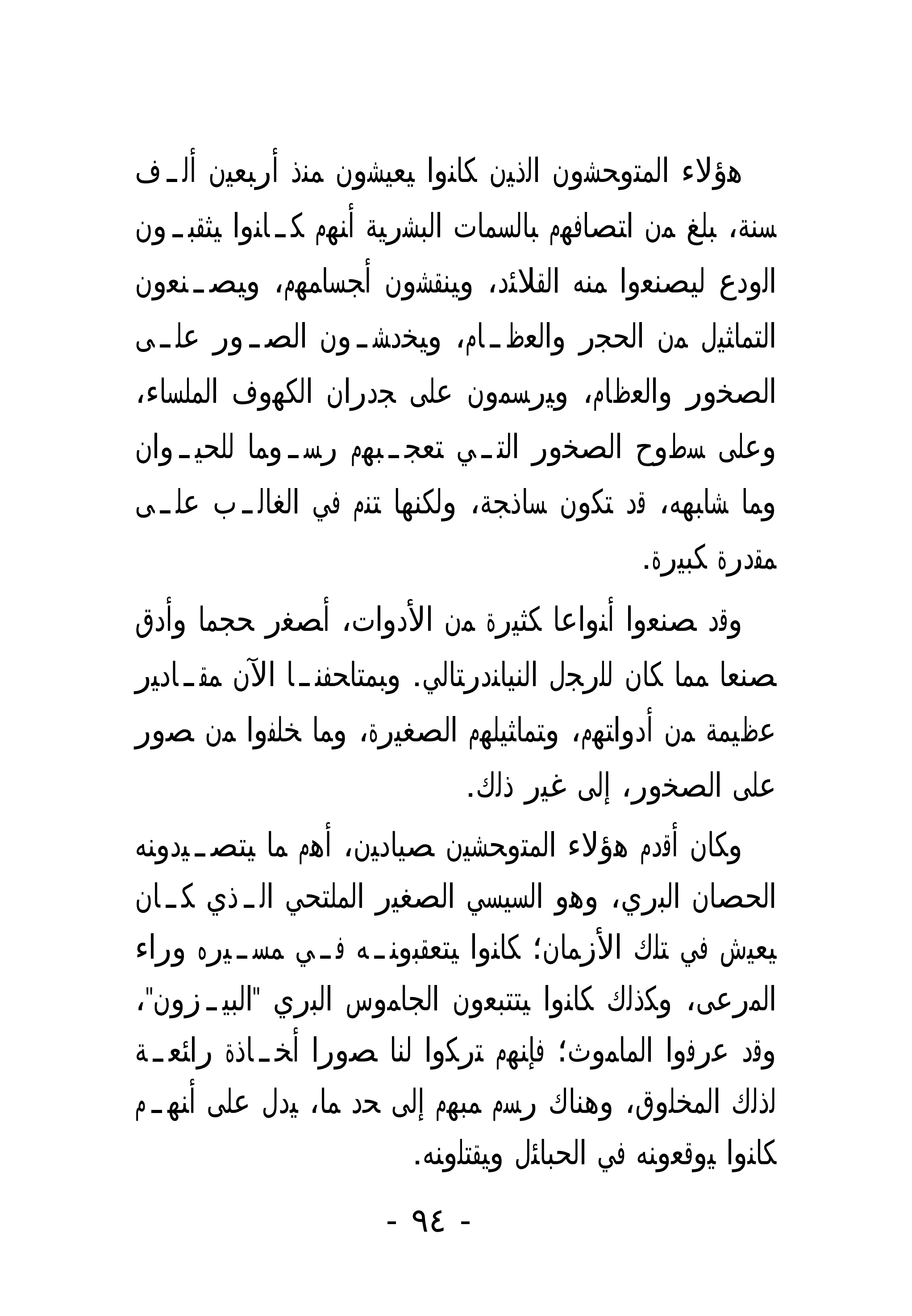
وربما انطوت آسيا أو إفريقيا أو مناطق يغطيها البحـر، على رواسب تحوي بقايا إنسانية حقة أكثر عددا، وأقدم عهدا من أي شيء عثر عليه حتى يومنا هذا. إني أتكلم عن آسـيا وإفريقيا، ولا أذكر أمريكا؛ إذ لم يعثر فيها عدا سن واحـدة، على أي شيء يعود إلى الحيوانات العليا، سواء أكانت مـن القردة العليا، أو أشباه الإنسان أو النياندرتاليين، أو الإنسـان الأول الحقيقي؛ ذلك أن هذا التطور الذي تناول الحياة، يلوح أنه شيء اقتصر أمره على العـالم القـديم وحـده تقريبـا، والظاهر أن الكائنات الإنسانية لم تتخذ طريقها إلـى القـارة الأمريكية لأول مرة فوق البرزخ الأرضي، الـذي يخترقـه الآن مضيق بهرنج؛ إلا عند نهاية العصر الحجري القديم.

ويبدو أن الكائنات الإنسانية الحقيقية الأولى التي نعرفهـا في أوروبا؛ كانت تنتسب بالفعل لأحد جنسين علـى الأقـل، متميزين تماما أحدهما عن الآخر. وكان أحد هذين العنصرين من طراز راقٍ جدا؛ فهو طويل القامة كبير المـخ. وهنـاك جمجمة لإحدى النساء، يفوق فراغها المخي فراغ مخ الرجل المتوسط في هذه الأيام، كما أن أحد هياكل الرجال يتجـاوز الستة الأقدام طولاً. أما طراز الأجسام فيشبه طراز الهنـود

الحمر بأمريكا الشمالية، وقـد سـمي هـذا الشـعب باسـم الكروماني، نسبة إلى كهف كرومانيون، الذي وجـدت فيـه أولى بقاياه. كانوا متوحشين ولكنهم متوحشون مـن طـرازٍ راقٍ.

فأما العنصر الثاني الذي عثر علـى بقايـاه فـي غـار جريمالدي؛ فكان عنصرا ذا قسمات شبه زنجية (نجريدية)[1] لا شك فيها. وأقرب الأحيـاء إليـه هـم شـعبا البوشـمن والهوتنتوت بجنوب إفريقيا. ولعله مما يثير اهتمامنا أن نجـد البشرية منقسمة فعلاً منذ ابتداء قصة الإنسان المعروفة إلـى عنصرين رئيسيين اثنين على الأقل، وقد يجمح المرء منا إلى أن يفترض بغير أساس علمي أن العنصر الأول كان علـى الأرجح أسمرا أكثر منه أسود، وأنـه جـاء مـن الشـرق أو الشمال، وأن الثاني كان أميل إلى السواد منه إلى السمرة، وأنه جاء من الجنوب الاستوائي.

([1]) النجريدي Negreis هو العنصر الذي يشابه الـزنج فـي الشـكل والقسمات، وإن لم يكن زنجيا بحتًا. (المترجم).



هؤلاء المتوحشون الذين كانوا يعيشون منذ أربعين ألـف سنة، بلغ من اتصافهم بالسمات البشرية أنهم كـانوا يثقبـون الودع ليصنعوا منه القلائد، وينقشون أجسامهم، ويصـنعون التماثيل من الحجر والعظـام، ويخدشـون الصـور علـى الصخور والعظام، ويرسمون على جدران الكهوف الملساء، وعلى سطوح الصخور التـي تعجـبهم رسـوما للحيـوان وما شابهه، قد تكون ساذجة، ولكنها تنم في الغالـب علـى مقدرة كبيرة.

وقد صنعوا أنواعا كثيرة من الأدوات، أصغر حجما وأدق صنعا مما كان للرجل النياندرتالي. وبمتاحفنـا الآن مقـادير عظيمة من أدواتهم، وتماثيلهم الصغيرة، وما خلفوا من صور على الصخور، إلى غير ذلك.

وكان أقدم هؤلاء المتوحشين صيادين، أهم ما يتصـيدونه الحصان البري، وهو السيسي الصغير الملتحي الـذي كـان يعيش في تلك الأزمان؛ كانوا يتعقبونـه فـي مسـيره وراء المرعى، وكذلك كانوا يتتبعون الجاموس البري "البيـزون"، وقد عرفوا الماموث؛ فإنهم تركوا لنا صورا أخـاذة رائعـة لذلك المخلوق، وهناك رسم مبهم إلى حد ما، يدل على أنهـم كانوا يوقعونه في الحبائل ويقتلونه.

وكانوا يصطادون بالحراب وبالقذف بالأحجار، ولا يلوح أنهم كانوا يملكون القوس، وإنا لفي شك من أنهم حتى حينذاك قد تعلموا استئناس الحيوان، ولم تكن لديهم كلاب، وهناك صورة محفورة لرأس حصان ورسم أو اثنان، كأنني بهما يمثلان حصانًا ملجما، وحوله جلد أو وتر مجدول. على أن الخيول الصغيرة في ذلك العصر وتلك المنطقة لم تكن لتستطيع أن تحمل رجلاً، ولو فرض أنهم استأنسوا الحصان، فالراجح أنهم كانوا يقودونه دون أن يركبوه. ومما نشك فيه ولا نرجحه أنهم تعلموا طريقة الاغتذاء بلبن الحيوان؛ وهي شيء غير طبيعي أو يكاد.

وليس يبدو أنهم عرفوا البناء، وإن جاز أنه كانت لهم خيام من الجلد، وهم وإن قاموا بصنع دمى من الطين فإنهم لم يرتقوا قط إلى مرتبة صنع الفخار. ولما لم تكن لهم أدوات طبخ، فلابد أن طبخهم كان بدائيا أو لا وجود له البتة. وما كانوا يعرفون عن الزراعة شيئًا، ولا شيئًا عن أي نوع من أنواع صنع السلال أو القماش المنسوج. ولولا ما كان لهم من أردية من الجلد أو الفراء؛ لجاز لنا أن نقول إنهم من المتوحشين العراة المنقوشي البشرة.

ظل هؤلاء الناس الذين هم أقدم من نعرف من البشر يتصيدون على سهوب أوروبا المنبسطة دهرا لعله مائة قرن، ثم أخذت تغيرات المناخ تفعل فيهم فعلها وتبدل من أحوالهم؛ فإن مناخ أوروبا أخذ يتحول قرنًا بعد قرن، ويصبح أكثر اعتدالاً ومطرا، فتراجع غزال الرنة نحو الشمال والشرق، وأعقبه الجاموس البري والحصان، وحلت الغابات محل السهوب، وحل الغزال الأحمر محل الحصان والجاموس البري، وظهر في الأدوات وصفاتها تغير صحب هذا التغير في استعمالاتها، وبات الصيد من الأنهار والبحيرات ذا أهمية كبرى للإنسان، وتزايدت الأدوات العظيمة الرفيعة.

يقول دي مورتليه: "إن الإبر العظمية في هذا العصر أجود كثيرا من المتأخرة عنها في الزمن، حتى ما كان منها في الأزمة التاريخية إلى عصر النهضة؛ فلم يكن للرومان مثلاً إبر يمكن مقارنتها بإبر تلك الحقبة".

ثم انتقل إلى جنوب إسبانيا منذ حوالي خمسة عشر ألف سنة شعب جديد، من آثاره صور رائعة جدا، رسمها على سطوح الصخور المكشوفة. هذا الشعب هو الأزيليون (نسبة إلى كهف ماس دازيل Masd' Azil)، وقد عرفوا القوس،

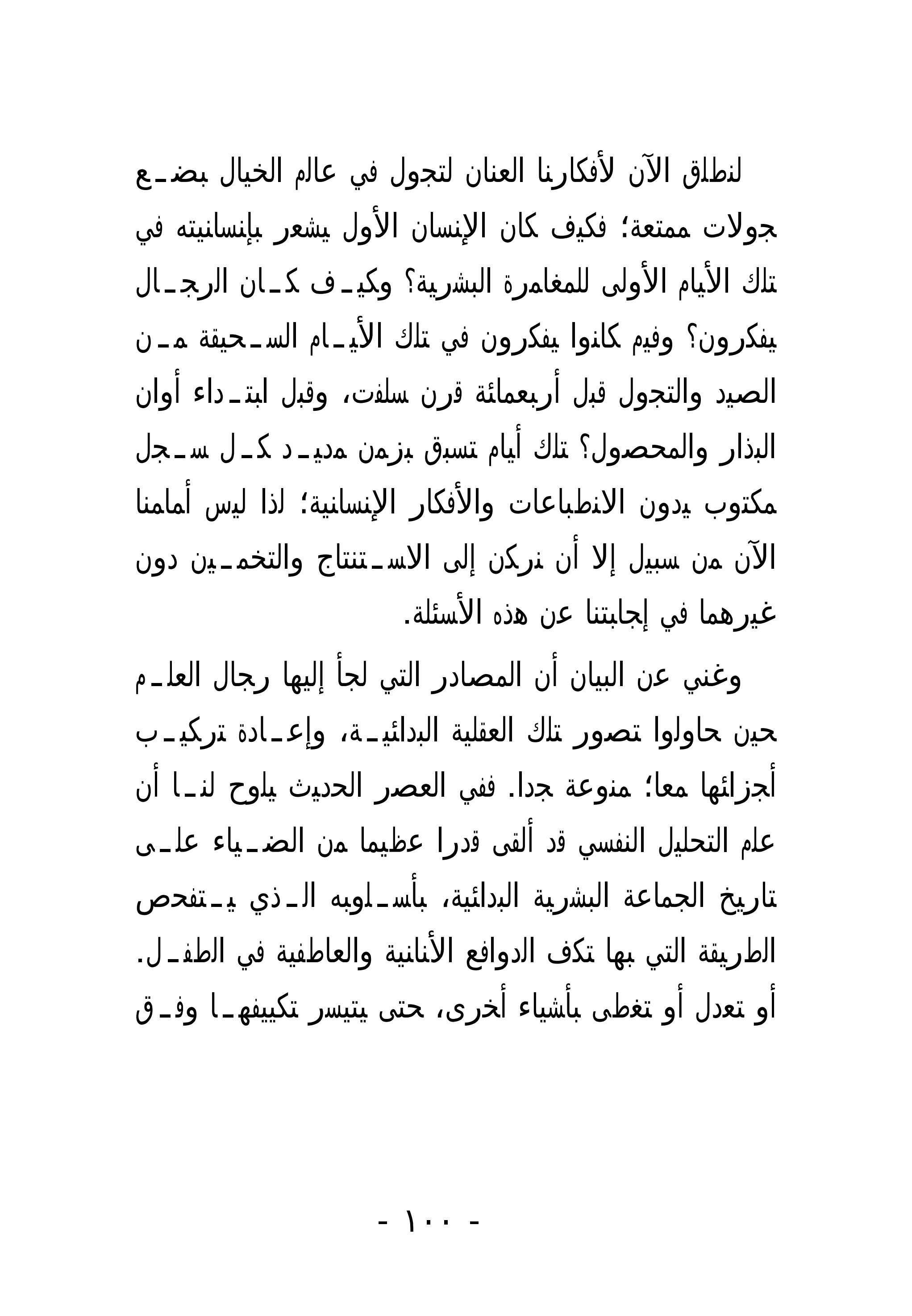
ويلوح أنهم كانوا يلبسون أغطية للرأس من الريش، وكـانوا يرسمون رسوما مشرقة، ولكنهم حولوا رسومهم إلى نوع من الرمزية؛ فالرجل مثلاً يمثل عندهم بخط رأسي من خطـين أفقيين أو ثلاثة، وفي ذلك ما فيه من تلـويح ببـزوغ فكـرة الكتابة. وكثيرا ما تجد إزاء رسوم تخطيطية تمثـل الصـيد؛ علامات كالتي على قائم العد، وثمة رسـم يمثـل رجلـين يطردان النحل من خليتهما بالدخان.

هؤلاء القوم هم آخر الأناس الذين نسـميهم البـاليوليثيين أهل العصر الحجري القديم، لمجرد أنهم نحتوا الأدوات، ثـم بزغ في أوروبا منذ عشرة آلاف أو اثنتي عشرة ألف سـنة فجر طريقة جديدة من طرق العيش؛ إذ تعلم الإنسـان لا أن ينحت الآلات الحجرية فحسب، بل أن يصقلها ويشحذها، كما أنه شرع في الزراعة؛ وبذلك أقبلت بداية حضـارة العصـر الحجري الحديث (النيوليثي).

وقد يشوق القارئ أن يعلم أنه كان هناك منذ أقل من قرن مضى في صقع ناءٍ من العالم هو جزيرة تسمانيا؛ عنصر من كائنات بشرية على مستوى من التطور الجسماني والعقلـي أخفض من أي من هذه الأجناس البشرية الأولى التي تركت آثارها في أوروبا. لقد قطع هذا الشعب التسماني عـن بقيـة الجنس البشري منذ آماد طويلة بفعل تغيرات جغرافية، كمـا قطع عن عوامل التنبيه والتحسن. ويلوح أنهم انحطوا بدل أن يتطوروا ويرتقوا، وعندما اكتشفهم المكتشفون الأوروبيـون وجدوهم يعيشون عيشًا خفيضا، مغتذين بالمحـار والصـيد الصغير، ولم تكن لهم مساكن بل منتجعات، ولا شـك أنهـم رجال حقيقيين من نفس نوعنا، ولكن تعوزهم المهارة اليدوية والمواهب الفنية التي كان الإنسان الحق الأول يتحلى بها.

الفصل الثاني عشر

الفكر البدائي



لنطلق الآن لأفكارنا العنان لتجول في عالم الخيال بضع جولات ممتعة؛ فكيف كان الإنسان الأول يشعر بإنسانيته في تلك الأيام الأولى للمغامرة البشرية؟ وكيف كان الرجال يفكرون؟ وفيم كانوا يفكرون في تلك الأيام السحيقة من الصيد والتجول قبل أربعمائة قرن سلفت، وقبل ابتداء أوان البذار والمحصول؟ تلك أيام تسبق بزمن مديد كل سجل مكتوب يدون الانطباعات والأفكار الإنسانية؛ لذا ليس أمامنا الآن من سبيل إلا أن نركن إلى الاستنتاج والتخمين دون غيرهما في إجابتنا عن هذه الأسئلة.

وغني عن البيان أن المصادر التي لجأ إليها رجال العلم حين حاولوا تصور تلك العقلية البدائية، وإعادة تركيب أجزائها معا؛ منوعة جدا. ففي العصر الحديث يلوح لنا أن علم التحليل النفسي قد ألقى قدرا عظيما من الضياء على تاريخ الجماعة البشرية البدائية، بأسلوبه الذي يتفحص الطريقة التي بها تكف الدوافع الأنانية والعاطفية في الطفل. أو تعدل أو تغطى بأشياء أخرى، حتى يتيسر تكييفها وفق

حاجات الحياة الاجتماعية[1]. وثمة مصدر آخر للاستنتاج داني القطوف؛ هو دراسة فكرات وعادات المتوحشين الذين لا يزالون يعيشون في هذا العالم. وهناك أيضا ضرب من التحفر[2] والجمود العقلي نجده في الفولكلور (الأدب الشعبي)، وفي الخزعبلات والتحيزات غير المعقولة العميقة الرسوخ في النفوس، والتي لا تزال موجودة بين الشعوب العصرية المتمدنة. ثم إن لنا في تلك الصور والتماثيل والرسوم المحفوظة والرموز، وما أشبهها مما يكثر عددا ويتزايد كلما اقتربنا من عصرنا الراهن؛ لشواهد واضحة الدلالة على ما كان الإنسان يراه مشوقًا له وجديرا بالتسجيل والتمثيل.

([1]) انظر في هذا الموضوع كتاب: "مدخل إلى علم النفس الحديث"، ترجمة المترجم؛ إن شئت تفصيلاً لنظريات التحليل النفسي.

([2]) تحول الشيء إلى حفرية من الحفريات. وهو هنا بمعنى مجازي هو التجمد والتحجر العقلي وبقاء القديم على قدمه (المترجم).

والراجح أن الإنسان البدائي كان يفكر بطريقة تشبه كثيرا طريقة تفكير الأطفال؛ أعني أنه كان يفكر في سلسـلة مـن الخيالات، فكان يستدعي إلى مخيلته الصور العقلية للأشياء، أو كانت الصور العقلية[1] تقدم نفسها لعقله، كما أنه يتصرف حسبما تمليه عليه الانفعالات التي تثيرها تلك الأخيلة؛ وذلـك هو ما يفعله في هذه الأيام طفل أو شخص غير متعلم. ومن الواضح أن التفكير المنظم إنما هو تطور متأخر نسـبيا فـي الخبرة الإنسانية، وهو لم يلعـب دورا كبيـرا فـي الحيـاة الإنسانية إلا في غضون الثلاثة الآلاف سنة الأخيرة، بل إن أولئك الذين يضبطون أفكارهم حقًا في هـذه الأيـام نفسـها وينظمونها فعلاً ليسوا إلا أقلية ضئيلة من الناس. ولا يـزال معظم الناس يتأثرون بالخيال والعاطفة.

ومن المحتمل أن أقدم ما ظهر من الجماعات البشرية إبان المراحل الأولى لقصة الإنسان الحق؛ كانـت تتكـون مـن مجموعات عائلية صغيرة. وكما أن قطعان ورعائل الثدييات الأولى نشأت عن عائلات ظلت بعضـها مـع بعـض ثـم تكاثرت، فمن المحتمل أيضا أن القبائل الأولى قد فعلت مثـل

([1]) الصور العقلية images؛ وهي الأخيلة (المترجم).

ذلك. ولكن قبل حدوث ذلك، كان الأمـر يقتضـي أن تقيـد بصورة ما أنانيات الفرد البدائية. وكان لا بد من بسط فكرتي "الخوف من الأب واحترام الأم"، حتى تـتغلغلا فـي حيـاة الكبار، وكان لا بد من تخفيف غيرة الرجل الكهل الطبيعيـة من ذكران الجماعة الصغار عندما يكبرون. وكانت الأم من الناحية الأخرى هي الناصح الطبيعـي والحـامي الفطـري للصغار. وقد تولدت الحياة الاجتماعية الإنسانية عن طريـق التفاعل بين الغريـزة الفجـة التـي تـدفع الصـغار إلـى الانفصال وتكوين أزواج من أنفسهم عندما يشـبون، وبـين ما يتعرضون له من أخطار العزلة ومضارها. وهناك عـالم من علماء الأجناس البشرية (Anthropology) أوتـي عبقرية عظيمة هو "چ. چ أتكنسون"؛ راح في كتابه "القانون البدائي" يوضح إلى أي حد يمكن نسبة القانون العرفي لـدى المتوحشين (وهو تلك المحظورات "Tabns" التـي هـي حقيقة بارزة في الحياة القبلية) إلى ذلك التوفيق العقلي بـين حاجات الحيوان البشري البدائي، وبين حياة اجتماعية آخـذة بأسباب التطور. وأظهرت الأيام إلى حد كبير صدق تأويلـه لهذه الأمور المحتملة، بفضل جهود علماء التحليل النفسي في الآونة الأخيرة.

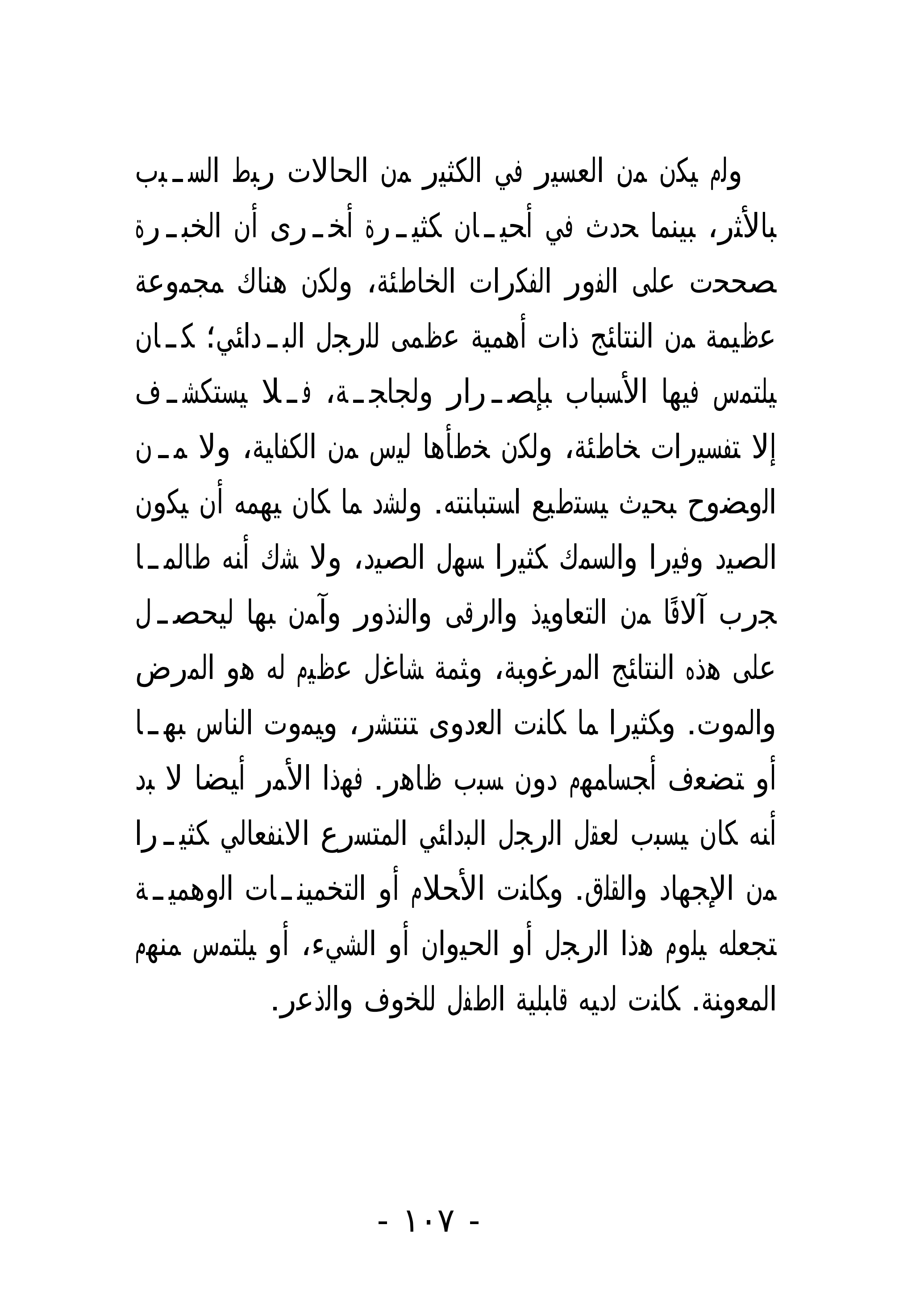
ومن الكتاب الميالين إلى إطلاق العنان لتأملاتهم؛ من يريدون منا أن نعتقد بأن احترام الرجل العجوز والخوف منه، والانفعال العاطفي الذي يحسه المتوحش البدائي إزاء العجائز المسنات اللواتي يتولين حمايته (وهي وجدانات تزيدها الأحلام شدة، ويضاعفها عبث الأوهام والأخيلة)؛ كانت مصدر شطر عظيم من بدايات الديانة البدائية، ومن فكرة الأرباب والربات. ومما يرتبط بهذا الاحترام للشخصيات القوية أو القادرة على المساعدة؛ شعور بالرهبة أو التوقير لهذه الشخصيات بعد وفاتها، يرجع إلى عودتها إلى الظهور في الأحلام؛ لذا كان من اليسير الاعتقاد بأنها لم تكن ميتة حقًا، وأن كل ما في الأمر أنها نقلت نقلاً وهميا إلى منتأى تستمتع فيه بقوة أعظم مما كان لها.

ومن المعلوم أن أحلام الطفل وتخيلاته ومخاوفه؛ أكثر إشراقًا وواقعية من أحلام الراشد العصري، وما كان الرجل البدائي دائما إلا طفلاً في تفكيره أو يكاد، كما أنه كان أيضا أدنى إلى الحيوانات، وكان يتصور أن لها دوافع واستجابات مثل التي له، وكان يستطيع أن يتخيل هناك حيوانات معاونة، وأخرى معادية وحيوانات آلهة.

ولا يحتاج الإنسان منا إلا أن يكون في صغره طفلاً واسع الخيال، ليدرك من جديد كم كانت الصخور الغريبة الشكل، أو الكتل الخشبية، أو الأشجار الشاذة الصورة وما أشبهها؛ تبـدو لأعين رجال العصر الحجري القديم مهمة وذات مغزى خطر، أو منذرة بالثبور، مظهرة للمـودة، وكيـف كانـت الأحـلام والأوهام تخلق من الحكايات والأساطير عن مثل تلك الأشياء ما كان يصبح مقبولاً ومصدقًا عنـدما يـروى. ومـن هـذه الحكايات ما يكون من الجودة بحيث يتَذكر وتُعاد روايته، وإن النساء ليروينه للأطفال وبذلك يؤسسن التقاليد، ولا يزال معظم واسعي الخيال من الأطفال يخترعون إلى يومنا هذا قصصـا طويلة بطلها دمية محبوبة، أو حيوان أثير، أو كـائن خيـالي شبه إنساني. ولعل الرجل البدائي كان- عندما يفعل مثل ذلـك مع اختصاصه - يميل أقوى كثيرا إلى الاعتقاد بحقيقة بطلـه، ومرد ذلك أن أقدم من نعرف من البشر الحقيقيين؛ ربما كانوا كائنات ثرثارة تماما، وكانوا يختلفون من هذه الناحيـة عـن النياندرتاليين، ويمتازون عليهم، فالنياندرتالي ربما كان حيوانًا أبكم. وحديث الإنسان البدائي ربما لم يرد بداهة عن مجموعة ضئيلة جدا من الأسماء، وربما كان يصدر مقتضبا مصـحوبا بالحركات والإرشادات والعلامات.

وليس من أصناف المتوحشين من يبلغ من الانحطـاط أن يكون لديه نوع من العلم بالعلة والمعلـول، ولكـن الرجـل البدائي لم يكن منقادا في ربطه السبب بالنتيجة؛ فمـا أسـهل ما كان يربط نتيجة بشيء بعيد تماما عن سببها؛ كأن يقـول: "أنت تفعل كذا وكذا فيحدث كيت وكيت"، فأنت تعطي ثمـرة لأحد الأطفال فيموت، وأنت تأكل قلب عدو مغوار فتصـبح قويا. هذان مثلان للربط بين السبب والنتيجة، وأحدهما حقيقي والثاني باطل. ونحن نسمي طريقة ربط العلة بالمعلول فـي عقل المتوحشين باسم الفتيشة[1]، ولكن الفتيشة إنما هي فقط علم المتوحشين، وهي تختلف عن العلم العصري في كونهـا لا تقوم على أي أساس من التنظيم أو التمحيص؛ فهي لـذلك خاطئة في الأعم الأغلب.

([1]) الفتيشة؛ وهي اعتقاد المتوحش أن كل شيء مادي تسكنه روح تقوم لمالك الشيء بالخدمات. (المترجم)

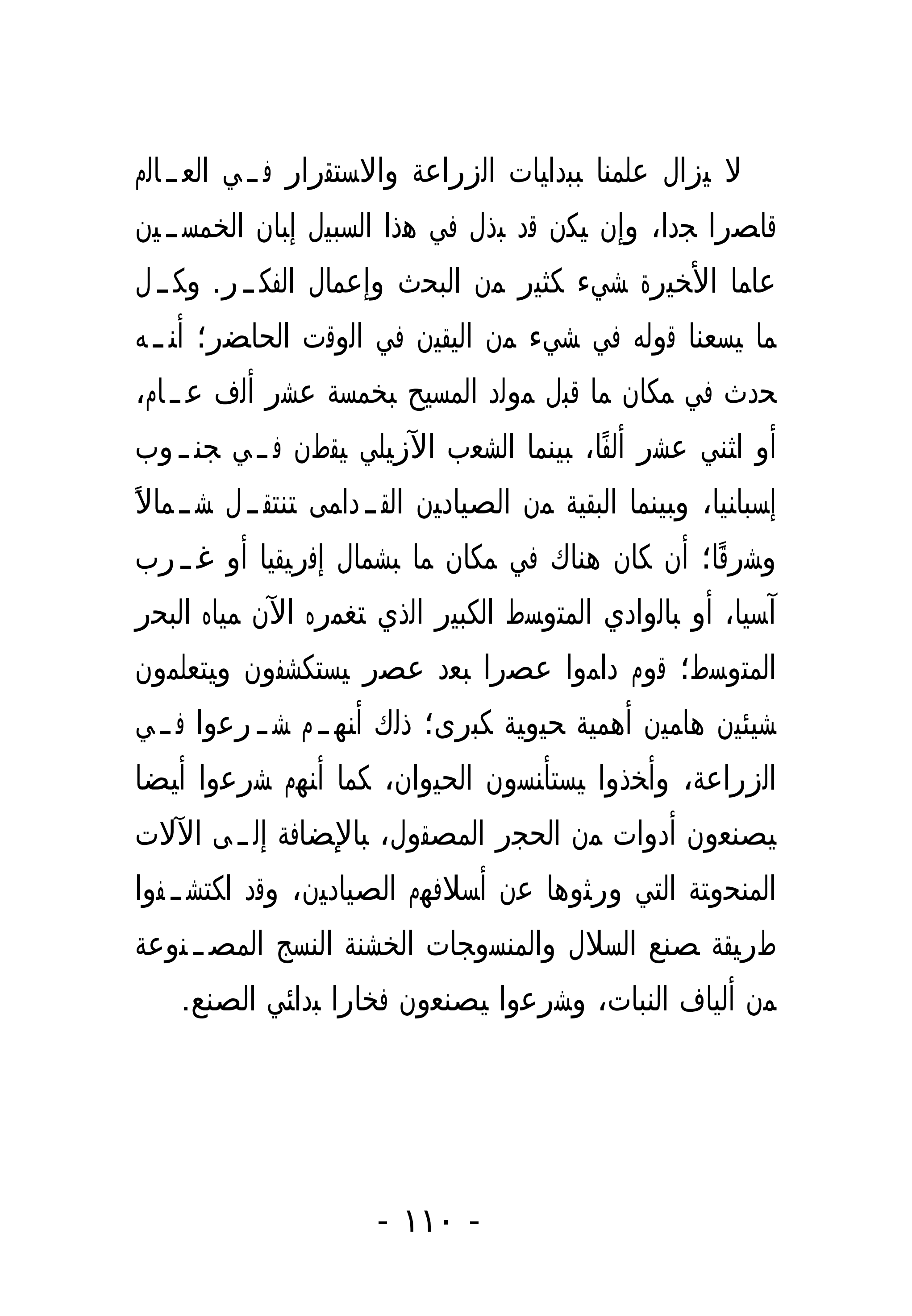


ولم يكن من العسير في الكثير من الحالات ربط السبب بالأثر، بينما حدث في أحيان كثيرة أخرى أن الخبرة صححت على الفور الفكرات الخاطئة، ولكن هناك مجموعة عظيمة من النتائج ذات أهمية عظمى للرجل البدائي؛ كان يلتمس فيها الأسباب بإصرار ولجاجة، فلا يستكشف إلا تفسيرات خاطئة، ولكن خطأها ليس من الكفاية، ولا من الوضوح بحيث يستطيع استبانته. ولشد ما كان يهمه أن يكون الصيد وفيرا والسمك كثيرا سهل الصيد، ولا شك أنه طالما جرب آلافًا من التعاويذ والرقى والنذور وآمن بها ليحصل على هذه النتائج المرغوبة، وثمة شاغل عظيم له هو المرض والموت. وكثيرا ما كانت العدوى تنتشر، ويموت الناس بها أو تضعف أجسامهم دون سبب ظاهر. فهذا الأمر أيضا لا بد أنه كان يسبب لعقل الرجل البدائي المتسرع الانفعالي كثيرا من الإجهاد والقلق. وكانت الأحلام أو التخمينات الوهمية تجعله يلوم هذا الرجل أو الحيوان أو الشيء، أو يلتمس منهم المعونة. كانت لديه قابلية الطفل للخوف والذعر.

ولا بد أنه حدث في زمن مبكر جدا من تـاريخ القبيلـة الإنسانية الصغيرة أن العقول الأكبر سـنًا والأثبـت جنانًـا، والتي كانت تسهم في المخاوف، وتسهم في التخيلات، ولكنها أقوى قليلاً من العقول الأخرى؛ قد تصدرت للنصح ووصف الوصفات، وإصدار الأوامر، فراحوا يصرحون أن هذا أمـر مشئوم، وذاك شيء محتوم، وأن هذا بشير بخير وذاك نـذير بشر. وكان الخبير بالفتيشة (وأعني به الطبيب الساحر) هـو الكاهن الأول، وهو الذي يقدم النصـائح ويفسـر الأحـلام، ويحذر ويقوم بالتعازيم الجوفاء التي تجلب الحـظ، وتجنـب النكبات، ولم ترق الديانة البدائية إلى ما نسـميه الآن باسـم الديانة من حيث هي طقوس وشعائر، كما أن الكـاهن الأول كان يملي على الناس ما هو في الحقيقة علم عملي تحكمي.

الفصل الثالث عشر

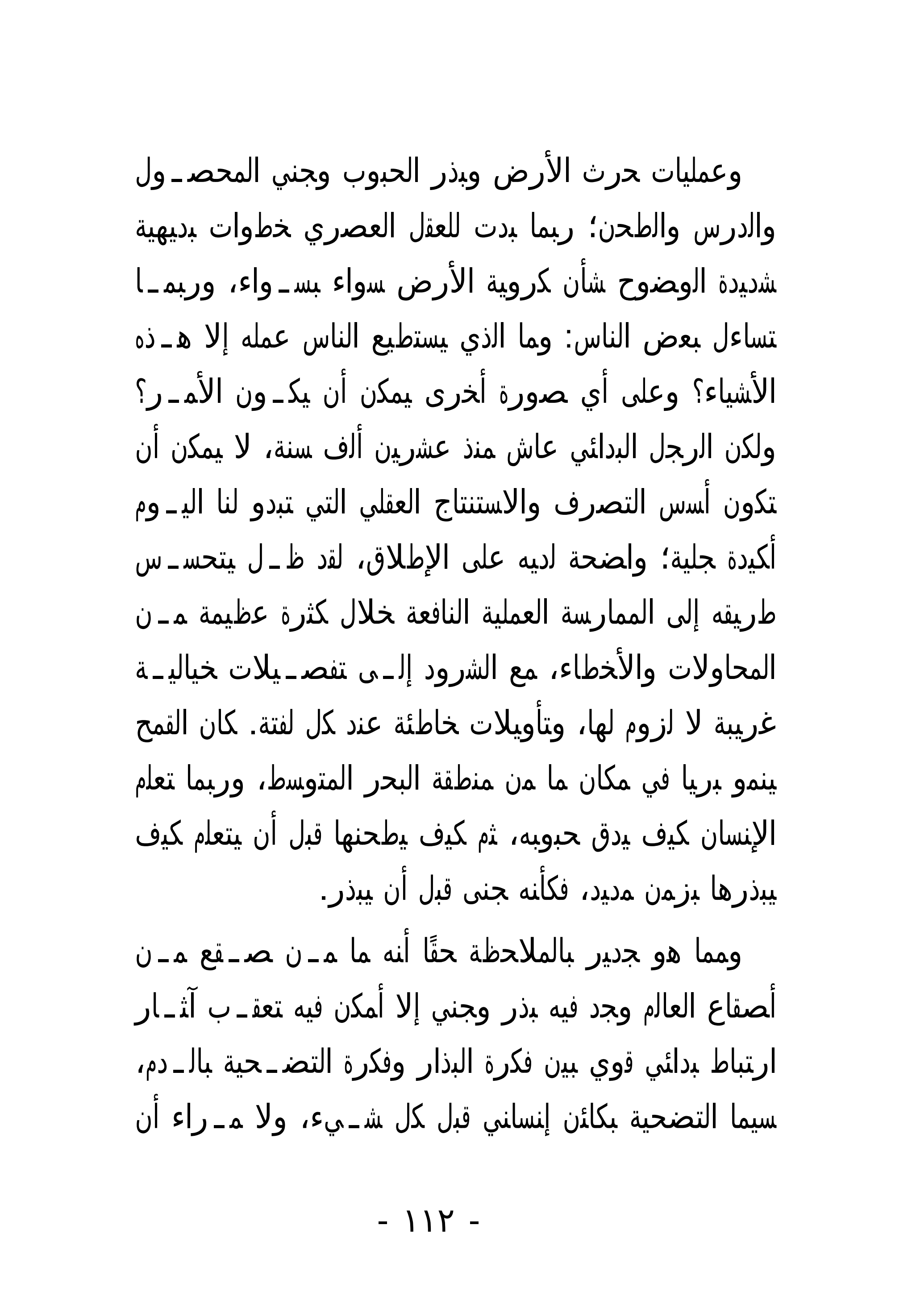
بدايات الزراعة



لا يزال علمنا ببدايات الزراعة والاستقرار في العالم قاصرا جدا، وإن يكن قد بذل في هذا السبيل إبان الخمسين عاما الأخيرة شيء كثير من البحث وإعمال الفكر. وكل ما يسعنا قوله في شيء من اليقين في الوقت الحاضر؛ أنه حدث في مكان ما قبل مولد المسيح بخمسة عشر ألف عام، أو اثني عشر ألفًا، بينما الشعب الآزيلي يقطن في جنوب إسبانيا، وبينما البقية من الصيادين القدامى تنتقل شمالاً وشرقًا؛ أن كان هناك في مكان ما بشمال إفريقيا أو غرب آسيا، أو بالوادي المتوسط الكبير الذي تغمره الآن مياه البحر المتوسط؛ قوم داموا عصرا بعد عصر يستكشفون ويتعلمون شيئين هامين أهمية حيوية كبرى؛ ذلك أنهم شرعوا في الزراعة، وأخذوا يستأنسون الحيوان، كما أنهم شرعوا أيضا يصنعون أدوات من الحجر المصقول، بالإضافة إلى الآلات المنحوتة التي ورثوها عن أسلافهم الصيادين، وقد اكتشفوا طريقة صنع السلال والمنسوجات الخشنة النسج المصنوعة من ألياف النبات، وشرعوا يصنعون فخارا بدائي الصنع.

لقد شرع هؤلاء القوم يتقدمون نحو مرحلة مـن مراحـل الثقافة البشرية هي العصر الحجري الحـديث (النيـوليثي)؛ تمييزا له من العصر الحجري القديم (البـاليوليثي) عصـر الكرومانيين والشعب الجريمالدي والأزيليين ومن إلـيهم[1]، وما لبث هذا الشعب شعب العصر الحجري الحديث أن انتشر رويدا رويدا في أصقاع العالم الأكثر دفئًا، كمـا أن الفنـون التي حذقها، والنباتات والحيوانات التي تعلم أن يسـتخدمها؛ انتشرت معه عن طريق المحاكاة والتماك، ولكن بصورة تكاد تفوق انتشار الشعب نفسه. فلما وافت سـنة ١٠,٠٠٠ ق. م؛ كان معظم البشرية قد ارتقى إلى مستوى العصر الحجـري الحديث.

([1]) وربما لاحظنا أن كلمة "باليوليثي" تطلق على الآلات النياندرتاليـة بل حتى الأدوات الحجرية Eoliths . ويسمى عصـر مـا قبـل الإنسان "الحجري القديم الأول"، أما عصر الإنسان الحـق الـذي استعمل أحجارا غير صقيلة؛ فهو "الحجري القديم الثاني".

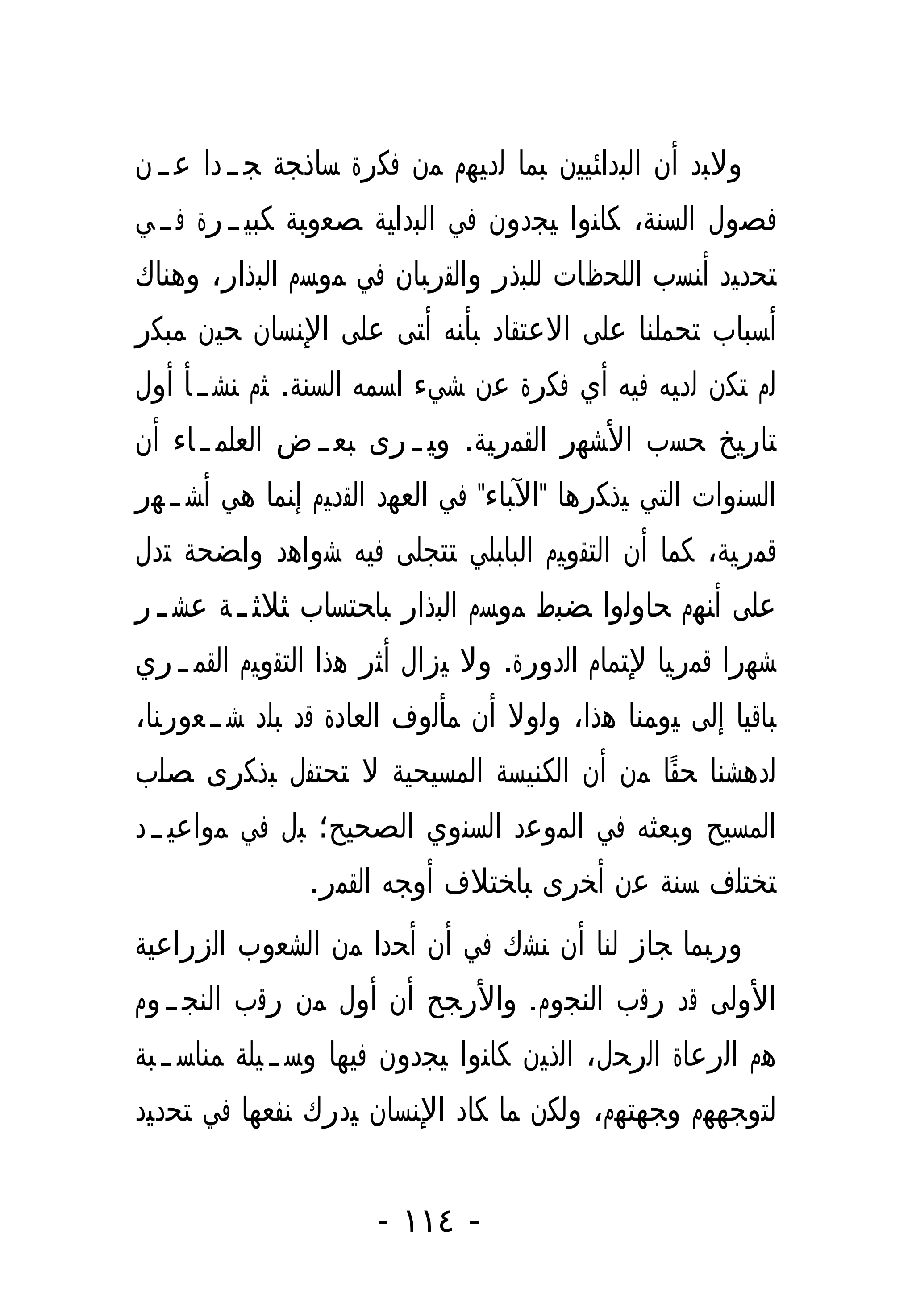


وعمليات حرث الأرض وبذر الحبوب وجني المحصول والدرس والطحن؛ ربما بدت للعقل العصري خطوات بديهية شديدة الوضوح شأن كروية الأرض سواء بسواء، وربما تساءل بعض الناس: وما الذي يستطيع الناس عمله إلا هذه الأشياء؟ وعلى أي صورة أخرى يمكن أن يكون الأمر؟ ولكن الرجل البدائي عاش منذ عشرين ألف سنة، لا يمكن أن تكون أسس التصرف والاستنتاج العقلي التي تبدو لنا اليوم أكيدة جلية؛ واضحة لديه على الإطلاق، لقد ظل يتحسس طريقه إلى الممارسة العملية النافعة خلال كثرة عظيمة من المحاولات والأخطاء، مع الشرود إلى تفصيلات خيالية غريبة لا لزوم لها، وتأويلات خاطئة عند كل لفتة. كان القمح ينمو بريا في مكان ما من منطقة البحر المتوسط، وربما تعلم الإنسان كيف يدق حبوبه، ثم كيف يطحنها قبل أن يتعلم كيف يبذرها بزمن مديد، فكأنه جنى قبل أن يبذر.

ومما هو جدير بالملاحظة حقًا أنه ما من صقع من أصقاع العالم وجد فيه بذر وجني إلا أمكن فيه تعقب آثار ارتباط بدائي قوي بين فكرة البذار وفكرة التضحية بالدم، سيما التضحية بكائن إنساني قبل كل شيء، ولا مراء أن

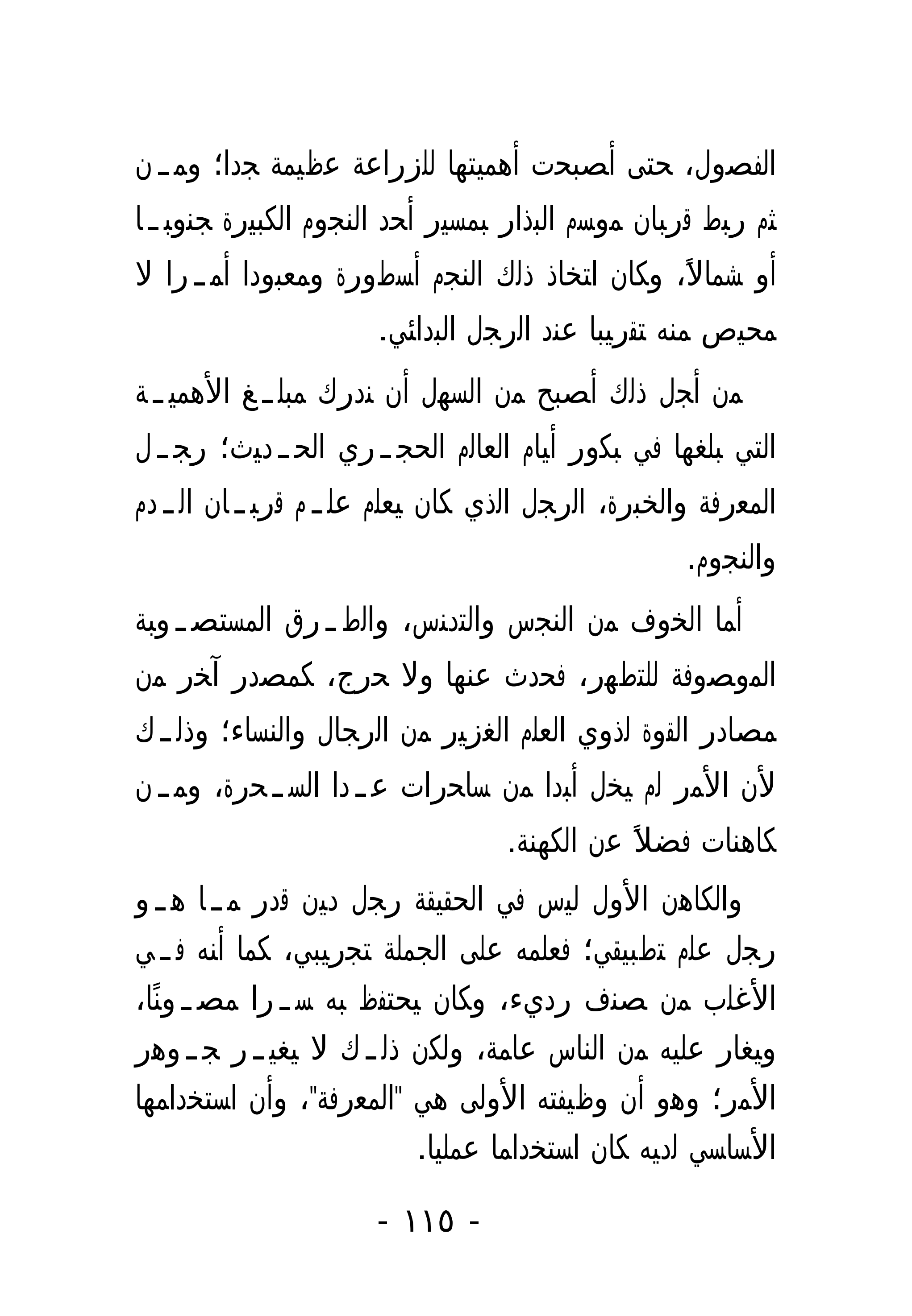
دراسة الأصل في الخلط بين هذين الشيئين تستهوي كل ذي لب مستطلع، وما على القارئ الذي يهتم بهذه الأبحاث إلا أن يطلب هذا الموضوع مدروسا دراسة وافية في ذلـك السـفر الخالد المرسوم بالغصن الـذهبي "Golden Bough" الذي ألفه السير ج. ج. فريزر. ويجمل بنا أن نتذكر أن ذلك الخلط بين الأمرين حدث في العقل البدائي الطفـولي الحـالم صانع الأساطير؛ ولذا فلن نستطيع تفسيره مهما استعملنا من أساليب الفكر والاستنتاج المنطقي.

وكل ما يمكننا قوله إنه يلوح أنه كان من عادة ذلك العـالم السحيق قبل اثني عشر ألفًا إلى عشرين ألفًا من السنين خلت؛ أنه كلما دارت الأيام دورتها، وحل أوان البذار على شـعوب العصر الحجري الحديث؛ حلت معه تضحية بشرية. ولم تكن التضحية بأي شخص خسيس أو منبوذ؛ بل كانت في العـادة تضحية بشاب مختار أو فتاة منتقاة، وإن كان فـي الأغلـب الأعم شابا يعامل معاملة تنطوي على الإجلال العميق، بـل حتى على العبادة، إلى لحظة تقديمه قربانًا. كان يعد ضـربا من ملك إله يقدم قربانًا، كما أن كل تفاصيل قتلـه أصـبحت طقوسا يتولاها الرجال المسنون العارفون، ويقرهـا عـرف العصور الموروث.



ولابد أن البدائيين بما لديهم من فكرة ساذجة جـدا عـن فصول السنة، كانوا يجدون في البداية صعوبة كبيـرة فـي تحديد أنسب اللحظات للبذر والقربان في موسم البذار، وهناك أسباب تحملنا على الاعتقاد بأنه أتى على الإنسان حين مبكر لم تكن لديه فيه أي فكرة عن شيء اسمه السنة. ثم نشـأ أول تاريخ حسب الأشهر القمرية. ويـرى بعـض العلمـاء أن السنوات التي يذكرها "الآباء" في العهد القديم إنما هي أشـهر قمرية، كما أن التقويم البابلي تتجلى فيه شواهد واضحة تدل على أنهم حاولوا ضبط موسم البذار باحتساب ثلاثـة عشـر شهرا قمريا لإتمام الدورة. ولا يزال أثر هذا التقويم القمـري باقيا إلى يومنا هذا، ولولا أن مألوف العادة قد بلد شـعورنا، لدهشنا حقًا من أن الكنيسة المسيحية لا تحتفل بذكرى صلب المسيح وبعثه في الموعد السنوي الصحيح؛ بل في مواعيـد تختلف سنة عن أخرى باختلاف أوجه القمر.

وربما جاز لنا أن نشك في أن أحدا من الشعوب الزراعية الأولى قد رقب النجوم. والأرجح أن أول من رقب النجـوم هم الرعاة الرحل، الذين كانوا يجدون فيها وسـيلة مناسـبة لتوجههم وجهتهم، ولكن ما كاد الإنسان يدرك نفعها في تحديد



الفصول، حتى أصبحت أهميتها للزراعة عظيمة جدا؛ ومن ثم ربط قربان موسم البذار بمسير أحد النجوم الكبيرة جنوبا أو شمالاً، وكان اتخاذ ذلك النجم أسطورة ومعبودا أمرا لا محيص منه تقريبا عند الرجل البدائي.

من أجل ذلك أصبح من السهل أن ندرك مبلغ الأهمية التي بلغها في بكور أيام العالم الحجري الحديث؛ رجل المعرفة والخبرة، الرجل الذي كان يعلم علم قربان الدم والنجوم.

أما الخوف من النجس والتدنس، والطرق المستصوبة الموصوفة للتطهر، فحدث عنها ولا حرج، كمصدر آخر من مصادر القوة لذوي العلم الغزير من الرجال والنساء؛ وذلك لأن الأمر لم يخل أبدا من ساحرات عدا السحرة، ومن كاهنات فضلاً عن الكهنة.

والكاهن الأول ليس في الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيقي؛ فعلمه على الجملة تجريبي، كما أنه في الأغلب من صنف رديء، وكان يحتفظ به سرا مصونًا، ويغار عليه من الناس عامة، ولكن ذلك لا يغير جوهر الأمر؛ وهو أن وظيفته الأولى هي "المعرفة"، وأن استخدامها الأساسي لديه كان استخداما عمليا.

ومنذ اثنتي عشرة ألفًا أو خمس عشرة ألفًا مـن السـنين، وفي جميع أجزاء العالم القديم الدفيئة والحسنة الري إلى حـد مناسب؛ أخذت هذه المجتمعات الإنسانية التي تعـيش عـيش العصر الحجري الحديث في الانتشار، بما حوت من طبقـة الكهان والكاهنات وتقاليدهم، وبما لها من حقول مزروعـة، وما حصلت من تطور في القرى والمدن الصغيرة المسورة. وترادفت العصور عصرا بعد عصر، وتواصل انتقال الأفكار وتبادلها بين هذه المجتمعات.

وقد أطلق إليوت سميث وريفرز اسم "الثقافة الهليوليثيـة" (الشمسية الحجرية) على ثقافة تلك الشعوب الزراعية الأولى، وربما لم يكن لفظ "هليوليثي" هذا خير مصطلح يمكن إطلاقه على هذه الثقافة، غير أننا مضطرون إلى اسـتعماله حتـى يوافينا رجال العلم بخير منه.

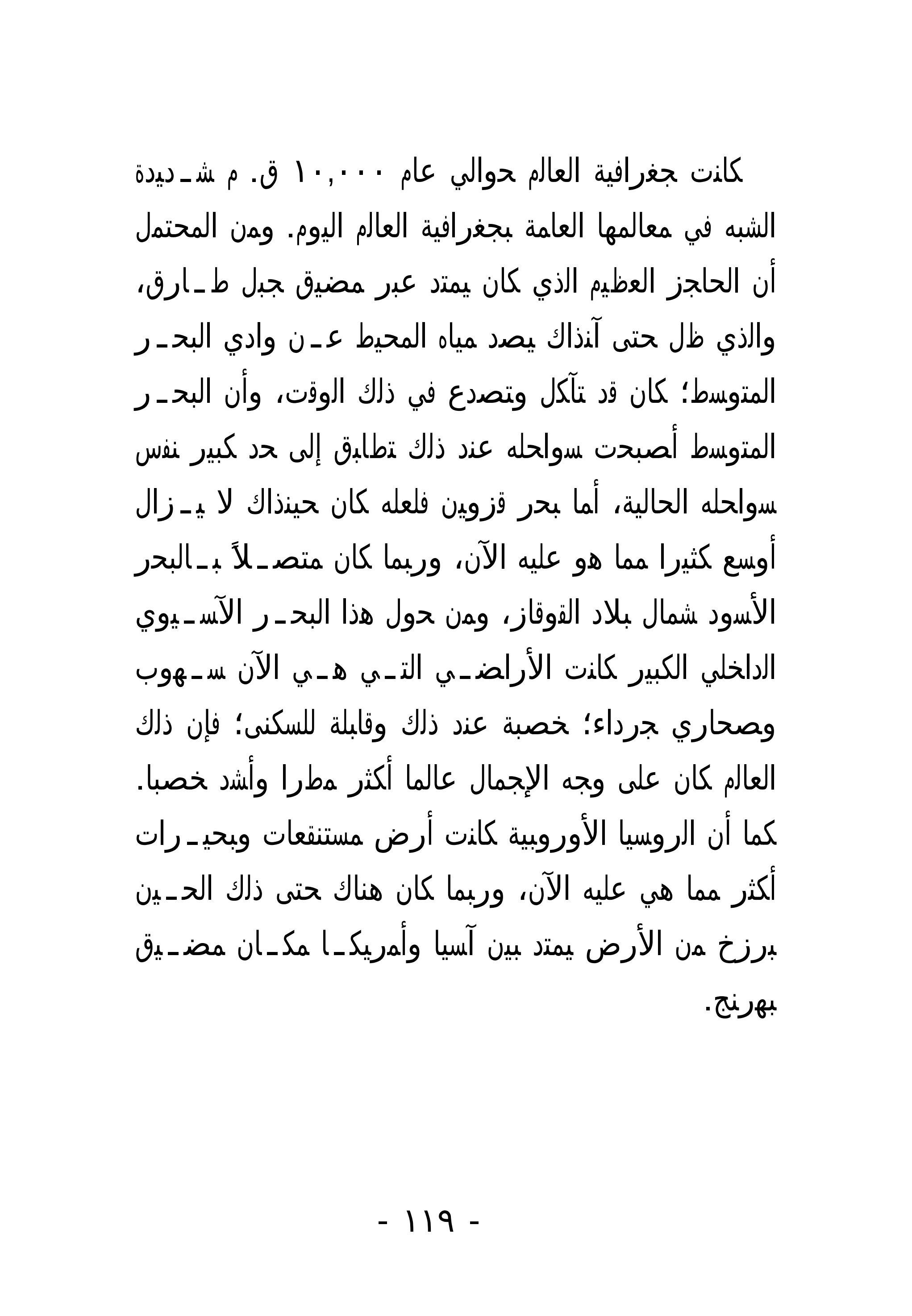
وهذه الثقافة التي نشأت في مكان ما بإقليم البحر المتوسط ومنطقة آسيا الغربية؛ ظلت تنتشر عصرا بعد عصر، متجهة شرقًا، ومنتقلة من جزيرة إلى جزيرة عبر المحيط الهـادي، حتى وصلت إلى أمريكا نفسها فيمـا يحتمـل، وامتزجـت بطرائق العيش الشديدة البدائية لدى المهاجرين شبه المغـول (Mongoloids) المنحدرين إليها من الشمال.

وحيثما ذهب الشعب الأسـمر صـاحب ثقافـة العصـر الحجري الشمسي (الهليوليثية)؛ أخذ معه كل أو جل طائفـة معينة من الأفكار والعادات الغريبة، ومنها فكرات يبلغ مـن غرابتها أن تحتاج إلى تفسير من الخبراء بالنواحي العقليـة. فهم كانوا يقيمون الأهرام والربى الضخمة، وينشئون دوائـر عظيمة من الأحجار الكبيرة. ولعل الغرض منها كان تسهيل الرصد الفلكي الذي ينهض به الكهان. وعرفـوا التحنـيط، واتخذوا الموميات، فحنطوا بعـض موتـاهم أو جمـيعهم، واستعملوا الوشم والختان، وكانت لديهم العادة القديمة المسماة بالنفاس الزائف، التي بمقتضاها يرسلون الوالد إلى الفـراش، ويلزمونه بالراحة إذا ولد له طفل، كما كانوا يتخـذون مـن الصليب المعقوف الذائع الصيت رمزا للحظ.

فإذا نحن أنشأنا خريطة للعالم، ورسمنا عليها نقطًا تبـين إلى أي مدى تركت هذه العادات المجتمعة آثارهـا؛ وجـب علينا أن ننشئ نطاقًا يمتد بإزاء سـواحل العـالم بالمنـاطق المعتدلة وشبه المدارية، يمتد من ستون هنج وإسبانيا عبـر العالم حتى يبلغ المكسيك وبيرو. ولكن شيئًا من هذه النقط لن يمر بإفريقيا جنوب خط الاستواء، ولا بالقسم الشـمالي مـن أوروبا الوسطى ولا شمال آسيا؛ فهناك كانت تعيش أجنـاس بشرية تتطور في اتجاه آخر مستقل عن هذا تقريبا.

الفصل الرابع عشر

حضارات العصر الحجري الحديث البدائية



كانت جغرافية العالم حوالي عام ١٠,٠٠٠ ق. م شديدة الشبه في معالمها العامة بجغرافية العالم اليوم. ومن المحتمل أن الحاجز العظيم الذي كان يمتد عبر مضيق جبل طارق، والذي ظل حتى آنذاك يصد مياه المحيط عن وادي البحر المتوسط؛ كان قد تآكل وتصدع في ذلك الوقت، وأن البحر المتوسط أصبحت سواحله عند ذلك تطابق إلى حد كبير نفس سواحله الحالية، أما بحر قزوين فلعله كان حينذاك لا يزال أوسع كثيرا مما هو عليه الآن، وربما كان متصلاً بالبحر الأسود شمال بلاد القوقاز، ومن حول هذا البحر الآسيوي الداخلي الكبير كانت الأراضي التي هي الآن سهوب وصحاري جرداء؛ خصبة عند ذلك وقابلة للسكنى؛ فإن ذلك العالم كان على وجه الإجمال عالما أكثر مطرا وأشد خصبا. كما أن الروسيا الأوروبية كانت أرض مستنقعات وبحيرات أكثر مما هي عليه الآن، وربما كان هناك حتى ذلك الحين برزخ من الأرض يمتد بين آسيا وأمريكا مكان مضيق بهرنج.

ولا بد أن الأقسام الرئيسـية للأجنـاس البشـرية علـى ما نعهدها اليوم، وكانت قد فصلت آنئذ وأصبح من الممكـن تمييزها، وانتشرت في طـول المنـاطق الدفيئـة المعتدلـة وعرضها، وعلى سواحلها في ذلك العالم الأكثر دفئًا والأكثف غابات في تلك الأيام الخالية؛ شعوب الثقافة الحجرية الشمسية (الهليوليثية) السمر البشرة، أسلاف الغالبيـة العظمـى مـن السكان الحاليين لعالم البحر المتوسـط؛ أي أجـداد البربـر والمصريين، وكثير من سكان جنوب وشرق آسيا.

وبديهي أن هذا الجنس الكبير كان ينطوي على عدد مـن الأنواع، وما الجنس الأيبيري (أي جنس البحر المتوسط؛ أي "الأبيض القاتم") النازل على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، وما الشعوب الحامية التي تنطوي علـى البربـر والمصريين، وما الدرافيديون (سكان الهند الأقتم لونًا)، وعدد من شعوب الهند الشرقية، وكثير من الأجناس البولينيزية[1] وشعب الماووري؛ إلا أقسام تتفاوت قيمتها وسط هذه الكتلـة العظمى الرئيسية من البشرية، وأنواعها الغربية أشد بياضـا

---

(1) بولينزيا: مجموعة جزائر بالمحيط الهادي الجنوبي حول خط طول ١٨٠، وأشهرها هواي وفيجي وساموان.

من الشرقية. على أن جيلاً من الناس يدعوه الكثيرون اليـوم باسم الجنس النوردي، ويقيم في غابـات أوروبـا الوسـطى والغربية، وهو أكثر شقرة وله عيون زرقـاء؛ أخـذ يتميـز بنفسه، ويتفرع عن الكتلة الرئيسية للشعوب السمراء.

وثمة تفريع آخر كان يحدث في أقـاليم آسـيا الشـمالية الشرقية المنبسطة الأكثر براحا، انفصل به فريق من النـاس عن هذه البشرية السمراء، واتجه إلى تكوين طـراز لنفسـه عيونه أكثر انحرافًا، وعظام وجناته ناتئة، وجلـده مصـفر، وشعره أسود شديد الاستقامة؛ وهو الشعوب المغولية، وبقيت في جنوب إفريقيا وأستراليا، وفي جزائـر مداريـة كثيـرة بجنوب آسيا؛ بقايا من الشعب شـبه الزنجـي (النجريـدي) القديم، وقد صارت الأجزاء الوسطى مـن إفريقيـا بالفعـل منطقة تخالط بين الأجناس البشـرية؛ إذ يلـوح أن جميـع الأجناس الملونة التي تقطن بإفريقيا اليوم تكاد دماؤها جميعا أن تكون خليطًا من شعوب الشمال السـمراء، ومـن طبقـة أساسية شبه زنجية.

ويجب علينا أن نتذكر أن الأجناس البشرية تستطيع جميعا أن تتخالط وتتوالد بمنتهى الحرية، وأنها تفترق وتمتزج، ثـم تعود إلى الاتحاد كما يفعل السحاب في السماء. والأجنـاس البشرية لا تتفرع كالشجر فروعا لا تلتقي بعـد ذلـك أبـدا، والواقع إن هذا الاختلاط المتكرر للأجناس الذي يحدث عنـد كل فرصة تسنح؛ أمر ينبغي ألا يغيب عن بالنا البتـة، فـإذا فعلنا ذلك نجونا من كثير من ألوان الضلال والتحيز القاسية. والناس يجنحون إلى استعمال كلمة مثـل "جـنس" بصـورة فضفاضة يتجلى فيها إطلاق القول على عواهنـه، ويبنـون عليها أشد أنواع التعليمات مخالفـة للعقـل والمنطـق. هـم يتحدثون عن جنس "بريطاني" أو عن جنس "أوروبي"، ولكن الأمم الأوروبية كلها تقريبا خلائط مضطربة مـن عناصـر سمراء وأخرى بيضاء قاتمة وبيضاء ومغولية.

وكانت حقبة التطور الإنساني المسماة بالعصر الحجـري الحديث (النيوليثي) هي التي اتخذت فيها شعوب من الجـنس المغولي طريقها لأول مرة إلى أمريكا، وواضح أنهم بلغوها بطريق مضيق بهرنج، ثم انتشروا جنوبا فوجدوا في الشمال الكاريبو (وهو غزال الرنة الأمريكي)، وفي الجنوب أسـرابا

كبيرة من الجاموس البري (البيزون). فلما وصلوا إلى أمريكا الجنوبية كان لا يزال يعيش بها حيوان الجليبتـودون؛ وهـو نوع ضخم من الأرمادلو، والميجاثر يوم؛ وهو طـراز مـن حيوان الرسيف[1] بشع قبيح الشكل، يبلغ ارتفاعـه ارتفـاع الفيل، والراجح أنهم أبادوا الحيوان الثاني، وكان عاجزا قليل الحيلة على ضخامته.

ولم يرتق الشطر الأعظم من هذه القبائل الأمريكية البتـة عن مستوى حياة الصيد الترحلية للعصر الحجري الحـديث؛ فهم لم يكتشفوا الحديد أبدا، وكان رأس ما في حوزتهم مـن المعادن الذهب والنحاس الموجودين في بلادهم. أما المكسيك ويوقطان وبيرو؛ فكانت ظروفها تواثم الزراعـة المسـتقرة، وهناك نشأت قرابة ١٠٠٠ ق. م مدنيات شائقة جدا، تنـاظر مدنيات العالم القديم، وإن خالفتها في الطراز؛ ذلك أن هـذه المجتمعات أظهرت – شأن الحضارة البدائية الأقـدم منهـا كثيرا في العالم القديم – تطورا عظيما في القرابين البشرية،

([1]) الرسيف Sloth: أحد أنواع كثيرة من الثـدييات الشـجرية الطويلة الشعر، البطيئة الحركة، يوجد في غابات أمريكـا الجنوبيـة، ويسمى أيضا حيوان الكسلان.

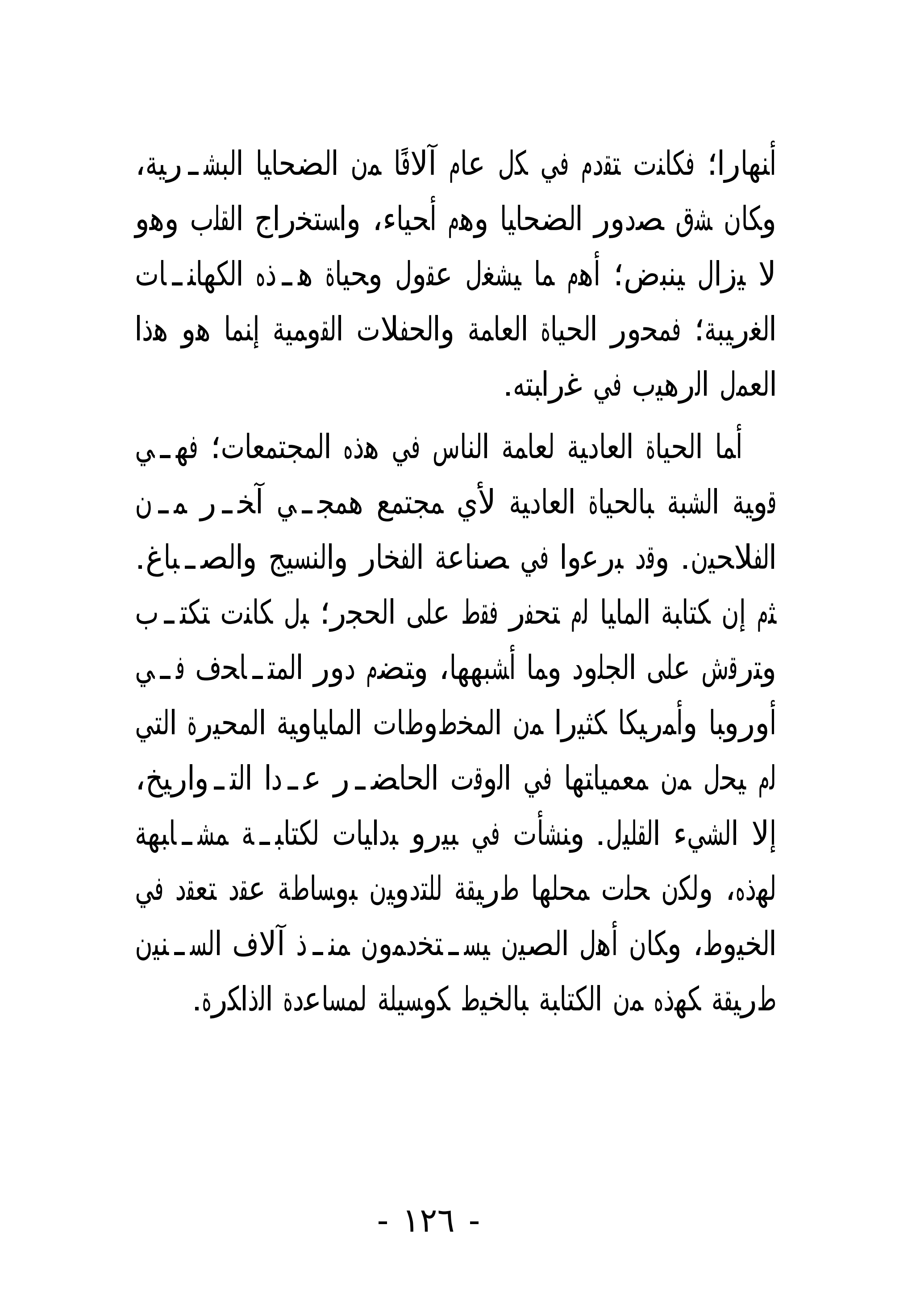
يتصل بعمليات موسم الحصاد، ولكن على حين أن هذه الفكرات الأساسية قد لطفت في النهاية بالعالم القديم كما سنرى، وتعقدت ثم غطت عليها فكرات أخرى، فإنها تطورت بأمريكا وفصلت حتى بلغت درجة عالية جدا من الشدة. وبديهي أن هذه الأقطار الأمريكية المتحضرة كانت بالضرورة أقطارا متدينة، يحكمها الكهنة، وأن قادتهم في الحرب وحكامهم كانوا يخضعون لقواعد صارمة من الشريعة والتطير..

وصل هؤلاء الكهان بعلم الفلك إلى مستوى رفيع من الضبط والدقة؛ فمعرفتهم بالسنين وحسابها كانت خيرا من معرفة البابليين الذين سنحدثك عنهم من فورنا، وكان لهم في يوقطان نوع من الكتابة؛ هو كتابة المايا Maya، وهي من أعجب ما نقل التاريخ من الكتابات، وأشدها إحكاما. وقد عرفنا بقدر ما استطعنا حله من رموزها أنها كانت تستعمل بوجه خاص في تسجيل التقاويم المضبوطة المعقدة، التي كان الكهنة يبددون فيها ذكاءهم. وبلغ الفن في حضارة المايا ذروة مجده حوالي ٧٠٠ أو ٨٠٠ ق.م.

وفن النحت عند هذا الشعب يذهل المشاهد العصري بقوة تشكيله العظيمة، وجماله المتزاحم، كمـا يحيـره بغرابتـه المضحكة، وبسِمة جنونية من التعقيد، والتزام التقاليـد التـي تخرج بالضرورة عن المجال الفكري لذلك المشاهد.

وليس في العالم القديم شيء يماثله تماما. وأدنى الأشـياء شبها إليه (وهو شبه بعيد) توجد في الطراز القديم المهجـور من النحائت الهندية. فالريش ينتسج مع كل موضـع منـه، والثعابين تنفتل فيه في الداخل والخارج، وكثير من كتابـات المايا تشبه صنفًا معينًا من الرسوم المتقنـة التـي يصـنعها المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية بأوروبا أكثر ممـا تشبه أي شيء آخر في العالم القديم؛ فكأن عقل المايـا قـد تطور في اتجاه جديد يختلف عن الاتجاه العقلي للعالم القديم، وكأنما تناول فكراته التواء مغاير، وكأنه من ثم لـيس البتـة متزنًا إذا هو قيس بمعايير العالم القديم.

والواقع إن هـذا الـربط بـين الحضـارات الأمريكيـة المنحرفة، وبين القول بوجود الانحراف العقلي العام؛ يدعمه تسلط فكرة سفك الدماء البشرية على عقولهم؛ تسـلطًا غيـر عادي، والمدنية المكسيكية بوجه خاص كانت تريق الـدماء

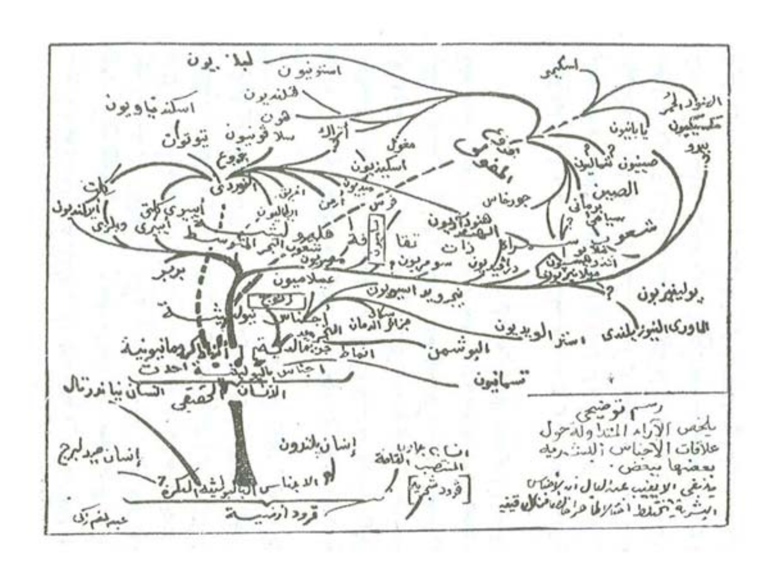


أنهارا؛ فكانت تقدم في كل عام آلافًا من الضحايا البشرية، وكان شق صدور الضحايا وهم أحياء، واستخراج القلب وهو لا يزال ينبض؛ أهم ما يشغل عقول وحياة هذه الكهانات الغريبة؛ فمحور الحياة العامة والحفلات القومية إنما هو هذا العمل الرهيب في غرابته.

أما الحياة العادية لعامة الناس في هذه المجتمعات؛ فهي قوية الشبة بالحياة العادية لأي مجتمع همجي آخر من الفلاحين. وقد برعوا في صناعة الفخار والنسيج والصباغ. ثم إن كتابة المايا لم تحفر فقط على الحجر؛ بل كانت تكتب وترقش على الجلود وما أشبهها، وتضم دور المتاحف في أوروبا وأمريكا كثيرا من المخطوطات المياوية المحيرة التي لم يحل من معمياتها في الوقت الحاضر عدا التواريخ، إلا الشيء القليل. ونشأت في بيرو بدايات لكتابة مشابهة لهذه، ولكن حلت محلها طريقة للتدوين بوساطة عقد تعقد في الخيوط، وكان أهل الصين يستخدمون منذ آلاف السنين طريقة كهذه من الكتابة بالخيط كوسيلة لمساعدة الذاكرة.

والعالم القديم قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة (أي قبل ذلك العهد بثلاثة أو أربعة آلاف سنة) كان ينطوي على حضارات بدائية تختلف عن هذه المدنيات الأمريكية، وهي حضـارات تدور حول أحد المعابد، ولها قدر عظيم من التضحية بالدماء، وكهانة شديدة العكوف على الفلك، ولكن الحضارات البدائيـة في العالم القديم كانت تتفاعل بعضها مـع بعـض، ويتجـه تطورها نحو ظروف عالمنا الراهن وأحواله، على حـين أن هذه الحضارات البدائية لم تتجاوز في أمريكا تلك المرحلـة البدائية أبدا؛ إذ كانت كل منها تعيش في عالمهـا الصـغير الخاص بها وحدها؛ فالمكسيك ظلت فيما يبدو لا تعـرف إلا القليل عن بيرو، أو لا شيء البتة، حتى هـبط الأوروبيـون أمريكا. حتى إن أهالي المكسيك لم يعرفوا البطاطس الـذي كان المادة الغذائية الرئيسية في بيرو.

ظلت هذه الشعوب عصرا بعد عصر تعيش وتعجب مـن أمر أربابها، وتقرب القرابين وتموت، وارتقى الفن المایاوي إلى مستويات عالية من الجمال الزخرفـي، وكـان الأفـراد يعشقون والقبائل تتقاتل. ولم يبرح القحـط يعقـب الـوفرة، والوباء يتبع الصحة، على حين واصل الكهان قرونًا عديـدة إتقان تقويمهم وإحكام طقوس التضحية، دون أن يحرزوا في الاتجاهات الأخرى إلا تقدما يسيرا.

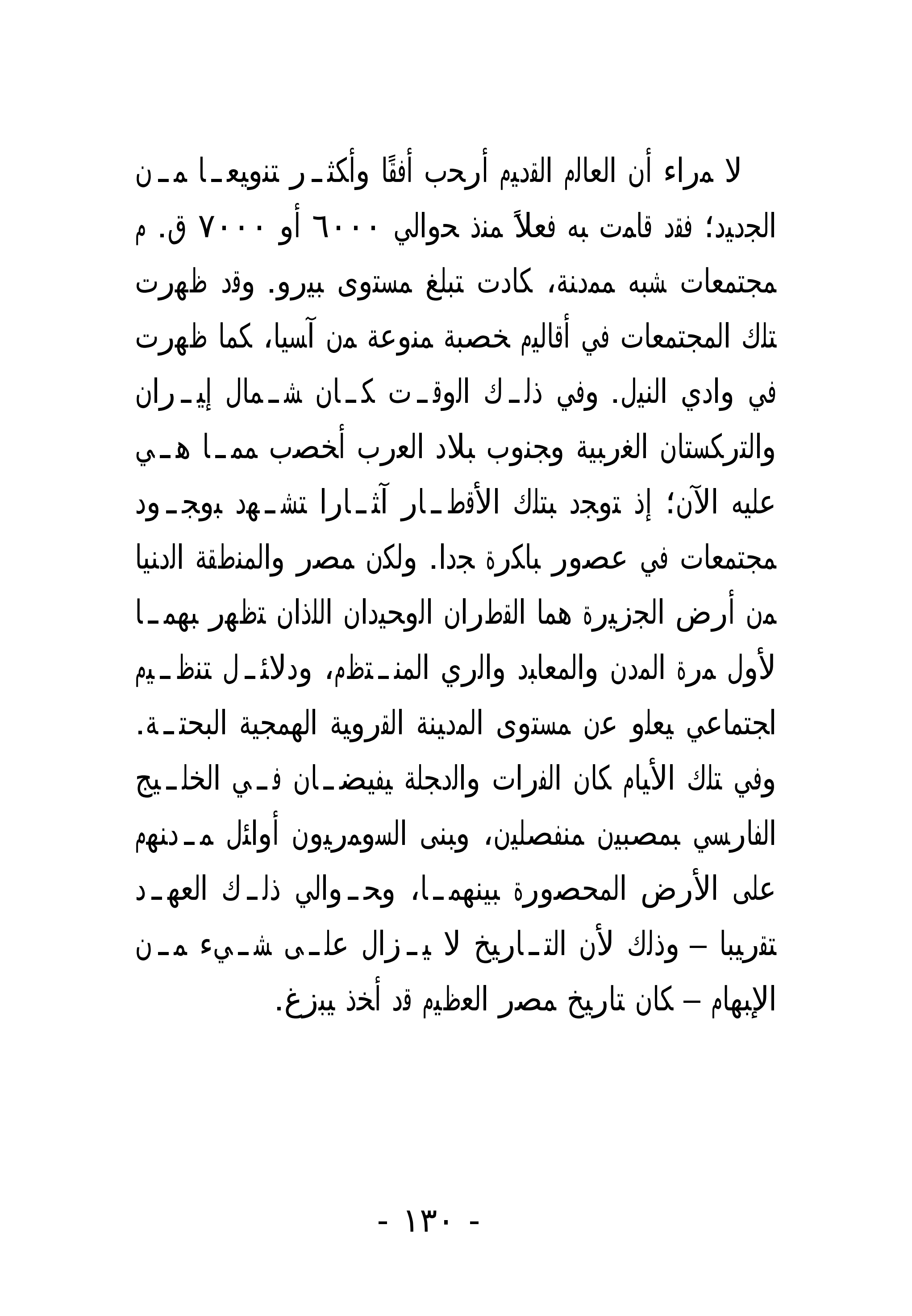


استونيون
فنلنديون
هون
اتراك
مغول
اسكيمو
يابانيون
الصين
بولينيزيون
البوشمن
تسمانيون
عيلاميون
بربر
اسكندنافيون
تيوتون
ايرلنديون
جورخاس
إنسان بلتدون
إنسان هيدلبرج
قرود أرضية
قرود شجرية
رسم توضيحي
يلخص الآراء المتداولة حول
علاقات الأجناس البشرية
بعضها ببعض.

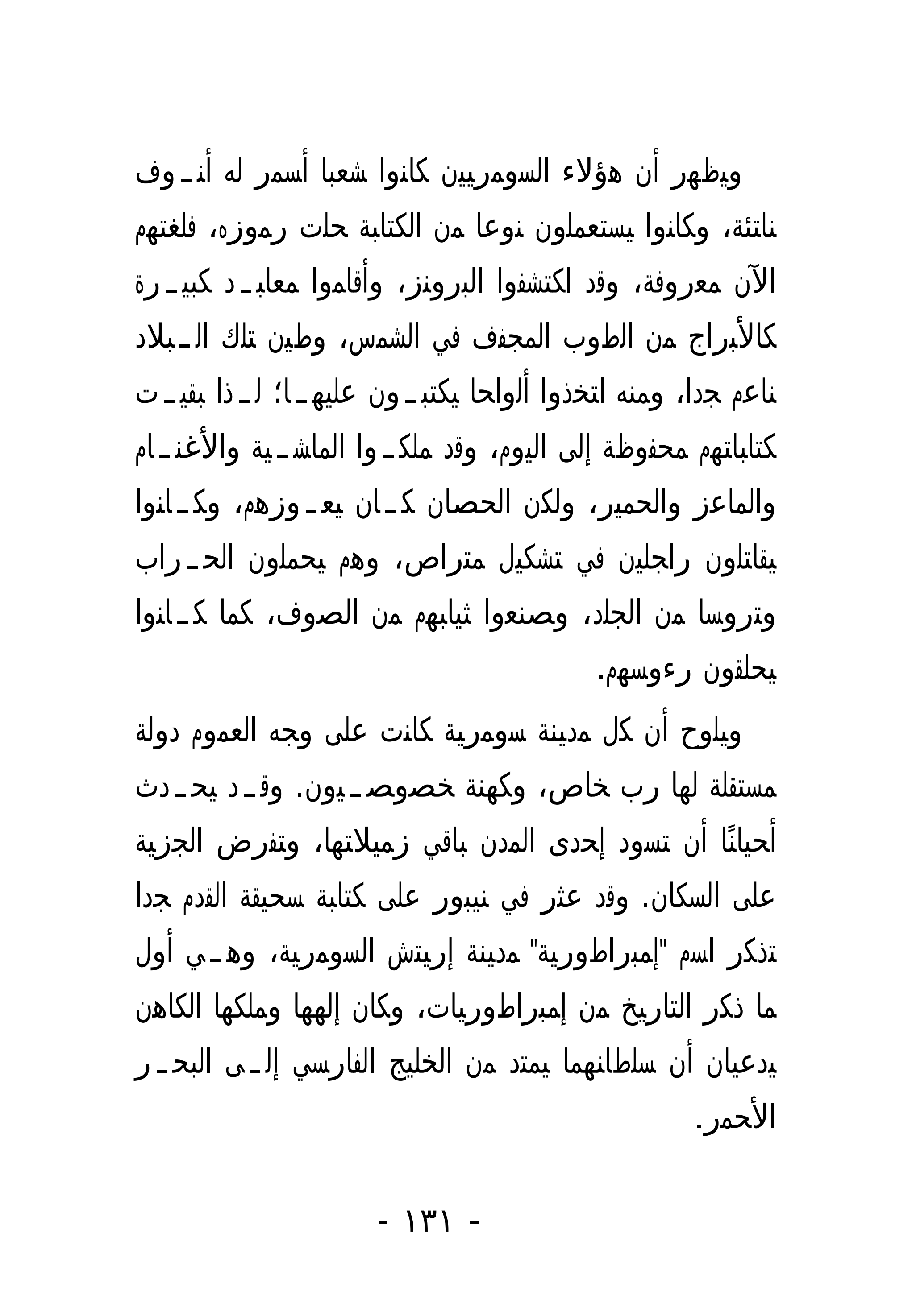
الفصل الخامس عشر

سومر ومصر في العصور الأولى

ونشأة الكتابة



لا مراء أن العالم القديم أرحب أفقًا وأكثر تنويعا من الجديد؛ فقد قامت به فعلاً منذ حوالي ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ ق. م مجتمعات شبه ممدنة، كادت تبلغ مستوى بيرو. وقد ظهرت تلك المجتمعات في أقاليم خصبة منوعة من آسيا، كما ظهرت في وادي النيل. وفي ذلك الوقت كان شمال إيران والتركستان الغربية وجنوب بلاد العرب أخصب مما هي عليه الآن؛ إذ توجد بتلك الأقطار آثارا تشهد بوجود مجتمعات في عصور باكرة جدا. ولكن مصر والمنطقة الدنيا من أرض الجزيرة هما القطران الوحيدان اللذان تظهر بهما لأول مرة المدن والمعابد والري المنتظم، ودلائل تنظيم اجتماعي يعلو عن مستوى المدينة القروية الهمجية البحتة. وفي تلك الأيام كان الفرات والدجلة يفيضان في الخليج الفارسي بمصبين منفصلين، وبنى السومريون أوائل مدنهم على الأرض المحصورة بينهما، وحوالي ذلك العهد تقريبا – وذلك لأن التاريخ لا يزال على شيء من الإبهام – كان تاريخ مصر العظيم قد أخذ يبزغ.



ويظهر أن هؤلاء السومريين كانوا شعبا أسمر له أنـوف ناتئة، وكانوا يستعملون نوعا من الكتابة حلت رموزه، فلغتهم الآن معروفة، وقد اكتشفوا البرونز، وأقاموا معابـد كبيـرة كالأبراج من الطوب المجفف في الشمس، وطين تلك الـبلاد ناعم جدا، ومنه اتخذوا ألواحا يكتبـون عليهـا؛ لـذا بقيـت كتاباتهم محفوظة إلى اليوم، وقد ملكـوا الماشـية والأغنـام والماعز والحمير، ولكن الحصان كـان يعـوزهم، وكـانوا يقاتلون راجلين في تشكيل متراص، وهم يحملون الحـراب وتروسا من الجلد، وصنعوا ثيابهم من الصوف، كما كـانوا يحلقون رءوسهم.

ويلوح أن كل مدينة سومرية كانت على وجه العموم دولة مستقلة لها رب خاص، وكهنة خصوصـيون. وقـد يحـدث أحيانًا أن تسود إحدى المدن باقي زميلاتها، وتفرض الجزية على السكان. وقد عثر في نيبور على كتابة سحيقة القدم جدا تذكر اسم "إمبراطورية" مدينة إريتش السومرية، وهـي أول ما ذكر التاريخ من إمبراطوريات، وكان إلهها وملكها الكاهن يدعيان أن سلطانهما يمتد من الخليج الفارسي إلـى البحـر الأحمر.

وكانت الكتابة في البداية مجرد طريقة مختزلة من التدوين التصويري، كما أنها شيء سحيق؛ إذ إن الإنسان كان قد أخذ يكتب قبل العصر الحجري الحديث نفسه بأزمان سحيقة. والصور الأزيلية الصخرية التي أشرنا إليها آنفًا تظهر بداية تلك العملة، فإن كثيرا منها تسجل أحداث صيد وحملات حربية، والأشكال الإنسانية في معظمها مرسومة رسوما واضحة. على أن المصور لم يكن يهتم في بعضها بالرأس والأطراف؛ بل يكتفي بتصوير الإنسان بخط رأسي وخط آخر أفقي أو اثنين.

وكان من أيسر الأمور الانتقال من هذا التدوين بالتصوير إلى كتابة تقليدية مركزة بالصور. وما لبثت خدشات الحروف في كتابة سومر التي كانت تكتب على الطين بعود أن أصبحت من البعد عما تمثله من صور بحيث لم يعد في الإمكان تمييزها، أما مصر التي كان الناس يكتبون فيها على الجدران، وعلى شقائق من نبات البردي (وهو أول ما عرف من أنواع الورق)؛ فقد بقيت فيها المشابهة بين الحروف وبين الصور التي نقلت عنها تلك الحروف. والكتابة السومرية تسمى بالكتابة المسمارية أو الإسفينية؛ أي المشابهة للمسمار أو الإسفين؛ وذلك لأن الأقلام الخشبية التي كانت تستعمل في سومر؛ كانت تحدث خدوشًا على شكل الوتد أو الإسفين.

وتمت خطوة هامة صوب الكتابة، عندما استعملت الصور لا للدلالة على الشيء الذي تمثله؛ بل على شيء مشابه لـه، ولا يزال هذا الأمر يحدث إلى اليوم في إلغاء أسماء الصور (Redus)[1]؛ وهي لعبة يحبها الأطفال، وإنا لنرسم معسكرا به خيام وجرس، فيبتهج الأطفال حين يخمنون أن هذا يرمز إلى الاسم الأسكتلندي (Campbell كامبل)[2].

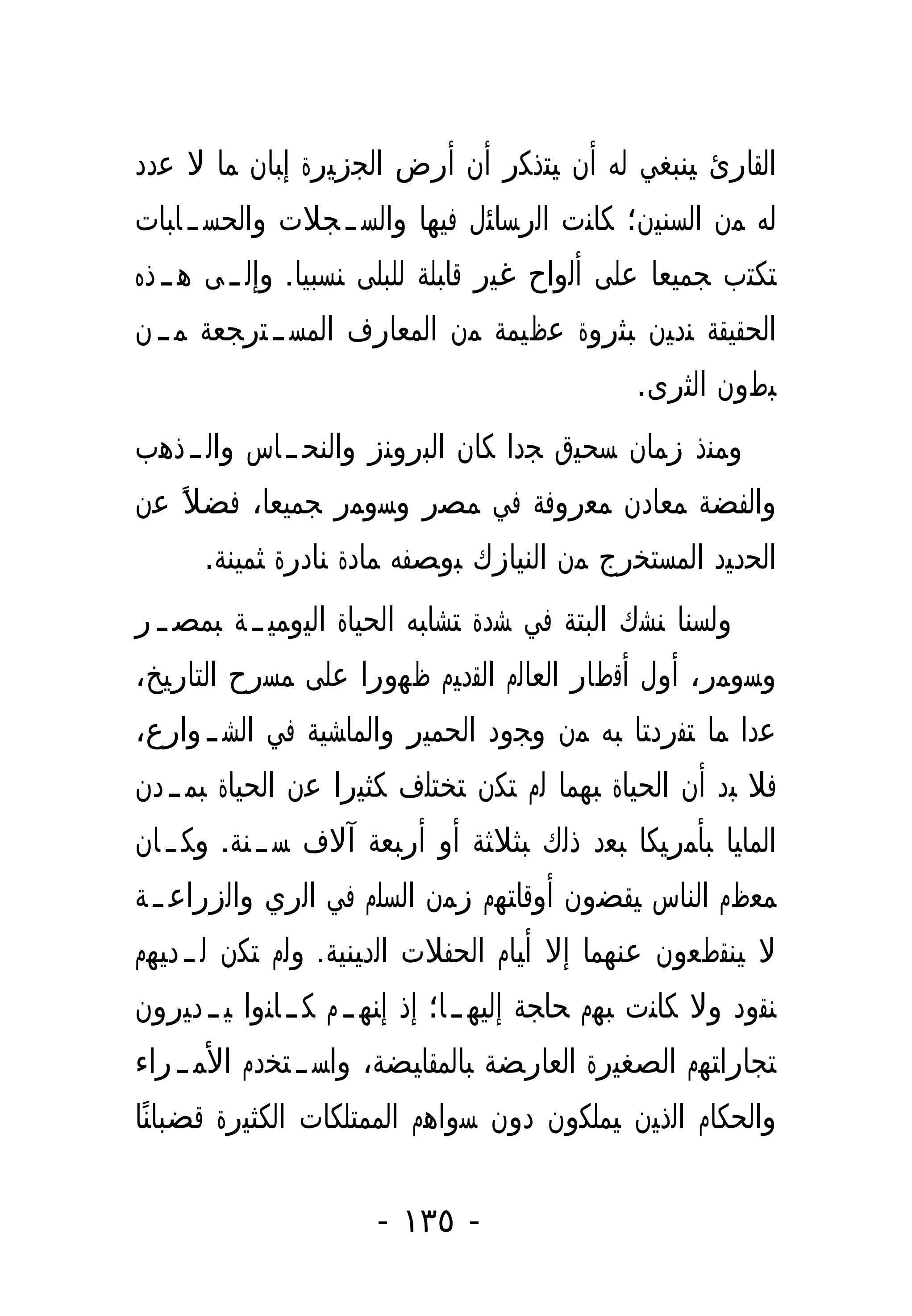
واللغة السومرية مكونة من مقاطع متراصة، تكاد تماثل بعض لغات الهنود الحمر المعاصرة، وقد استجابت في يسر لهذه الطريقة المقطعية في كتابة الكلمات المعبرة عن أفكـار لا يستطاع نقلها بطريق الصور مباشرة، ومـرت بالكتابـة المصرية تطورات موازية لهذه. وحدث فيما بعد عندما تهيـأ لشعوب أجنبية تتكون لغاتها من مقـاطع بدرجـة أقـل؛ أن يتعلموا هذه الكتابة بالصور، ويستخدمونها؛ إنهم مضوا بتلك التعديلات والتبسيطات الأخرى التي تطورت في النهاية حتى

([1]) ألغاز أسماء الصور: تمثيل ملغز لأحد الأسماء يصور فيها توريـة تمثل أجزاء من الكلمة (المترجم).

([2]) هنـا يجمـع الأطفـال الإنجليـز بـين كلمتـي مخـيم Camp وجرس Bell فنستنتج لفظة: Campbell (المترجم).

أصبحت كتابة أبجدية، وجميع ما ظهر في العالم بعد ذلك من أبجديات حقة مشتق من خليط من الكتابة السومرية المسمارية والكتابة المصرية الهيروغليفية (كتابة الكهان). وحدث بعـد ذلك في الصين أن تطورت كتابة بالصور متواضع عليهـا، ولكن لم يحدث قط ببلاد الصين أنها وصلت إلـى المرحلـة الأبجدية.

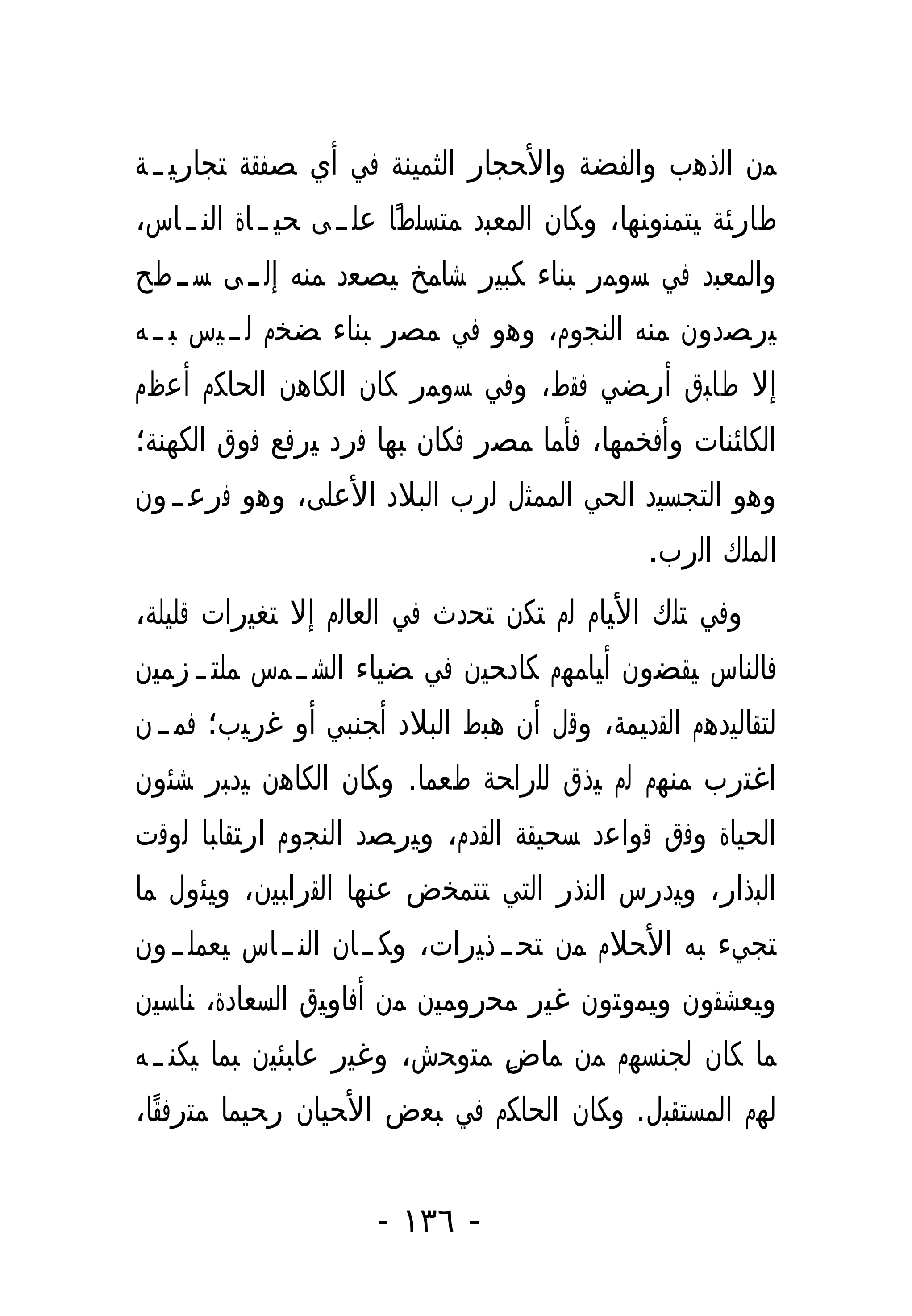
وكان اختراع الكتابة ذا أهمية كبرى جـدا فـي تطـور الجماعات الإنسانية؛ فكان من أثـره أن سـجلت الاتفاقـات والقوانين والوصايا، وهي التي هيأت السبيل لنمو دول أكبر من دول المدن القديمة، وجعلت في الإمكـان قيـام وعـي تاريخي متواصل، وبها أصبح في إمكان أمر الكاهن أو الملك أو خاتمهما أن يذهبا إلى أماكن بعيدة عن بصـره وصـوته، وأن يبقيا بعد موته. ولعل ما يشوقك أن تلحـظ أن الأختـام كانت تستعمل بكثرة في بلاد سـومر القديمـة، وأن الملـك أو النبيل أو التاجر يتخذ خاتما كثيرا ما يكون محفورا حفـرا فنيا جميلاً، وإنه ليطبعه على أي وثيقة طينية يريد أن يصدق عليها. فكم اقتربت الحضارة من الطباعة منـذ سـتة آلاف سنة!! ثم يجفف الطين بعد ذلك ويغدو مسـتديما؛ ذلـك أن



القارئ ينبغي له أن يتذكر أن أرض الجزيرة إبان ما لا عدد له من السنين؛ كانت الرسائل فيها والسـجلات والحسـابات تكتب جميعا على ألواح غير قابلة للبلى نسبيا. وإلـى هـذه الحقيقة ندين بثروة عظيمة من المعارف المسـترجعة مـن بطون الثرى.

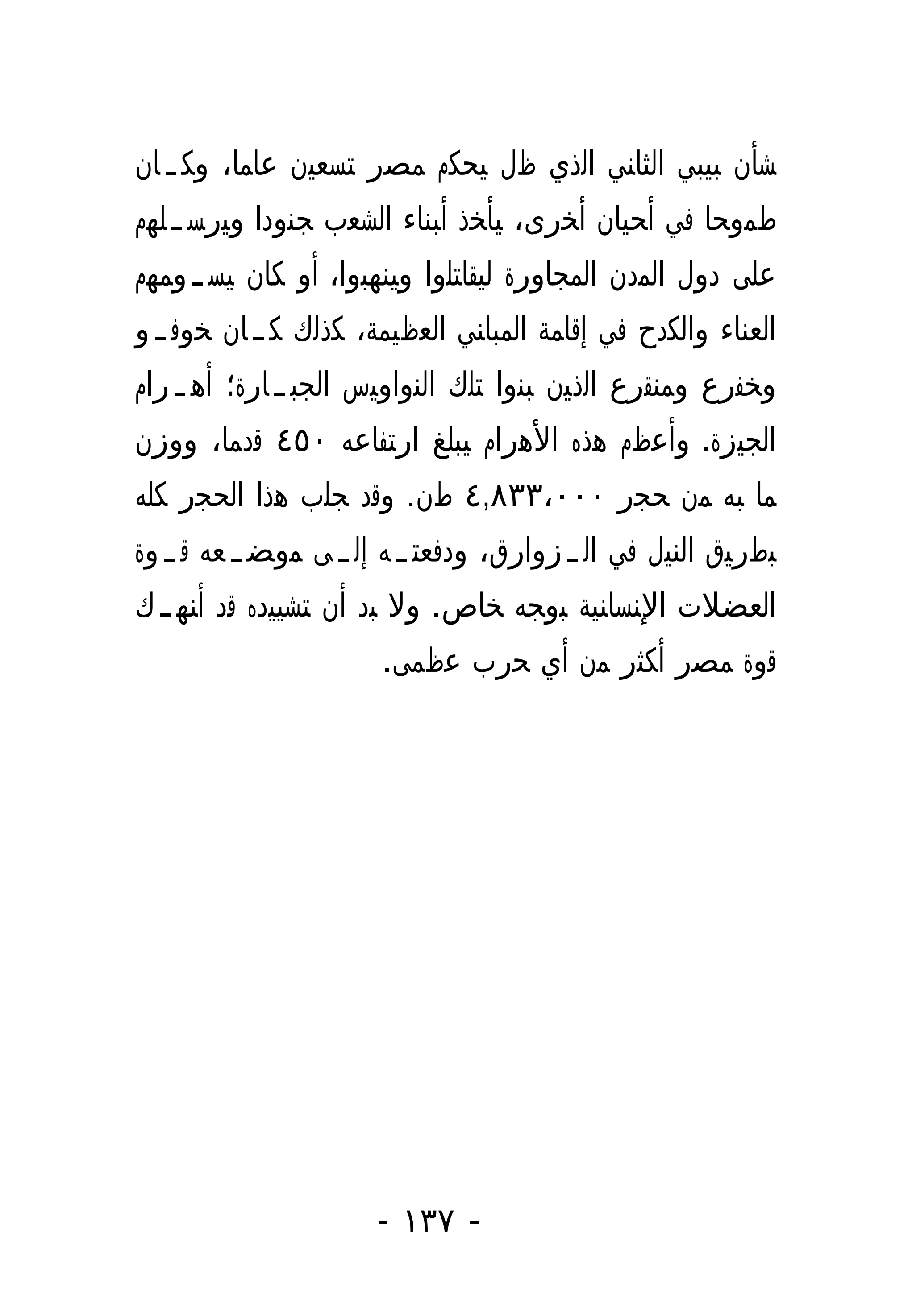
ومنذ زمان سحيق جدا كان البرونز والنحـاس والـذهب والفضة معادن معروفة في مصر وسومر جميعا، فضلاً عن الحديد المستخرج من النيازك بوصفه مادة نادرة ثمينة.

ولسنا نشك البتة في شدة تشابه الحياة اليوميـة بمصـر وسومر، أول أقطار العالم القديم ظهورا على مسرح التاريخ، عدا ما تفردتا به من وجود الحمير والماشية في الشـوارع، فلا بد أن الحياة بهما لم تكن تختلف كثيرا عن الحياة بمـدن المايا بأمريكا بعد ذلك بثلاثة أو أربعة آلاف سـنة. وكـان معظم الناس يقضون أوقاتهم زمن السلم في الري والزراعـة لا ينقطعون عنهما إلا أيام الحفلات الدينية. ولم تكن لـديهم نقود ولا كانت بهم حاجة إليهـا؛ إذ إنهـم كـانوا يـديرون تجاراتهم الصغيرة العارضة بالمقايضة، واسـتخدم الأمـراء والحكام الذين يملكون دون سواهم الممتلكات الكثيرة قضبانًا



من الذهب والفضة والأحجار الثمينة في أي صفقة تجارية طارئة يتمنونها، وكان المعبد متسلطًا على حياة الناس، والمعبد في سومر بناء كبير شامخ يصعد منه إلى سطح يرصدون منه النجوم، وهو في مصر بناء ضخم ليس به إلا طابق أرضي فقط، وفي سومر كان الكاهن الحاكم أعظم الكائنات وأفخمها، فأما مصر فكان بها فرد يرفع فوق الكهنة؛ وهو التجسيد الحي الممثل لرب البلاد الأعلى، وهو فرعون الملك الرب.

وفي تلك الأيام لم تكن تحدث في العالم إلا تغيرات قليلة، فالناس يقضون أيامهم كادحين في ضياء الشمس ملتزمين لتقاليدهم القديمة، وقل أن هبط البلاد أجنبي أو غريب؛ فمن اغترب منهم لم يذق للراحة طعما. وكان الكاهن يدبر شئون الحياة وفق قواعد سحيقة القدم، ويرصد النجوم ارتقابا لوقت البذار، ويدرس النذر التي تتمخض عنها القرابين، ويئول ما تجيء به الأحلام من تحذيرات، وكان الناس يعملون ويعشقون ويموتون غير محرومين من أفاويق السعادة، ناسين ما كان لجنسهم من ماضٍ متوحش، وغير عابئين بما يكنه لهم المستقبل. وكان الحاكم في بعض الأحيان رحيما مترفقًا،



شأن بيبي الثاني الذي ظل يحكم مصر تسعين عاما، وكـان طموحا في أحيان أخرى، يأخذ أبناء الشعب جنودا ويرسـلهم على دول المدن المجاورة ليقاتلوا وينهبوا، أو كان يسـومهم العناء والكدح في إقامة المباني العظيمة، كذلك كـان خوفـو وخفرع ومنقرع الذين بنوا تلك النواويس الجبـارة؛ أهـرام الجيزة. وأعظم هذه الأهرام يبلغ ارتفاعه ٤٥٠ قدما، ووزن ما به من حجر ٤,٨٣٣،٠٠٠ طن. وقد جلب هذا الحجر كله بطريق النيل في الـزوارق، ودفعتـه إلـى موضـعه قـوة العضلات الإنسانية بوجه خاص. ولا بد أن تشييده قد أنهـك قوة مصر أكثر من أي حرب عظمى.

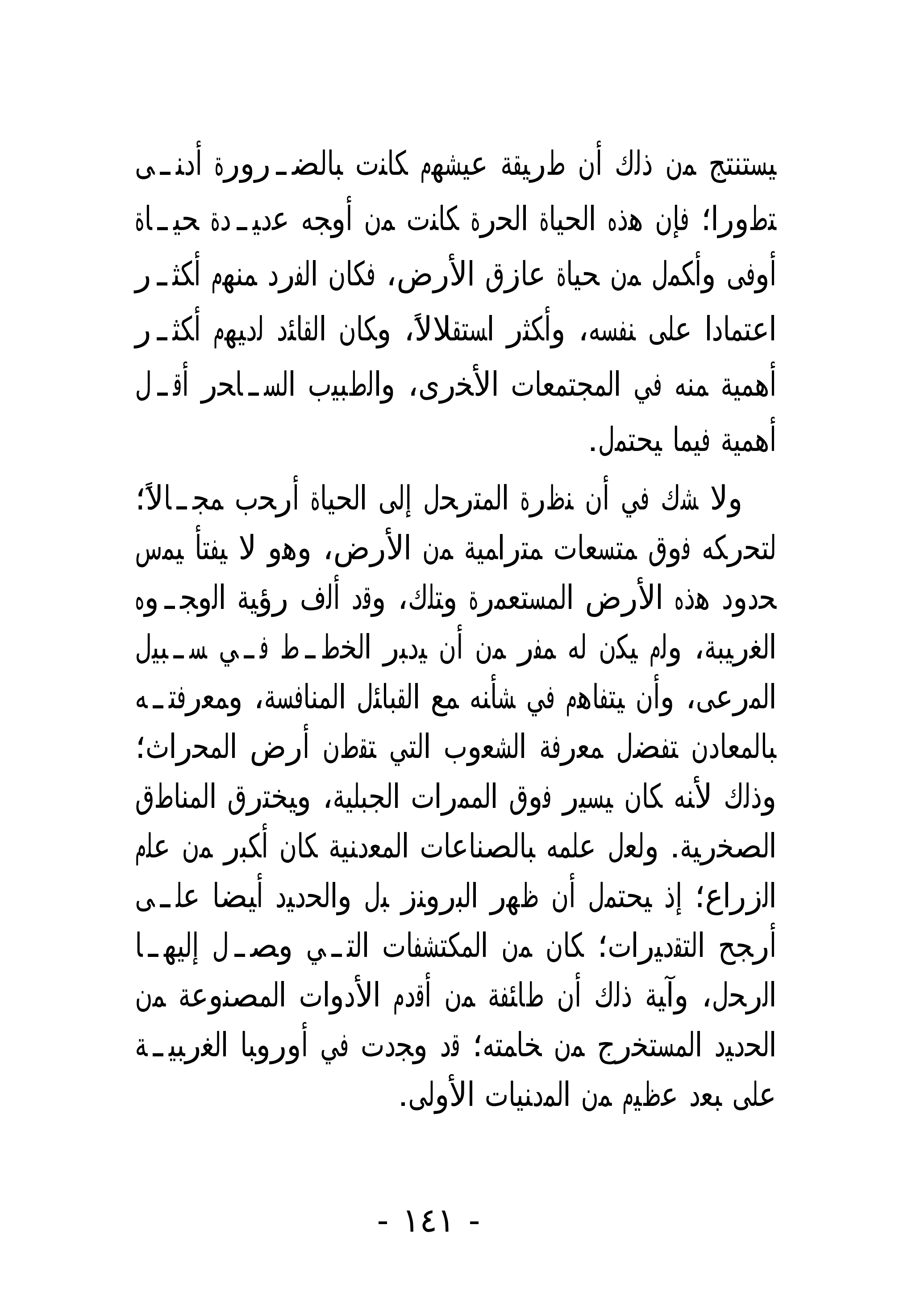
الفصل السادس عشر

الشعوب المترحلة البدائية

لم يكن استقرار الناس إلى حياة الزراعة، وتكـوين دول المدن إبان القرون المحصـورة بـين ٦٠٠٠، ٣٠٠٠ ق. م قاصرا على أرض الجزيرة ووادي النيل وحـدهما، فحيثمـا أتيحت للناس إمكانيات للري ومورد للطعام ثابت على مـدار السنة؛ كانوا يتبدلون حياة الاسـتقرار بصـعوبات الصـيد والتجوال وعدم ثباتهما. وشرع شعب يسـمى بالآشـوريين يؤسس المدن في أعالي دجلة، وكانت هناك في وديان آسـيا الصغرى وعلى شواطئ البحر المتوسط وجزائره مجتمعـات صغيرة أخذت تكبر وتسير في طريقها إلى المدنيـة. ومـن الجائز أن تطورات مماثلة لهذه في الحياة الإنسـانية كانـت تحدث أيضا بالمناطق الموائمة لها من بلاد الهند والصـين. وكان في أجزاء عديدة من أوروبا كثرت بها البحيرات التـي يعمرها السمك بوفرة؛ مجتمعات صغيرة من الناس استقرت منذ أمد بعيد في مساكن بنيت على أعمدة فوق المـاء، كمـا أخذت تقلل من الاهتمام بالزراعة متبدلة بها القنص وصـيد السمك، ولكن مثل هذا النوع من التوطن لم يكن ممكنًا فـي مناطق العالم القديم التي تكبر عن هذه كثيرا منذ كانت البرية (وأدواتها وعلمها على ما نعلم من نقص وعجز)؛ لا تستطيع أن ترمي جذورها وتثبت أقدامها؛ إذ كانـت الأرض أخشـن وأوعر من أن تسمح بذلك، أو كانت الغابات كثيفة، أو كانت التربة قاحلة جدباء، أو الفصول متقلبة عديمة الاستقرار.

وكان الناس يحتاجون إن شاءوا الاستقرار في ظلال الحضارات البدائية إلى فيض مستديم من الماء، ودفء وشمس ساطعة مشرقة. فإذا لم تتهيأ هذه المستلزمات للإنسان عاش جوالاً متنقلاً، وقضى عمره صيادا يتبع صيده، وراعيا يتعقب الكلأ الموسمي، ولكنه لم يكن يستطيع أن يستقر، وربما كان الانتقال من حياة الصيد إلى حياة الرعي تدريجيا جدا، ولعل الناس انتقلوا من تعقب قطعان الماشية البرية أو الخيول البرية (في آسيا) إلى تكوين فكرة عن تملكها، كما تعلموا أن يحجزوها في بعض الوديان، وأن يقاتلوا دونها الذئاب والكلاب الضارية والوحوش الكاسرة الأخرى.

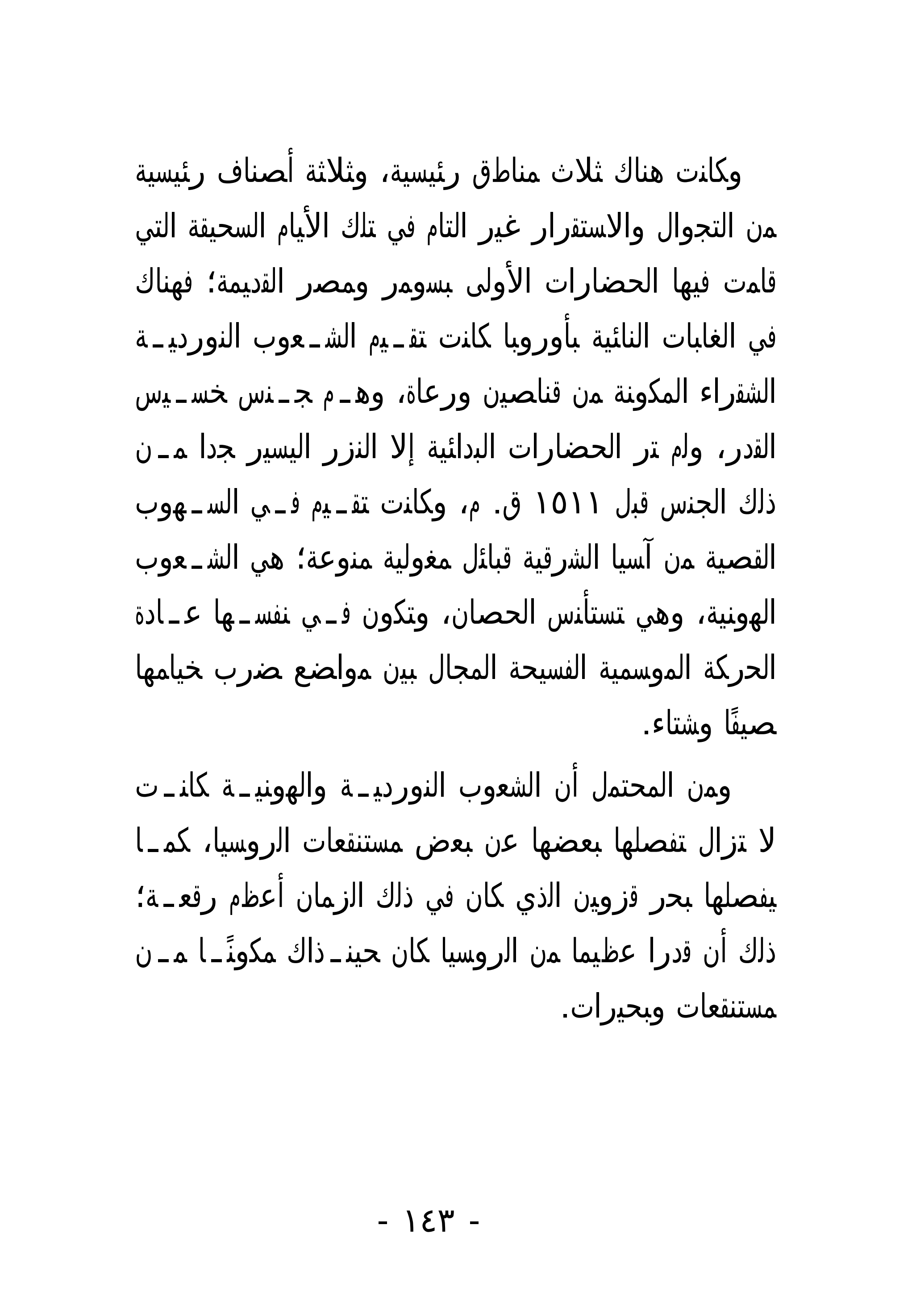
ومن ثم فبينما كانت حضارات الزراع البدائية تنمو بوجه خاص في وديان الأنهار العظمى؛ كانت تنمو أيضا طريقة عيش مغايرة لهذه؛ هي حياة الترحل، وهي حياة تُقضى في حركة مستمرة ذهابا وجيئة، من مرعى الشتاء إلى مرعى الصيف. وكانت الشعوب المترحلة أصلب على وجه الإجمال عودا وأشجع فؤادا من الزراع، وهم أقل إنتاجا للأولاد وأقل عددا، ولم تكن لهم معابد مستديمة، ولا كهانات شديدة التنظيم، وهم أقل أدوات وأجهزة، ولكن لا ينبغي للقارئ أن



يستنتج من ذلك أن طريقة عيشهم كانت بالضـرورة أدنـى تطورا؛ فإن هذه الحياة الحرة كانت من أوجه عديـدة حيـاة أوفى وأكمل من حياة عازق الأرض، فكان الفرد منهم أكثـر اعتمادا على نفسه، وأكثر استقلالاً، وكان القائد لديهم أكثـر أهمية منه في المجتمعات الأخرى، والطبيب السـاحر أقـل أهمية فيما يحتمل.

ولا شك في أن نظرة المترحل إلى الحياة أرحب مجـالاً؛ لتحركه فوق متسعات مترامية من الأرض، وهو لا يفتأ يمس حدود هذه الأرض المستعمرة وتلك، وقد ألف رؤية الوجـوه الغريبة، ولم يكن له مفر من أن يدبر الخطـط فـي سـبيل المرعى، وأن يتفاهم في شأنه مع القبائل المنافسة، ومعرفتـه بالمعادن تفضل معرفة الشعوب التي تقطن أرض المحراث؛ وذلك لأنه كان يسير فوق الممرات الجبلية، ويخترق المناطق الصخرية. ولعل علمه بالصناعات المعدنية كان أكبر من علم الزراع؛ إذ يحتمل أن ظهر البرونز بل والحديد أيضا علـى أرجح التقديرات؛ كان من المكتشفات التـي وصـل إليهـا الرحل، وآية ذلك أن طائفة من أقدم الأدوات المصنوعة من الحديد المستخرج من خامته؛ قد وجدت في أوروبا الغربيـة على بعد عظيم من المدنيات الأولى.

كان للمستقرين من الناحية الأخرى منسوجاتهم وفخارهم، كما أنهم كانوا يصنعون كثيرا من الأشياء المرغوبة. وبينما كان مذهبا الحياة هذان (الزراعة والترحل) يتمايزان أحدهما عن الآخر؛ لم يكن بد من أن يحصل بينهما قدر معين من النهب والاتجار. ولا شك في أنه كان من الأمور المألوفة في بلاد سومر بوجه خاص، بما يكتنف جانبيها من صحراوات وأراضٍ موسمية المناخ؛ أن يخيم المترحلون بالقرب من الحقول المزروعة، وأن يتجروا ويسرقوا، وربما اتخذوا صناعة المعادن حرفة لهم كما يفعل الأغجار (النور) إلى يومنا هذا (ولكنهم لم يكونوا ليسرقوا الدجاج كالأغجار؛ لأن الدجاجة المنزلية (وهي في الأصل دجاجة أحراش هندية) لم يستأنسها الإنسان إلا حوالي ١٠٠٠ ق. م، وإنهم ليجتلبون للزراع الأحجار الكريمة والمصنوعات المعدنية والجلدية، فإن كانوا صيادين جلبوا معهم الفراء، وإنهم ليحصلون مقابلها على الفخار والخرز والزجاج والثياب، وما إليها من أشياء مصنوعة.


وكانت هناك ثلاث مناطق رئيسية، وثلاثة أصناف رئيسية من التجوال والاستقرار غير التام في تلك الأيام السحيقة التي قامت فيها الحضارات الأولى بسومر ومصر القديمة؛ فهناك في الغابات النائية بأوروبا كانت تقيم الشعوب النوردية الشقراء المكونة من قناصين ورعاة، وهم جنس خسيس القدر، ولم تر الحضارات البدائية إلا النزر اليسير جدا من ذلك الجنس قبل ١٥١١ ق. م، وكانت تقيم في السهوب القصية من آسيا الشرقية قبائل مغولية منوعة؛ هي الشعوب الهونية، وهي تستأنس الحصان، وتكون في نفسها عادة الحركة الموسمية الفسيحة المجال بين مواضع ضرب خيامها صيفًا وشتاء.

ومن المحتمل أن الشعوب النوردية والهونية كانت لا تزال تفصلها بعضها عن بعض مستنقعات الروسيا، كما يفصلها بحر قزوين الذي كان في ذلك الزمان أعظم رقعة؛ ذلك أن قدرا عظيما من الروسيا كان حينذاك مكونًا من مستنقعات وبحيرات.

أما صحراوات سوريا وبلاد العرب التـي كـان جـدبها وجفافها آخذا عند ذلك في الزيادة؛ فإن قبائل من شعب أبيض قاتم أو أسمر هي القبائل السامية؛ كانت تدفع فيها قطعانًا من الغنم والمعز والحمير من مرعى إلى مرعى، وهؤلاء الرعاة الساميون (ومعهم قوم لهم سمة نيجريدية قويـة ومـوطنهم جنوب إيران؛ هم العيلاميون) أول الرحـل الـذين اتصـلوا اتصالاً وثيقًا بالحضارات الأولى وجاءوا متجرين ومغيرين، حتى إذا ظهر فيهم في النهاية قادة أجرأ جنانًا؛ أصبحوا غزاة فاتحين.

وفي قريب من ٢٧٥٠ ق.م، كان قائد سامي عظيم هـو "سرجون" قد فتح بلاد سومر بأكملها، وأصبح سيدا للعالم كله من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط. كان همجيـا أميـا، وتعلم شعبه الأكاديون الكتابة السومرية، واتخذوا السـومرية لغة للموظفين والعلماء. وبعد قرنين مـن الزمـان انحطـت الإمبراطورية التي أسسها، حتى إذا وقعت البلاد في قبضـة العيلاميين؛ جاء شعب سامي جديد هو العموريـون؛ فوطـد بالتدريج دعائم حكمه في سومر، فاتخذوا من بابل عاصـمة لهم، وكانت حتى آنذاك مدينة صغيرة بأعالي النهر، وأنشأوا

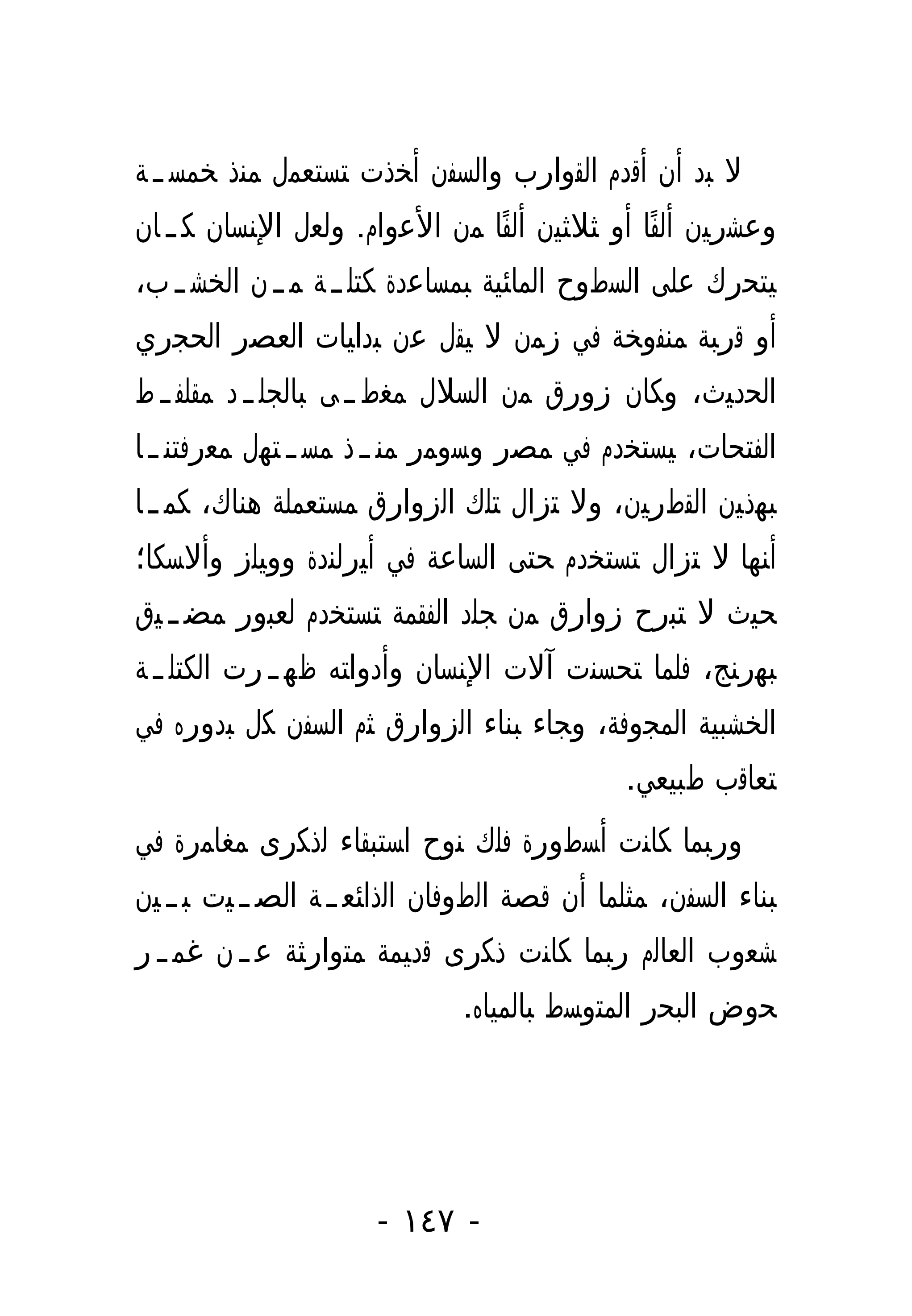
إمبراطورية تسمى الإمبراطورية البابلية الأولى. وقد رفـع من شأنها وشد من تماسكها ملك عظـيم اسـمه حمـورابي (حوالي ٢١٠٠ ق. م)؛ وهو الذي سن أول مجموعـة مـن القوانين يعرفها التاريخ اليوم.

أما وادي النيل الضيق؛ فإن موقعه جعله أقل مـن أرض الجزيرة تعرضا لغزاوت الرحل، ولكن حدث حـوالي عهـد حمورابي أن نجح الساميون في غزو مصر وأقـاموا أسـرة جديدة من الفراعنة؛ هم ملوك الهكسوس أو الرعاة، الذين دام ملكهم قرونًا عديدة. ولم يندمج هؤلاء الغزاة السـاميون قـط بالمصريين؛ وذلك لأن الشعب كان ينظر إليهم على الـدوام نظرة العداء بوصف كونهم أجانب وبرابرة. وأخيرا طردتهم من البلاد ثورة شعبية حوالي ١٦٠٠ ق. م.

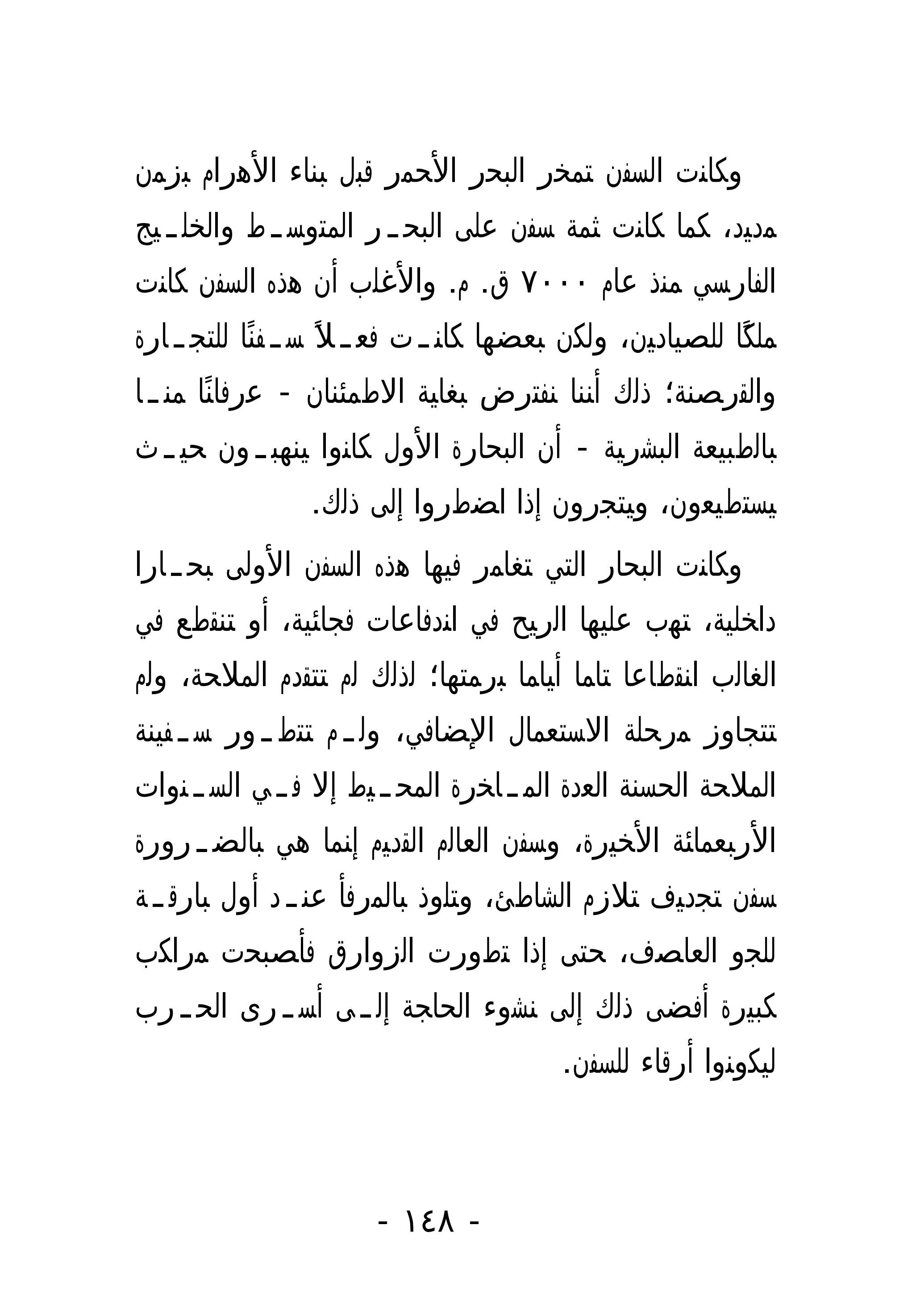
على أن الساميين كانوا قد اسـتقروا فـي بـلاد سـومر إلى الأبد، وتمثل الجنسـان بعضـهما بعضـا، وأصـبحت الإمبراطورية البابلية سامية في لغاتها وسماتها.

الفصل السابع عشر

أول الشعوب البحرية

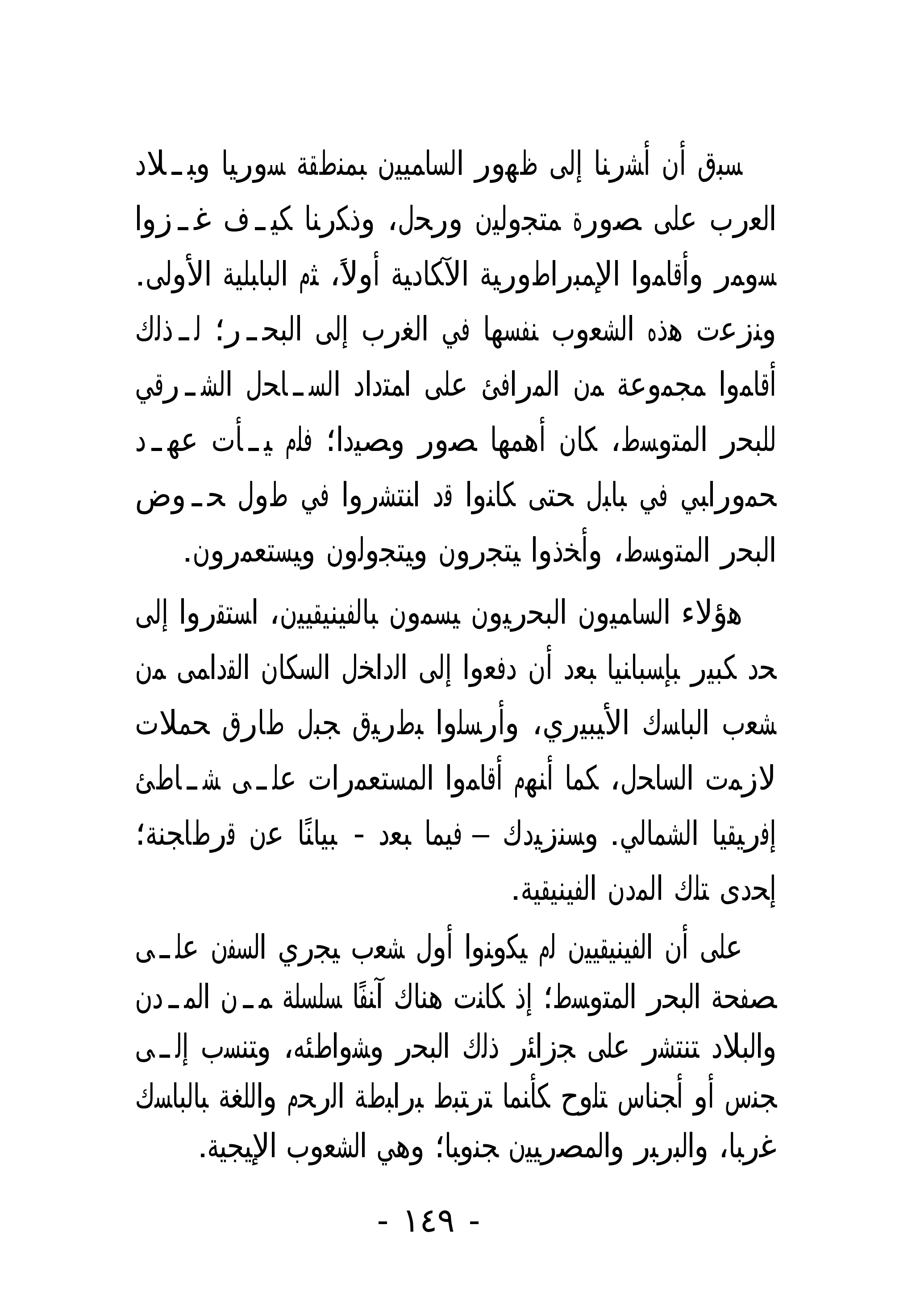

لا بد أن أقدم القوارب والسفن أخذت تستعمل منذ خمسة وعشرين ألفًا أو ثلاثين ألفًا من الأعوام. ولعل الإنسان كان يتحرك على السطوح المائية بمساعدة كتلة من الخشب، أو قربة منفوخة في زمن لا يقل عن بدايات العصر الحجري الحديث، وكان زورق من السلال مغطى بالجلد مقلفط الفتحات، يستخدم في مصر وسومر منذ مستهل معرفتنا بهذين القطرين، ولا تزال تلك الزوارق مستعملة هناك، كما أنها لا تزال تستخدم حتى الساعة في أيرلندة وويلز وألاسكا؛ حيث لا تبرح زوارق من جلد الفقمة تستخدم لعبور مضيق بهرنج، فلما تحسنت آلات الإنسان وأدواته ظهرت الكتلة الخشبية المجوفة، وجاء بناء الزوارق ثم السفن كل بدوره في تعاقب طبيعي.

وربما كانت أسطورة فلك نوح استبقاء لذكرى مغامرة في بناء السفن، مثلما أن قصة الطوفان الذائعة الصيت بين شعوب العالم ربما كانت ذكرى قديمة متوارثة عن غمر حوض البحر المتوسط بالمياه.



وكانت السفن تمخر البحر الأحمر قبل بناء الأهرام بزمن مديد، كما كانت ثمة سفن على البحـر المتوسـط والخلـيج الفارسي منذ عام ٧٠٠٠ ق. م. والأغلب أن هذه السفن كانت ملكًا للصيادين، ولكن بعضها كانـت فعـلاً سـفنًا للتجـارة والقرصنة؛ ذلك أننا نفترض بغاية الاطمئنان - عرفانًا منـا بالطبيعة البشرية - أن البحارة الأول كانوا ينهبـون حيـث يستطيعون، ويتجرون إذا اضطروا إلى ذلك.

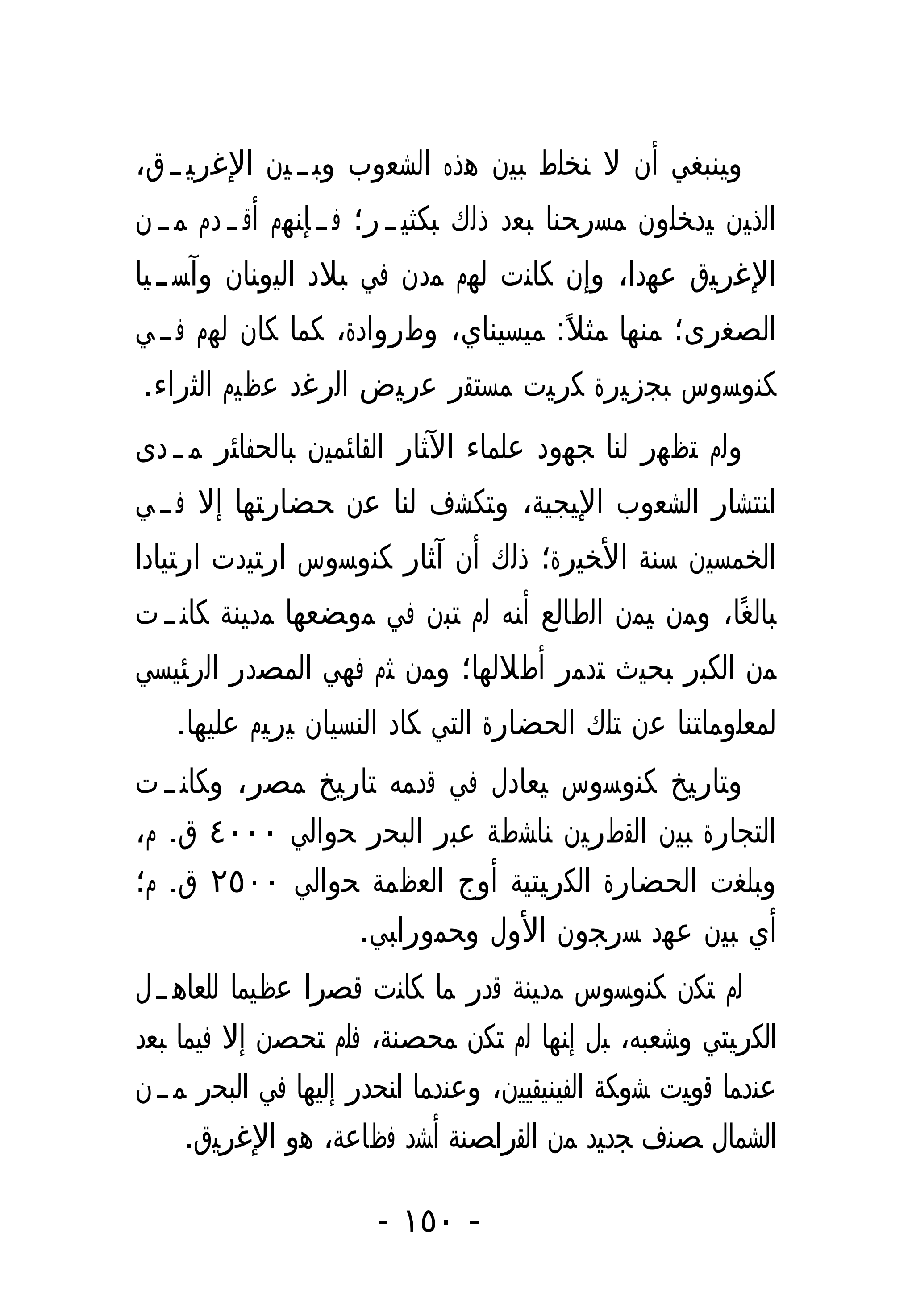
وكانت البحار التي تغامر فيها هذه السفن الأولى بحـارا داخلية، تهب عليها الريح في اندفاعات فجائية، أو تنقطع في الغالب انقطاعا تاما أياما برمتها؛ لذلك لم تتقدم الملاحة، ولم تتجاوز مرحلة الاستعمال الإضافي، ولـم تتطـور سـفينة الملاحة الحسنة العدة المـاخرة المحـيط إلا فـي السـنوات الأربعمائة الأخيرة، وسفن العالم القديم إنما هي بالضـرورة سفن تجديف تلازم الشاطئ، وتلوذ بالمرفأ عنـد أول بارقـة للجو العاصف، حتى إذا تطورت الزوارق فأصبحت مراكب كبيرة أفضى ذلك إلى نشوء الحاجة إلـى أسـرى الحـرب ليكونوا أرقاء للسفن.



سبق أن أشرنا إلى ظهور الساميين بمنطقة سوريا وبلاد العرب على صورة متجولين ورحل، وذكرنا كيف غزوا سومر وأقاموا الإمبراطورية الآكادية أولاً، ثم البابلية الأولى. ونزعت هذه الشعوب نفسها في الغرب إلى البحر؛ لذلك أقاموا مجموعة من المرافئ على امتداد الساحل الشرقي للبحر المتوسط، كان أهمها صور وصيدا؛ فلم يأت عهد حمورابي في بابل حتى كانوا قد انتشروا في طول حوض البحر المتوسط، وأخذوا يتجرون ويتجولون ويستعمرون.

هؤلاء الساميون البحريون يسمون بالفينيقيين، استقروا إلى حد كبير بإسبانيا بعد أن دفعوا إلى الداخل السكان القدامى من شعب الباسك الأيبيري، وأرسلوا بطريق جبل طارق حملات لازمت الساحل، كما أنهم أقاموا المستعمرات على شاطئ إفريقيا الشمالي. وسنزيدك – فيما بعد - بيانًا عن قرطاجنة؛ إحدى تلك المدن الفينيقية.

على أن الفينيقيين لم يكونوا أول شعب يجري السفن على صفحة البحر المتوسط؛ إذ كانت هناك آنفًا سلسلة من المدن والبلاد تنتشر على جزائر ذلك البحر وشواطئه، وتنسب إلى جنس أو أجناس تلوح كأنما ترتبط برابطة الرحم واللغة بالباسك غربا، والبربر والمصريين جنوبا؛ وهي الشعوب الإيجية.



وينبغي أن لا نخلط بين هذه الشعوب وبين الإغريق، الذين يدخلون مسرحنا بعد ذلك بكثير؛ فإنهم أقدم من الإغريق عهدا، وإن كانت لهم مدن في بلاد اليونان وآسيا الصغرى؛ منها مثلاً: ميسيناي، وطروادة، كما كان لهم في كنوسوس بجزيرة كريت مستقر عريض الرغد عظيم الثراء.

ولم تظهر لنا جهود علماء الآثار القائمين بالحفائر مدى انتشار الشعوب الإيجية، وتكشف لنا عن حضارتها إلا في الخمسين سنة الأخيرة؛ ذلك أن آثار كنوسوس ارتيدت ارتيادا بالغًا، ومن يمن الطالع أنه لم تبن في موضعها مدينة كانت من الكبر بحيث تدمر أطلالها؛ ومن ثم فهي المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن تلك الحضارة التي كاد النسيان يريم عليها.

وتاريخ كنوسوس يعادل في قدمه تاريخ مصر، وكانت التجارة بين القطرين ناشطة عبر البحر حوالي ٤٠٠٠ ق. م، وبلغت الحضارة الكريتية أوج العظمة حوالي ٢٥٠٠ ق. م؛ أي بين عهد سرجون الأول وحمورابي.

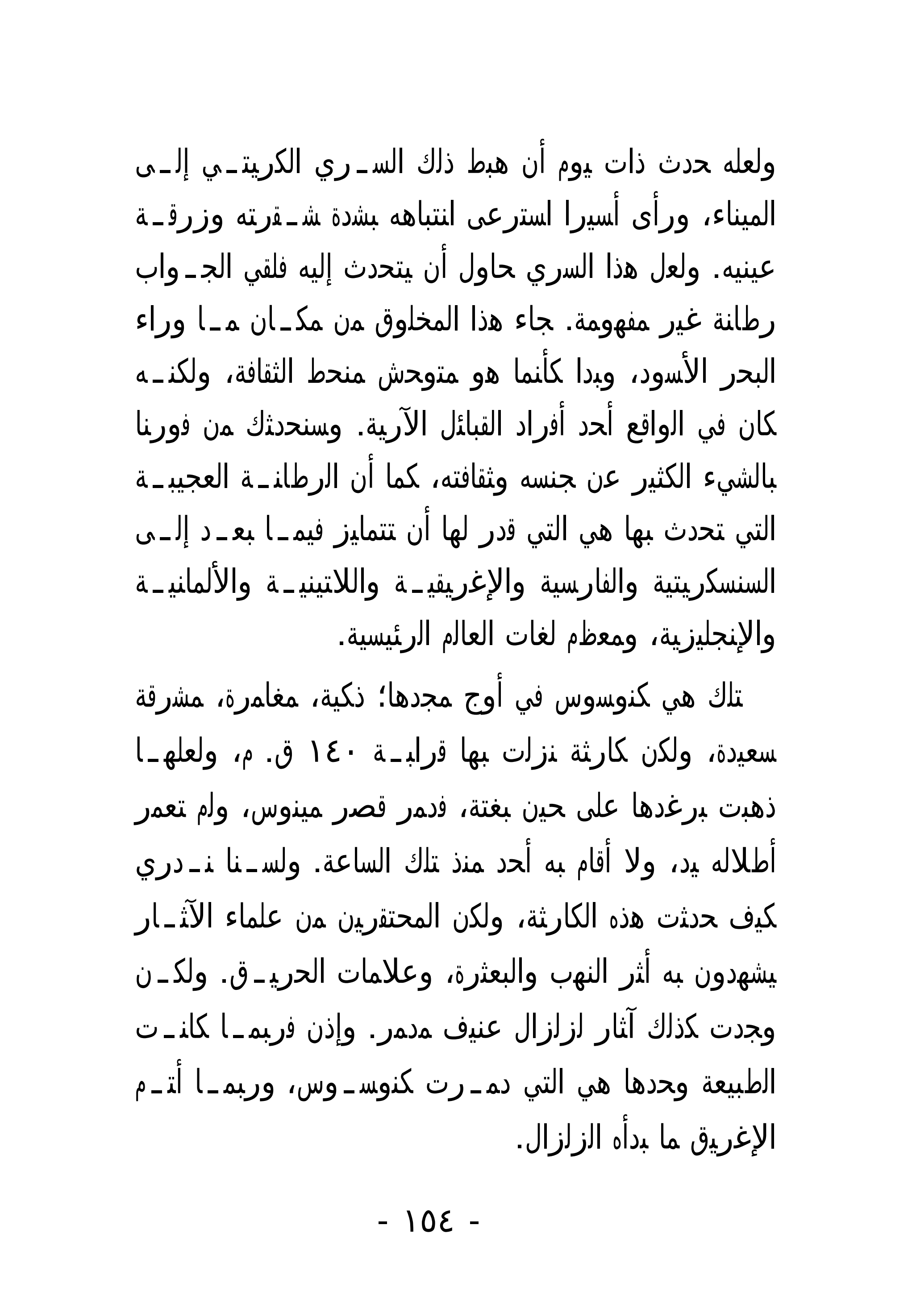
لم تكن كنوسوس مدينة قدر ما كانت قصرا عظيما للعاهل الكريتي وشعبه، بل إنها لم تكن محصنة، فلم تحصن إلا فيما بعد عندما قويت شوكة الفينيقيين، وعندما انحدر إليها في البحر من الشمال صنف جديد من القراصنة أشد فظاعة، هو الإغريق.

والعاهل عندهم يلقب بالمينوس Minos، شـأن العاهـل المصري الملقب بالفرعون، وكان يدير شئون دولتـه مـن قصر مزود بالماء الجاري، وبه الحمامات وما أشبهها مـن وسائل الترف التي لا نعرف لها ضريبا في أي طلل آخر من الأطلال القديمة، وهناك كان يقيم حفلات وأعيـادا عظيمـة. وكان لديهم مصارعة ثيران تشابه مشابهة فريدة مصـارعة الثيران التي لا تزال باقية في إسبانيا، والمشابهة قائمة فـي الحالين في كل شيء، حتى في ثياب مصارعي الثيران، وثمة حفلات لألعاب الجمباز. أما ثياب النساء عندهم فهي عصرية الروح بشكل يلفت النظر؛ فـإنهن كـن يرتـدين المشـداب والأثواب ذات الأهداب المدلاة، والكثير مما أنتجـه هـؤلاء الكريتيون من الفخار، والمنسوجات، وفن النحت والتصوير، والجواهر والعاج، والمعادن والتطعيم بالصـدف، وغيـره؛ جميل جمالاً مدهشًا. وللقوم طريقة للكتابة لا تزال تنتظر من يحل رموزها.

وقد دامت هذه الحياة السعيدة المشرقة الممدنة ما يقـارب العشرين قرنًا؛ فلو استعرضت كنوسـوس وبابـل حـوالي ٢٠٠ق. م؛ لوجدتهما تعجان بأناس مثقفين ينعمون بوسـائل الراحة، ويعيشون في الراجح حياة دعة ومسرة. وهم يقيمون الحفلات والأعياد الدينية، ولديهم عبيد المنازل الذين يقومون على خدمتهم، والعبيد الصناع الذين يدرون عليهم الربح، فكم كانت الحياة في كنوسوس تبدو لعين هـؤلاء النـاس آمنـة مطمئنة، ومن فوقها الشمس بضيائها الباهر، ومن حولها لجج البحر الزرقاء المترامية!! ومن البديهي أن مصر كانت تبدو في تلك الأيام قطرا متدهورا، وهي تحت حكم ملوكها الرعاة نصف الهمج، وإذا كنا ممن يهتمون بالسياسة لـم يفتنـا أن نلحظ كم كانت الشعوب السامية تنتشر في كل مكان؛ فهـي تحكم مصر، وتحكم بابل القصية، وتبنـي نينـوى بأعـالي الدجلة، وتبحر غربا حتى أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، وتنشئ مستعمراتها على تلك السواحل النائية.

ولا شك في أنه كان في كنوسوس بعض العقول المفكـرة المحبة للاستطلاع؛ إذ تحدثت أساطير الإغريق فيما بعد عن صانع كريتي حاذق اسمه دايدالوس، حاول أن ينشئ ضـربا ما من آلة للطيران لعلها طائرة شـراعية، ولكنهـا سـقطت وهوت إلى البحر.

ومن الشائق أن ندرس بعض أوجه الشبه والخلاف بـين الحياة في كنوسوس والحياة عندنا. فإن الحديد كان يعد عنـد أي سري من الكريتيين يعيش في ٢٥٠٠ ق. م؛ معدنًا نادرا يسقط من السماء، كما كان شيئًا طريفًا أكثر منه نافعا؛ إذ لم يكن الناس يعرفون حتى آنذاك إلا حديد النيازك، ولـم يكـن أحد قد استخلص الحديد بعد من خامه المعروف. وعندي أنه لا وجه للموازنة بين هذه الحال وبين حالتنا العصرية التـي يدخل الحديد في كل مرفق من مرافقها. ومن جهـة أخـرى يكون الحصان حيوانًا أسطوريا تماما لدى سراة كريت، فهو عندهم صنف من الحمار الراقي يعيش في الأراضي الشمالية الباردة الواقعة وراء البحر الأسود بمسافات شاسعة. وبديهي أن أهم موطن للحضارة لدى السري الكريتي كان المنطقـة الإيجية وآسيا الصغرى؛ حيث كـان الليـديون والكـاريون والطرواديون يعيشون عيشًا كعيشه، وربما يتكلمـون لغـات كلغته. وكان ثمة فينيقيون وإيجيون يستقرون فـي إسـبانيا وشمال إفريقيا، ولكن تلك الأقطار كانت تتراءى لعين خيالـه بلادا سحيقة البعد، وكانت إيطاليا لا تزال أرضـا موحشـة تغطيها الغابات الكثيفة؛ إذ لم يكـن الإترسـك (التوسـكان) ذوو البشرة السمراء قد انتقلوا إليها بعد من آسيا الصـغرى.



ولعله حدث ذات يوم أن هبط ذلك السـري الكريتـي إلـى الميناء، ورأى أسيرا استرعى انتباهه بشدة شـقرته وزرقـة عينيه. ولعل هذا السري حاول أن يتحدث إليه فلقي الجـواب رطانة غير مفهومة. جاء هذا المخلوق من مكـان مـا وراء البحر الأسود، وبدا كأنما هو متوحش منحط الثقافة، ولكنـه كان في الواقع أحد أفراد القبائل الآرية. وسنحدثك من فورنا بالشيء الكثير عن جنسه وثقافته، كما أن الرطانـة العجيبـة التي تحدث بها هي التي قدر لها أن تتمايز فيمـا بعـد إلـى السنسكريتية والفارسية والإغريقيـة واللاتينيـة والألمانيـة والإنجليزية، ومعظم لغات العالم الرئيسية.

تلك هي كنوسوس في أوج مجدها؛ ذكية، مغامرة، مشرقة سعيدة، ولكن كارثة نزلت بها قرابـة ١٤٠٠ ق. م، ولعلهـا ذهبت برغدها على حين بغتة، فدمر قصر مينوس، ولم تعمر أطلاله يد، ولا أقام به أحد منذ تلك الساعة. ولسـنا نـدري كيف حدثت هذه الكارثة، ولكن المحتقرين من علماء الآثـار يشهدون به أثر النهب والبعثرة، وعلامات الحريـق. ولكـن وجدت كذلك آثار لزلزال عنيف مدمر. وإذن فربمـا كانـت الطبيعة وحدها هي التي دمـرت كنوسـوس، وربمـا أتـم الإغريق ما بدأه الزلزال.

الفصل الثامن عشر

مصر وبابل وآشور

لم يخضع المصريون البتة برضاء تـام لحكـم ملـوكهم الرعاة الساميين، ثم قامت حركـة وطنيـة قويـة حـوالي ١٦٠٠ ق. م، انتهت بطرد الغاصب الأجنبي مـن الـبلاد، وأعقب ذلك دور انتعاش جديد لمصر؛ وهي فترة يطلق عليها علماء الدراسات المصرية القديمة اسم الإمبراطورية الحديثة؛ فإن مصر التي لم تكن قبل غزوة الهكسوس قوية التماسـك أصبحت آنذاك قطرا متحدا تماما، وكان لفترة خضوعها لنير الأجنبي وثورتها عليه الفضل في إذكاء الروح العسكرية بها، فأصبح الفراعنة غزاة فاتحين، خاصة وقد حصلوا قبل ذلـك على حصان القتال وعجلة القتل، التي جلبها الهكسوس معهم. وسرعان ما بسطت مصر سلطانها في آسيا حتى نهر الفرات في عهد تحتمس الثاني وأمنحوتب الثالث (أمينوفيس).

ونحن الآن مقبلون على مرحلة جديدة من حروب دامـت ألف سنة بين حضارتي النيل وأرض الجزيرة، اللتـين كانـا يوما منفصلتين إحداهما عن الأخرى تماما، وكانت لمصـر الغلبة أول الأمر، وجاءت الأسر الكبرى؛ وهي الأسر الثامنة عشرة التي من ملوكها تحتمس الثـاني وأمنحوتـب الثالـث والرابع وملكة عظيمة هي حاتاسو، والأسرة التاسعة عشرة،

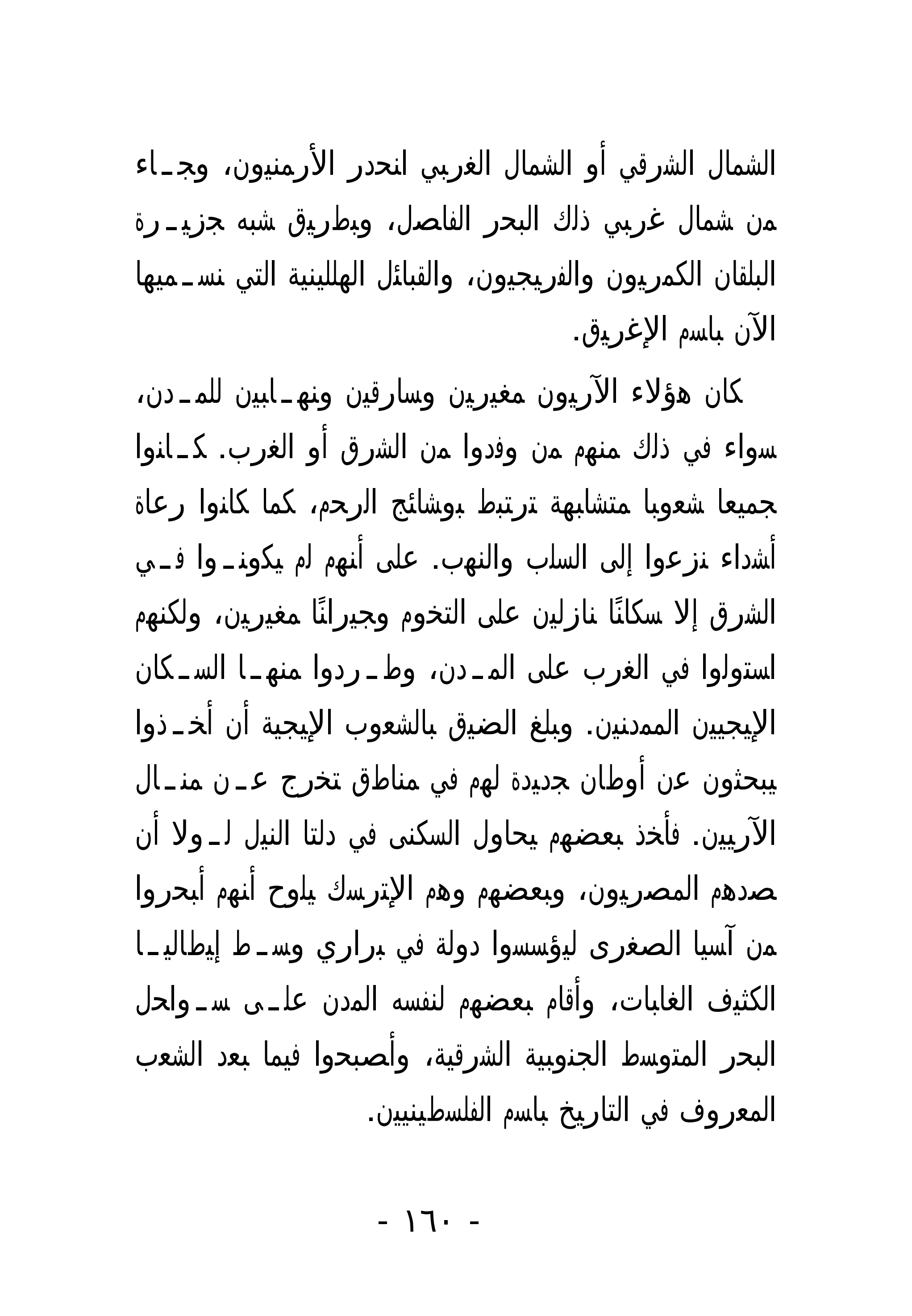
ومنها رمسيس الثاني (ويحسبه بعضهم فرعون موسى) الذي حكم سبعا وستين عاما. رفعت هاتان الأسرتان شأن مصـر إلى مدارج عالية من العزة والرخاء، وفيما بين ذلك ألمـت بمصر أدوار التدهور؛ إذ غزاها السوريون، ثم الإثيوبيـون من الجنوب فيما بعد.

وسيطرت بابل على أرض الجزيرة دهرا، ثم ارتفع شـأو الحيثيين بها فسوريي دمشق إبان دور عزه قصـير الأمـد، وجاء أوان غزا فيـه السـوريون مصـر، وتـرجح نجـم الأشوريين في نينوى بين الصعود والأفول؛ فتـارة تكـون المدينة مغزوة مهيضة، وتـارة يحكـم الآشـوريون بابـل ويغيرون على مصر. والبراح الذي بين أيدينا أضيق من أن يسمح لنا بأن نحدثك عن غدوات وروحات جيـوش مصـر والدول السامية المتنوعة بآسيا الصـغرى وسـوريا وأرض الجزيرة. وبحسبك أنها كانت آنذاك جيوشًا مـزودة بأرتـال ضخمة من العجلات الحربية؛ ذلك أن الحصان (الذي لم يكن يستخدم إلا في الحرب وإظهار العظمة) كان قد انتشـر فـي ذلك الوقت من آسيا الوسطى إلى بلاد المدنيات القديمة.

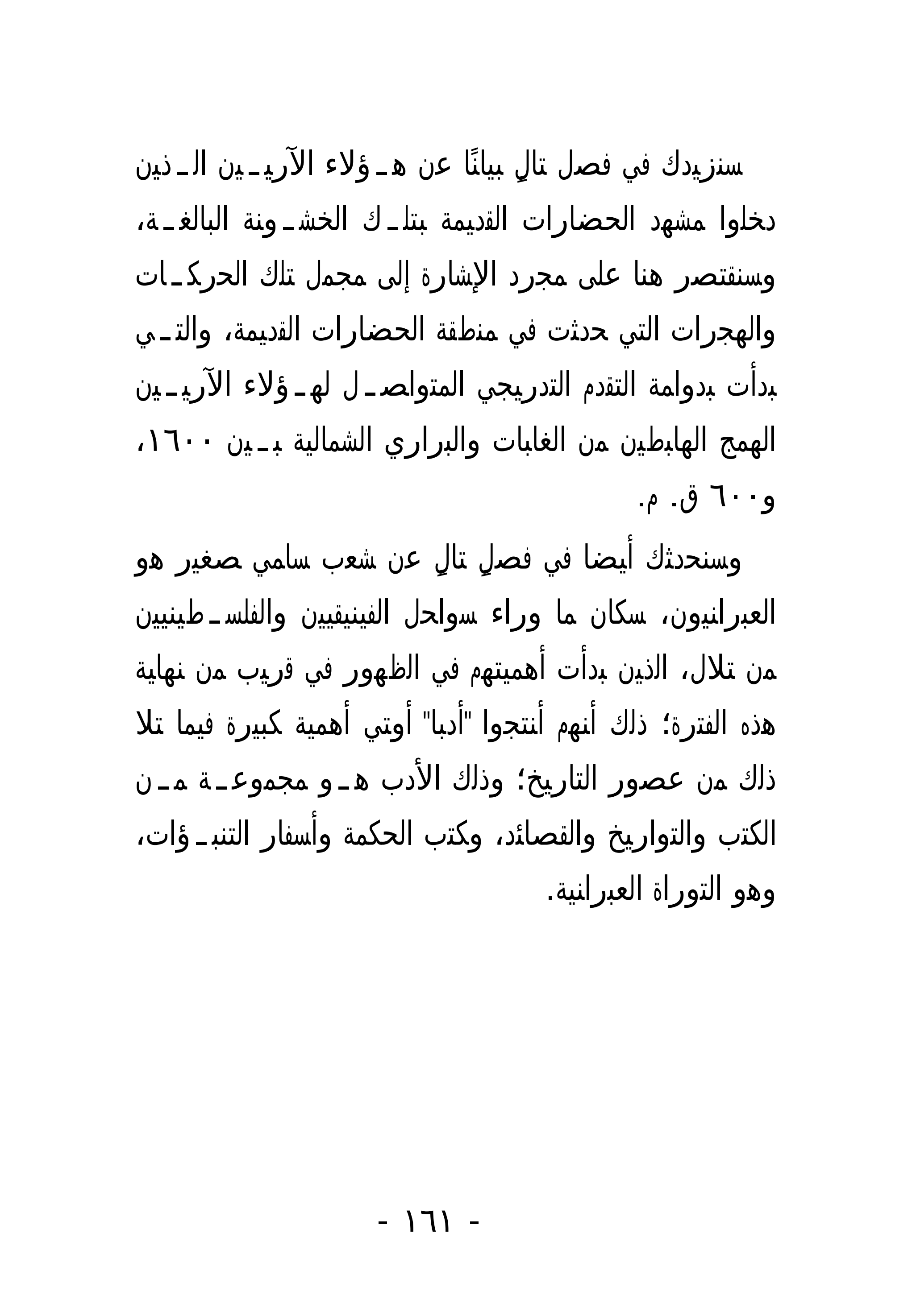
ويظهر على المسرح في النور الخافت المنبعث من ذلـك الزمن السحيق غزاة كبار يظهرون ثم يذهبون، منهم تشراتا ملك ميتاني، الذي استولى على نينوى، ومنهم وتجلات بلسر الأول الذي فتح بابل، وأخيرا أصبح الآشوريون أعظم قـوة حربية في ذلك الأوان، فغزا تجلات بلسر الثالث بابـل فـي ٧٤٥ ق. م، وأسس ما يسميه المؤرخون باسم الإمبراطورية الآشورية الجديدة، وكان الحديد قد وفد الآن هو أيضـا مـن الشمال إلى بلاد الحضارة؛ إذ حصل عليـه أولاً الحيثيـون أسلاف الأرمن، وعنهم أخذه الآشوريون، كمـا أن مغتصـبا للعرش الآشوري اسمه سرجون الثاني سلح به جيوشه؛ فكأن مملكة آشور أول قطر أخذ بمبدأ الحديـد والـدم. وزحـف سنحريب بن سرجون بجيشه إلى حدود مصر، ولكنه ارتـد عنها لا لهزيمة لحقته من قوة عسكرية؛ بـل بسـبب وبـاء الطاعون، وتم لحفيد سنحريب الملك آشور بانيبـال (الـذي يعرف أيضا في التاريخ باسمه الإغريقي ساردانابالوس) فتح مصر فعلاً في ٦٧٠ ق. م، لكن مصر كانت في ذلك الحين قطرا محتلاً تحكمـه أسـرة إثيوبيـة؛ فكـل الـذي فعلـه ساردانابالوس هو أن أحل فاتحا محل آخر.

فلو أتيحت لنا مجموعة من الخرائط السياسية لتلك الفترة الطويلة من التاريخ، الممتدة على تلك القرون العشرة، لوجدنا مصر تمتد وتتقاص كما تفعل الأميبا تحت الميكروسكوب، ولرأينا هذه الدول السامية المتنوعة من بابليين وآشوريين وحيثيين وسوريين تجيء وتغدو، وتبتلع إحداها الأخرى، ثم تعود فتلفظ إحداها الأخرى مرة ثانية. وإنا لنجد في غرب آسيا الصغرى دولاً إيجية صغيرة مثل ليديا التي كانت عاصمتها سارديس، ومثل كاريا. ولكن الذي حدث بعد قرابة ١٢٠٠ ق. م وربما قبلها؛ هو أن مجموعة جديدة من الأسماء ظهرت على خريطة العالم العتيق، هابطة من الشمال الشرقي والشمال الغربي، وما هذه إلا أسماء قبائل همجية معينة، تتسلح بأسلحة الحديد، وتستخدم العجلات التي تجرها الخيل، وتغير على الحضارات الإيجية والسامية في مناطق تخومها الشمالية، وتنزل بها النكبات. وكانوا جميعا يتكلمون ضروبا مختلفة من لسان كان في الأصل لغة واحدة؛ هي الآرية.

أخذ الميديون والفرس يهبطون من الشمال الشرقي للبحر الأسود وبحر قزوين. وتختلط سجلات تلك العصور بين هؤلاء وبين الإسكيذيين (الأشقوذيين) والصوماليين. ومن


الشمال الشرقي أو الشمال الغربي انحدر الأرمنيون، وجاء من شمال غربي ذلك البحر الفاصل، وبطريق شبه جزيرة البلقان الكمريون والفريجيون، والقبائل الهللينية التي نسميها الآن باسم الإغريق.

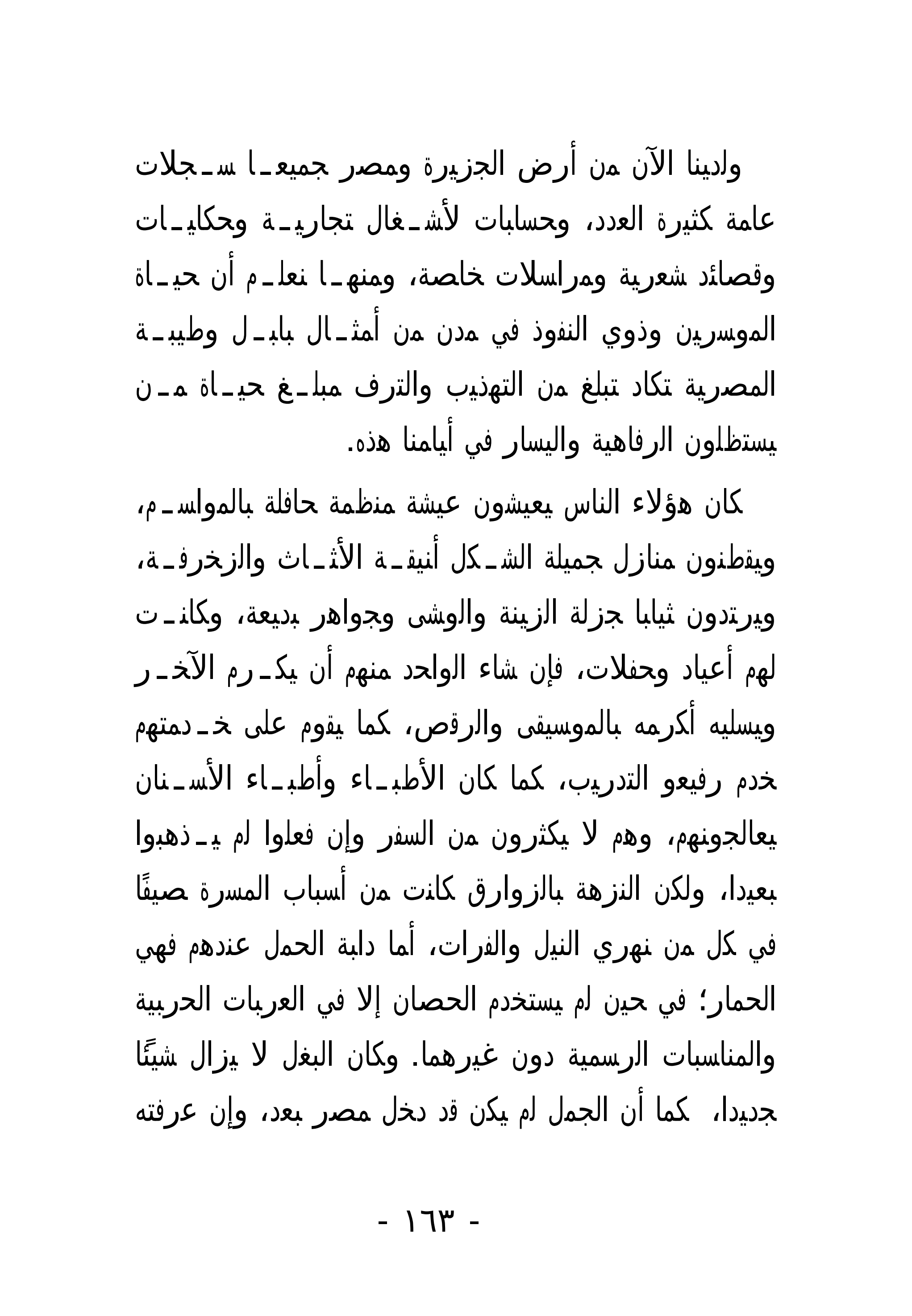
كان هؤلاء الآريون مغيرين وسارقين ونهابين للمدن، سواء في ذلك منهم من وفدوا من الشرق أو الغرب. كانوا جميعا شعوبا متشابهة ترتبط بوشائج الرحم، كما كانوا رعاة أشداء نزعوا إلى السلب والنهب. على أنهم لم يكونوا في الشرق إلا سكانًا نازلين على التخوم وجيرانًا مغيرين، ولكنهم استولوا في الغرب على المدن، وطردوا منها السكان الإيجيين الممدنين. وبلغ الضيق بالشعوب الإيجية أن أخذوا يبحثون عن أوطان جديدة لهم في مناطق تخرج عن منال الآريين. فأخذ بعضهم يحاول السكنى في دلتا النيل لولا أن صدهم المصريون، وبعضهم وهم الإترسك يلوح أنهم أبحروا من آسيا الصغرى ليؤسسوا دولة في براري وسط إيطاليا الكثيف الغابات، وأقام بعضهم لنفسه المدن على سواحل البحر المتوسط الجنوبية الشرقية، وأصبحوا فيما بعد الشعب المعروف في التاريخ باسم الفلسطينيين.



سنزيدك في فصل تالٍ بيانًا عن هـؤلاء الآريـين الـذين دخلوا مشهد الحضارات القديمة بتلـك الخشـونة البالغـة، وسنقتصر هنا على مجرد الإشارة إلى مجمل تلك الحركـات والهجرات التي حدثت في منطقة الحضارات القديمة، والتـي بدأت بدوامة التقدم التدريجي المتواصـل لهـؤلاء الآريـين الهمج الهابطين من الغابات والبراري الشمالية بـين ١٦٠٠، و٦٠٠ ق. م.

وسنحدثك أيضا في فصلٍ تالٍ عن شعب سامي صغير هو العبرانيون، سكان ما وراء سواحل الفينيقيين والفلسـطينيين من تلال، الذين بدأت أهميتهم في الظهور في قريب من نهاية هذه الفترة؛ ذلك أنهم أنتجوا "أدبا" أوتي أهمية كبيرة فيما تلا ذلك من عصور التاريخ؛ وذلك الأدب هـو مجموعـة مـن الكتب والتواريخ والقصائد، وكتب الحكمة وأسفار التنبـؤات، وهو التوراة العبرانية.

ولم يسبب ظهور الآريين أي تغييـر جـوهري بـأرض الجزيرة (العراق) ومصر إلا بعـد ٦٠٠ ق. م. ولا بـد أن فرار الإيجيين أمام الإغريق، بل حتى تدمير كنوسوس؛ قـد بدا لكل من سكان مصر بابل حركة اضطراب نائيـة جـدا. وكانت الأسر المالكة تذهب وتجيء في هاتين الدولتين مهـاد الحضارة، على أن الحياة البشـرية سـارت فـي مجراهـا الرئيسي، وإن حلت بها ببطء على مر العصور زيادة طفيفة في التهذيب والتعقيد. وأما مصر فكانت الآثار التي تكدسـت عن العصور التليدة السابقة قد زادت كثيرا بما أضيف إليهـا من مبانٍ جديدة فاخرة، شيدت بوجـه خـاص فـي عصـر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، وكان عمر الأهرام قد بلغ آنذاك ثلاثة آلاف سنة، كما كانت فرجة يتفرج عليهـا الزوار كما يفعلون الآن تمامـا! ويرجـع معبـدا الكرنـك والأقصر الكبيران إلى ذلك الزمان. أما نينوى فـإن الآثـار الرئيسية بها (المعابد الكبـرى، والثيـران المجنحـة ذوات الرءوس البشرية، والحفـر البـارز الـذي يمثـل الملـوك والعجلات وصيد الأسود) من صـنع تلـك القـرون بـين ١٦٠٠ و٦٠٠ ق. م، كما أن هذه الفترة تشتمل أيضا علـى معظم ما بلغته بابل من أبهة وجلال.



ولدينا الآن من أرض الجزيرة ومصر جميعـا سـجلات عامة كثيرة العدد، وحسابات لأشـغال تجاريـة وحكايـات وقصائد شعرية ومراسلات خاصة، ومنهـا نعلـم أن حيـاة الموسرين وذوي النفوذ في مدن من أمثـال بابـل وطيبـة المصرية تكاد تبلغ من التهذيب والترف مبلـغ حيـاة مـن يستظلون الرفاهية واليسار في أيامنا هذه.

كان هؤلاء الناس يعيشون عيشة منظمة حافلة بالمواسـم، ويقطنون منازل جميلة الشـكل أنيقـة الأثـاث والزخرفـة، ويرتدون ثيابا جزلة الزينة والوشى وجواهر بديعة، وكانـت لهم أعياد وحفلات، فإن شاء الواحد منهم أن يكـرم الآخـر ويسليه أكرمه بالموسيقى والرقص، كما يقوم على خـدمتهم خدم رفيعو التدريب، كما كان الأطبـاء وأطبـاء الأسـنان يعالجونهم، وهم لا يكثرون من السفر وإن فعلوا لم يـذهبوا بعيدا، ولكن النزهة بالزوارق كانت من أسباب المسرة صيفًا في كل من نهري النيل والفرات، أما دابة الحمل عندهم فهي الحمار؛ في حين لم يستخدم الحصان إلا في العربات الحربية والمناسبات الرسمية دون غيرهما. وكان البغل لا يزال شيئًا جديدا، كما أن الجمل لم يكن قد دخل مصر بعد، وإن عرفته

أرض الجزيرة من قبل. ومن الطبيعي أن الأوعية المصنوعة من الحديد كانت قليلة؛ إذ إن النحاس والبرونز ظـلا همـا المعدنين المنتشرين، وكانت الرفائع من أنسجة القطن والتيل معروفة هي والصوف، ولكن لم يكن هناك حرير، وعـرف الناس الزجاج، وأضفوا عليه الألوان الجميلة، ولكن الأوعية الزجاجية كانت في العادة صغيرة، ولم يكن الزجاج صـافيا شفافًا، كما أنه لم يستخدم في العدسات. كان الناس يحشـون أسنانهم بالذهب، وإن لم يضعوا المناظير فوق أنوفهم!!

وهناك فارق عجيب بـين الحيـاة فـي طيبـة القديمـة أو بابل، وبينها في العصور الحديثـة؛ هـو غيبـة العملـة المسكوكة، فالمقايضة هي الأساس في القدر الأعظـم مـن الصفقات التجارية، وكانت بابل تسبق مصـر مـن الناحيـة المالية بأشواط بعيدة، واستعمل الذهب والفضة في التبـادل، وجعلا في صورة سبائك، وقبل سك النقود بزمن مديد كـان هناك أصحاب مصارف يدمغون أسماءهم والوزن على هـذه الكتل من المعدن النفيس، وكان التاجر أو المسـافر يحمـل الأحجار الثمينة ليبيعها وينفق منها، وكـان معظـم الخـدم والعمال عبيدا لا يتناولون أجورهم نقدا بل عينًا. ولما ظهرت النقود انحط الرق.

ولو أن زائرا من أهل عصرنا زار هاتين المدينتين اللتين أصبحتا تاجا على مفرق العالم القديم، لافتقد صنفين هـامين جدا من أصناف الغذاء هما الدجاج والبـيض؛ ولـذا فـإن الطاهي الفرنسي ما كان يجد مسرة كبيرة فـي بابـل، فـإن هذين الصنفين وصلا من الشرق في عصر الإمبراطوريـة الآشورية الأخيرة تقريبا.

وكذلك الديانة، فقد ألم بها ككل شيء آخر تهذيب عظـيم؛ إذ اختفت القرابين البشرية مثلاً منذ أمد بعيد، وحل الحيـوان أو الدمى المصنوعة من الخبز محـل الضـحية. علـى أن الفينيقيين وبخاصة سكان قرطاجنة (أعظم مسـتقراتهم فـي إفريقيا) اتهموا فيما بعد بالتضحية بالكائنات البشرية. وجرت العادة كلما مات رئيس كبير في الأيام الخاليـة أن يضـحي بزوجاته وعبيده، وأن تكسر الحراب والقسي عند قبره؛ وذلك لكي لا يكون في عالم الأرواح بلا أتباع ولا أسلحة، وبقيـت بمصر عن هذا التقليد الرهيب عادة لطيفة؛ هي دفن نمـاذج صغيرة للبيت والدكان والخدم والماشية مع الميـت. وهـي نماذج تمدنا اليوم بأروع تمثيل حي لتلـك الحيـاة الوادعـة المثقفة لهذا الشعب العتيق قبل ثلاثة آلاف سنة أو تزيد.

هكذا كان العالم القديم قبل انحدار الآريين من غابات الشمال وسهوله. وحدثت بالهند والصين تطورات موازية لهذه؛ فقد نشأت الوديان الكبيرة بهذين القطرين كليهما دول مدن زراعية لشعوب سمراء، وأخذت تنمو وتزدهر، ولكن لا يبدو أنها تقدمت أو ائتلفت ببلاد الهند بنفس سرعتها بأرض الجزيرة أو مصر؛ لذا كانوا أدنى إلى مستوى السومريين أو مرتبة حضارة المايا الأمريكية. أما الصين فتاريخها لا يزال بحاجة إلى علمائها لكي تضفي عليها الطابع العصري، وتنقيه من كثير مما يشوبه من أساطير. والراجح أن الصين كانت في ذلك الأوان أكثر تقدما من الهند، وقد عاصرت الأسرة الثامنة عشرة بمصر أسرة إمبراطورية في الصين هي أسرة شانج، وهم أباطرة كهنة يحكمون إمبراطورية منحلة الروابط من ملوك تابعين. وكان رأس واجبات هؤلاء الأباطرة الأول هو تقديم القرابين الموسمية. ولا تزال هناك إلى اليوم أوانٍ برونزية جميلة ترجع إلى عهد أسرة شانج، وفيها من الجمال وجودة الصنعة ما يجعلنا نحس بأنها لم تصل إلى ما بلغته إلا بعد قرون عدة من الحضارة.

الفصل التاسع عشر

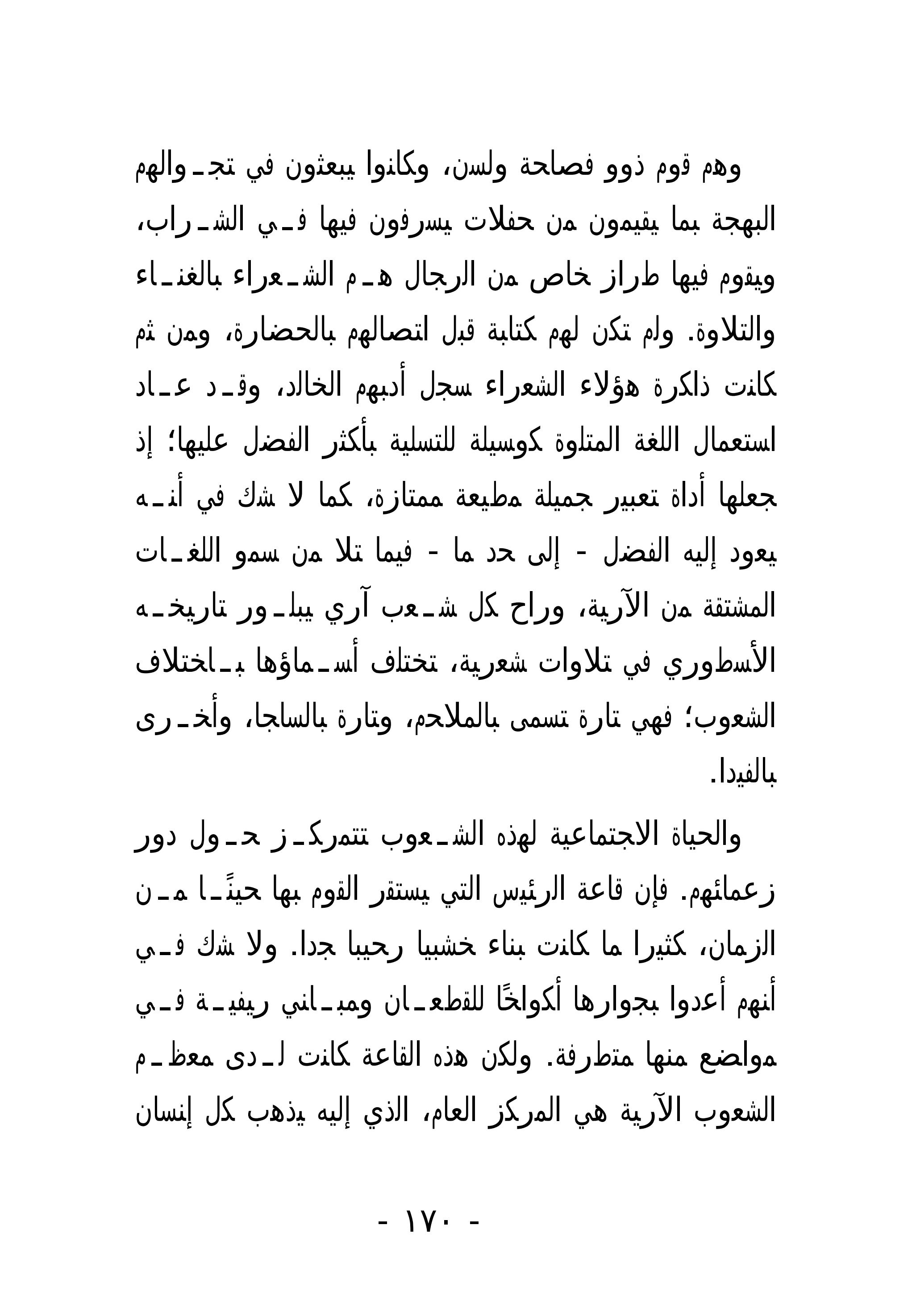
الآريون البدائيون

منذ أربعة آلاف سنة؛ أي حوالي عام ٢٠٠٠ ق. م، كانت أوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية وآسيا أدفأ مناخًا علـى الأرجح، وأكثر مطرا وغابات مما هي الآن. وكانت تتجـول في هذه الأقاليم من الأرض مجموعة من القبائل معظمها من العنصر النوردي الأشقر الأزرق العيون، بلغ من اتصـالهم بعضهم ببعض أن لغاتهم لم تزد عن مجرد فروع منوعة من لغة واحدة مشتركة، تنتشر من نهر الراين إلى بحر قـزوين. ولعلهم لم يكنوا في ذلك الوقت شعبا وفير العدد جدا، ولعـل البابليين الذين كان حمورابي يمنحهم آنذاك القوانين لم يحسوا بوجودهم. ولا أحست بهم أرض مصر العريقة آنفًا في القدم والتثقيف، والتي كانت تذوق في تلك الأيام لأول مرة مرارة الغزو الأجنبي.

وقدر لهذه الشعوب النوردية أن تلعب دورا هامـا جـدا بالفعل في تاريخ العالم؛ كـانوا شـعوب أحـراش أو أراضٍ قطعت منها الغابات، ولم يملكوا الحصان فـي البدايـة وإن وجدت لديهم الماشية؛ فإذا هم تجولوا وضعوا خيامهم وبقيـة متاعهم على عربات خشنة تجرها الثيران، وإذا استقروا زمنًا ما فلعلهم كانوا يصنعون عشوشًا من رفيع الغصون والطين،

وإذا مات واحد من ذوي المكانة فيهم أحرقـوا جثتـه، ولـم يدفنوه بالمراسم كما كانت الشعوب البيضاء القاتمـة تفعـل، وكانوا يضعون تراب كبار زعمائهم في أوانٍ ثـم ينشـئون حولها رابية مستديرة، وهذه الروابي هي القبور المسـتديرة التي تنتشر في جميع أرجاء أوروبا الشـمالية، ولـم تكـن الشعوب القاتمة السابقة لهم تحرق موتاها؛ بل تـدفنها فـي هيئة جلوس داخل رواب مستطيلة هـي "القبـور الطويلـة" Long barrows.

وكان الآريون ينتجون القمح، ويحرثون الأرض بالثيران، ولكنهم لم يكونوا يستقرون إلى جوار محصولاتهم؛ ذلك أنهم ما يكادون يحصدون حتى يرحلون، وقد ملكوا البرونز، ثـم حصلوا على الحديد حوالي ١٥٠ ق. م. ولعلهـم أول مـن اكتشف صهر الحديد، وما لبثوا في زمن مـا يقـارب ذلـك الوقت نفسه أو يكاد؛ أن حصلوا أيضا على الحصان الـذي بدأوا باستخدامه في أغراض الجر دون غيرها، ولم تتمركز حياتهم الاجتماعية حول معبد كالذي تمركزت حوله شـعوب البحر المتوسط الأكثر استقرارا، وكان كبارهم قادة في ميدان الحرب أكثر منهم كهنة، ونظامهم الاجتمـاعي أرسـتقراطي وليس فيه ربوبية لملك، وكانوا منذ مرحلة سحيقة جـدا فـي تاريخهم يعترفون لعائلات بعينها بالزعامة والنبل.



وهم قوم ذوو فصاحة ولسن، وكانوا يبعثون في تجـوالهم البهجة بما يقيمون من حفلات يسرفون فيها فـي الشـراب، ويقوم فيها طراز خاص من الرجال هـم الشـعراء بالغنـاء والتلاوة. ولم تكن لهم كتابة قبل اتصالهم بالحضارة، ومن ثم كانت ذاكرة هؤلاء الشعراء سجل أدبهم الخالد، وقـد عـاد استعمال اللغة المتلوة كوسيلة للتسلية بأكثر الفضل عليها؛ إذ جعلها أداة تعبير جميلة مطيعة ممتازة، كما لا شك في أنـه يعود إليه الفضل - إلى حد ما - فيما تلا من سمو اللغـات المشتقة من الآرية، وراح كل شـعب آري يبلـور تاريخـه الأسطوري في تلاوات شعرية، تختلف أسـماؤها بـاختلاف الشعوب؛ فهي تارة تسمى بالملاحم، وتارة بالساجا، وأخـرى بالفيدا.

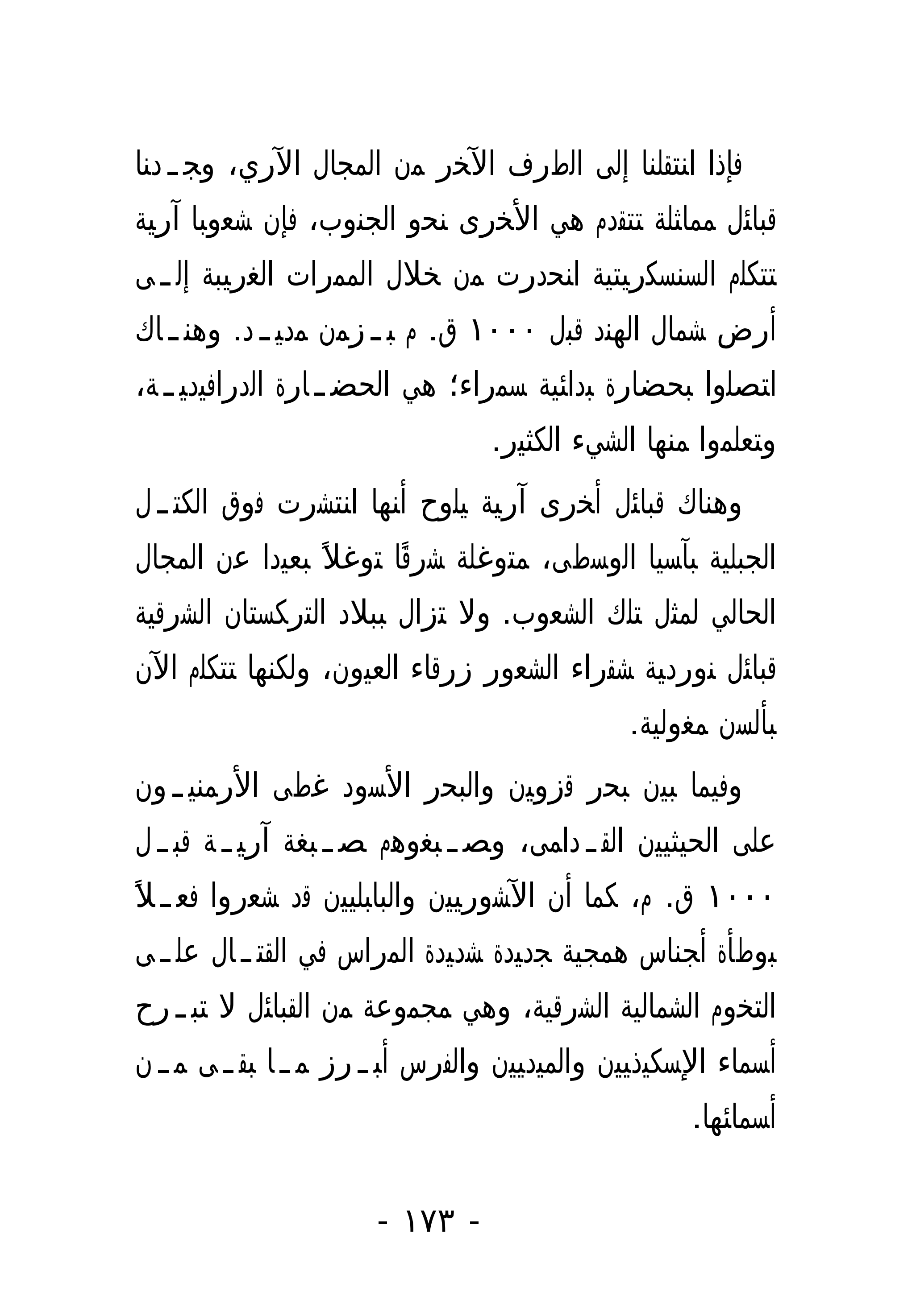
والحياة الاجتماعية لهذه الشـعوب تتمركـز حـول دور زعمائهم. فإن قاعة الرئيس التي يستقر القوم بها حينًـا مـن الزمان، كثيرا ما كانت بناء خشبيا رحيبا جدا. ولا شك فـي أنهم أعدوا بجوارها أكواخًا للقطعـان ومبـاني ريفيـة فـي مواضع منها متطرفة. ولكن هذه القاعة كانت لـدى معظـم الشعوب الآرية هي المركز العام، الذي إليه يذهب كل إنسان

ليحضر الوليمة، ويصغي إلى الشعراء، ويشترك في الألعاب والمناقشات، وتحيط بالقاعة حظائر البقر وإسطبلات الخيـل، وينام الرئيس وزوجته ومن إليهما على منصة أو شرفة عليا؛ أمام العامة؛ فنومهم في أي مكان هناك، كما هو الحال إلـى اليوم "بالدوارات" الهندية. وقد درجت حيـاة القبيلـة علـى ضرب من الشيوعية قائم على نظام الأبوة في كـل شـيء، عدا الأسلحة والحلي والآلات وما أشـبهها مـن الممتلكـات الشخصية، وكان الرئيس يملك الماشية وأراضي رعيها مـن أجل المصلحة العامة؛ في حين أن الغابات والأنهـار هـي والبراري لا يسكنها أحد.

ذلك هو أسلوب حياة الشعب الذي كان يتكاثر ويتزايد على أرض البراح الكبير بأوروبا الوسطى وآسيا الوسطى الغربية في أثناء نمو الحضارة العظيمة بأرض الجزيرة والنيل، ذلك الشعب الذي نجده يضغط في كـل مكـان علـى شـعوب الحضارة الحجرية الشمسية (الهليوليثية) في الألف الثانية قبل المسيح. كانوا ينحدرون إلى فرنسـا وبريطانيـا وإسـبانيا، ويتقدمون غربا في موجتين، وتسلح أول فـوج مـنهم بلـغ بريطانيا وأيرلندة بأسلحة من البرونز، فأبادوا أو أخضـعوا

الشعب الذي صنع من قبل الآثار الحجرية العظيمة المسـماة بكارناك في بريتاني، وستون هنج وآفبوري بإنجلترا. وقـد بلغوا أيرلندة، واسـمهم الكلـت الجويـديليون (Goidelie Celts). أما الموجة الثانية لشعب وثيق القربى بهؤلاء ربما خالطته عناصر من أجناس أخرى؛ فهـي التـي أحضـرت الحديد معها إلى بريطانيا العظمى، وهي تعرف باسم موجـة الكلات البريتونيين (Brithonic)، وعنهم يشتق أهل مقاطعة ويلز لغتهم.

وأخذت شعوب كلتية ذات رحم بهؤلاء تشق طريقها بالقوة نحو الجنوب فـي إسـبانيا، وتتصـل لا بشـعب الباسـك (الهليوليثي) وحده الذي كان لا يـزال يحتـل الـبلاد؛ بـل وبالمستعمرات الفينيقية السامية على ساحل البحر أيضا، كما أن سلسلة من القبائل وثيقة الشبه بهـذه هـي الإيطـاليون؛ شرعت تتقدم في شبه الجزيرة الإيطالية، وهي بعد بـراري موحشة مكسوة بالغابات، ولكن لم تكن لهم الغلبة على طول الخط؛ فإن روما تظهر في التاريخ في القرن الثـامن ق. م، مدينة تجارية على نهر التيبر يسكنها اللاتين الآريون، ولكنها تحت حكم نبلاء وملوك من الإترسك (التوسكان).



فإذا انتقلنا إلى الطرف الآخر من المجال الآري، وجدنا قبائل مماثلة تتقدم هي الأخرى نحو الجنوب، فإن شعوبا آرية تتكلم السنسكريتية انحدرت من خلال الممرات الغربية إلى أرض شمال الهند قبل ١٠٠٠ ق. م بزمن مديد. وهناك اتصلوا بحضارة بدائية سمراء؛ هي الحضارة الدرافيدية، وتعلموا منها الشيء الكثير.

وهناك قبائل أخرى آرية يلوح أنها انتشرت فوق الكتل الجبلية بآسيا الوسطى، متوغلة شرقًا توغلاً بعيدا عن المجال الحالي لمثل تلك الشعوب. ولا تزال ببلاد التركستان الشرقية قبائل نوردية شقراء الشعور زرقاء العيون، ولكنها تتكلم الآن بألسن مغولية.

وفيما بين بحر قزوين والبحر الأسود غطى الأرمنيون على الحيثيين القدامى، وصبغوهم صبغة آرية قبل ١٠٠٠ ق. م، كما أن الآشوريين والبابليين قد شعروا فعلاً بوطأة أجناس همجية جديدة شديدة المراس في القتال على التخوم الشمالية الشرقية، وهي مجموعة من القبائل لا تبرح أسماء الإسكيذيين والميديين والفرس أبرز ما بقى من أسمائها.

ولكن شبه جزيرة البلقان هي الممر الذي شـق فيـه أول زحف قوي للقبائل الآرية طريقه إلى صميم حضارة العـالم القديم. على أنهم دأبوا قبل ١٠٠٠ ق. م بعدة قـرون علـى الانحدار جنوبا، وعبور البحر إلى آسيا الصغرى، فجـاءت أولاً مجموعة من القبائل أبرزها الفريجيون، ثم جـاء علـى التعاقب الإغريق الأيوليون والأيونيون والدوريون، فما وافت ١٠٠٠ ق. م، حتى صارت الحضارة الإيجية القديمـة فـي خبر كان في كل مـن بـلاد اليونـان الأصـلية، ومعظـم الجزائر اليونانية؛ فمحيت من الوجـود مـدينتا "ميسـيناي" و"تيرونز" Tiryns، وكاد النسيان يعفي على "كنوسوس".

ونزع الإغريق إلى البحر قبل ١٠٠٠ ق. م، وذلك بعد أن استقروا في جزيرتي كريت ورودس، وشـرعوا يؤسسـون المستعمرات بصقلية وجنوب إيطاليا، علـى منـوال المـدن التجارية الفينيقية المنتشـرة علـى طـول سـواحل البحـر المتوسط.

فبينما كان "تجلات بلسر الثالـث"، و"سـرجون الثـاني"، و"ساردانابالوس" يحكمون مملكة آشـور، ويقـاتلون بابـل وسوريا ومصر؛ كانت الشـعوب الآريـة تـتعلم طرائـق الحضارة وتستخدمها لأغراضها الخاصة في إيطاليا وبـلاد الإغريق وشمال إيران. ولم يلبـث التـاريخ منـذ القـرن التاسع ق. م فما بعده بستة قرون؛ أن أصبح يدور حول قصة هذه الشعوب الآرية، وكيف قويت شوكتها، وأخذت بأسـباب المغامرة، وكيف ترامى بها الأمر إلى إخضاع العالم القـديم بأسره، السامي منه والإيجي والمصري سواء، لقـد كانـت الشعوب الآرية من الناحية الشكلية منتصرة بصورة مطلقـة، ولكن الصراع الذي نشب بين الأفكـار والطرائـق الآريـة والسامية والمصرية ظل مستمرا بعد انتقال الصولجان إلى يد الآريين بزمن بعيد، بل الحق إنه كفاح يستمر طيلة ما عقـب ذلك من التاريخ، بل لا يزال مستمرا على شكل ما إلى يومنا هذا.

الفصل العشرون

الإمبراطورية البابلية الأخيرة

وإمبراطورية دارا الأول

لقد أوضحنا من قبل كيف أصبحت مملكة آشـور دولـة عسكرية عظيمة تحت حكم تجلات بلسر الثالث، ومغتصـب العرش سرجون الثاني. ولم يكن الاسم الأصلي لذلك الرجل هو سرجون؛ إذ الواقع أنه اتخذه لنفسه رغبة منه في تملـق البابليين المغلوبين بتذكيرهم بالملك سرجون الأول، المؤسس القديم للإمبراطورية الآكادية، الذي جاء قبل زمنه بألفي سنة. وعلى الرغم من أن بابل كانت مغلوبة على أمرهـا، فإنهـا كانت تفوق نينوى في الأهمية وعدد السكان، ولم يكن بد من معاملة ربها الكبير "بعل مردوخ" وكهنتها وتجارهـا أحسـن معاملة. فلقد أصبحت أرض الجزيرة في القرن الثامن قبـل الميلاد على درجة أرقى كثيرا من تلك الأيام الهمجية التـي كانت فيها معنى فتح مدينة هو النهب وإعمال السيف. وصار الفاتحون يحاولون استرضاء المغلوبين وضمهم إلى جانبهم، ودامت الإمبراطورية الآشورية الجديدة قرنًا ونصـفًا بعـد سرجون، كما أن آشور بانيبال (ساردانابالوس) قد اسـتولى على مصر السفلى على الأقل كما سبق.

ولكن قوة آشور وتماسـكها مـا لبثـت أن اضـمحلت. فاستطاعت مصر طرد الغاصب بشيء من الجهـد بزعامـة فرعونها "أبسمتيك الأول"، كما حاولت أن تشن حربـا لفـتح سوريا بقيادة "نخاو الثاني"، وفي ذلك الوقت كانـت آشـور تكافح أعداء أقرب إلـى ربوعهـا فـلا تسـتطيع إزاءهـم إلا أضعف المقاومة؛ ذلك أن شعبا ساميا من الجنوب الشرقي لأرض الجزيرة هو الكلدان؛ اتحد ضد نينوى مـع الميـديين والفرس الآريين الهابطين مـن الشـمال الشـرقي؛ وفـي ٦٠٦ ق. م بالضبط (إذ إننا دخلنا الآن في مرحلـة التـأريخ المضبوط) استولوا على تلك المدينة.

وتم تقسيم غنائم آشور، وأنشئت في الشمال إمبراطوريـة ميدية تحت حكم كياكسارس (سياخار) ضمت إليها نينـوى، وجعلت عاصمتها إكباتانا، وامتدت حدودها شرقًا إلى تخـوم الهند، وإلى الجنوب من هذه. وفي شكل هلال عظيم تأسست إمبراطورية كلدانية جديدة، هي الإمبراطورية البابلية الثانية، التي ارتفعت إلى درجة عالية من الثراء والقوة تحـت حكـم نبوخذ نصر العظيم (وهو نبوخذ نصر المذكور في التوراة)، وابتدأت بذلك آخر أيام بابل العظيمة، بل أعظم أيامها جميعا، وظلت الإمبراطوريتان في سلام ردحا من الزمن، وتـزوج سياخار من ابنة نبوخذ نصر.

وفي نفس الوقت كان نخاو الثاني يواصل فتوحاته في سوريا دون مقاومة، فهزم في معركة مجدو سنة ٦٠٨ ق. م يوشع ملك يهودا وقتله (وهي قطر صغير سنحدثك عنه بالمزيد عما قليل)، ثم انطلق إلى نهر الفرات لا ليلتقي بمملكة آشورية منحلة، بل بدولة بابلية ناهضة. وقد قاوم الكلدانيون المصريين وأخذوهم أخذًا قويا. ودحر نخاو ورد على أعقابه إلى مصر، وانتقلت الحدود البابلية إلى الحدود المصرية القديمة.

وظلت الإمبراطورية البابلية الثانية منذ ٦٠٦ إلى ٥٤٩ ق. م مزدهرة ازدهارا غير وطيد، فلم يدم ازدهارها إلا بقدر ما حافظت على السلم بينها وبين الإمبراطورية الميدية الأقوى منها بأسا، والأصلب عودا في الشمال. وفي غضون تلك السنوات السبعة والستين لم يقتصر الازدهار في المدينة القديمة على الحياة وحدها؛ بل شمل العلوم أيضا.

وكانت بابل مسرحا لنشاط فكري عظيم، حتى وهي تحت حكم ملوك الآشوريين سيما ساردانابالوس، وهذا الملك وإن كان آشوريا إلا أنه اصطبغ بالصبغة البابلية تماما؛ فإنه أنشأ مكتبة لم تصنع مجلداتها من الورق، بل من ألواح الطين التي

كانت تستعمل في الكتابة بأرض الجزيرة منذ أقدم العصور السومرية. وقد أزيح الستار عن مجموعة كتبه، ولعلها أثمن ما في العالم من الذخائر التاريخية.

وكان لآخر أفراد الأسرة الكلدانية من ملوك بابل (وهو نابونيداس) ذوق أدبي أرهف أو يكاد؛ فإنه ناصر البحوث التاريخية القديمة وشملها برعايته، حتى إذا وصل الباحثون من علمائه إلى تحديد تاريخ تولي سرجون الأول العرش؛ خلد ذكرى تلك الواقعة بما سطر من نقوش. بيد أن إمبراطوريته كانت تنطوي على كثير من دلائل التفكك، فحاول أن يبث فيها روح المركزية بأن أحضر إلى بابل عددا من الآلهة المحليين المختلفين، وأقام بها المعابد لتلك الآلهة. وقد استعمل الرومان تلك الطريقة بنجاح تام فيما تلا ذلك من الزمان، ولكنها أثارت في بابل غيرة كهنة بعل مردوخ الأقوياء؛ وهو رب البابليين الأكبر؛ فأخذوا يدبرون الخطط للتخلص من نابونيداس، والبحث عن بديل له، ووجدوه في شخص قورش الفارسي، حاكم الإمبراطورية الميدية المجاورة، ومن قبل ذلك كان اسم قورش قد برز حين هزم كرويسوس ملك ليديا الثري في شرق آسيا الصغرى، وزحف الملك على بابل، ودارت المعركة خارج أسوارها، وفتحت له أبواب المدينة (٥٣٨ ق.م.) فدخلتها جنوده بلا قتال.

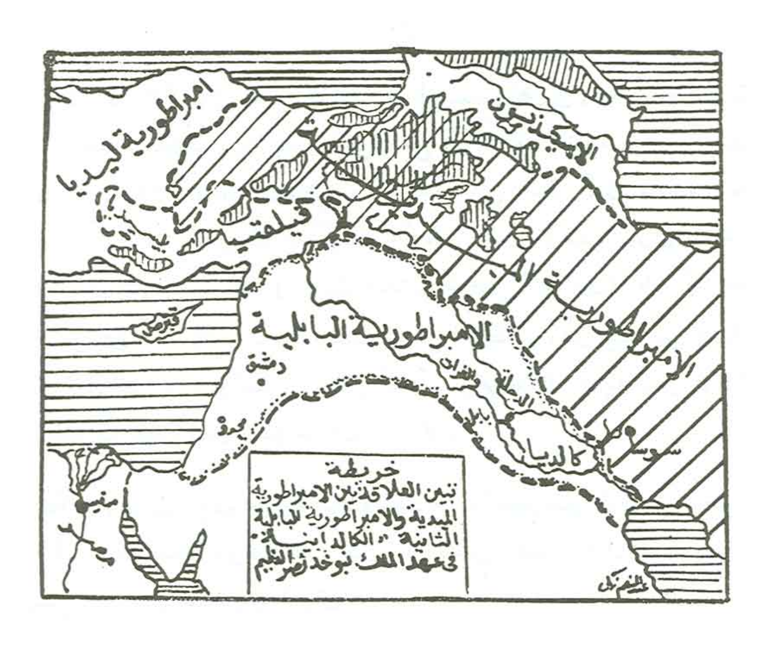
وتذكر التوراة أن ولي العهد بيلشاصر بن نابونيداس كان في وليمة عندما ظهرت يد وكتبت هذه الكلمات على الجـدار بـأحرف مـن نـار: "منـا، منـا، تقيـل، وفرسـين، Mene, Mene, Takel, Upharsin"، وقد أولهـا النبـي دانيال الذي استدعاه الأمير ليقرأ اللغز بأن: "منا أحصـى ا ملكوتك وأنهاه، وتقيل وزنت بـالموازين فوجـدت ناقصـا، فرسين قسمت مملكتك وأعطيت لمادي وفـارس"[(1)]. وربمـا كان كهنة بعل مردوخ على علم بأمر تلك الكتابة المسـطورة على الحائط. وقتل بيلشاصر في تلك الليلة كما تقول التوراة، وأخذ نابونيداس أسيرا، وتم احتلال المدينة بهـدوء وسـلام بحيث استمرت الصلاة لبعل مردوخ دون أي توقف.

وهكذا تم توحيد الإمبراطورية البابلية والميدية. وأخضـع قمبيز بن قورش مصر، ثم جن قمبيز وقتل صدفة، وخلفـه على الفور دارا الميـدي الملقـب دارا الأول، وهـو ابـن هستاسيس أحد كبار مستشاري قورش.

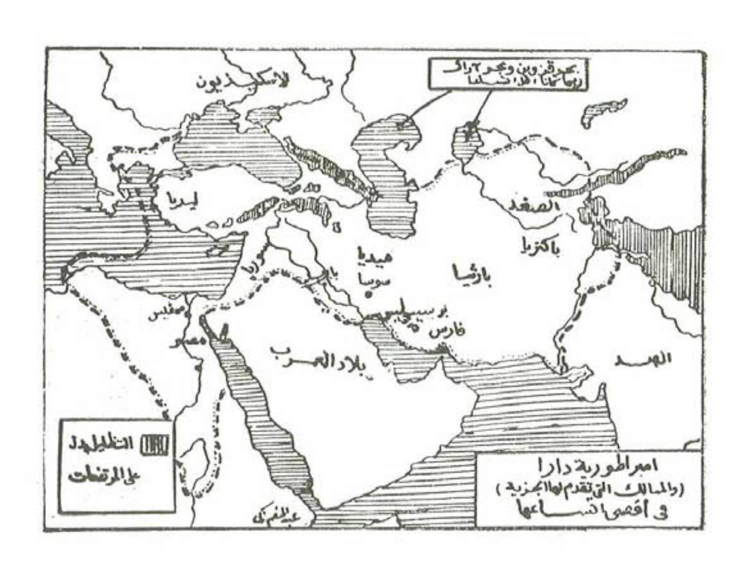
([1]) التوراة: دانيال الإصحاح الخامس.

وكانت إمبراطوريـة دارا الأول الفارسـية (وهـي أول الإمبراطوريات الآرية الجديدة في الشرق موطن الحضارات القديمة) أعظم إمبراطورية شهدها العالم حتى ذلك الحين؛ إذ كانت تضم آسـيا الصـغرى بأكملهـا وسـوريا، وجميـع الإمبراطوريات الآشورية والبابلية القديمة، ومصر ومنـاطق القوقاز وقزوين، وبلاد ميديا وفارس، كما أنها كانت تمتد في بلاد الهند حتى نهر السند، وقد أصـبح وجـود مثـل تلـك الإمبراطورية في حيز الإمكان عند ذلك في العالم، بفضـل استخدام الحصان والراكب والعربة والطريق المرصوف.

أما قبل ذلك فإن الحمار والثور والجمل (في الصحراء) كانت أسرع وسائل النقل. وأنشأ حكام الفرس طرقًا عظيمة امتدت كالشرايين لربط أجزاء إمبراطوريتهم الجديدة بعضها إلى بعض، وكانت خيول البريد واقفة على الدوام تنتظر رسول الإمبراطور أو المسافر الذي يحمل إذنا رسميا بالسفر. وفضلاً عن ذلك فإن العالم كان قد شرع آنذاك في استعمال النقود المسكوكة التي سهلت التجارة والتعامل تسهيلاً كبيرا. ولكن عاصمة تلك الإمبراطورية الضخمة لم تعد بابل. وانقضت الأيام ولم يجن كهان بعل مردوخ من خيانتهم شيئًا، وأخذت بابل تضمحل وإن بقي لها شيء من أهميتها، على حين صارت المدن الكبرى في الإمبراطورية الجديدة هي برسيبوليس وإكباتانا، وكانت سوسا هي العاصمة، بينما هجرت نينوى وأخذت تتساقط أطلالاً بالية.



خريطة
تبين العلاقة بين الامبراطورية
الميدية والامبراطورية البابلية
الثانية " الكالدانية "
في عهد الملك نبوخذ نصر العظيم


امبراطورية دارا
(والممالك التي تقدم لها الجزية)
في أقصى اتساعها
التظليل يدل
على المرتفعات
الاسكيذيون
ليديا
سوريا
ميديا
سوسا
بارثيا
باكتريا
الصغد
برسيبوليس
فارس
بلاد العرب
الهند
منفيس
مصر

الفصل الحادي والعشرون

تاريخ اليهود القديم

والآن نستطيع أن نتحدث عن اليهود، وهم شعب سـامي، لم يؤتوا في زمانهم من الأهمية قدر ما تركوا من التأثير فيما عقب ذلك من تاريخ العالم. استقر اليهود فـي بـلاد يهـوذا (جوديا Judea) قبل ١٠٠٠ ق. م بزمن طويل، وبعد ذلـك العهد صارت أورشليم أكبر مدينة لديهم. وتتشـابك قصـتهم بقصة الإمبراطوريات الكبيرة الواقعة على كل من جـانبهم: مصر إلى الجنوب، وتلك الإمبراطوريـات المتغيـرة فـي الشمال؛ إمبراطوريات سوريا وآشور وبابل. ولم يكن مفـر من أن تصبح بلادهم طريق مرور رئيسي بين تلـك الـدول ومصر.

وترجع أهميتهم في العالم إلى كونهم أنتجوا أدبا وتاريخًـا عالميا، ومجموعة من القوانين والتواريخ والمزامير، وكتـب الحكمة والشعر والقصص والكلم السياسـية، وهـي التـي أصبحت في النهاية ما يسميه المسيحيون باسهم العهد القديم؛ وهي التوراة العبرانية. وقد ظهر ذلك الأدب في التاريخ في القرن الرابع أو الخامس ق. م.

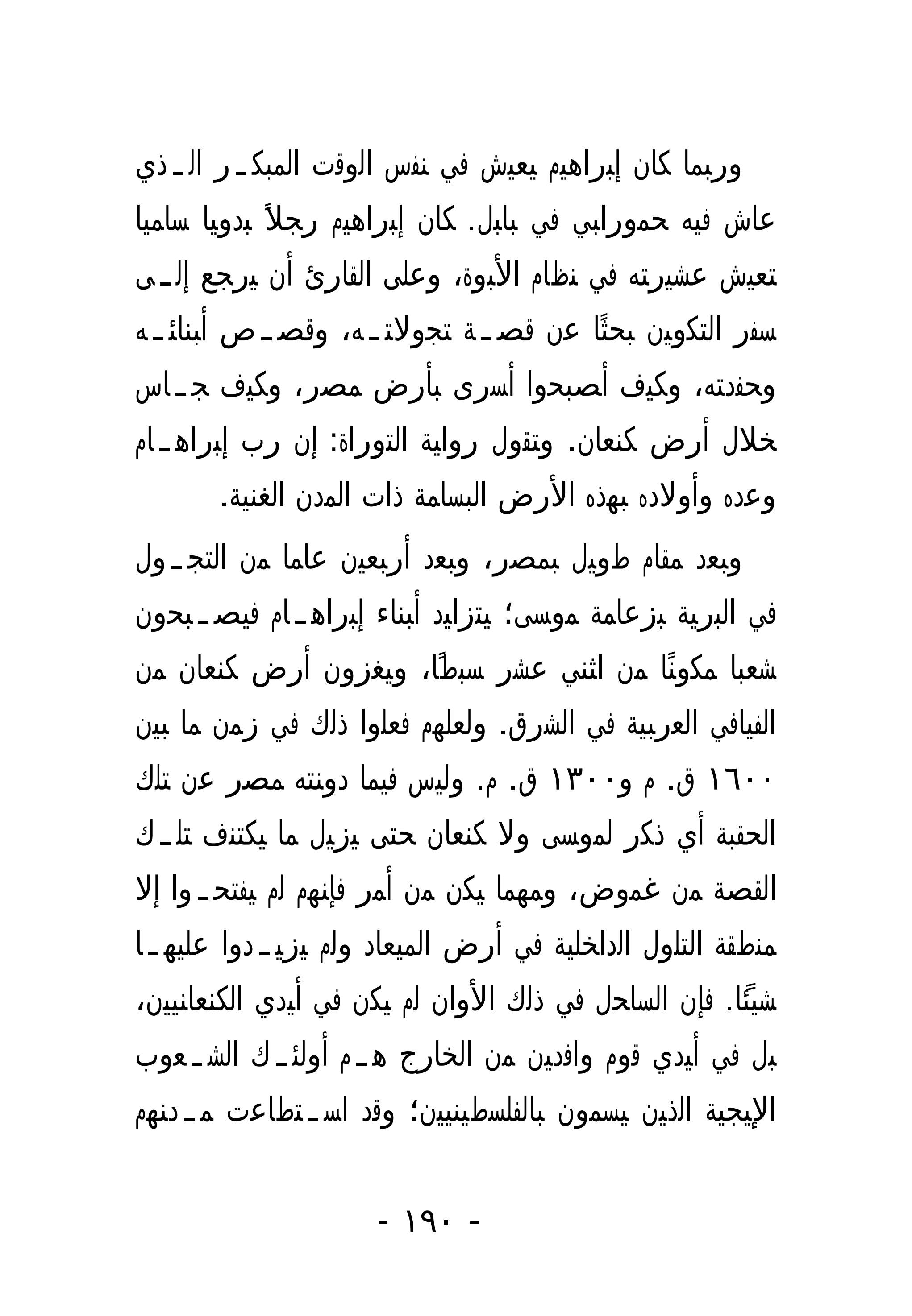
والراجح أن ذلك الأدب قد جمع شتاته لأول مرة في بابل، وقد أسلفنا عليك كيـف أن الفرعـون نخـاو الثـاني غـزا الإمبراطورية الآشورية، وآشور تقاتل الميـديين والفـرس والكلدان قتال حياة أو موت، وبينا كيف اعترضه يوشع ملك يهوذا، فهزمه نخاو وقتله عنـد مجـدو (٦٠٨ ق.م)؛ وبـذا أصبحت يهوذا دولة تابعة لمصر. وعندما تمكن نبوخذ نصر الكبير الملك الكلداني الجديد الذي تولى الحكم في بابل من رد نخاو على عقبيه إلى مصر؛ حاول أن يحكم يهـوذا بإقامـة ملوك ضعاف يأتمرون بمشيئته في أورشيلم، ولكـن فشـلت المحاولة؛ فإن الشعب أعمل الذبح في موظفيه البابليين، وعند ذلك صمم الملك أن يمزق تلك الدولة الصغيرة كل ممزق بعد أن ظلت أمدا بعيـدا تسـتفيد مـن تأليـب مصـر علـى الإمبراطورية الشمالية؛ فأمر فنهبـت أورشـيلم وأحرقـت، وحمل من بقي بها من الناس إلى بابل أسرى.

وهنـاك أقـاموا حتـى اسـتولى قـورش علـى بابـل (٥٣٨ ق. م) وعند ذلك جمعهم جميعا وأعادهم إلى بلادهـم ليسكنوها من جديد، وليعيدوا بناء أسوار أورشليم ومعبدها.

ويبدو أن اليهود لم يكونوا قبل ذلك الآوان شعبا متحضرا ولا متحدا، وربما لم يكن فيهم إلا قلة ضئيلة تستطيع القراءة والكتابة، غير أن تاريخهم نفسه لا يذكر البتـة أن الأسـفار القديمة من التوراة كانت تُقرأ، ولم تذكر الكتب لأول مرة إلا في عهد يوشع. ولكن الأسر البابلي مدنهم ووحدهم، فعـادوا إلى بلادهم شديدي اليقظة إلى أدبهم، عادوا شـعبا متـأجج الوعي الذاتي، مشربا بالنزعات السياسية.

يلوح أن توراتهم لم تكن تحتوي في ذلك الوقت إلا علـى أسفار موسى الخمسة (Pentaleuch)؛ أي الكتب الخمسـة الأولى من العهد القديم الذي نعرفه جميعا. وفضلاً عن ذلـك كان لديهم فعلاً – وعلى صورة كتب منفصلة - كثيـر مـن الكتب الأخرى التي ألحقت منذ ذلك الحين هي وأسفار موسى الخمسة بالتوراة العبرانية الراهنة، ومنها مثلاً أسفار التواريخ والمزامير والأمثال.

ولو تأملت قصص خلق العالم وآدم وحـواء والطوفـان، التي تبدأ بها التوراة؛ لوجدتها وثيقة المماثلة لأساطير بابليـة تشبهها، والظاهر أنها كانت من المعتقـدات الشـائعة لـدى الشعوب السامية كافة، وكذلك قصص موسى وشمشون فـإن لها نظائر سومرية وبابلية. ولكن بداية أمر الشعب اليهـودي بوجه أخص لا تبدأ حقا إلا بقصة إبراهيم فما تلاها.

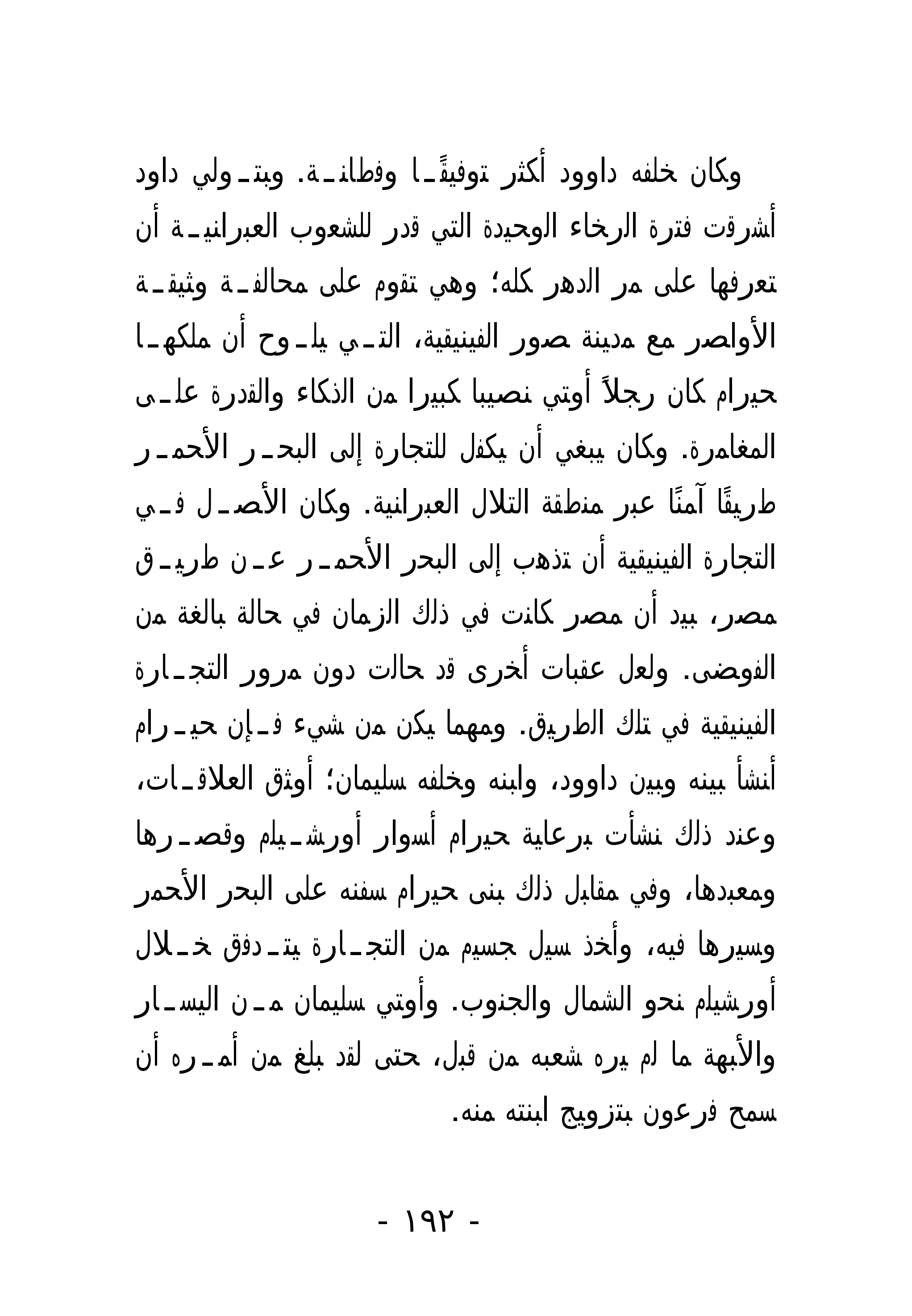


وربما كان إبراهيم يعيش في نفس الوقت المبكـر الـذي عاش فيه حمورابي في بابل. كان إبراهيم رجلاً بدويا ساميا تعيش عشيرته في نظام الأبوة، وعلى القارئ أن يرجع إلـى سفر التكوين بحثًا عن قصـة تجولاتـه، وقصـص أبنائـه وحفدته، وكيف أصبحوا أسرى بأرض مصر، وكيف جـاس خلال أرض كنعان. وتقول رواية التوراة: إن رب إبراهـام وعده وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن الغنية.

وبعد مقام طويل بمصر، وبعد أربعين عاما من التجـول في البرية بزعامة موسى؛ يتزايد أبناء إبراهـام فيصـبحون شعبا مكونًا من اثني عشر سبطًا، ويغزون أرض كنعان من الفيافي العربية في الشرق. ولعلهم فعلوا ذلك في زمن ما بين ١٦٠٠ ق. م و١٣٠٠ ق. م. وليس فيما دونته مصر عن تلك الحقبة أي ذكر لموسى ولا كنعان حتى يزيل ما يكتنف تلـك القصة من غموض، ومهما يكن من أمر فإنهم لم يفتحـوا إلا منطقة التلول الداخلية في أرض الميعاد ولم يزيـدوا عليهـا شيئًا. فإن الساحل في ذلك الأوان لم يكن في أيدي الكنعانيين، بل في أيدي قوم وافدين من الخارج هـم أولئـك الشـعوب الإيجية الذين يسمون بالفلسطينيين؛ وقد اسـتطاعت مـدنهم

(غزة وجات وأشدود وعسقلان ويافـا) أن تصـمد لهجـوم العبرانيين، وظل أسباط إبراهام أجيالاً عديد شـعبا مغمـورا يعيش في منطقة التلال الخلفية، مشغولاً بمناوشات لا نهايـة لها مع الفلسطينيين وذوي قرباهم من القبائل النازلة حـولهم؛ وهم المؤابيون وأهل مدين ومن إليهم. وسيجد القـارئ فـي سفر القضاء سجلا يسطر كفاحهم وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة؛ ذلك أنك تجده في الأغلب سجلا مـن النكبـات والإخفاقات التي دونت بصراحة.

وكان حكام اليهود خلال أكبر جزء من هذه المدة – لـو افترضنا أن لهم حكومة من أي نوع – قضاة مـن الكهنـة ينتخبهم كبراء الشعب، ولكنهم عمدوا في النهاية فـي زمـن ما يقارب ١٠٠٠ ق. م إلى انتخاب ملك هو شاءول؛ ليكـون لهم قائدا في القتال، ولكن قيادة شاءول لم تزد كثيـرا علـى قيادة القضاة؛ فهلك تحت وابل من سهام الفلسـطينيين فـي معركة جبل جلبوع، وأخذت دروعـه إلـى معبـد فينـوس الفلسطينية، ودق جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان.

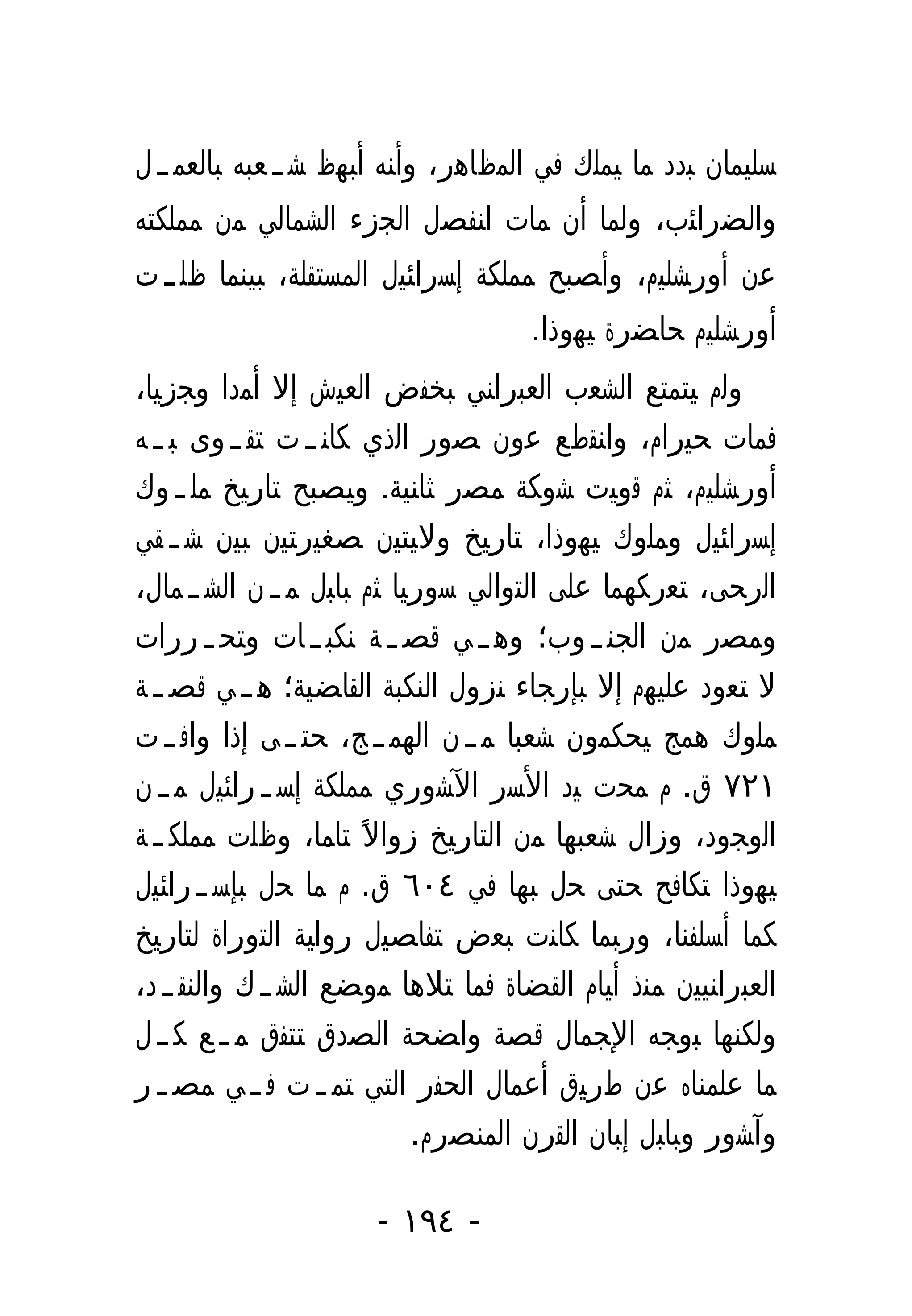


وكان خلفه داوود أكثر توفيقًا وفطانة. وبتولي داود أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التي قدر للشعوب العبرانية أن تعرفها على مر الدهر كله؛ وهي تقوم على محالفة وثيقة الأواصر مع مدينة صور الفينيقية، التي يلوح أن ملكها حيرام كان رجلاً أوتي نصيبا كبيرا من الذكاء والقدرة على المغامرة. وكان يبغي أن يكفل للتجارة إلى البحر الأحمر طريقًا آمنًا عبر منطقة التلال العبرانية. وكان الأصل في التجارة الفينيقية أن تذهب إلى البحر الأحمر عن طريق مصر، بيد أن مصر كانت في ذلك الزمان في حالة بالغة من الفوضى. ولعل عقبات أخرى قد حالت دون مرور التجارة الفينيقية في تلك الطريق. ومهما يكن من شيء فإن حيرام أنشأ بينه وبين داوود، وابنه وخلفه سليمان؛ أوثق العلاقات، وعند ذلك نشأت برعاية حيرام أسوار أورشيلم وقصورها ومعبدها، وفي مقابل ذلك بنى حيرام سفنه على البحر الأحمر وسيرها فيه، وأخذ سيل جسيم من التجارة يتدفق خلال أورشيلم نحو الشمال والجنوب. وأوتي سليمان من اليسار والأبهة ما لم يره شعبه من قبل، حتى لقد بلغ من أمره أن سمح فرعون بتزويج ابنته منه.

بيد أن من الخير ألا تغيب عن بالنا التقديرات النسبية للأمور؛ فسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكًا صغيرا تابعا يحكم مدينة صغيرة، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث إنه لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم، ونهب معظم ما فيها من كنوز. ويقف كثير من النقاد موقف المستريب إزاء قصة مجد سليمان التي توردها أسفار الملوك والأيام، وهم يقولون إن الكبرياء القومي لدى كتاب متأخرين هو الذي دعاهم إلى إضافة أشياء إلى القصة والمبالغة فيها. بيد أنك إذا أنعمت النظر في قصة التوراة وقرأتها بمزيد من العناية لم تجد لها الروعة التي تخيل إليك عند أول قراءة.

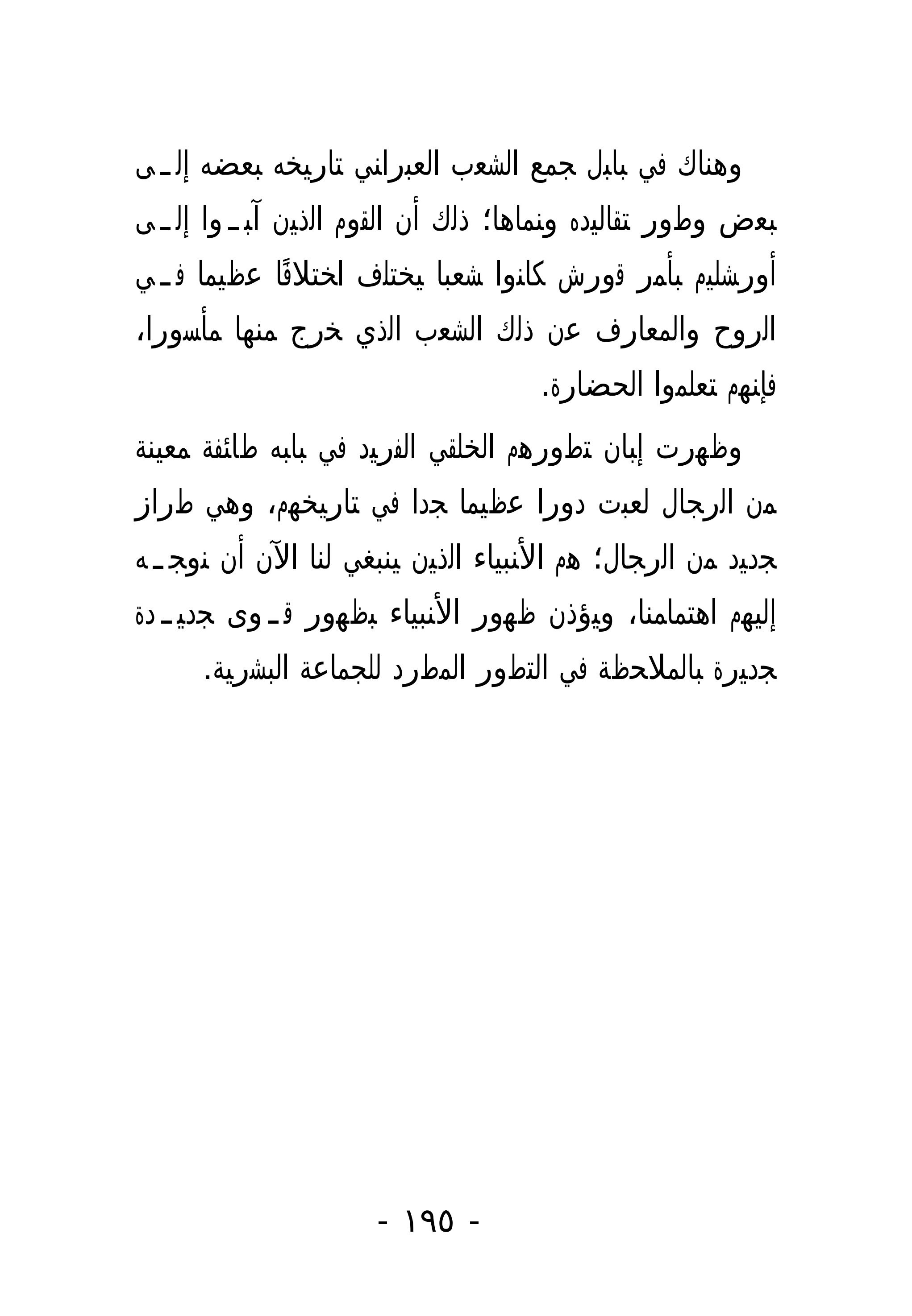
فلو أنا استخرجنا من القصة أطوال معبد سليمان، لوجدنا أن في الإمكان وضعه داخل كنيسة صغيرة من كنائس الضواحي، وأما عرباته الألف والأربعمائة؛ فإنها ستكف عن بعث الإكبار في نفوسنا عندما نعلم من أحد الأطلال الآشورية أن خلفه آحاب (Ahab) أرسل كتيبة من ألفين لتنضم إلى الجيش الآشوري. وواضح مما تقص التوراة أن





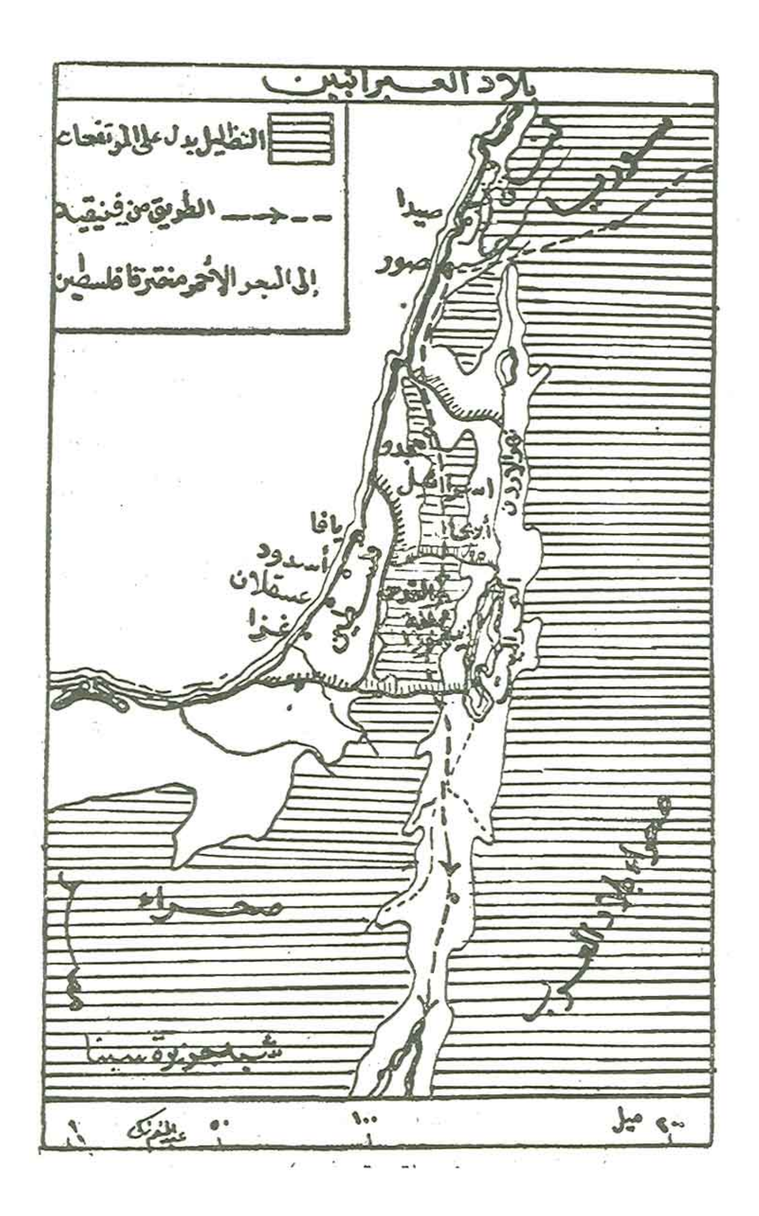
سليمان بدد ما يملك في المظاهر، وأنه أبهظ شعبه بالعمل والضرائب، ولما أن مات انفصل الجزء الشمالي من مملكته عن أورشليم، وأصبح مملكة إسرائيل المستقلة، بينما ظلت أورشليم حاضرة يهوذا.

ولم يتمتع الشعب العبراني بخفض العيش إلا أمدا وجزيا، فمات حيرام، وانقطع عون صور الذي كانت تقوى به أورشليم، ثم قويت شوكة مصر ثانية. ويصبح تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا، تاريخ ولايتين صغيرتين بين شقي الرحى، تعركهما على التوالي سوريا ثم بابل من الشمال، ومصر من الجنوب؛ وهي قصة نكبات وتحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية؛ هي قصة ملوك همج يحكمون شعبا من الهمج، حتى إذا وافت ٧٢١ ق. م محت يد الأسر الآشوري مملكة إسرائيل من الوجود، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاما، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى حل بها في ٦٠٤ ق. م ما حل بإسرائيل كما أسلفنا، وربما كانت بعض تفاصيل رواية التوراة لتاريخ العبرانيين منذ أيام القضاة فما تلاها موضع الشك والنقد، ولكنها بوجه الإجمال قصة واضحة الصدق تتفق مع كل ما علمناه عن طريق أعمال الحفر التي تمت في مصر وآشور وبابل إبان القرن المنصرم.



وهناك في بابل جمع الشعب العبراني تاريخه بعضه إلى بعض وطور تقاليده ونماها؛ ذلك أن القوم الذين آبوا إلى أورشليم بأمر قورش كانوا شعبا يختلف اختلافًا عظيما في الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسورا، فإنهم تعلموا الحضارة.

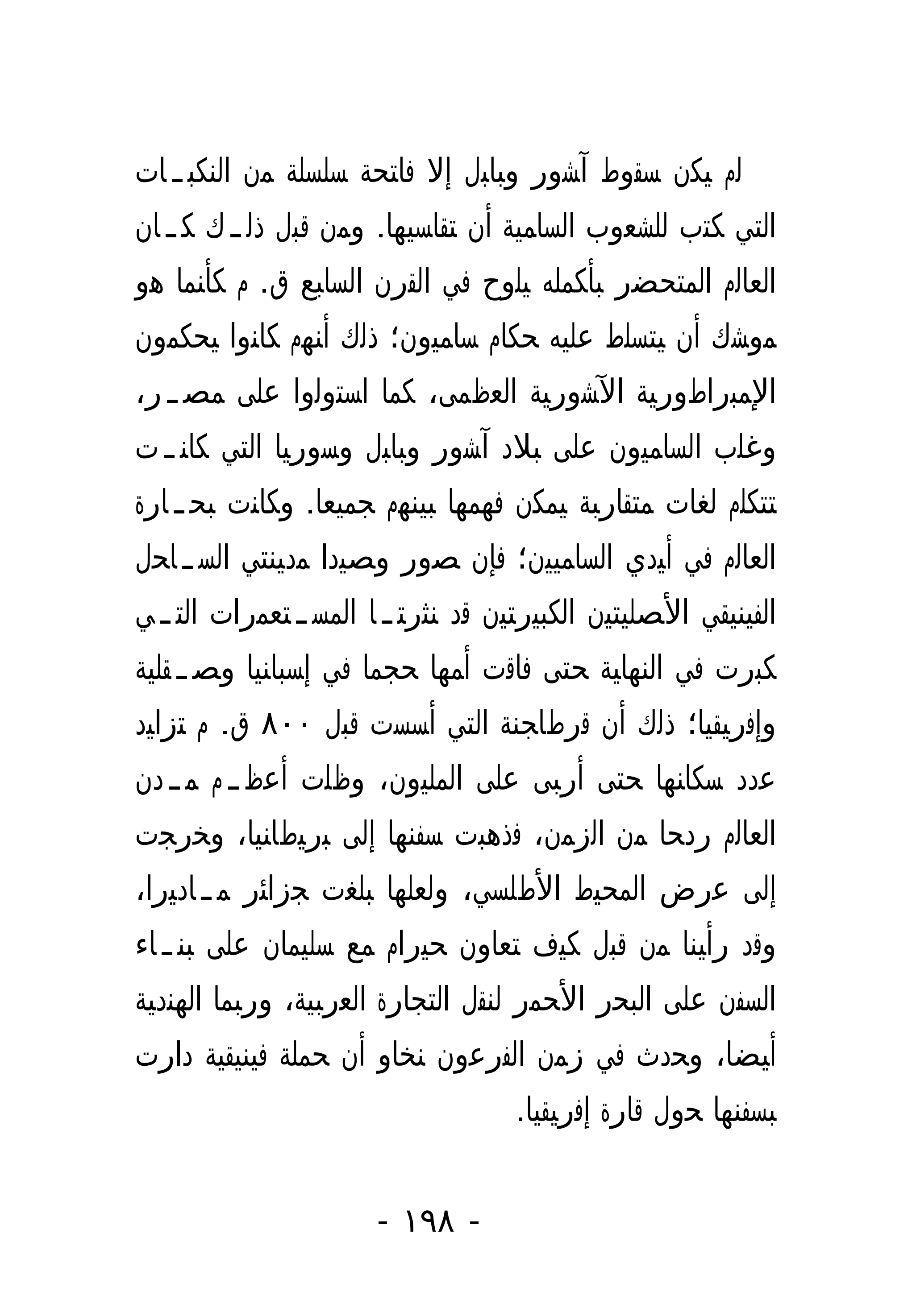
وظهرت إبان تطورهم الخلقي الفريد في بابه طائفة معينة من الرجال لعبت دورا عظيما جدا في تاريخهم، وهي طراز جديد من الرجال؛ هم الأنبياء الذين ينبغي لنا الآن أن نوجه إليهم اهتمامنا، ويؤذن ظهور الأنبياء بظهور قوى جديدة جديرة بالملاحظة في التطور المطرد للجماعة البشرية.



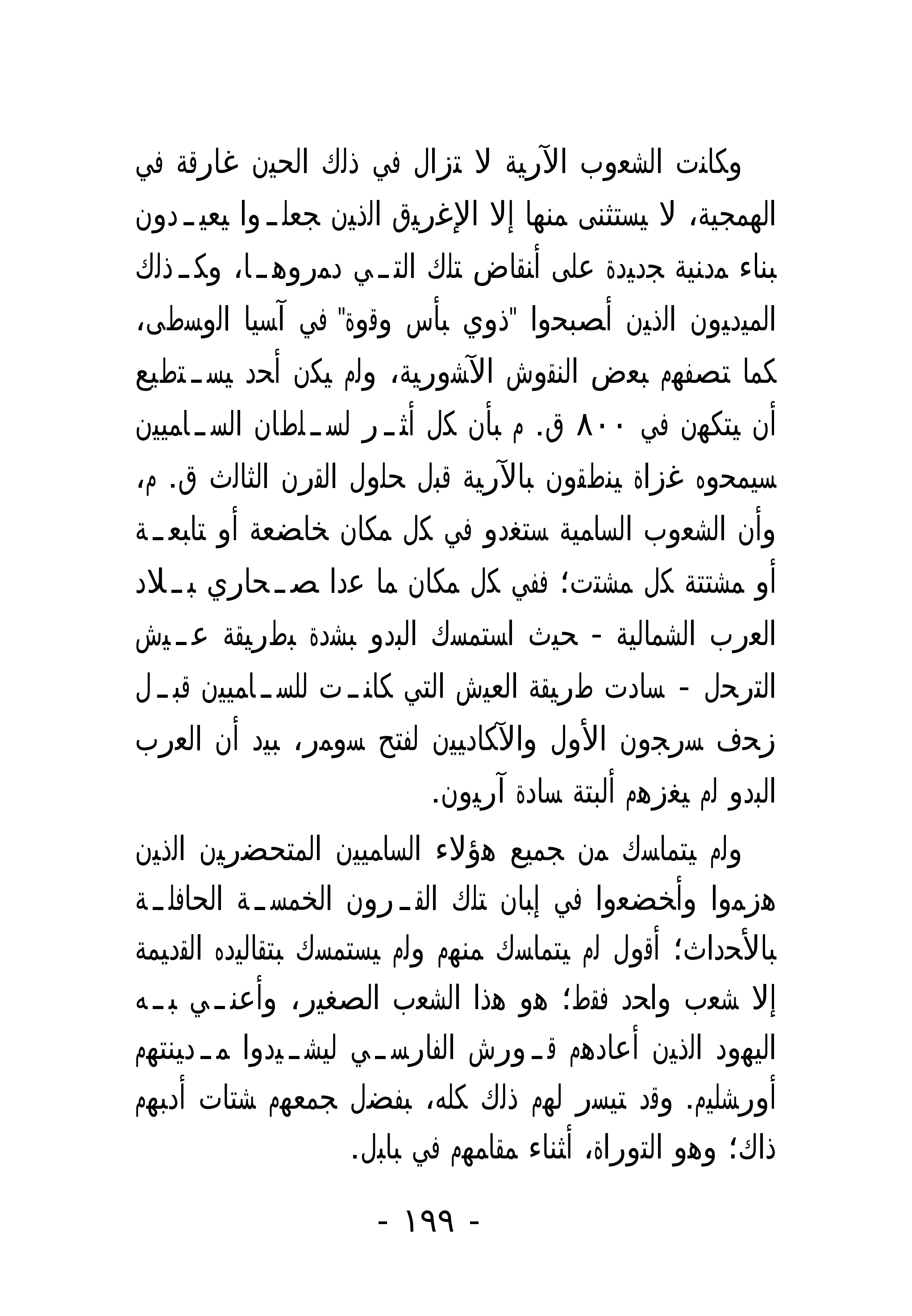
بلاد العبرانيين
التظليل يدل على المرتفعات
الطريق من فينيقيه إلى البحر الأحمر مخترقا فلسطين
صيدا
صور
مجدو
اسرائيل
نهر الأردن
يافا
أسدود
عسقلان
غزا
صحراء
شبه جزيرة سينا
٢٠٠ ميل
١٠٠
٥٠
٠

الفصل الثاني والعشرون

كهان وأنبياء في بلاد اليهودية

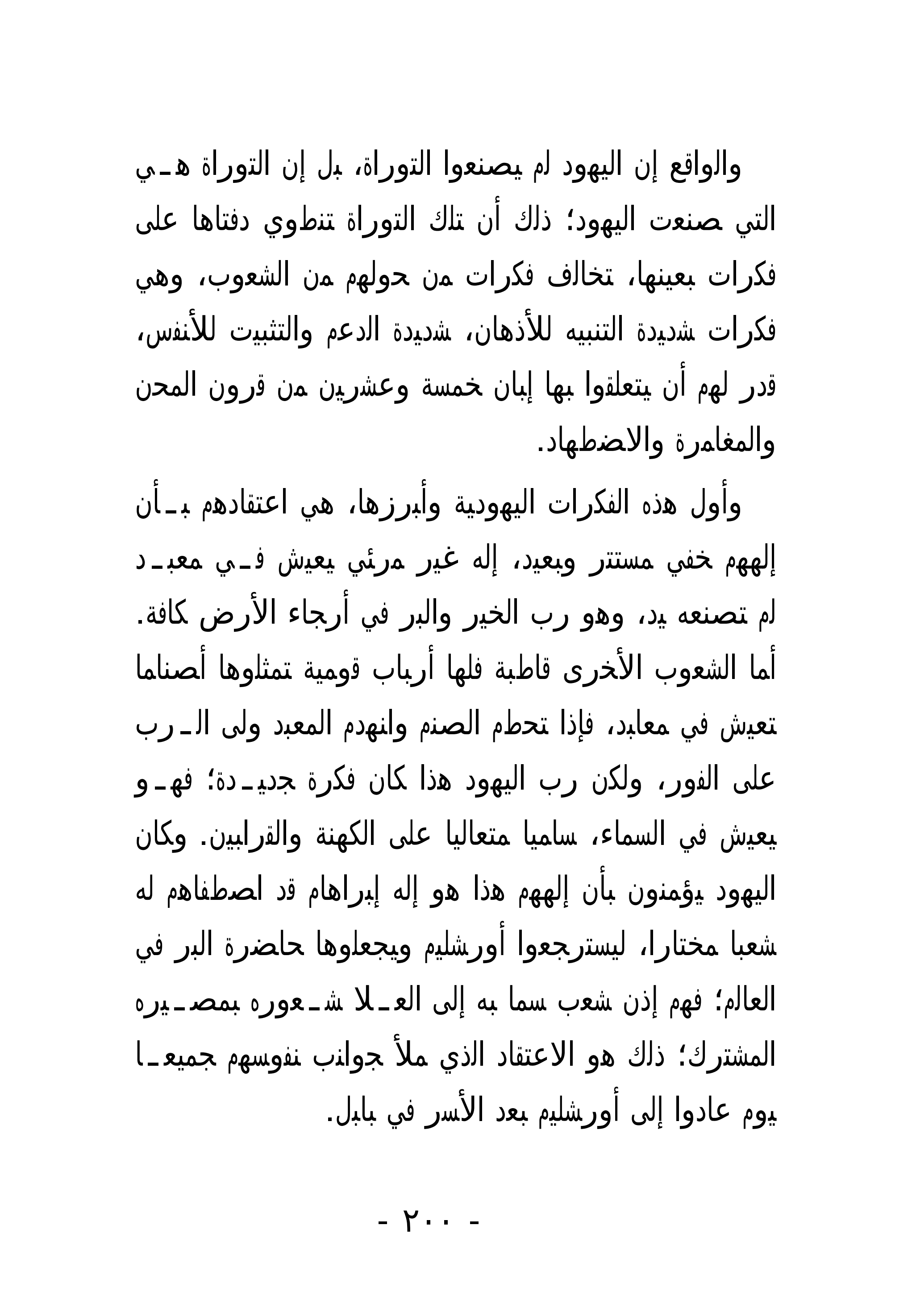


لم يكن سقوط آشور وبابل إلا فاتحة سلسلة من النكبات التي كتب للشعوب السامية أن تقاسيها. ومن قبل ذلك كان العالم المتحضر بأكمله يلوح في القرن السابع ق. م كأنما هو موشك أن يتسلط عليه حكام ساميون؛ ذلك أنهم كانوا يحكمون الإمبراطورية الآشورية العظمى، كما استولوا على مصر، وغلب الساميون على بلاد آشور وبابل وسوريا التي كانت تتكلم لغات متقاربة يمكن فهمها بينهم جميعا. وكانت بحارة العالم في أيدي الساميين؛ فإن صور وصيدا مدينتي الساحل الفينيقي الأصليتين الكبيرتين قد نثرتا المستعمرات التي كبرت في النهاية حتى فاقت أمها حجما في إسبانيا وصقلية وإفريقيا؛ ذلك أن قرطاجنة التي أسست قبل ٨٠٠ ق. م تزايد عدد سكانها حتى أربى على المليون، وظلت أعظم مدن العالم ردحا من الزمن، فذهبت سفنها إلى بريطانيا، وخرجت إلى عرض المحيط الأطلسي، ولعلها بلغت جزائر ماديرا، وقد رأينا من قبل كيف تعاون حيرام مع سليمان على بناء السفن على البحر الأحمر لنقل التجارة العربية، وربما الهندية أيضا، وحدث في زمن الفرعون نخاو أن حملة فينيقية دارت بسفنها حول قارة إفريقيا.



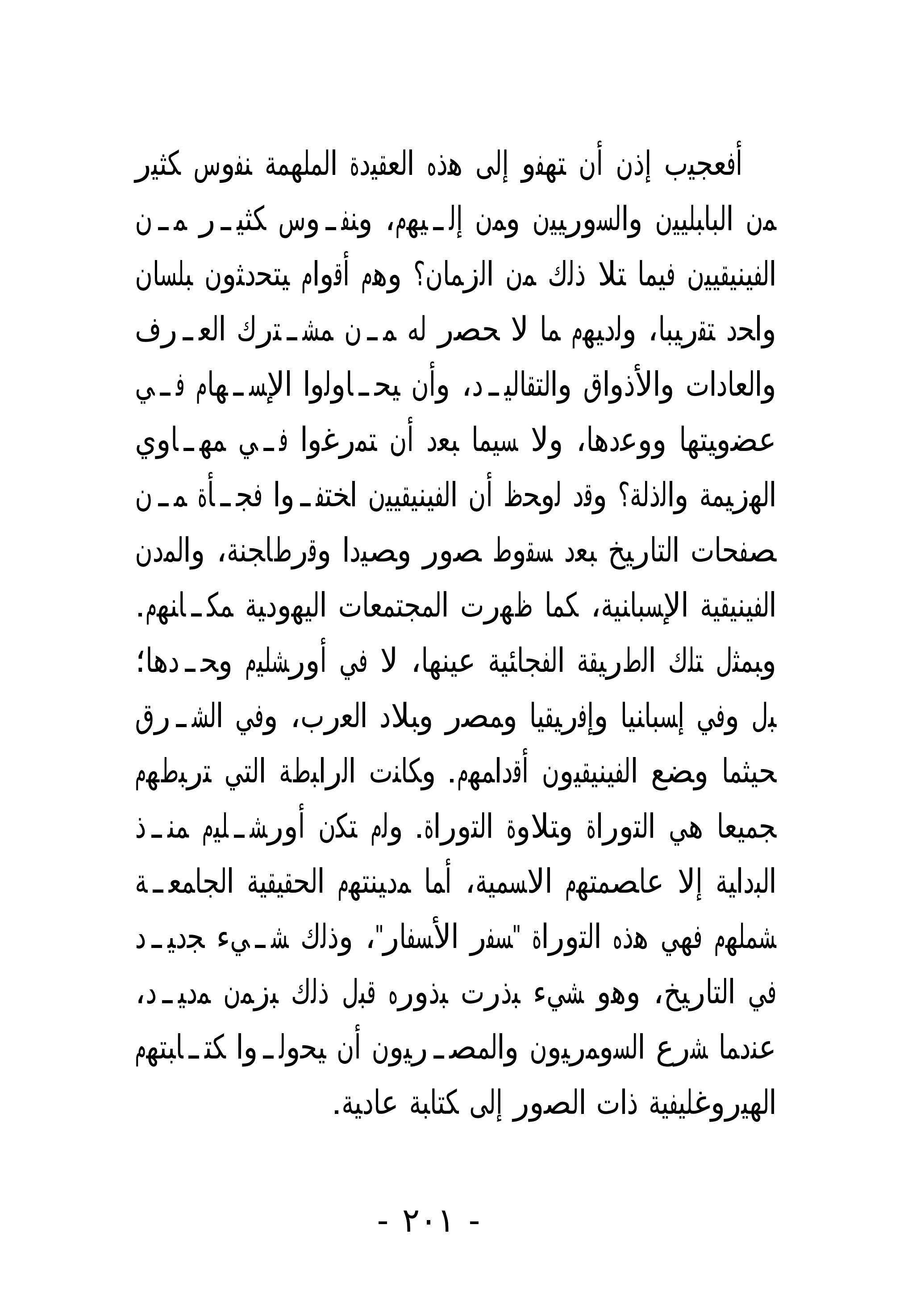
وكانت الشعوب الآرية لا تزال في ذلك الحين غارقة في الهمجية، لا يستثنى منها إلا الإغريق الذين جعلـوا يعيـدون بناء مدنية جديدة على أنقاض تلك التـي دمروهـا، وكـذلك الميديون الذين أصبحوا "ذوي بأس وقوة" في آسيا الوسطى، كما تصفهم بعض النقوش الآشورية، ولم يكن أحد يسـتطيع أن يتكهن في ٨٠٠ ق. م بأن كل أثـر لسـلطان السـاميين سيمحوه غزاة ينطقون بالآرية قبل حلول القرن الثالث ق. م، وأن الشعوب السامية ستغدو في كل مكان خاضعة أو تابعـة أو مشتتة كل مشتت؛ ففي كل مكان ما عدا صـحاري بـلاد العرب الشمالية - حيث استمسك البدو بشدة بطريقة عـيش الترحل - سادت طريقة العيش التي كانـت للسـاميين قبـل زحف سرجون الأول والآكاديين لفتح سومر، بيد أن العرب البدو لم يغزهم ألبتة سادة آريون.

ولم يتماسك من جميع هؤلاء الساميين المتحضرين الذين هزموا وأخضعوا في إبان تلك القـرون الخمسـة الحافلـة بالأحداث؛ أقول لم يتماسك منهم ولم يستمسك بتقاليده القديمة إلا شعب واحد فقط؛ هو هذا الشعب الصغير، وأعنـي بـه اليهود الذين أعادهم قـورش الفارسـي ليشـيدوا مـدينتهم أورشليم. وقد تيسر لهم ذلك كله، بفضل جمعهم شتات أدبهم ذاك؛ وهو التوراة، أثناء مقامهم في بابل.



والواقع إن اليهود لم يصنعوا التوراة، بل إن التوراة هـي التي صنعت اليهود؛ ذلك أن تلك التوراة تنطوي دفتاها على فكرات بعينها، تخالف فكرات من حولهم من الشعوب، وهي فكرات شديدة التنبيه للأذهان، شديدة الدعم والتثبيت للأنفس، قدر لهم أن يتعلقوا بها إبان خمسة وعشرين من قرون المحن والمغامرة والاضطهاد.

وأول هذه الفكرات اليهودية وأبرزها، هي اعتقادهم بـأن إلههم خفي مستتر وبعيد، إله غير مرئي يعيش فـي معبـد لم تصنعه يد، وهو رب الخير والبر في أرجاء الأرض كافة. أما الشعوب الأخرى قاطبة فلها أرباب قومية تمثلوها أصناما تعيش في معابد، فإذا تحطم الصنم وانهدم المعبد ولى الـرب على الفور، ولكن رب اليهود هذا كان فكرة جديـدة؛ فهـو يعيش في السماء، ساميا متعاليا على الكهنة والقرابين. وكان اليهود يؤمنون بأن إلههم هذا هو إله إبراهام قد اصطفاهم له شعبا مختارا، ليسترجعوا أورشليم ويجعلوها حاضرة البر في العالم؛ فهم إذن شعب سما به إلى العـلا شـعوره بمصـيره المشترك؛ ذلك هو الاعتقاد الذي ملأ جوانب نفوسهم جميعـا يوم عادوا إلى أورشليم بعد الأسر في بابل.


أفعجيب إذن أن تهفو إلى هذه العقيدة الملهمة نفوس كثير من البابليين والسوريين ومن إليهم، ونفوس كثير من الفينيقيين فيما تلا ذلك من الزمان؟ وهم أقوام يتحدثون بلسان واحد تقريبا، ولديهم ما لا حصر له من مشترك العرف والعادات والأذواق والتقاليد، وأن يحاولوا الإسهام في عضويتها ووعدها، ولا سيما بعد أن تمرغوا في مهاوي الهزيمة والذلة؟ وقد لوحظ أن الفينيقيين اختفوا فجأة من صفحات التاريخ بعد سقوط صور وصيدا وقرطاجنة، والمدن الفينيقية الإسبانية، كما ظهرت المجتمعات اليهودية مكانهم. وبمثل تلك الطريقة الفجائية عينها، لا في أورشليم وحدها؛ بل وفي إسبانيا وإفريقيا ومصر وبلاد العرب، وفي الشرق حيثما وضع الفينيقيون أقدامهم. وكانت الرابطة التي تربطهم جميعا هي التوراة وتلاوة التوراة. ولم تكن أورشليم منذ البداية إلا عاصمتهم الاسمية، أما مدينتهم الحقيقية الجامعة شملهم فهي هذه التوراة "سفر الأسفار"، وذلك شيء جديد في التاريخ، وهو شيء بذرت بذوره قبل ذلك بزمن مديد، عندما شرع السومريون والمصريون أن يحولوا كتابتهم الهيروغليفية ذات الصور إلى كتابة عادية.

كان اليهود شيئًا جديدا في هـذه الـدنيا، فـإنهم كـانوا شعبا بلا ملك، وما لبثوا أن غدوا بلا معبد؛ إذ إن أورشـليم نفسها – كما سنحدثك - قد قضى عليها في سـنة ٨٠ بعـد الميلاد، ولم يكن يجمعهم – على تباين أصولهم، واخـتلاف عناصرهم- إلا قوة الكلام المسطور.

لم يدبر أحد هذا الالتئام الفكري بين اليهود، ولا تنبأ بـه إنسان، ولا كان ثمرة جهد كاهن أو سياسي. ولم يظهر فـي التاريخ بتطور اليهود نوع جديد من المجتمع وحسـب؛ بـل نوع جديد من الإنسان. وفي أيام سليمان لم يكن يبدو علـى العبرانيين إلا أنهم سيصبحون شعبا صغيرا يتجمع كأي شعب صغير آخر في ذلك الزمان حول بـلاط ومعبـد، تحكمـه حصافة الكاهن، وتقوده مطامع الملك. ولكن هـذا الصـنف الجديد من الإنسان الذي نتحدث عنه (وأعني به "النبي") كان موجودا آنفًا، كما يستطيع القارئ أن يتحقق من ذلك بنفسـه من التوراة. وتتزايد أهمية هؤلاء الأنبياء مع تزاحم المصائب على رأس العبرانيين المنقسمين على أنفسهم.

فما هؤلاء الأنبياء؟!

إنهم رجال متباينو الأصل إلى أقصى حد؛ فالنبي حزقيال مثلاً كان من الكهنة، وكان النبي عاموس يلبس رداء الرعاة المصنوع من جلد الماعز، بيد أنهم يشتركون جميعا في شيء واحد؛ هو أنهم لا يدينون بـالولاء إلا لـرب البـر، وأنهـم يتصلون بالناس مباشرة؛ كانوا يظهرون دون ترخيص مـن ذوي السلطان، ودون تكريس مقدس كالكهان. أمـا طريقـة تعبيرهم عما في نفوسهم؛ فهي قولهم: "الآن جـاءتني كلمـة الرب". كانوا يخوضون في السياسة إلى أقصى حد، ولطالما حرضوا الناس على مصر؛ "تلك القصبة المهشمة" على حـد تعبيرهم، أو على آشور أو بابل، وقد نعوا على طبقة الكهان تراخيهم، كما نددوا بآثام الملوك الصارخة، ووجه نفر مـنهم عنايته إلى ما قد نسميه اليوم "بالإصلاح الاجتماعي"، فقـالوا إن الأغنياء "يسحقون وجوه الفقراء سحقًا"، كما أن المتـرفين يستنفدون خبز الأطفال، وأن الموسرين يصادقون الأجانـب ويقلدونهم في أبهتهم ورذائلهم، وأن هذا بغيض إلى "يـاهواه" رب "إبراهام" الذي سينزل سوط عقابه على هذه الأرض.

كانت هذه التهديدات العنيفة تدون وتصان وتدرس، وكانت تذهب حيثما ذهب اليهود، وحيثما حلوا نشرت بـين النـاس روحا دينية جديدة، فباعدت بين الرجل العادي وبين الكـاهن والمعبد والبلاط والملك، ووضعته وجها لوجه أمـام حكـم الرب، وتلك هي أهميتهم العليا في تاريخ البشرية. والأقـوال العظيمة التي ينطبق بها أشعيا يرتفع بها الصوت النبوي إلى ذروة سامية من رائع التنبؤ، ويتوقع اتحاد الأرض كلها فـي ظل إله واحد. وهنا تبلغ النبوءات اليهودية أوجها.

ولم يكن كل الأنبياء يتكلمون على هذه الشـاكلة، كمـا أن القارئ الفطن يجد في كتب الأنبياء الشيء الكثير من البغضاء، والشيء الكثير من التحيز والتحامل، والشـيء الكثيـر ممـا سيذكره بتلك المادة الشريرة؛ ألا وهي المؤلفات التي تسـطرها الدعاية في الزمن الحاضر. ومع ذلك فإن الأنبياء العبـرانيين الذين عاشوا حوالي زمن الأسر البابلي؛ هـم الـذين يؤذنـون بظهور قوة جديدة في العالم، هي قوة الالتجاء إلى الفـرد مـن الناحية الخلقية، والالتجاء إلى ضمير البشرية الحر ضد القرابين الخرافية (الفتيشية[1])، ومختلف أنواع الولاء الاستعبادي التـي ظلت حتى ذلك الحين قيدا يغل جنسنا البشري.

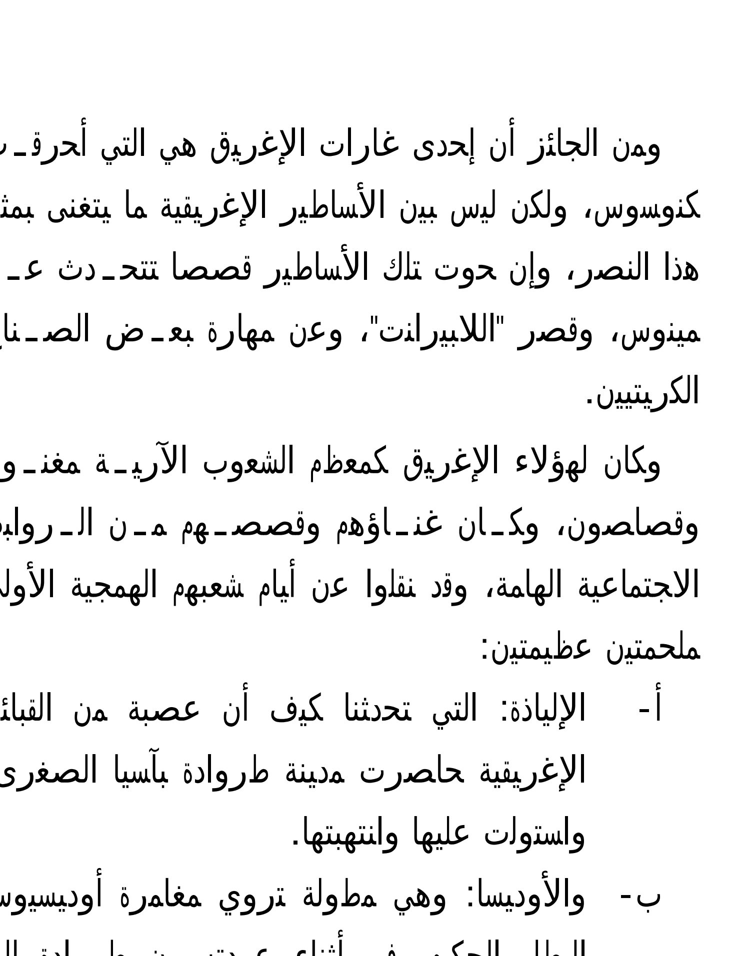
([1]) الفتيشـية: كـل شـيء ينظـر إليـه بتـوقير لا يقـوم علـى منطـق أو عقل؛ وهي في الأصل الاعتقاد أن لكل شيء روحا تنفع وتضر. [المترجم]

الفصل الثالث والعشرون

الإغتريق

في نفس الوقت الذي كانت فيه مملكتا إسـرائيل ويهـوذا المنقسمتان على نفسيهما تكابدان التدمير ونقل السـكان بعـد عهد سليمان (الذي حكم على الأرجـح حـوالي ٩٦٠ قبـل الميلاد)، وبينما الشعب اليهودي يطور تقاليده وينميها إبـان الأسر البابلي؛ كانت تنشأ أيضا قوة عظيمة الأثر في العقـل الإنساني؛ هي التقاليـد الإغريقيـة. وبينمـا كـان الأنبيـاء العبرانيون يكونون في الناس شعورا جديدا بوجود مسـئولية خلقية مباشرة بينهم وبين رب سرمدي للعالم كافـة يتصـف بالعدل والحق؛ كان فلاسفة الإغريق يدربون العقل الإنساني على المغامرة الفكرية بطريق وروح جديدتين.

والقبائل الإغريقية – كما سبق أن ألمعنـا - فـرع مـن الدوحة الناطقة بالآرية، انحدر إلى المدن والجزائر الإيجيـة قبل ١٠٠٠ ق. م ببضعة قـرون. والـراجح أنهـم كـانوا يتحركون نحو الجنوب قبل اليوم الذي راح فيـه تحـوتمس فرعون مصر يصيد فيلته الأولى وراء إقليم الفـرات الـذي استولى عليه؛ ذلك أنه كانت هناك في تلك الأيام أفيال بأرض الجزيرة، وأسود في بلاد الإغريق.



ومن الجائز أن إحدى غارات الإغريق هي التي أحرقت كنوسوس، ولكن ليس بين الأساطير الإغريقية ما يتغنى بمثل هذا النصر، وإن حوت تلك الأساطير قصصا تتحدث عن مينوس، وقصر "اللابيرانت"، وعن مهارة بعض الصناع الكريتيين.

وكان لهؤلاء الإغريق كمعظم الشعوب الآرية مغنون وقصاصون، وكان غناؤهم وقصصهم من الروابط الاجتماعية الهامة، وقد نقلوا عن أيام شعبهم الهمجية الأولى ملحمتين عظيمتين:

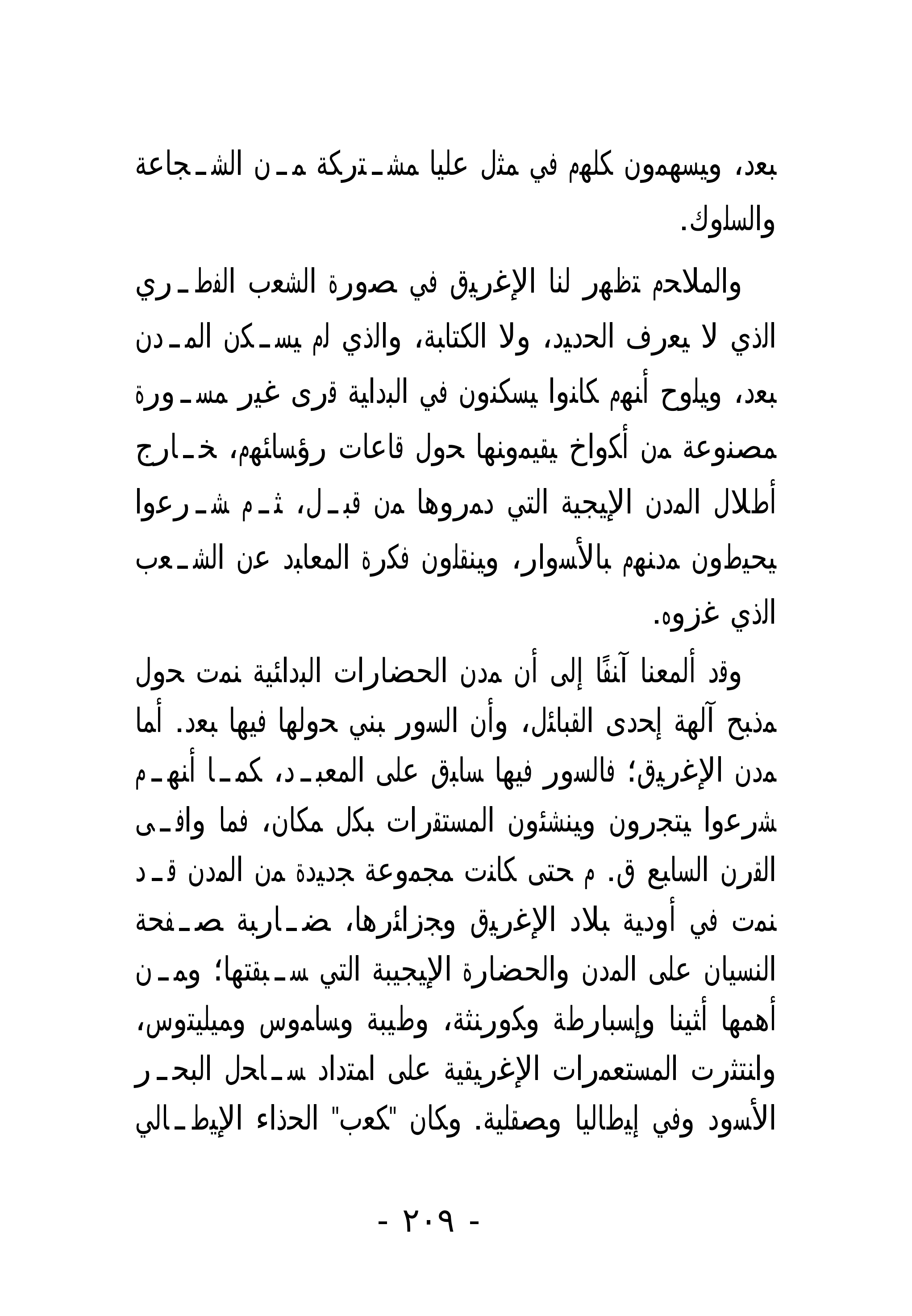
أ- الإلياذة: التي تحدثنا كيف أن عصبة من القبائل الإغريقية حاصرت مدينة طروادة بآسيا الصغرى، واستولت عليها وانتهبتها.

ب- والأوديسا: وهي مطولة تروي مغامرة أوديسيوس البطل الحكيم، في أثناء عودته من طروادة إلى جزيرته.

وقد دونت هاتان الملحمتان في زمن ما من القرن الثـامن أو السابع ق. م، عندما تعلم الإغريـق اسـتعمال الحـروف الأبجدية من جيرانهم الأكثر مدنية. ولكن نظن أنهمـا كانتـا موجودتين قبل ذلك بزمن طويل جدا، وكانتا تنسـبان فيمـا سلف إلى شاعر ضرير اسمه "هوميروس"، زعم الناس أنـه هو الذي صاغهما، مثلما ألف "ميلتـون" قصـيدة الفـردوس المفقود؛ فهل وجد هذا الشاعر حقًـا؟ وهـل ألـف هـاتين الملحمتين، أم اقتصر أمره على تدوينهما وصقلهما إلى غير ذلك؟..

الواقع إن هذا موضوع يلـذ للعلمـاء أن يعرضـوا لـه بالنقاش. وما نحن بحاجـة أن نشـغل أنفسـنا بمثـل هـذه المنازعات. وكل ما يهمنا أن اليونانيين ملكوا الملحمتين فـي القرن الثامن ق. م، وأنهما كانتا ملكًا مشـاعا لهـم جميعـا، وصلة تربط بين قبائلهم المتنوعة، وتمنحهم شعورا بالزمالـة ضد البرابرة[1]؛ ذلك أنهم كـانوا مجموعـة مـن شـعوب متشابهة تربطهم رابطة اللغة والكلام أولاً، ثم الكتابـة فيمـا

([1]) البرابرة اصطلاحا هم من أعداء اليونانيين من الشعوب [المترجم].



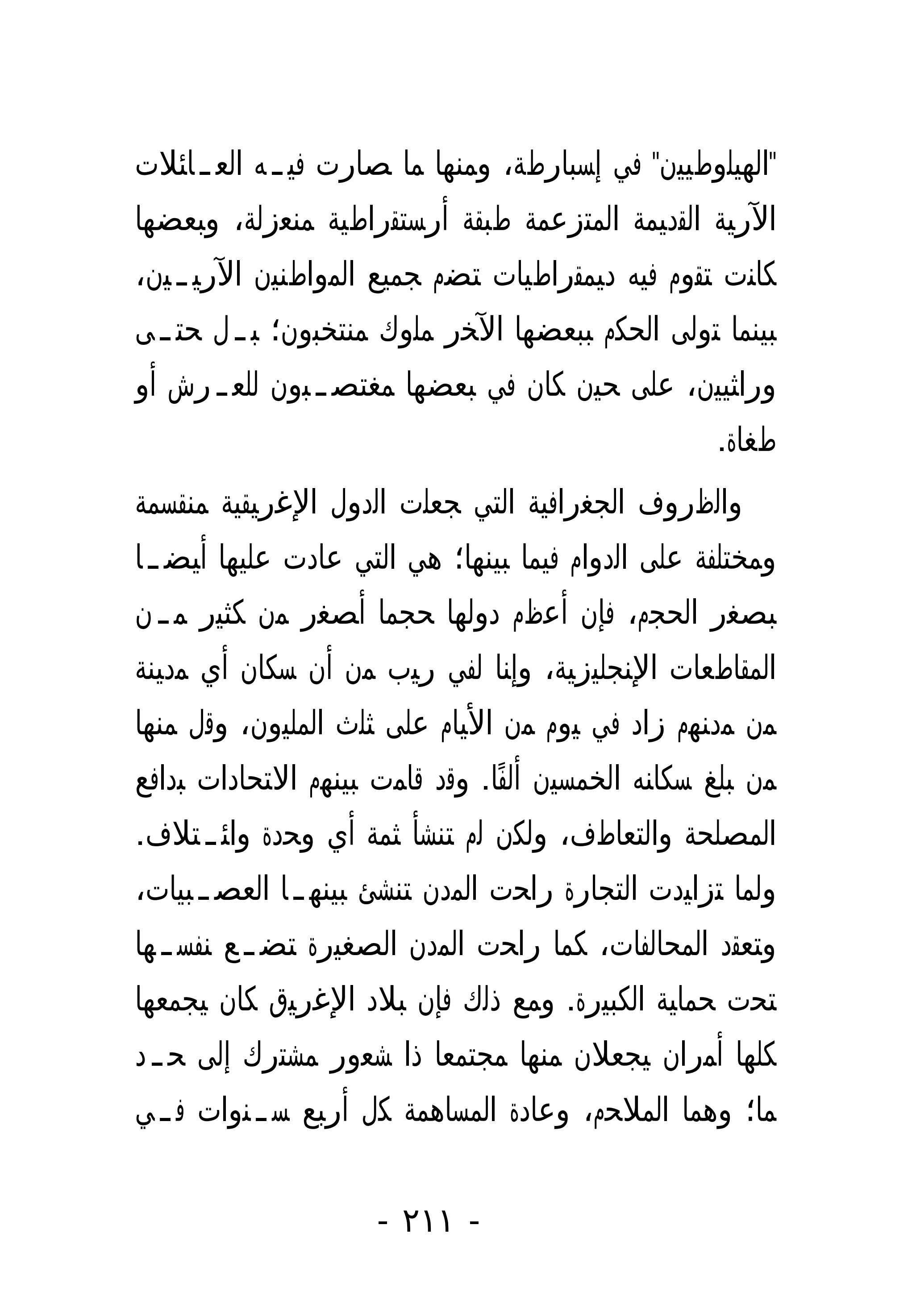
بعد، ويسهمون كلهم في مثل عليا مشـتركة مـن الشـجاعة والسلوك.

والملاحم تظهر لنا الإغريق في صورة الشعب الفطـري الذي لا يعرف الحديد، ولا الكتابة، والذي لم يسـكن المـدن بعد، ويلوح أنهم كانوا يسكنون في البداية قرى غير مسـورة مصنوعة من أكواخ يقيمونها حول قاعات رؤسائهم، خـارج أطلال المدن الإيجية التي دمروها من قبـل، ثـم شـرعوا يحيطون مدنهم بالأسوار، وينقلون فكرة المعابد عن الشـعب الذي غزوه.

وقد ألمعنا آنفًا إلى أن مدن الحضارات البدائية نمت حول مذبح آلهة إحدى القبائل، وأن السور بني حولها فيها بعد. أما مدن الإغريق؛ فالسور فيها سابق على المعبـد، كمـا أنهـم شرعوا يتجرون وينشئون المستقرات بكل مكان، فما وافـى القرن السابع ق. م حتى كانت مجموعة جديدة من المدن قـد نمت في أودية بلاد الإغريق وجزائرها، ضـاربة صـفحة النسيان على المدن والحضارة الإيجيبة التي سـبقتها؛ ومـن أهمها أثينا وإسبارطة وكورنثة، وطيبة وساموس وميليتوس، وانتشرت المستعمرات الإغريقية على امتداد سـاحل البحـر الأسود وفي إيطاليا وصقلية. وكان "كعب" الحذاء الإيطـالي

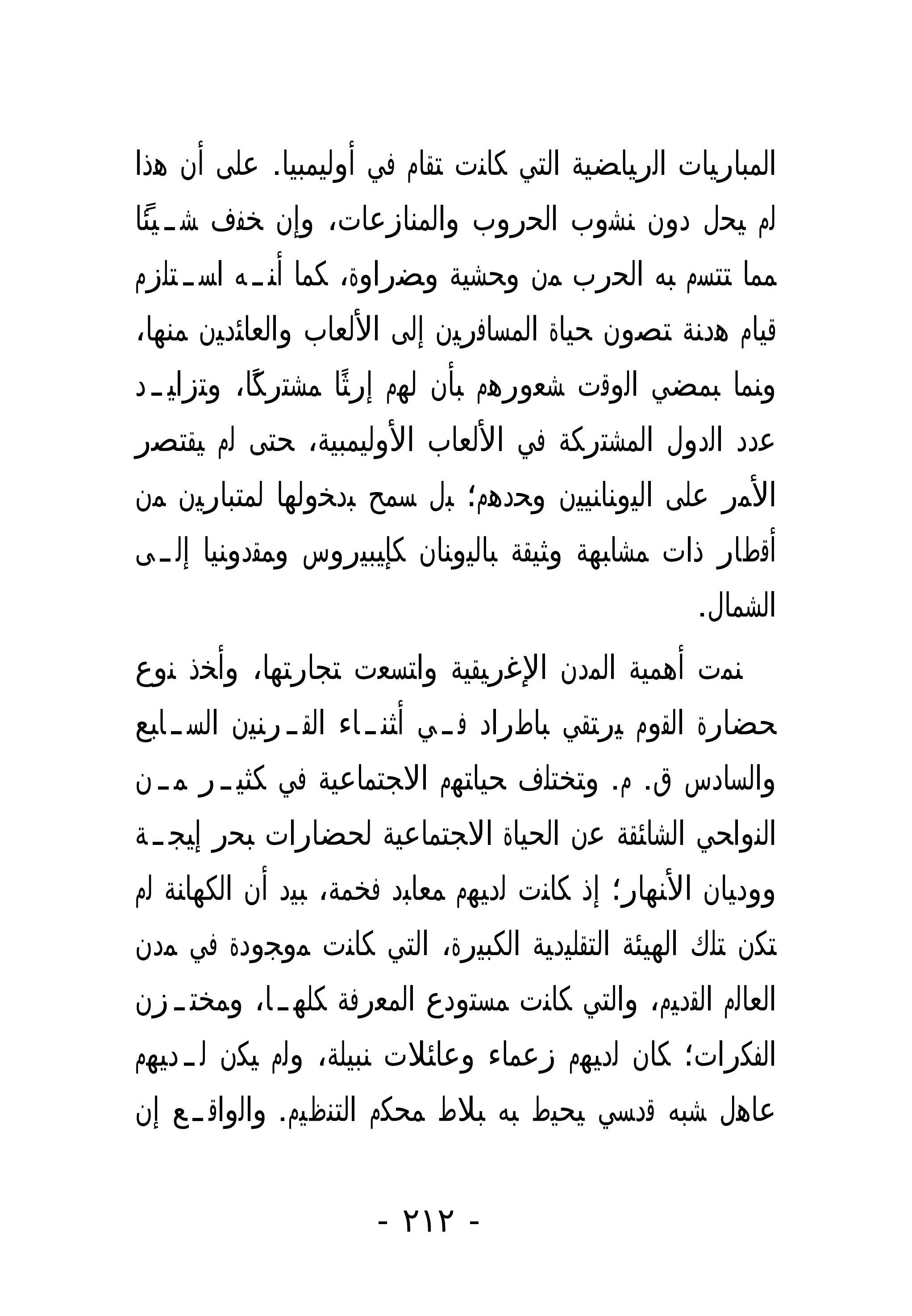
ومقدمه يسميان ماجنا جريكيا (بلاد اليونان الكبرى)، كما أن مدينة مرسيليا ليست إلا بلدة إغريقية أسست علـى أنقـاض مستعمرة فينيقية قديمة.

والأقطار المكونة من سهول عظيمة، أو التي تكون وسيلة المواصلات الرئيسية فيها أحد الأنهار العظيمة كـالفرات أو النيل؛ تنزع إلى الاتحاد تحت حكم مشترك. ومن أمثلة ذلـك أن مدن مصر وسومر اتحدت كلها تحت نظام حكم واحـد، ولكن الشعوب اليونانية كانت موزعة بين الجزائر والوديـان الجبلية؛ إذ من المعلوم أن بلاد الإغريق والجزء الجنوبي من إيطاليا (الماجنا جريكيا) جبلية وعره؛ لذا كان الوضع ينـزع صوب التفرق لا الاتحاد. وعندما ظهر اليونان في التـاريخ لأول مرة كانوا منقسمين إلى عدد من الدويلات الصـغيرة، التي لا يبدو عليها أي أثر للائتلاف، وكانوا يتباينون في كل شيء حتى في الجنس؛ فمن تلك الدويلات ما تـألف بصـفة أساسية من مواطنين من إحدى القبائـل اليونانيـة الـثلاث الأيونية أو الأيولية أو الدورية، ومنها ما كان سكانه خليطـًا من اليونان ومن سلالات جنس البحـر المتوسـط السـابق لليونان، ومنها ما فيه مواطنون أحرار من اليونان الخالـص، يتلسطون عليها وعلى سكانها المقهورين المسـتعبدين شـأن

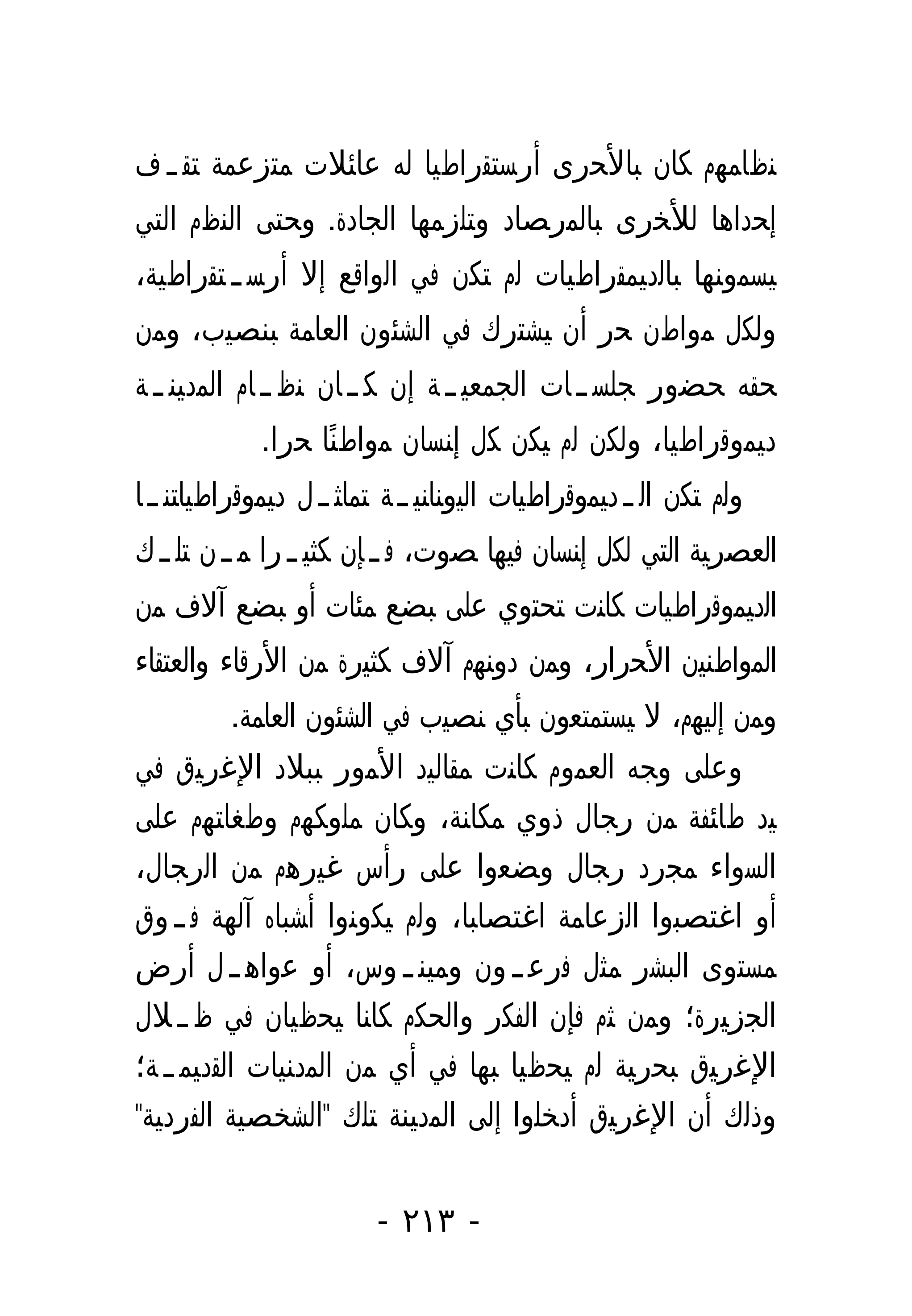


"الهيلوطيين" في إسبارطة، ومنها ما صارت فيه العائلات الآرية القديمة المتزعمة طبقة أرستقراطية منعزلة، وبعضها كانت تقوم فيه ديمقراطيات تضم جميع المواطنين الآريين، بينما تولى الحكم ببعضها الآخر ملوك منتخبون؛ بل حتى وراثيين، على حين كان في بعضها مغتصبون للعرش أو طغاة.

والظروف الجغرافية التي جعلت الدول الإغريقية منقسمة ومختلفة على الدوام فيما بينها؛ هي التي عادت عليها أيضا بصغر الحجم، فإن أعظم دولها حجما أصغر من كثير من المقاطعات الإنجليزية، وإنا لفي ريب من أن سكان أي مدينة من مدنهم زاد في يوم من الأيام على ثلث المليون، وقل منها من بلغ سكانه الخمسين ألفًا. وقد قامت بينهم الاتحادات بدافع المصلحة والتعاطف، ولكن لم تنشأ ثمة أي وحدة وائتلاف. ولما تزايدت التجارة راحت المدن تنشئ بينها العصبيات، وتعقد المحالفات، كما راحت المدن الصغيرة تضع نفسها تحت حماية الكبيرة. ومع ذلك فإن بلاد الإغريق كان يجمعها كلها أمران يجعلان منها مجتمعا ذا شعور مشترك إلى حد ما؛ وهما الملاحم، وعادة المساهمة كل أربع سنوات في


المباريات الرياضية التي كانت تقام في أوليمبيا. على أن هذا لم يحل دون نشوب الحروب والمنازعات، وإن خفف شـيئًا مما تتسم به الحرب من وحشية وضراوة، كما أنـه اسـتلزم قيام هدنة تصون حياة المسافرين إلى الألعاب والعائدين منها، ونما بمضي الوقت شعورهم بأن لهم إرثًا مشتركًا، وتزايـد عدد الدول المشتركة في الألعاب الأوليمبية، حتى لم يقتصر الأمر على اليونانيين وحدهم؛ بل سمح بدخولها لمتبارين من أقطار ذات مشابهة وثيقة باليونان كإيبيروس ومقدونيا إلـى الشمال.

نمت أهمية المدن الإغريقية واتسعت تجارتها، وأخذ نوع حضارة القوم يرتقي باطراد فـي أثنـاء القـرنين السـابع والسادس ق. م. وتختلف حياتهم الاجتماعية في كثيـر مـن النواحي الشائقة عن الحياة الاجتماعية لحضارات بحر إيجـة ووديان الأنهار؛ إذ كانت لديهم معابد فخمة، بيد أن الكهانة لم تكن تلك الهيئة التقليدية الكبيرة، التي كانت موجودة في مدن العالم القديم، والتي كانت مستودع المعرفة كلهـا، ومختـزن الفكرات؛ كان لديهم زعماء وعائلات نبيلة، ولم يكن لـديهم عاهل شبه قدسي يحيط به بلاط محكم التنظيم. والواقـع إن


نظامهم كان بالأحرى أرستقراطيا له عائلات متزعمة تقـف إحداها للأخرى بالمرصاد وتلازمها الجادة. وحتى النظم التي يسمونها بالديمقراطيات لم تكن في الواقع إلا أرسـتقراطية، ولكل مواطن حر أن يشترك في الشئون العامة بنصيب، ومن حقه حضور جلسـات الجمعيـة إن كـان نظـام المدينـة ديموقراطيا، ولكن لم يكن كل إنسان مواطنًا حرا.

ولم تكن الـديموقراطيات اليونانيـة تماثـل ديموقراطياتنـا العصرية التي لكل إنسان فيها صوت، فـإن كثيـرا مـن تلـك الديموقراطيات كانت تحتوي على بضع مئات أو بضع آلاف من المواطنين الأحرار، ومن دونهم آلاف كثيرة من الأرقاء والعتقاء ومن إليهم، لا يستمتعون بأي نصيب في الشئون العامة.

وعلى وجه العموم كانت مقاليد الأمور ببلاد الإغريق في يد طائفة من رجال ذوي مكانة، وكان ملوكهم وطغاتهم على السواء مجرد رجال وضعوا على رأس غيرهم من الرجال، أو اغتصبوا الزعامة اغتصابا، ولم يكونوا أشباه آلهة فـوق مستوى البشر مثل فرعـون ومينـوس، أو عواهـل أرض الجزيرة؛ ومن ثم فإن الفكر والحكم كانا يحظيان في ظـلال الإغريق بحرية لم يحظيا بها في أي من المدنيات القديمـة؛ وذلك أن الإغريق أدخلوا إلى المدينة تلك "الشخصية الفردية"

والمبادأة والابتكار الشخصي اللذين ينعم بهمـا المتجولـون الرحل في أراضي الأحراش الشمالية؛ فهم أول "جمهوريين" لهم أهمية في التاريخ.

وبينما هم ينفضون عن أنفسهم غبـار حـرب وحشـية ضروس دارت بينهم؛ يستكشف المشاهد أن شيئًا جديدا أصبح واضحا في حياتهم العقلية لأول مرة في التاريخ؛ ذلـك أنـا نلتقي هنا برجال ليسـوا مـن الكهنـة، يطلبـون المعرفـة ويسجلونها ويفحصون عن أسرار الحياة والوجود، بطريقـة كانت حتى ذلك الحين هي امتياز الكهنة الرفيـع، أو تسـلية الملوك التي يزاولونها في كثير من الادعاء والغطرسة؛ فإنـا نجد فعلاً في القرن السادس ق. م (بينما كان إشعيا لا يـزال يتنبأ في بابل) رجالاً مثل "طاليس"، و"أنا كسيماندر المليطي"، و"هرقليتوس" من أهل إفيسوس؛ وهم قوم من نسميهم اليـوم باسم السادة السراة؛ نجدهم قد كرسوا عقولهم للبحث والتدقيق بأسلوب الذكي الأريب في أحوال العالم الذي نعـيش فيـه، متسائلين عن ماهيته، وكنه طبيعته الحقة، ومن أيـن جـاء؟ وماذا يمكن أن تكون عليه مصـائره؟.. ورافضـين جميـع الإجابات المعدة أو المحفوظة التي لا تصدر عن إعمال فكر، أو تنطوي على التملص. وسنزيدك عما قليل بيانًا عن هـذا التساؤل الذي وجهه العقل الإغريقي إلى هذا الكون. وهؤلاء

الباحثون الإغريق الذين أخذوا يبـرزون، ويلفتـون إلـيهم الأنظار في القرن السادس قبل الميلاد هم أول الفلاسـفة؛ أي أول محبي الحكمة في العالم.

وربما أمكننا أن ننوه بعظم أهمية القـرن السـادس قبـل الميلاد في تاريخ البشر؛ ذلك أن هؤلاء الفلاسفة الإغريق لم يكونوا وحدهم أول من جد في طلب الأفكار الخالصة النفاذة حول هذا الكون ومركز الإنسان فيه، على حين راح "إشعيا" يسمو بالتنبؤ اليهودي إلى أرفع مراتبه، بل إن "جوتاما بوذا" أيضا – كما سنحدثك فيما بعد - كان يعلـم النـاس آنـذاك بالهند، وكذلك "كونفشيوس" ولاوتسـي (لاهوتسـي) بـبلاد الصين؛ فكأن العقل الإنساني من أثينا حتى المحيط الهـادي كان في حركة ونشاط دائبين.

الفصل الرابع والعشرون

الحرب بين الإغريق والفرس

بينما كان الإغريق في المدن القائمة بـبلادهم وجنـوبي إيطاليا وآسيا الصغرى، مقبلين على البحث الفكري الحـر، وبينما كان آخر الأنبياء العبرانيين في بابل وأورشليم يخلقون ضميرا حرا؛ استولى شعبان آريان مخـاطران (الميـديون، والفرس) على زمام حضارة العالم القديم، وشرعا في تكوين إمبراطورية ضخمة هي الإمبراطورية الفارسية، التي كانت أوسع رقعة بكثير من أي إمبراطورية رآها العالم حتى ذلـك الحين.

ولم تلبث بابل وليديا الثرية ذات الحضـارة العريقـة أن أضيفتا في عهد قورش إلى أملاك الفرس، ثم ضمت إلـيهم مدن الفينيقيين بالمشرق، وجميـع المـدن اليونانيـة بآسـيا الصغرى، وأخضع قمبيز مصر، كما لـم يلبـث دارا الأول الميدي، ثالث ملوك الفرس (٥٢١ ق.م) أن وجد نفسه عاهلاً للعالم بأسره حسب اعتقاد الزمان، وصار رسـله يجوبـون الطرق بمراسيمه على الخيل، من الدردنيل إلى السند، ومـن مصر العليا إلى آسيا الوسطى.

أجل إن يونان أوروبا وإيطاليـا وقرطاجنـة وصـقلية، والمستعمرات الفينيقية بإسبانيا لم تستظل "السلم الفارسي"[1]؛ بيد أنها كانت تعامل فارس بالاحترام، ولـم يجـد الفـرس مضايقة جدية إلا من قبائل آبائهم القدماء من الشعوب الآرية القاطنين بجنوب الروسيا وآسيا الوسطى، وهم الأشـقوذيون (الإسكيذيون) الذين كانوا دائمي الإغارة على الحدود الشمالية والشمالية الشرقية..

وسكان هذه الإمبراطورية الفارسية الكبيرة لـم يكونـوا جميعا بطبيعة الحال من الفرس؛ فلم يكن هؤلاء إلا الأقليـة الصغيرة الفاتحة والحاكمة لهذه المملكة الضخمة.

فأما سائر السكان؛ فكانوا على ما هم عليه قبـل نـزول الفرس بهم بأزمان سحيقة، وكل ما جد في الأمـر هـو أن الفارسية أصبحت لغة الحكم والإدارة، وقد ظلـت التجـارة والمالية ساميتين إلى حد كبير، وبقيت صور وصيدا كشأنهما في الماضي؛ الميناءان العظيمان على البحر المتوسط، كمـا أن السفن السامية ظلت تمخر عباب البحار، بيد أن كثيرا من

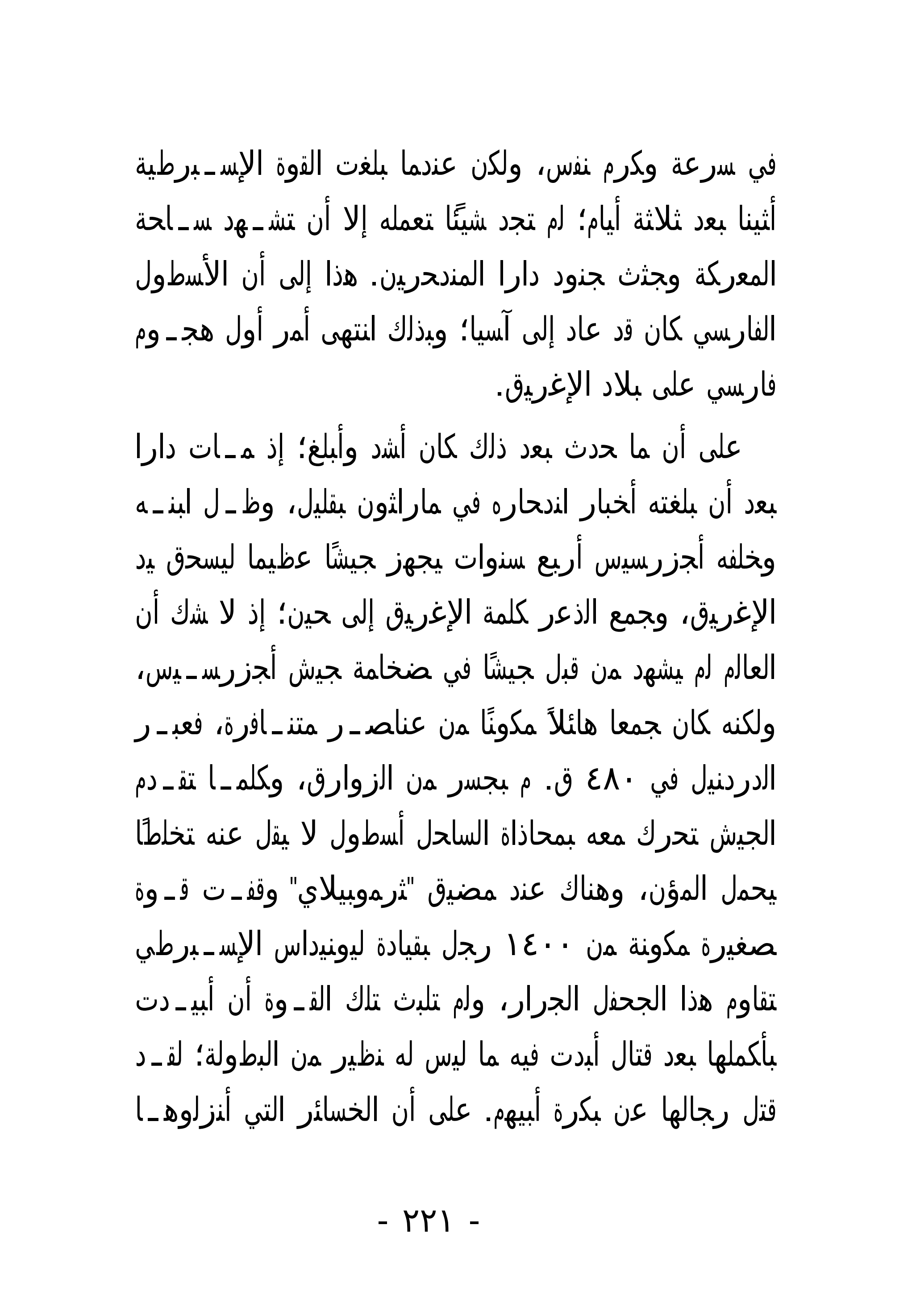
([1]) السلم الفارسي: السلم الذي تقوم بصيانته دولة فارس بالمناطق التي يرفرف عليها علمها. [المترجم]

هؤلاء التجار ورجال الأعمال الساميين كانوا إذا انتقلوا مـن مكان إلى آخر وجدوا تاريخًا مشتركًا يجتمع فيه مصـلحتهم وتعاطفهم، ويتمثل في التقاليد والكتب المنزلة العبرانية. وثمة جنس جديد كان عدده يزداد بسرعة في تلك الإمبراطوريـة؛ وهو الجنس الإغريقي. وتلفت الساميون فإذا باليونـان قـد صاروا لهم منافسين خطرين على صفحة البحر، فضلاً عـن أن ذكاءهم الفياض البعيد عن الهوى جعل مـنهم مـوظفين نافعين غير متحيزين.

وكان الإسكيذيون هم السبب الذي من أجلـه غـزا دارا الأول أوروبا؛ فإنه شاء أن يصل إلى جنوب الروسيا موطن الفرسان الإسكيذيين، فعبر البوسفور بجيش عظيم اخترق به بلغاريا إلى نهر الدانوب، ثم عبر النهر بجسر من الـزوارق وأوغل شمالاً، فلقي جيشه الأهوال؛ لأنه كان في معظم شأنه قوة راجلة من المشاة، على حين راح الإسكيذيون – وهم من الخيالة - يناوشونه بخيلهم من جميع جوانبه، فيقطعون عنـه المدد، ويهلكون كل من ضل من جنده، ولا يدخلون معه في أي معركة فاصلة، واضطر دارا أن يتراجع تراجعا مزريـا شائنًا.

عاد دارا بشخصه إلى سوس، ولكنه خلف جيشًا في تراقيا ومقدونيا، وخضعت مقدونيا لدارا، ولما رأت مدن الإغريـق الآسيوية ما حل بالملك من إخفاق شبت فيها الفتن، وانجـذب إغريق أوروبا إلى حومة النزاع، وصمم دارا على إخضـاع إغريق أوروبا. ولما كان الأسطول الفينيقي رهـن إشـارته تسنى له بمساعدته أن يخضع الجزر واحدة تلـو الأخـرى، حتى انتهى به الأمر في ٤٩٠ ق. م إلى أن قـام بهجومـه الرئيسي على أثينا، وأقلعت عمارة بحرية عظيمة من مواني آسيا الصغرى وشرقي البحر المتوسـط، وأنزلـت الحملـة جنودها عند ماراثون إلى الشمال من أثينـا، وهنـاك لقـيهم الأثينيون وهزموهم شر هزيمة.

وفي تلك اللحظة الحرجة حدث شيء خارق؛ فقد كانـت إسبارطة ألد منافس لأثينا ببلاد الإغريق، واليوم لجأت أثينـا إلى إسبرطة تلتمس العون، فأرسلت إليهـا رسـولاً عـداء سريعا، يتوسل إلى الإسبرطيين ألا يدعوا الإغريق يصبحون للبرابرة عبيدا، وقطع هذا العداء (وهـو النمـوذج المثـالي لنظرائه من عدائي ماراثون) أكثر من مائة ميل مـن أرض وعرة في أقل من يومين. وهب الإسبرطيون لنصرة إخوانهم



في سرعة وكرم نفس، ولكن عندما بلغت القوة الإسبرطية أثينا بعد ثلاثة أيام؛ لم تجد شيئًا تعمله إلا أن تشهد ساحة المعركة وجثث جنود دارا المندحرين. هذا إلى أن الأسطول الفارسي كان قد عاد إلى آسيا؛ وبذلك انتهى أمر أول هجوم فارسي على بلاد الإغريق.

على أن ما حدث بعد ذلك كان أشد وأبلغ؛ إذ مات دارا بعد أن بلغته أخبار اندحاره في ماراثون بقليل، وظل ابنه وخلفه أجزرسيس أربع سنوات يجهز جيشًا عظيما ليسحق يد الإغريق، وجمع الذعر كلمة الإغريق إلى حين؛ إذ لا شك أن العالم لم يشهد من قبل جيشًا في ضخامة جيش أجزرسيس، ولكنه كان جمعا هائلاً مكونًا من عناصر متنافرة، فعبر الدردنيل في ٤٨٠ ق. م بجسر من الزوارق، وكلما تقدم الجيش تحرك معه بمحاذاة الساحل أسطول لا يقل عنه تخلطًا يحمل المؤن، وهناك عند مضيق "ثرموبيلاي" وقفت قوة صغيرة مكونة من ١٤٠٠ رجل بقيادة ليونيداس الإسبرطي تقاوم هذا الجحفل الجرار، ولم تلبث تلك القوة أن أبيدت بأكملها بعد قتال أبدت فيه ما ليس له نظير من البطولة؛ لقد قتل رجالها عن بكرة أبيهم. على أن الخسائر التي أنزلوها

بالفرس كانت فادحة، وأطبق جيش أجزرسيس على طيبـة[١] وأثنيا كسير الروح، وخضعت طيبة وكتبت شروط التسـليم، وتخلى الأثينيون عن مدينهم فأحرقها العدو.

وبدت بلاد الإغريق كأنما قد أصبحت في قبضة الفاتحين، ولكن النصر عاد فحالفهم رغم كل الظروف المضادة، وعلى النقيض من كل ما كانوا يتوقعونه؛ فإن الأسطول الإغريقـي أخذ يهاجم الأسطول الفارسي في خليج سلاميس، ودمره وإن لم يبلغ ثلث حجمه، ووجد أجزرسيس أنه وجيشه العرمرم قد صارا محرومين من المؤن؛ فخانته شجاعته، وتراجع إلـى آسيا بنصف جيشه، تاركًا النصف الآخر لكي يهزم في بلاتيا (٤٧٩ ق.م)، وفي نفس الوقت كان الإغريق يطاردون بقايـا الأسطول الفارسي ويدمرونها عند ميكالي بآسيا الصغرى.

لقد زال كل خطر فارسي، وباتت معظم المدن الإغريقيـة بآسيا حرة، وقد سطرت هذه الأحداث جميعا بتفصيل عظيم، وفي شيء كثير من الجمال الجذاب في أول كتاب تـاريخي مدون؛ وهو تاريخ هيـرودوت. ولـد هيـرودوت حـوالي

([1]) طيبة: مدينة إغريقية نرجو ألا يخلط القارئ بينها وبـين سـميتها العظيمة بصعيد مصر.

٤٨٤ ق. م في مدينة هاليكارناسوس الأيونية بآسيا الصغرى، فجعل يزور بابل ومصر التماسـا للتفاصـيل المضـبوطة والمشاهدات الصحيحة، وهوت فارس منذ معركة ميكالي في بحر من الفوضى والخلاف على العرش؛ فاغتيل أجزرسيس في ٤٦٥ ق. م، وشبت الثورات في مصر وسـوريا وبـلاد الميديين؛ فقضت على النظام الذي استتب أمدا وجيزا على يد تلك المملكة الجبارة. وتاريخ هيـرودوت يحـاول أن يؤكـد ضعف فارس، والواقع إن هذا التاريخ ضرب مما قد نسـميه اليوم باسم الدعاية؛ فهو دعوة لليونانيين إلى الاتحاد والقضاء على فارس، وإن هيرودوت ليجعل من أرستاجوراس (إحدى الشخصيات المذكورة في كتابه) داعية يذهب إلى الإسبرطيين بخريطة للعالم المعروف، ويقول لهم:

"ليس هؤلاء البرابرة شجعانًا في القتال، وأنتم مـن جهـة أخرى بلغتم اليوم أقصى المهارة في الحـرب.. ولـيس ثـم شعب آخر في العالم يملك ما يملكون مـن ذهـب وفضـة وبرونز وثياب موشاة وحيوان وعبيد، وربما أحرزتم كل ذلك لأنفسكم إن أردتم ذلك حقًا...".

الفصل الخامس والعشرون

بلاد الإغريق إبان مجدها

كان القرن ونصف القرن اللذان أعقبـا هزيمـة فـارس؛ عصر عظمة الحضارة اليونانية وجلالها. أجل إنه شمل بلاد الإغريق تمزق في صراع على السطوة والعزة، استيأسـت فيه كل من أثينا وإسبارطة ودويلات أخرى (وهـي حـرب البيلوبونيز ٤٣١ – ٤٠٤ ق. م)، وأنه حدث في ٣٣٨ ق. م أن أصبح المقدونيون بالفعل سادة لبلاد الإغريق؛ ومع ذلـك فإن الفكر الإغريقي وبواعث الخلق والابتكار ودوافع الفـن فيهم سمت في تلك الفترة إلى مسـتويات رفيعـة، جعلـت ما أنجزوه فيها من عظائم الأعمال، نبراسـا تسـتهدي بـه البشرية على كر التاريخ كله.

وكانت أثينا الرأس المفكر والمركز الأساسي لذلك النشاط العقلي؛ وذلك أن أثينا قضت ثلاثين عاما أو تزيـد (٤٦٦ – ٤٢٨ ق.م) تحت سيطرة رجل قوي الشكيمة حر الفكر سمح العقل؛ هو بركليس، الذي نصب نفسه لإعادة بناء المدينة بعد الحريق الذين أنزله بها الفرس، والآثار الجميلة التي لا تزال تملأ أرجاء أثينا إلى اليوم بالمجد والجلال؛ تعود بوجه خاص إلى ذلك الجهد العظيم. والواقع إن بركليس لم يقتصر علـى إعادة بناء أثينا من الناحية المادية فقط؛ بل أعاد بناءها مـن

الناحية الفكرية أيضا، فلم يكتف بركليس بأن يجمـع حولـه المعماريين والمثالين وحدهم، بـل حشـد أيضـا الشـعراء والمؤلفين الدراميين والفلاسفة والمعلمين. وفي عهـده جـاء هيرودوت إلى أثينا ليتلو تاريخه على مسامع النـاس (٤٨٣ ق.م)، كما جاء أناجزاجوراس إليها يحمل بـدايات وصـف علمي للشمس والنجوم، وفيها نهض إيسكيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس - الواحد منهم بعد الآخر - بالدراما (المسرحية) الإغريقية إلى أعلى ذرا الرفعة والجمال.

وقد دفع بركليس حياة أثينا الذهنية دفعة ظلت حيـة بعـد وفاته، وذلك رغم أن السلام ببلاد الإغريق كانت تعكره وقتئذ حرب البيلوبونيز، وأن كفاحا وقتالاً طـويلاً علـى السـيادة بالبلاد قد اندلعت شرارته. والحق أنه يلوح أن تلبـد الأفـق السياسي بالغيوم ظل إلى حين يعمل على شحذ أذهان النـاس لا تثبيطها.

وقبل عهد بركليس بزمن طويل؛ كان جو الحرية العجيب الذي تستمتع به النظم الإغريقية يضفي أهمية كبـرى علـى المهارة في المناقشة والجدال؛ إذ لم يكن البت في الأمور حقًا لملك ولا كاهن، بل كان بيد جمعيات الشـعب أو الزعمـاء؛

ومن ثم غدت الفصاحة والاقتدار في الجدل مزايا مرغوبة مطلوبة، ونشأت طبقة من المعلمين هم السوفسطائيون الذين تعهدوا بإذكاء مواهب الشباب في هذه الفنون. بيد أن المرء لا يستطيع أن يفكر دون مادة لفكره؛ ومن ثم جاءت المعرفة في أعقاب فنون الكلام، وكان من الطبيعي جدا أن يؤدي نشاط هؤلاء السوفسطائية، ومنافساتهم إلى وضع الأسلوب في بوتقة الامتحان القاسي، هو ومناهج الفكر وصحة الجدل. وعندما مات بركليس كان شخص يدعى سقراط قد أخذ يبرز كناقد قدير للجدل الرديء، ولا تنسى أن الشيء الكثير من تعاليم السفسطائية كان جدلاً من النوع الرديء، واجتمعت حول سقراط طائفة من الشبان الأذكياء، وانتهى الأمر بإعدام سقراط بتهمة تكدير عقول الناس (٣٩٩ ق. م)، فحكم عليه بالموت بالطريقة الكريمة الوقورة التي كانت تتبعها أثينا في ذلك الزمان، بأن يتناول في منزله الخاص وبين أصدقائه جرعة سامة من الشوكران، بيد أن تكدير عقول الناس ظل قائما على الرغم من تنفيذ الحكم فيه، وواصل تلاميذه الشبان أداء رسالته.

وكان أفلاطون (٤٢٧ - ٣٤٧ ق. م) من أعظم هـؤلاء الشبان، فشرع من فوره يعلم الفلسفة في حديقة الأكاديميـة، وينقسم تعليمه إلى شعبتين رئيسيتين:

أ- اختبار أسس التفكير الإنساني ومناهجه.

ب- البحث في النظم السياسية.

وهو أول من كتب كتابا في اليوتوبيا (الطوبى)؛ أي رسم خطة لمجتمع يختلف عن أي مجتمع قائم، ويكون أفضل منه؛ وذلك أمر ينم عن جرأة ليس لها قبل ذلك من ضـريب فـي العقل الإنساني الذي ظل حتى ذلـك الحـين يقبـل التقاليـد الاجتماعية والعرف المألوف، ولا يكاد يقلـب فيهمـا فكـرا أو يبحثهما بسؤال واحد. قال أفلاطون للإنسـانية بصـريح العبارة:

"إن معظم الأدواء الاجتماعيـة والسياسـية التـي منهـا تقاسون؛ إنما هي أمور يسهل عليكم التصرف فيها، لو أنكـم أوتيتم الإرادة والشجاعة اللازمتين لتغييرها؛ فأنتم تستطيعون أن تعيشوا بطريقة أخرى أكثر حكمة إن آثـرتم أن تتقلـوا الأمر تفكيرا وبحثًا، وتكتشـفوا بالدراسـة كنهـه، فـأنتم لا تشعرون بما تملكون من قوة". ولا شك أن ذلك تعلـيم راقٍ

يدعو العقل إلى المخاطرة والمغامرة، وأنه لم يتغلغـل بعـد بصورة عامة في فطنة جنسنا البشري، ولا بد لها من تشربه. ومن أول مؤلفاته كتاب "الجمهورية"؛ وهو كتاب يتخيل قيـام حكومة أرستقراطية شيوعية. فأما كتابه الأخير الذي لم يتمه فهو كتاب "القوانين"، وهو يرسم خطة لتنظيم دولـة مثاليـة (يوتوبية) مماثلة لتلك.

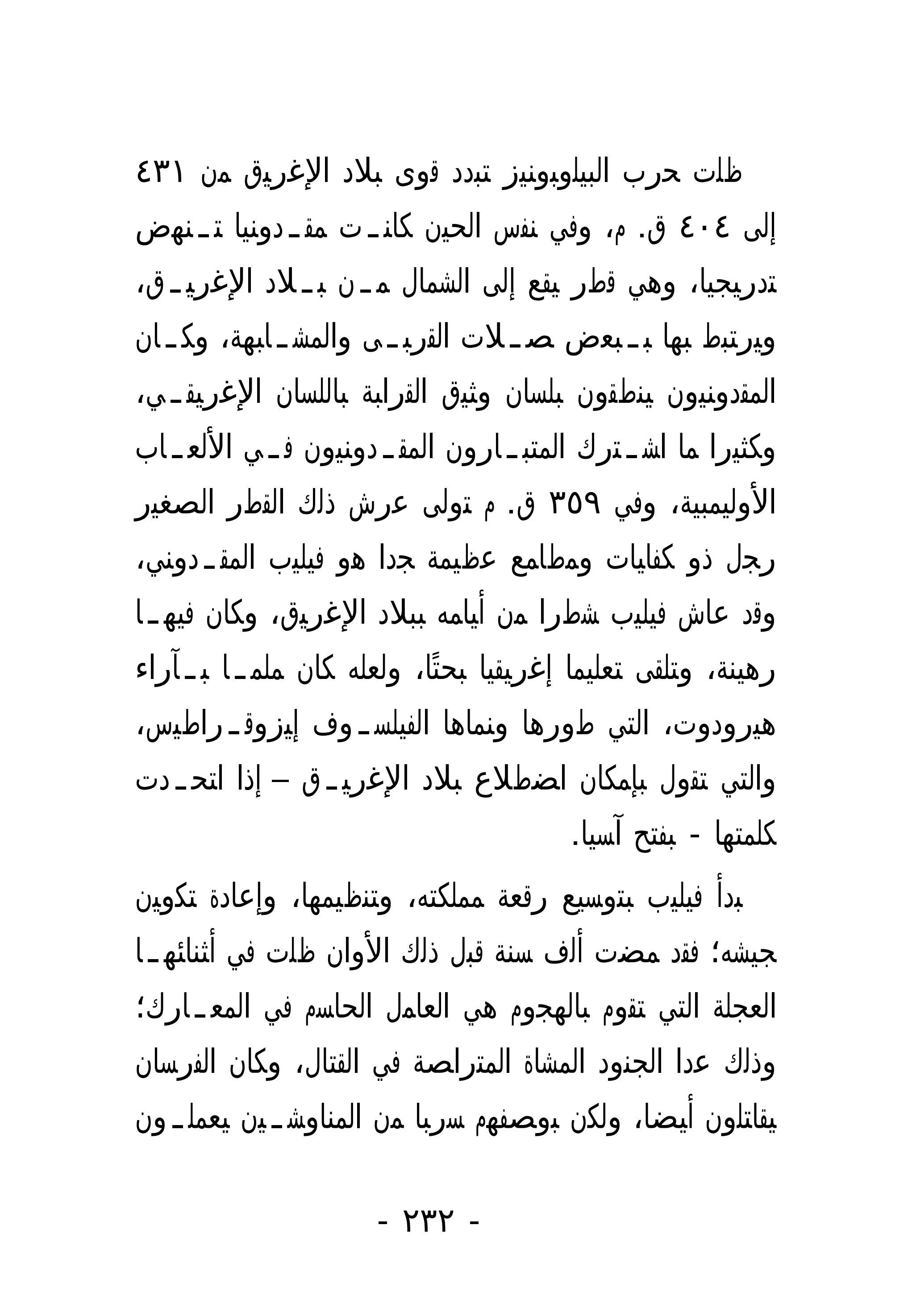
وجاء أرسطو الذي كان تلميذًا لأفلاطون؛ فواصـل بعـد وفاة أستاذه نقد مناهج التفكير وأساليب الحكم، وكان يعلم في الليسيوم. وفد أرسطاليس على أثينا مـن مدينـة اسـطاجيرا بمقدونيا، وكان أبوه طبيبا لبلاط العهد المقـدوني، وقضـى أرسطاليس بعض الزمن معلما للإسكندر ابن الملك، الذي قدر له أن ينجز أعمالاً عظيمة جدا سنتكلم عنها قريبا. وقـد أدت جهود أرسطو في مضمار مناهج التفكير وأساليبه إلى رفـع علم المنطق إلى مستوى ظل ملازما له مدة ألف وخمسـمائة من السنين أو تزيد؛ أي حتى عاد رجال العلم في العصـور الوسطى إلى تناول المسائل العتيقة من جديد. لم ينشـئ أي مدينة فاضلة (يوتوبيا)؛ ذلك أن أفلاطـون كـان يـرى أن الإنسان يستطيع أن يتصرف في مصائره ولكن أرسطو كان

يدرك أن الإنسان لا بد له قبل ذلك مـن قـدر أعظـم مـن المعرفة، قدر من المعرفة الصحية المحققة أعظم كثيرا ممـا يملك؛ ومن ثم شرع أرسطو يجمع تلك المجموعة المنظمـة من المعرفة التي نسـميها اليـوم باسـم "العلـم"، فأرسـل المستكشفين ليجمعوا له الحقائق، وهو أبو التاريخ الطبيعـي، وهو المؤسس لعلم السياسة، وقام تلاميذه في الليسيوم بفحص دساتير ١٥٨ دولة مختلفة ومقارنتها بعضها ببعض.

فنحن نجد هنا وفي القرن الرابع ق. م قوما ذوي تفكيـر عصري أو يكاد. لقد ولت طرائق الفكـر البـدائي الشـبيهة بطرائق الأطفال والأحلام، وحل محلها تناول مشكلات الحياة بطريقة منظمة ونقادة، وهنا أيضا يهمل تماما كل لجوء إلـى الرمزية، وكل التخيلات السحرية البشعة الدائرة حول الآلهة البشعة والوحوش المعبودة، كما تلغى جميـع المحظـورات (التابوهات)، والمخاوف والقيود التي ظلت تكبل حتى آنـذاك تفكير الإنسان؛ لقد ابتدأ التفكير الحر المضبوط المـنظم. إن الذهن الجديد الناشط غير المكبل بالقيود لهـؤلاء الوافـدين حديثًا من الغابات الشمالية قد ألقى بنفسه في صـميم خفايـا المعبد، وسمح لضوء النهار بالنفاد إلى غيابتها.

الفصل السادس والعشرون

إمبراطورية الإسكندر الأكبر



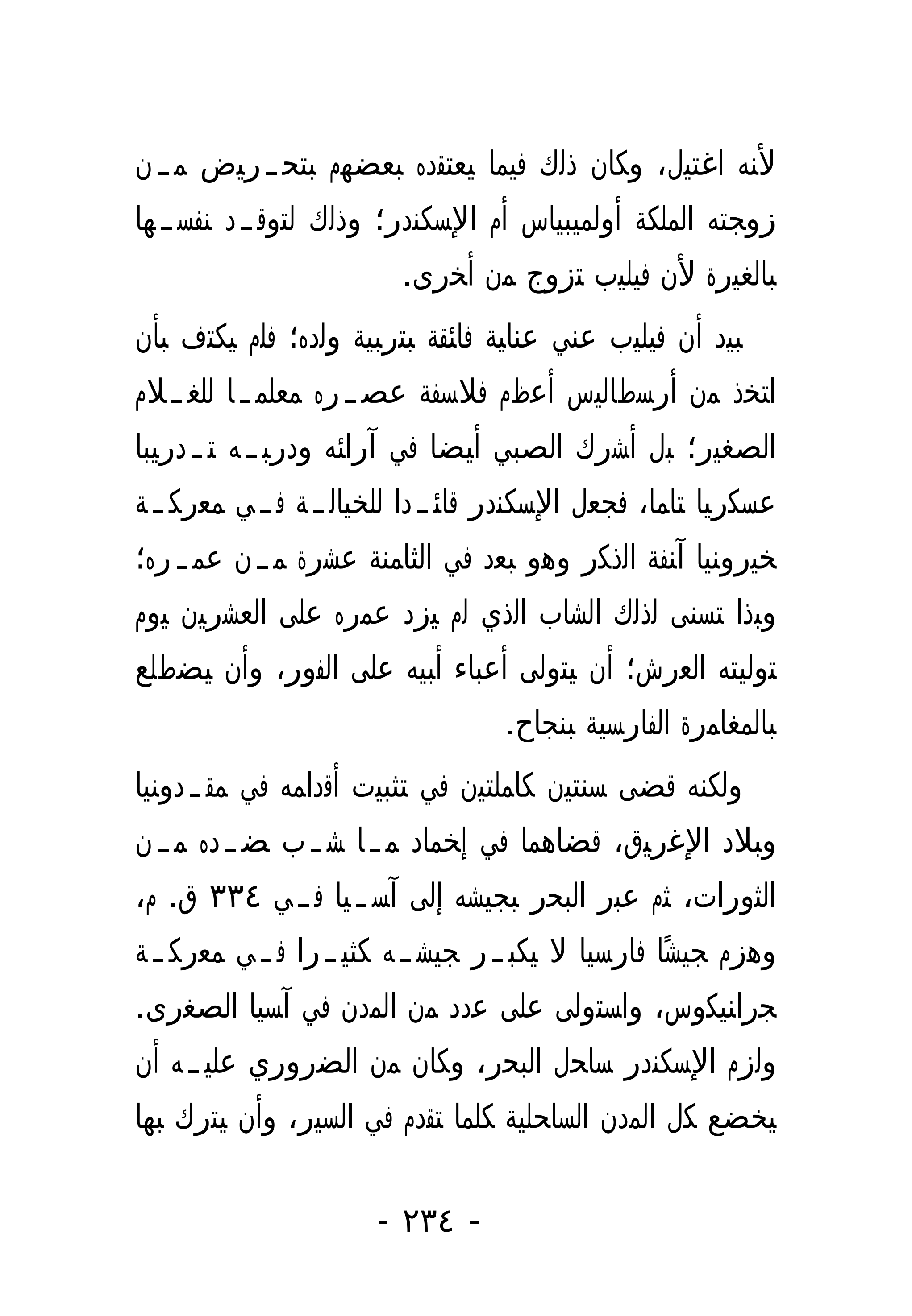
ظلت حرب البيلوبونيز تبدد قوى بلاد الإغريق من ٤٣١ إلى ٤٠٤ ق. م، وفي نفس الحين كانـت مقـدونيا تـنهض تدريجيا، وهي قطر يقع إلى الشمال مـن بـلاد الإغريـق، ويرتبط بها بـبعض صـلات القربـى والمشـابهة، وكـان المقدونيون ينطقون بلسان وثيق القرابة باللسان الإغريقـي، وكثيرا ما اشـترك المتبـارون المقـدونيون فـي الألعـاب الأوليمبية، وفي ٣٥٩ ق. م تولى عرش ذلك القطر الصغير رجل ذو كفايات ومطامع عظيمة جدا هو فيليب المقـدوني، وقد عاش فيليب شطرا من أيامه ببلاد الإغريق، وكان فيهـا رهينة، وتلقى تعليما إغريقيا بحتًا، ولعله كان ملمـا بـآراء هيرودوت، التي طورها ونماها الفيلسـوف إيزوقـراطيس، والتي تقول بإمكان اضطلاع بلاد الإغريـق – إذا اتحـدت كلمتها - بفتح آسيا.

بدأ فيليب بتوسيع رقعة مملكته، وتنظيمها، وإعادة تكوين جيشه؛ فقد مضت ألف سنة قبل ذلك الأوان ظلت في أثنائهـا العجلة التي تقوم بالهجوم هي العامل الحاسم في المعـارك؛ وذلك عدا الجنود المشاة المتراصة في القتال، وكان الفرسان يقاتلون أيضا، ولكن بوصفهم سربا من المناوشـين يعملـون

فرادى ودون نظام، ولكن فيليب جعل جنده المشاة يهـاجمون في كتلة كثيفة متراصة تراصا شديدا هي الفيلق المقـدوني، كما درب وجهاء قومه الراكبة (وهم الفرسـان أو الرفـاق) على القتال في تشكيلات؛ وبذلك اخترع نظام الخيالة.

ومنذ ذلك الحين أصبح هجوم الخيالة أهم الحركات فـي معظم معاركه ومعارك ابنه الإسكندر، فكان الفيلق المقدوني يصد مشاة العدو، على حين كانت الخيالة تجتـاح فرسـان العدو في الجناحين، ثم تنثال على جانب مشاته ومـؤخرتهم، وكانت العجلات الحربية تصبح عاجزة بما يلقيه الرماة على خيولها من سهام.

وبهذا الجيش الجديد اخترق فيليب تساليا، ومد حدوده إلى بلاد الإغريق؛ حتى إذا خاض معركة خيرونيـا (٣٣٨ ق.م) مع أثينا وحلفائها؛ أصبحت بلاد الإغريق كلها خاضعة لـه، وبذا أخذ حلم هيرودوت يؤتي ثماره في آخر الأمر، واجتمع مؤتمر من جميع دول المدن الإغريقية فعين فيليب قائدا عاما لاتحاد مقدوني إغريقي ضد فارس، وفي ٣٣٦ ق. م عبرت فرقة الحرس الأمامي البحر إلى آسيا لتبدأ هذه المغامرة التي طال التفكير فيها، ولكن الملك لم يلحق ألبتة ذلـك الحـرس؛



لأنه اغتيل، وكان ذلك فيما يعتقده بعضهم بتحريض من زوجته الملكة أوليمبياس أم الإسكندر؛ وذلك لتوقد نفسها بالغيرة لأن فيليب تزوج من أخرى.

بيد أن فيليب عني عناية فائقة بتربية ولده؛ فلم يكتف بأن اتخذ من أرسطاليس أعظم فلاسفة عصره معلما للغلام الصغير؛ بل أشرك الصبي أيضا في آرائه ودربه تدريبا عسكريا تاما، فجعل الإسكندر قائدا للخيالة في معركة خيرونيا آنفة الذكر وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره؛ وبذا تسنى لذلك الشاب الذي لم يزد عمره على العشرين يوم توليته العرش؛ أن يتولى أعباء أبيه على الفور، وأن يضطلع بالمغامرة الفارسية بنجاح.

ولكنه قضى سنتين كاملتين في تثبيت أقدامه في مقدونيا وبلاد الإغريق، قضاهما في إخماد ما شب ضده من الثورات، ثم عبر البحر بجيشه إلى آسيا في ٣٣٤ ق. م، وهزم جيشًا فارسيا لا يكبر جيشه كثيرا في معركة جرانيكوس، واستولى على عدد من المدن في آسيا الصغرى. ولازم الإسكندر ساحل البحر، وكان من الضروري عليه أن يخضع كل المدن الساحلية كلما تقدم في السير، وأن يترك بها

الحاميات؛ وذلك لأن الفرس كانوا يسيطرون على أسـاطيل صور وصيدا؛ وبذا كانت لهم السيادة البحرية، فلو أنه تـرك وراءه ميناء معاديا دون حامية تحرسه؛ لجاز أن ينـزل بـه الفرس قواتهم للإغارة على مواصلاته، وقطع خط رجعتـه. والتقى قرب إسوس (٣٣٣ ق. م) بجمع هائل مخلـط تحـت قيادة دارا الثالث، وهزمه هزيمة ساحقة.

وكان ذلك الجيش الهائل – شأن جيشي إجزرسيس الـذي عبر الدردنيل قبل ذلك بقرن ونصف – جمعا من المجنـدين غير متناسق ولا مترابط، بهظه حشد كبيـر مـن مـوظفي البلاد، فضلاً عن حريم دارا وكثير ممن يتعقبون المعسكرات التماسا للزرق، وسلمت صيدا للإسكندر، ولكن صور قاومت بعناد، وأخيرا فتحت تلك المدينة الكبيرة عنوة وانتُهبت، ثـم دمرت، وفتحت غزة أيضـا عنـوة، وعنـد قـرب نهايـة ٣٣٢ ق. م دخل الفاتح مصر، واستولى من الفـرس علـى مقاليد حكمها.

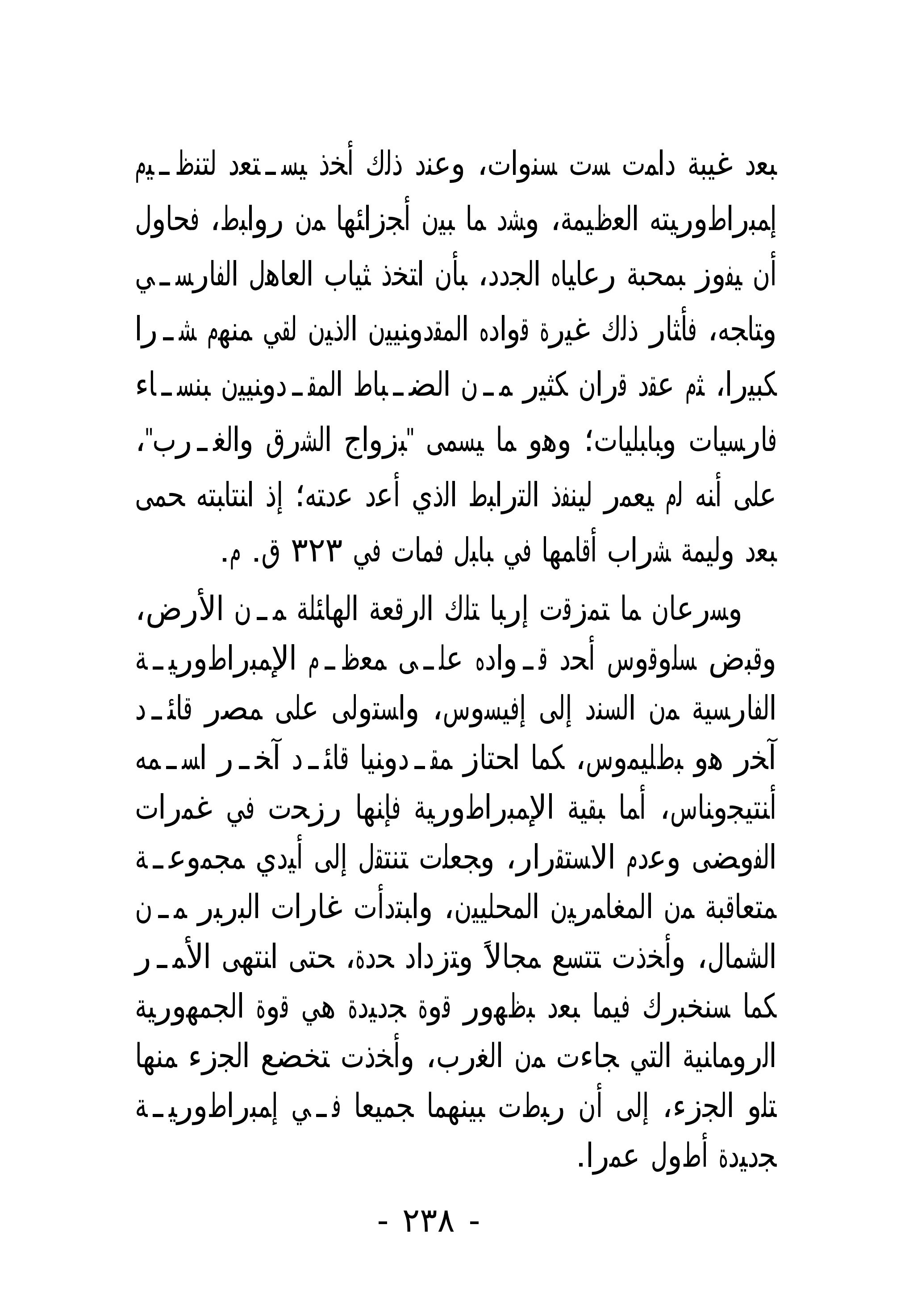
وبنى الإسكندر مدينتي الإسكندرونة بالشام، والإسـكندرية بمصر، في موقعين يمكن بلوغهما من البر؛ وبذا تصـبحان غير قادرتين على التمرد عليه، وإلى هذين المرفأين حولـت تجارة المدن الفينيقية. وهنا يختفي من التاريخ على حين بغتة فينيقيو الحوض الغربي للبحر المتوسط، وبـنفس الطريقـة الفجائية يظهر يهود الإسكندرية والمدن التجاريـة الأخـرى التي شيدها الإسكندر.

وفي ٣٣١ ق. م تقدم الإسكندر من مصر بجيشـه إلـى بابل، كما فعل من قبله تحوتمس ورمسيس ونخاو، بيد أنـه سار بطريق صور، وعند أربيلا (إربل) بالقرب من أنقـاض نينوى التي كانت قد عفى عليها آنذاك النسيان؛ التقى بـدارا في معركة حاسمة، وباءت هجمة العجلات الفارسية بالفشل، وحمل الخيالة المقدونيون على ذلك الجيش العظـيم المخلـط حملة بددت شمله، وأحرز الفيلق بقية النصر، وتقهقـر دارا بجيشه، ولم يحاول مقاومة المغير مرة أخرى؛ بل فر شـمالاً إلى إقليم الميديين.

وواصل الإسكندر زحفه على بابل، وكانت لا تزال بلـدا ثريا هاما، ثم إلى سوسا (سوس) وبرسيبوليس، وهناك أقـام حفلاً أديرت فيه الخمور، ثم أمر في أعقابه بحرق قصر دارا ملك الملوك.

وما لبث الإسكندر بعد ذلك أن جعل من آسـيا الوسـطى ميدانًا عسكريا لعرض جيشه على الأنظار، وانطلق به إلـى أقصى تخوم الإمبراطورية الفارسية، متجها بادئ الأمر نحو الشمال، وتعقب الإسكندر دارا حتى أدركه عند الفجر وهـو يلفظ في عربته آخر أنفاسه، بعد أن قتله شعبه، وكان لا يزال على قيد الحياة عندما وصل إليه جند المقدمة الإغريقية.

وجاء الإسكندر فوجده قد مات، وسار الإسـكندر بمحـاذاة بحر قزوين، وتوغل في جبال التركستان الغربية، ثم انحـدر إلى بلاد الهند بطريق هيرات (التي أسسها)، وكابول، وممـر خيبر، والتحم في معركة عظيمة على نهر السـند مـع ملـك هندي اسمه بوروس، وهنا التقت الجنود المقدونية بالفيلة لأول مرة ودحرتها، وانتهى به الأمر إلى أن ابتنى لنفسه سفنًا انحدر بها إلى مصب السند، ثم عاد سيرا على الأقدام بحذاء سـاحل بلوخستان، حتى وصل إلى سوس مرة ثانية فـي ٣٢٤ ق. م،



بعد غيبة دامت ست سنوات، وعند ذلك أخذ يسـتعد لتنظـيم إمبراطوريته العظيمة، وشد ما بين أجزائها من روابط، فحاول أن يفوز بمحبة رعاياه الجدد، بأن اتخذ ثياب العاهل الفارسـي وتاجه، فأثار ذلك غيرة قواده المقدونيين الذين لقي منهم شـرا كبيرا، ثم عقد قران كثير مـن الضـباط المقـدونيين بنسـاء فارسيات وبابليات؛ وهو ما يسمى "بزواج الشرق والغـرب"، على أنه لم يعمر لينفذ الترابط الذي أعد عدته؛ إذ انتابته حمى بعد وليمة شراب أقامها في بابل فمات في ٣٢٣ ق. م.

وسرعان ما تمزقت إربا تلك الرقعة الهائلة مـن الأرض، وقبض سلوقوس أحد قـواده علـى معظـم الإمبراطوريـة الفارسية من السند إلى إفيسوس، واستولى على مصر قائـد آخر هو بطليموس، كما احتاز مقـدونيا قائـد آخـر اسـمه أنتيجوناس، أما بقية الإمبراطورية فإنها رزحت في غمرات الفوضى وعدم الاستقرار، وجعلت تنتقل إلى أيدي مجموعـة متعاقبة من المغامرين المحليين، وابتدأت غارات البربر مـن الشمال، وأخذت تتسع مجالاً وتزداد حدة، حتى انتهى الأمـر كما سنخبرك فيما بعد بظهور قوة جديدة هي قوة الجمهورية الرومانية التي جاءت من الغرب، وأخذت تخضع الجزء منها تلو الجزء، إلى أن ربطت بينهما جميعا فـي إمبراطوريـة جديدة أطول عمرا.

الفصل السابع والعشرون

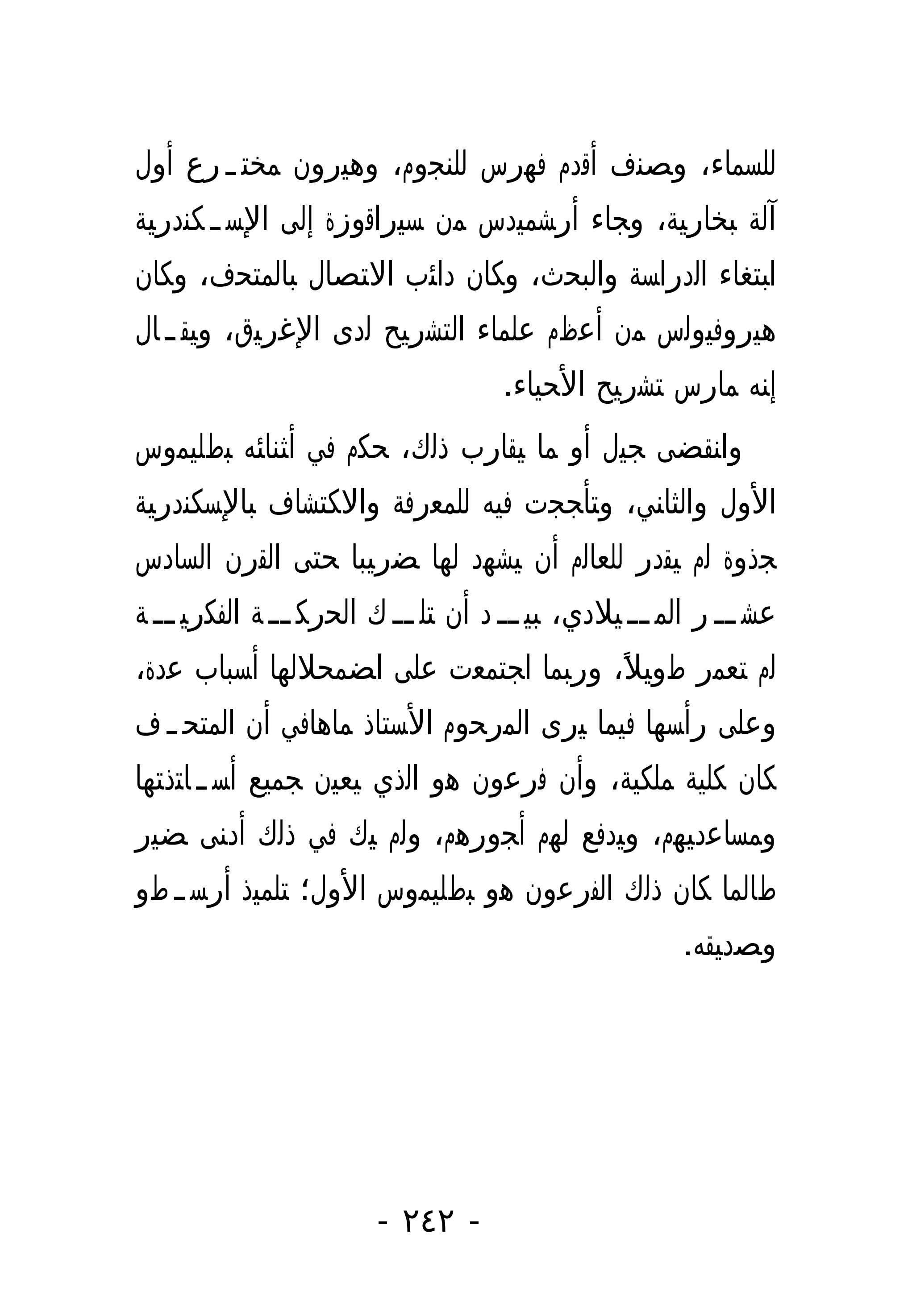
متحف الإسكندرية ومكتبتها

كان الإغريق قبل عهد الإسكندر تجارا وفنانين وموظفين وجنودا مرتزقة، ينتشرون في معظم الممتلكات الفارسية. وقد حدث في أثناء المنازعات التي قامت حول العرش بعد وفـاة إجزرسيس أن فئة من مرتزقة الإغريق عدتها عشـرة آلاف جندي؛ لعبت دورا تحت قيادة أكسينوفون (زينوفون)؛ ولهـذا القائد كتاب أسماه "تقهقر الآلاف العشرة"، وهو مـن أوائـل قصص الحروب التي كتبها قائد في أثناء توليه القيادة؛ يصف عودتهم من بابل إلى بـلاد الإغريـق الآسـيوية. علـى أن غزوات الإسكندر وتقسيم إمبراطوريته القصيرة الأجل بـين قواده؛ زادت كثيرا من انتشار الإغريق ولغـتهم وطـرائقهم وثقافتهم في أرجاء العالم القديم، فقد وجدت في مواطن نائية كبلاد آسيا الوسطى وشمال غربي الهند آثار تنم عن انتشـار هؤلاء الإغريق بتلك الأصقاع، وكان تأثيرهم في تطور الفن الهندي عميقًا.

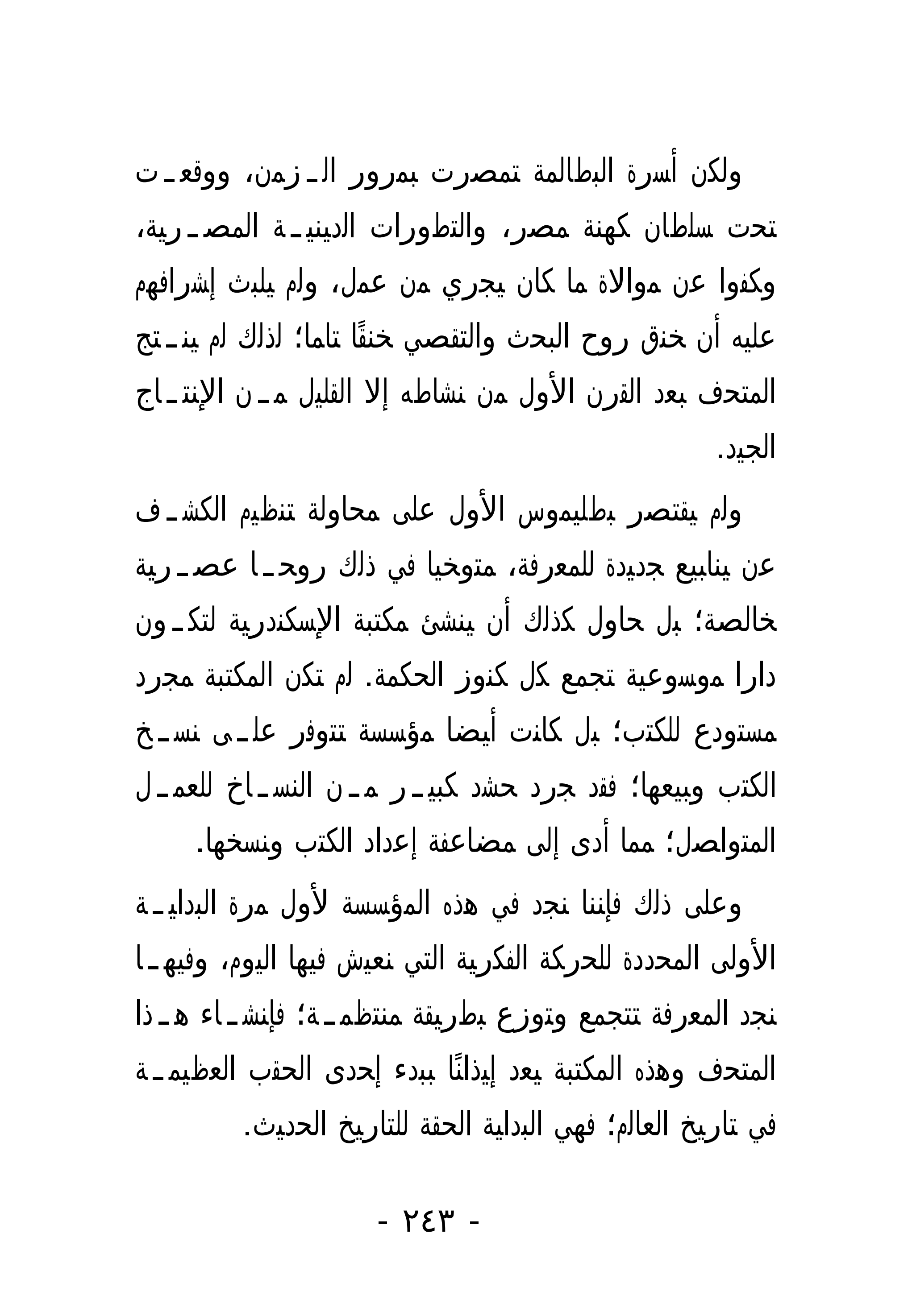
ظلت أثينا قرونًا عديدة محتفظة بتفوقها كمركـز للفنـون والثقافة، وبقيت مدارسها حية حتى ٥٢٩ م؛ أي إنها عاشـت ما يقارب الألف سنة، ولكن زعامة النشاط الفكري في العالم ما لبثت أن انتقلت عبر البحر المتوسط إلى الإسكندرية؛ وهي

المدينة التجارية الجديدة التي أسسها الإسكندر. وهنـا كـان القائد المقدوني بطليموس قد أصبح فرعونًـا علـى مصـر، وجعل من حوله بلاطًا لغته الرسمية هي اليونانيـة، وكـان صديقًا حميما للإسكندر قبل توليه العرش، كما كان متعمقًـا في دراسة آراء أرسطو، فأخذ يعمل على تنظـيم المعرفـة والبحث بهمة واقتدار عظيمين، كما أنه ألـف كتابـا عـن حملات الإسكندر، لم يعثر عليه لسوء الحظ.

وكان الإسكندر قد رصد مبالغ هائلة من المـال للإنفـاق منها على أبحاث أرسطو، ولكن بطليموس الأول كـان أول من حبس على العلم منحا وهبات مستديمة؛ فأقام بالإسكندرية مؤسسة هي متحف الإسكندرية، الذي خصص بصفة رسمية لربات الفنون Muses، وانقضى جيلان أو ثلاثـة كانـت الأبحاث العلمية التي تجرى في أثنائها بالإسكندرية ممتـازة الجودة، وظهرت هناك مجموعة خارقـة مـن رواد العلـم وعلماء الطبيعة، من ألمع نجومها إقليدس وإراتوسثنيز، الذي قاس حجم الأرض، ووصل في تقدير قطرها إلى نتيجة تقـل عن قطرها الحقيقي بخمسين ميلاً، وأبولونيوس الذي ألف في "القطاعات المخروطية"، وهيبارخوس الذي رسم أول خريطة


للسماء، وصنف أقدم فهرس للنجوم، وهيرون مختـرع أول آلة بخارية، وجاء أرشميدس من سيراقوزة إلى الإسـكندرية ابتغاء الدراسة والبحث، وكان دائب الاتصال بالمتحف، وكان هيروفيولس من أعظم علماء التشريح لدى الإغريق، ويقـال إنه مارس تشريح الأحياء.

وانقضى جيل أو ما يقارب ذلك، حكم في أثنائه بطليموس الأول والثاني، وتأججت فيه للمعرفة والاكتشاف بالإسكندرية جذوة لم يقدر للعالم أن يشهد لها ضريبا حتى القرن السادس عشــر المــيلادي، بيــد أن تلــك الحركــة الفكريــة لم تعمر طويلاً، وربما اجتمعت على اضمحلالها أسباب عدة، وعلى رأسها فيما يرى المرحوم الأستاذ ماهافي أن المتحـف كان كلية ملكية، وأن فرعون هو الذي يعين جميع أسـاتذتها ومساعديهم، ويدفع لهم أجورهم، ولم يك في ذلك أدنى ضير طالما كان ذلك الفرعون هو بطليموس الأول؛ تلميذ أرسـطو وصديقه.



ولكن أسرة البطالمة تمصرت بمرور الـزمن، ووقعـت تحت سلطان كهنة مصر، والتطورات الدينيـة المصـرية، وكفوا عن موالاة ما كان يجري من عمل، ولم يلبث إشرافهم عليه أن خنق روح البحث والتقصي خنقًا تاما؛ لذلك لم ينـتج المتحف بعد القرن الأول من نشاطه إلا القليل مـن الإنتـاج الجيد.

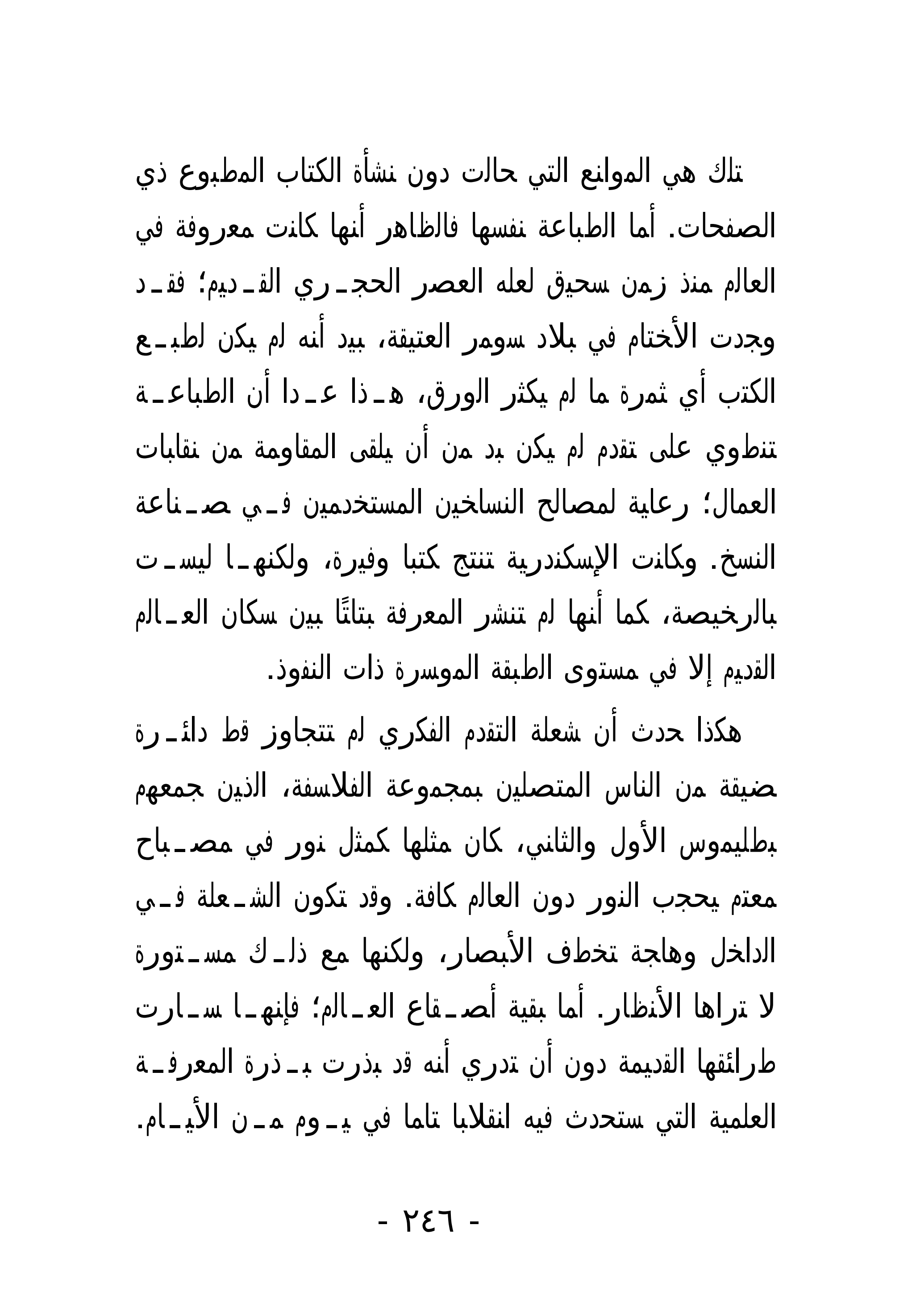
ولم يقتصر بطليموس الأول على محاولة تنظيم الكشـف عن ينابيع جديدة للمعرفة، متوخيا في ذلك روحـا عصـرية خالصة؛ بل حاول كذلك أن ينشئ مكتبة الإسكندرية لتكـون دارا موسوعية تجمع كل كنوز الحكمة. لم تكن المكتبة مجرد مستودع للكتب؛ بل كانت أيضا مؤسسة تتوفر علـى نسـخ الكتب وبيعها؛ فقد جرد حشد كبيـر مـن النسـاخ للعمـل المتواصل؛ مما أدى إلى مضاعفة إعداد الكتب ونسخها.

وعلى ذلك فإننا نجد في هذه المؤسسة لأول مرة البدايـة الأولى المحددة للحركة الفكرية التي نعيش فيها اليوم، وفيهـا نجد المعرفة تتجمع وتوزع بطريقة منتظمـة؛ فإنشـاء هـذا المتحف وهذه المكتبة يعد إيذانًا ببدء إحدى الحقب العظيمـة في تاريخ العالم؛ فهي البداية الحقة للتاريخ الحديث.

وكان يعترض طريق البحث العلمي ونشر العلم بين الناس عوائق خطيرة، منها تلك الهوة الاجتماعية السـحيقة التـي تفصل الفيلسوف (وهو سيد مهذب) عن التاجر والصانع. كان صناع الزجاج والمعادن في تلك الأيام كثيري العدد، ولكن لم يكن بينهم وبين المفكرين أي اتصال عقلـي؛ فكـان صـانع الزجاج يصنع أجمل الخرز والقوارير وغيرها ألوانًا، بيد أنه لم يصنع ألبتة قنينة فلورنسية، ولا عدسة من العدسـات. ولا يبدو أن الزجاج الصافي لقي منه اهتمامـا. وكـان صـناع المعادن يصنعون الأسلحة والمجوهرات، ولكن أحدا منهم لم يصنع أبدا ميزانًا كيميائيا. وفي نفس الوقت الـذي أدام فيـه الفلاسفة التأمل في ترفع حول الذرات وطبيعة الأشياء، ولـم تكن لهم خبرة عملية بالميناء ولا الأصباغ، ولا أشربة توليد الحب، إلى غير ذلك، لم يكن الواحد مـنهم يعنـى بـالمواد الطبيعية؛ ولذا فإن الإسكندرية لم تنتج يوم سنحت فرصـتها الوجيزة ميكروسكوبا ولا كيمياء. ومع أن هيرون اخترع آلة بخارية؛ فإنها لم تستعمل قط في رفع المـاء، أو فـي دفـع قارب، أو في عمل أي شيء نافع، وقـل أن وجـدت للعلـم تطبيقات عملية، اللهم إلا في مضمار الطب، كمـا أن تقـدم

العلوم لم يكن يحفزه ويحافظ عليه اهتمام القـوم بالتطبيقـات العملية، ولا ما تحدثه تلك التطبيقات من هزة في النفوس؛ لذا لم يكن هناك شيء يدعو إلى الاستمرار في العمل عندما ولى بطليموس الأول والثاني وزال أثر حبهما للاستطلاع، ولذلك أيضا دونت مستكشفات المتحـف فـي مخطوطـات خفيـة غامضة، ولم تصل قط إلى الناس كافة؛ حتـى بحـث حـب الاستطلاع العلمي في عصر النهضة.

ولم تنتج المكتبة – من ناحية أخرى - أي تحسينات فـي صناعة الكتب. ولم يكن ذلك العالم القديم يصنع من عجينـة الخرق ورقًا له حجوم معروفة؛ ذلـك أن الـورق اختـراع صيني لم يصل إلى العالم الغربي إلا فـي القـرن التاسـع الميلادي. وأما المواد الوحيدة المستعملة في صـنع الكتـب؛ فهي الرق وسلخات (شقائق) قصـب البـردي الموصـولة حروفها بعضها ببعض. وكانت هذه الشقائق تجعل في صورة ملفات، من أعسر الأمور فتحها ولفها للاطلاع عليها، كمـا إنها متعبة جدا لكل باحث شاء الرجوع إليها.



تلك هي الموانع التي حالت دون نشأة الكتاب المطبوع ذي الصفحات. أما الطباعة نفسها فالظاهر أنها كانت معروفة في العالم منذ زمن سحيق لعله العصر الحجـري القـديم؛ فقـد وجدت الأختام في بلاد سومر العتيقة، بيد أنه لم يكن لطبـع الكتب أي ثمرة ما لم يكثر الورق، هـذا عـدا أن الطباعـة تنطوي على تقدم لم يكن بد من أن يلقى المقاومة من نقابات العمال؛ رعاية لمصالح النساخين المستخدمين فـي صـناعة النسخ. وكانت الإسكندرية تنتج كتبا وفيرة، ولكنهـا ليسـت بالرخيصة، كما أنها لم تنشر المعرفة بتاتًا بين سكان العـالم القديم إلا في مستوى الطبقة الموسرة ذات النفوذ.

هكذا حدث أن شعلة التقدم الفكري لم تتجاوز قط دائـرة ضيقة من الناس المتصلين بمجموعة الفلاسفة، الذين جمعهم بطليموس الأول والثاني، كان مثلها كمثل نور في مصـباح معتم يحجب النور دون العالم كافة. وقد تكون الشـعلة فـي الداخل وهاجة تخطف الأبصار، ولكنها مع ذلـك مسـتورة لا تراها الأنظار. أما بقية أصـقاع العـالم؛ فإنهـا سـارت طرائقها القديمة دون أن تدري أنه قد بذرت بـذرة المعرفـة العلمية التي ستحدث فيه انقلابا تاما في يـوم مـن الأيـام.

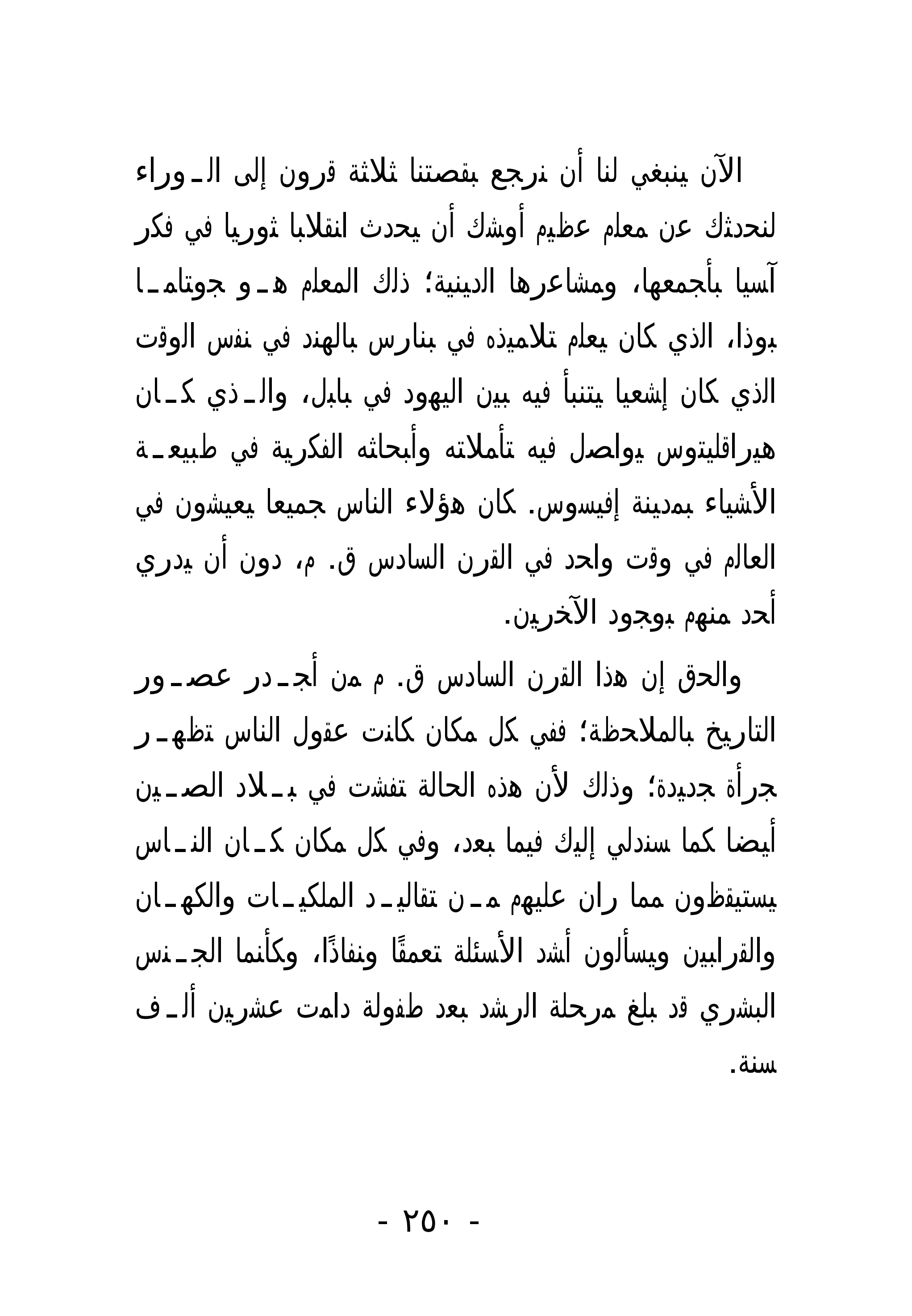
وسرعان ما غشيت الدنيا سحابة حالكة من التعصب الديني، وغمرت كل أرجائها حتى الإسكندرية نفسها. ومر على تلك اللحظة من التاريخ ألف سنة من الظلام الدامس، الذي غطى على البذرة التي بذرها أرسطو، ثم اهتزت وأخـذت تنبـت، وما هي إلا بضع قرون حتى غدت تلك البذرة دوحة المعرفة الفارعة، وسدرة الأفكار الخالصة التي تغير اليوم وجه الحياة البشرية بأجمعها.

لم تكن الإسكندرية هي المركز الوحيد لنشـاط اليونـان الفكري في القرن الثالث ق. م. فإن بين الحطـام المتداعيـة المتخلفة عن إمبراطورية الإسكندر القصـيرة الأمـد؛ مـدنًا أخرى كثيرة، سطعت فيها حياة فكرية وقادة، فهنـاك مـثلاً مدينة سيراقوزة الإغريقية بصقلية، التي ازدهر بهـا الفكـر والعلم قرنين، وثمة برجامة (برجاموم) بآسيا الصغرى، التي كان لها هي أيضا مكتبة عظيمة، بيد أن هذا العالم الهللينـي الوقاد الذكاء أصيب آنذاك بغارات أهل الشمال، فإن همجـا نورديين جدا هم "الغاليون"؛ كانوا يسيرون في نفس الطـرق التي اخترقهـا يومـا مـا أسـلاف الإغريـق والفـريجين والمقدونيين، كانوا يغيرون ويحطمون ويدمرون، وجاء فـي

أعقاب الغاليين شعب فاتح جديد من إيطاليا هـو الرومـان، الذين قاموا بالتدريج بإخضاع جميع النصف الغربـي مـن مملكة دارا والإسكندر الهائلة. كانوا قوما ذوي كفاءة واقتدار، ولكنهم محرومون من نعمة الخيال؛ فهم يـؤثرون القـانون والمنفعة على كل من العلم والفن. وثمة غزاة جـدد كـانوا ينحدرون من آسيا الوسطى ليدمروا الإمبراطورية السلوقية، ويخضعوها وليقطعوا مرة ثانية ما قام بين العـالم الغربـي وبلاد الهند من اتصال، وكـان هـؤلاء هـم الأشـغانيون (البارثيون)، وهم أرهاط من رماة القسي الراكبين، فعـاملوا إمبراطورية برسيبوليس وسوس الإغريقية الفارسية في القرن الثالث ق. م نفس المعاملة التي عاملها بها الميديون والفرس في القرن السابع والسادس. وكان هناك عندئذ أقوام آخـرون من الرحل، يأتون هم أيضا من الشمال الشرقي، ولم يكونـوا قوما شقرا ولا نورديين، ولا ناطقين بالآرية؛ بل كانوا ذوي جلود صفراء وشعور سوداء، ولهم لغة مغولية، علـى أننـا سنزيدك بها بيانًا في فصل تال.

الفصل الثامن والعشرون

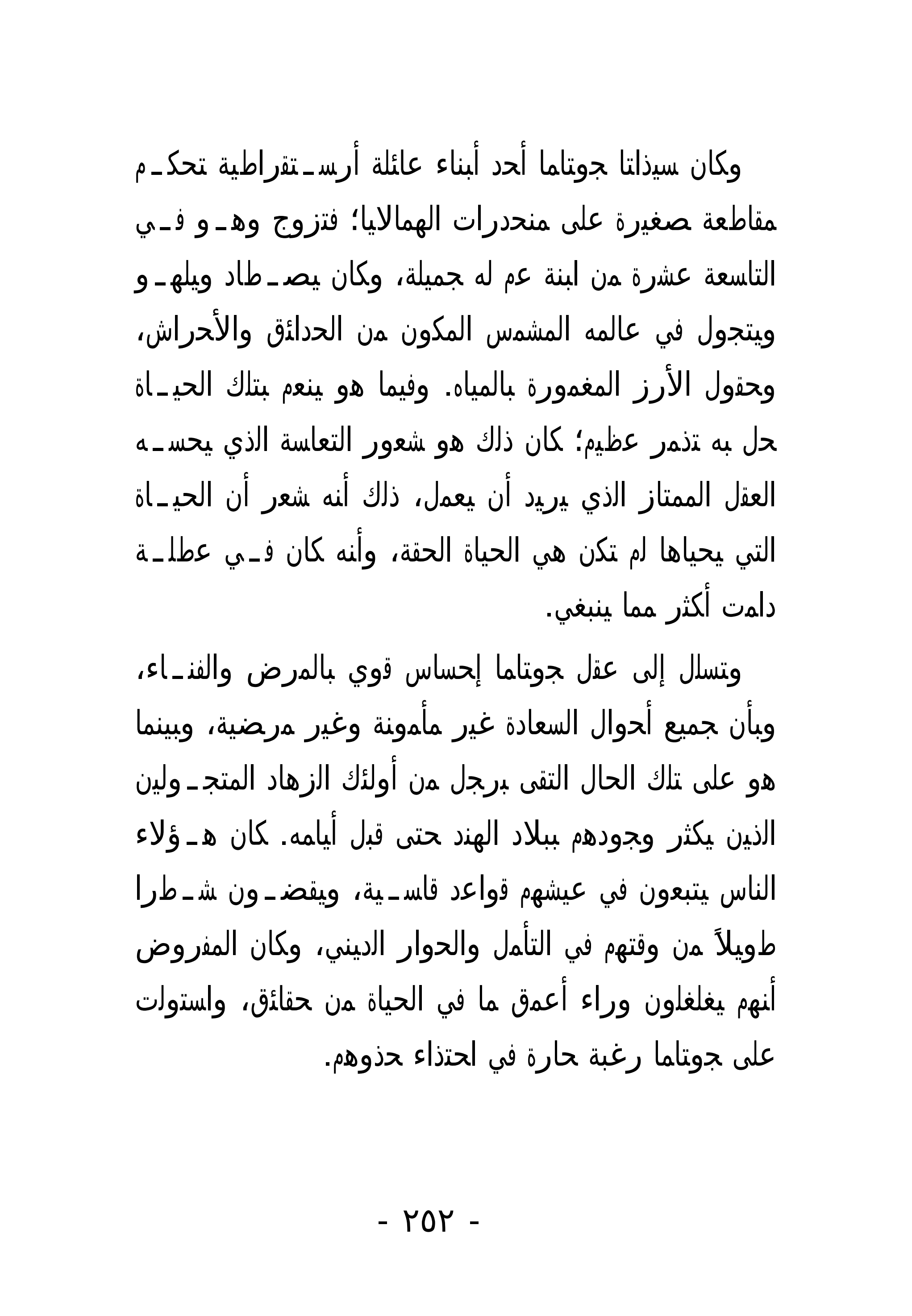
حياة جوتاما بوذا



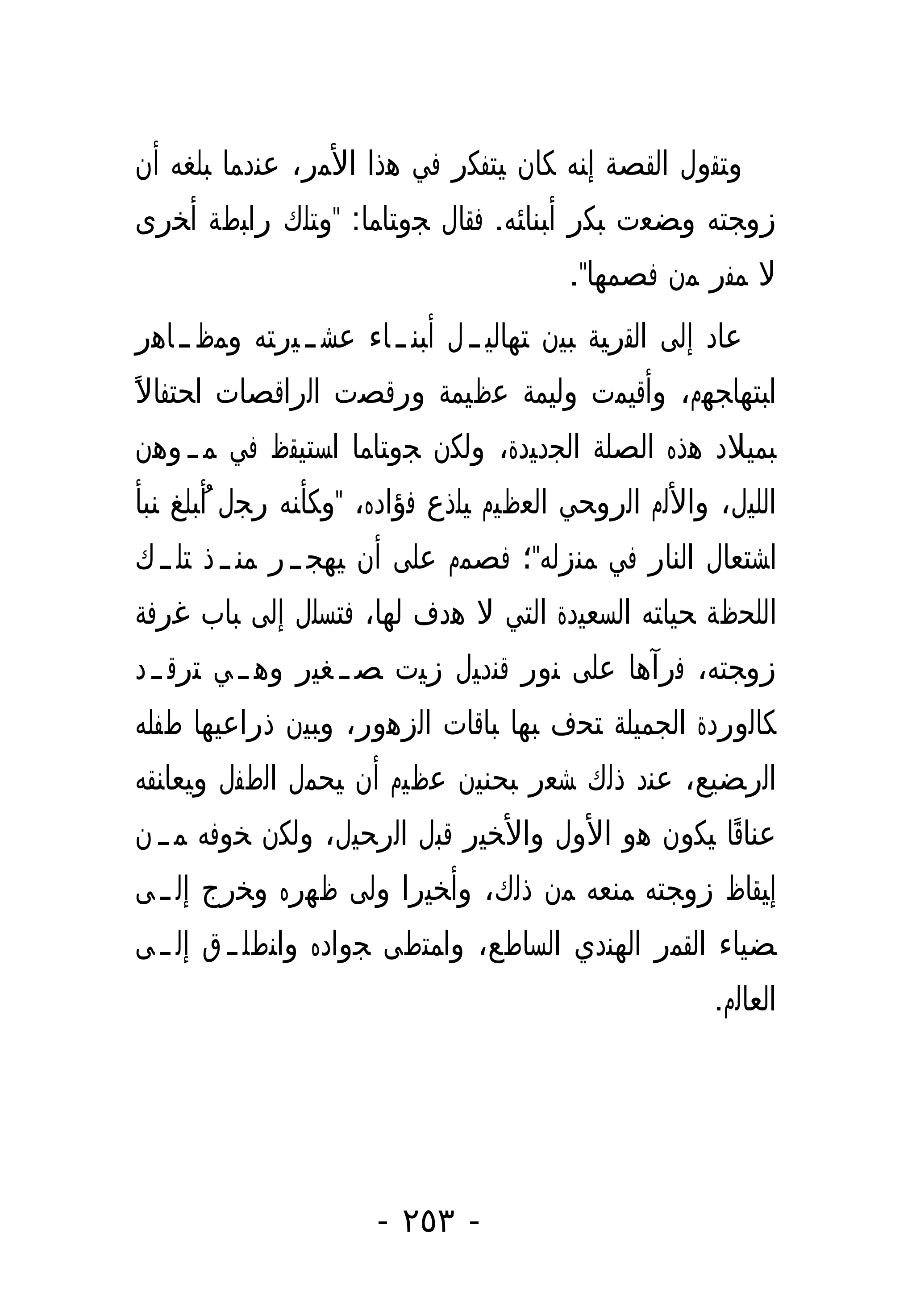
الآن ينبغي لنا أن نرجع بقصتنا ثلاثة قرون إلى الوراء لنحدثك عن معلم عظيم أوشك أن يحدث انقلابا ثوريا في فكر آسيا بأجمعها، ومشاعرها الدينية؛ ذلك المعلم هو جوتاما بوذا، الذي كان يعلم تلاميذه في بنارس بالهند في نفس الوقت الذي كان إشعيا يتنبأ فيه بين اليهود في بابل، والذي كان هيراقليتوس يواصل فيه تأملاته وأبحاثه الفكرية في طبيعة الأشياء بمدينة إفيسوس. كان هؤلاء الناس جميعا يعيشون في العالم في وقت واحد في القرن السادس ق. م، دون أن يدري أحد منهم بوجود الآخرين.

والحق إن هذا القرن السادس ق. م من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة؛ ففي كل مكان كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة؛ وذلك لأن هذه الحالة تفشت في بلاد الصين أيضا كما سندلي إليك فيما بعد، وفي كل مكان كان الناس يستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الملكيات والكهان والقرابين ويسألون أشد الأسئلة تعمقًا ونفاذًا، وكأنما الجنس البشري قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة.

ولا يزال تاريخ الهند الأول غامضا جـدا؛ ففـي زمـن ما لعله يقارب عام ٢٠٠٠ ق. م؛ هبط الهنـد مـن الشـمال الغربي شعب ناطق بالآرية، إما في غزوة واحدة، وإما فـي سلسلة متعاقبة من الغزوات؛ فاستطاع أن ينشر لغته وتقاليده فوق الشطر الأعظم من شمال الهند. وكـان النـوع الـذي يتحدثون به من اللغة الآرية هو الفرع السنسكريتي، فوجدوا في إقليم السند والكنج شعبا أسمر، أرقى حضارة وأضـعف إرادة. ولكن لا يلوح أنهم اختلطوا بهذا الشعب بالكثرة التـي تخالط بها الإغريق والفرس، فظلوا عنه بمعـزل. حتـى إذا مرت الأيام أصبح ماضي الهند مرئيا للمؤرخ على غشـاوة تغشيه، وإذا بالمجتمع الهندي مقسم إلى طبقات كثيرة، (مـع عدد متغير من الأقسام الثانوية)، لا تؤاكل بعضـها بعضـا، ولا تتزاوج ولا تختلط اختلاطًا حرا، وإذا بهذا التقسيم الطبقي إلى طوائف يستمر أمد التاريخ كله، وهذا أمر من شـأنه أن يجعل سكان الهند شـيئًا يخـالف المجتمعـات الأوروبيـة والمغولية البسيطة السهلة التزاوج؛ فهم في الحقيقة مجتمـع مجتمعات.


وكان سيذاتا جوتاما أحد أبناء عائلة أرسـتقراطية تحكـم مقاطعة صغيرة على منحدرات الهمالايا؛ فتزوج وهـو فـي التاسعة عشرة من ابنة عم له جميلة، وكان يصـطاد ويلهـو ويتجول في عالمه المشمس المكون من الحدائق والأحراش، وحقول الأرز المغمورة بالمياه. وفيما هو ينعم بتلك الحيـاة حل به تذمر عظيم؛ كان ذلك هو شعور التعاسة الذي يحسـه العقل الممتاز الذي يريد أن يعمل، ذلك أنه شعر أن الحيـاة التي يحياها لم تكن هي الحياة الحقة، وأنه كان فـي عطلـة دامت أكثر مما ينبغي.

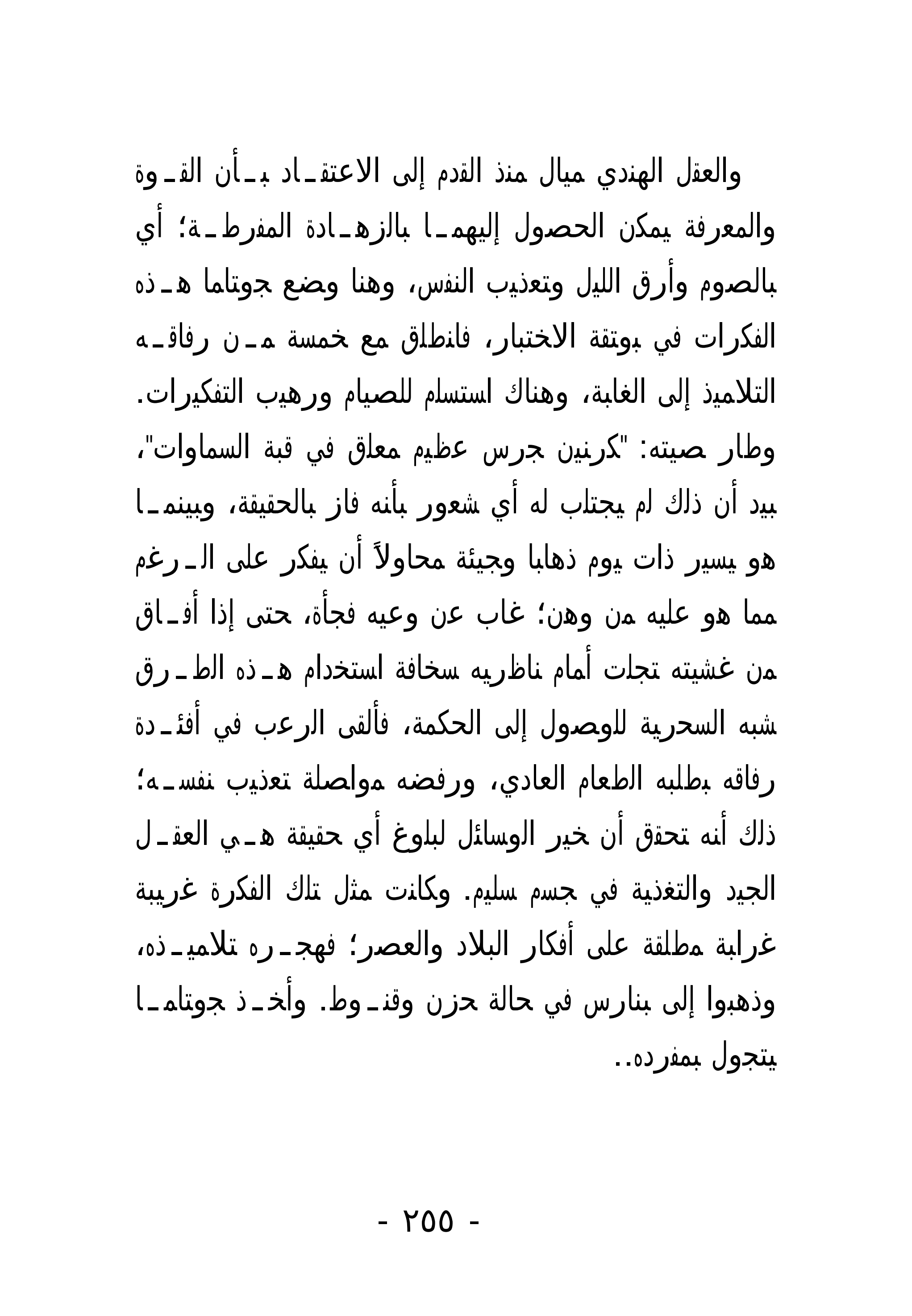
وتسلل إلى عقل جوتاما إحساس قوي بالمرض والفنـاء، وبأن جميع أحوال السعادة غير مأمونة وغير مرضية، وبينما هو على تلك الحال التقى برجل من أولئك الزهاد المتجـولين الذين يكثر وجودهم ببلاد الهند حتى قبل أيامه. كان هـؤلاء الناس يتبعون في عيشهم قواعد قاسـية، ويقضـون شـطرا طويلاً من وقتهم في التأمل والحوار الديني، وكان المفروض أنهم يغلغلون وراء أعمق ما في الحياة من حقائق، واستولت على جوتاما رغبة حارة في احتذاء حذوهم.


وتقول القصة إنه كان يتفكر في هذا الأمر، عندما بلغه أن زوجته وضعت بكر أبنائه. فقال جوتاما: "وتلك رابطة أخرى لا مفر من فصمها".

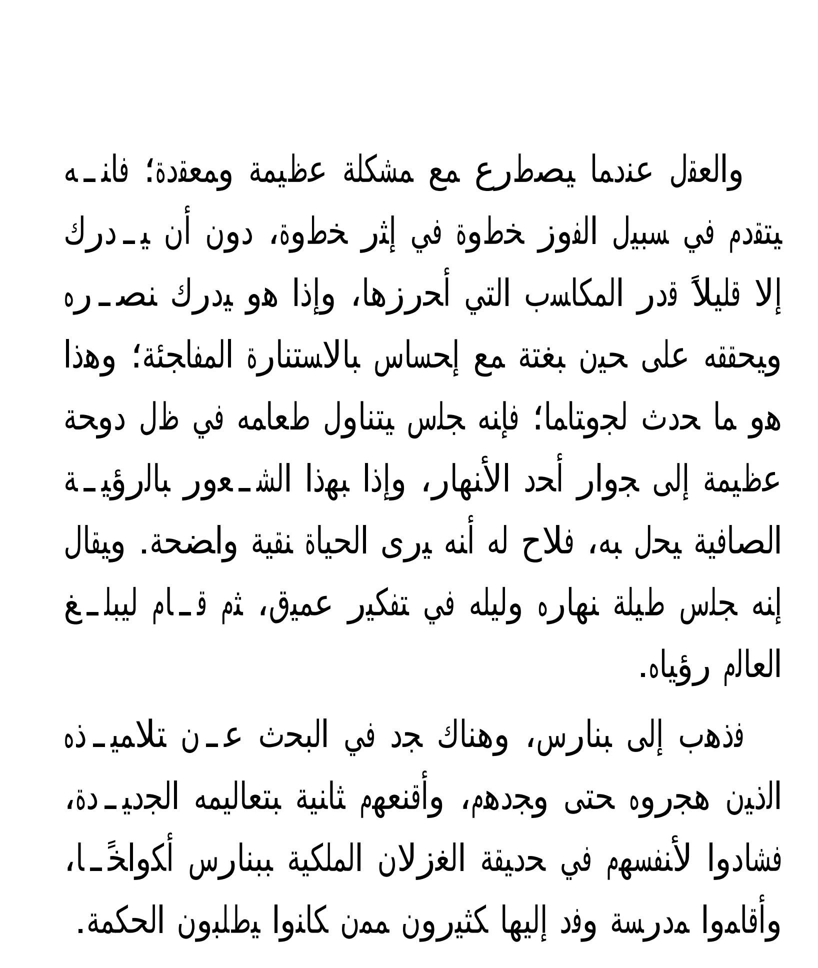
عاد إلى القرية بين تهاليـل أبنـاء عشـيرته ومظـاهر ابتهاجهم، وأقيمت وليمة عظيمة ورقصت الراقصات احتفالاً بميلاد هذه الصلة الجديدة، ولكن جوتاما استيقظ في مـوهن الليل، والألم الروحي العظيم يلذع فؤاده، "وكأنه رجل أُبلغ نبأ اشتعال النار في منزله"؛ فصمم على أن يهجـر منـذ تلـك اللحظة حياته السعيدة التي لا هدف لها، فتسلل إلى باب غرفة زوجته، فرآها على نور قنديل زيت صـغير وهـي ترقـد كالوردة الجميلة تحف بها باقات الزهور، وبين ذراعيها طفله الرضيع، عند ذلك شعر بحنين عظيم أن يحمل الطفل ويعانقه عناقًا يكون هو الأول والأخير قبل الرحيل، ولكن خوفه مـن إيقاظ زوجته منعه من ذلك، وأخيرا ولى ظهره وخرج إلـى ضياء القمر الهندي الساطع، وامتطى جواده وانطلـق إلـى العالم.

سار في تلك الليلة شقة بعيدة، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضي عشيرته، وترجل على ضـفة نهـر رمليـة، وهناك قطع بسيفه ذوائبه المتهدلة، وأماط عنـه كـل حليـة وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله، ثم واصل سيره حتى التقى – للوقت - برجل في أسمال، وتبادل وإيـاه الثيـاب، حتى إذا تم له بذلك تجريد نفسه من كل العوائـق الدنيويـة؛ أصبح حرا في متابعة بحثه وراء الحكمة، واتجه جنوبا إلـى مثوى للنساك والمعلمين يقوم على طنف[1] بين التلال بجبال الفندهيا. وهناك كان يعيش عدد من الحكماء في منطقة مـن الكهوف، ويذهبون إلى المدينة طلبا لمسـتلزماتهم البسـيطة، ويدلون شفويا بما لديهم من المعرفة لكل من يعنى بالحضور إليهم. وأصبح جوتاما ضليعا بكل علوم ما وراء الطبيعة في عصره، غير أن ذكاءه الوقاد لم يقنع بالحلول التـي قـدمت إليه.

([1]) الطنف: ما نتأ من الجبل.



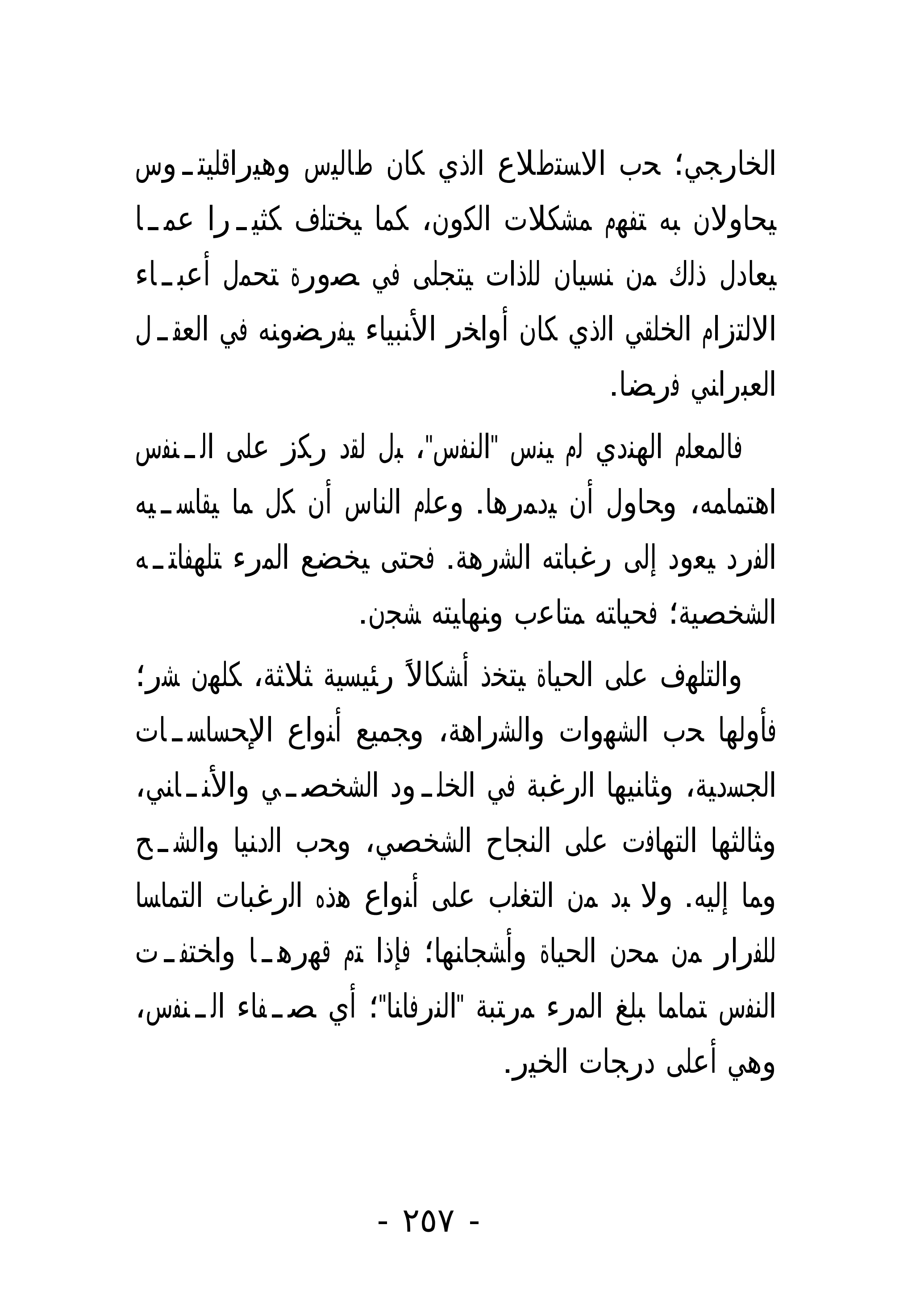
والعقل الهندي ميال منذ القدم إلى الاعتقـاد بـأن القـوة والمعرفة يمكن الحصول إليهمـا بالزهـادة المفرطـة؛ أي بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس، وهنا وضع جوتاما هـذه الفكرات في بوتقة الاختبار، فانطلق مع خمسة مـن رفاقـه التلاميذ إلى الغابة، وهناك استسلم للصيام ورهيب التفكيرات. وطار صيته: "كرنين جرس عظيم معلق في قبة السماوات"، بيد أن ذلك لم يجتلب له أي شعور بأنه فاز بالحقيقة، وبينمـا هو يسير ذات يوم ذهابا وجيئة محاولاً أن يفكر على الـرغم مما هو عليه من وهن؛ غاب عن وعيه فجأة، حتى إذا أفـاق من غشيته تجلت أمام ناظريه سخافة استخدام هـذه الطـرق شبه السحرية للوصول إلى الحكمة، فألقى الرعب في أفئـدة رفاقه بطلبه الطعام العادي، ورفضه مواصلة تعذيب نفسـه؛ ذلك أنه تحقق أن خير الوسائل لبلوغ أي حقيقة هـي العقـل الجيد والتغذية في جسم سليم. وكانت مثل تلك الفكرة غريبة غرابة مطلقة على أفكار البلاد والعصر؛ فهجـره تلاميـذه، وذهبوا إلى بنارس في حالة حزن وقنـوط. وأخـذ جوتامـا يتجول بمفرده..



والعقل عندما يصطرع مع مشكلة عظيمة ومعقدة؛ فانـه يتقدم في سبيل الفوز خطوة في إثر خطوة، دون أن يـدرك إلا قليلاً قدر المكاسب التي أحرزها، وإذا هو يدرك نصـره ويحققه على حين بغتة مع إحساس بالاستنارة المفاجئة؛ وهذا هو ما حدث لجوتاما؛ فإنه جلس يتناول طعامه في ظل دوحة عظيمة إلى جوار أحد الأنهار، وإذا بهذا الشـعور بالرؤيـة الصافية يحل به، فلاح له أنه يرى الحياة نقية واضحة. ويقال إنه جلس طيلة نهاره وليله في تفكير عميق، ثم قـام ليبلـغ العالم رؤياه.

فذهب إلى بنارس، وهناك جد في البحث عـن تلاميـذه الذين هجروه حتى وجدهم، وأقنعهم ثانية بتعاليمه الجديـدة، فشادوا لأنفسهم في حديقة الغزلان الملكية ببنارس أكواخًـا، وأقاموا مدرسة وفد إليها كثيرون ممن كانوا يطلبون الحكمة.

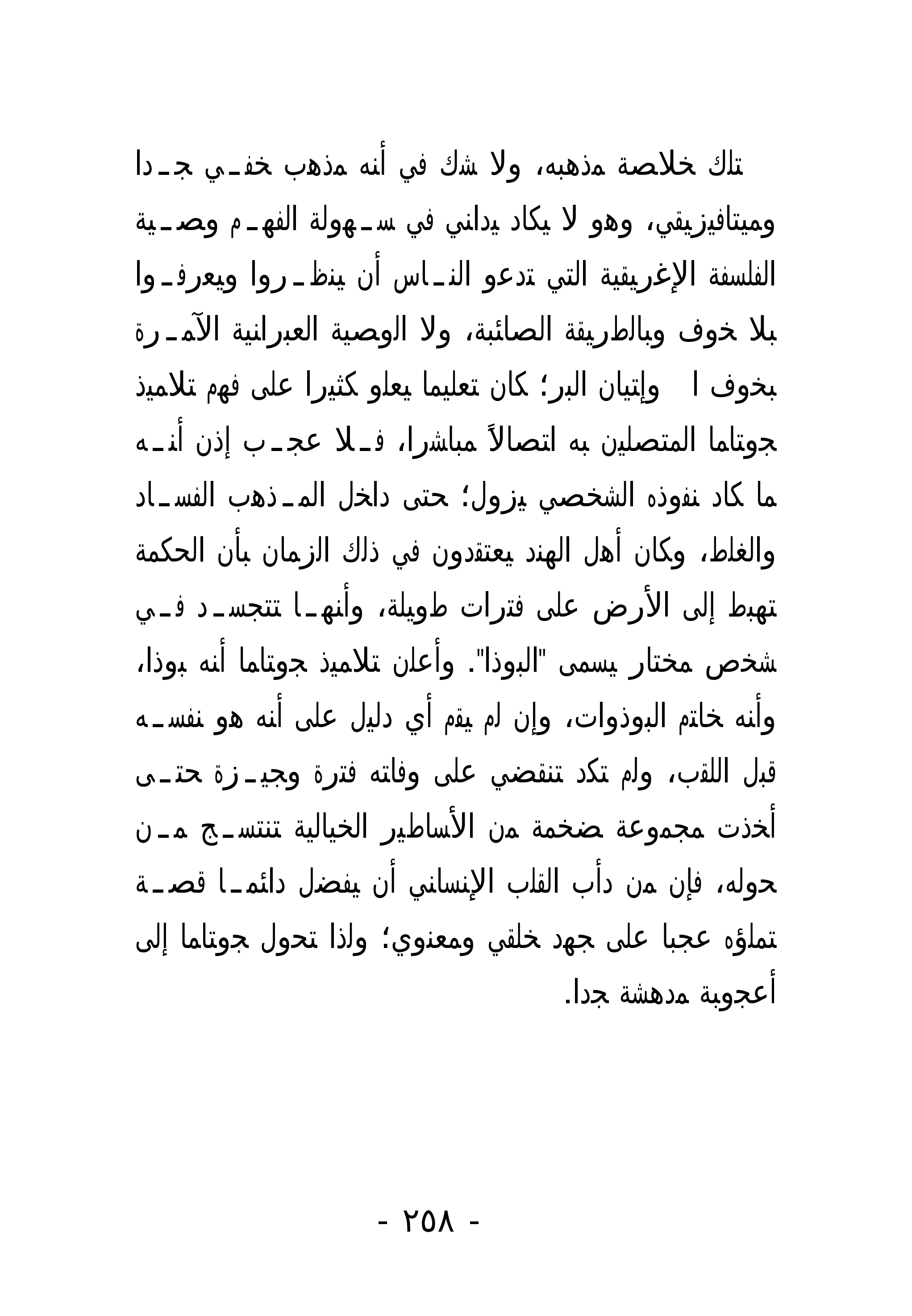
وكانت نقطة البداية في تعاليمه هي السؤال الذي وجهـه لنفسه كشاب حالفه التوفيق: "لماذا لا أحس بسـعادة تامـة؟" وهو سؤال ينطوي على محاولة تعرف بواطن النفس. وهـو سؤال يختلف اختلافًا كبيرا في النوع عن حـب الاسـتطلاع الصريح المنطوي على نسيان الذات والموجه نحـو العـالم



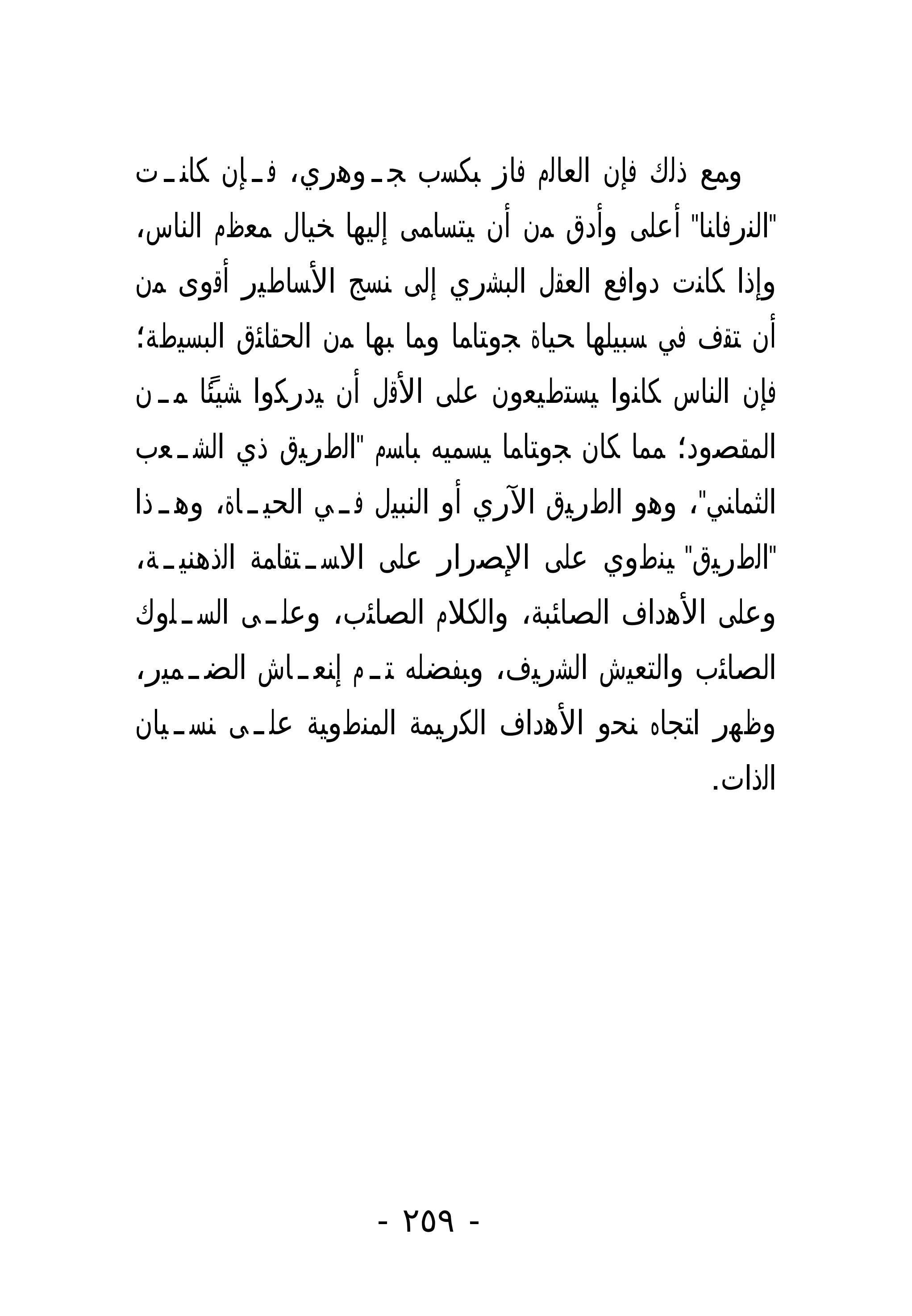
الخارجي؛ حب الاستطلاع الذي كان طاليس وهيراقليتـوس يحاولان به تفهم مشكلات الكون، كما يختلف كثيـرا عمـا يعادل ذلك من نسيان للذات يتجلى في صورة تحمل أعبـاء الالتزام الخلقي الذي كان أواخر الأنبياء يفرضونه في العقـل العبراني فرضا.

فالمعلم الهندي لم ينس "النفس"، بل لقد ركز على الـنفس اهتمامه، وحاول أن يدمرها. وعلم الناس أن كل ما يقاسـيه الفرد يعود إلى رغباته الشرهة. فحتى يخضع المرء تلهفاتـه الشخصية؛ فحياته متاعب ونهايته شجن.

والتلهف على الحياة يتخذ أشكالاً رئيسية ثلاثة، كلهن شر؛ فأولها حب الشهوات والشراهة، وجميع أنواع الإحساسـات الجسدية، وثانيها الرغبة في الخلـود الشخصـي والأنـاني، وثالثها التهافت على النجاح الشخصي، وحب الدنيا والشـح وما إليه. ولا بد من التغلب على أنواع هذه الرغبات التماسا للفرار من محن الحياة وأشجانها؛ فإذا تم قهرهـا واختفـت النفس تماما بلغ المرء مرتبة "النرفانا"؛ أي صـفاء الـنفس، وهي أعلى درجات الخير.



تلك خلاصة مذهبه، ولا شك في أنه مذهب خفـي جـدا وميتافيزيقي، وهو لا يكاد يداني في سـهولة الفهـم وصـية الفلسفة الإغريقية التي تدعو النـاس أن ينظـروا ويعرفـوا بلا خوف وبالطريقة الصائبة، ولا الوصية العبرانية الآمـرة بخوف ا وإتيان البر؛ كان تعليما يعلو كثيرا على فهم تلاميذ جوتاما المتصلين به اتصالاً مباشرا، فـلا عجـب إذن أنـه ما كاد نفوذه الشخصي يزول؛ حتى داخل المـذهب الفسـاد والغلط، وكان أهل الهند يعتقدون في ذلك الزمان بأن الحكمة تهبط إلى الأرض على فترات طويلة، وأنهـا تتجسـد فـي شخص مختار يسمى "البوذا". وأعلن تلاميذ جوتاما أنه بوذا، وأنه خاتم البوذوات، وإن لم يقم أي دليل على أنه هو نفسـه قبل اللقب، ولم تكد تنقضي على وفاته فترة وجيـزة حتـى أخذت مجموعة ضخمة من الأساطير الخيالية تنتسـج مـن حوله، فإن من دأب القلب الإنساني أن يفضل دائمـا قصـة تملؤه عجبا على جهد خلقي ومعنوي؛ ولذا تحول جوتاما إلى أعجوبة مدهشة جدا.



ومع ذلك فإن العالم فاز بكسب جـوهري، فـإن كانـت "النرفانا" أعلى وأدق من أن يتسامى إليها خيال معظم الناس، وإذا كانت دوافع العقل البشري إلى نسج الأساطير أقوى من أن تقف في سبيلها حياة جوتاما وما بها من الحقائق البسيطة؛ فإن الناس كانوا يستطيعون على الأقل أن يدركوا شيئًا مـن المقصود؛ مما كان جوتاما يسميه باسم "الطريق ذي الشـعب الثماني"، وهو الطريق الآري أو النبيل فـي الحيـاة، وهـذا "الطريق" ينطوي على الإصرار على الاسـتقامة الذهنيـة، وعلى الأهداف الصائبة، والكلام الصائب، وعلـى السـلوك الصائب والتعيش الشريف، وبفضله تـم إنعـاش الضـمير، وظهر اتجاه نحو الأهداف الكريمة المنطوية علـى نسـيان الذات.

الفصل التاسع والعشرون

الملك آسوكا

انقضت بضعة أجيال على وفاة جوتاما، ولكن تلك التعاليم البوذية العالية النبيلة (أول التعاليم البسيطة القائلة بأن أعلـى درجات الخير للإنسان هي في إخضاع النفس) لم يكتب لهـا إلا تقدم قليل نسبيا في العالم، ثم ما لبثت تلـك التعـاليم أن استولت على لب ملك من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم.

وقد سبق أن ذكرنا كيف أن الإسكندر الأكبر انحـدر إلـى بلاد الهند، وقاتل ملكها "بوروس" على ضفاف نهـر السـند. ويروي مؤرخو الإغريق أن شخصا اسمه شاندرا جوبتا موريا وفد على معسكر الإسكندر، وحاول أن يقنعه بأن يتقدم حتـى نهر الكنج، ويفتح بلاد الهند جميعا، ولم يستطع الإسـكندر أن يفعل ذلك لأن المقدونيين رفضوا أن يسيروا خطوة واحدة في غمرات عالم مجهول، ثم تمكن شاندرا جوبتا فيما بعـد (٣٢١ ق. م) من الحصول على عون قبائل عديدة بمنطقـة الـتلال، وأن يحقق أحلامه دون مساعدة الإغريق؛ فأسس إمبراطورية فـــي شـــمال الهنـــد، وســرعان ما تسنى له في ٣٠٣ ق. م أن يهاجم ممتلكات سلوقوس الأول بإقليم البنجاب، وأن يزيل عن الهند آخر آثار الحكم الإغريقي، وبسط ابنه رقعة هذه الإمبراطورية الجديـدة، ووجـد حفيـده "آسوكا" (وهو العاهل الذي نتكلم عنه الآن) نفسه في ٢٦٤ ق. م حاكما على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدارس.

وكان آسوكا ميالاً في البداية إلى اتباع مثال أبيه وجـده، وأن يتم فتح شبه الجزيرة الهندية؛ فغزا كالينجا (٢٥٥ ق.م)، وهي إقليم على ساحل مدراس الشرقي، وأوتي النصر فـي عملياته الحربية، ولكن بلغ من اشمئزازه من قساوة الحروب وأهوالها؛ أنه تخلى عنها ونبذها، فكان بذلك نسيجا وحده بين الفاتحين جميعا، وزهدت فيها نفسه تمامـا، وتبنـى مـذهب البوذية السلمي، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلـك الحـين فتوحا في ميادين الدين.

وكان حكمه الذي دام ثمانية وعشرين عاما مـن أزهـى فترات الهدوء الجميلة في تاريخ البشرية المضطرب، فقـام بحركة عظيمة لحفر الآبار بالهند، ولزرع الأشجار للتظليل، وأسس المستشفيات والحدائق العامة، والبساتين التي تربـى فيها الأعشاب الطبية، وأنشأ وزارة للعنايـة بأهـالي الهنـد الأصليين وأجناسها الخاضعة، واتخذ العدة اللازمـة لتعلـيم النساء. وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم البوذيـة، وحاول أن يبعثهم على نقد المؤلفات الدينية المتكدسة لـديهم نقدا أحسن وأقوى أثرا؛ ذلك أن المفاسد والخزعبلات سرعان ما تجمعت حول التعاليم النقية البسيطة لذلك المعلم الهنـدي العظيم، وانطلقت البعوث الدينية من لدن آسوكا إلى كشـمير وفارس وسيلان والإسكندرية.

ذلكم هو آسوكا، أعظم الملوك كافة، كان سابقًا لعصـره بزمن بعيد جدا. ومن أسف أنه لم يخلف من ورائـه أميـرا ولا هيئة من الرجال تواصل جهوده؛ لذا لم تكد تنقضي مائة عام على وفاته حتى صارت أيام حكمه العظيمة ذكرى مجيدة في بلاد الهند التي عبثت بها أيدي التمزق والانحـلال، لقـد كانت طائفة الكهان البرهمانية (وهي أعلى طوائف المجتمـع الهندي وأكثرها امتيازات) مناهضة على الدوام لتعاليم بـوذا الصريحة الكريمة، فراحوا يقوضون علـى التـدريج نفـوذ البوذية في البلاد، واستردت الآلهة القديمة البشعة سـلطناها، هي والعقائد الهندوكية التي لا عداد لهـا، وأصـبح نظـام الطوائف أشد قوة وأعظم تعقيدا. وبعد قرون طويلة ازدهرت فيها البوذية والبرهمانية إحداهما إلى جوار الأخرى؛ أخـذت البوذية تضمحل ببطء، وأخذت البرهمانية تحل محلها متخذة عددا كبيرا من الصور والأشكال. بيد أن البوذيـة انتشـرت خارج حدود الهند بعيدا عن سلطان نظام الطوائـف حتـى اجتذبت إليها بلاد الصين وسيام وبورما واليابان؛ وهي بـلاد لا تبرح البوذية سائدة فيها إلى اليوم.

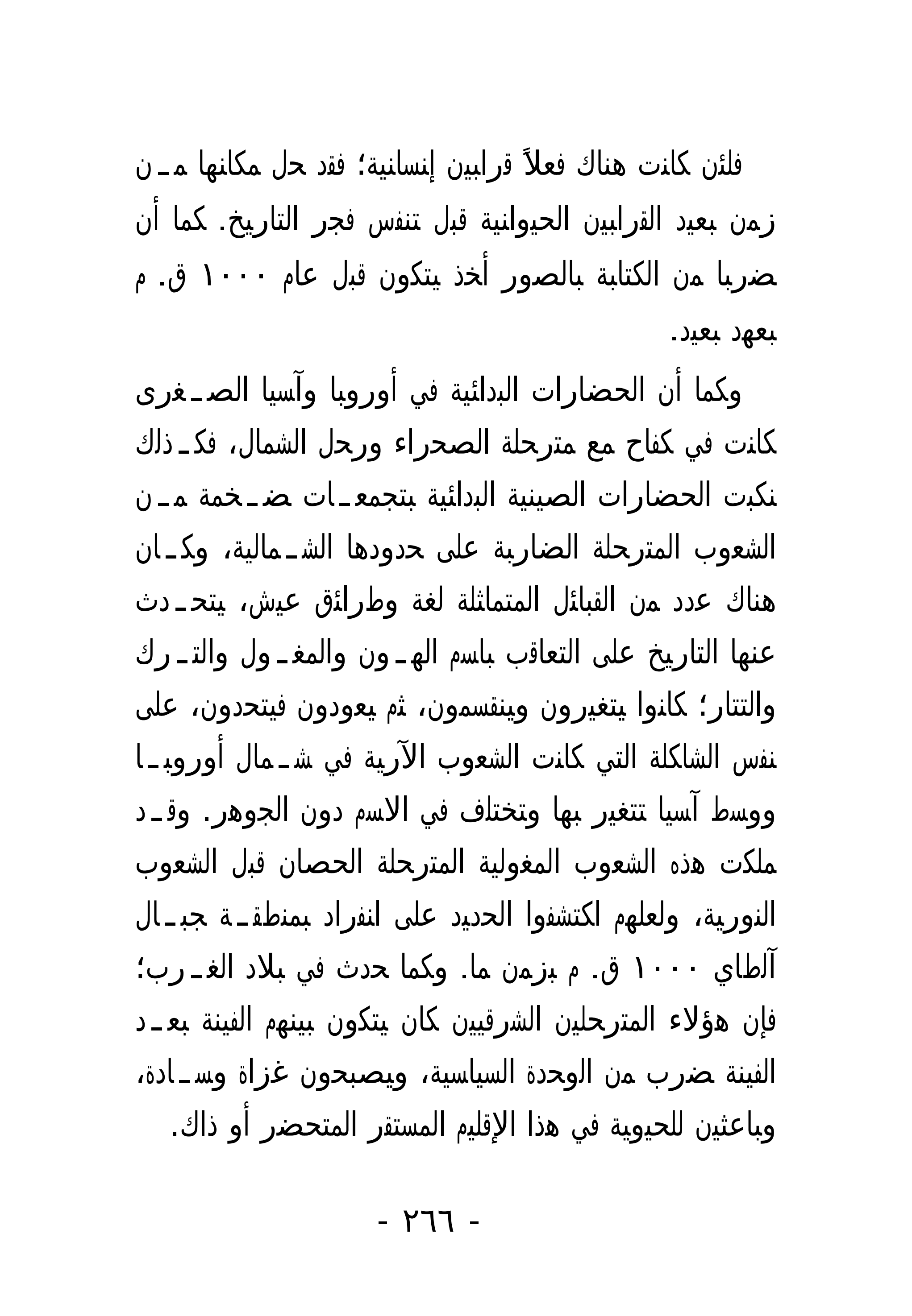
الفصل الثلاثون

كونفوشيوس ولاهوتسي

بقي علينا الآن أن نحدثك عن رجلين عظيمين آخـرين؛ هما كونفوشيوس ولاهوتسي (لاوتسي)، اللذان كانا يعيشـان في ذلك القرن المدهش الذي ابتدأ به رشد الإنسانية، وأعنـي به القرن السادس ق. م.

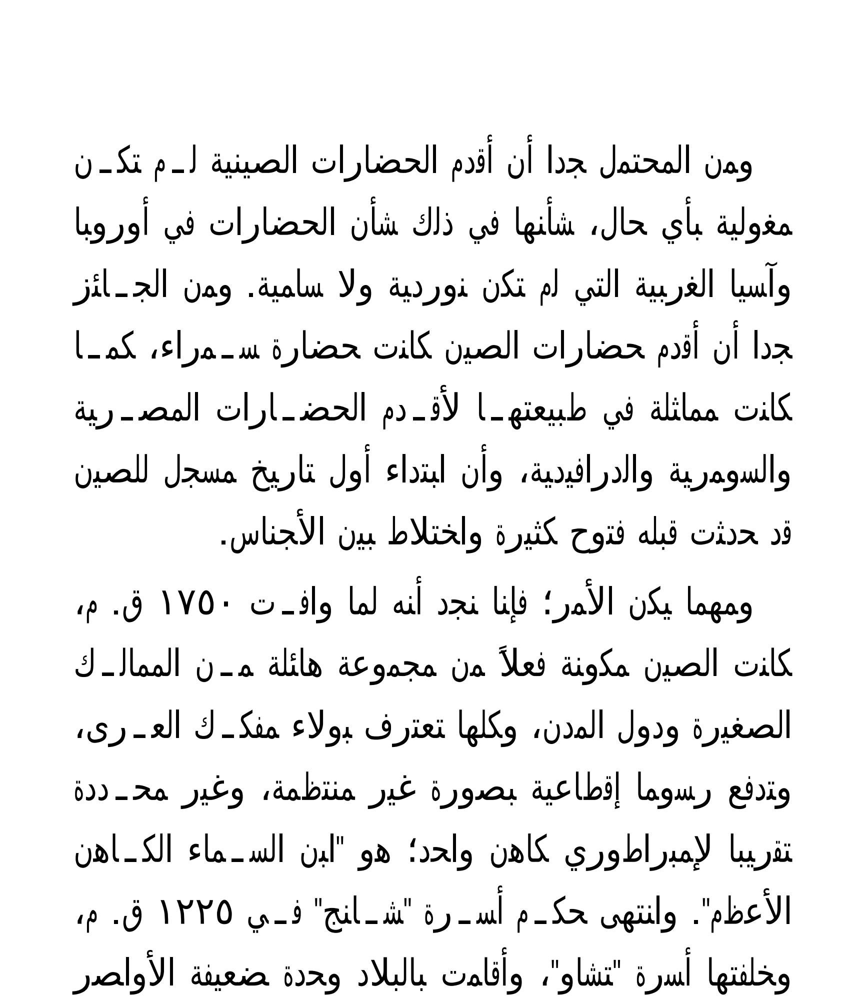
ونحن في كتابنا هذا لم يدل إلى الآن إلا بطرف يسير عن قصة بلاد الصين في عهودها الأولى، ولا يـزال الغمـوض يغشى إلى اليوم ذلك التاريخ البـاكر، وإنـا لنشـخص الآن بأبصارنا إلى الباحثين وعلماء الآثار ببلاد الصـين الحديثـة التي تنشأ الآن نشوءا جديدا، راجين أن يميطوا اللثـام عـن ماضيهم بنفس الاستقصاء الذي كشف به اللثام عن ماضـي أوروبا إبان القرن الأخير.

نشأت أوائل الحضارات الصينية البدائية في وديان الأنهار العظيمة منذ زمن سحيق جدا، متفرعة عن الثقافة الشمسـية الحجرية (الهليوليثية) الأولية. وكما حدث بمصر وسـومر، كانت لتلك الحضارات نفس الخصائص العامة التي اتسـمت بها تلك الثقافة، كما أنها تتركز حول المعابد التي كان الكهنة والملوك الكهان يتولون فيها تقديم القرابين الدموية الموسمية. ولا بد أن الحياة في هذه المدن كانت شـبيهة جـدا بالحيـاة المصرية والسومرية قبل ستة أو سبعة آلاف من السنين، كما أنها شبيهة جدا بحياة المايا بأمريكا الوسطى قبل ألف عام.



فلئن كانت هناك فعلاً قرابين إنسانية؛ فقد حل مكانها مـن زمن بعيد القرابين الحيوانية قبل تنفس فجر التاريخ. كما أن ضربا من الكتابة بالصور أخذ يتكون قبل عام ١٠٠٠ ق. م بعهد بعيد.

وكما أن الحضارات البدائية في أوروبا وآسيا الصـغرى كانت في كفاح مع مترحلة الصحراء ورحل الشمال، فكـذلك نكبت الحضارات الصينية البدائية بتجمعـات ضـخمة مـن الشعوب المترحلة الضاربة على حدودها الشـمالية، وكـان هناك عدد من القبائل المتماثلة لغة وطرائق عيش، يتحـدث عنها التاريخ على التعاقب باسم الهـون والمغـول والتـرك والتتار؛ كانوا يتغيرون وينقسمون، ثم يعودون فيتحدون، على نفس الشاكلة التي كانت الشعوب الآرية في شـمال أوروبـا ووسط آسيا تتغير بها وتختلف في الاسم دون الجوهر. وقـد ملكت هذه الشعوب المغولية المترحلة الحصان قبل الشعوب النورية، ولعلهم اكتشفوا الحديد على انفراد بمنطقـة جبـال آلطاي ١٠٠٠ ق. م بزمن ما. وكما حدث في بلاد الغـرب؛ فإن هؤلاء المترحلين الشرقيين كان يتكون بينهم الفينة بعـد الفينة ضرب من الوحدة السياسية، ويصبحون غزاة وسـادة، وباعثين للحيوية في هذا الإقليم المستقر المتحضر أو ذاك.



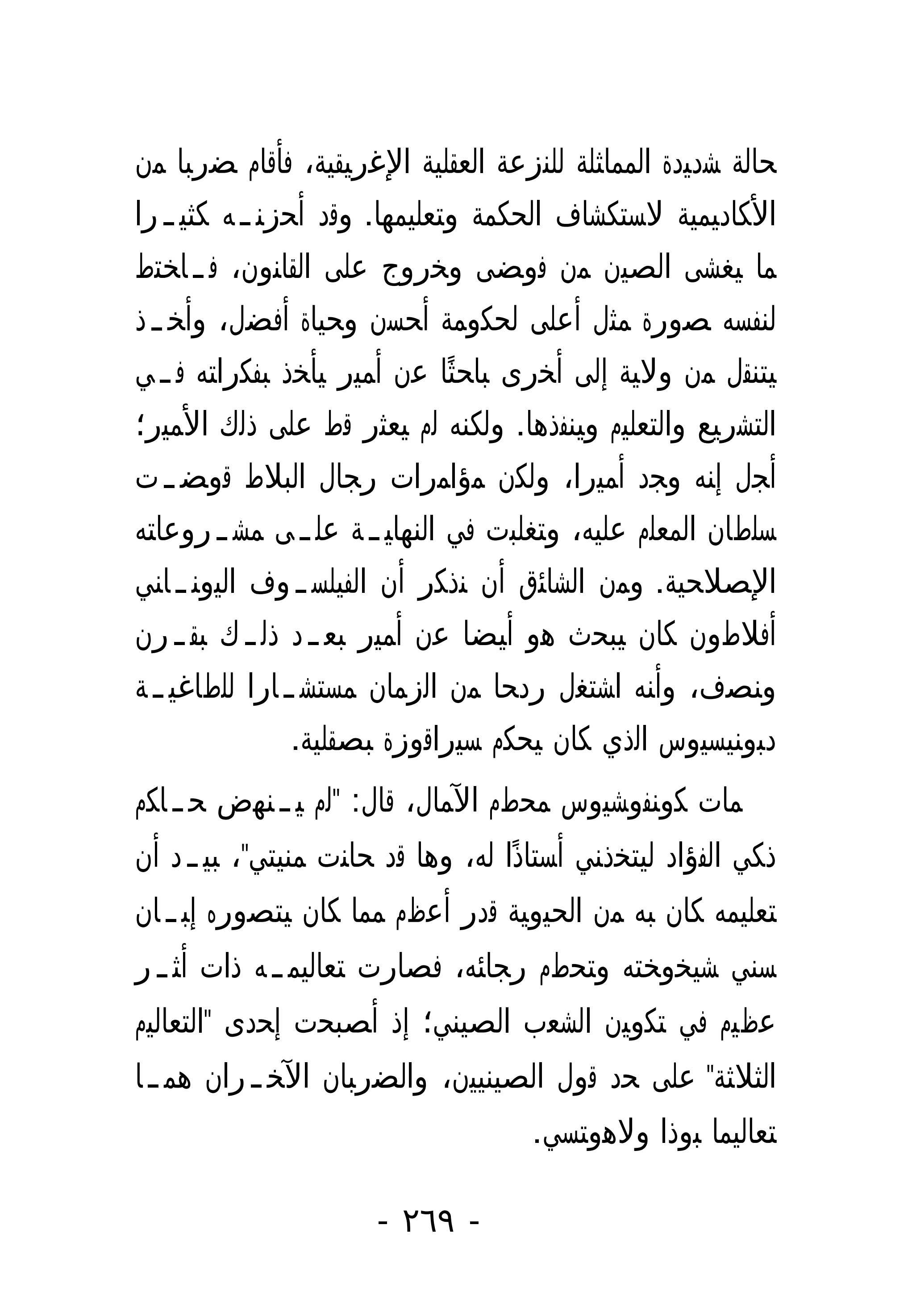
ومن المحتمل جدا أن أقدم الحضارات الصينية لم تكن مغولية بأي حال، شأنها في ذلك شأن الحضارات في أوروبا وآسيا الغربية التي لم تكن نوردية ولا سامية. ومن الجائز جدا أن أقدم حضارات الصين كانت حضارة سمراء، كما كانت مماثلة في طبيعتها لأقدم الحضارات المصرية والسومرية والدرافيدية، وأن ابتداء أول تاريخ مسجل للصين قد حدثت قبله فتوح كثيرة واختلاط بين الأجناس.

ومهما يكن الأمر؛ فإنا نجد أنه لما وافت ١٧٥٠ ق. م، كانت الصين مكونة فعلاً من مجموعة هائلة من الممالك الصغيرة ودول المدن، وكلها تعترف بولاء مفكك العرى، وتدفع رسوما إقطاعية بصورة غير منتظمة، وغير محددة تقريبا لإمبراطوري كاهن واحد؛ هو "ابن السماء الكاهن الأعظم". وانتهى حكم أسرة "شانج" في ١٢٢٥ ق. م، وخلفتها أسرة "تشاو"، وأقامت بالبلاد وحدة ضعيفة الأواصر امتدت حتى عهد آسوكا بالهند والبطالمة بمصر، وأخذت الصين تتمزق وتتحطم على التدريج في أثناء حكم أسرة "تشاو" الطويل، وانحدرت إلى البلاد شعوب من الهون وأنشأت الإمارات، وقطع الحكام المحليون الجزية وأصبحوا

مستقلين. ويقول أحد ثقات الصينيين إن البلاد كان بهـا فـي القرن السادس ق. م خمسة أو ستة آلاف مقاطعـة مسـتقلة تقريبا. وهذا العصر هو الذي يسميه الصينيون في سجلاتهم باسم "عصر الفوضى".

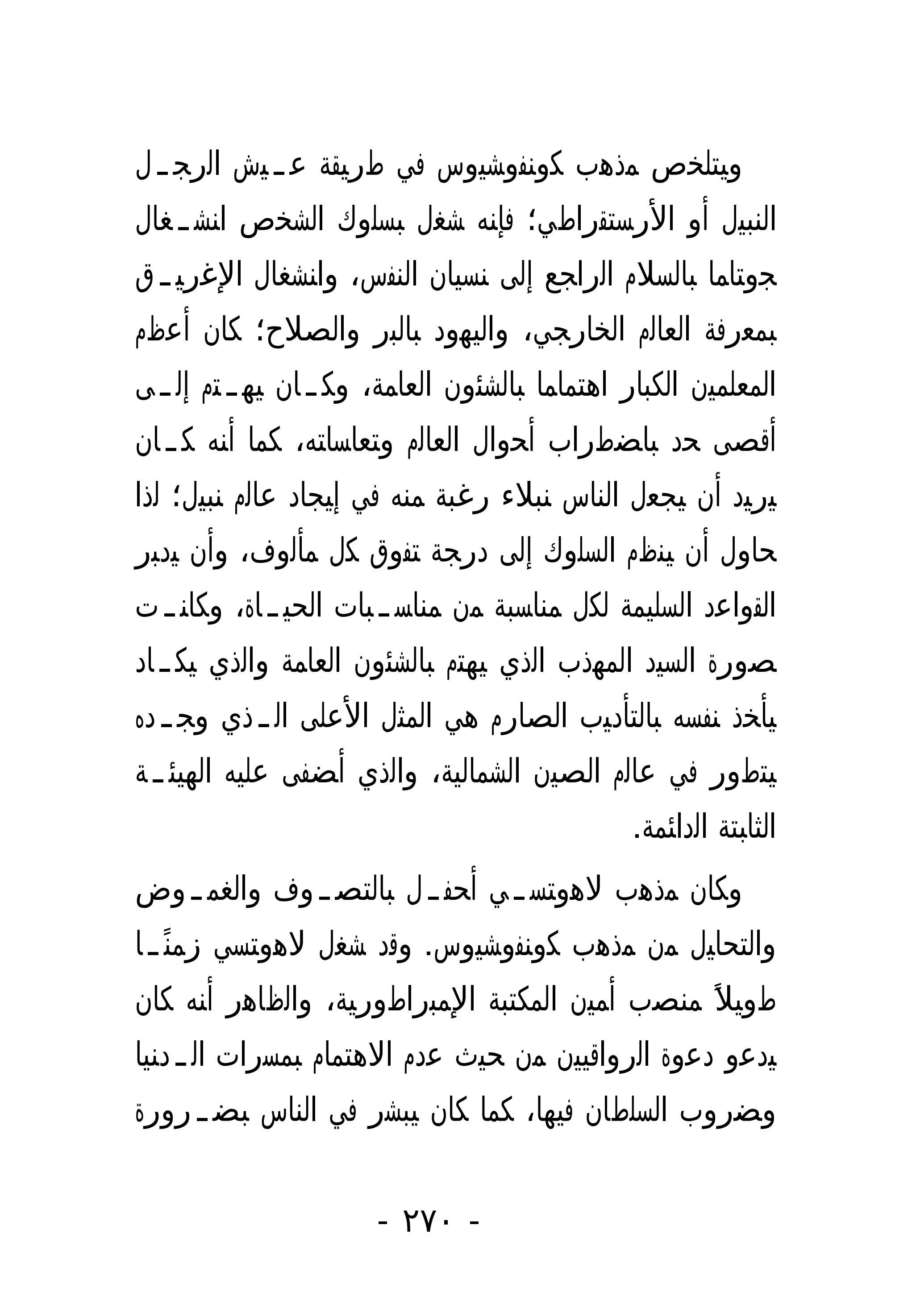
على أن عصر الفوضى كان ملائما لنشوء شيء كثير من النشاط الفكري، ووجود كثير من مجـالات الفـن المحليـة والعيش المتحضر. وسنجد عندما نزداد علما بتاريخ الصـين أن تلك البلاد كانت لها هي الأخرى مدن قامت بأدوار كالتي لعبتها ميلتيوس ("مليطة) وأثينا وبرجامة ومقدونيا؛ لذا فإنـا سنلازم الإيجاز والغموض في الوقت الحاضر في حديثنا عن فترة الانقسام الصيني هذه، وذلك لأن ما لدينا من المعلومات لا يكفي لصوغ قصة متماسكة الحلقات حسنة التسلسل.

وكما أن بلاد اليونان المنقسمة على نفسـها ظهـر فيهـا الفلاسفة، كما نشأ في اليهودية المحطمة المأسورة الأنبيـاء، كذلك نشأ في الصين المختلفة النظام الفلاسفة والمعلمون في ذلك الأوان. وفي كل هذه الحالات يلوح أن عدم الاطمئنـان والحيرة قد بعثت أحسن العقول إلى العمـل الناشـط. كـان كونفوشيوس رجلاً أرسـتقراطي الأصـل، تـولى بعـض المناصب الهامة بمقاطعة صغيرة اسمها "لو". وهنا ألمت بـه



حالة شديدة المماثلة للنزعة العقلية الإغريقية، فأقام ضربا من الأكاديمية لاستكشاف الحكمة وتعليمها. وقد أحزنـه كثيـرا ما يغشى الصين من فوضى وخروج على القانون، فـاختط لنفسه صورة مثل أعلى لحكومة أحسن وحياة أفضل، وأخـذ يتنقل من ولاية إلى أخرى باحثًا عن أمير يأخذ بفكراته فـي التشريع والتعليم وينفذها. ولكنه لم يعثر قط على ذلك الأمير؛ أجل إنه وجد أميرا، ولكن مؤامرات رجال البلاط قوضـت سلطان المعلم عليه، وتغلبت في النهايـة علـى مشـروعاته الإصلاحية. ومن الشائق أن نذكر أن الفيلسـوف اليونـاني أفلاطون كان يبحث هو أيضا عن أمير بعـد ذلـك بقـرن ونصف، وأنه اشتغل ردحا من الزمان مستشـارا للطاغيـة ديونيسيوس الذي كان يحكم سيراقوزة بصقلية.

مات كونفوشيوس محطم الآمال، قال: "لم يـنهض حـاكم ذكي الفؤاد ليتخذني أستاذًا له، وها قد حانت منيتي"، بيـد أن تعليمه كان به من الحيوية قدر أعظم مما كان يتصوره إبـان سني شيخوخته وتحطم رجائه، فصارت تعاليمـه ذات أثـر عظيم في تكوين الشعب الصيني؛ إذ أصبحت إحدى "التعاليم الثلاثة" على حد قول الصينيين، والضربان الآخـران همـا تعاليما بوذا ولاهوتسي.



ويتلخص مذهب كونفوشيوس في طريقة عـيش الرجـل النبيل أو الأرستقراطي؛ فإنه شغل بسلوك الشخص انشـغال جوتاما بالسلام الراجع إلى نسيان النفس، وانشغال الإغريـق بمعرفة العالم الخارجي، واليهود بالبر والصلاح؛ كان أعظم المعلمين الكبار اهتماما بالشئون العامة، وكـان يهـتم إلـى أقصى حد باضطراب أحوال العالم وتعاساته، كما أنه كـان يريد أن يجعل الناس نبلاء رغبة منه في إيجاد عالم نبيل؛ لذا حاول أن ينظم السلوك إلى درجة تفوق كل مألوف، وأن يدبر القواعد السليمة لكل مناسبة من مناسـبات الحيـاة، وكانـت صورة السيد المهذب الذي يهتم بالشئون العامة والذي يكـاد يأخذ نفسه بالتأديب الصارم هي المثل الأعلى الـذي وجـده يتطور في عالم الصين الشمالية، والذي أضفى عليه الهيئـة الثابتة الدائمة.

وكان مذهب لاهوتسـي أحفـل بالتصـوف والغمـوض والتحايل من مذهب كونفوشيوس. وقد شغل لاهوتسي زمنـًـا طويلاً منصب أمين المكتبة الإمبراطورية، والظاهر أنه كان يدعو دعوة الرواقيين من حيث عدم الاهتمام بمسرات الـدنيا وضروب السلطان فيها، كما كان يبشر في الناس بضـرورة

العودة إلى حياة بسيطة قديمة توهمها خياله، وقد ترك كتابات أسلوبها شديد الاقتضاب، كما أنها غامضة جدا. كان يكتب في ألغاز، وبعد وفاته أفسدت تعاليمه كما أفسد مذهب بوذا من قبله، وتغشتها الأساطير، وضمت إليها أشد الطقوس والفكرات الخرافية تعقيدا وخروجا على المألوف.

وحدث في الصين مثلما حدث في الهند بالضبط، أن نشطت فكرات السحر البدائية، وتحركت الأساطير البشعة التي ظهرت في ماضي طفولة جنسنا تكافح ضد التفكير الجديد في العالم، ونجحت في أن تسدل عليه ستارا سابلاً من طقوس غريبة مضحكة وغير معقولة وعتيقة بالية. وكل من البوذية والتاوية (التي تنسب نفسها إلى حد كبير إلى لاهوتسي)، كما نجدهما اليوم ببلاد الصين؛ ديانة راهب ومعبد وكاهن وتقريب قرابين، ديانة قديمة الطراز شكلاً إن لم تكن كذلك فكرا وموضوعا كديانات القرابين بسومر القديمة ومصر، على أن مذهب كونفوشيوس لم يلق مثل تلك الإضافات؛ لأنه كان مذهبا محدودا وواضحا ومستقيم المنهج، كما أن طبيعته لم تكن تسمح له بقبول مثل تلك التشويهات.

وأصبح شمال الصين (أي جزؤها الـذي يخترقـه نهـر هوانج هو) كونفوشيا في فكره وروحـه، وغـدت الصـين الجنوبية التي يخترقها نهر اليانج تسي كيانج؛ تاوية المـذهب والعقيدة، ومنذ تلك الأيام يمكن تتبع آثار الصراع الذي شجر بالصين بين هاتين النزعتين؛ نزعة الشمال، ونزعة الجنوب؛ أي بين بيكين ونانكين (فيما عقب ذلك من أيام)، بين الشمال المستقيم المحافظ صاحب عقلية الموظفين، وبـين الجنـوب المتشكك الميال إلى الفنون والتراخي والتجريب.

وبلغت انقسامات الصين في أثناء عصر الفوضى أسـوأ مراحلها في القرن السادس ق. م، وبلغ من ضـعف أسـرة تشاو وحطة شأنها، أن اضطر لاهوتسي إلى تـرك بلاطهـا التعس وإلى التقاعد.

وتسلطت على البلاد في تلك الأيام ثلاث دول تدين بتبعية اسمية للإمبراطور؛ هي "تسئى" و"تسـئن"، وهمـا دولتـان شماليتان، و"تشوئو" التي كانت دولة عسـكرية ميالـة إلـى العدوان في وادي اليانج تسي، وأخيرا كونت تسئى حلفًا مـع تسئن وأخضعتا تشوئو وفرضتا في الـبلاد معاهـدة عامـة تقضي بالسلام ونزع السلاح. وما لبثت قوة تسئن أن صارت

هي الغالبة، وانتهى الأمر في زمان يقارب عهد آسوكا بالهند بأن استولى عاهل تسئن على أوعية القربان التي لإمبراطور أسرة تشاو، واضطلع بواجباته القربانية. ومدونات التـاريخ الصيني تسمي ابنه شي هوانج تـي (الـذي أصـبح ملكًـا عام ٢٤٦ ق. م وإمبراطورا فـي عـام ٢٦٠ ق. م) باسـم "الإمبراطور العام الأول".

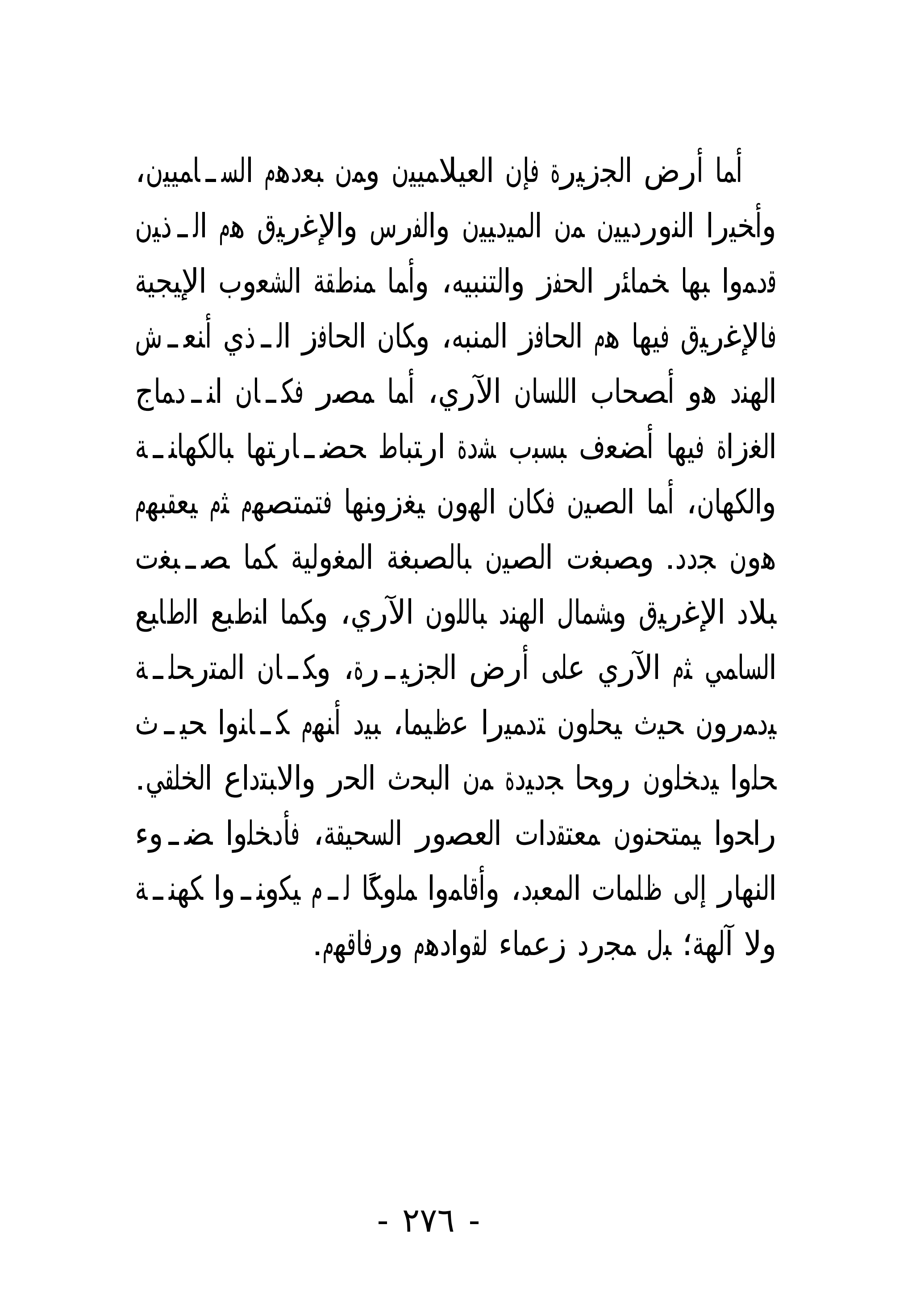
وكان شي هوانج تي أسعد حظًا من الإسكندر؛ لأنه حكـم ستة وثلاثين عاما قضاها ملكًا وإمبراطورا. ويـؤذن حكمـه الحافل بالنشاط والاقتدار ببداية حقبة جديـدة مـن الوحـدة والرخاء للشعب الصيني، فإنه قاتل الهـون المغيـرين مـن الصحاري الشمالية أشد القتال، كما أنه بدأ ذلك العمل الهائل، وأعني به سور الصين العظيم؛ ليحد من اعتداءاتهم.

الفصل الحادي والثلاثون

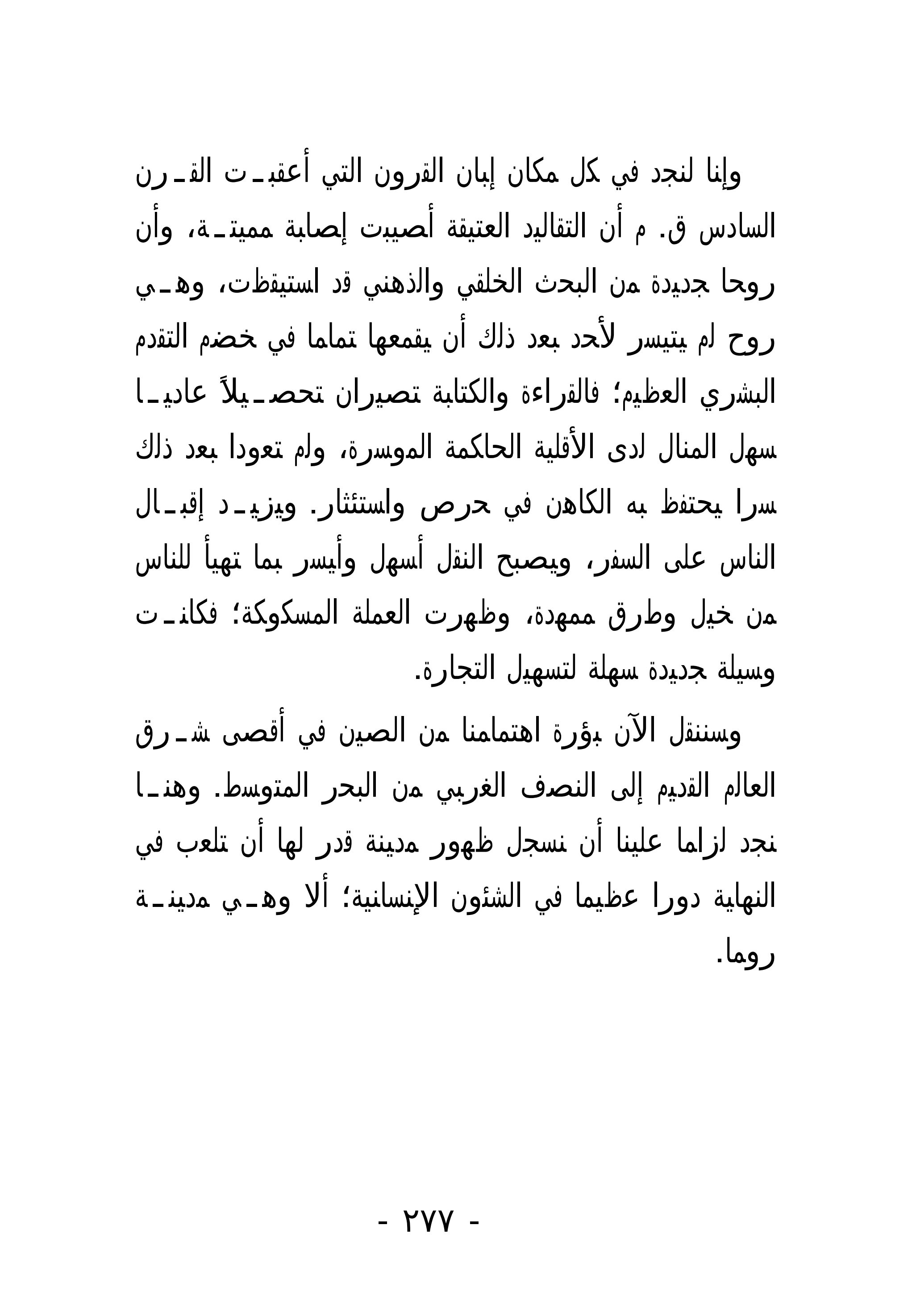
ظهور روما على مسرح التاريخ

سيلحظ القارئ تماثلاً عاما في تاريخ هذه الحضارات، على الرغم مما بينها من التباعد الواقعي الناجم عن الحواجز العظيمة بتخوم الهند الشمالية الغربية، والكتل الجبلية بآسيا الوسطى وأقاصي الهند، وقد انتشرت الثقافة الشمسية الحجرية (الهليوليثية) أولاً، وفي مدى آلاف من السنين بجميع وديان الأنهار الدفيئة الخصيبة بالعالم القديم، وأنتجت حول قرابينها التقليدية نظاما قوامه المعبد والكاهن والحاكم.

وواضح أن أول من كون تلك الثقافة كانوا دائما هم أولئك الشعوب السمراء الذين قلنا إنهم هم الجنس البشري المركزي، ثم هبطوا بأرضها المترحلة من أقاليم الحشائش الموسمية والهجرات الموسمية، ففرضوا خصائصهم بل حتى لغتهم أحيانًا على الحضارة البدائية. وحدث التفاعل بين الطرفين؛ فإنهم أخضعوها ونهبوها، وحفزتهم هي بدورها إلى إحداث تطورات جديدة، حتى لقد تنوعت الحضارة فصارت هنا شيئًا وهناك شيئًا آخر.



أما أرض الجزيرة فإن العيلاميين ومن بعدهم الساميين، وأخيرا النورديين من الميديين والفرس والإغريق هم الذين قدموا بها خمائر الحفز والتنبيه، وأما منطقة الشعوب الإيجية فالإغريق فيها هم الحافز المنبه، وكان الحافز الذي أنعش الهند هو أصحاب اللسان الآري، أما مصر فكان اندماج الغزاة فيها أضعف بسبب شدة ارتباط حضارتها بالكهانة والكهان، أما الصين فكان الهون يغزونها فتمتصهم ثم يعقبهم هون جدد. وصبغت الصين بالصبغة المغولية كما صبغت بلاد الإغريق وشمال الهند باللون الآري، وكما انطبع الطابع السامي ثم الآري على أرض الجزيرة، وكان المترحلة يدمرون حيث يحلون تدميرا عظيما، بيد أنهم كانوا حيث حلوا يدخلون روحا جديدة من البحث الحر والابتداع الخلقي. راحوا يمتحنون معتقدات العصور السحيقة، فأدخلوا ضوء النهار إلى ظلمات المعبد، وأقاموا ملوكًا لم يكونوا كهنة ولا آلهة؛ بل مجرد زعماء لقوادهم ورفاقهم.



وإنا لنجد في كل مكان إبان القرون التي أعقبـت القـرن السادس ق. م أن التقاليد العتيقة أصيبت إصابة مميتـة، وأن روحا جديدة من البحث الخلقي والذهني قد استيقظت، وهـي روح لم يتيسر لأحد بعد ذلك أن يقمعها تماما في خضم التقدم البشري العظيم؛ فالقراءة والكتابة تصيران تحصـيلاً عاديـا سهل المنال لدى الأقلية الحاكمة الموسرة، ولم تعودا بعد ذلك سرا يحتفظ به الكاهن في حرص واستئثار. ويزيـد إقبـال الناس على السفر، ويصبح النقل أسهل وأيسر بما تهيأ للناس من خيل وطرق ممهدة، وظهرت العملة المسكوكة؛ فكانـت وسيلة جديدة سهلة لتسهيل التجارة.

وسننقل الآن بؤرة اهتمامنا من الصين في أقصى شـرق العالم القديم إلى النصف الغربي من البحر المتوسط. وهنـا نجد لزاما علينا أن نسجل ظهور مدينة قدر لها أن تلعب في النهاية دورا عظيما في الشئون الإنسانية؛ ألا وهـي مدينـة روما.

لم نحدثك حتى الآن في قصتنا هذه إلا بالنذر اليسير عـن إيطاليا. كانت قبل ١٠٠٠ ق. م أرض جبال وغابات قليلـة السكان، وقد زحفت قبائل ناطقة بالآرية في شـبه الجزيـرة وأنشأت مدنًا وبلدانًا صغيرة، كما أن طرفها الجنوبي كانـت تنتشر عليه المستعمرات الإغريقيـة. ولا تـزال الأطـلال الفاخرة لمدينة بايستم تحتفظ لنا إلى يومنا هذا بشـيء مـن الأبهة والجلال التي كانت لتلك المؤسسات الإغريقية الباكرة. وكان شعب غير آري، لعله من ذوي قربى الشعوب الإيجية، وأعني به الإترسك؛ وطد قدمه في الجزء الأوسط من شـبه الجزيرة. وقد عكسوا هنا الآية المعتادة بأن أخضعوا لنفوذهم قبائل آرية منوعة. وعندما تظهر روما في ضياء التـاريخ، تكون بلدة تجارية صغيرة واقعة إلى جوار مخاضة على نهر التيبر، وسكانها قوم ناطقون بالآرية يحكمهـم ملـوك مـن الإترسك، والتواريخ القديمة تجعـل عـام ٧٥٣ ق. م بـدءا لتأسيس روما؛ أي بعد تأسيس قرطاجنـة المدينـة الفينيقيـة العظيمة بنصف قرن، وبعد إقامة أول حفل للألعاب الأوليمبية بثلاثة وعشرين عاما، ولكن الحفر فـي السـوق (الفـوروم الروماني) كشف مع ذلك عن قبور إترسكية ترجع إلى عهـد أبعد كثيرا من ٧٥٣ ق. م.

وفي هذا القرن السعيد الحافل بالذكريات؛ وهـو القـرن السادس ق. م طرد ملوك الإترسك (٥١٠ ق. م)، وأصبحت روما جمهورية أرستقراطية، بها طبقة سادة من الأسر النبيلة (البطارقة) تتحكم فيمن عداها من عامة الشعب (البليبيان).

ولولا ما كانت تنطق به من لسان لاتيني؛ ما شعر أحـد بفارق بينها وبـين كثيـر مـن الجمهوريـات الإغريقيـة الأرستقراطية.

وظل تاريخ روما الداخلي بضعة قرون، وهو قصة كفاح مديد عنيد قام به العامة، مطالبين بالحركـة ونصـيب فـي الحكم. ولو استعرضنا تاريخ الإغريق لما عسر علينا أن نجد حالات مماثلة لهذا الصراع، ولوجـدنا الإغريـق يسـمونها الصراع بين الأرستقراطية والديمقراطية. وانتهى الأمر بأن حطم العامة (البليبيان) معظم ما كان للعائلات القديمـة مـن امتيازات، وتساووا معهم مساواة واقعية، فقضوا على اعتزال البطارقة القديم، وجعلوا من الميسور والمقبـول لرومـا أن توسع "مواطنيتها"؛ بحيث تشمل عددا متزايدا من "الغربـاء"؛ ذلك أنها ظلت ردحا من الزمان تكافح في الداخل، على حين كانت تمد سلطانها في الخارج.

وشرع الرومان يبسطون سلطانهم في القرن الخامس ق. م، وكانوا حتى ذلك الحين في حروب دائمة مع الإترسك كانت تنتهي بالإخفاق على وجه العموم، وكانت هناك على بضعة أميال من روما قلعة إترسكية؛ هي قلعة فياي، التي لم يستطع الرومان قط أن يفتحوها. على أن الإترسك حلت بهم في ٤٧٤ ق. م نكبة جائحة؛ إذ دمر إغريق سيراقوزه بصقلية أسطولهم.

وفي نفس الوقت هبطت عليهم من الشمال موجة من المغيرين النورديين؛ هي موجة الغالة. فلما وقع الإترسك بين الرومان والغالة سقطت دولتهم واختفوا من التاريخ، واستولى الرومان على فياي. وتقدم الغالة إلى روما وانتهبوا المدينة (٣٩٠ ق. م) بيد أنهم لم يستطيعوا أن يفتحوا الكابيتول. فإن صياح الأوز كشف عن محاولة الغالة القيام بهجوم ليلي مباغت، وانتهى الأمر بأن افتدى الرومان أنفسهم وحريتهم بالمال، وتراجع الغالة إلى شمالي إيطاليا.

ويلوح أن غارة الغالة قد عادت على روما بالقوة لا بالضعف، فإن الرومان غلبوا على الإترسك وتمثلوهم، ومدوا سلطانهم على كل إيطاليا الوسطى من نهر الآرنو إلى نابلي، وقد بلغوا هذه البسطة في السلطان قبيل عام ٣٠٠ ق. م ببضع سنوات، وكانت فتوحهم في إيطاليا تحدث في نفس الأيام التي تم فيها نمو قوة فيليب في مقدونيا وبلاد اليونان، وغارة الإسكندر الهائلة على مصر وبلاد السند. ولما تمزقت إمبراطورية الإسكندر كان الرومان قد أصبحوا شعبا تملأ شهرته العالم الممدن إلى الشرق من بلادهم.

وكان الغالة ينزلون إلى الشمال من دولة الرومان، على حين تناثرت إلى الجنوب منهم مستعمرات الإغريق للنشأة بماجنا جريكيا، وأعني بذلك جزيرة صقلية، ومقدم حذاء إيطاليا وكعبها. وكان الغالة شعبا حربيا شديد المراس. حافظ الرومان على حدودهم معهم بخط من القلاع والمستعمرات المحصنة. فأما المدن الإغريقية في الجنوب وعلى رأسها تارنتم (وهي مدينة تارانتو الحديثة) وسيراقوزه؛ فلم تكن تهدد الرومان قدر ما كانت تخافهم وتخشى بأسهم، وكانت تتلفت من حولها تلتمس ناصرا يعينها على هؤلاء الغزاة الجدد.

وقد سبق أن ذكرنا كيف تمزقت إمبراطورية الإسـكندر إربا عند وفاته، وكيف تقسمها قواده ورفاقـه. وكـان بـين هؤلاء المغامرين أمير مـن ذوي قرابـة الإسـكندر اسـمه بيروس، وطد ملكه في إبيروس، وهي وراء البحر الأدرياتي قبالة كعب إيطاليـا، وكـان يطمـع فـي أن يلعـب مـن "الماجناجريكيا" دور فيليب المقدوني معها، وأن يصبح حاميا وسيدا عاما لمدينة تارنتم وسيراقوزة، وباقي ذلك الجزء من العالم.

وكان لديه جيش كان يعد في زمانه جيشًا عصريا عظـيم الكفاية؛ كان لديه فيلق من المشاة، وكتيبة راكبة من تسـاليا، كانت آنذاك تضارع في كفايتها الخيالة المقدونية الأصـلية، وثم خمسة وعشرون فيلاً مقاتلاً، فغزا إيطاليا وبـدد شـمل الرومان في موقعتين عظيمتين إحـداهما معركـة هراقليـا (٢٨٠ ق. م)، والثانية أوسكولم (٢٧٩ ق. م). ولما تـم لـه دفعهم نحو الشمال وجه اهتمامه إلى إخضاع صقلية.

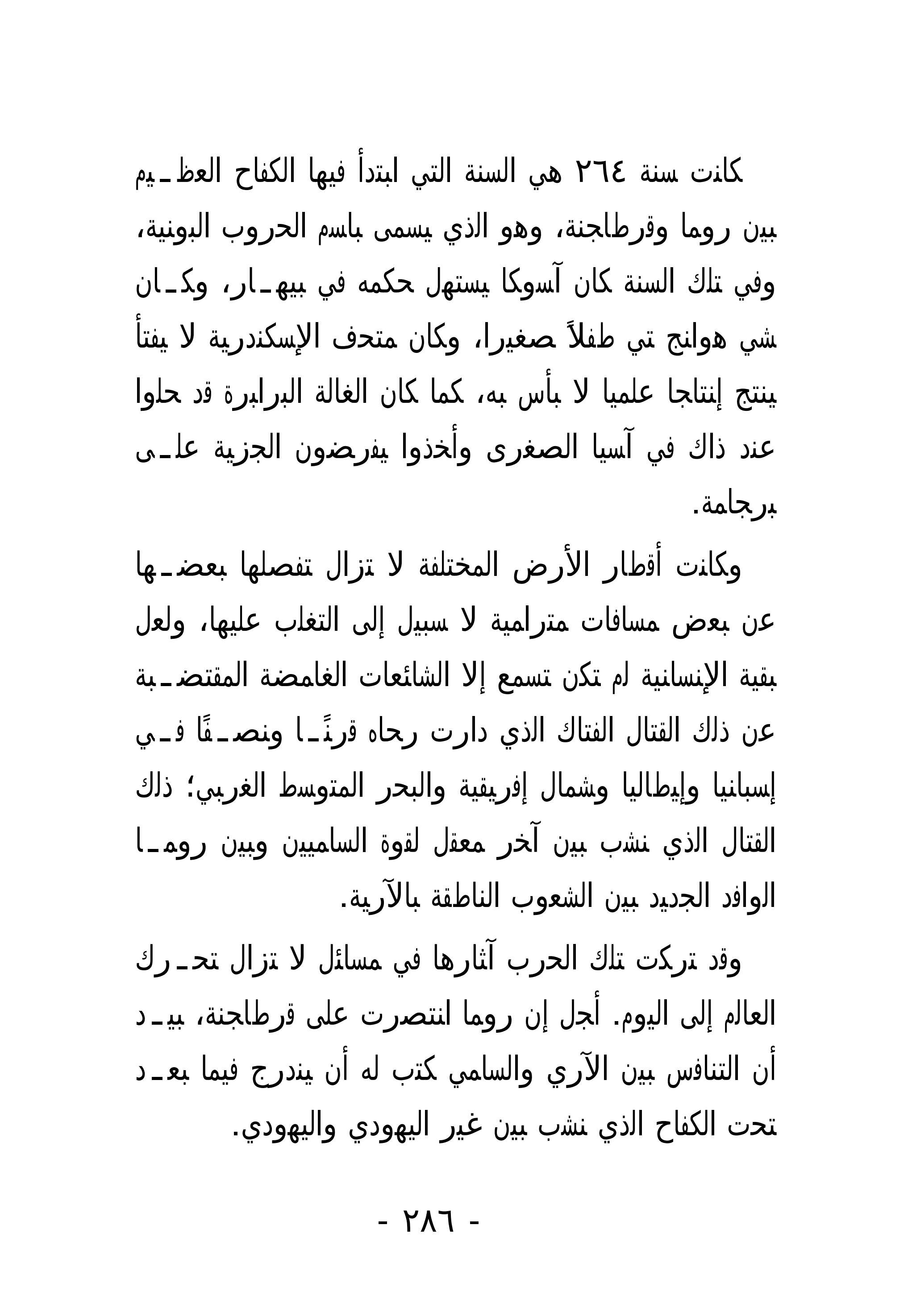
بيد أن هذا جلب عليه عدوا كان في ذلك الحين أرهب جانبا من الرومان، وهو مدينة قرطاجنة الفينيقية التجارية، التي لعلها كانت آنذاك أعظم مدن العالم؛ إذ كانت صقلية قريبة من القرطاجيين قربا لا يستطيعون معه أن يرحبوا بمقدم إسكندر آخر جديد إليها، كما أن قرطاجنة كانت لا تزال تذكر المصير الذي حل بأمها صور قبل ذلك بنصف قرن؛ لذلك أرسلت أسطولاً يشجع روما، أو يرغمها على مواصلة الكفاح، كما قطعت مواصلات بيروس، فوجد الرومان يهاجمونه من جديد، ويحطمون بعنف ساحق هجوما قام به على معسكرهم في بنفنتم بين نابلي وروما.

وعلى حين بغتة وردت إليه أنباء اضطرته للعودة إلى إبيروس، فإن الغالة أخذوا يغيرون من الشمال إلى الجنوب كعادتهم، ولكنهم لم يكونوا يغيرون في هذه المرة على بلاد إيطاليا؛ إذ كانت التخوم الرومانية القوية التحصين والحراسة أمنع من أن يستطيعوا لها اختراقًا؛ لذا كانوا يغيرون الآن جنوبا مخترقين الليريا (وهي الآن ألبانيا وبلاد الصرب) إلى مقدونيا وإبيروس، وتخلى بيروس عن أطماعه في الفتح وعاد إلى بلاده (٢٧٥ ق. م)، بعد أن صده الرومان. وأحدق به في البحر خطر القرطاجيين، وهدد الغالة بلاده، على حين خلا الجو لروما فبسطت سلطانها حتى مضيق مسينا.

وكانت تقوم على الجانب الصقلي مـن المضـيق مدينـة مسينا الإغريقية، وسرعان ما وقعت هذه البلدة فـي قبضـة جماعة من القراصنة. وكان القرطاجيون من قبل ذلك سـادة صقلية أو يكادون، كما كانوا حلفاء لسيراقوزة، فكـان مـن الطبيعي أن ينهضوا للقضاء على القراصـنة (٢٧٠ ق. م)، وأن يضعوا في المدينة حامية قرطاجية. ولجأ القراصنة إلى روما يلتمسون العون منها، وأصغت روما لشكايتهم. وهكـذا التقت دولة قرطاجنة التجارية العظيمة مـن وراء مضـيق مسينا بذلك الشعب الفاتح الجديد؛ الرومان، وأخذا يتبـادلان نظرات العدواة والبغضاء.

الفصل الثاني والثلاثون

بين روما وقرطاجنة



كانت سنة ٢٦٤ هي السنة التي ابتدأ فيها الكفاح العظـيم بين روما وقرطاجنة، وهو الذي يسمى باسم الحروب البونية، وفي تلك السنة كان آسوكا يستهل حكمه في بيهـار، وكـان شي هوانج تي طفلاً صغيرا، وكان متحف الإسكندرية لا يفتأ ينتج إنتاجا علميا لا بأس به، كما كان الغالة البرابرة قد حلوا عند ذاك في آسيا الصغرى وأخذوا يفرضون الجزية علـى برجامة.

وكانت أقطار الأرض المختلفة لا تزال تفصلها بعضـها عن بعض مسافات مترامية لا سبيل إلى التغلب عليها، ولعل بقية الإنسانية لم تكن تسمع إلا الشائعات الغامضة المقتضـبة عن ذلك القتال الفتاك الذي دارت رحاه قرنًـا ونصـفًا فـي إسبانيا وإيطاليا وشمال إفريقية والبحر المتوسط الغربي؛ ذلك القتال الذي نشب بين آخر معقل لقوة الساميين وبين رومـا الوافد الجديد بين الشعوب الناطقة بالآرية.

وقد تركت تلك الحرب آثارها في مسائل لا تزال تحـرك العالم إلى اليوم. أجل إن روما انتصرت على قرطاجنة، بيـد أن التنافس بين الآري والسامي كتب له أن يندرج فيما بعـد تحت الكفاح الذي نشب بين غير اليهودي واليهودي.

وأخذ ركب التاريخ يقترب الآن من أحداث لا تزال عواقبها وتقاليدها المشوهة تحتفظ في منازعات اليوم وخصوماته بثمالة ضئيلة من حيوية تلفظ آخر أنفاسها، كما أن لها على تلك المنازعات سلطانًا يعود عليها بالتعقيد والاضطراب.

ابتدأت الحرب البونية الأولى في ٢٦٤ ق. م بسبب قراصنة مسينا، وتطورت إلى كفاح على امتلاك صقلية بأجمعها، عدا ممتلكات ملك سيراقوزة الإغريقي. وكان للقرطاجيين التفوق البحري في مبدأ الأمر، فكانت لهم سفائن حربية كبيرة لم يسمع حتى ذلك الحين بمثل حجمها، وهي الخماسيات؛ أي السفن ذات الصفوف الخمسة من المجاديف والكبش الضخم[1]. وكانت أعظم السفن في معركة سلاميس قبل ذلك بقرنين من الزمان هي المثلثات، وليس لها إلا ثلاثة صفوف. ولكن الرومان نصبوا أنفسهم بهمة خارقة على الرغم من قلة درايتهم بالأمور البحرية؛ للتفوق على ما ينتجه القرطاجيون من سفن، وكانوا يستخدمون بحارة من الإغريق في تسيير الأساطيل الجديدة التي أنشأوها، ولكي يعوضوا

([1]) الكبش نتوء برأس كبش ناشز من سفينة لإتلاف سفن الأعداء.

أنفسهم عما عليه العدو من تفوق الملاحة اخترعـوا طريقـة إمساك سفن الأعداء بالكبابيش (بالكلابات) واعتلاءها، فـإذا أقبل القرطاجيون لصك مجاديف الرومان بالكباش أو قطعها؛ تعلقت كبابيش ضخمة من الحديد بسـفنهم، وتـزاحم الجنـد الرومان إلى ظهورها زرافات، فهزم القرطاجيون في كل من مـيلاى (٢٦٠ ق. م) وإيكونوهـاس (٢٥٦ ق. م) هزيمـة ساحقة، ثم صدوا الرومان وحالوا بينهم وبين النزول علـى البر بالقرب من قرطاجنة، ولكنهم هزموا هزيمة منكرة قرب بالرمو؛ حيث خسروا مائة وأربعـة مـن الفيلـة، وأخـذها الرومان وجعلوها زينة لموكب نصر عظيم اخترق الفوروم، لم تر روما له من قبل نظيرا. ولكن الرومان عادوا بعد ذلك فهزموا مرتين، ثم جددوا قوتهم ثانية، وما لبثوا أن بذلوا آخر ما لديهم من جهد فهزمت آخر قوات قرطاجنة البحرية فـي معركة الجزائر الآيجاتية (٢٤١ ق. م)؛ ومـن ثـم طلبـت قرطاجنة الصلح، وتخلت للرومان عن صقلية بأكملها فيمـا عدا ممتلكات هيرون ملك سيراقوزة.

وحافظت كل من روما وقرطاجنة على ذلك الصلح اثنين وعشرين عاما؛ إذ كان لكل منهما من المشكلات الداخلية ما يشغله، فإن الغالة انحدروا جنوبا في إيطاليا مرة ثانية وهددوا روما (فحملها الهلع على تقديم القرابين البشرية للآلهة!!)، ثم دحروا وبدد شملهم في معركة تيلامون. وعندئذ تقدمت روما قدما إلى جبال الألب، بل تجاوزتها ومدت سـلطانها جنوبـا بحذاء ساحل البحر الأدرياتي حتى إلليريا، وكابدت قرطاجنة الأهوال مما كان بها من ثورات داخلية، ومما حـدث فـي قورسيقة وسردينية من فتن، على إنها لم تبلغ ما بلغته روما من قدرة على علاج الأمور. وأخيرا استولت رومـا علـى الجزيرتين وألحقتهما بها؛ وهو عمل عدواني لا يطاق.

وفي ذلك الأوان كانت إسبانيا حتى نهر إبرو شمالاً تابعـة لقرطاجنة؛ إذ حرم عليها الرومان تجاوز ذلـك الحـد، فـإذا عبرت قرطاجنة نهر الإبرو عد ذلك عمـلاً حربيـا معاديـا للرومان، وانتهى الأمر بأن أرغمت قرطاجنة في ٢١٨ ق. م إزاء اعتداءات جديدة للرومان، إلى عبور ذلك النهـر فعـلاً بقيادة قائد شاب اسمه هانيبال؛ وهو قائد من ألمع القواد علـى مر التاريخ كله. فسير عليها جيشه مخترقًا إسبانيا، وعبر جبال

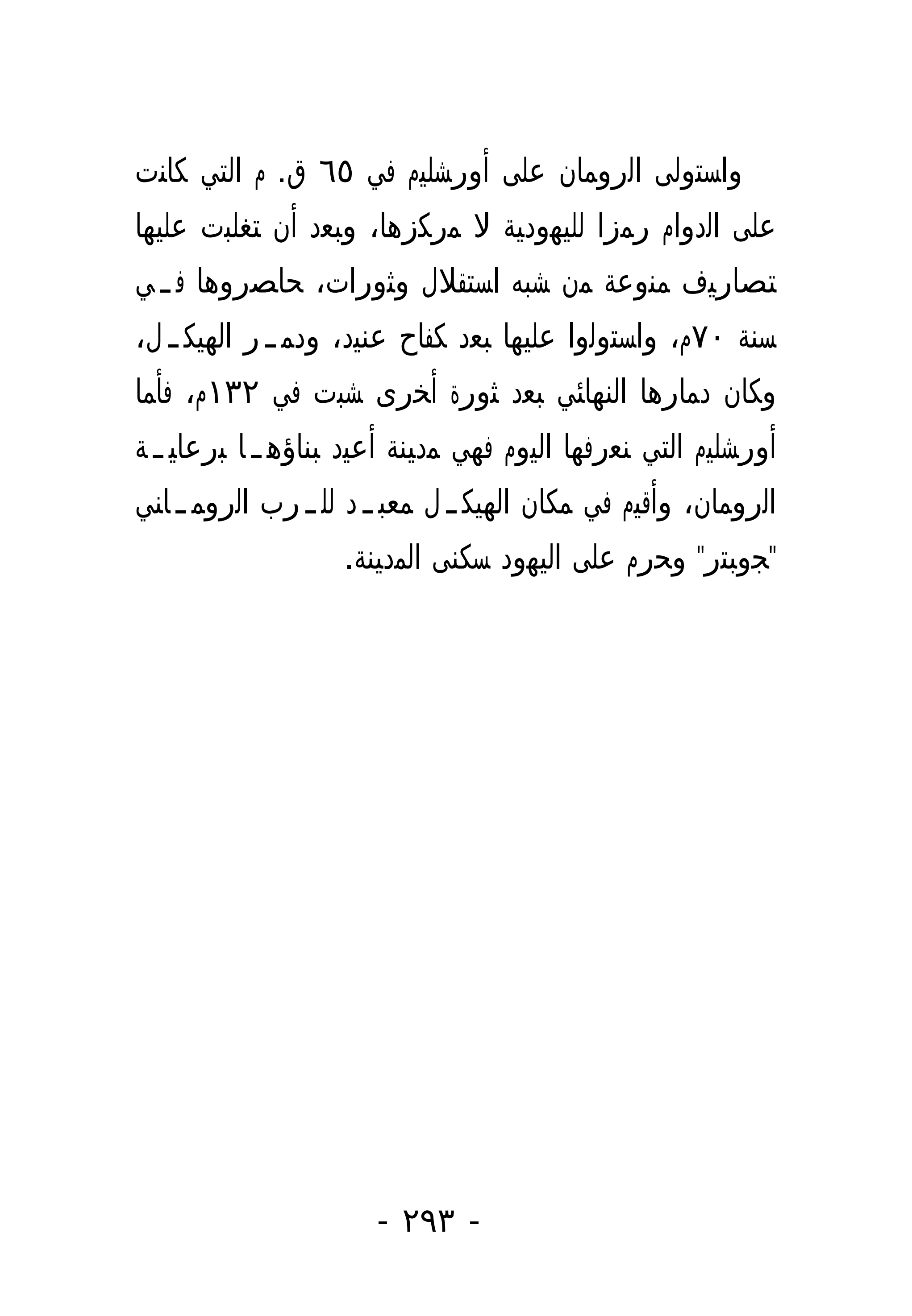
الألب إلى إيطاليا، وهناك أثار الغالة على الرومان، وواصل الحرب البونية الثانية في إيطاليا نفسها مدة خمسة عشر عاما. وأنزل بالرومان هزائم فادحة في معركتي بحيرة تراسيميني وكاناي، ولم يستطع أي جيش روماني طيلة حملته الإيطالية بأكملها أن يقف أمامه دون أن تحيق به الهزيمة. غير أن الرومان أنزلوا عند مرسيليا جيشًا قطع مواصلاته مع إسبانيا، وكانت تعوزه أدوات الحصار ومعداته، كما أنه لم يتمكن أبدا من الاستيلاء على روما. واضطر القرطاجيون آخر الأمر إزاء ثورة قام بها النوميديون في أرض الوطن؛ أن يرتدوا للدفاع عن مدينتهم الأصلية بإفريقية، وهنا عبر جيش روماني البحر إلى إفريقية، ولقي هانيبال أول هزيمة أصابته تحت أسوار المدينة في معركة زاما (٢٠٢ ق. م) على يد سيبيون الإفريقي الأكبر.

وكانت معركة زاما خاتمة الحرب البونية الثانية، واستسلمت قرطاجنة، وتنازلت لروما عن إسبانيا وعن أسطولها الحربي، ودفعت لها تعويضا هائلاً، ووافقت على تسليم هانيبال للرومان لينتقموا منه، لولا أن هانيبال نجا من قبضتهم وفر إلى آسيا؛ حيث تجرع السم ومات عندما أحس أنه موشك أن يقع في قبضة أعدائه الغلاظ الأكباد.

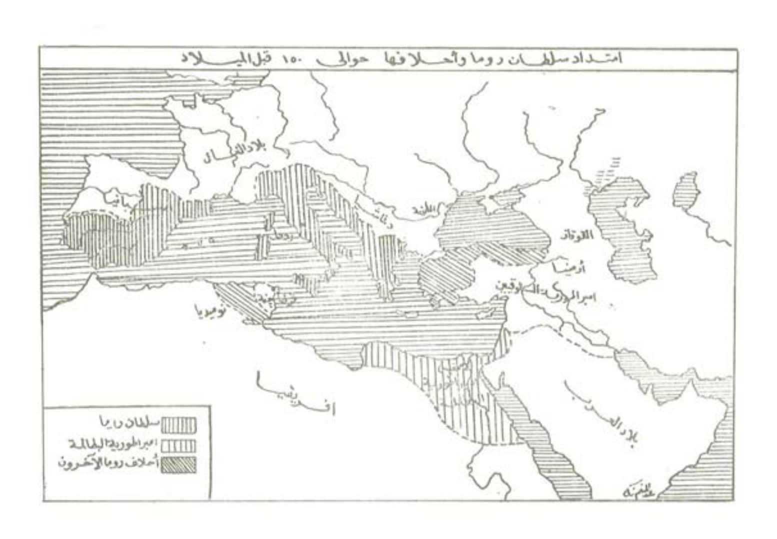
وانقضت ست وخمسون سنة ظلت روما ومدينة قرطاجنة الكسيرة الجناح تستظلان في أثنائها بالسلام. وراحت روما في نفس الوقت تبسط سلطانها على بلاد الإغريق المضطربة المنقسمة على نفسها، وتغزو آسيا الصغرى، وتهزم أنطيوخوس الثالث الملك السلوقي عند مدينة ماغنيسيا في ليديا، ثم جاء دور مصر، وكانت لا تزال تحت حكم البطالمة، كما جاء دور برجامة ومعظم الولايات الصغيرة بآسيا الصغرى، فحولتها روما إلى حلفاء لها، أو "دول محمية" كما قد نسميها اليوم.

وذلك في حين كانت قرطاجنة الذليلة الضعيفة قد أخذت تسترد في بطء شيئًا من رخائها السالف، فأثار ذلك عليها حقد الرومان ومخاوفهم، فهاجموها (١٤٩ ق. م) لأسباب تافهة مفتعلة إلى أقصى حد، فلم يكن منها إلا أن قاومتهم مقاومة عنيدة مريرة، وتحملت حصارا طويلاً، ثم فتحت عنوة (١٤٦ ق. م)، واستمر القتال – أو قل المذبحة - في الشوارع ستة أيام، وكان قتالاً دمويا بشعا، وعندما سلمت القلعة لم يكن على قيد الحياة من أهالي قرطاجنة البالغ عددهم ربع مليون سوى خمسين ألفًا تقريبا؛ فبيعوا بيع الرقيق، وأُحرقت المدينة، ودمرت تدميرا تاما، وسير المحراث في أنقاضها المسودة بالحريق، وبذرت فيها البذور ليكون ذلك شاهدا على محوها رسميا.

وبذلك انتهت الحرب البونية الثالثة، ولم يبـق مسـتمتعا بالحرية من الدول والمدن السامية التي ازدهرت في العـالم قبل ذلك بخمسة قرون إلا قطر صغير وحيد بقي تحت حكـم حكام من أهله؛ ذلك القطر هو يهوذا (جوديا)، التي حـررت نفسها قبل ذلك من أيدي السلوقيين، وكانت تحت حكم الأمراء المكابيين الوطنيين، وكانت التوراة قد تمت في ذلك الحـين، أو كادت، كما كانت تتطور آنذاك على أيديهم التقاليد المميزة للعالم اليهودي على ما نعرفه اليوم. وكان من الطبيعـي أن يلتمس القرطاجيون والفينيقيون وذوو قرباهم مـن الشـعوب المبعثرة في أرجاء العالم رابطة مشتركة بينهم، تتمثـل فـي ألسنتهم المتقاربة، وفي هذا الأدب الذي يبعث فـيهم الأمـل ويملؤهم بالشجاعة، وكانوا لا يزالون إلى حد كبير هم تجار العالم وأصحاب المصارف فيه؛ ذلك أن العالم السـامي لـم يذهب من الوجود، بل غلب عليه عالم آخر.

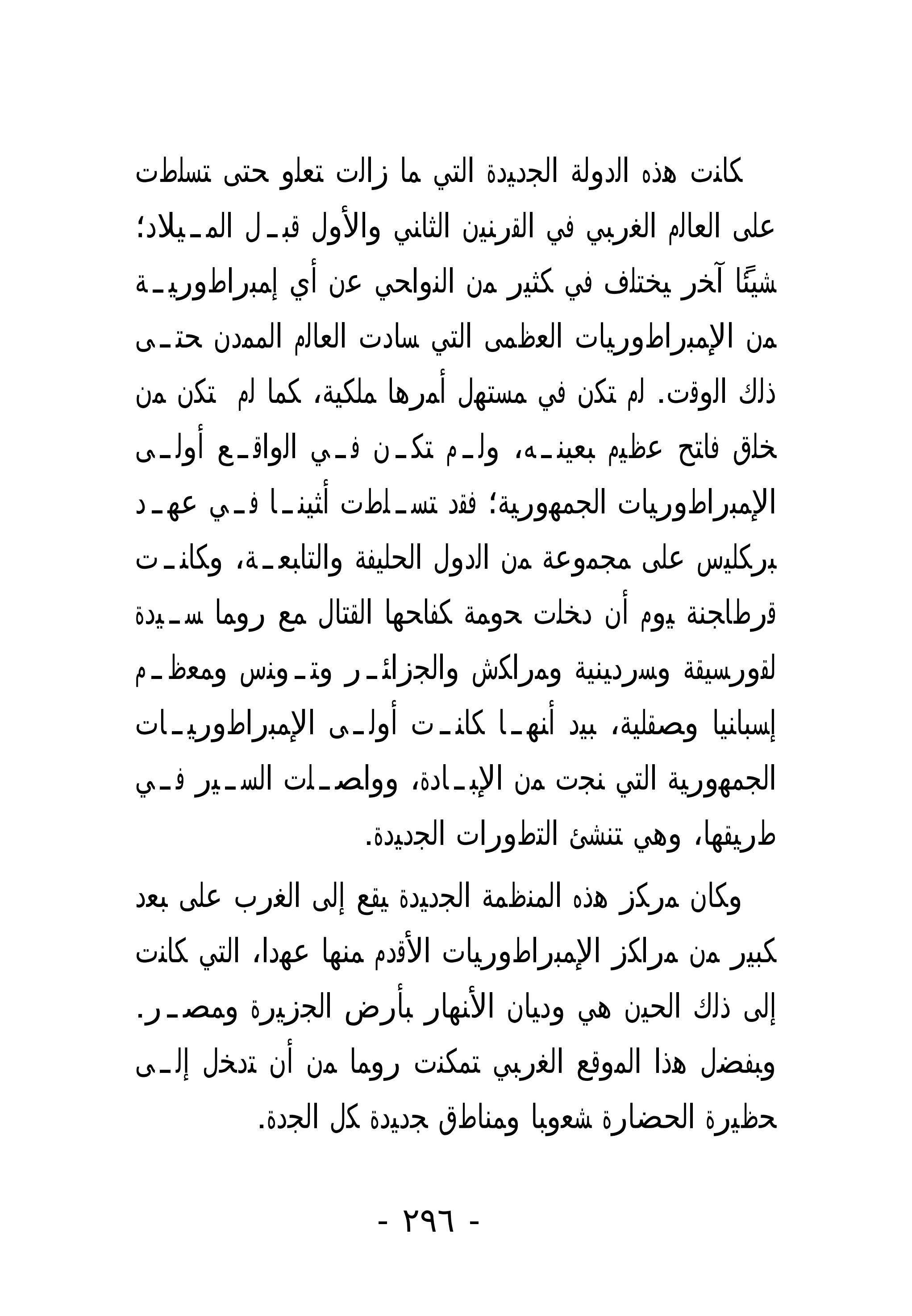


واستولى الرومان على أورشليم في ٦٥ ق. م التي كانت على الدوام رمزا لليهودية لا مركزها، وبعد أن تغلبت عليها تصاريف منوعة من شبه استقلال وثورات، حاصروها فـي سنة ٧٠م، واستولوا عليها بعد كفاح عنيد، ودمـر الهيكـل، وكان دمارها النهائي بعد ثورة أخرى شبت في ١٣٢م، فأما أورشليم التي نعرفها اليوم فهي مدينة أعيد بناؤهـا برعايـة الرومان، وأقيم في مكان الهيكـل معبـد للـرب الرومـاني "جوبتر" وحرم على اليهود سكنى المدينة.


امتداد سلطان روما وأحلافها حوالي ١٥٠ قبل الميلاد
بلاد الشمال
إسبانيا
نوميديا
أفريقيا
القوقاز
أرمينيا
امبراطورية السلوقيين
بلاد العرب
سلطان روما
امبراطورية البطالمة
أحلاف روما الآخرون

الفصل الثالث والثلاثون

نمو الإمبراطورية الرومانية



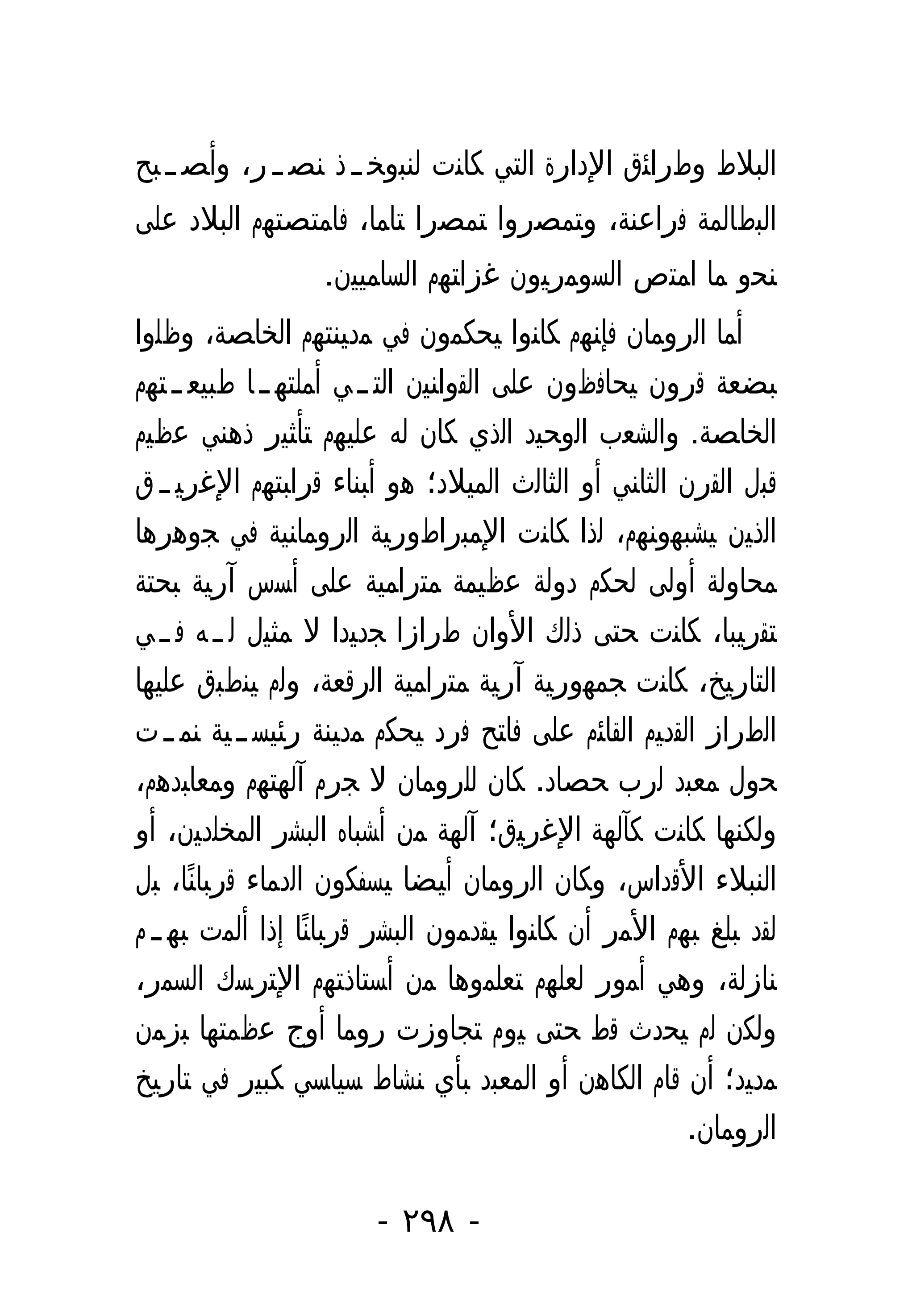
كانت هذه الدولة الجديدة التي ما زالت تعلو حتى تسلطت على العالم الغربي في القرنين الثاني والأول قبـل المـيلاد؛ شيئًا آخر يختلف في كثير من النواحي عن أي إمبراطوريـة من الإمبراطوريات العظمى التي سادت العالم الممدن حتـى ذلك الوقت. لم تكن في مستهل أمرها ملكية، كما لم تكن من خلق فاتح عظيم بعينـه، ولـم تكـن فـي الواقـع أولـى الإمبراطوريات الجمهورية؛ فقد تسـلطت أثينـا فـي عهـد بركليس على مجموعة من الدول الحليفة والتابعـة، وكانـت قرطاجنة يوم أن دخلت حومة كفاحها القتال مع روما سـيدة لقورسيقة وسردينية ومراكش والجزائـر وتـونس ومعظـم إسبانيا وصقلية، بيد أنهـا كانـت أولـى الإمبراطوريـات الجمهورية التي نجت من الإبـادة، وواصـلت السـير فـي طريقها، وهي تنشئ التطورات الجديدة.

وكان مركز هذه المنظمة الجديدة يقع إلى الغرب على بعد كبير من مراكز الإمبراطوريات الأقدم منها عهدا، التي كانت إلى ذلك الحين هي وديان الأنهار بأرض الجزيرة ومصـر. وبفضل هذا الموقع الغربي تمكنت روما من أن تدخل إلـى حظيرة الحضارة شعوبا ومناطق جديدة كل الجدة.

وامتد سلطان روما إلى مـراكش وإسـبانيا، وسـرعان ما امتد نحو بريطانيا في الشمال الغربي، مجتازا ما يسـمى اليوم باسم فرنسا وبلجيكا، وتوغل شمالاً بشرق إلى المجـر وجنوبي الروسيا، ولكنها من الناحية الأخرى لم تستطع أبـدا أن تحتفظ بمركزها في وسط آسيا أو بلاد فارس لشدة بعدهما عن مراكزها الإدارية.

ومن ثم فقد كانت تضم حشودا هائلة من شعوب نورديـة جديدة ناطقة بالآرية، وسرعان ما ضمت إليها جميع من في العالم من الشعب الإغريقي تقريبا، وكان اصطباغها بالصبغة الحامية والسامية أضعف كثيرا من أي إمبراطورية سالفة.

ظلت هذه الإمبراطورية الرومانية بضعة قـرون، دون أن تتردى في مهاوي السوابق والتقاليد الجامدة، التي سرعان مـا ابتلعت في جوفها الإمبراطوريات الفارسية والإغريقية؛ وإنمـا كانت في كل ذلك الزمان تواصل التطور والارتقاء؛ ذلـك أن حكام الميديين والفرس كانوا يصطبغون تماما بالصباغ البابلي في مدى جيل واحد تقريبا، فكانوا يتقلدون تاج ملك الملـوك، ويتقبلون معابد آلهته وكهاناتها؛ فسار الإسكندر وخلفاؤه فـي نفس ذلك السهل؛ طريق التمثل، واتخذ ملوك السلوقيين نفـس



البلاط وطرائق الإدارة التي كانت لنبوخـذ نصـر، وأصـبح البطالمة فراعنة، وتمصروا تمصرا تاما، فامتصتهم البلاد على نحو ما امتص السومريون غزاتهم الساميين.

أما الرومان فإنهم كانوا يحكمون في مدينتهم الخاصة، وظلوا بضعة قرون يحافظون على القوانين التـي أملتهـا طبيعـتهم الخاصة. والشعب الوحيد الذي كان له عليهم تأثير ذهني عظيم قبل القرن الثاني أو الثالث الميلاد؛ هو أبناء قرابتهم الإغريـق الذين يشبهونهم، لذا كانت الإمبراطورية الرومانية في جوهرها محاولة أولى لحكم دولة عظيمة مترامية على أسس آرية بحتة تقريبا، كانت حتى ذلك الأوان طرازا جديدا لا مثيل لـه فـي التاريخ، كانت جمهورية آرية مترامية الرقعة، ولم ينطبق عليها الطراز القديم القائم على فاتح فرد يحكم مدينة رئيسـية نمـت حول معبد لرب حصاد. كان للرومان لا جرم آلهتهم ومعابدهم، ولكنها كانت كآلهة الإغريق؛ آلهة من أشباه البشر المخلدين، أو النبلاء الأقداس، وكان الرومان أيضا يسفكون الدماء قربانًا، بل لقد بلغ بهم الأمر أن كانوا يقدمون البشر قربانًا إذا ألمت بهـم نازلة، وهي أمور لعلهم تعلموها من أستاذتهم الإترسك السمر، ولكن لم يحدث قط حتى يوم تجاوزت روما أوج عظمتها بزمن مديد؛ أن قام الكاهن أو المعبد بأي نشاط سياسي كبير في تاريخ الرومان.

كانت الإمبراطورية الرومانية جسما ناميا جديدا لم ترسم لنموه خطة. وتلفت الشعب الروماني وإذا هو يعمل من غير وعي منه تقريبا في تجربة إدارية هائلة، ليس في الإمكان أن تنعت بالتجربة الناجحة؛ إذ إن إمبراطوريتهم ترامت إلى الانهيار التام في النهاية، كما أنها كانت تغير شكلها وأسلوبها تغيرا هائلاً من قرن إلى قرن. كان التغير الذي يحدث بها في مائة عام أعظم مما كان يحصل في البنغال أو أرض الجزيرة أو مصر في ألف سنة. كانت دائمة التغير، ولم تصل قط إلى الثبات على حال.

فشلت التجربة بمعنى ما، كما أنها لا تزال بمعنى ما ناقصة غير مستكملة، ولا تزال أوروبا وأمريكا في يومنا هذا تحل ألغاز السياسة العالمية التي واجهها الشعب الروماني لأول مرة.

ومن الخير أن يتذكر دارس التاريخ التغيرات العظيمة التي ألمت، لا بالأمور السياسية وحدها، ولكن بالاجتماعية والأخلاقية التي استمرت طيلة فترة سيادة الرومان. وكثيرا ما يجنح بعض الناس إلى إظهار شيء من المبالغة حين يزعمون أن الحكم الروماني كان شيئًا متقن التكوين وطيد الأركان، وأنه كان حكما

حازما وكاملاً ونبيلاً وحاسما. هذا كتاب ماكولي المسمى "أناشيد روما القديمة Lays of Ancient Rome" S. P. Q. R[1]، لو أطلعت عليه لوجدت فيه كاتو الأسن، وأفـراد أسـرة سـبيون ويوليوس قيصر، ودقلديانوس، وقسطنطين الأكبـر، ومواكـب النصر والخطب، ومصارعات المجالدين، واستشهاد المسـيحيين مختلطة بعضها ببعض في صورة تمثل شـيئًا سـاميا وقاسـيا ومهيبا.

ولا بد لك من أن تحلل تلك الصورة وتخلـص أجزاءهـا بعضها من بعض؛ ذلك أنها قد جمعت اعتباطًا من مواضـع مختلفة، من عملية تغير أعمق من ذلك التغير الذي يفرق بين لندن في عهد وليم الفاتح وعهدنا الراهن.

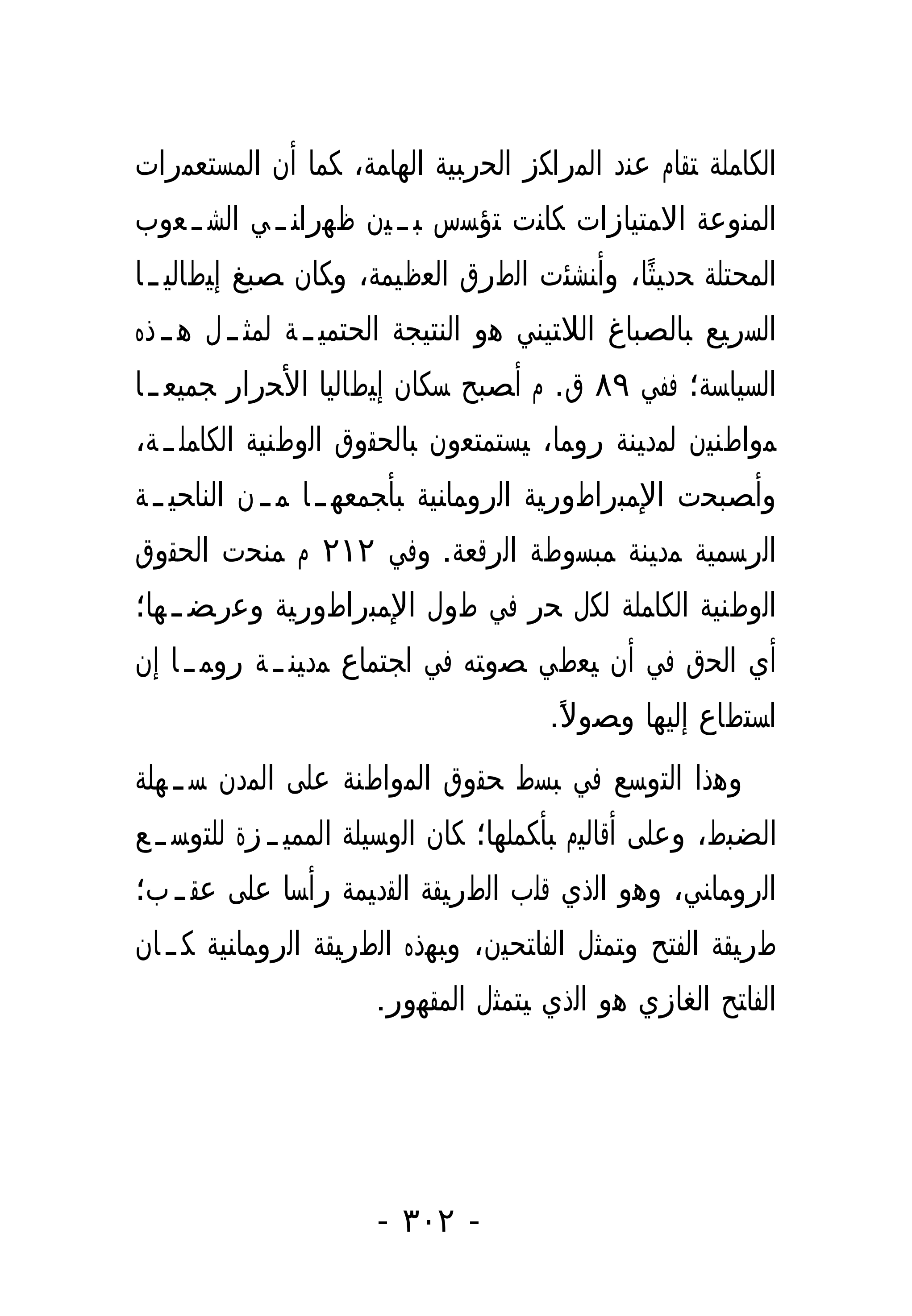
ورغبة في التيسير نقسم تاريخ روما إلى مراحل أربعـة، ابتدأت المرحلة الأولى منهـا بنهـب الغالـة لرومـا فـي ٣٩٠ ق. م، ودامت حتى نهاية الحرب البونية الأولـى فـي ٢٤٠ ق. م. وقد يجوز لنا أن نسمي هـذه المرحلـة باسـم مرحلة الجمهورية المتمثلة[2].

([1]) S. P. Q. R معناها مجلس شيوخ روما وشعبها.

([2]) المتمثلة: التمثل تحويل الشيء إلى مادة مماثلـة كالطعـام فـي الجسـم. والجمهورية هنا كانت تتمثل غيرها من الشعوب والدول. [المترجم]

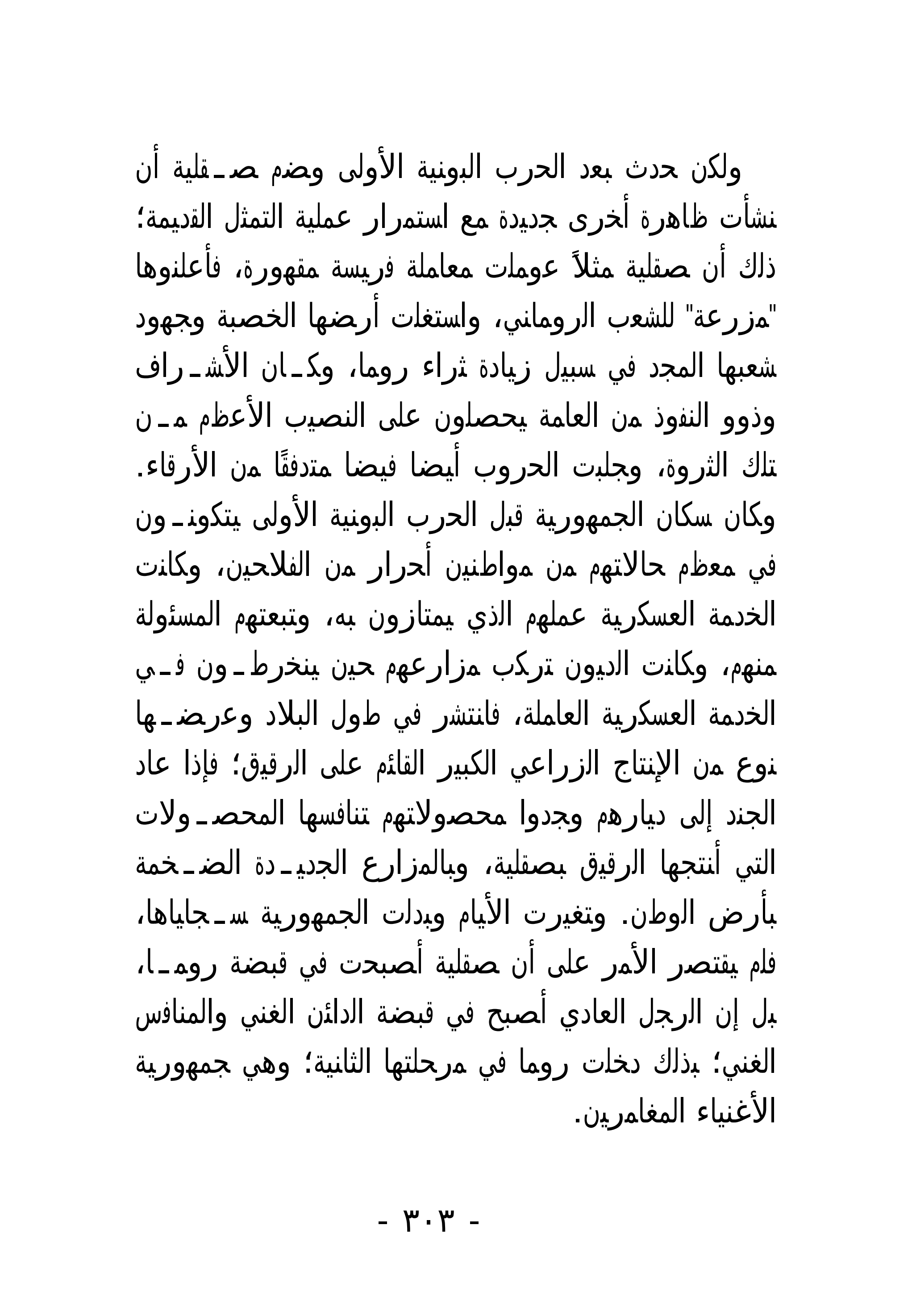
ولعلها كانت أروع مراحل التـاريخ الرومـاني وأشـدها تميزا. ففي أثنائها كانت المنازعات الطويلة المد بين البطارقة (الأشراف) والعامة تقترب من نهايتها، وزال خطر الإترسك ولم يكن هناك تفاوت عظيم في الثراء؛ فلا غنـى فـاحش، ولا فقر مدقع، وكان معظم الناس ينزعون إلى الحرص على المصلحة العامة.

كانت جمهورية كجمهورية البوير فـي جنـوب إفريقيـا قبل ١٩٠٠، أو كالولايات الشمالية في الاتحاد الأمريكي بين ١٨٠٠، ١٨٥٠؛ هي جمهورية فلاحين أحرار، وكانت روما في مستهل هذه المرحلة دويلة صغيرة لا تكاد مساحتها تبلـغ عشرين ميلاً مربعا، وكانت تقاتل ذوي قرباها مـن الـدول القوية الشكيمة المحيطة بها، وتحاول الائتلاف وإياهـا دون تدميرها، وتدرب شعبها في أثنـاء قـرون الفرقـة الأهليـة والشحناء على التراضي والتسـاهل؛ فـإن بعـض المـدن المنهزمة أصبحت رومانية تماما، لها نصيب من التصـويت في الحكومة، وأصبح بعضها يحكم نفسه بنفسه، مع السـماح لأفرادها بالاتجار في رومـا ومصـاهرة أهلهـا، وكانـت الحاميات المؤلفة من مواطنين يستمتعون بالحقوق الوطنيـة



الكاملة تقام عند المراكز الحربية الهامة، كما أن المستعمرات المنوعة الامتيازات كانت تؤسس بين ظهراني الشعوب المحتلة حديثًا، وأنشئت الطرق العظيمة، وكان صبغ إيطاليا السريع بالصباغ اللاتيني هو النتيجة الحتمية لمثل هذه السياسة؛ ففي ٨٩ ق. م أصبح سكان إيطاليا الأحرار جميعا مواطنين لمدينة روما، يستمتعون بالحقوق الوطنية الكاملة، وأصبحت الإمبراطورية الرومانية بأجمعها من الناحية الرسمية مدينة مبسوطة الرقعة. وفي ٢١٢ م منحت الحقوق الوطنية الكاملة لكل حر في طول الإمبراطورية وعرضها؛ أي الحق في أن يعطي صوته في اجتماع مدينة روما إن استطاع إليها وصولاً.

وهذا التوسع في بسط حقوق المواطنة على المدن سهلة الضبط، وعلى أقاليم بأكملها؛ كان الوسيلة المميزة للتوسع الروماني، وهو الذي قلب الطريقة القديمة رأسا على عقب؛ طريقة الفتح وتمثل الفاتحين، وبهذه الطريقة الرومانية كان الفاتح الغازي هو الذي يتمثل المقهور.



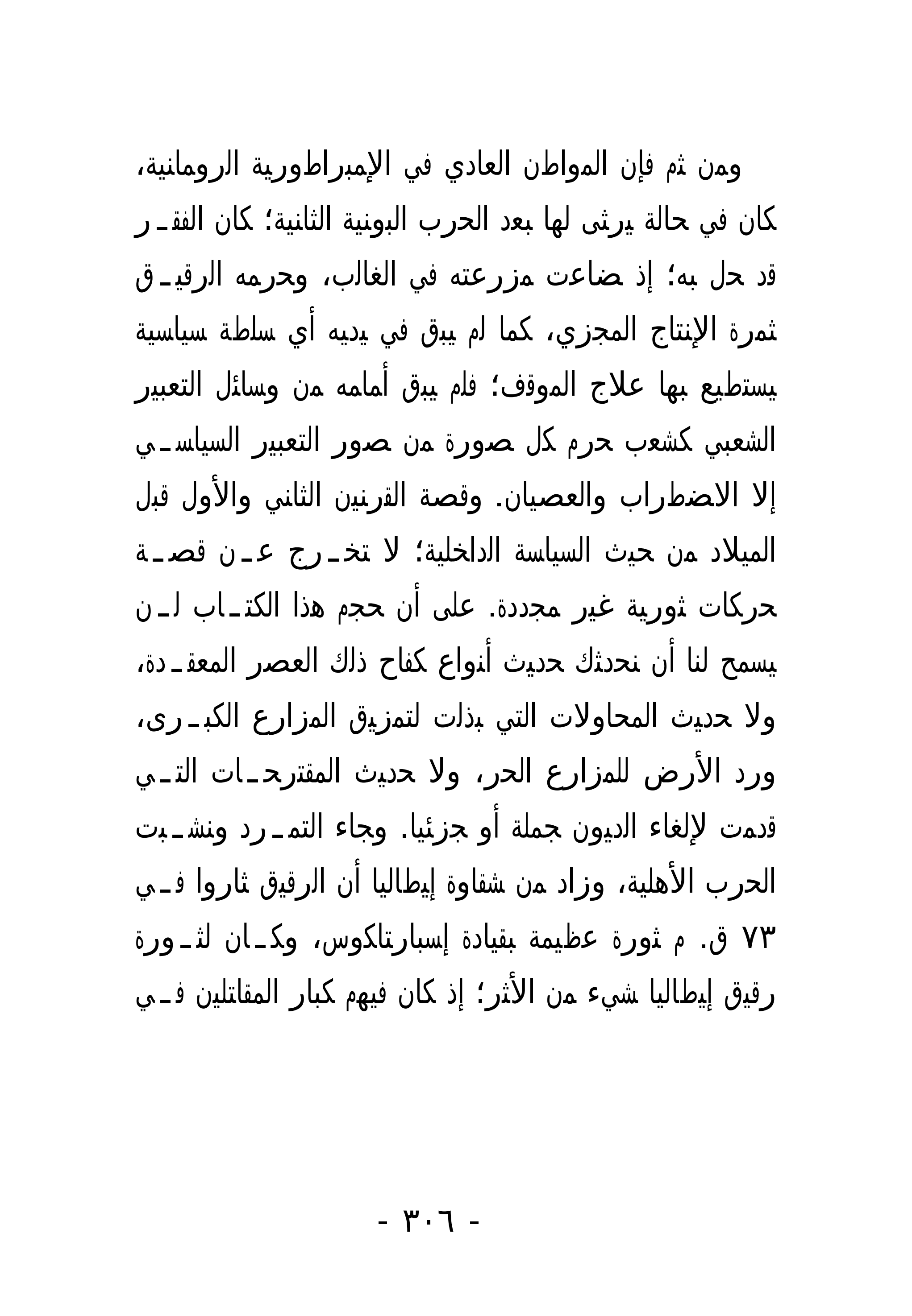
ولكن حدث بعد الحرب البونية الأولى وضم صـقلية أن نشأت ظاهرة أخرى جديدة مع استمرار عملية التمثل القديمة؛ ذلك أن صقلية مثلاً عومات معاملة فريسة مقهورة، فأعلنوها "مزرعة" للشعب الروماني، واستغلت أرضها الخصبة وجهود شعبها المجد في سبيل زيادة ثراء روما، وكـان الأشـراف وذوو النفوذ من العامة يحصلون على النصيب الأعظم مـن تلك الثروة، وجلبت الحروب أيضا فيضا متدفقًا من الأرقاء. وكان سكان الجمهورية قبل الحرب البونية الأولى يتكونـون في معظم حالاتهم من مواطنين أحرار من الفلاحين، وكانت الخدمة العسكرية عملهم الذي يمتازون به، وتبعتهم المسئولة منهم، وكانت الديون تركب مزارعهم حين ينخرطـون فـي الخدمة العسكرية العاملة، فانتشر في طول البلاد وعرضـها نوع من الإنتاج الزراعي الكبير القائم على الرقيق؛ فإذا عاد الجند إلى ديارهم وجدوا محصولاتهم تنافسها المحصـولات التي أنتجها الرقيق بصقلية، وبالمزارع الجديـدة الضـخمة بأرض الوطن. وتغيرت الأيام وبدلت الجمهورية سـجاياها، فلم يقتصر الأمر على أن صقلية أصبحت في قبضة رومـا، بل إن الرجل العادي أصبح في قبضة الدائن الغني والمنافس الغني؛ بذلك دخلت روما في مرحلتها الثانية؛ وهي جمهورية الأغنياء المغامرين.

وظل الجند الرومان المزارعون مائتي سنة يكافحون من أجل الحرية والاشتراك في حكم دولتهم، بعد أن ظلوا مائـة عام ينعمون بامتيازاتهم. ولكن الحرب البونية الأولى بـددت قواهم، وسلبتهم كل ما كانوا غنموه. وتبخرت أيضـا قيمـة امتيازاتهم الانتخابية. وكانت في الجمهورية الرومانية هيئتان حاكمتان؛ الأولى منهما والأكثر أهمية هي مجلـس الشـيوخ (السناتو)، وكان هذا المجلس في الأصل هيئة من الأشراف، ثم غدا مكونًا من الرجال البارزين من جميع الطبقات، وكان يدعوهم إلى جلساته في البداية موظفون ذوو نفوذ وسـلطان؛ هم القناصل والرقباء[1] (Censors)، وإذا هو يصبح كمجلس اللوردات البريطاني جمعية تضم كبار أصـحاب الأراضـي والسياسيين البارزين، وكبار رجال الأعمال ومن إليهم. كان أقرب إلى مجلس اللوردات البريطاني منه إلى مجلس الشيوخ الأمريكي، وظل ثلاثة قرون بعد الحروب البونية وهو مركز الفكر الروماني السياسي وقبلته. وكانت الهيئة الثانيـة هـي الجمعية الشعبية، التي كان مفروضا أن تضم مواطني رومـا

([1]) كان لروما رقيبان مهمتهما تحديد الحقوق المدنية للأفراد والمحافظة على الآداب العامة.

جميعا، وكان ذلك ممكنًا يوم كانت رومـا دويلـة مسـاحتها عشرون ميلاً مربعا، أما وقد بسطت حقوق روما المدنية إلى ما وراء حدوها؛ فقـد أصـبحت هيئـة عقيمـة، وأخـذت اجتماعاتها التي كان يعلن افتتاحها بالنفخ في الأبـواق مـن الكابيتول وأسوار المدينة؛ تصبح من يوم إلى آخر اجتماعـا من المأجورين السياسيين ورعاع المدينة، ومن قبـل كانـت الجمعية الشعبية في القرن الرابع ق. م رادعا قويـا يكـبح مجلس الشيوخ، وكانت خير مـن يمثـل مطالـب الشـعب وحقوقه، ولكنها استحالت عند نهاية الحروب البونية إلى طلل دارس لا حول له لرقابة شعبية محطمة؛ فلم يبق هنـاك أي رادع قانوني فعال يكبح تصرفات كبار الرجال.

ولم يحدث قط أن أدخل في الجمهورية الرومانية أي شيء من قبل الحكومة التمثيلية النيابية، ولم يفكر أحد البتـة فـي انتخاب مندوبين يمثلون إرادة المواطنين. وهذه مسألة هامـة جدا ينبغي للباحث أن يدركها؛ فلـم يحـدث قـط أن بلغـت الجمعية الشعبية مستوى مجلس النواب الأمريكي أو مجلـس العموم البريطاني؛ كانت من الناحية النظرية هيئة المواطنين مجتمعين، ولكنها من الناحية العملية تعطلت تمامـا عـن أن تكون شيئًا يستحق الاعتبار.

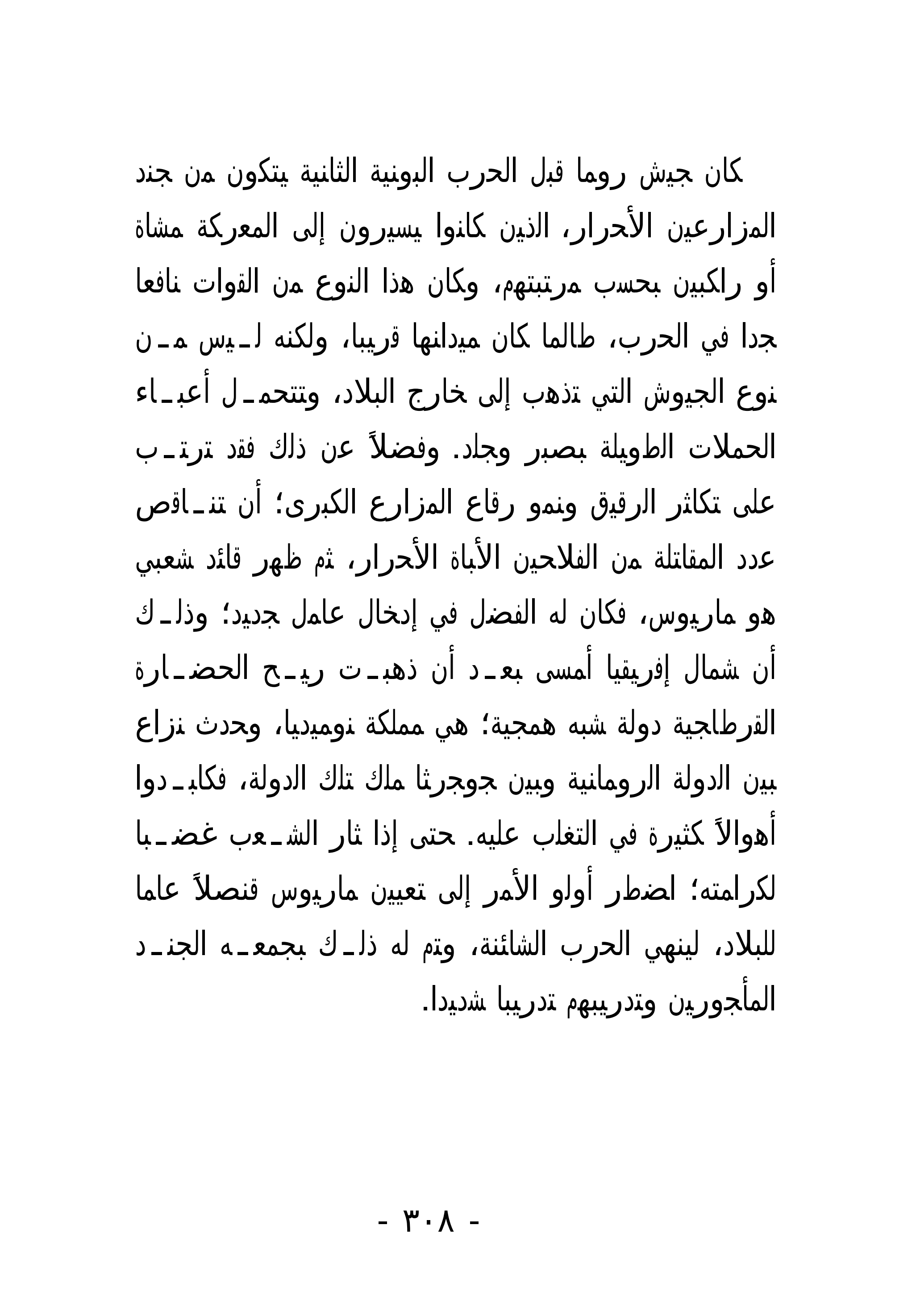


ومن ثم فإن المواطن العادي في الإمبراطورية الرومانية، كان في حالة يرثى لها بعد الحرب البونية الثانية؛ كان الفقـر قد حل به؛ إذ ضاعت مزرعته في الغالب، وحرمه الرقيـق ثمرة الإنتاج المجزي، كما لم يبق في يديه أي سلطة سياسية يستطيع بها علاج الموقف؛ فلم يبق أمامه من وسائل التعبير الشعبي كشعب حرم كل صورة من صور التعبير السياسـي إلا الاضطراب والعصيان. وقصة القرنين الثاني والأول قبل الميلاد من حيث السياسة الداخلية؛ لا تخـرج عـن قصـة حركات ثورية غير مجددة. على أن حجم هذا الكتـاب لـن يسمح لنا أن نحدثك حديث أنواع كفاح ذلك العصر المعقـدة، ولا حديث المحاولات التي بذلت لتمزيق المزارع الكبـرى، ورد الأرض للمزارع الحر، ولا حديث المقترحـات التـي قدمت لإلغاء الديون جملة أو جزئيا. وجاء التمـرد ونشـبت الحرب الأهلية، وزاد من شقاوة إيطاليا أن الرقيق ثاروا فـي ٧٣ ق. م ثورة عظيمة بقيادة إسبارتاكوس، وكـان لثـورة رقيق إيطاليا شيء من الأثر؛ إذ كان فيهم كبار المقاتلين فـي

حفلات المجالدين[1]. وظل إسبارتاكوس صامدا سنتين فـي فوهة بركان فيزوف، الذي كان خامدا في ذلك الـزمن، ثـم هزم الثائرون وأخمد العصيان بقسوة جنونية، فصـلب سـتة آلاف من أتباع إسبارتاكوس على جانبي الطريق الآبيـاني، وهو الطريق العظيم الذي يمتد من رومـا نحـو الجنـوب (٧١ ق. م).

ولم يدر بخلد الرجل العادي قط أن يقاوم القوى التي كانت تخضعه وتحط من قدره، بيد أن الأغنياء الكبار الذين تغلبوا عليه كانوا حتى بعد أن أنزلوا به الهزيمة يجهزون قوة جديدة في العالم الروماني، ما لبثت أن تغلبت في النهايـة عليهمـا جميعا؛ هي قوة الجيش.

([1]) المجالدون (Gladiators): المصارعون في العهد الروماني، وكانوا يقاتلون بالسلاح رجالاً مثلهم أو وحوشًا ضارية. وهـي رياضـة وحشية كانت تروق الرومان. ومكان هذه المصارعة كان يسـمى بالمجتلد (Arena) [المترجم]



كان جيش روما قبل الحرب البونية الثانية يتكون من جند المزارعين الأحرار، الذين كانوا يسيرون إلى المعركة مشاة أو راكبين بحسب مرتبتهم، وكان هذا النوع من القوات نافعا جدا في الحرب، طالما كان ميدانها قريبا، ولكنه لـيس مـن نوع الجيوش التي تذهب إلى خارج البلاد، وتتحمـل أعبـاء الحملات الطويلة بصبر وجلد. وفضلاً عن ذلك فقد ترتـب على تكاثر الرقيق ونمو رقاع المزارع الكبرى؛ أن تنـاقص عدد المقاتلة من الفلاحين الأباة الأحرار، ثم ظهر قائد شعبي هو ماريوس، فكان له الفضل في إدخال عامل جديد؛ وذلـك أن شمال إفريقيا أمسى بعـد أن ذهبـت ريـح الحضـارة القرطاجية دولة شبه همجية؛ هي مملكة نوميديا، وحدث نزاع بين الدولة الرومانية وبين جوجرثا ملك تلك الدولة، فكابـدوا أهوالاً كثيرة في التغلب عليه. حتى إذا ثار الشـعب غضـبا لكرامته؛ اضطر أولو الأمر إلى تعيين ماريوس قنصلاً عاما للبلاد، لينهي الحرب الشائنة، وتم له ذلـك بجمعـه الجنـد المأجورين وتدريبهم تدريبا شديدا.

وأحضر جوجرثا إلى روما مكبلاً بالسلاسل(١٠٦ ق. م).
فأما ماريوس فإنه تشبث بمنصبه كقنصل بعد أن انتهت مدته، واستمسك به استمساكًا غير شرعي، تظاهره كتائبه المنشـأة حديثًا؛ ذلك أن روما لم تكن بها قوة تستطيع صده ومقاومته.

وبظهور ماريوس ابتدأ الدور الثالث في تطـور الدولـة الرومانية؛ وهي جمهورية القواد العسكريين، فالآن ابتـدأت مرحلة كان فيها جنود الكتائب المأجورين يقاتلون في سـبيل السيطرة على العالم الروماني، وثار علـى مـاريوس قائـد أرستقراطي هو سلا، الذي كان يعمل تحت إمرته بإفريقيـا، وقام كل منهما بدوره يعمل السـيف بشـدة فـي خصـومه السياسيين، فكان الرجال يحرمـون مـن حمايـة القـانون ويعدمون بالألف، كما تباع مزارعهم، وبعد المنافسة الدموية التي اضطرمت بين هذين الرجلين، وبعد الرعب الذي مـلأ النفوس من جراء عصيان إسبارتاكوس؛ جاء طور كان فيـه لوكولوس وبومبي الأكبر وكراسوس ويوليوس قيصر أمراء على الجيوش، ومتسلطين على مقاليد الشـئون، وقـد هـزم إسبارتاكوس على يد كراسوس. أما لوكولوس فإنه فتح آسـيا الصغرى وتوغل حتى أرمينية، ثم تقاعـد متمتعـا بثـراء

عريض، في حين أن كراسوس سار قدما وغزا بلاد فارس، ثم هزمه البارثيون (الأشغانيون) وقتلوه. وبعد منافسة طويلة انهزم بومبي أمام يوليوس قيصر (٤٨ ق. م)، ثم قتل بمصر تاركًا يوليوس قيصر وحده سيدا على العالم الروماني.

وشخصية يوليوس قيصر شخصية أثـارت فـي الخيـال الإنساني هزة أضاعت كل أسباب التناسب بينها وبين قيمتها أو أبعادها الحقيقية؛ فلقد أصبح رمزا، وعنـدي أن أهميتـه تنحصر بوجه خاص في كونه النذير الذي يؤذن بالانتقال من طور المغامرين العسكريين إلى بداية المرحلة الرابعة للتوسع الروماني؛ وهي الإمبراطورية الأولى، ذلك أن حدود الدولـة الرومانية كانت تتقدم طوال ذلك الزمن نحو الخارج، علـى الرغم من حدوث أعنف الاضطرابات الاقتصادية والسياسية، وعلى الرغم من الحروب الأهلية والانحـلال الاجتمـاعي. وما زالت تلك الحدود تزحف نحو الخارج حتى بلغت أقصى حد لها حوالي ١٠٠ ميلادية.

أجل حدث للحدود شيء من الانكماش في أثنـاء فتـرات الشك والتخوف التي رانت على البلاد في الحرب البونيـة، كما كان هناك هبوط ظاهر في الهمة في المدة التي سـبقت إعادة تنظيم الجيش علـى يـد مـاريوس، وكانـت ثـورة إسبارتاكوس إمارة آذنت بدور ثالث، وقد شاد يوليوس قيصر صيته الطيب كقائد حربي في بلاد الغالة، وهي تسـمى الآن فرنسا وبلجيكا، وكانت أهم القبائل التي تسكن ذلـك القطـر تنتمي إلى نفس الشعب الكلتي الذي كان ينتمي إليـه الغالـة الذين احتلوا شمال إيطاليا ردحا من الزمن، والذين أغـاروا فيما بعد على آسيا الصغرى واسـتقروا فيهـا تحـت اسـم الغلاطيين. صد قيصر عن بلاد الغالة غارة قام بها الجرمان، ثم ضم القطر كله إلى الإمبراطورية، كما أنه عبر مضـيق دوفر إلى بريطانيا مرتين (٥٥ و٥٤ ق.م)، غيـر أن فتحـه لتلك البلاد لم يدم طويلاً، وفي نفس الوقت كان بومبي الأكبر يحكم الروابط بين أجزاء الفتوحات الرومانية التي بلغت فـي الشرق بحر قزوين.

وفي ذلك الوقت (أي منتصف القـرن الأول ق. م) كـان مجلس الشيوخ الروماني لا يـزال هـو المركـز الأسـمى للحكومة الرومانية، وهو الذي يعين القناصل وغيـرهم مـن الموظفين، ويمنح السلطات وما شاكل ذلك. وكانت طائفة من رجال السياسة يبرز فيها اسم شيشرون تكافح من أجل صيانة التقاليد العظيمة لروما الجمهورية، وللاحتفاظ لها بـالاحترام وهيبة القوانين، بيد أن بواعث المواطنة وروحها كانـت قـد ولت من إيطاليا منذ ضيع الفلاحون الأحرار وتفرقوا بـددا؛ فقد استحالت البلاد الآن إلى أرض رقيق ورجـال عضـهم الفقر بنابه، حرموا نعمة الفهم والرغبة في الحرية، ولم يكن ثمة شيء يناصر هـؤلاء الزعمـاء الجمهـوريين بمجلـس الشيوخ، بينما كانت الكتائب تحتشـد مـن وراء المغـامرين الكبار الذين كان المجلس يخشى بأسهم ويبغـي إخضـاعهم، وكان كراسوس وبومبي وقيصر يتقاسمون فيما بينهم حكـم الإمبراطورية متخطين السناتو في ذلك (وهم الحكومة الثلاثة الأولى). وعندما قتل الأشغانيون كراسوس بعيد ذلك بمنطقة كارهاي النائية؛ دب الخلاف بين بومبي وقيصـر، فانتصـر بومبي للمبادئ الجمهورية، وصدرت القوانين بمحاكمة قيصر على ما ارتكب من خرق للقـانون، وعلـى عـدم إطاعتـه لمراسيم مجلس الشيوخ.

ولم يكن القانون يبيح لأي قائد أن يتجاوز بجنـده دائـرة حدود قيادته، وكان الحد الفاصل بين منطقة قيـادة قيصـر وبين إيطاليا هو نهر الربيكون (بـإقليم توسـكاني). وفـي ٤٩ ق. م عبر قيصر نهر الروبيكون قـائلاً: "الآن رميـت القداح وسبق السيف العذل"، ثم زحف بجيشه علـى بـومبي وروما.

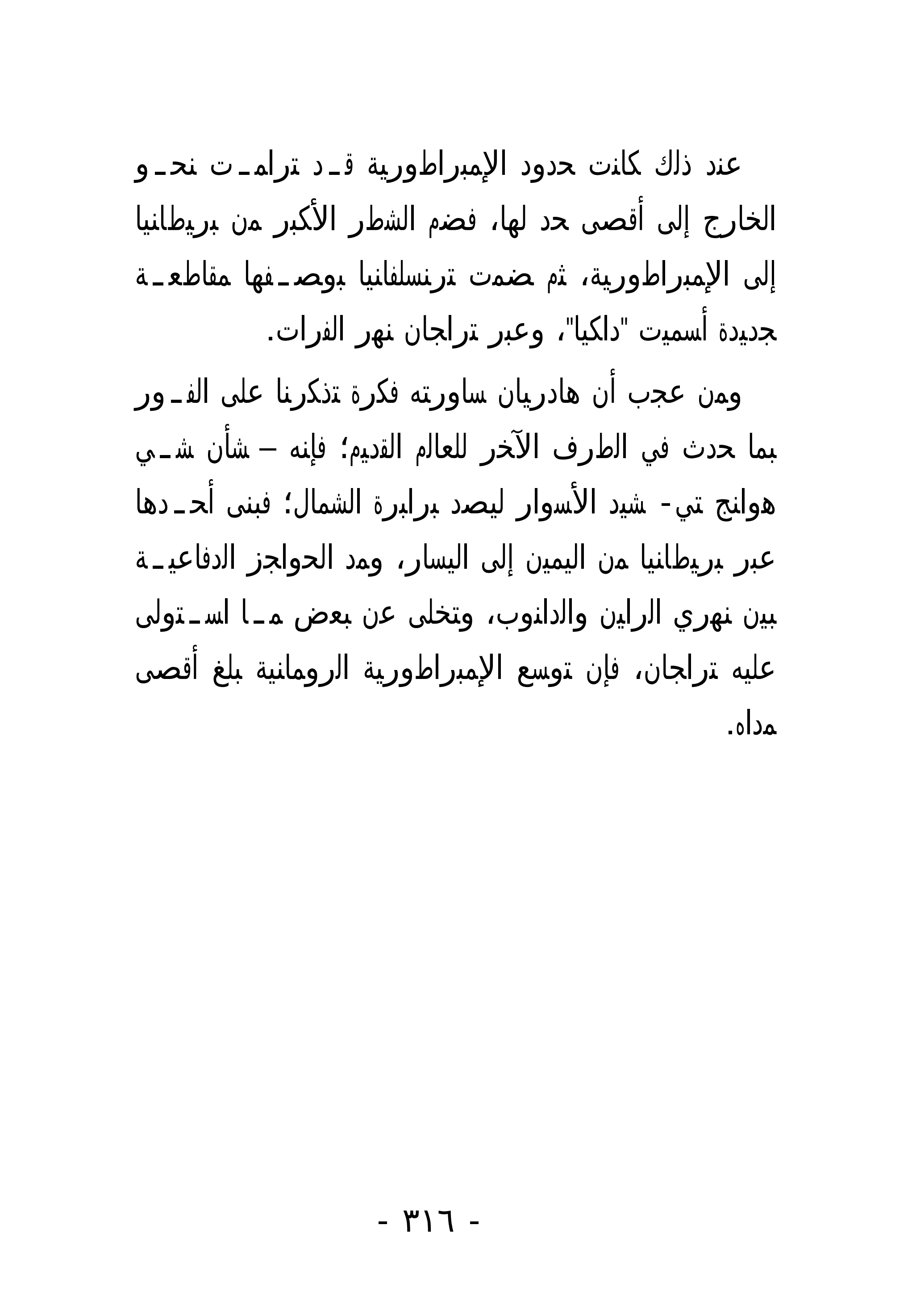
وقد جرت عادة روما في الماضي أن تنتخب في الفترات العسكرية العصبية "دكتاتورا" له سلطات غير محدودة تقريبا ليتولى الحكم فيها في أثناء الأزمة. وبعد أن قضـى قيصـر على بومبي عين دكتاتورا لمدة عشر سنوات أولاً ثم مـدى الحياة في ٤٥ ق. م. والواقع إنه جعل عاهلاً للإمبراطوريـة مدى الحياة، ثم دارت الأحاديث في شأن الملكية والملـوك؛ وهي كلمة بغضت إلى الرومان منذ طرد الإترسك قبل ذلـك بخمسة قرون، ورفض قيصر أن يكون ملكًا، بيد أنـه اتخـذ العرش والصولجان.

وكان قيصر قد واصل زحفه إلى مصـر بعـد هزيمـة بومبي، وأخذ يطارح كليوباترة الغرام، وهي آخر البطالمـة، وملكة مصر الربة، ويلوح أنها لعبت برأسه تمامـا، وعـاد قيصر إلى روما حاملاً معه فكرة "الملك المؤله" المصـرية. وشاهد ذلك أن تمثاله أقيم في أحد المعابـد، وعليـه عبـارة نصها: "إلى الإله الذي لا يقهر". ولآخر مرة اندلع من الروح الجمهورية المحتضرة بروما لهيب احتجاج أخيـر، وطعـن قيصر بالخناجر حتى قضى نحبه في مجلس الشيوخ تحـت أقدام تمثال منافسه المصروع بومبي الكبير.

انقضت ثلاث عشرة سنة أخرى، استمر فيها هذا الصراع بين الشخصيات الطامحة، وظهرت هيئة ثلاثية أخرى مكونة من لبيدوس ومارك أنطونيو وأوكتافيوس قيصر، وهو ابـن أخي يوليوس قيصر، وأخذ أوكتافيوس كعمه الولايات الغربية الأشد فقرا والأقوى شكيمة، والتي كانت تجند منهـا أحسـن الكتائب، وتمكن في ٣١ ق. م من هزيمة مـارك أنطونيـو منافسه الخطر الوحيد في معركة أكتيوم البحرية، وبذلك جعل من نفسه السيد الأوحد للعالم الروماني.

على أن أوكتافيوس كان رجلاً من طينة أخـرى مخالفـة تماما ليوليوس قيصر، فلم يخـامره أي حنـين طـائش لأن يصبح إلها أو ملكًا. ولم تكن له ملكة معشوقة يريد أن يبهرها بضيائه، فأعاد الحرية لمجلس الشيوخ ولشعب روما، وأبـى أن يصبح دكتاتورا، وغلب الشكر على السناتو فأسـلم إليـه مقابل ذلك جوهر السلطان بدلاً من صورته الشكلية. أجل لم يلقبه حقًا بالملك، بل أطلـق عليـه لقـب "الأميـر" ولقبتـه بـ "أوغسطوس"، ثم أصبح لقبه بعد ذلك أوغسطوس قيصر أول أباطرة الرومان (٢٧ ق. م إلى ١٤ م).

وخلفه تيبريوس قيصـر (١٤م – ٣٧م)، وأعقـب هـذا آخرون، هم كاليجولا وكلوديوس ونيرون، وهكذا حتى جـاء تراجان (٩٨م)، وهادريان (١١٧م)، وأنطونيـوس بيـوس (١٣٨م)، وماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠م)، وهم جميعا أباطرة كتائب، فالجند هم الذين نصبوهم، والجند هـم الـذين قضوا على بعضهم، وأخذت سلطة مجلس الشـيوخ تـتقاص شيئًا فشيئًا وتتوارى من التـاريخ الرومـاني، بينمـا جعـل الإمبراطور وموظفوه الإداريون يحلون محله.

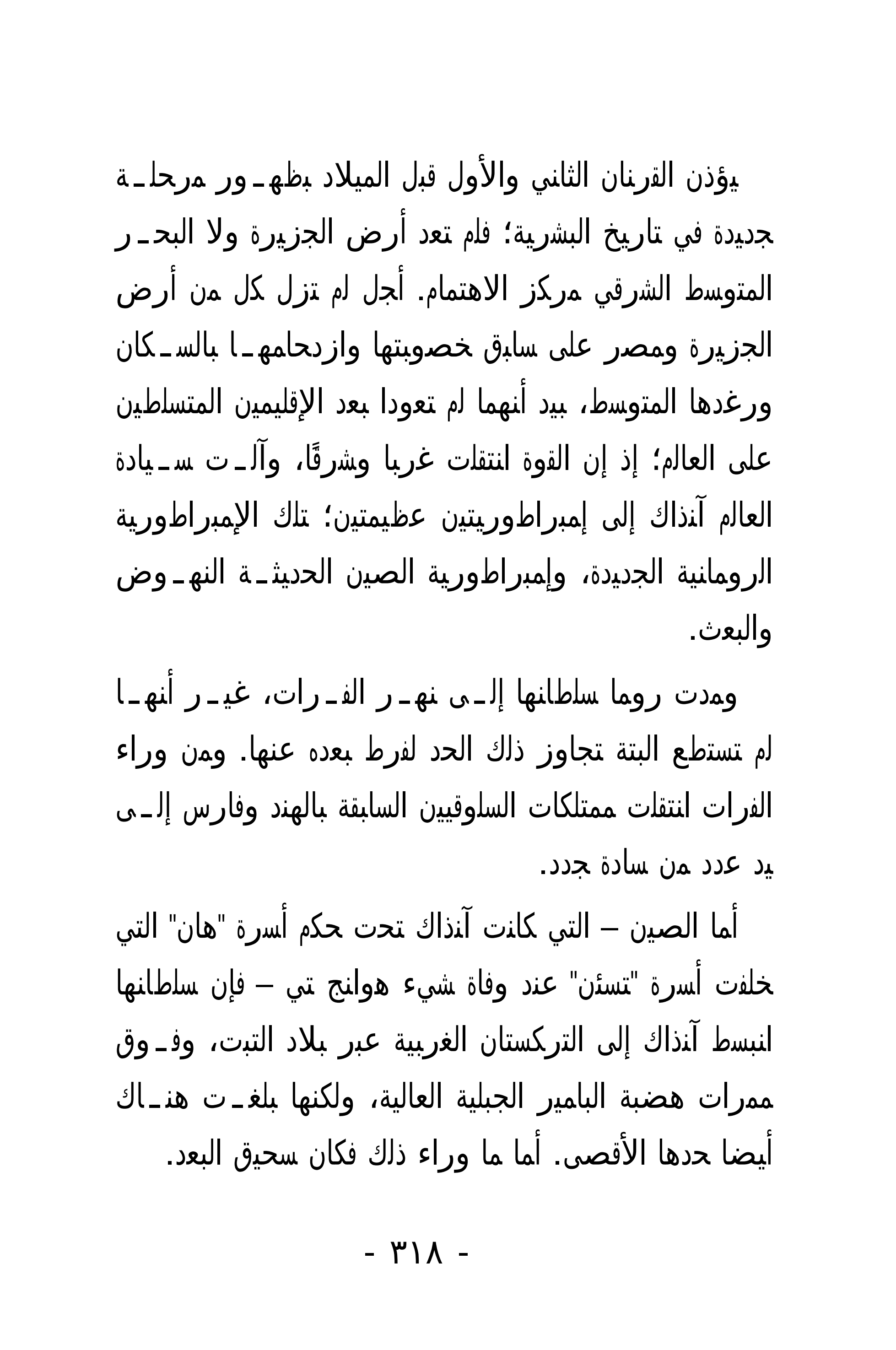


عند ذلك كانت حدود الإمبراطورية قـد ترامـت نحـو الخارج إلى أقصى حد لها، فضم الشطر الأكبر من بريطانيا إلى الإمبراطورية، ثم ضمت ترنسلفانيا بوصـفها مقاطعـة جديدة أسميت "داكيا"، وعبر تراجان نهر الفرات.

ومن عجب أن هادريان ساورته فكرة تذكرنا على الفـور بما حدث في الطرف الآخر للعالم القديم؛ فإنه – شأن شـي هوانج تي- شيد الأسوار ليصد برابرة الشمال؛ فبنى أحـدها عبر بريطانيا من اليمين إلى اليسار، ومد الحواجز الدفاعيـة بين نهري الراين والدانوب، وتخلى عن بعض مـا اسـتولى عليه تراجان، فإن توسع الإمبراطورية الرومانية بلغ أقصى مداه.

الفصل الرابع والثلاثون

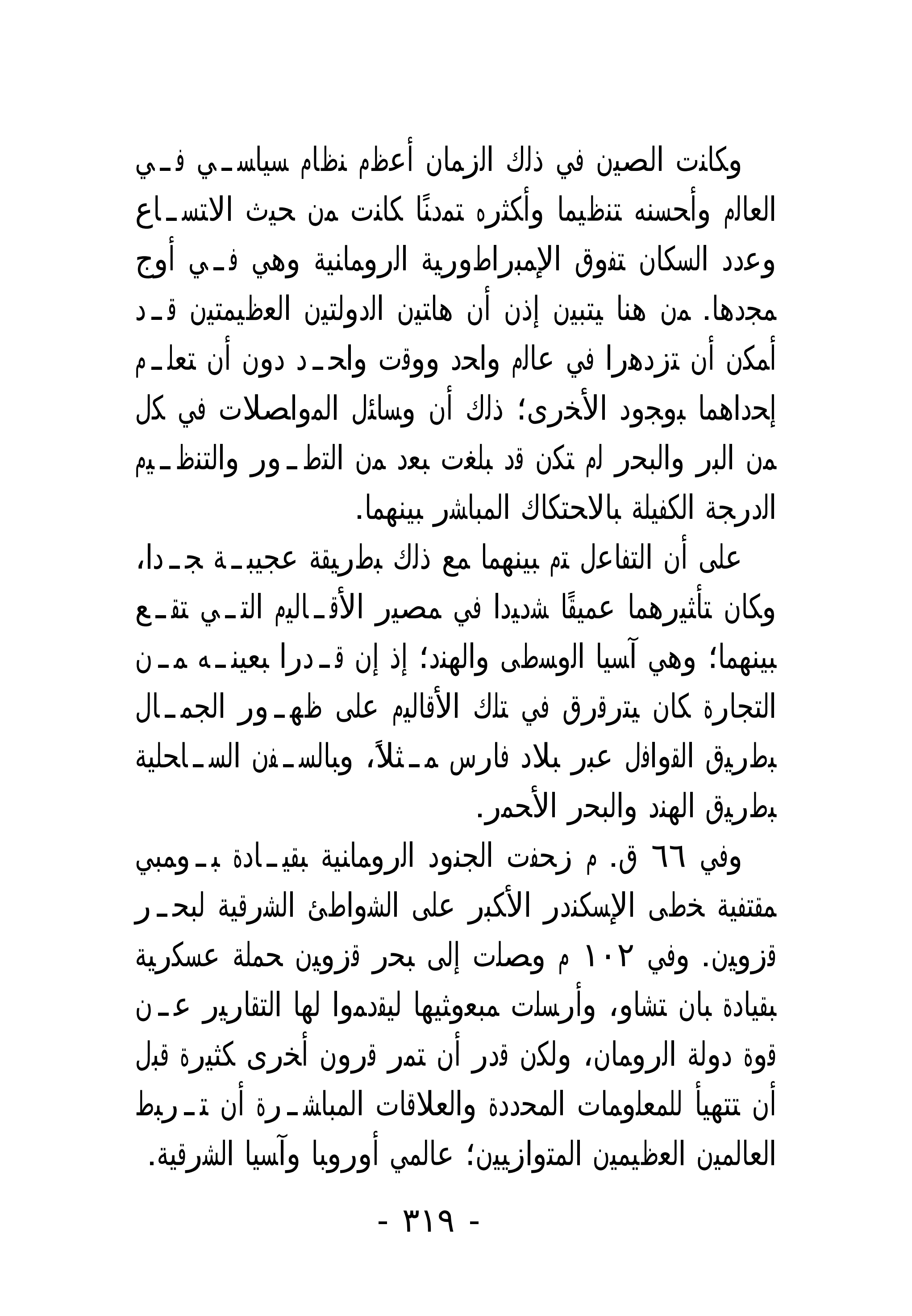
بين روما والصين



يؤذن القرنان الثاني والأول قبل الميلاد بظهـور مرحلـة جديدة في تاريخ البشرية؛ فلم تعد أرض الجزيرة ولا البحـر المتوسط الشرقي مركز الاهتمام. أجل لم تزل كل من أرض الجزيرة ومصر على سابق خصوبتها وازدحامهـا بالسـكان ورغدها المتوسط، بيد أنهما لم تعودا بعد الإقليمين المتسلطين على العالم؛ إذ إن القوة انتقلت غربا وشرقًا، وآلـت سـيادة العالم آنذاك إلى إمبراطوريتين عظيمتين؛ تلك الإمبراطورية الرومانية الجديدة، وإمبراطورية الصين الحديثـة النهـوض والبعث.

ومدت روما سلطانها إلـى نهـر الفـرات، غيـر أنهـا لم تستطع البتة تجاوز ذلك الحد لفرط بعده عنها. ومن وراء الفرات انتقلت ممتلكات السلوقيين السابقة بالهند وفارس إلـى يد عدد من سادة جدد.

أما الصين – التي كانت آنذاك تحت حكم أسرة "هان" التي خلفت أسرة "تسئن" عند وفاة شيء هوانج تي – فإن سلطانها انبسط آنذاك إلى التركستان الغربية عبر بلاد التبت، وفـوق ممرات هضبة البامير الجبلية العالية، ولكنها بلغـت هنـاك أيضا حدها الأقصى. أما ما وراء ذلك فكان سحيق البعد.



وكانت الصين في ذلك الزمان أعظم نظام سياسي في العالم وأحسنه تنظيما وأكثره تمدنًا كانت من حيث الاتساع وعدد السكان تفوق الإمبراطورية الرومانية وهي في أوج مجدها. من هنا يتبين إذن أن هاتين الدولتين العظيمتين قد أمكن أن تزدهرا في عالم واحد ووقت واحد دون أن تعلم إحداهما بوجود الأخرى؛ ذلك أن وسائل المواصلات في كل من البر والبحر لم تكن قد بلغت بعد من التطور والتنظيم الدرجة الكفيلة بالاحتكاك المباشر بينهما.

على أن التفاعل تم بينهما مع ذلك بطريقة عجيبة جدا، وكان تأثيرهما عميقًا شديدا في مصير الأقاليم التي تقع بينهما؛ وهي آسيا الوسطى والهند؛ إذ إن قدرا بعينه من التجارة كان يترقرق في تلك الأقاليم على ظهور الجمال بطريق القوافل عبر بلاد فارس مثلاً، وبالسفن الساحلية بطريق الهند والبحر الأحمر.

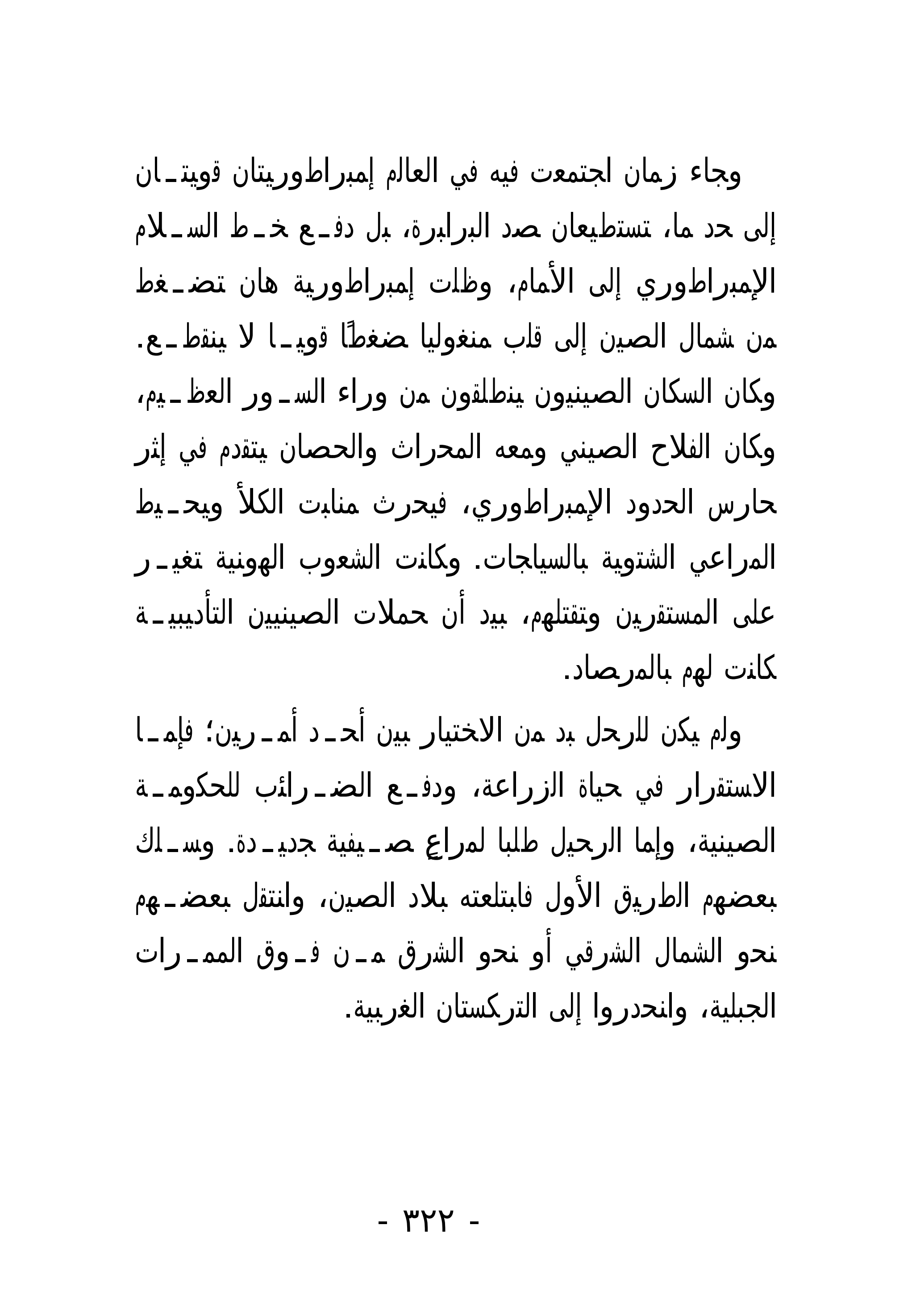
وفي ٦٦ ق. م زحفت الجنود الرومانية بقيادة بومبي مقتفية خطى الإسكندر الأكبر على الشواطئ الشرقية لبحر قزوين. وفي ١٠٢ م وصلت إلى بحر قزوين حملة عسكرية بقيادة بان تشاو، وأرسلت مبعوثيها ليقدموا لها التقارير عن قوة دولة الرومان، ولكن قدر أن تمر قرون أخرى كثيرة قبل أن تتهيأ للمعلومات المحددة والعلاقات المباشرة أن تربط العالمين العظيمين المتوازيين؛ عالمي أوروبا وآسيا الشرقية.

وإلى الشمال من هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين كانـت تنبسط البراري الهمجية المتبربرة، فكانـت منطقـة ألمانيـا الحالية إقليما تكسو الغابات معظمه، على حين كانت الغابات تتوغل قدما في صميم الروسيا ليسـتوطنها الثـور الجبـار (الأوروك)، الذي يقارب حجمه حجم الفيل. ثم كان يمتد بعد ذلك إلى الشمال من الكتل الجبلية الآسيوية العظيمة شـريط من الصحراوات والسهوب تجيء بعد الغابـات والأراضـي المتجمدة. ويقع مثلث منشوريا العظيم في المنبسـط الواقـع شرقي المرتفعات الآسيوية.

إن أجزاء كبيرة من هذه المناطق تمتد من جنوبي الروسيا والتركستان حتى منشوريا كانت ولا تزال مناطق غير ثابتـة المناخ إلى درجة خارقة؛ فقد تغيرت كمية الأمطـار تغيـرا كبيرا في مدى بضعة قرون؛ فهي بلاد غادرة تخون الإنسان، تمر عليها سنوات متعاقبة وهي ممتلئة بالحشائش والكلأ الذي يقوت[١] السكان، ثم تجيء فترة انخفاض في الأمطار ودورة من دورات الجفاف والقحط المهلك.

([1]) يقوت السكان: يرزقهم ويعطيهم القوت، ويعولهم من "قات يقوت قوتًا".

والجزء الغربي لهذه المنطقة الشمالية الهمجية الممتد مـن الغابات الألمانية إلى جنوب الروسـيا والتركسـتان، ومـن جوثلندة (بالسويد) إلى جبال الألب؛ هـو الأرض الأصـلية للشعوب النوردية، واللسان الآري، كما أن السهوب الشرقية وصحراء منغوليا هي منبت الشعوب الهونيـة أو المغوليـة، أو التتارية أو التركية؛ ذلك أن كل هذه الشـعوب المتعـددة كانت متماثلة في اللغة والعنصر وطريقة الحيـاة. وكمـا أن الشعوب النوردية كانت تطغى دائما فيما يظهر على حدودها، وتضغط جنوبا على الحضارات الناميـة بـأرض الجزيـرة وساحل المتوسط؛ فكذلك كانت القبائل الهونية ترسل فائضها على صورة جوالين ومترحلين، ومغيرين وفاتحين في أقاليم الصين المأهولة بالمستقرين، وكانت فترات الوفرة والخيرات بأقاليم الشمال تعني زيادة عدد من بها من سكان. ولكـن إذا حدث نقص في العشب، أو حلت نوبة من نوبـات طـاعون الماشية؛ لم يكن مفر من أن يؤدي ذلك إلى دفع رجال القبائل الجياع المقاتلين الأشداء نحو الجنوب.



وجاء زمان اجتمعت فيه في العالم إمبراطوريتان قويتـان إلى حد ما، تستطيعان صد البرابرة، بل دفـع خـط السـلام الإمبراطوري إلى الأمام، وظلت إمبراطورية هان تضـغط من شمال الصين إلى قلب منغوليا ضغطًا قويـا لا ينقطـع. وكان السكان الصينيون ينطلقون من وراء السـور العظـيم، وكان الفلاح الصيني ومعه المحراث والحصان يتقدم في إثر حارس الحدود الإمبراطوري، فيحرث منابت الكلأ ويحـيط المراعي الشتوية بالسياجات. وكانت الشعوب الهونية تغيـر على المستقرين وتقتلهم، بيد أن حملات الصينيين التأديبيـة كانت لهم بالمرصاد.

ولم يكن للرحل بد من الاختيار بين أحـد أمـرين؛ فإمـا الاستقرار في حياة الزراعة، ودفـع الضـرائب للحكومـة الصينية، وإما الرحيل طلبا لمراعٍ صـيفية جديـدة. وسـلك بعضهم الطريق الأول فابتلعته بلاد الصين، وانتقل بعضـهم نحو الشمال الشرقي أو نحو الشرق مـن فـوق الممـرات الجبلية، وانحدروا إلى التركستان الغربية.

وهذا الانتقال غربا للخيالة المغوليين بدأ يحدث منذ ٢٠٠ ق. م. وكلما حدث دفعت القبائل الآرية نحو الغرب، فيضغط هؤلاء بدورهم على الحدود الرومانية التي هم على اسـتعداد لاختراقها بمجرد ظهور أي عارض من عوارض الضعف. وجاء الأشقانيون (البارثيون، وهم فيما يظهر شعب أشقوزي تخالطه بعض شوائب مغولية) ونزلوا أرض الفـرات عنـد القرن الأول قبل الميلاد، فقاتلوا بومبي الكبير في غارته على بلاد الشرق، وهزموا كراسوس وقتلـوه، وأنزلـوا ملـوك السلوقيين عن عرش فـارس، وتبـدلوا بهـم ملوكـًا مـن الأشقانيين؛ هي الأسرة الأرشكية[1].

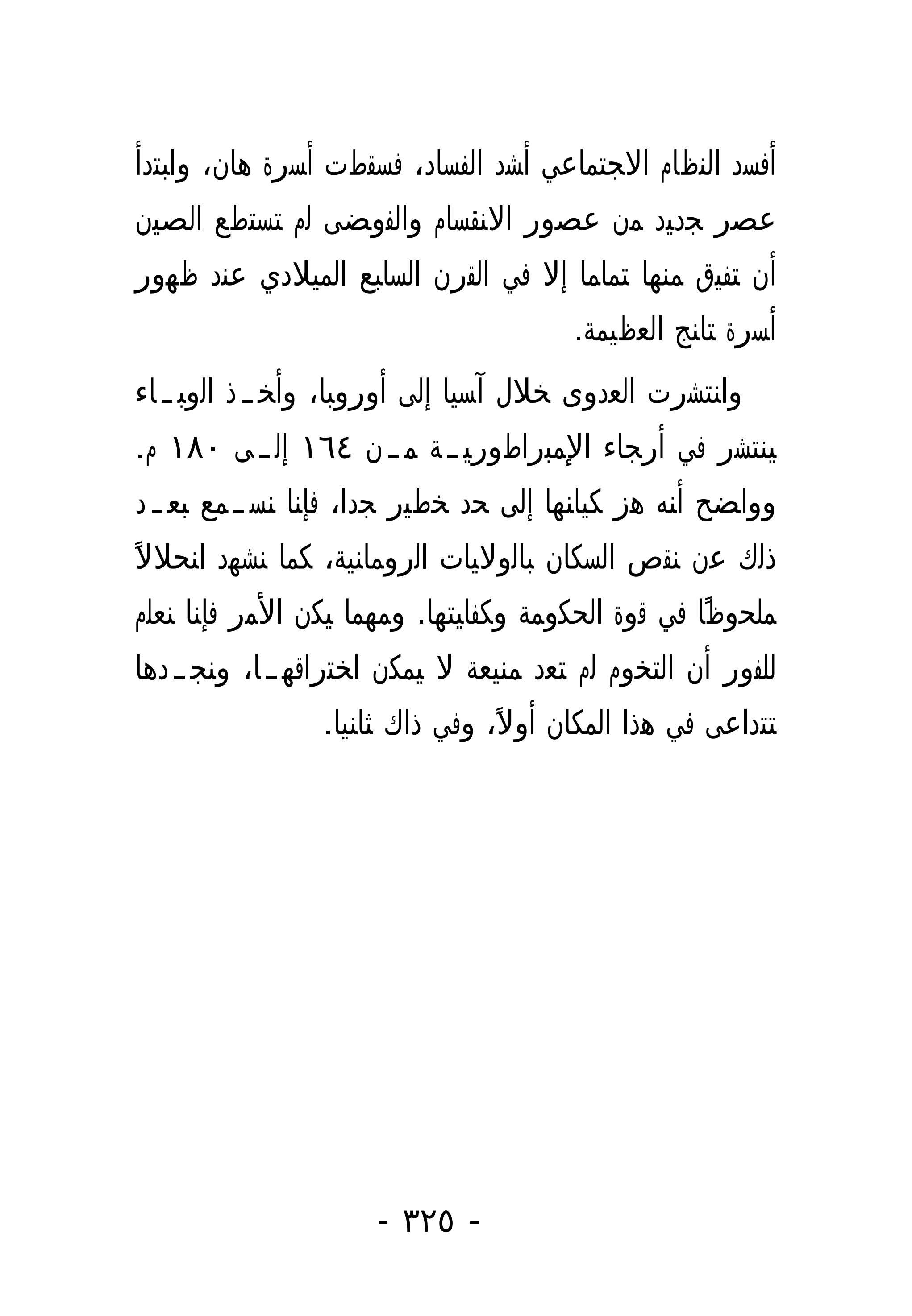
ولكن جاء زمان كانت فيه أضعف مناطق المقاومة للرحل الجياع لا تقع في الغرب ولا في الشرق؛ بل تسير في آسـيا الوسطى، ثم تنحرف جنوبا بشرق عابرة ممر خيبر إلى بلاد الهند. فالهند هي القطر الذي تلقى حركة الانتقـال المغوليـة إبان هذه القرون التي قويت فيها شوكة الصينيين والرومان.

([1]) الأسرة الأرشكية: أسرة بارثية ملكية مؤسسها أرشك الذي اقتطع مملكتـه من دولة السلوقيين في ٢٥٠ ق. م، ودامت حتى قضى عليها فـي ٢٢٦ ميلادية أردشير مؤسس الدولة الساسانية. [المترجم]

وانثالت موجات متكررة من الفاتحين والمغيرين خلال إقلـيم البنجاب، حتى وصلت إلى السهول العظيمة تعمل فيها نهبـا وتخريبا، فتمزقت إمبراطورية آسوكا، وانحدر تاريخ الهنـد حينًا من الدهر إلى غياهب الظلمات..

وجاءت فترة حكمت فيها بشمال الهند باسطة عليها شـيئًا مـن النظـام أسـرة كوشـانية بعينهـا، أسسـتها قبائـل "الهندواشقوذيين" "Indo – Scythians"؛ وهـم جيـل مـن الشعوب المغيرة. وتواصلت هذه الغزوات بضـعة قـرون، ونكبت الهند دهرا طويلاً مـن القـرن الخـامس المـيلادي بالإفثاليين أو الهون البيض، الذين كانوا يجبون الجزية مـن الأمراء الصغار، ويوقعون الرعب في أرجاء البلاد، وكلمـا أقبل الصيف رحل هؤلاء الإفثاليون إلى التركستان الغربيـة ليرعوا ماشيتهم، فإذا جاء الخريف عادوا بطريق الممـرات وقذفوا الرعب في قلوب السكان الوادعين.

وحلت بالإمبراطوريتين الرومانية والصينية فـي القـرن الميلادي الثاني نكبة عظيمة، لعلها أضعفت مقاومتهما جميعا لضغط البرابرة؛ فإنهما أصيبتا بوباء وبيل لا نظير له؛ ظـل ذلك الوباء يتفشى بشدة في بلاد الصين أحد عشر عاما، حتى

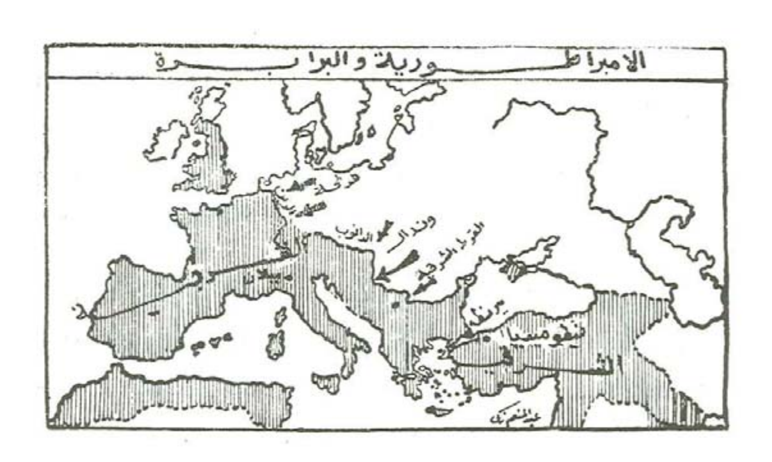


أفسد النظام الاجتماعي أشد الفساد، فسقطت أسرة هان، وابتدأ عصر جديد من عصور الانقسام والفوضى لم تستطع الصين أن تفيق منها تماما إلا في القرن السابع الميلادي عند ظهور أسرة تانج العظيمة.

وانتشرت العدوى خلال آسيا إلى أوروبا، وأخـذ الوبـاء ينتشر في أرجاء الإمبراطوريـة مـن ١٦٤ إلـى ١٨٠ م. وواضح أنه هز كيانها إلى حد خطير جدا، فإنا نسـمع بعـد ذلك عن نقص السكان بالولايات الرومانية، كما نشهد انحلالاً ملحوظًا في قوة الحكومة وكفايتها. ومهما يكن الأمر فإنا نعلم للفور أن التخوم لم تعد منيعة لا يمكن اختراقهـا، ونجـدها تتداعى في هذا المكان أولاً، وفي ذاك ثانيا.

وثمة شعب نوردي جديد هو القوط، جـاء أصـلاً مـن جوثلندة ببلاد السويد، ثم هاجر عبر الروسـيا إلـى منطقـة الفولجا وشواطئ البحر الأسود؛ حيث جنح إلى البحر وإلـى أعمال القرصنة. ولعلهم شرعوا عند نهايـة القـرن الثـاني يشعرون بضغط هجوم الهون غربا علـيهم، وفـي ٢٤٧ م قاموا بغارة برية عظيمة فعبروا نهر الطونـة (الـدانوب)، وهزموا الإمبراطور ديكيوس وقتلوه في معركة دارت رحاها فيما يسمى الآن ببلاد الصرب. وفي ٢٣٦ م اخترق الحـدود عند نهر الراين الأدنى شعب جرماني آخر هو الفرنجة، كما انهال الأليماني على إقلـيم الألـزاس، وتمكنـت الكتائـب المعسكرة ببلاد الغال من صد المغيرين عليهما، ولكن القوط النازلين بشبه جزيرة البلقان أعادوا الإغارة هناك مرة بعـد أخرى، فاختفت مقاطعة داكيا من التاريخ الروماني.

لقد دبت برودة الموت في كبرياء روما وثقتهـا بنفسـها، وفي ٢٧٠ إلى ٢٧٥م؛ حصن الإمبراطور أوريليان روما بعد أن ظلت ثلاثة قرون مدينة آمنة مفتوحة.


الامبراطـــــورية والبرابـــــرة
وندال
الدانوب
القوط الشرقية

الفصل الخامس والثلاثون

حياة الرجل العادي

في عهد الإمبراطورية الرومانية القديمة

قبل أن نحدثك كيف وقعت هذه الإمبراطورية الرومانيـة في مهاوي الفوضى وتمزقت إربا بعد أن تكونت في القرنين السابقين للميلاد، وازدهرت في بحبوحة السلام والطمأنينـة منذ أيام أوغسطوس قيصر مدة قرنين آخرين؛ يجدر بنا أيضا أن نوجه بعض عنايتنا إلى حياة النـاس العـاديين (أعنـي العامة) في أثناء عصر هذه الدولة العظيمة. لقد وصلنا فـي تأريخنا الآن إلى حوالي ألف سنة من زماننا هـذا، كمـا أن حياة الناس المتحضرين الذين كانوا يعيشون في ظـل مـن "سلام" روما و"سلام" أسرة هان؛ قد أخذت تقتـرب رويـدا رويدا من حياة خلفائهم المتحضرين في يومنا هذا.

وكان استخدام النقود المصكوكة شائعا آنذاك فـي العـالم الغربي، وأصبح لكثير من الناس خارج عالم الكهانة مـوارد مستقلة دون أن يكونوا من موظفي الدولة ولا مـن الكهـان، وبات الناس يمشون في مناكب الأرض بحرية لم تتسن لهـم من قبل أبدا، وأنشئت الطـرق العامـة، وشـيدت الفنـادق لنزولهم؛ فلو قارنت حياتهم بما كانت عليه في الماضـي (أي قبل ٥٠٠ ق. م) لوجدتها أكثر رخاء ويسـرا. وقبـل ذلـك التاريخ كان المتحضرون مقيدين بناحية أو إقلـيم، مقيـدين بالتقاليد، يعيشون في حدود أفق ضيق جدا، ولم يكـن أحـد يستطيع الاتجار أو السفر إلا الشعوب الرحل.

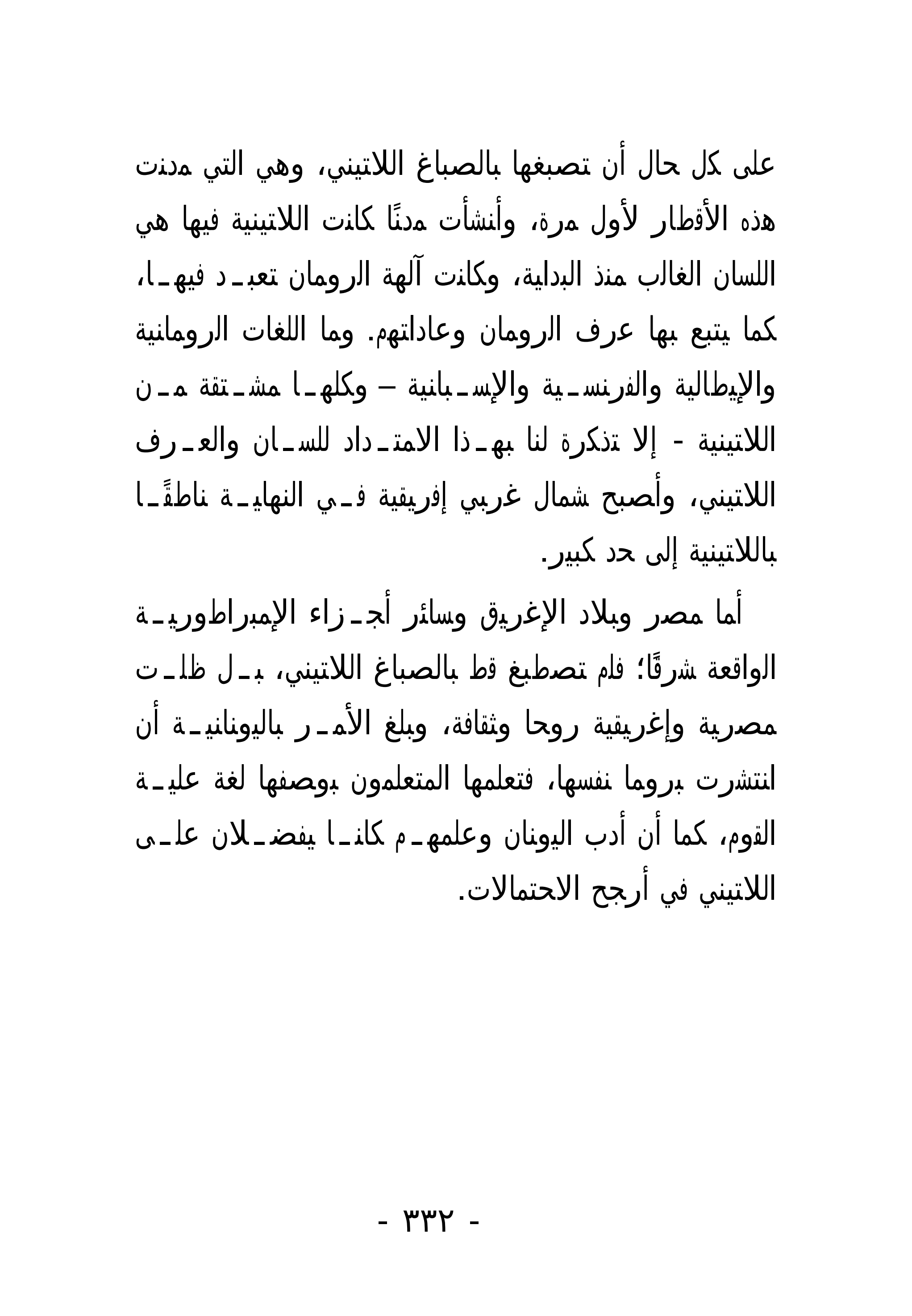
بيد أنه لا "السلام" الروماني" ولا "السلام" الصـيني لـدى أسرة هان كان يعني أن الحضارة انتشرت انتشارا منتظما في الأقاليم الضخمة الواقعة تحت سيطرتهما؛ فالفوارق المحليـة عظيمة جدا بين إقليم وآخـر، كمـا أن التناقضـات وعـدم المساواة في الثقافة عظيمة أيضا بين ناحية وأخرى، كما هو الحال اليوم في ظلال "السلام" البريطـاني بالهنـد، وكانـت الحاميات والمستعمرات الرومانية تنتشر هنـا وهنـاك فـي أرجاء تلك المساحة العظيمة، وهي تعبد آلهة الرومان وتتكلم بلغتهم، فإن كانت هناك مدن أو بلدان قبل مجـيء الرومـان تركت لها إدارة شئونها عندئذ وإن أُخضعت، وسمح لها فترة على الأقل بعبادة آلهتها بطريقتها الخاصة. ولم تنتشر اللغـة اللاتينية البتة في بلاد الإغريق وآسـيا الصـغرى ومصـر والشرق المهلن[1] عامة؛ مذ كانت الإغريقية هـي السـائدة هناك، ولا سبيل إلى قهرها. وكان شاءول الطرسوسي الذي أصبح بولس الرسول؛ يهوديا ومواطنًا رومانيا، غير أنه كان يتحدث بالإغريقية، ويكتب بها دون العبرانية، بل لقـد بلـغ الأمر أن اليونانية كانت لغة الطبقة الراقية فـي بـلاط يقـع

(1) المهلن: Hellenized: المطبوع بالطابع الهلليني. [المترجم].

خارج الدولة الرومانية تماما؛ هو بلاط الأسرة الأشقانية التي خلعت السلوقيين الإغريق عن عرش فارس، وكذلك صمدت أيضا اللغة القرطاجية في بعض أصقاع إسبانيا وشمال إفريقية زمانًا طويلاً، على الرغم من تدمير قرطاجنة، فإن مدينة كإشبيلية (ذلك البلد الذي أوتي الغنى والرخاء قبل أن يسمع الناس باسم الرومان بزمن بعيد) ظلت تحافظ على معبودتها الربة السامية، وتنطق بلسانها السامي مدة أجيال عديدة، على الرغم من وجود مستعمرة من محنكة جند الرومان بإقليم إيتاليكا على بضعة أميال منها.

وهناك الإمبراطور سبتميوس سيفيروس (تولى العرش من ١٩٣ إلى ٢١١) الذي كانت القرطاجية لغته القومية، ثم تعلم اللاتينية فيما بعد كلغة أجنبية، ويسجل التاريخ أن أخته لم تتعلم اللاتينية قط، وأنها كانت تتفاهم في دارها بروما باللغة الفينيقية.

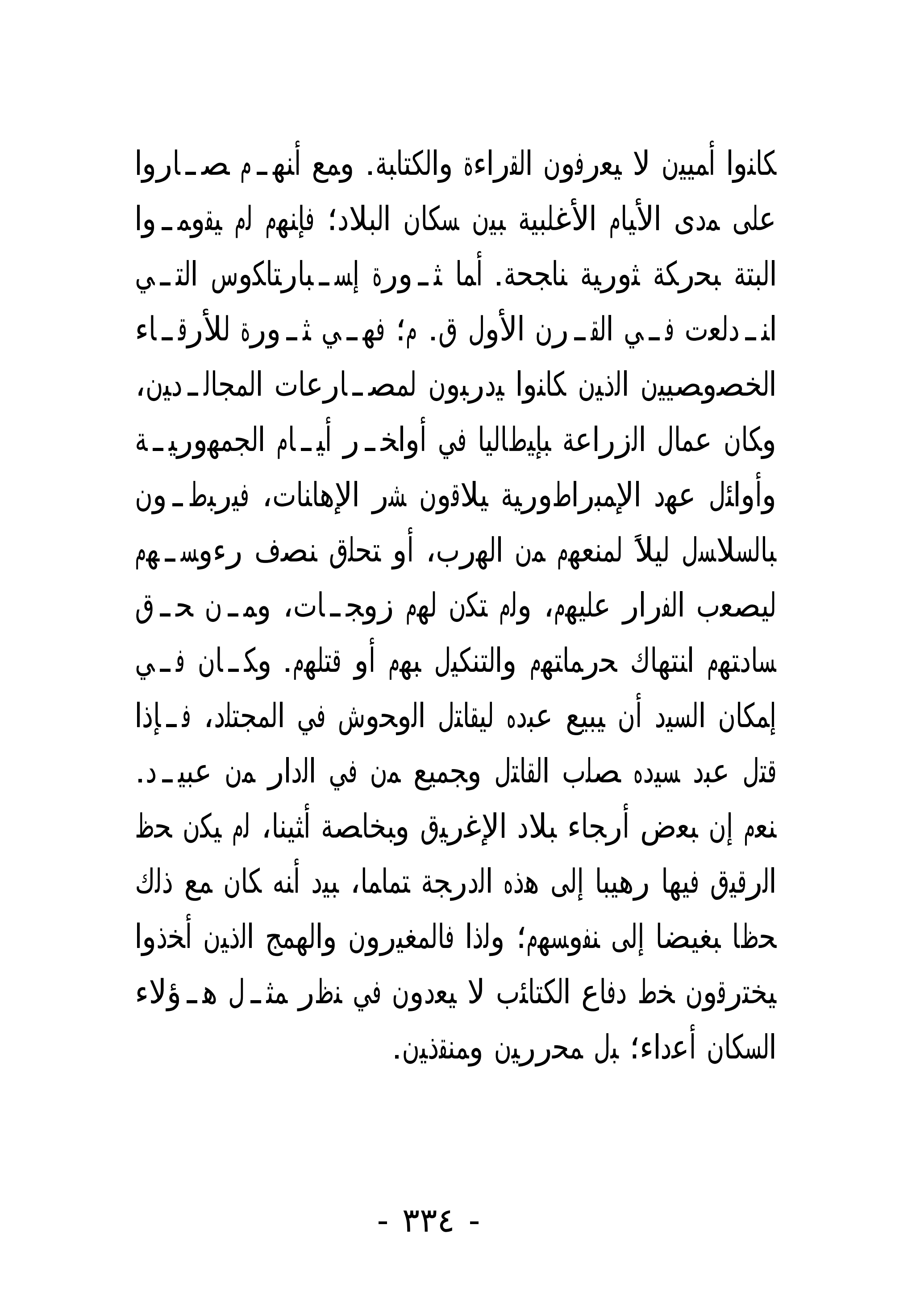
أما المناطق التي لم تكن بها من قبل مدن كبرى، ولا معابد، ولا ثقافات؛ كبلاد الغالة وبريطانيا وولايات داكيا (وهي الآن رومانيا على وجه التقريب) وبانونيا (وهي الآن بلاد المجر جنوبي الدانوب)؛ فإن الإمبراطورية استطاعت



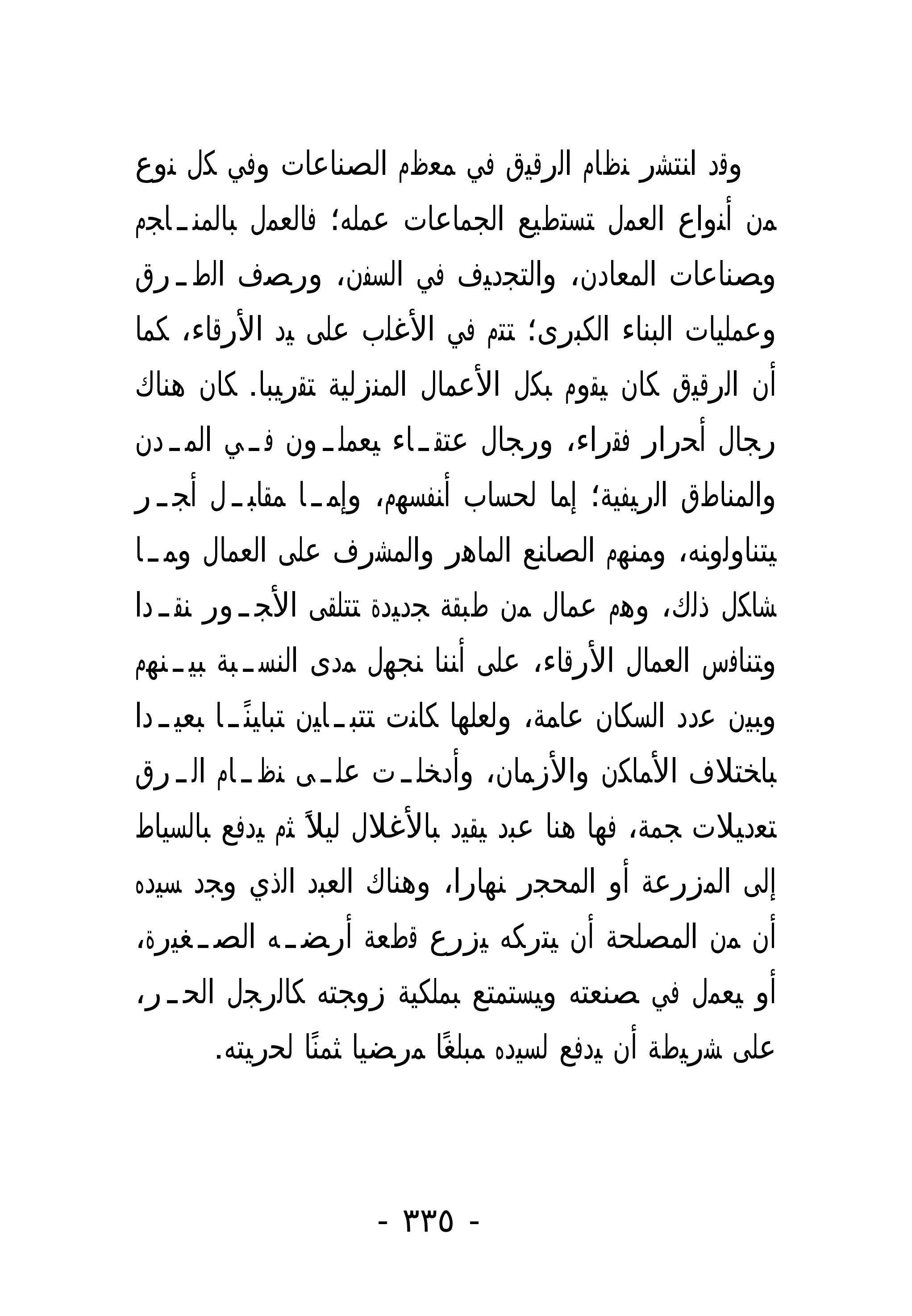
على كل حال أن تصبغها بالصباغ اللاتيني، وهي التي مدنت هذه الأقطار لأول مرة، وأنشأت مدنًا كانت اللاتينية فيها هي اللسان الغالب منذ البداية، وكانت آلهة الرومان تعبـد فيهـا، كما يتبع بها عرف الرومان وعاداتهم. وما اللغات الرومانية والإيطالية والفرنسـية والإسـبانية – وكلهـا مشـتقة مـن اللاتينية - إلا تذكرة لنا بهـذا الامتـداد للسـان والعـرف اللاتيني، وأصبح شمال غربي إفريقية فـي النهايـة ناطقًـا باللاتينية إلى حد كبير.

أما مصر وبلاد الإغريق وسائر أجـزاء الإمبراطوريـة الواقعة شرقًا؛ فلم تصطبغ قط بالصباغ اللاتيني، بـل ظلـت مصرية وإغريقية روحا وثقافة، وبلغ الأمـر باليونانيـة أن انتشرت بروما نفسها، فتعلمها المتعلمون بوصفها لغة عليـة القوم، كما أن أدب اليونان وعلمهـم كانـا يفضـلان علـى اللاتيني في أرجح الاحتمالات.

وكان من الطبيعي في مثل هذه الإمبراطورية المختلفة أن تكون طرائق أداء الأعمال والأشغال فيها جد مختلطة أيضا، كما أن الزراعة كانت إلى حد كبير رأس صـناعات العـالم المستقر. وقد أسلفنا لك كيف حلت المزارع الكبيرة والعمـال الأرقاء محل المزارعين الأشداء الأحرار الذين كـانوا هـم العمود الفقري للجمهورية الرومانية القديمـة. أمـا العـالم اليوناني فكانت أساليب الزراعة فيـه منوعـة جـدا، منهـا الطريقة الأركادية، التي كان كل مواطن حر يكدح بمقتضاها بيديه، ومنها خطة إسبرطة، التي كان من المهانـة فيهـا أن يعمل المرء بيديه، والتي كان العمل الزراعي فيها تقوم بـه طبقة خاصة من رقيق الأرض هم الهيلـوطيين (Helots). بيد أن هذه الأمور كانت قد أصبحت في تلك الأيـام نفسـها قطعة من التاريخ العتيق، فإن طريقة المزارع الكبيرة وفرق الأرقاء كانت قد انتشرت في معظم أرجاء العـالم الهللينـي، كما أن الأرقاء الزراعيين كانوا أسرى يتكلمون لغات مختلفة كثيرة، ولا يستطيعون لذلك أن يفهم بعضهم بعضا، أو كانوا عبيدا بمولدهم، لم يكن بينهم تضامن لمقاومـة الاضـطهاد، ولا تقاليد لحقوق يتناقلونها ولا معرفة يفيدونها؛ ذلـك أنهـم



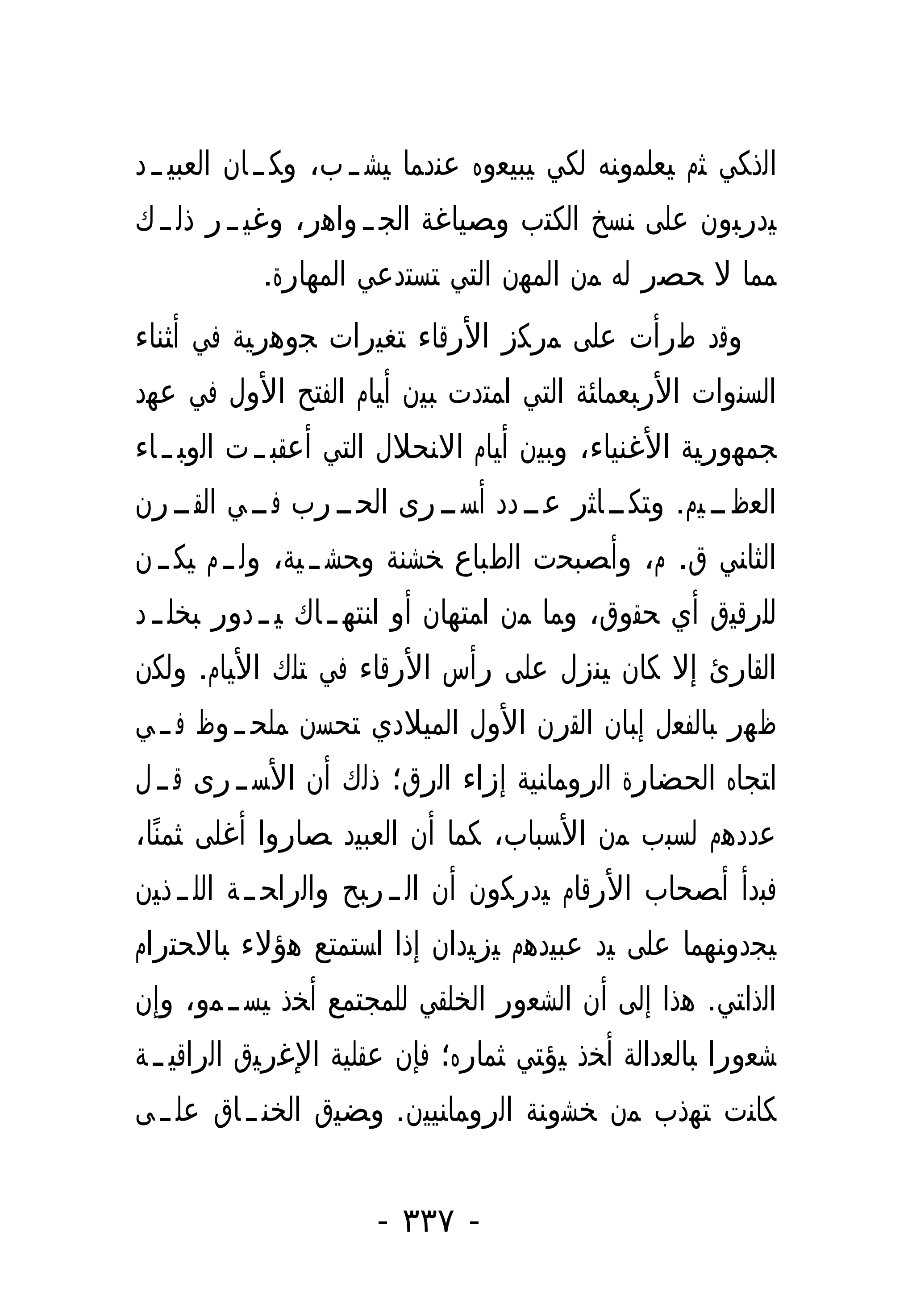
كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة. ومع أنهـم صـاروا على مدى الأيام الأغلبية بين سكان البلاد؛ فإنهم لم يقومـوا البتة بحركة ثورية ناجحة. أما ثـورة إسـبارتاكوس التـي انـدلعت فـي القـرن الأول ق. م؛ فهـي ثـورة للأرقـاء الخصوصيين الذين كانوا يدربون لمصـارعات المجالـدين، وكان عمال الزراعة بإيطاليا في أواخـر أيـام الجمهوريـة وأوائل عهد الإمبراطورية يلاقون شر الإهانات، فيربطـون بالسلاسل ليلاً لمنعهم من الهرب، أو تحلق نصف رءوسـهم ليصعب الفرار عليهم، ولم تكن لهم زوجـات، ومـن حـق سادتهم انتهاك حرماتهم والتنكيل بهم أو قتلهم. وكـان فـي إمكان السيد أن يبيع عبده ليقاتل الوحوش في المجتلد، فـإذا قتل عبد سيده صلب القاتل وجميع من في الدار من عبيـد. نعم إن بعض أرجاء بلاد الإغريق وبخاصة أثينا، لم يكن حظ الرقيق فيها رهيبا إلى هذه الدرجة تماما، بيد أنه كان مع ذلك حظا بغيضا إلى نفوسهم؛ ولذا فالمغيرون والهمج الذين أخذوا يخترقون خط دفاع الكتائب لا يعدون في نظر مثـل هـؤلاء السكان أعداء؛ بل محررين ومنقذين.



وقد انتشر نظام الرقيق في معظم الصناعات وفي كل نوع من أنواع العمل تستطيع الجماعات عمله؛ فالعمل بالمناجم وصناعات المعادن، والتجديف في السفن، ورصف الطرق وعمليات البناء الكبرى؛ تتم في الأغلب على يد الأرقاء، كما أن الرقيق كان يقوم بكل الأعمال المنزلية تقريبا. كان هناك رجال أحرار فقراء، ورجال عتقاء يعملون في المدن والمناطق الريفية؛ إما لحساب أنفسهم، وإما مقابل أجر يتناولونه، ومنهم الصانع الماهر والمشرف على العمال وما شاكل ذلك، وهم عمال من طبقة جديدة تتلقى الأجور نقدا وتنافس العمال الأرقاء، على أننا نجهل مدى النسبة بينهم وبين عدد السكان عامة، ولعلها كانت تتباين تباينًا بعيدا باختلاف الأماكن والأزمان، وأدخلت على نظام الرق تعديلات جمة، فها هنا عبد يقيد بالأغلال ليلاً ثم يدفع بالسياط إلى المزرعة أو المحجر نهارا، وهناك العبد الذي وجد سيده أن من المصلحة أن يتركه يزرع قطعة أرضه الصغيرة، أو يعمل في صنعته ويستمتع بملكية زوجته كالرجل الحر، على شريطة أن يدفع لسيده مبلغًا مرضيا ثمنًا لحريته.

كان هناك عبيد مدربون على حمل السلاح، وقد ابتعثـت في روما قبيل بداية الحروب البونية في ٢٦٣ ق. م الرياضة الإترسكية، التي كان العبد الرقيق يضطر فيها إلى القتال لينقذ حياته، وسرعان ما لقيت تلك اللعبة رواجا كبيرا، وما لبـث كل عظيم من أغنياء الرومان أن احتفظ لنفسه بحاشـية مـن المجالدين، الذين كانوا يقاتلون أحيانًا في المجتلد، والذين كان عملهم الحقيقي هو أن يكونوا حرسه الخاص من "البلطجية".

وكان هناك أيضا عبيد علماء؛ ذلك أن فتوح الجمهوريـة المتأخرة شملت المدن الراقية التمدن ببلاد الإغريق وشـمال إفريقية وآسيا الصغرى؛ فأمدتها بكثير من الأسرى الواسعي العلم والاطلاع، حتى لقد جرت العادة أن يكون معلم أي فتى روماني من عائلة كريمة عبدا. وإن الرجل الغني ليملك العبد الإغريقي ويتخـذه خازنًـا لمكتبتـه، كمـا يتخـذ الأمنـاء (السكرتيرين) والعلماء من الأرقاء. وإنه ليحـتفظ بشـاعره مثلما يحتفظ بكلبه القادر على أداء الألاعيب اللطيفة. وفـي هذا الجو من العبودية تطورت تقاليد النقد الأدبي والدراسات الأدبية العصرية، متسمة بالتدقيق والتخـوف والميـل إلـى الشحناء. وثمة أقوام ميالون إلى التجارة كانوا يشترون الغلام


الذكي ثم يعلمونه لكي يبيعوه عندما يشب، وكان العبيد يدربون على نسخ الكتب وصياغة الجواهر، وغير ذلك مما لا حصر له من المهن التي تستدعي المهارة.

وقد طرأت على مركز الأرقاء تغيرات جوهرية في أثناء السنوات الأربعمائة التي امتدت بين أيام الفتح الأول في عهد جمهورية الأغنياء، وبين أيام الانحلال التي أعقبت الوباء العظيم. وتكاثر عدد أسرى الحرب في القرن الثاني ق. م، وأصبحت الطباع خشنة وحشية، ولم يكن للرقيق أي حقوق، وما من امتهان أو انتهاك يدور بخلد القارئ إلا كان ينزل على رأس الأرقاء في تلك الأيام. ولكن ظهر بالفعل إبان القرن الأول الميلادي تحسن ملحوظ في اتجاه الحضارة الرومانية إزاء الرق؛ ذلك أن الأسرى قل عددهم لسبب من الأسباب، كما أن العبيد صاروا أغلى ثمنًا، فبدأ أصحاب الأرقام يدركون أن الربح والراحة اللذين يجدونهما على يد عبيدهم يزيدان إذا استمتع هؤلاء بالاحترام الذاتي. هذا إلى أن الشعور الخلقي للمجتمع أخذ يسمو، وإن شعورا بالعدالة أخذ يؤتي ثماره؛ فإن عقلية الإغريق الراقية كانت تهذب من خشونة الرومانيين. وضيق الخناق على

القساة؛ فلم يعد يجوز للسيد أن يبيع عبده ليقاتـل الوحـوش، ومنح العبد حقوق الملكية فيما كان يسمى باسم الملك الخاص (Peculium)، وصار الأرقاء يتناولون أجورا تشجيعا لهـم وحثا لهم على العمل، واعترف القانون بنوع مـن الزوجيـة للعبيد. ومن المعلوم أن كثرة كبيرة مـن أنـواع الزراعـة لا تصلح لعمل فرق العمال، أو لا تحتاج إليها إلا في مواسم بعينها؛ فكان العبد في المناطق التي من هذا القبيل ينقلب إلى رقيق أرض Serf[1]، يدفع لمالكه جـزءا مـن محصـوله، أو يعمل عنده في مواسم معينة.

ومتى أيقنّا أن هذه الإمبراطورية الرومانية الكبرى الناطقة بالإغريقية في القرنين الميلاديين الأولين كانت في جوهرهـا دولة رقيق، وعرفنا كم كانت الأقلية التي تسعد فـي حياتهـا بشيء من الحرية أو الكبرياء ضئيلة العدد؛ وضعنا أصـابعنا على بيت الداء في انحلالها وانهيارها؛ فما نسميه باسم الحياة العائلية لم يكن منه لديهم إلا النزر اليسير، أما العيش المعتدل والفكر والدراسة الناشطة؛ فلا مكان لها إلا في بيوت قليلـة،

([1]) رقيق الأرض أو مولى الأرض؛ عبد تابع لنبيل يحرث له أرضـه ويباع ويشترى مع تلك الأرض.[المترجم]

وكانت المدارس والكليات قليلة ومتباعدة، وأنى لك أن تجـد الإدارة الحرة والعقل الحر فـي أي مكـان. أمـا الطـرق العظيمة، وخرائب البنايات الفخمة، وتقاليد القانون والسلطان التي خلقتها وأثارت بها دهشة الأجيـال التاليـة؛ فيجـب ألا تخفي عن أعيننا أن كل أبهتها الظاهرة أقيمت علـى إرادات مسلوبة وذكاء مكبوت، ورغبات كسيحة ومنحرفـة، وحتـى الأقلية التي كانت تسودها فوق خضم الاسـتعباد المـتلاطم، ولجات القمع والسخرة؛ كانت أرواحها تتقلب على جمر القلق والتعاسة. وفي ذلك الجو القاتل اضمحل الفن والأدب والعلم والفلسفة، التي هي ثمار العقول الحرة السعيدة.

أجل جرى الشيء الكثير من النقل والمحاكاة، وتزايد عـدد الصناع الفنيين، وتكاثر متحذلقة العبيد بين صفوف رجال العلم الأذلاء، إلا أن الإمبراطورية الرومانية جمعاء لم تنـتج فـي مدى أربعة قرون شيئًا يمكن موازنته بالنشاط العقلي الجريء النبيل، الذي بذلته مدينة أثينا الصغيرة نسبيا في أثنـاء قـرن عظمتها الوحيد، ولم تصب أثينـا فـي ظـلال الصـولجان الروماني إلا الانحطاط والتدهور، واضمحل علم الإسكندرية؛ بل يلوح أن روح الإنسان كانت تضمحل في تلك الأيام.

الفصل السادس والثلاثون

التطورات الدينية

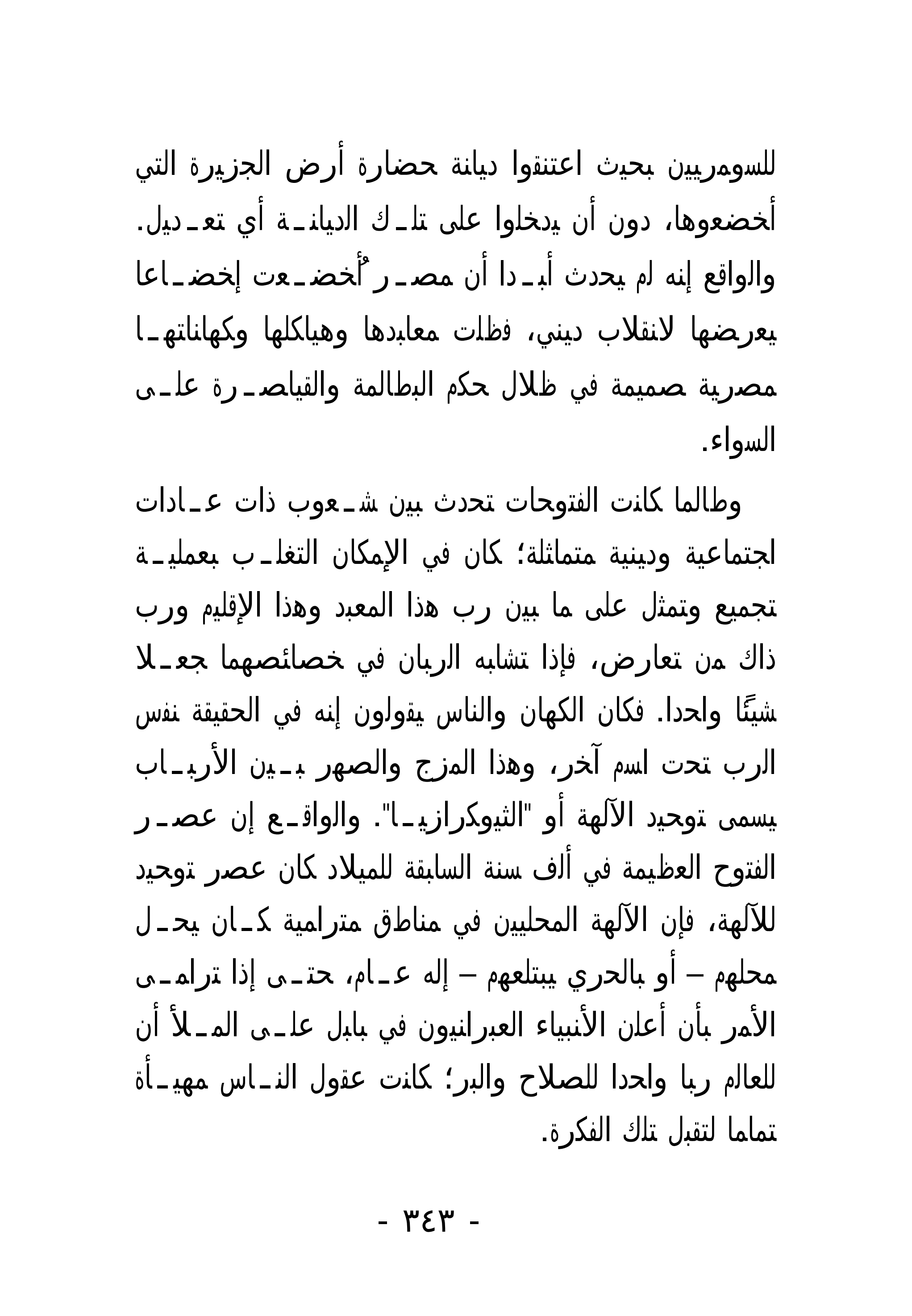
في ظلال الإمبراطورية الرومانية

أصيبت روح الإنسان في عهد تلك الإمبراطورية اللاتينية اليونانية إبـان القـرنين الأولـين مـن الحقبـة المسـيحية بالاضطراب والحبوط، فرانت القسوة والإكـراه علـى كـل ربوعها. كان هناك - لا جرم - الكبرياء والتظاهر، ولكـن ليس معها إلا القليل من الشرف، وإلا القليل مـن الصـفاء، ومن السعادة الدائمة، وكان البؤساء محتقرين تعسين، بينمـا أولو الحظوظ غير مطمئنين، متلهفون على إشباع الرغبـات تلهف المحموم. كانت الحياة تتمركز في عدد عظيم من المدن حول انفعالات المجتلد المضرجة بالدماء؛ حيـث يصـطرع الرجال والوحوش ويتعذبون ويذبحون...، والمدرجات[1] هي أبرز عناصر الخرائب الرومانية. وتمضي الحياة على هـذا النهج، والقلق الذي يأكل قلوب الناس يتخـذ صـورة القلـق الديني العميق.

([1]) المدرج (Amphitheatre): مسرح دائري في الوسط هو المجتلد، تحيط به المقاعد في صفوف دائرية متصاعدة، يعلو بعضها بعضا، وتشرف على المجتلد. [المترجم]

فمنذ اخترقت الحشود الآرية لأول مرة حـدود المـدنيات العتيقة؛ لم يكن مفر من أن تلم التكيفات العظيمة بالأربـاب والكهانات القديمة، أو تذهب من الوجود جملة. وقبـل ذلـك بمئات الأجيال ظلت الشعوب الزراعية في المدنيات السمراء تشكل حياتها وأفكارها وفق الحياة المتركزة حول المعبد.

وكانت رعاية المراسم، والخوف مـن مخالفـة القواعـد المتبعة والتقاليد والقرابين، والخفايا؛ تطغى علـى أذهـانهم، وتبدو آلهتهم فظيعة وغير منطقية في نظر عقولنا العصرية؛ وذلك لأننا ننتمي إلى عالم غلب عليه الطابع الآري، ولكـن هذه الآلهة كانت لها عند هذه الشعوب القديمة نفس الإقنـاع المباشر، ونصاعة الإشراق التي تتجلى بها الأشياء حين تُرى في حلم أخاذ. فإذا غزت دولة مدينة دولة أخـرى كسـومر، أو مصر القديمة؛ كان معنى هذا تغير الأرباب أو الربـات، أو تغيير أسمائهم على الأقل، ولكن شكل العبادة وروحها كانا يظلان سليمين لم يمسسهما سوء. فالتغيير لم يكن يمس هيئتها العامة من بعيد أو قريب، فكأن الصور المرئية فـي الحلـم كانت تتغير، ولكن الرؤيا تظل مسـتمرة. ثـم إن الفـاتحين الساميين الأولين كانوا من وثيـق المشـابهة فـي روحهـم



للسومريين بحيث اعتنقوا ديانة حضارة أرض الجزيرة التي أخضعوها، دون أن يدخلوا على تلـك الديانـة أي تعـديل. والواقع إنه لم يحدث أبـدا أن مصـر أُخضـعت إخضـاعا يعرضها لانقلاب ديني، فظلت معابدها وهياكلها وكهاناتهـا مصرية صميمة في ظلال حكم البطالمة والقياصـرة علـى السواء.

وطالما كانت الفتوحات تحدث بين شـعوب ذات عـادات اجتماعية ودينية متماثلة؛ كان في الإمكان التغلـب بعمليـة تجميع وتمثل على ما بين رب هذا المعبد وهذا الإقليم ورب ذاك من تعارض، فإذا تشابه الربان في خصائصهما جعـلا شيئًا واحدا. فكان الكهان والناس يقولون إنه في الحقيقة نفس الرب تحت اسم آخر، وهذا المزج والصهر بـين الأربـاب يسمى توحيد الآلهة أو "الثيوكرازيـا". والواقـع إن عصـر الفتوح العظيمة في ألف سنة السابقة للميلاد كان عصر توحيد للآلهة، فإن الآلهة المحليين في مناطق مترامية كـان يحـل محلهم – أو بالحري يبتلعهم – إله عـام، حتـى إذا ترامـى الأمر بأن أعلن الأنبياء العبرانيون في بابل علـى المـلأ أن للعالم ربا واحدا للصلاح والبر؛ كانت عقول النـاس مهيـأة تماما لتقبل تلك الفكرة.

ولكن كثيرا ما كانت شقة التباين بين الأرباب أشد تباعـدا من أن تسمع بمثل ذلك التمثل، وعنـد ذلـك كـان القـوم يجمعونها معا، ملتمسين لذلك أي علاقة مقبولة. ومن وسائلهم في ذلك تزويجهم الربة الأنثى برب ذكر، (والعالم الإيجـي قبل مجيء الإغريق كان مولعا بالربات والأمهات)، ومنهـا تمثل الرب الحيوان أو الرب النجم بشـرا، واتخـاذ الهيئـة الحيوانية أو الظاهرة الفلكيـة (كالثعبـان أو الـنجم) حليـة أو رمزا. ومنها أن رب الشعب المقهـور يصـبح خصـما شريرا يسيء لآلهة الشعب الغالب. وتاريخ اللاهوت حافـل بأمثال هذه التكييفات لوضع الأرباب المحليين، والتوفيقـات بينها وبين غيرها، والتبريرات لها.

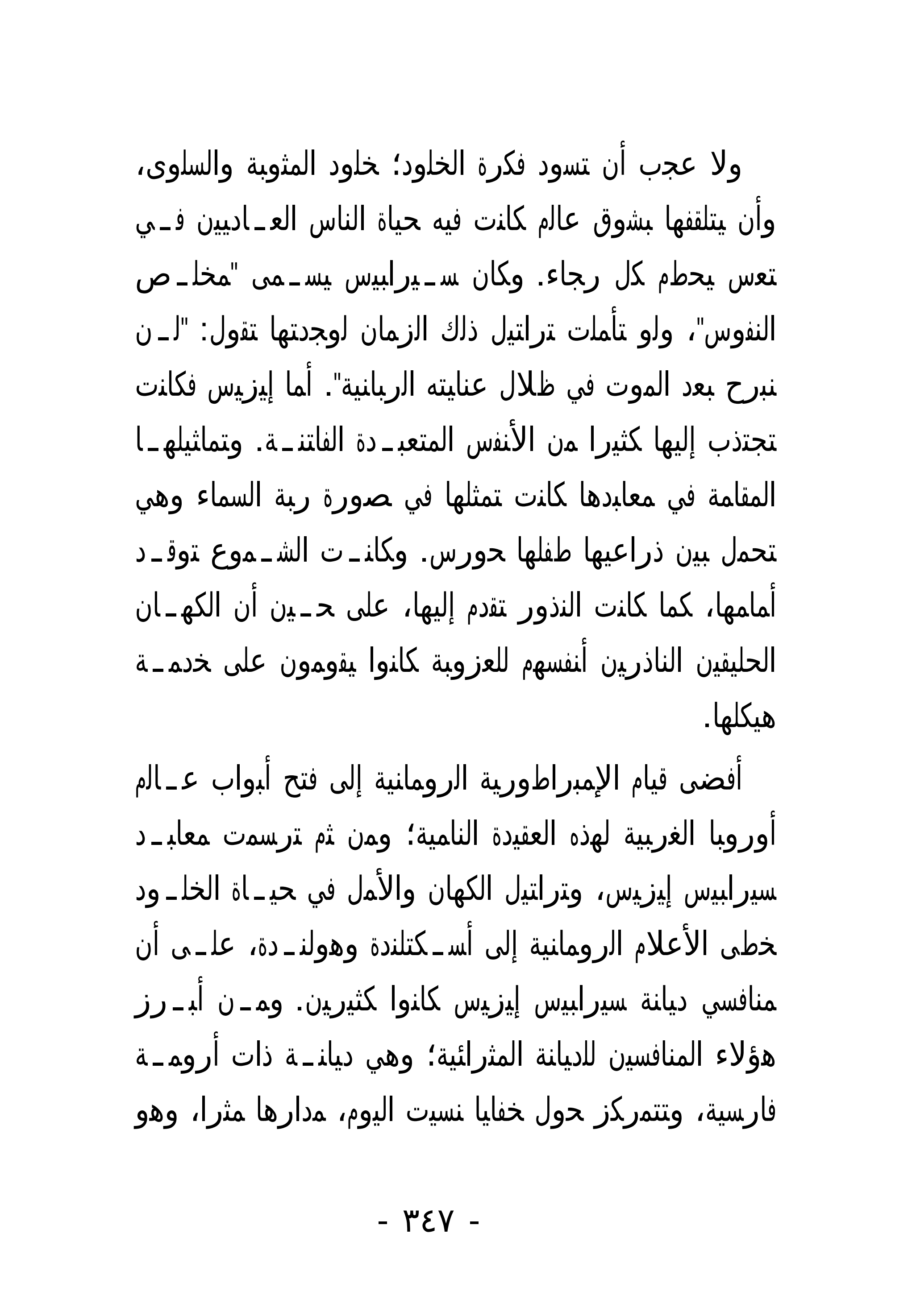
وقد حدث الشيء الكثير من هذا التوحيد بين الآلهـة فـي أثناء تطور مصر وانتقالها من حالة دول المدن إلـى حالـة الدولة الواحدة الموحدة. وكان أعظم الآلهة بوجه الإجمال هو أوزيريس؛ وهو إله حصاد قرباني كان المفروض أن فرعون هو الصورة الأرضية التي تجسده. ويمثل أوزيـريس فـي صورة من يموت مرارا وتكرارا ثم يبعث حيا؛ فكأنه لم يكن وحسب البذرة والمحصول، بل كان يتحول أيضـا بتوسـيع

طبيعي للفكرة إلى وسيلة للخلود البشري، ومن رموزه الجعل (الجعران) المديد الأجنحة، الذي يدفن بيضه ليبعث من جديد، ومنها أيضا الشمس المتألقة التي تغرب لتشرق ثانيـة. ثـم تقمص فيما بعد شخصية أبيس العجل المقدس، الذي ترتبط به الربة إيزيس. أما إيزيس فهي أيضا هاتور، وهي بقرة ربة، وهي الهلال ونجمة البحر. ويموت أوزيريس، وتحمل إيزيس طفلاً هو حورس، الذي يتمثل أيضا صقرا معبودا، كما أنـه هو الفجر، وهو الذي يكبر ليصبح أوزيريس مـرة أخـرى، وصور إيزيس تمثلها وهي تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع حورس وقد وقفت في وسط الهلال. هذه العلاقـات ليسـت بطبيعة الحال منطقية، غير أن العقل البشري استحدثها قبـل تطور التفكير الجدي المنظم، والتماسك بينها أشبه بتماسـك أجزاء الأحلام.

ومن دون هذه المجموعة الثلاثة توجد آلهة مصرية أخرى أكثر غموضا، وهي آلهة شريرة، منها أنوبيس الذي له رأس كلب، والليل الأسود وما ماثلهما، وهي أرباب تلتهم وتغـري وتعادي الإنسان والرب على السواء.

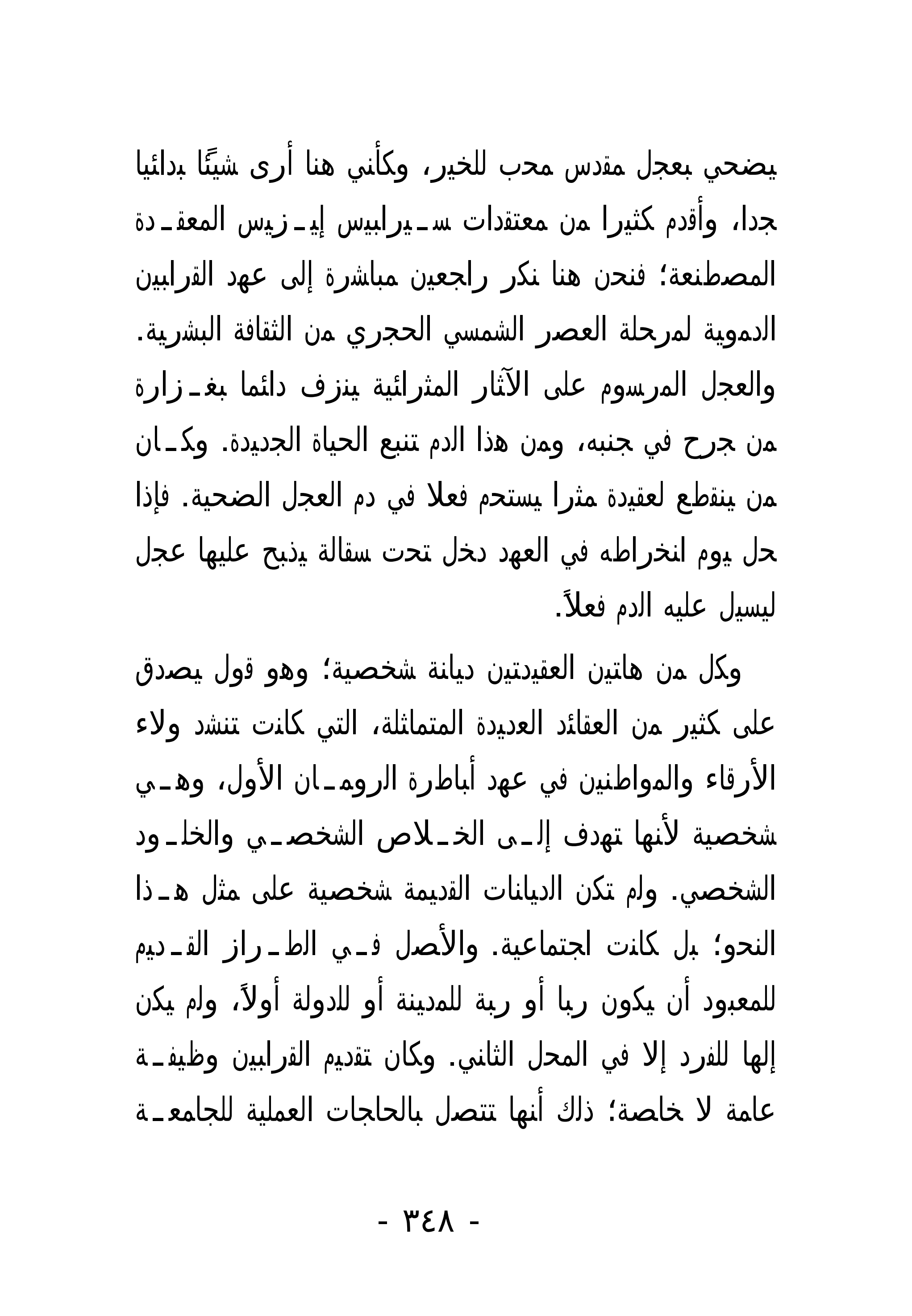
وغني عن البيان أن كل نظام ديني كان يوفق نفسه آخر الأمر طبق صورة النفس الإنسانية، ولا شك أن الشعب المصري استطاع أن يتخذ من هذه الرموز غير المنطقية طرائق يبث فيها صادق عبادته، ويلتمس فيها العزاء والسلوى. وكانت الرغبة في الخلود قوية جدا في العقل المصري، حتى لقد جعلوها محورا لحياتهم الدينية؛ فالديانة المصرية ديانة خلود بصورة لم تتهيأ لأي ديانة أخرى في أي عصر من العصور. فلما خضعت مصر لفاتحيها الأجانب، وولت عن الآلهة المصرية كل أهمية سياسية مرضية؛ اشتد بها ذلك الحنين إلى حياة الجزاء في الدار الآخرة.

وبعد الفتح الإغريقي، أصبحت مدينة الإسكندرية الجديدة مركزا لحياة مصر الدينية؛ بل أصبحت في الحق مركز الحياة الدينية للعالم الهلليني كافة، فأقام بطليموس الأول معبدا عظيما هو معبد السرابيوم، كان يعبد فيه نوع ما من ثالوث من الأرباب، مكون من سيرابيس وإيزيس وحورس، والأول اسم جديد أطلق على أوزيريس أبيس. ولم يكن الناس يعدونها أربابا منفصلة؛ بل هيئات ثلاثًا لإله واحد، ثم ذهبوا إلى أن سيرابيس هو زيوس الإغريقي، وأنه جوبيتر (أي المشترى) الروماني وإله الشمس الفارسي، وانتشرت هذه العبادة حيثما بسط النفوذ الهلليني ألويته، حتى لقد بلغ شمال الهند وغرب الصين.



ولا عجب أن تسود فكرة الخلود؛ خلود المثوبة والسلوى، وأن يتلقفها بشوق عالم كانت فيه حياة الناس العـاديين فـي تعس يحطم كل رجاء. وكان سـيرابيس يسـمى "مخلـص النفوس"، ولو تأملت تراتيل ذلك الزمان لوجدتها تقول: "لـن نبرح بعد الموت في ظلال عنايته الربانية". أما إيزيس فكانت تجتذب إليها كثيرا من الأنفس المتعبـدة الفاتنـة. وتماثيلهـا المقامة في معابدها كانت تمثلها في صورة ربة السماء وهي تحمل بين ذراعيها طفلها حورس. وكانـت الشـموع توقـد أمامها، كما كانت النذور تقدم إليها، على حـين أن الكهـان الحليقين الناذرين أنفسهم للعزوبة كانوا يقومون على خدمـة هيكلها.

أفضى قيام الإمبراطورية الرومانية إلى فتح أبواب عـالم أوروبا الغربية لهذه العقيدة النامية؛ ومن ثم ترسمت معابـد سيرابيس إيزيس، وتراتيل الكهان والأمل في حيـاة الخلـود خطى الأعلام الرومانية إلى أسـكتلندة وهولنـدة، علـى أن منافسي ديانة سيرابيس إيزيس كانوا كثيرين. ومـن أبـرز هؤلاء المنافسين للديانة المثرائية؛ وهي ديانـة ذات أرومـة فارسية، وتتمركز حول خفايا نسيت اليوم، مدارها مثرا، وهو

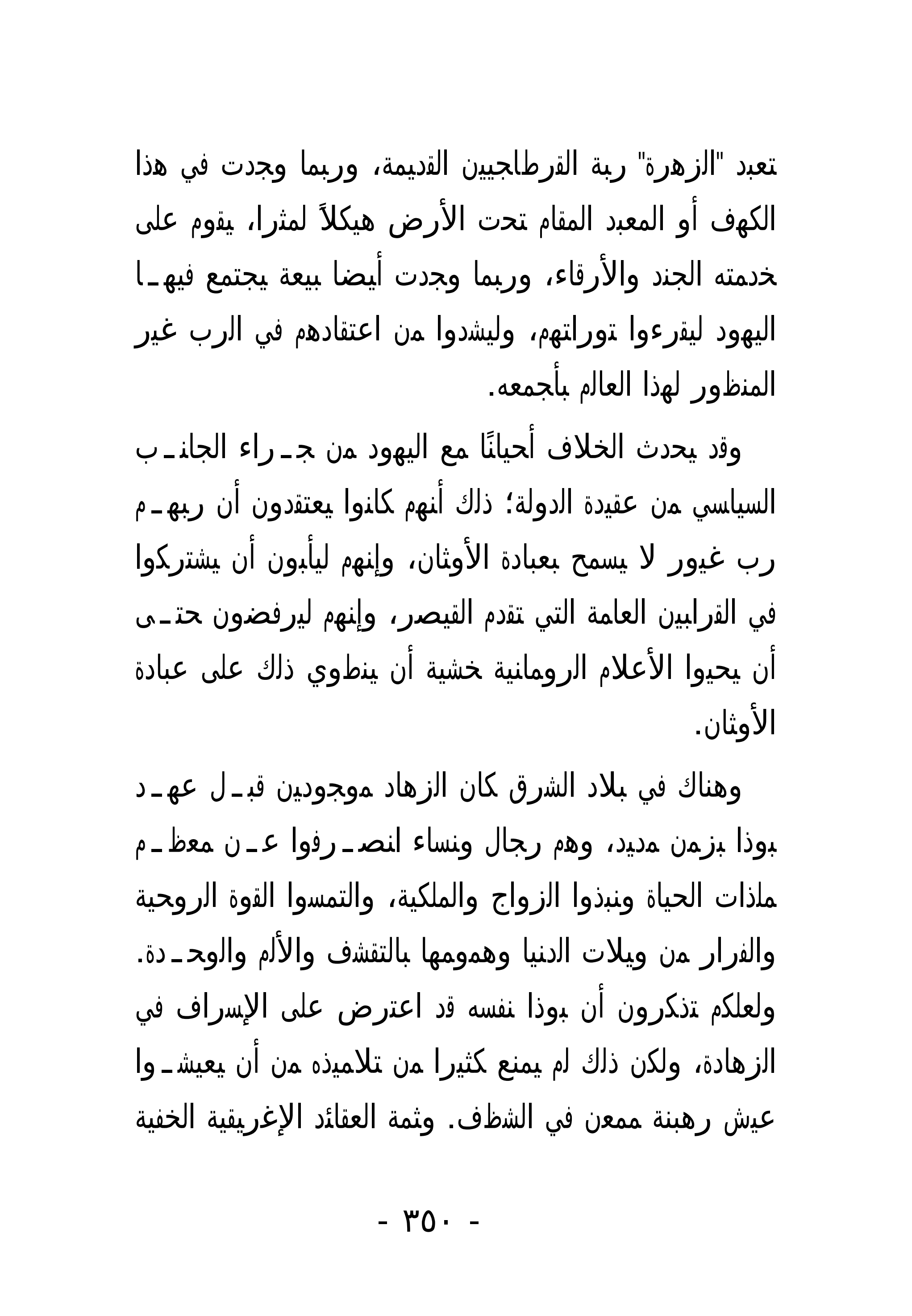


يضحي بعجل مقدس محب للخير، وكأني هنا أرى شيئًا بدائيا جدا، وأقدم كثيرا من معتقدات سـيرابيس إيـزيس المعقـدة المصطنعة؛ فنحن هنا نكر راجعين مباشرة إلى عهد القرابين الدموية لمرحلة العصر الشمسي الحجري من الثقافة البشرية. والعجل المرسوم على الآثار المثرائية ينزف دائما بغـزارة من جرح في جنبه، ومن هذا الدم تنبع الحياة الجديدة. وكـان من ينقطع لعقيدة مثرا يستحم فعلا في دم العجل الضحية. فإذا حل يوم انخراطه في العهد دخل تحت سقالة يذبح عليها عجل ليسيل عليه الدم فعلاً.

وكل من هاتين العقيدتين ديانة شخصية؛ وهو قول يصدق على كثير من العقائد العديدة المتماثلة، التي كانت تنشد ولاء الأرقاء والمواطنين في عهد أباطرة الرومـان الأول، وهـي شخصية لأنها تهدف إلـى الخـلاص الشخصـي والخلـود الشخصي. ولم تكن الديانات القديمة شخصية على مثل هـذا النحو؛ بل كانت اجتماعية. والأصل فـي الطـراز القـديم للمعبود أن يكون ربا أو ربة للمدينة أو للدولة أولاً، ولم يكن إلها للفرد إلا في المحل الثاني. وكان تقديم القرابين وظيفـة عامة لا خاصة؛ ذلك أنها تتصل بالحاجات العملية للجامعـة

في هذا العالم الذي نعيش فيه. ولكن الإغريق ومن ورائهـم الرومان قد أبعدوا الديانة عن مجال السياسة، فالديانـة قـد انسحبت إلى العالم الآخر تقودها التقاليد المصرية.

واستطاعت ديانات الخلود الفردي هـذه أن تسـلب مـن الديانات القديمة التابعة للدولة كل مـا تحتويـه مـن عـزم وعاطفة، بيد أنها لم تحل محلها فعلاً. والمدينة النموذجية في عهد أباطرة الرومان الأول هي التي كانت تحوي عددا مـن المعابد المشيدة لعبادة جميع أنواع الآلهة، فربما وجدت بهـا معبدا لجوبيتر [المشترى] الكابيتولي رب روما العظيم، وربما وجدت هناك أيضا معبدا آخر للقيصر المتربع على العرش؛ ذلك أن القياصرة تعلموا من الفراعنـة أن الألوهيـة شـيء ممكن. وكانت تقام في مثل هذه المعابد عبادات ذات طـابع سياسي، فخمة المظهر ولكن لا روح فيها، وهناك كان الناس يدلفون ليقدموا الذبائح، ويحرقون شيئًا من البخور ليظهـروا ولاءهم لقيصر، ولكن معبد إيزيس ملكة السماء العزيزة هـو الذي تهفو إليه القلوب، وتسعى إليه أقدام كل فرد مفعم الفؤاد بالمتاعب، ينشد النصيحة وتفريج الكرب، وربما وجدت آلهة محلية ذات طباع شاذة؛ فقد ظلت مدينة إشبيلية زمنًا مديـدا


تعبد "الزهرة" ربة القرطاجيين القديمة، وربما وجدت في هذا الكهف أو المعبد المقام تحت الأرض هيكلاً لمثرا، يقوم على خدمته الجند والأرقاء، وربما وجدت أيضا بيعة يجتمع فيهـا اليهود ليقرءوا توراتهم، وليشدوا من اعتقادهم في الرب غير المنظور لهذا العالم بأجمعه.

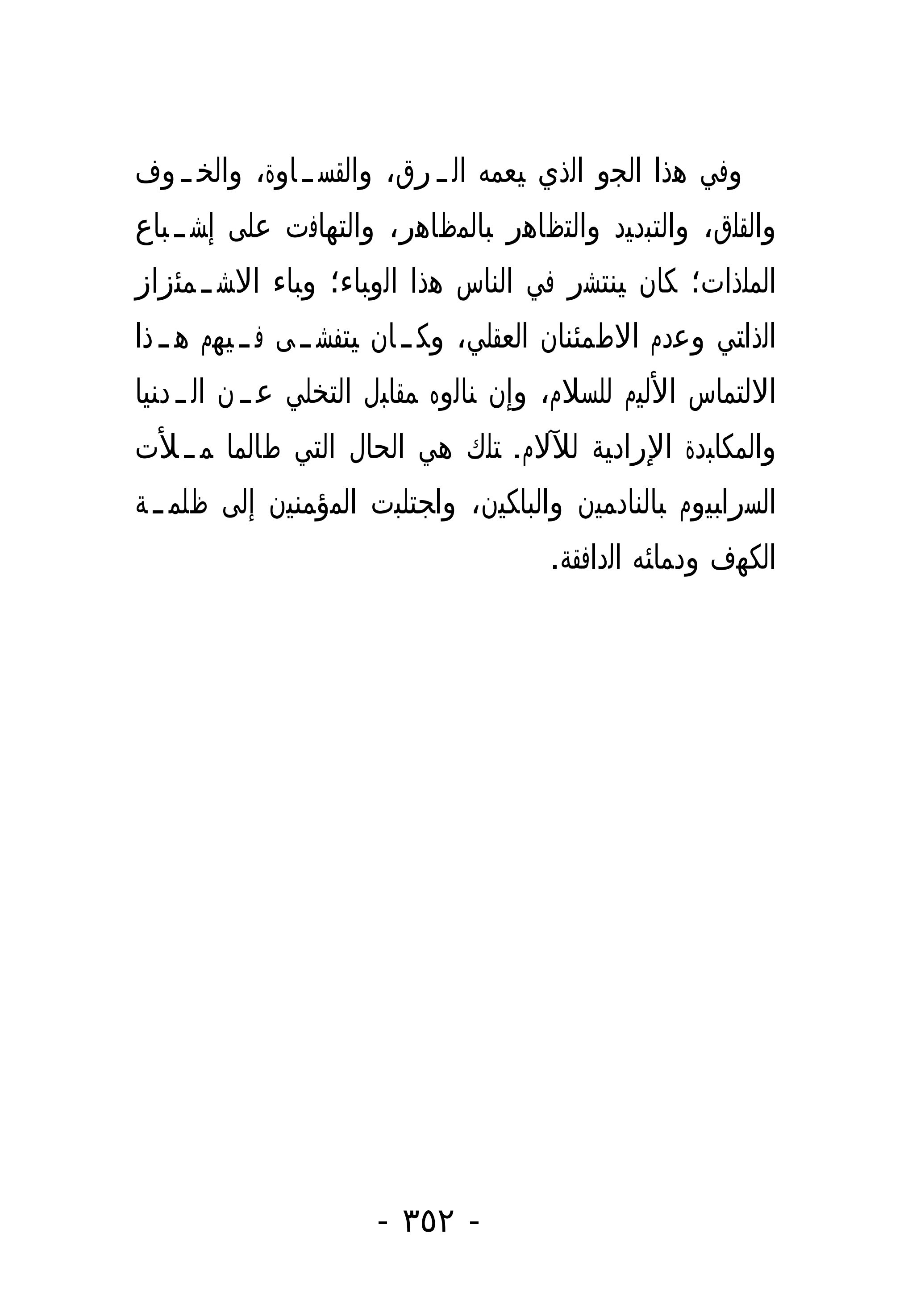
وقد يحدث الخلاف أحيانًا مع اليهود من جـراء الجانـب السياسي من عقيدة الدولة؛ ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن ربهـم رب غيور لا يسمح بعبادة الأوثان، وإنهم ليأبون أن يشتركوا في القرابين العامة التي تقدم القيصر، وإنهم ليرفضون حتـى أن يحيوا الأعلام الرومانية خشية أن ينطوي ذلك على عبادة الأوثان.

وهناك في بلاد الشرق كان الزهاد موجودين قبـل عهـد بوذا بزمن مديد، وهم رجال ونساء انصـرفوا عـن معظـم ملذات الحياة ونبذوا الزواج والملكية، والتمسوا القوة الروحية والفرار من ويلات الدنيا وهمومها بالتقشف والألم والوحـدة. ولعلكم تذكرون أن بوذا نفسه قد اعترض على الإسراف في الزهادة، ولكن ذلك لم يمنع كثيرا من تلاميذه من أن يعيشـوا عيش رهبنة ممعن في الشظف. وثمة العقائد الإغريقية الخفية

التي كانت لها أنظمة شبيهة بهذه، وربما غلت إلى حد التنكيل بالنفس. وظهر الزهد بين المجتمعات اليهودية فـي يهـوذا والإسكندرية في القرن الأول ق. م أيضا؛ فكانت جماعـات من الناس تتخلى عن العالم وتستسلم للتقشـفات والتـأملات الصوفية، ومن هؤلاء طائفة الإسينيين(1). وانصرم القرنـان الأول والثاني الميلاديان والعالم كله غـارق أو يكـاد فـي نزوعه إلى مثل هذا التبرؤ من الحياة، ممعن في نشدانه العام "للخلاص" من محن الزمان؛ فلقد ولى من الدنيا الشعور القديم باستقرار النظم، وولت معه الثقة القديمة في القسيس والمعبد والقانون والعرف.

---

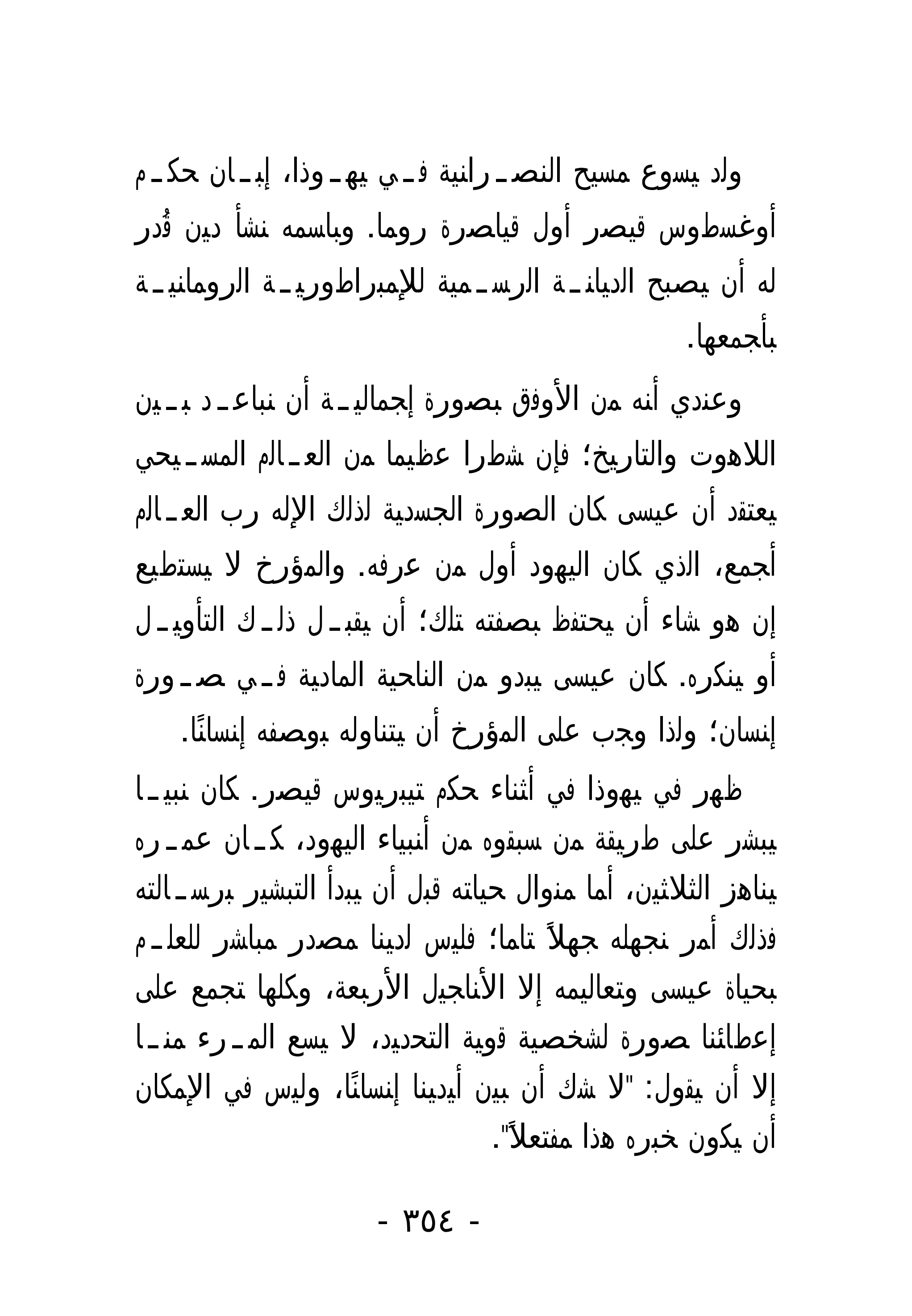
(1) الإسينيون (Essenes) هيئة من الزهاد اليهود بفلسطين قبل ظهور المسيحية، نظموا حياتهم على قواعد تماثل قواعد عيش الرهبنـات التي ظهرت فيما بعد، ومارسوا طريقة المشاركة في السلع. وقـد ذكرهم من المؤرخين فيلون ويوسيفوس وبليني. [المترجم]



وفي هذا الجو الذي يعمه الـرق، والقسـاوة، والخـوف والقلق، والتبديد والتظاهر بالمظاهر، والتهافت على إشـباع الملذات؛ كان ينتشر في الناس هذا الوباء؛ وباء الاشـمئزاز الذاتي وعدم الاطمئنان العقلي، وكـان يتفشـى فـيهم هـذا الالتماس الأليم للسلام، وإن نالوه مقابل التخلي عـن الـدنيا والمكابدة الإرادية للآلام. تلك هي الحال التي طالما مـلأت السرابيوم بالنادمين والباكين، واجتلبت المؤمنين إلى ظلمـة الكهف ودمائه الدافقة.

الفصل السابع والثلاثون

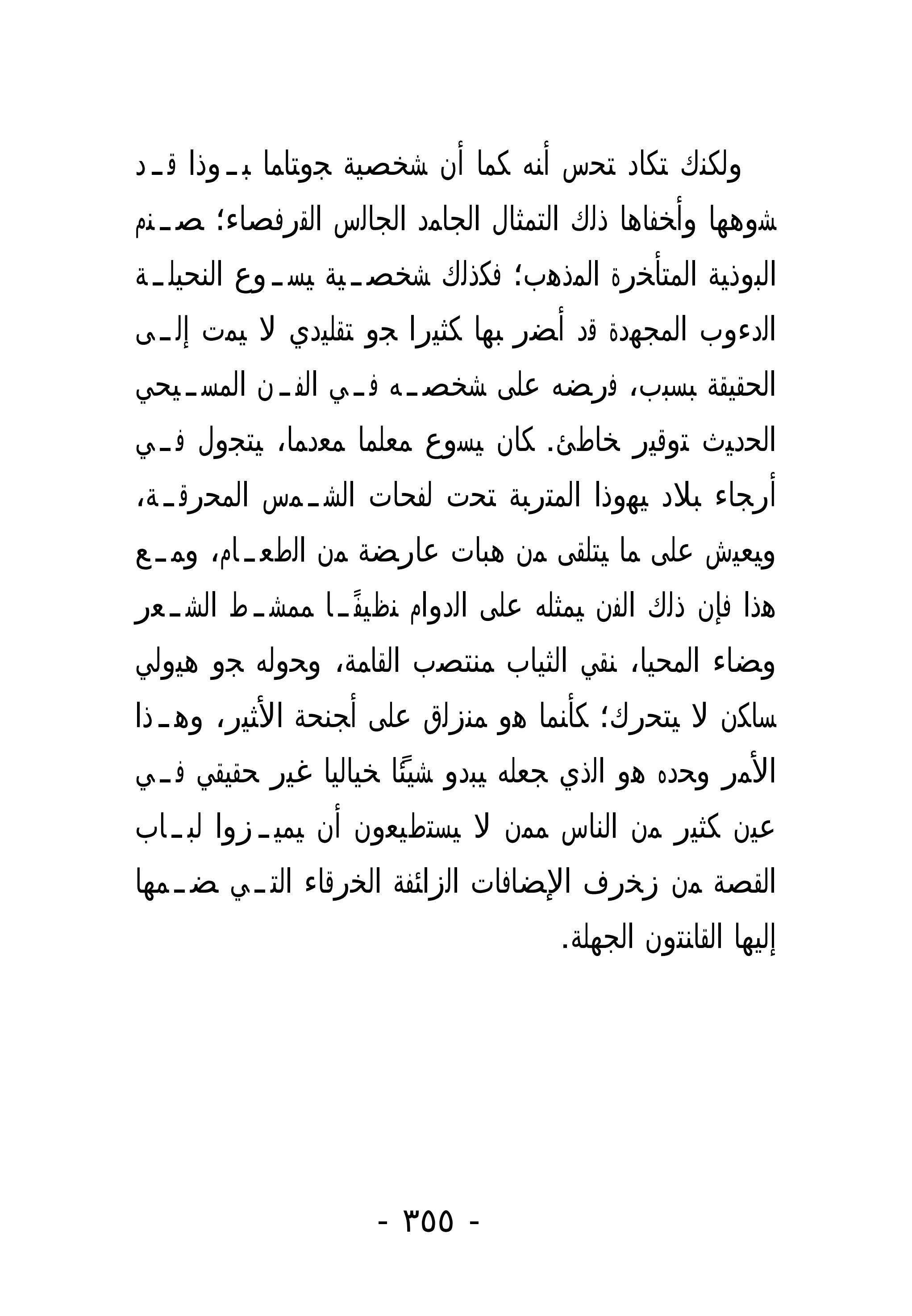
تعاليم يسوع



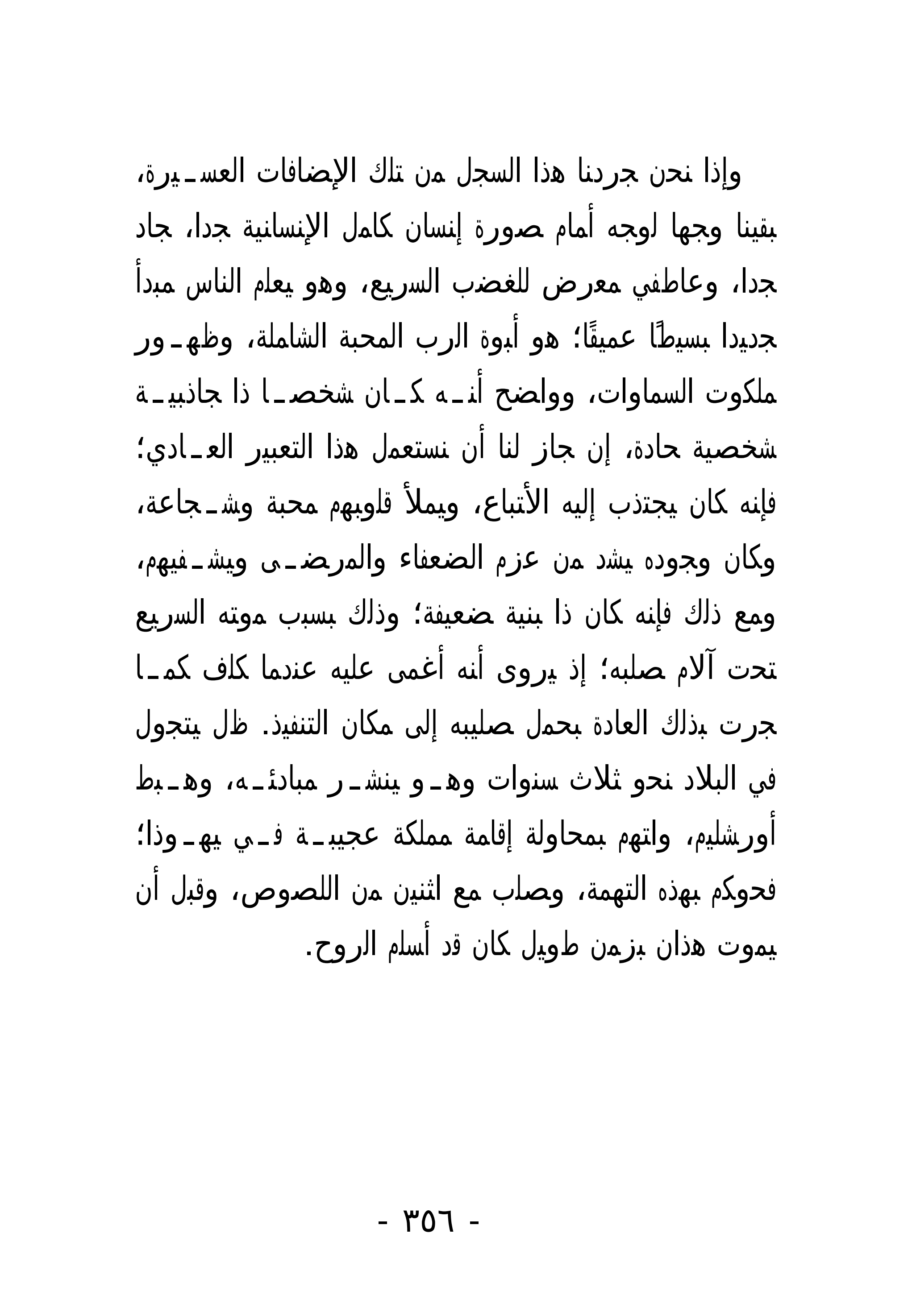
ولد يسوع مسيح النصـرانية فـي يهـوذا، إبـان حكـم أوغسطوس قيصر أول قياصرة روما. وباسمه نشأ دين قُدر له أن يصبح الديانـة الرسـمية للإمبراطوريـة الرومانيـة بأجمعها.

وعندي أنه من الأوفق بصورة إجماليـة أن نباعـد بـين اللاهوت والتاريخ؛ فإن شطرا عظيما من العـالم المسـيحي يعتقد أن عيسى كان الصورة الجسدية لذلك الإله رب العـالم أجمع، الذي كان اليهود أول من عرفه. والمؤرخ لا يستطيع إن هو شاء أن يحتفظ بصفته تلك؛ أن يقبـل ذلـك التأويـل أو ينكره. كان عيسى يبدو من الناحية المادية فـي صـورة إنسان؛ ولذا وجب على المؤرخ أن يتناوله بوصفه إنسانًا.

ظهر في يهوذا في أثناء حكم تيبريوس قيصر. كان نبيـا يبشر على طريقة من سبقوه من أنبياء اليهود، كـان عمـره يناهز الثلاثين، أما منوال حياته قبل أن يبدأ التبشير برسـالته فذلك أمر نجهله جهلاً تاما؛ فليس لدينا مصدر مباشر للعلـم بحياة عيسى وتعاليمه إلا الأناجيل الأربعة، وكلها تجمع على إعطائنا صورة لشخصية قوية التحديد، لا يسع المـرء منـا إلا أن يقول: "لا شك أن بين أيدينا إنسانًا، وليس في الإمكان أن يكون خبره هذا مفتعلاً".



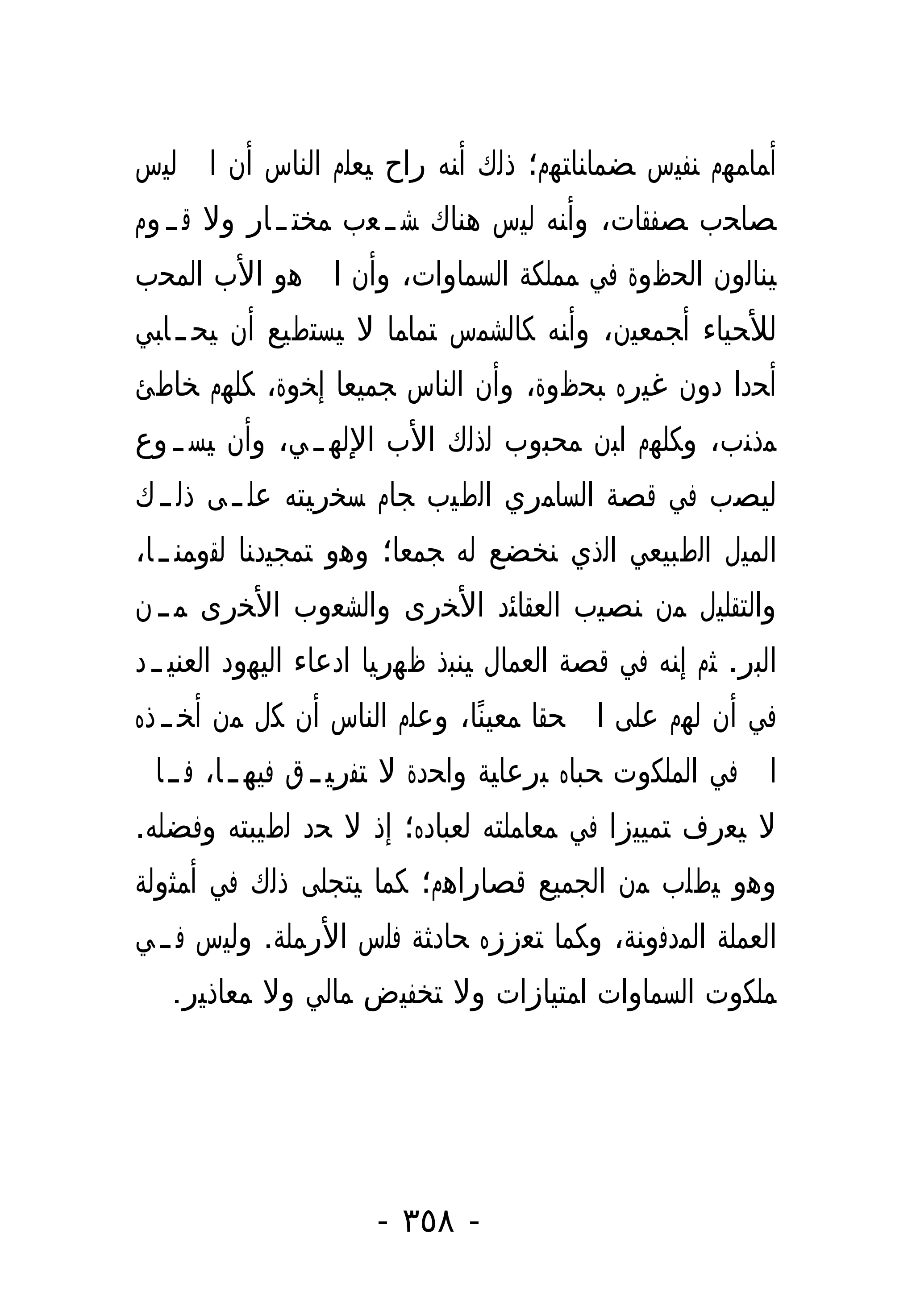
ولكنك تكاد تحس أنه كما أن شخصية جوتاما بـوذا قـد شوهها وأخفاها ذلك التمثال الجامد الجالس القرفصاء؛ صـنم البوذية المتأخرة المذهب؛ فكذلك شخصـية يسـوع النحيلـة الدءوب المجهدة قد أضر بها كثيرا جو تقليدي لا يمت إلـى الحقيقة بسبب، فرضه على شخصـه فـي الفـن المسـيحي الحديث توقير خاطئ. كان يسوع معلما معدما، يتجول فـي أرجاء بلاد يهوذا المتربة تحت لفحات الشـمس المحرقـة، ويعيش على ما يتلقى من هبات عارضة من الطعـام، ومـع هذا فإن ذلك الفن يمثله على الدوام نظيفًـا ممشـط الشـعر وضاء المحيا، نقي الثياب منتصب القامة، وحوله جو هيولي ساكن لا يتحرك؛ كأنما هو منزلق على أجنحة الأثير، وهـذا الأمر وحده هو الذي جعله يبدو شيئًا خياليا غير حقيقي فـي عين كثير من الناس ممن لا يستطيعون أن يميـزوا لبـاب القصة من زخرف الإضافات الزائفة الخرقاء التـي ضـمها إليها القانتون الجهلة.


وإذا نحن جردنا هذا السجل من تلك الإضافات العسـيرة، بقينا وجها لوجه أمام صورة إنسان كامل الإنسانية جدا، جاد جدا، وعاطفي معرض للغضب السريع، وهو يعلم الناس مبدأ جديدا بسيطًا عميقًا؛ هو أبوة الرب المحبة الشاملة، وظهـور ملكوت السماوات، وواضح أنـه كـان شخصـا ذا جاذبيـة شخصية حادة، إن جاز لنا أن نستعمل هذا التعبير العـادي؛ فإنه كان يجتذب إليه الأتباع، ويملأ قلوبهم محبة وشـجاعة، وكان وجوده يشد من عزم الضعفاء والمرضـى ويشـفيهم، ومع ذلك فإنه كان ذا بنية ضعيفة؛ وذلك بسبب موته السريع تحت آلام صلبه؛ إذ يروى أنه أغمى عليه عندما كلف كمـا جرت بذلك العادة بحمل صليبه إلى مكان التنفيذ. ظل يتجول في البلاد نحو ثلاث سنوات وهـو ينشـر مبادئـه، وهـبط أورشليم، واتهم بمحاولة إقامة مملكة عجيبـة فـي يهـوذا؛ فحوكم بهذه التهمة، وصلب مع اثنين من اللصوص، وقبل أن يموت هذان بزمن طويل كان قد أسلم الروح.

ولا شك أن مذهب ملكوت السموات الذي هو فكرة يسوع الرئيسية من أشد المذاهب الثوريـة التـي حركـت الفكـر الإنساني في جميع العصور، فلا عجب إذن أن فات عالم ذلك الزمان أن يفهم معناها الكامل، وأن ينكص على عقبيه فزعا من أي فهم – مهما دق - لتحدياتها الهائلة لما يرسـخ لـدى الناس من عادات ونظم؛ ذلك أن مذهب ملكـوت السـماوات كما يلوح أن يسوع كان يعلمه للناس لم يكن إلا طلبا جريئًـا لا تسامح فيه يطالب بتغيير كامل وتطهير تام لحياة جنسـنا المكافح، تطهير مطلق من الداخل والخارج على السواء.

وعلى القارئ أن يلجأ إلى الأناجيل التماسا للبقية الباقيـة من تلك الفكرة الهائلة؛ فكل ما يهمنا في هذا المقام إنما هـي الهزة التي أحدثها اصطدامها بالفكرات المستقرة القديمة.

كان اليهود يؤمنون بأن ا الرب الأحد للعـالم الأجمـع؛ كان رب بر وصلاح، ولكنهم كانوا يقولون أيضا بأنـه رب تاجر، أتم في شأنهم صفقة مع أبيهم إبراهام، صفقة رابحـة جدا لصالحهم، والحق يقال؛ يتعهد بها أن يرتفـع بهـم فـي النهاية إلى السيادة علـى الأرض!!؟. فـلا عجـب إذن أن يأخذهم الفزع والغضب حين يسمعون يسوع وهـو يحطـم



أمامهم نفيس ضماناتهم؛ ذلك أنه راح يعلم الناس أن ا ليس صاحب صفقات، وأنه ليس هناك شـعب مختـار ولا قـوم ينالون الحظوة في مملكة السماوات، وأن ا هو الأب المحب للأحياء أجمعين، وأنه كالشمس تماما لا يستطيع أن يحـابي أحدا دون غيره بحظوة، وأن الناس جميعا إخوة، كلهم خاطئ مذنب، وكلهم ابن محبوب لذلك الأب الإلهـي، وأن يسـوع ليصب في قصة السامري الطيب جام سخريته علـى ذلـك الميل الطبيعي الذي نخضع له جمعا؛ وهو تمجيدنا لقومنـا، والتقليل من نصيب العقائد الأخرى والشعوب الأخرى مـن البر. ثم إنه في قصة العمال ينبذ ظهريا ادعاء اليهود العنيـد في أن لهم على ا حقا معينًا، وعلم الناس أن كل من أخـذه ا في الملكوت حباه برعاية واحدة لا تفريـق فيهـا، فـا لا يعرف تمييزا في معاملته لعباده؛ إذ لا حد لطيبته وفضله. وهو يطلب من الجميع قصاراهم؛ كما يتجلى ذلك في أمثولة العملة المدفونة، وكما تعززه حادثة فلس الأرملة. وليس فـي ملكوت السماوات امتيازات ولا تخفيض مالي ولا معاذير.

ولكن يسوع لم يقتصر فقط على انتهاك وطنيـة اليهـود القبلية الحادة، وهم كما هو معلوم شعب ذو ولاء قبلي قوي؛ بل راح يزيح كل عاطفة قبلية ضيقة، تنطوي على التحديـد في ذلك الفيضان العظيم؛ فيضان حب ا ؛ إذ لا بد لمملكـة السماء بأكملها أن تشمل عائلة أتباعه. والإنجيل يحدثنا أنـه "وفيما هو يكمل الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خـارجين طالبين أن يكلموه. فقال له واحد هو ذا أمك وإخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك. فأجاب وقال للقائل له: من هـي أمي ومن هم إخوتي؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال: ها أمـي وإخوتي؛ لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هـو أخي وأختي وأمي"[1].

ولم يكتف يسوع بتوجيه الضربات إلى الوطنيـة، وإلـى روابط الولاء القبلي باسم أبوة ا الجامعـة وأخـوة البشـر جميعا؛ بل كان من الواضح أن تعاليمه كانـت تهـاجم كـل ما يحتويه النظام الاقتصادي من تدرج، وتنتقص كل ثـروة خاصة وكل منفعة شخصية؛ ذلك أن الناس جميعا ينتمون إلى الملكوت، وإن ممتلكاتهم جميعا تنتمي إلـى الملكـوت، وإن

([1]) إنجيل متى ١٢، ٤٦ – ٥٠.

الحياة البارة للناس جميعا، الحياة البارة الوحيدة؛ إنما تقوم في خدمة إرادة ا بكل ما نملك، وبكل أفئدتنا، وظل يذم الثروة الخاصة مرة بعد أخرى، ويذم الإبقاء على كل حياة خاصة.

"وفيما هو خارج إلى الطريق، ركض واحد وجثـا لـه، وسأله: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرث الحياة الأبديـة؟ فقال له يسوع: لماذا تدعوني صالحا، ليس أحدا صـالحا إلا واحد وهو ا . أنت تعرف الوصـايا؛ لا تـزن، لا تقتـل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تسلب، أكـرم أبـاك وأمـك. فأجاب وقال له: يا معلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتي. فنظر إليه يسوع وأحبه، وقال له: يعوزك شيء واحد، اذهب بع كل مالك وأعط الفقراء، فيكون لك كنز في السماء، وتعال اتبعني حاملاً الصليب. فاغتم على القول ومضى حزينًا؛ لأنه كان ذا أموال كثيرة. فنظر يسوع حوله وقال لتلاميذه: مـا أعسـر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت ا ! فتحيـر التلاميـذ مـن كلامه. فأجاب يسوع أيضا وقال لهم: يا بنـي، مـا أعسـر دخول المتكلين على الأموال إلى ملكوت ا . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت ا [1]".

(1) إنجيل مرقس، الإصحاح العاشر ١٧- ٢٥.

وفضلاً عن ذلك فإن يسوع قد ضاق بما للديانة الرسـمية من بر قائم على المساومات؛ وذلك بسبب نبوءته الهائلة بذلك الملكوت الذي يتحد فيه الناس جميعا فـي ذات ا ، ثـم إن شطرا عظيما مما سجل من أحاديثه موجـه إلـى المبالغـة الشديدة في الأخذ بأصول التقوى وحياة التقـى. "ثـم سـأله الفريسيون والكتبة: لماذا لا يسلك تلاميـذك حسـب تقليـد الشيوخ، بل يأكلون خبزا بأيدٍ غير مغسولة؟ فأجـاب وقـال لهم: حسنًا تنبأ إشعيا عنكم أنتم المرائين كما هو مكتوب. هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عني بعيدا. وبـاطلاً يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس. لأنكم تركتم وصية ا وتتمسكون بتقليد الناس. غسل الأباريق والكئوس، وأمورا آخر كثيرة مثل هذه تفعلون. ثم قـال لهـم: حسـنًا رفضتم وصية ا لتحتفظوا تقليدكم"[1].

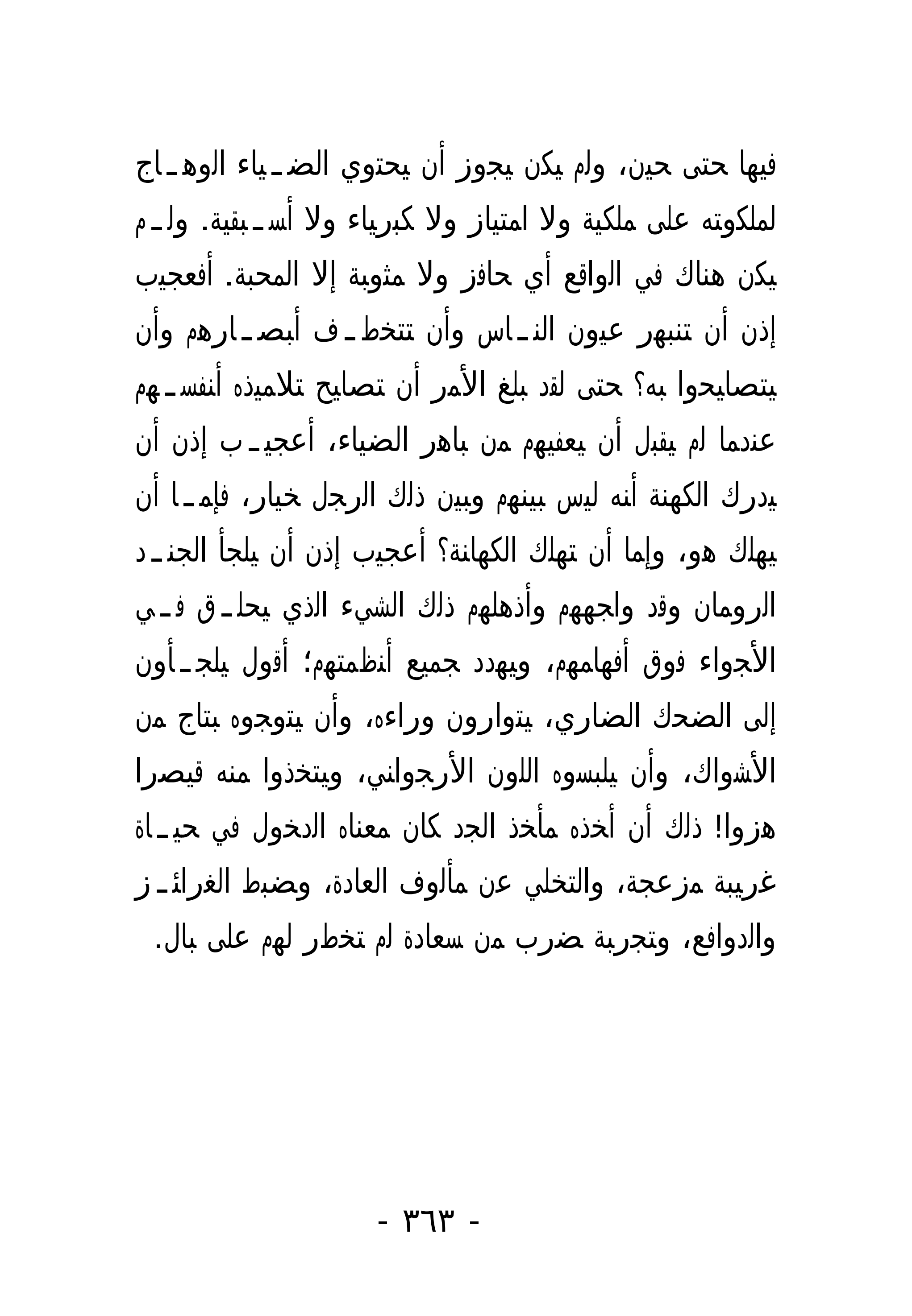
لم يكن ما أعلنه يسوع مجرد ثورة خلقية أو اجتماعية، بل إن هناك عشرات الشواهد التي تدل بجلاء على أن تعاليمـه كانت تنطوي على لمسة سياسية من أبسط الأنواع. حقًا إنـه قال إن مملكته لا تنتمي إلى هذا العالم، وإن مكانها في قلوب

([1]) إنجيل مرقس الإصحاح السابع ٥ – ٩.

الرجال ليس عرشًا من العروش؛ ولكن لا يقـل عـن ذلـك وضوحا أنه حيثما قامت مملكته من قلوب الناس، ومهما يكن مقدارها في تلك القلوب؛ فإن العالم الخارجي يتجدد ويلم بـه الانقلاب بنفس النسبة.

ومهما يكن ما فات سامعيه من أقوالـه الأخـرى بسـبب عمايتهم أو صممهم؛ فمن الجلي أنهم لم يفتهم تصميمه علـى إحداث انقلاب في العالم، فإن اتجاه المعارضة التـي لقيهـا، والظروف التي أحاطت بمحاكمته وإعدامه؛ تدل بأجلى بيـان على أن معاصريه كانوا يرون فيـه صـورة مـن يقتـرح صراحا - بل يرون أنه اقترح صـراحا – تغييـر الحيـاة الإنسانية بأجمعها وصهرها وتحريرها.

وإذا راعينا ما قاله صراحا، لم نجد غرابة في أن يشـعر كل غني وكل موفق رغيد الحال بشعور الرعب من التعاليم الجديدة الغريبة، ويحس أن عالمه يـدور بـه بسـبب هـذه التعاليم!! ذلك أنه كان يحاول استخراج كل مدخراتهم التـي جمعوها عن طريق الخدمة في المجتمع ليصبه فـي خضـم حياة دينية جامعة، كان أشبه الناس بصـائد خلقـي رهيـب يستخرج البشرية من القبور القديمة الوادعة التي كانت تعيش



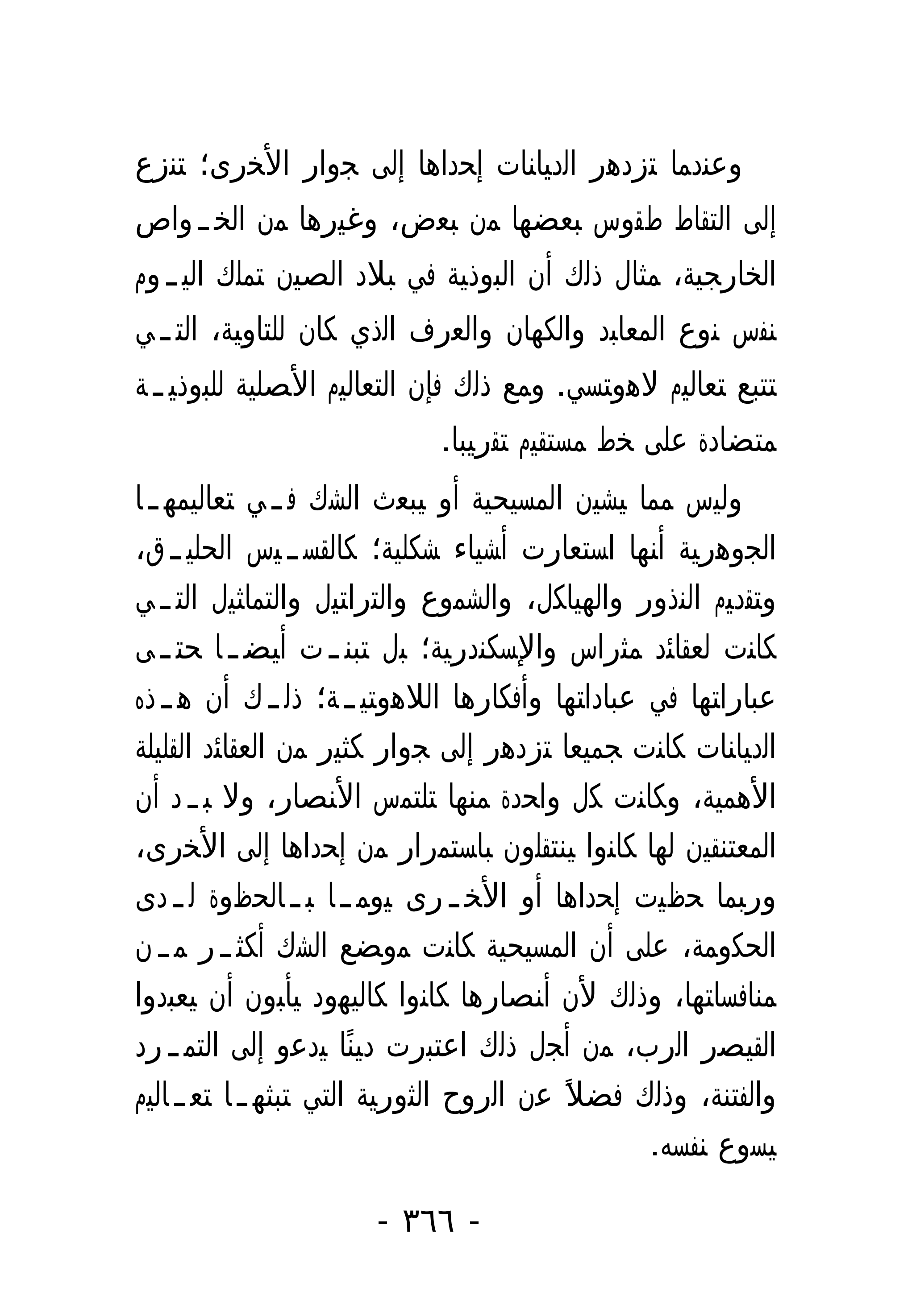
فيها حتى حين، ولم يكن يجوز أن يحتوي الضـياء الوهـاج لملكوته على ملكية ولا امتياز ولا كبرياء ولا أسـبقية. ولـم يكن هناك في الواقع أي حافز ولا مثوبة إلا المحبة. أفعجيب إذن أن تنبهر عيون النـاس وأن تتخطـف أبصـارهم وأن يتصايحوا به؟ حتى لقد بلغ الأمر أن تصايح تلاميذه أنفسـهم عندما لم يقبل أن يعفيهم من باهر الضياء، أعجيـب إذن أن يدرك الكهنة أنه ليس بينهم وبين ذلك الرجل خيار، فإمـا أن يهلك هو، وإما أن تهلك الكهانة؟ أعجيب إذن أن يلجأ الجنـد الرومان وقد واجههم وأذهلهم ذلك الشيء الذي يحلـق فـي الأجواء فوق أفهامهم، ويهدد جميع أنظمتهم؛ أقول يلجـأون إلى الضحك الضاري، يتوارون وراءه، وأن يتوجوه بتاج من الأشواك، وأن يلبسوه اللون الأرجواني، ويتخذوا منه قيصرا هزوا! ذلك أن أخذه مأخذ الجد كان معناه الدخول في حيـاة غريبة مزعجة، والتخلي عن مألوف العادة، وضبط الغرائـز والدوافع، وتجربة ضرب من سعادة لم تخطر لهم على بال.

الفصل الثامن والثلاثون

تطور المسيحية المذهبية

لو اطلعنا على الأناجيل الأربعة لوجدنا فيهـا شخصـية عيسى وتعاليمه، ولم نعثر إلا على النزر اليسير من مـذاهب الكنيسة المسيحية. على أن الرسـائل (وهـي سلسـلة مـن الكتابات سطرها أتباع عيسى المباشرون) هي التي بسـطت فيها الخطوط العريضة للعقيدة المسيحية.

وكان القديس بولس من أعظـم مـن أنشـئوا المـذهب المسيحي، وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشـر النـاس. وكان اسم بولس في الأصل شاءول، وكان في بادئ الأمـر من أبرز وأنشط المضطهدين لفئة الحواريين القليلة العدد، ثم اعتنق المسيحية فجأة، وغير اسمه فجعله بولس. أوتي ذلـك الرجل قوة عقلية عظيمة، كما كان شديد الاهتمـام والحميـة لحركات زمانه الدينية، فتراه على علـم عظـيم باليهوديـة والميثرائية، وديانة ذلك الزمان التي تعتنقها الإسكندرية، فنقل إلى المسيحية كثيرا من فكراتهم ومصطلح تعبيرهم، ولم يأت إلا بالقليل في توسيع أو تنمية فكرة يسوع الأصلية، وأعنـي بها فكرة "ملكوت السموات"، ولكنه علم النـاس أن عيسـى لم يكن المسيح الموعود فحسب، ولا زعيم اليهود الموعـود فقط؛ بل إن موته كان تضحية – مثل ممات الضحايا القديمة المقربة إلى الآلهة في أيام الحضارات البدائية - مـن أجـل خلاص البشرية.



وعندما تزدهر الديانات إحداها إلى جوار الأخرى؛ تنزع إلى التقاط طقوس بعضها من بعض، وغيرها من الخـواص الخارجية، مثال ذلك أن البوذية في بلاد الصين تملك اليـوم نفس نوع المعابد والكهان والعرف الذي كان للتاوية، التـي تتبع تعاليم لاهوتسي. ومع ذلك فإن التعاليم الأصلية للبوذيـة متضادة على خط مستقيم تقريبا.

وليس مما يشين المسيحية أو يبعث الشك فـي تعاليمهـا الجوهرية أنها استعارت أشياء شكلية؛ كالقسـيس الحليـق، وتقديم النذور والهياكل، والشموع والتراتيل والتماثيل التـي كانت لعقائد مثراس والإسكندرية؛ بل تبنـت أيضـا حتـى عباراتها في عباداتها وأفكارها اللاهوتيـة؛ ذلـك أن هـذه الديانات كانت جميعا تزدهر إلى جوار كثير من العقائد القليلة الأهمية، وكانت كل واحدة منها تلتمس الأنصار، ولا بـد أن المعتنقين لها كانوا ينتقلون باستمرار من إحداها إلى الأخرى، وربما حظيت إحداها أو الأخـرى يومـا بـالحظوة لـدى الحكومة، على أن المسيحية كانت موضع الشك أكثـر مـن منافساتها، وذلك لأن أنصارها كانوا كاليهود يأبون أن يعبدوا القيصر الرب، من أجل ذلك اعتبرت دينًا يدعو إلى التمـرد والفتنة، وذلك فضلاً عن الروح الثورية التي تبثهـا تعـاليم يسوع نفسه.

وراح القديس بولس يقرب إلى عقـول تلاميـذه الفكـرة الذاهبة إلى أن شأن عيسى كشأن "أوزيريس"؛ كان ربا مـات ليبعث حيا، وليمنح الناس الخلـود، وسـرعان مـا مزقـت المنازعات اللاهوتية المعقدة المجتمع المسيحي كل ممـزق، والعقيدة بعد في طور الانتشار؛ فاستعرت الخلافـات حـول علاقة هذا الرب يسوع "با " أبي البشرية.

فذهب أتباع آريوس إلى أن عيسى إله، غير أنـه متميـز عن الآب وأدنى منه مرتبة. وعلم أتبـاع سـابيليوس[1] أن يسوع لم يكن إلا مجرد أقنوم من أقانيم الآب، وأن ا هـو يسوع والآب في الوقت نفسه، مثلما يمكن أن يكون الرجـل والدا وصانعا في نفس الوقت، وارتأى الثالوثيون مذهبا أكثر دقة وغموضا يقول بأن ا واحد وثلاثة في وقت معا، وأنـه آب وابن وروح قدس.

وانقضى ردح من الزمن لاح فيه أن مذهب آريوس سيفوز بالنصر على منافسيه، ثم حدثت منازعات، وثارت مشـاحنات عنيفة، ونشبت حروب أسفرت عن فوز مبدأ الثالوثيين بالقبول لدى العالم المسيحي بأكمله. ومن الممكن العثور علـى ذلـك المبدأ في أتم صورة في عقيدة القديس إثناسيوس.

([1]) أسقف إفريقي عاش في منتصف القرن الثالث الميلادي. [المترجم]

ولن ندلي هنا بأي تعقيب على هذه الخصـومات؛ فهـي لا تؤثر في التاريخ أثر تعاليم يسوع الشخصـية؛ إذ يلـوح محققًا أن تعاليم عيسى الشخصية تؤذن بطور جديد في حياة جنسنا الخلقية والروحية، فـإن إصـرارها علـى أبـوة ا الشاملة، وعلى قيام أخـوة ضـمنية بـين النـاس جميعـا، وإصرارها على قداسة كل شخصية إنسانية بوصفها معبـدا حيا ؛ أمور كتب أن يكون لها أعمق الأثر في كل ما عقب ذلك من حياة البشرية، من الوجهتين السياسية والاجتماعيـة، فقد ظهر في العالم بمجيء المسيحية وانتشار تعاليم يسـوع احترام جديد لشخصية الإنسان في حد ذاته. أجل ربما صـح أن القديس بولس كان يعلم العبيد الطاعة، كما كان يدفع بذلك بعض نقاد المسيحية المعادين، ولكن يعدل ذلك في صدقه أن روح تعاليم يسوع بأجمعها - كما تحفظها لنـا الأناجيـل - تناهض إذلال الإنسان للإنسـان. هـذا إلـى أن المسـيحية عارضت بشكل أوضح انتهاك الكرامة الإنسانية الذي يحدث في مثل مصارعات المجالدين[1] في المجتلد.

([1]) المجالد Gladiator: هو مصارع محترف بروما القديمة، يتصارع مع الرجال أو الحيوانات في المجتلد، وهو الجزء المخصص للمصارعات من المدرج القـديم، وهو مفروش بالرمل ليصطرع فيه الرجال. [المترجم]

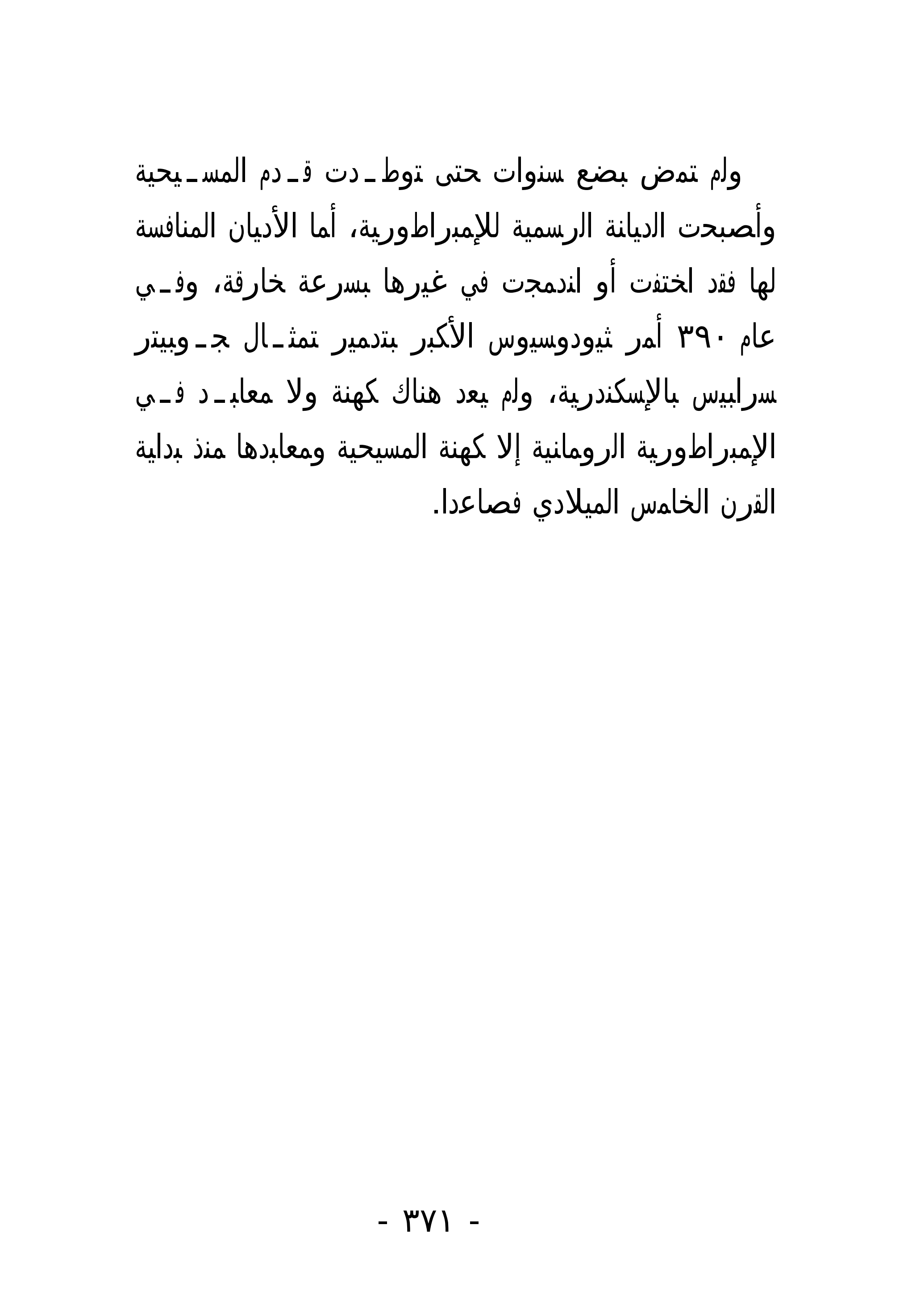
انتشرت تعـاليم الديانـة المسـيحية فـي كـل أرجـاء الإمبراطورية الرومانية إبان القرنين اللـذين أعقبـا مـيلاد المسيح، وأخذت توثق الروابط بين جمهور من المتنصـرين لا يبرح يزداد في كل آن، وتخلق منـه مجتمعـا مرتبطـًا بأواصر الفكرات والإرادة. واختلف موقف الأباطرة منهـا؛ فمنهم من عاداها، ومنهم من تسامح معها، وبذلت في كل من القرنين الأول والثاني محاولات للقضاء على هـذه العقيـدة، وانتهى الأمر في ٣٠٣ وما عقبها من أعوام بأن أنزل بهـا الإمبراطور دقلديانوس اضطهادا عظيما، فصودرت أمـلاك الكنيسة الضخمة، وجميع الكتب المقدسة والكتابات الدينية، ثم دمرت، وأُهدرت دماء المسيحيين على أنهم خارجون علـى القانون، وأُعدم كثير منهم.

وتدمير تلك الكتب أمر جدير بالملاحظة بوجه خاص؛ فهو يبين كيف عرفت السلطات قدرة الكلام المكتوب على ربـط أتباع العقيدة الجديدة معـا، وكانـت "عقائـد الكتـب" هـذه (المسيحية واليهودية) ديانات تعلم الناس، وكـان اسـتمرار بقائها يعتمد إلى حد كبير على قـدرة النـاس علـى قـراءة فكراتها المذهبية وتفهمها، ولم تكن الـديانات قديمـة العهـد

ترجع مثل هذا الرجوع إلى ذكاء الأفراد، حتى إذا أقبلت عصور الفوضى البربرية التي أخذت ظلماتها تغشى أوروبا آنذاك؛ كانت الكنيسة المسيحية هي الوسيلة الفعالة في المحافظة على التراث العلمي.

فشل اضطهاد دقلديانوس فشلاً تاما في القضاء على المجمع المسيحي النامي، وكان عديم الأثر في كثير من الولايات؛ وذلك لأن كتلة السكان وكثيرا من الموظفين كانوا من المسيحيين، ثم صدر في عام ٣١٧ مرسوم بالتسامح أصدره الإمبراطور جاليريوس الشريك[1]. وفي عام ٣٢٤ أصبح قسطنطين الأكبر الحاكم الوحيد للعالم الروماني، وهو صديق للمسيحية، كما أنه اعتنقها حين عمد وهو على فراش موته، فتخلى عن كل مدعياته في الألوهية، ووضع شارات المسيحية ورموزها على دروع جنوده وألويتهم..

([1]) أشركه معه دقلديانوس في الحكم في ٣٠٥، وجعله قيصرا على إلليريا Iliyricum والأقاليم الدانوبية. وانفرد بحكم الإمبراطورية الشرقية في ٣٠٥ عند تنازل دقلديانوس. [المترجم]



ولم تمض بضع سنوات حتى توطـدت قـدم المسـيحية وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية، أما الأديان المنافسة لها فقد اختفت أو اندمجت في غيرها بسرعة خارقة، وفـي عام ٣٩٠ أمر ثيودوسيوس الأكبر بتدمير تمثـال جـوبيتر سرابيس بالإسكندرية، ولم يعد هناك كهنة ولا معابـد فـي الإمبراطورية الرومانية إلا كهنة المسيحية ومعابدها منذ بداية القرن الخامس الميلادي فصاعدا.

الفصل التاسع والثلاثون

البرابرة يشطرون الإمبراطورية

إلى شطرين: شرقي وغربي

ظلت الإمبراطورية الرومانية تواجه البرابرة طوال القرن الثالث الميلادي، وهي تضمحل اجتماعيا وتنحل خلقيا. وكان أباطرة تلك الفترة مقاتلة عسكريين مستبدين، كما أن عاصمة الإمبراطورية راحت تنتقـل حسـبما تقتضـيه ضـرورات سياستهم الحربية، فتكون القيادة الإمبراطورية في ميلانو آنًا، وآنًا آخر فيما يسمى الآن ببلاد الصرب بمدينـة سـيرميوم أونيش، أو تكون بنيقوميديا[1] إحدى مدن آسـيا الصـغرى؛ ذلك أن مدينة روما الواقعة فـي منتصـف شـبه الجزيـرة الإيطالية كانت من البعد عن مركز النفوذ والسلطان بحيث لا تصلح أن تكون قصبة ملائمة للإمبراطوريـة؛ ولـذا أخـذ الاضمحلال يدب إليها.

أجل لم يبرح السـلام يرفـرف علـى معظـم أجـزاء الإمبراطورية، وكان الناس يتنقلون في ربوعها دون حاجـة إلى حمل سلاح، كما أن الجيوش ظلت معقل القوة ومصدرها الأوحد؛ ولكن الأباطرة الذين كانوا يعتمدون علـى كتـائبهم ما انفكوا يزدادون استبدادا ببقيـة أجـزاء الإمبراطوريـة،

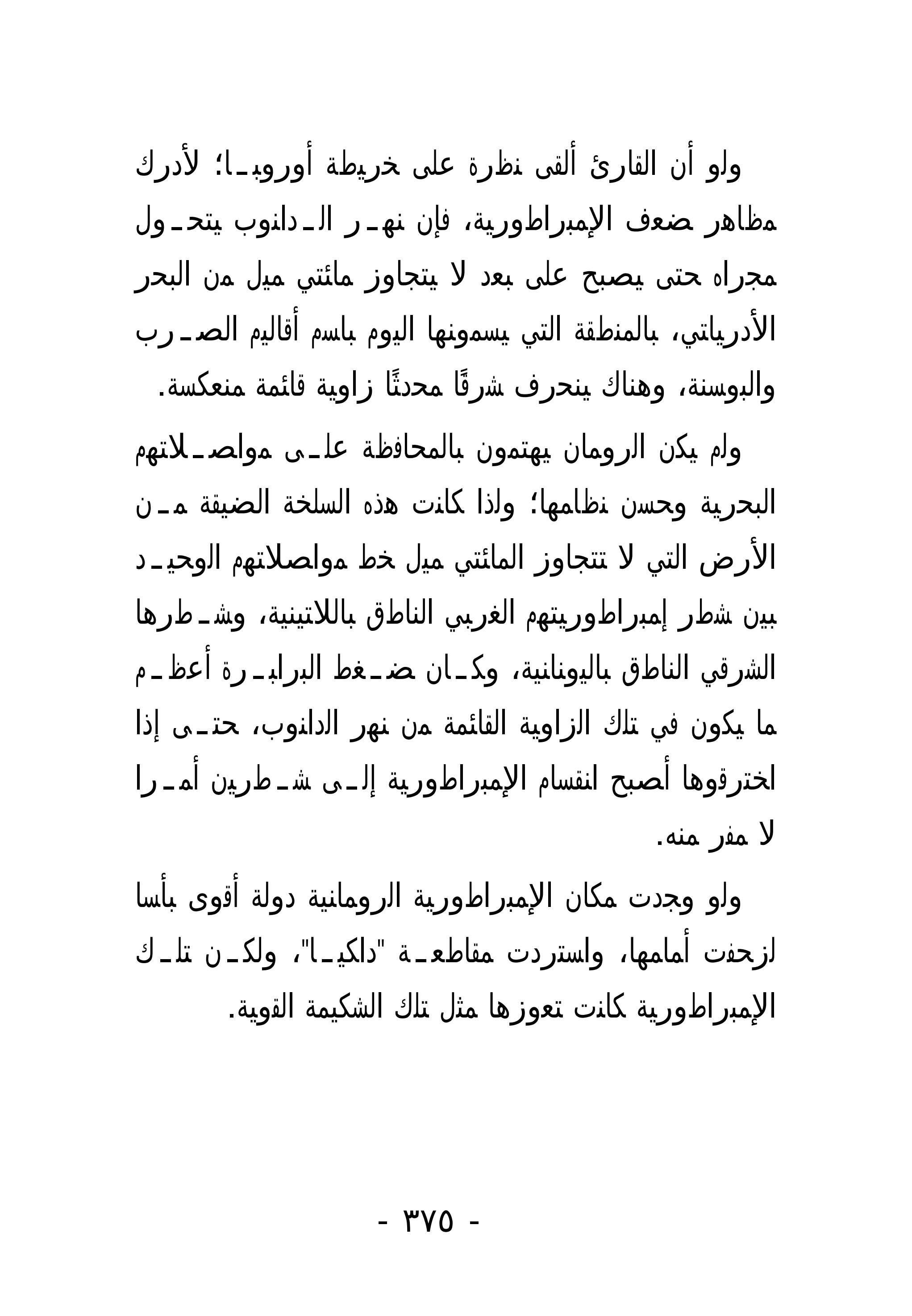
---

(1) مدينة قديمة بآسيا الصغرى على شاطئ بحـر مرمـرة، ومكانهـا إزميت العصرية. [المترجم]

وتزداد دولتهم في كل آن شبها بدولة الفرس، وغيرهم من ملوك الشرق، حتى لقد بلغ الأمر بدقلديانوس أن اتخذ لنفسه تاجا ملكيا، وارتدى ثيابا شرقية.

وفي إبان ذلك كان أعداء الإمبراطورية يضغطون بشدة على امتداد حدودها بأكملها، وكانت الحدود تمتد على طول نهري الراين والدانوب بوجه التقريب؛ فقد تقدم الفرنجة وغيرهم من القبائل الجرمانية حتى نهر الراين، واحتل الوندال شمال بلاد المجر، بينما نزل القوط الغربيون فيما كان يسمى آنذاك باسم "داكيا"، التي هي رومانيا الحالية. ومن وراء هؤلاء بجنوب الروسيا استقر القوط الشرقيون، بينما حل من ورائهم الألن (Alans) بإقليم الفولجا. وليت الأمر اقتصر على هؤلاء؛ فإن الشعوب المغولية كانت تشق آنذاك طريقها شقا نحو أوروبا، وكان الهون يفرضون الجزية وقتئذ على الألن والقوط الشرقيين ويدفعونهما غربا.

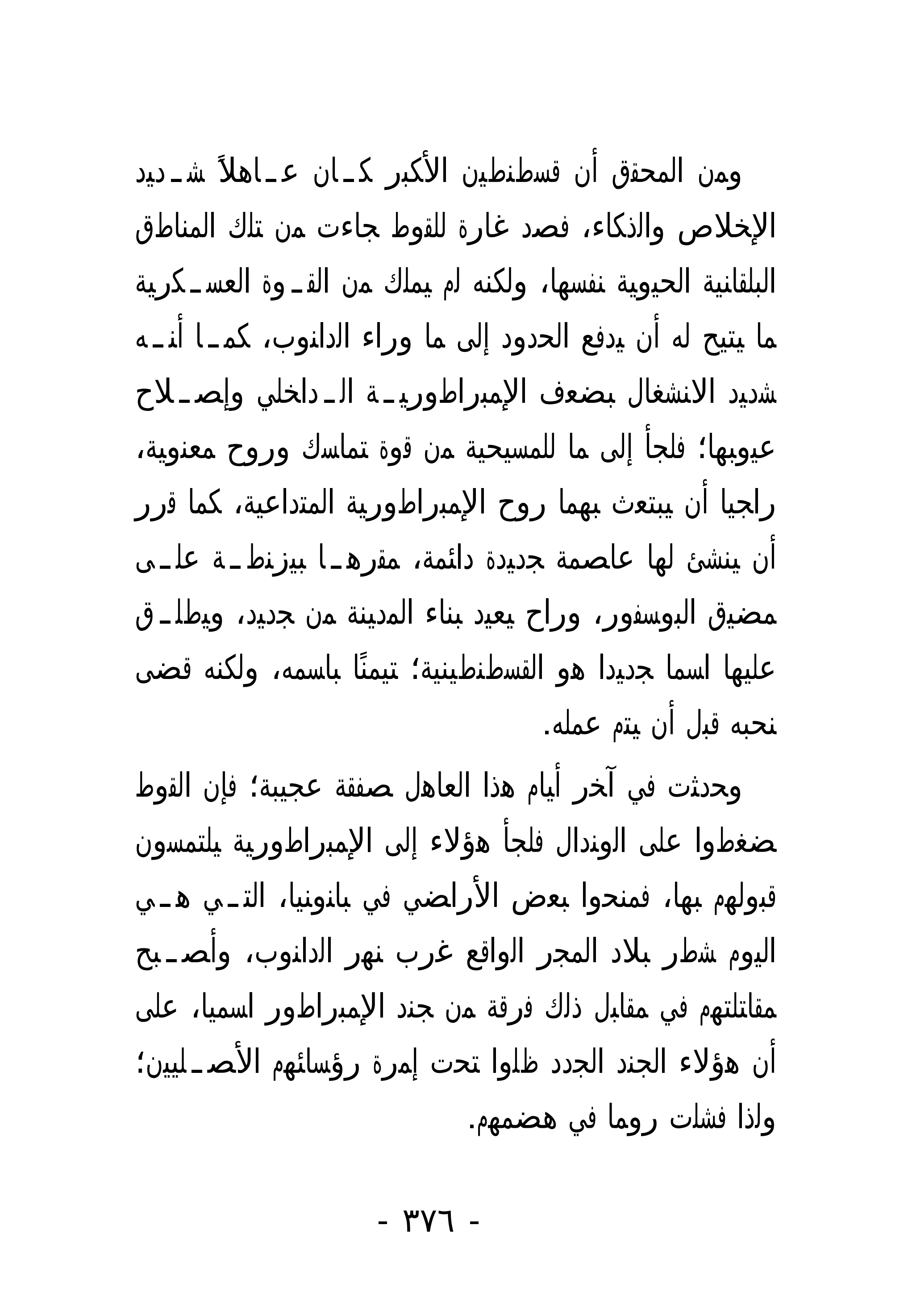
أما في آسيا؛ فإن التخوم الرومانية أخذت تتصدع وتتراجع بضغط دولة فارسية فتية ناهضة، وقد قدر لدولة الفرس الجديدة هذه - التي أقام دعائمها ملوك بني ساسان - أن تصبح منافسا قويا محبوا بالنجاح في جملة الأمر، وخصما لدودا بآسيا للدولة الرومانية إبان القرون الثلاثة التالية.



ولو أن القارئ ألقى نظرة على خريطة أوروبـا؛ لأدرك مظاهر ضعف الإمبراطورية، فإن نهـر الـدانوب يتحـول مجراه حتى يصبح على بعد لا يتجاوز مائتي ميل من البحر الأدرياتي، بالمنطقة التي يسمونها اليوم باسم أقاليم الصـرب والبوسنة، وهناك ينحرف شرقًا محدثًا زاوية قائمة منعكسة.

ولم يكن الرومان يهتمون بالمحافظة علـى مواصـلاتهم البحرية وحسن نظامها؛ ولذا كانت هذه السلخة الضيقة مـن الأرض التي لا تتجاوز المائتي ميل خط مواصلاتهم الوحيـد بين شطر إمبراطوريتهم الغربي الناطق باللاتينية، وشـطرها الشرقي الناطق باليونانية، وكـان ضـغط البرابـرة أعظـم ما يكون في تلك الزاوية القائمة من نهر الدانوب، حتـى إذا اخترقوها أصبح انقسام الإمبراطورية إلـى شـطرين أمـرا لا مفر منه.

ولو وجدت مكان الإمبراطورية الرومانية دولة أقوى بأسا لزحفت أمامها، واستردت مقاطعـة "داكيـا"، ولكـن تلـك الإمبراطورية كانت تعوزها مثل تلك الشكيمة القوية.



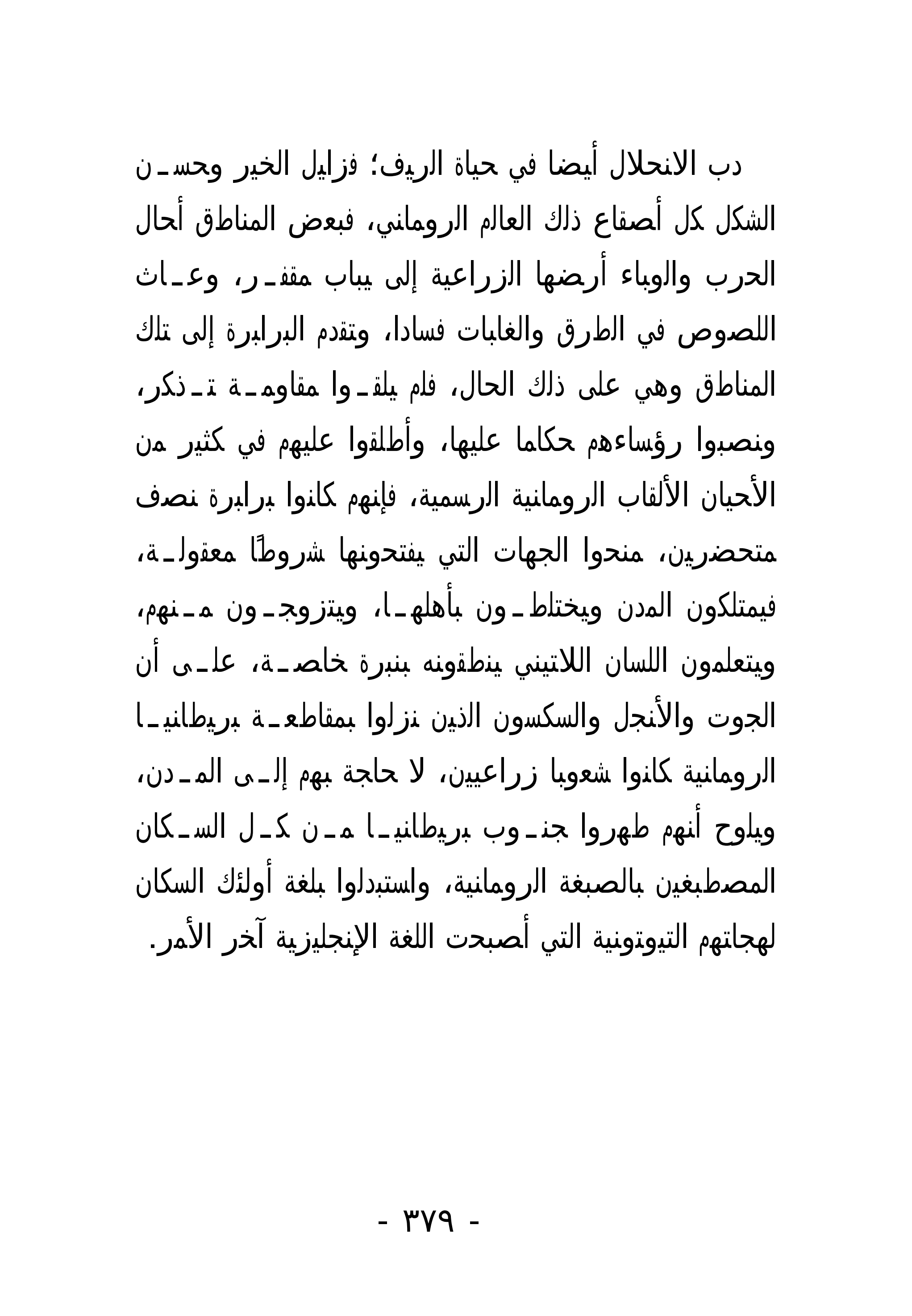
ومن المحقق أن قسطنطين الأكبر كـان عـاهلاً شـديد الإخلاص والذكاء، فصد غارة للقوط جاءت من تلك المناطق البلقانية الحيوية نفسها، ولكنه لم يملك من القـوة العسـكرية ما يتيح له أن يدفع الحدود إلى ما وراء الدانوب، كمـا أنـه شديد الانشغال بضعف الإمبراطوريـة الـداخلي وإصـلاح عيوبها؛ فلجأ إلى ما للمسيحية من قوة تماسك وروح معنوية، راجيا أن يبتعث بهما روح الإمبراطورية المتداعية، كما قرر أن ينشئ لها عاصمة جديدة دائمة، مقرهـا بيزنطـة علـى مضيق البوسفور، وراح يعيد بناء المدينة من جديد، ويطلـق عليها اسما جديدا هو القسطنطينية؛ تيمنًا باسمه، ولكنه قضى نحبه قبل أن يتم عمله.

وحدثت في آخر أيام هذا العاهل صفقة عجيبة؛ فإن القوط ضغطوا على الوندال فلجأ هؤلاء إلى الإمبراطورية يلتمسون قبولهم بها، فمنحوا بعض الأراضي في بانونيا، التـي هـي اليوم شطر بلاد المجر الواقع غرب نهر الدانوب، وأصـبح مقاتلتهم في مقابل ذلك فرقة من جند الإمبراطور اسميا، على أن هؤلاء الجند الجدد ظلوا تحت إمرة رؤسائهم الأصـليين؛ ولذا فشلت روما في هضمهم.

مات قسطنطين وهو مكب على إعـادة تنظـيم مملكتـه، وسرعان ما اخترق القوط الغربيون حدودها، وتقدموا حتـى أوشكوا أن يبلغوا القسطنطينية، فهزموا الإمبراطـور فـالنز عند أدرنة، ثم عقدوا تسوية استقروا بهـا بمنطقـة بلغاريـا الحالية، مثلما استقر الوندال في بانونيـا. وبهـذه التسـوية صاروا رعايا للإمبراطور بالاسم فقط، ولكنهم فـي الواقـع غزاة فاتحون.

وفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأكبـر(٣٧٩/٣٩٥)؛ ظلت الإمبراطورية متماسكة من الناحية الشـكلية، وكانـت جيوش إيطاليا وبانونيا تحت قيادة إستيليكو الونـدالي، بينمـا كان على رأس جيوش جزيرة البلقان ألاريـك؛ وهـو مـن القوط، ولما مات ثيودوسيوس عند نهاية القرن الرابع تـرك من ورائه ولدين، فناصر ألاريك أحدهما وهو "أركـاديوس" بالقسطنطينية، وظاهر إستيليكو أخاه الآخـر "هونوريـوس" بإيطاليا. ومعنى ذلك بعبارة أخـرى أن ألاريـك ومنافسـه إستيليكو اقتتلا على الإمبراطورية، متخذين مـن الأميـرين ألعوبة في أيديهما، وفي غضون ذلك الكفاح زحف ألاريـك على إيطاليا، واستولى على روما بعد حصار قصير(٤١٠م).

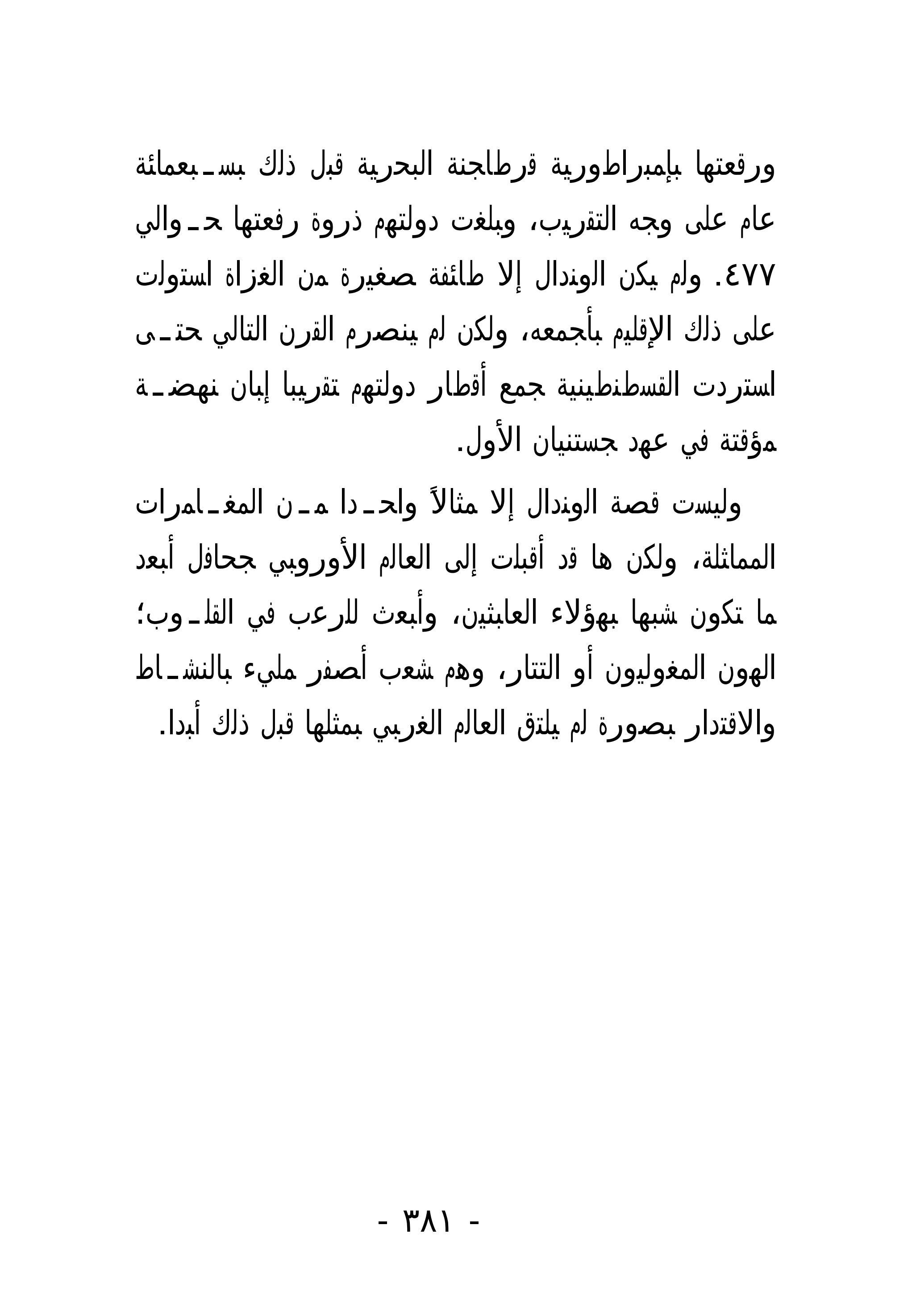
شـهد النصـف الأول مـن القـرن الخـامس وقـوع الإمبراطورية بأكملها بين براثن جيـوش مـن اللصـوص أو البرابرة. ويكاد يعسر علينا تصور صورة حقة لأحـوال العالم إبان تلك الفترة؛ فالمدن العظيمة التي ازدهرت في ظل الإمبراطورية الأولى بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وشبه جزيـرة البلقان لم تزل قائمة عند ذاك، ولكن الفقـر عضـها بنابـه، وهجرها سكانها، وعدت عليها عوادي الاضمحلال، ولا بـد أن الحياة بها قد أصبحت سـطحية منحطـة مفعمـة بعـدم الاطمئنان إلى المستقبل، كما أنه لا شك فـي أن المـوظفين المحليين ظلوا يظهرون سلطانهم، ويواصلون أعمـالهم كـل حسب ما أوتي من ضمير؛ وذلك باسم الإمبراطـور الـذي أصبح عندئذ بعيدا أعظم البعد، ولا سبيل إلى الوصول إليه. وواصلت الكنائس عملها، ولكن على يد قساوسة معظمهم في العادة من الأميين، وقل القراء والقراءة، وانتشرت الخرافات واستبدت بالناس المخاوف، ولكن الكتب والتماثيل والصـور وما ماثلها من إنتاج فني لم تبرح موجودة في كل مكان، اللهم إلا حيث دمرها الناهبون والمعتدون.



دب الانحلال أيضا في حياة الريف؛ فزايل الخير وحسن الشكل كل أصقاع ذلك العالم الروماني، فبعض المناطق أحال الحرب والوباء أرضها الزراعية إلى يباب مقفر، وعاث اللصوص في الطرق والغابات فسادا، وتقدم البرابرة إلى تلك المناطق وهي على ذلك الحال، فلم يلقوا مقاومة تذكر، ونصبوا رؤساءهم حكاما عليها، وأطلقوا عليهم في كثير من الأحيان الألقاب الرومانية الرسمية، فإنهم كانوا برابرة نصف متحضرين، منحوا الجهات التي يفتحونها شروطًا معقولة، فيمتلكون المدن ويختلطون بأهلها، ويتزوجون منهم، ويتعلمون اللسان اللاتيني ينطقونه بنبرة خاصة، على أن الجوت والأنجل والسكسون الذين نزلوا بمقاطعة بريطانيا الرومانية كانوا شعوبا زراعيين، لا حاجة بهم إلى المدن، ويلوح أنهم طهروا جنوب بريطانيا من كل السكان المصطبغين بالصبغة الرومانية، واستبدلوا بلغة أولئك السكان لهجاتهم التيوتونية التي أصبحت اللغة الإنجليزية آخر الأمر.

ومن المحال علينا أن نترسم في هـذا المجـال الضـيق حركات جميع أصناف القبائل الجرمانية والسلافية المختلفـة، وهي تروح وتغدو في هذه الإمبراطورية المختلـة النظـام؛ بحثًا عن الأسلاب والغنائم، والتماسا لموطن جميـل تسـتقر فيه، على أننا سنتخذ الوندال مثالاً نسوقه إليك، فإنهم ظهروا على مسرح التاريخ بألمانيا الشرقية، واستقروا كما أسلفنا في بانونيا، ومنها انتقلوا إلى إسبانيا حوالي ٤٢٥ م، مختـرقين الولايات التي تقع في طـريقهم، فوجـدوا بإسـبانيا القـوط الغربيين الوافدين من جنوب الروسيا، كمـا وجـدوا قبائـل ألمانية أخرى نصبت عليهم الملوك والأدواق.

وأبحر الوندال من إسبانيا إلى شمال إفريقية (٤٢٩) بقيادة جنسريك، واستولوا على قرطاجنة (٤٩٩)، وأنشئوا أسطولاً، وما لبثوا أن أحرزوا السيادة البحرية، ثم استولوا على روما وانتهبوها (٤٥٥) ولما تنهض بعد من كبوتها تماما بعد الذي أصابها من عدوان ونهب على يد ألاريك قبل ذلك بنصـف قرن، ثم راح الوندال يبسـطون سـيادتهم علـى قورسـيقة وصقلية وسردينية، ومعظم جزائر البحر المتوسط الغربـي. الواقع أنهم أنشئوا دولة بحرية شديدة المماثلـة فـي سـعتها



ورقعتها بإمبراطورية قرطاجنة البحرية قبل ذلك بسـبعمائة عام على وجه التقريب، وبلغت دولتهم ذروة رفعتها حـوالي ٤٧٧. ولم يكن الوندال إلا طائفة صغيرة من الغزاة استولت على ذلك الإقليم بأجمعه، ولكن لم ينصرم القرن التالي حتـى استردت القسطنطينية جمع أقطار دولتهم تقريبا إبان نهضـة مؤقتة في عهد جستنيان الأول.

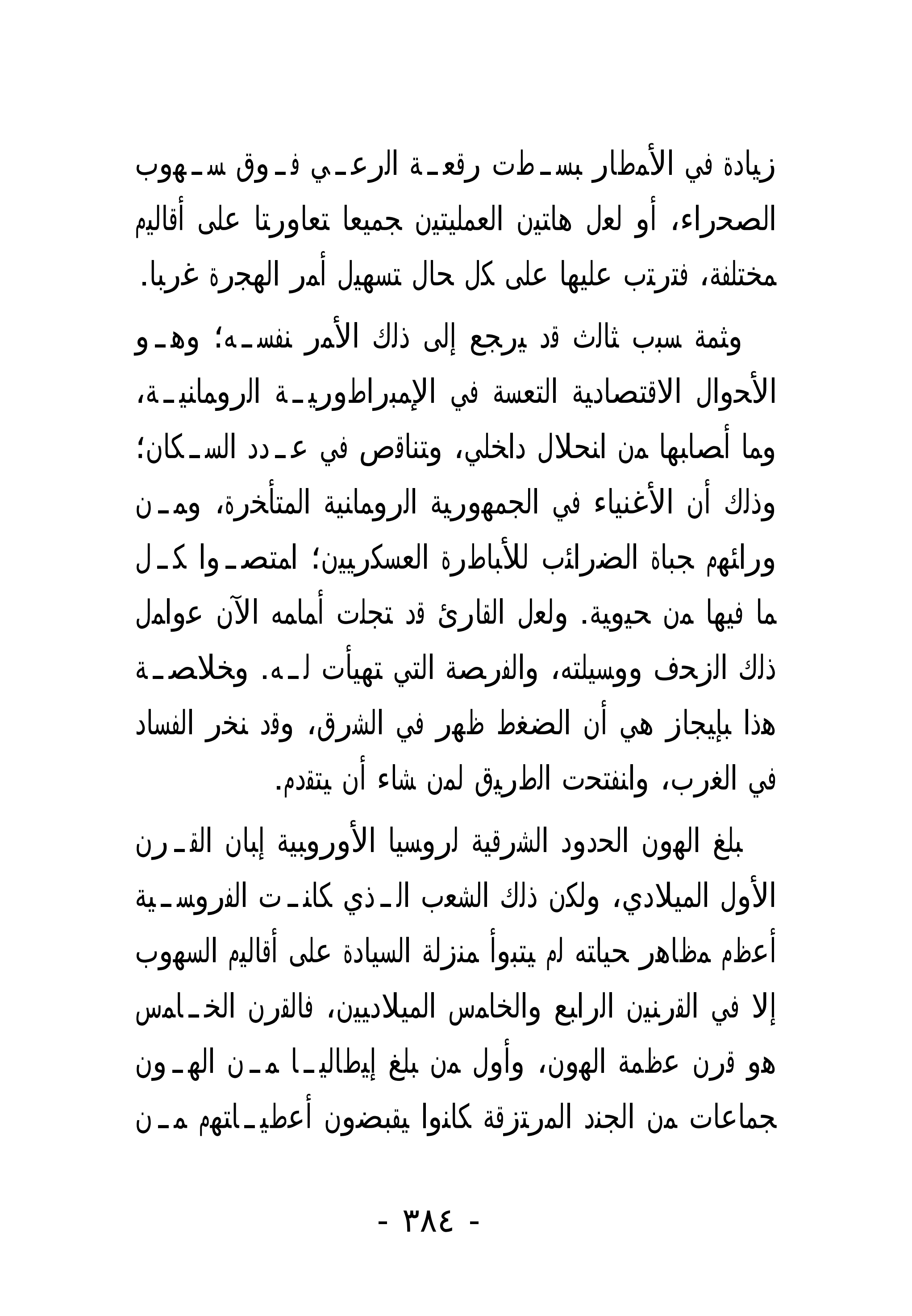
وليست قصة الوندال إلا مثالاً واحـدا مـن المغـامرات المماثلة، ولكن ها قد أقبلت إلى العالم الأوروبي جحافل أبعد ما تكون شبها بهؤلاء العابثين، وأبعث للرعب في القلـوب؛ الهون المغوليون أو التتار، وهم شعب أصفر مليء بالنشـاط والاقتدار بصورة لم يلتق العالم الغربي بمثلها قبل ذلك أبدا.

الفصل الأربعون

الهون ونهاية الإمبراطورية الغربية

ربما جاز لنا أن نعد ظهور هذا الشعب المغولي في أوروبا مؤذنًا ببدء مرحلة جديدة في تاريخ البشرية؛ ذلـك أن الصـلة بين الشعوب المغوليـة والنورديـة لـم تكـن وثيقـة إلـى ما قبل الحقبة المسيحية بحوالي قرن من الزمان. أجـل إنـه حدث في الأراضي المتجمدة البعيـدة الواقعـة وراء منـاطق الغابات أن اللابيين أهل لابلندة (وهم شعب مغـولي) انتقلـوا غربا حتى بلغوا ذلك القطر (لابلندة)، ولكنهم لم يلعبوا أي دور في مجرى التاريخ الرئيسي، كما أنه حدث أن العالم الغربـي ظل آلافًا من السنين مسرحا للتفاعلات الأخاذة بين الشـعوب الآرية والسامية، والشعوب الأصلية السمراء، دون أي تـدخل من الشعوب السوداء إلى الجنوب، ومن العالم المغـولي فـي أقصى الشرق، إلا ما حدث من غزو الأثيوبيين لمصر.

والراجح أن حركة هؤلاء المغول الرحل المتجهة غربـا ترجع إلى سببين رئيسيين؛ أولهما تماسك إمبراطورية الصين الكبرى وارتباط أجزائها، واتساع رقعتها شمالاً، وتزايد عدد سكانها في أثناء الرخاء الذي أظل البلاد في عهد أسرة هان. وثانيهما؛ حدوث شيء من التغيرات في المناخ، لعله قلة في المطر جففت المستنقعات، وربما أزالت الغابـات، أو لعلـه

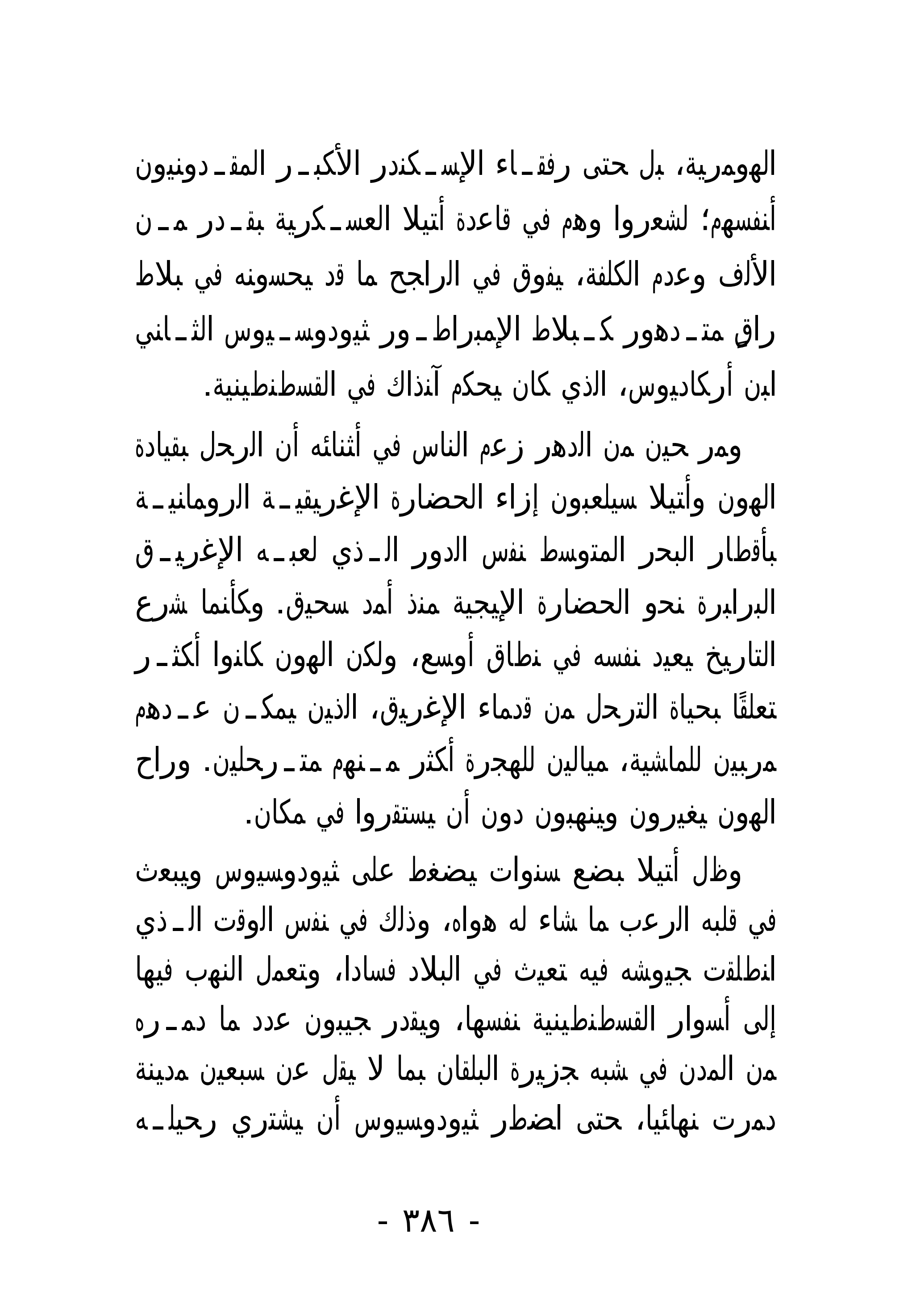

زيادة في الأمطار بسـطت رقعـة الرعـي فـوق سـهوب الصحراء، أو لعل هاتين العمليتين جميعا تعاورتا على أقاليم مختلفة، فترتب عليها على كل حال تسهيل أمر الهجرة غربا.

وثمة سبب ثالث قد يرجع إلى ذلك الأمر نفسـه؛ وهـو الأحوال الاقتصادية التعسة في الإمبراطوريـة الرومانيـة، وما أصابها من انحلال داخلي، وتناقص في عـدد السـكان؛ وذلك أن الأغنياء في الجمهورية الرومانية المتأخرة، ومـن ورائهم جباة الضرائب للأباطرة العسكريين؛ امتصـوا كـل ما فيها من حيوية. ولعل القارئ قد تجلت أمامه الآن عوامل ذلك الزحف ووسيلته، والفرصة التي تهيأت لـه. وخلاصـة هذا بإيجاز هي أن الضغط ظهر في الشرق، وقد نخر الفساد في الغرب، وانفتحت الطريق لمن شاء أن يتقدم.

بلغ الهون الحدود الشرقية لروسيا الأوروبية إبان القـرن الأول الميلادي، ولكن ذلك الشعب الـذي كانـت الفروسـية أعظم مظاهر حياته لم يتبوأ منزلة السيادة على أقاليم السهوب إلا في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، فالقرن الخـامس هو قرن عظمة الهون، وأول من بلغ إيطاليـا مـن الهـون جماعات من الجند المرتزقة كانوا يقبضون أعطيـاتهم مـن

إستيليكو الوندالي صاحب السيادة على هوريوس. ولم ينقض طويل زمن حتى وقعت في قبضتهم بانونيا عـش الونـدال الخالي.

ونشأ بين الهون في الربع الثاني من القرن الخامس زعيم حربي عظيم هو أتيلا. وللأسف إن كل ما لـدينا مـن علـم بدولته لا يتجاوز اللمحات المبهمة التـي لا تشـفي غلـيلاً. ومهما تكن الحال؛ فإن حكمه لم يقتصر على الهون وحدهم، بل شمل أيضا خليطًا من القبائل الجرمانية المتأخرة، وامتدت دولته عبر السهول المترامية من نهـر الـراين إلـى آسـيا الوسطى، وقد تبادل السفراء مع الصين، وجعل مقر قيادتـه ومعسكره الرئيسي بسهل المجر شرقي نهر الدانوب، وهناك زاره مبعوث من القسطنطينية هو بريسكوس، الـذي يقـص علينا وصفًا لدولته نعرف منه أن نظام معيشة أولئك المغول كان شديد الشبه بطريقة عيش الآريين البدائيين الذين احتـل الهون مكانهم؛ فالعامة يعيشون في الأكواخ والخيـام، علـى حين كان الرؤساء يعيشون في قاعات عظيمة مـن الخشـب تحوطها السياجات، وكانوا يقيمون الولائم ويحتسون الشراب، ويستمعون لإنشاد الشـعراء؛ فلـو بعـث أبطـال الملاحـم


الهومرية، بل حتى رفقـاء الإسـكندر الأكبـر المقـدونيون أنفسهم؛ لشعروا وهم في قاعدة أتيلا العسـكرية بقـدر مـن الألف وعدم الكلفة، يفوق في الراجح ما قد يحسونه في بلاط راقٍ متـدهور كـبلاط الإمبراطـور ثيودوسـيوس الثـاني ابن أركاديوس، الذي كان يحكم آنذاك في القسطنطينية.

ومر حين من الدهر زعم الناس في أثنائه أن الرحل بقيادة الهون وأتيلا سيلعبون إزاء الحضارة الإغريقيـة الرومانيـة بأقطار البحر المتوسط نفس الدور الـذي لعبـه الإغريـق البرابرة نحو الحضارة الإيجية منذ أمد سحيق. وكأنما شرع التاريخ يعيد نفسه في نطاق أوسع، ولكن الهون كانوا أكثـر تعلقًا بحياة الترحل من قدماء الإغريق، الذين يمكـن عـدهم مربين للماشية، ميالين للهجرة أكثر مـنهم متـرحلين. وراح الهون يغيرون وينهبون دون أن يستقروا في مكان.

وظل أتيلا بضع سنوات يضغط على ثيودوسيوس ويبعث في قلبه الرعب ما شاء له هواه، وذلك في نفس الوقت الـذي انطلقت جيوشه فيه تعيث في البلاد فسادا، وتعمل النهب فيها إلى أسوار القسطنطينية نفسها، ويقدر جيبون عدد ما دمـره من المدن في شبه جزيرة البلقان بما لا يقل عن سبعين مدينة دمرت نهائيا، حتى اضطر ثيودوسيوس أن يشتري رحيلـه

بدفع الجزية إليه، كما حاول أن يتخلص منه إلى الأبد بإرسال مبعوثين سريين لاغتياله. ثم عاد أتيلا فوجه التفاتة في عـام ٤٥١ إلى حطام نصف الإمبراطورية الناطق باللاتينية؛ فغزا بلاد الغالة، فلم تنج مدينة واحدة تقريبا في شمال غالة مـن النهب والسلب، عند ذلك اجتمـع عليـه الفرنجـة والقـوط الغربيون، والقوات الإمبراطورية، ودحروه عنـد تـرويس Troys في معركة ضخمة مترامية الأطـراف، قتـل فيهـا جمهور غفير من الرجال يتراوح عدده بين مائة وخمسين ألفًا وثلاثمائة ألف. ولم تلبث تلك الهزيمة أن أوقفت تقدمه بـبلاد الغالة، بيد أنها لم تنل كثيرا من موارده العسـكرية الهائلـة، فإنه دخل إيطاليا في السنة التالية عـن طريـق فينيشـيا[1] (منطقة البندقية)، وأحرق أكويليا وبادوا، وانتهب ميلانو.

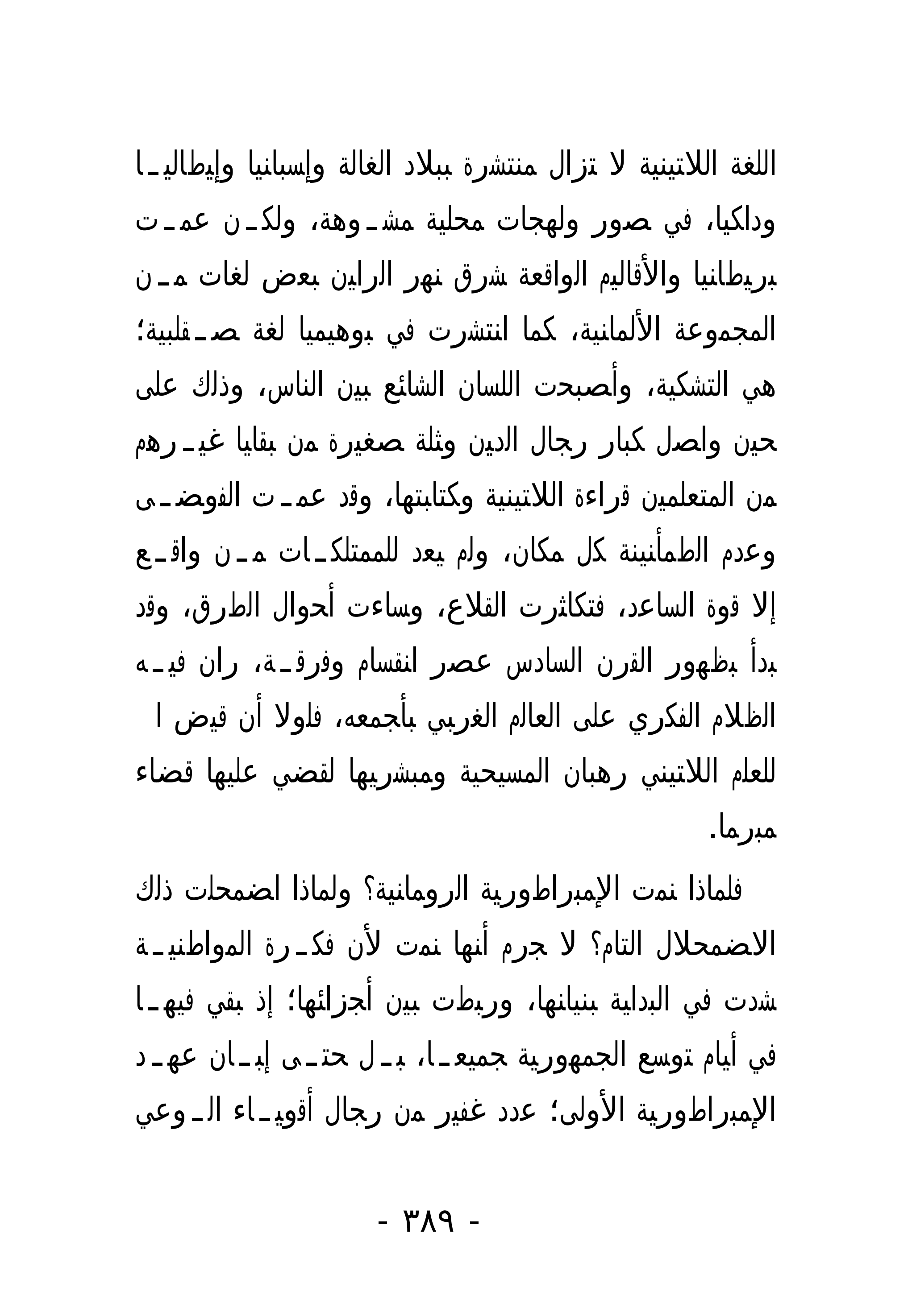
وسارعت جماهير غفيرة من اللاجئين الذين فروا من هذه المدن الإيطالية الشمالية (وبخاصة بادوا) فـلاذت بجزائـر بالمستنقعات الواقعة عند رأس البحـر الأدريـاتي، وهنـاك وضعوا أول حجر في دولة مدينة البندقية، التي كتب لهـا أن تغدو من أهم المراكز التجارية في العصور الوسطى.

([1]) فينيشيا: قسم إقليمي قديم بإيطاليا ينقسم إلى:

(أ) فنيتو (البندقية الأصلية). (ب) وفنيتو تريدنتينا. (جـ) وفيتوجوليا.

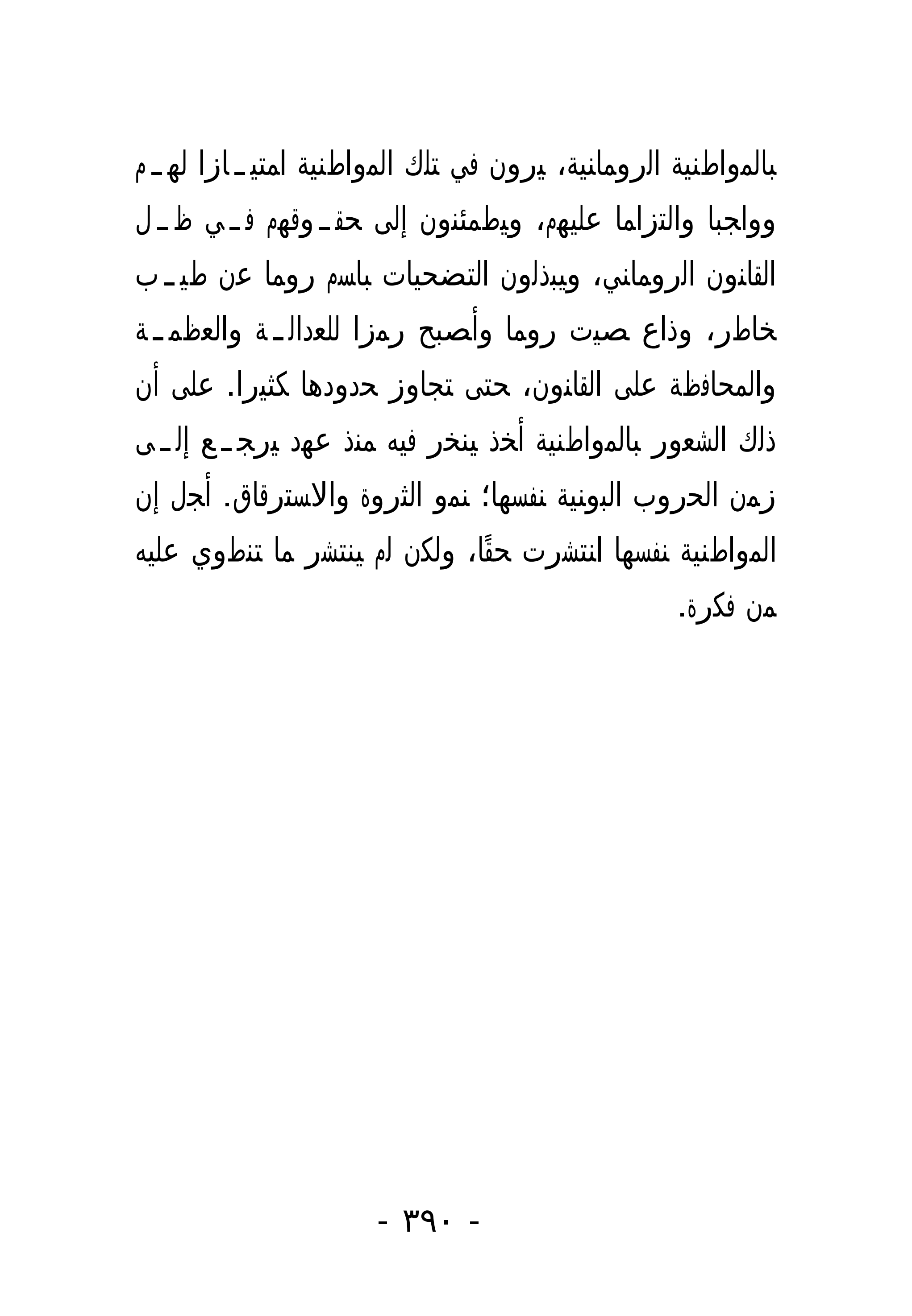
مات أتيلا في عام ٤٥٣ موت الفجاءة بعد حفـل عظـيم أقامه ابتهاجا بزواجه من حسناء صغيرة، فتمزق بموته ذلـك الاتحاد القائم على النهب، وعند ذلك اختفى الهون الحقيقيون من التاريخ، باختلاطهم بمن حولهم من أقوام ينطقون بالآرية ويفوقونهم عددا. على أن هذه الغارات الهونية الضخمة أتت تقريبا على الدولة الرومانية اللاتينية.. فتولى حكم روما بعد موته عشرة أباطرة مختلفين في مدى عشرين عاما، أقـامهم الوندال وغيرهم من مرتزقة الجند، فإن الوندال جاءوا مـن قرطاجنة، واستولوا على روما في عام ٤٥٥، وانتهى الأمر في ٤٧٦ بأن قضى أودواكر كبير الجند البرابرة على شخص بانوني، وتولى مهام الإمبراطورية تحت اسم مهيـب؛ هـو روmولوس أوغسطولوس، وأبلغ بلاط القسطنطينية أنه لم يعد هناك إمبراطور في الغرب، وبذلك انتهـت الإمبراطوريـة الرومانية اللاتينية على هذه الصورة المزرية غير الكريمـة، ثم أصبح ثيودوريك القوطي ملكًا على روما في عام ٤٩٣.

كان زعماء البرابرة يحكمون عند ذلـك جميـع أقطـار أوروبا الغربية والوسطى، متخذين ألقاب الملوك والـدوقات، ومستقلين في الواقع، وإن اعترفوا في معظم الحالات بشيء من الولاء الرمزي للإمبراطور. كان هناك مئات بـل آلاف من مثل هؤلاء الحكام المغتصبين المستقلين تقريبا، وكانـت

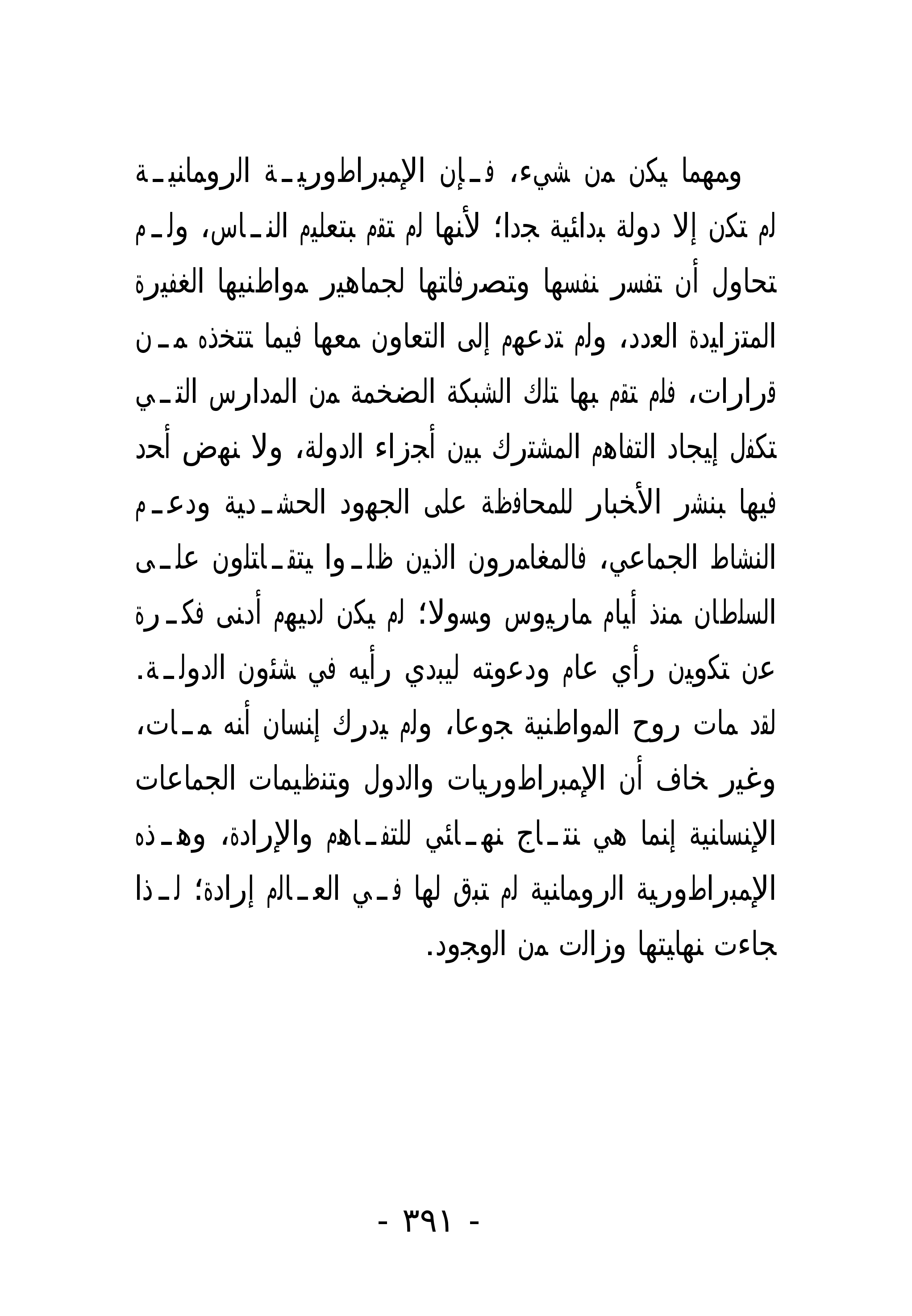


اللغة اللاتينية لا تزال منتشرة ببلاد الغالة وإسبانيا وإيطاليـا وداكيا، في صور ولهجات محلية مشـوهة، ولكـن عمـت بريطانيا والأقاليم الواقعة شرق نهر الراين بعض لغات مـن المجموعة الألمانية، كما انتشرت في بوهيميا لغة صـقلبية؛ هي التشكية، وأصبحت اللسان الشائع بين الناس، وذلك على حين واصل كبار رجال الدين وثلة صغيرة من بقايا غيـرهم من المتعلمين قراءة اللاتينية وكتابتها، وقد عمـت الفوضـى وعدم الطمأنينة كل مكان، ولم يعد للممتلكـات مـن واقـع إلا قوة الساعد، فتكاثرت القلاع، وساءت أحوال الطرق، وقد بدأ بظهور القرن السادس عصر انقسام وفرقـة، ران فيـه الظلام الفكري على العالم الغربي بأجمعه، فلولا أن قيض ا للعلم اللاتيني رهبان المسيحية ومبشريها لقضي عليها قضاء مبرما.

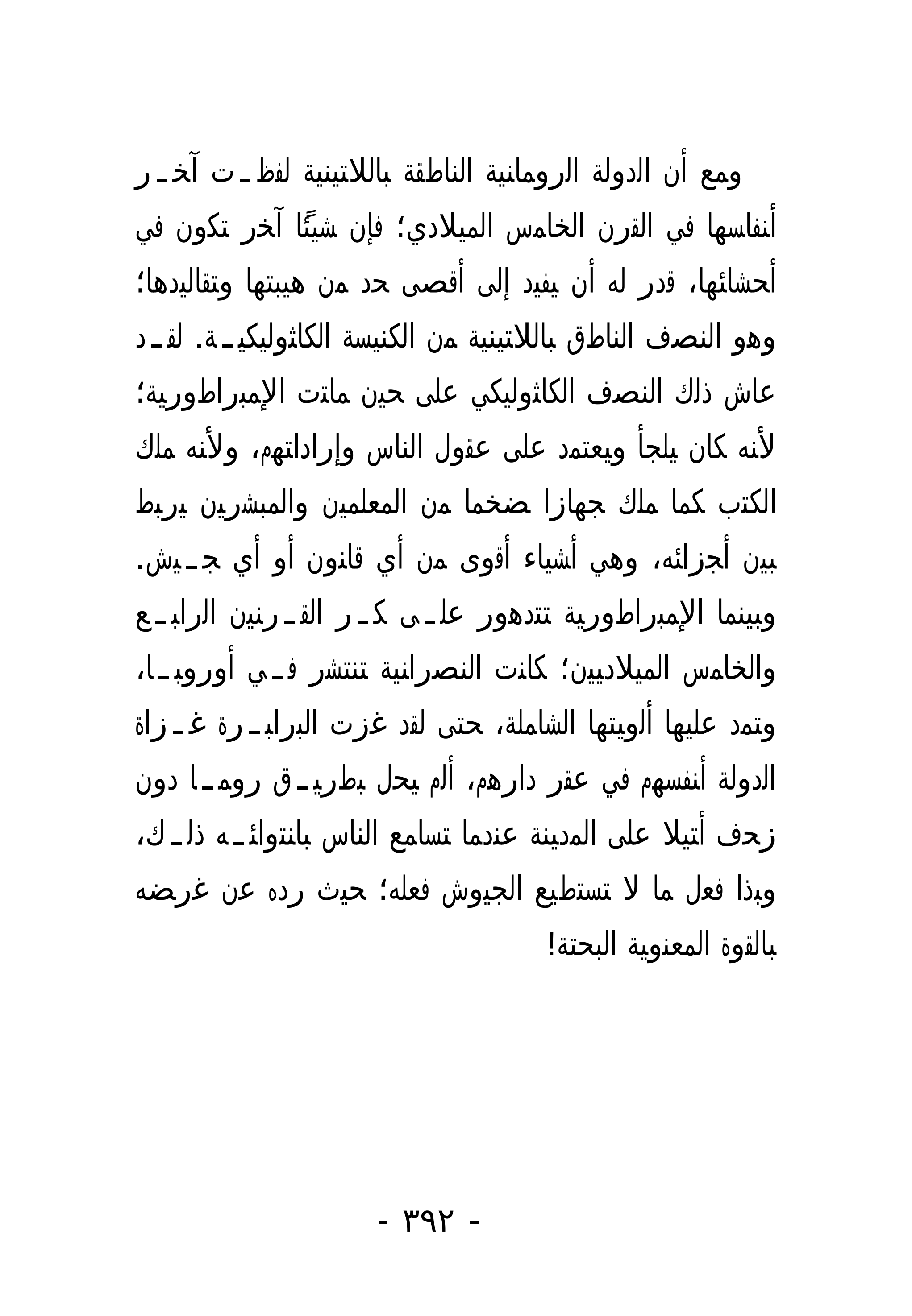
فلماذا نمت الإمبراطورية الرومانية؟ ولماذا اضمحلت ذلك الاضمحلال التام؟ لا جرم أنها نمت لأن فكـرة المواطنيـة شدت في البداية بنيانها، وربطت بين أجزائها؛ إذ بقي فيهـا في أيام توسع الجمهورية جميعـا، بـل حتـى إبـان عهـد الإمبراطورية الأولى؛ عدد غفير من رجال أقويـاء الـوعي



بالمواطنية الرومانية، يرون في تلك المواطنية امتيـازا لهـم وواجبا والتزاما عليهم، ويطمئنون إلى حقـوقهم فـي ظـل القانون الروماني، ويبذلون التضحيات باسم روما عن طيـب خاطر، وذاع صيت روما وأصبح رمزا للعدالـة والعظمـة والمحافظة على القانون، حتى تجاوز حدودها كثيرا. على أن ذلك الشعور بالمواطنية أخذ ينخر فيه منذ عهد يرجـع إلـى زمن الحروب البونية نفسها؛ نمو الثروة والاسترقاق. أجل إن المواطنية نفسها انتشرت حقًا، ولكن لم ينتشر ما تنطوي عليه من فكرة.



ومهما يكن من شيء، فـإن الإمبراطوريـة الرومانيـة لم تكن إلا دولة بدائية جدا؛ لأنها لم تقم بتعليم النـاس، ولـم تحاول أن تفسر نفسها وتصرفاتها لجماهير مواطنيها الغفيرة المتزايدة العدد، ولم تدعهم إلى التعاون معها فيما تتخذه مـن قرارات، فلم تقم بها تلك الشبكة الضخمة من المدارس التـي تكفل إيجاد التفاهم المشترك بين أجزاء الدولة، ولا نهض أحد فيها بنشر الأخبار للمحافظة على الجهود الحشـدية ودعـم النشاط الجماعي، فالمغامرون الذين ظلـوا يتقـاتلون علـى السلطان منذ أيام ماريوس وسولا؛ لم يكن لديهم أدنى فكـرة عن تكوين رأي عام ودعوته ليبدي رأيه في شئون الدولـة. لقد مات روح المواطنية جوعا، ولم يدرك إنسان أنه مـات، وغير خاف أن الإمبراطوريات والدول وتنظيمات الجماعات الإنسانية إنما هي نتـاج نهـائي للتفـاهم والإرادة، وهـذه الإمبراطورية الرومانية لم تبق لها فـي العـالم إرادة؛ لـذا جاءت نهايتها وزالت من الوجود.



ومع أن الدولة الرومانية الناطقة باللاتينية لفظت آخر أنفاسها في القرن الخامس الميلادي؛ فإن شيئًا آخر تكون في أحشائها، قدر له أن يفيد إلى أقصى حد من هيبتها وتقاليدها؛ وهو النصف الناطق باللاتينية من الكنيسة الكاثوليكية. لقد عاش ذلك النصف الكاثوليكي على حين ماتت الإمبراطورية؛ لأنه كان يلجأ ويعتمد على عقول الناس وإراداتهم، ولأنه ملك الكتب كما ملك جهازا ضخما من المعلمين والمبشرين يربط بين أجزائه، وهي أشياء أقوى من أي قانون أو أي جيش. وبينما الإمبراطورية تتدهور على كر القرنين الرابع والخامس الميلاديين؛ كانت النصرانية تنتشر في أوروبا، وتمد عليها ألويتها الشاملة، حتى لقد غزت البرابرة غزاة الدولة أنفسهم في عقر دارهم، ألم يحل بطريق روما دون زحف أتيلا على المدينة عندما تسامع الناس بانتوائه ذلك، وبذا فعل ما لا تستطيع الجيوش فعله؛ حيث رده عن غرضه بالقوة المعنوية البحتة!

كان بطريق أو "بابا" روما يدعي أنـه رئـيس الكنيسـة المسيحية بأكملها، حتى إذا ولت الإمبراطوريـة، ولـم يعـد هناك أباطرة؛ شرع يدعي لنفسـه ألقابـا ومـدعيات ممـا كان لأولئك الأبـاطرة، فانتحـل لقـب "الحبـر الأعظـم" Pontifex Maximus وهو لقب كاهن القرابين الأكبر فـي الدولة الرومانية إبان الوثنية، وأقـدم الألقـاب التـي كـان الأباطرة يحملونها.

الفصل الحادي والأربعون

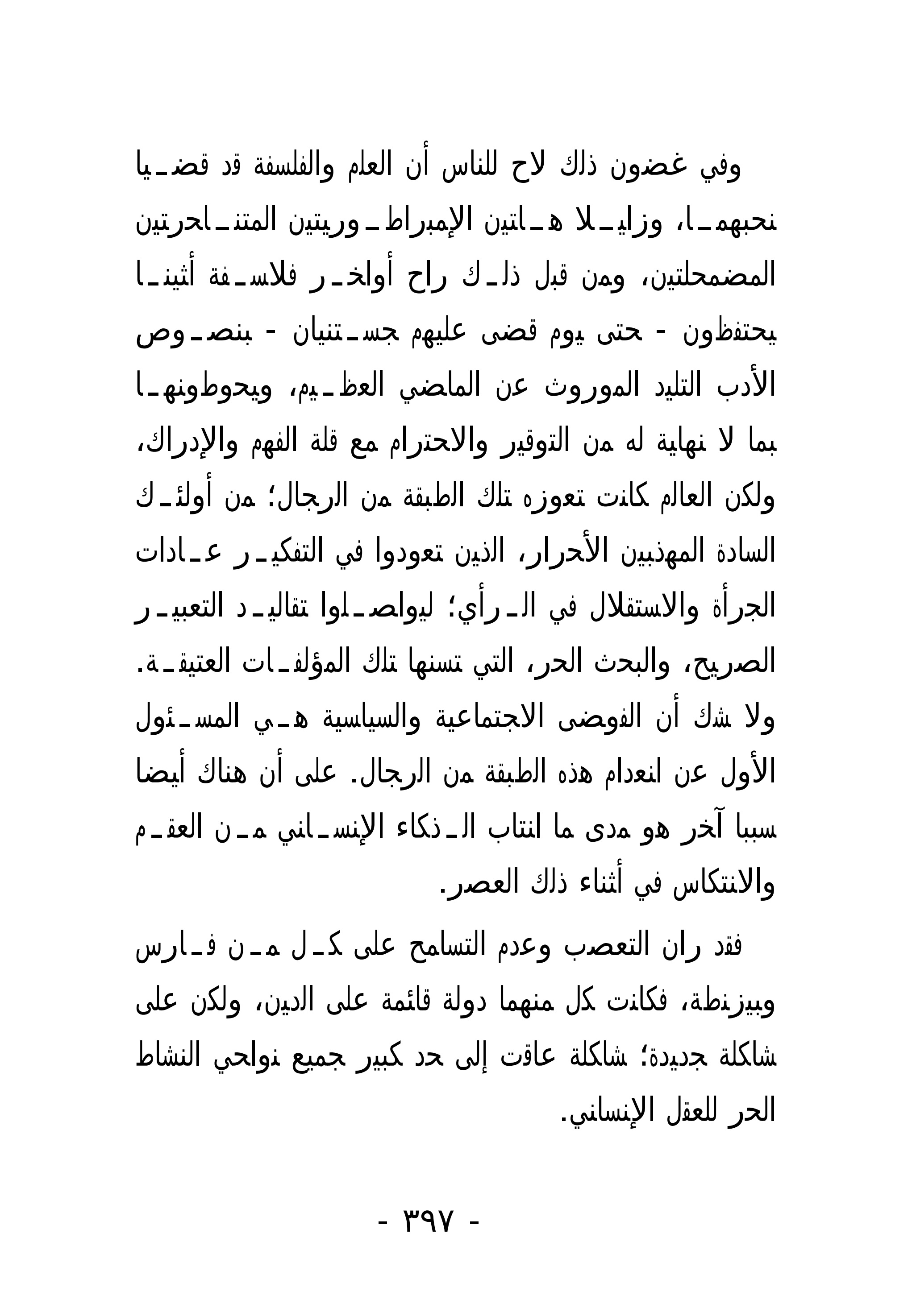
الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية

امتاز النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية الناطق باليونانية، بقدر لا بأس به من التماسك السياسي، يفوق كثيرا ما بدأ في النصف الغربي؛ وبذلك استطاع مواجهة كـوارث القرن الخامس الميلادي والتغلب عليها، وهو القـرن الـذي تحطمت فيه بصورة تامة ونهائية دولة الرومـان اللاتينيـة الأصلية. أجل أرهب أتيلا الإمبراطور ثيودوسيوس الثـاني، وأخذ يغير على ممتلكاته ويعيث فيها نهبا وفسادا حتى قارب أسوار القسطنطينية نفسها؛ إلا أن تلك المدينة ظلت سليمة لم ينل منها أتيلا شيئًا، وكذلك انحدر النوبيون في النيل وانتهبوا مصر العليا، ولكن مصر السفلى والإسكندرية ظلت تعيش مع ذلك في قدر لا بأس من الرغد، وحافظت الدولة على معظم آسيا الصغرى رغم عدوان الفرس الساسانيين.

أما القرن السادس الذي خيمت في أثنائه علـى الغـرب دياجير الظلام؛ فقد شهد في دول الروم انتعاشًا جسيما. فـإن جستنيان الأول (٥٢٧ - ٥٦٥) كان حاكما عالي الهمة عظيم الطموح، كما أن زوجته الإمبراطورة ثيودورا كانت لا تقـل عنه كفاية، وهي امرأة بدأت حياتها ممثلة، واسترد جستنيان شمال إفريقية من الوندال، واستعاد معظم إيطاليا من القـوط،

بل استرد جنوب إسبانيا، ولم يقصر نشاطه على المشروعات العسكرية والبحرية؛ بل أسس جامعة، وشيد كنيسة القديسـة صوفيا الكبرى بالقسطنطينية، وجمع القانون الروماني، ولكنه شاء أن يقضي على أحد المنافسين لجامعته الجديدة، فـأغلق مدارس الفلسفة بأثينا، بعد أن ظلت تعمل بلا انقطاع منذ أيام أفلاطون، أعني ما يقارب ألف سنة من الزمان.

ظلت دولة ساسان منافسا مستديما للدولة البيزنطية (دولـة الروم) منذ القرن الثالث الميلادي، وبسبب تلك المنافسة سـاد الاضطراب والدمار الدائم آسيا الصغرى وسـوريا ومصـر. وكانت تلك الأقطار لا تزال ترفل في القرن الأول المـيلادي في بحبوحة الحضارة الرفيعة والثراء ووفرة السكان، على أن استمرار ذهاب الجيوش وغدوها، وكثرة المـذابح والنهـب، وضرائب الحرب الباهظة؛ لم تزل بها حتى لم يبق منهـا إلا مدن خربة مهدمة، تقوم وسط ريف ليس به من السكان إلا قلة متناثرة من الفلاحين، ولم ينج من عملية الإفقـار والفوضـى المحزنة هذه إلا مصر السفلى التي ظل حالها أقل سوءا مـن بقية العالم. كما أن الإسكندرية والقسطنطينية احتفظتا مع ذلك بقسط متضائل من التجارة بين الشرق والغرب.



وفي غضون ذلك لاح للناس أن العلم والفلسفة قد قضيا نحبهما، وزايلا هاتين الإمبراطوريتين المتناحرتين المضمحلتين، ومن قبل ذلك راح أواخر فلاسفة أثينا يحتفظون - حتى يوم قضى عليهم جستنيان - بنصوص الأدب التليد الموروث عن الماضي العظيم، ويحوطونها بما لا نهاية له من التوقير والاحترام مع قلة الفهم والإدراك، ولكن العالم كانت تعوزه تلك الطبقة من الرجال؛ من أولئك السادة المهذبين الأحرار، الذين تعودوا في التفكير عادات الجرأة والاستقلال في الرأي؛ ليواصلوا تقاليد التعبير الصريح، والبحث الحر، التي تسنها تلك المؤلفات العتيقة. ولا شك أن الفوضى الاجتماعية والسياسية هي المسئول الأول عن انعدام هذه الطبقة من الرجال. على أن هناك أيضا سببا آخر هو مدى ما انتاب الذكاء الإنساني من العقم والانتكاس في أثناء ذلك العصر.

فقد ران التعصب وعدم التسامح على كل من فارس وبيزنطة، فكانت كل منهما دولة قائمة على الدين، ولكن على شاكلة جديدة؛ شاكلة عاقت إلى حد كبير جميع نواحي النشاط الحر للعقل الإنساني.

وقد كانت أقدم الإمبراطوريات في العالم بطبيعـة الحـال دولاً دينية تتمركز حول عبادة أحد الآلهة أو الملوك الآلهـة. وقد اتخذ الإسكندر إلها، وجعل القياصرة أربابا بحيث أقيمت لهم الهياكل والمعابد. وجعل تقديم البخور امتحانًـا وشـاهدا على الولاء لدولة الرومان. على أن هذه الـديانات الغـابرة كانت في جوهرها ديانة عمل وواقع؛ فهي لم تكـن لتغـزو العقول، فإذا تقدم إنسان بقربانه وانحنى أمام آلهة؛ لم يتلـق إرشادا من أحد، فهو لا يترك فقط ليفكر فـي ا علـى أي شاكلة يهواها؛ بل ليقول ما يشاء تقريبا. أما ذلك النوع الجديد من الأديان الذي ظهر عندئذ في العالم، وخاصة المسـيحية؛ فإنها تتجه إلى سويداء النفوس. لم تكن تلك الديانات تكتفـي بالمطالبة بمسايرة الرجل لمن حوله في الإيمان؛ بـل تنشـد الاعتقاد الواعي. ومن الطبيعي أن تنشب الخصومات العنيفة بين الناس حول المعنى الدقيق لتلك المعتقدات؛ ذلك أن هـذه الديانات الجديدة كانت ديانات عقائد.

لقد واجه العالم الآن عهدا جديدا؛ عهد العقيدة القويمة، كما واجهه تصميم شديد على وضع جميع الأعمـال بـل حتـى الكلام والأفكار الباطنيـة داخـل حـدود وتعـاليم معلومـة

مفروضة؛ ذلك أن الأخذ برأي خاطئ، فضلاً عن نقله إلـى سائر الناس لم يعد يعتبر عيبا ذهنيا؛ بل خطأ خلقيا قد يجلب اللعنة على إحدى النفوس، ويقضي عليها بالدمار السرمدي.

ومن ثم اتجه كل من أردشير الأول الذي أسس الأسـرة الساسانية في القرن الثالث الميلادي، وقسطنطين الأكبر الذي أعاد بناء الإمبراطورية الرومانية في القـرن الرابـع؛ إلـى الهيئات الدينية ملتمسا عونها، وذلك لأنهما وجدا فـي تلـك الهيئات وسيلة جديدة لاستخدام إرادة الناس والهيمنة عليهـا. لذا لم يكن القرن الرابع يشارف نهايته؛ حتى كانت كل مـن الدولتين تحرم حرية القول وكل ابتداع ديني. أما في فارس، فإن أردشير وجد في عقيدة زرادشت الفارسية العتيقة بكـل ما حوت من كهنة ومعابد، ونار مقدسة تتقـد دومـا فـوق مذابحها؛ أداة مهيأة لما ينشده من عقيدة للدولة. فلم تكد نهاية القرن الثالث تقترب حتى كانت الديانة الزرادشتية تضـطهد النصرانية، كما أن ماني مؤسس "المانويـة" (وهـي عقيـدة جديدة) صلب في عام ٢٧٧ وسلخ جلده، وذلك بينما كانـت القسطنطينية من الجهة الأخرى تجِد في مقاومـة الزنـدقات المسيحية؛ ذلك أن فكـرات العقيـدة المانويـة أثـرت فـي المسيحية، ولم يكن بد من محاربتها بأفظع الطرق، وحـدث

في مقابل ذلك أن تـأثرت المبـادئ الزرادشـتية الخالصـة بالفكرات المسيحية، وبذا أصبحت جميـع الأفكـار متهمـة مريبة؛ فليس عجيبا إذن أن يصاب نجم العلم بـالأفول التـام طوال فترة التعصب هذه، والعلم يستلزم قبل كل شيء عقـلاً حرا في عمله، غير مضطرب في تفكيره.

كانت الحياة البيزنطية في تلك الأيام تدور حول الحـرب، وأشد أنواع اللاهوت تعصبا، وأبشع رذائل البشر المألوفـة، وكانت بيزنطة ترى في ذلك شيئًا رائعا جذابا، كما تراه شيئًا شاعريا رومانسيا[1]، وإن كان الواقع يكذب ذلـك لحرمـان الوضع كله من كل حلاوة أو استنارة، فما تكاد يد بيزنطـة أو فارس تخلو من الحرب مع برابرة الشمال، حتـى تهويـا على آسيا الصغرى وسوريا بالخراب في أثنـاء حروبهمـا المهلكة المدمرة، ولو فرض جدلاً أن هاتين الدولتين عقـدتا أوثق أواصر المحبة والتحالف لما سهل عليهما مع ذلـك أن يصدا البرابرة ويستعيدا ما ينبغي لهما من رغد. وفي إبـان ذلك ظهر الترك أو التتار لأول مرة في التاريخ، متحالفين آنًا مع فارس، وآنًا آخر مع بيزنطة.

([1]) الرومانسي: كل شيء خيالي شعرا كان أم نثرا، ينطلق وراء حدود الحياة العادية، ويسمى أحيانًا بالرومانتيكي.

حتى إذا وافى القرن السادس؛ كان الخصمان الكبيران هما جستنيان وكسرى أنوشروان، فإذا حلت بداية السـابع كـان العداء قائما بين الإمبراطور هرقل وبـين كسـرى الثـاني (٥٨٠).

وقد استطاع كسرى الثاني في بداية الأمر، وحتى أصـبح هرقل إمبراطورا (٦١٠)؛ أن يجتـاح كـل شـيء أمامـه، فاستولى على أنطاكية ودمشق وأورشليم، وبلغـت جيوشـه مدينة خلقدنية، القائمة بآسيا الصغرى قبالة القسطنطينية. ثـم فتح مصر في عام ٦١٩، وعندئذ تقدم هرقل ليطعن بجيوشه قلب فارس في هجوم مضاد كبير، وشتت قرب نينوى شـمل جيش فارسي (٦٢٧)، وإن احتفظت فارس في نفس الحـين بجيشها في خلقدنية، وفي ٦٦٧ خلع قباذ أباه كسرى الثـاني وقتله، وعقد بين الإمبراطوريتين المكدودتين صـلحا غيـر حاسم.

لقد اشتبكت بيزنطة وفارس في حربهما الأخيرة، ولكن قل من الناس من كان يحلم آنذاك بتلك العاصـفة التـي كانـت تتجمع في نفس الحين فوق أراضي الصحراء، لتقضي إلـى الأبد على ذلك الكفاح الزمن الذي لا هدف له.

وبينما كان هرقل يعيد النظام إلى نصـابه فـي سـوريا؛ وصلته رسالة أحضـرت إلـى موقـع أمـامي للحراسـة الإمبراطورية عند بصرى في جنوب دمشق، وكانت الرسالة مكتوبة بالعربية (إحدى اللغات السـامية)، ولا بـد أن أحـد التراجمة تلاها على مسامع الإمبراطور، إن كانت وصـلته أصلاً. كانت تلك الرسالة واردة من إنسان يسـمى محمـدا رسول ا ، وهي تدعو الإمبراطور إلى عبـادة ا الواحـد الأحد، وشهادة أن لا إله إلا ا . ولم يسجل لنا التاريخ ما قاله الإمبراطور في تلك الرسالة.

وجاءت رسالة مماثلة لهذه إلى قباذ في المدائن، فاسـتاء منها ومزقها، وأمر الرسول بالانصراف. فلما بلغ محمدا نبأ ذلك قال:

– "مزق ا ملكه".

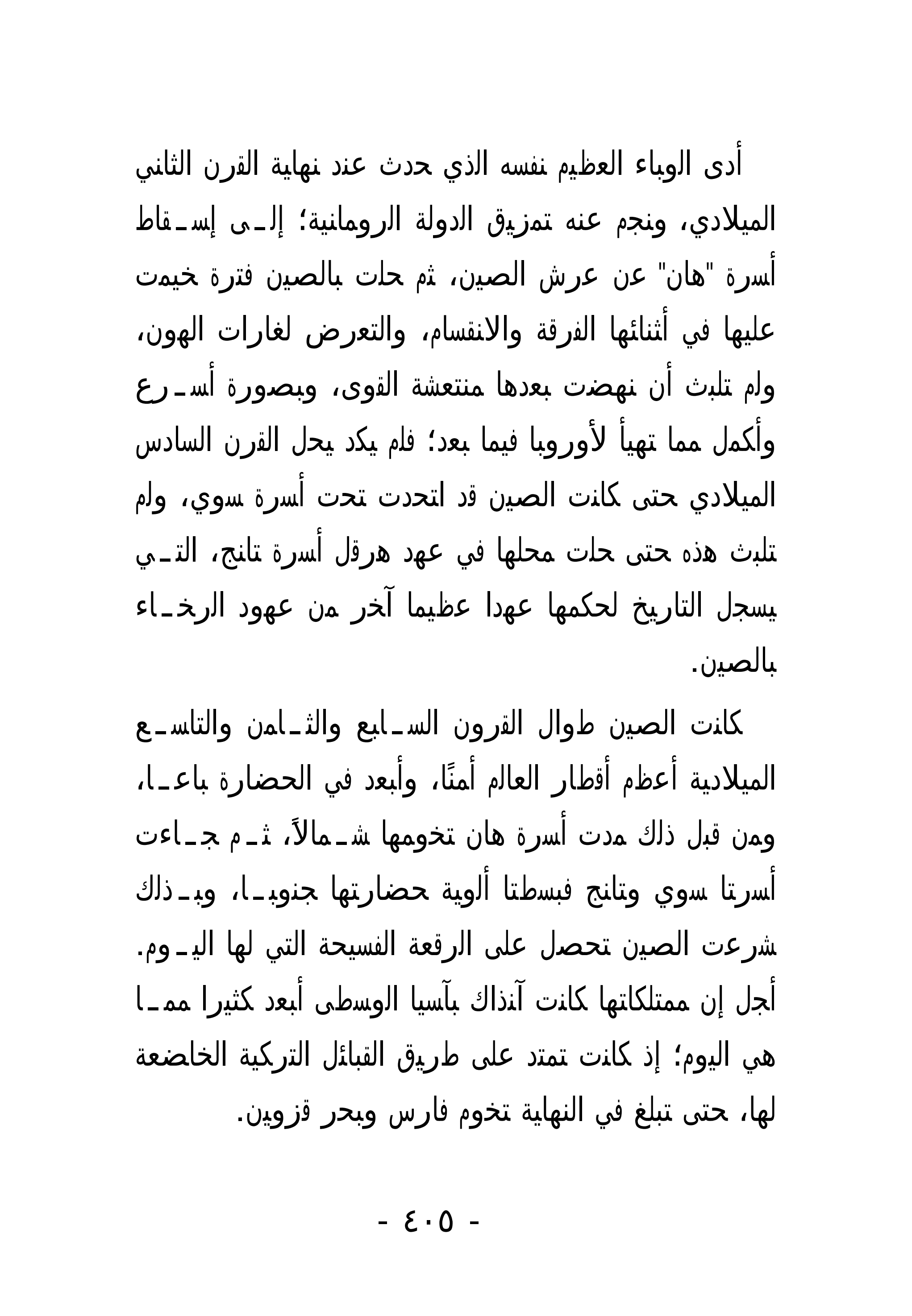
وقد ظهر أن محمدا الذي أرسل الرسالة كان زعيما دينيا، اتخذ مركز دعوته في "المدينة" إحدى البلـدان الصـحراوية الصغيرة، وكان يعلم الناس ديانة جديدة تدعوهم إلى عبـادة ا الواحد الحق.

الفصل الثاني والأربعون

أسرتا "سوي، وتانج" بالصين

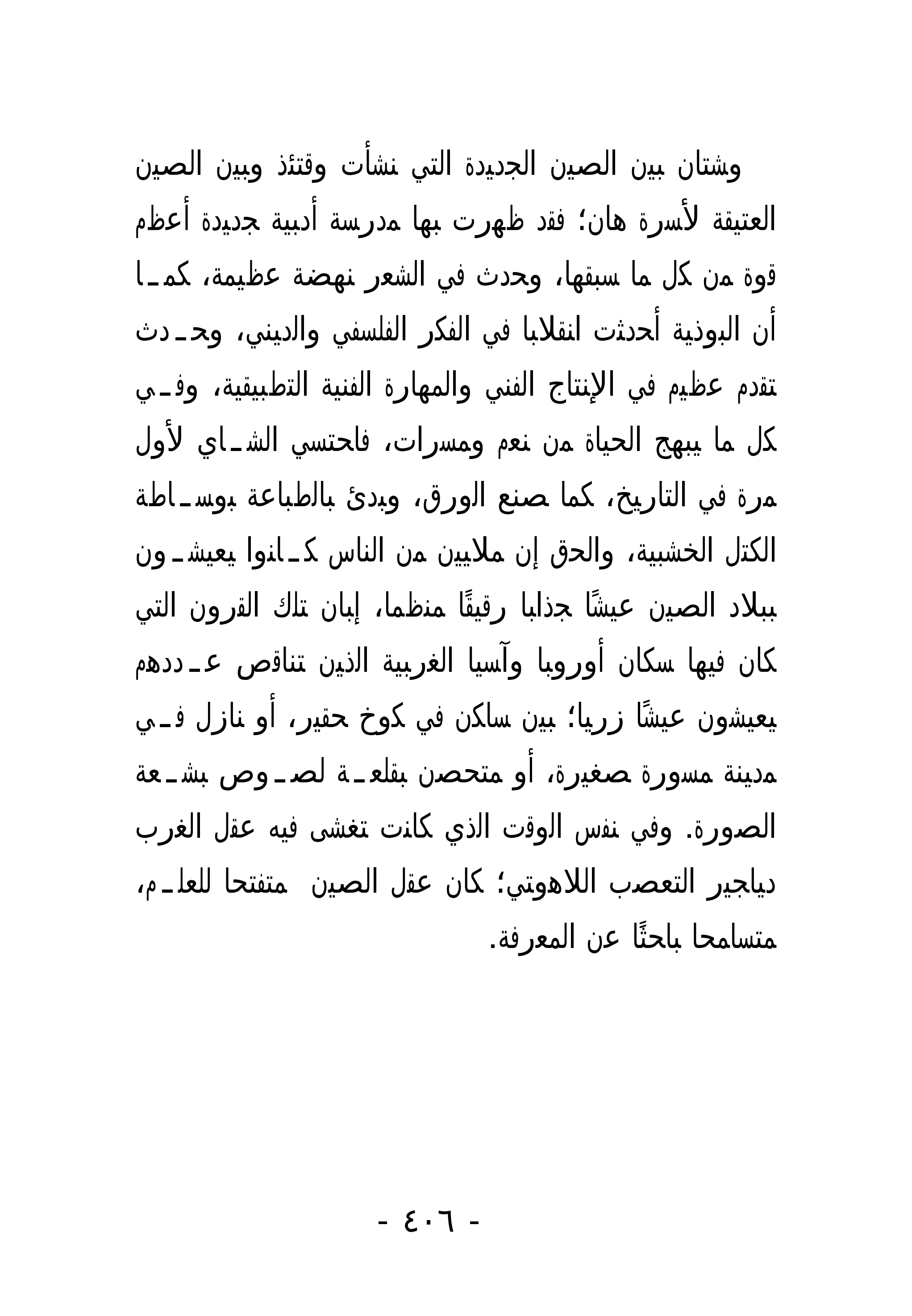
امتازت القرون الخامس والسادس والسابع والثامن الميلادية بتقدم الشعوب المغولية نحو الغرب؛ فلم يكن هون أتيلا إلا مقدمة لذلك التقدم، الذي أفضى في النهاية إلى استقرار شعوب مغولية في فنلندة وإستونيا وبلاد المجر؛ حيث لا يزال أحفادهم يعيشون إلى يومنا هذا، ويتكلمون لغات تشبه التركية. والبلغار أيضا شعب تركي الأرومة، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم لسانًا آريا، فإن المغول كانوا يلعبون مع الحضارات المطبوعة بالطابع الآري في أوروبا وفارس والهند نفس الدور الذي لعبه الآريون إزاء المدنيات الإيجية والسامية قبل ذلك ببضعة قرون.

أما في آسيا الوسطى؛ فإن الشعوب التركية سارت فيما نسميه اليوم باسم التركستان الغربية، كما أن الدولة الفارسية كانت تستخدم فعلاً كثيرا من الموظفين الأتراك والجند المرتزقة الأتراك، وكان الأشقانيون (البارثيون) قد بادوا من التاريخ تماما، وامتصهم سكان فارس بوجه عام؛ ولذا لم يعد في تاريخ آسيا الوسطى أي رحل آريين؛ إذ حلت الشعوب المغولية محلهم، وأصبح الترك سادة على آسيا بالمنطقة الممتدة من بلاد الصين إلى بحر الخزر (قزوين).



أدى الوباء العظيم نفسه الذي حدث عند نهاية القرن الثاني الميلادي، ونجم عنه تمزيق الدولة الرومانية؛ إلى إسقاط أسرة "هان" عن عرش الصين، ثم حلت بالصين فترة خيمت عليها في أثنائها الفرقة والانقسام، والتعرض لغارات الهون، ولم تلبث أن نهضت بعدها منتعشة القوى، وبصورة أسرع وأكمل مما تهيأ لأوروبا فيما بعد؛ فلم يكد يحل القرن السادس الميلادي حتى كانت الصين قد اتحدت تحت أسرة سوي، ولم تلبث هذه حتى حلت محلها في عهد هرقل أسرة تانج، التي يسجل التاريخ لحكمها عهدا عظيما آخر من عهود الرخاء بالصين.

كانت الصين طوال القرون السابع والثامن والتاسع الميلادية أعظم أقطار العالم أمنًا، وأبعد في الحضارة باعا، ومن قبل ذلك مدت أسرة هان تخومها شمالاً، ثم جاءت أسرتا سوي وتانج فبسطتا ألوية حضارتها جنوبا، وبذلك شرعت الصين تحصل على الرقعة الفسيحة التي لها اليوم. أجل إن ممتلكاتها كانت آنذاك بآسيا الوسطى أبعد كثيرا مما هي اليوم؛ إذ كانت تمتد على طريق القبائل التركية الخاضعة لها، حتى تبلغ في النهاية تخوم فارس وبحر قزوين.



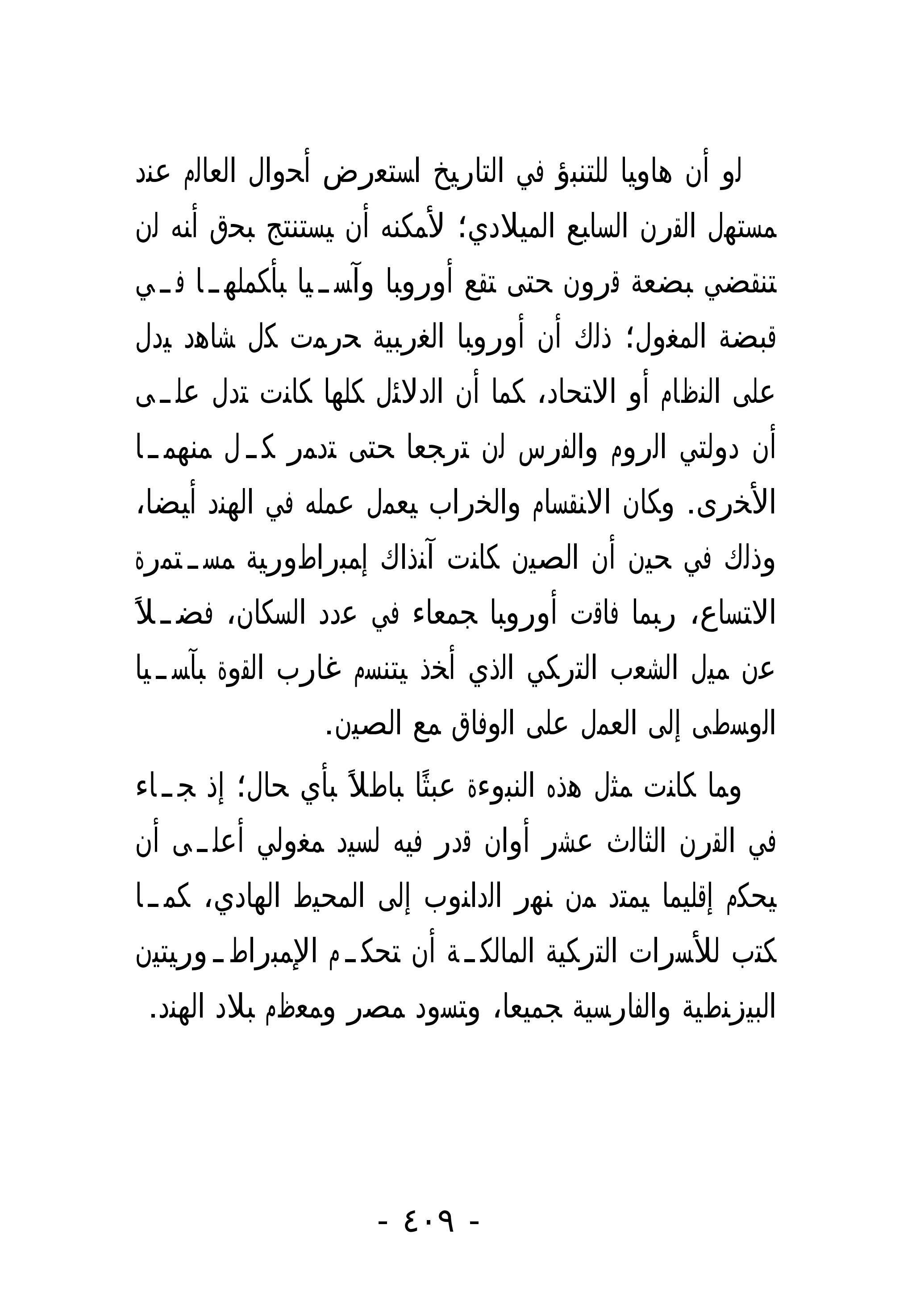
وشتان بين الصين الجديدة التي نشأت وقتئذ وبين الصين العتيقة لأسرة هان؛ فقد ظهرت بها مدرسة أدبية جديدة أعظم قوة من كل ما سبقها، وحدث في الشعر نهضة عظيمة، كما أن البوذية أحدثت انقلابا في الفكر الفلسفي والديني، وحدث تقدم عظيم في الإنتاج الفني والمهارة الفنية التطبيقية، وفي كل ما يبهج الحياة من نعم ومسرات، فاحتسي الشاي لأول مرة في التاريخ، كما صنع الورق، وبدئ بالطباعة بوساطة الكتل الخشبية، والحق إن ملايين من الناس كانوا يعيشون ببلاد الصين عيشًا جذابا رقيقًا منظما، إبان تلك القرون التي كان فيها سكان أوروبا وآسيا الغربية الذين تناقص عددهم يعيشون عيشًا زريا؛ بين ساكن في كوخ حقير، أو نازل في مدينة مسورة صغيرة، أو متحصن بقلعة لصوص بشعة الصورة. وفي نفس الوقت الذي كانت تغشى فيه عقل الغرب دياجير التعصب اللاهوتي؛ كان عقل الصين متفتحا للعلم، متسامحا باحثًا عن المعرفة.

ومن أقدم ملوك أسرة تانج الإمبراطور تاي تسونج، الذي ابتدأ حكمه في عام ٦٢٧، وهي نفس السنة التي انتصر فيها هرقل قرب نينوى. وقد جاءه سفير من قبل هرقل، الذي ربما كان يبحث عن حليف له في الجهة الأخرى من بلاد فارس، ووفدت عليه من فـارس نفسـها جماعـة مـن المبشـرين المسيحيين (٦٣٥م)، فسمح لهم أن يشرحوا عقيدتهم أمامـه، وأخذ يدرس ترجمة صينية لكتبهم المنزلة، ثم أعلن أن فـي الإمكان قبول هذه الديانة العجيبة، وأذن بإنشاء كنيسة ودير.

وإلى ذلك العاهل نفسه أقبلت رسـل النبـي محمـد فـي عام ٦٢٨، فوصلوا إلى كانتون على ظهـر إحـدى السـفن التجارية، بعد أن قطعوا الطريق بالبحر على امتداد سـواحل الهند، وأعار نايتسونج لهؤلاء المبعوثين أذنًا مصغية كريمـة على النقيض مما فعله قباذ وهرقل، ثم أبدى اهتماما بـآرائهم الدينية، وساعدهم في بناء مسجد بمدينة كانتون، وهو مسجد لا يزال باقيا – فيما يقال - إلى وقتنا هذا، فهو بـذلك أقـدم مساجد العالم.

الفصل الثالث والأربعون

محمد والإسلام



لو أن هاويا للتنبؤ في التاريخ استعرض أحوال العالم عند مستهل القرن السابع الميلادي؛ لأمكنه أن يستنتج بحق أنه لن تنقضي بضعة قرون حتى تقع أوروبا وآسـيا بأكملهـا فـي قبضة المغول؛ ذلك أن أوروبا الغربية حرمت كل شاهد يدل على النظام أو الاتحاد، كما أن الدلائل كلها كانت تدل علـى أن دولتي الروم والفرس لن ترجعا حتى تدمر كـل منهمـا الأخرى. وكان الانقسام والخراب يعمل عمله في الهند أيضا، وذلك في حين أن الصين كانت آنذاك إمبراطورية مسـتمرة الاتساع، ربما فاقت أوروبا جمعاء في عدد السكان، فضـلاً عن ميل الشعب التركي الذي أخذ يتنسم غارب القوة بآسـيا الوسطى إلى العمل على الوفاق مع الصين.

وما كانت مثل هذه النبوءة عبثًا باطلاً بأي حال؛ إذ جـاء في القرن الثالث عشر أوان قدر فيه لسيد مغولي أعلـى أن يحكم إقليما يمتد من نهر الدانوب إلى المحيط الهادي، كمـا كتب للأسرات التركية المالكـة أن تحكـم الإمبراطـوريتين البيزنطية والفارسية جميعا، وتسود مصر ومعظم بلاد الهند.

أما النقطة التي ربما تعرض فيها ذلك المـتكهن للخطـأ؛ فهي عدم تقديره بالضبط قدرة أوروبا اللاتينية على استرداد قواها، وتجاهله للقوى الكامنة في الصحراء العربيـة؛ إذ إن بلاد العرب ربما لاحت لعينه على صورتها التي دامت عليها منذ أزمان سحيقة القدم؛ حيث كانت مرتعا لقبائـل صـغيرة متناوشة من الرحل، وقد انقضت آنذاك أكثر من ألف سـنة لم ينشئ شعب سامي في أثنائها إمبراطورية واحدة.

ثم ما لبث نجم البدو أن سطع بباهر الضياء مـدة قـرن واحد وجيز حافل بالأبهة والفخامة، مدوا في أثنائه حكمهـم ولغتهم من بلاد الأندلس حتى حدود الصين، ومنحوا العـالم ثقافة جديدة، وأقاموا عقيدة لا تزال إلى اليوم من أعظم القوى الحيوية في العالم.

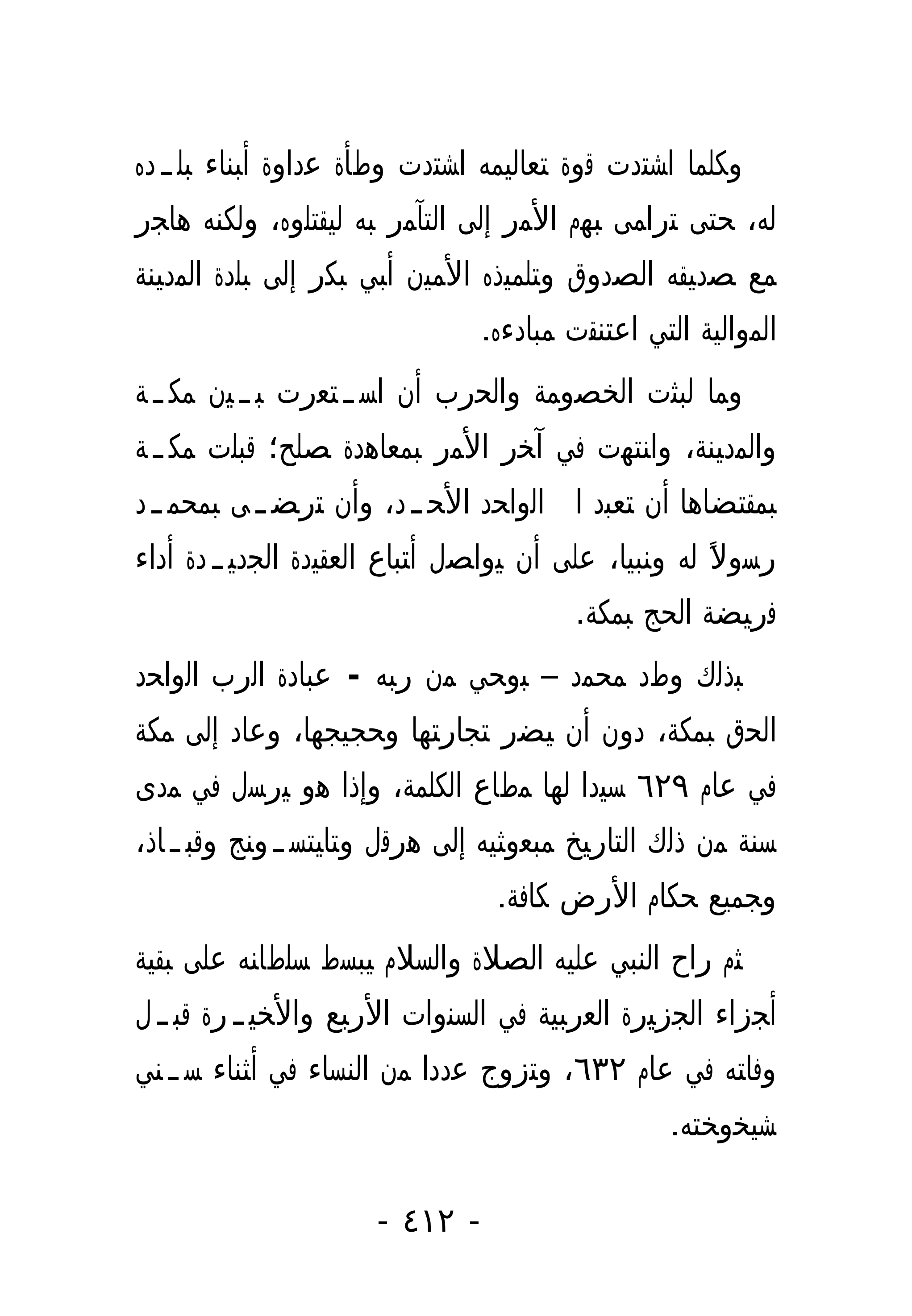
أما الرجـل الـذي أشـعل ذلـك القـبس العربـي؛ هـو محمد[عليه السلام] فيبدو لأول مرة في التاريخ بمدينة مكـة؛ حيـث تزوج وهو شاب من أرملة ثرية، ولم تأته الرسالة حتـى بلـغ الأربعين؛ لذا لم يتميز قبل ذلك بشيء اللهم إلا ما عرف عنه من أمانة واستقامة، والظاهر أنه كان يهتم اهتماما بالغًا بـالبحوث[1] الدينية.

([1]) لم يعرف عنه ﷺ عليه ذلك؛ بل المعروف هو نفوره مـن عبـادة الأصنام، وعدم سجوده لصنم قط. [المراجع]

كانت مكة بلدة وثنية في ذلك الزمان، تعبد بوجه خـاص حجرا أسود في بناء الكعبة، ذاع صـيته فـي كـل أرجـاء الجزيرة العربية، فأصبح مقصد الحج والحجاج، ولكن البلاد كانت تحوي عددا ضخما من اليهود؛ بل الواقـع إن الجـزء الجنوبي من بلاد العرب كان يعتنق اليهودية دينًـا، كمـا أن سوريا كانت بها العقائد المسيحية.

وعندما قارب الأربعين من عمره، أخذ ينزل عليه ناموس النوبة الذي كان لأنبياء العبرانيين قبل عهده باثني عشر قرنًا. فتحدث أولاً إلى زوجته بكلام كثير عن ا الواحـد الحـق، وعن ثواب الإحسان والمحسنين، وعذاب الشـر والضـلال، فجمع حوله حلقة صغيرة من المؤمنين، ثم شرع يعظ الناس في بلدته، ويحضهم على ترك ما يعبدون من أوثان، فكرهـه لذلك قومه وأهل بلدته؛ نظرا لأن الحج إلى الكعبة كان أعظم مصدر للخير العميم الذي تحظى به مكة.

وما لبث أن زاد جرأة، وأن حدد تعاليمه أكثر؛ فأوحي إليـه فأعلن أنه خاتم أنبياء ا ، وأنه بعث ليتم الدين ومكارم الأخلاق، وصرح بأن إبراهيم وعيسى كانا به مبشرين ومنذرين سابقين، وأنه اصطفي ليتم ويكمل الكشف عن إرادة ا .

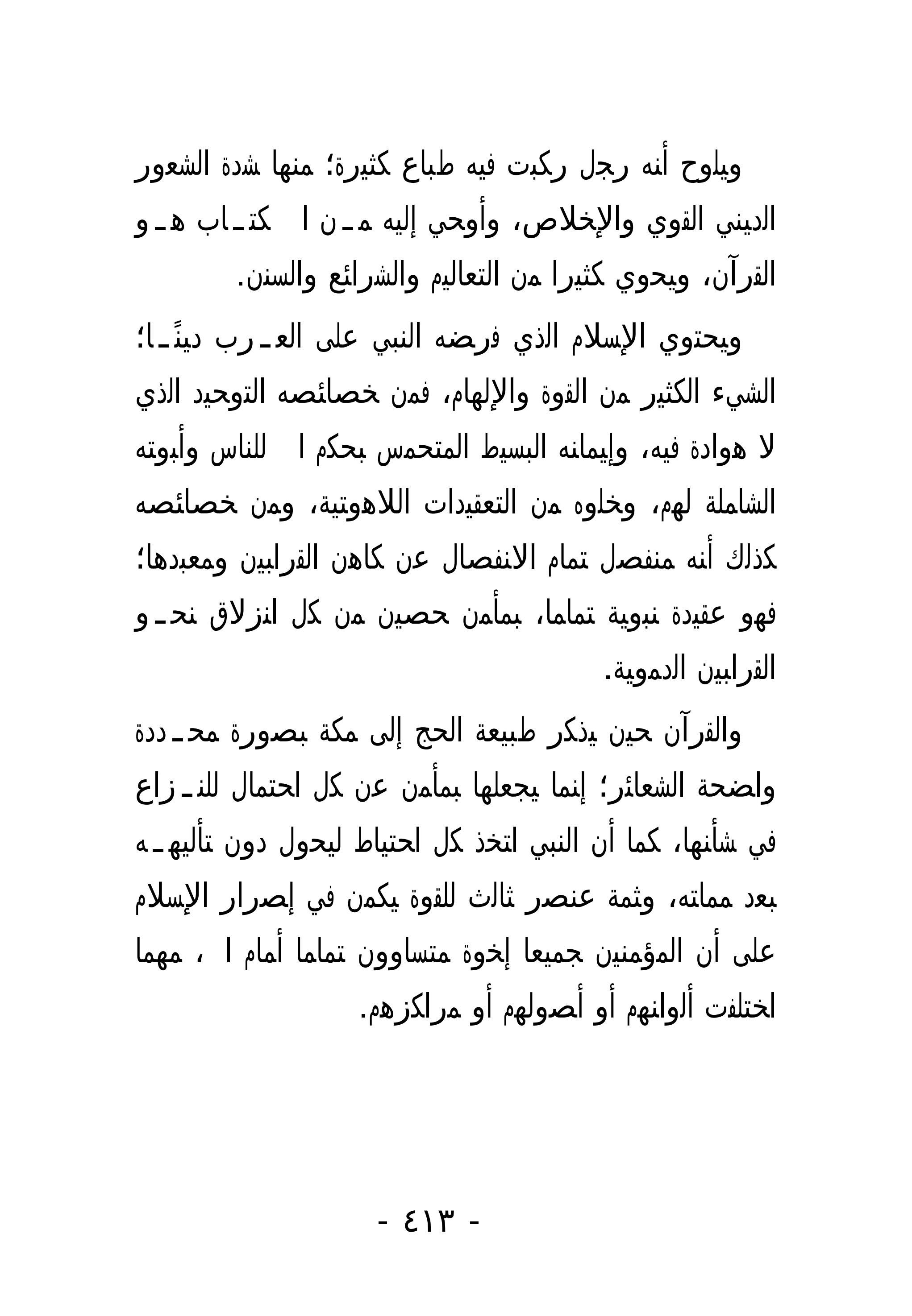


وكلما اشتدت قوة تعاليمه اشتدت وطأة عداوة أبناء بلـده له، حتى ترامى بهم الأمر إلى التآمر به ليقتلوه، ولكنه هاجر مع صديقه الصدوق وتلميذه الأمين أبي بكر إلى بلدة المدينة الموالية التي اعتنقت مبادءه.

وما لبثت الخصومة والحرب أن اسـتعرت بـين مكـة والمدينة، وانتهت في آخر الأمر بمعاهدة صلح؛ قبلت مكـة بمقتضاها أن تعبد ا الواحد الأحـد، وأن ترضـى بمحمـد رسولاً له ونبيا، على أن يواصل أتباع العقيدة الجديـدة أداء فريضة الحج بمكة.

بذلك وطد محمد – بوحي من ربه - عبادة الرب الواحد الحق بمكة، دون أن يضر تجارتها وحجيجها، وعاد إلى مكة في عام ٦٢٩ سيدا لها مطاع الكلمة، وإذا هو يرسل في مدى سنة من ذلك التاريخ مبعوثيه إلى هرقل وتايتسـونج وقبـاذ، وجميع حكام الأرض كافة.

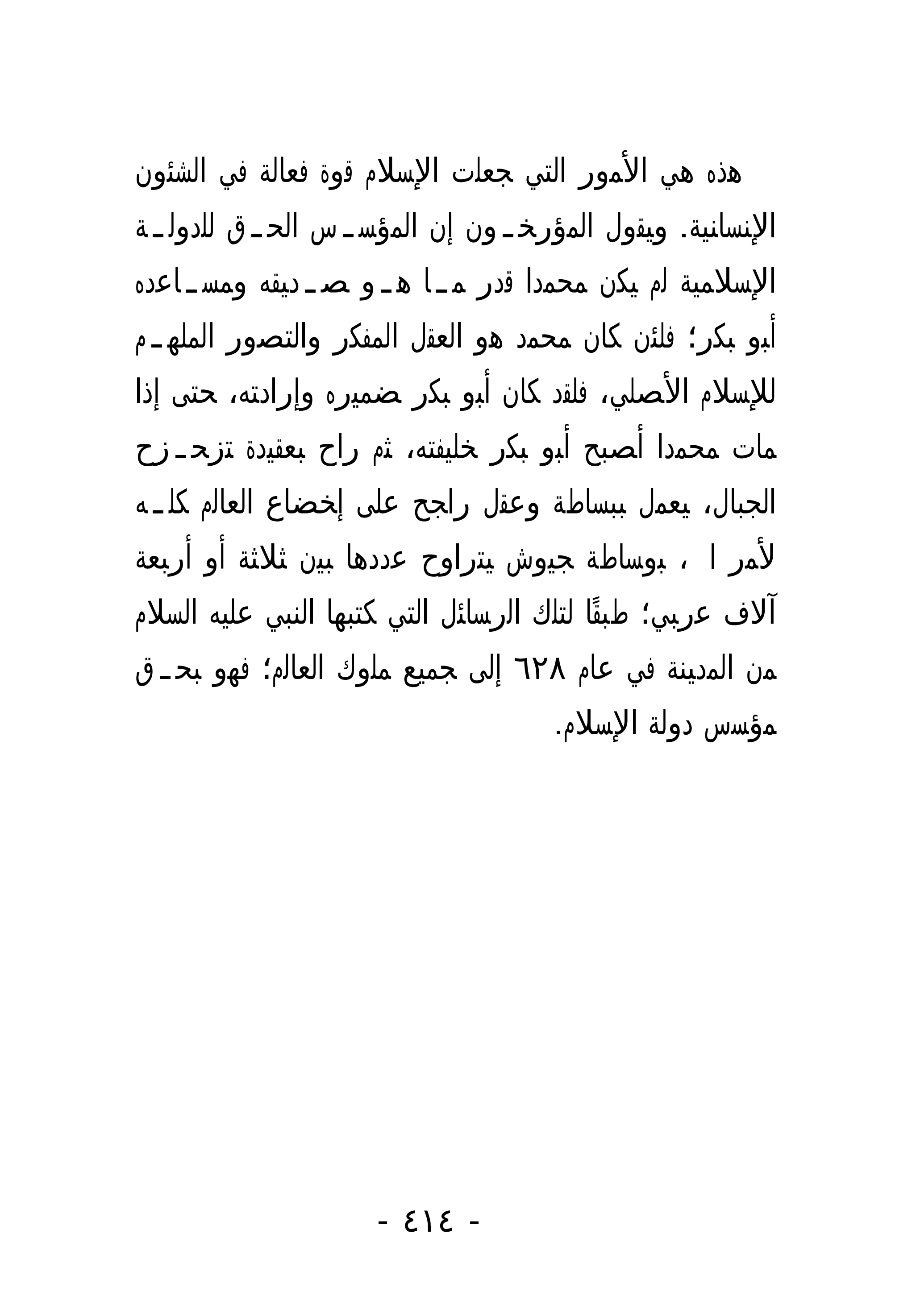
ثم راح النبي عليه الصلاة والسلام يبسط سلطانه على بقية أجزاء الجزيرة العربية في السنوات الأربع والأخيـرة قبـل وفاته في عام ٦٣٢، وتزوج عددا من النساء في أثناء سـني شيخوخته.



ويلوح أنه رجل ركبت فيه طباع كثيرة؛ منها شدة الشعور الديني القوي والإخلاص، وأوحي إليه مـن ا كتـاب هـو القرآن، ويحوي كثيرا من التعاليم والشرائع والسنن.

ويحتوي الإسلام الذي فرضه النبي على العـرب دينًـا؛ الشيء الكثير من القوة والإلهام، فمن خصائصه التوحيد الذي لا هوادة فيه، وإيمانه البسيط المتحمس بحكم ا للناس وأبوته الشاملة لهم، وخلوه من التعقيدات اللاهوتية، ومن خصائصه كذلك أنه منفصل تمام الانفصال عن كاهن القرابين ومعبدها؛ فهو عقيدة نبوية تماما، بمأمن حصين من كل انزلاق نحـو القرابين الدموية.

والقرآن حين يذكر طبيعة الحج إلى مكة بصورة محـددة واضحة الشعائر؛ إنما يجعلها بمأمن عن كل احتمال للنـزاع في شأنها، كما أن النبي اتخذ كل احتياط ليحول دون تأليهـه بعد مماته، وثمة عنصر ثالث للقوة يكمن في إصرار الإسلام على أن المؤمنين جميعا إخوة متساوون تماما أمام ا ، مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم.



هذه هي الأمور التي جعلت الإسلام قوة فعالة في الشئون الإنسانية. ويقول المؤرخـون إن المؤسـس الحـق للدولـة الإسلامية لم يكن محمدا قدر مـا هـو صـديقه ومسـاعده أبو بكر؛ فلئن كان محمد هو العقل المفكر والتصور الملهـم للإسلام الأصلي، فلقد كان أبو بكر ضميره وإرادته، حتى إذا مات محمدا أصبح أبو بكر خليفته، ثم راح بعقيدة تزحـزح الجبال، يعمل ببساطة وعقل راجح على إخضاع العالم كلـه لأمر ا ، بوساطة جيوش يتراوح عددها بين ثلاثة أو أربعة آلاف عربي؛ طبقًا لتلك الرسائل التي كتبها النبي عليه السلام من المدينة في عام ٦٢٨ إلى جميع ملوك العالم؛ فهو بحـق مؤسس دولة الإسلام.

الفصل الرابع والأربعون

عهد عظمة العرب

ثم جاءت بعد ذلك أعجب قصص الفتوح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري؛ إذ تمزق الجيش البيزنطي في معركة اليرموك (وهو أحد روافد نهـر الأردن) فـي عـام ٦٣٤، ولم يلبث الإمبراطور هرقـل – وقـد اسـتنزف داء الاستسقاء قواه، كما استنفدت الحرب الفارسية موارده المالية – أن رأى ممتلكاته التي استردها وشيكًا في سوريا (وهـي: دمشق وتدمر وأنطاكية والقدس، وغيرهـا) تتـداعى أمـام المسلمين دون مقاومة تقريبا، واعتنقت الإسلام نسبة كبيـرة من السكان، ثم اتجه المسلمون شرقًا إلى بلاد الفرس الـذين وجدوا في رستم قائدا قديرا؛ فجمعوا له جيشًا عظيما به قوة من الفيلة، واستمروا يقاتلون العرب ثلاثة أيام عند القادسـية عام ٦٣٧، ثم هزموا في النهاية هزيمة تامة.

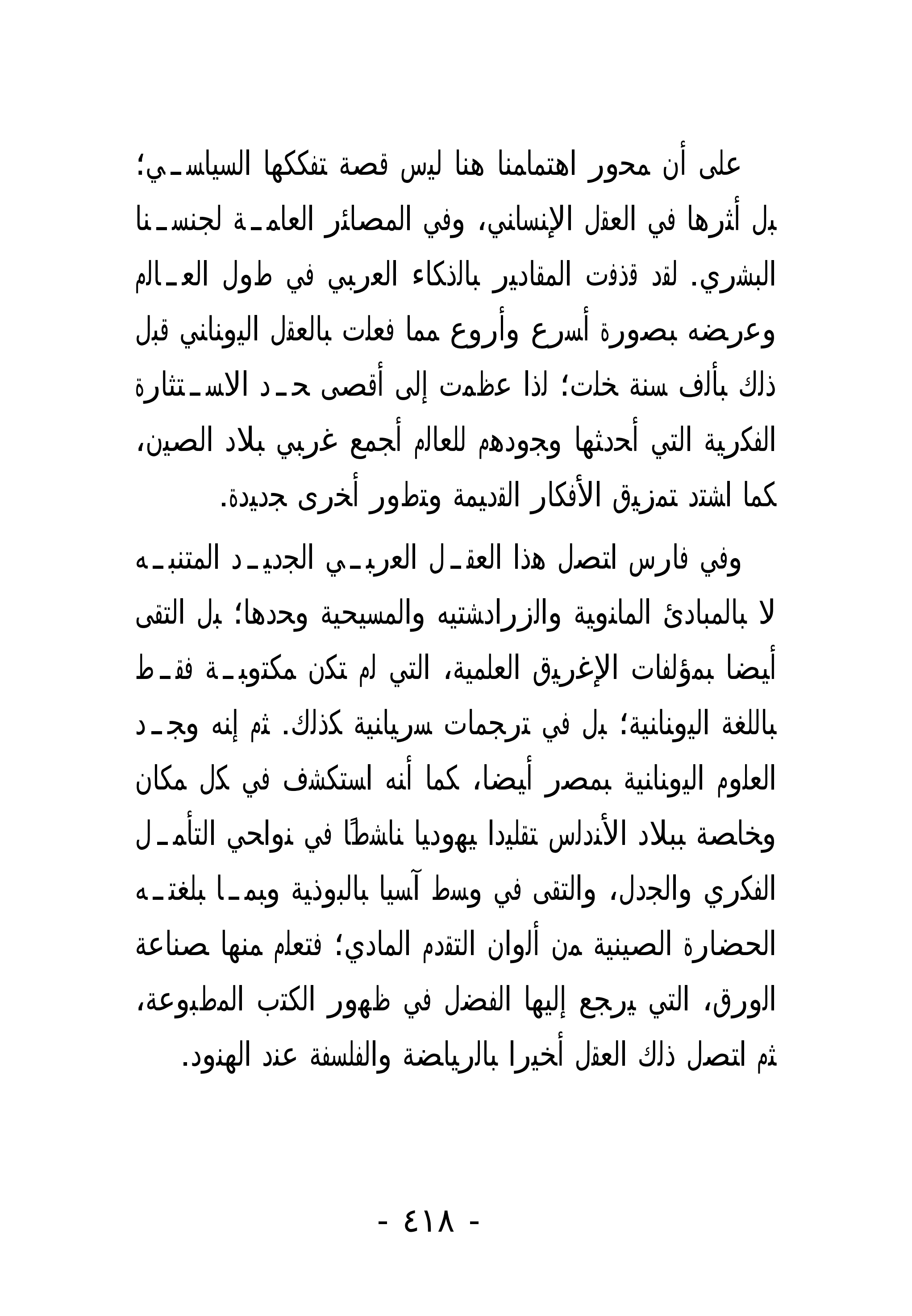
وتم بعد ذلك فتح فـارس بأجمعهـا، وتقـدمت الدولـة الإسلامية قدما إلى التركستان الغربية، ثم توغلت في الشرق حتى التقت بالصينيين، وسقطت مصر دون مقاومة تذكر في يد الفاتحين.

واندفع سيل الفتوح إلى ساحل إفريقية الشمالي، حتى بلـغ مضيق جبل طارق، وتجاوزه إلى بلاد الأنـدلس فـي عـام ٧١٢٠، وبلغ الفاتحون جبال البرانس في عـام ٧٢٠، ولـم يلبث تقدم العرب حتى بلغ وسط فرنسا في عام ٧٣٢، ولكنه أُوقف هنا إلى الأبد بعد معركة بواتييه[1]، ورد على أعقابـه إلى جبال البرانس ثانية، وصار للعرب بفتح مصر أسـطول بحري، وجاء أوان لاح فيه سـقوط القسـطنطينية وشـيكًا، فهاجموها بحرا مرات عديدة بين عامي ٦٧٢ و٧١٨، ولكن المدينة العظيمة صمدت أمام هجماتهم.

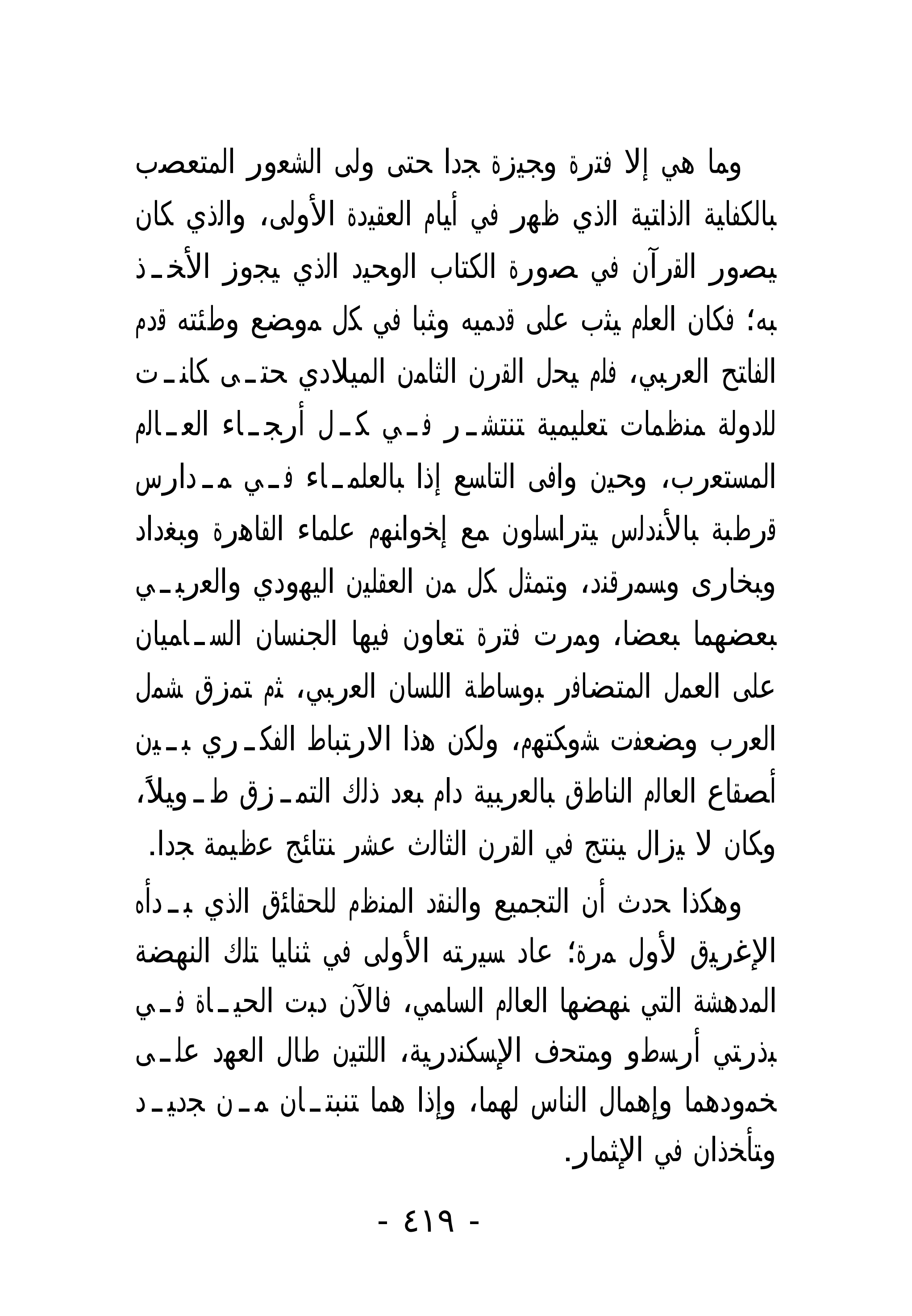
لم يوهب العرب كفايـة سياسـية كبيـرة، كمـا أنهـم لم يرزقوا أي خبرة سياسـية أبـدا؛ لـذا لـم يقـدر لهـذه الإمبراطورية العظيمة التي أصبحت قصبتها آنـذاك مدينـة دمشق، والتي امتدت رقعتها من إسـبانيا إلـى الصـين؛ أن تعيش طويلاً، ومنذ البداية نفسها قوضت الخلافات المذهبيـة وحدتها.

---

(1) هي معركة بلاط الشهداء التي هزم فيها عبد الرحمن الغافقي على يد شارل مارتل الفرنجي.


على أن محور اهتمامنا هنا ليس قصة تفككها السياسـي؛ بل أثرها في العقل الإنساني، وفي المصائر العامـة لجنسـنا البشري. لقد قذفت المقادير بالذكاء العربي في طول العـالم وعرضه بصورة أسرع وأروع مما فعلت بالعقل اليوناني قبل ذلك بألف سنة خلت؛ لذا عظمت إلى أقصى حـد الاسـتثارة الفكرية التي أحدثها وجودهم للعالم أجمع غربي بلاد الصين، كما اشتد تمزيق الأفكار القديمة وتطور أخرى جديدة.

وفي فارس اتصل هذا العقـل العربـي الجديـد المتنبـه لا بالمبادئ المانوية والزرادشتيه والمسيحية وحدها؛ بل التقى أيضا بمؤلفات الإغريق العلمية، التي لم تكن مكتوبـة فقـط باللغة اليونانية؛ بل في ترجمات سريانية كذلك. ثم إنه وجـد العلوم اليونانية بمصر أيضا، كما أنه استكشف في كل مكان وخاصة ببلاد الأندلس تقليدا يهوديا ناشطًا في نواحي التأمـل الفكري والجدل، والتقى في وسط آسيا بالبوذية وبمـا بلغتـه الحضارة الصينية من ألوان التقدم المادي؛ فتعلم منها صناعة الورق، التي يرجع إليها الفضل في ظهور الكتب المطبوعة، ثم اتصل ذلك العقل أخيرا بالرياضة والفلسفة عند الهنود.



وما هي إلا فترة وجيزة جدا حتى ولى الشعور المتعصب بالكفاية الذاتية الذي ظهر في أيام العقيدة الأولى، والذي كان يصور القرآن في صورة الكتاب الوحيد الذي يجوز الأخذ به؛ فكان العلم يثب على قدميه وثبا في كل موضع وطئته قدم الفاتح العربي، فلم يحل القرن الثامن الميلادي حتى كانت للدولة منظمات تعليمية تنتشر في كل أرجاء العالم المستعرب، وحين وافى التاسع إذا بالعلماء في مدارس قرطبة بالأندلس يتراسلون مع إخوانهم علماء القاهرة وبغداد وبخارى وسمرقند، وتمثل كل من العقلين اليهودي والعربي بعضهما بعضا، ومرت فترة تعاون فيها الجنسان الساميان على العمل المتضافر بوساطة اللسان العربي، ثم تمزق شمل العرب وضعفت شوكتهم، ولكن هذا الارتباط الفكري بين أصقاع العالم الناطق بالعربية دام بعد ذلك التمزق طويلاً، وكان لا يزال ينتج في القرن الثالث عشر نتائج عظيمة جدا.

وهكذا حدث أن التجميع والنقد المنظم للحقائق الذي بدأه الإغريق لأول مرة؛ عاد سيرته الأولى في ثنايا تلك النهضة المدهشة التي نهضها العالم السامي، فالآن دبت الحياة في بذرتي أرسطو ومتحف الإسكندرية، اللتين طال العهد على خمودهما وإهمال الناس لهما، وإذا هما تنبتان من جديد وتأخذان في الإثمار.

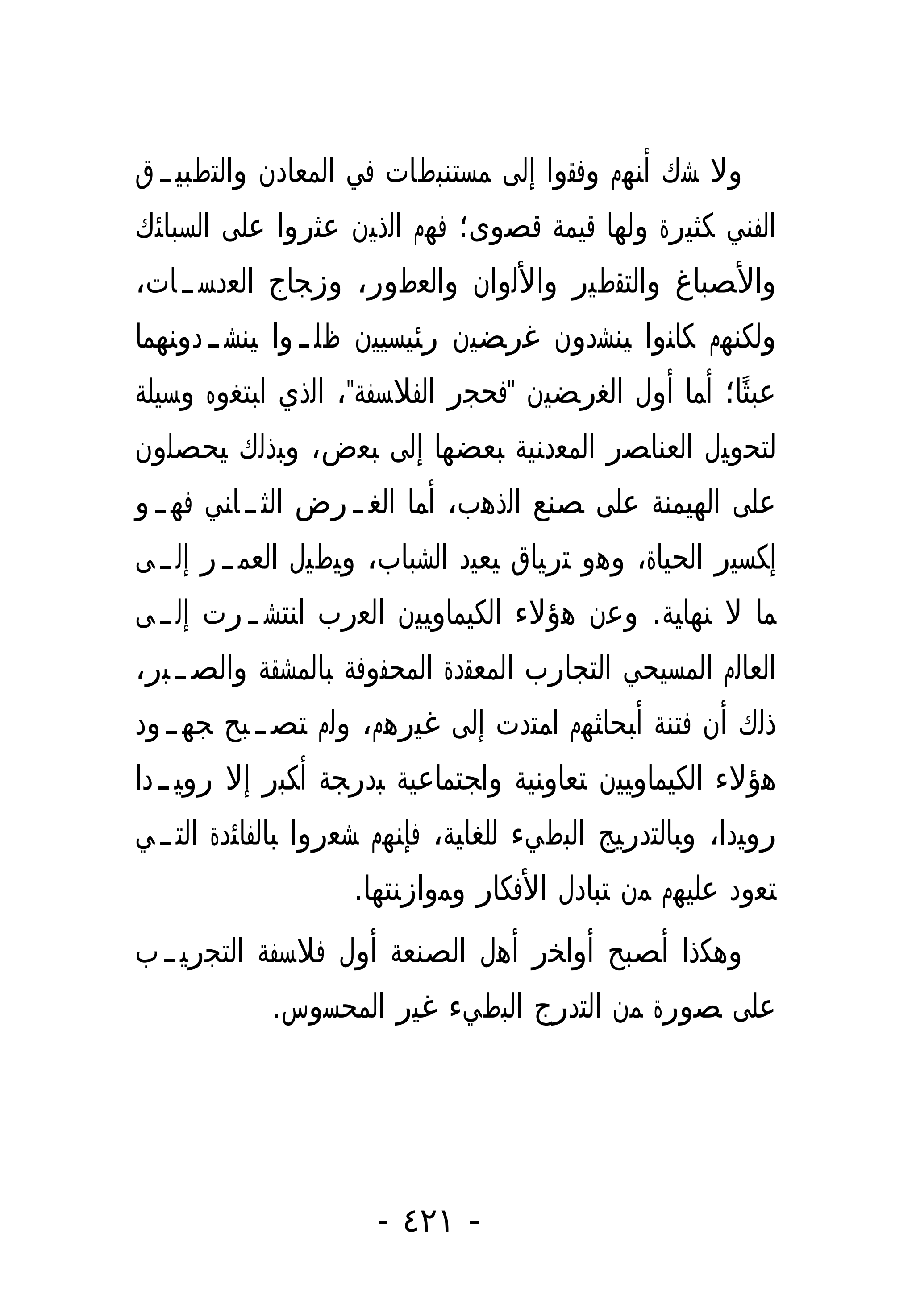
لقد تم للعرب في حقـول العلـوم الرياضـية والطبيـة والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم، فنُبذت الأرقام الرومانية القبيحة، وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا، واستعملت علامة الصفر لأول مرة.

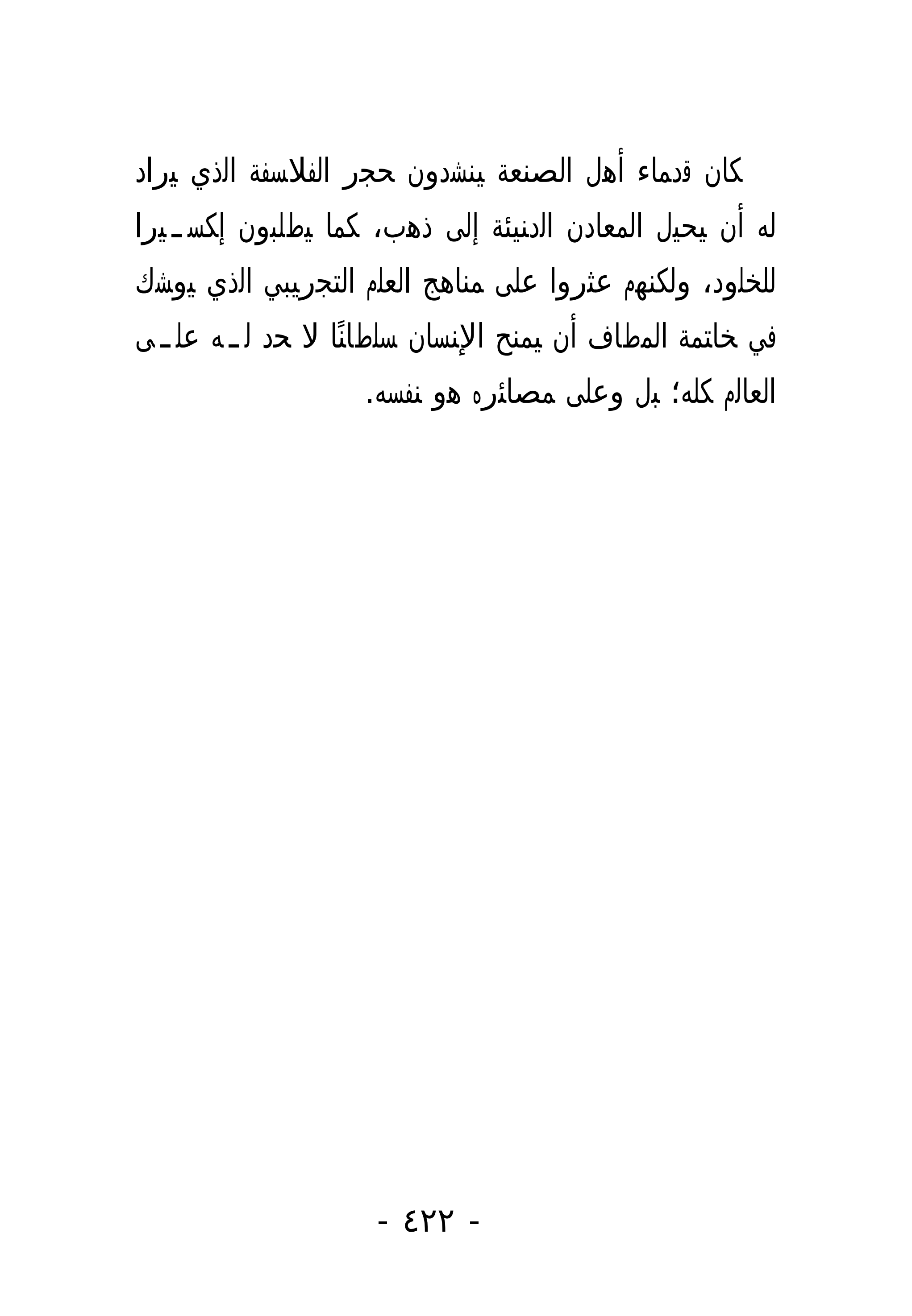
ولا يخفى أن اسم "الجبر" نفسه لفظ عربي، وكذلك كلمـة "كيمياء"، ثم إن أسماء نجوم كنجم الغول والدبران والعـواء Bootes تحتفظ بذكرى فتوح العرب في أطبـاق السـماء، وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى بكل من فرنسا وإيطاليا والعالم المسيحي كافة.

وكان علماء الكيمياء التجريبيون عنـد العـرب يسـمون "أصحاب الصنعة" Aldhemists، ولكنهم ظلوا على جانـب كبير من النزعة الهمجية من حيـث احتفـاظهم بطـرائقهم ونتائجها في طي الكتمان ما وسعهم ذلك؛ لأنهم أدركوا منـذ البداية الأولى ما قد تعود به عليهم مستكشفاتهم مـن مزايـا هائلة، وما قد يترتب بها على الحياة البشرية مـن عواقـب بعيدة الأثر.

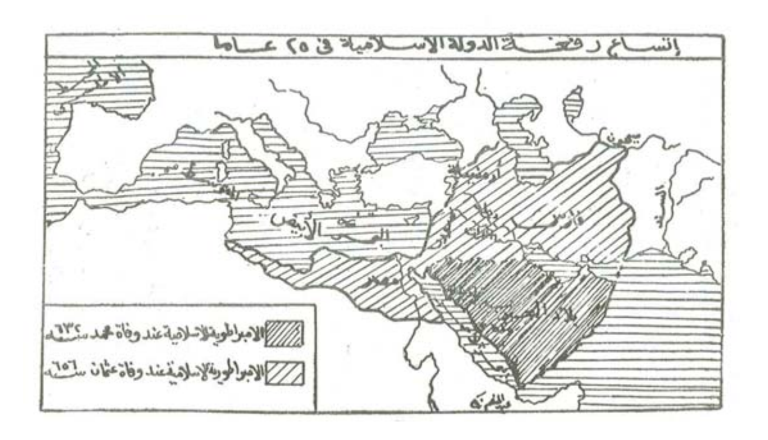
ولا شك أنهم وفقوا إلى مستنبطات في المعادن والتطبيـق الفني كثيرة ولها قيمة قصوى؛ فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والعطور، وزجاج العدسـات، ولكنهم كانوا ينشدون غرضين رئيسيين ظلـوا ينشـدونهما عبثًا؛ أما أول الغرضين "فحجر الفلاسفة"، الذي ابتغوه وسيلة لتحويل العناصر المعدنية بعضها إلى بعض، وبذلك يحصلون على الهيمنة على صنع الذهب، أما الغـرض الثـاني فهـو إكسير الحياة، وهو ترياق يعيد الشباب، ويطيل العمـر إلـى ما لا نهاية. وعن هؤلاء الكيماويين العرب انتشـرت إلـى العالم المسيحي التجارب المعقدة المحفوفة بالمشقة والصـبر، ذلك أن فتنة أبحاثهم امتدت إلى غيرهم، ولم تصـبح جهـود هؤلاء الكيماويين تعاونية واجتماعية بدرجة أكبر إلا رويـدا رويدا، وبالتدريج البطيء للغاية، فإنهم شعروا بالفائدة التـي تعود عليهم من تبادل الأفكار وموازنتها.

وهكذا أصبح أواخر أهل الصنعة أول فلاسفة التجريـب على صورة من التدرج البطيء غير المحسوس.

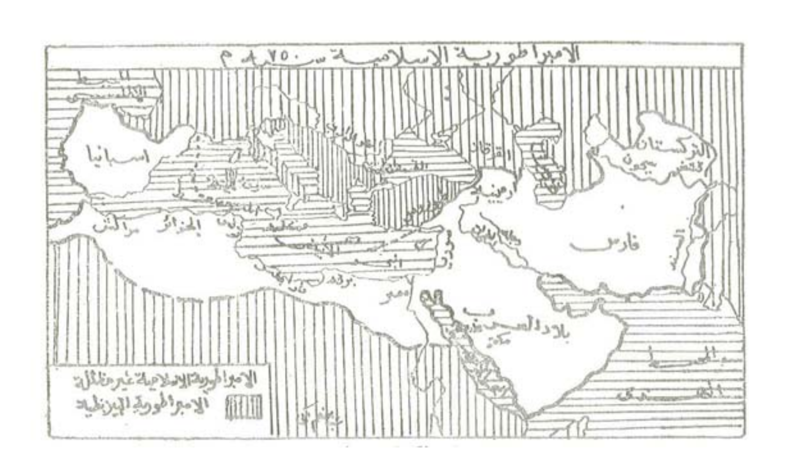




كان قدماء أهل الصنعة ينشدون حجر الفلاسفة الذي يراد له أن يحيل المعادن الدنيئة إلى ذهب، كما يطلبون إكسيرا للخلود، ولكنهم عثروا على مناهج العلم التجريبي الذي يوشك في خاتمة المطاف أن يمنح الإنسان سلطانًا لا حد له على العالم كله؛ بل وعلى مصائره هو نفسه.

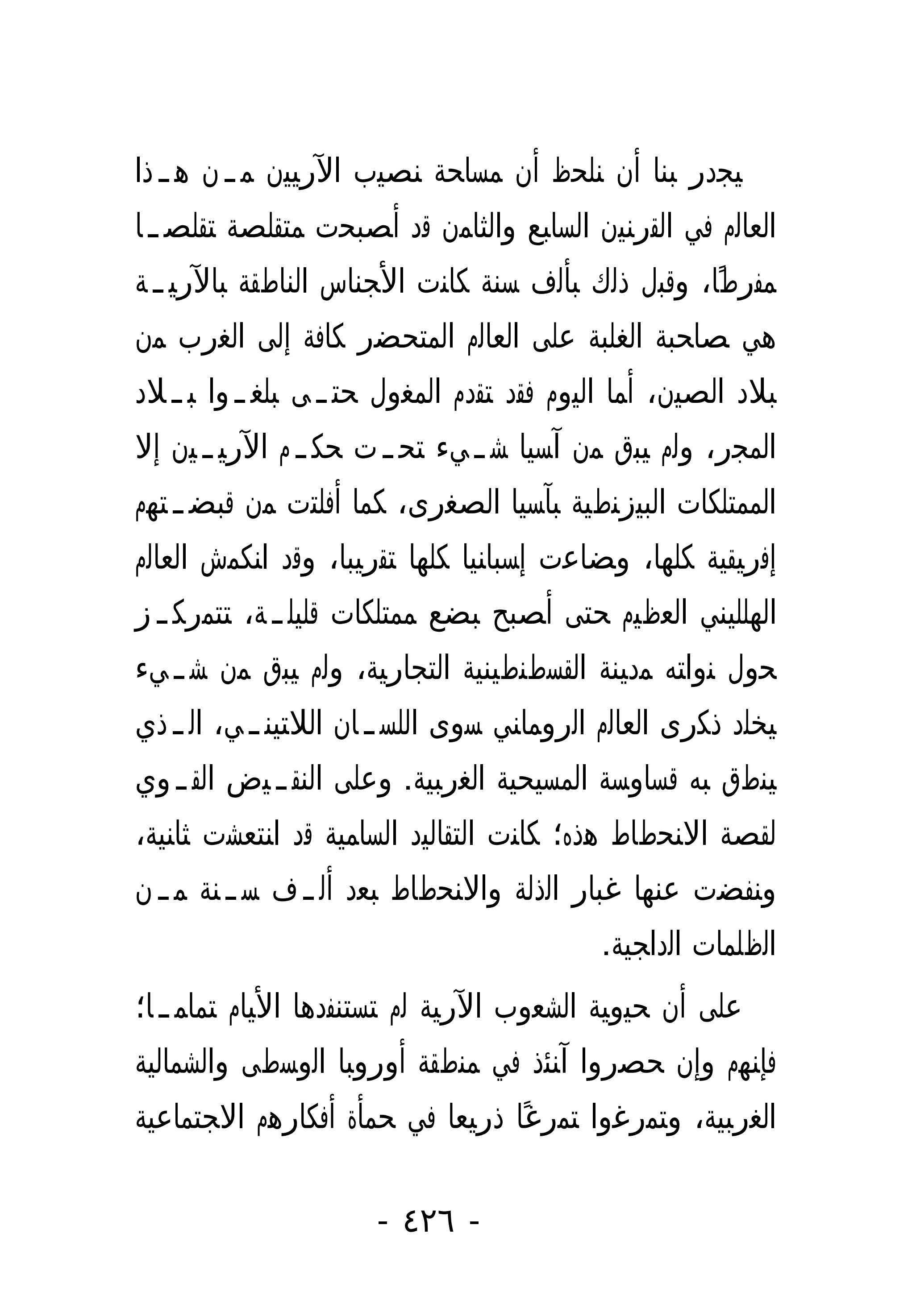


إتساع رقعة الدولة الإسلامية في ٢٥ عاما
الامبراطورية الإسلامية عند وفاة محمد سنة ٦٣٢م
الامبراطورية الإسلامية عند وفاة عثمان سنة ٦٥٦م
البحر الأبيض
مصر
فارس


الامبراطورية الإسلامية سنة ٧٥٠ م
اسبانيا
مراكش
الجزائر
القوقاز
ارمينيه
التركستان
جيحون
فارس
مصر
برقة
بلاد العرب
مكة
الامبراطورية الإسلامية غير مظللة
الامبراطورية البيزنطية

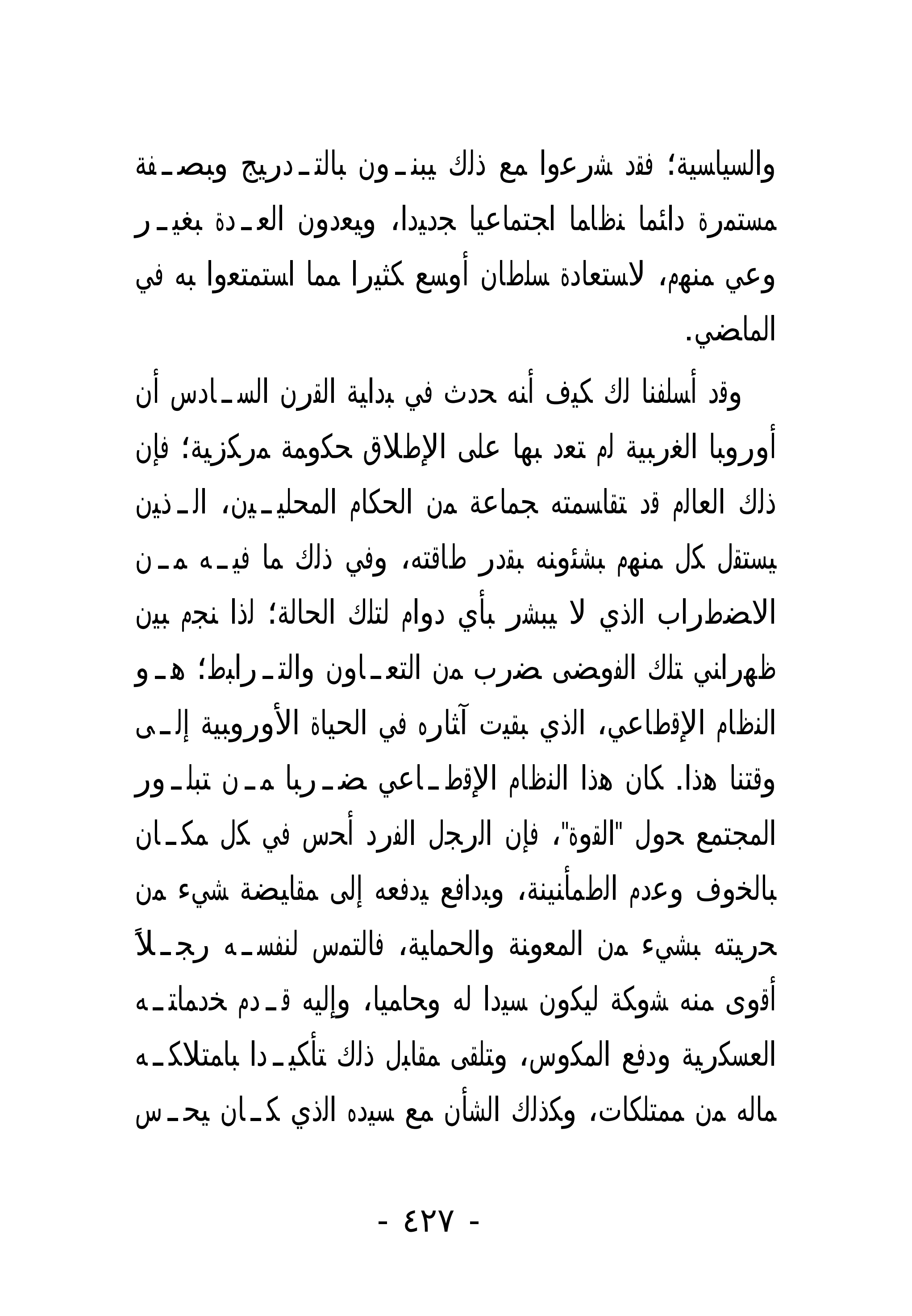
الفصل الخامس والأربعون

تطور عالم المسيحية اللاتينية



يجدر بنا أن نلحظ أن مساحة نصيب الآريين من هذا العالم في القرنين السابع والثامن قد أصبحت متقلصة تقلصا مفرطًا، وقبل ذلك بألف سنة كانت الأجناس الناطقة بالآرية هي صاحبة الغلبة على العالم المتحضر كافة إلى الغرب من بلاد الصين، أما اليوم فقد تقدم المغول حتى بلغوا بلاد المجر، ولم يبق من آسيا شيء تحت حكم الآريين إلا الممتلكات البيزنطية بآسيا الصغرى، كما أفلتت من قبضتهم إفريقية كلها، وضاعت إسبانيا كلها تقريبا، وقد انكمش العالم الهلليني العظيم حتى أصبح بضع ممتلكات قليلة، تتمركز حول نواته مدينة القسطنطينية التجارية، ولم يبق من شيء يخلد ذكرى العالم الروماني سوى اللسان اللاتيني، الذي ينطق به قساوسة المسيحية الغربية. وعلى النقيض القوي لقصة الانحطاط هذه؛ كانت التقاليد السامية قد انتعشت ثانية، ونفضت عنها غبار الذلة والانحطاط بعد ألف سنة من الظلمات الداجية.

على أن حيوية الشعوب الآرية لم تستنفدها الأيام تماما؛ فإنهم وإن حصروا آنئذ في منطقة أوروبا الوسطى والشمالية الغربية، وتمرغوا تمرغًا ذريعا في حمأة أفكارهم الاجتماعية


والسياسية؛ فقد شرعوا مع ذلك يبنـون بالتـدريج وبصـفة مستمرة دائما نظاما اجتماعيا جديدا، ويعدون العـدة بغيـر وعي منهم، لاستعادة سلطان أوسع كثيرا مما استمتعوا به في الماضي.

وقد أسلفنا لك كيف أنه حدث في بداية القرن السـادس أن أوروبا الغربية لم تعد بها على الإطلاق حكومة مركزية؛ فإن ذلك العالم قد تقاسمته جماعة من الحكام المحليـين، الـذين يستقل كل منهم بشئونه بقدر طاقته، وفي ذلك ما فيـه مـن الاضطراب الذي لا يبشر بأي دوام لتلك الحالة؛ لذا نجم بين ظهراني تلك الفوضى ضرب من التعـاون والتـرابط؛ هـو النظام الإقطاعي، الذي بقيت آثاره في الحياة الأوروبية إلـى وقتنا هذا. كان هذا النظام الإقطـاعي ضـربا مـن تبلـور المجتمع حول "القوة"، فإن الرجل الفرد أحس في كل مكـان بالخوف وعدم الطمأنينة، وبدافع يدفعه إلى مقايضة شيء من حريته بشيء من المعونة والحماية، فالتمس لنفسـه رجـلاً أقوى منه شوكة ليكون سيدا له وحاميا، وإليه قـدم خدماتـه العسكرية ودفع المكوس، وتلقى مقابل ذلك تأكيـدا بامتلاكـه ماله من ممتلكات، وكذلك الشأن مع سيده الذي كـان يحـس

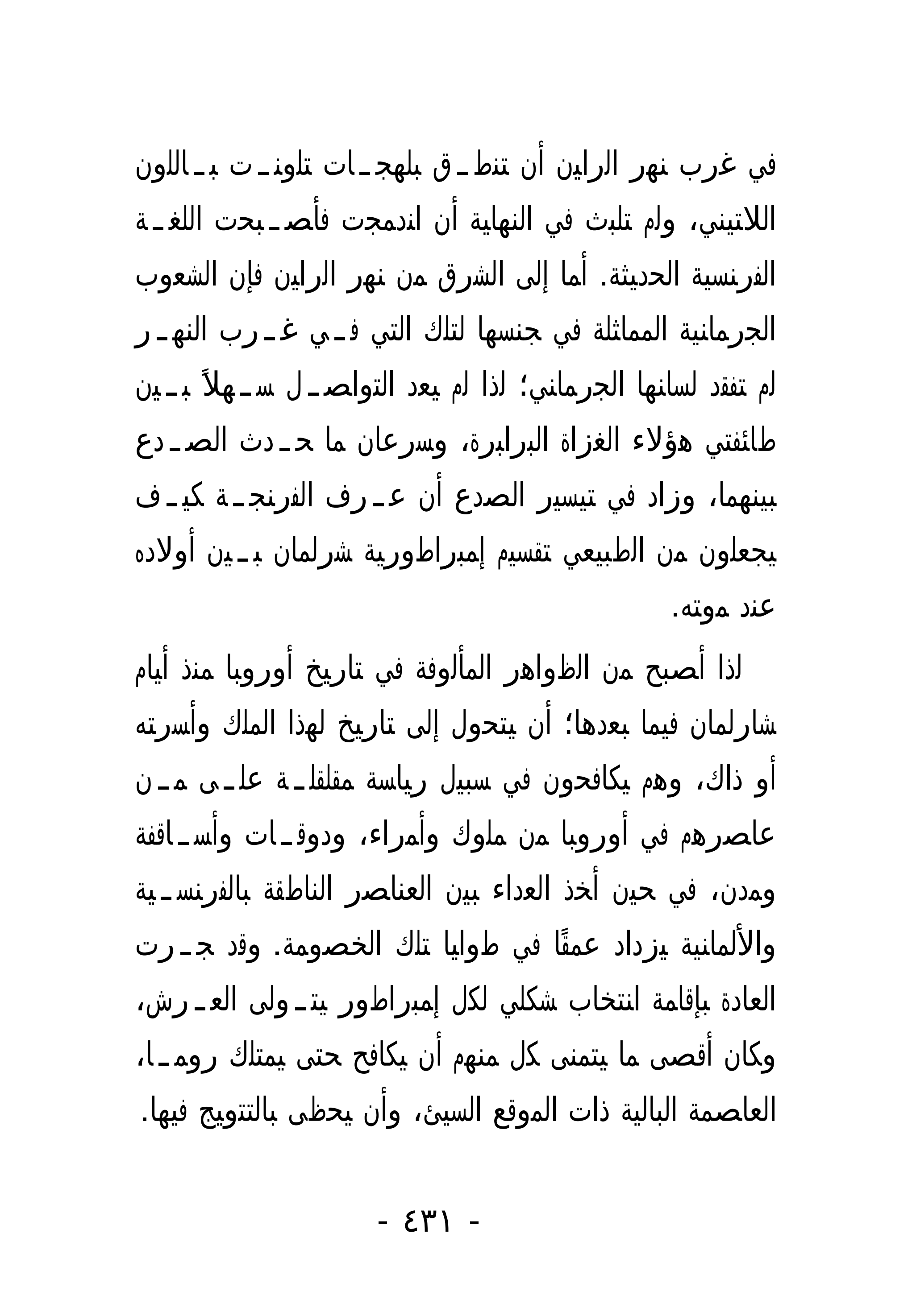
الأمان في الخضوع لمولى أعظم منه هو أيضـا. ووجـدت المدن كذلك أن من الخير الملائم لها أن تحصل على حمـاة إقطاعيين، كما أن الأديرة وممتلكات الكنيسة ربطت نفسـها بروابط مماثلة لهذه. ومن البديهي أن الولاء كان يطلب فـي كثير من الأحيان قبل أن يقدم تلقائيا؛ فكأن النظام كان ينمـو إلى أسفل، مثلما كان ينمو من أسفل إلى أعلى، وبذلك نشـأ ضرب من نظام هرمي، يختلف اختلافًـا بعيـدا بمختلـف المناطق، ويسمح في البداية بقدر عظيم من العنف والحروب الأهلية أو الخاصة، ولكنه يتجه باستمرار نحو إقرار النظام، ونحو عهد جديد يسوده القانون. وما زالت الأهرامات تعلـو حتى أصبح بعضها ملكيات واضحة المعالم، وكانت هناك منذ عهد قديم جدا هو بواكير القرن السادس؛ مملكة فرنجية تحت حكم مؤسسها كلوفيس، وموقعها فرنسا الحالية، والأراضـي المنخفضة (بلجيكا وهولندة)، وسرعان مـا ظهـرت أيضـا ممالك قوطية غربية ولومباردية.

وعندما عبر المسلمون جبال البـرانس فـي عـام ٧٢٠ وجدوا هذه المملكة الفرنجية تحت الحكم "الـواقعي" لشـارل مارتل، ناظر القصر لدى حفيد منحل من سـلالة كلـوفيس، وهناك عند بواتييه (٧٢٢) لقوا على يده هزيمة فاصلة. كان شارل مارتل هذا في الواقع السيد المتحكم في أوروبا، فـي رقعة تمتد شمال جبال الألب، من جبال البرانس حتى بـلاد المجر، وكان يسيطر على العدد الجم من السـادة التـابعين الناطقين باللاتينية الفرنسية، وباللغتين الجرمـانيتين العليـا والسفلى[1]. وما لبث ابنه "ببين" أن قضى على آخر البقيـة الباقية من أحفاد كلوفيس، واستولى على مملكـتهم وتـاجهم، ووجد حفيده شرلمان الذي بدأ حكمه في عـام ٧٦٨ نفسـه حاكما على مملكة بلغت من الاتساع أنه فكر أن يعيـد لقـب أباطرة الدولة الرومانية الغربية (اللاتينية) ويتلقب به، ففـتح شمال إيطاليا وجعل نفسه سيدا على روما.

(1) الجرمانية العليا: هي لغة مرتفعات ألمانيا وجنوبيهـا، والجرمانيـة السفلى هي لغة السهول الشمالية المنخفضة. [المترجم]

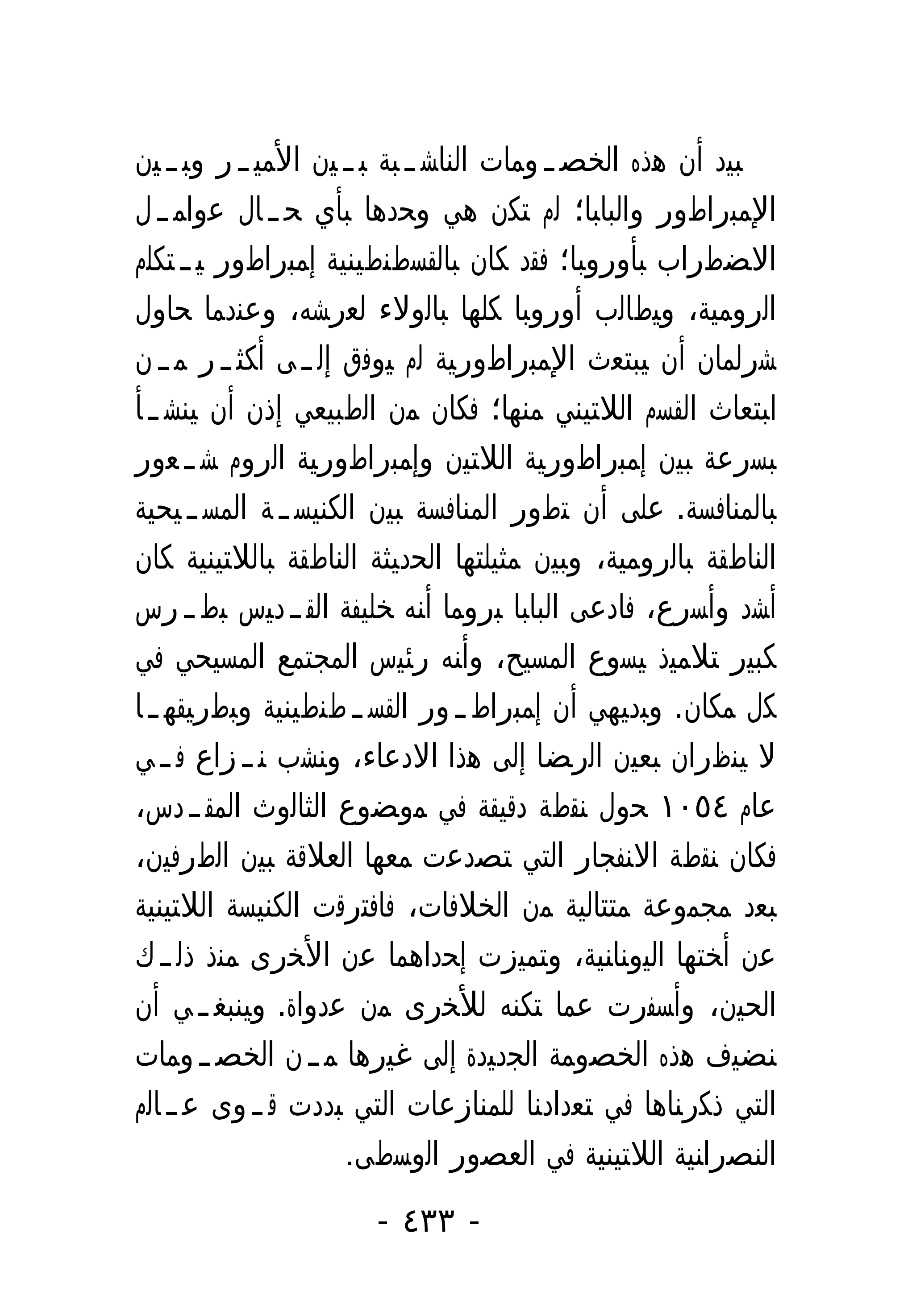
وعندي أنه في مستطاعنا، ونحن نستعرض قصة أوروبا استعراض التاريخ العـالمي الرحيـب الأفـق. أقـول فـي مستطاعنا أن نتبين أكثر من مؤرخ قومي بحت الأثر الألـيم المعوق الذي جلبه على أوروبا إحياء ذلك اللقب الرومـاني الإمبراطوري؛ إذ إن أوروبا نكبت بكفاح حاد ضيق الأفـق، دار حول هذه السيادة الوهمية، ولقبها مدة تزيد علـى ألـف سنة، استنفد في أثنائها كل طاقتها. ولو نظرت إلى تلك الفترة كلها لأمكنك تعقب خصومات حامية الوطيس فيها، ولرأيتهـا تتأجج في عقول الأوروبيين تأجج الوسواس[1] فـي عقـل مخبول به مس من الجنون. ومن هذه الدوافع القوية طمـوح كبار الحكام، الذين يمثلهم شرلمان (ومعناها شارل الأكبـر) إلى التلقب بلقب قيصر. وكانت مملكة شرلمان تتكـون مـن مجموعة معقدة، من دول إقطاعية جرمانية، تتراوح في قوة طابعها البربري. وقد تعلمت معظم هذه الشعوب الجرمانيـة

([1]) الوسواس: (Obsession) فكرة ملحة تعاود الفرد دائمـا، تتلـون عادة بلون عاطفي قوي، وغالبا ما تنطوي على دافع إلـى القيـام بنوع من التصرف، وهي حالة عقلية مرضية، وتسمى فـي علـم النفس باسم الحواز أو الانحصار. [المترجم]


في غرب نهر الراين أن تنطـق بلهجـات تلونـت بـاللون اللاتيني، ولم تلبث في النهاية أن اندمجت فأصـبحت اللغـة الفرنسية الحديثة. أما إلى الشرق من نهر الراين فإن الشعوب الجرمانية المماثلة في جنسها لتلك التي فـي غـرب النهـر لم تفقد لسانها الجرماني؛ لذا لم يعد التواصـل سـهلاً بـين طائفتي هؤلاء الغزاة البرابرة، وسرعان ما حـدث الصـدع بينهما، وزاد في تيسير الصدع أن عـرف الفرنجـة كيـف يجعلون من الطبيعي تقسيم إمبراطورية شرلمان بـين أولاده عند موته.

لذا أصبح من الظواهر المألوفة في تاريخ أوروبا منذ أيام شارلمان فيما بعدها؛ أن يتحول إلى تاريخ لهذا الملك وأسرته أو ذاك، وهم يكافحون في سبيل رياسة مقلقلـة علـى مـن عاصرهم في أوروبا من ملوك وأمراء، ودوقـات وأسـاقفة ومدن، في حين أخذ العداء بين العناصر الناطقة بالفرنسـية والألمانية يزداد عمقًا في طوايا تلك الخصومة. وقد جـرت العادة بإقامة انتخاب شكلي لكل إمبراطور يتـولى العـرش، وكان أقصى ما يتمنى كل منهم أن يكافح حتى يمتلك رومـا، العاصمة البالية ذات الموقع السيئ، وأن يحظى بالتتويج فيها.

أما العامل الثاني في الاضطراب السياسي بأوروبا؛ فهـو تصميم الكنيسة بروما على ألا تسـمح لأي أميـر علمـاني إلا بابا روما نفسه أن يصبح إمبراطورا واقعيا. وقـد سـبق للبابا كما أسلفنا أن اتخذ لقب الحبر الأعظـم، وكانـت كـل الدواعي العملية البحتة تدعوه إلى الاحتفـاظ بتلـك المدينـة المتداعية المتدهورة، ولئن أعوزته الجيوش فلقد كان يملـك على الأقل مؤسسة فخمة للدعاية، لسانها قساوسته المنتشرون في كل أصقاع العالم اللاتيني، ولئن قل نصيبه من السـلطان على أجسام الرجال؛ فلقد ملكت يمينه فيما تتصور أخيلـتهم مفاتح الجنات والجحيم، وكان له من ثم نفـوذ كبيـر علـى نفوسهم؛ لذا فالصور التي ترتسـم أمامنـا عـن العصـور الوسطى بأكملها هي أنه في الوقت الذي كان أحـد الأمـراء يداور ويناور ضد زميل له طلبا للمساواة به أولاً، ثم التفوق عليه ثانيا، ثم التماسا للهدف الأعلى المرموق أخيـرا؛ كـان البابا في روما يداور هو أيضا ويناور لإخضـاع الأمـراء جميعا لسلطانه، بوصفه السيد الأعلى للنصرانية، يقوم بـذلك بجرأة وجسارة أحيانًا، وبإعمال المكر والدهاء تارة، أو بخسة وضعف أخرى؛ وذلك لأن البابوات كانوا جماعة متعاقبة من الشيوخ لم يزد حكم أحدهم عن سنتين قط.

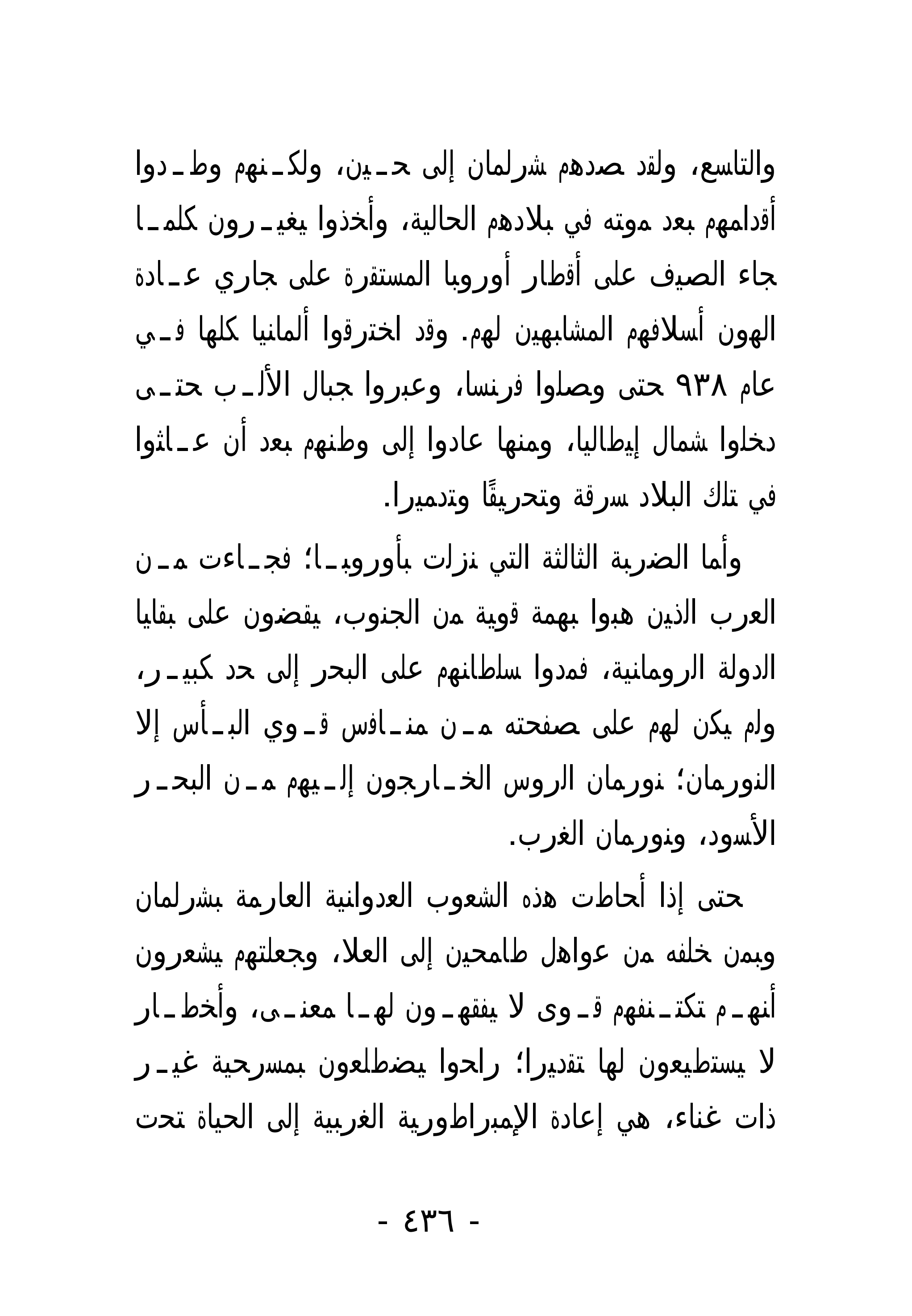


بيد أن هذه الخصـومات الناشـبة بـين الأميـر وبـين الإمبراطور والبابا؛ لم تكن هي وحدها بأي حـال عوامـل الاضطراب بأوروبا؛ فقد كان بالقسطنطينية إمبراطور يـتكلم الرومية، ويطالب أوروبا كلها بالولاء لعرشه، وعندما حاول شرلمان أن يبتعث الإمبراطورية لم يوفق إلـى أكثـر مـن ابتعاث القسم اللاتيني منها؛ فكان من الطبيعي إذن أن ينشـأ بسرعة بين إمبراطورية اللاتين وإمبراطورية الروم شـعور بالمنافسة. على أن تطور المنافسة بين الكنيسـة المسـيحية الناطقة بالرومية، وبين مثيلتها الحديثة الناطقة باللاتينية كان أشد وأسرع، فادعى البابا بروما أنه خليفة القـديس بطـرس كبير تلاميذ يسوع المسيح، وأنه رئيس المجتمع المسيحي في كل مكان. وبديهي أن إمبراطـور القسـطنطينية وبطريقهـا لا ينظران بعين الرضا إلى هذا الادعاء، ونشب نـزاع فـي عام ١٠٥٤ حول نقطة دقيقة في موضوع الثالوث المقـدس، فكان نقطة الانفجار التي تصدعت معها العلاقة بين الطرفين، بعد مجموعة متتالية من الخلافات، فافترقت الكنيسة اللاتينية عن أختها اليونانية، وتميزت إحداهما عن الأخرى منذ ذلـك الحين، وأسفرت عما تكنه للأخرى من عدواة. وينبغـي أن نضيف هذه الخصومة الجديدة إلى غيرها مـن الخصـومات التي ذكرناها في تعدادنا للمنازعات التي بددت قـوى عـالم النصرانية اللاتينية في العصور الوسطى.

وعلى رأس هذا العالم المسيحي المتفرق الكلمة؛ انهالـت الضربات من قبضة مجموعات ثلاث من الخصـوم. فـإن منطقة بحر البلطيق والبحار الشـمالية؛ ظلـت مقيمـة بهـا مجموعة من القبائل النوردية، لم تعتنق المسيحية إلا بـبطء، وبغاية النفور والتمنع، وهي قبائل النورمان (أهل الشـمال). جنحت تلك القبائل إلى البحار، واحترفت القرصنة، وأخـذت تغير على شواطئ العالم النصرانية جميعا حتى إسبانيا. وقد تقدموا قبل ذلك إلى المناطق العليا من الأنهار الروسية، حتى بلغوا المناطق القاحلة الوسطى، ثم نقلوا سفنهم إلى الأنهـار المتجهة صوب الجنوب، وظهروا كقراصنة على صفحة بحر قزوين والبحر والأسود، وأقاموا الإمارات بالروسـيا، وهـم أول شعب سمي باسم الروس، وأوشـك هـؤلاء النورمـان الروسيون على الاستيلاء على القسطنطينية يوما ما، وكانت إنجلترا في مستهل القرن التاسع قطرا متنصرا، يسكنه قـوم من الأرومة الألمانية السفلى، تحت ملك هو إجبرت، وهـو تلميذ لشرلمان ينضوي تحـت حمايتـه، ولكـن النورمـان اغتصبوا نصف المملكة من خلفه ألفريد الكبير (٨٨٦)، ثـم جعلوا من أنفسهم في عهد كانوت (١٠١٦) سادة على البلاد. وجاءت ثلة أخرى من النورمان بقيادة رودلف العداء (٩١٢) ففتحت شمال فرنسا التي أصبحت تسمى منذ ذلك الحين باسم نورماندیا.

وامتد سلطان كانوت فلم يقتصر على إنجلترا وحدها؛ بل شمل بلاد النرويج والدانمرك أيضـا، ولكـن إمبراطوريتـه القصيرة الأجل تمزقت عند موته إربا، بسبب نقطة الضعف السياسية للشعوب البربرية جمعاء؛ وهي انقسام أبناء الحـاكم والرئيس على أنفسهم. ولعله مما يثير اهتمامـك أن تتأمـل النتائج التي كانت تترتب على دوام هذا الاتحاد المؤقت الذي قام على يد النورمان. والنورمان شعب أوتي جرأة مدهشـة وهمة نادرة، تقدموا بمراكبهم في البحر طويلاً حتى لقد بلغوا أيسلنده وجرينلندة، وهم أول من نزل على أرض أمريكا من الأوروبيين. وقد حدث فيما يلي ذلك من عهـود التـاريخ أن النورمان استردوا صقلية من يد العرب، ونهبوا روما. وقـد يستهوي ألبانيا تصور تلك الدولة البحرية الشمالية العظيمـة التي كانت نواتها مملكة كانوت، وقد امتدت من أمريكا إلـى الروسيا.

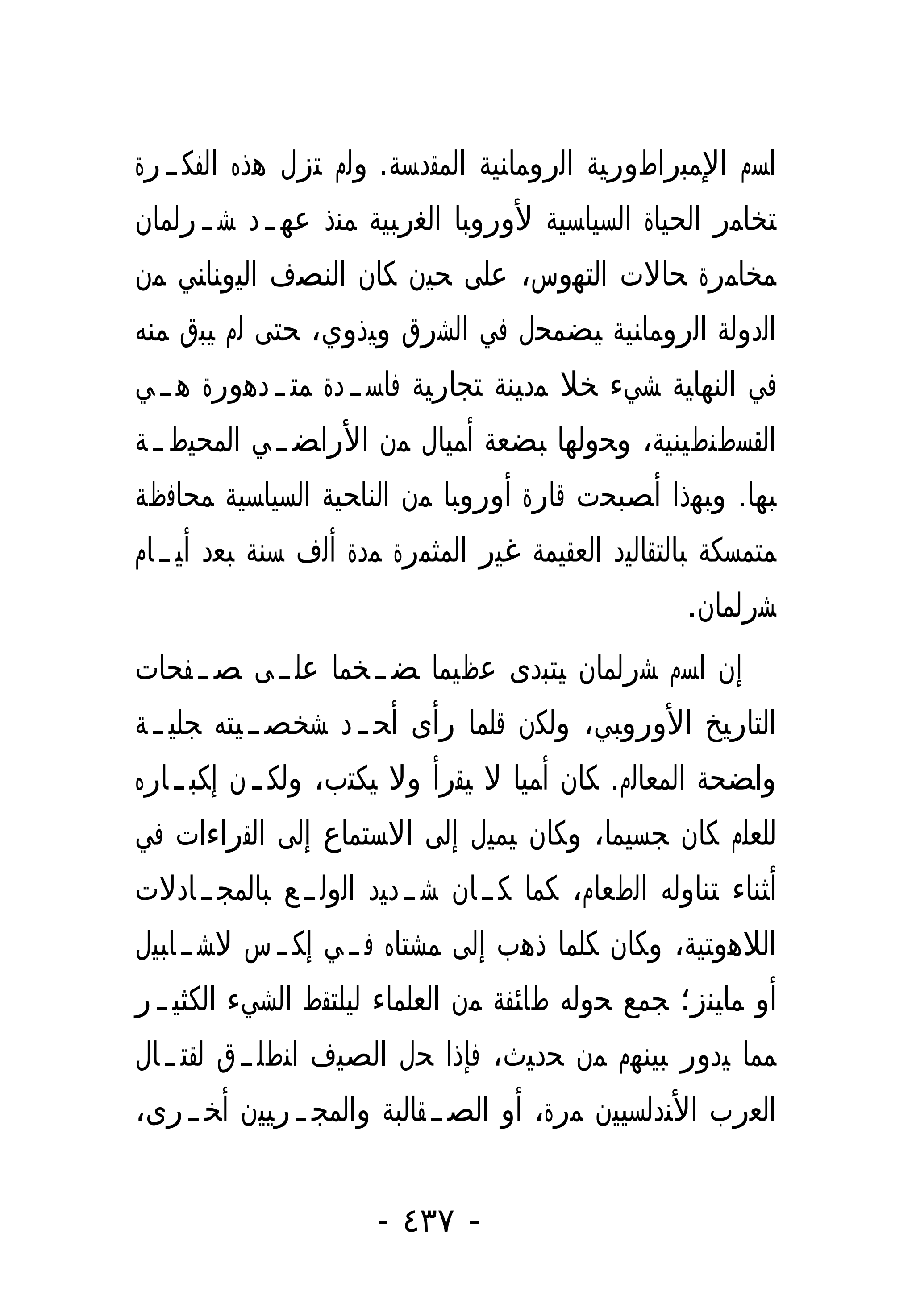
وإلى الشرق من الجرمـان والأوروبيـين المصـطبغين بالصبغة اللاتينية؛ كان ينزل خليط مـن القبائـل السـلافية (الصقلبية)، والشعوب التركية. ومن أبرز هؤلاء؛ المجريون (الهنغاريون) الذين ظلوا يتقدمون غربا طيلة القرنين الثـامن



والتاسع، ولقد صدهم شرلمان إلى حين، ولكنهم وطدوا أقدامهم بعد موته في بلادهم الحالية، وأخذوا يغيرون كلما جاء الصيف على أقطار أوروبا المستقرة على جاري عادة الهون أسلافهم المشابهين لهم. وقد اخترقوا ألمانيا كلها في عام ٩٣٨ حتى وصلوا فرنسا، وعبروا جبال الألب حتى دخلوا شمال إيطاليا، ومنها عادوا إلى وطنهم بعد أن عاثوا في تلك البلاد سرقة وتحريقًا وتدميرا.

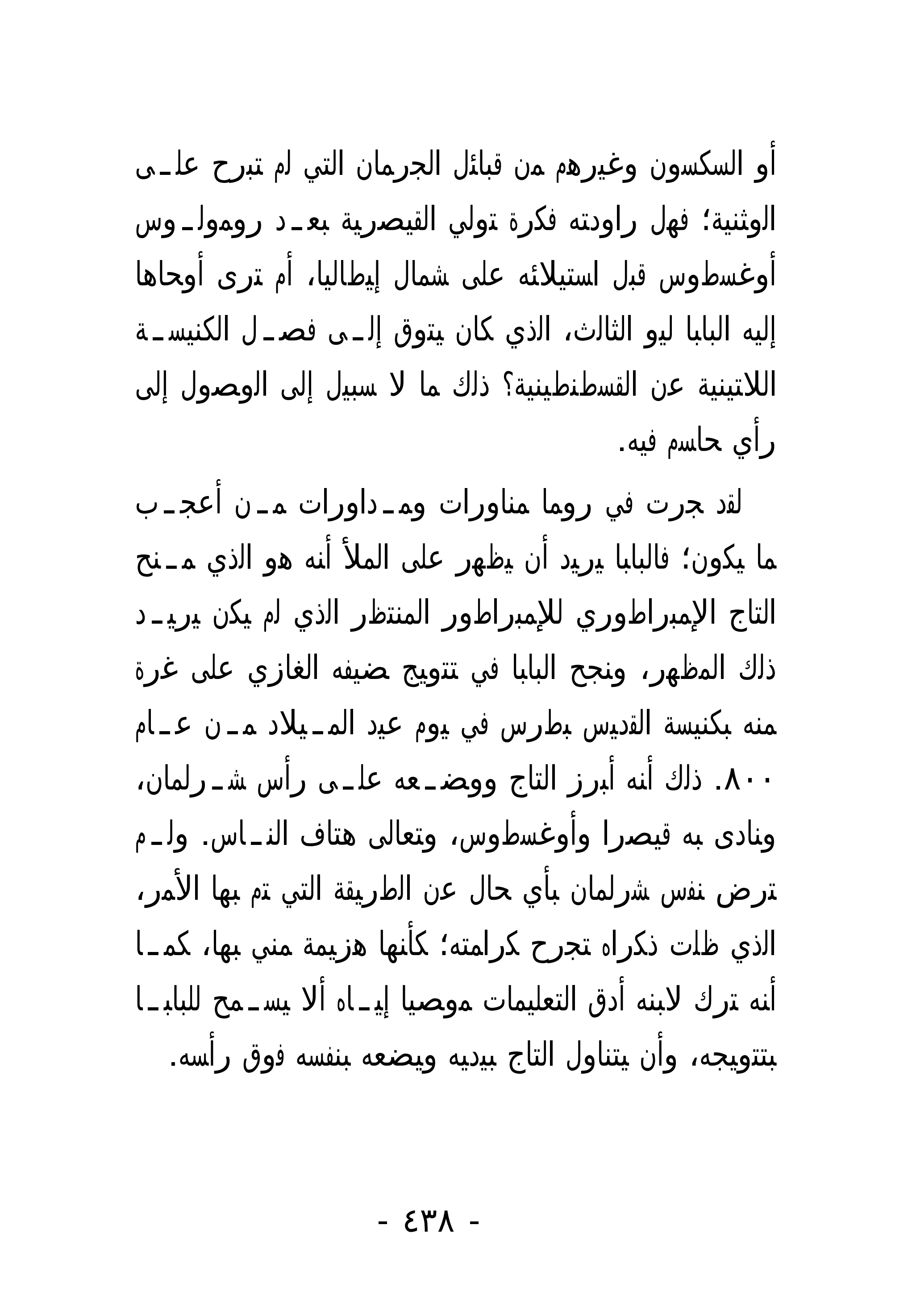
وأما الضربة الثالثة التي نزلت بأوروبا؛ فجاءت من العرب الذين هبوا بهمة قوية من الجنوب، يقضون على بقايا الدولة الرومانية، فمدوا سلطانهم على البحر إلى حد كبير، ولم يكن لهم على صفحته من منافس قوي البأس إلا النورمان؛ نورمان الروس الخارجون إليهم من البحر الأسود، ونورمان الغرب.

حتى إذا أحاطت هذه الشعوب العدوانية العارمة بشرلمان وبمن خلفه من عواهل طامحين إلى العلا، وجعلتهم يشعرون أنهم تكتنفهم قوى لا يفقهون لها معنى، وأخطار لا يستطيعون لها تقديرا؛ راحوا يضطلعون بمسرحية غير ذات غناء، هي إعادة الإمبراطورية الغربية إلى الحياة تحت



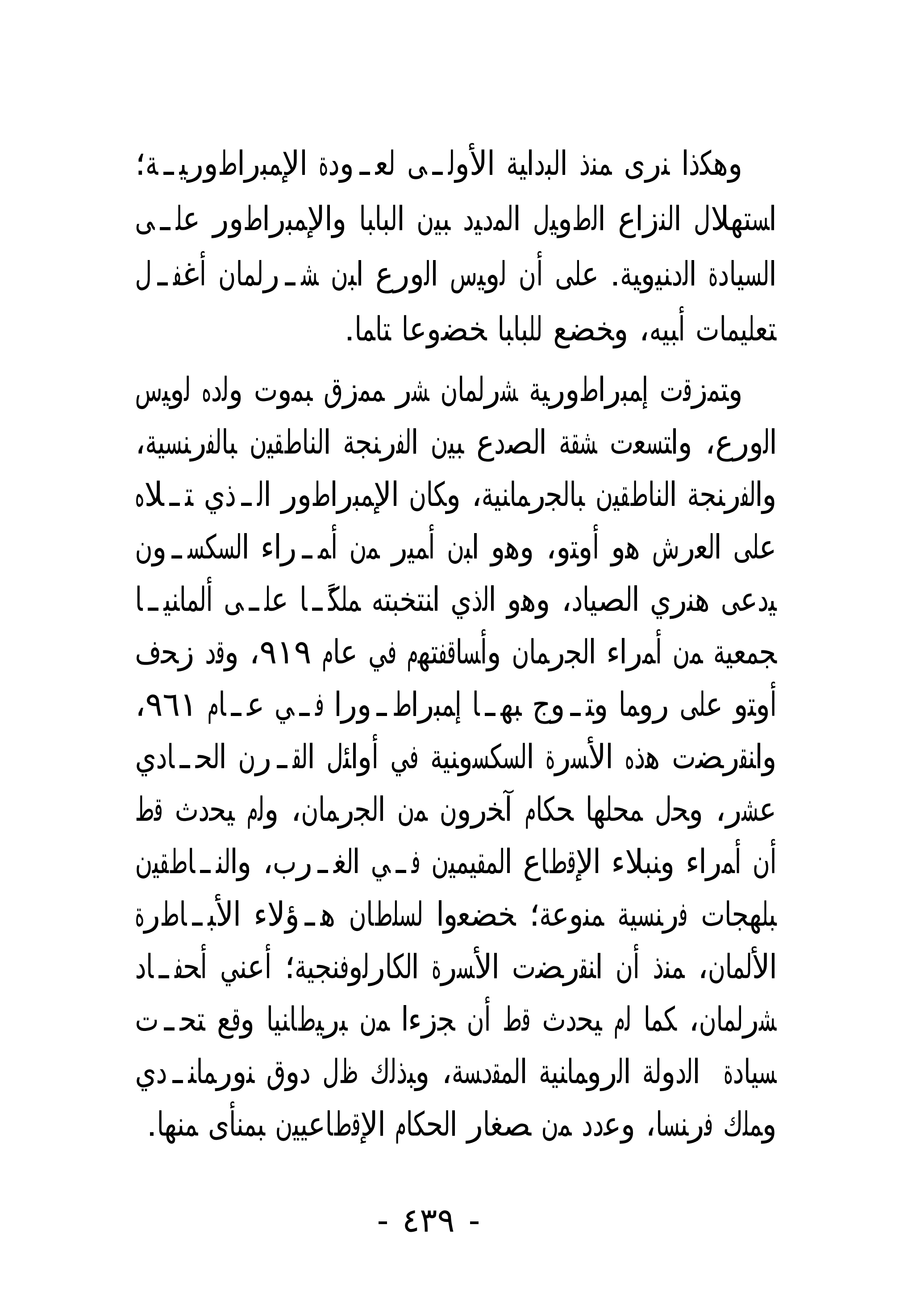
اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ولم تزل هذه الفكـرة تخامر الحياة السياسية لأوروبا الغربية منذ عهـد شـرلمان مخامرة حالات التهوس، على حين كان النصف اليوناني من الدولة الرومانية يضمحل في الشرق ويذوي، حتى لم يبق منه في النهاية شيء خلا مدينة تجارية فاسـدة متـدهورة هـي القسطنطينية، وحولها بضعة أميال من الأراضـي المحيطـة بها. وبهذا أصبحت قارة أوروبا من الناحية السياسية محافظة متمسكة بالتقاليد العقيمة غير المثمرة مدة ألف سنة بعد أيـام شرلمان.

إن اسم شرلمان يتبدى عظيما ضـخما علـى صـفحات التاريخ الأوروبي، ولكن قلما رأى أحـد شخصـيته جليـة واضحة المعالم. كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ولكـن إكبـاره للعلم كان جسيما، وكان يميل إلى الاستماع إلى القراءات في أثناء تناوله الطعام، كما كـان شـديد الولـع بالمجـادلات اللاهوتية، وكان كلما ذهب إلى مشتاه فـي إكـس لاشـابيل أو ماينز؛ جمع حوله طائفة من العلماء ليلتقط الشيء الكثيـر مما يدور بينهم من حديث، فإذا حل الصيف انطلـق لقتـال العرب الأندلسيين مرة، أو الصـقالبة والمجـريين أخـرى،



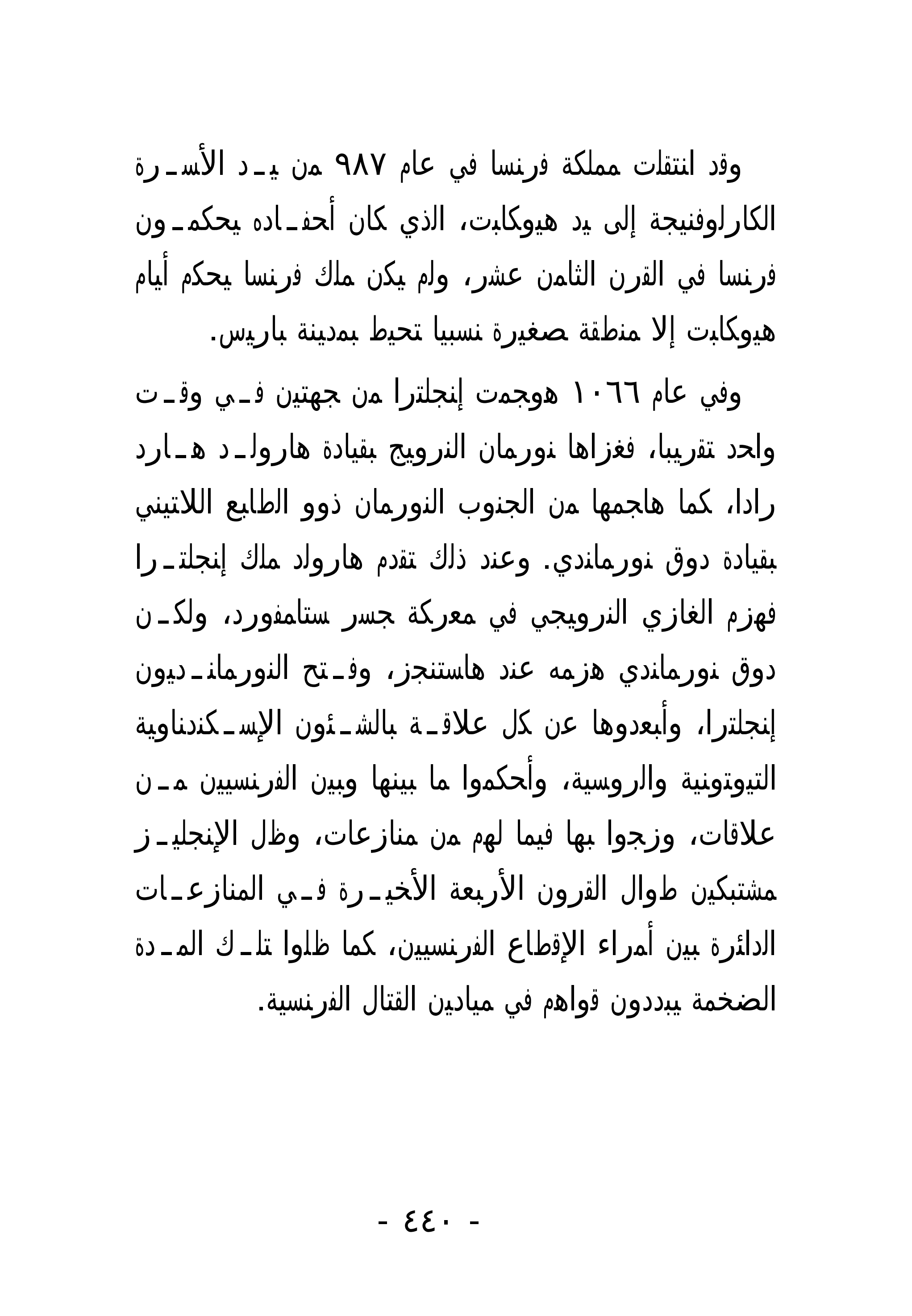
أو السكسون وغيرهم من قبائل الجرمان التي لم تبرح علـى الوثنية؛ فهل راودته فكرة تولي القيصرية بعـد رومولـوس أوغسطوس قبل استيلائه على شمال إيطاليا، أم ترى أوحاها إليه البابا ليو الثالث، الذي كان يتوق إلـى فصـل الكنيسـة اللاتينية عن القسطنطينية؟ ذلك ما لا سبيل إلى الوصول إلى رأي حاسم فيه.

لقد جرت في روما مناورات ومـداورات مـن أعجـب ما يكون؛ فالبابا يريد أن يظهر على الملأ أنه هو الذي مـنح التاج الإمبراطوري للإمبراطور المنتظر الذي لم يكن يريـد ذلك المظهر، ونجح البابا في تتويج ضيفه الغازي على غرة منه بكنيسة القديس بطرس في يوم عيد المـيلاد مـن عـام ٨٠٠. ذلك أنه أبرز التاج ووضـعه علـى رأس شـرلمان، ونادى به قيصرا وأوغسطوس، وتعالى هتاف النـاس. ولـم ترض نفس شرلمان بأي حال عن الطريقة التي تم بها الأمر، الذي ظلت ذكراه تجرح كرامته؛ كأنها هزيمة مني بها، كمـا أنه ترك لابنه أدق التعليمات موصيا إيـاه ألا يسـمح للبابـا بتتويجه، وأن يتناول التاج بيديه ويضعه بنفسه فوق رأسه.



وهكذا نرى منذ البداية الأولى لعودة الإمبراطورية؛ استهلال النزاع الطويل المديد بين البابا والإمبراطور على السيادة الدنيوية. على أن لويس الورع ابن شرلمان أغفل تعليمات أبيه، وخضع للبابا خضوعا تاما.

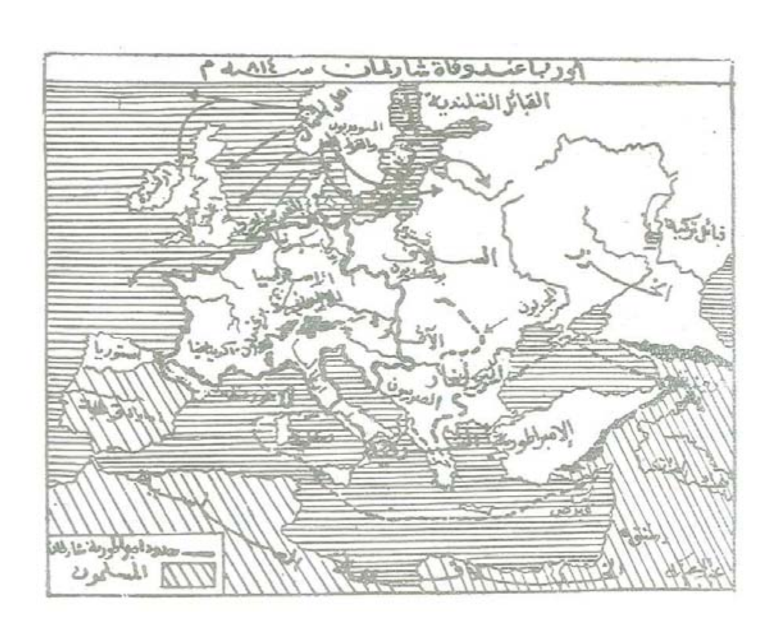
وتمزقت إمبراطورية شرلمان شر ممزق بموت ولده لويس الورع، واتسعت شقة الصدع بين الفرنجة الناطقين بالفرنسية، والفرنجة الناطقين بالجرمانية، وكان الإمبراطور الذي تلاه على العرش هو أوتو، وهو ابن أمير من أمراء السكسون يدعى هنري الصياد، وهو الذي انتخبته ملكًا على ألمانيا جمعية من أمراء الجرمان وأساقفتهم في عام ٩١٩، وقد زحف أوتو على روما وتوج بها إمبراطورا في عام ٩٦١، وانقرضت هذه الأسرة السكسونية في أوائل القرن الحادي عشر، وحل محلها حكام آخرون من الجرمان، ولم يحدث قط أن أمراء ونبلاء الإقطاع المقيمين في الغرب، والناطقين بلهجات فرنسية منوعة؛ خضعوا لسلطان هؤلاء الأباطرة الألمان، منذ أن انقرضت الأسرة الكارلوفنجية؛ أعني أحفاد شرلمان، كما لم يحدث قط أن جزءا من بريطانيا وقع تحت سيادة الدولة الرومانية المقدسة، وبذلك ظل دوق نورماندي وملك فرنسا، وعدد من صغار الحكام الإقطاعيين بمنأى منها.



وقد انتقلت مملكة فرنسا في عام ٩٨٧ من يد الأسرة الكارلوفنيجة إلى يد هيوكابت، الذي كان أحفاده يحكمون فرنسا في القرن الثامن عشر، ولم يكن ملك فرنسا يحكم أيام هيوكابت إلا منطقة صغيرة نسبيا تحيط بمدينة باريس.

وفي عام ١٠٦٦ هوجمت إنجلترا من جهتين في وقت واحد تقريبا، فغزاها نورمان النرويج بقيادة هارولد هارد رادا، كما هاجمها من الجنوب النورمان ذوو الطابع اللاتيني بقيادة دوق نورماندي. وعند ذلك تقدم هارولد ملك إنجلترا فهزم الغازي النرويجي في معركة جسر ستامفورد، ولكن دوق نورماندي هزمه عند هاستنجز، وفتح النورمانديون إنجلترا، وأبعدوها عن كل علاقة بالشئون الإسكندناوية التيوتونية والروسية، وأحكموا ما بينها وبين الفرنسيين من علاقات، وزجوا بها فيما لهم من منازعات، وظل الإنجليز مشتبكين طوال القرون الأربعة الأخيرة في المنازعات الدائرة بين أمراء الإقطاع الفرنسيين، كما ظلوا تلك المدة الضخمة يبددون قواهم في ميادين القتال الفرنسية.


حدود ممتلكات الفرنجة في عهد شارل مارتل
السكسون
السلاف
انجلترا
البريطون
بريطون
اوستراسيا
كولونيا
نستريا
سواسون
باريس
ستراسبورج
البفاريون
برغنديا
اكويتانيا
بواتييه
تور
اللمبارد
راڤنا
الصربيون
الغسقونيون


أوربا عند وفاة شارلمان سنة ٨١٤ م
القبائل الفنلندية
السويديون والقوط
السلاف
المجريون
قبائل تركية
استوريا
الإمبراطورية
الصربيون
حدود امبراطورية شارلمان
المسلمون

الفصل السادس والأربعون

الحروب الصليبية وعصر السيادة الباباوية

لعله مما يثير اهتمامنا أن نشير إلى أن شـرلمان تبـادل الرسائل مع الخليفة هارون الرشيد، وهو نفس هارون الرشيد الذي تذكره أقاصيص ألف ليلة وليلة. ويسـجل التـاريخ أن هارون أرسل السفراء من بغداد – التـي أصـبحت آنـذاك عاصمة المسلمين بعد دمشق - يحملون الهدايا والألطـاف، التي منها خيمة فاخرة نفيسة، وساعة مائية، وأحـد الفيلـة، ومفاتيح الناووس المقدس.

وقد رمى الخليفة من وراء هذه الهدية الأخيرة إلى خطـة محكمة التدبير، أراد بها تأليب كل من دولة الروم الشـرقية وهذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة إحداهما على الأخرى حول المسيحيين في أورشليم، ولمن منهما حق حمايتهم.

وتذكرنا هذه الهدايا بأنه في نفس الوقـت الـذي كانـت أوروبا تصلى فيه إبان القرن التاسع بنار فوضى الحـروب وما يصحبها من تدمير ونهب؛ كانت تزدهر بمصـر وأرض الجزيرة إمبراطورية عربية عظيمة، أشد حضارة مـن دول أوروبا جميعا. لقد كـان الأدب والعلـم لا يـزالان عنـدهم محتفظين بنشاطهما القوي، وازدهرت الفنون لديهم، كما أنـه كان في إمكان العقل البشري أن ينتقل في أبراج التفكير دون

أن تعوقه مخاوف أو خزعبلات، وكذلك اشتدت قوة الحيـاة الفكرية في إسبانيا وشمال إفريقية، التي أخذت فيها الفوضى السياسية تدب في أوصال الممالك العربية. كان هؤلاء اليهود والعرب يقرأون أرسطو ويتباحثون في آرائـه إبـان تلـك العصور التي رانت فيها الظلمات على أوروبا، لقد أقاموا من أنفسهم حراسا على بذور العلم والفلسفة التي طال إهمالها.

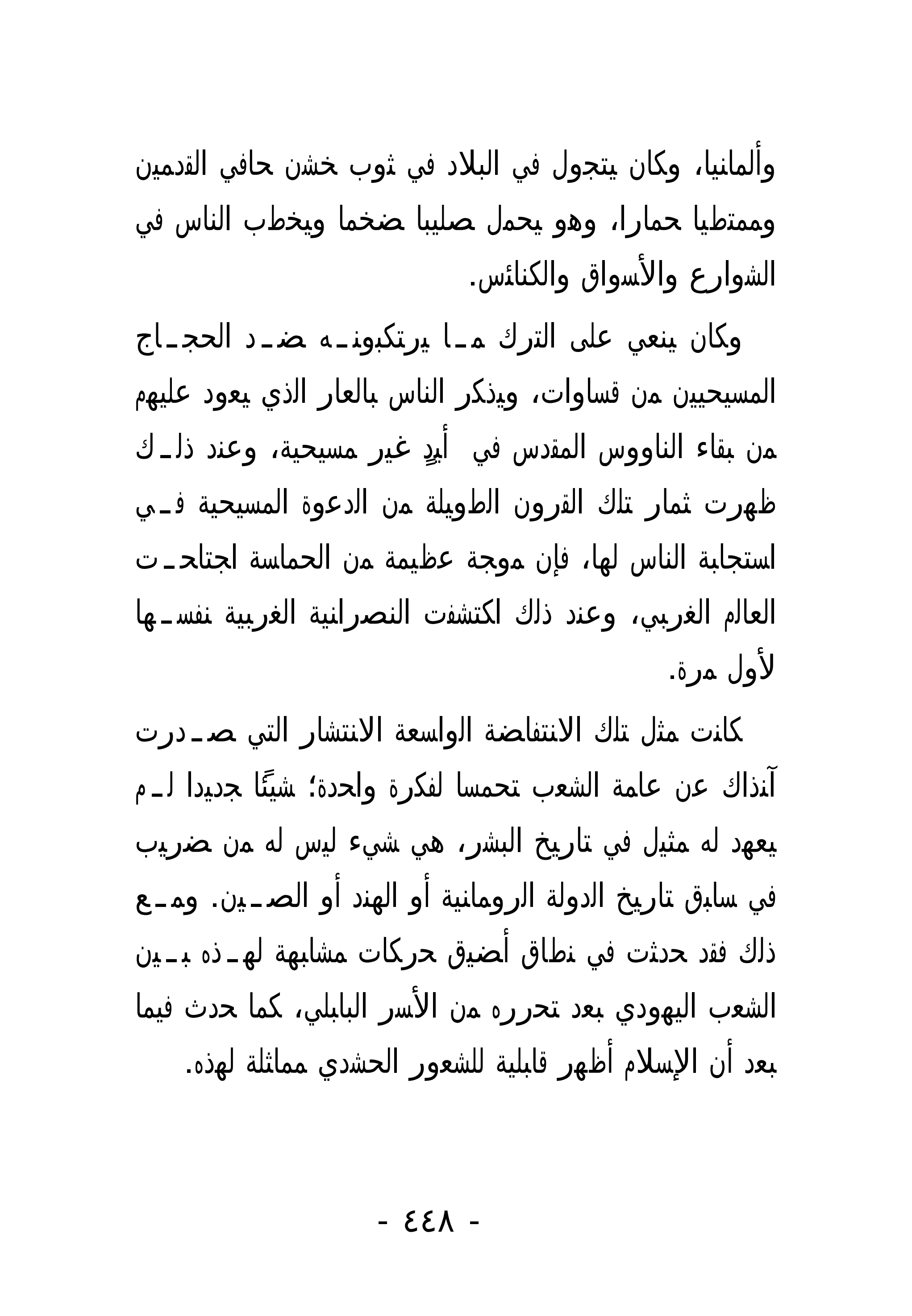
وكانت تنزل إلى الشمال الشـرقي مـن دولـة الخليفـة مجموعة من القبائل التركية اتخذت الإسلام دينًا، واعتنقـت العقيدة بصورة أبسط وأعنف كثيرا مما لدى العرب والفرس الناشطين فكريا في الجنوب. لقد أخذ الترك يـزدادون قـوة وحيوية في أثناء القرن العاشـر، وذلـك بينمـا دب دبيـب الانقسام والاضمحلال في دولة العرب، وتطورت العلاقـات بين الأتراك ودولة الخلافة حتى أصبحت قوية الشبه بعلاقـة الميديين بالإمبراطورية البابلية الأخيرة قبل ذلك بأربعة عشر قرنًا، وحدث في القرن الحادي عشر، أن مجموعة من القبائل التركية هي الأتـراك السـلجوقيون؛ زحفـت علـى أرض الجزيرة، وجعلت الخليفة حاكما بالاسم فقط، وأداة يسيرونها وفق هواهم، وأسيرا في أيديهم، ثم غزوا أرمينيـة، وأخـذوا

بعد ذلك ينزلون الضربات على بقايا الدولة البيزنطية بآسـيا الصغرى، فهزم الجـيش البيزنطـي هزيمـة نكـراء فـي عام ١٠٧١ في معركة ملازجرد، وعند ذلك اجتاح الأتراك البلاد قدما، حتى لم يبق للدولة البيزنطية أثـر بآسـيا. ثـم استولوا على قلعة نيقيا المقابلة للقسطنطينية، وأخذوا يعـدون العدة للإجهاز على المدينة نفسها.

دب الرعب في قلب الإمبراطور البيزنطي ميشيل السابع، وكان مشتبكًا في حرب ضروس مع ثلـة مـن المغـامرين النورمان استولت على مدينة دورازو، ومع شـعب تركـي شديد الشراسة هو البشناق (البتشنخ)، الذين كـانوا يغيـرون على ضفاف الدانوب، واضطر الإمبراطور وهو في محنتـه أن يلتمس المعونة حيث استطاع أن يجـدها، وممـا تجـدر ملاحظته هنا أنه لم يلجأ إلى إمبراطور الغرب؛ بل الـتمس العون من بابا روما بوصفه رئيسا للنصرانية اللاتينية، فكتب إلى البابا جريجوري السابع، كما كتـب خلفـه أليكسـيوس كومنينوس مستغيثًا بإربان الثاني.

حدث هذا ولم ينقض على انفصال الكنيستين الرومية واللاتينية ربع قرن، والخصومة بين الطرفين لم تزل ذكراها قوية الإشراق في عقول الناس، ولا شك أن هذه الكارثة التي أصابت بيزنطة قد تبدت لعين البابا فرصة ثمينة يعيد بها فرض سيادة الكنيسة اللاتينية على اليونان أهل الفرقة والخلاف، وفضلاً عن ذلك فإن البابا انتهزها فرصة لمعاجلة أمرين أزعجا عالم النصرانية اللاتيني أيما إزعاج، وأول الأمرين هو "عادة الحرب الخاصة" التي كانت تبث الفوضى في الحياة الاجتماعية، وثانيهما هي طاقة القتال الفياضة التي يتسم بها سكان السهول الجرمان والنورمان المتنصرون، ولا سيما الفرنجة منهم والنورمانديون؛ وعندئذ شرع المبشرون ورجال الدين يبشرون بحرب مقدسة، هي حرب الصليب، أو الحروب الصليبية، التي يراد أن تشن على الترك مغتصبي بيت المقدس، كما يبشرون بوجوب قيام الهدنة، وإيقاف كل قتال بين المسيحيين جميعا (١٠٩٥).

وقد أعلنوا أن الهدف من هذه الحرب هو استرداد القبر المقدس من يد الكفرة. وراح رجل يدعى بطرس الناسك يجوب الآفاق ويبث دعايته في الجماهير بكل من فرنسا



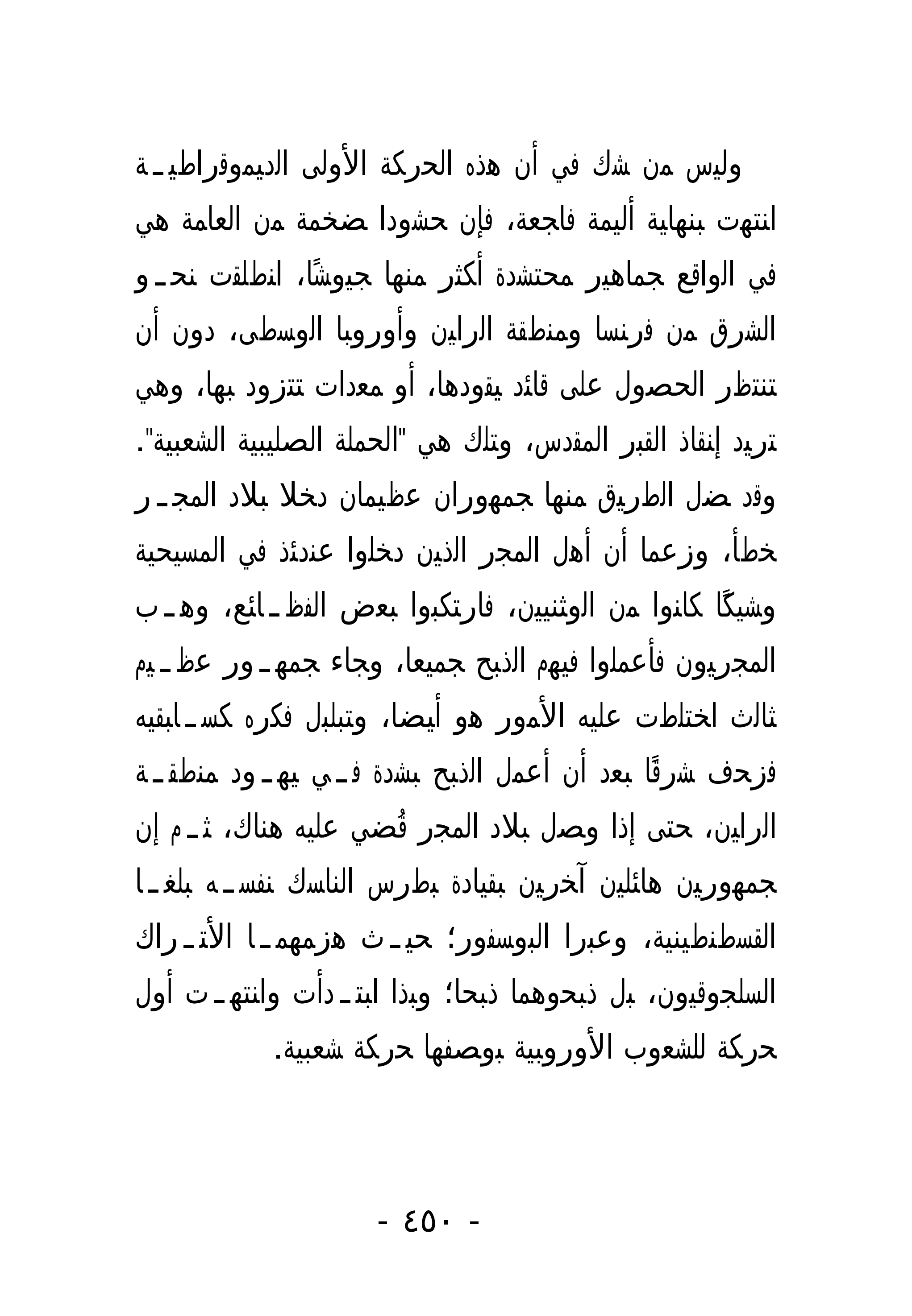
وألمانيا، وكان يتجول في البلاد في ثوب خشن حافي القدمين وممتطيا حمارا، وهو يحمل صليبا ضخما ويخطب الناس في الشوارع والأسواق والكنائس.

وكان ينعي على الترك ما يرتكبونه ضد الحجاج المسيحيين من قساوات، ويذكر الناس بالعار الذي يعود عليهم من بقاء الناووس المقدس في أيدٍ غير مسيحية، وعند ذلك ظهرت ثمار تلك القرون الطويلة من الدعوة المسيحية في استجابة الناس لها، فإن موجة عظيمة من الحماسة اجتاحت العالم الغربي، وعند ذلك اكتشفت النصرانية الغربية نفسها لأول مرة.

كانت مثل تلك الانتفاضة الواسعة الانتشار التي صدرت آنذاك عن عامة الشعب تحمسا لفكرة واحدة؛ شيئًا جديدا لم يعهد له مثيل في تاريخ البشر، هي شيء ليس له من ضريب في سابق تاريخ الدولة الرومانية أو الهند أو الصين. ومع ذلك فقد حدثت في نطاق أضيق حركات مشابهة لهذه بين الشعب اليهودي بعد تحرره من الأسر البابلي، كما حدث فيما بعد أن الإسلام أظهر قابلية للشعور الحشدي مماثلة لهذه.

ومن المحقق أن هذه الحركات ارتبطت بالروح الجديـدة التي ظهرت في هذا العالم مع تطور ديانات التعليم والتبشير والمعلمين والمبشرين؛ فـإن أنبيـاء العبـرانيين وعيسـى والحواريين وماني ومحمدا كانوا جميعـا معلمـين ينـاجون نفوس الناس كأفراد، وكانوا يواجهون ضمير الشخص بـا رأسا، وقبل ذلك الأوان كان الـدين أقـرب إلـى الفتيشـية والخزعبلات والعلم الزائف منه إلى أن يكون شئون الضمير البشري، وكان النوع القديم من الدين يدور حـول المعبـد، والكاهن المتدرج في أسرار العقيدة والقرابين الرمزية، كمـا كان يحكم الرجل العادي بالخوف حتى لكأنه العبد الرقيـق. أما ذلك النوع الجديد من الدين فانه اتخذ منه إنسانًا.

وكان التبشير بالحرب الصليبية الأولى أول دعوة أثـارت مشاعر العامة في التاريخ الأوروبي، وربما كان من المبالغة القول بأنها تؤذن بمولد الديموقراطية الحديثة، وإن لم يخالجنا شك في أن الديموقراطية الحديثة تحركت فعـلاً فـي ذلـك الزمان، وسنجدها تتحرك من جديد قبل انقضاء زمن طويل، وتسأل أسئلة اجتماعية ودينية تبعث على الانزعاج الشديد.



وليس من شك في أن هذه الحركة الأولى الديموقراطيـة انتهت بنهاية أليمة فاجعة، فإن حشودا ضخمة من العامة هي في الواقع جماهير محتشدة أكثر منها جيوشًا، انطلقت نحـو الشرق من فرنسا ومنطقة الراين وأوروبا الوسطى، دون أن تنتظر الحصول على قائد يقودها، أو معدات تتزود بها، وهي تريد إنقاذ القبر المقدس، وتلك هي "الحملة الصليبية الشعبية". وقد ضل الطريق منها جمهوران عظيمان دخلا بلاد المجـر خطأ، وزعما أن أهل المجر الذين دخلوا عندئذ في المسيحية وشيكًا كانوا من الوثنيين، فارتكبوا بعض الفظـائع، وهـب المجريون فأعملوا فيهم الذبح جميعا، وجاء جمهـور عظـيم ثالث اختلطت عليه الأمور هو أيضا، وتبلبل فكره كسـابقيه فزحف شرقًا بعد أن أعمل الذبح بشدة فـي يهـود منطقـة الراين، حتى إذا وصل بلاد المجر قُضي عليه هناك، ثـم إن جمهورين هائلين آخرين بقيادة بطرس الناسك نفسـه بلغـا القسطنطينية، وعبرا البوسفور؛ حيـث هزمهمـا الأتـراك السلجوقيون، بل ذبحوهما ذبحا؛ وبذا ابتـدأت وانتهـت أول حركة للشعوب الأوروبية بوصفها حركة شعبية.

وفي السنة التالية (عام ١٠٩٧) عبرت البوسفور القـوات المقاتلة الحقة، وكانت بطبيعة الحال نورمانية فـي الـروح والقيادة، ففتحوا نيقية عنوة، وساروا إلى أنطاكيـة سـالكين تقريبا نفس الطريق الذي سلكه الإسكندر قبل ذلـك بأربعـة عشر قرنًا، وقد عطلهم حصار أنطاكية سنة، انطلقوا بعـدها لمحاصرة بيت المقدس في يونيـة ١٠٩٩، وسـقطت بيـت المقدس بعد شهر من الحصار، وكانت المذبحة التـي دارت بها رهيبة فظيعة، فإن الراكب على جواده كان يصيبه رشاش الدم الذي سال في الشوارع أنهارا، وما أرخى ليل الخـامس عشر من يولية سدوله حتى كان الصليبيون قد شقوا سـبيلهم قتالاً إلى كنيسة القبر المقدس، وتغلبوا على كل مقاومة فـي المدينة، وهناك جثوا للصـلاة ملطخـين بالـدماء، متعبـين مكدودين يبكون من فرط السرور.

وسرعان ما اشتعلت من جديد نار العداوة بـين اللاتـين والروم؛ ذلك أن الصليبيين كانوا من أنصار الكنيسة اللاتينية؛ ولذا وجد بطريق القدس الرومي (الأرثوذكسي) نفسه وهـو في ظل اللاتين المنتصرين في موقف أسوأ من موقفـه فـي ظل الأتراك، واكتشف الصليبيون أنهم وقعوا بين البيزنطيين

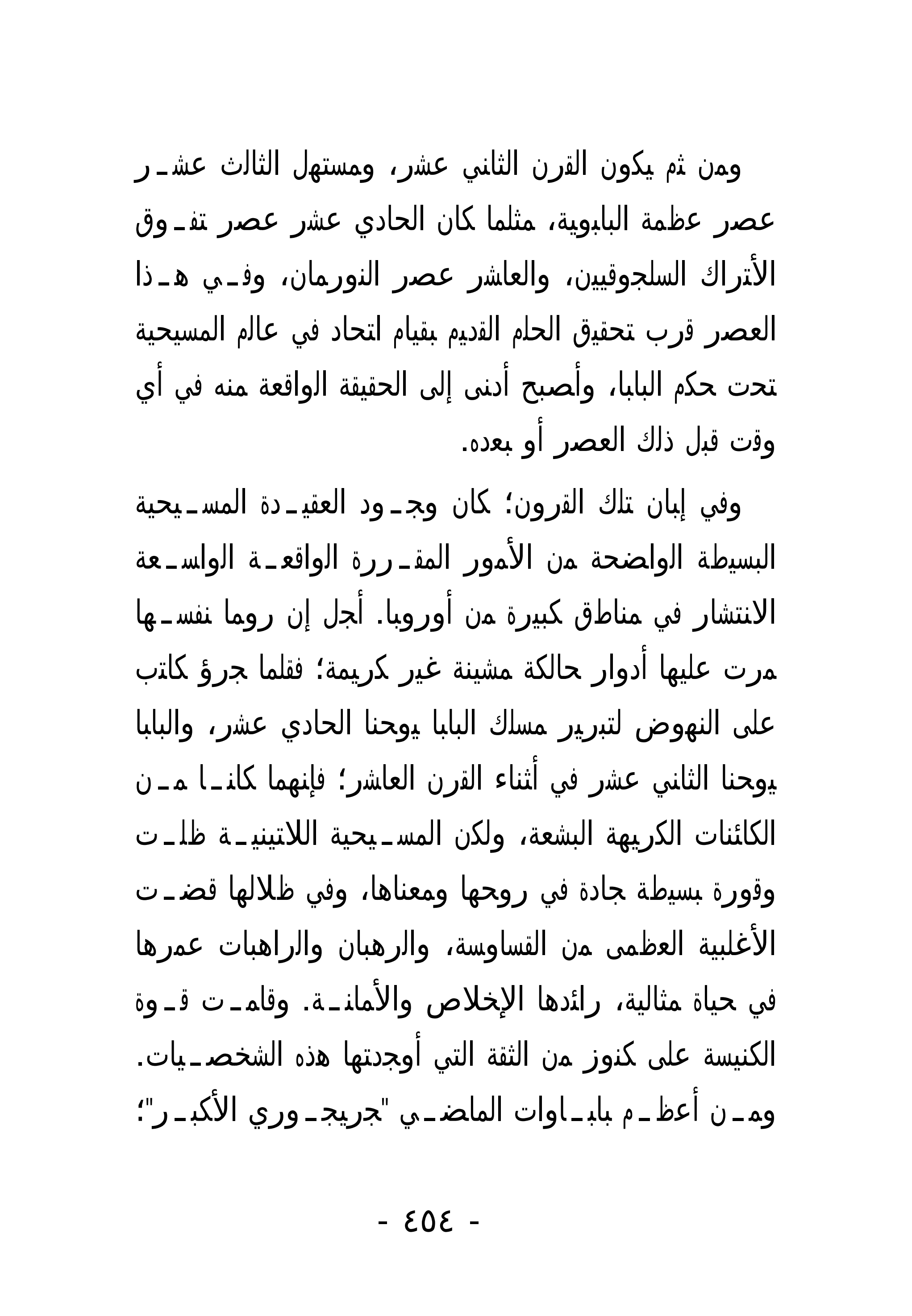
من ناحية، والأتراك من ناحية أخرى، وأنهم يقاتلون الطرفين جميعا، واستردت الإمبراطورية البيزنطية شطرا عظيما من ممتلكاتها بآسيا الصغرى، كما أن الأمراء اللاتـين وجـدوا إماراتهم حاجزة[1] بين الأتراك والروم، ولم يجدوا في أيديهم سوى بيت المقدس، وإمارات صغيرة قليلة في سوريا، كانت إمارة الرها من أكبرها.

على أن قبضتهم حتى على هذه الإمارات نفسها كانت قلقة ضعيفة، ولم تلبث الرها أن سقطت في أيدي المسـلمين فـي عام ١١٤٤، فأفضى ذلك إلى قيام حرب صليبية ثانية، فشلت في استخلاص الرها من أيدي العرب، ولكنها أنقذت أنطاكية من الوقوع في نفس المصير.

([1]) الدولة الحاجزة (Buffer State): دولة محايدة تقع بـين دولتـين متعاديتين، ويؤدي وجودها إلى التقليل من خطر الحرب بينهمـا. [المترجم]

وفي عام ١١٦٩ تجمعت جموع الإسلام حول راية قائد كردي اسمه صلاح الدين الأيوبي، أصبح حاكما على مصر، فدعا إلى قتال الصليبيين، واسترد بيت المقدس في عام ١١٨٧؛ وبذا استفز أوروبا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة، ولكنها أخفقت في استرداد بيت المقدس. حتى إذا جردت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤) أظهرت الكنيسة اللاتينية عداءها الصريح لدولة الروم الشرقية، ونسي القوم الأتراك تماما، ولم يجردوا عليهم حساما ولو من باب التظاهر بالقتال. تحركت تلك الحملة من البندقية، واجتاحت القسطنطينية عنوة في عام ١٢٠٤.

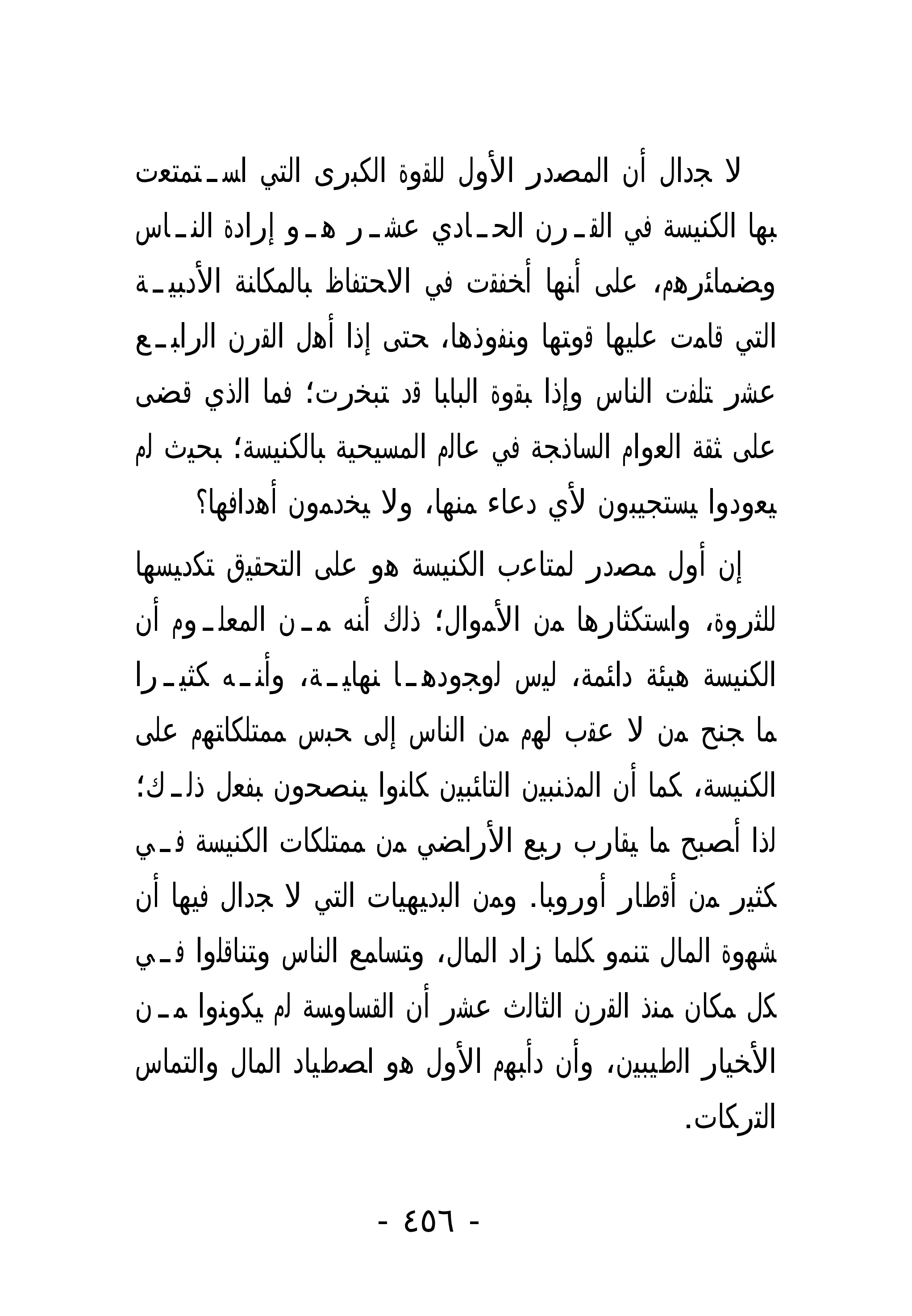
وكانت زعيمة هذه المغامرة هي مدينة البندقية، الثغر التجاري الناهض العظيم، ولم يلبث معظم سواحل الإمبراطورية البيزنطية وجزائرها أن أُلحق بمدينة البندقية، ونُصب في القسطنطينية إمبراطور لاتيني هو بالدوين الفلاندري، الذي أعلن وحدة الكنيستين اللاتينية واليونانية من جديد، ودام حكم أباطرة اللاتين بالقسطنطينية من عام ١٢٠٤ إلى عام ١٢٦١، يوم انتفض العالم اليوناني، وتخلص مرة ثانية من تسلط روما عليه.



ومن ثم يكون القرن الثاني عشر، ومستهل الثالث عشـر عصر عظمة البابوية، مثلما كان الحادي عشر عصر تفـوق الأتراك السلجوقيين، والعاشر عصر النورمان، وفـي هـذا العصر قرب تحقيق الحلم القديم بقيام اتحاد في عالم المسيحية تحت حكم البابا، وأصبح أدنى إلى الحقيقة الواقعة منه في أي وقت قبل ذلك العصر أو بعده.

وفي إبان تلك القرون؛ كان وجـود العقيـدة المسـيحية البسيطة الواضحة من الأمور المقـررة الواقعـة الواسـعة الانتشار في مناطق كبيرة من أوروبا. أجل إن روما نفسـها مرت عليها أدوار حالكة مشينة غير كريمة؛ فقلما جرؤ كاتب على النهوض لتبرير مسلك البابا يوحنا الحادي عشر، والبابا يوحنا الثاني عشر في أثناء القرن العاشر؛ فإنهما كانـا مـن الكائنات الكريهة البشعة، ولكن المسـيحية اللاتينيـة ظلـت وقورة بسيطة جادة في روحها ومعناها، وفي ظلالها قضـت الأغلبية العظمى من القساوسة، والرهبان والراهبات عمرها في حياة مثالية، رائدها الإخلاص والأمانـة. وقامـت قـوة الكنيسة على كنوز من الثقة التي أوجدتها هذه الشخصـيات. ومـن أعظـم بابـاوات الماضـي "جريجـوري الأكبـر"؛

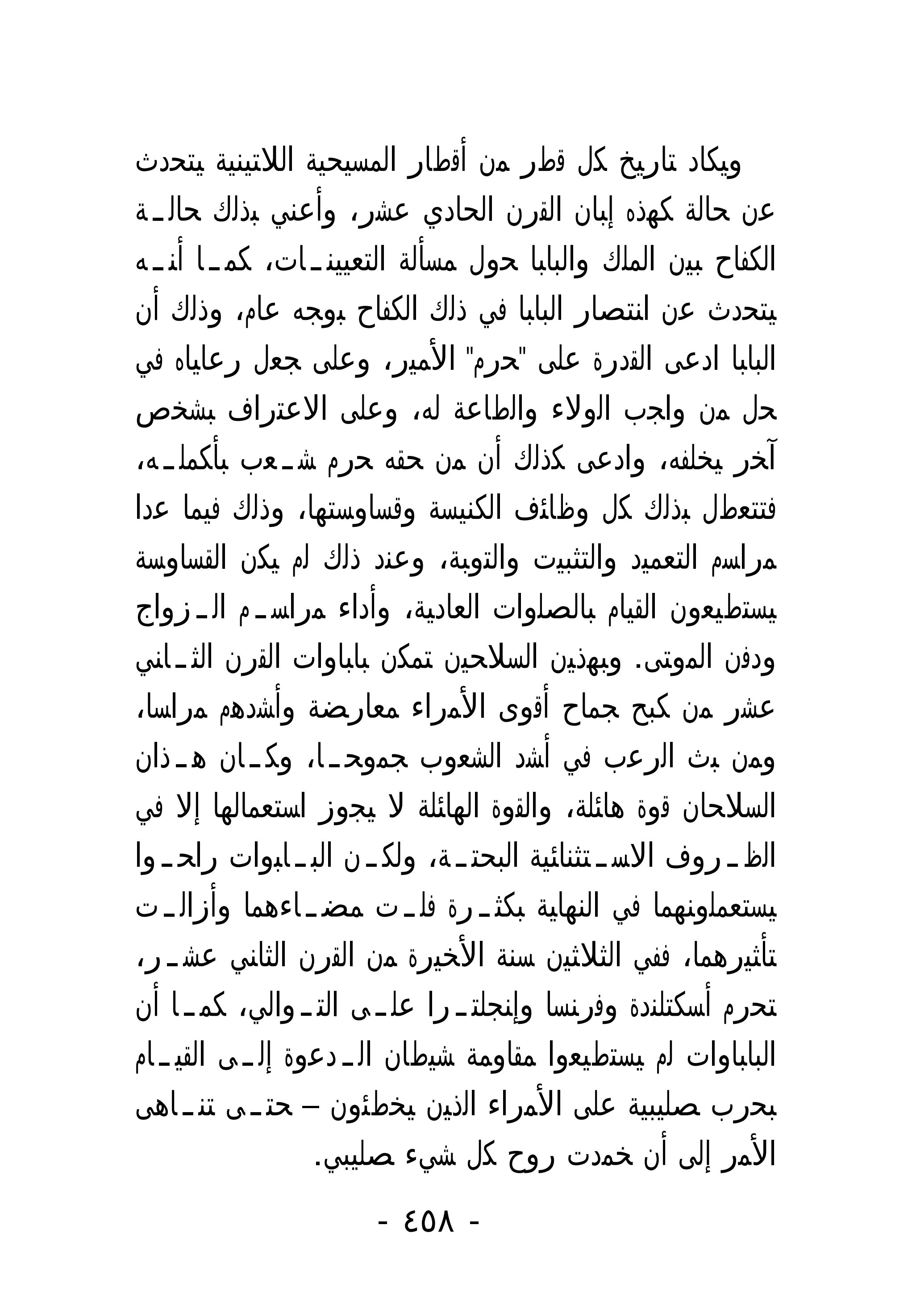
وهـو جريجـوري الأول (٥٩٠-٦٠٤م)، وليـو الثالـث (٧٩٥-٨١٦م)، الذي دعا شرلمان ليكون قيصـرا، وتوجـه على الرغم منه. ونشأ قرب نهاية القرن الحادي عشر رجـل دير عظيم ذو سياسة وتدبير؛ هو "هلد براند"، الـذي تسـمى فيما بعد باسم البابا جريجـوري السـابع (١٠٧٣-١٠٧٥م)، وهو البابا الذي أثار الحرب الصليبية الأولى. وإلـى هـذين الرجلين يرجع الفضل في قيام هذه الفترة التي عظم فيها شأن البابوية، والتي تسلط فيها الباباوات على الأباطرة، فكانـت للبابا الكلمة العليا من بلغاريا شرقًا إلى أيرلندة غربا، ومـن النرويج شمالاً إلى صقلية وبيت المقدس جنوبا. وجريجوري السابع هو الذي أرغم الإمبراطـور هنـري الرابـع علـى الشخوص إليه تائبا منيبا بكانوسا، وانتظار العفو منه ثلاثـة أيام بلياليها واقفًا في ساحة القلعة، في ثوب من الخيش وهـو حافي القدمين على الثلج. وفي عام ١١٧٦ ركع الإمبراطور فردريك الثاني الملقب بفردريك بربروسا على ركبتيه بـين يدي البابا إسكندر الثالث بالبندقية وأقسم يمين الولاء.

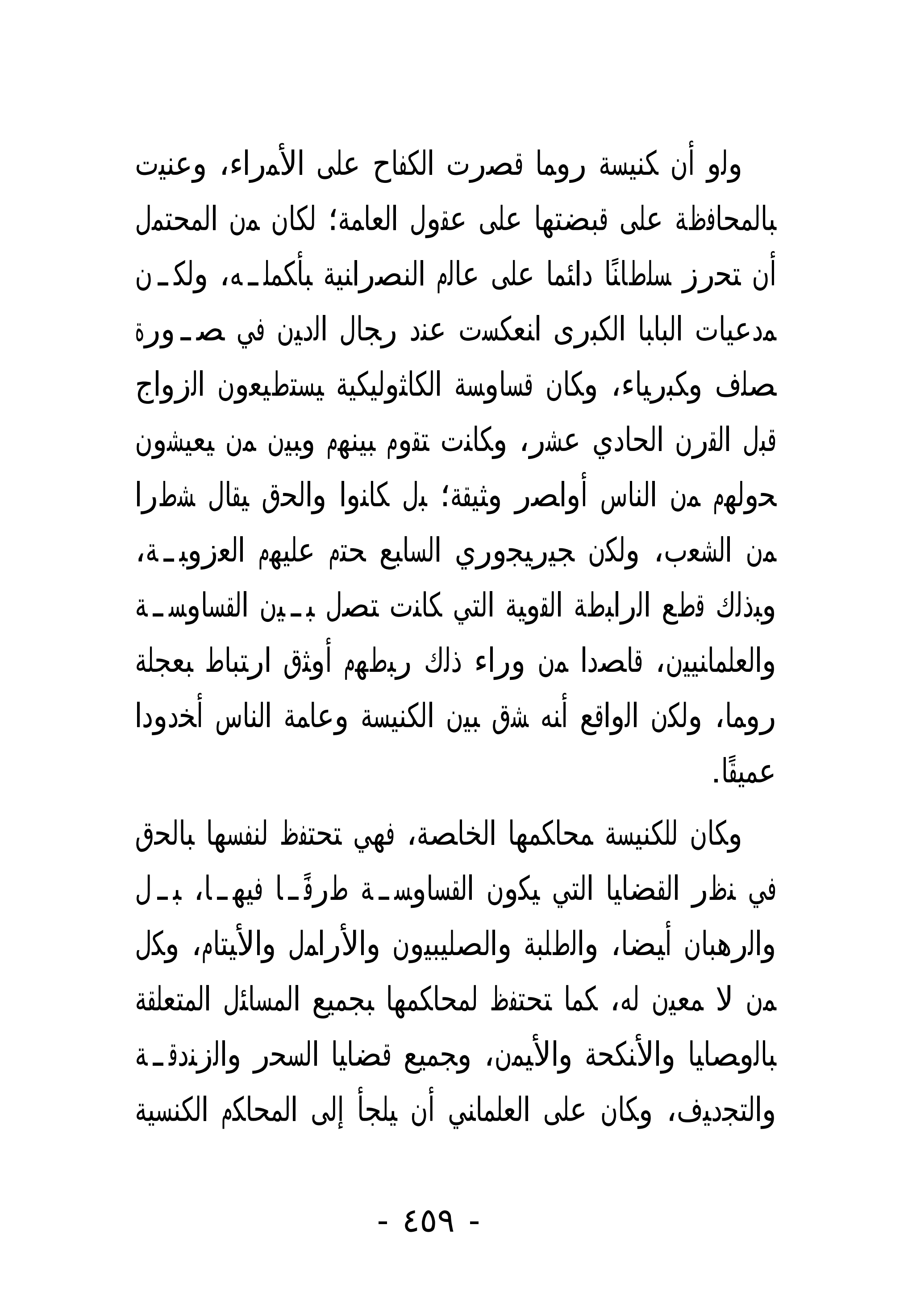


لا جدال أن المصدر الأول للقوة الكبرى التي استمتعت بها الكنيسة في القرن الحادي عشر هو إرادة الناس وضمائرهم، على أنها أخفقت في الاحتفاظ بالمكانة الأدبية التي قامت عليها قوتها ونفوذها، حتى إذا أهل القرن الرابع عشر تلفت الناس وإذا بقوة البابا قد تبخرت؛ فما الذي قضى على ثقة العوام الساذجة في عالم المسيحية بالكنيسة؛ بحيث لم يعودوا يستجيبون لأي دعاء منها، ولا يخدمون أهدافها؟

إن أول مصدر لمتاعب الكنيسة هو على التحقيق تكديسها للثروة، واستكثارها من الأموال؛ ذلك أنه من المعلوم أن الكنيسة هيئة دائمة، ليس لوجودها نهاية، وأنه كثيرا ما جنح من لا عقب لهم من الناس إلى حبس ممتلكاتهم على الكنيسة، كما أن المذنبين التائبين كانوا ينصحون بفعل ذلك؛ لذا أصبح ما يقارب ربع الأراضي من ممتلكات الكنيسة في كثير من أقطار أوروبا. ومن البديهيات التي لا جدال فيها أن شهوة المال تنمو كلما زاد المال، وتسامع الناس وتناقلوا في كل مكان منذ القرن الثالث عشر أن القساوسة لم يكونوا من الأخيار الطيبين، وأن دأبهم الأول هو اصطياد المال والتماس التركات.

وقد كره الملوك والأمراء تحول الممتلكات من أيديهم إلى يد البابوية الأجنبية، فإن أراضيهم التي كان ينبغي أن تمـول أتباعهم الإقطاعيين القادرين على تقديم المدد العسكري للملك أو الأمير؛ كانت تعول الأديرة والرهبان والراهبـات. وزاد الطين بلة أن تلـك الأراضـي كانـت فـي الواقـع الـذي لا شك فيه تحت سلطان الأجانب، وقد نشـب الكفـاح بـين الأمراء والبابوية حول مسألة "التعيينات" (أعنـي مـن هـو صاحب الحق في تعيين الأساقفة)، وذلك قبـل زمـن البابـا جريجوري السابع نفسه، فإن ظلت سلطة التعيين بيـد البابـا دون الملك، كان معنى ذلك فقدان الأخير ليس فقط لضـمائر رعاياه؛ بل وحرمانه من شطر جسيم من ممتلكاته، وذلك لأن رجال الدين كانوا يدعون بأن لهم الحق فـي الإعفـاء مـن الضرائب، وكانوا يدفعون ضرائبهم لرومـا، وليـت الأمـر اقتصر على ذلك؛ بل إن الكنيسة ادعت أيضا الحق في جمع مكس قيمته العشر على ممتلكات الرجـل العلمـاني فـوق الضرائب التي كان يدفعها الأخير لأميره.


ويكاد تاريخ كل قطر من أقطار المسيحية اللاتينية يتحدث عن حالة كهذه إبان القرن الحادي عشر، وأعني بذلك حالة الكفاح بين الملك والبابا حول مسألة التعيينات، كما أنه يتحدث عن انتصار البابا في ذلك الكفاح بوجه عام، وذلك أن البابا ادعى القدرة على "حرم" الأمير، وعلى جعل رعاياه في حل من واجب الولاء والطاعة له، وعلى الاعتراف بشخص آخر يخلفه، وادعى كذلك أن من حقه حرم شعب بأكمله، فتتعطل بذلك كل وظائف الكنيسة وقساوستها، وذلك فيما عدا مراسم التعميد والتثبيت والتوبة، وعند ذلك لم يكن القساوسة يستطيعون القيام بالصلوات العادية، وأداء مراسم الزواج ودفن الموتى. وبهذين السلاحين تمكن باباوات القرن الثاني عشر من كبح جماح أقوى الأمراء معارضة وأشدهم مراسا، ومن بث الرعب في أشد الشعوب جموحا، وكان هذان السلاحان قوة هائلة، والقوة الهائلة لا يجوز استعمالها إلا في الظروف الاستثنائية البحتة، ولكن البابوات راحوا يستعملونهما في النهاية بكثرة فلت مضاءهما وأزالت تأثيرهما، ففي الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثاني عشر، تحرم أسكتلندة وفرنسا وإنجلترا على التوالي، كما أن الباباوات لم يستطيعوا مقاومة شيطان الدعوة إلى القيام بحرب صليبية على الأمراء الذين يخطئون – حتى تناهى الأمر إلى أن خمدت روح كل شيء صليبي.



ولو أن كنيسة روما قصرت الكفاح على الأمراء، وعنيت بالمحافظة على قبضتها على عقول العامة؛ لكان من المحتمل أن تحرز سلطانًا دائما على عالم النصرانية بأكمله، ولكن مدعيات البابا الكبرى انعكست عند رجال الدين في صورة صلف وكبرياء، وكان قساوسة الكاثوليكية يستطيعون الزواج قبل القرن الحادي عشر، وكانت تقوم بينهم وبين من يعيشون حولهم من الناس أواصر وثيقة؛ بل كانوا والحق يقال شطرا من الشعب، ولكن جيريجوري السابع حتم عليهم العزوبة، وبذلك قطع الرابطة القوية التي كانت تصل بين القساوسة والعلمانيين، قاصدا من وراء ذلك ربطهم أوثق ارتباط بعجلة روما، ولكن الواقع أنه شق بين الكنيسة وعامة الناس أخدودا عميقًا.

وكان للكنيسة محاكمها الخاصة، فهي تحتفظ لنفسها بالحق في نظر القضايا التي يكون القساوسة طرفًا فيها، بل والرهبان أيضا، والطلبة والصليبيون والأرامل والأيتام، وكل من لا معين له، كما تحتفظ لمحاكمها بجميع المسائل المتعلقة بالوصايا والأنكحة والأيمن، وجميع قضايا السحر والزندقة والتجديف، وكان على العلماني أن يلجأ إلى المحاكم الكنسية

إن حدث بينه وبين أحد رجال الدين نزاع، وذلك كله في حين أن التزامات السلم وأعباء الحرب تقع كلها على كاهله وحده دون القسيس؛ فليس عجيبا إذن أن تنمو في النفوس العـداوة والحسد لرجال الدين في كل أرجاء عالم النصرانية.

ولم تظهر روما من الدلائل ما يدل على أنهـا تـدرك أن قوتها إنما تعتمد على ضمائر الناس، فكانت تحارب الحماسة الدينية التي كان يجب أن تتخذ منها حليفًا تعتمد عليه، وكانت تفرض بالقوة صحة المعتقد على صاحب الشـك البـريء، وعلى المارق صاحب الانحراف فـي الـرأي دون تفريـق بينهما، وعندما كانت الكنيسة تتدخل في الشـئون الخلقيـة، كانت تجد الرجل العادي في صفها، ولكن لم يكن الحال كذلك حين تتدخل في الشئون المذهبية، وعندما أخذ والدو يبشر في جنوب فرنسا بالعودة إلى منهج يسوع في بسـاطة العقيـدة والحياة؛ دعا إنوسنت الثالث إلى حملة صـليبية ضـد مـن اتبعوه، وأذن لجنده بقمعهم بالبار والسيف، وهتك الأعراض، وبأشد أنواع القساوات بشاعة. ولما دعا القـديس فرنسـيس الأسيسي (١١٨١-١٢٢٦) إلى محاكاة المسيح، وإلى حيـاة التقشف والفقر والعبادة؛ اضطهد أتباعه الرهبان الفرنسيسكان

وجلدوا وسجنوا وشتتوا، ثم أحرق أربعة منهم بمرسيليا وهم أحياء في عام ١٣١٨، وذلك في حين أن جماعـة الرهبـان الدومينيكيين التي أسسها القديس دومينيـك (١١٨٠-١٢٢١) والشهيرة بتمسكها العنيف بصحة الاعتقاد المـذهبي؛ كانـت موضع التعضيد القوي من إنوسنت الثالث، الـذي اسـتطاع بمساعدة تلك الجماعة أن ينشئ هيئة هي محـاكم التفتـيش، بقصد تصيد الزنادقة، وإنزال سوط العذاب بكل فكر حر.

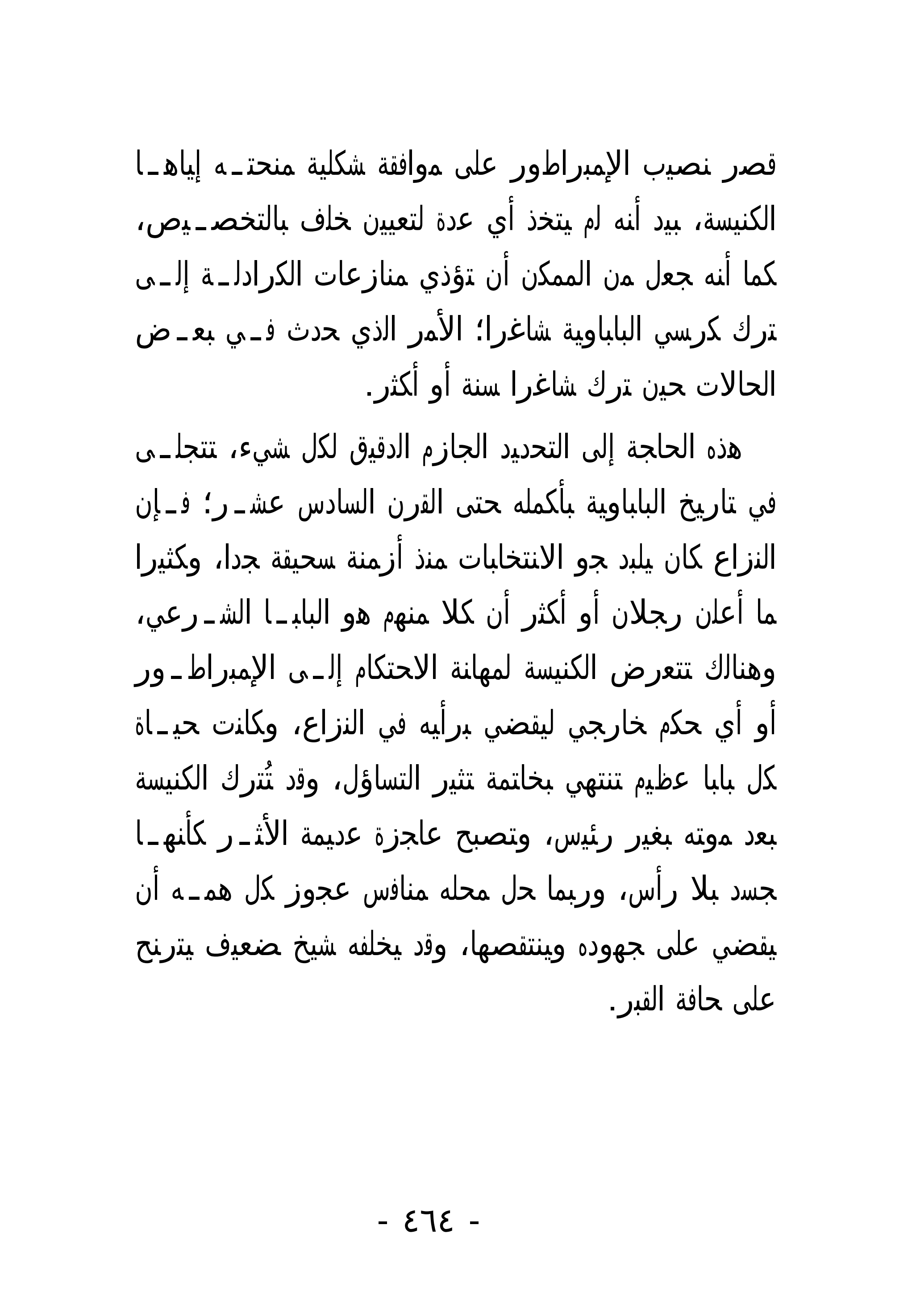
وهكذا دمرت الكنيسة بمدعياتها المسـرفة، وامتيازاتهـا الأثيمة، وبعدم تسامحها الخالي من كل حكمة وعقـل، تلـك العقيدة الحرة التي للرجل العادي، والتي هـي فـي النهايـة مصدر سلطانها كله، ولو اطلعت على قصة تـدهورها لمـا حدثتك بظهور أي عدو كفء لها ناصبها العداء من الخارج؛ بل عن الانحلال الذي ينخر فيها من الداخل.

الفصل السابع والأربعون

الأمراء المعارضون والصدع الأعظم

كانت طريقة انتخاب البابوات من أعظم نقط الضعف في الكنيسة الكاثوليكية في أثناء كفاحها للوصول إلى رئاسة العالم المسيحي بأكمله.

فلئن أُريد للبابوية أن تفوز حقًا بأطماعها الظـاهرة، وأن تؤسس حكما واحدا وسلاما واحدا في كـل أرجـاء العـالم المسيحي؛ كان من الواجب الضروري أن تكون قيادتها فـي أيدٍ قوية حازمة، وكان من ألزم الضرورات إبان تلك الأيـام العظيمة التي سنحت فيها فرصتها، ألا يتولى منصب البابوية إلا رجل كفء قادر في عنفوان شبابه، وأن يعين كل مـنهم خليفته، حتى يستطيع أن يتناقش وإياه في سياسـة الكنيسـة، وأن تكون كيفية الانتخاب وطرائقه واضحة بينة، محددة غير قابلة للتغيير ولا معرضة لطعن. ولكن شيئًا من هذه الأمـور لم يحدث لسوء الحظ، بل لم يكن الناس يعرفون بوضوح من له الحق في التصويت في انتخـاب البابـا، ومـا إذا كـان للإمبراطورية البيزنطية أو الرومانية المقدسة صـوت فـي الأمر، وقد بذل هلدبراند ذلك السياسي المحنك (وهو البابـا جريجوري السابع ١٠٧٣-١٠٨٥) جهدا كبيرا فـي تنظـيم الانتخاب، فقصر الأصوات على الكرادلة الكاثوليـك، كمـا



قصر نصيب الإمبراطور على موافقة شكلية منحتـه إياهـا الكنيسة، بيد أنه لم يتخذ أي عدة لتعيين خاف بالتخصـيص، كما أنه جعل من الممكن أن تؤذي منازعات الكرادلـة إلـى ترك كرسي البابوية شاغرا؛ الأمر الذي حدث فـي بعـض الحالات حين ترك شاغرا سنة أو أكثر.

هذه الحاجة إلى التحديد الجازم الدقيق لكل شيء، تتجلـى في تاريخ البابوية بأكمله حتى القرن السادس عشـر؛ فـإن النزاع كان يلبد جو الانتخابات منذ أزمنة سحيقة جدا، وكثيرا ما أعلن رجلان أو أكثر أن كلا منهم هو البابـا الشـرعي، وهنالك تتعرض الكنيسة لمهانة الاحتكام إلـى الإمبراطـور أو أي حكم خارجي ليقضي برأيه في النزاع، وكانت حيـاة كل بابا عظيم تنتهي بخاتمة تثير التساؤل، وقد تُترك الكنيسة بعد موته بغير رئيس، وتصبح عاجزة عديمة الأثـر كأنهـا جسد بلا رأس، وربما حل محله منافس عجوز كل همـه أن يقضي على جهوده وينتقصها، وقد يخلفه شيخ ضعيف يترنح على حافة القبر.

لم يكن مفر من أن يدعو هذا الضعف الخاص في نظـام البابوية إلى تدخل الأمراء الألمان، وملك فرنسا، والملـوك النورمانديين والفرنسيين الذين تولوا عرش إنجلترا، كما لـم يكن بد من أن يحاولوا جميعا التأثير فـي الانتخابـات، وأن يكون لهم في قصر اللاتيران بروما بابا يهـتم بمصـالحهم ويرعاها، وكلما زاد البابا قوة وعـلا شـأنًا فـي الشـئون الأوروبية؛ زادت الضرورة إلى تلك التغييرات، فليس عجيبا في مثل تلك الظروف أن يكون كثير من البابـاوات ضـعافًا لا غناء فيهم، على أن وجه العجب حقًا أن كثيرا منهم كانوا رجالاً شجعانًا أكفاء.

ومن أشد باباوات هذه الحقبة العظيمـة قـوة واسـتثارة لاهتمامنا؛ البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦)، الذي كان من حسن حظه أن أصبح بابا قبل أن يبلغ الثامنة والثلاثـين، وكان هو وخلفاؤه يناصبون العداء شخصية تكاد تبزهم إمتاعا وأهمية، هي شخصية الإمبراطور فردريك الثاني، الذي كان ينعت "أدهوشة العالم"، وكفاح هذا العاهل ضد روما يعد نقطة تحول في التاريخ، أجل انتهى الأمر بأن هزمته روما وقضت على أسرته، بيد أنه غادر كرامة الكنيسة والبابـا وهيبتهـا

جريحة جراحا بلغ من خطورتها أن نغرت[1] فـي النهايـة وأدت إلى انحلالها.

كان فردريك ابنًا للإمبراطور هنري السادس، وكانت أمه بنت روجر الأول ملك صقلية النورماني، ورث هذه المملكة في عام ١١٩٨ عندما كان طفلاً في الرابعـة، وقـد عـين إنوسنت الثالث وصيا عليه، وكانت صقلية في ذلـك الحـين حديثة العهد بالغزو النورماني، وكان بلاط الملك شـرقيا أو يكاد، حافلاً بعلماء العرب الواسعي الاطلاع، وقد أسهم بعض هؤلاء في تعليم الملك الصغير، ولا شك أنهم لقـوا بعـض العناء في توضيح آرائهم له، فكـون فـي المسـيحية رأيـا إسلاميا، كما كون في الإسلام وجهة نظر مسيحية، ومن هذه التربية المزدوجة، خرج الملك بنتيجة تعسة تعد شيئًا شاذا في عصر الإيمان؛ ذاك هي أن جميع الديانات دجل، وطالما تكلم بملء حريته في ذلك الموضوع، ويسجل لنا التـاريخ كفـره (هرطقاته) وتجديفاته.

([1]) نغر: يقال نغر بمعنى فسد كالجرح إذا سال منه الـدم والصـديد. [المترجم]

ولما أن شب الفتى ألقى نفسه في نزاع مع وصيه، ذلك أن إنوسنت الثالث كان يغلو فيما يطلبه من الفتى القاصر، فلمـا آن لفردريك تولي عرش الإمبراطورية، تدخل البابا مشترطًا بعض الشروط، فأصر على أن يعد فردريك بالقضـاء بقـوة على ما بألمانيا من كفر وزندقة، وذلك فضلاً عن تخليه عن عرش صقلية وجنوب إيطاليا، وإلا قوي سلطانه ولـم يقـدر البابا على كبحه، وعدا ذلك طلب البابا بإعفاء رجال الـدين الألمان من الضرائب، ووافق فردريك على الشروط دون أن يضمر البر بوعده بأي حال. وفي تلك الأثناء حمـل البابـا العاهل الفرنسي على شن الحرب على رعاياه بفرنسا، وهي الحملة الصليبية القاسية الدامية التي شنت على أتباع والـدو، وقد أراد أن يفعل فردريك نفس الفعلة في ألمانيا، ولكن لمـا كان فردريك أشد كفرا وزندقة من أي "ورعي"(١) بسيط مـن أولئك الذين جلبوا على أنفسهم عداوة البابا، فمن البديهي أنه كان يعوزه التحمس لأمثال هذه الحملات الصليبية، وعنـدما

([1]) الورعيون: (Pietists) هم أتباع والدو كما هو ظاهر من السـياق، وهم يأخذون أنفسهم بالورع الشديد في أبسـط صـور المسـيحية الأولى. [المترجم]

حرضه إنوسنت على القيام بحملة صليبية علـى المسـلمين واسترداد بيت المقدس، لم يتردد في المبادرة بالوعد، كما لم يتردد بالمثل في التباطؤ في التنفيذ.

حتى إذا تم لفردريـك الثـاني الحصـول علـى التـاج الإمبراطوري أقام بصقلية، التي كان يؤثر الإقامة فيها علـى المقام في ألمانيا، ولم يفعل شيئًا للبر بأي وعد مـن وعـوده لإنوسنت الثالث، الذي مات في عام ١٢١٦ بعـد أن أعيـاه أمره.

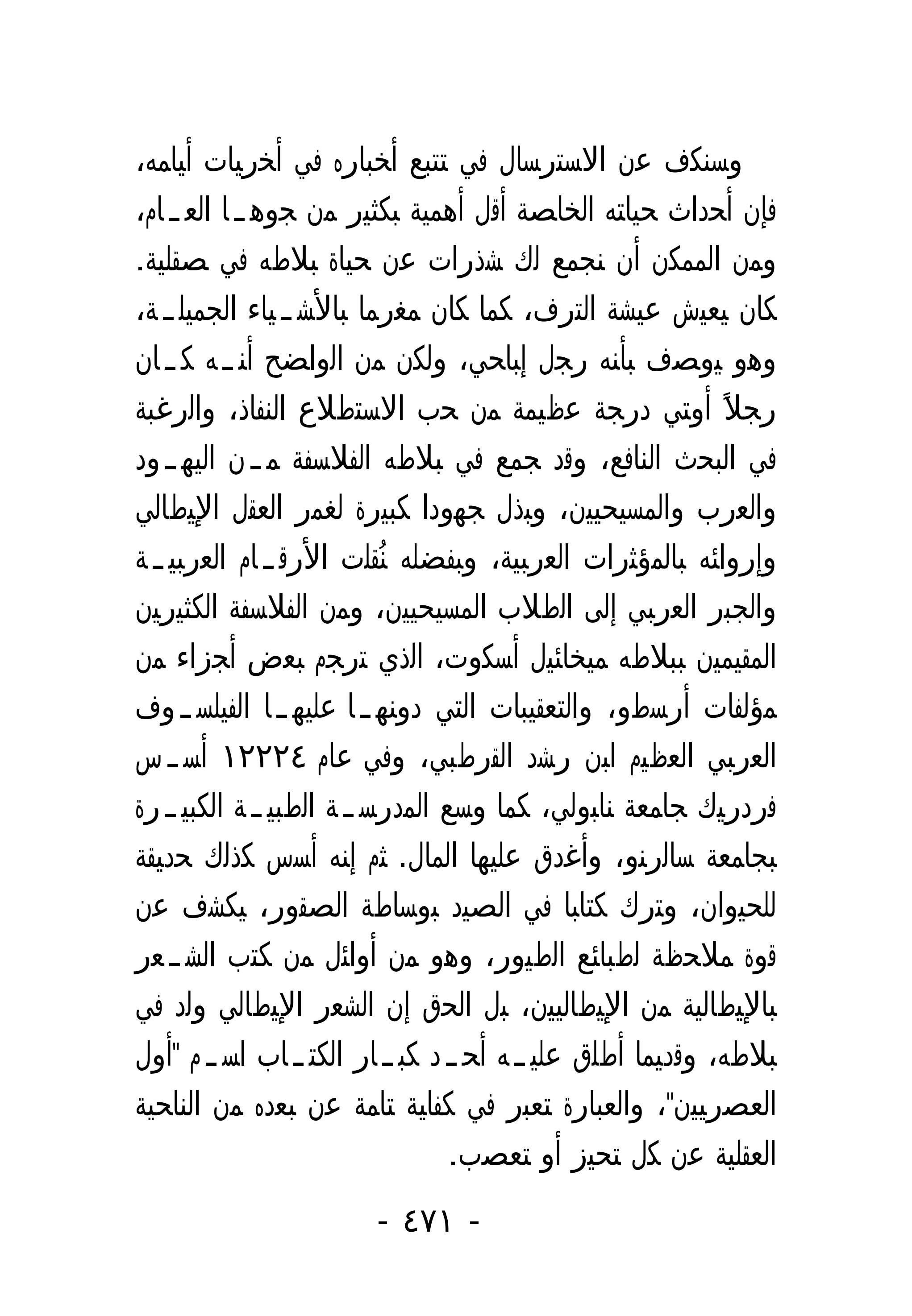
ولم يستطع هونوريوس الثالث الذي خلـف إنوسـنت، أن يكون أحسن حظا مع فردريك من سلفه، ثم تولى جريجوري التاسع عرش البابوية (١٢٢٧)، وقد صمم تصميما واحـدا على تسوية الحساب مع ذلك الفتى مهما يكن الثمن، فأصـدر قرارا بحرمانه، وحيل بـين فردريـك الثـاني وبـين كـل ما تستطيع الديانة تقديمه من وسائل العزاء والسلوى. ومـن العجب أن هذا الإجراء لم يضايق البلاط الصـقلي نصـف العربي إلا أقل المضايقة، ثم إن البابا وجه إلى الإمبراطـور أيضا خطابا مفتوحا يسرد فيه رذائله، "التي لا يستطيع إنسان إنكارها"، وزندقاته وسوء سيرته بوجه عام، فما كـان مـن

فردريك إلا أن أجابه على تلك الرسالة بوثيقة تنم عن مقدرة شيطانية، وجهت تلك الرسالة إلى جميع أمراء أوروبا، كمـا أنها أول بيان واضح عن النزاع بين البابا والأمراء، وفيهـا أنحى بالطعن القاتل على مطامع البابا الواضحة؛ أن يكـون الحاكم المطلق لأوروبا بأكملها، واقترح قيـام اتحـاد بـين الأمراء ضد ذلك الاغتصاب، ووجه أنظار الأمـراء بنـوع خاص إلى ما تستمتع به الكنيسة من ثراء.

حتى إذا أطلق فردريك هذه القذيفة القاتلة؛ صمم على البر بوعده الذي تأخر إنجازه اثنتي عشرة سنة بالخروج في حملة صليبية، وتلك هي الحملة الصليبية السادسة (١٢٨٨)، وكانت كحملة صليبية تعد مهزلة؛ فإن فردريك الثاني ذهـب إلـى مصر وتقابل مع سلطانها، وتباحث وإياه في الأمـور! راح هذان السيدان (وكلاهما ممن انطوت نفسه علـى التشـكك) يتبادلان آراء متجانسة، وأبرما معاهدة تجارية تعود عليهمـا بالنفع المشترك، واتفقا على أن تنتقل بيت المقدس إلـى يـد فردريك، ولا شك أن ذلك كان ضربا جديـدا مـن الحـرب الصليبية؛ فهو حملة صليبية سلاحها المعاهدات والمواثيـق، وهنا لم يهرق دم ولا تطاير له على الفاتح رشاش. ولا حدث "بكاء من فرط السرور"، ولما كان ذلك الصـليبي المـدهش

رجلاً محروما بأمر الكنيسة، فإنه اضطر أن يقنـع بتتـويج علماني محض كملك لبيت المقدس، متناولاً التاج من المذبح بيده؛ وذلك لأن جميع رجال الدين كانوا ملزمين أن يجتنبوه، ثم عاد إلى إيطاليا بعد ذلك، وما زال بالجيوش البابوية التـي غزت بلاده حتى ردها إلى أراضيها الأصلية، وأرغم البابـا أن يرفع عنه قرار الحرمان؛ تلك هي المشاكلة التي استطاع أحد الأمراء أن يعامل بها البابا في القرن الثالث عشر، دون أن تنفجر آنذاك عاصفة من الغضب الشعبي للانتقام له؛ لأن تلك الأيام قد ولت!!.

ثم عاد جريجوري التاسع فاستأنف في عام ١٢٣٩ كفاحه مع فردريك، وحرمه للمرة الثانية وجدد حملة السباب العلني التي سبق للبابوية أن لاقت منها شرا مسـتطيرا، علـى أن الخصومة تجددت بعد وفاة جريجوري التاسع، عندما تـولى كرسي البابوية إنوسنت الرابع، ومرة ثانية كتب فردريك ضد الكنيسة خطابا مدمرا من ذلك النوع الذي يضطر الناس إلى تذكره، وفيه سب كبرياء رجال الدين وقلة تدينهم، ونسب كل مفاسد الزمان لكبريائهم وثرائهم، واقتـرح علـى زملائـه الأمراء مصادرة أملاك الكنيسة بصـورة عامـة لمصـلحة الكنيسة نفسها؛ وهو اقتـراح لـم يغـادر ذاكـرة الأمـراء الأوروبيين بعد ذلك أبدا.



وسنكف عن الاسترسال في تتبع أخباره في أخريات أيامه، فإن أحداث حياته الخاصة أقل أهمية بكثير من جوهـا العـام، ومن الممكن أن نجمع لك شذرات عن حياة بلاطه في صقلية. كان يعيش عيشة الترف، كما كان مغرما بالأشـياء الجميلـة، وهو يوصف بأنه رجل إباحي، ولكن من الواضح أنـه كـان رجلاً أوتي درجة عظيمة من حب الاستطلاع النفاذ، والرغبة في البحث النافع، وقد جمع في بلاطه الفلاسفة مـن اليهـود والعرب والمسيحيين، وبذل جهودا كبيرة لغمر العقل الإيطالي وإروائه بالمؤثرات العربية، وبفضله نُقلت الأرقـام العربيـة والجبر العربي إلى الطلاب المسيحيين، ومن الفلاسفة الكثيرين المقيمين ببلاطه ميخائيل أسكوت، الذي ترجم بعض أجزاء من مؤلفات أرسطو، والتعقيبات التي دونهـا عليهـا الفيلسـوف العربي العظيم ابن رشد القرطبي، وفي عام ١٢٢٤ أسـس فردريك جامعة نابولي، كما وسع المدرسـة الطبيـة الكبيـرة بجامعة سالرنو، وأغدق عليها المال. ثم إنه أسس كذلك حديقة للحيوان، وترك كتابا في الصيد بوساطة الصقور، يكشف عن قوة ملاحظة لطبائع الطيور، وهو من أوائل من كتب الشـعر بالإيطالية من الإيطاليين، بل الحق إن الشعر الإيطالي ولد في بلاطه، وقديما أطلق عليـه أحـد كبـار الكتـاب اسـم "أول العصريين"، والعبارة تعبر في كفاية تامة عن بعده من الناحية العقلية عن كل تحيز أو تعصب.

وثمة بادرة أخرى أكثر استرعاء للأنظـار، تـدل علـى تضاؤل حيوية البابوية، وانهيار الأركـان الداعمـة لهـا؛ ظهرت البادرة عندما اشتبك البابوات فور ذلك في نزاع مع ملك فرنسا وقوته النامية، فإن ألمانيا تـردت فـي مهـاوي التمزق في أثناء حياة الإمبراطور فردريك الثاني، كما شرع الملك الفرنسي في أن يلعـب دور حـامي البابـا وظهيـره ومنافسه، وهو الدور الذي كان حتى آنذاك من نصيب أباطرة أسرة هوهنشتاوفن. وقد راحت جماعة متتالية من البابـاوات تنتهج سياسة مناصرة ملوك فرنسا، وكانت نتيجـة ذلـك أن نصب أمراء فرنسيون على عروش مملكتي صقلية ونابولي، بمساعدة روما وموافقتها، كما أن الملوك الفرنسيين أدركـوا أن في الإمكان استرجاع إمبراطورية شرلمان، وتولي الحكم فيها. على أنه عندما حدث بعد ذلك أن انتهـت فتـرة خلـو العرش الألماني التي أعقبت وفاة فردريك الثاني آخر أباطرة أسرة هوهنشتفاوفن، وانتخـب رودلـف الهابسـبرجي أول إمبراطور من آل هابسبرج (١٢٧٣)؛ ابتدأت سياسة رومـا في التذبذب بين فرنسا وألمانيا، وأصبحت تنتقل مع عواطف كل بابا جديد. فأمـا فـي الشـرق فـإن الـروم اسـتردوا

القسطنطينية في عام ١٢٦١ من قبضة الأباطرة اللاتين، وسرعان ما عمد مؤسس الأسرة الرومية الجديدة ميخائيل باليولوجوس (وهو الإمبراطور ميخائيل الثامن) إلى الانفصال عن المجتمع الكنسي الكاثوليكي تماما، بعد إبداء محاولات غير حقيقية للصلح مع البابا، وبذلك الانفصال، وبسقوط الممالك اللاتينية في آسيا؛ انتهت عظمة البابا في ربوع الشرق.

وفي عام ١٢٩٤ تولى بونيفاس الثامن عرش البابوية، وكان إيطاليا معاديا للفرنسيين، قوي الشعور بعظيم تقاليد روما ورسالتها، فظل زمانًا يدير الأمور بيد مستأثرة، وقد أقام حفلات اليوبيل في عام ١٣٠٠، وتقاطرت على روما جماهير غفيرة من الحجاج: "وبلغ من عظم مسيل الذهب إلى خزانة البابوية أن عين مساعدان اثنان بالمجاريف لجمع الهدايا التي وضعت على قبر القديس بطرس"[1]. بيد أن هذا الاحتفال كان نصرا خداعا؛ إذ حدث لسوء حظ بونيفاس أن نشب نزاع بينه وبين ملك فرنسا في عام ١٣٠٢، وفي ١٣٠٣ أعد البابا العدة للنطق بقرار حرمان ذلك الملك، ولكن

([1]) ج. هـ. ربنسون.

غليوم دي نوجار فاجأه واعتقله في قصر أسلافه نفسه ببلـدة أناجيني. دخل مندوب ملك فرنسا هذا إلى القصـر عنـوة، وتقدم إلى حجرة نوم البابا المذعور؛ إذ إنه وجده راقدا فـي فراشه وبيده الصليب، وانهال عليه بالتهديد والإهانة، وهـب أهل المدينة لإنقاذ البابا بعد يوم أو يومين، فعاد إلى رومـا، ولكن قبضت عليه هناك أسرة أورسيني وأخذته مـن جديـد أسيرا، ولم تنقض بضعة أسابيع حتـى مـات ذلـك الشـيخ مصدوما، وقد زالت عن عينه غشاوة الأمل الكاذب.

لقد غضب سكان أناجيني للاعتداء الأول، وهبوا لتخلـيص بونيفاس من قبضة نوجاريه، ولكن أناجيني كانت بلـد البابـا ومسقط رأسه، وأهم ما يستلفت النظـر هنـا هـو أن الملـك الفرنسي كان في هذه المعاملة الخشنة لرأس المسيحية يعمـل مستمتعا بكامل استحسان شعبه، فإنه كان قد دعا مجلسا مـن طبقات فرنسا الثلاث (وهم النـبلاء، والكنيسـة، والعامـة)، وحصل على موافقتهم قبل الإقدام على التصرفات المتطرفـة، ولم يتحرك أحد في إيطاليا وألمانيا وإنجلترا، ولم يبد من الناس أي مظهر عام لاستهجان هذا التصـرف الجـريء الخـادش لكرامة رأس المسيحية المتربع آنذاك علـى عـرش الحبـر الأعظم؛ ذلك أن الفكرة القائلة بقيام "عالم النصرانية ودولتهـا" اضمحلت حتى اندثر كل سلطان لها على أذهان الناس.

انقضى القرن الرابع عشر دون أن تفعل البابوية شيئًا لاسترداد سلطانه الأدبي، وكان البابا الذي انتُخب بعد ذلك (وهو كليمنت الخامس) فرنسيا، اختاره فيليب ملك فرنسا، فلم يحضر إلى روما أبدا، بل أقام بلاطه بمدينة أفينيون التي لم تكن تابعة آنذاك لفرنسا، بل للكرسي البابوي، وإن وقعت في الأراضي الفرنسية، وهناك ظل خلفاؤه حتى عام ١٣٧٧، عندما عاد البابا جريجوري الحادي عشر إلى قصر الفاتيكان في روما، ولكن جريجوري الحادي عشر لم تنتقل معه بانتقاله إلى روما قلوب الكنيسة جمعاء؛ وذلك لأن كثيرا من الكرادلة كانوا من أصل فرنسي، وقد تأصلت في أفينيون عاداتهم وعلاقتهم بالناس، حتى إذا مات جريجوري الحادي عشر في عام ١٣٧٨، وانتخب بدله إيطالي هو إربان السادس، وأعلن هؤلاء الكرادلة المنشقون عدم صحة الانتخاب، وانتخبوا لمنصب البابوية شخصا آخر هو البابا المعارض كليمنت السابع، ويسمى هذا الانقسام بالصدع الأعظم، على أن الباباوات الأصلاء ظلوا في روما، كما ظلت جميع الدول المضادة للفرنسيس موالية لهم؛ كالإمبراطور، وملك إنجلترا، وبلاد المجر وبولندة، وشمال

أوروبا. أما الباباوات المعارضون؛ فقد ظلوا فـي أفينيـون يظاهرهم ملك فرنسـا وحليفـه ملـك أسـكتلندة وإسـبانيا والبرتغال، وأمراء ألمان مختلفون، وكان كـل بابـا يحـرم أنصار منافسه ويلعنهم (١٣٧٨-١٤١٧).

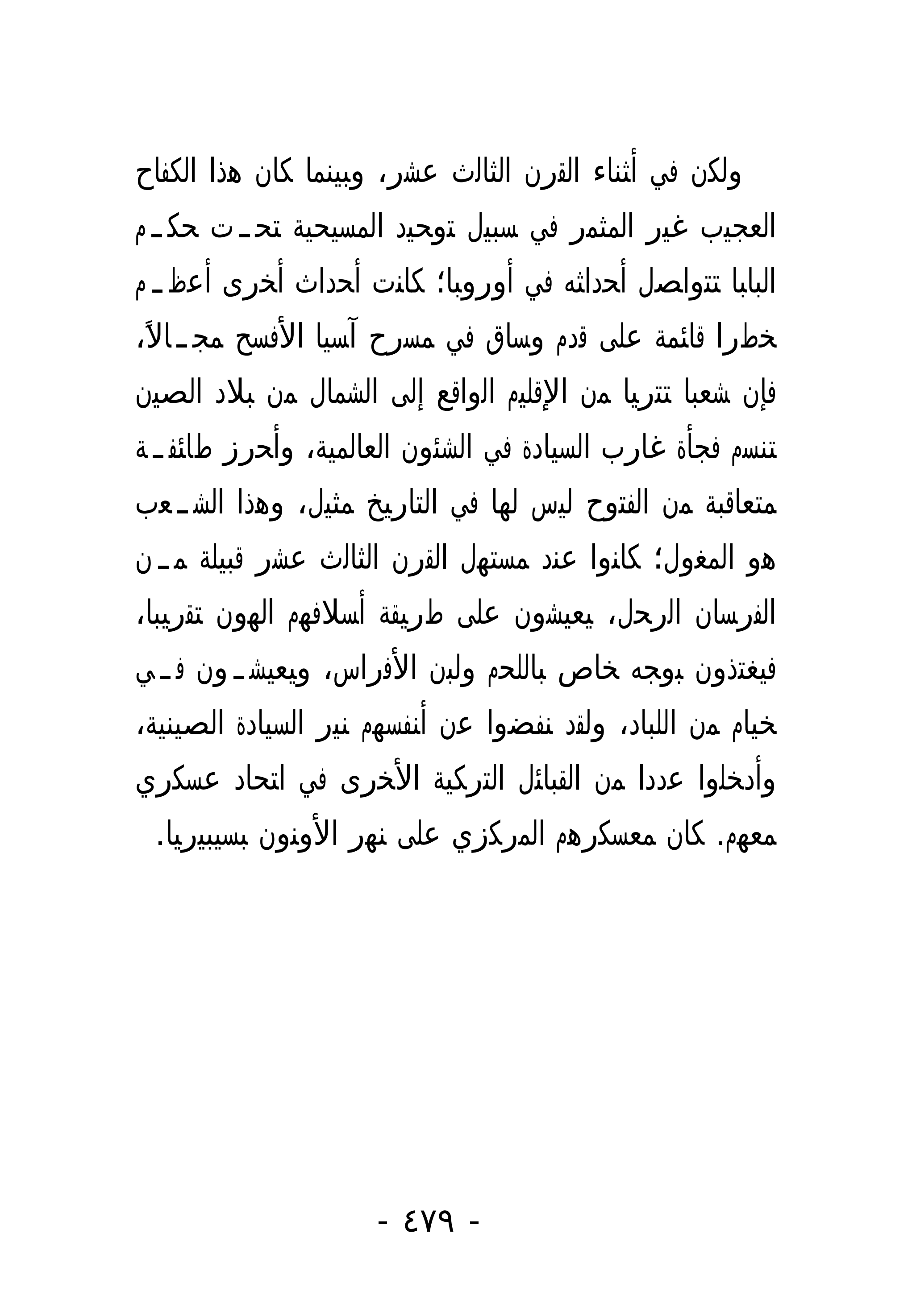
أعجيب إذن أن شرع كل إنسان في كل أرجـاء أوروبـا يفكر في شئون دينه بنفسه؟.

لم تكن هيئتا الرهبان الفرنسسـكانيين ولا الـدومينيكيين إلا عاملين من بين العوامل الكثيرة الجديدة التي شرعت تنشأ في المسيحية إما لتأييد الكنيسة، وإما لتمزيقها، وهما أمـران يرجع البت فيهما لتقدير الكنيسة. وقد تبنت هاتين الجمعيتين فعلاً واستفادت بخدماتهما، وإن استخدمت في البداية شيئًا من العنف مع الجماعة الأولى، بيد أن هناك عوامل وقوى أخرى كانت أصرح في إظهار العصيان والانتقاد، فقد ظهر ويكليف (١٣٢٠-١٣٨٤) بعد ذلك بقرن ونصف؛ كان أستاذًا عظـيم الاطلاع بأكسفورد، فشرع يوجه إلى الكنيسة وقد تقدمت بـه السن طائفة صريحة من الانتقادات لمفاسد رجال الدين، وقلة حكمتهم، ونظم من أتباعه جماعة من فقراء القسـوس، هـم الويكليفيون، لنشر آرائه في كافة أرجاء إنجلترا، ولكي يحكم

الناس بينه وبين الكنيسة ترجم الكتاب المقدس إلى الإنجليزية. كان أوسع علما وأكثر اقتدارا من كل القديسـين فرنسـيس ودومينيك، وقد كثر بين أفراد الطبقة المثقفة الراقية مؤيدوه، كما عظم عدد أتباعه بين أفراد الشعب، ومع أن روما ثارت ثائرتها سخطًا عليه، وأمرت بحبسه؛ فإنه مات حرا طليقًا لم تمس حريته بسوء. بيد أن الروح القديمة الشريرة التي كانت تدفع الكنيسة الكاثوليكية إلى مهاوي الدمار؛ لم تطـق تـرك عظامه هادئة في قبرها؛ إذ صدر عـن مجمـع كونسـتانس عام ١٤١٥ مرسوم يقضي بنبش عظامه وحرقها، وهو قرار نفذه الأسقف فلمنج في عام ١٤٢٨ بأمر من البابـا مـارتن الخامس. وجدير بالذكر أن هذا التدنيس للحرمات لم يكن من عمل متعصب مفرد؛ بل كان عملاً رسميا صدر عن الكنيسة.

الفصل الثامن والأربعون

فتوح المغول



ولكن في أثناء القرن الثالث عشر، وبينما كان هذا الكفاح العجيب غير المثمر في سبيل توحيد المسيحية تحـت حكـم البابا تتواصل أحداثه في أوروبا؛ كانت أحداث أخرى أعظـم خطرا قائمة على قدم وساق في مسرح آسيا الأفسح مجـالاً، فإن شعبا تتريا من الإقليم الواقع إلى الشمال من بلاد الصين تنسم فجأة غارب السيادة في الشئون العالمية، وأحرز طائفـة متعاقبة من الفتوح ليس لها في التاريخ مثيل، وهذا الشـعب هو المغول؛ كانوا عند مستهل القرن الثالث عشر قبيلة مـن الفرسان الرحل، يعيشون على طريقة أسلافهم الهون تقريبا، فيغتذون بوجه خاص باللحم ولبن الأفراس، ويعيشـون فـي خيام من اللباد، ولقد نفضوا عن أنفسهم نير السيادة الصينية، وأدخلوا عددا من القبائل التركية الأخرى في اتحاد عسكري معهم. كان معسكرهم المركزي على نهر الأونون بسيبيريا.

وكانت الصين في ذلك الأوان في حالة انقسام؛ فإن سلطان أسرة تانج العظيمة قد اضمحل في القرن العاشر الميلادي، ثم هوت الصين في هوة الانقسام، وتحولت إلى ولايات متطاحنة، حتى استقرت بها في النهاية ثلاث إمبراطوريات رئيسية هي: إمبراطورية كن (Kin) في الشمال وعاصمتها بكين، وإمبراطورية صنج في الجنوب وعاصمتها نانكين، وإمبراطورية هسيا (Hsia) في الوسط. وفي عام ١٢١٤ شن جانكيز خان قائد اتحاد المغول غارة على إمبراطورية كن، واستولى على بكين (١٢١٤)، ثم تحول بعد ذلك غربا وفتح التركستان الغربية، وفارس، وأرمينية، وتوغل في الهند حتى لاهور، وفي جنوب الروسيا حتى بلاد المجر وسيليزيا، ومات جانكيز خان وقد صار سيدا على إمبراطورية هائلة تمتد من المحيط الهادي إلى نهر الدنيبر.

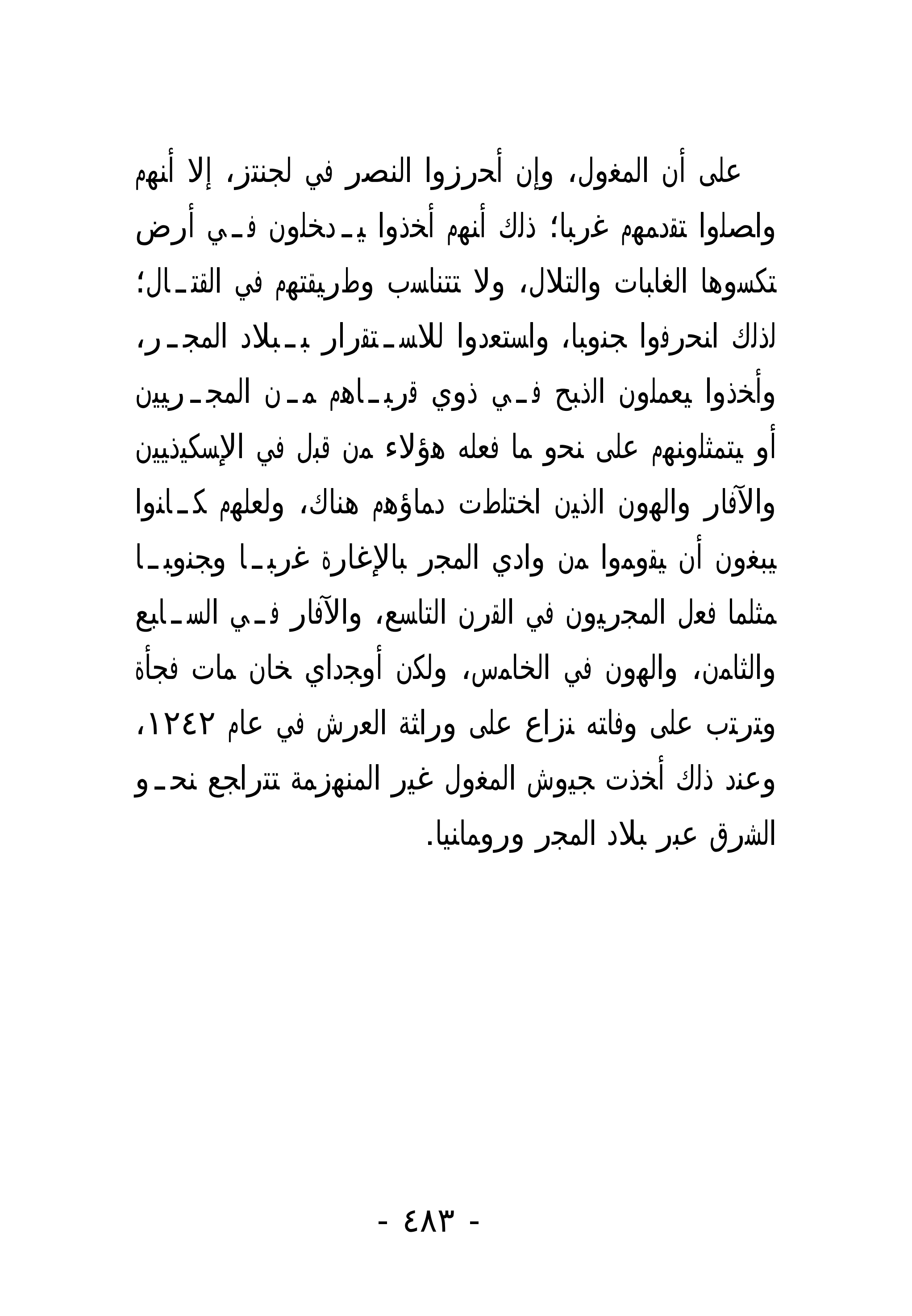
وأسس خلفه أوجادي خان عاصمة دائمة له في "قره قورم" بمنغوليا، وواصل سيرة ذلك الفتح المدهشة، وقد بلغت جيوشه درجة عالية جدا من الكفاية والنظام، وكان معهم اختراع صيني جديد هو البارود، كانوا يستخدمونه في مدافع ميدان صغيرة.

أتم أوجداي فتح إمبراطورية كن، ثم دفع بجيوشه قـدما عبر آسيا إلى الروسيا (١٢٣٥)؛ وهو زحف عظـيم يبعـث على أعظم الدهشة، فدمرت كييف فـي ١٢٤٠، وأصـبحت الروسيا كلها تقريبا تابعة للمغول، وعاث المغول في بولنـدة نهبا وتدميرا، ثم أبادوا جيشًا مختلطًا من البولنديين والألمان في معركة لجنيز بمنطقة سيليزيا الدنيا ١٢٤١، والظاهر أن الإمبراطور فردريك الثاني لم يبذل أي جهد لإيقاف تقدم ذلك السيل، المغولي المنهمر.

يقول بيوري في ملحوظاته على كتاب جيبـون المسـمى اضمحلال الدولـة الرومانيـة وسـقوطها: "إن المـؤرخين الأوروبيين لم يبدأوا إلا في الآونة الأخيـرة فـي إدراك أن الانتصارات التي أحرزها الجيش المغولي باجتياحه بولنـدة واحتلاله بلاد المجر في ربيع ١٢٤١ إنما اكتُسبت بالأعمـال الحربية المتقنة، ولا ترجع إلـى مجـرد التفـوق العـددي الجارف. بيد أن هذه الحقيقة لم تصبح بعـد أمـرا معلومـا للجميع؛ إذ لا يزال منتشرا بين الناس الرأي الشـائع الـذي يمثل التتار في صورة الجيش الوحشي، الذي يجتـرف كـل شيء أمامه بقوة الكثرة العددية وحدها، والذي يجري بخيوله في أرجاء أوروبا الشرقية دون أي خطة حربية، مندفعا على ما يعترضه من عقبات، ومتغلبا عليها بمجرد الوزن العددي.

"وكم كان من المدهش تنفيذ الخطط فـي وقتهـا المحـدد بالضبط، وبكفاية فعالة متقنة، في عمليات حربية تمتـد مـن الفستولا الأدنى إلى ترانسلفانيا. ولقد كانت مثل تلك الحملـة تتجاوز تماما طاقة أي جيش أوروبي في ذلك الزمان، كمـا أنها كانت فوق ما يحلم به خيال أي قائد أوروبي.. لم يكـن في أوربا قائد واحد – وفي مقدمتهم فردريك الثاني – لا يعد غمرا[1] قليل الدربة في الخطـط الحربيـة بالقيـاس إلـى سوبوتاى. ومما هو جدير بالملاحظة أيضا أن المغول أقدموا على تلك المغامرة وهم على تمام المعرفة بمركـز المجـر السياسي، وبالأحوال الدائرة في بولندة؛ ذلك أنهـم حرصـوا مقدما أن يجمعوا المعلومات الكافية بوساطة جهاز جاسوسية جيد التنظيم، وذلك على حين أن المجريين والدول المسيحية الأخرى كانوا كالبرابرة الجهال، لا يكادون يعرفون شيئًا عن أعدائهم".

([1]) الغمر (بكسر الغين) من لم يجرب الأمور من الرجال [المترجم]



على أن المغول، وإن أحرزوا النصر في لجنتز، إلا أنهم واصلوا تقدمهم غربا؛ ذلك أنهم أخذوا يـدخلون فـي أرض تكسوها الغابات والتلال، ولا تتناسب وطريقتهم في القتـال؛ لذلك انحرفوا جنوبا، واستعدوا للاسـتقرار بـبلاد المجـر، وأخذوا يعملون الذبح فـي ذوي قربـاهم مـن المجـريين أو يتمثلونهم على نحو ما فعله هؤلاء من قبل في الإسكيذيين والآفار والهون الذين اختلطت دماؤهم هناك، ولعلهم كـانوا يبغون أن يقوموا من وادي المجر بالإغارة غربـا وجنوبـا مثلما فعل المجريون في القرن التاسع، والآفار فـي السـابع والثامن، والهون في الخامس، ولكن أوجداي خان مات فجأة وترتب على وفاته نزاع على وراثة العرش في عام ١٢٤٢، وعند ذلك أخذت جيوش المغول غير المنهزمة تتراجع نحـو الشرق عبر بلاد المجر ورومانيا.

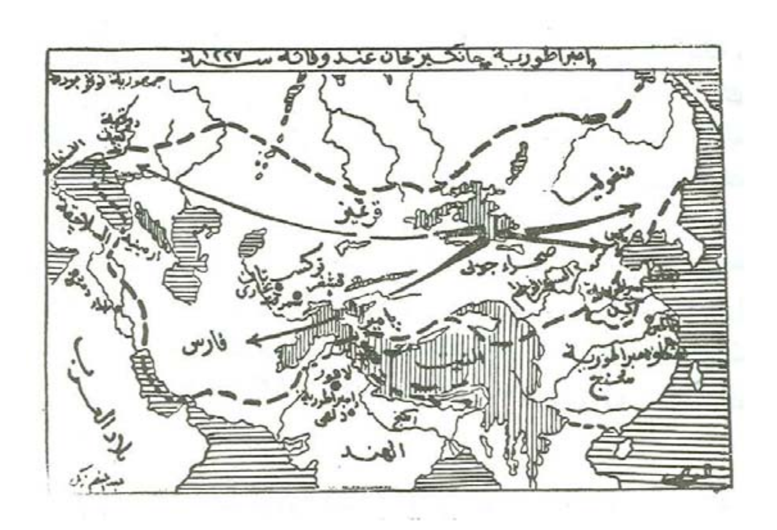
ومن بعدها ركز المغول اهتمامهم على فتوحهم الآسيوية؛ فلم يحل منتصف القرن الثالث عشر حتى فتحوا إمبراطورية صنج، وقد خلفه "مانجوخان" في منصب الخان الأكبـر فـي عام ١٢٥١، وعين أخاه قوبلاي خان حاكما علـى الصـين. وأصبح قوبلاي خان إمبراطور الصين المعترف به في عام ١٢٨٠، وبذلك أسـس أسـرة يـوان التـي دامـت حتـى عام ١٣٦٧. وفي نفس الوقت الذي كانت أسرة صنج تلفـظ فيه آخر أنفاسها في بلاد الصين؛ كان أخ آخر لمـانجو هـو "هولاكو" يفتح فارس وسوريا، وأظهر المغـول فـي ذلـك الزمان عداوة مريرة للإسلام، ولم يكتفوا بتذبيح سكان بغداد عندما استولوا على تلك المدينة؛ بل شرعوا في تدمير نظـام الري السحيق القدم الذي ظل على الدوام يجعـل مـن أرض الجزيرة بلادا رغيدة آهلة بالسكان منذ أيام سومر القديمـة. وقد صارت أرض الجزيرة منذ تلك اللحظة التعسة يبابا مـن الخرائب والأطلال، لا تتسع إلا للعدد القليل من السكان. ولم يدخل المغول أرض مصر قط؛ فإن سلطان مصر هزم جيشًا لهولاكو هزيمة تامة بفلسطين عام ١٢٦٠.

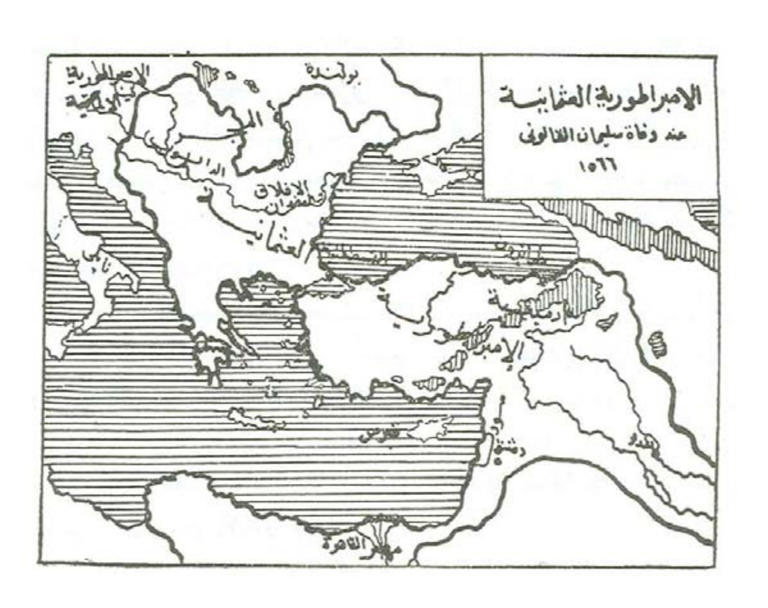
وانحسر سيل النصر المغولي بعد تلك الكارثة، وانقسمت ممتلكات الخان الأعظم بين عدد من الدول المتفرقة الشـمل، فأصبح المغول الشـرقيون بـوذيين كالصـينيين، وأصـبح الغربيون منهم مسلمين، ثم نفض الصينيون عن كواهلهم حكم أسرة يوان في ١٣٦٨، وأقاموا أسرة مـنج القوميـة التـي ازدهرت من عام ١٣٦٨ إلى عام ١٦٤٤. على أن الـروس ظلوا تابعين للجموع المغولية في السهوب الجنوبية الشـرقية حتى عام ١٤٨٠، عندما نبذ غراندوق موسكو ولاءه ووضع أساس الروسيا الحديثة.

وقد انتعشت قوة المغول أمدا وجيزا في القـرن الرابـع عشر في عهد تيمور لنك، وهو من سلالة جنكيز خان، فوطد ملكه بالتركستان الغربية، واتخذ لقب الخـان الأعظـم فـي عام ١٣٦٩، وفتح البلاد الواقعة بين سوريا ودلهي، ولكـن الإمبراطورية التي أسسها انتهت بموته. ومهمـا يكـن مـن شيء، فإن حفيدا لذلك الفاتح تيمور، وهو مغامر اسمه باير؛ استطاع في عام ١٥٠٥ أن يجمع جيشًا مزودا بالمدافع، هبط به على سهول الهند، وما لبث حفيده أكبر (١٥٥٦-١٦٠٥) أن أتم فتوحه، واتخذت هذه الأسرة المغولية دلهي قصبة لها، وحكمت معظم بلاد الهند حتى القرن الثامن عشر.

ومن عواقب الاكتساح المغولي الكبير الأول فـي القـرن الثالث عشر؛ خروج قبيلة معينة من الترك سميت بعد ذلـك باسم الأتراك العثمانيين من موطنها بالتركستان إلـى آسـيا الصغرى. بسط هؤلاء الأتراك سلطانهم ووطدوا أركانه بآسيا الصغرى، ثم عبروا الدردنيل وأغاروا على مقدونيا وبـلاد الصرب وبلغاريا، وانتهى الأمر بأن بقيت القسطنطينية قائمة وحدها كأنها جزيرة في بحر من العثمانيين. وفي عام ١٤٥٣ استولى السلطان العثماني محمد الفاتح على القسطنطينية، بعد أن هاجمها من الجانب الأوروبي بعدد كبير مـن المـدافع. وأحدثت تلك الحادثة هياجا عظيما في أوروبا، وتحدث الناس بحرب صليبية، ولكن عهد الحروب الصليبية كان قد ولى.

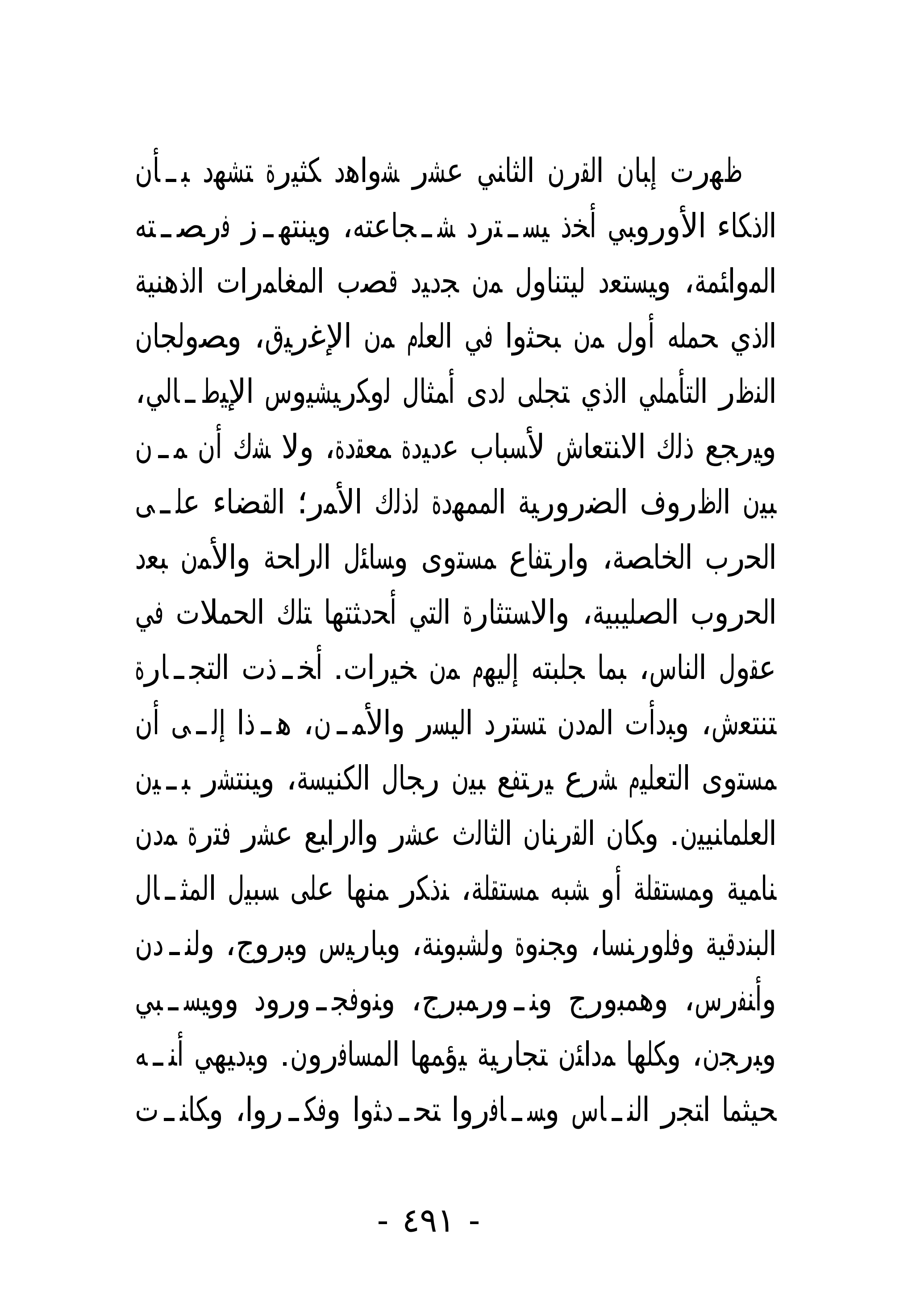
ولم ينقض القرن السادس عشـر حتـى تـم لسـلاطين آل عثمان فتح بغداد، وبلاد المجر، ومصر، ومعظم إفريقيـة الشمالية، كما أن أسطولهم جعلهم سـادة البحـر المتوسـط. وكادوا أن يستولوا على فيينا، كما أنهم فرضوا الجزية علـى الإمبراطور. ولم يكن هناك فـي القـرن الخـامس عشـر إلا شيئان عوضا المسيحية عما أصـابها مـن نقـص فـي الممتلكات، وأول هذين الشـيئين هـو اسـترجاع موسـكو لاستقلالها (١٤٨٠)، وثانيهما استرداد المسـيحيين إسـبانيا رويدا رويدا من يد العـرب. ففـي عـام ١٤٩٢ سـقطت غرناطة، آخر دولة إسلامية في شبه الجزيرة في يد فرديناند ملك آرجونه وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة، ولكـن كبريـاء الترك لم تكسر شوكته إلا في عام ١٥٧١ بعد معركة ليبانتو البحرية التي أعادت ميـاه البحـر المتوسـط إلـى أيـدي المسيحيين.

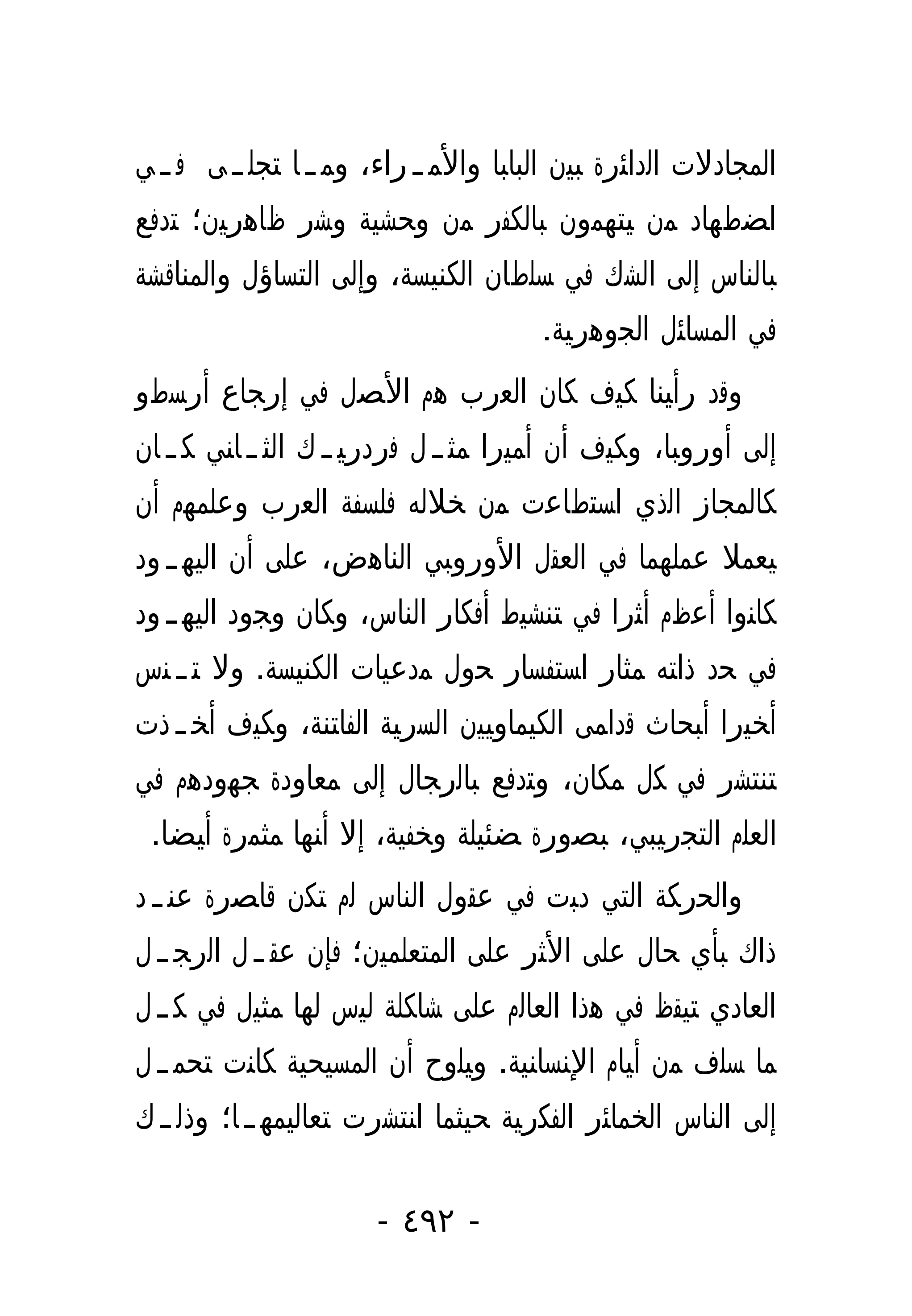

امبراطورية جانكيزخان عند وفاته سنة ١٢٢٧
قرغيز
منغوليا
صحراء جوبى
تركستان
فارس
بامير
لاهور
امبراطورية دلهى
الهند
بلاد العرب


الامبراطورية العثمانية
عند وفاة سليمان القانوني
١٥٦٦
بولندة
الافلاق
قبرص
دمشق
القاهرة

الفصل التاسع والأربعون

النهضة الفكرية للأوروبيين


ظهرت إبان القرن الثاني عشر شواهد كثيرة تشهد بـأن الذكاء الأوروبي أخذ يسـترد شـجاعته، وينتهـز فرصـته المواتمة، ويستعد ليتناول من جديد قصب المغامرات الذهنية الذي حمله أول من بحثوا في العلم من الإغريق، وصولجان النظر التأملي الذي تجلى لدى أمثال لوكريشيوس الإيطـالي، ويرجع ذلك الانتعاش لأسباب عديدة معقدة، ولا شك أن مـن بين الظروف الضرورية الممهدة لذلك الأمر؛ القضاء علـى الحرب الخاصة، وارتفاع مستوى وسائل الراحة والأمن بعد الحروب الصليبية، والاستثارة التي أحدثتها تلك الحملات في عقول الناس، بما جلبته إليهم من خيرات. أخـذت التجـارة تنتعش، وبدأت المدن تسترد اليسر والأمـن، هـذا إلـى أن مستوى التعليم شرع يرتفع بين رجال الكنيسة، وينتشر بـين العلمانيين. وكان القرنان الثالث عشر والرابع عشر فترة مدن نامية ومستقلة أو شبه مستقلة، نذكر منها على سبيل المثـال البندقية وفلورنسا، وجنوة ولشبونة، وباريس وبروج، ولنـدن وأنفرس، وهمبورج ونـورمبرج، ونوفجـورود وويسـبي وبرجن، وكلها مدائن تجارية يؤمها المسافرون. وبديهي أنـه حيثما اتجر النـاس وسـافروا تحـدثوا وفكـروا، وكانـت



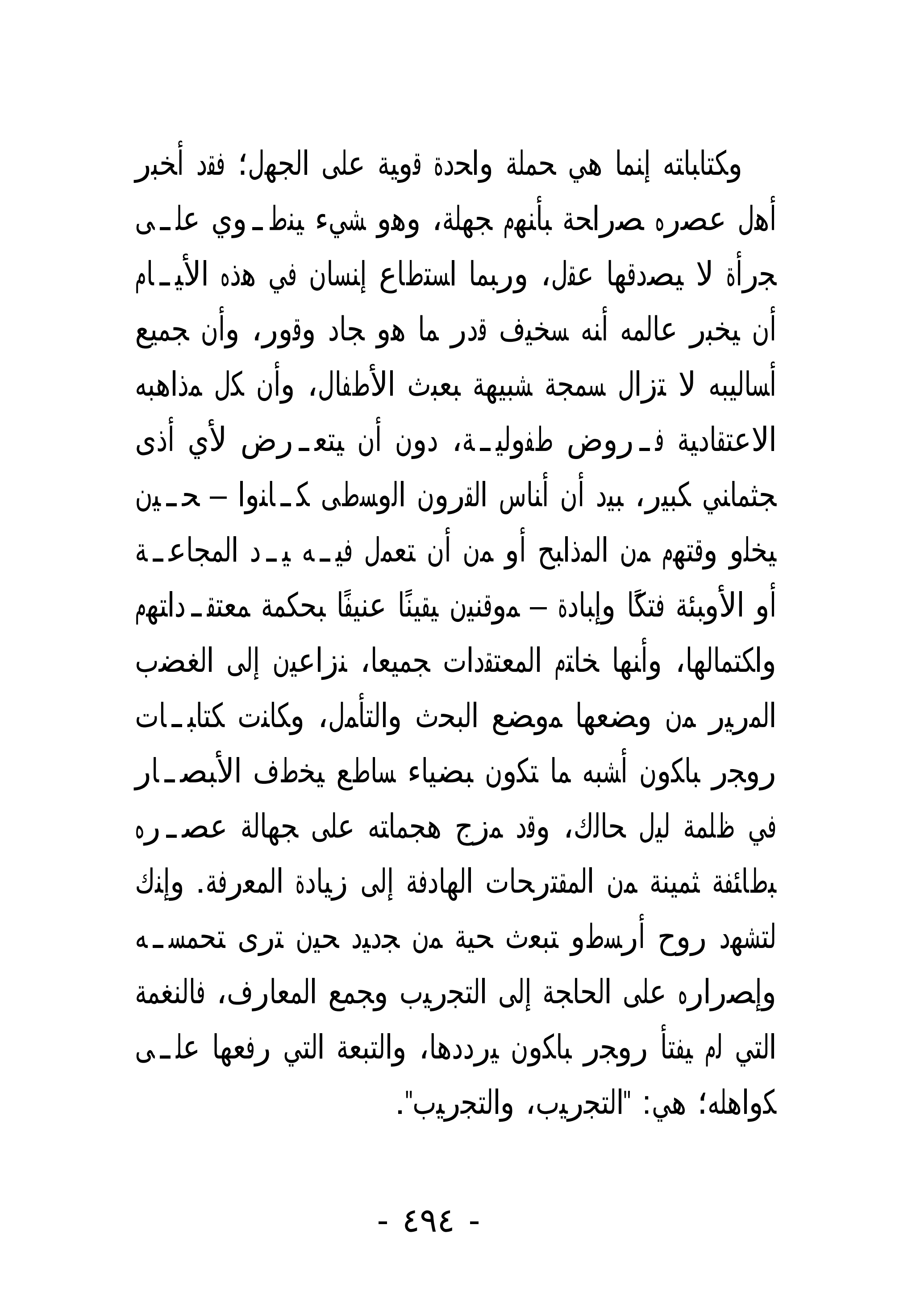
المجادلات الدائرة بين البابا والأمراء، وما تجلى في اضطهاد من يتهمون بالكفر من وحشية وشر ظاهرين؛ تدفع بالناس إلى الشك في سلطان الكنيسة، وإلى التساؤل والمناقشة في المسائل الجوهرية.

وقد رأينا كيف كان العرب هم الأصل في إرجاع أرسطو إلى أوروبا، وكيف أن أميرا مثل فردريك الثاني كان كالمجاز الذي استطاعت من خلاله فلسفة العرب وعلمهم أن يعملا عملهما في العقل الأوروبي الناهض، على أن اليهود كانوا أعظم أثرا في تنشيط أفكار الناس، وكان وجود اليهود في حد ذاته مثار استفسار حول مدعيات الكنيسة. ولا تنس أخيرا أبحاث قدامى الكيماويين السرية الفاتنة، وكيف أخذت تنتشر في كل مكان، وتدفع بالرجال إلى معاودة جهودهم في العلم التجريبي، بصورة ضئيلة وخفية، إلا أنها مثمرة أيضا.

والحركة التي دبت في عقول الناس لم تكن قاصرة عند ذاك بأي حال على الأثر على المتعلمين؛ فإن عقل الرجل العادي تيقظ في هذا العالم على شاكلة ليس لها مثيل في كل ما سلف من أيام الإنسانية. ويلوح أن المسيحية كانت تحمل إلى الناس الخمائر الفكرية حيثما انتشرت تعاليمها؛ وذلك

على الرغم من غباء القسيس وظلم الاضطهاد، فأنشأت علاقة مباشرة بين ضمير الرجل الفرد، وبين رب البر والصـلاح، حتى لقد أصبحت لديه آنذاك إذا لزم الأمر الشـجاعة التـي تقيض له إصدار حكمه الخاص على الأميـر أو الأسـقف، أو العقيدة.

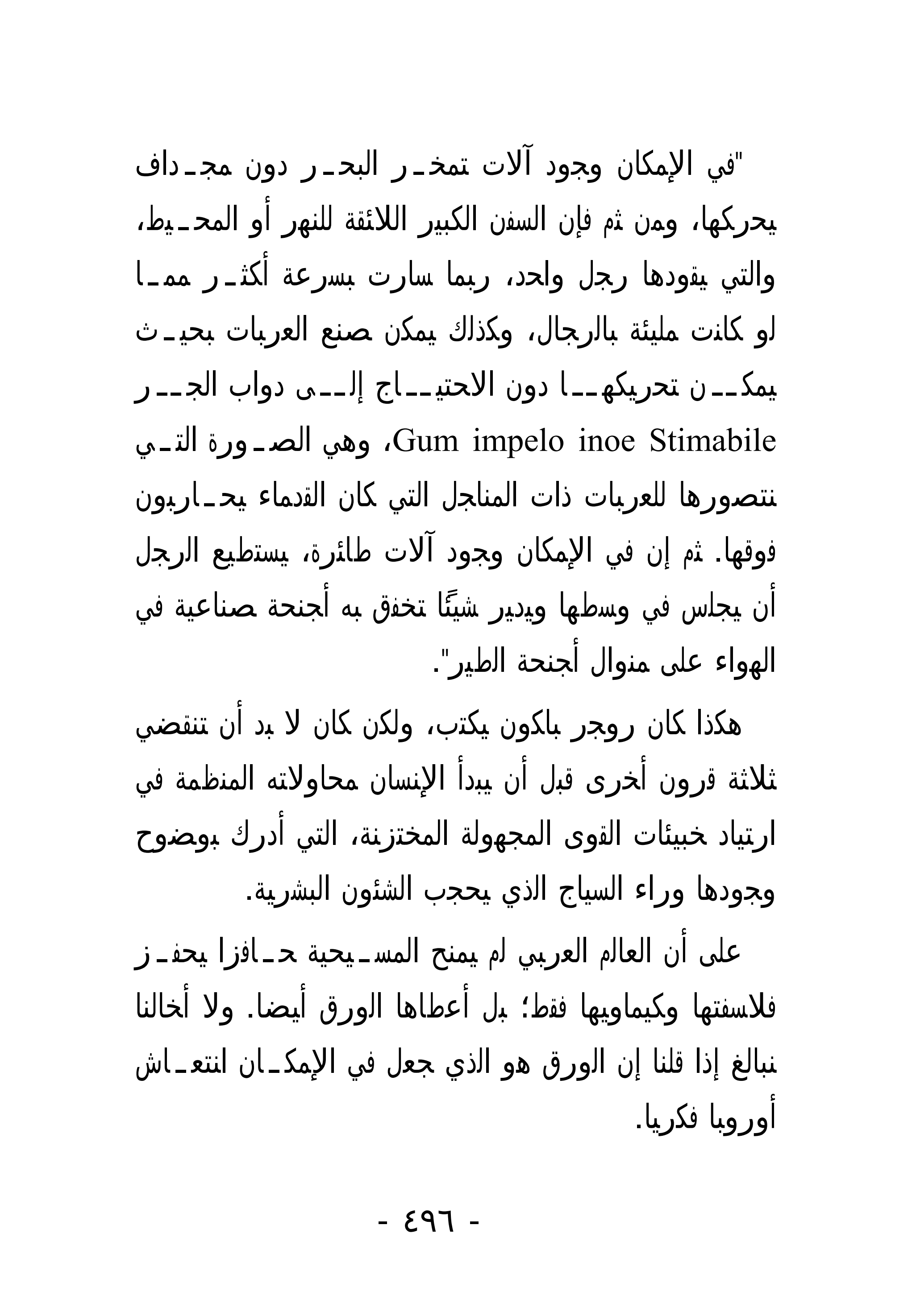
وأخذت رحى المناقشات والأبحاث الفلسفية تدور من جديد في أوروبا منذ زمن بعيد، يرجع إلى القرن الحادي عشـر، كما أن جامعات عظيمة ناهضة أُنشئت في باريس وأكسفورد وبولونيا، وغيرها من المراكز العامة، وهنالك شرع علمـاء القرون الوسطى يثيرون من جديد طائفة من المسائل تتصـل بقيمة الكلمات ومعناها، ويقتلونها بحثًا، وكان هذا تمهيدا لا بد منه للتفكير الصافي في أثناء عصر العلوم الذي جـاء فـي أعقاب ذلك. وهناك عالم يعد وحيد عصره لما هو عليه مـن نبوغ ممتاز؛ هو روجر باكون (من قرابة ١٢١٠ إلى قرابـة ١٢٩٣)، وهو راهب فرنسسكاني من أوكسفورد، يمكـن أن يسمى أبا العلم التجريبي العصري، ولا شك أن اسمه جـدير بأن يمجد ويخلد في كتابنا هذا تمجيدا لا يسبقه فيه إلا أرسطو وحده.



وكتاباته إنما هي حملة واحدة قوية على الجهل؛ فقد أخبر أهل عصره صراحة بأنهم جهلة، وهو شيء ينطـوي علـى جرأة لا يصدقها عقل، وربما استطاع إنسان في هذه الأيـام أن يخبر عالمه أنه سخيف قدر ما هو جاد ووقور، وأن جميع أساليبه لا تزال سمجة شبيهة بعبث الأطفال، وأن كل مذاهبه الاعتقادية فـروض طفوليـة، دون أن يتعـرض لأي أذى جثماني كبير، بيد أن أناس القرون الوسطى كـانوا – حـين يخلو وقتهم من المذابح أو من أن تعمل فيـه يـد المجاعـة أو الأوبئة فتكًا وإبادة – موقنين يقينًا عنيفًا بحكمة معتقـداتهم واكتمالها، وأنها خاتم المعتقدات جميعا، نزاعين إلى الغضب المرير من وضعها موضع البحث والتأمل، وكانت كتابـات روجر باكون أشبه ما تكون بضياء ساطع يخطف الأبصـار في ظلمة ليل حالك، وقد مزج هجماته على جهالة عصـره بطائفة ثمينة من المقترحات الهادفة إلى زيادة المعرفة. وإنك لتشهد روح أرسطو تبعث حية من جديد حين ترى تحمسـه وإصراره على الحاجة إلى التجريب وجمع المعارف، فالنغمة التي لم يفتأ روجر باكون يرددها، والتبعة التي رفعها علـى كواهله؛ هي: "التجريب، والتجريب".

بيد أن روجر باكون شنع على أرسطو، ولم يسـلك ذلـك المسلك مع أرسطو إلا لأن الناس كانوا بدلاً من أن يواجهـوا الحقائق بشجاعة، يقبعون في بيوتهم مكبين علـى الترجمـات اللاتينية الرديئة، التي كانت آنذاك كل ما يسـتطاع الحصـول عليه من مؤلفات الفيلسوف. كتب في لهجته المتطرفة يقول: "لو تركت لي الحرية لأحرقت كتب أرسطو جميعـا؛ وذلـك لأن دراستها لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الضياع وإلى الخطأ وزيادة الجهل". وهو شعور ربما ردده أرسطو نفسه لو قدر له أن يعود إلى عالم لم تكن كتبه تقرأ فيه، بل تعبد عبادة، مع أنها مدونـة في تلك الترجمات البغيضة كما أوضح ذلك روجر باكون.

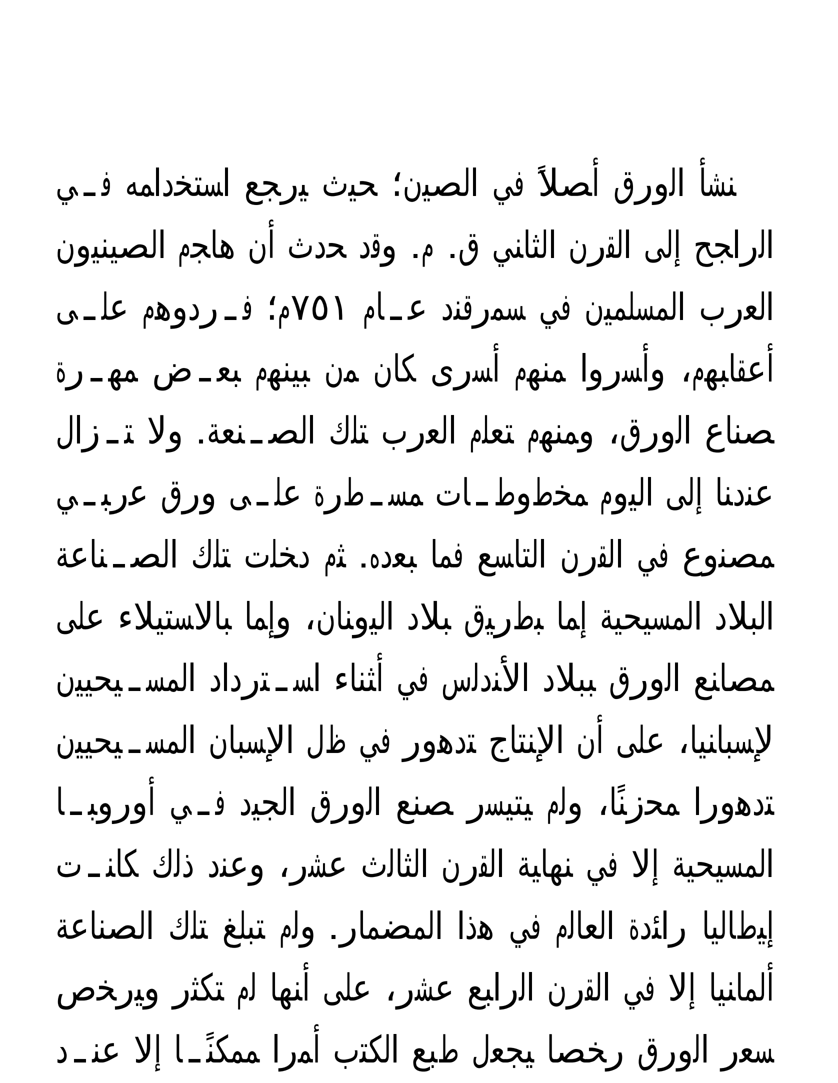
وكان روجر باكون يهيب بالبشرية بمـلء فيـه فـي كـل صفحات كتبه، في شيء من التقية دعت إليه ضرورة اصطناع التوفيق بين كتاباته والعقيدة الصحيحة السليمة خشية السجن، أو ما هو أسوأ من السجن. "كفـوا عـن أن تحكمكـم المـذاهب الاعتقادية والسلطات المتحكمة، وانظروا إلى عالمكم!". ولطالما شهر باكون بمصادر أربعة للجهل هي: احترام ذوي السلطان، والعرف، وإحساس الجمهور بجهله، وميولنا غير القابلة للـتعلم مع اتصافها بالغرور والكبرياء: "فلو لم تتغلبوا إلا علـى هـذه وحسب، لانفتحت أمامكم أبواب عالم من القوة".



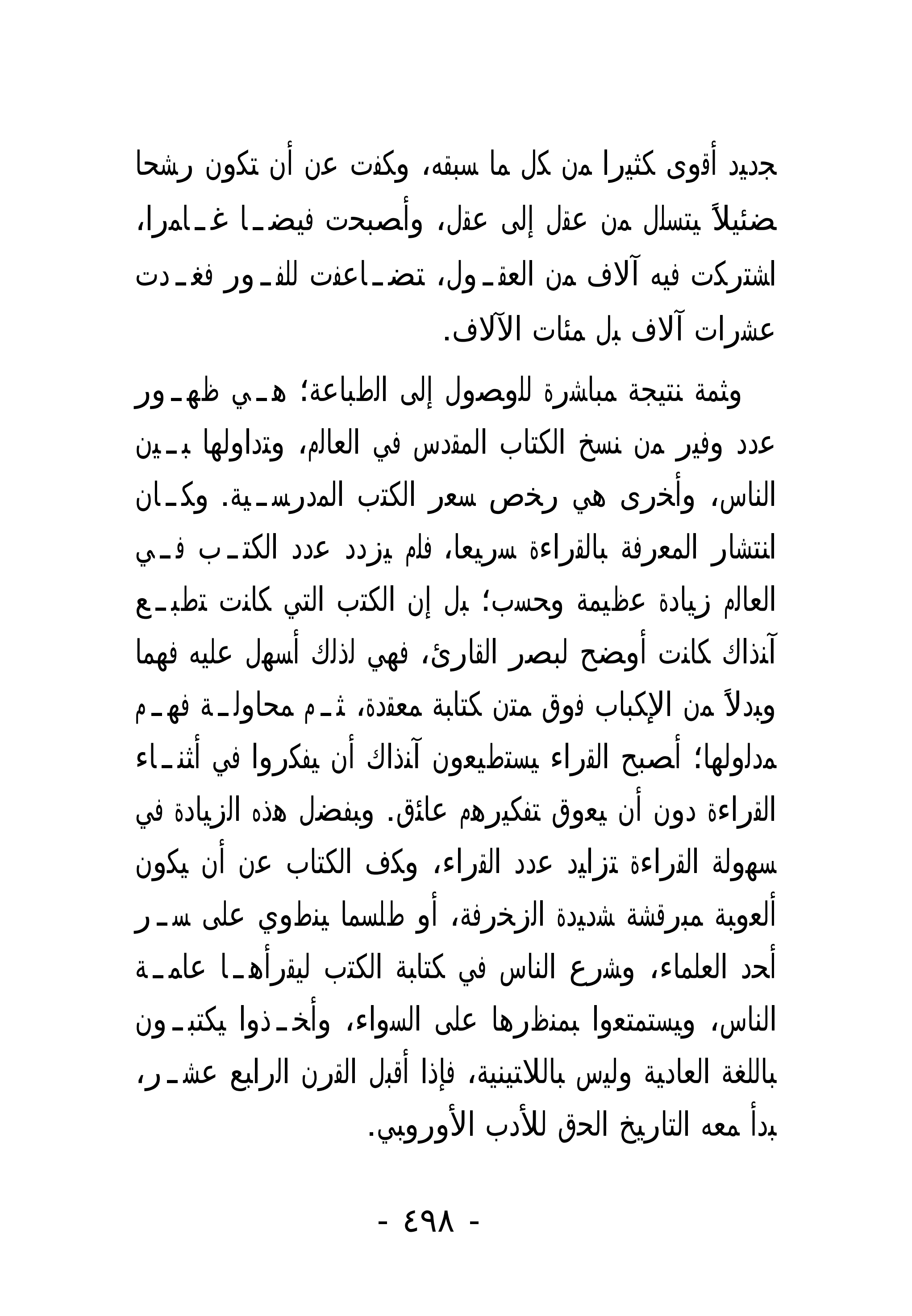
"في الإمكان وجود آلات تمخـر البحـر دون مجـداف يحركها، ومن ثم فإن السفن الكبير اللائقة للنهر أو المحـيط، والتي يقودها رجل واحد، ربما سارت بسرعة أكثـر ممـا لو كانت مليئة بالرجال، وكذلك يمكن صنع العربات بحيـث يمكـــن تحريكهـــا دون الاحتيـــاج إلـــى دواب الجـــر Gum impelo inoe Stimabile، وهي الصـورة التـي نتصورها للعربات ذات المناجل التي كان القدماء يحـاربون فوقها. ثم إن في الإمكان وجود آلات طائرة، يستطيع الرجل أن يجلس في وسطها ويدير شيئًا تخفق به أجنحة صناعية في الهواء على منوال أجنحة الطير".

هكذا كان روجر باكون يكتب، ولكن كان لا بد أن تنقضي ثلاثة قرون أخرى قبل أن يبدأ الإنسان محاولاته المنظمة في ارتياد خبيئات القوى المجهولة المختزنة، التي أدرك بوضوح وجودها وراء السياج الذي يحجب الشئون البشرية.

على أن العالم العربي لم يمنح المسـيحية حـافزا يحفـز فلاسفتها وكيماوييها فقط؛ بل أعطاها الورق أيضا. ولا أخالنا نبالغ إذا قلنا إن الورق هو الذي جعل في الإمكـان انتعـاش أوروبا فكريا.



نشأ الورق أصلاً في الصين؛ حيث يرجع استخدامه فـي الراجح إلى القرن الثاني ق. م. وقد حدث أن هاجم الصينيون العرب المسلمين في سمرقند عـام ٧٥١م؛ فـردوهم علـى أعقابهم، وأسروا منهم أسرى كان من بينهم بعـض مهـرة صناع الورق، ومنهم تعلم العرب تلك الصـنعة. ولا تـزال عندنا إلى اليوم مخطوطـات مسـطرة علـى ورق عربـي مصنوع في القرن التاسع فما بعده. ثم دخلت تلك الصـناعة البلاد المسيحية إما بطريق بلاد اليونان، وإما بالاستيلاء على مصانع الورق ببلاد الأندلس في أثناء اسـترداد المسـيحيين لإسبانيا، على أن الإنتاج تدهور في ظل الإسبان المسـيحيين تدهورا محزنًا، ولم يتيسر صنع الورق الجيد فـي أوروبـا المسيحية إلا في نهاية القرن الثالث عشر، وعند ذلك كانـت إيطاليا رائدة العالم في هذا المضمار. ولم تبلغ تلك الصناعة ألمانيا إلا في القرن الرابع عشر، على أنها لم تكثر ويرخص سعر الورق رخصا يجعل طبع الكتب أمرا ممكنًـا إلا عنـد نهاية ذلك القرن. وعند ذلك جاءت الطباعة كنتيجة طبيعيـة لا بد منها؛ ذلك أن الطباعة أبسـط الاختراعـات وأشـدها ظهورا للعيان، وعند ذلك دخلت حياة العالم العقلية في طور



جديد أقوى كثيرا من كل ما سبقه، وكفت عن أن تكون رشحا ضئيلاً يتسلل من عقل إلى عقل، وأصبحت فيضـا غـامرا، اشتركت فيه آلاف من العقـول، تضـاعفت للفـور فغـدت عشرات آلاف بل مئات الآلاف.

وثمة نتيجة مباشرة للوصول إلى الطباعة؛ هـي ظهـور عدد وفير من نسخ الكتاب المقدس في العالم، وتداولها بـين الناس، وأخرى هي رخص سعر الكتب المدرسـية. وكـان انتشار المعرفة بالقراءة سريعا، فلم يزدد عدد الكتـب فـي العالم زيادة عظيمة وحسب؛ بل إن الكتب التي كانت تطبـع آنذاك كانت أوضح لبصر القارئ، فهي لذلك أسهل عليه فهما وبدلاً من الإكباب فوق متن كتابة معقدة، ثـم محاولـة فهـم مدلولها؛ أصبح القراء يستطيعون آنذاك أن يفكروا في أثنـاء القراءة دون أن يعوق تفكيرهم عائق. وبفضل هذه الزيادة في سهولة القراءة تزايد عدد القراء، وكف الكتاب عن أن يكون ألعوبة مبرقشة شديدة الزخرفة، أو طلسما ينطوي على سـر أحد العلماء، وشرع الناس في كتابة الكتب ليقرأهـا عامـة الناس، ويستمتعوا بمنظرها على السواء، وأخـذوا يكتبـون باللغة العادية وليس باللاتينية، فإذا أقبل القرن الرابع عشـر، بدأ معه التاريخ الحق للأدب الأوروبي.

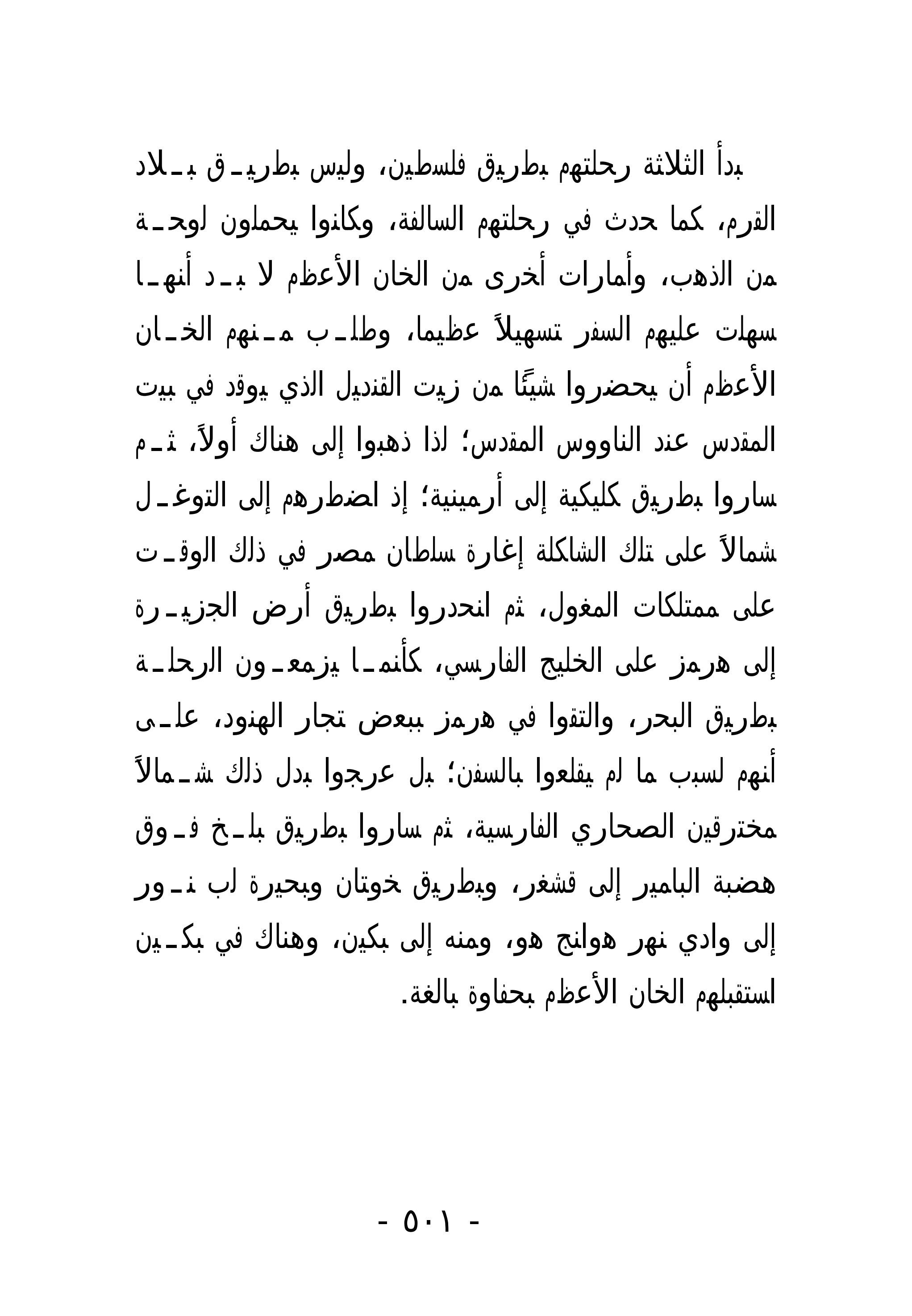
ظللنا حتى الآن نعالج نصـيب العـرب فـي النهضـة الأوروبية؛ فلنتجه الآن إلى تأثير الفتـوح المغوليـة، فإنهـا أثارت الخيال الجغرافي لدى الأوروبيين إثارة هائلة؛ إذ ظلت آسيا كلها وأوروبا الغربية تنعمان ردحا من الزمان في ظـل الخان الأعظم باتصال حر مطلق؛ فانفتحت كل الطرق إلـى حين بين تلك البلاد جميعا، وحضر ممثلو الشعوب جميعا إلى بلاط الخان في قره قورم، وأزيلت إلى حد ما جميع الحواجز التي فصلت بين أوروبا وآسيا بسبب الخلاف بين المسـيحية والإسلام، وعلقت البابوية آمالاً كبارا على إدخال المغول في المسيحية؛ وذلك لأن ديانتهم الوحيدة كانت حتى ذلك الحـين هي الشامانية(1)، وهي ضرب بدائي من الوثنية. فاجتمع في بلاط المغول مبعوثو البابا، وكهان بوذيون من الهند وفارس. وما أكثر ما يحدثنا التاريخ عن حملات المغول ومـذابحهم، دون أن نسمع القدر الكافي من الحديث عن حبهم للاستطلاع ورغبتهم في العلم.

---

(1) الشامانية: ديانة شمال آسيا وتقوم بوجـه خـاص علـى السـحر والشعوذة. [المترجم]

وقد كان فضل المغول جسيما، وأثرهم في تاريخ العـالم عظيما، لا بوصفهم شعبا ذا أصالة واستحداث؛ بـل كنقلـة للمعرفة والأساليب. وكل ما أمكننا أن نعلمه عن شخصـيات جانكيز أوقوبلاي (الرومانسية) المبهمة، يجنح إلـى تقويـة الرأي القائل بأن هؤلاء الرجال كانوا ملوكًا لا يقلون في الفهم والابتكار عن أي من الإسكندر الأكبر، ذلك الإنسان الزاهي الوهاج والأناني أيضا، أو شرلمان ذلـك اللاهـوتي الأمـي الناشط الذي ابتعث أشباح الماضي السياسية.

ومن أمتع هؤلاء الزوار للبلاط المغولي رجل من البندقية اسمه ماركو بولو، دون قصته فيما بعد في كتاب، ذهب إلى الصين حوالي عام ١٢٧٢ مع أبيه وعمه، وكانا قد قاما بتلك الرحلة مرة قبل ذلك، وكان تأثير هذين الرجلين فـي نفـس الخان الأعظم عظيما، وهما أول من شهد من أبناء الشعوب اللاتينية، فأعادهما إلى بلادهمـا التماسـا للبحـث، وطلـب المعلمين والعلماء الذين يستطيعون تفسير المسيحية له، ومن أجل مسائل أوروبية منوعة أثارت حبه للاستطلاع، فكانـت زيارتهما بصحبة ماركو هي الثانية.



بدأ الثلاثة رحلتهم بطريق فلسطين، وليس بطريق بلاد القرم، كما حدث في رحلتهم السالفة، وكانوا يحملون لوحة من الذهب، وأمارات أخرى من الخان الأعظم لا بد أنها سهلت عليهم السفر تسهيلاً عظيما، وطلب منهم الخان الأعظم أن يحضروا شيئًا من زيت القنديل الذي يوقد في بيت المقدس عند الناووس المقدس؛ لذا ذهبوا إلى هناك أولاً، ثم ساروا بطريق كليكية إلى أرمينية؛ إذ اضطرهم إلى التوغل شمالاً على تلك الشاكلة إغارة سلطان مصر في ذلك الوقت على ممتلكات المغول، ثم انحدروا بطريق أرض الجزيرة إلى هرمز على الخليج الفارسي، كأنما يزمعون الرحلة بطريق البحر، والتقوا في هرمز ببعض تجار الهنود، على أنهم لسبب ما لم يقلعوا بالسفن؛ بل عرجوا بدل ذلك شمالاً مخترقين الصحاري الفارسية، ثم ساروا بطريق بلخ فوق هضبة البامير إلى قشغر، وبطريق خوتان وبحيرة لب نور إلى وادي نهر هوانج هو، ومنه إلى بكين، وهناك في بكين استقبلهم الخان الأعظم بحفاوة بالغة.

وسر قوبلاي بوجه خاص من ماركو، الذي كان صـغيرا ذكي الفؤاد، ومن الجلي أنه كان يتقن اللغة التتاريـة تمامـا، فعين في أحد المناصب الحكومية، وأُرسل في مهام كثيـرة، وبخاصة في جنوب الصين الغربي، والقصة التي يرويها عن وجود متسعات مترامية من الأراضي البسامة الرغيدة، يقول فيها: "توجد دور الضيافة الممتازة المعدة للمسـافرين علـى طول الطريق"، ثم يقول: "وعرائش كروم بديعـة، وحـدائق وحقول". ويتحدث عن "الأديرة الكثيرة" والرهبان البـوذيين، وصناع الأقمشة من الحرير والذهب، وأنـواع كثيـرة مـن قماش التفتاه الممتاز، وسلسلة متصلة الحلقات مـن المـدن والبلاد، إلى غير ذلك مما أثار في البداية عاصفة من التشكك في أوروبا، ثم عاد فألهب خيال أوروبا بأجمعها، وتحدث عن بورما وعن جيوشها الكبيرة بما حوت من مئـات الأفيـال، وكيف هزم ناشبة[1] المغول تلك الحيوانات، كما ذكـر فـتح المغول لبيجو (Pegu)، وتحدث عن اليابان وبالغ كثيرا فـي مقدار ما في تلك البلاد من الذهب. وظـل مـاركو ثـلاث

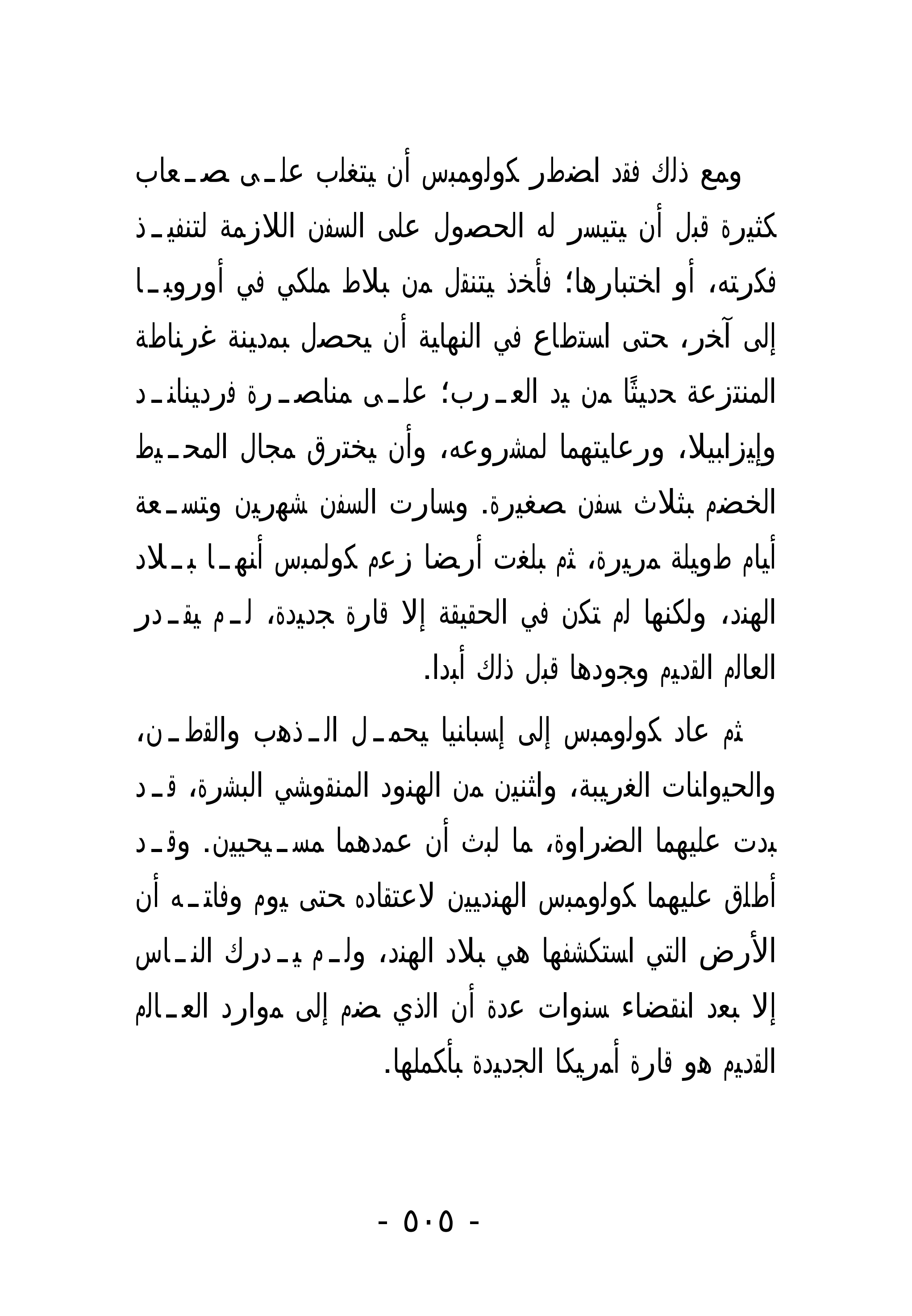
([1]) الناشب: صاحب النشاب؛ أي السهام والرامي بها، والجمع ناشـبة. [المترجم]

سنوات حاكما على مدينة يانج تشو، ولعله – كأجنبي - لـم يلفت أنظار الأهالي الصينيين أكثر من أي تتري آخر، ولعله أُرسل كذلك في بعثة إلى الهند. والسجلات الصـينية تـذكر شخصا اسمه بولو ألحـق بـالمجلس الإمبراطـوري فـي عام ١٢٧٧، وهو تأكيد ثمين جدا لما تنطوي عليه روايـة بولو من مسحة عامة من الصدق.

وأثر نشر رحلات ماركو بولو تأثيرا عميقًا فـي الخيـال الأوروبي، فإن الأدب الأوروبي في القرن الخامس عشـر، وبخاصة "الرومانس" الأوروبي يتردد فيه صـدى الأسـماء المذكورة في قصة ماركو بولو؛ مثل كاثاي (شمال الصين)، وكامبولاك (بكين)، وما شابههما.

وبعد ذلك بقرنين اطلع على "رحلات ماركو بولو" بحـار معين من جنوة؛ هو كريستوفر كولومبس، الذي تصور خياله الألمعي فكرة الإبحار غربا إلى بلاد الصين حـول العـالم. وشاهد ذلك أنه توجد بمدينة أشبيلية نسخة من "رحلات بولو" على هوامشها بعض ملحوظات بخـط كولـومبس. وهنـاك أسباب متعددة دعت الجنوي إلى اتخاذ تلك الوجهة؛ ذلـك أن القسطنطينية ظلت حتى سقوطها بيد الأتراك في عام ١٤٥٣

سوقًا محايدا للتجارة بين العالم الغربي وبلاد الشرق، وكـان الجنويون يتاجرون فيها بحرية تامة، ولكن البنادقة اللاتينيين منافسي جنوة الألداء كانوا حلفاء الأتراك وأعـوانهم علـى اليونانيين (الروم)، فلما احتل الترك المدينة لم يعد للتجـارة الجنوية مجال بها، وفي تلك الآونة كان الاكتشاف القديم الذي نسيه الناس من زمن بعيد، والقائل بكروية الأرض قد أخـذ يعود بالتدريج إلى مكانته الأولى من عقول الناس؛ لذا كانت فكرة الذهاب إلى الصين بطريق الغرب فكرة واضحة للعيان إلى حد ما، وكان يشجع على القيام بها أمران؛ أولهما ظهور البوصلة البحرية التي اخترعت في تلك الأثنـاء، وبفضـلها لم يعد الناس تحت رحمة ليل صافي السماء بـادي النجـوم لتحديد الاتجاه الذي يبحرون إليـه، وثانيهمـا أن النورمـان والقطلونيين والجنويين والبرتغاليين؛ انطلقوا قبل ذلـك فـي عرض المحيط الأطلسي، حتى بلغوا جزائر الكناري وجزائر ماديرا والأزورس.



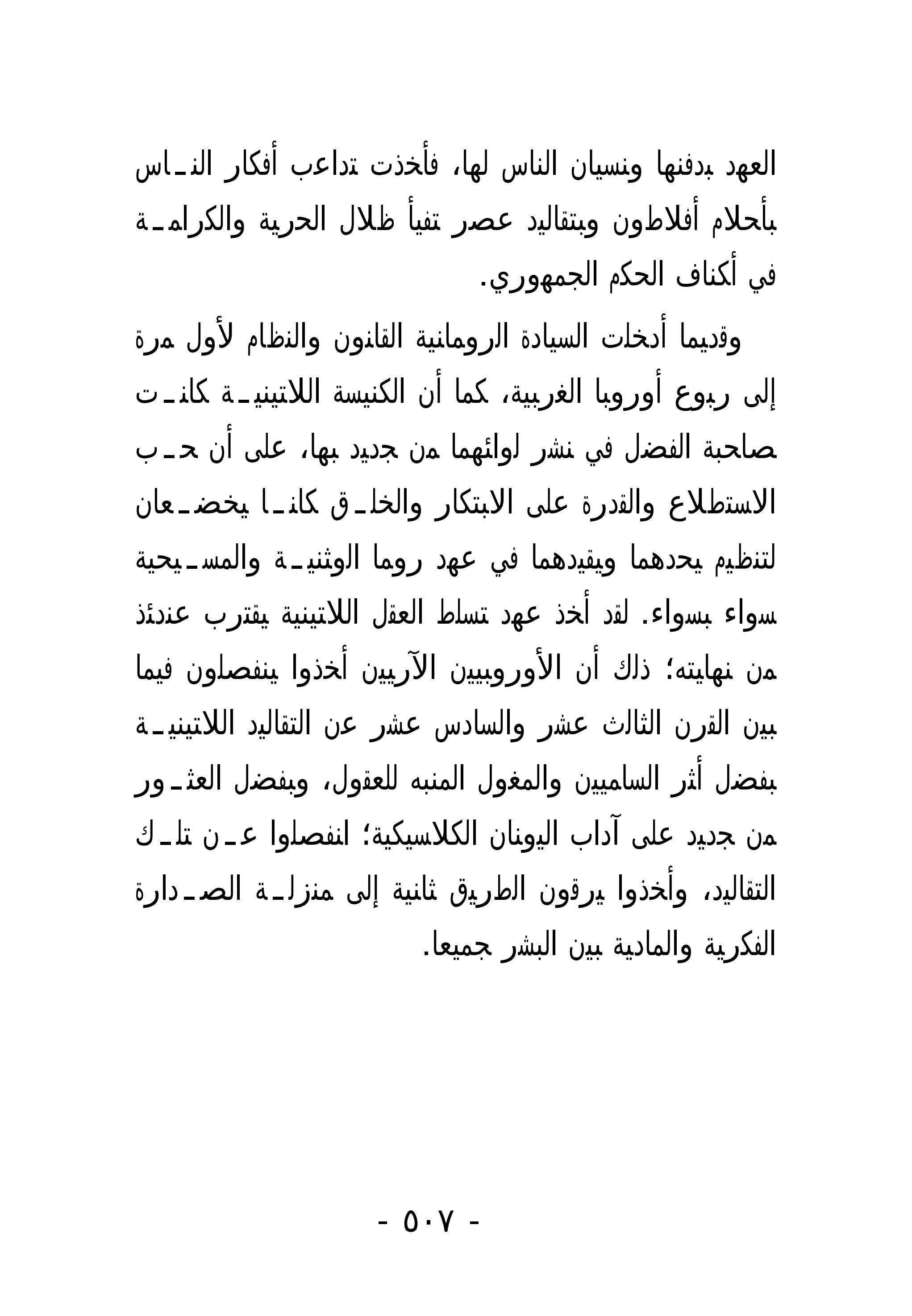
ومع ذلك فقد اضطر كولومبس أن يتغلب على صعاب كثيرة قبل أن يتيسر له الحصول على السفن اللازمة لتنفيذ فكرته، أو اختبارها؛ فأخذ يتنقل من بلاط ملكي في أوروبا إلى آخر، حتى استطاع في النهاية أن يحصل بمدينة غرناطة المنتزعة حديثًا من يد العرب؛ على مناصرة فرديناند وإيزابيلا، ورعايتهما لمشروعه، وأن يخترق مجال المحيط الخضم بثلاث سفن صغيرة. وسارت السفن شهرين وتسعة أيام طويلة مريرة، ثم بلغت أرضا زعم كولمبس أنها بلاد الهند، ولكنها لم تكن في الحقيقة إلا قارة جديدة، لم يقدر العالم القديم وجودها قبل ذلك أبدا.

ثم عاد كولومبس إلى إسبانيا يحمل الذهب والقطن، والحيوانات الغريبة، واثنين من الهنود المنقوشي البشرة، قد بدت عليهما الضراوة، ما لبث أن عمدهما مسيحيين. وقد أطلق عليهما كولومبس الهنديين لاعتقاده حتى يوم وفاته أن الأرض التي استكشفها هي بلاد الهند، ولم يدرك الناس إلا بعد انقضاء سنوات عدة أن الذي ضم إلى موارد العالم القديم هو قارة أمريكا الجديدة بأكملها.

وكان للنجاح الذي لقيه كولـومبس فضـل إثـارة روح المغامرة البحرية إلى حد هائـل، فـدار البرتغـاليون فـي عام ١٤٩٧ حول قارة إفريقية إلى بلاد الهند، ولم تحل سـنة ١٥١٥ حتى كانت للبرتغاليين سفن عند جزيرة جاوة.

وفي عام ١٥١٩ أقلع ماجلان (وهو بحار برتغالي يعمـل في خدمة الإسبان) من مدينة إشبيلية بخمس سفن اتجه بهـا غربا، لم تعد منها إلا واحدة هي فيكتوريا، التي دخلت النهر حتى بلغت إشبيلية في عام ١٥٢٢، وهي أول سـفينة دارت حول العالم، وكان عليها واحد وثلاثون بحارا، هـم البقيـة الباقية من مائتين وثمانين، بدأت بهم الرحلة. أما ماجلان فإنه قُتل بجزائر الفلبين.

لقد انبجست على العقل الأوروبي أشياء كثيرة ضـخمة، منها الكتاب الورق المطبوع، وأدرك الناس من جديد أن هذا العالم المستدير إنما هو شيء في متناول اليد تماما، وانبجست أيضا صورة جديدة لأقاليم غريبة، وحيوانات ونباتات غريبة، وعادات عجيبة، ومستكشفات تمت وراء البحار، وفي أطباق السماء، وفي أساليب الحياة وموادها؛ فأقبلت العقول بسـرعة على دراسة الآداب الكلاسيكية اليونانية وطبعها بعد أن طال

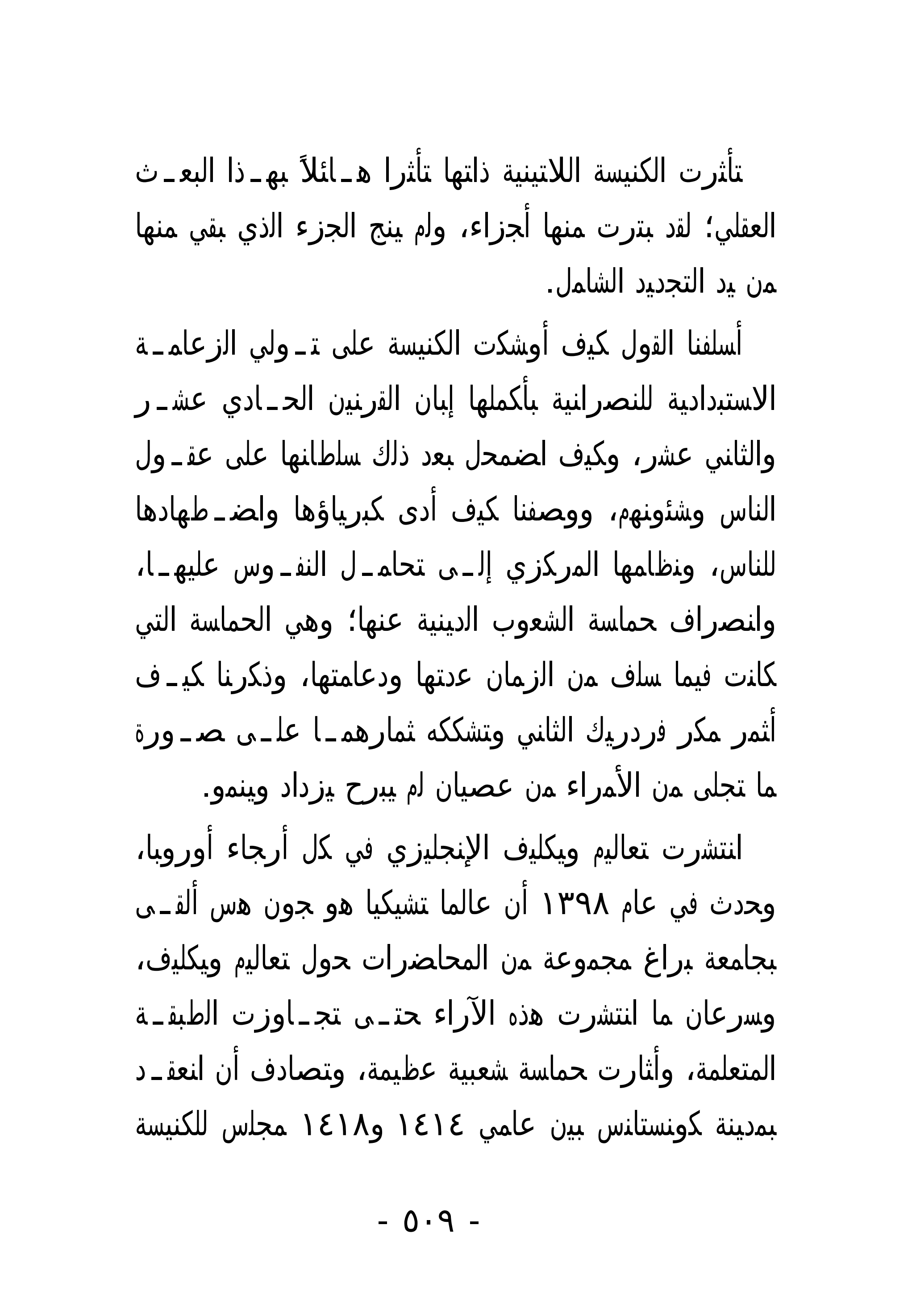


العهد بدفنها ونسيان الناس لها، فأخذت تداعب أفكار النـاس بأحلام أفلاطون وبتقاليد عصر تفيأ ظلال الحرية والكرامـة في أكناف الحكم الجمهوري.

وقديما أدخلت السيادة الرومانية القانون والنظام لأول مرة إلى ربوع أوروبا الغربية، كما أن الكنيسة اللاتينيـة كانـت صاحبة الفضل في نشر لوائهما من جديد بها، على أن حـب الاستطلاع والقدرة على الابتكار والخلـق كانـا يخضـعان لتنظيم يحدهما ويقيدهما في عهد روما الوثنيـة والمسـيحية سواء بسواء. لقد أخذ عهد تسلط العقل اللاتينية يقترب عندئذ من نهايته؛ ذلك أن الأوروبيين الآريين أخذوا ينفصلون فيما بين القرن الثالث عشر والسادس عشر عن التقاليد اللاتينيـة بفضل أثر الساميين والمغول المنبه للعقول، وبفضل العثـور من جديد على آداب اليونان الكلاسيكية؛ انفصلوا عـن تلـك التقاليد، وأخذوا يرقون الطريق ثانية إلى منزلـة الصـدارة الفكرية والمادية بين البشر جميعا.

الفصل الخمسون

إصلاح الكنيسة اللاتينية



تأثرت الكنيسة اللاتينية ذاتها تأثرا هـائلاً بهـذا البعـث العقلي؛ لقد بترت منها أجزاء، ولم ينج الجزء الذي بقي منها من يد التجديد الشامل.

أسلفنا القول كيف أوشكت الكنيسة على تـولي الزعامـة الاستبدادية للنصرانية بأكملها إبان القرنين الحـادي عشـر والثاني عشر، وكيف اضمحل بعد ذلك سلطانها على عقـول الناس وشئونهم، ووصفنا كيف أدى كبرياؤها واضـطهادها للناس، ونظامها المركزي إلـى تحامـل النفـوس عليهـا، وانصراف حماسة الشعوب الدينية عنها؛ وهي الحماسة التي كانت فيما سلف من الزمان عدتها ودعامتها، وذكرنا كيـف أثمر مكر فردريك الثاني وتشككه ثمارهمـا علـى صـورة ما تجلى من الأمراء من عصيان لم يبرح يزداد وينمو.

انتشرت تعاليم ويكليف الإنجليزي في كل أرجاء أوروبا، وحدث في عام ١٣٩٨ أن عالما تشيكيا هو جون هس ألقـى بجامعة براغ مجموعة من المحاضرات حول تعاليم ويكليف، وسرعان ما انتشرت هذه الآراء حتـى تجـاوزت الطبقـة المتعلمة، وأثارت حماسة شعبية عظيمة، وتصادف أن انعقـد بمدينة كونستانس بين عامي ١٤١٤ و١٤١٨ مجلس للكنيسة

بكامل هيئتها ليفصل في الصدع الأعظم، ودعي هس للمثول أمام ذلك المجلس بعد أن تلقى وعدا من الإمبراطور بالأمان في الذهاب والعودة، ولكن قُبض عليه وحوكم بتهمة الإلحاد، وأُحرق حيا (١٤١٥)، وبدلاً من أن يؤدي ذلك التصرف إلى تهدئة الشعب البوهيمي، إذا به يفضي إلى تمرد أتباع هـس بتلك البلاد، وإلى نشوب أول حرب من سلسلة متلاحقة مـن الحروب الدينية، كانت فاتحة تمزق عالم النصرانية اللاتينية. وعند ذلك دعا البابا مارتن الخامس إلى حرب صليبية لقمـع ذلك العصيان، وذلك البابا هو الذي انتُخب خاصـة بمجلـس كونستانس ليكون رئيسا للمسيحية يوم أُعيد توحيدها.

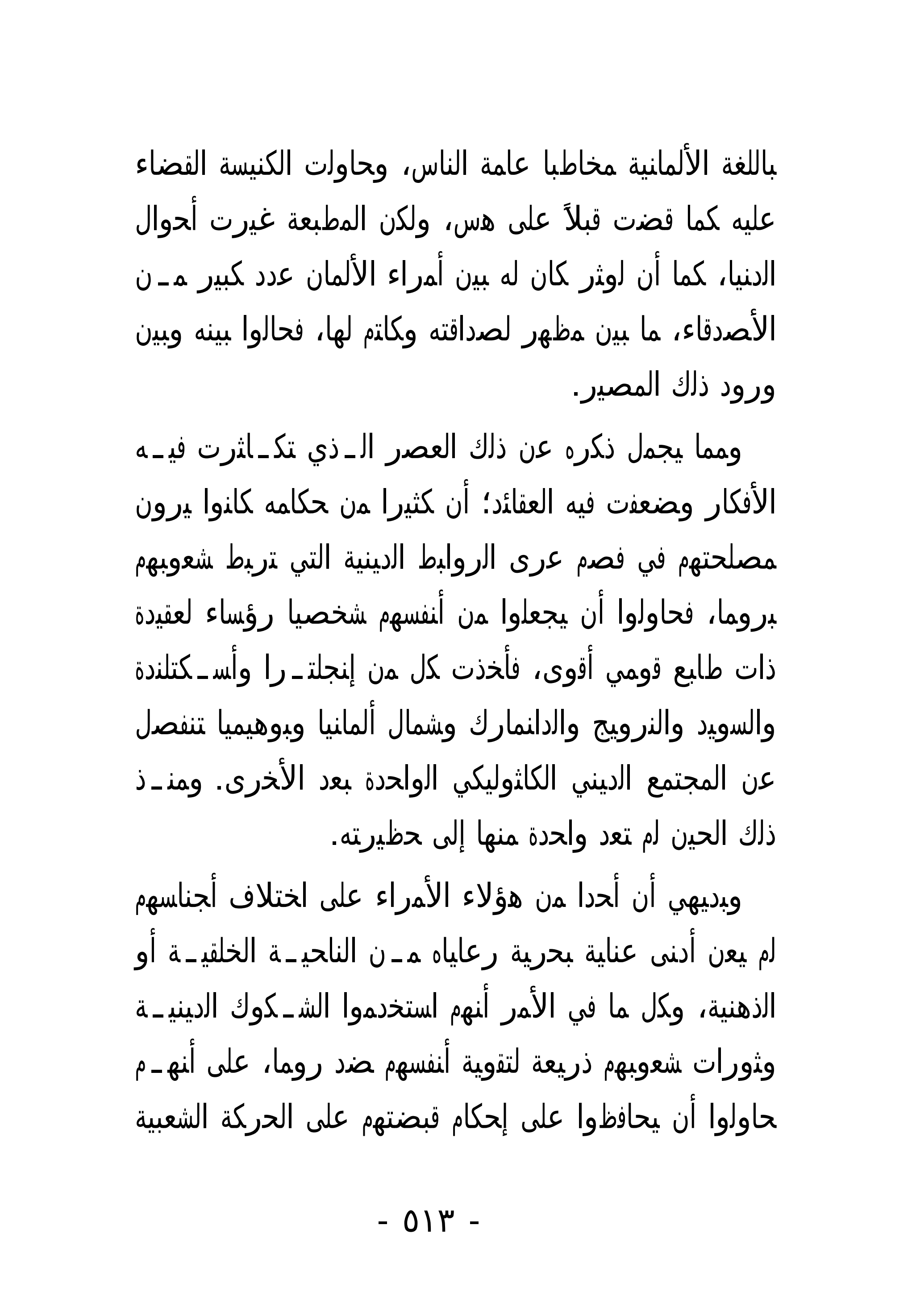
سيرت على هذا الشعب الصغير الباسل حملات صـليبية عدتها خمس، فباءت جميعا بالفشل. لقد وجهت الكنيسة على بوهيميا في القرن الخامس عشـر كـل متشـردي أوروبـا وزعانفها المتعطلين، مثلما سير الزعانف بالضبط في القرن الثالث عشر على أتباع والدو. بيد أن أهالي بوهيميا التشـيك كانوا على النقيض من أتبـاع والـدو؛ يؤمنـون بالمقاومـة المسلحة. ولم تكد الحملة الصليبية المسيرة علـى بوهيميـا تسمع قعقعة عجلات أتباع هس، وأناشيد جنودهم من بعيـد،

حتى تبخرت وتسللت من ميدان القتال، وبلغ من أمرها أنهـا لم تنتظر قط حتى تقاتل (معركة دومازليس ١٤٣١)، وانعقد بمدينة بال في عام ١٤٣٦ مجلس جديد للكنيسة، عقد صـلحا كيفما اتفق مع أتباع هـس، أُزيلـت بمقتضـاه كثيـر مـن الاعتراضات الخاصة على تصرفات الكنيسة وعرفها.

وحدث في القرن الخامس عشر وباء عظيم، تولـد عنـه انهيار النظام الاجتماعي إلى درجة كبيرة في كـل أرجـاء أوروبا، ولقي العامة من هذا الوباء عنتًـا وتعاسـة شـديدة، وانتشر بينهم مفرط السخط والتذمر، كما ثار الفلاحون على أصحاب الأملاك بكل من إنجلترا وفرنسا، وزادت خطـورة ثورات الفلاحين هذه في ألمانيا بعد الحرب مع أتباع هـس، وتقنعت بقناع ديني، وجاءت الطباعة فكانت مؤثرا قويـا زاد في ذلك التطور؛ إذ إنه لما انتصف القرن الخامس عشر كان عمال الطباعة في هولندة ومنطقة الراين يستخدمون حروفًـا قابلة للحركة والفك، ثم انتشر فـن الطباعـة فـي إيطاليـا وإنجلترا؛ حيث كان كاكسـتون يعمـل فـي طبـع الكتـب بوستمنستر في عام ١٤٧٧.

وكانت النتيجة المباشرة لانتشار الطباعة تضاعف عـدد نسخ الكتاب المقدس، وانتشاره بين الناس بدرجـة عظيمـة، وتيسير سبل ذيوع الجدل بين أفراد الشعب. لقد أصبح العالم الأوروبي عالم قراء إلى حد ليس لأي مجمع فـي الماضـي عهد بمثله، ومن سوء حظ الكنيسة أن إرواء عقـول النـاس عامة على هذه الصورة المفاجئة بالأفكار التي هـي أكثـر وضوحا والمعلومات التي هي أقرب منالاً؛ حدث في وقـت غشيها فيه الارتباك والفرقة، وأصبحت في موقف لا تستطيع فيه أن تبذل دفاعا فعال الأثر. وفي يوم كان كثير من الأمراء يبحثون عن وسيلة يضعفون بها قبضتها على الثورة الهائلـة التي كانت تدعي امتلاكها في بلادهم.

أما في ألمانيا فإن الحملة على الكنيسـة تجمعـت حـول شخصية راهب سابق يدعى مارتن لـوثر (١٤٣٨-١٥٤٦)، ظهر بمدينة ويتنبرج عام ١٥١٧، مثيرا بعض اعتراضـات على أنواع شتى مما تمارسه الكنيسة من عـرف ومـذاهب تقليدية سلفية، فراح في بدء الأمر يتجادل باللغة اللاتينية على طريقة علماء ذلك الزمان، ثم أقبل على السلاح الجديد سلاح الكلام المطبوع، فاستعمله ونشر بذلك آراءه في كـل مكـان

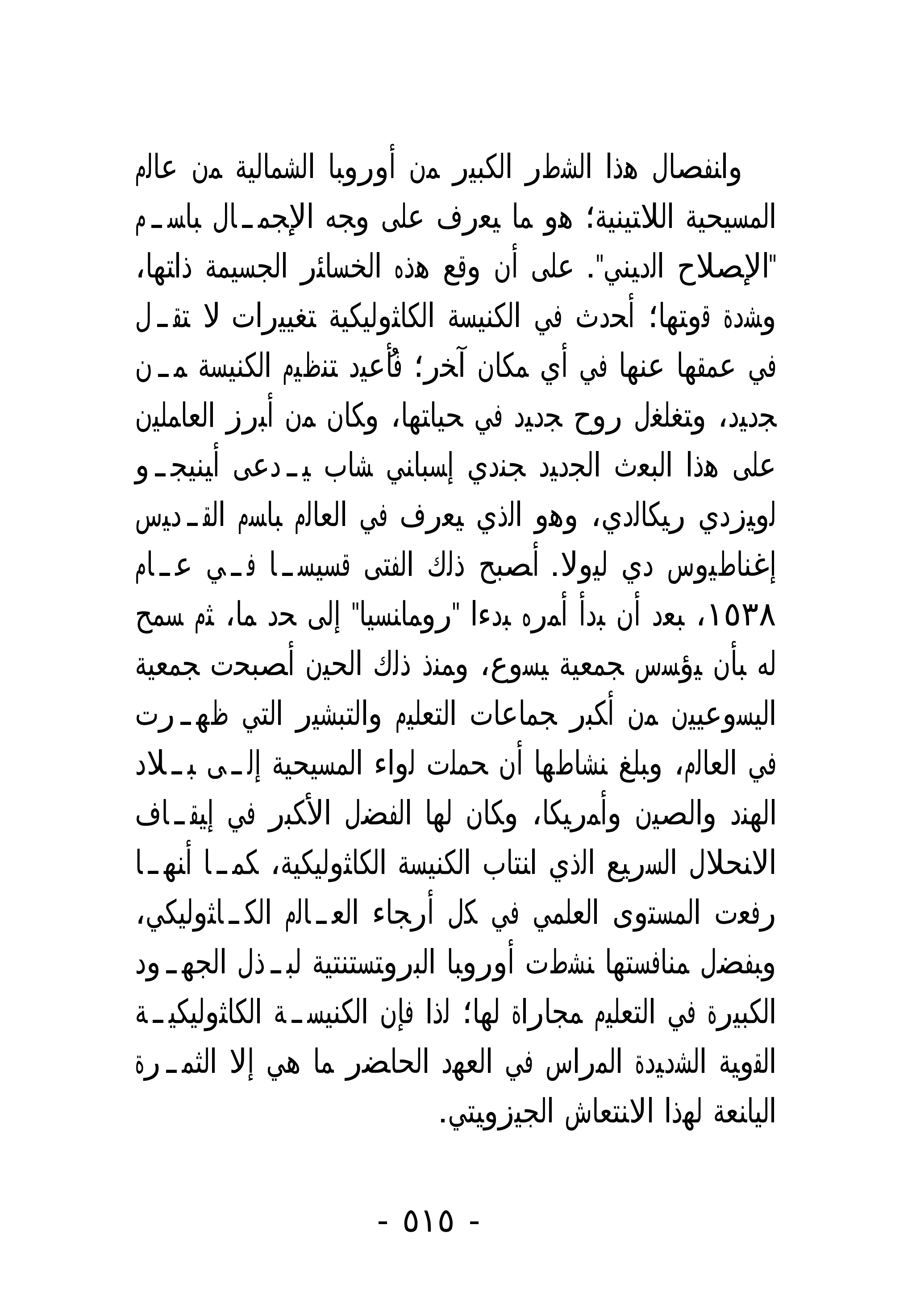


باللغة الألمانية مخاطبا عامة الناس، وحاولت الكنيسة القضاء عليه كما قضت قبلاً على هس، ولكن المطبعة غيرت أحوال الدنيا، كما أن لوثر كان له بين أمراء الألمان عدد كبير مـن الأصدقاء، ما بين مظهر لصداقته وكاتم لها، فحالوا بينه وبين ورود ذلك المصير.

ومما يجمل ذكره عن ذلك العصر الـذي تكـاثرت فيـه الأفكار وضعفت فيه العقائد؛ أن كثيرا من حكامه كانوا يرون مصلحتهم في فصم عرى الروابط الدينية التي تربط شعوبهم بروما، فحاولوا أن يجعلوا من أنفسهم شخصيا رؤساء لعقيدة ذات طابع قومي أقوى، فأخذت كل من إنجلتـرا وأسـكتلندة والسويد والنرويج والدانمارك وشمال ألمانيا وبوهيميا تنفصل عن المجتمع الديني الكاثوليكي الواحدة بعد الأخرى. ومنـذ ذلك الحين لم تعد واحدة منها إلى حظيرته.

وبديهي أن أحدا من هؤلاء الأمراء على اختلاف أجناسهم لم يعن أدنى عناية بحرية رعاياه مـن الناحيـة الخلقيـة أو الذهنية، وكل ما في الأمر أنهم استخدموا الشـكوك الدينيـة وثورات شعوبهم ذريعة لتقوية أنفسهم ضد روما، على أنهـم حاولوا أن يحافظوا على إحكام قبضتهم على الحركة الشعبية

التماسا لكبحها، بمجرد أن تم لهم ذلك الانفصال عن روما، وإنشاء كنيسة قومية تحت هيمنة التاج. ولكن تعاليم يسوع تنطوي دائما على حيوية عجيبة؛ فهي دعوة مباشرة للبر والصلاح، وتقديم احترام الذات على كل ولاء وكل خضوع؛ علمانيا كان ذلك أو دينيا، فلم يحدث مرة أن انفصلت كنيسة واحدة من كنائس الأمراء تلك دون أن ينفصل معها أيضا عدد من الطوائف الفرعية التي لا تعترف بتدخل أمير ولا بابا بين الرجل وربه، فقد ظهرت في إنجلترة وأسكتلندة مثلاً عدة طوائف استمسكت بالكتاب المقدس بشدة، متخذة منه هاديها الوحيد في الحياة والعقيدة، ورفضت كل تنظيمات كنيسة الدولة، وقد سمي هؤلاء المخالفون في إنجلترة باسم المنشقين (Non Conformists)، وقد لعبوا دورا كبيرا جدا في سياسة تلك البلاد في أثناء القرن السابع عشر والثامن عشر، وبلغ من قوة اعتراضهم في إنجلترا على أن يكون رئيس الكنيسة أميرا؛ أنهم قطعوا رأس الملك شارل الأول (١٦٤٩)، ثم أقاموا بها حكومة جمهورية من المنشقين، دامت إحدى عشر عاما حافلة بالرخاء والرغد.



وانفصال هذا الشطر الكبير من أوروبا الشمالية من عالم المسيحية اللاتينية؛ هو ما يعرف على وجه الإجمال باسم "الإصلاح الديني". على أن وقع هذه الخسائر الجسيمة ذاتها، وشدة قوتها؛ أحدث في الكنيسة الكاثوليكية تغييرات لا تقل في عمقها عنها في أي مكان آخر؛ فأُعيد تنظيم الكنيسة من جديد، وتغلغل روح جديد في حياتها، وكان من أبرز العاملين على هذا البعث الجديد جندي إسباني شاب يدعى أينيجو لويزدي ريكالدي، وهو الذي يعرف في العالم باسم القديس إغناطيوس دي ليولا. أصبح ذلك الفتى قسيسا في عام ١٥٣٨، بعد أن بدأ أمره بدءا "رومانسيا" إلى حد ما، ثم سمح له بأن يؤسس جمعية يسوع، ومنذ ذلك الحين أصبحت جمعية اليسوعيين من أكبر جماعات التعليم والتبشير التي ظهرت في العالم، وبلغ نشاطها أن حملت لواء المسيحية إلى بلاد الهند والصين وأمريكا، وكان لها الفضل الأكبر في إيقاف الانحلال السريع الذي انتاب الكنيسة الكاثوليكية، كما أنها رفعت المستوى العلمي في كل أرجاء العالم الكاثوليكي، وبفضل منافستها نشطت أوروبا البروتستنتية لبذل الجهود الكبيرة في التعليم مجاراة لها؛ لذا فإن الكنيسة الكاثوليكية القوية الشديدة المراس في العهد الحاضر ما هي إلا الثمرة اليانعة لهذا الانتعاش الجيزويتي.

الفصل الحادي والخمسون

الإمبراطور شارل الخامس

وصلت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مكانة رفيعة الشأن في عهد الإمبراطور شارل الخامس، الذي كان من أعجب من شهدتهم أوروبا من الملوك، وقد ظل ردحا من الزمان يبدو لأعين الناس أعظم ملك تولى الملك منذ عهد شرلمان.

على أن عظمته لم تكن من صنع يديه؛ بل هي إلى حد كبير ثمرة جهود جده الإمبراطور مكسمليان (١٤٦٩-١٥١٩). ولا يخفى أن بعض الأسر الملكية تبلغ حظها من السلطان العالمي عن طريق القتال، وأن بعضها الآخر يبلغ بالمؤامرة والتدبير. أما آل هابسبرج فالتمسوا العظمة العالمية عن طريق المصاهرة والزواج.

وقد ابتدأ مكسمليان حياته عاهلاً للنمسا وإستيريا، ولجزء من الألزاس ومناطق أخرى، وهي ميراثه الأصلي عن آل هابسبرج؛ فتزوج ملكة الأراضي المنخفضة وبرغنديا (ولا يكاد اسم زوجته يعنينا هنا في قليل أو كثير).

على أن معظم برغنديا ما لبث أن أفلت من يده بوفاة زوجته الأولى، ولكن بقيت له الأراضي المنخفضة. ثم حاول أن يتزوج أميرة بريتاني بفرنسا فلم يوفق، وتولى عرش الإمبراطورية بعد أبيه فريدريك الثالث عام ١٤٩٣، ثم تزوج دوقة ميلانو أو قل تزوج دوقيها. وأخيرا زوج ابنه من ابنة فرديناند وإيزابيلا الضعيفة العقل، وهما نصيرا كولومبس اللذان لم يحكما وحسب بلاد إسبانيا الحديثة التوحيد، وسردينيا والصقليتين[1]؛ بل حكما أيضا أمريكا كلها غرب بلاد البرازيل، وهكذا تم لشرلكان[2] حفيده ميراث معظم القارة الأمريكية، وقد يتراوح بين ثلث ما لم يقع من أوروبا ونصفها بأيدي الترك، وانتقل إليه ملك الأراضي المنخفضة في عام ١٥٠٦، فلما توفي جده فرديناند في عام ١٥١٦ أصبح بالفعل ملكًا على الدولة الإسبانية المترامية؛ نظرا لبلاهة أمه وضعف عقلها، حتى إذا مات جده مكسميليان في عام ١٥١٩ انتخب عام ١٥٢٠ إمبراطورا وهو لا يزال في العشرين؛ سن نعومة الأظفار نسبيا.

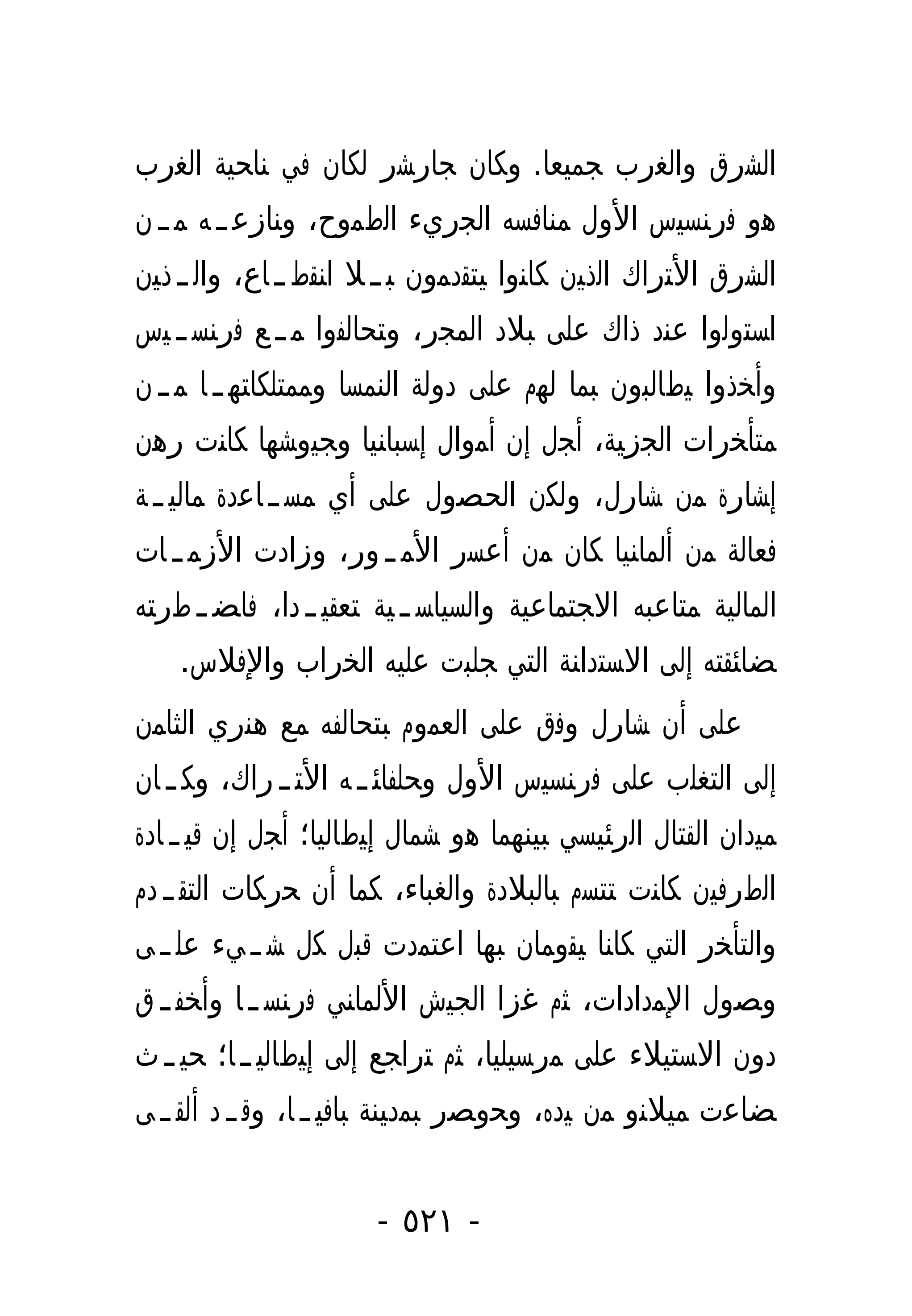
([1]) ويقصد بهذا جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا. [المترجم]

([2]) شرلكان: هو شارل الخامس نفسه. [المترجم]

كان شابا أشقر، لا تبدو على وجهه مخايل النجابة، فشفته العليا غليظة، وذقنه طويل قبيح. ونظر حوله فإذا عالمه حافل بالشخصيات الفتية القوية، فإن عصره كان عصـر ملـوك شبان أذكياء، منهم فرنسيس الأول الذي تولى عرش فرنسـا في عام ١٥١٥ وعمره إحدى وعشرون سنة، ومنهم هنـري الثامن الذي ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٩٠ في سن الثامنة عشرة، وهو عصر بـابر بـبلاد الهنـد (١٥٢٦-١٥٣٠)، وسليمان القانوني بتركيا (١٥٢٠)، وكلاهمـا ملـك عظـيم مقتدر، هذا إلى أن البابا ليون العاشر (١٥١٣) كـان كـذلك رجلاً ممتازا جدا، وحاول البابا بمعاضدة فرنسيس الأول أن يحول دون انتخاب شرلكان لعرش الإمبراطورية، لما خشياه من تركز ذلك القدر الهائل من السلطان في يد رجل واحـد. ثم تقدم كل من فرنسيس الأول وهنـري الثـامن يعرضـان نفسيهما على ناخبي الإمبراطور، ولكن انتخاب الأباطرة من آل هابسبرج كان قد أصبح آنذاك تقليدا مديد الأجـل وطيـد الأركان (منذ ١٢٧٣)، ونشطت الرشوة حتى كفلت لشرلكان النجاح في الانتخاب.

ابتدأ الملك الشاب حكمه ألعوبة فاخرة رفيعة في أيـدي وزرائه، ثم شرع بعد ذلك يبرز شخصيته على مهل، ويمسك بقيادة الأمور، وما لبث أن بدأ يدرك مـا يحـيط بمركـزه السامي من معتقدات حافلة بالأخطار، وأحس أنه وإن كـان مركزا فاخرا فإنه ضعيف مضطرب كذلك.

وأول ما واجهه منذ ساعة توليه الحكـم الموقـف الـذي أوجدته الاضطرابات الناشئة عن دعوة لوثر بألمانيا. وكانت معارضة البابا في انتخابه إمبراطورا من الأسباب التي دعته إلى الانحياز إلى دعاة الإصلاح الديني، ولكنه نشأ في إسبانيا الكاثوليكية المتعصبة، ومن ثم قرر أن يناصب لوثر العـداء. ومن هنا بدأ النزاع بينه وبين الأمراء البروتستانت، وخاصة منتخب سكسونيا، وعند ذلك وجد نفسه يواجه صدعا قد أخذ يتسع ويتهدد بتمزيق الوحدة البالية للمسيحية إلى معسـكرين متناحرين، فبذل في سبيل رأب ذلك الصدع جهودا مضـنية لم يكتب لها التوفيق. وقام الفلاحون في ألمانيا بثورة متسـعة الأطراف، اختلطت بالفتن والاضطرابات الدينية والسياسـية العامة. ومما زاد الأمر تعقيدا اجتماع هذه الفتن الداخلية على رأس الإمبراطور مع هجمات الأعداء على إمبراطوريته من

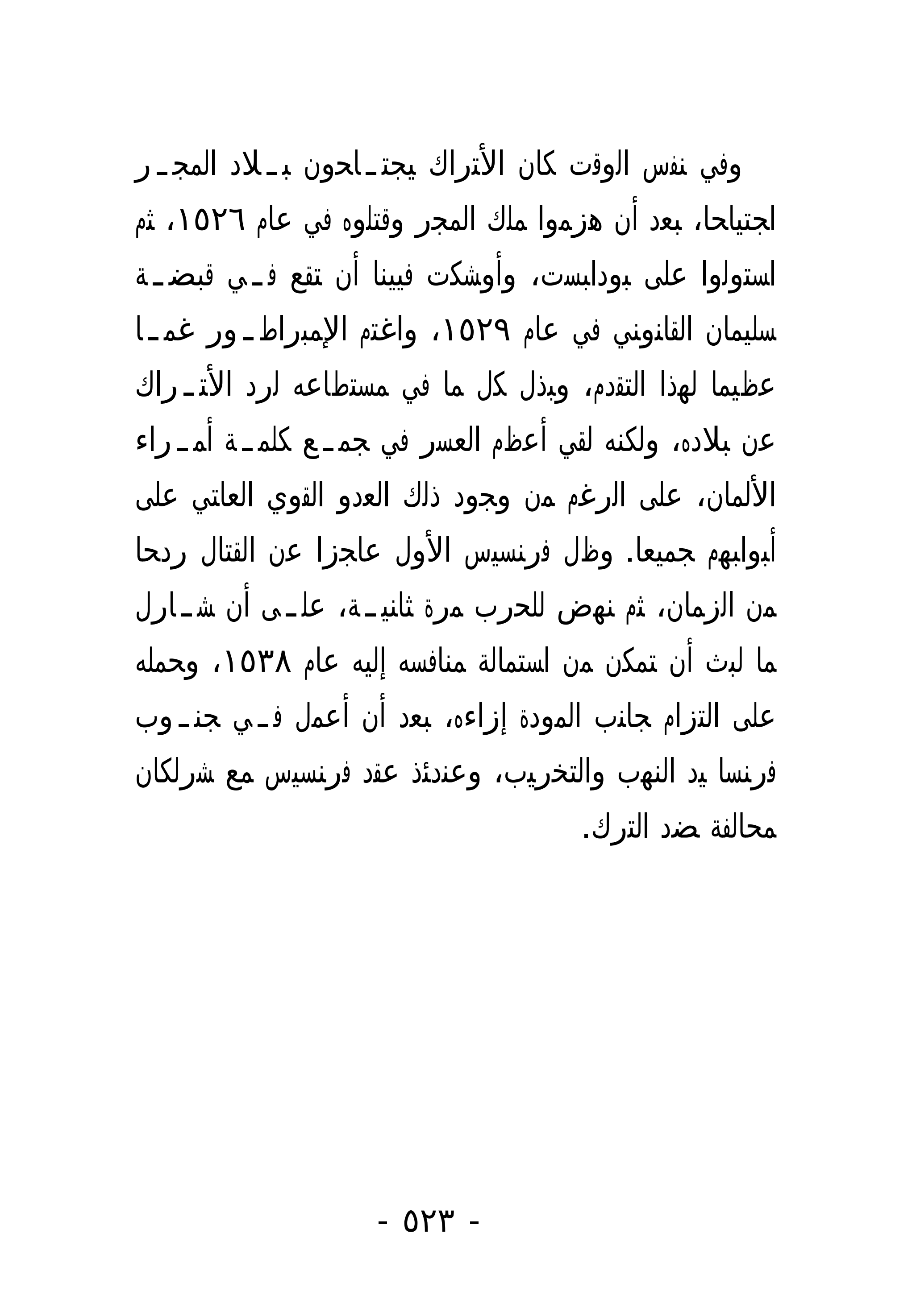

الشرق والغرب جميعا. وكان جارشر لكان في ناحية الغرب هو فرنسيس الأول منافسه الجريء الطموح، ونازعـه مـن الشرق الأتراك الذين كانوا يتقدمون بـلا انقطـاع، والـذين استولوا عند ذاك على بلاد المجر، وتحالفوا مـع فرنسـيس وأخذوا يطالبون بما لهم على دولة النمسا وممتلكاتهـا مـن متأخرات الجزية، أجل إن أموال إسبانيا وجيوشها كانت رهن إشارة من شارل، ولكن الحصول على أي مسـاعدة ماليـة فعالة من ألمانيا كان من أعسر الأمـور، وزادت الأزمـات المالية متاعبه الاجتماعية والسياسـية تعقيـدا، فاضـطرته ضائقته إلى الاستدانة التي جلبت عليه الخراب والإفلاس.

على أن شارل وفق على العموم بتحالفه مع هنري الثامن إلى التغلب على فرنسيس الأول وحلفائـه الأتـراك، وكـان ميدان القتال الرئيسي بينهما هو شمال إيطاليا؛ أجل إن قيـادة الطرفين كانت تتسم بالبلادة والغباء، كما أن حركات التقـدم والتأخر التي كانا يقومان بها اعتمدت قبل كل شـيء علـى وصول الإمدادات، ثم غزا الجيش الألماني فرنسـا وأخفـق دون الاستيلاء على مرسيليا، ثم تراجع إلى إيطاليـا؛ حيـث ضاعت ميلانو من يده، وحوصر بمدينة بافيـا، وقـد ألقـى

فرنسيس الأول حول بافيا حصارا طويلاً باء بالفشـل، ثـم حاصرته قوات ألمانية جديدة وهزمـت جيوشـه وجرحتـه وأخذته أسيرا، وعند ذلك انقلب البابا وهنري الثـامن علـى شرلكان لما كان يساورهما دائما من خوف من زيادة قوتـه إلى حد مفرط، وما عتمت القوات الألمانية المقاتلة في ميلانو بقيادة كونستابل بوربون وقد تأخرت أعطياتها؛ أن أرغمـت قائدها على الزحف بها على روما، وهناك فتحـوا المدينـة عنوة وانتهبوها في عام ١٥٢٧.

ولجأ البابا إلى قلعة القديس أنجليو، على حـين واصـل المغيرون النهب والقتل في المدينة، ثم استطاع في النهاية أن يشتري رحيل القوات الألمانية بأن دفع لها أربعمائـة ألـف بندقي[1]، واستمرت هذه الحروب المضطربة عشـر سـنين لقيت منها أوروبا الفقر والإفلاس، حتى ترامى الأمـر فـي النهاية أن وجد الإمبراطور نفسه مظفرا في إيطاليـا، ومـا نشب البابا أن توجه في عام ١٥٣٠ بمدينة بولونيـا، فكـان آخر من توج من أباطرة الألمان على هذا النحو.

(1) البندقي (Dueats) هو عملة ذهبية مصدرها البندقية.



وفي نفس الوقت كان الأتراك يجتاحون بلاد المجر اجتياحا، بعد أن هزموا ملك المجر وقتلوه في عام ١٥٢٦، ثم استولوا على بودابست، وأوشكت فيينا أن تقع في قبضة سليمان القانوني في عام ١٥٢٩، واغتم الإمبراطور غما عظيما لهذا التقدم، وبذل كل ما في مستطاعه لرد الأتراك عن بلاده، ولكنه لقي أعظم العسر في جمع كلمة أمراء الألمان، على الرغم من وجود ذلك العدو القوي العاتي على أبوابهم جميعا. وظل فرنسيس الأول عاجزا عن القتال ردحا من الزمان، ثم نهض للحرب مرة ثانية، على أن شارل ما لبث أن تمكن من استمالة منافسه إليه عام ١٥٣٨، وحمله على التزام جانب المودة إزاءه، بعد أن أعمل في جنوب فرنسا يد النهب والتخريب، وعندئذ عقد فرنسيس مع شرلكان محالفة ضد الترك.

ولكن الأمراء البروتستنت، وهم أمـراء الألمـان الـذين عقدوا العزم على الانفصال عن روما؛ كـانوا قـد كونـوا وقتذاك ضـد الإمبراطـور حلفًـا هـو حلـف الشـملكالد Schmalkaldic فاضطر شارل أن يوجه همه إلى الكفـاح الداخلي الذي أخذت عناصره تتجمع في ألمانيا، بدلاً مـن أن يقوم بحملة كبرى ليسترد بلاد المجر من قبضة المسـلمين، ويضمها إلى حظيرة المسيحية، ولكنه لم يعمر طـويلاً، فلـم يشهد لذلك من هذا الكفاح إلا أول حرب نشبت فيـه، وقـد اتصف بأنه مناوشات دامية خلت من كل حكمة وعقل، اقتتل فيها الأمراء على السيادة، وكانت تندلع نيرانها أحيانًا فتصبح حربا عنيفة تأتي على الحـرث والنسـل، وتجـر وراءهـا الخراب، أو تهبط فإذا هي مؤامرات ومؤامرات ديبلوماسية. لقد كانت ألمانيا كجراب ملـيء بالأفـاعي مـن الأمـراء، الذين ظلت سياساتهم تتلوى في ذلك الجـراب، وتفـح إلـى ما لا نهاية، حتى تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر، وما زالت هذه الديبلوماسيات تعمل في أوروبا الوسطى تدميرا وتخريبا مرة في إثر أخرى.

ويلوح أن الإمبراطور لم يدرك قط العوامل الحقيقية التي كانت تعمل عملها في تلك المتاعب التي أخذت تتجمع علـى رأسه. لقد كان بالنسبة لعصره ومركزه رجلاً فاضـلاً إلـى أقصى حد، والظاهر أنه توهم أن الخلافات الدينية التي كانت تمزق أوروبا إلى أشلاء متناحرة إنما هي خلافات دينية حقة، فأكثر من عقد مجالس الدايت[1] والمجامع الكنسية، محـاولاً بذلك التوفيق والصلح دون جدوى. وكم من مرة أعيد البحث في قانون الإيمان الكنسي، وفي مسألة الاعتـراف. ودارس التاريخ الألماني مضطر على الرغم منه أن يكـدح التماسـا لبحث تفاصيل صلح نورمبرج الديني، والتسوية التي أقرهـا دايت راتسبون، وصلح أوجزبرج، وما إليها؛ وهي أمـور لا تذكر هنا إلا كتفاصيل لحياة ذلك الإمبراطور البـاذخ، تلـك الحياة التعسة الزاخرة بالهموم. والواقع الذي لا شك فيـه أن واحدا من هذه الكثرة العديدة من الأمراء والحكام الأوروبيين لا يبدو عليه أنه كان يعمل بإخلاص، وما كان الاضـطراب الديني الذي عم أرجاء العالم كافة، ولا رغبة العامة في الحق

([1]) الدايت: مجلس أو مؤتمر يجتمع فيه أمراء وكبراء الدولة الرومانية (الألمانية) المقدسة. [المترجم].

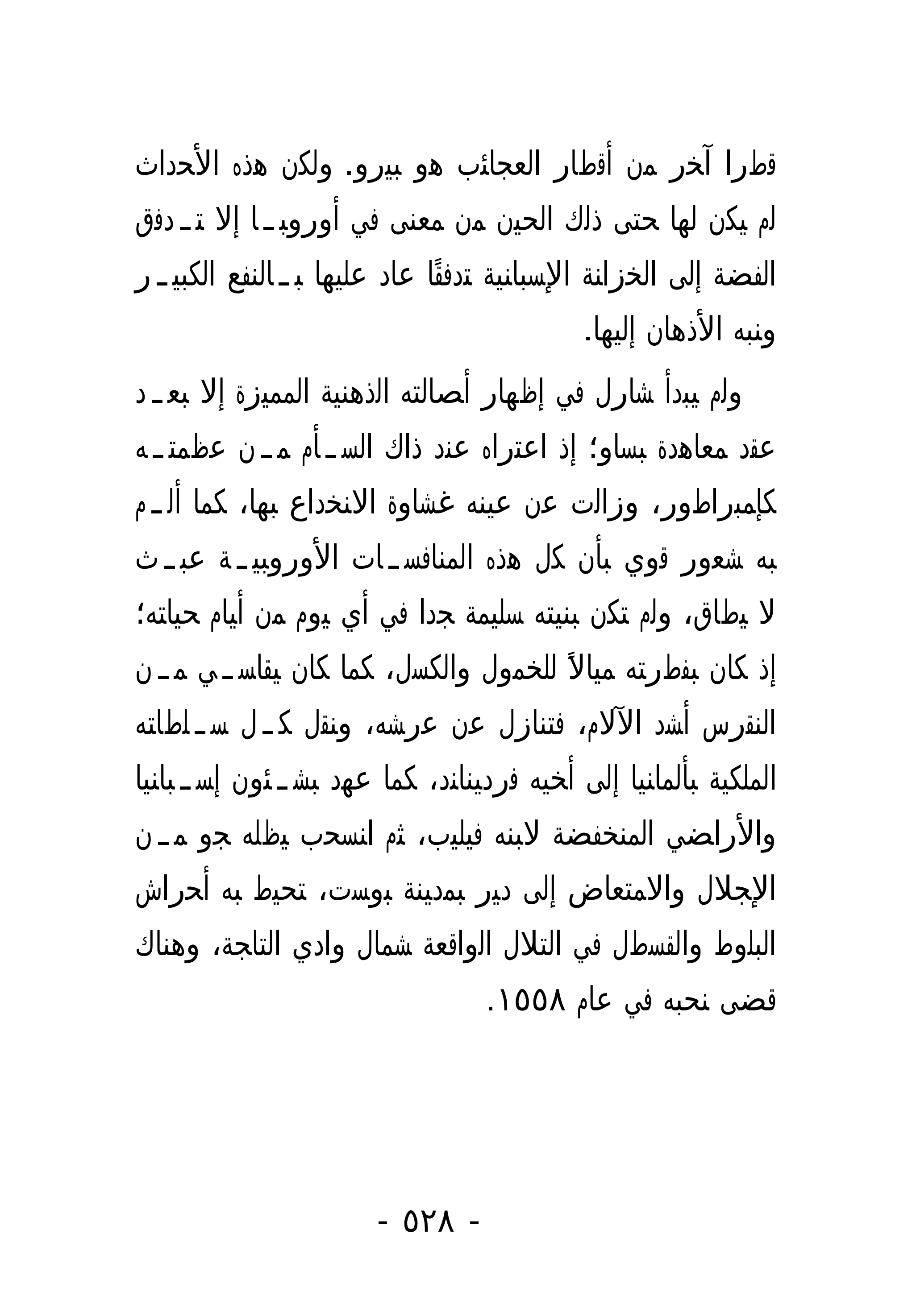
والصدق والبر الاجتماعي، ولا انتشار المعرفة في ذلك؛ مـا كانت هذه الأشياء جميعا إلا مجرد ذرائع للخلاف والمعاكسة اتخذتها أخيلة الأمراء ودبلوماسياتهم؛ مثال ذلـك أن هنـري الثامن ملك إنجلترا الذي بدأ حياته العملية بتأليف كتاب ينـدد فيه بالكفر والزندقة، والذي كافأه البابا بالإنعام عليـه بلقـب "حامي العقيدة"؛ قد انضم إلى زمرة الأمراء البروتستنت فـي عام ١٥٣٠؛ لرغبته في الطلاق من زوجته الأولى إيثارا منه لفتاة صغيرة تسمى آن بولين، ولأنه شاء أيضـا أن ينتهـب ثروة الكنيسة الإنجليزية الهائلة، ومن قبلـه كانـت السـويد والدانمرك والنرويج قد انضوت تحت لواء البروتاستنتية.

بدأت الحروب الدينية بألمانيا في عام ١٥٤٦ بعـد وفـاة مارتن لوثر ببضعة أشهر. ولسنا في حاجة إلـى الاهتمـام بتفاصيل القتال، وبحسبك أن تعلـم أن الجـيش السكسـوني البروتستنتي لقي هزيمة منكرة عند لوشاو، وأن فيليب أميـر هيس آخر وأكبر خصم للإمبراطور قُبض عليه وأُخذ أسـيرا بطريقة تداني نقض العهد، واشترى رحيل الترك لقاء وعـد بدفع جزية سنوية. ثم إن فرنسيس مات فـي عـام ١٥٤٧، فأراح الإمبراطور راحة عظيمة؛ لذا حصـل شـارل فـي

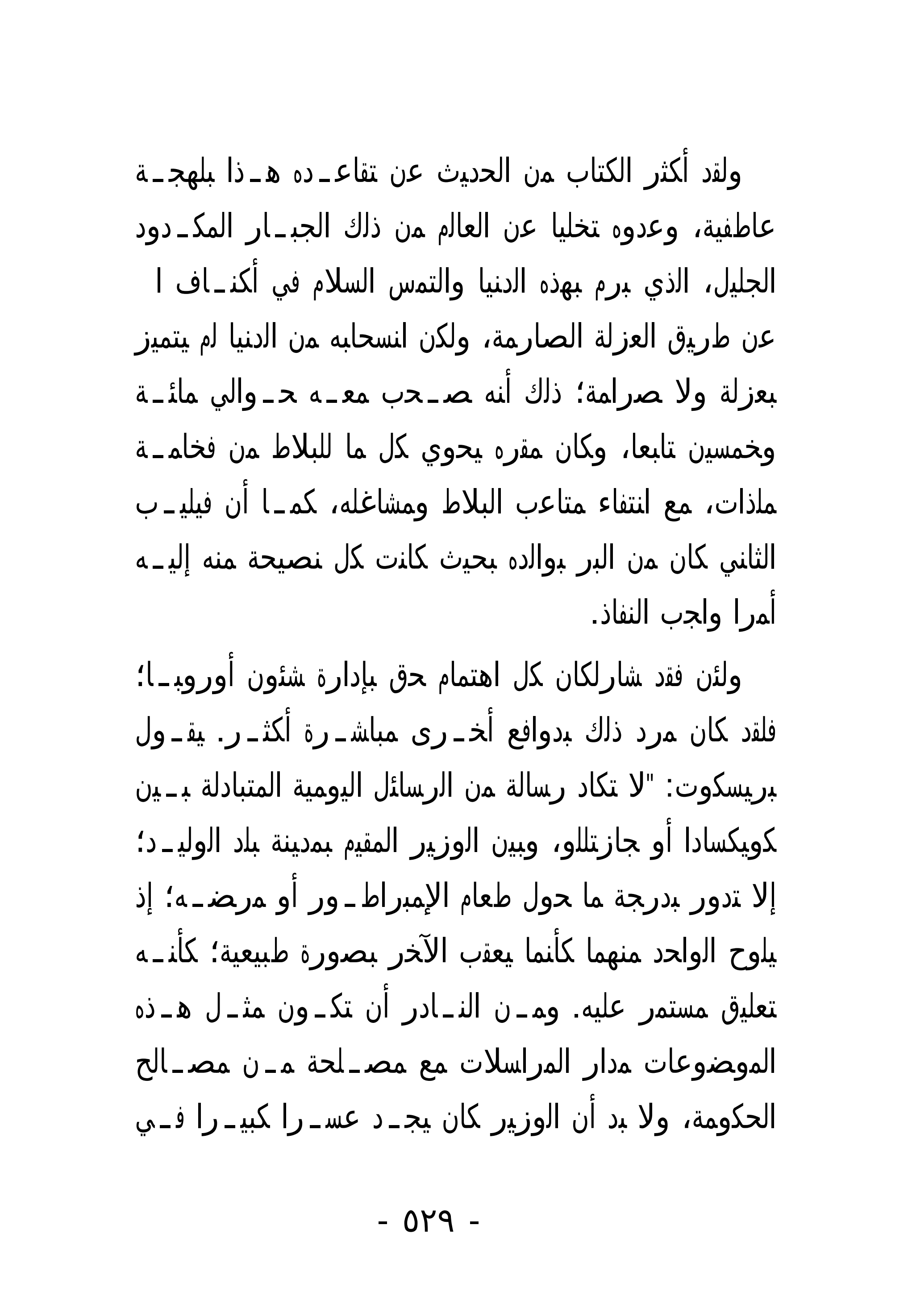
عام ١٥٤٧ على ضرب من التسوية لأموره، وأخـذ يبـذل قصارى جهده لإقرار سلم في عالم الإسلام فيه، فما وافـت سنة ١٥٥٢ حتى اندلع لهيب الحرب في كل أرجاء ألمانيـا، ولم ينج الإمبراطور من الأسر في إينزبـروك إلا بمبادرتـه بالفرار السريع منها، ثم جاءت معاهدة بساو فأحـدثت فـي سنة ١٥٥٢ هدوءا آخر غير ثابت الأركان.

تلك هي المعالم الموجزة لسياسة الإمبراطورية في مـدى اثنين وثلاثين عاما. ولا يفوتنا أن نذكر أن عقل الأوروبيـين كان متركزا تماما حول فكرة الكفاح من أجل إحراز قصـب السيادة في أوروبا؛ وذلك أن أحدا ممن عاشـوا فـي ذلـك الزمان – لا التـرك مـنهم ولا الفرنسـيون ولا الإنجليـز، ولا الألمان – لم يحس حتى ذلك الحين بأي اهتمام سياسـي بقارة أمريكا العظيمة، ولم يدرك أي مغزى للطرق البحريـة الجديدة المؤدية إلى آسيا. ومع ذلك فإن أمريكا كانـت عنـد ذلك مسرحا لأحداث عظيمة؛ فإن كورتيز انطلق بحفنة مـن الرجال وفتح باسم إسبانيا إمبراطورية المكسيك النيوليثية[1] العظيمة، كما أن بيزارو عبر مضيق بنما (١٥٣٠)، وأخضع

([1]) النيوليثية المتطبعة بطابع العصر الحجري الحديث. [المترجم]


قطرا آخر من أقطار العجائب هو بيرو. ولكن هذه الأحداث لم يكن لها حتى ذلك الحين من معنى في أوروبا إلا تدفق الفضة إلى الخزانة الإسبانية تدفقًا عاد عليها بالنفع الكبير ونبه الأذهان إليها.

ولم يبدأ شارل في إظهار أصالته الذهنية المميزة إلا بعد عقد معاهدة بساو؛ إذ اعتراه عند ذاك السأم من عظمته كإمبراطور، وزالت عن عينه غشاوة الانخداع بها، كما ألم به شعور قوي بأن كل هذه المنافسات الأوروبية عبث لا يطاق، ولم تكن بنيته سليمة جدا في أي يوم من أيام حياته؛ إذ كان بفطرته ميالاً للخمول والكسل، كما كان يقاسي من النقرس أشد الآلام، فتنازل عن عرشه، ونقل كل سلطاته الملكية بألمانيا إلى أخيه فرديناند، كما عهد بشئون إسبانيا والأراضي المنخفضة لابنه فيليب، ثم انسحب يظله جو من الإجلال والامتعاض إلى دير بمدينة بوست، تحيط به أحراش البلوط والقسطل في التلال الواقعة شمال وادي التاجة، وهناك قضى نحبه في عام ١٥٥٨.



ولقد أكثر الكتاب من الحديث عن تقاعـده هـذا بلهجـة عاطفية، وعدوه تخليا عن العالم من ذلك الجبـار المكـدود الجليل، الذي برم بهذه الدنيا والتمس السلام في أكنـاف ا عن طريق العزلة الصارمة، ولكن انسحابه من الدنيا لم يتميز بعزلة ولا صرامة؛ ذلك أنه صـحب معـه حـوالي مائـة وخمسين تابعا، وكان مقره يحوي كل ما للبلاط من فخامـة ملذات، مع انتفاء متاعب البلاط ومشاغله، كمـا أن فيليـب الثاني كان من البر بوالده بحيث كانت كل نصيحة منه إليـه أمرا واجب النفاذ.

ولئن فقد شارلكان كل اهتمام حق بإدارة شئون أوروبـا؛ فلقد كان مرد ذلك بدوافع أخـرى مباشـرة أكثـر. يقـول بريسكوت: "لا تكاد رسالة من الرسائل اليومية المتبادلة بـين كويكسادا أو جازتللو، وبين الوزير المقيم بمدينة بلد الوليـد؛ إلا تدور بدرجة ما حول طعام الإمبراطـور أو مرضـه؛ إذ يلوح الواحد منهما كأنما يعقب الآخر بصورة طبيعية؛ كأنـه تعليق مستمر عليه. ومـن النـادر أن تكـون مثـل هـذه الموضوعات مدار المراسلات مع مصـلحة مـن مصـالح الحكومة، ولا بد أن الوزير كان يجـد عسـرا كبيـرا فـي

الاحتفاظ بوقاره في أثناء تلاوته لرسائل تختلط فيها السياسة والبطنة مثل ذلك الاختلاط العجيب. وتلقى الرسول القادم من بلاد الوليد إلى لشبونة أمرا بأن ينحرف عن طريقه السوي ليمر على جاراندیلا، ويحضر للمائدة الملكية ما يلزمها من أغذية، وكان عليه أن يحضر السمك يوم الخميس من كل أسبوع لتقديمه في يوم الصيام الذي يليه، فإن شاركل كان يرى أن سمك النقط الموجود بالمنطقة التي يعيش بها صغيرا جدا؛ ولذا رحب أن يرسل إليه من بلاد الوليد سمك من نفس النوع أكبر حجما. وكانت الأسماك بجميع أنواعها تلذ له وتعجبه، وكل شيء يداني السمك في طبيعته أو عادته؛ فثعابين الماء والضفادع وأم الخلول تحتل مكانًا عاليا في قائمة الأطعمة الملكية، كما أن الأسماك المحفوظة ولا سيما الأنشوجة كانت تلقى منه حظوة عظيمة، وكم أسف العاهل لأنه لم يحضر من تلك الأنشوجة قدرا كبيرا من الأراضي المنخفضة، وإنه مولع بوجه خاص بفطيرة ثعبان الماء.."[1].

---

(1) Prescotts Appendix Robertson's History of Charles V.

وقد حصل شارل في ١٥٥٤ على مرسـوم مـن البابـا يوليوس الثالث يبيح له التحلة من الصوم، ويبيح له الإفطـار في الصباح الباكر، وإن كان علـى نيـة تنـاول الأسـرار المقدسة.

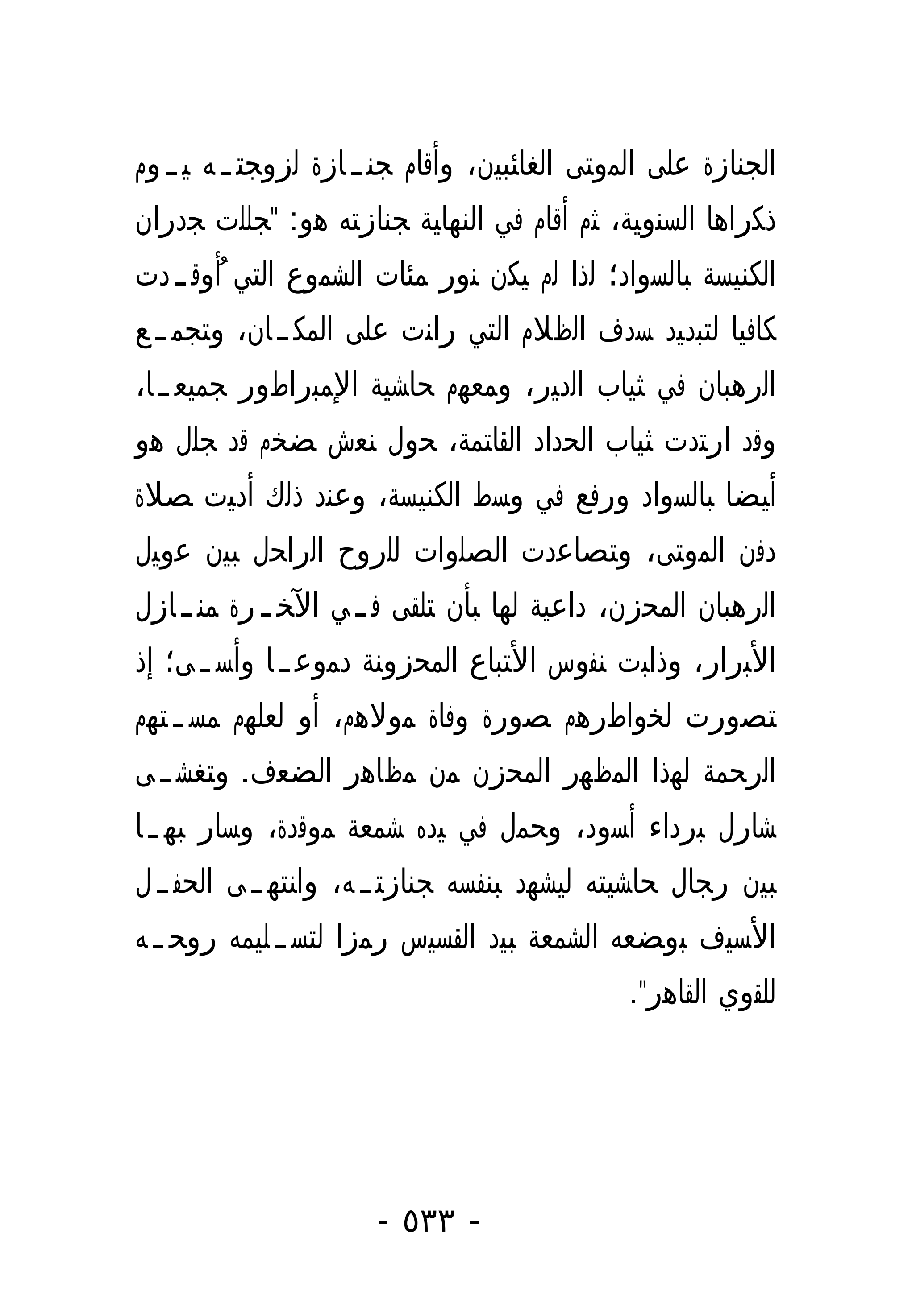
أكل وتطبيب..!! إن ذلك رجوع إلـى الأشـياء البدائيـة الأولى، لم يتعود ذلك الملك قط القراءة، ولكنه كان يصـغي إلى من يقرأ عليه في أثناء تناوله الطعام جريا علـى عـادة شرلمان، ثم يعلق على ما يسمع "بتعليقات حلوة سماوية"؛ كما عبر عن ذلك أحد الرواة.

وكثيرا ما كان يسـلي نفسـه باللعـب الميكانيكيـة، أو بالإصغاء إلى الموسيقى أو العظات الدينية، أو النظـر فـي شئون الإمبراطورية التي لم تفتأ تتقاطر عليه. وكانت وفـاة الإمبراطور، التي اشتد بها تعلقه سببا في تحول عقله نحـو الدين، الذي اتخذ عنده صورة التـدقيق الشـديد والاهتمـام بالطقوس، وقد دأب في كل يوم جمعة من أيام الصوم الكبير على جلد نفسه هو وبقية الرهبان عن طيب خاطر جلدا كـان يبلغ من الشدة أن تدمي له جلودهم.

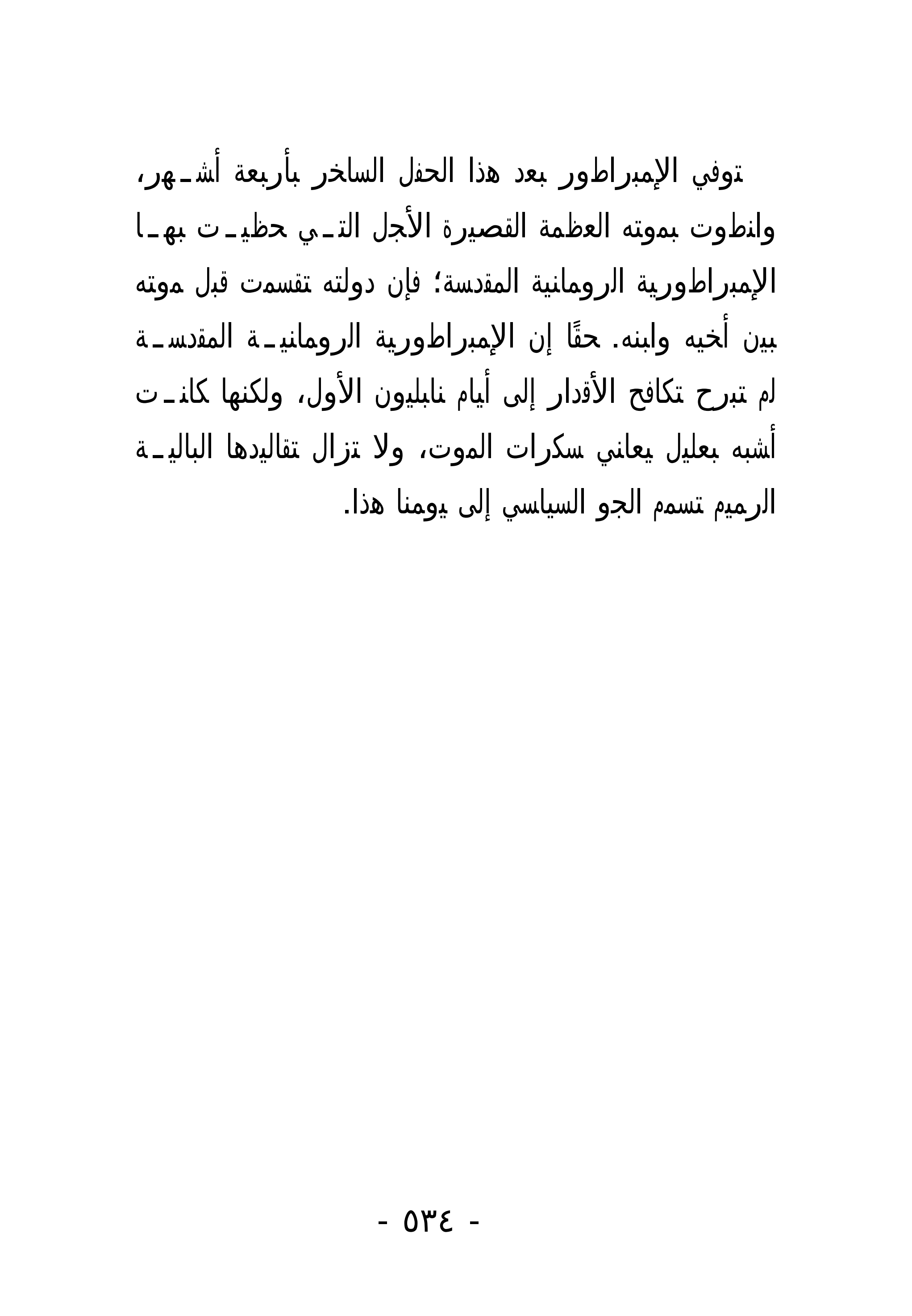
وقد دفعت هذه الرياضات هي والنقرس بشرلكان إلى حال من التعصب، كانت اعتبارات السياسة تكبحهـا حتـى تلـك الساعة، فأثار حنقه ظهور التعاليم البروتاستنتية بمدينة بلـد الوليد القريبة. وكتب يقول: "أبلغ عنـي القاضـي الأعظـم لمحكمة التفتيش أن يكون بمقر عمله هو ورجال مجلسه، وأن يستأصلوا شأفة الشر قبل أن يستفحل"...

وإنه ليبدي الشك فيما إذا لم يكن من الأنسب في حالة مثل هذا الأمر الكريه الاستغناء عن نظام القضاء العادي، وعـدم أخذ المجرمين بأدنى شفقة، "خشية أن يعطي المجرمـون إذا عفي عنهم فرصـة العـود إلـى جـريمتهم"، ثـم يطـري الإمبراطور على سبيل المثال الطريقة التي اتبعها بالأراضي المنخفضة؛ "حيث أحرق حيا كل من أصر على عناده، وقطع رأس كل من سمح له بتقديم التوبة".

ويكاد انشغاله بالجنازات يكون رمزا لمركزه في التاريخ، وكأن ضربا من الإلهام أوحى إليه أن شيئًا عظيما بأوروبا قد قضى نحبه، وأنه بحاجة ماسة إلى من يدفنه، وأن الحاجة إلى كتابة لفظة "انتهى" قد أزفت وزيادة، فلم يقتصر على حضور كل جنازة واقعية تقاوم في يوست؛ بل كـان يقـيم صـلاة



الجنازة على الموتى الغائبين، وأقام جنـازة لزوجتـه يـوم ذكراها السنوية، ثم أقام في النهاية جنازته هو: "جللت جدران الكنيسة بالسواد؛ لذا لم يكن نور مئات الشموع التي أُوقـدت كافيا لتبديد سدف الظلام التي رانت على المكـان، وتجمـع الرهبان في ثياب الدير، ومعهم حاشية الإمبراطور جميعـا، وقد ارتدت ثياب الحداد القاتمة، حول نعش ضخم قد جلل هو أيضا بالسواد ورفع في وسط الكنيسة، وعند ذلك أديت صلاة دفن الموتى، وتصاعدت الصلوات للروح الراحل بين عويل الرهبان المحزن، داعية لها بأن تلقى فـي الآخـرة منـازل الأبرار، وذابت نفوس الأتباع المحزونة دموعـا وأسـى؛ إذ تصورت لخواطرهم صورة وفاة مولاهم، أو لعلهم مسـتهم الرحمة لهذا المظهر المحزن من مظاهر الضعف. وتغشـى شارل برداء أسود، وحمل في يده شمعة موقدة، وسار بهـا بين رجال حاشيته ليشهد بنفسه جنازتـه، وانتهـى الحفـل الأسيف بوضعه الشمعة بيد القسيس رمزا لتسـليمه روحـه للقوي القاهر".



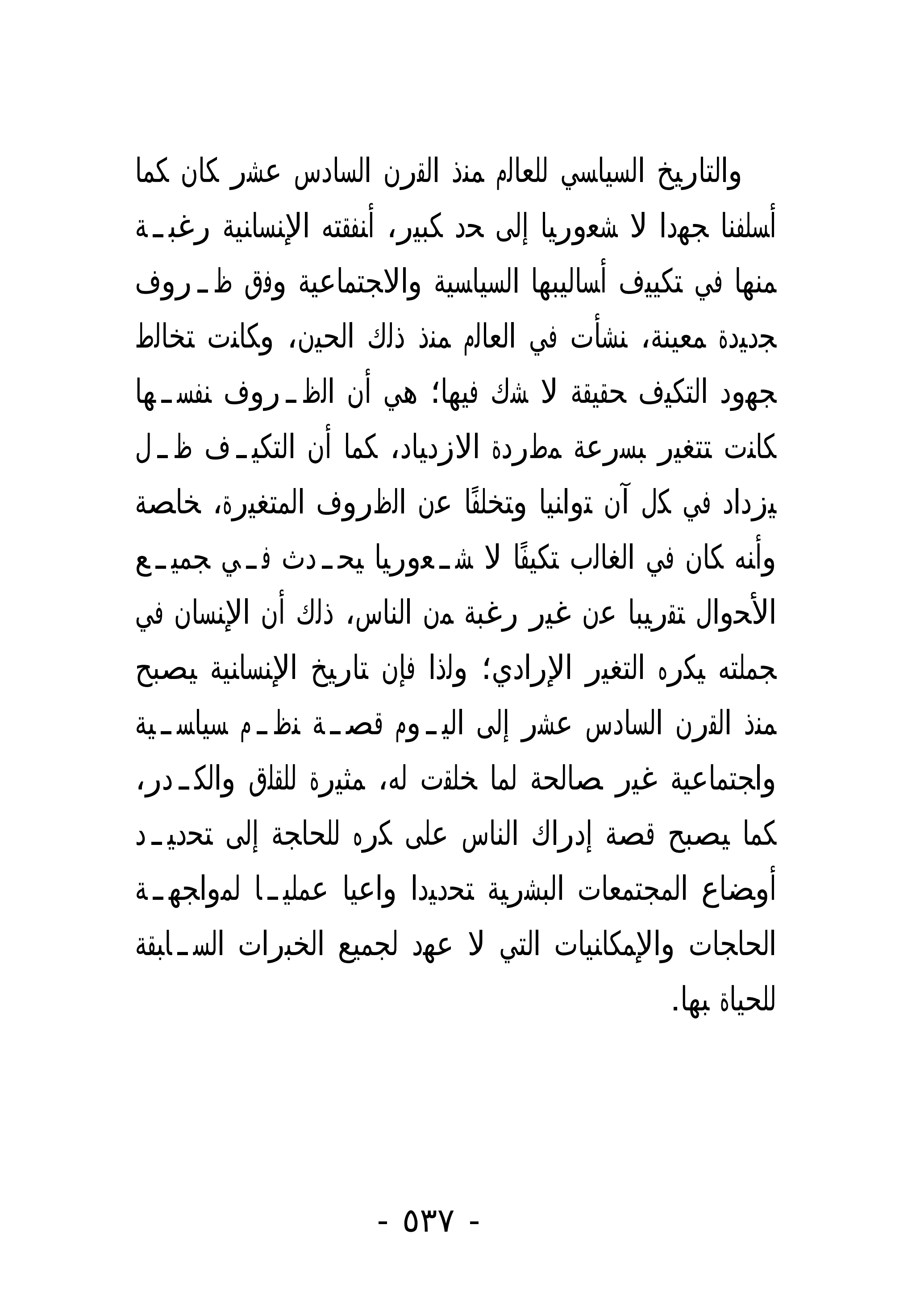
توفي الإمبراطور بعد هذا الحفل الساخر بأربعة أشـهر، وانطوت بموته العظمة القصيرة الأجل التـي حظيـت بهـا الإمبراطورية الرومانية المقدسة؛ فإن دولته تقسمت قبل موته بين أخيه وابنه. حقًا إن الإمبراطورية الرومانيـة المقدسـة لم تبرح تكافح الأقدار إلى أيام نابليون الأول، ولكنها كانـت أشبه بعليل يعاني سكرات الموت، ولا تزال تقاليدها الباليـة الرميم تسمم الجو السياسي إلى يومنا هذا.

الفصل الثاني والخمسون

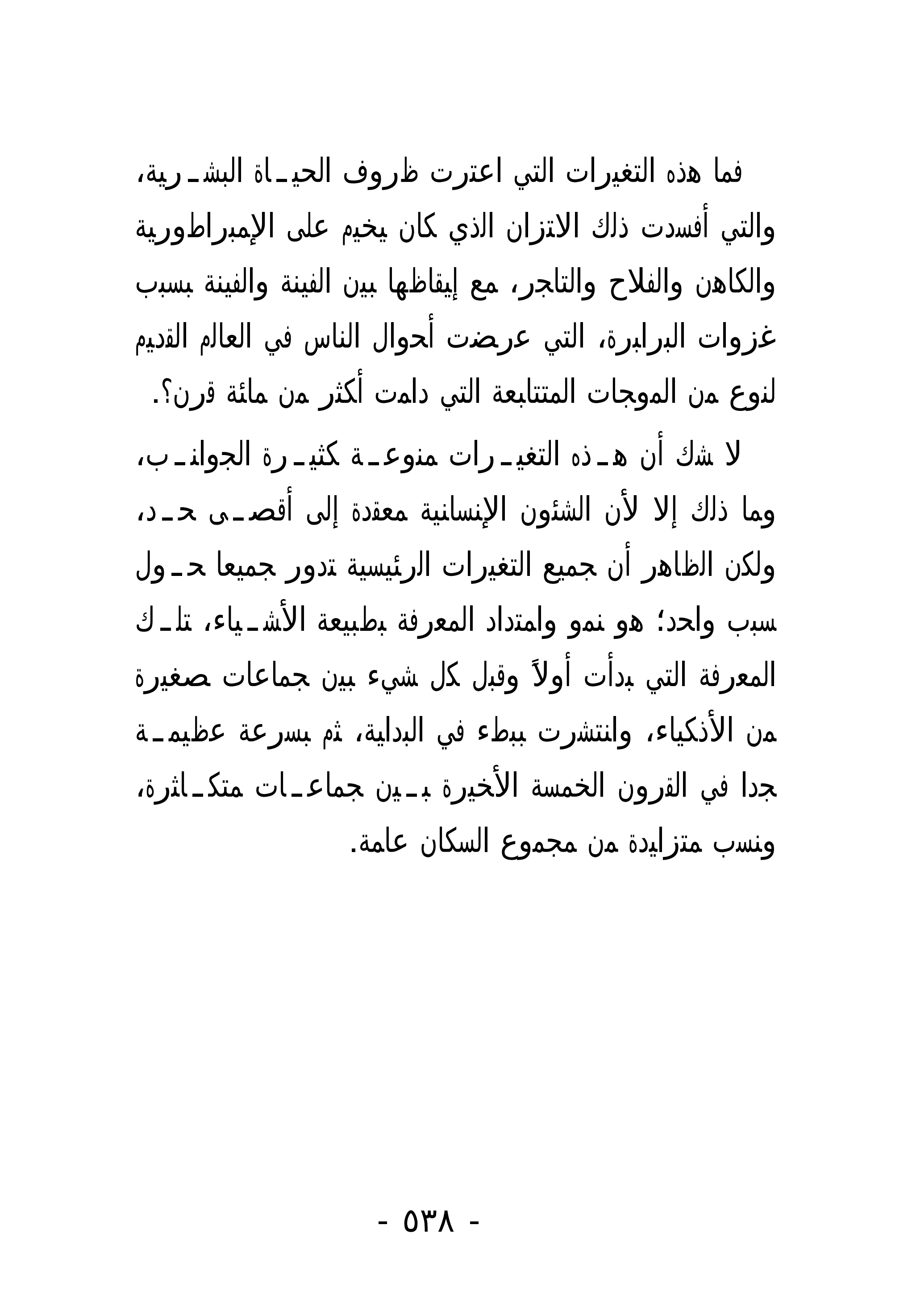
عصر تجارب سياسية، وملكيات عظمى،

وبرلمانات وجمهوريات بأوروبا

تحطمت الكنيسة اللاتينية، وهوت الدولة الرومانية المقدسة في دركات الانحلال المفرط، وأصبح تـاريخ أوروبـا منـذ مستهل القرن السادس عشر عبارة عن قصة شعوب تـتلمس في دامس الظلام طريقها بحثًا وراء نوع جديد مـن أنـواع الحكومة، يطابق الظروف الجديدة التي أخذت تنشـأ. وقـد ظلت التغيرات في العصور الخوالي، وفي آماد طويلة مـن الزمان تمس الأسر المالكة، بل حتى الجنس الحاكم واللغـة الغالبة دون غيرها، ولكن شكل الحكومة القائم علـى الملـك والمعبد ظل واضح الثبات، كما أن طريقة العـيش العاديـة ظلت أثبت وأرسخ قدما. على أن تغيرات الأسر المالكة فـي أوروبا الحديثة هذه (أي منذ القرن السادس عشر) لم تعد تهم أحدا في قليل ولا كثير، وأصبح وجه اهتمام التاريخ منصـبا على تلك الأنواع الكثيرة المتزايدة العدد من التجارب التـي تجرى في حقول التنظيم السياسي والاجتماعي.

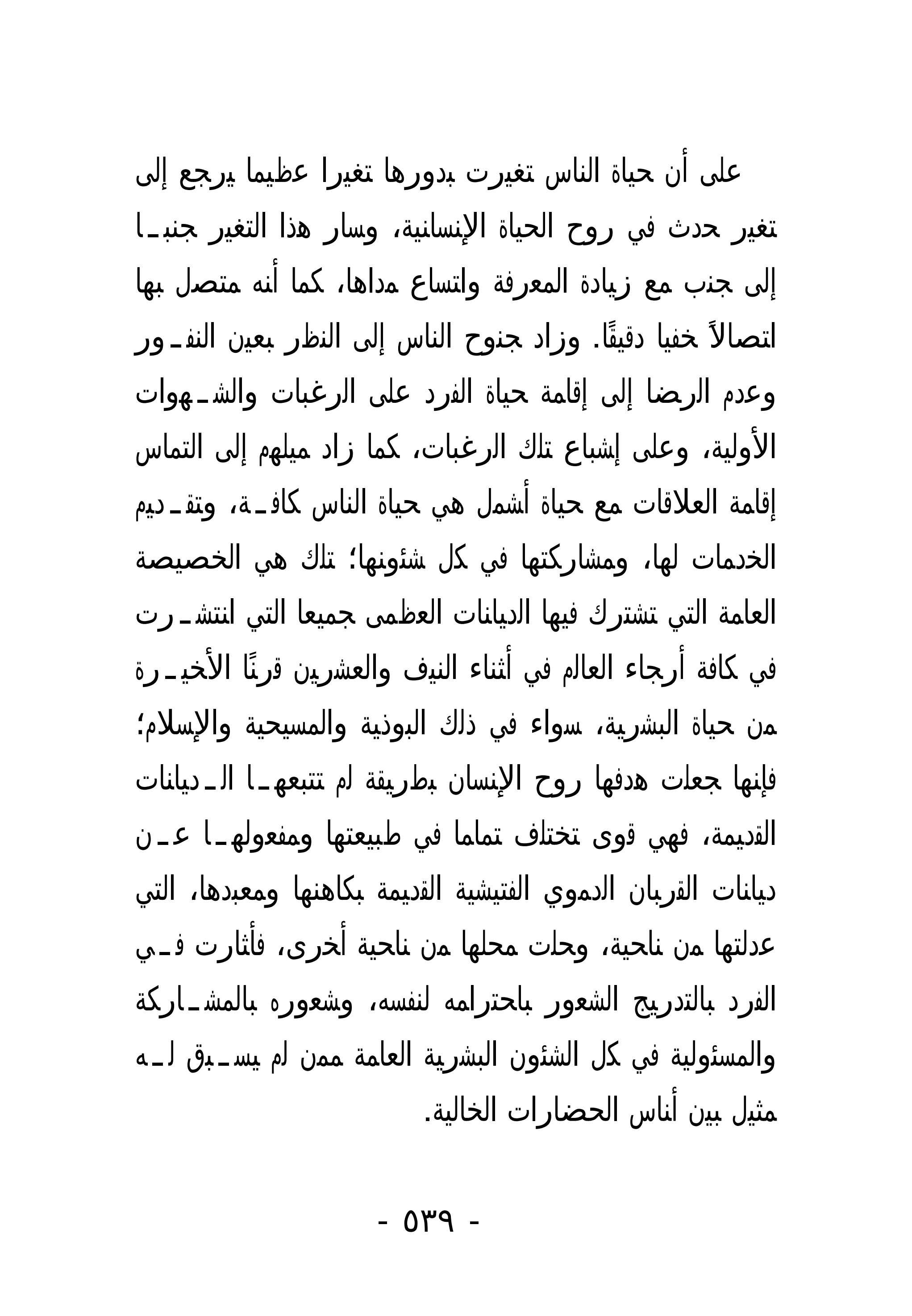


والتاريخ السياسي للعالم منذ القرن السادس عشر كان كما أسلفنا جهدا لا شعوريا إلى حد كبير، أنفقته الإنسانية رغبة منها في تكييف أساليبها السياسية والاجتماعية وفق ظروف جديدة معينة، نشأت في العالم منذ ذلك الحين، وكانت تخالط جهود التكيف حقيقة لا شك فيها؛ هي أن الظروف نفسها كانت تتغير بسرعة مطردة الازدياد، كما أن التكيف ظل يزداد في كل آن توانيا وتخلفًا عن الظروف المتغيرة، خاصة وأنه كان في الغالب تكيفًا لا شعوريا يحدث في جميع الأحوال تقريبا عن غير رغبة من الناس، ذلك أن الإنسان في جملته يكره التغير الإرادي؛ ولذا فإن تاريخ الإنسانية يصبح منذ القرن السادس عشر إلى اليوم قصة نظم سياسية واجتماعية غير صالحة لما خلقت له، مثيرة للقلق والكدر، كما يصبح قصة إدراك الناس على كره للحاجة إلى تحديد أوضاع المجتمعات البشرية تحديدا واعيا عمليا لمواجهة الحاجات والإمكانيات التي لا عهد لجميع الخبرات السابقة للحياة بها.



فما هذه التغيرات التي اعترت ظروف الحيـاة البشـرية، والتي أفسدت ذلك الاتزان الذي كان يخيم على الإمبراطورية والكاهن والفلاح والتاجر، مع إيقاظها بين الفينة والفينة بسبب غزوات البرابرة، التي عرضت أحوال الناس في العالم القديم لنوع من الموجات المتتابعة التي دامت أكثر من مائة قرن؟.

لا شك أن هـذه التغيـرات منوعـة كثيـرة الجوانـب، وما ذلك إلا لأن الشئون الإنسانية معقدة إلى أقصـى حـد، ولكن الظاهر أن جميع التغيرات الرئيسية تدور جميعا حـول سبب واحد؛ هو نمو وامتداد المعرفة بطبيعة الأشـياء، تلـك المعرفة التي بدأت أولاً وقبل كل شيء بين جماعات صغيرة من الأذكياء، وانتشرت ببطء في البداية، ثم بسرعة عظيمـة جدا في القرون الخمسة الأخيرة بـين جماعـات متكـاثرة، ونسب متزايدة من مجموع السكان عامة.

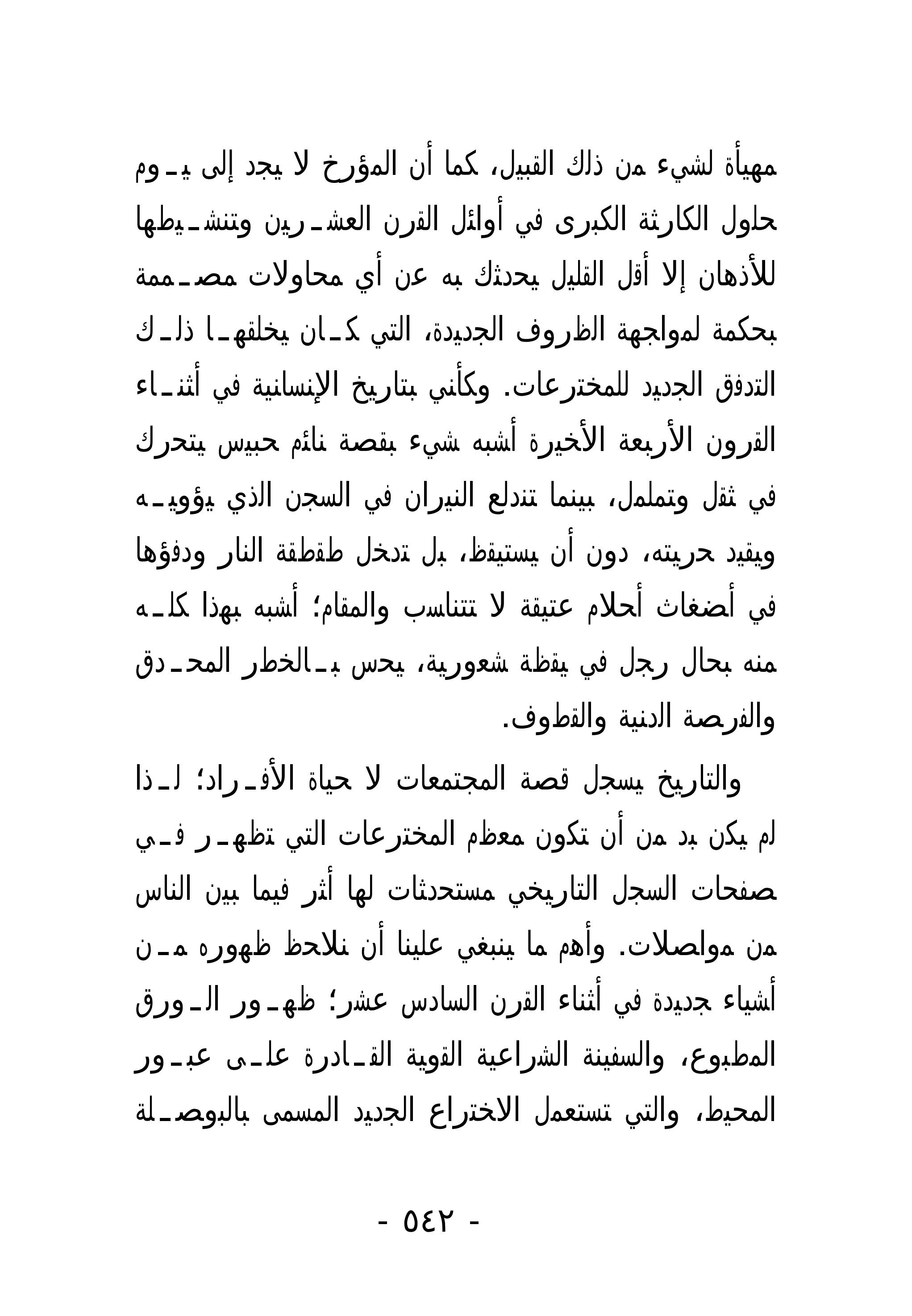


على أن حياة الناس تغيرت بدورها تغيرا عظيما يرجع إلى تغير حدث في روح الحياة الإنسانية، وسار هذا التغير جنبـا إلى جنب مع زيادة المعرفة واتساع مداها، كما أنه متصل بها اتصالاً خفيا دقيقًا. وزاد جنوح الناس إلى النظر بعين النفـور وعدم الرضا إلى إقامة حياة الفرد على الرغبات والشـهوات الأولية، وعلى إشباع تلك الرغبات، كما زاد ميلهم إلى التماس إقامة العلاقات مع حياة أشمل هي حياة الناس كافـة، وتقـديم الخدمات لها، ومشاركتها في كل شئونها؛ تلك هي الخصيصة العامة التي تشترك فيها الديانات العظمى جميعا التي انتشـرت في كافة أرجاء العالم في أثناء النيف والعشرين قرنًا الأخيـرة من حياة البشرية، سواء في ذلك البوذية والمسيحية والإسلام؛ فإنها جعلت هدفها روح الإنسان بطريقة لم تتبعهـا الـديانات القديمة، فهي قوى تختلف تماما في طبيعتها ومفعولهـا عـن ديانات القربان الدموي الفتيشية القديمة بكاهنها ومعبدها، التي عدلتها من ناحية، وحلت محلها من ناحية أخرى، فأثارت فـي الفرد بالتدريج الشعور باحترامه لنفسه، وشعوره بالمشـاركة والمسئولية في كل الشئون البشرية العامة ممن لم يسـبق لـه مثيل بين أناس الحضارات الخالية.

وكان أول تغيير جسيم ألـم بـأحوال الحيـاة السياسـية والاجتماعية؛ تبسيط الكتابة في الحضارات القديمة، واتسـاع مدى استخدامها، وهو أمر جعل قيام إمبراطوريـات أكبـر حجما ونشوء تفاهم سياسي أوسع مجالاً؛ شيئًا ميسـورا بـل أمرا لا بد منه. وجاءت حركة التقدم الثانية حـين اسـتُخدم الحصان، ومن بعده الجمل كوسـيلة للمواصـلات، وحـين استعملت المركبة ذات العجلات، وحين مدت الطرق، وزادت الكفاية العسكرية كنتيجة لاستكشاف الحديد الأرضي، ثم حلت في أعقاب ذلك الاضطرابات الاقتصادية الناجمة عن اختراع النقود المسكوكة، وعن تغير طبيعة الديون والملكية والتجارة نتيجة لظهور هذا التقليـد النـافع والضـار معـا، فـزادت الإمبراطوريات سعة ومجالاً، ونمت أفكار الناس بالمثل نموا يواجه هذه الأشياء الجديدة، ثم آن أوان اختفاء الآلهة المحلية، وجاء بعده عهد إدماج الآلهة (الثيوكرازيـا)، فعهـد تعـاليم الديانات العالمية الكبرى، وأقبلت أيضـا تباشـير التـاريخ والجغرافيا المعقولة المدونة، وإدراك الإنسان جهله المطبـق لأول مرة، وأول بحث منظم في سبيل المعرفة.

لقد انقطع إلى حين من الدهر حبل الطريقة العامية الـذي بدأ ببلاد الإغريق والإسكندرية تلك البداية الرائعة؛ ذلـك أن النظام السياسي والاجتماعي لقي أعظم الضر والعنـت مـن جراء غارات البرابرة التيوتون، وزحف الشعوب المغوليـة نحو الغرب، وأدوار الإصلاحات الدينية العنيفـة، والأوبئـة الجائحة. حتى إذا نفضت الحضارة عنها ثانية غبـار تلـك المرحلة القاسية من الصراع والاضطراب؛ إذا بالرق لم يعد أساسا للحياة الاقتصادية، وإذا بأول مصانع الورق تتخذ مـن المطبوعات وسيلة جديدة للإحاطـة الجماعيـة، وللتعـاون الاجتماعي. ولم يلبث البحث عن المعرفة (العملية والعلميـة) المنظمة أن عاد سيرته الأولى بالتدريج وعند المناسبات.

ثم ظهرت ابتداء من القـرن السـادس عشـر فصـاعدا مجموعة متزايدة العدد من المستحدثات والمخترعات، أثرت فيما بين الناس من تواصل وتفاعل، وكانـت نتاجـا ثانويـا للتفكير المنظم لا مفر منه، وكانت كل هذه المستحدثات تنزع إلى توسيع مجال العمل والنشاط، وزيادة المنافع أو الأضرار المتبادلة، وإلى المزيد من التعاون، كما أن سـرعة مجيئهـا لم تزل في ازدياد يوما في إثر يوم. ولم تكن عقول النـاس


مهيأة لشيء من ذلك القبيل، كما أن المؤرخ لا يجد إلى يـوم حلول الكارثة الكبرى في أوائل القرن العشـرين وتنشـيطها للأذهان إلا أقل القليل يحدثك به عن أي محاولات مصـممة بحكمة لمواجهة الظروف الجديدة، التي كـان يخلقهـا ذلـك التدفق الجديد للمخترعات. وكأني بتاريخ الإنسانية في أثنـاء القرون الأربعة الأخيرة أشبه شيء بقصة نائم حبيس يتحرك في ثقل وتململ، بينما تندلع النيران في السجن الذي يؤويـه ويقيد حريته، دون أن يستيقظ، بل تدخل طقطقة النار ودفؤها في أضغاث أحلام عتيقة لا تتناسب والمقام؛ أشبه بهذا كلـه منه بحال رجل في يقظة شعورية، يحس بـالخطر المحـدق والفرصة الدنية والقطوف.

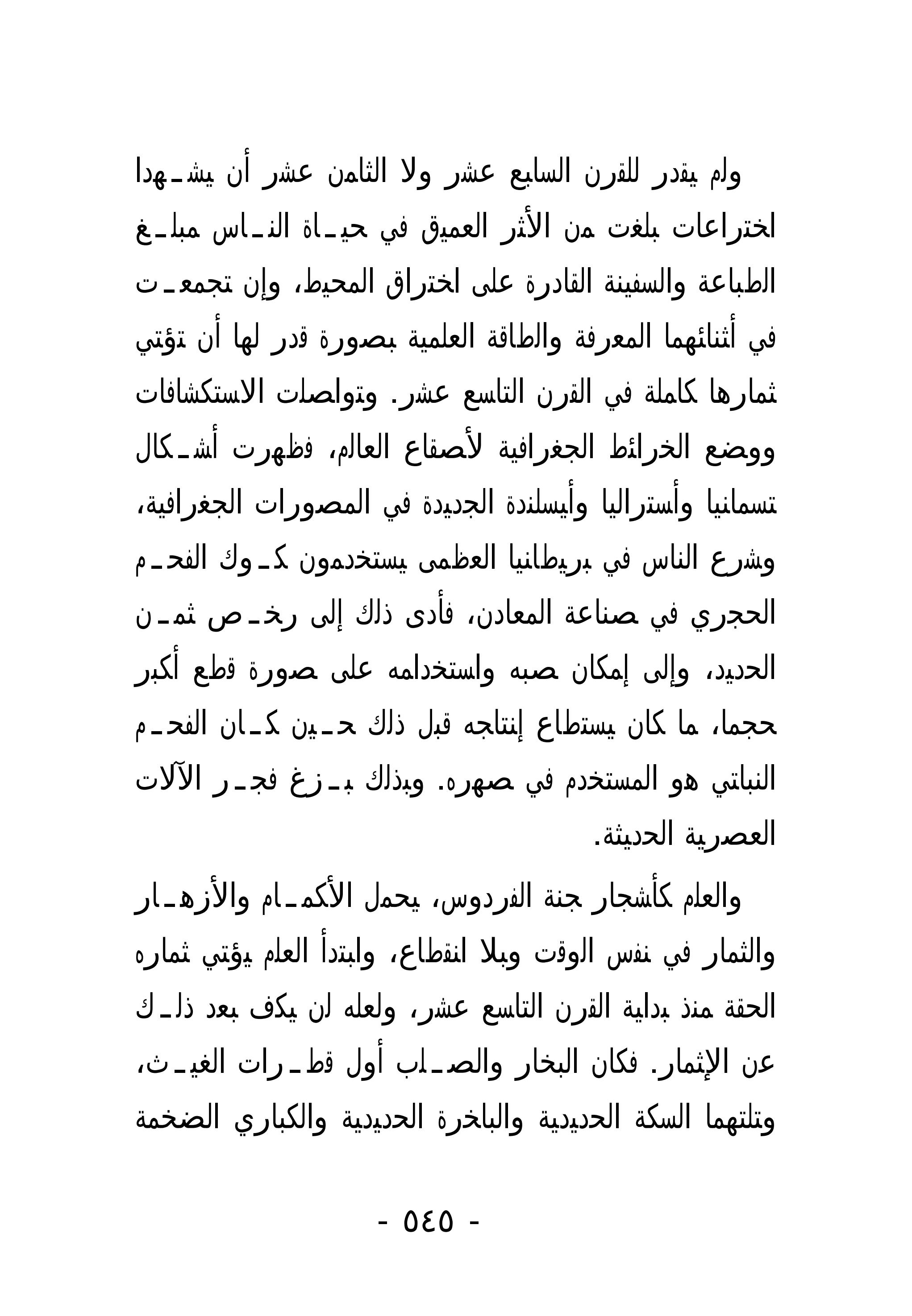
والتاريخ يسجل قصة المجتمعات لا حياة الأفـراد؛ لـذا لم يكن بد من أن تكون معظم المخترعات التي تظهـر فـي صفحات السجل التاريخي مستحدثات لها أثر فيما بين الناس من مواصلات. وأهم ما ينبغي علينا أن نلاحظ ظهوره مـن أشياء جديدة في أثناء القرن السادس عشر؛ ظهـور الـورق المطبوع، والسفينة الشراعية القوية القـادرة علـى عبـور المحيط، والتي تستعمل الاختراع الجديد المسمى بالبوصـلة

البحرية. أما الاختراع الأول؛ فإنـه نشـر التعلـيم وجعلـه رخيصا، بل أحدث فيه انقلابا تاما، كما عاد بـنفس الفوائـد على إذاعة الأخبار وعلى المناقشات، وعلى عمليات النشـاط السياسي الجوهرية. وأما الاختراع الثاني فإنه حـول الكـرة الأرضية إلى قطعة واحدة متماسكة. ولا يقـل عـن هـذين الأمرين في الأهمية زيادة استخدام المدافع والبارود التي نقلها المغول إلى الغرب لأول مرة في القرن الثالث عشر، وإدخال التحسينات عليها. وبفضل المدافع والبارود تحطمت الحصانة والمنعة التي حظي بها البارونات داخـل قلاعهـم ومـدنهم المسورة، وقضت المدافع على نظام الإقطاع جملة. ولا تنس أن المدافع هي التي أسقطت القسطنطينية بيد الأتراك، وكذلك تداعت دولتا المكسيك وبيرو حيال ما أصابهما من رعب من مدافع الإسبان.

وكان القرن السابع عشر مسرحا تطور فيه النشر المنظم للمطبوعات العلمية، وهو تجديد أقل شأنًا مـن سـابقيه، وإن عاد في النهاية بفوائد أعظم. ومن أبرز رواد هـذه الخطـوة التقدمية العظيمة السير فرنسيس بـاكون (١٥١١-١٦٢٦)، وهو الذي تسمى فيما بعد باسم لورد فيريولام وزيـر ماليـة

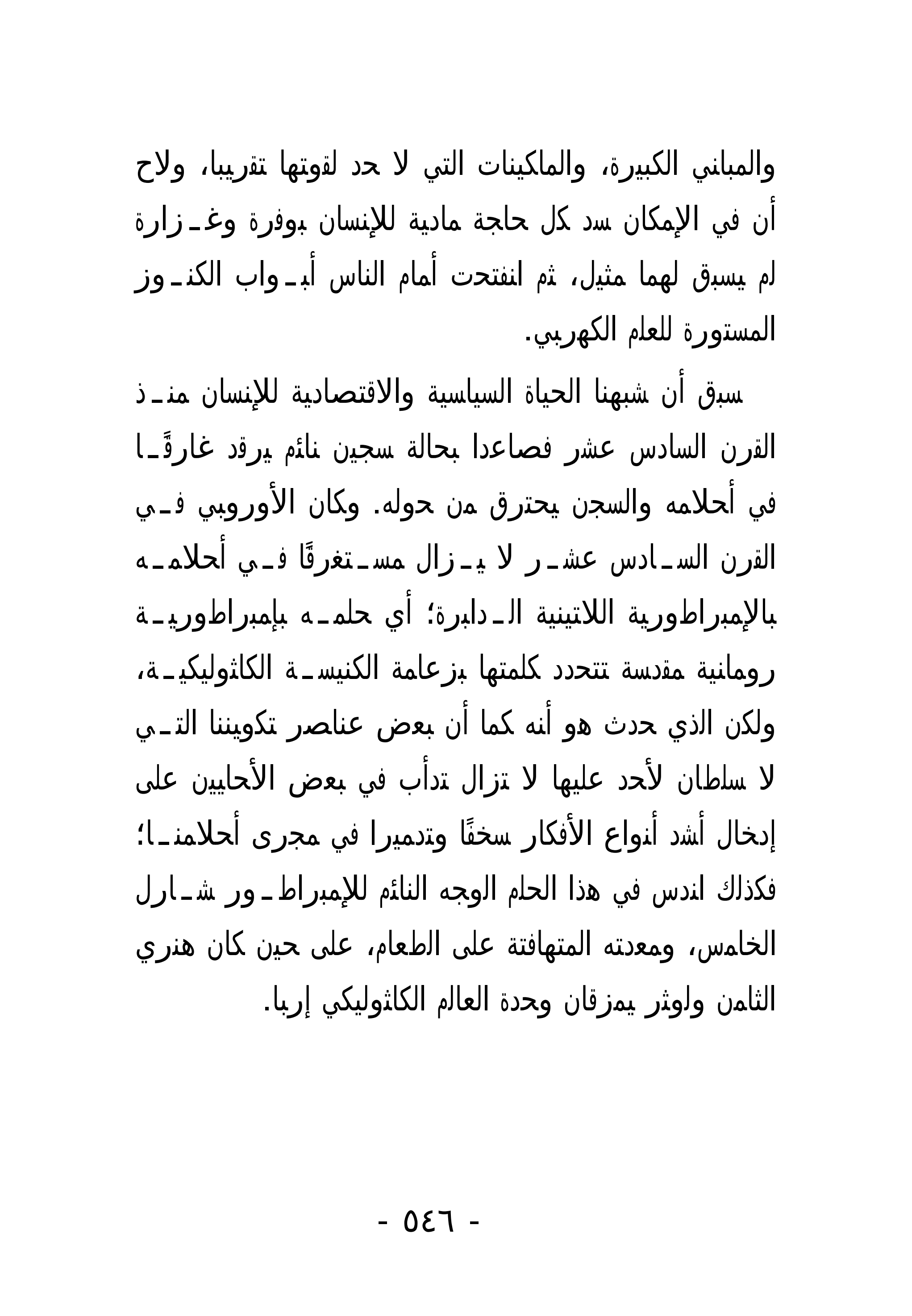
إنجلترا. كان تلميذًا لعالم إنجليزي آخر بل لعله هو اللسـان المعبر عن ذلك الإنجليزي الذي هو الدكتور جلبرت فيلسوف كولشستر التجريبي (١٥٤٠-١٦٠٣)، وكان باكون الثـاني هذا يدعو الناس كسميه الأول إلى الملاحظة والتجريب، كما أنه اتخذ طريقة القصص اليوتوبي الملهمة المثمرة في كتاب له أسماه "الأطلانطس الجديد"؛ وسيلة يعبر بها عما يحلم بـه من قيام هيئة عظيمة من العلماء بالأبحاث العلمية.

وسرعان ما نشأت الجمعية الملكيـة بلنـدن، والجمعيـة الفلورنسية، كما نشأت فيما بعد هيئات قومية أخرى لتشـجيع الأبحاث العلمية ونشر المعرفة وتبادلها، ولـم تصـبح هـذه الجمعيات العلمية الأوروبية ينابيع فقط تنضج بمـا لا يقـع تحت حصر من الاختراعات، بل صارت أيضا منبعا للنقـد الهدام الذي قضى في النهاية على ذلك التـاريخ اللاهـوتي العالمي المضحك الذي تسلط على الفكر البشري، وعاقه عن العمل عدة قرون.



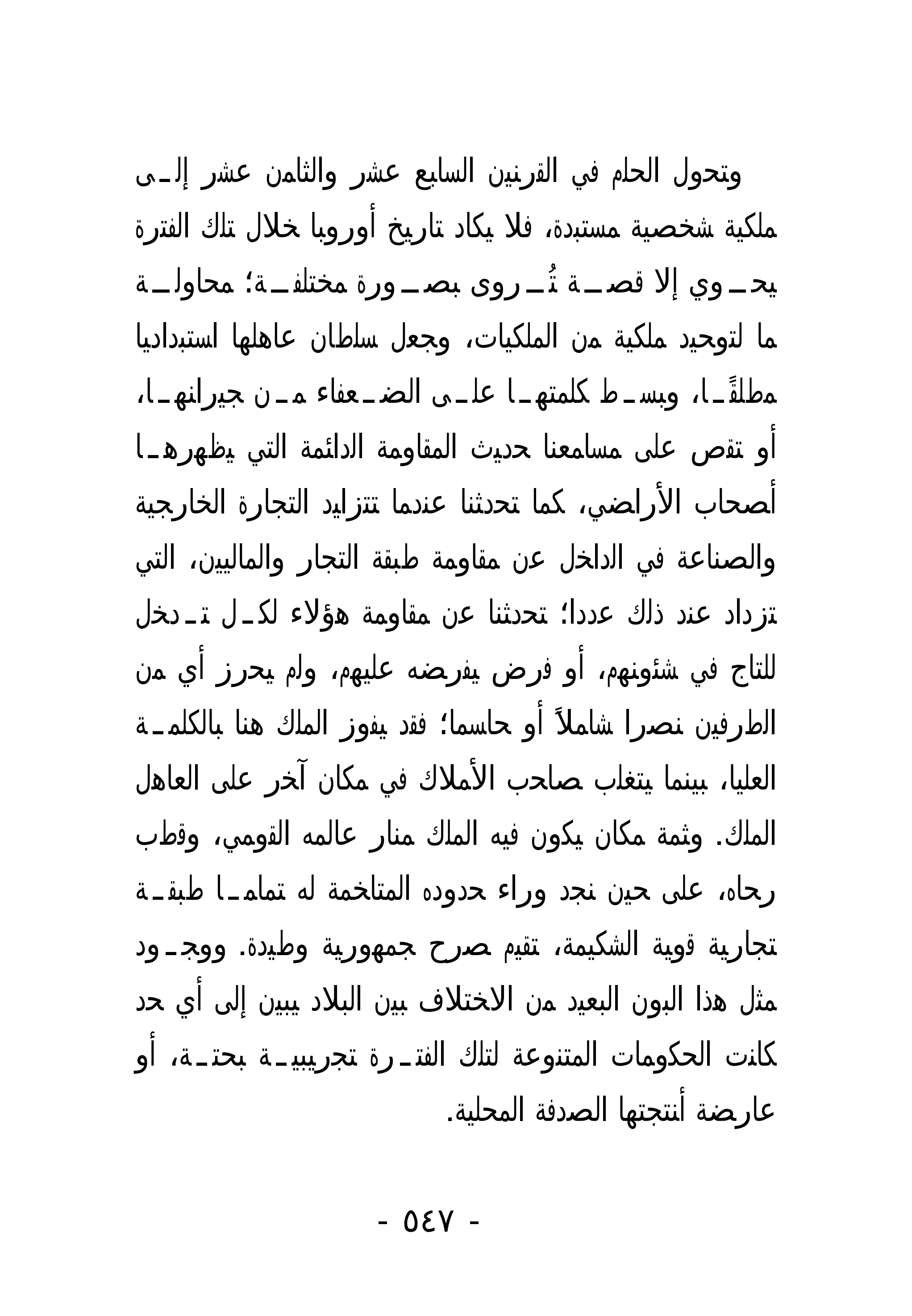
ولم يقدر للقرن السابع عشر ولا الثامن عشر أن يشـهدا اختراعات بلغت من الأثر العميق في حيـاة النـاس مبلـغ الطباعة والسفينة القادرة على اختراق المحيط، وإن تجمعـت في أثنائهما المعرفة والطاقة العلمية بصورة قدر لها أن تؤتي ثمارها كاملة في القرن التاسع عشر. وتواصلت الاستكشافات ووضع الخرائط الجغرافية لأصقاع العالم، فظهرت أشـكال تسمانيا وأستراليا وأيسلندة الجديدة في المصورات الجغرافية، وشرع الناس في بريطانيا العظمى يستخدمون كـوك الفحـم الحجري في صناعة المعادن، فأدى ذلك إلى رخـص ثمـن الحديد، وإلى إمكان صبه واستخدامه على صورة قطع أكبر حجما، ما كان يستطاع إنتاجه قبل ذلك حـين كـان الفحـم النباتي هو المستخدم في صهره. وبذلك بـزغ فجـر الآلات العصرية الحديثة.

والعلم كأشجار جنة الفردوس، يحمل الأكمـام والأزهـار والثمار في نفس الوقت وبلا انقطاع، وابتدأ العلم يؤتي ثماره الحقة منذ بداية القرن التاسع عشر، ولعله لن يكف بعد ذلـك عن الإثمار. فكان البخار والصـلب أول قطـرات الغيـث، وتلتهما السكة الحديدية والباخرة الحديدية والكباري الضخمة



والمباني الكبيرة، والماكينات التي لا حد لقوتها تقريبا، ولاح أن في الإمكان سد كل حاجة مادية للإنسان بوفرة وغـزارة لم يسبق لهما مثيل، ثم انفتحت أمام الناس أبـواب الكنـوز المستورة للعلم الكهربي.

سبق أن شبهنا الحياة السياسية والاقتصادية للإنسان منـذ القرن السادس عشر فصاعدا بحالة سجين نائم يرقد غارقًـا في أحلامه والسجن يحترق من حوله. وكان الأوروبي فـي القرن السـادس عشـر لا يـزال مسـتغرقًا فـي أحلامـه بالإمبراطورية اللاتينية الـدابرة؛ أي حلمـه بإمبراطوريـة رومانية مقدسة تتحدد كلمتها بزعامة الكنيسـة الكاثوليكيـة، ولكن الذي حدث هو أنه كما أن بعض عناصر تكويننا التـي لا سلطان لأحد عليها لا تزال تدأب في بعض الأحايين على إدخال أشد أنواع الأفكار سخفًا وتدميرا في مجرى أحلامنـا؛ فكذلك اندس في هذا الحلم الوجه النائم للإمبراطـور شـارل الخامس، ومعدته المتهافتة على الطعام، على حين كان هنري الثامن ولوثر يمزقان وحدة العالم الكاثوليكي إربا.



وتحول الحلم في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلـى ملكية شخصية مستبدة، فلا يكاد تاريخ أوروبا خلال تلك الفترة يحـوي إلا قصـة تُـروى بصـورة مختلفـة؛ محاولـة ما لتوحيد ملكية من الملكيات، وجعل سلطان عاهلها استبداديا مطلقًـا، وبسـط كلمتهـا علـى الضـعفاء مـن جيرانهـا، أو تقص على مسامعنا حديث المقاومة الدائمة التي يظهرهـا أصحاب الأراضي، كما تحدثنا عندما تتزايد التجارة الخارجية والصناعة في الداخل عن مقاومة طبقة التجار والماليين، التي تزداد عند ذلك عددا؛ تحدثنا عن مقاومة هؤلاء لكـل تـدخل للتاج في شئونهم، أو فرض يفرضه عليهم، ولم يحرز أي من الطرفين نصرا شاملاً أو حاسما؛ فقد يفوز الملك هنا بالكلمـة العليا، بينما يتغلب صاحب الأملاك في مكان آخر على العاهل الملك. وثمة مكان يكون فيه الملك منار عالمه القومي، وقطب رحاه، على حين نجد وراء حدوده المتاخمة له تمامـا طبقـة تجارية قوية الشكيمة، تقيم صرح جمهورية وطيدة. ووجـود مثل هذا البون البعيد من الاختلاف بين البلاد يبين إلى أي حد كانت الحكومات المتنوعة لتلك الفتـرة تجريبيـة بحتـة، أو عارضة أنتجتها الصدفة المحلية.

وهناك شخصية شهيرة جدا في هذه المسرحيات القومية؛ هي "وزير الملك"، الذي كثيرا ما يكون في الدول المستمسكة بالعقيدة الكاثوليكية أسقفًا يقف من وراء الملك، ويخدمه ويتسلط عليه بما يؤديه من خدمات لا يستغني عنها.

ولا يتسع المقام لتتبع هذه المسرحيات القومية بالتفصيل، وحسبك أن تعلم أن شعب هولندة التجاري تحول إلى المذهب البروتستانتي والجمهوري معا، وأزاح عن كاهله حكم فيليب الثاني ملك إسبانيا، وابن الإمبراطور شارلكان. فأما إنجلترا فإن هنري الثامن ووزيره ولزي والملكة إليزابيث ووزيرها بورلي؛ وضعوا أسس نظام استبدادي حطمته حماقة جيمس الأول، وكانت نتيجة ذلك أن قُطعت رأس الملك شارل الأول جزاء له على خيانته لشعبه (١٦٤٩)، وفي ذلك تحول جديد لمجرى الفكر السياسي بأوروبا. وانقضت بعد ذلك اثنتا عشرة سنة كانت فيها إنجلترا جمهورية (حتى ١٦٦٠)؛ ثم غدا التاج مزعزع القوى، تغلبه كثيرا كلمة البرلمان، حتى بذل الملك جورج الثالث (١٨٦٠-١٨٢٠) جهدا عظيما وفق فيه إلى حد ما إلى استعادة سلطانه. على أن ملك فرنسا من الناحية الأخرى كان أكثر ملوك أوروبا توفيقًا ونجاحا في

النهـوض بالملكيـة إلـى حـد الكمـال؛ فقـد رزقـه ا وزيرين عظيمين هما ريشيلو (١٥٨٥-١٦٤٢)، ومـازاران (١٦٠٢-١٦٦١) شادا له بتلك البلاد قوة التاج، وزاد من قوة تأثيرهما طول عهد الملك لويس الرابع عشر (الملقب بالعاهل الأعظم ١٦٤٣-١٧١٥) وصفاته الاستثنائية الخارقة.

والحق إن لويس الرابع عشر كان الملك المثـالي الـذي تحتذيه أوروبا كلها. وكان – على ما به من معايب - ملكًا ذا اقتدار استثنائي، كما أن مطامعه كانت أقوى مـن شـهواته الدنيا؛ لذا اقتاد بلاده إلى الإفـلاس بتورطـه فـي سياسـة خارجية، مفرطة النشاط، مع هيبة وكرامة عظيمة لا تـزال تنتزع منا الإعجاب انتزاعا. وكانت الرغبة المباشـرة التـي رانت عليه هي توحيد بلاده، وبسط تخومها إلى نهر الـراين وجبال البرانس، وامتصاص الأراضي المنخفضة الإسـبانية، أما فكرته البعيدة التي هدف إليها؛ فهـي أن يصـبح ملـوك فرنسا خلفاء لشارلمان في دولة رومانية مقدسة يعاد بناؤهـا؛ فجعل الرشوة وسيلة لدولته تعتمد عليها أكثر مما تعتمد على الحرب، فكان شارل الثاني ملك إنجلترا يتلقى منه الأمـوال، وكذلك معظم نبلاء بولندة الذين سنصفهم لك من فورنا؛ لـذا

يمكن القول إن نقوده أو بـالحري نقـود الطبقـات الدافعـة للضرائب كانت تصل إلى كل مكان. على أن شغله الشـاغل كان الأبهة والفخامة؛ فإن قصره العظيم بفرساي بما حـوى من صالونات ودهاليز ومرايا وشرفات ضخمة، ونـافورات وجنات غناء، ومجالات تمرح فيها الأنظار؛ كان مثار حسـد العالم وإعجابه العظيم.

وتبارى من حوله المقلدون، وهب كل ملك أو أمير صغير بأوروبا يشيد قصره على نمط قصر فرساي، متجاوزا بـذلك موارده، ولكن على قدر ما يسمح له رعاياه ودائنوه. وهـب كل النبلاء في كل مكان يعيدون بناء قلاعهم وقصورهم، أو يوسعون فيها على مثال الطراز الجديـد، وحـدثت نهضـة عظيمة في صناعة المنسوجات والأثاث الجميلة، وازدهـرت فنون الكماليات، وتحف الترف في كـل مكـان، فانتعشـت صناعات نحت المرمر والقاشاني، وأشغال الخشب المذهب، وصياغة المعادن والجلد المضغوط بالرسوم الفنية، وتكـاثر الإنتاج الموسيقي والتصوير الفـاخر، والطباعـة الجميلـة والتجليد الأنيق، وأبدع الخزف وأعجب الخمور. وبين هـذه المرايا الصقيلة والرياش الفاخرة؛ كان جنس عجيـب مـن

السادة يغدو ويروح، على رأسه شعور مستعارة مرتفعة ذرت عليها المساحيق، ويرتدي الحرائر والمخرمات (الدانتلا)، ويترنح فوق أحذية ذات كعوب عالية حمراء حافظًا توازنه بعصى مونقة مدهشة، ومع هؤلاء سيدات أعجب منهم شأنًا فوق رءوسهن أبراج من الشعور المغطاة بالمساحيق، وعلى أجسامهن مقادير ضخمة منفوشة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك. ومن بين هؤلاء جميعا، وقعت شخصية لويس العظيم شمس عالمه المنيرة، غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتجهمة الحانقة التي ترقبه من تلك الظلمات الدنيا دون أن تنفذ إليها أشعة شمسه.

ظل الشعب الألماني منقسما على نفسه سياسيا طوال تلك الفترة التي سادتها الملكيات، وعمل التجارب في أنواع الحكومات، وراح عدد جسيم من بلاطات الدوقات والأمراء يحاكي كالقردة أبهة فرساي كل حسب درجته، وكانت حرب الثلاثين سنة (١٦١٨-١٦٤٨) وبالاً على الألمان؛ إذ إنها ظلت جرحا داميا ينزف منه نشاطهم وهمتهم لمدة مائة عام بعد ذلك، وهي نزاع مخرب نشب بين الألمان والسويديين والبوهيميين على مغانم سياسية متقلبة غير ثابتة. ولا بد

للقارئ من خريطة يشهد فيها هذا الترقيـع الجنـوني الـذي انتهى به ذلك الصراع، وهي الخريطة التـي تصـور لـك أوروبا بعد صلح وستفاليا الذي عقد في عام ١٦٤٨، وفيهـا تجد عددا كبيرا من الإمارات والـدوقيات والـدول الحـرة، وما إلى ذلك، ومنهـا مـا هـو مـن ناحيـة جـزء مـن الإمبراطورية، كما هو خارج عنهـا مـن ناحيـة أخـرى. وسيلحظ القارئ أن ذراع السويد توغلت كثيـرا فـي أرض ألمانيا، وأن فرنسا كانت لا تزال بعيدة عن نهر الراين على الرغم من امتلاكها لقطع متباعدة من الأرض، تقوم كالجزائر وسط ممتلكات الإمبراطور. وأخذت مملكة بروسـيا (التـي أصبحت مملكة منذ عام ١٧٠١) تواصل النهوض إلى مرتبة الصدارة، وتشن سلسلة متصلة الحلقات من الحروب الظافرة الموفقة، وأقام فريـدريك الأكبـر (١٧٤٠-١٧٨٦) قصـره الفرسالي الطراز عند بوتسدام، وكانت الفرنسية لغة بلاطـه؛ فهو يتحدث بها، ويقـرأ الأدب الفرنسـي، وينـافس الملـك الفرنسي في ثقافته.

وفي عام ١٧١٤ أصبح منتخب هانوفر ملكًا على إنجلترا، فزاد فرد آخر في قائمة الملوك الداخلين في الإمبراطورية من ناحية، والمستقلين عنها من ناحية أخرى.

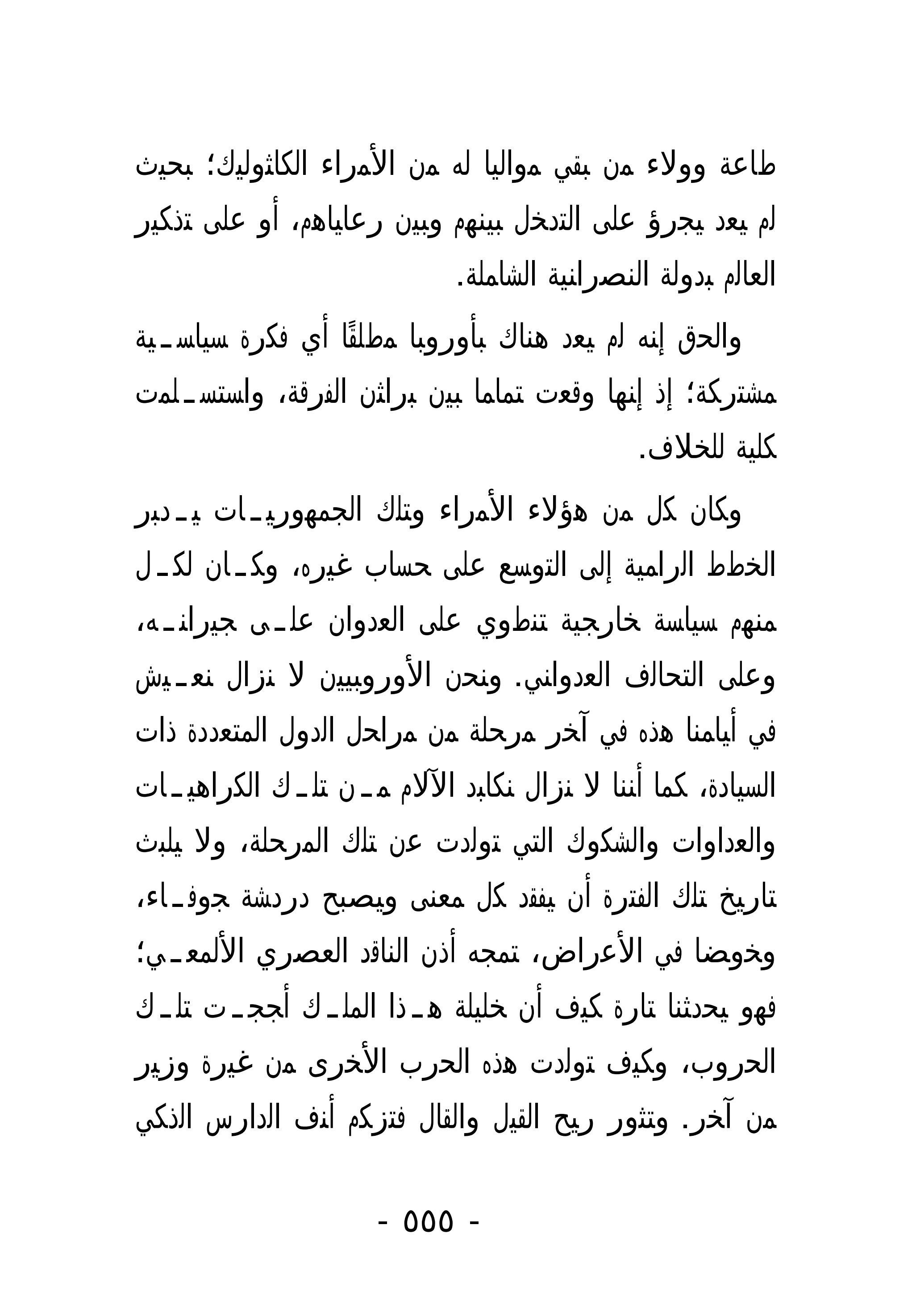
احتفظ الفرع النمساوي من سلالة شارل الخامس باللقب الإمبراطوري، كما احتفظ الفرع الإسباني بإسبانيا. ولكن ظهر الآن للمرة الثانية إمبراطور للشرق، ذلك أن غراندوق موسكو إيفان الأعظم (١٤٦٢-١٥٠٥) ادعى بعد سقوط القسطنطينية (١٤٥٣) أنه الوارث للعرش البيزنطي، ووضع شارة النسر البيزنطي ذي الرأسين على دروعه وأسلحته، واتخذ حفيده إيفان الرابع (إيفان الرهيب) (١٥٣٣-١٥٨٤) اللقب الإمبراطوري؛ قيصر. على أن الروسيا كانت تبدو دائما في أعين الأوروبيين قطرا بعيدا آسيويا حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر، فإن القيصر بطرس الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥) أدخل الروسيا في معترك الشئون الغربية، فشاد لإمبراطوريته عاصمة جديدة على نهر النيفا؛ هي بطرسبرج، كانت بمثابة نافذة تطل منها الروسيا على أوروبا، كما أنه أقام قصره المماثل لقصر فرساي قرب بترهوف التي تبعد عن العاصمة ثمانية عشر ميلاً، مستخدما

في ذلك مهندسا معماريا فرنسيا، شيد لـه شـرفة عظيمـة ونافورات ومساقط مائية (شلالات)، ومعرضا للصور، وجنة غناء، إلى غير ذلك من مظاهر الملكية العظمى. وصـارت الفرنسية لغة البلاط في الروسيا، مثلما صارت من قبل لغته في بروسيا.

ومن سوء حظ المملكة البولندية أنها كانت تقع ذلك الموقع التعس بين الروسيا وبروسيا والنمسا.

وكانت بولندة دولة سيئة التنظيم؛ من ملاك كبار يحرص كل منهم على عظمتـه الفرديـة حرصـا شـديدا، حتـى لا يطيق أن تقوم بالبلاد إلا ملكية اسمية للملك الـذي كـانوا ينتخبونه. وكان مصيرها هو التقسيم بين هـؤلاء الجيـران الثلاثة، على الرغم مما بذلته فرنسا من الجهود للاحتفاظ بها حليفًا مستقلاً.

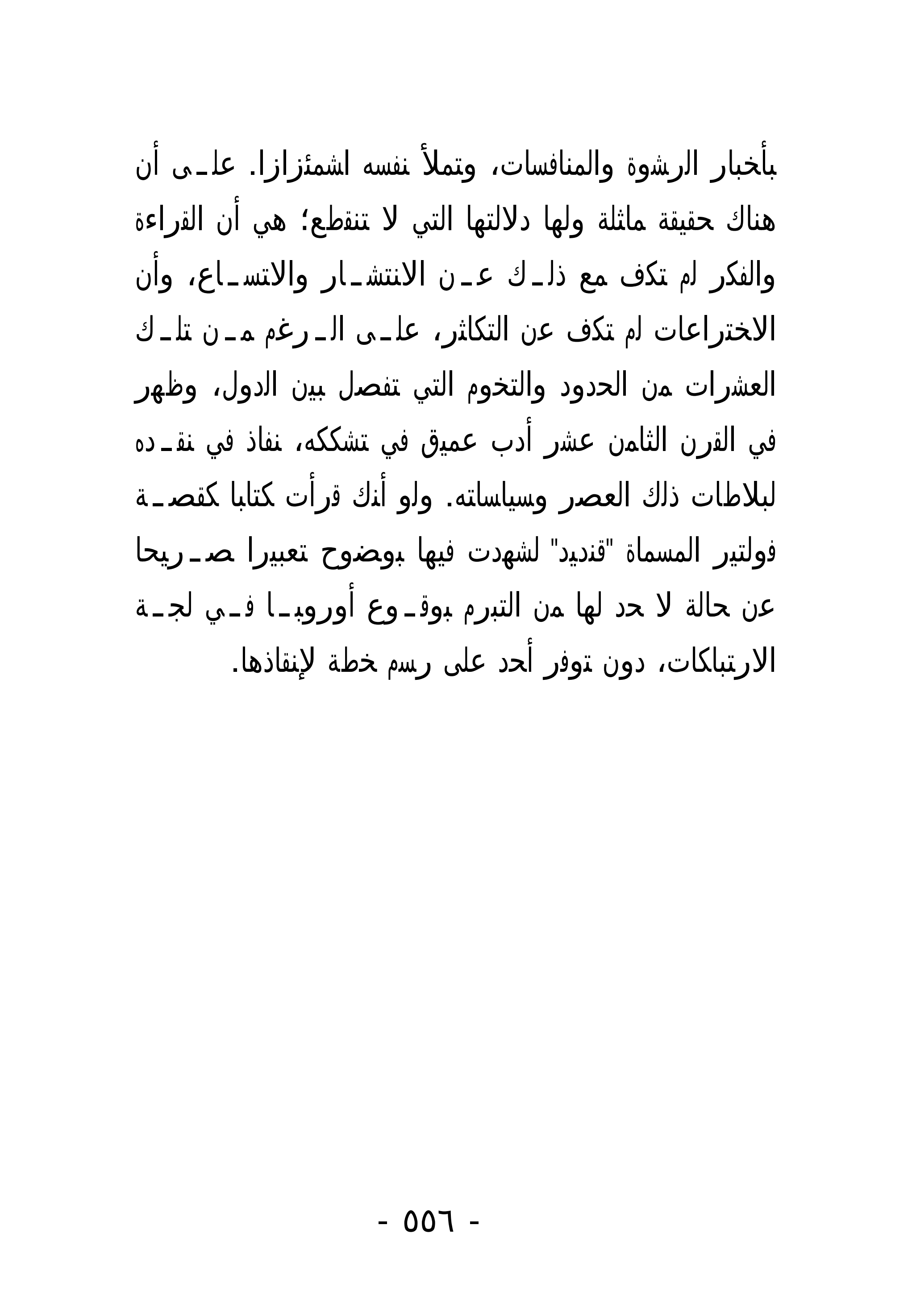
وكانت سويسرا في ذلك الأوان مكونة من مجموعة مـن "الكانتونات الجمهورية"، ثم إن البندقية كانت هـي الأخـرى جمهورية، على حين أن إيطاليا كمعظم ألمانيا تقسمها دوقات وأمراء صغار. أما البابا فكان يقيم في دولته البابوية حكمـا كحكم الأمراء، وقد أصبح الآن من شدة الخوف من فقـدان



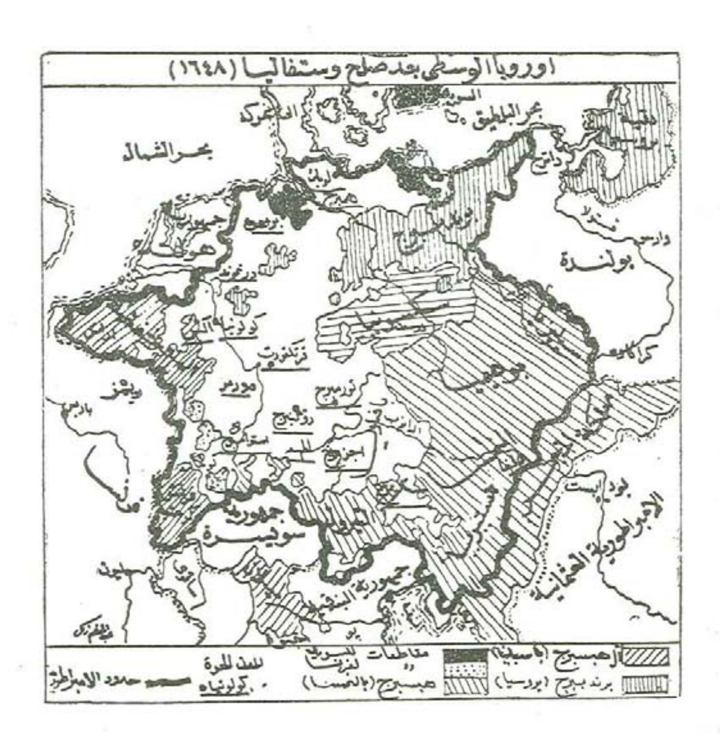
طاعة وولاء من بقي مواليا له من الأمراء الكاثوليك؛ بحيث لم يعد يجرؤ على التدخل بينهم وبين رعاياهم، أو على تذكير العالم بدولة النصرانية الشاملة.

والحق إنه لم يعد هناك بأوروبا مطلقًا أي فكرة سياسـية مشتركة؛ إذ إنها وقعت تماما بين براثن الفرقة، واستسـلمت كلية للخلاف.

وكان كل من هؤلاء الأمراء وتلك الجمهوريـات يـدبر الخطط الرامية إلى التوسع على حساب غيره، وكـان لكـل منهم سياسة خارجية تنطوي على العدوان علـى جيرانـه، وعلى التحالف العدواني. ونحن الأوروبيين لا نزال نعـيش في أيامنا هذه في آخر مرحلة من مراحل الدول المتعددة ذات السيادة، كما أننا لا نزال نكابد الآلام مـن تلـك الكراهيـات والعداوات والشكوك التي تولدت عن تلك المرحلة، ولا يلبث تاريخ تلك الفترة أن يفقد كل معنى ويصبح دردشة جوفـاء، وخوضا في الأعراض، تمجه أذن الناقد العصري الألمعـي؛ فهو يحدثنا تارة كيف أن خليلة هـذا الملـك أججـت تلـك الحروب، وكيف تولدت هذه الحرب الأخرى من غيرة وزير من آخر. وتثور ريح القيل والقال فتزكم أنف الدارس الذكي



بأخبار الرشوة والمنافسات، وتملأ نفسه اشمئزازا. علـى أن هناك حقيقة ماثلة ولها دلالتها التي لا تنقطع؛ هي أن القراءة والفكر لم تكف مع ذلـك عـن الانتشـار والاتسـاع، وأن الاختراعات لم تكف عن التكاثر، علـى الـرغم مـن تلـك العشرات من الحدود والتخوم التي تفصل بين الدول، وظهر في القرن الثامن عشر أدب عميق في تشككه، نفاذ في نقـده لبلاطات ذلك العصر وسياساته. ولو أنك قرأت كتابا كقصـة فولتير المسماة "قنديد" لشهدت فيها بوضوح تعبيرا صـريحا عن حالة لا حد لها من التبرم بوقـوع أوروبـا فـي لجـة الارتباكات، دون توفر أحد على رسم خطة لإنقاذها.


اوروبا الوسطى بعد صلح وستفاليا (١٦٤٨)
بحر الشمال
بحر البلطيق
الدنمرك
السويد
بولندة
كراكاو
وارسو
بوهيميا
بود ابست
الامبراطورية العثمانية
جمهورية سويسرة
جمهورية البندقية
جمهورية هولندة
باريس
فرنسا
هبسبرج (اسبانيا)
برندنبرج (بروسيا)
مقاطعات للسويد
هبسبرج (بالنمسا)
للمدن الحرة
كولونيا
حدود الامبراطورية

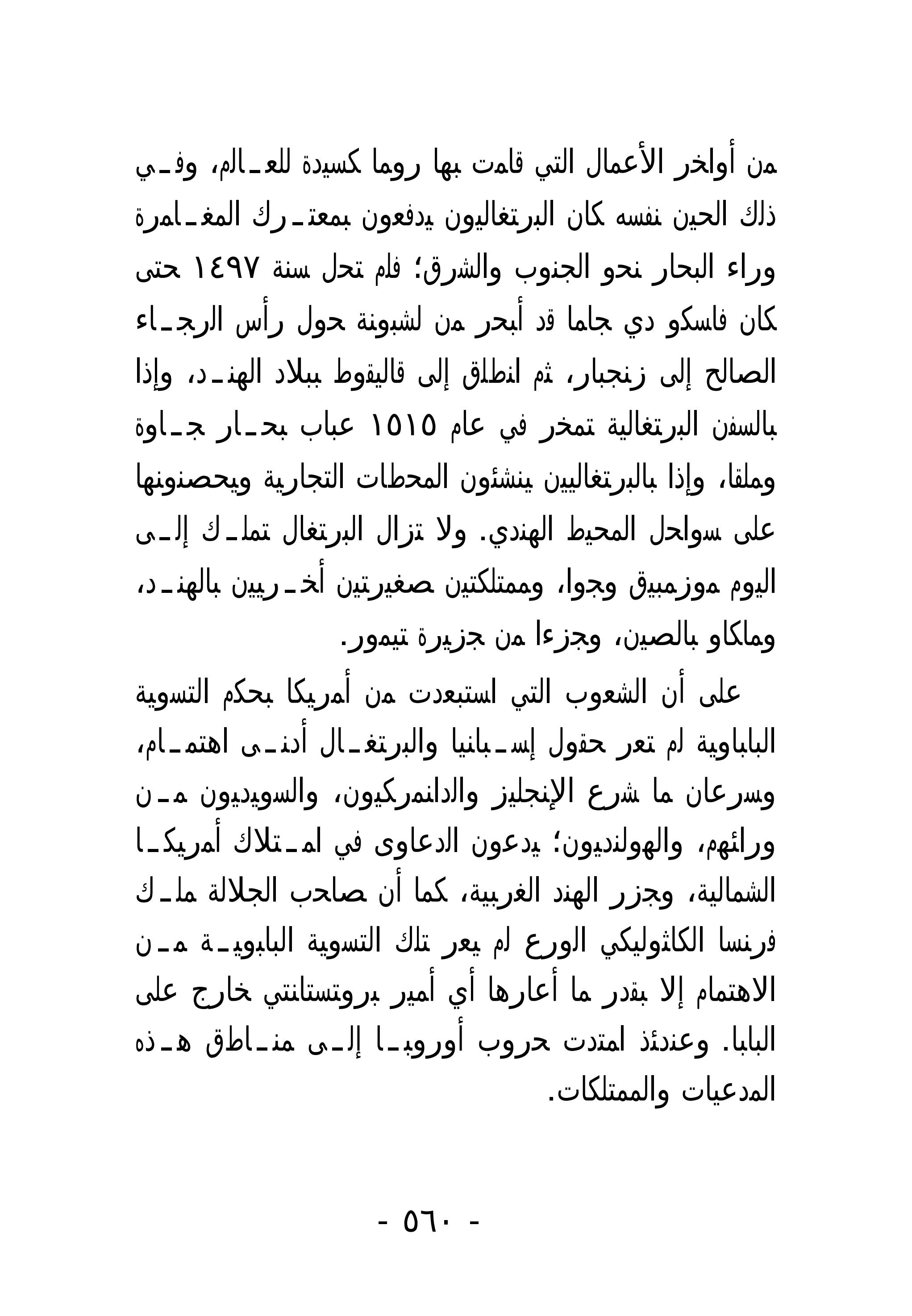
الفصل الثالث والخمسون

إمبراطوريات الأوروبيين الجديدة

في آسيا وما وراء البحار

وفي نفس الوقت الذي ظلت فيه أوروبا الوسطى مضطربة منقسمة على نفسها على النحو الذي رأيت؛ راح سكان غرب أوروبا، خاصة الهولنديين والإسكندناويين والإسبان والبرتغاليين والبريطانيين، يمدون منطقة كفاحهم وراء بحار العالم أجمع. ومن قبل ذلك كانت المطبعة قد دفعت بالأفكار السياسية والأوروبية إلى غمرة ثوران شديد كان غير معين في بدايته، على أن الاختراع العظيم الثاني (السفينة الشراعية التي تخترق المحيطات) كان يمد نطاق خبرة الأوروبيين بلا هوادة إلى آخر حدود المياه الملحة.

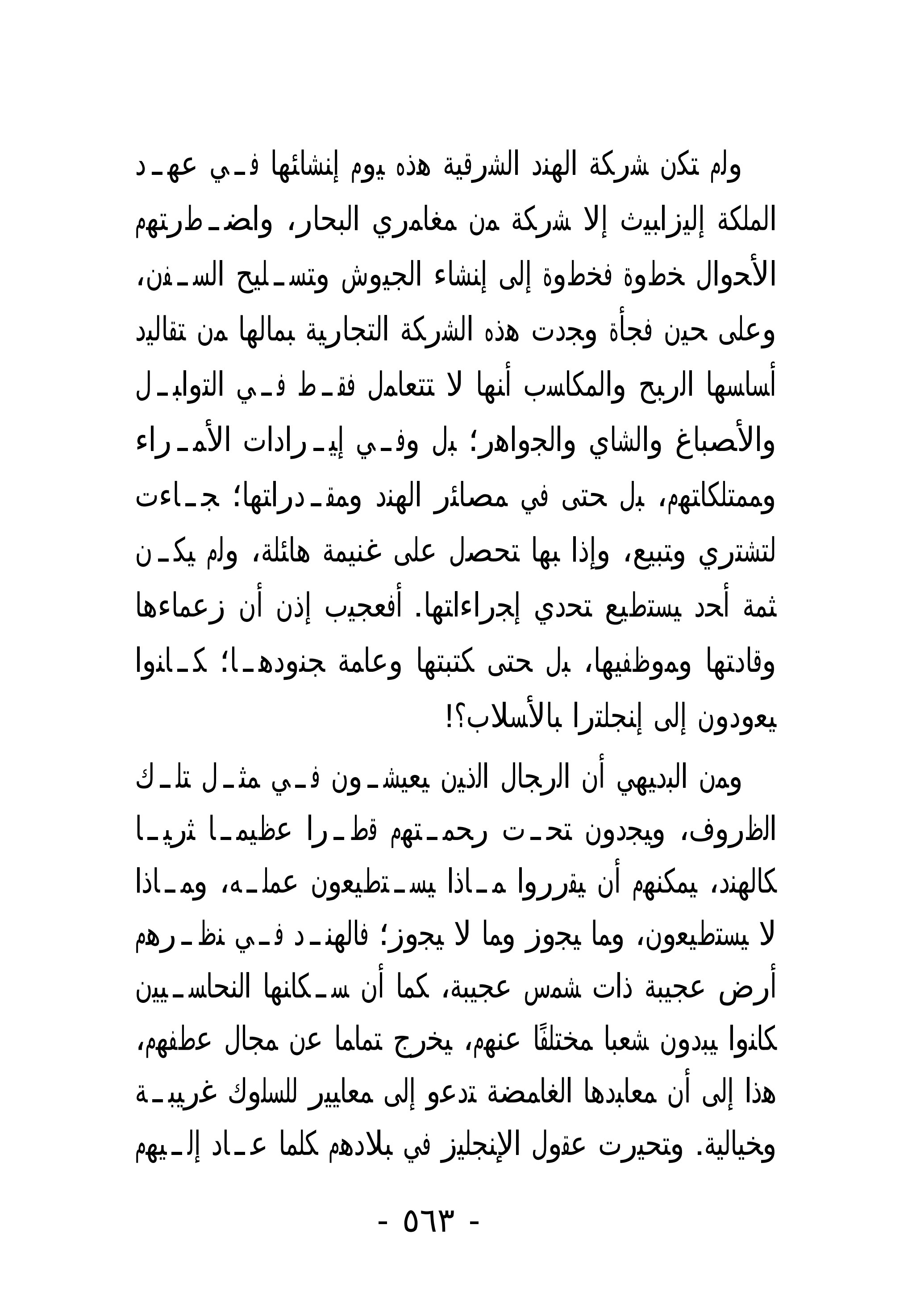
ولا شك أن أول ما أقـيم وراء البحـار مـن مسـتقرات الهولنديين، النازلين حول الجزء الشـمالي مـن الأوروبيـين لم يكن يهدف إلى الاستعمار؛ بل التجارة والتعـدين. وكـان الإسبان أول من اقتحم الميدان، فادعوا السيادة على كل هـذا العالم الجديد المسمى أمريكا. ومع ذلك فسرعان مـا طالـب البرتغاليون بنصيبهم في الغنيمة، وعندئذ تولى البابـا تقسـيم القارة الجديدة بين هذين الشعبين السباقين إلى الارتياد والفتح، فأعطى البرازيل للبرتغال، كما أعطاها كل شيء آخر يقع إلى الشرق من خط يمتد على بعد ٣٧٠ فرسخًا غرب جزائر رأس فردى، كما منح ما بقي بعد ذلك لإسبانيا (١٤٩٤)، وكان ذلك


من أواخر الأعمال التي قامت بها روما كسيدة للعـالم، وفـي ذلك الحين نفسه كان البرتغاليون يدفعون بمعتـرك المغـامرة وراء البحار نحو الجنوب والشرق؛ فلم تحل سنة ١٤٩٧ حتى كان فاسكو دي جاما قد أبحر من لشبونة حول رأس الرجـاء الصالح إلى زنجبار، ثم انطلق إلى قاليقوط ببلاد الهنـد، وإذا بالسفن البرتغالية تمخر في عام ١٥١٥ عباب بحـار جـاوة وملقا، وإذا بالبرتغاليين ينشئون المحطات التجارية ويحصنونها على سواحل المحيط الهندي. ولا تزال البرتغال تملـك إلـى اليوم موزمبيق وجوا، وممتلكتين صغيرتين أخـريين بالهنـد، وماكاو بالصين، وجزءا من جزيرة تيمور.

على أن الشعوب التي استبعدت من أمريكا بحكم التسوية البابا وية لم تعر حقوق إسـبانيا والبرتغـال أدنـى اهتمـام، وسرعان ما شرع الإنجليز والدانمركيون، والسويديون مـن ورائهم، والهولنديون؛ يدعون الدعاوى في امـتلاك أمريكـا الشمالية، وجزر الهند الغربية، كما أن صاحب الجلالة ملـك فرنسا الكاثوليكي الورع لم يعر تلك التسوية البابويـة مـن الاهتمام إلا بقدر ما أعارها أي أمير بروتستانتي خارج على البابا. وعندئذ امتدت حروب أوروبـا إلـى منـاطق هـذه المدعيات والممتلكات.

وكان الإنجليز في النهاية أنجح من دخل حلبة هذا السباق على الممتلكات وراء البحار؛ مذ كان أهل الدانمرك والسويد متورطين إلى أقصى حد في شئون ألمانيا المضطربة المعقدة؛ بحيث لم يستطيعوا مواصلة إرسال الحملات الفعالة إلى الخارج، ثم انتهى الأمر بأن تبددت قوة السويد في ميدان القتال، على يد ملك فاتن جذاب هو جوستاف أدولف "أسد الشمال" البروتستانتي. وما لبث الهولنديون أن ورثوا تلك المستقرات الصغيرة التي أنشاها السويديون بأمريكا. كما أن الهولنديين بدورهم كانوا شديدي القرب من فرنسا وعدوانها؛ بحيث لم يتمكنوا من الصمود في وجه البريطانيين. وكان أهم المتنافسين في بلاد الشرق الأقصى على تكوين الإمبراطوريات؛ هم البريطانيون والهولنديون والفرنسيون، كما أن أهمهم بأمريكا هم البريطانيون والفرنسيون والإسبان. ومن حسن حظ البريطانيين أن كانت لهم على أوروبا ميزة عظمى تحميهم منها؛ وهي بحر المانش، تلك التخوم المائية المسماة "الشعاع الفضي Silver Streak؛ لذا كانوا أقل الناس اشتباكًا في شئون الإمبراطورية اللاتينية وتقاليدها.

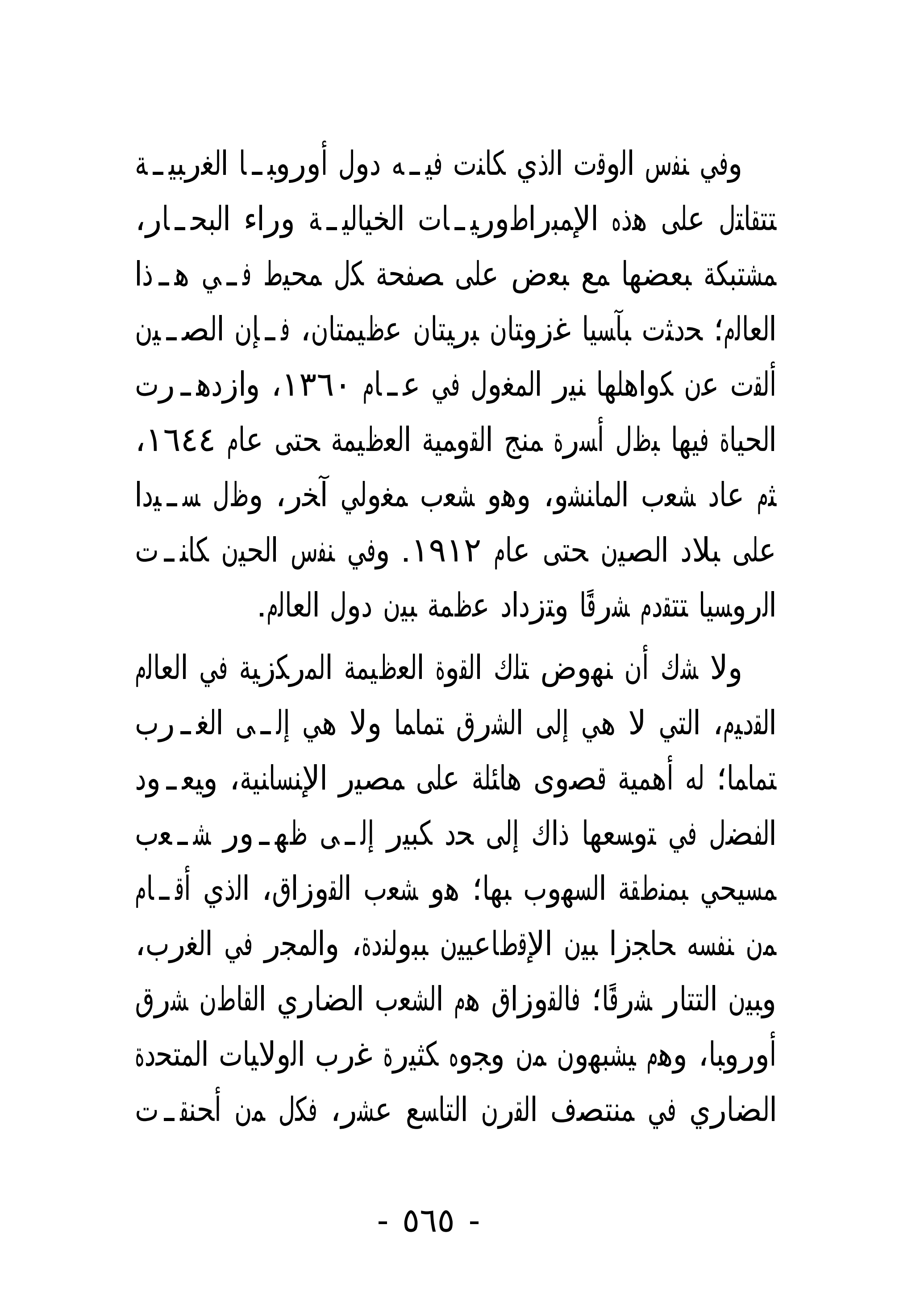
وقد دأبت فرنسا دائما على المبالغة في الاهتمام بالشـئون الأوروبية، فظلت طوال القرن الثامن عشر بأجمعه تضـيع ما يسنح أمامها من فرص التوسع في الشرق والغرب علـى السواء؛ رغبة منها في التسلط على إسبانيا وإيطاليا، وعلـى تلك الفوضى المجسمة المسماة ألمانيا. ثم إن الخلافات الدينية والسياسية ببريطانيا إبان القرن السابع عشر كانت قد دفعـت كثيرا من الإنجليز إلى البحث عن وطن دائم لهم بأمريكا؛ لذا توطدت بها أقدامهم، وتزايد عددهم، وتكاثر نسـلهم؛ الأمـر الذي عاد على الإنجليز بميزة كبرى من التفوق العددي فـي أثناء الكفاح على أمريكا. ولم يلبث الفرنسيون أن خسروا في عامي ١٧٥٦، و١٧٦٠ كندا، التي سقطت بيد البريطـانيين ورجالهم مستعمري أمريكا، وانقضت بضع سنوات أخـرى، وإذا بالشركة التجارية البريطانية تجد نفسها مسيطرة تمامـا على جميع من ينزل بأرض شـبه الجزيـرة الهنديـة مـن فرنسيين وهولنديين وبرتغـاليين؛ ذلـك أن الإمبراطوريـة المغولية العظيمة التي شادها بابر وأكبر وخلفاؤهما قد نخـر فيها الآن سوس الانحلال الشديد، كما أن قصة استيلاء شركة لندنية للتجارة عليها (هي شركة الهند البريطانية الشرقية) من أعجب ما حوى تاريخ الفتوح كله من حوادث.



ولم تكن شركة الهند الشرقية هذه يوم إنشائها في عهد الملكة إليزابيث إلا شركة من مغامري البحار، واضطرتهم الأحوال خطوة فخطوة إلى إنشاء الجيوش وتسليح السفن، وعلى حين فجأة وجدت هذه الشركة التجارية بمالها من تقاليد أساسها الربح والمكاسب أنها لا تتعامل فقط في التوابل والأصباغ والشاي والجواهر؛ بل وفي إيرادات الأمراء وممتلكاتهم، بل حتى في مصائر الهند ومقدراتها؛ جاءت لتشتري وتبيع، وإذا بها تحصل على غنيمة هائلة، ولم يكن ثمة أحد يستطيع تحدي إجراءاتها. أفعجيب إذن أن زعماءها وقادتها وموظفيها، بل حتى كتبتها وعامة جنودها؛ كانوا يعودون إلى إنجلترا بالأسلاب؟!

ومن البديهي أن الرجال الذين يعيشون في مثل تلك الظروف، ويجدون تحت رحمتهم قطرا عظيما ثريا كالهند، يمكنهم أن يقرروا ماذا يستطيعون عمله، وماذا لا يستطيعون، وما يجوز وما لا يجوز؛ فالهند في نظرهم أرض عجيبة ذات شمس عجيبة، كما أن سكانها النحاسيين كانوا يبدون شعبا مختلفًا عنهم، يخرج تماما عن مجال عطفهم، هذا إلى أن معابدها الغامضة تدعو إلى معايير للسلوك غريبة وخيالية. وتحيرت عقول الإنجليز في بلادهم كلما عاد إليهم

هؤلاء القادة أو الموظفون ليتراشقوا بالتهم القذرة الشنيعة، بـين ابتزاز للأموال وقساوات تقشعر لها الأبدان. وأصدر البرلمـان على كلايف قرارا باللوم، وما لبث أن انتحر في عـام ١٧٧٤، ثم حوكم وارن هاستنجس في عام ١٧٨٨، وهو مدير عظـيم ثانٍ لبلاد الهند، ثم أُخلي سبيله في عام ١٧٩٢. حقًا إنه لموقف غريب ليس له من سابقة في تاريخ العالم؛ ذلـك أن البرلمـان الإنجليزي ألفى نفسه يحكم من وراء شركة تجاريـة، كانـت بدورها تتسلط على إمبراطورية أعظم كثيرا وأكثر سكانًا مـن ممتلكات التاج البريطاني جميعا. وكانت الكثرة العظمـى مـن الشعب الإنجليزي تعد الهند بلدا قصيا لا يمـت إلـى الحقيقـة بسبب، ولا يكاد إنسان يستطيع بلوغه، ينطلـق إليـه الشـبان المغامرون الفقراء ليعودوا بعد سنوات جمة كهـولاً واسـعي الثراء، ذوي أخلاق شكسة عنيفة، وعسر علـى الإنجليـز أن يتصوروا طريقة عيش هؤلاء الملايين التي لا حصر لها مـن السمر السابحين في ضياء شمس بلاد الشرق؛ ذلك أن أخيلـتهم أبت عليهم إقامة تلك الصورة. وظلت الهند بناء على ذلك قطرا "رومانسيا" لا يمت إلى الواقع بأدنى سبب؛ لـذا صـار مـن المستحيل على الإنجليز أن يقوموا بأي إشراف فعال، أو هيمنة مثمرة على تصرفات الشركة.

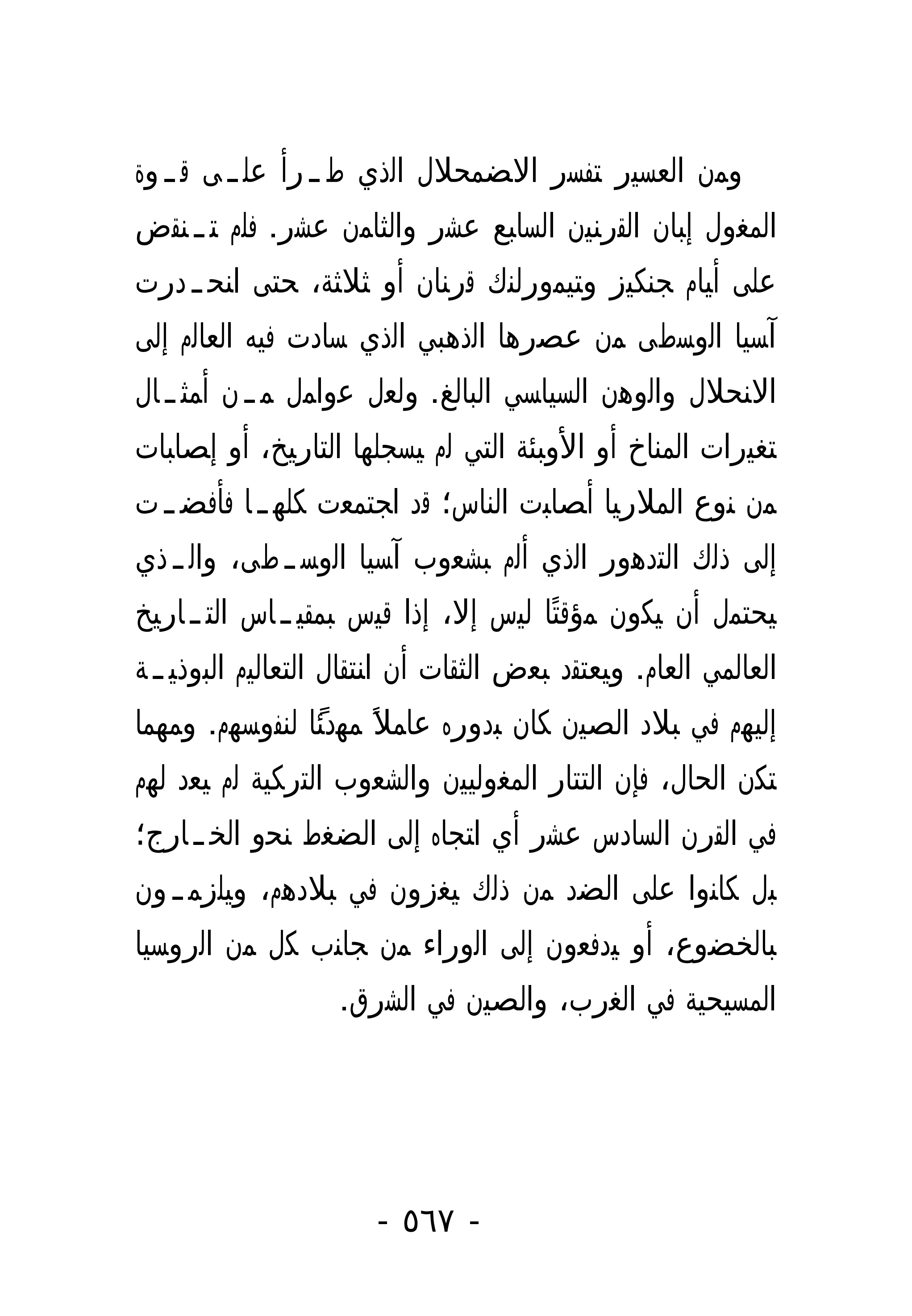


وفي نفس الوقت الذي كانت فيـه دول أوروبـا الغربيـة تتقاتل على هذه الإمبراطوريـات الخياليـة وراء البحـار، مشتبكة بعضها مع بعض على صفحة كل محيط فـي هـذا العالم؛ حدثت بآسيا غزوتان بريتان عظيمتان، فـإن الصـين ألقت عن كواهلها نير المغول في عـام ١٣٦٠، وازدهـرت الحياة فيها بظل أسرة منج القومية العظيمة حتى عام ١٦٤٤، ثم عاد شعب المانشو، وهو شعب مغولي آخر، وظل سـيدا على بلاد الصين حتى عام ١٩١٢. وفي نفس الحين كانـت الروسيا تتقدم شرقًا وتزداد عظمة بين دول العالم.

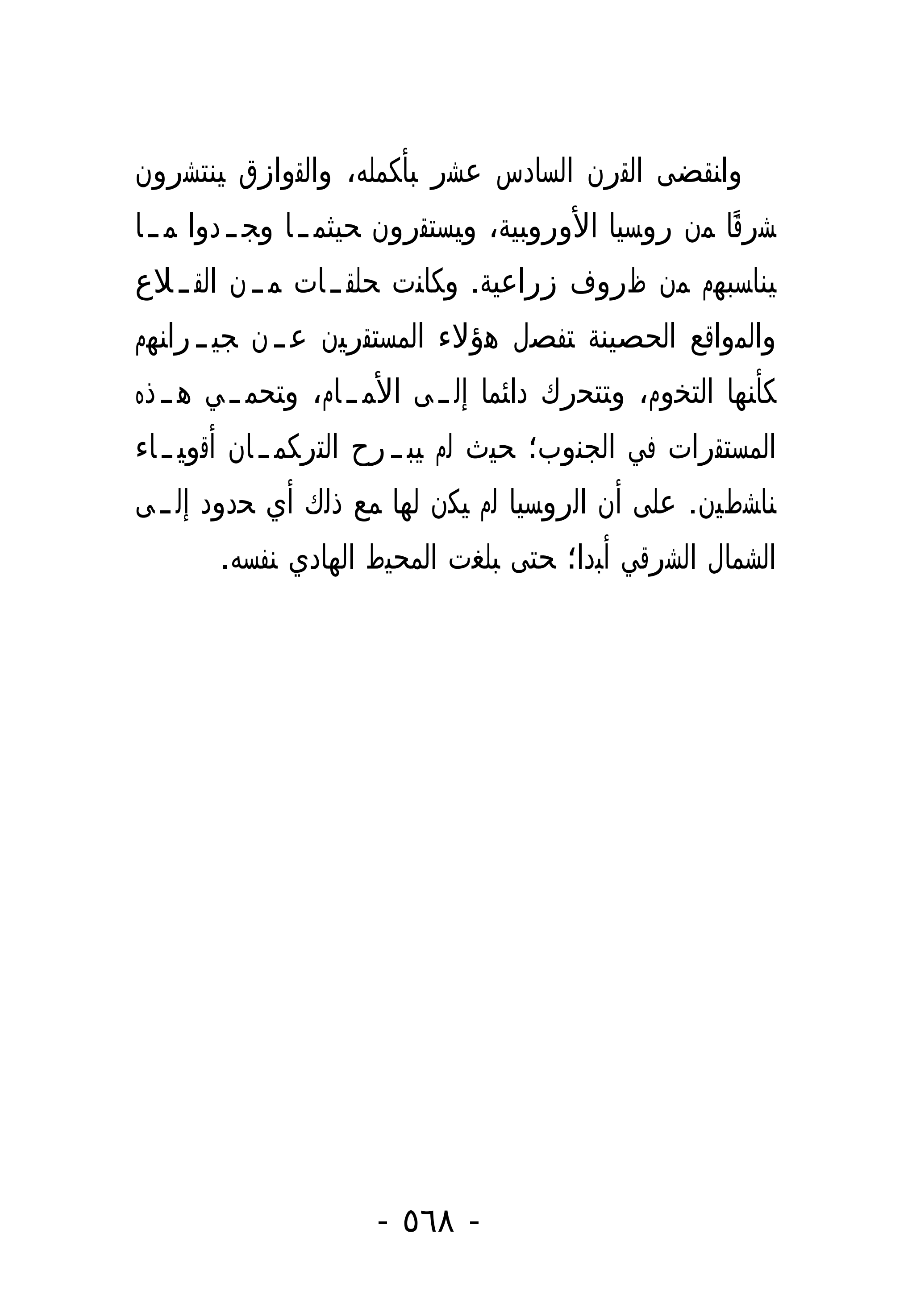
ولا شك أن نهوض تلك القوة العظيمة المركزية في العالم القديم، التي لا هي إلى الشرق تماما ولا هي إلـى الغـرب تماما؛ له أهمية قصوى هائلة على مصير الإنسانية، ويعـود الفضل في توسعها ذاك إلى حد كبير إلـى ظهـور شـعب مسيحي بمنطقة السهوب بها؛ هو شعب القوزاق، الذي أقـام من نفسه حاجزا بين الإقطاعيين ببولندة، والمجر في الغرب، وبين التتار شرقًا؛ فالقوزاق هم الشعب الضاري القاطن شرق أوروبا، وهم يشبهون من وجوه كثيرة غرب الولايات المتحدة الضاري في منتصف القرن التاسع عشر، فكل من أحنقـت

عليه الروسيا حتى ضاقت بـه ذرعـا (ســواء أكـان مـن المجرمين أم من الأبرياء المضـطهدين، وفـيهم المـوالي الثـائرون والطوائـف الدينيـة واللصـوص المتشـردون والقتلة) كانوا يلتمسون سهوب الجنوب ملجئًا، وهناك يبدأون حياتهم بدءا جديدا. ويقاتلون من أجل الحياة والحرية كلاً من البولنديين والروسيين والتتار على السواء. ولا يخالجنا أدنى شك في أن خليط القوازق كان يساهم فيه لاجئون من التتـار شرقًا.

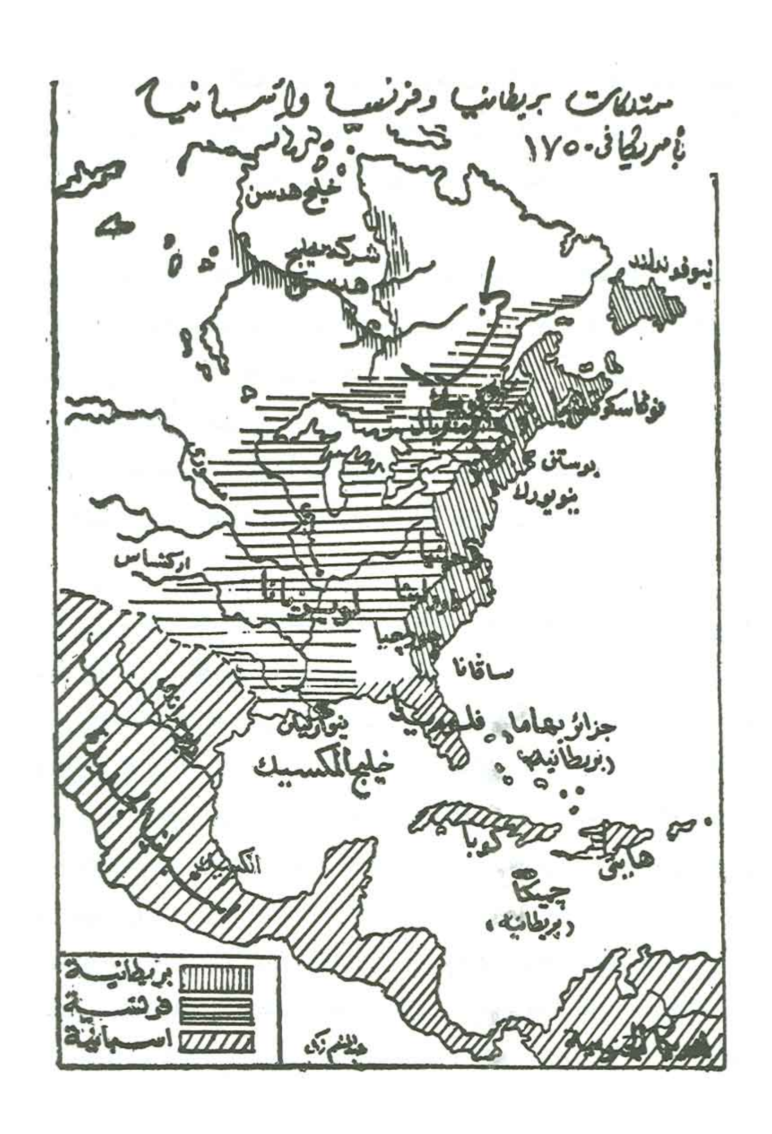
ثم أخذ هذا الشعب النازل على التخوم يدخل رويدا رويدا في خدمة القيصر الروسي العسكرية، على نفس الشاكلة التي تم بها للحكومة البريطانية تحويل عشائر مرتفعات أسـكتلندة إلى جند وفرق، وعند ذلك منحتهم الحكومة أرضـا جديـدة بآسيا؛ حيث أصبحوا سلاحا حادا لها ضد قوة المغول الرحل الذاوية المتناقصة، فحلوا أولاً ببلاد التركستان، ثـم توغلـوا عبر سيبريا حتى نهر عامور.



ومن العسير تفسر الاضمحلال الذي طـرأ علـى قـوة المغول إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر. فلم تـنقض على أيام جنكيز وتيمورلنك قرنان أو ثلاثة، حتى انحـدرت آسيا الوسطى من عصرها الذهبي الذي سادت فيه العالم إلى الانحلال والوهن السياسي البالغ. ولعل عوامل مـن أمثـال تغيرات المناخ أو الأوبئة التي لم يسجلها التاريخ، أو إصابات من نوع الملاريا أصابت الناس؛ قد اجتمعت كلهـا فأفضـت إلى ذلك التدهور الذي ألم بشعوب آسيا الوسـطى، والـذي يحتمل أن يكون مؤقتًا ليس إلا، إذا قيس بمقيـاس التـاريخ العالمي العام. ويعتقد بعض الثقات أن انتقال التعاليم البوذيـة إليهم في بلاد الصين كان بدوره عاملاً مهدئًا لنفوسهم. ومهما تكن الحال، فإن التتار المغوليين والشعوب التركية لم يعد لهم في القرن السادس عشر أي اتجاه إلى الضغط نحو الخـارج؛ بل كانوا على الضد من ذلك يغزون في بلادهم، ويلزمـون بالخضوع، أو يدفعون إلى الوراء من جانب كل من الروسيا المسيحية في الغرب، والصين في الشرق.

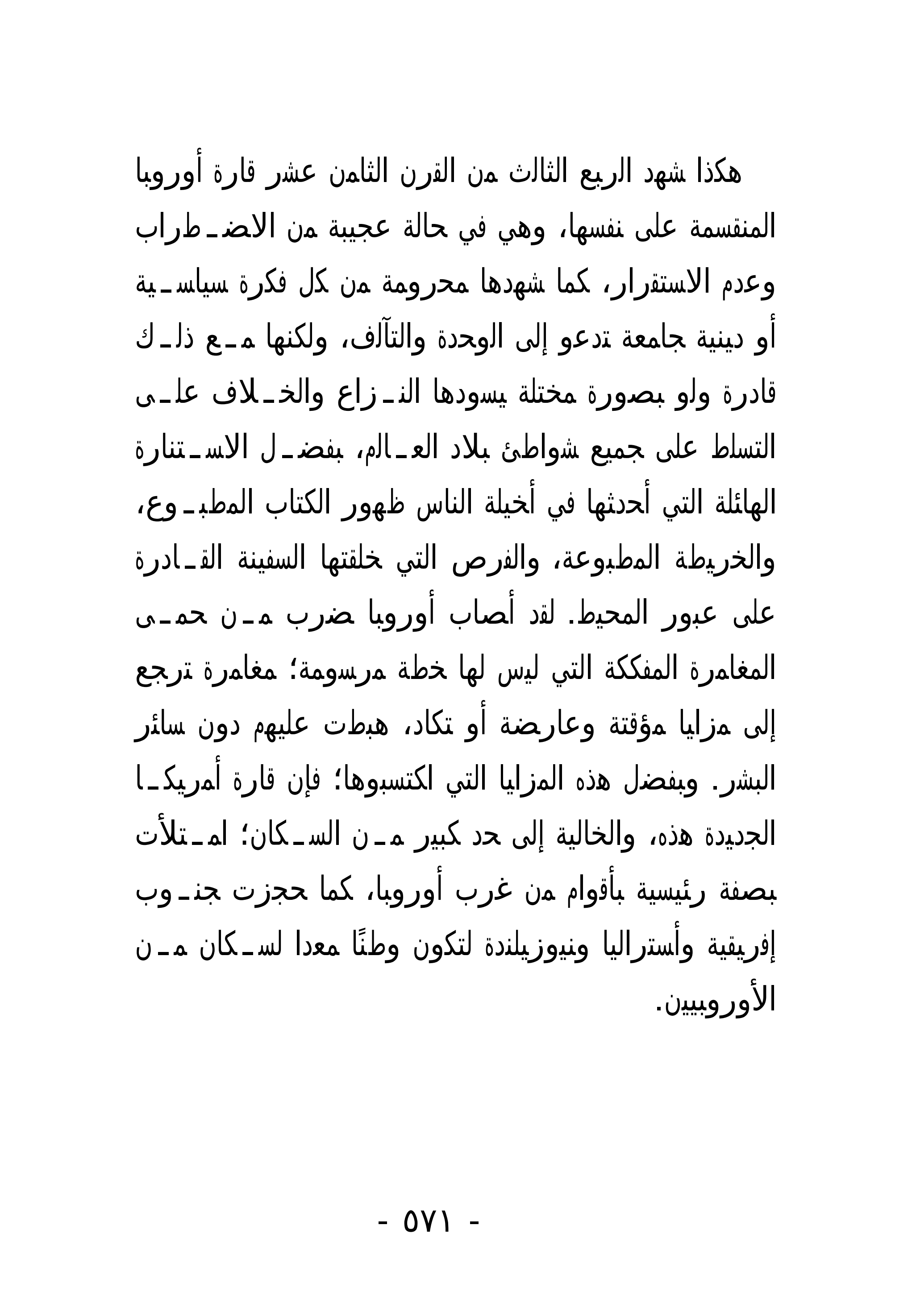


وانقضى القرن السادس عشر بأكمله، والقوازق ينتشرون شرقًا من روسيا الأوروبية، ويستقرون حيثمـا وجـدوا مـا يناسبهم من ظروف زراعية. وكانت حلقـات مـن القـلاع والمواقع الحصينة تفصل هؤلاء المستقرين عـن جيـرانهم كأنها التخوم، وتتحرك دائما إلـى الأمـام، وتحمـي هـذه المستقرات في الجنوب؛ حيث لم يبـرح التركمـان أقويـاء ناشطين. على أن الروسيا لم يكن لها مع ذلك أي حدود إلـى الشمال الشرقي أبدا؛ حتى بلغت المحيط الهادي نفسه.


ممتلكات بريطانيا وفرنسيا وأسبانيا
بأمريكا في ١٧٥٠
خليج هدسن
شركة خليج هدسن
نيوفوندلند
نوفاسكوشيا
بوستن
نيويورك
اركنساس
لويزيانا
سافانا
فلوريدا
نيو أورليانز
جزائر بهاما
(بريطانية)
خليج المكسيك
كوبا
هايتي
جميكا
(بريطانية)
بريطانية
فرنسية
اسبانية

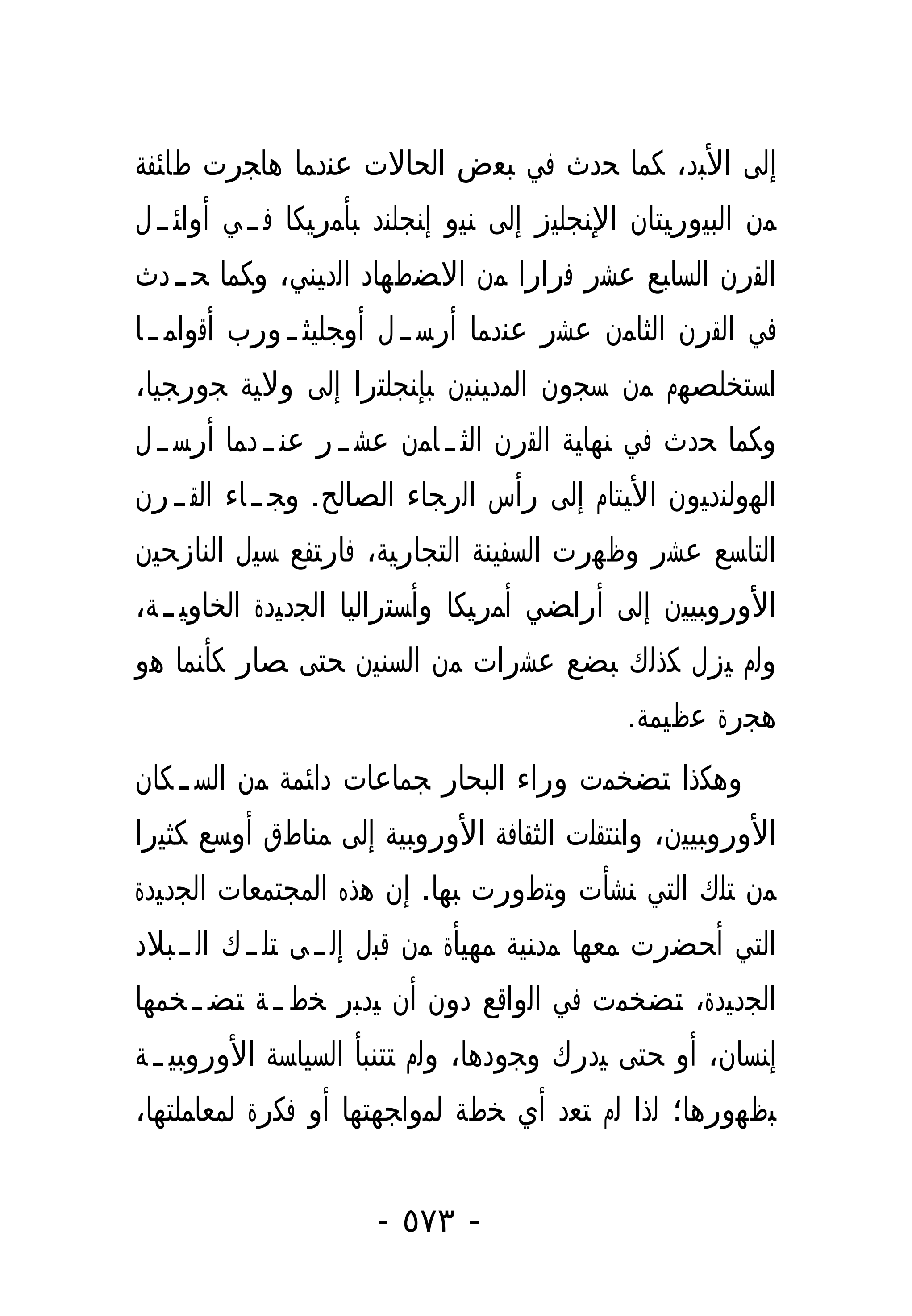
الفصل الرابع والخمسون

حرب استقلال أمريكا



هكذا شهد الربع الثالث من القرن الثامن عشر قارة أوروبا المنقسمة على نفسها، وهي في حالة عجيبة من الاضطراب وعدم الاستقرار، كما شهدها محرومة من كل فكرة سياسية أو دينية جامعة تدعو إلى الوحدة والتآلف، ولكنها مع ذلك قادرة ولو بصورة مختلة يسودها النزاع والخلاف على التسلط على جميع شواطئ بلاد العالم، بفضل الاستنارة الهائلة التي أحدثها في أخيلة الناس ظهور الكتاب المطبوع، والخريطة المطبوعة، والفرص التي خلقتها السفينة القادرة على عبور المحيط. لقد أصاب أوروبا ضرب من حمى المغامرة المفككة التي ليس لها خطة مرسومة؛ مغامرة ترجع إلى مزايا مؤقتة وعارضة أو تكاد، هبطت عليهم دون سائر البشر. وبفضل هذه المزايا التي اكتسبوها؛ فإن قارة أمريكا الجديدة هذه، والخالية إلى حد كبير من السكان؛ امتلأت بصفة رئيسية بأقوام من غرب أوروبا، كما حجزت جنوب إفريقية وأستراليا ونيوزيلندة لتكون وطنًا معدا لسكان من الأوروبيين.

ولم يكن مبعث كولمبس إلى أمريكا، أو فاسكودي جاما إلى الهند؛ إلا الدافع الأول الدائم للبحارة جميعا منذ بدء الخليقة؛ ألا وهو التجارة. ولكن على حين حدث في الشرق الآهل آنفًا بالسكان والحافل بالمنتجات أن الباعث التجاري ظل غالبا متسلطًا، وظلت مستقرات الأوروبيين به تجارية بحتة، وكان سكانها (الأوروبيون) يرجون دائما أن يعودوا إلى أوطانهم لإنفاق أموالهم؛ فإن الأوروبيين في أمريكا ألفوا أنفسهم أمام باعث جديد، يحملهم على التشبث بتلك البلاد بحثًا عن الذهب والفضة؛ وذلك لأنهم كانوا يتعاملون هناك مع مجتمعات مستوى نشاطها الإنتاجي أخفض كثيرا جدا. ولقد ذهب الأوروبيون إلى أمريكا لا بوصفهم تجارا مسلحين؛ بل كباحثين عن المعادن النفيسة، ومعدنين ومنقبين عن المنتجات الطبيعية، ثم عادوا فتحولوا بعد ذلك إلى الزراعة، وكانوا في المناطق الشمالية يجمعون الفراء، ثم استلزمت المناجم والمزارع قيام المستقرات (المستوطنات)؛ فكأنهما اضطرا هؤلاء الناس إلى إقامة الأوطان الدائمة لأنفسهم وراء البحار. ثم ترامى الأمر أن أصبح الأوروبيون يعبرون البحار بهدف قاطع صريح؛ هو أن يجدوا لأنفسهم أوطانًا جديدة يسكنونها

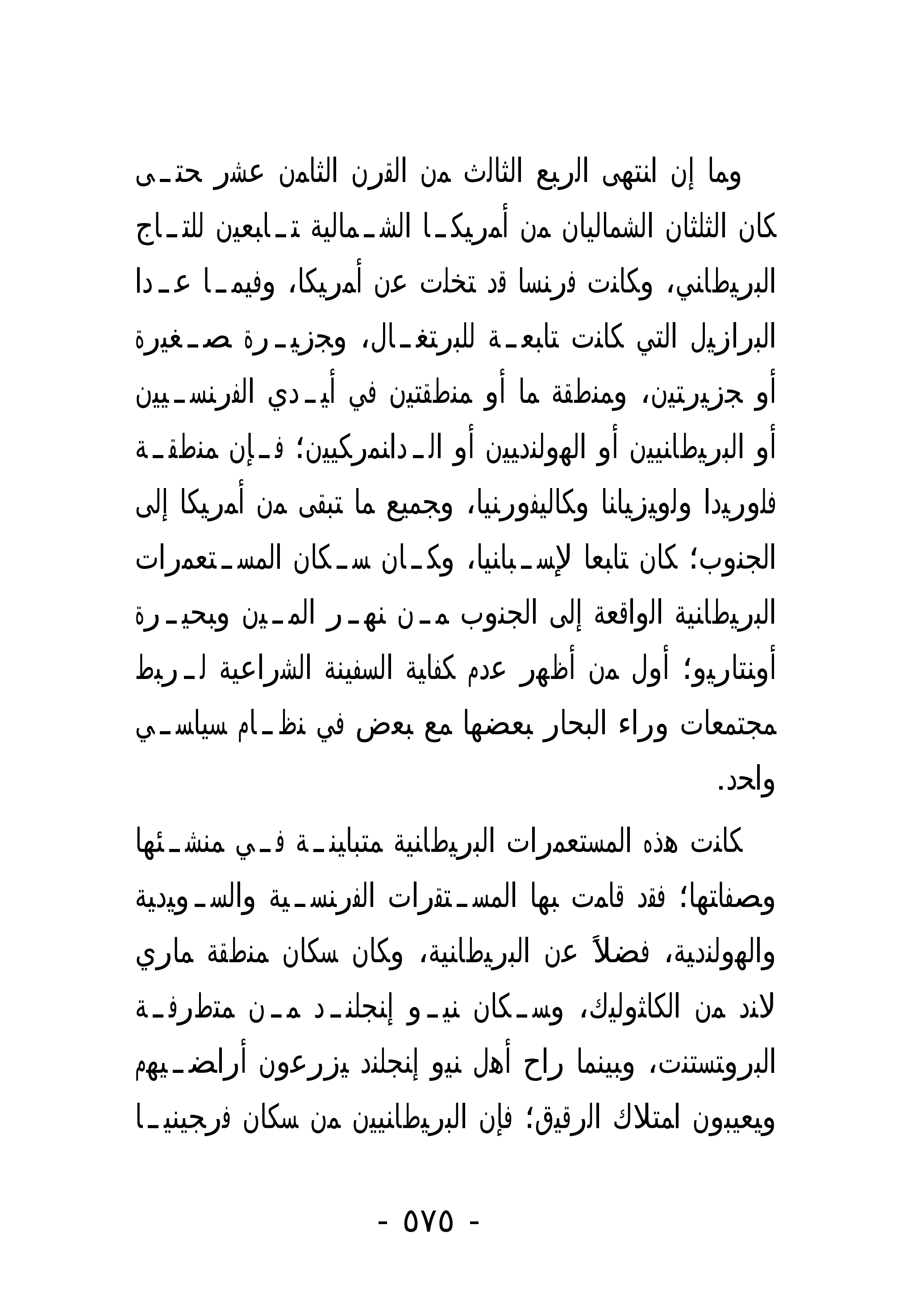


إلى الأبد، كما حدث في بعض الحالات عندما هاجرت طائفة من البيوريتان الإنجليز إلى نيو إنجلند بأمريكا في أوائل القرن السابع عشر فرارا من الاضطهاد الديني، وكما حدث في القرن الثامن عشر عندما أرسل أوجليثورب أقواما استخلصهم من سجون المدينين بإنجلترا إلى ولاية جورجيا، وكما حدث في نهاية القرن الثامن عشر عندما أرسل الهولنديون الأيتام إلى رأس الرجاء الصالح. وجاء القرن التاسع عشر وظهرت السفينة التجارية، فارتفع سيل النازحين الأوروبيين إلى أراضي أمريكا وأستراليا الجديدة الخاوية، ولم يزل كذلك بضع عشرات من السنين حتى صار كأنما هو هجرة عظيمة.

وهكذا تضخمت وراء البحار جماعات دائمة من السكان الأوروبيين، وانتقلت الثقافة الأوروبية إلى مناطق أوسع كثيرا من تلك التي نشأت وتطورت بها. إن هذه المجتمعات الجديدة التي أحضرت معها مدنية مهيأة من قبل إلى تلك البلاد الجديدة، تضخمت في الواقع دون أن يدبر خطة تضخمها إنسان، أو حتى يدرك وجودها، ولم تتنبأ السياسة الأوروبية بظهورها؛ لذا لم تعد أي خطة لمواجهتها أو فكرة لمعاملتها،

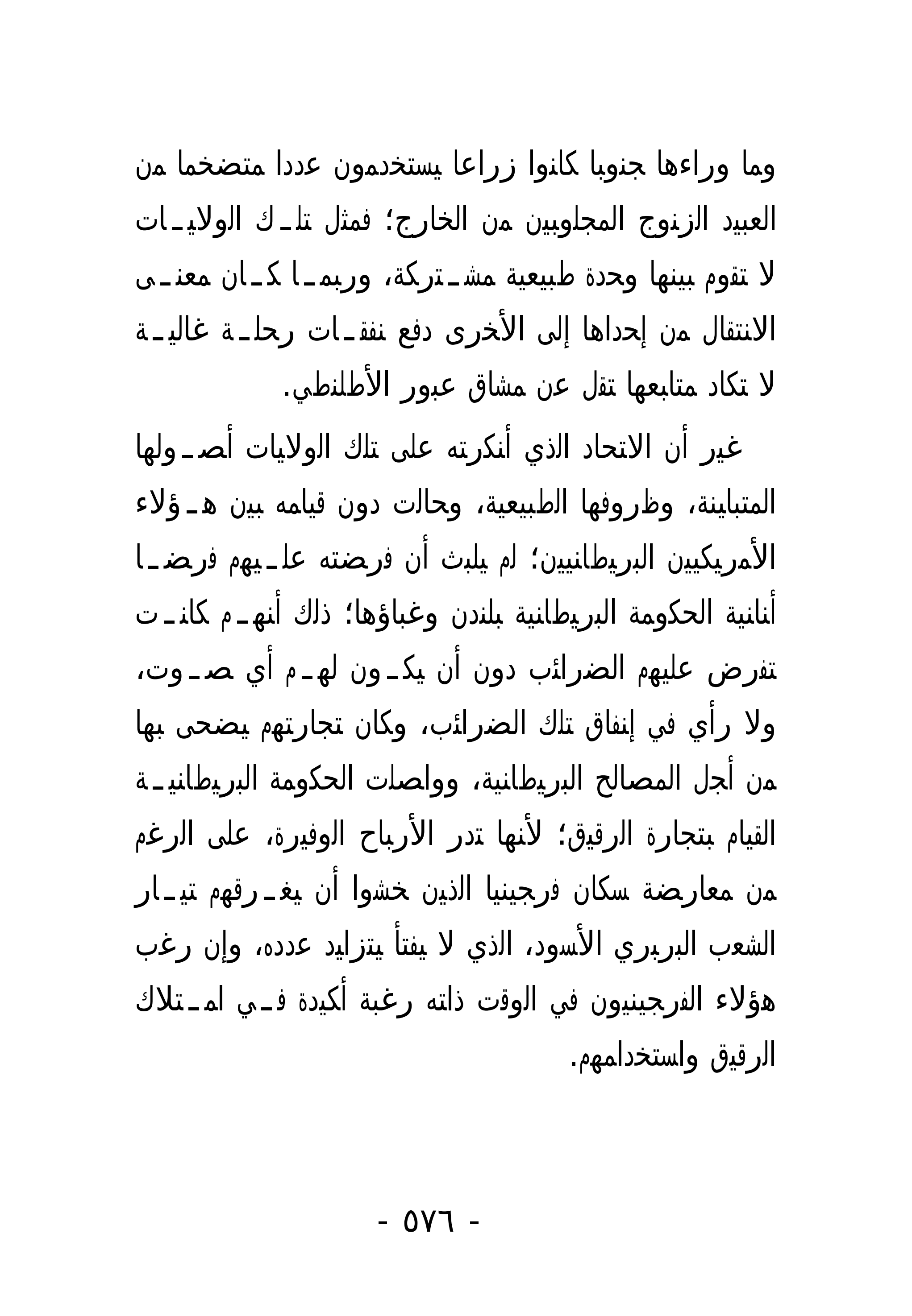
فظل ساسة أوروبا ووزراؤها يعدونها مؤسسات عسكرية في جوهر أمرها، وموارد إيراد للدولة، أو "ممتلكات" أو "بـلادا تدين بالتبعية"، وذلك بعد أن تأصل في سكانها بزمن طويـل إحساسهم الحاد بانفصـال حيـاتهم الاجتماعيـة عـن كـل ما عداها، ثم إنهم ظلوا يعاملونهم كشعب ذليل عاجز خاضع للدولة الأم، بعد أن انتشر السكان بزمن مديد في داخل البلاد، وأصبحوا بعيدين عن طائلة أي عمليات تأديبية فعالة توجـه إليهم من البحر.

ذلك أنه يجب ألا يغرب عن بالنا أن السـفينة الشـراعية الماخرة للمحيط كانت همـزة الوصـل بـين أجـزاء هـذه الإمبراطوريات الممتدة وراء البحار، إلى أن تقـدم الـزمن تماما بالقرن التاسع عشر. أما على البر فإن أسـرع وسـيلة للمواصلات لم تبرح هي الحصان، كما لم يزل تماسك النظم السياسية ووحدتها في البـر محـدودا بمـا تفرضـه عليـه مواصلات الحصان من قيود.



وما إن انتهى الربع الثالث من القرن الثامن عشر حتى كان الثلثان الشماليان من أمريكا الشمالية تابعين للتاج البريطاني، وكانت فرنسا قد تخلت عن أمريكا، وفيما عدا البرازيل التي كانت تابعة للبرتغال، وجزيرة صغيرة أو جزيرتين، ومنطقة ما أو منطقتين في أيدي الفرنسيين أو البريطانيين أو الهولنديين أو الدانمركيين؛ فإن منطقة فلوريدا ولويزيانا وكاليفورنيا، وجميع ما تبقى من أمريكا إلى الجنوب؛ كان تابعا لإسبانيا، وكان سكان المستعمرات البريطانية الواقعة إلى الجنوب من نهر المين وبحيرة أونتاريو؛ أول من أظهر عدم كفاية السفينة الشراعية لربط مجتمعات وراء البحار بعضها مع بعض في نظام سياسي واحد.

كانت هذه المستعمرات البريطانية متباينة في منشئها وصفاتها؛ فقد قامت بها المستقرات الفرنسية والسويدية والهولندية، فضلاً عن البريطانية، وكان سكان منطقة ماري لاند من الكاثوليك، وسكان نيو إنجلند من متطرفة البروتستنت، وبينما راح أهل نيو إنجلند يزرعون أراضيهم ويعيبون امتلاك الرقيق؛ فإن البريطانيين من سكان فرجينيا

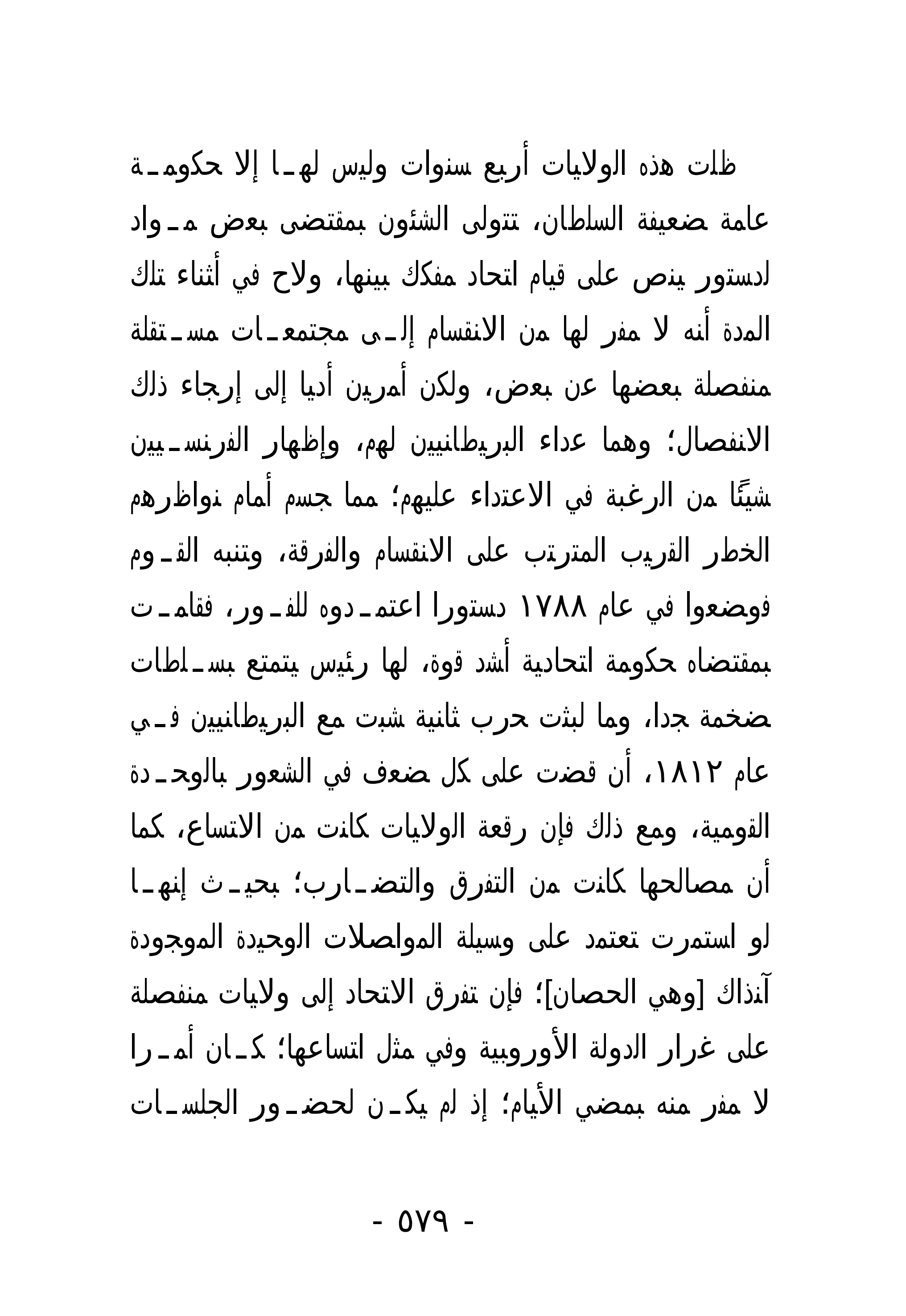

وما وراءها جنوبا كانوا زراعا يستخدمون عددا متضخما من العبيد الزنوج المجلوبين من الخارج؛ فمثل تلـك الولايـات لا تقوم بينها وحدة طبيعية مشـتركة، وربمـا كـان معنـى الانتقال من إحداها إلى الأخرى دفع نفقـات رحلـة غاليـة لا تكاد متابعها تقل عن مشاق عبور الأطلنطي.

غير أن الاتحاد الذي أنكرته على تلك الولايات أصـولها المتباينة، وظروفها الطبيعية، وحالت دون قيامه بين هـؤلاء الأمريكيين البريطانيين؛ لم يلبث أن فرضته علـيهم فرضـا أنانية الحكومة البريطانية بلندن وغباؤها؛ ذلك أنهـم كانـت تفرض عليهم الضرائب دون أن يكـون لهـم أي صـوت، ولا رأي في إنفاق تلك الضرائب، وكان تجارتهم يضحى بها من أجل المصالح البريطانية، وواصلت الحكومة البريطانيـة القيام بتجارة الرقيق؛ لأنها تدر الأرباح الوفيرة، على الرغم من معارضة سكان فرجينيا الذين خشوا أن يغـرقهم تيـار الشعب البربري الأسود، الذي لا يفتأ يتزايد عدده، وإن رغب هؤلاء الفرجينيون في الوقت ذاته رغبة أكيدة فـي امـتلاك الرقيق واستخدامهم.

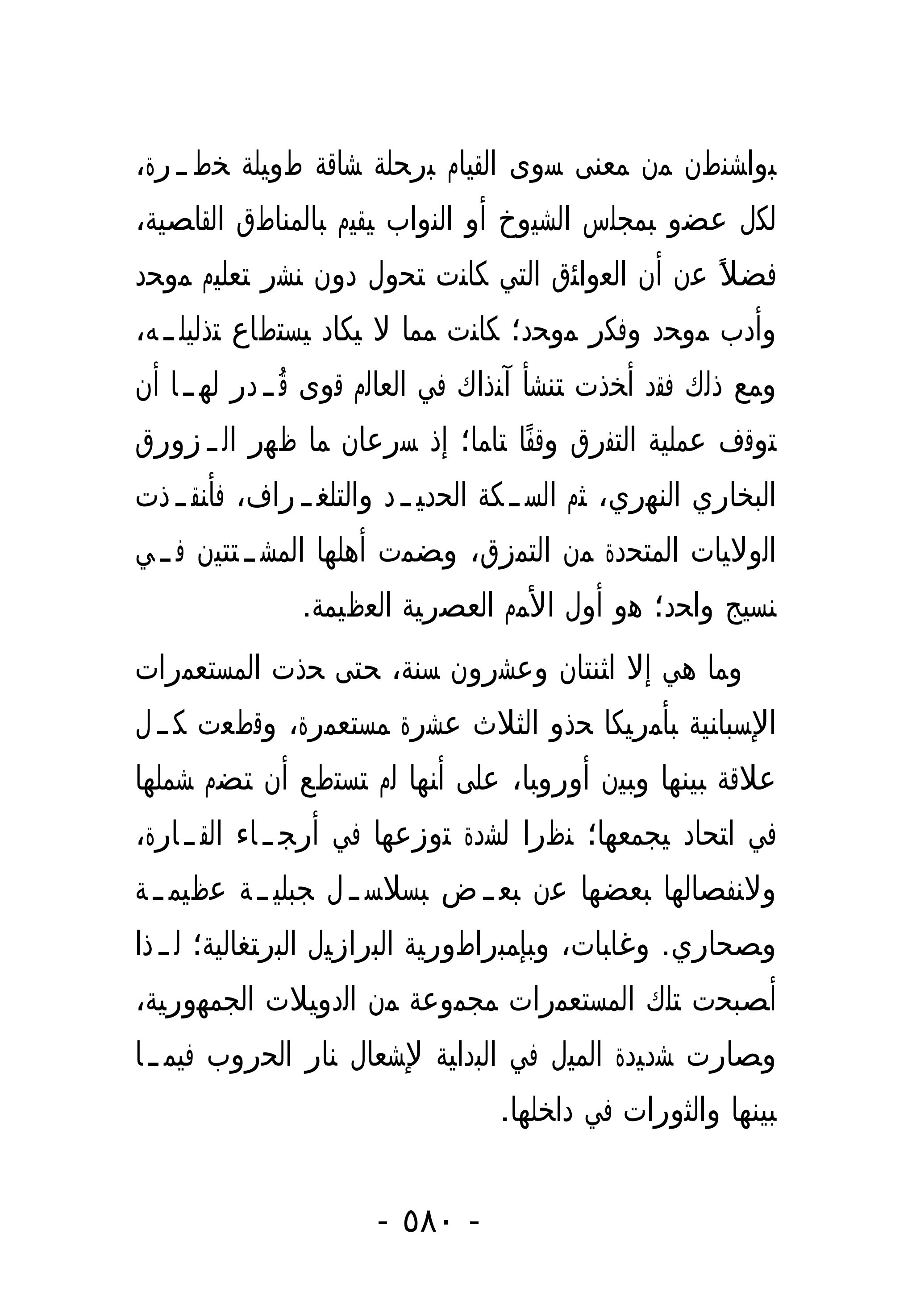
وفي ذلك الوقت نفسه أخذت بريطانيا تتجه صوب نـوع جديد من الحكم الملكي، يتصف بالقوة والشدة، وأفضى عناد الملك جورج الثالث (١٧٦٠-١٨٢٠) إلى دفع المسـتعمرات دفعا إلى القتال مع الحكومة البريطانية.

ومما عجل باندلاع لهيب الصراع؛ ذلك التشريع الذي آثر بالتفضيل مصالح شركة الهند الشرقية بلندن علـى حسـاب أرباب السفن الأمريكية؛ لذا هاجمت ثلة من الرجال تنكـرت في زي الهنود الحمر في عام ١٧٧٣ ثـلاث سـفن بمينـاء بوسطن، وألقت في الماء بما كانت تحمل من الشـاي الـذي استورد في ظل القـانون الجديـد. ولـم يبـدأ القتـال إلا عام ١٧٧٥، عندما حاولت الحكومة البريطانيـة أن تعتقـل اثنين من زعماء الأمريكيين بمدينة لكنجستون قرب بوسطن، وأطلق البريطانيون أول طلقات الحرب بمدينة لكنجسـتون، وتلاحم الجمعان في أول قتال بينهما قرب كونكورد.

هكذا بـدأت حـرب الاسـتقلال الأمريكيـة، وإن ظـل المستعمرون الأمريكيون أكثر من سنة كاملة يقفون موقـف الإحجام البالغ عن القتال، وعدم الرغبة في قطـع علاقـتهم ببلادهم الأصلية؛ فلم يصدر مجلس الكنجـرس Congress ونواب الولايات الثائرة وثيقة "إعـلان الاسـتقلال" إلا بعـد منتصف عام ١٧٧٦، وعين جورج واشـنطن قائـدا عامـا للجيوش الأمريكية، وكان قد تعلم فنون الحرب فـي أثنـاء الكفاح الذي نشب مع الفرنسيين شأنه في ذلك شأن كثير من المستوطنين الأمريكيين في ذلك الزمان. وفي عـام ١٧٧٧ هزم عند مزرعة فريمان قائـدا بريطانيـا هـو الجنـرال بورجيون، واضطره إلى التسليم عند ساراتوجا فـي أثنـاء محاولته التقدم من كندا إلى نيويورك. وفي نفس تلك السـنة أعلن الفرنسيون والإسبان الحرب على بريطانيـا العظمـى، فأدى ذلك إلى تعطيل مواصلاتها البحرية تعطيلاً بالغًا، ثـم طرق جيش بريطاني آخر تحت إمرة الجنرال كورنـوالبس شبه جزيرة يوركتاون بفرجينيا، واضطر بدوره إلى التسـليم دون شرط عام ١٧٨١، ثـم عقـد الصـلح ببـاريس فـي عام ١٧٨٣، وبمقتضاه أصبحت المستعمرات الثلاث عشرة الممتدة من المين إلى فرجينيا اتحادا مكونًا من ولايات مستقلة ذات سيادة. وهكذا ظهرت الولايات المتحدة الأمريكيـة فـي عالم الوجود، وظلت كندا موالية للراية البريطانية.

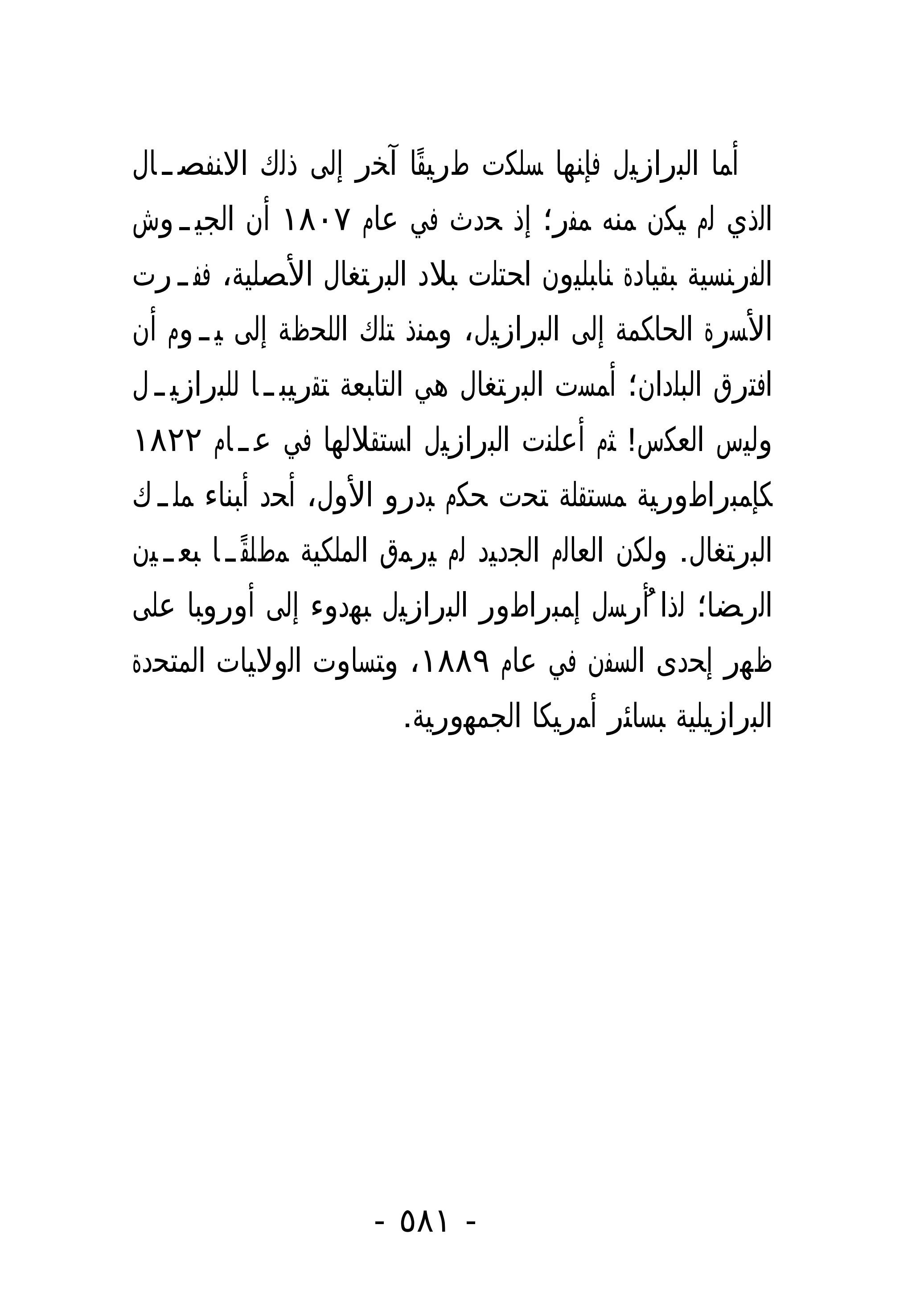


ظلت هذه الولايات أربع سنوات وليس لهـا إلا حكومـة عامة ضعيفة السلطان، تتولى الشئون بمقتضى بعض مـواد ادستور ينص على قيام اتحاد مفكك بينها، ولاح في أثناء تلك المدة أنه لا مفر لها من الانقسام إلـى مجتمعـات مسـتقلة منفصلة بعضها عن بعض، ولكن أمرين أديا إلى إرجاء ذلك الانفصال؛ وهما عداء البريطانيين لهم، وإظهار الفرنسـيين شيئًا من الرغبة في الاعتداء عليهم؛ مما جسم أمام نواظرهم الخطر القريب المترتب على الانقسام والفرقة، وتنبه القـوم فوضعوا في عام ١٧٨٨ دستورا اعتمـدوه للفـور، فقامـت بمقتضاه حكومة اتحادية أشد قوة، لها رئيس يتمتع بسـلطات ضخمة جدا، وما لبثت حرب ثانية شبت مع البريطانيين فـي عام ١٨١٢، أن قضت على كل ضعف في الشعور بالوحـدة القومية، ومع ذلك فإن رقعة الولايات كانت من الاتساع، كما أن مصالحها كانت من التفرق والتضـارب؛ بحيـث إنهـا لو استمرت تعتمد على وسيلة المواصلات الوحيدة الموجودة آنذاك [وهي الحصان]؛ فإن تفرق الاتحاد إلى ولايات منفصلة على غرار الدولة الأوروبية وفي مثل اتساعها؛ كـان أمـرا لا مفر منه بمضي الأيام؛ إذ لم يكـن لحضـور الجلسـات

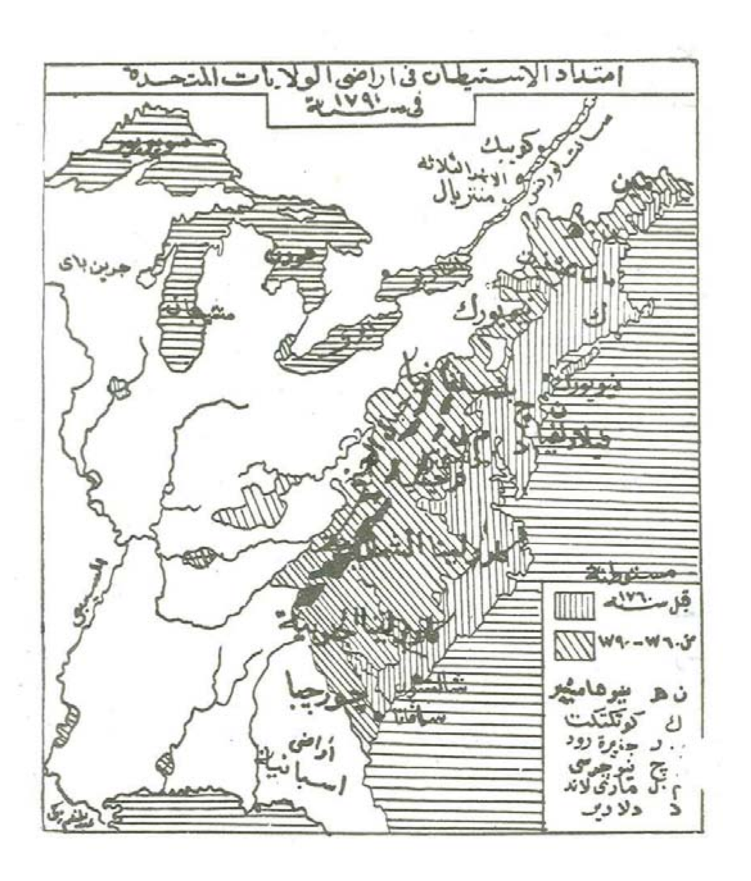


بواشنطن من معنى سوى القيام برحلة شاقة طويلة خطرة، لكل عضو بمجلس الشيوخ أو النواب يقيم بالمناطق القاصية، فضلاً عن أن العوائق التي كانت تحول دون نشر تعليم موحد وأدب موحد وفكر موحد؛ كانت مما لا يكاد يستطاع تذليله، ومع ذلك فقد أخذت تنشأ آنذاك في العالم قوى قُدر لها أن توقف عملية التفرق وقفًا تاما؛ إذ سرعان ما ظهر الزورق البخاري النهري، ثم السكة الحديد والتلغراف، فأنقذت الولايات المتحدة من التمزق، وضمت أهلها المشتتين في نسيج واحد؛ هو أول الأمم العصرية العظيمة.

وما هي إلا اثنتان وعشرون سنة، حتى حذت المستعمرات الإسبانية بأمريكا حذو الثلاث عشرة مستعمرة، وقطعت كل علاقة بينها وبين أوروبا، على أنها لم تستطع أن تضم شملها في اتحاد يجمعها؛ نظرا لشدة توزعها في أرجاء القارة، ولانفصالها بعضها عن بعض بسلاسل جبلية عظيمة وصحاري. وغابات، وبإمبراطورية البرازيل البرتغالية؛ لذا أصبحت تلك المستعمرات مجموعة من الدويلات الجمهورية، وصارت شديدة الميل في البداية لإشعال نار الحروب فيما بينها والثورات في داخلها.



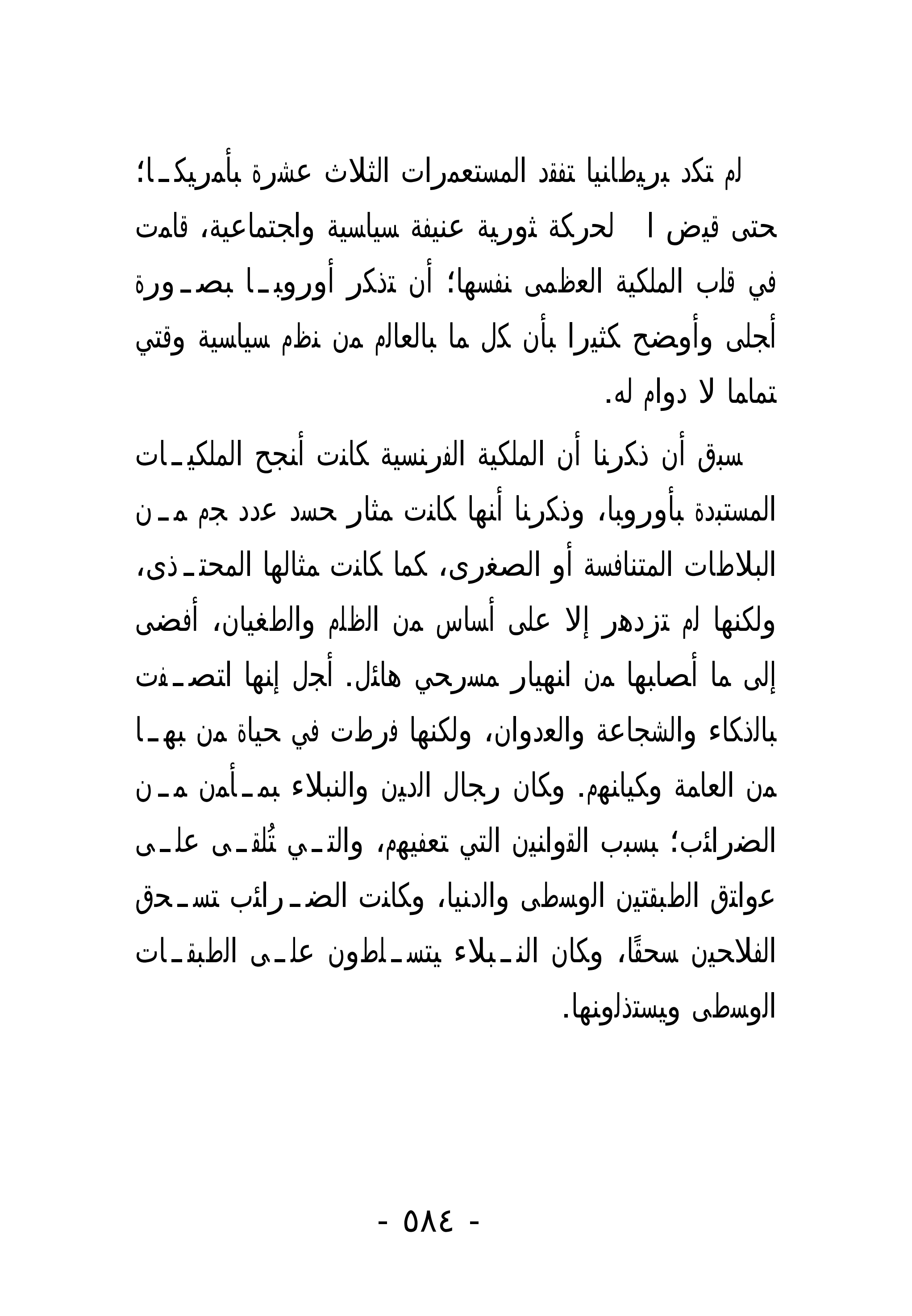
أما البرازيل فإنها سلكت طريقًا آخر إلى ذلك الانفصال الذي لم يكن منه مفر؛ إذ حدث في عام ١٨٠٧ أن الجيوش الفرنسية بقيادة نابليون احتلت بلاد البرتغال الأصلية، ففرت الأسرة الحاكمة إلى البرازيل، ومنذ تلك اللحظة إلى يوم أن افترق البلدان؛ أمست البرتغال هي التابعة تقريبًا للبرازيل وليس العكس! ثم أعلنت البرازيل استقلالها في عام ١٨٢٢ كإمبراطورية مستقلة تحت حكم بدرو الأول، أحد أبناء ملك البرتغال. ولكن العالم الجديد لم يرمق الملكية مطلقًا بعين الرضا؛ لذا أُرسل إمبراطور البرازيل بهدوء إلى أوروبا على ظهر إحدى السفن في عام ١٨٨٩، وتساوت الولايات المتحدة البرازيلية بسائر أمريكا الجمهورية.


امتداد الاستيطان فى اراضى الولايات المتحدة
فى سنة ١٧٩١
كويبك
منتريال
قبل سنة ١٧٦٠
من ١٧٦٠ - ١٧٩٠
ن هـ نيوهامبشير
ك كونكتكت
د جزيرة رود
ج نيوجرسى
م ل ماريلاند
د دلاوير
جورجيا
أراضى اسبانيا
جرين باى
ميتشجان

الفصل الخامس والخمسون

الثورة الفرنسية، وعودة الملكية

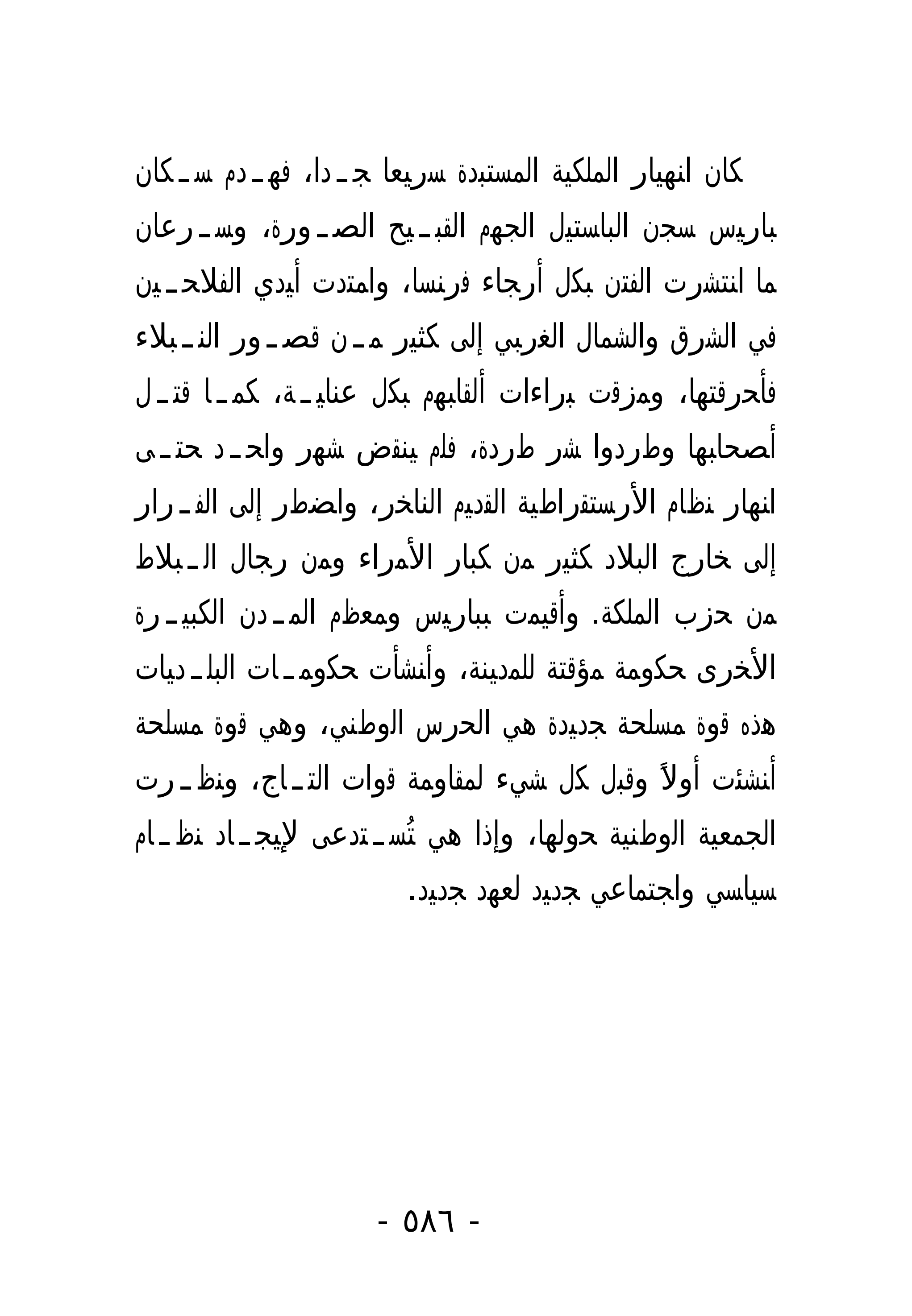
في فرنسا



لم تكد بريطانيا تفقد المستعمرات الثلاث عشرة بأمريكـا؛ حتى قيض ا لحركة ثورية عنيفة سياسية واجتماعية، قامت في قلب الملكية العظمى نفسها؛ أن تذكر أوروبـا بصـورة أجلى وأوضح كثيرا بأن كل ما بالعالم من نظم سياسية وقتي تماما لا دوام له.

سبق أن ذكرنا أن الملكية الفرنسية كانت أنجح الملكيـات المستبدة بأوروبا، وذكرنا أنها كانت مثار حسد عدد جم مـن البلاطات المتنافسة أو الصغرى، كما كانت مثالها المحتـذى، ولكنها لم تزدهر إلا على أساس من الظلم والطغيان، أفضى إلى ما أصابها من انهيار مسرحي هائل. أجل إنها اتصـفت بالذكاء والشجاعة والعدوان، ولكنها فرطت في حياة من بهـا من العامة وكيانهم. وكان رجال الدين والنبلاء بمـأمن مـن الضرائب؛ بسبب القوانين التي تعفيهم، والتـي تُلقـى علـى عواتق الطبقتين الوسطى والدنيا، وكانت الضـرائب تسـحق الفلاحين سحقًا، وكان النـبلاء يتسـلطون علـى الطبقـات الوسطى ويستذلونها.

ولم تلبث تلك الملكية العظمى أن ألفت نفسها مفلسة خاوية الوفاض في عام ١٧٨٧، وإن اضطرت إلى استدعاء ممثلي الطبقات المختلفة بالمملكة لتشاورهم في أمر مشكلات نقص الإيرادات، وشدة زيادة المصروفات، واجتمع مجلس طبقات الأمة بفرساي في ١٧٨٩؛ وهو مجلس من النبلاء ورجال الدين والعامة، يماثل إلى حد ما الصورة الأولى للبرلمان الإنجليزي، ولم يعقد ذلك المجلس منذ عام ١٦١٠، وهي فترة من الزمن كانت تحكم فرنسا في أثنائها ملكية مطلقة، فلما انعقد آنذاك أصبح للناس وسيلة تتحدث عن تذمرهم القوي المديد الأجل، وسرعان ما نشبت الخلافات بين الطبقات الثلاث بسبب إصرار الطبقة الثالثة (وهي العامة) على الهيمنة على المجلس، وكانت للعامة الغلبة في هذه المنازعات، فتحول مجلس طبقات الأمة إلى جمعية وطنية واضحة العزم على إلزام التاج بالنظام، مثلما ألزم البرلمان البريطاني التاج البريطاني حدود النظام، وتهيأ الملك لويس السادس عشر للكفاح، واستحضر الجند من الأقاليم، فثارت عند ذلك باريس وفرنسا.



كان انهيار الملكية المستبدة سريعا جـدا، فهـدم سـكان باريس سجن الباستيل الجهم القبـيح الصـورة، وسـرعان ما انتشرت الفتن بكل أرجاء فرنسا، وامتدت أيدي الفلاحـين في الشرق والشمال الغربي إلى كثير مـن قصـور النـبلاء فأحرقتها، ومزقت براءات ألقابهم بكل عنايـة، كمـا قتـل أصحابها وطردوا شر طردة، فلم ينقض شهر واحـد حتـى انهار نظام الأرستقراطية القديم الناخر، واضطر إلى الفـرار إلى خارج البلاد كثير من كبار الأمراء ومن رجال الـبلاط من حزب الملكة. وأقيمت بباريس ومعظم المـدن الكبيـرة الأخرى حكومة مؤقتة للمدينة، وأنشأت حكومـات البلـديات هذه قوة مسلحة جديدة هي الحرس الوطني، وهي قوة مسلحة أنشئت أولاً وقبل كل شيء لمقاومة قوات التـاج، ونظـرت الجمعية الوطنية حولها، وإذا هي تُسـتدعى لإيجـاد نظـام سياسي واجتماعي جديد لعهد جديد.

كان القيام بهذا الأمر مهمة شـاقة، أرهقـت قـوة تلـك الجمعية، وهكذا تخلت فرنسا عن أهم ما كان يبهظهـا مـن مظالم الحكم المطلق المستبد، فألغت الإعفاء من الضـرائب والرق (موالي الأرض)، وألقاب الأرستقراطية وامتيازاتهـا، وحاولت أن تقيم في باريس صرح ملكية دستورية، فغـادر الملك فرساي وأبهتها، وعـاش عيشـة متواضـعة بقصـر التويلري بباريس.

ومرت سنتان زعم الناس خلالهما أن الجمعيـة الوطنيـة ستستمر في كفاحها حتى تنشئ حكومـة قويـة ذات طـابع عصري، فأنتجت أشياء كثيرة صائبة، دامت إلى يومنا هذا، وإن كان كثير من إنتاجها تجاريا لم يكن بد من نقضه.

على أن كثيرا مما أنتجت لم يكن له أي أثـر، فراحـت الجمعية تصفي قانون العقوبات وتنقيه من الشوائب، وألغـت التعذيب والحبس التعسفي، والاضطهاد بسبب الزندقة، وحلت ثمانون مديرية محل ولايات فرنسـا القديمـة كنورمانـدي وبرغندي وأمثالهما، وفُتح باب الترقية إلى أعلى رتب الجيش لكل طبقات الأمة، وأُنشئ نظام للمحاكم ممتاز وبسـيط، وإن أفسد قيمته كثيرا جعل تعيين القاضي فيها بالانتخاب العام إلى

مدة قصيرة من الزمن؛ فكأن الجمهور قد أصبح بذلك ضربا من محكمة استئناف نهائية عليا، كما صار القضاة كأعضـاء الجمعية الوطنية مضطرين إلى أن يتملقوا الجمهور، ويسعوا إلى مرضاته، واستولت الدولـة علـى ممتلكـات الكنيسـة الضخمة، وتولت إداراتها بنفسها، وحلت جميع المؤسسـات الدينية التي تعمل في غير التعليم أو البر والإحسان، وأصبح الشعب هو الذي يتحمل مرتبات رجال الدين، ولم يكن فـي ذلك مضرة بالطبقة الدنيا من رجال الدين الفرنسيين، الـذين كثيرا ما صغرت مرتباتهم بصورة فاضحة بالنسـبة لكبـار رجال الدين الأثرياء. وزيادة على ذلك أصبح تعيين القساوسة والأساقفة بالانتخاب، وكان ذلك ضربة عنيفة أصـابت فـي الصميم فكرة الكنيسة الكاثوليكية التي تتجه فيهـا السـلطات المركزة في يد البابا والكرادلة من أعلى إلى أسفل. والواقـع الذي لا شك فيه أن الجمعية الوطنية شاءت أن تحول بضربة واحدة الكنيسة الفرنسية إلى طريق البروتستنتية مـن حيـث التنظيم، إن لم يكن من حيث المذهب. ونشبت المنازعات في كل مكان بين قساوسة الدولة الذين أنشأتهم الجمعية الوطنية، وبين رجال الدين الخارجين عليها (الذين أبـوا أن يقسـموا يمين الولاء)، والذين ظلوا على ولائهم لروما.

وفي عام ١٧٩١ انتهت على حين بغتة تجربـة الملكيـة الدستورية بفرنسا، بما فعله الملك والملكة حين تـآمرا مـع أصدقائهما الأرستقراطيين والملكيين في الخارج. وتجمعـت الجيوش الأجنبية على الحدود الشرقية، وانسل الملك والملكة وأطفالهما في إحدى ليالي شهر يونية من قصـر التـويلري فارين للانضمام إلى الأجانـب والمنفيـين الأرسـتقراطيين. فقبض عليهم في فارن، وأعيدوا إلى باريس، وعندئذ اشتعلت فرنسا كلها بلهيب النزعة القوميـة الجمهوريـة، وأعلنـت الجمهورية على الفور، واندلع لهيب الحرب بين الفرنسـيس والنمسا وبروسيا، وحوكم الملـك وقطعـت رأسـه (ينـاير ١٧٩٣) بتهمة خيانة شعبه، على نفس النسق الـذي اسـتنته إنجلترا من قبل.

هنا بدأ طور غريب في التاريخ الفرنسي؛ إذ تأجج لهيـب عظيم من الحماسة لفرنسا والجمهورية، وأحس النـاس أنـه لا بد لهم من القضاء على كل تسامح في الداخل، وكل صلح مع الأعداء في الخارج؛ فكان لا بد في الداخل من استئصال شأفة الملكيين، وكل شكل من أشكال عدم الولاء، وكان لا بد لفرنسا من أن تحمي في الخارج كل حركة ثورية، وتقدم لها

العون، ورأت فرنسا أنه لابد لأوروبا بأكملها (بل العالم كله) أن تعتنق النظام الجمهوري، وتدفق شباب فرنسا إلى جيوش الجمهورية، وانتشر في طول البلاد وعرضها نشـيد جديـد عجيب هو المارسلييز الذي لا يزال يلهب الدماء في العروق، كما تلهبها حميا الكأس. انهارت الجيوش الأجنبية ورجعـت القهقرى أمام ذلك النشيد الحماسـي، والطـوابير الفرنسـية الوثابة من حملة السونكي ومدافعهم، التي تديرها حماسـتهم المتوقدة؛ فلم تكد سنة ١٧٩٢ تقارب نهايتها حتـى صـارت الجنود الفرنسية بمواضع أبعد كثيرا من كل ما بلغته فتـوح لويس الرابع عشر؛ إذ كانوا يقفون في كل مكان على أرض أجنبية غير فرنسية. فهم يحتلون مدينـة بروكسـل، وهـم يجتاحون مملكة سافوي، وهم يتقدمون فيشنون الغارة علـى مايانس Mayence، وهم قد استولوا علـى إقلـيم نهـر الشلت من هولندة، وعند ذلك ارتكبت الحكومـة الفرنسـية حماقة لا تغتفر؛ إذ أحنقها طرد ممثلها من إنجلترا عند قتـل لويس، فأعلنت الحرب على إنجلترا. وتلك حماقة لم يكن لها من ضرورة؛ وذلك لأن الثورة التي منحت فرنسا جيشًا مـن المشاة شديد التحمس، ومدفعية نابهة مبـرأة مـن ضـباطها

الأرستقراطيين، ومن كثير من الظروف المعوقة للتقدم؛ قـد دمرت نظام البحرية الفرنسية، وكان للإنجليز التفوق المطلق في البحر. وإزاء ذلك التحدي والاسـتفزاز اتحـدت كلمـة إنجلترا بأكملها ضد فرنسا بعد أن ظهرت ببريطانيا حركـة ضخمة جدا تدعو إلى التسامح مع الثورة والعطف عليها.

ولا يتسع المقام لذكر تفاصيل القتال الذي نشب بين فرنسا في السنوات القليلة التالية، وبين تحالف تكون ضـدها مـن الدول الأوروبية، وبحسبنا أنها طردت النمساويين إلى الأبـد من بلجيكا، وأنها حولت هولنـدة إلـى جمهوريـة، وسـلم الأسطول الهولندي وقد تجمد من حوله الماء في نهر تكسـل Texel؛ لحفنة من الخيالة الفرنسيين دون أن يطلـق قذيفـة واحدة من مدافعه، وصدت هجمات الفرنسيين على إيطاليـا ردحا من الزمان، فلم يتهيأ لها تقدم إلا في عام ١٧٩٦ عندما عين قائد جديد هو الجنرال نابليون بونابرت لقيادة الجيـوش الجمهورية الجائعة المهلهلة الثيـاب إلـى ميـادين النصـر بإيطاليا، فاخترق بيدمونت إلى مانتوا وفيرونا.

يقول س. ف. أتكنسون[1]: "إن أشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين، وسرعة حركاتهم؛ وذلك أن الواقع أن هذه الجيوش المرتجلة ارتجالاً لم يكن ثمة شيء يسـتطيع أن يعوق تقدمها؛ إذ لم يكن لديها خيام لقلة ما لدى الجمهورية من نقود، ولو وجدت لما كان من الممكن نقلهـا لاحتياجهـا عندئذ إلى عدد هائل من العربات، التي ربما لزمت كما كانت في الوقت نفسه غير ضرورية، وذلك لأن المتاعـب التـي كانت تدعو إلى فرار الجند بالجملة من الجندية في الجيـوش القديمة المحترفة كان يتحملها بالسرور التام رجال فرنسا في عام١٧٩٣/١٧٩٤. ولم يكن معقولاً أن يستطاع نقـل مـؤن لجيوش لم يسمع الناس بمثل حجمهـا حتـى ذلـك الحـين، وسرعان ما تعلم الفرنسيون أن يعيشوا على حسـاب الـبلاد التي يحلون بها. وهكذا شهدت سـنة ١٧٩٣ مولـد طريقـة الحرب العصرية؛ سرعة الحركـة، وتطـور كامـل للقـوة القومية، وعسكرة الجنود بلا خيام في العراء، وعيشهم على حساب الأهالي، واعتمادهم على القوة بدلاً مـن المـداورات

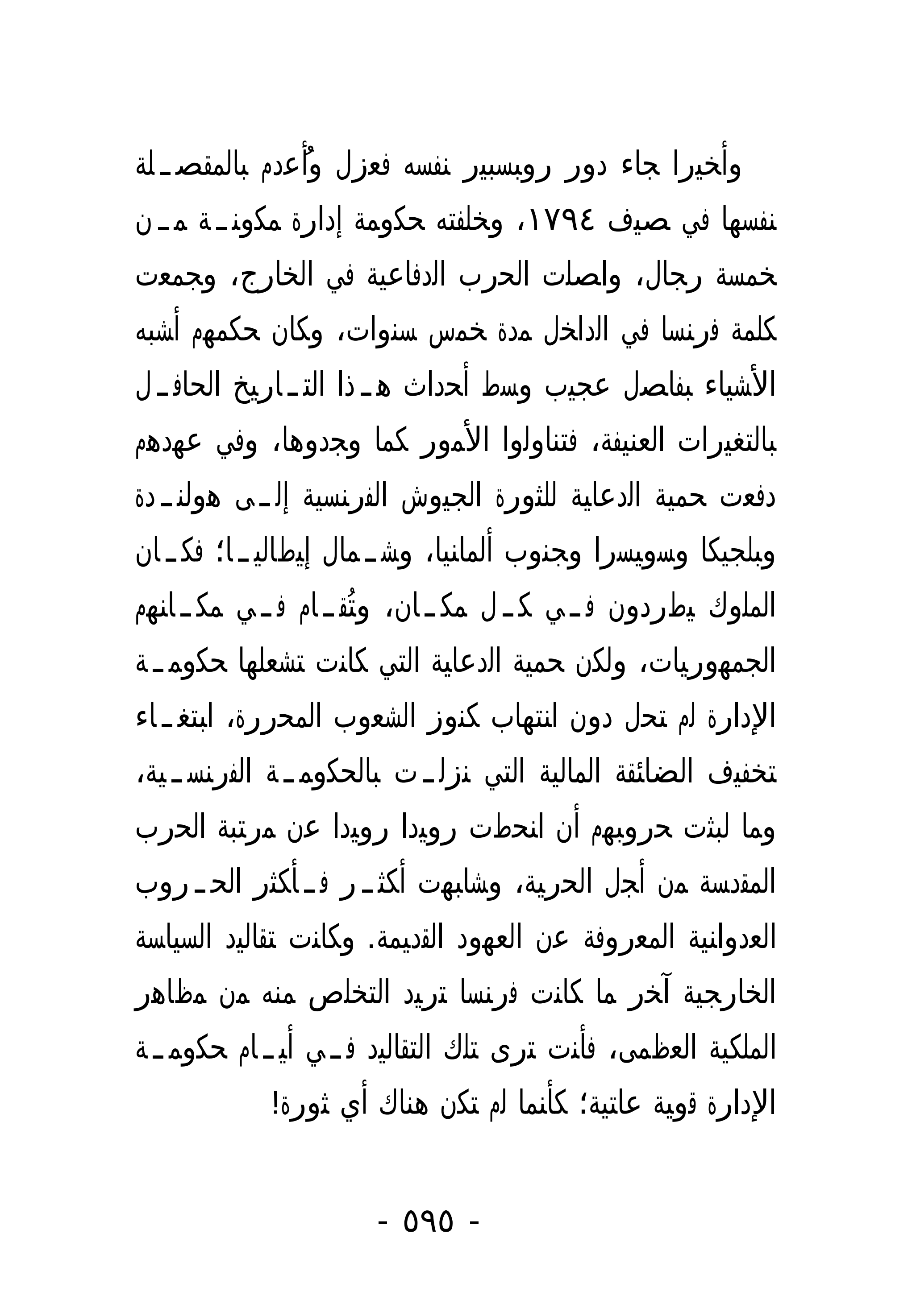
([1]) في مقالته التي نشرها بدائرة المعارف البريطانية تحت عنوان:
“French Rcvolutionary Wars”

الحدرة والجيوش الصغيرة المحترقـة، والخيـام والأطعمـة والجرايات الكاملة، والتلاعب والخداع؛ فـالجيوش الأولـى تمثل الروح التي تستلزم حسم الأمر فورا، والجيوش الثانيـة تمثل روح المخاطرة بالقليل في سبيل القليل.."

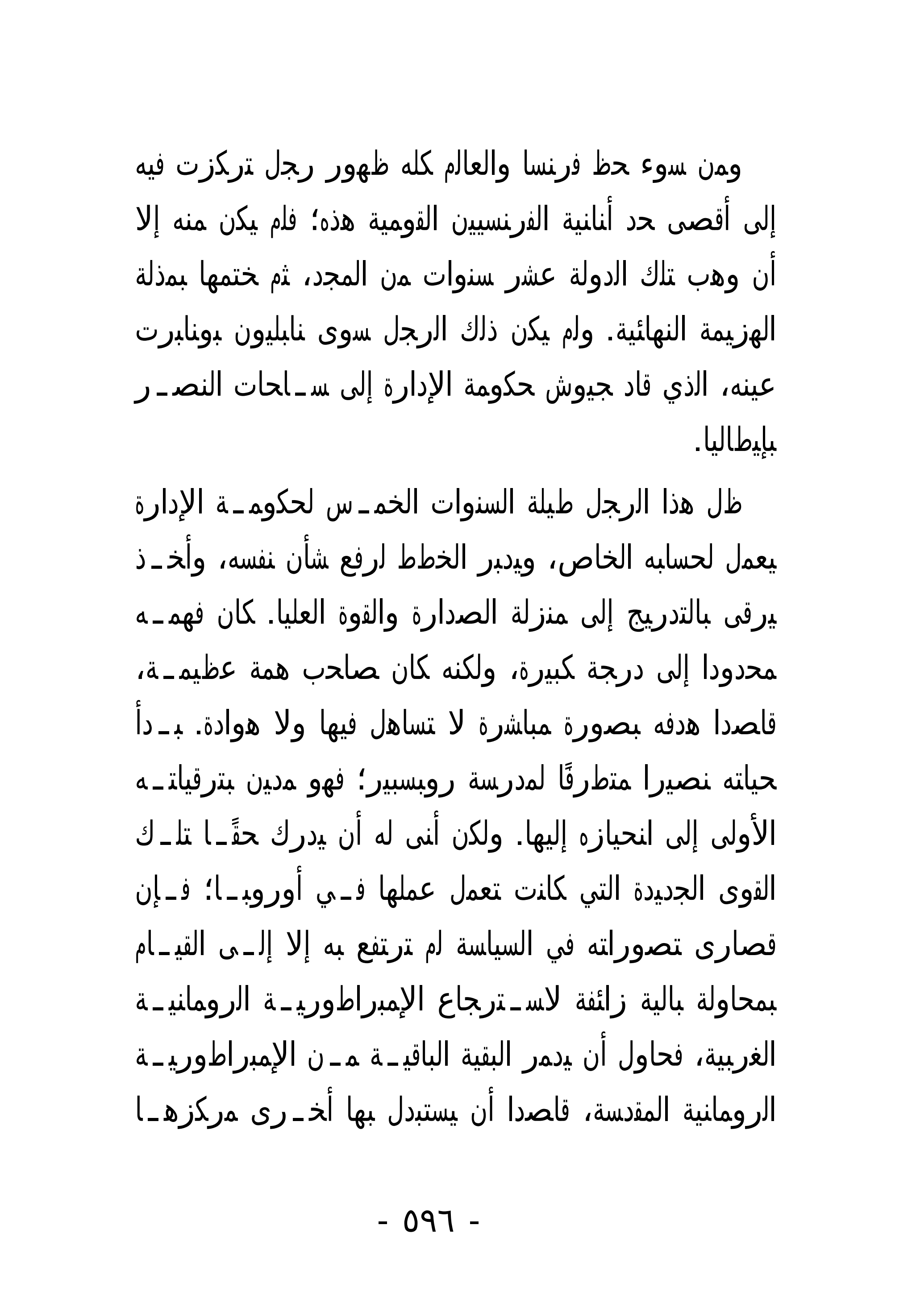
وبينما كانت هذه الجيوش الرثة الثياب مـن المتحمسـين تنشد المارسيلييز، وتقاتل في سبيل فرنسا La France دون أن يتضح لأذهانها تماما ما إذا كانت تنهب البلاد التي تدفقت فيها أو تحررها؛ كانت الحماسة الجمهورية بباريس تتلاشـى بصورة مزرية بمجدها وكرامتها؛ ذلك أن الثورة قد أصبحت آنذاك تحت سلطان زعيم شديد التعصب؛ هو روبسبير. ومن العسير علينا أن نقضي في هذا الرجل برأي؛ فإنه كان رجلاً ضعيف البنية، جبانًا بفطرته، معتزا مزهوا بنفسـه. ولكنـه أوتي ألزم الصفات لبلوغ القوة؛ وهي الإيمان، فراح يعمـل على إنقاذ الجمهورية على الصورة التي خيلها إليه تصوره، كما أنه كان يتوهم أنه لا منقذ لها إلا شخصه هو؛ ومن ثـم أصبحت عقيدته الراسخة أن بقاءه في الحكم هو السبيل لإنقاذ الجمهورية. وخيل إليه أن الروح الحي للجمهورية قـد نشـأ عن تذبيح الملكيين وإعدام الملك، وتصادف أن قامت بالبلاد

بعض الفتن، شبت إحداها فـي الغـرب بمنطقـة لافنديـه La Vendée؛ حيث ثار الأهالي بزعامـة بعـض النـبلاء ورجال الدين احتجاجا على أخذهم جنودا في الجيش، وعلـى حرمان رجال الدين المستمسكين بعقيدة السلف الصالح مـن أملاكهم، وهبت ثورة أخرى في الجنوب؛ حيث تمردت ليون ومرسيليا، وسمح أنصار الملكية في طولون لحامية إنجليزية وإسبانية بالنزول برا، فلم يكن لدى روبسبير فيما يبدو مـن رد فعل على ذلك إلا مواصلة إعدام أنصار الملكية.

وابتدأت محاكمة الثورة عملها، وابتدأ بذلك سيل منهمـر من الذبح والتقتيل، وجاء اختراع المقصلة (الجيلوتين)، فـي أنسب الأوقات لهـذه النزعـة الدمويـة، فأُعـدمت الملكـة بالمقصلة، وكذلك أُعدم معظم خصوم روبسـبير بالمقصـلة، وأُعدم بالمقصلة أيضا كل كافر أنكر وجود الكائن الأعلـى، "الذي اتخذه روبسبير ربا"، وانقضت الأيام يوما بعـد يـوم وأسبوعا بعد أسبوع، وهذه الآلة الجهنميـة الجديـدة تحـز الرءوس بعد الرءوس، وتقول هل من مزيد! ولا أخال إلا أن حكم روبسبير كان يعيش على الدم، ولا يزال يطلب المزيـد منه فالمزيد؛ كمدمن الأفيون حين يطلب منه المزيد فالمزيد.



وأخيرا جاء دور روبسبير نفسه فعزل وأُعدم بالمقصلة نفسها في صيف ١٧٩٤، وخلفته حكومة إدارة مكونة من خمسة رجال، واصلت الحرب الدفاعية في الخارج، وجمعت كلمة فرنسا في الداخل مدة خمس سنوات، وكان حكمهم أشبه الأشياء بفاصل عجيب وسط أحداث هذا التاريخ الحافل بالتغيرات العنيفة، فتناولوا الأمور كما وجدوها، وفي عهدهم دفعت حمية الدعاية للثورة الجيوش الفرنسية إلى هولندة وبلجيكا وسويسرا وجنوب ألمانيا، وشمال إيطاليا؛ فكان الملوك يطردون في كل مكان، وتُقام في مكانهم الجمهوريات، ولكن حمية الدعاية التي كانت تشعلها حكومة الإدارة لم تحل دون انتهاب كنوز الشعوب المحررة، ابتغاء تخفيف الضائقة المالية التي نزلت بالحكومة الفرنسية، وما لبثت حروبهم أن انحطت رويدا رويدا عن مرتبة الحرب المقدسة من أجل الحرية، وشابهت أكثر فأكثر الحروب العدوانية المعروفة عن العهود القديمة. وكانت تقاليد السياسة الخارجية آخر ما كانت فرنسا تريد التخلص منه من مظاهر الملكية العظمى، فأنت ترى تلك التقاليد في أيام حكومة الإدارة قوية عاتية؛ كأنما لم تكن هناك أي ثورة!



ومن سوء حظ فرنسا والعالم كله ظهور رجل تركزت فيه إلى أقصى حد أنانية الفرنسيين القومية هذه؛ فلم يكن منه إلا أن وهب تلك الدولة عشر سنوات من المجد، ثم ختمها بمذلة الهزيمة النهائية. ولم يكن ذلك الرجل سوى نابليون بونابرت عينه، الذي قاد جيوش حكومة الإدارة إلى ساحات النصر بإيطاليا.

ظل هذا الرجل طيلة السنوات الخمس لحكومة الإدارة يعمل لحسابه الخاص، ويدبر الخطط لرفع شأن نفسه، وأخذ يرقى بالتدريج إلى منزلة الصدارة والقوة العليا. كان فهمه محدودا إلى درجة كبيرة، ولكنه كان صاحب همة عظيمة، قاصدا هدفه بصورة مباشرة لا تساهل فيها ولا هوادة. بدأ حياته نصيرا متطرفًا لمدرسة روبسبير؛ فهو مدين بترقياته الأولى إلى انحيازه إليها. ولكن أنى له أن يدرك حقًا تلك القوى الجديدة التي كانت تعمل عملها في أوروبا؛ فإن قصارى تصوراته في السياسة لم ترتفع به إلا إلى القيام بمحاولة بالية زائفة لاسترجاع الإمبراطورية الرومانية الغربية، فحاول أن يدمر البقية الباقية من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، قاصدا أن يستبدل بها أخرى مركزها

باريس، واضطر الإمبراطور في فيينا أن يتخلى عـن لقـب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة؛ مكتفيا بلقبـه الأصـلي كإمبراطور للنمسا فقط. وطلق نـابليون زوجتـه الفرنسـية ليتزوج من أميرة نمساوية.

أصبح بالفعل عاهلاً لفرنسا حـين عـين قنصـلاً فـي عام ١٧٩٩، كما جعل نفسه إمبراطورا لفرنسـا فـي عـام ١٨٠٤ محاكاة منه لشارلمان مباشرة. وتوجه للبابا بباريس؛ حيث تناول منه التاج ووضعه بنفسه على رأسه كما أوصـى شارلمان، وتوج ابنه ملكًا على روما.

وانقضت بضع سنين كان نابليون ينتقل في أثنائهـا مـن نصر إلى نصر، ففتح معظم إيطاليا وإسبانيا، ودحر بروسـيا والنمسا، وتسلط على كل أوروبا غربي روسيا، ولكنه لم يفز قط بانتزاع منصب السيادة على البحر من يد البريطـانيين، ولقيت أساطيله هزيمة نهائية فاصلة على يد الأميرال نلسـن البريطاني في موقعة الطرف الأغر (١٨٠٥). وثارت إسبانيا عليه في ١٨٠٨، وراح جيش بريطاني بقيادة ولنجتن يـدفع الجيوش الفرنسية ببطء نحو الشمال حتى طردها مـن شـبه جزيرة أيبيريا. وفي عام ١٨١١ دب دبيـب الخـلاف بـين

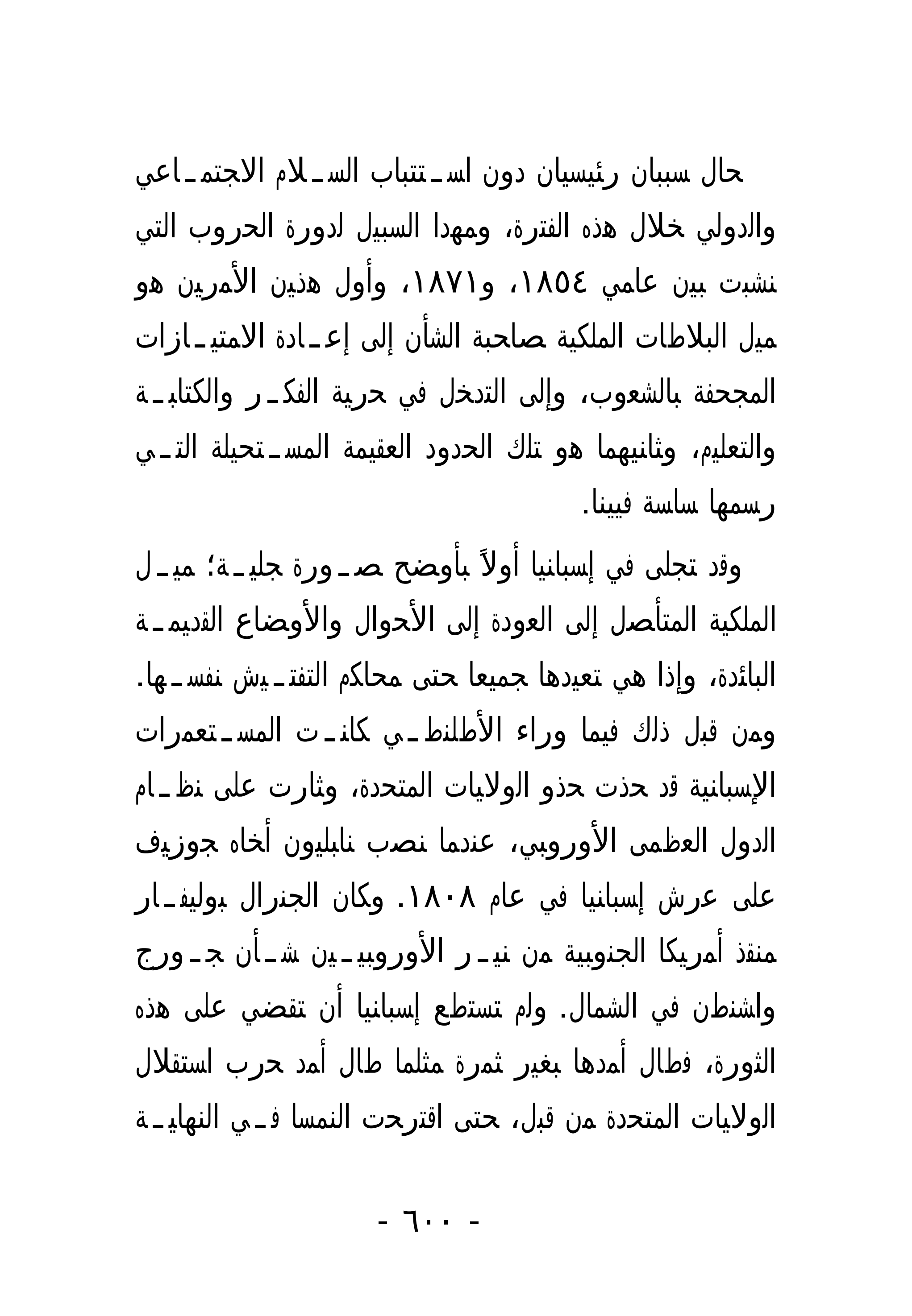
نابليون وبين القيصر إسكندر الأول، ثم غزا الروسيا في عام ١٨١٢ بجيش عظيم مخاط عدته (٦٠٠,٠٠٠) ستمائة ألـف رجل، وهي حملة هزمها الروس بمعاونـة شـتاء بلادهـم القارس، ودمروها إلى حد كبير. وعندئذ شقت ألمانيا عصـا الطاعة عليه، وانقلبت السـويد عليـه، فارتـدت الجيـوش الفرنسية منهزمة كسيرة الجناح، واضطر نابليون إلى التنازل عن العرش في فونتينبلو (١٨١٤)؛ فنفي إلى جزيرة إلبا، ثم عاد إلى فرنسا لبذل آخر سهم في جعبته فـي عـام ١٨١٥، ولكنه هزم في واترلو على يد جيوش الحلفاء من بريطـانيين وبروسيين وبلجيكيين.

لقد تبددت القوى التي أطلقتها الثورة الفرنسية من عقالها، وذهبت أدراج الرياح، والتأم بمدينة فيينا مؤتمر عظيم للحلفاء الظافرين، يستهدف أن يعيد جهد المستطاع الظـروف التـي مزقتها الزوبعة العظيمة كل ممزق، وأسفر المـؤتمر عـن احتفاظ أوروبا مدة تقارب الأربعين عاما بنوع مـن السـلام الناجم عن تبدد القوى وتشتت الجهد.

الفصل السادس والخمسون

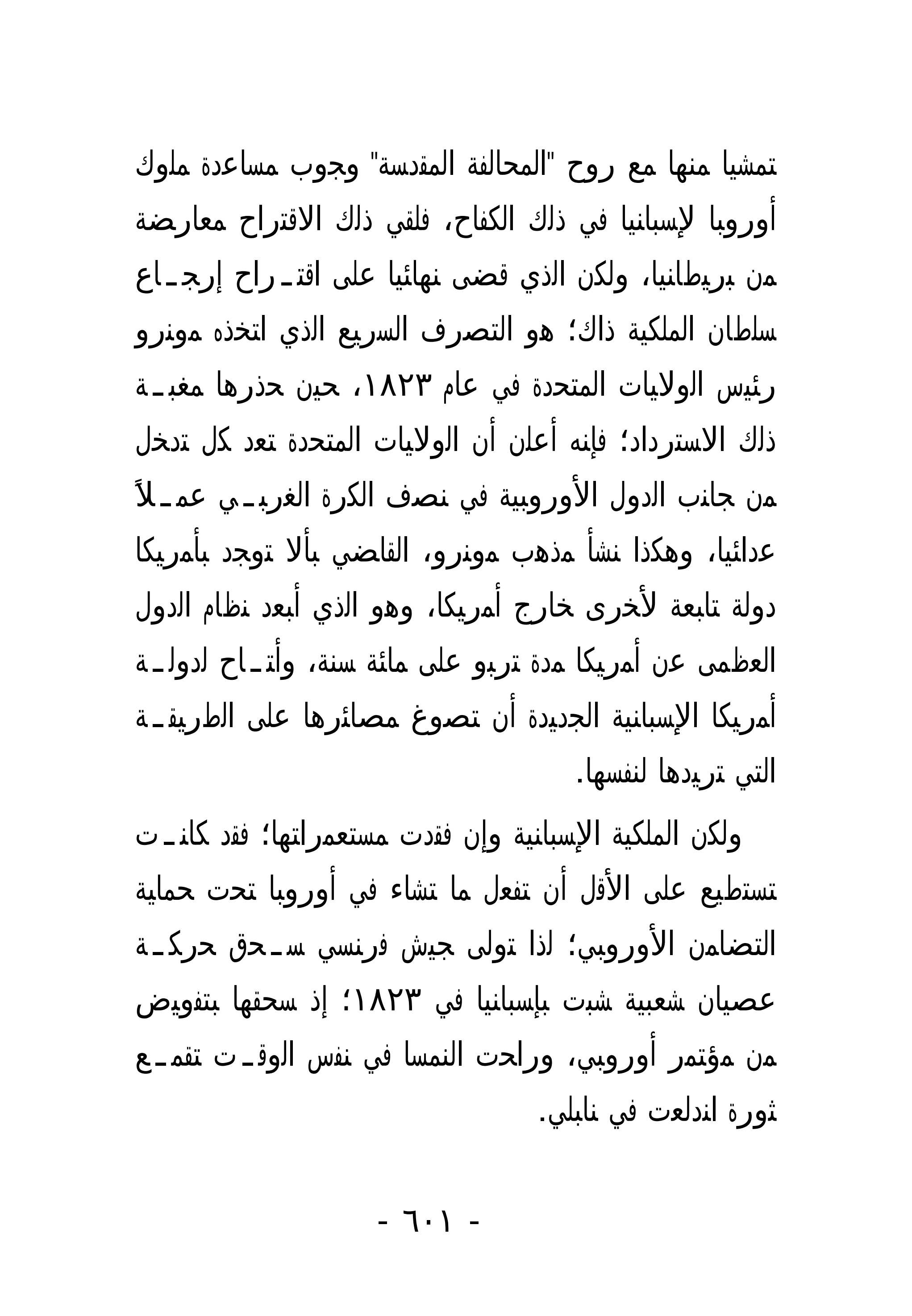
السلم الأوروبي المقلقل

بعد سقوط نابليون



حال سببان رئيسيان دون استتباب السلام الاجتماعي والدولي خلال هذه الفترة، ومهدا السبيل لدورة الحروب التي نشبت بين عامي ١٨٥٤، و١٨٧١، وأول هذين الأمرين هو ميل البلاطات الملكية صاحبة الشأن إلى إعادة الامتيازات المجحفة بالشعوب، وإلى التدخل في حرية الفكر والكتابة والتعليم، وثانيهما هو تلك الحدود العقيمة المستحيلة التي رسمها ساسة فيينا.

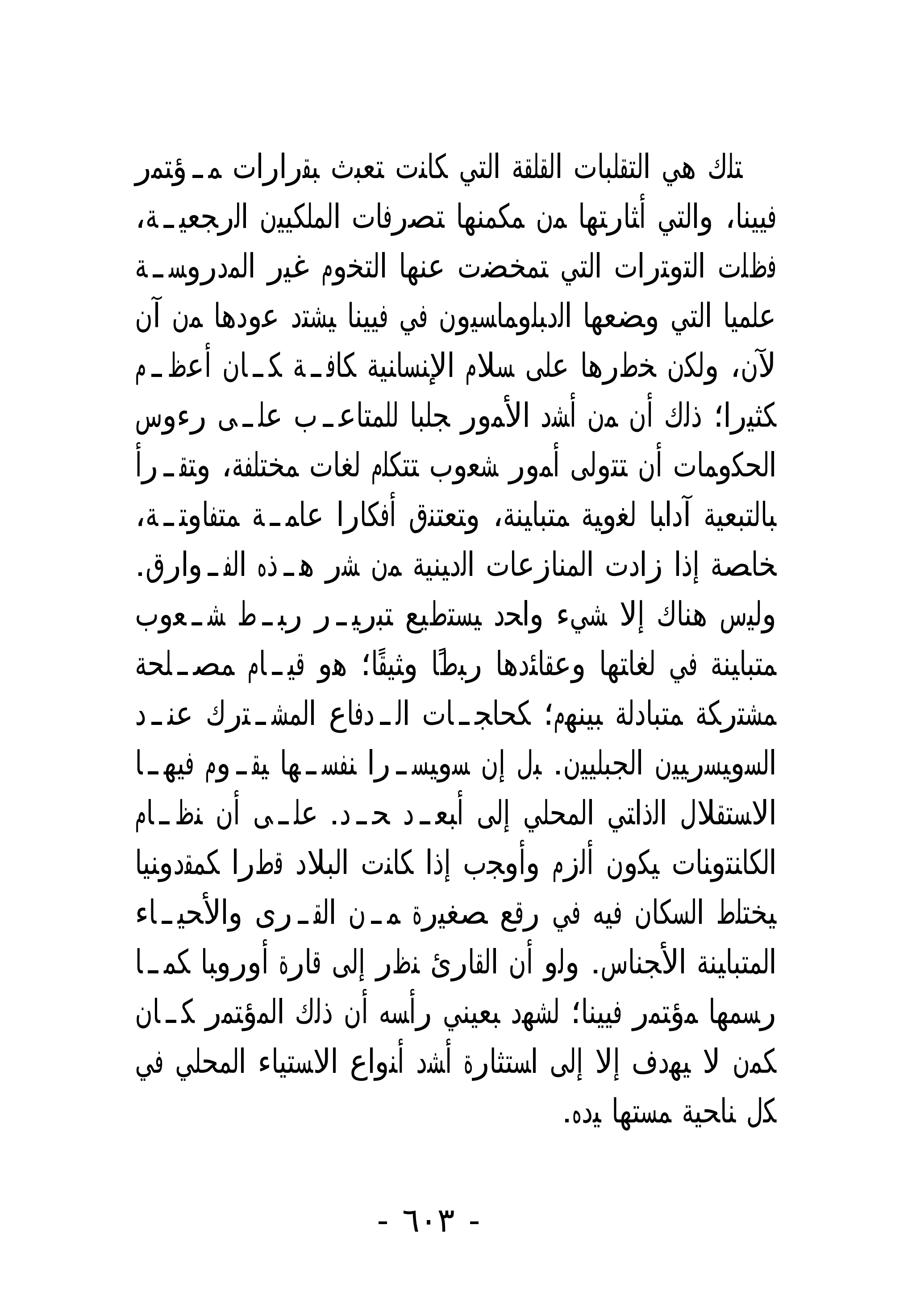
وقد تجلى في إسبانيا أولاً بأوضح صورة جلية؛ ميل الملكية المتأصل إلى العودة إلى الأحوال والأوضاع القديمة البائدة، وإذا هي تعيدها جميعا حتى محاكم التفتيش نفسها. ومن قبل ذلك فيما وراء الأطلنطي كانت المستعمرات الإسبانية قد حذت حذو الولايات المتحدة، وثارت على نظام الدول العظمى الأوروبي، عندما نصب نابليون أخاه جوزيف على عرش إسبانيا في عام ١٨٠٨. وكان الجنرال بوليفار منقذ أمريكا الجنوبية من نير الأوروبيين شأن جورج واشنطن في الشمال. ولم تستطع إسبانيا أن تقضي على هذه الثورة، فطال أمدها بغير ثمرة مثلما طال أمد حرب استقلال الولايات المتحدة من قبل، حتى اقترحت النمسا في النهاية



تمشيا منها مع روح "المحالفة المقدسة" وجوب مساعدة ملوك أوروبا لإسبانيا في ذلك الكفاح، فلقي ذلك الاقتراح معارضة من بريطانيا، ولكن الذي قضى نهائيا على اقتـراح إرجـاع سلطان الملكية ذاك؛ هو التصرف السريع الذي اتخذه مونرو رئيس الولايات المتحدة في عام ١٨٢٣، حين حذرها مغبـة ذلك الاسترداد؛ فإنه أعلن أن الولايات المتحدة تعد كل تدخل من جانب الدول الأوروبية في نصف الكرة الغربـي عمـلاً عدائيا، وهكذا نشأ مذهب مونرو، القاضي بألا توجد بأمريكا دولة تابعة لأخرى خارج أمريكا، وهو الذي أبعد نظام الدول العظمى عن أمريكا مدة تربو على مائة سنة، وأتـاح لدولـة أمريكا الإسبانية الجديدة أن تصوغ مصائرها على الطريقـة التي تريدها لنفسها.

ولكن الملكية الإسبانية وإن فقدت مستعمراتها؛ فقد كانـت تستطيع على الأقل أن تفعل ما تشاء في أوروبا تحت حماية التضامن الأوروبي؛ لذا تولى جيش فرنسي سـحق حركـة عصيان شعبية شبت بإسبانيا في ١٨٢٣؛ إذ سحقها بتفويض من مؤتمر أوروبي، وراحت النمسا في نفس الوقـت تقمـع ثورة اندلعت في نابلي.

وقد توفي لويس الثامن عشر في ١٨٢٤، وخلفه شـارل العاشر. وكرس شارل كل جهـوده للقضـاء علـى حريـة الصحافة والجامعات، وإعادة الحكم المطلـق إلـى نصـابه؛ فأقرت الجمعية اعتماد مبلغ بليون من الفرنكـات تعويضـا للنبلاء عما حل بهم في عام ١٧٨٩ مـن حـرق قصـورهم ومصادرة أموالهم. وما لبثت باريس أن ثـارت فـي عـام ١٨٣٠ على ذلك الملك الذي تمثلت فيه كل مظـاهر العهـد البائد، وأحلت محله على العرش لويس فيليب، ابـن فيليـب دوق أورليان؛ أحد النبلاء الذين أُعدموا في عهد الإرهـاب، ولم تستطع الملكيات الأخرى بالقارة الأوروبية التدخل فـي هذه الحالة؛ لما شهدته من استحسان بريطانيا الصريح لتلـك الثورة، ولما آنسته من وجود حركة تحرير وتسامح بألمانيـا والنمسا. هذا إلى أن فرنسا كانت لا تزال قبل كـل شـيء؛ محتفظة بنظامها الملكي، وقد بقي هذا الرجل لويس فيليـب (١٨٣٠-١٨٤٨) ثمانية عشر عاما ملكًا دستوريا لفرنسا.



تلك هي التقلبات القلقة التي كانت تعبث بقرارات مؤتمر فيينا، والتي أثارتها من مكمنها تصرفات الملكيين الرجعية، فظلت التوترات التي تمخضت عنها التخوم غير المدروسة علميا التي وضعها الدبلوماسيون في فيينا يشتد عودها من آن لآن، ولكن خطرها على سلام الإنسانية كافة كان أعظم كثيرا؛ ذلك أن من أشد الأمور جلبا للمتاعب على رءوس الحكومات أن تتولى أمور شعوب تتكلم لغات مختلفة، وتقرأ بالتبعية آدابا لغوية متباينة، وتعتنق أفكارا عامة متفاوتة، خاصة إذا زادت المنازعات الدينية من شر هذه الفوارق. وليس هناك إلا شيء واحد يستطيع تبرير ربط شعوب متباينة في لغاتها وعقائدها ربطًا وثيقًا؛ هو قيام مصلحة مشتركة متبادلة بينهم؛ كحاجات الدفاع المشترك عند السويسريين الجبليين. بل إن سويسرا نفسها يقوم فيها الاستقلال الذاتي المحلي إلى أبعد حد. على أن نظام الكانتونات يكون ألزم وأوجب إذا كانت البلاد قطرا كمقدونيا يختلط السكان فيه في رقع صغيرة من القرى والأحياء المتباينة الأجناس. ولو أن القارئ نظر إلى قارة أوروبا كما رسمها مؤتمر فيينا؛ لشهد بعيني رأسه أن ذلك المؤتمر كان كمن لا يهدف إلا إلى استثارة أشد أنواع الاستياء المحلي في كل ناحية مستها يده.

دمر ذلك المؤتمر جمهورية هولندة بدون مبرر، وكـدس في كتلة واحدة كلاً من الهولنديين البروتستانت مع الكاثوليك الناطقين بالفرنسية، والساكنين بالأراضي الإسبانية القديمـة (والنمساوية أيضا)، وأقام منهما مملكة الأراضي المنخفضة، ولم يقتصر على أن يسلم للنمسـاويين النـاطقين بالألمانيـة جمهورية البندقية العريقة؛ بل وشمال إيطاليا كله، حتى مدينة ميلانو، ثم جمع مقاطعة سافوي الفرنسية اللغة مع أجزاء من إيطاليا، وأحيا من جديد مملكة سردينيا البائدة. فأمـا دولـة النمسا والمجر، وهما من قديم الزمان خلـيط متفجـر مـن القوميات المتناحرة من الألمان والمجـر والتشيكوسـلوفاك واليوغوسلاف والرومانيين، فضلاً عـن الإيطـاليين الـذين ضموا إليهم آنذاك؛ فقد أصبح الموقف فيهما أصعب وأعسر، حين أقر المؤتمر ضم الممتلكات التي استقطعتها النمسا مـن بولندة في عامي ١٧٧٢، و١٧٩٥، وأقر المؤتمر أيضا تسليم الشطر الأعظم من الشعب البولندي الحر الكاثوليكي العقيـدة الجمهوري النزعة إلى الحكم الأقل حضارة؛ حكـم قيصـر روسيا صاحب العقيدة الأرثوذكسية اليونانية، غير أن بروسيا البروتستنتية استولت بدورها على نواحٍ هامة من ذلك القطر

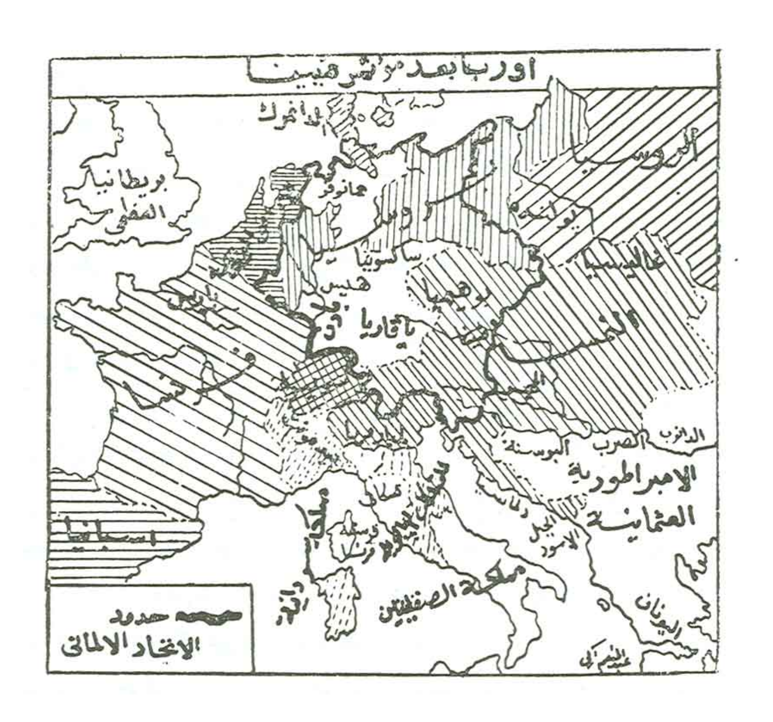
التعس. وأقر المؤتمر أيضا استيلاء القيصر على بلاد الفنلنديين الأجانب عنه تماما. وربط شعبي السويد والنرويج المختلفين تمام الاختلاف بعضهما إلى بعض في ظل عرش واحد. وسيلحظ القارئ أن ألمانيا تُركت في حالة من الفوضى والارتباط لها خطورتها التامة؛ فإن كلاً من بروسيا والنمسا كانت داخلة جزئيا في اتحاد ألماني، وخارجة جزئيا عنه، وهو يضم العدد الجم من الولايات الصغرى، وأصبح ملك الدانمرك عضوا في الاتحاد الألماني بسبب بضع ممتلكات ناطقة بالألمانية في هولشتين وقعت في حوزته. وأُلحقت لوكسمبرج بالاتحاد الألماني، وإن كان حاكمها ملكًا للأراضي المنخفضة أيضا، مع أن كثيرا من شعوبها كانوا يتكلمون الفرنسية.

وهنا أغفل المؤتمرون إغفالاً تاما حقيقة واضحة للعيان؛ هي أن الأقوام الذين ينطقون بالألمانية، ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الألمانية، وأن القوم الذين يتحدثون بالإيطالية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة الإيطالية، والقوم الذي يتحدثون بالبولندية ويعتمدون في تفكيرهم على الثقافة البولندية؛ سيكونون دون أدنى ريب أسعد حالاً وأشد

عونًا لباقي البشرية وأقل ضررا بها إذا هم أداروا شئونهم الخاصة على الطريقة التي يرتضون، وفي حدود لغتهم القومية، فلا غرابة إذن أن تعلن أغنية من أشد ما ذاع في ألمانيا من الأغاني الشعبية في تلك الأيام أنه: "حيثما نطق اللسان الألماني، فتلك أرض الأجداد الألمانية".

اقتدت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية بالثورة التي اندلعت بفرنسا عام ١٨٣٠؛ حيث أعلنت الثورة على ربطها قسرا بالهولنديين في مملكة الأراضي المنخفضة، وذعرت الدول من احتمال قيام جمهورية بتلك البلاد، أو إلحاقها بفرنسا، فسارعت بالتدخل لتهدئة ذلك الموقف، وأعطت بلاد البلجيك ملكًا هو ليوبولد الأول أمير ساكس كوبرج جوثا، وحدثت في نفس تلك السنة (١٨٣٠) أيضا ثورات بإيطاليا وألمانيا لم يكتب لها التوفيق، كما حدثت ثورة أخرى أشد خطرا بكثير بالمنطقة الروسية من بولندة، وقامت بمدينة وارسو حكومة جمهورية بولندية صمدت هناك سنة كاملة أمام قوات القيصر نيقولا الأول (الذي خلف إسكندر في عام ١٨٢٥)، ثم أُخمدت إخمادا تجلى فيه عظيم العنف والقسوة، وحرم النطق باللغة البولندية، وجعلت الديانة الأرثوذكسية اليونانية دينًا رسميا للدولة بدل الكاثوليكية.

وقد حدث في عام ١٨٢١ أن شق اليونان عصا الطاعة على الترك، وظلوا يقاتلونهم حرب الحياة أو الموت، والحكومات الأوروبية واقفة موقف المتفرج، واحتج الأحرار على الجمود الذي يتبدى في أوروبا، وانثال المتطوعون أفواجا من كل بلد أوروبي للانضمام إلى العصاة، وأخيرا اتخذت بريطانيا وفرنسا وروسيا خطوة مشتركة فعالة، فدمر الإنجليز والفرنسيون الأسطول التركي المصري بمعركة نوارين عام ١٨٢٧، واجتاح القيصر حدود تركيا، وأعلنت معاهدة أدرنة ١٨٢٩ حرية بلاد اليونان واستقلالها، ولكن لم يسمح لها بأن تستعيد من جديد تقاليدها الجمهورية العتيقة، والتُمس لليونان ملك ألماني هو الأمير أوتو البافاري، كما عين لولايات الدانوب (وهي بلاد رومانيا الحالية) حاكم مسيحي، ونُصب آخر على بلاد الصرب (وهي جزء من المنطقة اليوغسلافية). ومع ذلك لم يكن بد من إراقة الشيء الكثير من الدماء قبل طرد الأتراك نهائيا من تلك الأصقاع.


اوربا بعد مؤتمر فيينا
الدانمرك
بريطانيا العظمى
هانوفر
بروسيا
ساكسونيا
هيس
بافاريا
بوهيميا
فرنسا
اسبانيا
الروسيا
غاليسيا
النمسا
الصرب
البوسنة
الامبراطورية العثمانية
دلماسيا
الجبل الاسود
مملكة الصقليتين
اليونان
حدود الاتحاد الالماني

الفصل السابع والخمسون

نمو العرفان المادي

في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأوائل التاسع عشر، وبينما منازعات الدول والأمراء هذه يهدر هديرها وتُزلزل زلازلها في أوروبا، وبينما الخريطة المرقعة التي أنشأتها معاهدة وستفاليا في عام ١٦٤٨ تتحول بصورة عجيبة كتقلبات رمل الصحراء إلى خريطة معاهدة فيينا (١٨١٥) المرقعة هي أيضا، وبينما السفينة الشراعية تبسط النفوذ الأوروبي على أرجاء العالم قاطبة؛ كان يدارج ذلك في العالم الأوروبي وما اصطبغ بصباغه من بلاد؛ نمو مطرد في المعرفة، وتنقية عامة لأفكار الناس وآرائهم المتصلة بهذا العالم الذي فيه يعيشون.

تواصل هذا النمو وتلك التنقية بمعزل تام عن الحياة السياسية، وإن لم ينتجا في تلك الحياة طيلة القرنين السابع عشر والثامن عشر أي ثمرة أخاذة مباشرة. ثم إنهما لم يؤثرا في الفكر الشعبي تأثيرا عميقًا في أثناء تلك الفترة؛ ذلك أن تلك النتائج لم تظهر إلا فيما بعد، بل لم تظهر إلا وهي على أتم قوتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. إن الذي حدث؛ إنما هو عملية جرت بصفة رئيسية بين جدران عالم صغير من رجال موسرين، ذوي أرواح حرة مستقلة. ولولا

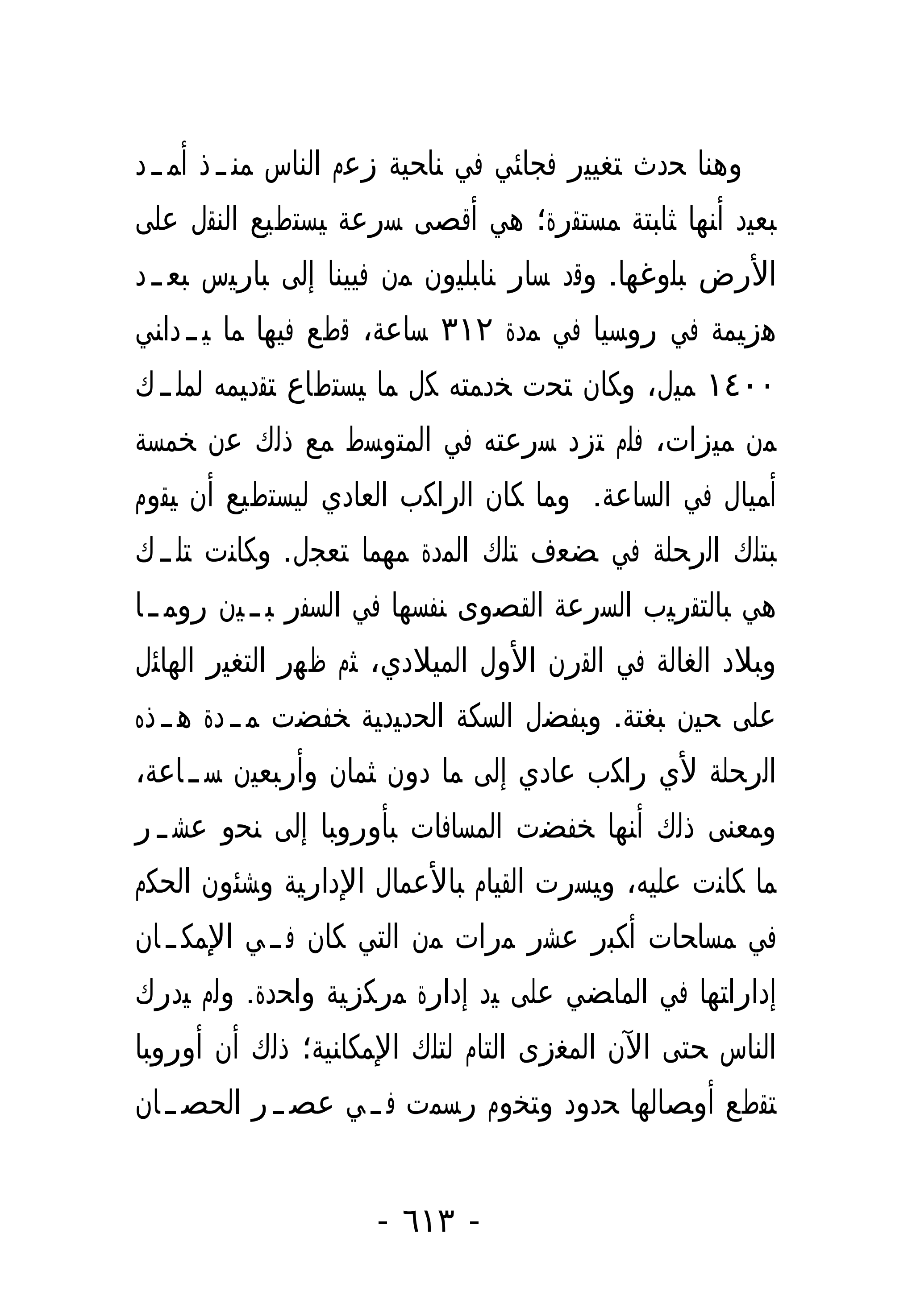
وجود تلك الشخصية التي يسميها الإنجليز "بالسيد" الجنتلمان، لما بدأت العملية العلمية ببلاد الإغريق قط، وما أمكن تجديد تلك العملية بأوروبا أبدا. ولعبت الجامعات دورا فـي هـذا الشأن، ولكنها لم تقم بالدور الأول الرئيسي في الفكر الفلسفي والعلمي لتلك المدة. والمتعلم الذي يتلقى الهبات المالية يجنح إلى الجبن والمحافظة على القديم، وتعـوزه روح الابتكـار والمبادأة، ويقاوم كل تجديد ما لم يحفزه الاحتكـاك بـالعقول الحرة المستقلة.

وقد ذكرنا من قبـل أن الجمعيـة الملكيـة تكونـت فـي عام ١٦٦٢، ولحظنا ما أنجزته في سبيل تحقيق أحلام بـاكون في كتابة الأطلانطس الجديد، وتواصل إبان القرن الثامن عشر الشيء الكثير من تنقية الأفكار العامة عن المادة والحركة، كما تم الشيء الكثير من التقدم الرياضي، ونمو منتظم في استخدام العدسات في كل مـن المجهـر والمرقـب (الميكروسـكوب والتلسكوب)، وتجديد للهمة المبذولة فـي تصـنيف التـاريخ الطبيعي وتبويبه، وانتعاش عظيم في علم التشريح، وفي تلـك الحقبة أيضا بدأ علم الجيولوجيا (طبقات الأرض) الذي تكهـن به أرسطو وتوقعه ليوناردو دافنشي (١٤٥٢-١٥١٩) يبـذل جهوده الكبيرة في تأويل سجل الصخور.

وظهر أثر استخدام طرائق علم الطبيعة في علم المعادن، وعاد تقدم علم المعادن بالفضل العميم على المخترعات العلمية؛ حيث يسر معالجة قطع من المعادن، وغيرها من المواد الأكبر وزنًا والأضخم حجما، وظهرت مكنات ذات معيار جديد، وبكثرة لم يسبق لها مثيل؛ فأحدثت في الصناعة انقلابا هائلاً.

واستطاع تريفيثيك في عام ١٨٠٤ أن يكيف آلة جيمس واط البخارية لمستلزمات النقل والحركة، وبذلك صنع أول قاطرة بخارية. ولم يلبث أول خط حديدي أن افتتح في ١٨١٦ بين ستوكتن ودارلنجتن، وإن بلغت سرعة القاطرة "روكت" التي صنعها جورج ستيفنسن أربعة وأربعين ميلاً في الساعة، وهي تجر وراءها قطارا من العربات زنته ثلاثة عشر طنًا. وتكاثرت السكك الحديدية منذ ١٨٣٠؛ فلم ينتصف القرن حتى كانت شبكة من السكك الحديدية قد انتشرت بكل أرجاء أوروبا[1].

([1]) أنشأت مصر ثاني خط للسكك الحديدية في العالم بين القاهرة والإسكندرية عام ١٨٥٢. [المترجم]



وهنا حدث تغيير فجائي في ناحية زعم الناس منذ أمد بعيد أنها ثابتة مستقرة؛ هي أقصى سرعة يستطيع النقل على الأرض بلوغها. وقد سار نابليون من فيينا إلى باريس بعد هزيمة في روسيا في مدة ٣١٢ ساعة، قطع فيها ما يداني ١٤٠٠ ميل، وكان تحت خدمته كل ما يستطاع تقديمه لملك من ميزات، فلم تزد سرعته في المتوسط مع ذلك عن خمسة أميال في الساعة. وما كان الراكب العادي ليستطيع أن يقوم بتلك الرحلة في ضعف تلك المدة مهما تعجل. وكانت تلك هي بالتقريب السرعة القصوى نفسها في السفر بين روما وبلاد الغالة في القرن الأول الميلادي، ثم ظهر التغير الهائل على حين بغتة. وبفضل السكة الحديدية خفضت مدة هذه الرحلة لأي راكب عادي إلى ما دون ثمان وأربعين ساعة، ومعنى ذلك أنها خفضت المسافات بأوروبا إلى نحو عشر ما كانت عليه، ويسرت القيام بالأعمال الإدارية وشئون الحكم في مساحات أكبر عشر مرات من التي كان في الإمكان إداراتها في الماضي على يد إدارة مركزية واحدة. ولم يدرك الناس حتى الآن المغزى التام لتلك الإمكانية؛ ذلك أن أوروبا تقطع أوصالها حدود وتخوم رسمت في عصر الحصان

والطريق، على أن السكة الحديدية كان لها بأمريكا أثر مباشر فعال، فقد كان معناها بالولايات المتحدة التي تزحف في بطء غربا؛ إمكان الاتصال الدائم بواشنطن، مهما بعد موضع التخوم الجديدة التي تتقدم في كل آن بأرض القارة، بل كان معناها هو الوحدة التي تصان على نطاق لم يكن يتحقق أبدا لولا القطار.

وكان الزورق البخاري على كل حال سابقًا قليلاً على القاطرة البخارية في مراحلها الأولى، فإن زورقًا بخاريا هو "شارلوت دنداس" كان يمخر قناة خليج الكلايد Firth of Clyde في ١٨٠٢، وكان لأمريكي اسمه فالتون باخرة أسماها كليرمونت، بها آلات من صنع بريطانيا، وتعمل في أعالي نهر الهدسون وراء نيويورك، وكانت أول باخرة أنزلت إلى البحر أمريكية أيضا هي الفينكس، التي كانت تنتقل بين نيويورك (هوبوكن) وفلادلفيا، وكانت أول سفينة شراعية زودت بالبخار (إذ كان بها قلوع أيضا) عبرت المحيط الأطلسي (١٨١٩)، واسمها السافانا؛ أمريكية هي الأخرى، وكل هذه السفن لا تخرج عن زوارق تستخدم

العجلة الرفاصة[1] وليست سفن الرفاصات بقادرة على شـق عباب البحار الهائجة الأمواج، فإن مجاديف العجلة تـتحطم بغاية السهولة، وعندئذ يصبح المركب ضعيفًا عاجزا عن كل حركة، ثم جاء دور السفينة البخارية ذات الدافعـة اللولبيـة على شيء من البطء. وإذ لم يكن بد من التغلب على كثيـر من الصعاب قبل أن تصبح الدافعة اللولبيـة وسـيلة عمليـة مثمرة. ولم تستطع حمولة السفينة البخارية البحرية التفـوق على حمولة السفينة الشراعية إلا وقد انتصف القرن، ومـن بعدها سار التطور في الملاحة البحريـة بخطـى سـريعة، ولأول مرة في التاريخ أخذ الناس يعبرون البحار والمحيطات وهم على شيء من التأكد من موعد وصولهم، فـإن عبـور الأطلنطي الذي كان إلى حين قريب مغامرة غيـر مأمونـة العواقب، تمتد إلى أسابيع عديدة (ربما وصلت إلى شـهور)؛ لم تزل تنقص مدته بفضل زيادة السرعة حتى وصلت فـي عام ١٩١٠، في حالة أسرع البواخر؛ إلى أقل مـن خمسـة أيام، مع إمكان تحديد ساعة الوصول تقريبا.

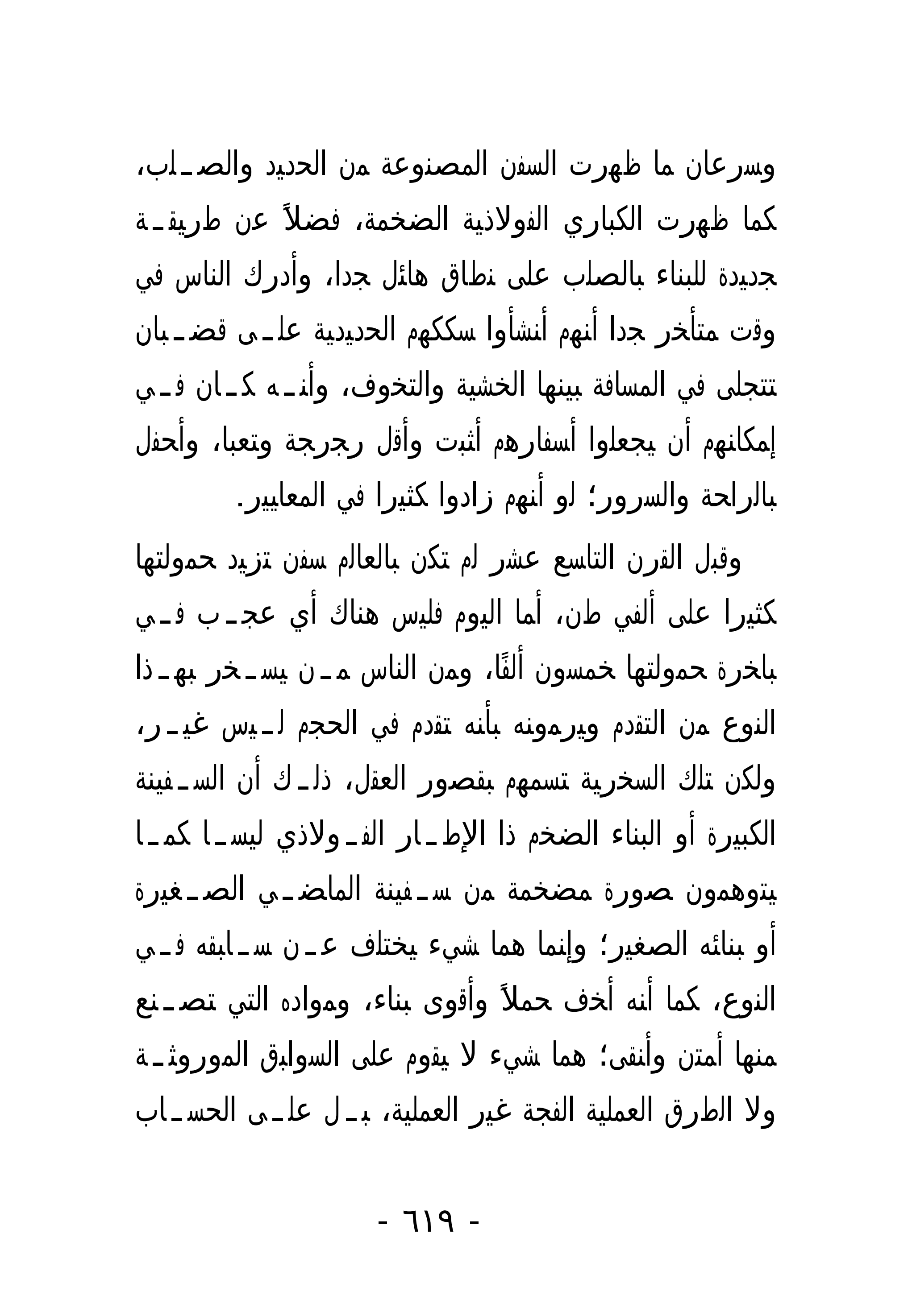
([1]) العجلة الرفاصة أو الدولاب البدالي: عجلة ضخمة تـدفع السـفينة بوساطة ألواح مثبتة عموديا على محيطها، والألواح تـدفع المـاء عندما تُدار العجلة [المترجم]

وفي الوقت الذي تطور فيه النقل البخاري بـرا وبحـرا، ونشأت وسيلة أخرى جديدة أخـاذة أضـيفت إلـى عوامـل الاتصال بين الناس كنتيجة لأبحاث فولتا وجالفاني وفاراداي في مختلف أنواع الظـواهر الكهربيـة، فظهـر التلغـراف الكهربي على مسرح الوجود في عام ١٨٣٥، ومد أول سلك بحري ("كابل") برقي تحت البحر في عام ١٨٥١ بين فرنسا وإنجلترا، وما هي إلا بضع سنين حتى عم نظام البرق العالم الممدن بأكمله، وحتى أمست الأخبار التي كانت إلـى حـين تنطلق من نقطة إلى نقطة بمنتهى البطء والتلكؤ؛ تُعرف فـي كل أرجاء الأرض في وقت واحد تقريبا.

ولا مراء أن هذه الاختراعات (القاطرة البخارية، والبرق الكهربي) تبدت لأخيلة الناس في منتصف القرن التاسع عشر مخترعات رائعة؛ بل معجزات خارقة، على أنهما لم تكونـا إلا باكورتين بارزتين قبيحتين في بستان ضخم تتم فيه عملية أعظم وأوسع كثيرا؛ فإن المعارف والمهارة الفنية التطبيقيـة (Technical) أخذت تنمو وتنهض بسرعة خارقـة، وإلـى درجة خارقة أيضا بالقياس إلى ما تم قبل ذلك في كل عصر مضى. وثمة شيء كان يبدو في البداية أقل بروزوا بكثير في

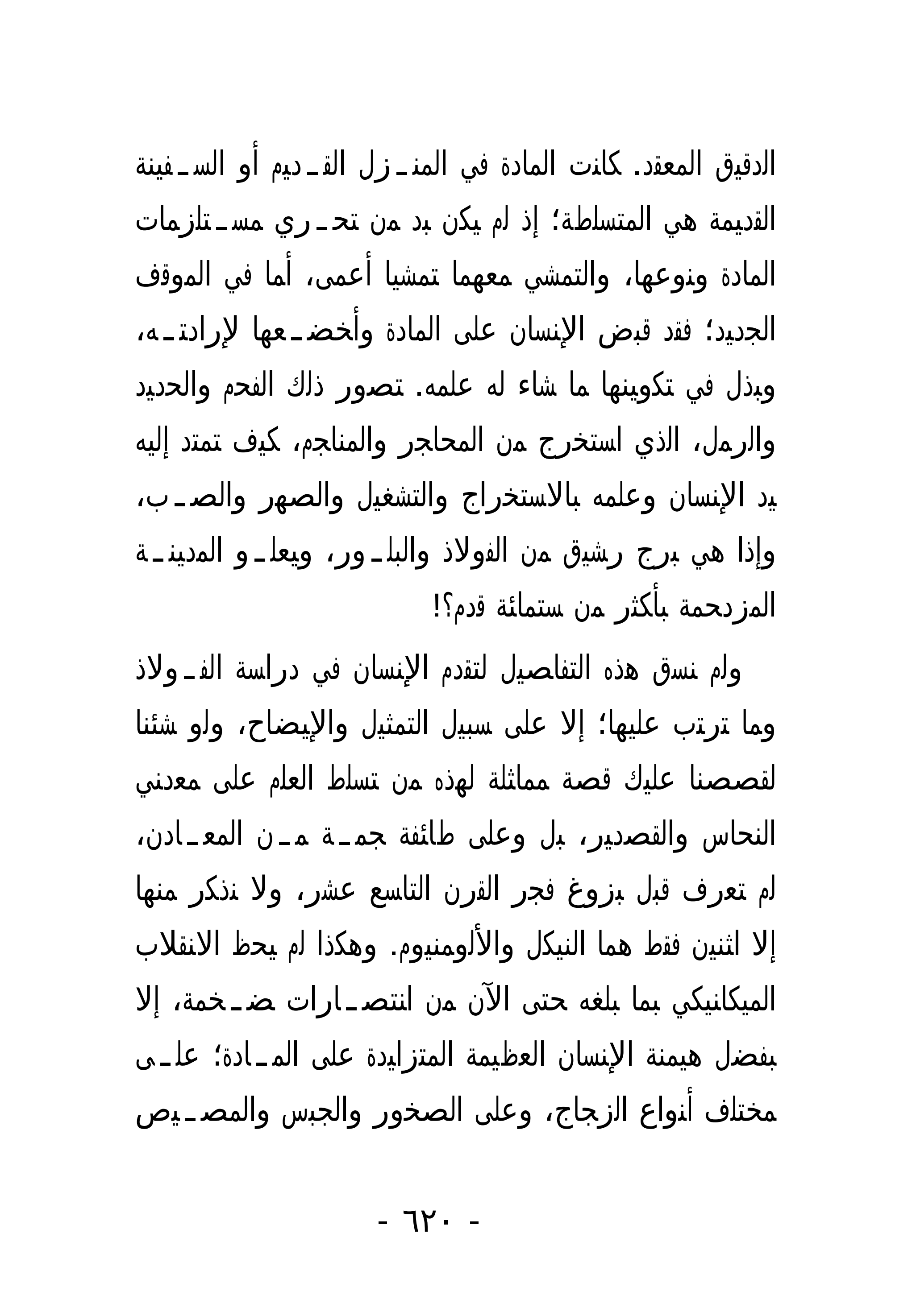
حياة الإنسان العادية، ولكنه كان في النهاية أهم كثيرا من أي شيء آخر، وهو امتداد يد الإنسان وسلطانه على مواد أساسية منوعة، ومكونة لمواد أخرى. مثال ذلك أن معدن الحديد كان يستخلص من خامات الحديد بوساطة الفحم المصنوع من الخشب، وتُتخذ منه القطع الصغيرة، ثم يطرق ويعطي الشكل المطلوب. فعند ذلك كان الحديد مادة لا يستخدمها إلا صانع فني، وعندئذ كانت جودة الصنف وطريقة المعالجة تعتمد على خبرة وحكمة الحداد الفرد. ولم تكن أعظم كتلة من الحديد يمكن معالجتها في مثل تلك الظروف لتزيد في أقصى الحالات حجما (في القرن السادس عشر) على طنين أو ثلاثة (فمن الطبيعي إذن أن يكون لحجم المدافع حد أقصى لا يتعداه)، وجاء تنور الصهر الهوائي في القرن الثامن عشر، وزادت قوته باستعمال الكوك. على أنك لا تجد ألواح الحديد المسحوبة بين الأسطوانات الضاغطة [الدرافيل] إلا في القرن الثامن عشر (١٧٢٨)، كما لا توجد أسياخه وقضبانه المسحوبة بين تلك الأسطوانات نفسها إلا في عام ١٧٨٣، كما أن مطرقة نازميث البخارية لم تخترع إلا أخيرا في عام ١٨٣٨.

وقد حرم العالم القديم نعمة استخدام البخار؛ لانحطاطه في كل ما يتصل باستخراج المعادن وصناعتها، فلم يكـن مـن المستطاع النهوض بالآلة البخارية، بـل حتـى بالمضـخة البدائية، إلا بعد ظهور ألواح الحديد، ولـو شـهدت العـين العصرية تلك الآلات الأولى لرأت فيها قطعا مـن الخـردة قبيحة الصورة مستوجبة للرثاء، ولكنها كانت أقصى ما بلغه علم المعادن آنذاك من تقدم، ثم جاءت طريقة بسمر متـأخرة في ١٨٥٦، وما لبثت أن تلتها على الفور (١٨٦٤) طريقـة الفرن المفتوح الذي كان في إمكانه صهر الصلب وكل أنواع الحديد، وتنقيتها وصبها على شاكلة ونطاق لم يسمع النـاس بمثلهما أبدا. ولو نظرت اليوم إلى الفرن الكهربـي؛ لرأيـت أطنانًا من الفولاذ المتوهج المبيض من شدة الحرارة، وهـي تغلي وتهدر غليان اللبن في إنائه، وليس فـي الإمكـان أن تقاس ثمار شيء مما أحرز الإنسان في الماضي من تقـدم، بما ترى من تحكمه المطلق في كتل ضـخمة مـن الفـولاذ والحديد؛ بل وعلى تقويمها وتكوينها. وفي الحق إن السـكك الحديديـة والآلات القديمـة بمختلـف أنواعهـا لـم تكـن إلا الانتصارات الأولى للطرائق الحديثة في معالجة المعادن.



وسرعان ما ظهرت السفن المصنوعة من الحديد والصلب، كما ظهرت الكباري الفولاذية الضخمة، فضلاً عن طريقة جديدة للبناء بالصلب على نطاق هائل جدا، وأدرك الناس في وقت متأخر جدا أنهم أنشأوا سككهم الحديدية على قضبان تتجلى في المسافة بينها الخشية والتخوف، وأنه كان في إمكانهم أن يجعلوا أسفارهم أثبت وأقل رجرجة وتعبا، وأحفل بالراحة والسرور؛ لو أنهم زادوا كثيرا في المعايير.

وقبل القرن التاسع عشر لم تكن بالعالم سفن تزيد حمولتها كثيرا على ألفي طن، أما اليوم فليس هناك أي عجب في باخرة حمولتها خمسون ألفًا، ومن الناس من يسخر بهذا النوع من التقدم ويرمونه بأنه تقدم في الحجم ليس غير، ولكن تلك السخرية تسمهم بقصور العقل، ذلك أن السفينة الكبيرة أو البناء الضخم ذا الإطار الفولاذي ليسا كما يتوهمون صورة مضخمة من سفينة الماضي الصغيرة أو بنائه الصغير؛ وإنما هما شيء يختلف عن سابقه في النوع، كما أنه أخف حملاً وأقوى بناء، ومواده التي تصنع منها أمتن وأنقى؛ هما شيء لا يقوم على السوابق الموروثة ولا الطرق العملية الفجة غير العملية، بل على الحساب



الدقيق المعقد. كانت المادة في المنـزل القـديم أو السـفينة القديمة هي المتسلطة؛ إذ لم يكن بد من تحـري مسـتلزمات المادة ونوعها، والتمشي معهما تمشيا أعمى، أما في الموقف الجديد؛ فقد قبض الإنسان على المادة وأخضـعها لإرادتـه، وبذل في تكوينها ما شاء له علمه. تصور ذلك الفحم والحديد والرمل، الذي استخرج من المحاجر والمناجم، كيف تمتد إليه يد الإنسان وعلمه بالاستخراج والتشغيل والصهر والصـب، وإذا هي برج رشيق من الفولاذ والبلـور، ويعلـو المدينـة المزدحمة بأكثر من ستمائة قدم؟!

ولم نسق هذه التفاصيل لتقدم الإنسان في دراسة الفـولاذ وما ترتب عليها؛ إلا على سبيل التمثيل والإيضاح، ولو شئنا لقصصنا عليك قصة مماثلة لهذه من تسلط العلم على معدني النحاس والقصدير، بل وعلى طائفة جمـة مـن المعـادن، لم تعرف قبل بزوغ فجر القرن التاسع عشر، ولا نذكر منها إلا اثنين فقط هما النيكل والألومنيوم. وهكذا لم يحظ الانقلاب الميكانيكي بما بلغه حتى الآن من انتصـارات ضـخمة، إلا بفضل هيمنة الإنسان العظيمة المتزايدة على المـادة؛ علـى مختلف أنواع الزجاج، وعلى الصخور والجبس والمصـيص

وما إليها، وعلى ألوان المواد وتكوينها، ومع ذلك فما زلنا في هذه الميادين عند مرحلـة الثمـار الأولـى والتباشـير لـم نتجاوزها. أجل إن القوة أصبحت ملك يميننا، ولكن بقي علينا أن نعلم كيف نستخدم قوتنا تلك، ثم إن الشيء الكثيـر مـن استخدامنا الأول لهبات العلم السخية هذه؛ كان فـي البدايـة سوقيا، ينطوي على الذوق القبيح أو الغباء أو الفظاعة، ولـم يكد الفنان والمهندس المنفذ يتجاوزان بعد مرحلـة الابتـداء الأولى في الاستفادة بتلـك الأنـواع التـي لا حصـر لهـا ولا نهاية من المواد التي أصبحت اليوم تحت تصرفهما.

واطرد نمو علم الكهرباء إلى جوار هذا الاتساع الكبير في الإمكانيات الميكانيكية، ولم يشرع هذا الحقـل مـن حقـول الأبحاث أن يؤتي ثمارا كان لها في عقول الناس أثر عميـق إلا في ثمانينيات[1] القرن التاسع عشر، وإذا بـالعلم يفاجـأ بالنور الكهربي، والجر الكهربي، كما بدأ يتسرب للأذهـان كافة أن في الإمكان نقل القوة؛ أي إرسال قوة يمكن بالإرادة تحويلها إلى حركة ميكانيكية، أو ضـوء أو حـرارة، عـن طريق سلك من النحاس، كما ينقل الماء في الأنابيب.

([1]) ثمانينيات القرن: هي عقدة التاسع من ١٨٨٠ إلى ١٨٨٩.

كان البريطانيون والفرنسيون في بادئ الأمر هما الشعبان اللذان سبقا غيرهما في مضمار تكاثر المعرفة ذاك، ولكن ما نشب الألمان الذين تلقوا درسا في الذلة على يد نـابليون أن أبدوا من الحمية والمثابرة في الأبحاث العلمية مـا جعلهـم يدركون هؤلاء الرواد ويسبقونهم، وكان العلم في بريطانيـا إلى حد كبير من ابتكار رجال من الإنجليـز والأسـكتلنديين الذين يعملون خارج نطاق اللوذعية والإحاطة المألوف.

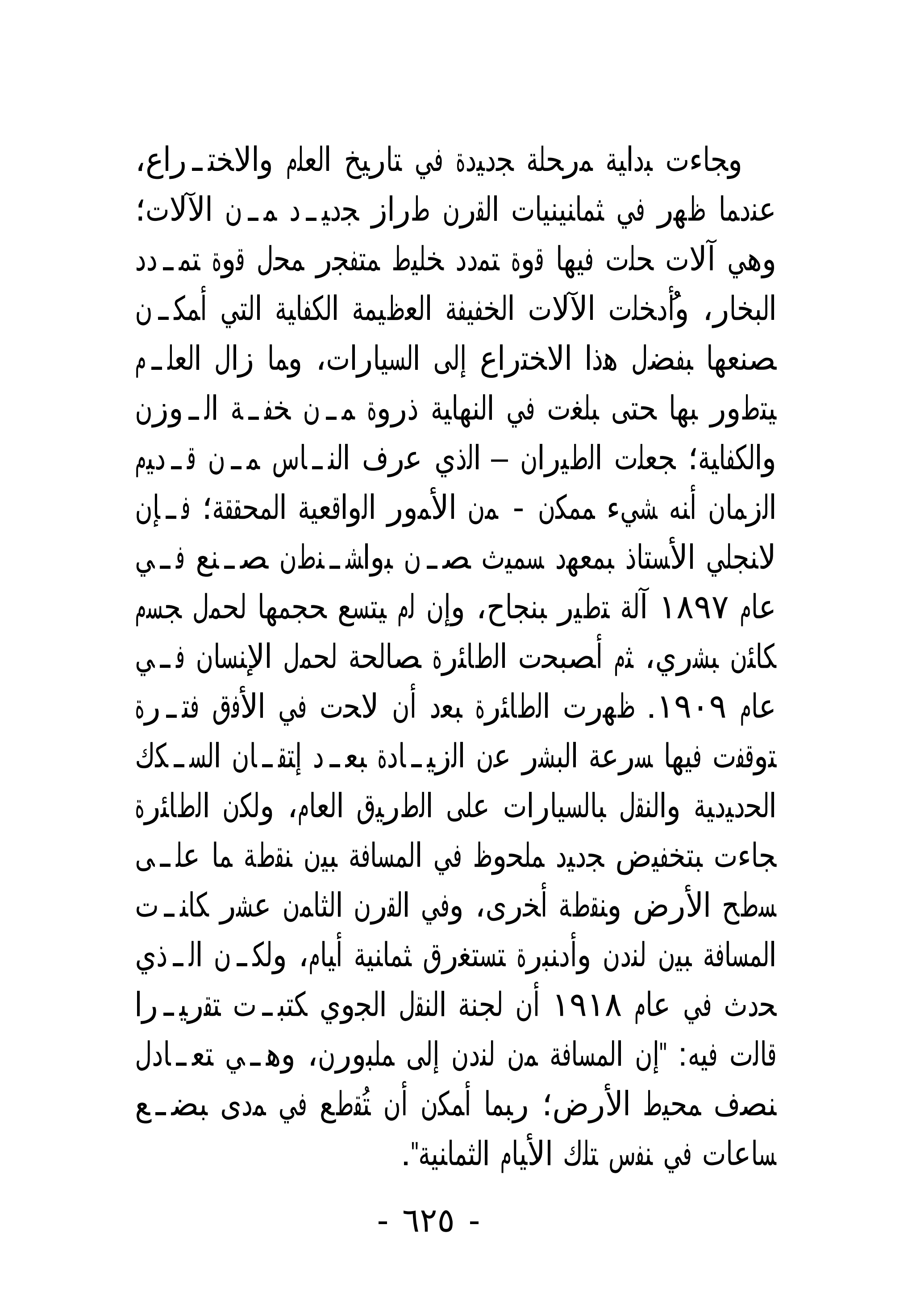
وكانت جامعات بريطانيا في ذلك الحين في حالة تـدهور تربوي، وقد صرفت جل همها في إظهار الحذلقة، والإحاطة بالآداب اللاتينية واليونانية القديمة، وكذلك شأن التعليم فـي فرنسا؛ إذ كانت تسوده تقاليد الآداب القديمة على يد مـدارس الآباء اليسوعيين (الجزويت)؛ لذا لم يصعب على الألمان أن ينشئوا هيئة من الباحثين، ربما كانت صغيرة بالقيـاس إلـى ما في الأمر من إمكانيات، ولكنها ضخمة بالنسبة إلى تلـك الفئة الصغيرة من المخترعين والمجربين ببريطانيا وفرنسا، وأصحاب البحث التجريبي فيهما. ومـع أن هـذه الأبحـاث والتجارب قد جعلت بريطانيا وفرنسـا أقـوى دول العـالم وأغناها؛ فإنها لم تعد على رجال العلم والاختـراع بثـروة

ولا قوة، فإن رجل العلم المخاص لعمله يعيش بالضرورة في جو من الزهد في الدنيا؛ فهو من الانشغال بأبحاثـه العلميـة بحيث لا يجد مجالاً لتدبير الخطط في المشـروعات لجمـع المال عن طريقها؛ ولذا فسرعان ما يقع استثمار اختراعاتـه الاقتصادي بغاية السهولة، وبطريقة طبيعية جدا في قبضـة طراز من الناس أميل إلى اكتناز المال؛ لذا نرى في تـاريخ بلادنا أن كل طبقة جديدة من الأغنيـاء أبرزهـا ببريطانيـا العظمى كل دور جديد من أدوار التقدم العلمي والفني؛ كانت تقنع تماما بأن تترك الأوزة التي تبيض لها ببيضـة الـذهب تضوي من الجوع، إن لم تبد منها تماما نفس تلـك الرغبـة الجامحة التي أبداها علماء الدراسات الكلاميـة[1]، ورجـال الدين ببريطانيا نحو إهانة تلك الأوزة القومية وقتلهـا؛ فلقـد زعموا أن المكتشفين والمخترعين يظهرون بالطبيعة ليستفيد من ورائهم من يفوقونهم ذكاء.

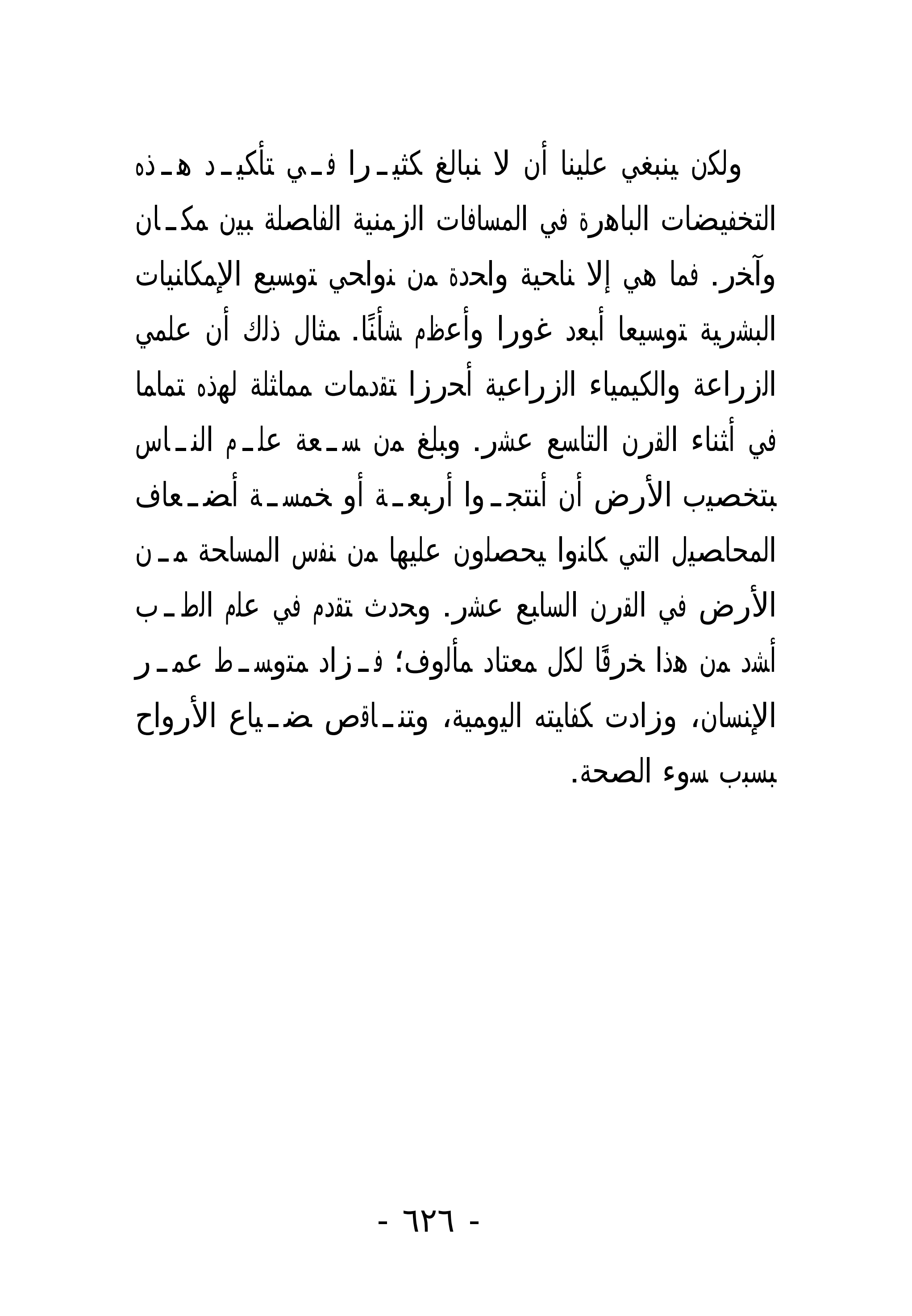
([1]) يقصد بالدراسات الكلامية؛ دراسـة الفلسـفة والعلـوم اليونانيـة واللاتينية، وتسمى أحيانًا بالفلسفة المدرسانية.

وكان الألمان من هذه الناحية أكثر تحكيما للعقـل، فـإن علماء الألمان النظريين لم يظهروا نحو العلم الجديد مثل تلك البغضاء العنيفة؛ لذا سمحوا له بأن ينمو ويتطـور. ثـم إن رجل الأعمال وصاحب المصنع لم يستشعرا نحو رجل العلم الحديث نفس الاحتقار الذي خـامر منافسـهما البريطـاني، وأدرك هؤلاء الألمان أن المعرفة ربما كانت محصولاً يزرع ويستجيب للمخصبات؛ لذا نزلوا فعلاً لرجل العلم عن معـين من فرصة الثراء، وكانت ميزانية مصروفاتهم العامة علـى البحث العلمي أعظم نسبيا، كما أن جميع ما أنفقوه كان يعود عليهم بموفور الجزاء. وإذا برجل العلم في ألمانيا يجعل لغته الألمانية في النصف الثاني من القرن التاسـع عشـر لغـة ضرورية، لا يستغني عنها كل دارس للعلوم يريد أن يظـل ملما بآخر ما أنتجته العقول في ناحية تخصصه، وثمة فروع بعينها وبخاصة الكيمياء أحرزت فيها ألمانيا تفوقًا عظيما جدا على جاراتها الغربيات، ولم تظهر آثار الجهود الألمانية إبان ستينيات وسبعينيات القرن[1]، بل بعـد الثمانينيـات، وظـل الألمان من ثم يتفوقون باطراد على بريطانيا وفرنسـا فـي ميادين التقدم الفني والصناعي.

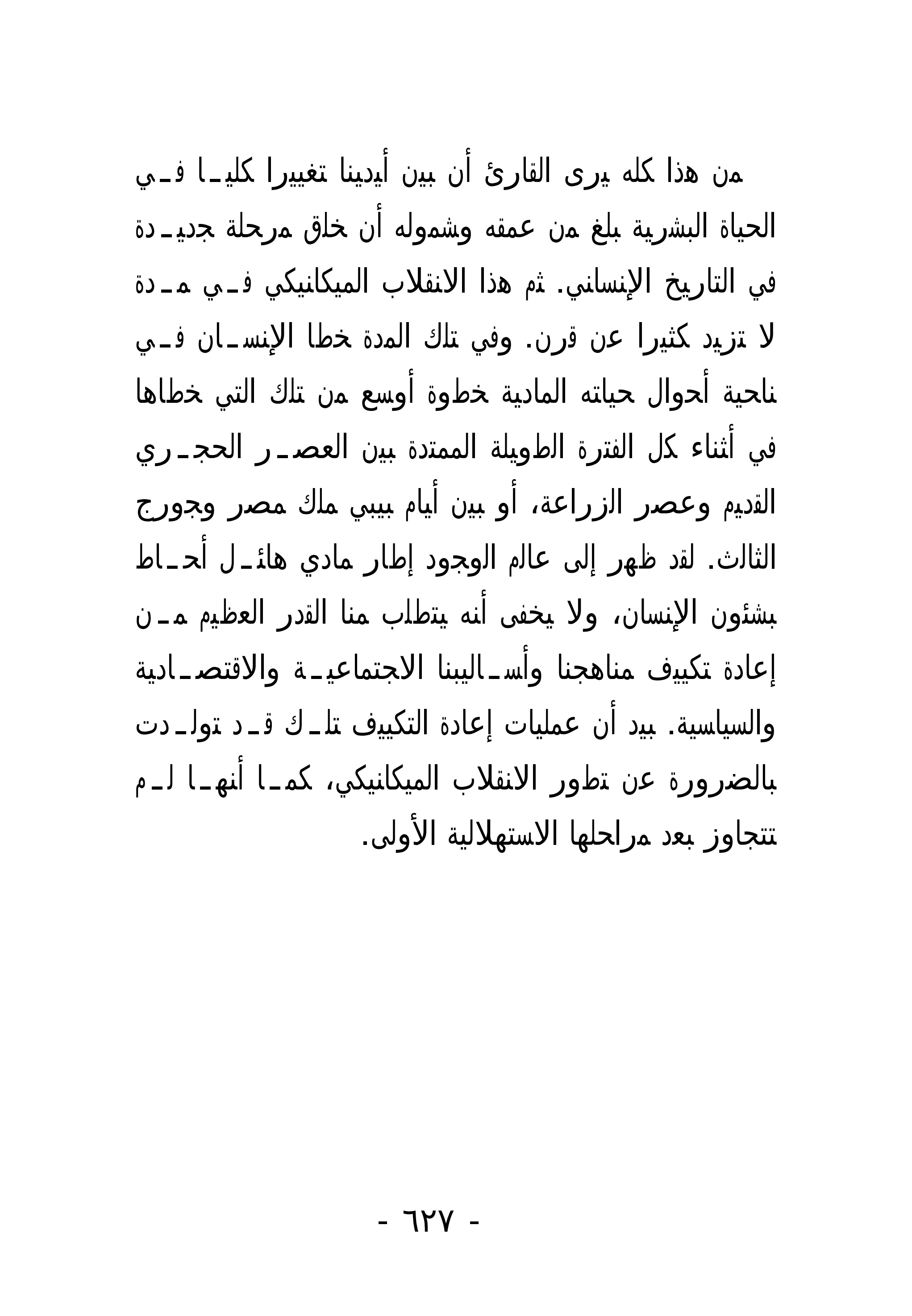
([1]) وهما العقدان السابع والثامن من القرن.



وجاءت بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلم والاختراع، عندما ظهر في ثمانينيات القرن طراز جديد من الآلات؛ وهي آلات حلت فيها قوة تمدد خليط متفجر محل قوة تمدد البخار، وأُدخلت الآلات الخفيفة العظيمة الكفاية التي أمكن صنعها بفضل هذا الاختراع إلى السيارات، وما زال العلم يتطور بها حتى بلغت في النهاية ذروة من خفة الوزن والكفاية؛ جعلت الطيران – الذي عرف الناس من قديم الزمان أنه شيء ممكن - من الأمور الواقعية المحققة؛ فإن لانجلي الأستاذ بمعهد سميث صن بواشنطن صنع في عام ١٨٩٧ آلة تطير بنجاح، وإن لم يتسع حجمها لحمل جسم كائن بشري، ثم أصبحت الطائرة صالحة لحمل الإنسان في عام ١٩٠٩. ظهرت الطائرة بعد أن لاحت في الأفق فترة توقفت فيها سرعة البشر عن الزيادة بعد إتقان السكك الحديدية والنقل بالسيارات على الطريق العام، ولكن الطائرة جاءت بتخفيض جديد ملحوظ في المسافة بين نقطة ما على سطح الأرض ونقطة أخرى، وفي القرن الثامن عشر كانت المسافة بين لندن وأدنبرة تستغرق ثمانية أيام، ولكن الذي حدث في عام ١٩١٨ أن لجنة النقل الجوي كتبت تقريرا قالت فيه: "إن المسافة من لندن إلى ملبورن، وهي تعادل نصف محيط الأرض؛ ربما أمكن أن تُقطع في مدى بضع ساعات في نفس تلك الأيام الثمانية".



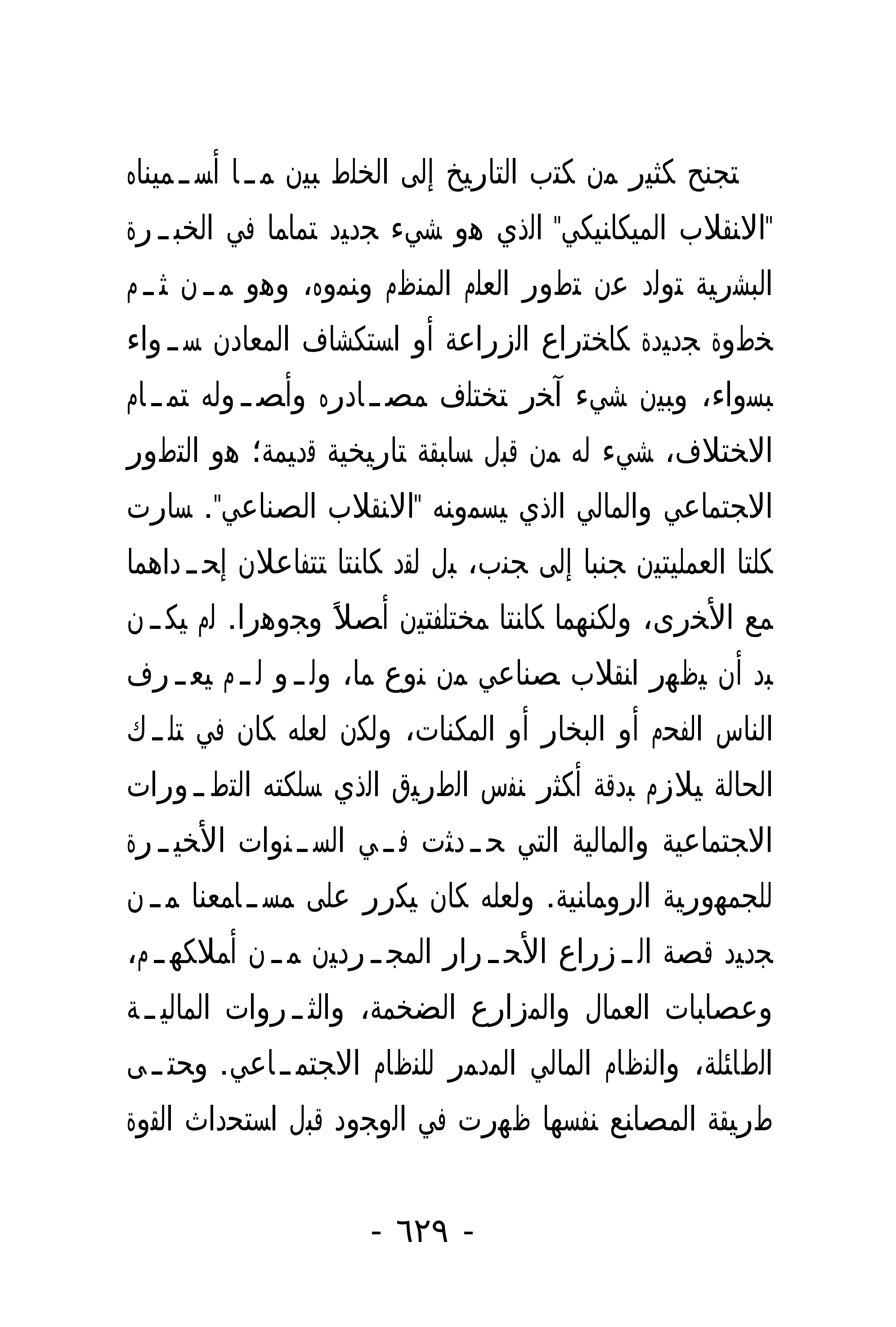
ولكن ينبغي علينا أن لا نبالغ كثيـرا فـي تأكيـد هـذه التخفيضات الباهرة في المسافات الزمنية الفاصلة بين مكـان وآخر. فما هي إلا ناحية واحدة من نواحي توسيع الإمكانيات البشرية توسيعا أبعد غورا وأعظم شأنًا. مثال ذلك أن علمي الزراعة والكيمياء الزراعية أحرزا تقدمات مماثلة لهذه تماما في أثناء القرن التاسع عشر. وبلغ من سـعة علـم النـاس بتخصيب الأرض أن أنتجـوا أربعـة أو خمسـة أضـعاف المحاصيل التي كانوا يحصلون عليها من نفس المساحة مـن الأرض في القرن السابع عشر. وحدث تقدم في علم الطـب أشد من هذا خرقًا لكل معتاد مألوف؛ فـزاد متوسـط عمـر الإنسان، وزادت كفايته اليومية، وتنـاقص ضـياع الأرواح بسبب سوء الصحة.



من هذا كله يرى القارئ أن بين أيدينا تغييرا كليا في الحياة البشرية بلغ من عمقه وشموله أن خلق مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني. ثم هذا الانقلاب الميكانيكي في مدة لا تزيد كثيرا عن قرن. وفي تلك المدة خطا الإنسان في ناحية أحوال حياته المادية خطوة أوسع من تلك التي خطاها في أثناء كل الفترة الطويلة الممتدة بين العصر الحجري القديم وعصر الزراعة، أو بين أيام بيبي ملك مصر وجورج الثالث. لقد ظهر إلى عالم الوجود إطار مادي هائل أحاط بشئون الإنسان، ولا يخفى أنه يتطلب منا القدر العظيم من إعادة تكييف مناهجنا وأساليبنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. بيد أن عمليات إعادة التكييف تلك قد تولدت بالضرورة عن تطور الانقلاب الميكانيكي، كما أنها لم تتجاوز بعد مراحلها الاستهلالية الأولى.

الفصل الثامن والخمسون

الانقلاب الصناعي



تجنح كثير من كتب التاريخ إلى الخلط بين ما أسميناه "الانقلاب الميكانيكي" الذي هو شيء جديد تماما في الخبرة البشرية تولد عن تطور العلم المنظم ونموه، وهو من ثم خطوة جديدة كاختراع الزراعة أو استكشاف المعادن سواء بسواء، وبين شيء آخر تختلف مصادره وأصوله تمام الاختلاف، شيء له من قبل سابقة تاريخية قديمة؛ هو التطور الاجتماعي والمالي الذي يسمونه "الانقلاب الصناعي". سارت كلتا العمليتين جنبا إلى جنب، بل لقد كانتا تتفاعلان إحداهما مع الأخرى، ولكنهما كانتا مختلفتين أصلاً وجوهرا. لم يكن بد أن يظهر انقلاب صناعي من نوع ما، ولو لم يعرف الناس الفحم أو البخار أو المكنات، ولكن لعله كان في تلك الحالة يلازم بدقة أكثر نفس الطريق الذي سلكته التطورات الاجتماعية والمالية التي حدثت في السنوات الأخيرة للجمهورية الرومانية. ولعله كان يكرر على مسامعنا من جديد قصة الزراع الأحرار المجردين من أملاكهم، وعصابات العمال والمزارع الضخمة، والثروات المالية الطائلة، والنظام المالي المدمر للنظام الاجتماعي. وحتى طريقة المصانع نفسها ظهرت في الوجود قبل استحداث القوة

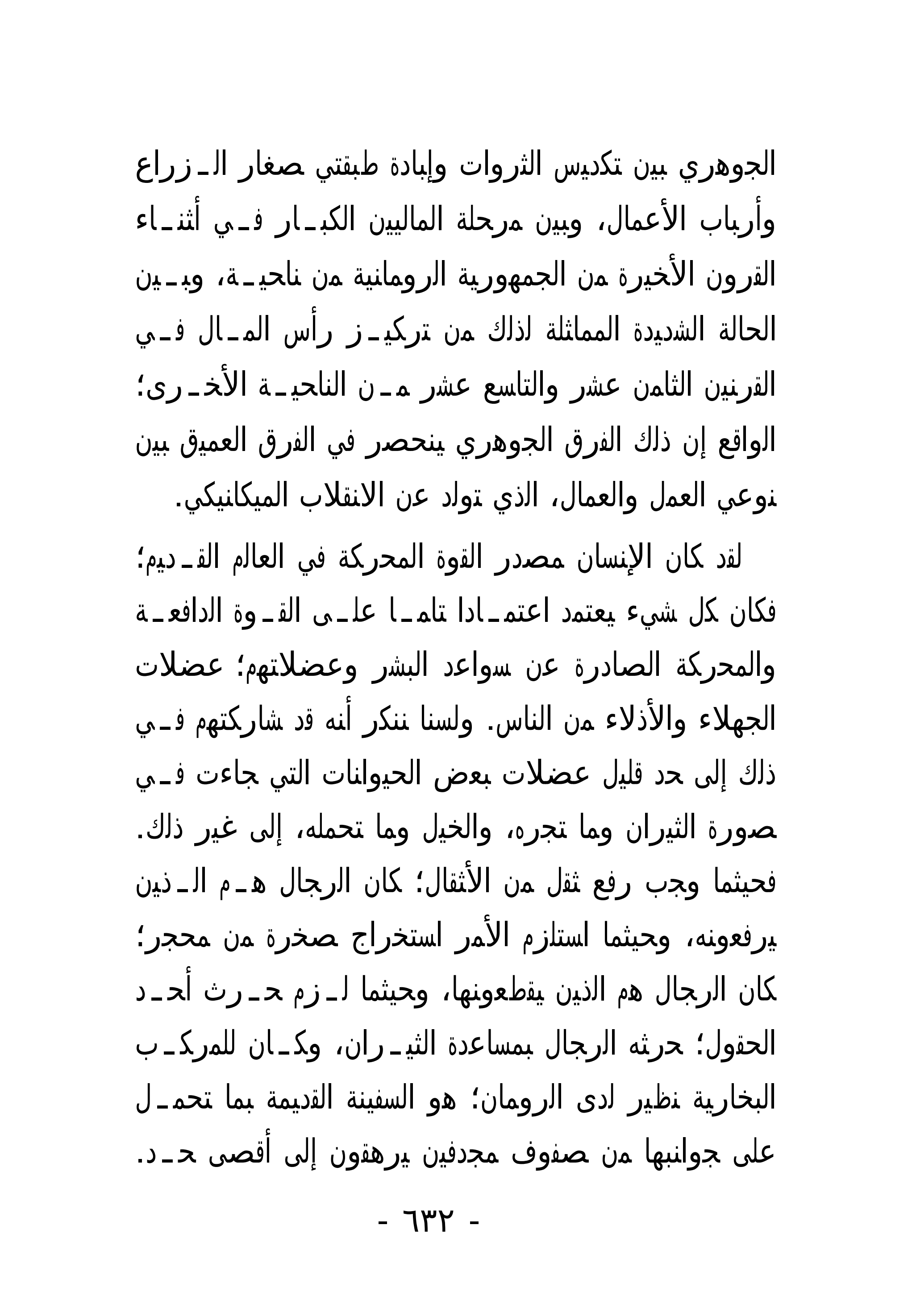
واختراع المكنات، فالمصانع ليست ثمرة الآلة؛ بـل ثمـرة تقسيم العمل، فكان العمال المدربون المرهقون بالكدح والعمل يصنعون أشياء من أمثال قبعات السيدات، وعلب الكرتـون والأثاث، ويلونون الخرائط وصور الكتب وما إليها، قبـل أن تستعمل حتى الدواليب المائية في خدمة الصـناعة، وكـان بروما في أيام أغسطس كثير من المصانع. مثـال ذلـك أن الكتب الجديدة كانت تملى على حشود مصفوفة من النساخين في مصانع باعة الكتب. وسيرى كل دارس مدقق يقرأ بإمعان ما كتبه دانيا ديفو، وما تحتويه نشرات فيلدنج السياسـية؛ أن فكرة حشد الفقراء ليعملوا مجتمعين في مؤسسات للحصـول على أرزاقهم كانت شيئًا مألوفًا ببريطانيا قبل نهايـة القـرن السابع عشر، بل إن هناك إشارات تشير إلى وجودهـا فـي نفس زمن السير توماس مور، وكتابـه اليوتوبيـا (١٥١٦). لا جرم أنه كان تطورا اجتماعيا وليس ميكانيكيا.

والواقع إن تاريخ أوروبا الغربية الاجتماعي والاقتصادي ظل حتى ما بعد منتصف القرن الثامن عشر يترسم من جديد خطى الدولة الرومانية في القرون الثلاثة السابقة للميلاد.

غير أن تفكك أوروبا سياسيا، وثوراتها السياسية العنيفـة على الملوك، ومعاندة العامة، مضافًا إليها على الأرجح قابلية الذكاء الأوروبي الغربي للأفكار والمخترعات الميكانيكيـة؛ وجهت الموقف وجهات أخرى جديدة تماما.

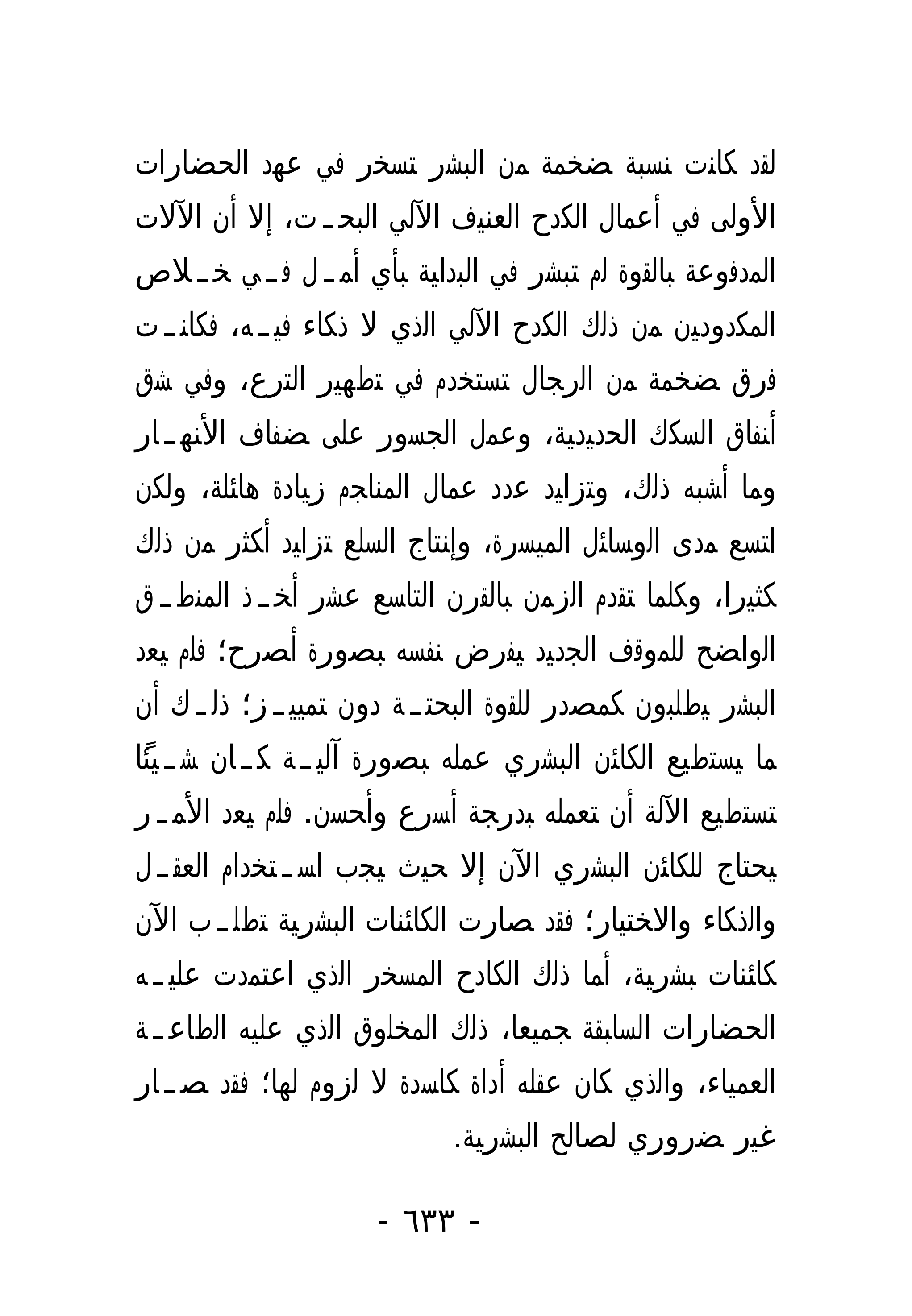
ولا شك أن الفكرات الداعية إلى تكافل الناس وتماسـكهم؛ كانت بفضل المسيحية أوسع انتشارا في العـالم الأوروبـي الجديد، ولم يكن النفوذ السياسي على مثل هذه الدرجة مـن التركز؛ ومن ثم أقلع كل رجل نشيط حريص على الإثـراء عن فكرة الرقيق وعصابات العمال، وتحول بفكره مختـارا لقوة الآلة و"المكنة".

وغني عن البيان أن الانقلاب الميكانيكي (عملية الاختراع والاكتشاف الميكانيكية) كانت شيئًا جديدا في خبرة الإنسـانية بهذه الدنيا، كما أنها واصلت تطورها غير عابئـة بمـا قـد تحدثه من عواقب اجتماعية وسياسية واقتصادية وصـناعية، وذلك في حين أن الانقلاب الصناعي كان ولا يـزال ككـل الشئون الإنسانية عرضة لتغيرات تزداد في كـل آن عمقًـا وانحرافًا؛ بسبب ما يحدثه الانقلاب الميكانيكي في ظـروف الإنسان وأحواله من التغيرات المتواصلة. والواقع إن الفرق

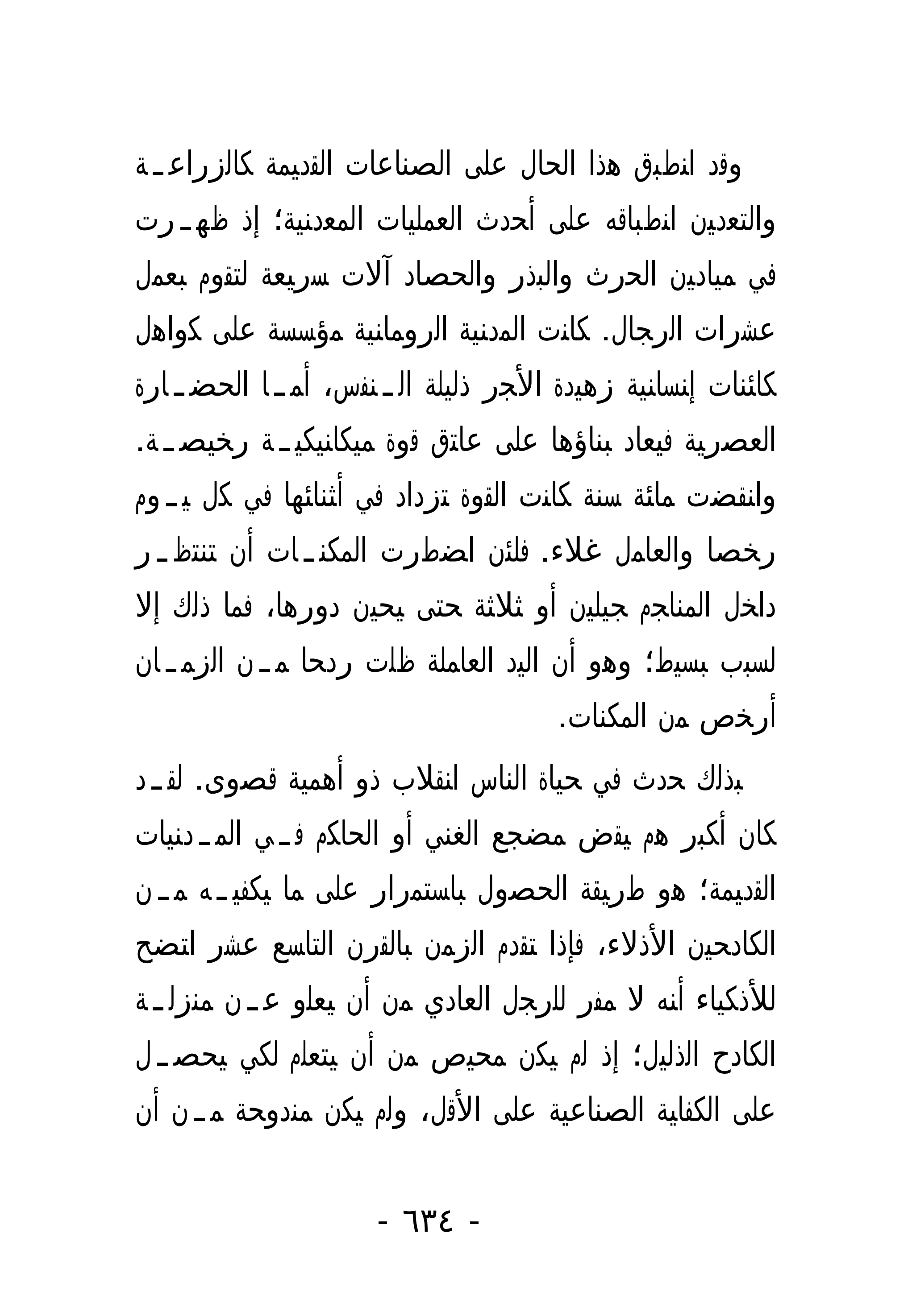


الجوهري بين تكديس الثروات وإبادة طبقتي صغار الزراع وأرباب الأعمال، وبين مرحلة الماليين الكبار في أثناء القرون الأخيرة من الجمهورية الرومانية من ناحية، وبين الحالة الشديدة المماثلة لذلك من تركيز رأس المال في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الناحية الأخرى؛ الواقع إن ذلك الفرق الجوهري ينحصر في الفرق العميق بين نوعي العمل والعمال، الذي تولد عن الانقلاب الميكانيكي.

لقد كان الإنسان مصدر القوة المحركة في العالم القديم؛ فكان كل شيء يعتمد اعتمادا تاما على القوة الدافعة والمحركة الصادرة عن سواعد البشر وعضلاتهم؛ عضلات الجهلاء والأذلاء من الناس. ولسنا ننكر أنه قد شاركتهم في ذلك إلى حد قليل عضلات بعض الحيوانات التي جاءت في صورة الثيران وما تجره، والخيل وما تحمله، إلى غير ذلك. فحيثما وجب رفع ثقل من الأثقال؛ كان الرجال هم الذين يرفعونه، وحيثما استلزم الأمر استخراج صخرة من محجر؛ كان الرجال هم الذين يقطعونها، وحيثما لزم حرث أحد الحقول؛ حرثه الرجال بمساعدة الثيران، وكان للمركب البخارية نظير لدى الرومان؛ هو السفينة القديمة بما تحمل على جوانبها من صفوف مجدفين يرهقون إلى أقصى حد.

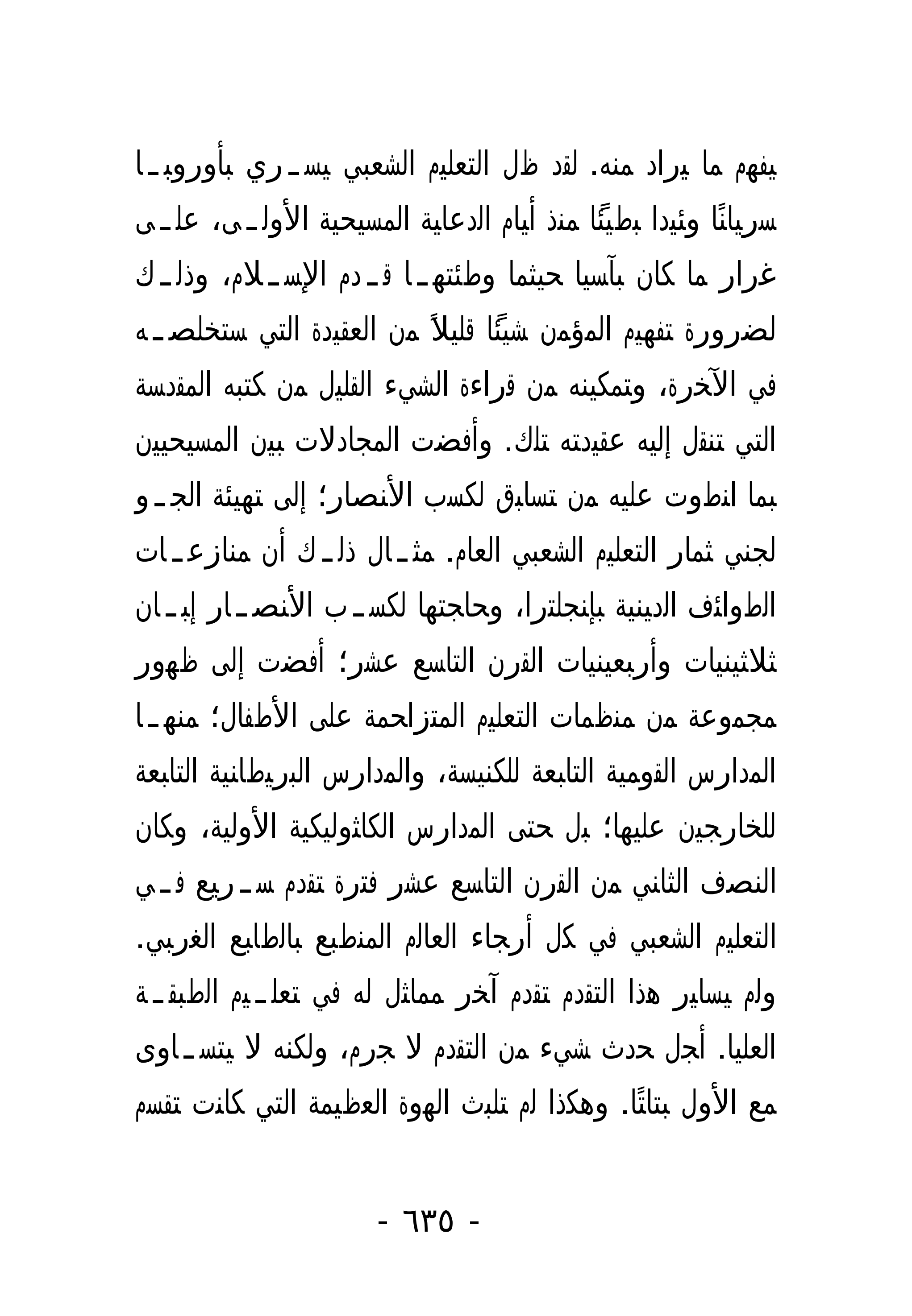


لقد كانت نسبة ضخمة من البشر تسخر في عهد الحضارات الأولى في أعمال الكدح العنيف الآلي البحت، إلا أن الآلات المدفوعة بالقوة لم تبشر في البداية بأي أمل في خلاص المكدودين من ذلك الكدح الآلي الذي لا ذكاء فيه، فكانت فرق ضخمة من الرجال تستخدم في تطهير الترع، وفي شق أنفاق السكك الحديدية، وعمل الجسور على ضفاف الأنهار وما أشبه ذلك، وتزايد عدد عمال المناجم زيادة هائلة، ولكن اتسع مدى الوسائل الميسرة، وإنتاج السلع تزايد أكثر من ذلك كثيرا، وكلما تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر أخذ المنطق الواضح للموقف الجديد يفرض نفسه بصورة أصرح؛ فلم يعد البشر يطلبون كمصدر للقوة البحتة دون تمييز؛ ذلك أن ما يستطيع الكائن البشري عمله بصورة آلية كان شيئًا تستطيع الآلة أن تعمله بدرجة أسرع وأحسن. فلم يعد الأمر يحتاج للكائن البشري الآن إلا حيث يجب استخدام العقل والذكاء والاختيار؛ فقد صارت الكائنات البشرية تطلب الآن كائنات بشرية، أما ذلك الكادح المسخر الذي اعتمدت عليه الحضارات السابقة جميعا، ذلك المخلوق الذي عليه الطاعة العمياء، والذي كان عقله أداة كاسدة لا لزوم لها؛ فقد صار غير ضروري لصالح البشرية.

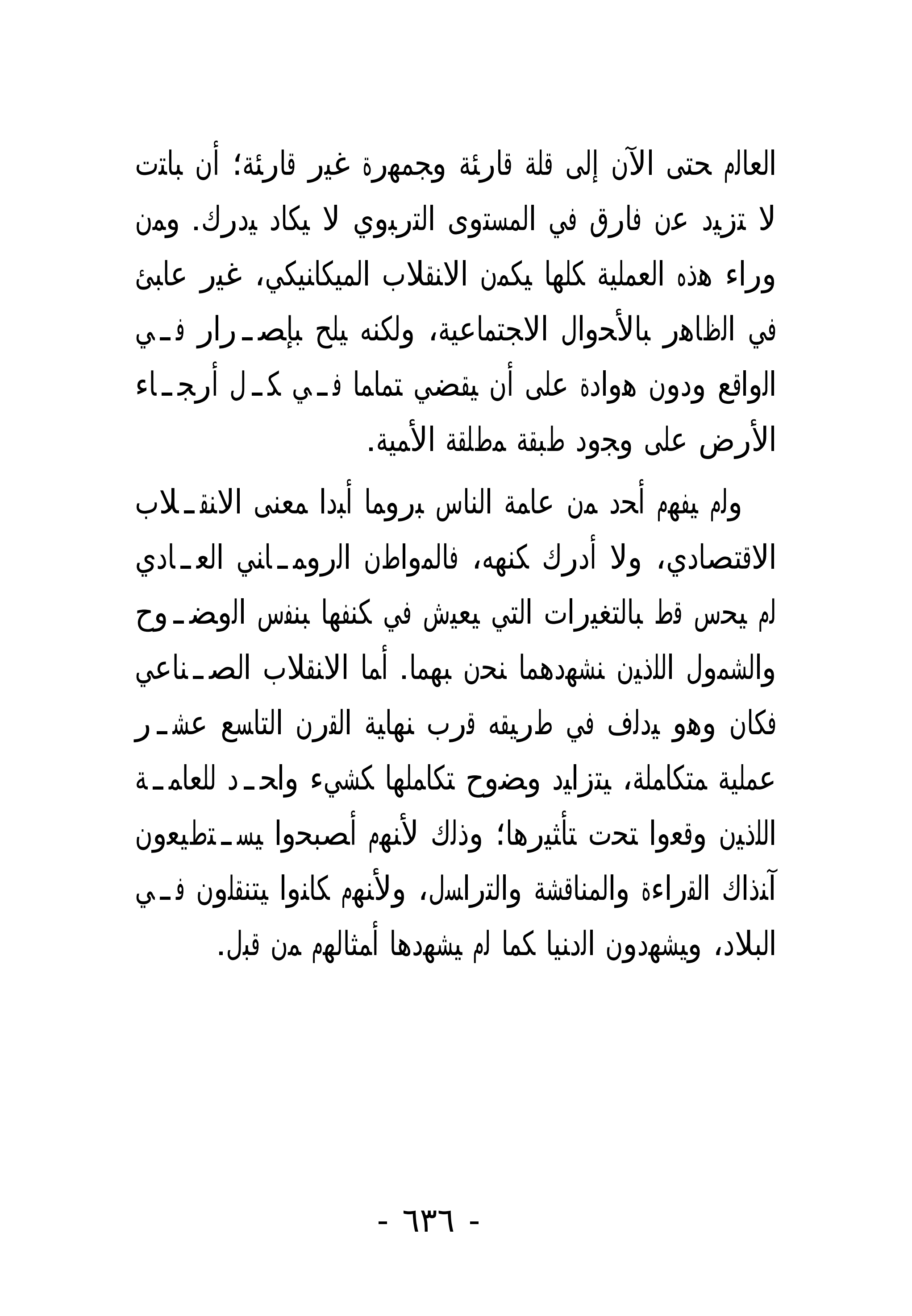


وقد انطبق هذا الحال على الصناعات القديمة كالزراعـة والتعدين انطباقه على أحدث العمليات المعدنية؛ إذ ظهـرت في ميادين الحرث والبذر والحصاد آلات سريعة لتقوم بعمل عشرات الرجال. كانت المدنية الرومانية مؤسسة على كواهل كائنات إنسانية زهيدة الأجر ذليلة الـنفس، أمـا الحضـارة العصرية فيعاد بناؤها على عاتق قوة ميكانيكيـة رخيصـة. وانقضت مائة سنة كانت القوة تزداد في أثنائها في كل يـوم رخصا والعامل غلاء. فلئن اضطرت المكنـات أن تنتظـر داخل المناجم جيلين أو ثلاثة حتى يحين دورها، فما ذلك إلا لسبب بسيط؛ وهو أن اليد العاملة ظلت ردحا مـن الزمـان أرخص من المكنات.

بذلك حدث في حياة الناس انقلاب ذو أهمية قصوى. لقـد كان أكبر هم يقض مضجع الغني أو الحاكم فـي المـدنيات القديمة؛ هو طريقة الحصول باستمرار على ما يكفيـه مـن الكادحين الأذلاء، فإذا تقدم الزمن بالقرن التاسع عشر اتضح للأذكياء أنه لا مفر للرجل العادي من أن يعلو عـن منزلـة الكادح الذليل؛ إذ لم يكن محيص من أن يتعلم لكي يحصـل على الكفاية الصناعية على الأقل، ولم يكن مندوحة مـن أن



يفهم ما يراد منه. لقد ظل التعليم الشعبي يسري بأوروبا سريانًا وئيدا بطيئًا منذ أيام الدعاية المسيحية الأولى، على غرار ما كان بآسيا حيثما وطئتها قدم الإسلام، وذلك لضرورة تفهيم المؤمن شيئًا قليلاً من العقيدة التي ستخلصه في الآخرة، وتمكينه من قراءة الشيء القليل من كتبه المقدسة التي تنقل إليه عقيدته تلك. وأفضت المجادلات بين المسيحيين بما انطوت عليه من تسابق لكسب الأنصار؛ إلى تهيئة الجو لجني ثمار التعليم الشعبي العام. مثال ذلك أن منازعات الطوائف الدينية بإنجلترا، وحاجتها لكسب الأنصار إبان ثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر؛ أفضت إلى ظهور مجموعة من منظمات التعليم المتزاحمة على الأطفال؛ منها المدارس القومية التابعة للكنيسة، والمدارس البريطانية التابعة للخارجين عليها؛ بل حتى المدارس الكاثوليكية الأولية، وكان النصف الثاني من القرن التاسع عشر فترة تقدم سريع في التعليم الشعبي في كل أرجاء العالم المنطبع بالطابع الغربي. ولم يساير هذا التقدم تقدم آخر مماثل له في تعليم الطبقة العليا. أجل حدث شيء من التقدم لا جرم، ولكنه لا يتساوى مع الأول بتاتًا. وهكذا لم تلبث الهوة العظيمة التي كانت تقسم



العالم حتى الآن إلى قلة قارئة وجمهرة غير قارئة؛ أن باتت لا تزيد عن فارق في المستوى التربوي لا يكاد يدرك. ومن وراء هذه العملية كلها يكمن الانقلاب الميكانيكي، غير عابئ في الظاهر بالأحوال الاجتماعية، ولكنه يلح بإصـرار فـي الواقع ودون هوادة على أن يقضي تماما فـي كـل أرجـاء الأرض على وجود طبقة مطلقة الأمية.

ولم يفهم أحد من عامة الناس بروما أبدا معنى الانقـلاب الاقتصادي، ولا أدرك كنهه، فالمواطن الرومـاني العـادي لم يحس قط بالتغيرات التي يعيش في كنفها بنفس الوضـوح والشمول اللذين نشهدهما نحن بهما. أما الانقلاب الصـناعي فكان وهو يدلف في طريقه قرب نهاية القرن التاسع عشـر عملية متكاملة، يتزايد وضوح تكاملها كشيء واحـد للعامـة الذين وقعوا تحت تأثيرها؛ وذلك لأنهم أصبحوا يسـتطيعون آنذاك القراءة والمناقشة والتراسل، ولأنهم كانوا يتنقلون فـي البلاد، ويشهدون الدنيا كما لم يشهدها أمثالهم من قبل.

الفصل التاسع والخمسون

تطور الآراء السياسية

والاجتماعية المعاصرة

نمت نظم الحضارات القديمة وعرفها وآراؤها السياسـية، وترعرعت ببطء عصرا بعد عصر، دون أن يرسم إنسان لها خطة أو يتنبأ إنسان لها بشيء، ولم يحـدث إلا فـي القـرن السادس ق. م (قرن المراهقة العظيم للبشرية) أن فكر الناس بجلاء في علاقاتهم بعضهم ببعض، وأن ناقشوا لأول مـرة واقترحوا لأول مرة تغيير المعتقـدات المسـتقرة والقـوانين السائدة، وأساليب الحكومة البشرية القائمة وإعادة تنظيمها.

وقد سبقت الإشارة إلى الفجر الفكري المجيد الذي لاحـت تباشيره بأرض اليونان ومدينة الإسكندرية، وكيف تقوضـت المدنيات المالكة للرقيق، وتلبدت سماؤها بغيـوم التعصـب الديني واستبداد الحكومات المطلق؛ مما عاجل ذلك الفجـر، فأسدل على ما ترقرق فيه من الآمال ظلمة حالكة. ولم يبـدأ نور التفكير الجريء ينفذ من جديد بصورة فعالة خلال ذلـك الليل الدامس الذي ران على أوروبا، إلا حين أقبل القرنـان الخامس عشر والسادس عشر. وقد حاولنا أن نعرض عليـك شيئًا يبين فضل تلك الرياح العظيمـة التـي أثارهـا حـب استطلاع العرب، وفتوح المغول في تبديد بعض مـا غشـي السماء العقلية لأوروبا من الغيوم، وأول من حظي بالزيـادة

هو المعرفة المادية بوجه خاص؛ فكانت أول الثمـار التـي عادت على الإنسان من اسـترداد إنسـانيته مغـانم ماديـة أحرزها، وقوة مادية حصل عليها؛ ذلـك أن علـم السياسـة البشرية، وعلم النفس الفردي والاجتماعي، وعلـوم التربيـة والاقتصاد؛ ليست دقيقة ومعقدة في حد ذاتها فحسب؛ بل هي ترتبط ارتباطًا وثيقًا لا انفصام له بالشيء الكثير من النواحي العاطفية، وقد سار التقدم فيها بخطى أبطأ، كمـا أنـه لقـي معارضة عظيمة، والناس يستمعون بهدوء تام إلى أشد الآراء تباينًا حول النجوم أو الذرات، ولكن الآراء المتصلة بطرائق العيش عندنا تمس كل فرد حولنا، وتنعكس عليه.

وكما حدث ببلاد اليونان تماما؛ حيـث سـبقت تـأملات أفلاطون الجريئة بحث أرسطو الرصين عن الحقيقة؛ حـدث في أوروبا أيضا أن صـبت أول الأبحـاث السياسـية فـي المرحلة الجديدة في قوالب قصص "اليوتوبيا[1]"، التي نقلـت مباشرة عن "جمهورية" أفلاطون و"قوانينه". و"اليوتوبيا" التي

---

(1) اليوتوبيا ويسميها العرب "الطوبى"، والفـارابي يسـميها "المدينـة الفاضلة": دولة مثالية تتصف نظمها السياسية والدينية والقضـائية والاقتصادية بالكمال المطلق. [المترجم].

ألفها السير توماس مور محاكاة عجيبـة لأفلاطـون كانـت ثمرتها صدور قانون جديد خاص بالفقراء بـإنجلترا. إلا أن اليوتوبيا "النابولية" للفيلسوف كامبانلا المسماة "مدينة الشمس" كانت أبعد في آفاق الخيال، وأقل ثمارا واقعية.

وعند قرب نهاية القرن السابع عشر نلاحظ ظهـور قـدر ضخم ومتزايد من المؤلفات في العلوم السياسية والاجتماعيـة. ومن أوائل الأساطين في حلبة هذه الأبحاث جون لوك؛ وهـو ابن أحد الجمهوريين الإنجليز، وعالم من علماء أكسفورد، وجه عنايته في البداية إلى الكيمياء والطب. على أن مقالاتـه التـي كتبها في موضوعات الحكومة والتسامح والتربية تكشف عـن عقل شديد الوعي والإدراك لإمكانيات البناء الاجتماعي. وظهر في فرنسا شخص يماثل لوك بإنجلترا، وإن تأخر عنه قليلاً هو مونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥)، الذي وضع النظم الاجتماعيـة والسياسية والدينية تحت عدسة التحليل الدقيق. لقد بلغ من قـوة تأثير آرائه في فرنسا أنه خلع ثوب الهيبة السحرية الذي كـان يجلل الملكية المطلقة، وهو يشارك لوك في فضل إماطة كثيـر من الأفكار الزائفة التي ظلت حتى آنـذاك تحـول دون بـذل المحاولات المتعمدة الواعية لإعادة بناء المجتمع الإنساني.

وكان الجيل الذي جاء بعـده فـي الحلقـات الوسـطى والمتأخرة من القرن الثامن عشر جريئًا في تأملاته الفكريـة في موضوعات التنقية الخلقية والفكرية التي أقام صـروحها، وراحت طائفة من أذكياء الكتاب هي "الموسوعيون"، وكلهـم رجل ثائر الروح حر النفس، متخرج مـن مـدارس الآبـاء اليسوعيين (الجزويت)؛ راحت تضع الخطـة لعـالم جديـد (١٧٦٦). وإلى جوار الموسـوعيين نهـض الاقتصـاديون أو الفيزيوقراطيون، الذين راحوا يجرون أبحاثًا جريئة وفجة في إنتاج الأطعمة والسلع وتوزيعها، وطفق موررللي مؤلـف "قانون الطبيعة Code de La Nature يشيد بنظام الملكيـة الخاصة، ويقترح تنظيم المجتمع على أسس شـيوعية؛ فهـو البشير الآذن بتلـك المدرسـة الضـخمة المختلفـة الفـرق والمـــذاهب مـــن المفكـــرين الحشـــديين (الجمـــاعيين Collectivists) في القرن التاسع عشر، الذين نطلق عليهم جميعا ودون تمييز اسم الاشتراكيين (Socialists).

ما هي تلك الاشتراكية؟ إن للاشـتراكية مائـة تعريـف وتعريـف، كمـا أن للاشـتراكيين ألـف فرقـة وطائفـة. والاشتراكية لا تخرج في جوهرها عن نقد لفكـرة الملكيـة تحت ضوء المصلحة العامة، وسنستعرض الآن بإيجاز شديد تاريخ تلك الفكرة على مر العصور؛ فإنها هي وفكرة الدولية أو الشـعوبية (Internationalism [1]) همـا الفكرتـان الرئيسيتان اللتان يدور حولهما الشطر الأعظم مـن حياتنـا السياسية.

وترجع فكرة الملكية إلى ما ركب في الجنس البشري من غريزة المقاتلة، فقبل أن يكون الإنسان إنسانًا حقًا بزمن مديد، كان جده القرد الأعلى[2] يملك الممتلكات، والامتلاك البدائي يقوم في الشيء الذي يقاتل من أجله أحد الحيوانـات، فثمـة الكلاب والعظمة، والنمرة ووجارها، والظبي النافر وسـربه؛

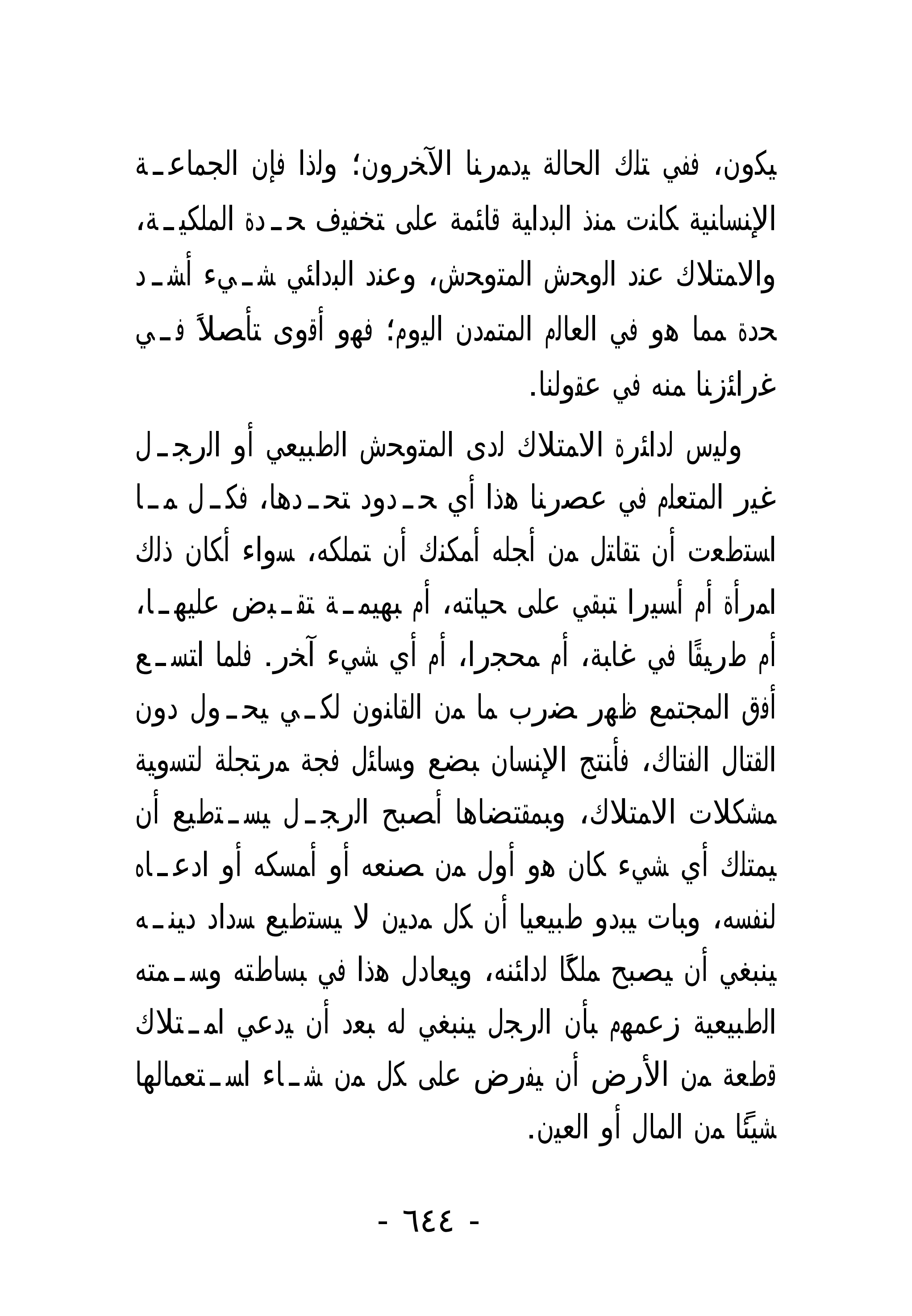
([1]) الدولية مذهب سياسي، يدعي أنه قائم على مبدأ الأخوة الشاملة بين الناس؛ ولذا ينزع إلى التقليل من أثر فوارق المصالح والأخـلاق والمثل (أو تجاهلها) التي تقوم بين الأجناس والأمم. [المترجم]

([2]) المؤلف هنا يشير إلى نظرية أصل الإنسان لدارون التي سـبق أن أشار إليها في الفصول الأولى من الكتاب. [المترجم]

وهي أمثلة للملكية الصارخة. ولسنا نتصور أن علم الاجتماع به عبارة أتفه ولا أسخف من قولهم "الشيوعية البدائية"؛ ذلك أن الرجل العجوز في قبيلة العائلة في أبكر العصور الحجرية القديمة كان يصر على امتلاكه لزوجاته وبناته وآلاته وعالمه المرئي المحيط به، فإذا جاس أي رجل آخر خلال عالمه المرئي قتله، بل ذبحه إن استطاع.

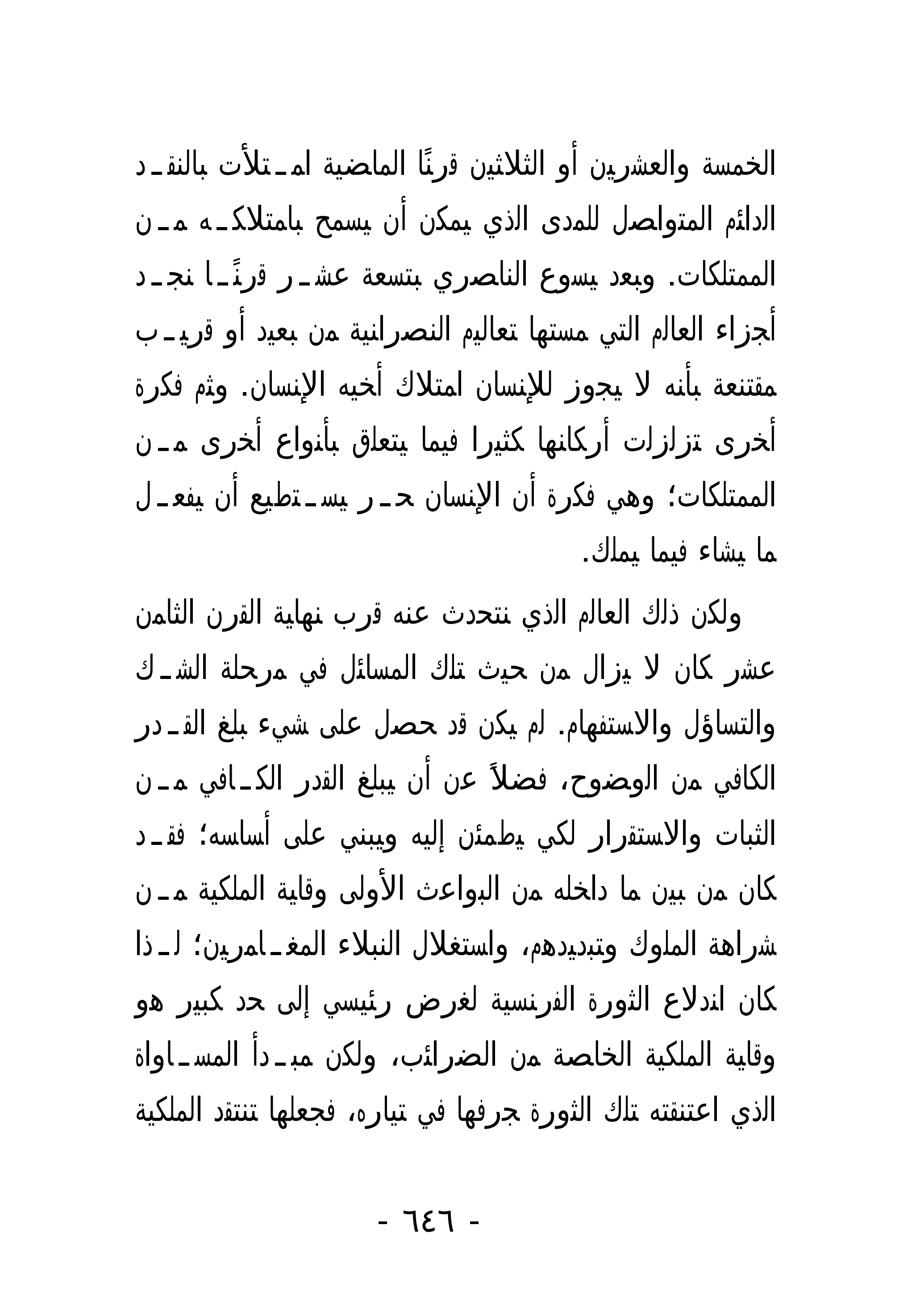
ونمت القبيلة على كر العصور، كما أجاد التعبير عن ذلك أتكنسن في كتابه "Prinal Law"، بفضل تسامح الرجل

العجوز بالتدريج إزاء وجود الشبان الذين يصغرونه سنًا، وإزاء امتلاكهم للزوجات اللواتي يقتنصونهن من خارج القبيلة، وإزاء الآلات والحلي التي يصنعونها، والصيد الذي يتصيدونه، فكأن المجتمع الإنساني قد نما بسبب التساهل المتبادل حول ممتلكات هذا وممتلكات ذاك، وهو تساهل اقتضته الضرورة التي تدعو الرجال إلى التكافل لطرد قبيلة أخرى إلى خارج عالمهم المرئي المحيط بهم، فلئن لم تكن التلال والغابات والأنهار أرضي أو أرضك، فما ذلك إلا لأنه قد وجب أن تكون أرضنا، ولا شك أن كلاً منا كان يفضل لو كانت الأرض أرضه هو، ولكن ذلك شيء لا يمكن أن


يكون، ففي تلك الحالة يدمرنا الآخرون؛ ولذا فإن الجماعـة الإنسانية كانت منذ البداية قائمة على تخفيف حـدة الملكيـة، والامتلاك عند الوحش المتوحش، وعند البدائي شـيء أشـد حدة مما هو في العالم المتمدن اليوم؛ فهو أقوى تأصلاً فـي غرائزنا منه في عقولنا.

وليس لدائرة الامتلاك لدى المتوحش الطبيعي أو الرجـل غير المتعلم في عصرنا هذا أي حـدود تحـدها، فكـل مـا استطعت أن تقاتل من أجله أمكنك أن تملكه، سواء أكان ذلك امرأة أم أسيرا تبقي على حياته، أم بهيمـة تقـبض عليهـا، أم طريقًا في غابة، أم محجرا، أم أي شيء آخر. فلما اتسـع أفق المجتمع ظهر ضرب ما من القانون لكـي يحـول دون القتال الفتاك، فأنتج الإنسان بضع وسائل فجة مرتجلة لتسوية مشكلات الامتلاك، وبمقتضاها أصبح الرجـل يسـتطيع أن يمتلك أي شيء كان هو أول من صنعه أو أمسكه أو ادعـاه لنفسه، وبات يبدو طبيعيا أن كل مدين لا يستطيع سداد دينـه ينبغي أن يصبح ملكًا لدائنه، ويعادل هذا في بساطته وسـمته الطبيعية زعمهم بأن الرجل ينبغي له بعد أن يدعي امـتلاك قطعة من الأرض أن يفرض على كل من شـاء اسـتعمالها شيئًا من المال أو العين.

ولم يشرع الإنسان يحس أن تلك الملكية غير المحـدودة لأي شيء كانت مثارا للإزعاج والمضايقة إلا بغاية الـبطء والتدرج، وحين أشرقت عليـه تباشـير إمكانيـات الحيـاة المنظمة، فوجد الناس يولدون في عالم يملكـه كلـه الغيـر، أو يدعي ملكيته، وليت الأمر اقتصر على ذلـك وحـده!!.. فإنهم كانوا يجدون أنفسهم ذاتها مملوكـة للغيـر أو يـدعي ملكيتها. ومن العسـير علينـا الآن أن نتعقـب الكفاحـات الاجتماعية التي اندلعت في الحضارة الباكرة، إلا أن التاريخ الذي رويناه عن الجمهورية الرومانية يظهر لنا فيها مجتمعا يستيقظ على دوي الديون، ويتنبه إلى أنها قد تصـبح مثـار الإزعاج والمضايقة للأمة كافة؛ ولذا فقـد وجـب إلغاؤهـا ونبذها، وإن ملكية الأرض بصورة غير محدودة كانت هـي الأخرى تنطوي على المضايقة والإزعاج، ثم إننـا نجـد أن بابل حددت بشدة في أيامه المتأخرة امتلاك الرقيق. وأخيـرا نجد في تعاليم ذلك الثوري العظيم يسـوع الناصـري مـن الهجوم والطعن على الملكية ما لم يحدث من قبل. أليس هـو القائل: "لأن يلج الجمل في سم الخياط أيسر مـن أن يـدخل الأغنياء ملكوت السماوات". ويلوح أن أجـواء العـالم فـي



الخمسة والعشرين أو الثلاثين قرنًا الماضية امـتلأت بالنقـد الدائم المتواصل للمدى الذي يمكن أن يسمح بامتلاكـه مـن الممتلكات. وبعد يسوع الناصري بتسعة عشـر قرنًـا نجـد أجزاء العالم التي مستها تعاليم النصرانية من بعيد أو قريـب مقتنعة بأنه لا يجوز للإنسان امتلاك أخيه الإنسان. وثم فكرة أخرى تزلزلت أركانها كثيرا فيما يتعلق بأنواع أخرى مـن الممتلكات؛ وهي فكرة أن الإنسان حـر يسـتطيع أن يفعـل ما يشاء فيما يملك.

ولكن ذلك العالم الذي نتحدث عنه قرب نهاية القرن الثامن عشر كان لا يزال من حيث تلك المسائل في مرحلة الشـك والتساؤل والاستفهام. لم يكن قد حصل على شيء بلغ القـدر الكافي من الوضوح، فضلاً عن أن يبلغ القدر الكـافي مـن الثبات والاستقرار لكي يطمئن إليه ويبني على أساسه؛ فقـد كان من بين ما داخله من البواعث الأولى وقاية الملكية مـن شراهة الملوك وتبديدهم، واستغلال النبلاء المغـامرين؛ لـذا كان اندلاع الثورة الفرنسية لغرض رئيسي إلى حد كبير هو وقاية الملكية الخاصة من الضرائب، ولكن مبـدأ المسـاواة الذي اعتنقته تلك الثورة جرفها في تياره، فجعلها تنتقد الملكية

التي نهضت لحمايتها، فكيف يمكن أن يكون الناس متساوين، بينما حشود عظيمة منهم لا يملكون أرضا يتعيشـون منهـا، ولا طعاما يأكلونه، كما أن الملاك يـأبون – بالبداهـة - أن يطعموهم أو يؤووهم ما لم يعملوا ويكدحوا!! واشتدت لـذلك شكوى الفقراء.

ولم يكن لدى إحدى الجماعات السياسية الهامة من جواب لهذا اللغز إلا الشروع في التقسيم. لقد شاءوا أن يبالغوا فـي الملكية ويقووها، ولكن كانت هناك أيضا جماعة الاشتراكيين البدائيين أو الشيوعيين إن شئت تعبيـرا أدق، الـذين كـانوا يريدون الوصول إلى نفس الهدف عن طريق آخر، والـذين أرادوا إلغاء الملكية الخاصة إلغاء تاما. فارتـأوا أن الدولـة (ومفهوم أنها دولة ديمقراطية طبعا) تمتلك جمع الممتلكات.

لذا فمن المفارقات العجيبة أن رجالاً متنوعين يهدفون إلـى الهدف نفسه من الحرية والسعادة، يقترحون من ناحيـة جعـل المكية مطلقة إلى أقصى حد مستطاع، ويقترحون مـن ناحيـة أخرى القضاء عليها قضاء مبرما، ولكن ذلك هو مـا حـدث فعلاً. ومفتاح هذا التناقض العجيب يكمـن فـي أن الامـتلاك والملكية ليسا شيئًا واحدا؛ بل مجموعة كبيرة من أشياء مختلفة.

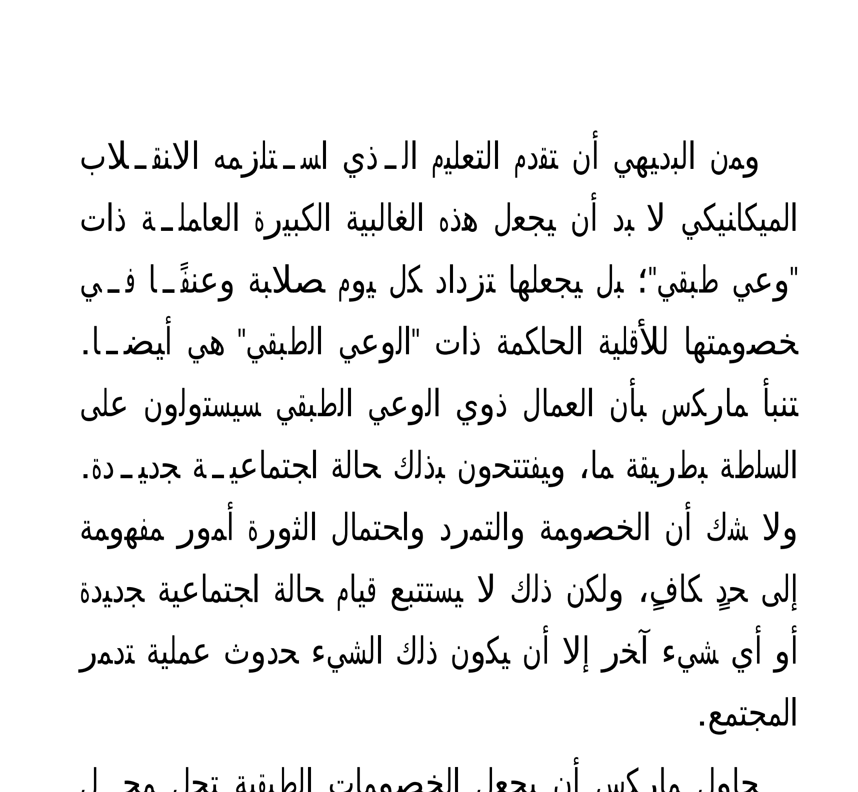
وبتقدم القرن التاسع عشر شرع الناس لأول مرة يدركون أن الملكية ليست شيئًا واحدا ولا بسيطًا، ولكنها شيء معقـد كبير من ملكيات ذات قيم مختلفة وآثار مختلفة، وأن الأشياء (منها على سبيل المثال؛ جسـم الإنسـان، وأدوات الفنـان، والثياب، وفرشة الأسنان) إنما هي ممتلكات شخصـية إلـى أقصى حد، وبصورة لا سبيل إلى حلهـا أو علاجهـا، وأن هناك مجالاً عظيما من الأشياء، منها مثلاً السكك الحديديـة، وأنواع مختلفة من المكنات والبيوت، والحدائق المزروعـة، وقوارب النزهة، وكل منها تحتاج إلى دراسة خاصـة جـدا لتحديد المدى والقيود التي تدرج بمقتضـاها تحـت صـنف الملكية الخاصة، وإلى أي حد تقع في الملكية العامة، ومن ثم يجب أن تديرها الدولة وتؤجرها للناس من أجـل مصـلحة الجماعة، ومن شأن هذه المسائل أن تتحول حين تطبق عمليا إلى ميدان السياسة، وإلى مجال مشكلة إنشاء النظام الإداري المقتدر للدولة، وصيانته والمحافظة عليه، وهي تفتح أبـواب مسائل تدخل في صميم علم النفس الاجتمـاعي، كمـا أنهـا تتفاعل مع أبحاث علم التربية؛ ولذا فإن نقد الملكية لا يـزال عملية اختمار هائلة محتدمة أكثر منه علما له أصول ثابتـة.

فكان هناك من جهة دعاة مذهب الفردية "Individualists" الذين يطالبون بوقاية بل توسيع حرياتنا الراهنة في التصرف فيما نملك، وهناك من جهة أخرى أولئك الاشتراكيون الـذين يطالبون بتجميع ملكياتنا في كثير من النواحي، وبالحد مـن تصرفاتنا في ممتلكاتنا. ولو نظرت بعين الفاحص إلى الواقع العملي لوجدت آلافًا من درجات الفوارق التي تفصـل بـين متطرفة الفرديين، الذين لا يكادون يطيقون فرض ضريبة من أي نوع لتمويل حكومة من الحكومات، وبين الشيوعيين الذين ينكرون الملكية إنكارا باتًا.

والاشتراكي العادي في هذه الأيام يمكن أن يطلـق عليـه اسم الجماعي، وهو يرضى بقيام قدر جسـيم مـن الملكيـة الخاصة، ولكنه يرى أن يوضع أمثال التعليم والنقل والمناجم وامتلاك الأرض ومعظم الإنتاج الكبير للمواد الأساسية، وما إلى ذلك من شئون؛ في يد دولة على مسـتوى رفيـع مـن التنظيم. والظاهر لنا فعلاً في هذه الأيام أن كثيرا من الرجال المعقولين قد أخذوا يتجهون بالتدريج نحو الأخذ باشـتراكية معتدلة، تقوم على الدراسة العلمية والخطة المدروسة علميا؛ ذلك أن الناس أخذوا يزدادون إدراكًا أن الرجل غير المـتعلم

لا يتعاون بسهولة ولا بنجاح فـي الشـئون العظيمـة، وأن كل خطوة تخطى في سـبيل إقامـة دولـة أكثـر تعقيـدا، وكل "وظيفة" تسحبها الدولـة مـن ذوي الجهـود الخاصـة (Private Enterprise) لتتولاها بنفسها؛ تقتضي بالضرورة قيام ما يواجهها من التقدم التربوي، كما تقتضي تنظيم نـوع من النقد والضبط والهيمنة، وذلك في حـين أن كـلاً مـن الصحافة الموجودة الآن، والوسائل السياسـية التـي تتبعهـا الدولة المعاصرة لنا حاليا؛ هما من الفجاجة والسذاجة بمنزلة كبيرة جدا لا تسمح بأي توسيع كبير للمناشط الحشدية.

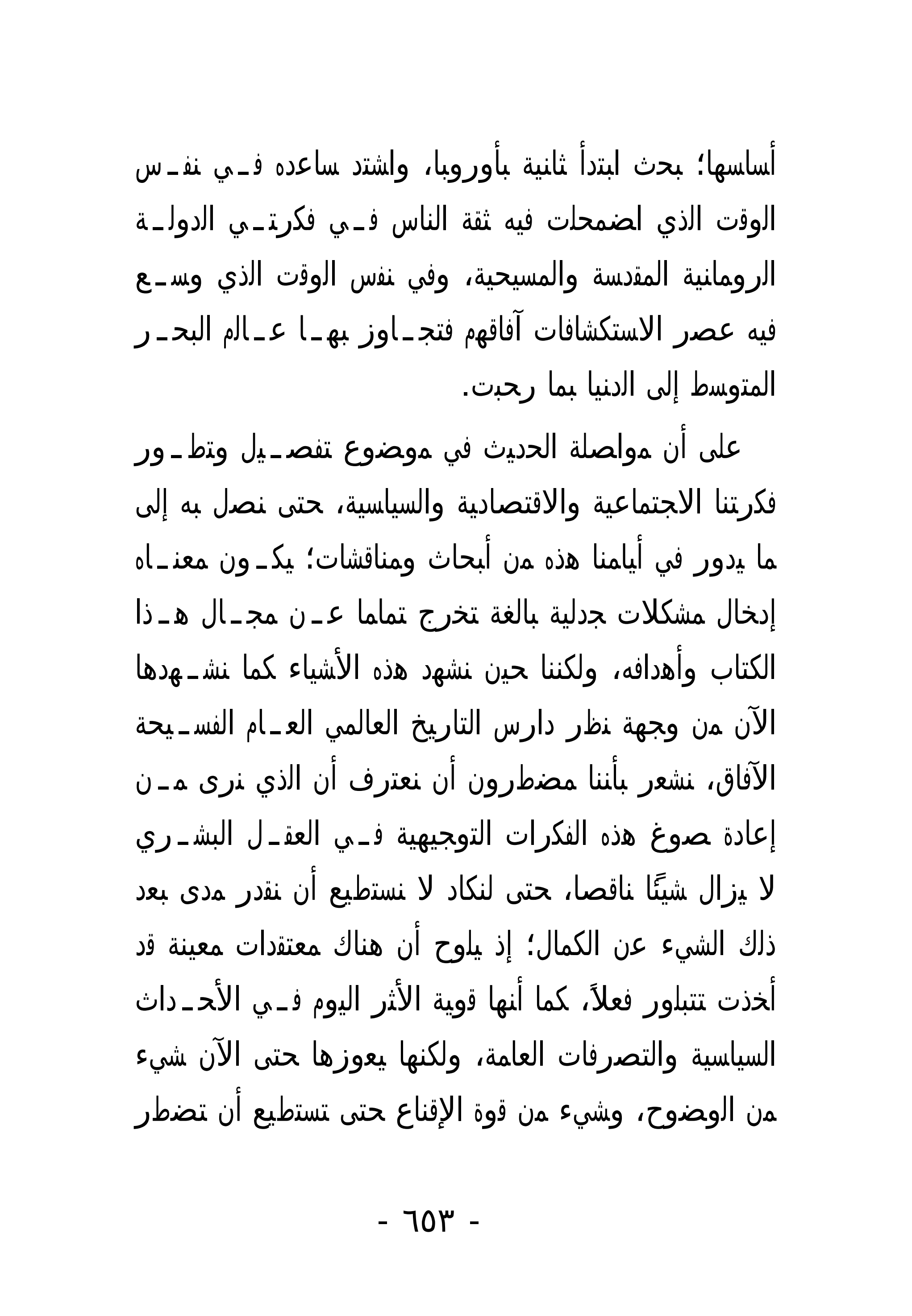
على أنه جاء حين من الدهر أدت فيه الأزمات التي نشبت بين صاحب العمل والعمال، ولاسيما مـا كـان منهـا بـين صاحب العمل الأناني والعامل المتبرم العنيد؛ إلى انتشار نوع الشيوعية الأولى الشديد العنيف بكل أرجاء العالم؛ وهو النوع الذي يرتبط باسم ماركس. وقد أسس ماركس نظرياته علـى اعتقاده أن عقول الرجـال محـدودة، تحـدها احتياجـاتهم ولوازمهم الاقتصادية، وأن هناك تطاحنًا في المصالح يقـوم في حضارتنا الراهنة بين طبقات الناس الغنية صاحبة العمل وبين الكتلة العاملة.



ومن البديهي أن تقدم التعليم الذي استلزمه الانقلاب الميكانيكي لا بد أن يجعل هذه الغالبية الكبيرة العاملة ذات "وعي طبقي"؛ بل يجعلها تزداد كل يوم صلابة وعنفًا في خصومتها للأقلية الحاكمة ذات "الوعي الطبقي" هي أيضًا. تنبأ ماركس بأن العمال ذوي الوعي الطبقي سيستولون على السلطة بطريقة ما، ويفتتحون بذلك حالة اجتماعية جديدة. ولا شك أن الخصومة والتمرد واحتمال الثورة أمور مفهومة إلى حدٍ كافٍ، ولكن ذلك لا يستتبع قيام حالة اجتماعية جديدة أو أي شيء آخر إلا أن يكون ذلك الشيء حدوث عملية تدمر المجتمع.

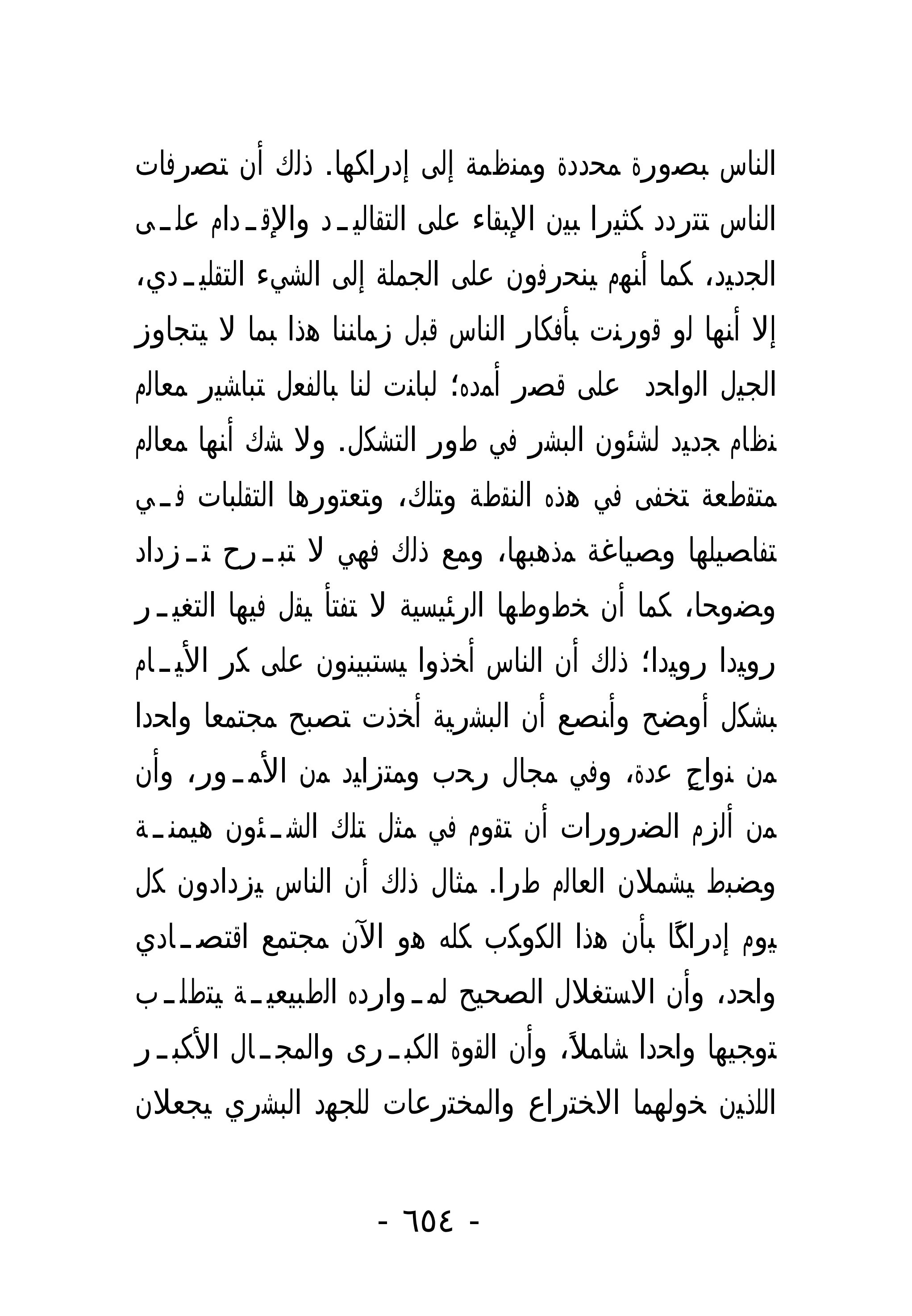
حاول ماركس أن يجعل الخصومات الطبقية تحل محل الخصومات القومية، وأنشأ أنصار مذهبه على التعاقب ثلاث منظمات؛ هي الدولية الأولى، والثانية، والثالثة. ولكن في الإمكان الوصول أيضا إلى أهداف تلك "الدولية" وآرائها عن طريق نقطة البداية التي تبدأ عندها آراء مذهب الفردية العصري. ولقد زاد إدراك الناس كل يوم قوة منذ أيام آدم سميث الكاتب الاقتصادي الإنجليزي العظيم، كما زاد اقتناعهم أنه لا بد للحصول على أسباب الرخاء في العالم؛

من قيام تجارة حرة لا يعوقها عائق بأي جزء من أجزائـه. وأنصار المذهب الفردي بما يظهرون من عداء للدولة إنمـا يعادون أيضا التعريفات الجمركية والحدود السياسية، وكـل ما يحد حرية التصرف والحركة من قيود قد تبررها التخـوم القومية. ولعله مما يشوقنا أن نشهد مذهبين من مذاهب الفكر يتباعدان في روحهما ذلك التباعد الشديد، ويختلفان في المادة والجوهر، وأعني بهما مذهب اشـتراكية حـرب الطبقـات المنسوب لأنصار ماركس، والفلسفة الفرديـة الداعيـة إلـى حرية التجارة المنسوبة إلى رجال الأعمال البريطانيين فـي عهد الملكة فكتوريا. أقول نشهدهما يتجهان في النهاية –على الرغم من هذه الفوارق الابتدائية- نحو نفس الـدعوة إلـى معالجة الشئون الإنسانية معالجة عالمية شاملة، تتجاوز تخوم كل دولة قائمة حاليا وقيودها. ولا شك أن منطـق الحقيقـة الواقعة ينتصر دائما على منطق الآراء النظرية؛ ذلـك أننـا بدأنا ندرك أن نظرية الفرديين ونظرية الاشتراكيين، ولو أن لهما نقط ابتداء متباعدة تباعدا عظيما؛ فهما جزء من بحـث عام؛ بحث عن أفكار وتأويلات جديدة اجتماعيـة وسياسـية أوسع مدى، يستطيع الناس أن يحاولوا العمـل معـا علـى



أساسها؛ بحث ابتدأ ثانية بأوروبا، واشتد ساعده فـي نفـس الوقت الذي اضمحلت فيه ثقة الناس فـي فكرتـي الدولـة الرومانية المقدسة والمسيحية، وفي نفس الوقت الذي وسـع فيه عصر الاستكشافات آفاقهم فتجـاوز بهـا عـالم البحـر المتوسط إلى الدنيا بما رحبت.

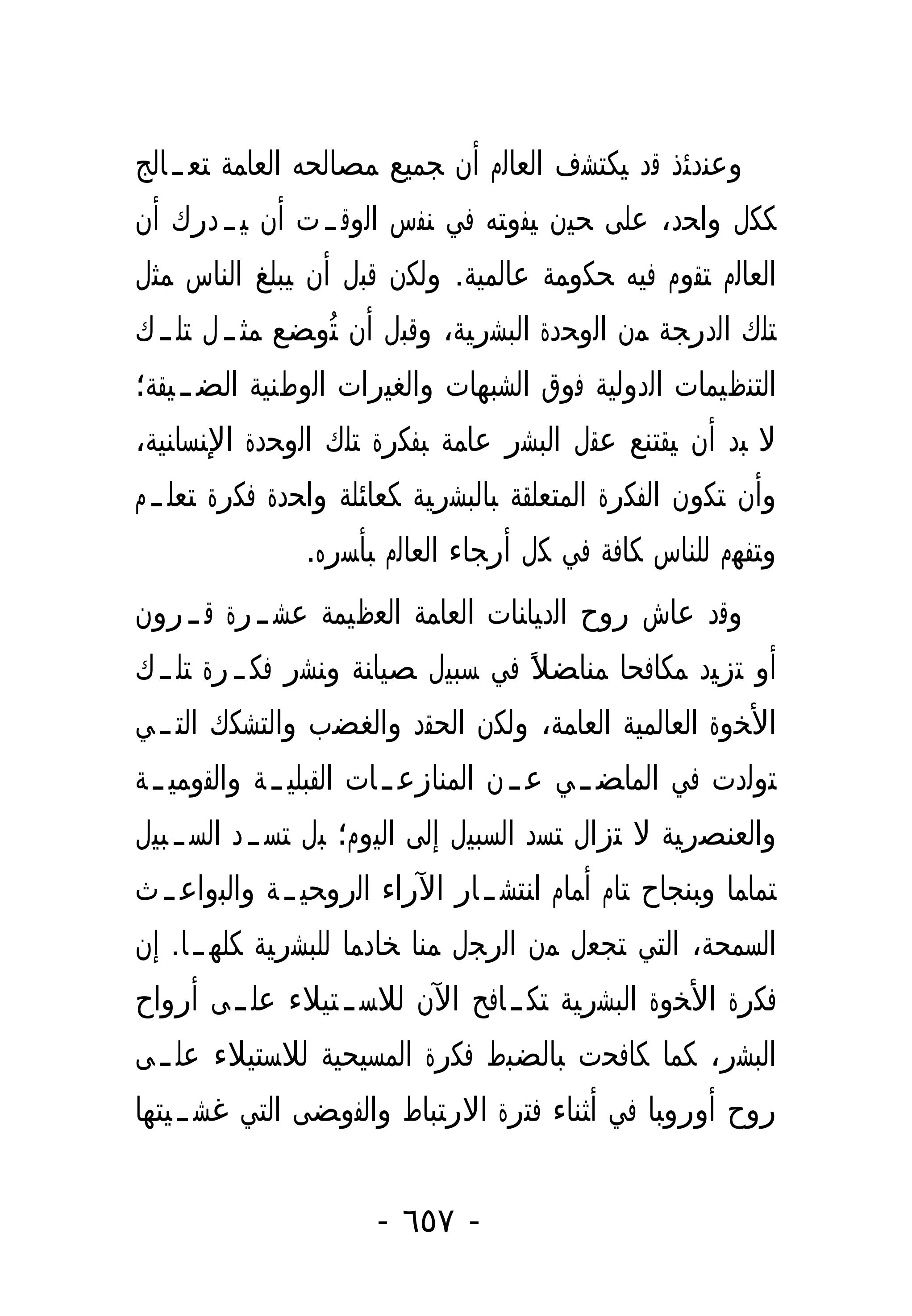
على أن مواصلة الحديث في موضوع تفصـيل وتطـور فكرتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حتى نصل به إلى ما يدور في أيامنا هذه من أبحاث ومناقشات؛ يكـون معنـاه إدخال مشكلات جدلية بالغة تخرج تماما عـن مجـال هـذا الكتاب وأهدافه، ولكننا حين نشهد هذه الأشياء كما نشـهدها الآن من وجهة نظر دارس التاريخ العالمي العـام الفسـيحة الآفاق، نشعر بأننا مضطرون أن نعترف أن الذي نرى مـن إعادة صوغ هذه الفكرات التوجيهية فـي العقـل البشـري لا يزال شيئًا ناقصا، حتى لنكاد لا نستطيع أن نقدر مدى بعد ذلك الشيء عن الكمال؛ إذ يلوح أن هناك معتقدات معينة قد أخذت تتبلور فعلاً، كما أنها قوية الأثر اليوم فـي الأحـداث السياسية والتصرفات العامة، ولكنها يعوزها حتى الآن شيء من الوضوح، وشيء من قوة الإقناع حتى تستطيع أن تضطر



الناس بصورة محددة ومنظمة إلى إدراكها. ذلك أن تصرفات الناس تتردد كثيرا بين الإبقاء على التقاليـد والإقـدام علـى الجديد، كما أنهم ينحرفون على الجملة إلى الشيء التقليـدي، إلا أنها لو قورنت بأفكار الناس قبل زماننا هذا بما لا يتجاوز الجيل الواحد على قصر أمده؛ لبانت لنا بالفعل تباشير معالم نظام جديد لشئون البشر في طور التشكل. ولا شك أنها معالم متقطعة تخفى في هذه النقطة وتلك، وتعتورها التقلبات فـي تفاصيلها وصياغة مذهبها، ومع ذلك فهي لا تبـرح تـزداد وضوحا، كما أن خطوطها الرئيسية لا تفتأ يقل فيها التغيـر رويدا رويدا؛ ذلك أن الناس أخذوا يستبينون على كر الأيـام بشكل أوضح وأنصع أن البشرية أخذت تصبح مجتمعا واحدا من نواحٍ عدة، وفي مجال رحب ومتزايد من الأمـور، وأن من ألزم الضرورات أن تقوم في مثل تلك الشـئون هيمنـة وضبط يشملان العالم طرا. مثال ذلك أن الناس يزدادون كل يوم إدراكًا بأن هذا الكوكب كله هو الآن مجتمع اقتصـادي واحد، وأن الاستغلال الصحيح لمـوارده الطبيعيـة يتطلـب توجيها واحدا شاملاً، وأن القوة الكبـرى والمجـال الأكبـر اللذين خولهما الاختراع والمخترعات للجهد البشري يجعلان

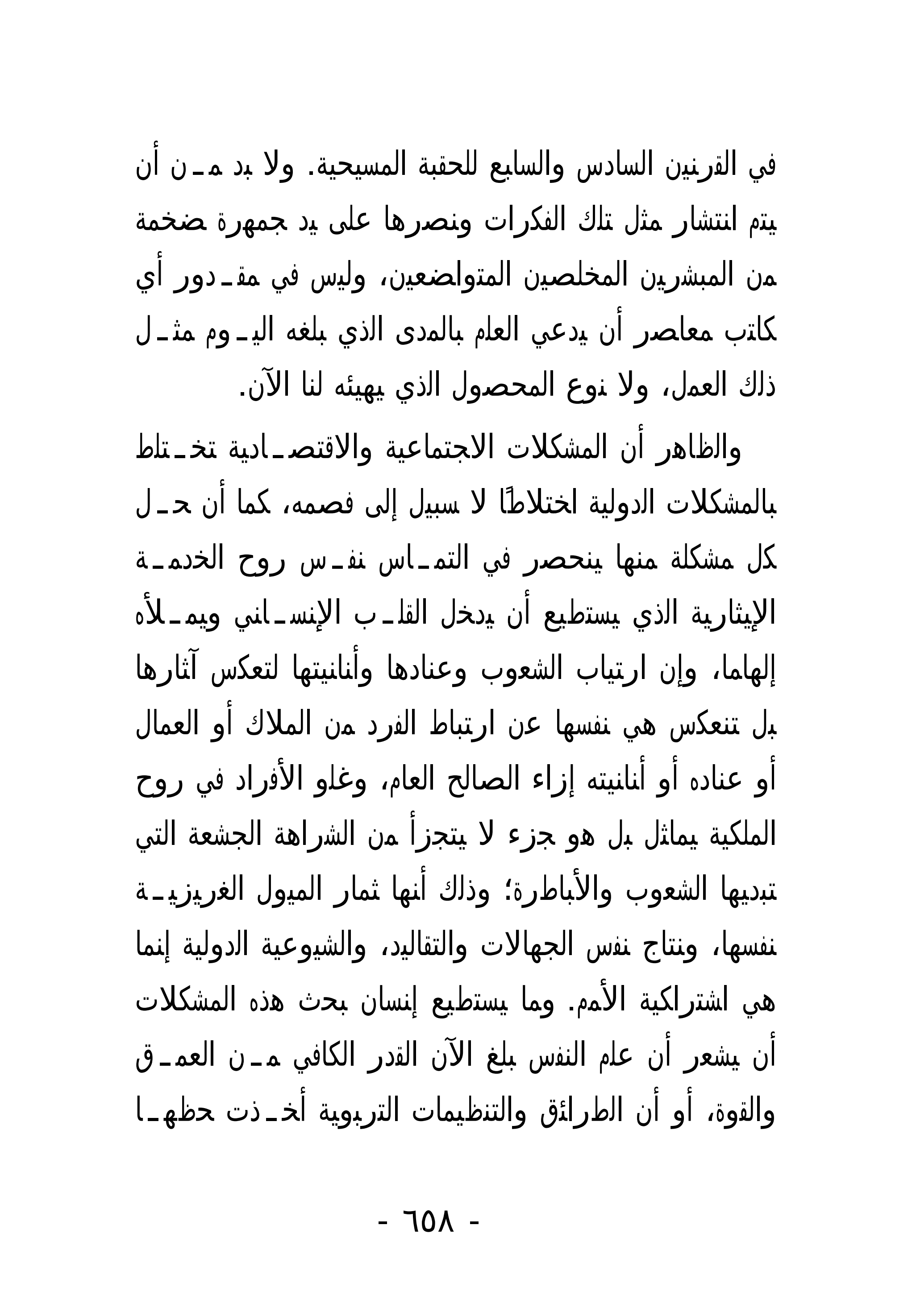
الإدارة الجزئية المنكوبة بالمنازعات والمشاحنات فـي مثـل تلك الشئون أحفل بالأخطار، وأشـد تبديـدا وإتلافًـا لتلـك الموارد، ثم إن وسائل الإصلاح المالية والنقدية تصبح هـي أيضا موضع اهتمام عالمي عام، ولا يمكن معالجتها بنجـاح إلا على أسس عالمية عامة. وقد اتضـح للنـاس كافـة أن الأمراض المعدية وزيادة عدد السكان وهجرتهم؛ من الشئون العالمية أيضا. أما الحرب فإن تزايد قوة النشـاط البشـرية ومجالها قد جعلت منها (الحرب) وسيلة لا تتناسب فوائـدها مع التدمير والفساد اللذين يترتبان عليها، بل لقـد أصـبحت عديمة الأثر، وإن استعملت كوسيلة سمجة قبيحـة لتسـوية المشكلات الناشبة بين حكومة وأخرى، وشعب وآخر؛ هـذه الأمور جميعا تجأر مطالبة بإقامة وسائل ضبط وسيطرة ذات سلطات أوسع مجالاً، وأعظم شمولاً مما بلغتـه أي حكومـة قامت إلى اليوم.

ولكن ذلك لا يستتبع بالضرورة أن السبيل إلى حل هـذه المشكلات هو إنشاء حكومة عليا بشكل ما للعالم كله، تقـوم على الفتح والقوة، أو الائتلاف بين الحكومـات الموجـودة. وقياسا على النظم الموجودة وتمثلاً بها؛ فكر الناس في إنشاء "برلمان البشرية"، وفي (كونجرس) للعالم، وفـي تنصـيب رئيس أو إمبراطور للأرض. وبديهي أن يكـون رد الفعـل الطبيعي الأول للفكرة متجها إلى مثل تلـك النتـائج، ولكـن مناقشة وتجربة الآراء والمحاولات في مدى خمسين عاما قد أوهنت على الجملة الاعتقاد في الفكرة الأولى الواضحة؛ فإن ما اعترض سبيل تلك الدولة الواحدة العالمية من مقاومـات كان عظيما جدا. ويبدو أن الفكر يتجه الآن صوب إنشاء عدد من اللجان الخاصة، أو المنظمات المخولة سـلطة عالميـة شاملة من جانب الحكومات القائمة لمعالجة هذه المجموعـة أو تلك من الشئون، أو القيام بها؛ وهي هيئات تهتم بدراسـة تبديد الثروة الطبيعية أو تنميتها، وبإيجاد التوازن بين ظروف العمال وأحوالهم، وبالسلام العـالمي، وبمشـكلات العملـة والسكان والصحة، وما إلى ذلك.



وعندئذ قد يكتشف العالم أن جميع مصالحه العامة تعـالج ككل واحد، على حين يفوته في نفس الوقـت أن يـدرك أن العالم تقوم فيه حكومة عالمية. ولكن قبل أن يبلغ الناس مثل تلك الدرجة من الوحدة البشرية، وقبل أن تُوضع مثـل تلـك التنظيمات الدولية فوق الشبهات والغيرات الوطنية الضـيقة؛ لا بد أن يقتنع عقل البشر عامة بفكرة تلك الوحدة الإنسانية، وأن تكون الفكرة المتعلقة بالبشرية كعائلة واحدة فكرة تعلـم وتفهم للناس كافة في كل أرجاء العالم بأسره.

وقد عاش روح الديانات العامة العظيمة عشـرة قـرون أو تزيد مكافحا مناضلاً في سبيل صيانة ونشر فكـرة تلـك الأخوة العالمية العامة، ولكن الحقد والغضب والتشكك التـي تولدت في الماضـي عـن المنازعـات القبليـة والقوميـة والعنصرية لا تزال تسد السبيل إلى اليوم؛ بل تسـد السـبيل تماما وبنجاح تام أمام انتشـار الآراء الروحيـة والبواعـث السمحة، التي تجعل من الرجل منا خادما للبشرية كلهـا. إن فكرة الأخوة البشرية تكـافح الآن للاسـتيلاء علـى أرواح البشر، كما كافحت بالضبط فكرة المسيحية للاستيلاء علـى روح أوروبا في أثناء فترة الارتباط والفوضى التي غشـيتها

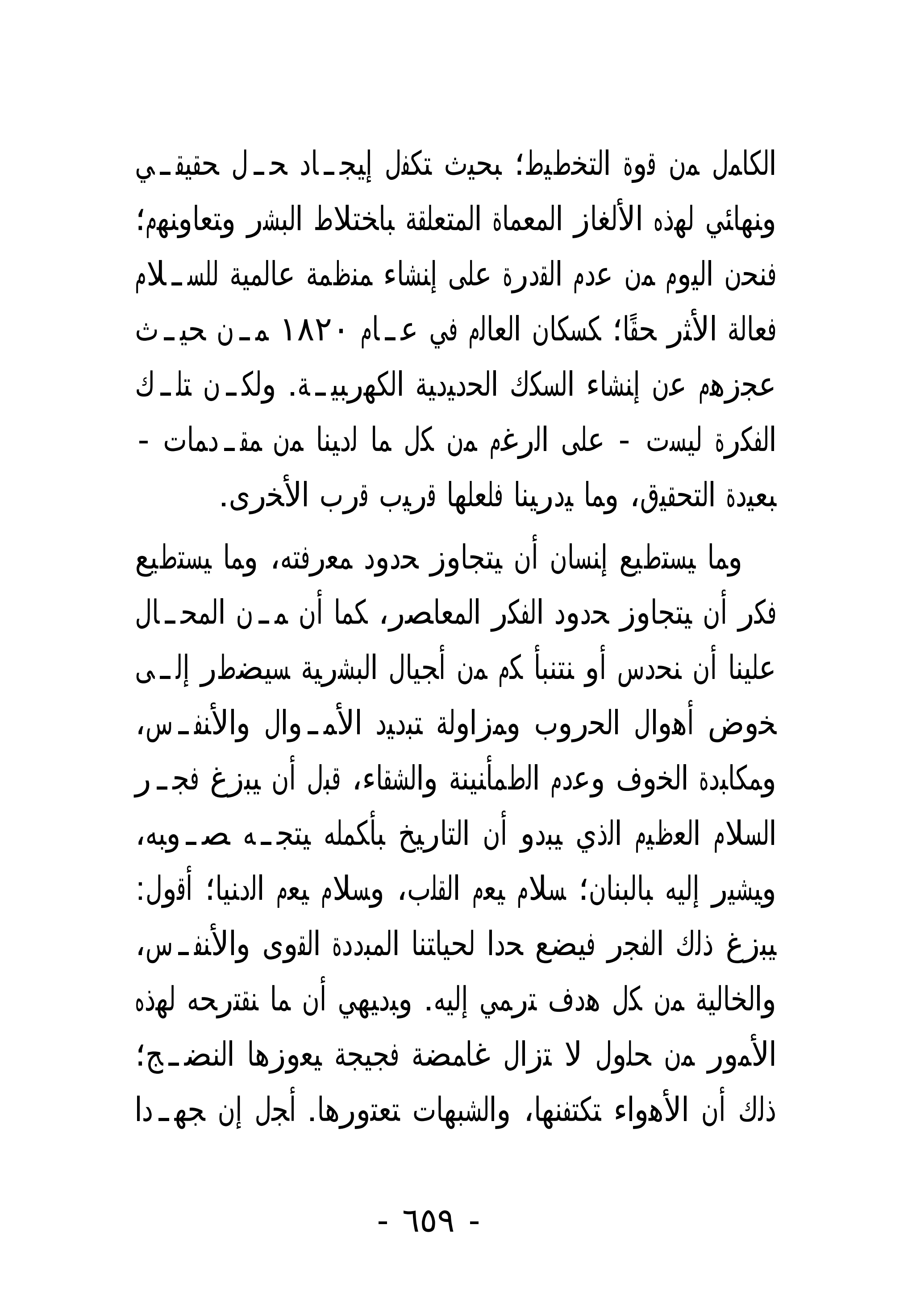


في القرنين السادس والسابع للحقبة المسيحية. ولا بد مـن أن يتم انتشار مثل تلك الفكرات ونصرها على يد جمهرة ضخمة من المبشرين المخلصين المتواضعين، وليس في مقـدور أي كاتب معاصر أن يدعي العلم بالمدى الذي بلغه اليـوم مثـل ذلك العمل، ولا نوع المحصول الذي يهيئه لنا الآن.

والظاهر أن المشكلات الاجتماعية والاقتصـادية تخـتلط بالمشكلات الدولية اختلاطًا لا سبيل إلى فصمه، كما أن حـل كل مشكلة منها ينحصر في التمـاس نفـس روح الخدمـة الإيثارية الذي يستطيع أن يدخل القلـب الإنسـاني ويمـلأه إلهاما، وإن ارتياب الشعوب وعنادها وأنانيتها لتعكس آثارها بل تنعكس هي نفسها عن ارتباط الفرد من الملاك أو العمال أو عناده أو أنانيته إزاء الصالح العام، وغلو الأفراد في روح الملكية يماثل بل هو جزء لا يتجزأ من الشراهة الجشعة التي تبديها الشعوب والأباطرة؛ وذلك أنها ثمار الميول الغريزيـة نفسها، ونتاج نفس الجهالات والتقاليد، والشيوعية الدولية إنما هي اشتراكية الأمم. وما يستطيع إنسان بحث هذه المشكلات أن يشعر أن علم النفس بلغ الآن القدر الكافي مـن العمـق والقوة، أو أن الطرائق والتنظيمات التربوية أخـذت حظهـا

الكامل من قوة التخطيط؛ بحيث تكفل إيجـاد حـل حقيقـي ونهائي لهذه الألغاز المعماة المتعلقة باختلاط البشر وتعاونهم؛ فنحن اليوم من عدم القدرة على إنشاء منظمة عالمية للسـلام فعالة الأثر حقًا؛ كسكان العالم في عـام ١٨٢٠ مـن حيـث عجزهم عن إنشاء السكك الحديدية الكهربيـة. ولكـن تلـك الفكرة ليست - على الرغم من كل ما لدينا من مقـدمات - بعيدة التحقيق، وما يدرينا فلعلها قريب قرب الأخرى.

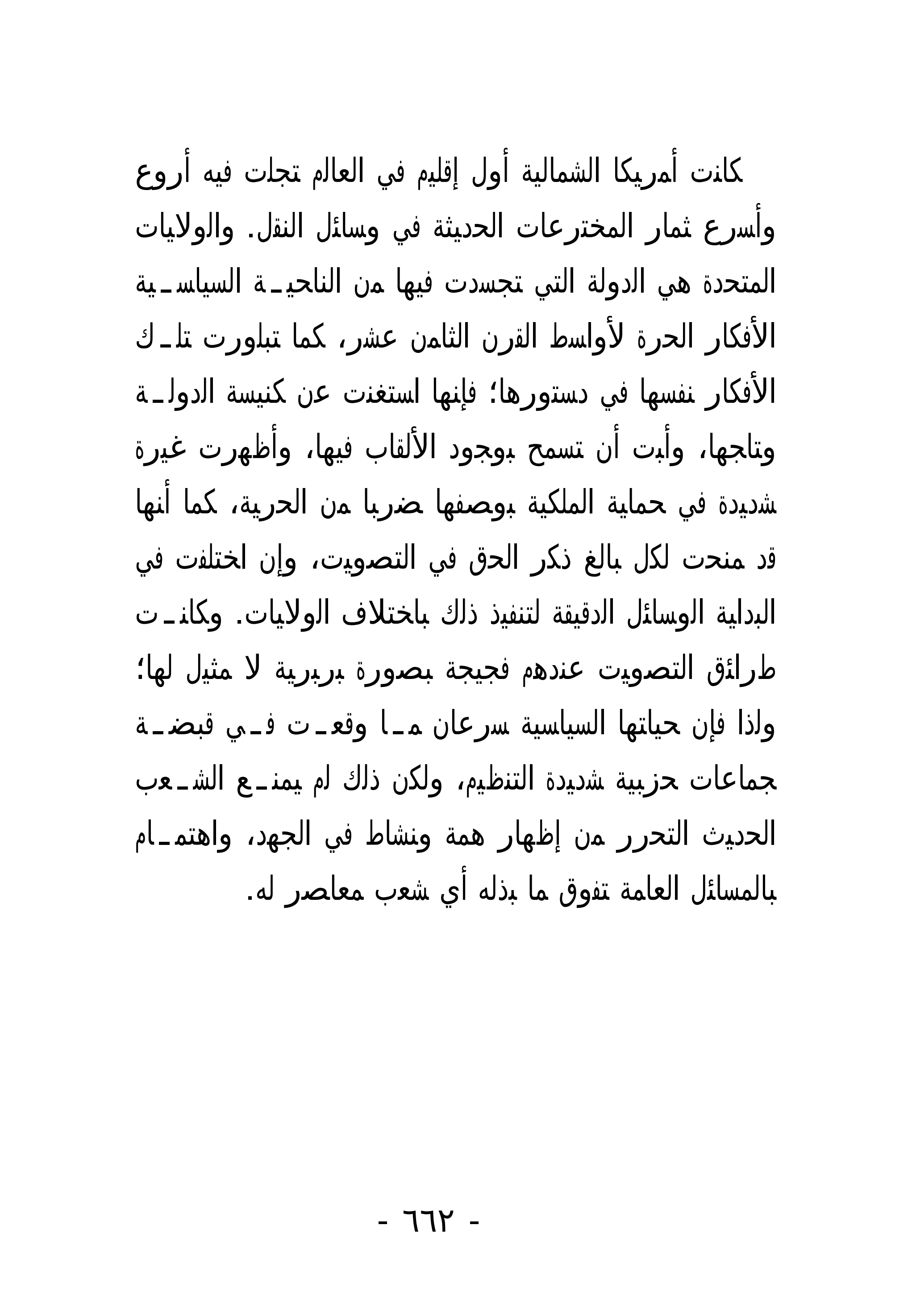
وما يستطيع إنسان أن يتجاوز حدود معرفته، وما يستطيع فكر أن يتجاوز حدود الفكر المعاصر، كما أن مـن المحـال علينا أن نحدس أو نتنبأ كم من أجيال البشرية سيضطر إلـى خوض أهوال الحروب ومزاولة تبديد الأمـوال والأنفـس، ومكابدة الخوف وعدم الطمأنينة والشقاء، قبل أن يبزغ فجـر السلام العظيم الذي يبدو أن التاريخ بأكمله يتجـه صـوبه، ويشير إليه بالبنان؛ سلام يعم القلب، وسلام يعم الدنيا؛ أقول: يبزغ ذلك الفجر فيضع حدا لحياتنا المبددة القوى والأنفـس، والخالية من كل هدف ترمي إليه. وبديهي أن ما نقترحه لهذه الأمور من حلول لا تزال غامضة فجيجة يعوزها النضـج؛ ذلك أن الأهواء تكتنفها، والشبهات تعتورها. أجل إن جهـدا



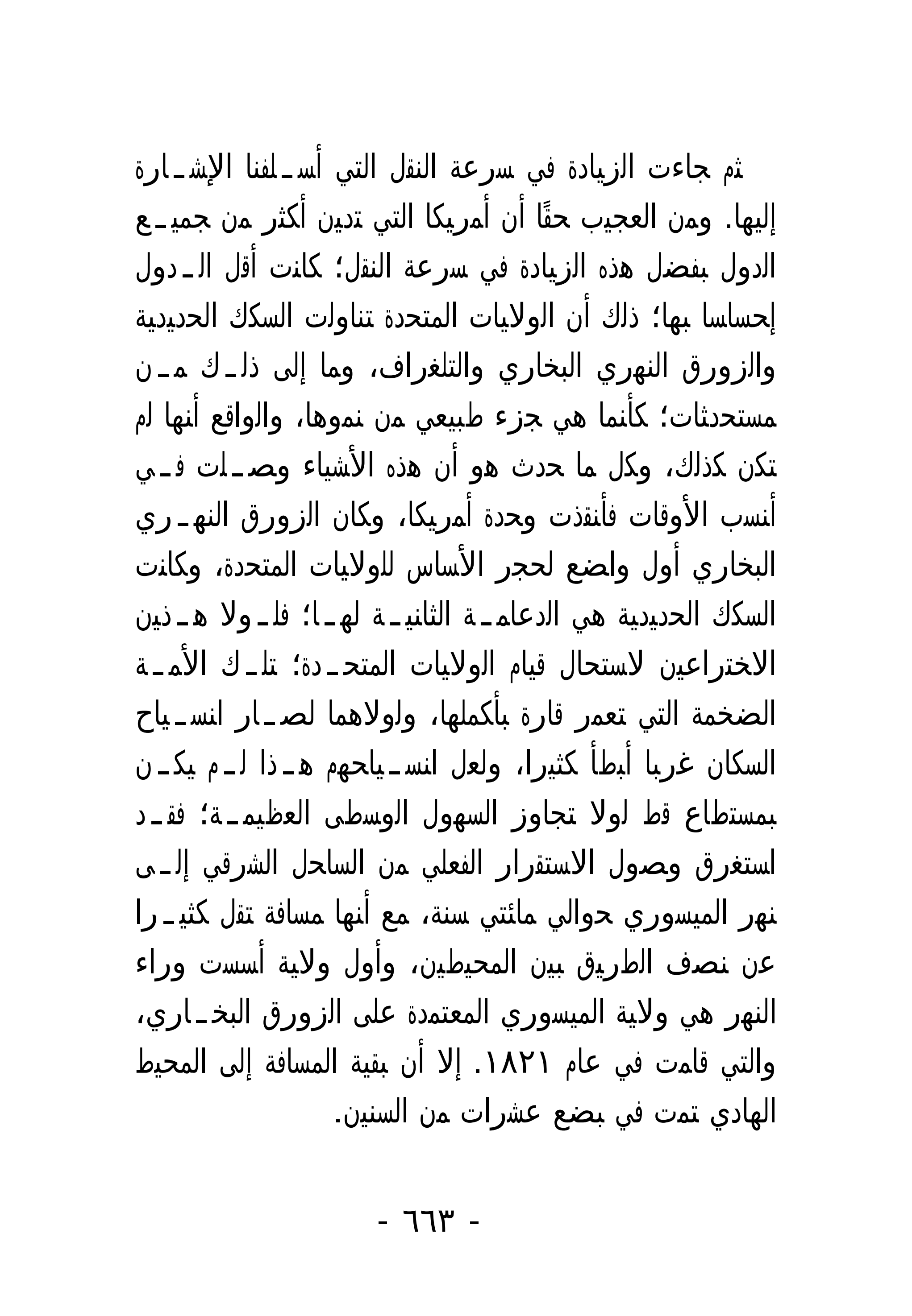
عظيما يبذل الآن في ناحية الإنشاء والبناء الفكري، ولكنه لا يزال ناقصا، كما أن تصوراتنا للمعنى العام لذلك الأمر تزداد في كل يوم وضوحا وضبطًا (فهل يحدث ذلـك بسـرعة أم ببطء؟ ذلك ما لا نستطيع الإجابة عنه) ولكنهـا كلمـا زادت جلاء زاد مبلغ تأثيرها في عقول النـاس وأخيلـتهم، ولعـل السبب في قلة تأثيرها الراهن إنما يرجع إلى حاجتهـا إلـى التأكيد، لا إلى افتقارها إلى الصحة الحقة، ويساء فهمها لأنها تعرض على صور متباينة محيرة. على أن ذلك الحلم الجديد للعالم سيفوز بالقوة الجارفة عندما يحظى بالدقـة واليقـين، وربما فاز بتلك القوة فوزا سريعا، وعندئذ لا بد وأن يـؤدي ذلك الفهم الجلي إلى عمل عظيم من إعادة البناء التربوي.

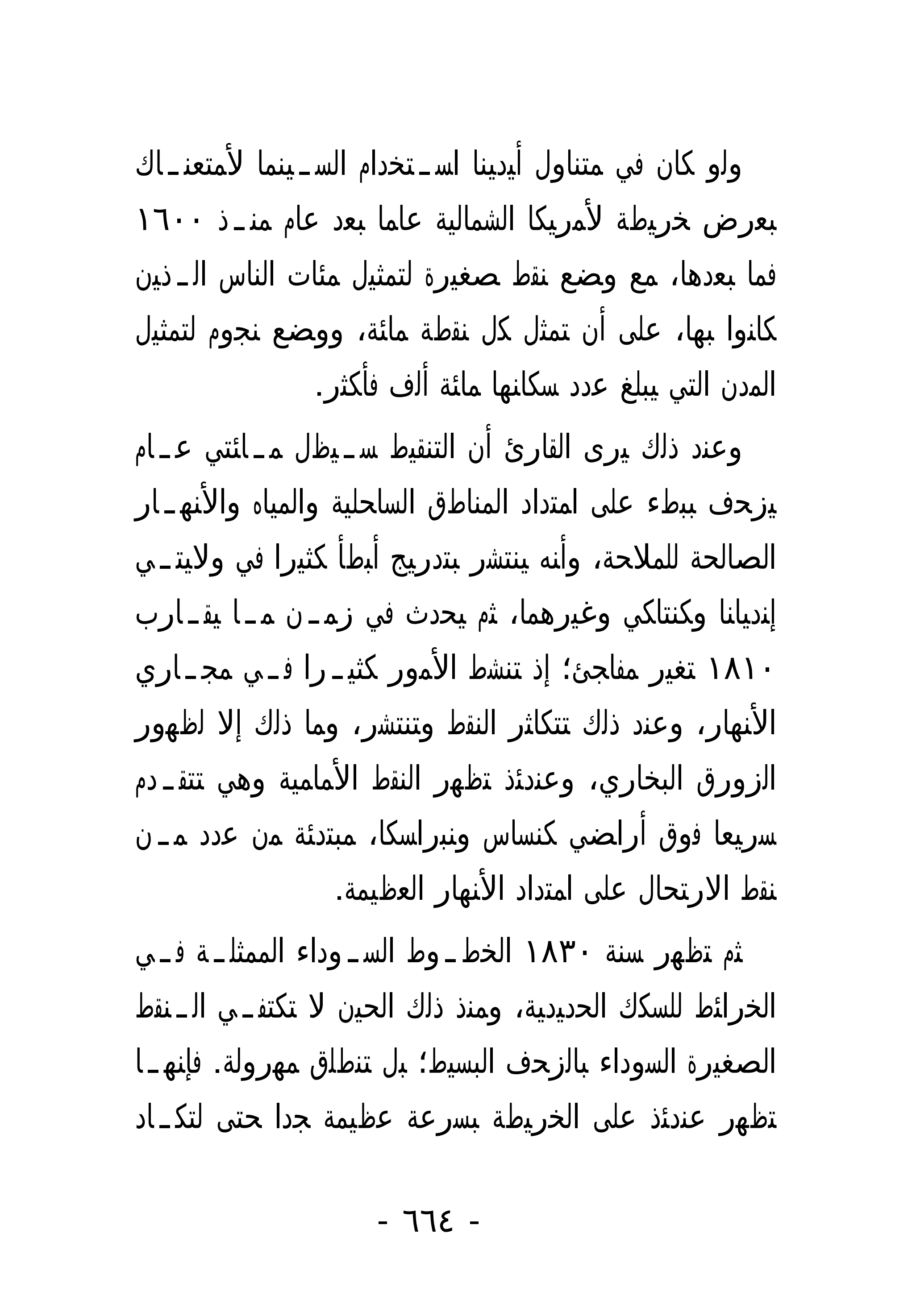
الفصل الستون

امتداد رقعة الولايات المتحدة



كانت أمريكا الشمالية أول إقليم في العالم تجلت فيه أروع وأسرع ثمار المخترعات الحديثة في وسائل النقل. والولايات المتحدة هي الدولة التي تجسدت فيها من الناحيـة السياسـية الأفكار الحرة لأواسط القرن الثامن عشر، كما تبلورت تلـك الأفكار نفسها في دستورها؛ فإنها استغنت عن كنيسة الدولـة وتاجها، وأبت أن تسمح بوجود الألقاب فيها، وأظهرت غيرة شديدة في حماية الملكية بوصفها ضربا من الحرية، كما أنها قد منحت لكل بالغ ذكر الحق في التصويت، وإن اختلفت في البداية الوسائل الدقيقة لتنفيذ ذلك باختلاف الولايات. وكانـت طرائق التصويت عندهم فجيجة بصورة بربرية لا مثيل لها؛ ولذا فإن حياتها السياسية سرعان مـا وقعـت فـي قبضـة جماعات حزبية شديدة التنظيم، ولكن ذلك لم يمنـع الشـعب الحديث التحرر من إظهار همة ونشاط في الجهد، واهتمـام بالمسائل العامة تفوق ما بذله أي شعب معاصر له.

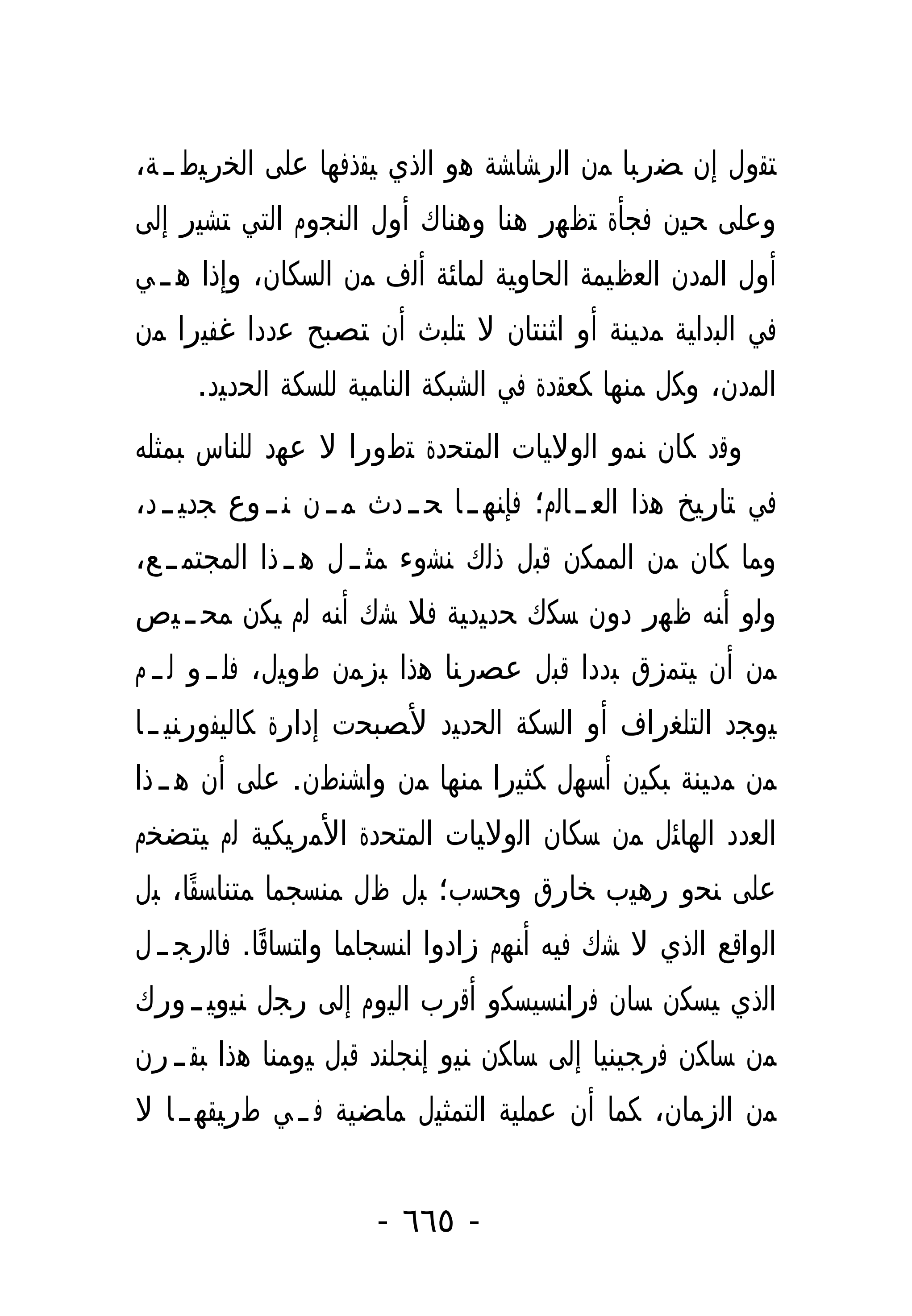

ثم جاءت الزيادة في سرعة النقل التي أسلفنا الإشارة إليها. ومن العجيب حقًا أن أمريكا التي تدين أكثر من جميع الدول بفضل هذه الزيادة في سرعة النقل؛ كانت أقل الدول إحساسا بها؛ ذلك أن الولايات المتحدة تناولت السكك الحديدية والزورق النهري البخاري والتلغراف، وما إلى ذلك من مستحدثات؛ كأنما هي جزء طبيعي من نموها، والواقع أنها لم تكن كذلك، وكل ما حدث هو أن هذه الأشياء وصلت في أنسب الأوقات فأنقذت وحدة أمريكا، وكان الزورق النهري البخاري أول واضع لحجر الأساس للولايات المتحدة، وكانت السكك الحديدية هي الدعامة الثانية لها؛ فلولا هذين الاختراعين لاستحال قيام الولايات المتحدة؛ تلك الأمة الضخمة التي تعمر قارة بأكملها، ولولاهما لصار انسياح السكان غربا أبطأ كثيرا، ولعل انسياحهم هذا لم يكن بمستطاع قط لولا تجاوز السهول الوسطى العظيمة؛ فقد استغرق وصول الاستقرار الفعلي من الساحل الشرقي إلى نهر الميسوري حوالي مائتي سنة، مع أنها مسافة تقل كثيرا عن نصف الطريق بين المحيطين، وأول ولاية أسست وراء النهر هي ولاية الميسوري المعتمدة على الزورق البخاري، والتي قامت في عام ١٨٢١. إلا أن بقية المسافة إلى المحيط الهادي تمت في بضع عشرات من السنين.



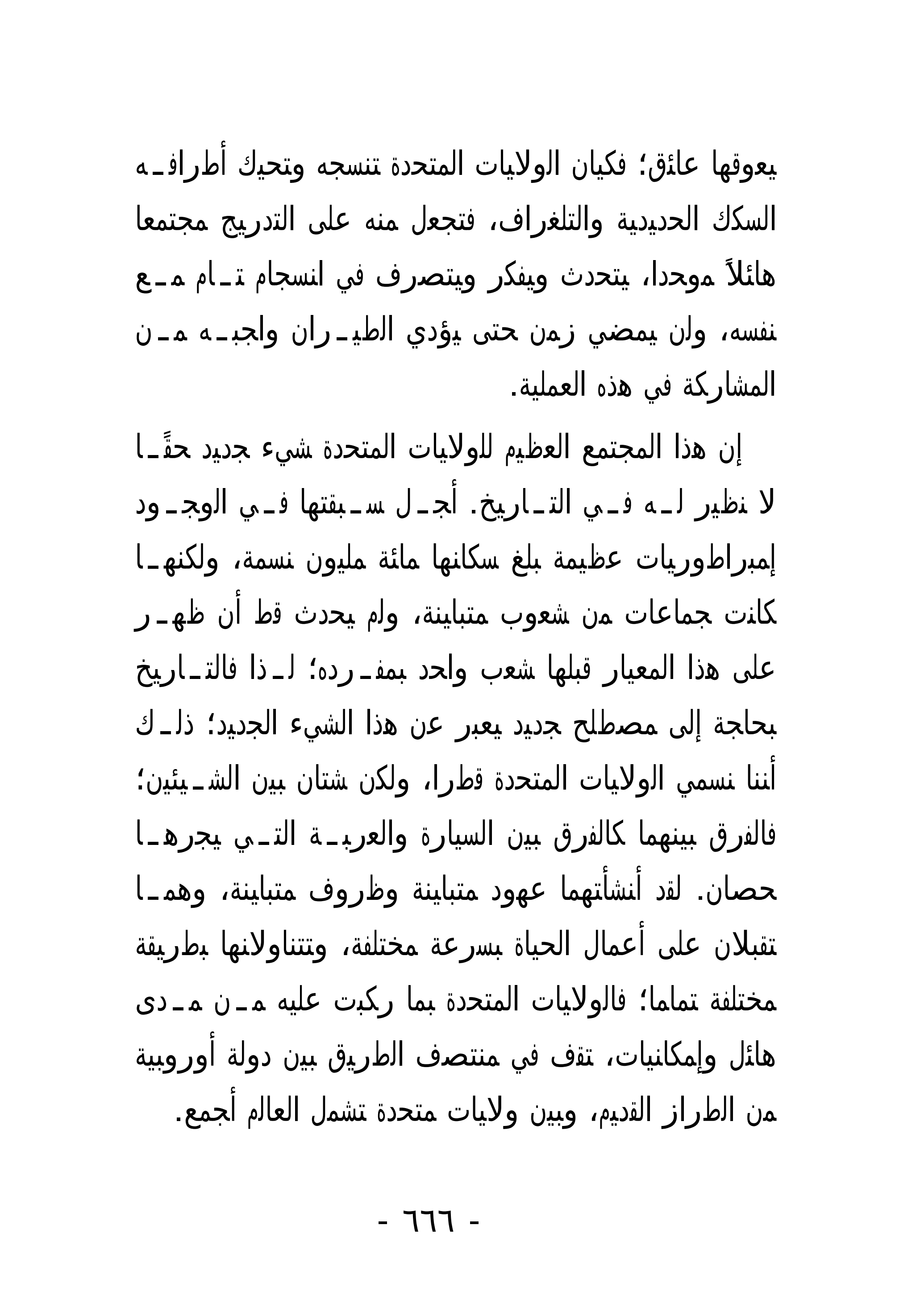
ولو كان في متناول أيدينا اسـتخدام السـينما لأمتعنـاك بعرض خريطة لأمريكا الشمالية عاما بعد عام منـذ ١٦٠٠ فما بعدها، مع وضع نقط صغيرة لتمثيل مئات الناس الـذين كانوا بها، على أن تمثل كل نقطة مائة، ووضع نجوم لتمثيل المدن التي يبلغ عدد سكانها مائة ألف فأكثر.

وعند ذلك يرى القارئ أن التنقيط سـيظل مـائتي عـام يزحف ببطء على امتداد المناطق الساحلية والمياه والأنهـار الصالحة للملاحة، وأنه ينتشر بتدريج أبطأ كثيرا في ولايتـي إنديانا وكنتاكي وغيرهما، ثم يحدث في زمـن مـا يقـارب ١٨١٠ تغير مفاجئ؛ إذ تنشط الأمور كثيـرا فـي مجـاري الأنهار، وعند ذلك تتكاثر النقط وتنتشر، وما ذلك إلا لظهور الزورق البخاري، وعندئذ تظهر النقط الأمامية وهي تتقـدم سريعا فوق أراضي كنساس ونبراسكا، مبتدئة من عدد مـن نقط الارتحال على امتداد الأنهار العظيمة.

ثم تظهر سنة ١٨٣٠ الخطـوط السـوداء الممثلـة فـي الخرائط للسكك الحديدية، ومنذ ذلك الحين لا تكتفـي الـنقط الصغيرة السوداء بالزحف البسيط؛ بل تنطلق مهرولة. فإنهـا تظهر عندئذ على الخريطة بسرعة عظيمة جدا حتى لتكـاد

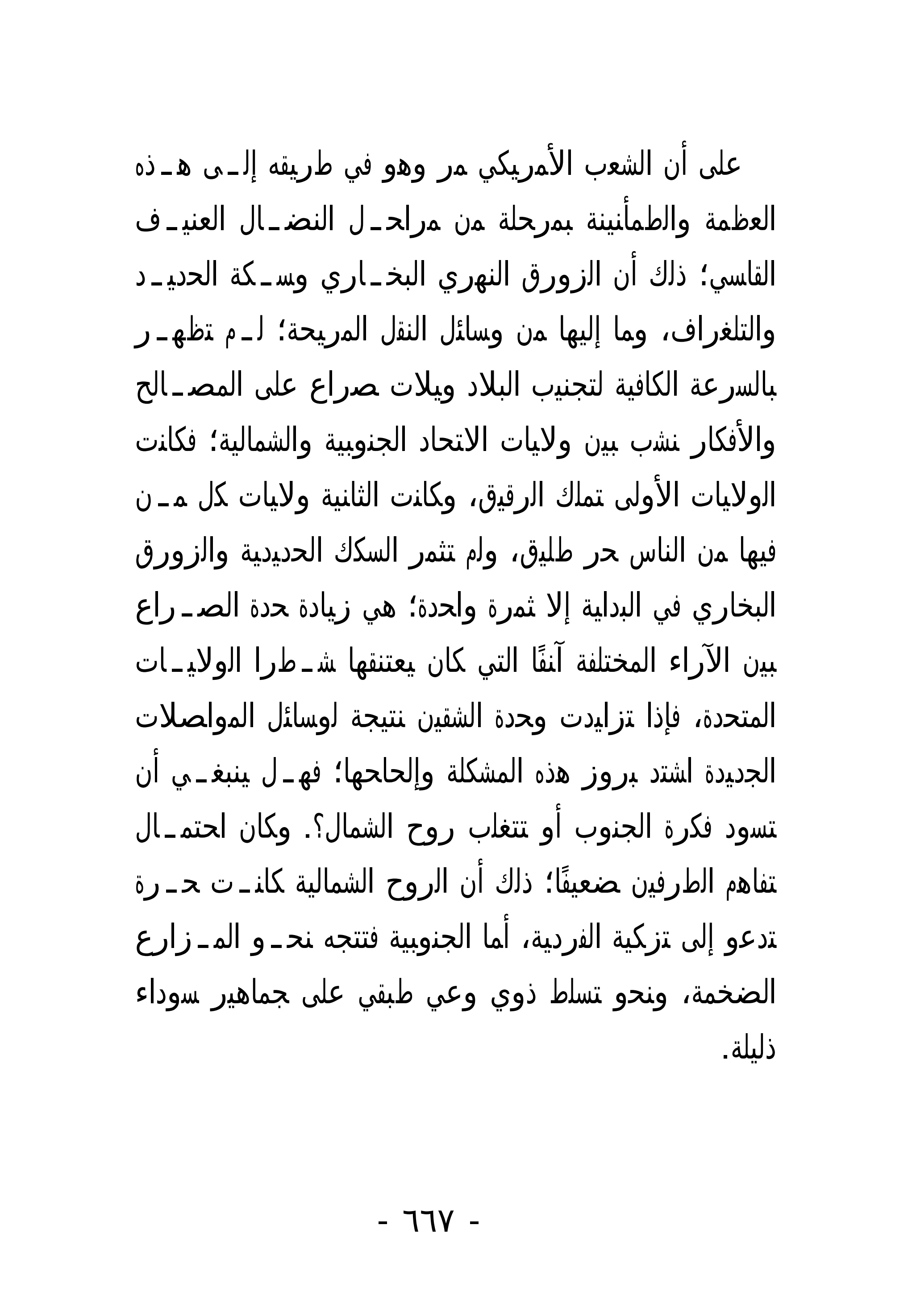

تقول إن ضربا من الرشاشة هو الذي يقذفها على الخريطـة، وعلى حين فجأة تظهر هنا وهناك أول النجوم التي تشير إلى أول المدن العظيمة الحاوية لمائة ألف من السكان، وإذا هـي في البداية مدينة أو اثنتان لا تلبث أن تصبح عددا غفيرا من المدن، وكل منها كعقدة في الشبكة النامية للسكة الحديد.

وقد كان نمو الولايات المتحدة تطورا لا عهد للناس بمثله في تاريخ هذا العـالم؛ فإنهـا حـدث مـن نـوع جديـد، وما كان من الممكن قبل ذلك نشوء مثـل هـذا المجتمـع، ولو أنه ظهر دون سكك حديدية فلا شك أنه لم يكن محـيص من أن يتمزق بددا قبل عصرنا هذا بزمن طويل، فلـو لـم يوجد التلغراف أو السكة الحديد لأصبحت إدارة كاليفورنيـا من مدينة بكين أسهل كثيرا منها من واشنطن. على أن هـذا العدد الهائل من سكان الولايات المتحدة الأمريكية لم يتضخم على نحو رهيب خارق وحسب؛ بل ظل منسجما متناسقًا، بل الواقع الذي لا شك فيه أنهم زادوا انسجاما واتساقًا. فالرجـل الذي يسكن سان فرانسيسكو أقرب اليوم إلى رجل نيويـورك من ساكن فرجينيا إلى ساكن نيو إنجلند قبل يومنا هذا بقـرن من الزمان، كما أن عملية التمثيل ماضية فـي طريقهـا لا

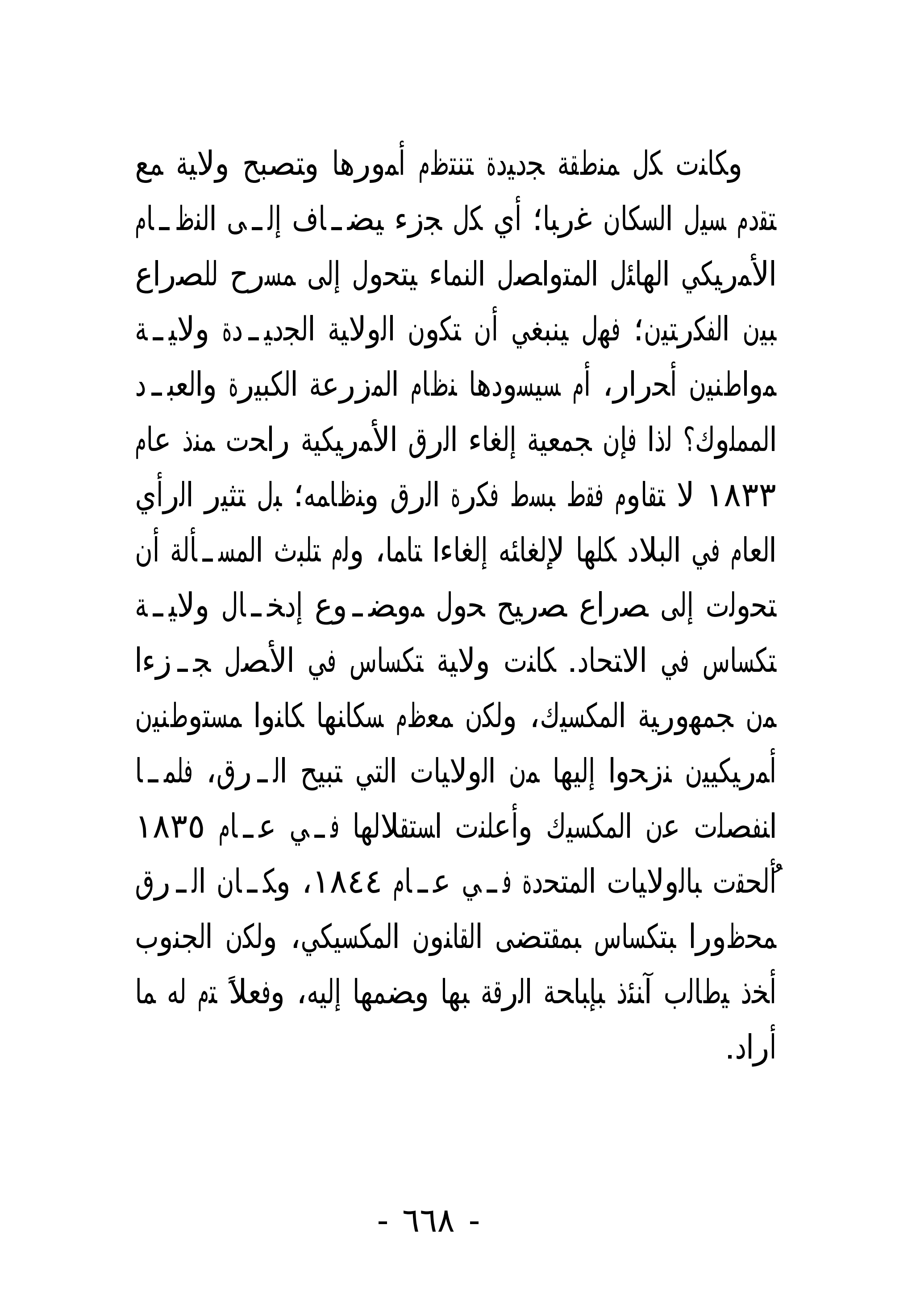


يعوقها عائق؛ فكيان الولايات المتحدة تنسجه وتحيك أطرافه السكك الحديدية والتلغراف، فتجعل منه على التدريج مجتمعا هائلاً موحدا، يتحدث ويفكر ويتصرف في انسجام تام مع نفسه، ولن يمضي زمن حتى يؤدي الطيران واجبه من المشاركة في هذه العملية.

إن هذا المجتمع العظيم للولايات المتحدة شيء جديد حقًا لا نظير له في التاريخ. أجل سبقتها في الوجود إمبراطوريات عظيمة بلغ سكانها مائة مليون نسمة، ولكنها كانت جماعات من شعوب متباينة، ولم يحدث قط أن ظهر على هذا المعيار قبلها شعب واحد بمفرده؛ لذا فالتاريخ بحاجة إلى مصطلح جديد يعبر عن هذا الشيء الجديد؛ ذلك أننا نسمي الولايات المتحدة قطرا، ولكن شتان بين الشيئين؛ فالفرق بينهما كالفرق بين السيارة والعربة التي يجرها حصان. لقد أنشأتهما عهود متباينة وظروف متباينة، وهما تقبلان على أعمال الحياة بسرعة مختلفة، وتتناولانها بطريقة مختلفة تماما؛ فالولايات المتحدة بما ركبت عليه من مدى هائل وإمكانيات، تقف في منتصف الطريق بين دولة أوروبية من الطراز القديم، وبين ولايات متحدة تشمل العالم أجمع.



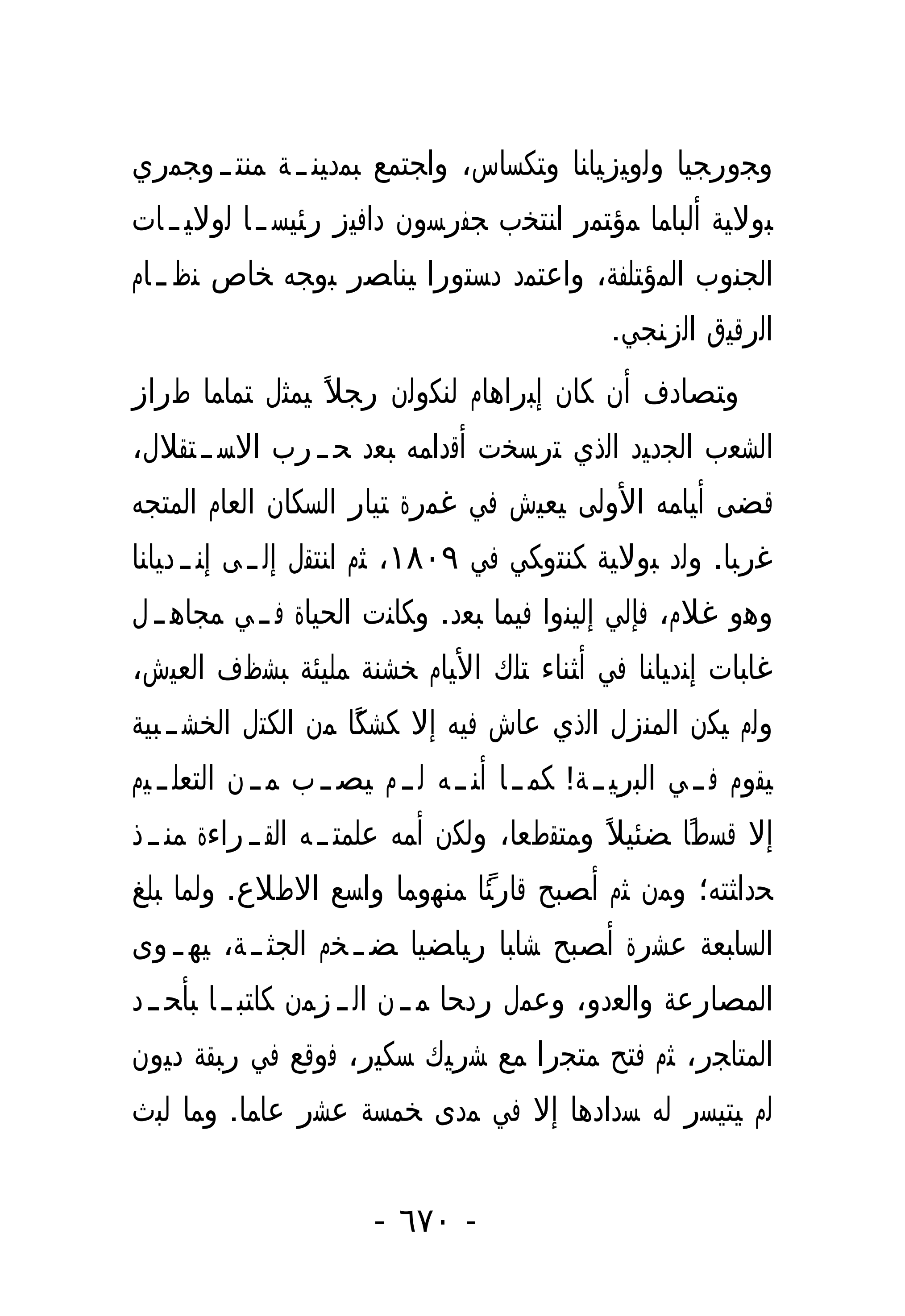
على أن الشعب الأمريكي مر وهو في طريقه إلى هذه العظمة والطمأنينة بمرحلة من مراحل النضال العنيف القاسي؛ ذلك أن الزورق النهري البخاري وسكة الحديد والتلغراف، وما إليها من وسائل النقل المريحة؛ لم تظهر بالسرعة الكافية لتجنيب البلاد ويلات صراع على المصالح والأفكار نشب بين ولايات الاتحاد الجنوبية والشمالية؛ فكانت الولايات الأولى تملك الرقيق، وكانت الثانية ولايات كل من فيها من الناس حر طليق، ولم تثمر السكك الحديدية والزورق البخاري في البداية إلا ثمرة واحدة؛ هي زيادة حدة الصراع بين الآراء المختلفة آنفًا التي كان يعتنقها شطرا الولايات المتحدة، فإذا تزايدت وحدة الشقين نتيجة لوسائل المواصلات الجديدة اشتد بروز هذه المشكلة وإلحاحها؛ فهل ينبغي أن تسود فكرة الجنوب أو تتغلب روح الشمال؟. وكان احتمال تفاهم الطرفين ضعيفًا؛ ذلك أن الروح الشمالية كانت حرة تدعو إلى تزكية الفردية، أما الجنوبية فتتجه نحو المزارع الضخمة، ونحو تسلط ذوي وعي طبقي على جماهير سوداء ذليلة.



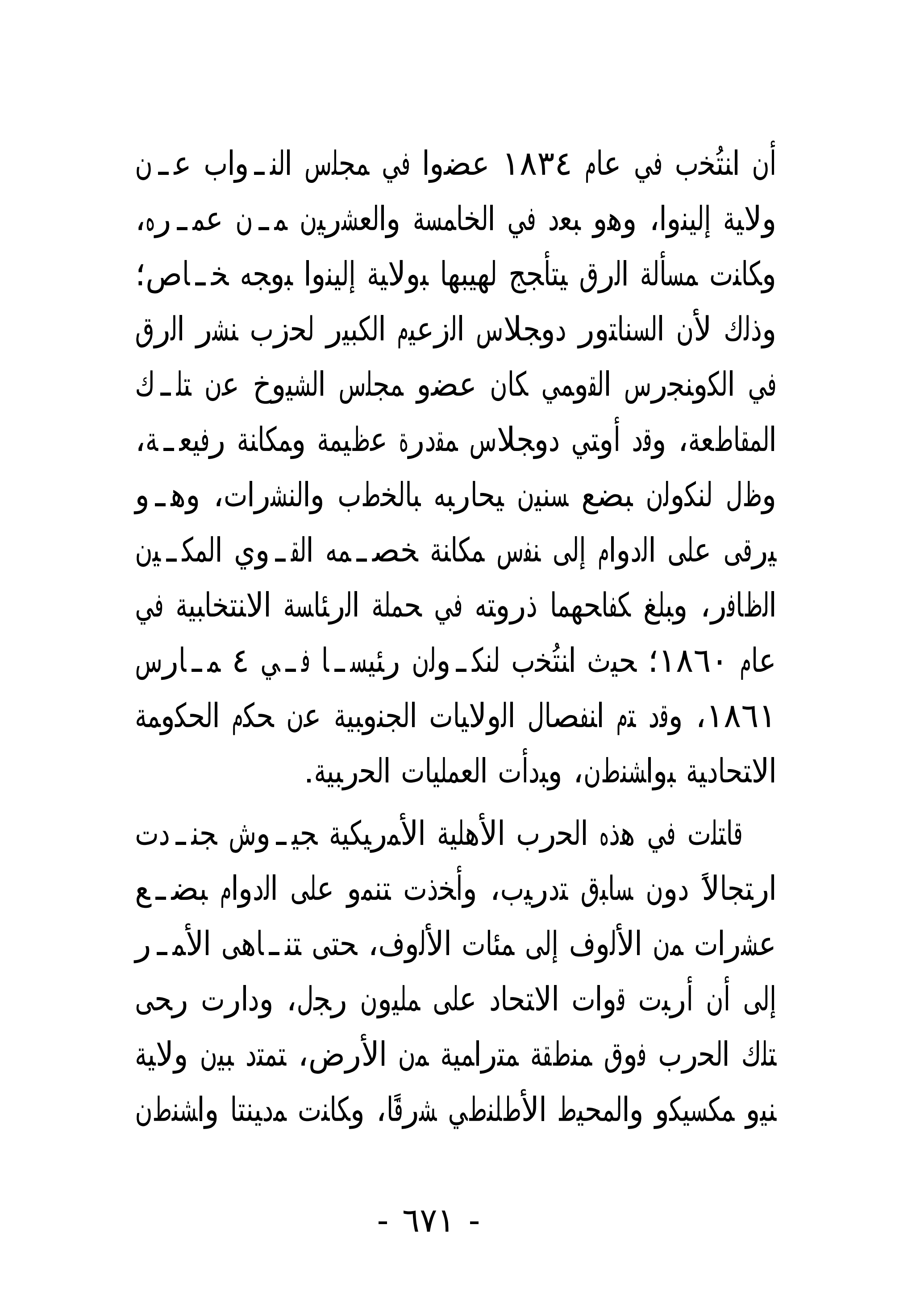
وكانت كل منطقة جديدة تنتظم أمورها وتصبح ولاية مع تقدم سيل السكان غربا؛ أي كل جزء يضـاف إلـى النظـام الأمريكي الهائل المتواصل النماء يتحول إلى مسرح للصراع بين الفكرتين؛ فهل ينبغي أن تكون الولاية الجديـدة ولايـة مواطنين أحرار، أم سيسودها نظام المزرعة الكبيرة والعبـد المملوك؟ لذا فإن جمعية إلغاء الرق الأمريكية راحت منذ عام ١٨٣٣ لا تقاوم فقط بسط فكرة الرق ونظامه؛ بل تثير الرأي العام في البلاد كلها لإلغائه إلغاءا تاما، ولم تلبث المسـألة أن تحولت إلى صراع صريح حول موضـوع إدخـال ولايـة تكساس في الاتحاد. كانت ولاية تكساس في الأصل جـزءا من جمهورية المكسيك، ولكن معظم سكانها كانوا مستوطنين أمريكيين نزحوا إليها من الولايات التي تبيح الـرق، فلمـا انفصلت عن المكسيك وأعلنت استقلالها فـي عـام ١٨٣٥ أُلحقت بالولايات المتحدة فـي عـام ١٨٤٤، وكـان الـرق محظورا بتكساس بمقتضى القانون المكسيكي، ولكن الجنوب أخذ يطالب آنئذ بإباحة الرقة بها وضمها إليه، وفعلاً تم له ما أراد.

وفي ذلك الحين نفسه أخذ نمـو الملاحـة فـي المحـيط وتطورها يجلب من أوروبا حشودا متزايدة من المهـاجرين، زادت كثيرا في سكان الولايات الشمالية الزاحفين بمستقراتهم غربا؛ مما ترتب عليه تحويـل منـاطق إيـوا وويسكنسـن ومينيسوتا وأوريجون (وكلها مناطق زراعية شـمالية) إلـى ولايات؛ فأدى ذلك إلى منح الشمال المناوئ للـرق فرصـة التفوق في كل من مجلس الشيوخ ومجلس النواب، وثـارت ثائرة الجنوب الزارع للقطن لنمو قوة أنصار حركـة إلغـاء الرقيق وتهديدهم لمصالحه، وخشي مغبة هذا التفـوق فـي الكونجرس، فشرع يتحدث مطالبا بالانفصال عن الاتحاد، بل لقد شرع الجنوبيون يحلمون بضم المكسيك إليهم في الجنوب هي وجزائر الهند الغربية، وبإنشاء دولة عظيمة تبيح الـرق وتنفصل عن الشمال وتمد حدودها حتى بنما.

على أن انتخاب إبراهام لنكولن رئيسا للدولة عام ١٨٦٥ وهو يدين بمذهب عدم مد حدودها جنوبا؛ دعا الجنوب إلـى الإقدام على الانسلاخ عن الاتحاد، وأصدرت ولاية كارولينا الجنوبية مرسوما بالانفصال، وتأهبت لخوض غمار الحرب، وانضمت إليها بعد ذلك ولايات المسيسبي وفلوريدا وألبامـا

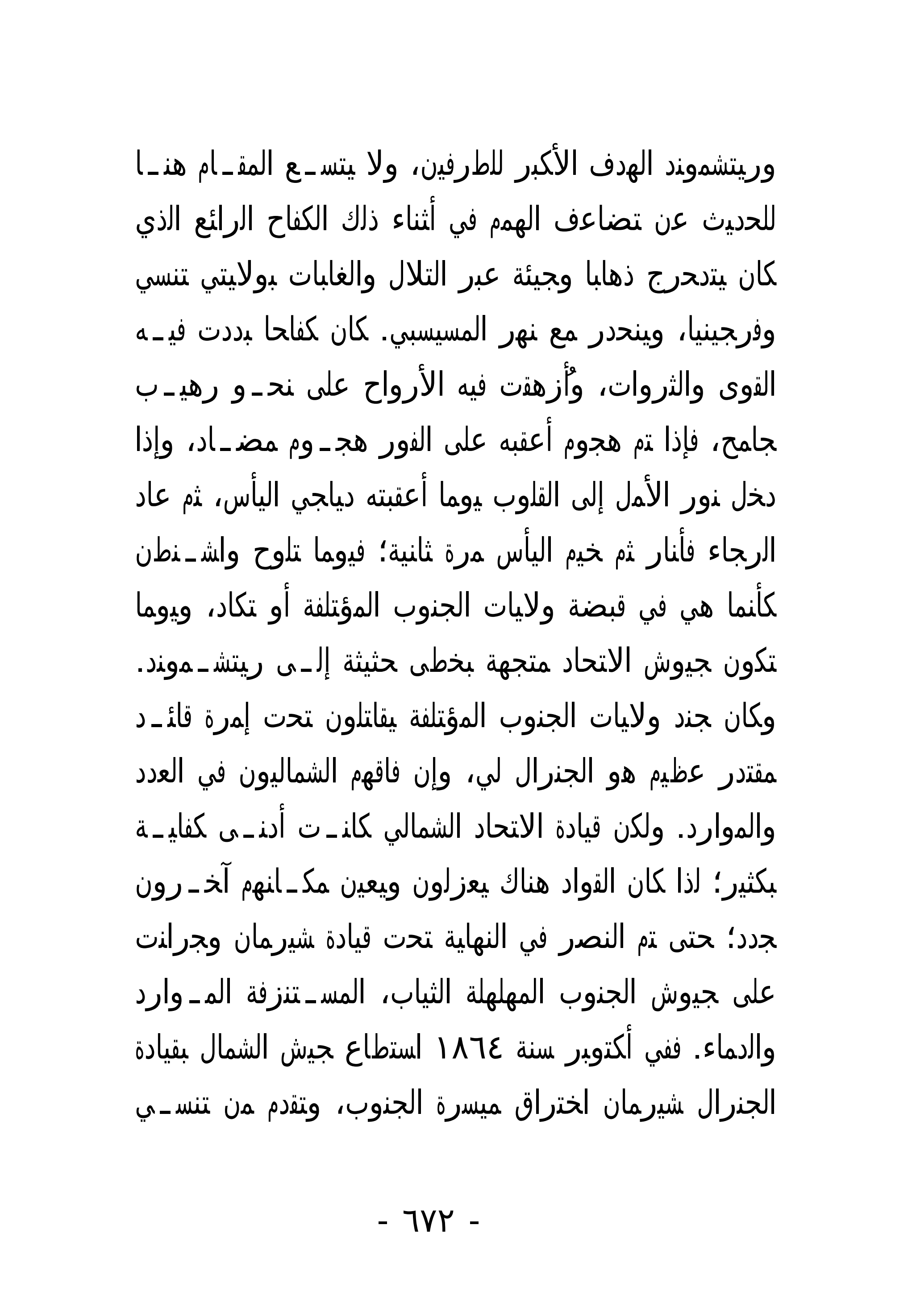

وجورجيا ولويزيانا وتكساس، واجتمع بمدينـة منتـوجمري بولاية ألباما مؤتمر انتخب جفرسون دافيز رئيسـا لولايـات الجنوب المؤتلفة، واعتمد دستورا يناصر بوجه خاص نظـام الرقيق الزنجي.

وتصادف أن كان إبراهام لنكولن رجلاً يمثل تماما طراز الشعب الجديد الذي ترسخت أقدامه بعد حـرب الاسـتقلال، قضى أيامه الأولى يعيش في غمرة تيار السكان العام المتجه غربا. ولد بولاية كنتوكي في ١٨٠٩، ثم انتقل إلـى إنـديانا وهو غلام، فإلي إلينوا فيما بعد. وكانت الحياة فـي مجاهـل غابات إنديانا في أثناء تلك الأيام خشنة مليئة بشظف العيش، ولم يكن المنزل الذي عاش فيه إلا كشكًا من الكتل الخشـبية يقوم فـي البريـة! كمـا أنـه لـم يصـب مـن التعلـيم إلا قسطًا ضئيلاً ومتقطعا، ولكن أمه علمتـه القـراءة منـذ حداثته؛ ومن ثم أصبح قارئًا منهوما واسع الاطلاع. ولما بلغ السابعة عشرة أصبح شابا رياضيا ضـخم الجثـة، يهـوى المصارعة والعدو، وعمل ردحا مـن الـزمن كاتبـا بأحـد المتاجر، ثم فتح متجرا مع شريك سكير، فوقع في ربقة ديون لم يتيسر له سدادها إلا في مدى خمسة عشر عاما. وما لبث

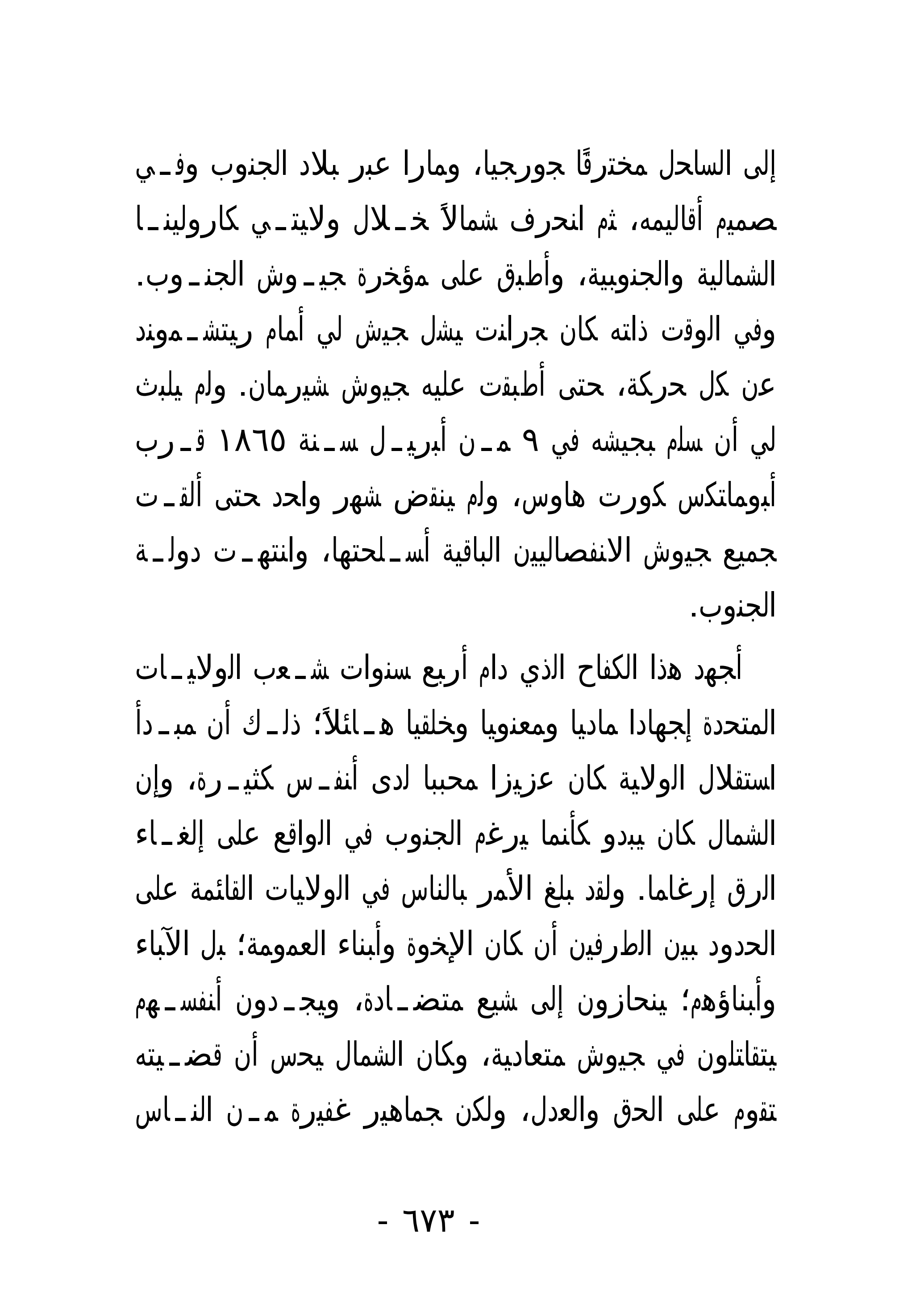


أن انتُخب في عام ١٨٣٤ عضوا في مجلس النـواب عـن ولاية إلينوا، وهو بعد في الخامسة والعشرين مـن عمـره، وكانت مسألة الرق يتأجج لهيبها بولاية إلينوا بوجه خـاص؛ وذلك لأن السناتور دوجلاس الزعيم الكبير لحزب نشر الرق في الكونجرس القومي كان عضو مجلس الشيوخ عن تلـك المقاطعة، وقد أوتي دوجلاس مقدرة عظيمة ومكانة رفيعـة، وظل لنكولن بضع سنين يحاربه بالخطب والنشرات، وهـو يرقى على الدوام إلى نفس مكانة خصـمه القـوي المكـين الظافر، وبلغ كفاحهما ذروته في حملة الرئاسة الانتخابية في عام ١٨٦٠؛ حيث انتُخب لنكـولن رئيسـا فـي ٤ مـارس ١٨٦١، وقد تم انفصال الولايات الجنوبية عن حكم الحكومة الاتحادية بواشنطن، وبدأت العمليات الحربية.

قاتلت في هذه الحرب الأهلية الأمريكية جيـوش جنـدت ارتجالاً دون سابق تدريب، وأخذت تنمو على الدوام بضـع عشرات من الألوف إلى مئات الألوف، حتى تنـاهى الأمـر إلى أن أربت قوات الاتحاد على مليون رجل، ودارت رحى تلك الحرب فوق منطقة مترامية من الأرض، تمتد بين ولاية نيو مكسيكو والمحيط الأطلنطي شرقًا، وكانت مدينتا واشنطن

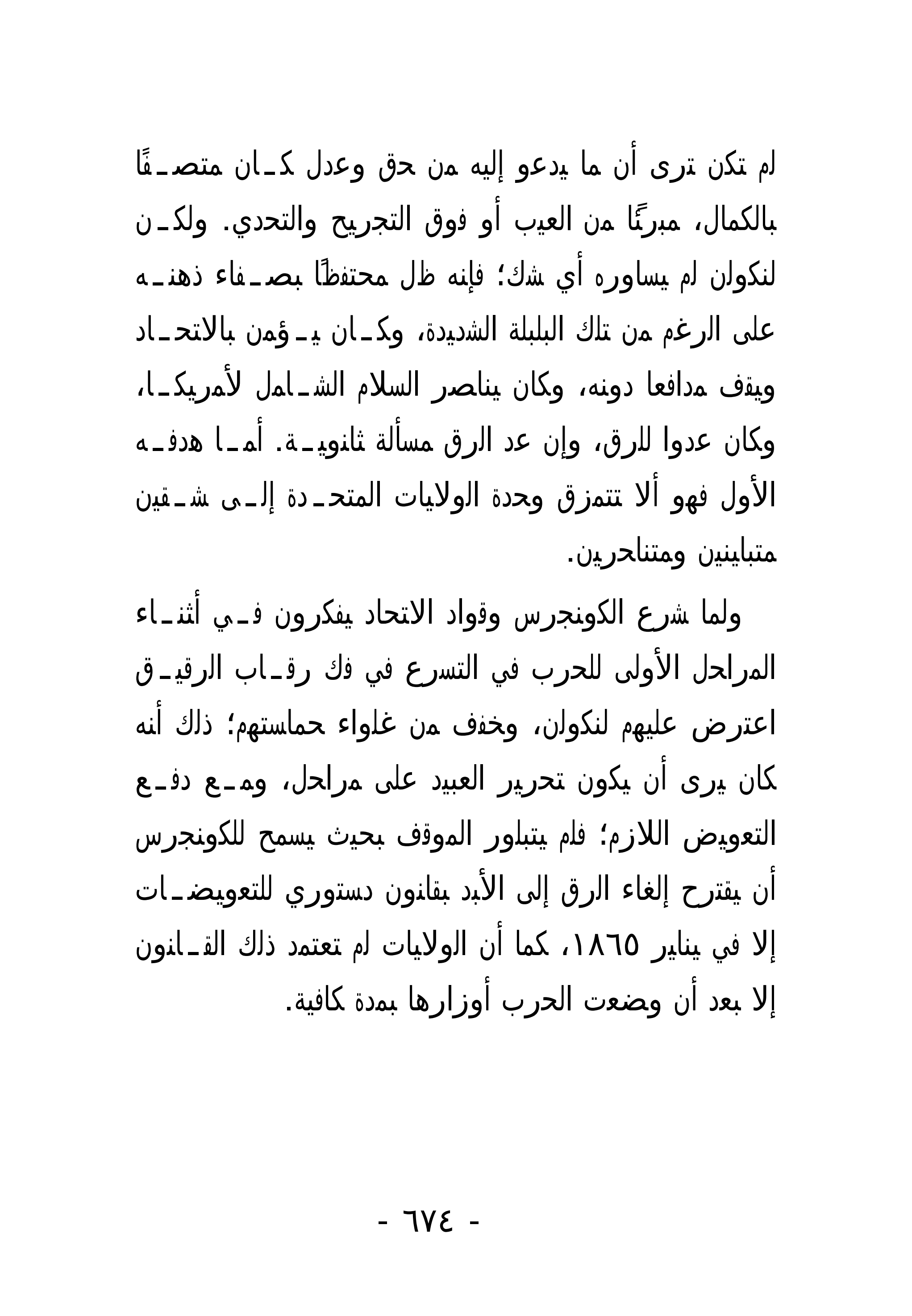


وريتشموند الهدف الأكبر للطرفين، ولا يتسـع المقـام هنـا للحديث عن تضاعف الهمم في أثناء ذلك الكفاح الرائع الذي كان يتدحرج ذهابا وجيئة عبر التلال والغابات بولايتي تنسي وفرجينيا، وينحدر مع نهر المسيسبي. كان كفاحا بددت فيـه القوى والثروات، وأُزهقت فيه الأرواح على نحـو رهيـب جامح، فإذا تم هجوم أعقبه على الفور هجـوم مضـاد، وإذا دخل نور الأمل إلى القلوب يوما أعقبته دياجي اليأس، ثم عاد الرجاء فأنار ثم خيم اليأس مرة ثانية؛ فيوما تلوح واشـنطن كأنما هي في قبضة ولايات الجنوب المؤتلفة أو تكاد، ويوما تكون جيوش الاتحاد متجهة بخطى حثيثة إلـى ريتشـموند. وكان جند ولايات الجنوب المؤتلفة يقاتلون تحت إمرة قائـد مقتدر عظيم هو الجنرال لي، وإن فاقهم الشماليون في العدد والموارد. ولكن قيادة الاتحاد الشمالي كانـت أدنـى كفايـة بكثير؛ لذا كان القواد هناك يعزلون ويعين مكـانهم آخـرون جدد؛ حتى تم النصر في النهاية تحت قيادة شيرمان وجرانت على جيوش الجنوب المهلهلة الثياب، المسـتنزفة المـوارد والدماء. ففي أكتوبر سنة ١٨٦٤ استطاع جيش الشمال بقيادة الجنرال شيرمان اختراق ميسرة الجنوب، وتقدم من تنسـي



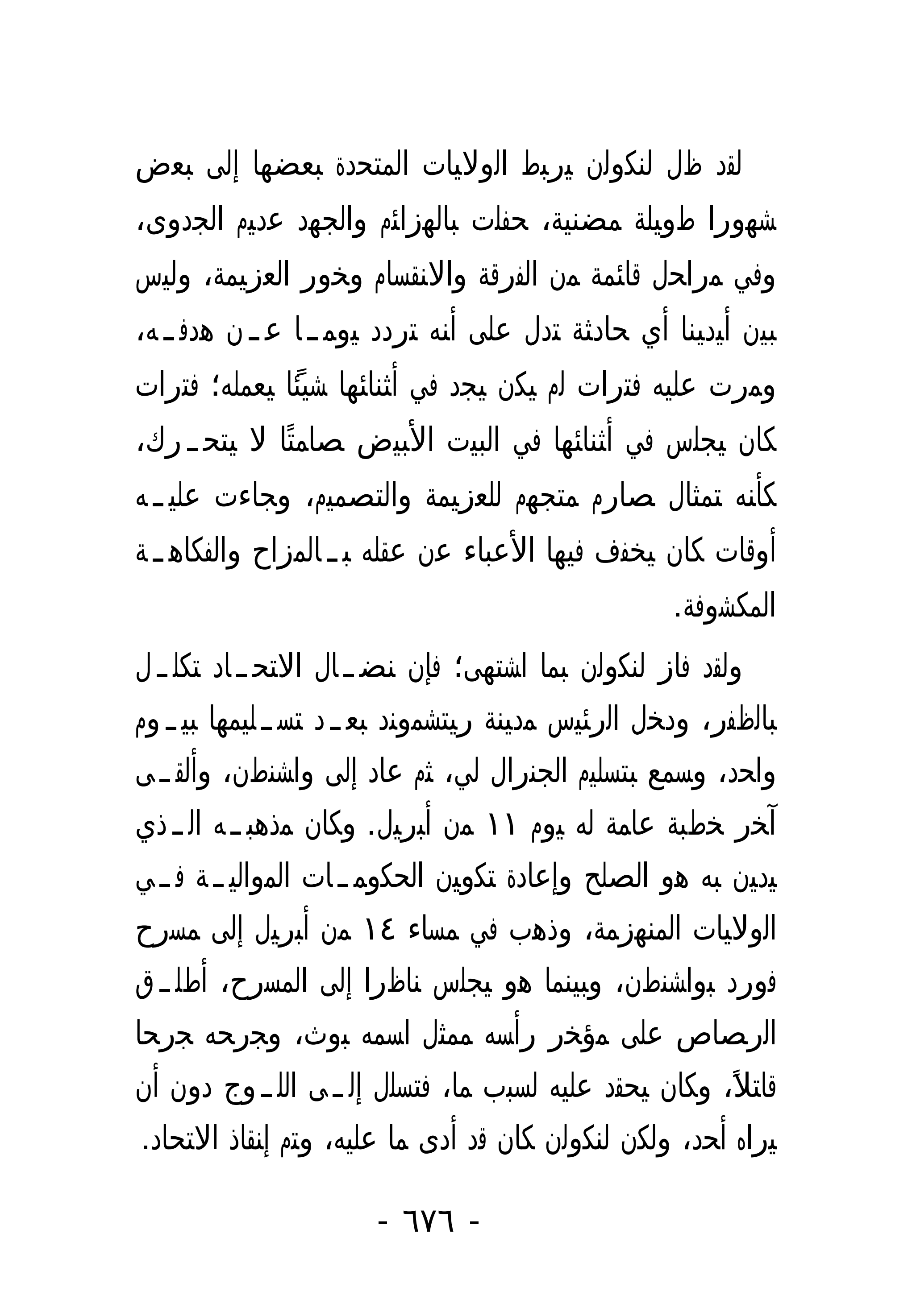
إلى الساحل مخترقًا جورجيا، ومارا عبر بلاد الجنوب وفـي صميم أقاليمه، ثم انحرف شمالاً خـلال ولايتـي كارولينـا الشمالية والجنوبية، وأطبق على مؤخرة جيـوش الجنـوب. وفي الوقت ذاته كان جرانت يشل جيش لي أمام ريتشـموند عن كل حركة، حتى أطبقت عليه جيوش شيرمان. ولم يلبث لي أن سلم بجيشه في ٩ مـن أبريـل سـنة ١٨٦٥ قـرب أبوماتكس كورت هاوس، ولم ينقض شهر واحد حتى ألقـت جميع جيوش الانفصاليين الباقية أسـلحتها، وانتهـت دولـة الجنوب.

أجهد هذا الكفاح الذي دام أربع سنوات شـعب الولايـات المتحدة إجهادا ماديا ومعنويا وخلقيا هـائلاً؛ ذلـك أن مبـدأ استقلال الولاية كان عزيزا محببا لدى أنفـس كثيـرة، وإن الشمال كان يبدو كأنما يرغم الجنوب في الواقع على إلغـاء الرق إرغاما. ولقد بلغ الأمر بالناس في الولايات القائمة على الحدود بين الطرفين أن كان الإخوة وأبناء العمومة؛ بل الآباء وأبناؤهم؛ ينحازون إلى شيع متضـادة، ويجـدون أنفسـهم يتقاتلون في جيوش متعادية، وكان الشمال يحس أن قضـيته تقوم على الحق والعدل، ولكن جماهير غفيرة مـن النـاس


لم تكن ترى أن ما يدعو إليه من حق وعدل كـان متصـفًا بالكمال، مبرئًا من العيب أو فوق التجريح والتحدي. ولكـن لنكولن لم يساوره أي شك؛ فإنه ظل محتفظًا بصـفاء ذهنـه على الرغم من تلك البلبلة الشديدة، وكـان يـؤمن بالاتحـاد ويقف مدافعا دونه، وكان يناصر السلام الشـامل لأمريكـا، وكان عدوا للرق، وإن عد الرق مسألة ثانويـة. أمـا هدفـه الأول فهو ألا تتمزق وحدة الولايات المتحـدة إلـى شـقين متباينين ومتناحرين.

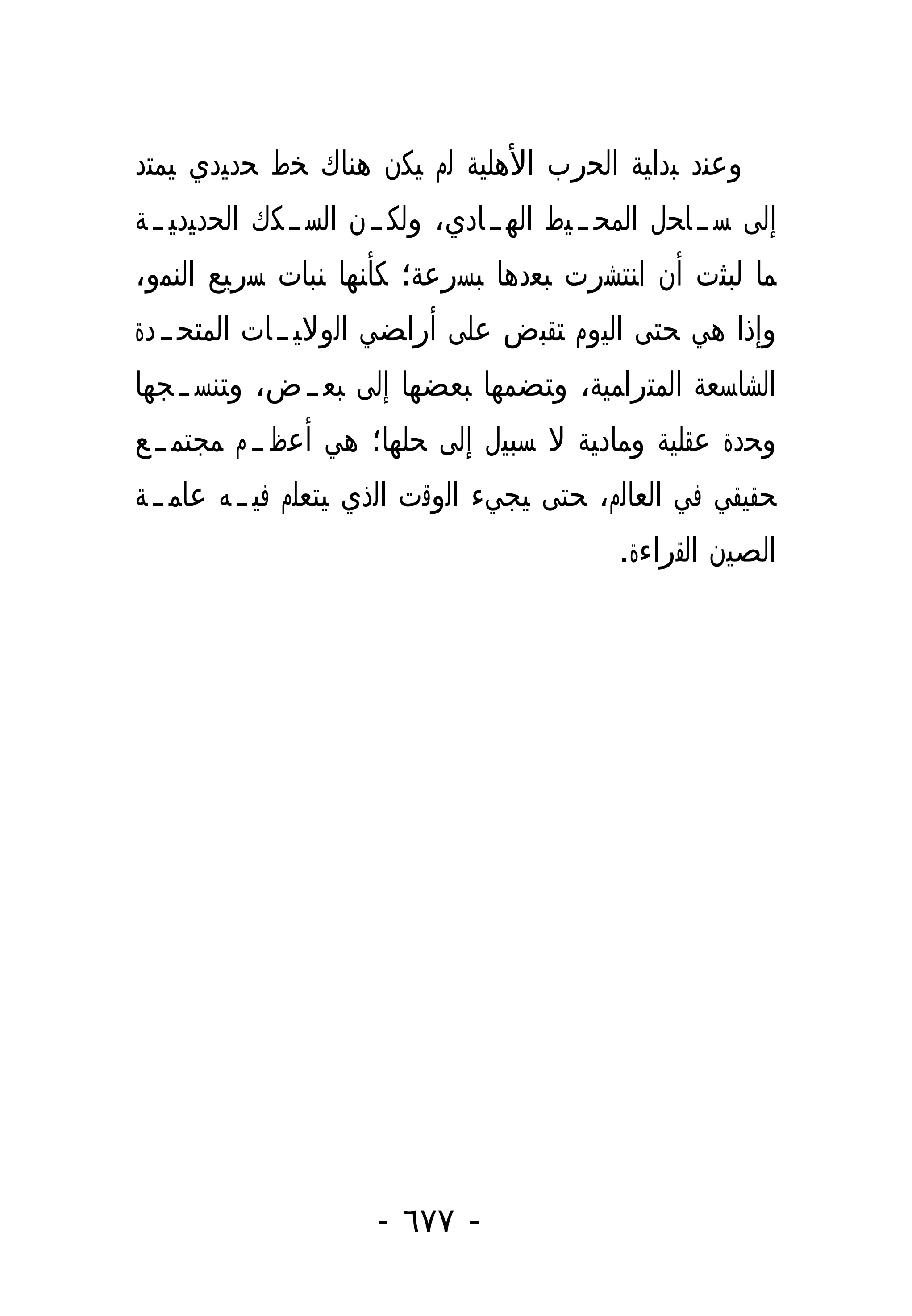
ولما شرع الكونجرس وقواد الاتحاد يفكرون فـي أثنـاء المراحل الأولى للحرب في التسرع في فك رقـاب الرقيـق اعترض عليهم لنكولن، وخفف من غلواء حماستهم؛ ذلك أنه كان يرى أن يكون تحرير العبيد على مراحل، ومـع دفـع التعويض اللازم؛ فلم يتبلور الموقف بحيث يسمح للكونجرس أن يقترح إلغاء الرق إلى الأبد بقانون دستوري للتعويضـات إلا في يناير ١٨٦٥، كما أن الولايات لم تعتمد ذلك القـانون إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها بمدة كافية.

وبينما الحرب تجر ساقها متثاقلـة فـي عـامي ١٨٦٢، و١٨٦٣؛ خمدت ثائرة الانفعـالات الأولـى، والحماسـات الأولى، وأخذت أمريكا تتعلم كـل دروس التبـرم بـالحرب والاشمئزاز منها، ونظر الرئيس فلم يجد حولـه إلا خونـة ودعاة هزيمة، وقوادا معزولين، وسياسيين حزبيين ملتـوين، كما لم يجد خلفه إلا شعبا متشككًا متعبا، ولا أمامه إلا قـوادا أغبياء وجنودا مبتئسين، ولسنا نشك أن عزاءه الوحيد في تلك الملمة كان شعوره بأن دافيز في ريتشموند لا يمكن أن يكون أسعد منه حالاً، وخرجت الحكومة البريطانية عـن السـلوك الكريم، وسمحت لوكلاء الجنوب بإنجلترا أن ينزلـوا إلـى البحر ثلاث سفن سريعة للقرصنة في المحيط، وأن يزودوها بالرجال (وأشهرها هي ألباما) فكانت تتعقب سفن الولايـات المتحدة وتطاردها في البحار، وذلك على حين راح الجـيش الفرنسي بالمكسيك يمرغ في الوحل مذهب مونرو. وتواردت على الرئيس مقترحات قائلة بإيقاف الحرب، وترك نتائجهـا لمناقشات تجري فيما بعد، والانقضاض بالولايـات المتحـدة كلها شمالها وجنوبها على الفرنسيين بالمكسيك، ولكنه أبى أن يصغي إلى مثل تلك المقترحات ما لم تصبح كلمـة الاتحـاد وسلطته هي العليا؛ فقد يجوز أن يقوم الأمريكيون بمثل هـذه الأعمال كشعب واحد لا كشعبين منفصلين.



لقد ظل لنكولن يربط الولايات المتحدة بعضها إلى بعض شهورا طويلة مضنية، حفلت بالهزائم والجهد عديم الجدوى، وفي مراحل قائمة من الفرقة والانقسام وخور العزيمة، وليس بين أيدينا أي حادثة تدل على أنه تردد يومـا عـن هدفـه، ومرت عليه فترات لم يكن يجد في أثنائها شيئًا يعمله؛ فترات كان يجلس في أثنائها في البيت الأبيض صامتًا لا يتحـرك، كأنه تمثال صارم متجهم للعزيمة والتصميم، وجاءت عليـه أوقات كان يخفف فيها الأعباء عن عقله بـالمزاح والفكاهـة المكشوفة.

ولقد فاز لنكولن بما اشتهى؛ فإن نضـال الاتحـاد تكلـل بالظفر، ودخل الرئيس مدينة ريتشموند بعـد تسـليمها بيـوم واحد، وسمع بتسليم الجنرال لي، ثم عاد إلى واشنطن، وألقـى آخر خطبة عامة له يوم ١١ من أبريل. وكان مذهبـه الـذي يدين به هو الصلح وإعادة تكوين الحكومـات المواليـة فـي الولايات المنهزمة، وذهب في مساء ١٤ من أبريل إلى مسرح فورد بواشنطن، وبينما هو يجلس ناظرا إلى المسرح، أطلـق الرصاص على مؤخر رأسه ممثل اسمه بوث، وجرحه جرحا قاتلاً، وكان يحقد عليه لسبب ما، فتسلل إلـى الـوج دون أن يراه أحد، ولكن لنكولن كان قد أدى ما عليه، وتم إنقاذ الاتحاد.



وعند بداية الحرب الأهلية لم يكن هناك خط حديدي يمتد إلى ساحل المحيط الهادي، ولكن السكك الحديدية ما لبثت أن انتشرت بعدها بسرعة؛ كأنها نبات سريع النمو، وإذا هي حتى اليوم تقبض على أراضي الولايات المتحدة الشاسعة المترامية، وتضمها بعضها إلى بعض، وتنسجها وحدة عقلية ومادية لا سبيل إلى حلها؛ هي أعظم مجتمع حقيقي في العالم، حتى يجيء الوقت الذي يتعلم فيه عامة الصين القراءة.

الفصل الحادي والستون

ألمانيا تصبح دولة عظمى

ذكرنا من قبل كيف حدث بعـد الهـزات العنيفـة التـي تمخضت عنها الثورة الفرنسـية، ومغـامرات نـابليون؛ أن استسلمت أوروبا من جديد لفتـرة سـلام يسـودها القلـق والاضطراب، وإن شملتها الظروف السياسية التي كانت بها قبل ذلك بخمسين عاما، ولكن في صورة مجددة إلى درجـة ما. ولم تظهر حتى منتصف القرن أي نتائج سياسية ملحوظة للوسائل الجديدة في معالجة الصلب، ولا للسـكة الحديديـة أو الباخرة. على أن التوتر الاجتمـاعي النـاجم عـن نمـو الصناعة في المدن سار أشواطًا، وظلت فرنسا قطرا بـادي القلق؛ إذ جاءت بعد ثورة عام ١٨٣٠ ثـورة أخـرى فـي عام ١٨٤٨، ثم تبوأ نابليون الثالث (وهو ابـن أخ لنـابليون الأول) رئاسة الجمهورية أولاً، وأعلن نفسه إمبراطورا فـي عام ١٨٥٢، ثم شرع من فوره في إعـادة تشـييد بـاريس، وحولها من مدينة جميلة غير صحية من مدن القرن السـابع عشر، إلى المدينة الواسعة الأطراف اللاتينية الطابع الرخامية المباني التي نشهدها اليوم، وشرع من فوره في إعادة بنـاء فرنسا، وحولها إلى إمبراطورية استعمارية ظاهرها الطـابع العصري المشرق، وأبدى شيئًا من الميل إلـى بعـث روح

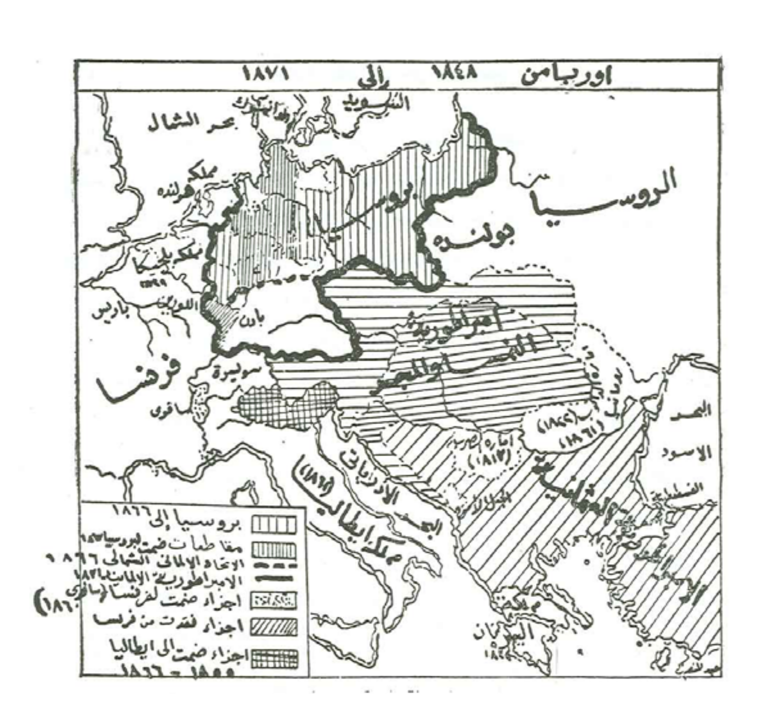
المنافسة بين الدول الكبرى، التي ظلت تشغل أوروبا تمامـا بحروب غير مجدية في أثناء القرنين السابع عشر والثـامن عشر، واتخذ نقولا الأول قيصـر روسـيا (١٨٢٥-١٨٥٦) نفس النزعـات العدوانيـة، وأخـذ يضـغط جنوبـا علـى الإمبراطورية التركية، وقد شـخص بصـره إلـى مدينـة القسطنطينية.

حتى إذا انتصف القرن ابتدأت في أوروبا دورة جديدة من الحروب، وكلها في الغالب حروب غايتها الرفعة، وتـوازن القوى؛ فهاجمت إنجلترا وفرنسا ومملكة سردينيا دولة الروس في بلاد القرم دفاعا عن تركيا، وتقاتلت على زعامة ألمانيـا كل من بروسيا (ومعها إيطاليا كحليفة) والنمسـا، وحـررت فرنسا شمال إيطاليا من ربقة النمسا، وقبضت مقاطعة سافوي ثمنًا لذلك التحرير؛ ومن ثم أخـذت إيطاليـا توحـد نفسـها بالتدريج في نطاق مملكة واحدة. وعندئـذ هجـس نصـحاء السوء لنابليون الثالث أن يقدم على فتح المكسيك فـي أثنـاء الحرب الأهلية في أمريكا؛ فنصب فيهـا إمبراطـورا هـو مكسمليان، ثم بادر بالتخلي عنـه وتركـه يوجـه المقـادير بمفرده، وما لبث أهل المكسيك أن أعدموه رميا بالرصاص، بمجرد أن كشرت عن أنيابها حكومات الولايـات المتحـدة المنتصرة في معركة الاتحاد.

وفي عام ١٨٧٠ نشب بين فرنسا وبروسيا صراع علـى السيادة في أوروبا، بعد أن ظل يهدد بالانفجار أمدا طـويلاً، وقد تكهنت بروسيا بذلك الكفاح منذ زمن بعيد، بينمـا كـان الفساد المالي ينخر في أحشاء فرنسا داخليـا؛ ولـذا كانـت هزيمتها سريعة شديدة أخاذة، وغزا الألمـان فرنسـا فـي أغسطس، فسلم جيش فرنسي كبير بقيادة الإمبراطور نفسـه دون قيد أو شرط قرب سيدان في سبتمبر، ثم سلم آخر فـي شهر أكتوبر عند متز، وسقطت باريس في أيـدي الألمـان (يناير ١٨٧١) بعد أن حوصرت وضربت بالمدافع.

ووقع الصلح بمدينة فرنكفورت، وبه نزلت فرنسـا عـن مقاطعتي الألزاس واللورين للألمان، كما توحدت ألمانيا كلها عدا النمسا في إمبراطورية، وأصبح ملك بروسيا إمبراطورا لألمانيا، فزاد عدد القياصرة في أوروبا قيصرا جديدا!

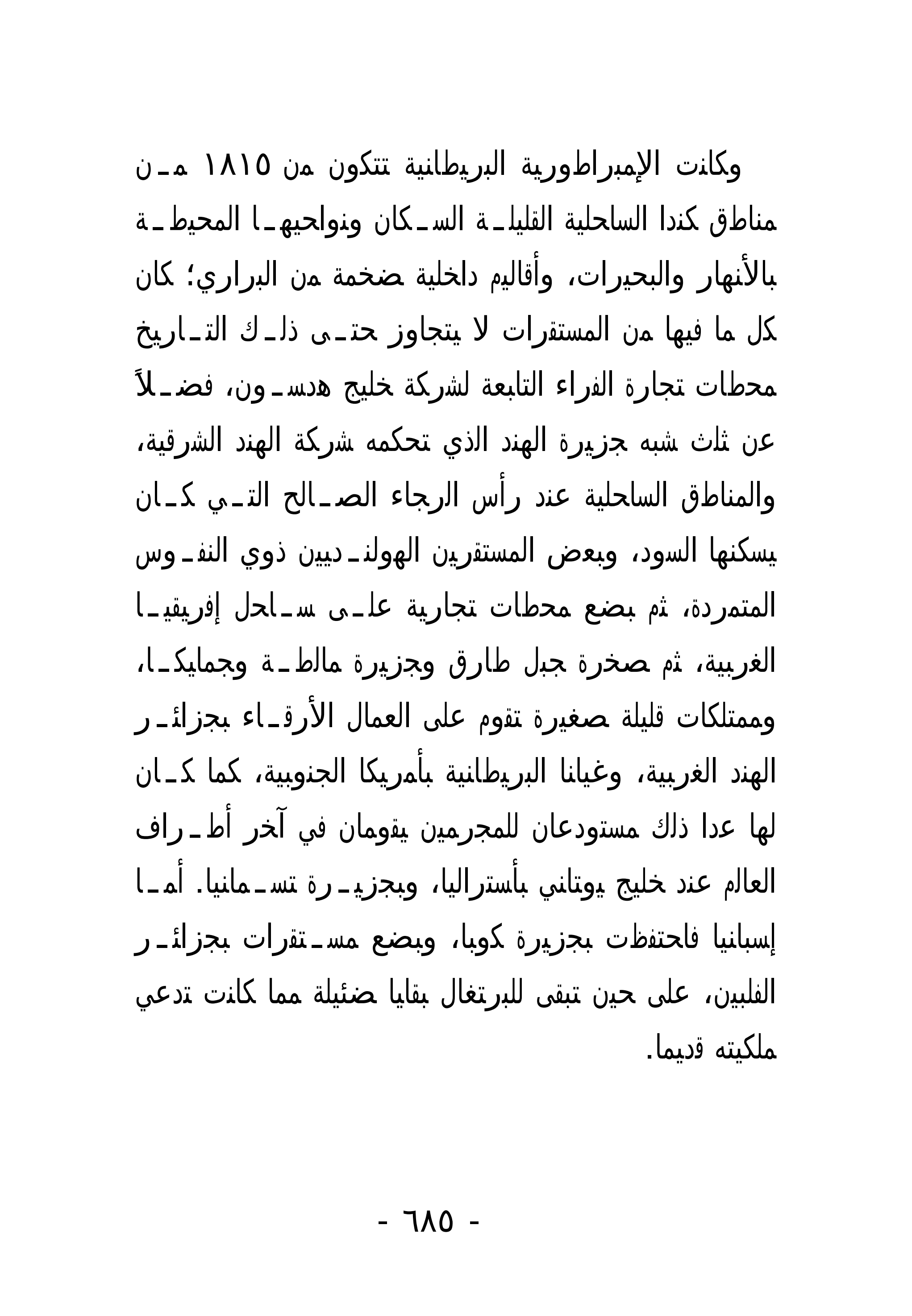
ظلت ألمانيا بعد ذلك ثلاثة وأربعين سنة أقوى دولة فـي قارة أوروبـا، ونشـبت حـرب بـين الروسـيا وتركيـا (١٨٧٧-١٨٧٨)، ولكن الحدود الأوروبيـة ظلـت ثابتـة بصورة قلقلة طوال الثلاثين سنة التالية، لم يداخلها في أثنائها إلا تعديلات بسيطة بمنطقة البلقان.



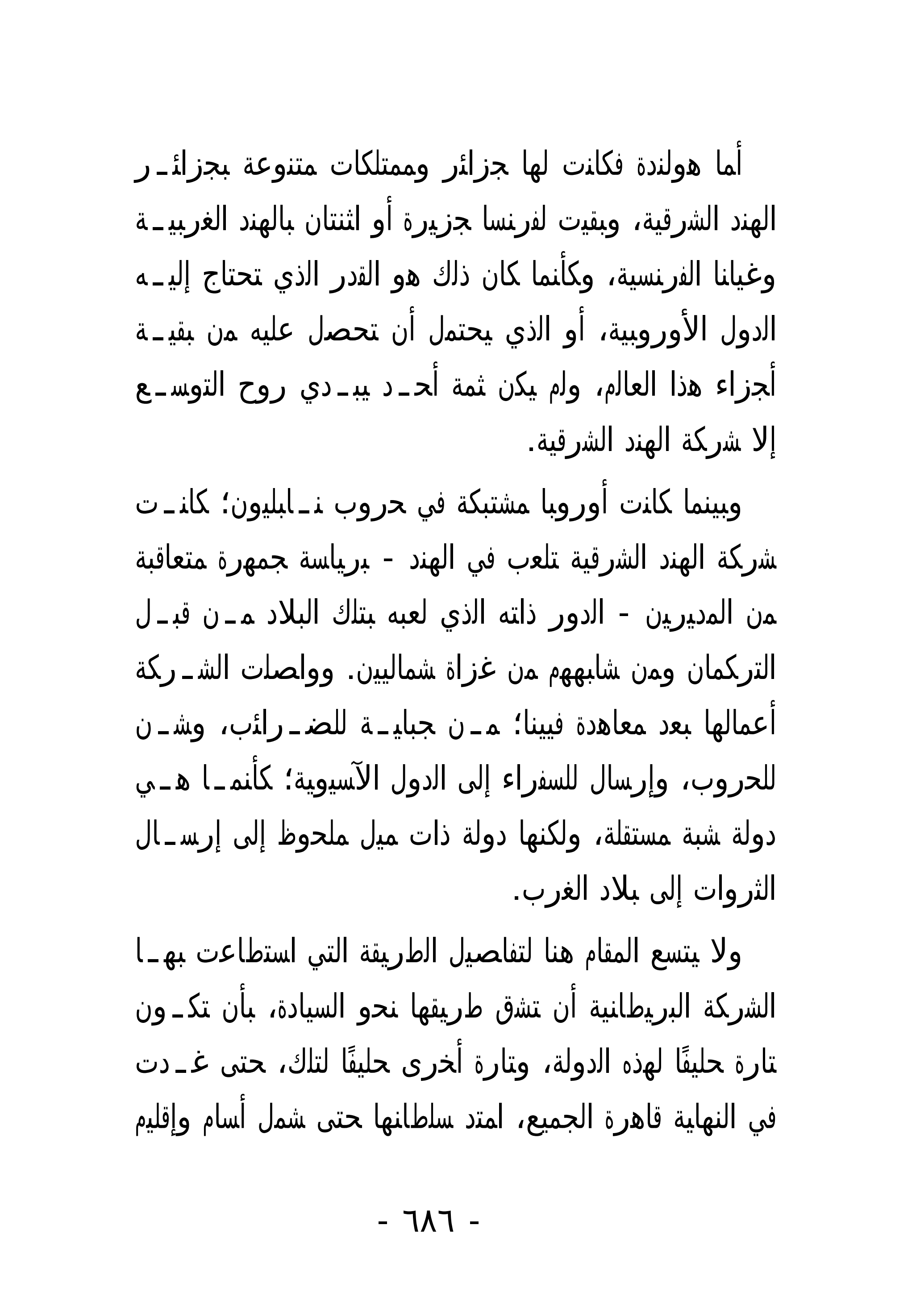
الفصل الثاني والستون

الإمبراطوريات الجديدة الناشئة وراء البحار بفضل السفن البخارية والسكك الحديدية

انتهت خاتمة القرن الثامن عشر بتمـزق إمبراطوريـات وتحطم أحلام لدعاة التوسع؛ ذلك أن الرحلة الطويلة المضنية من بريطانيا وإسبانيا إلى مستعمراتهما بأمريكا تحـول دون الرواح والغدو الحر بين الوطن الأم وبناتـه المسـتعمرات، وهكذا انفصلت المستعمرات عن الدولة، وأصبحت مجتمعات جديدة منفصلة متميزة، لها أفكارها المتميزة ومصالحها؛ بـل حتى طرائقها الخاصة في النطق والتعبير، وكانت كلما نمت مزقت أكثر فأكثر رابطتها الواهنة غير الثابتة من السفن التي كانت همزة الوصل بينهما. أجل إن من الجـائز أن تتعلـق محطات تجارية ضعيفة تقوم في مجاهل البرية (كالتي كانت لفرنسا بكندا)، أو مؤسسات تجارية بين ظهراني مجتمعـات غريبة كبيرة (كالتي كانت لبريطانيا ببلاد الهند) تتعلق فـي سبيل البقاء البحت بالأمة التي أمدتها بالعون، ومنحتها مبرر وجودها؛ ذلك وحده ولا شيء غيره كان فيما يخيل لكثير من مفكري أوائل القرن التاسع عشر الحد الأقصى للحكـم وراء البحار. وما وافت سنة ١٨٢٠ حتى تقلصت إلى أدنـى حـد الإمبراطوريات الأوروبية الكبيرة غير المنتظمة الحدود، التي كانت تبدو بارزة الضخامة في خرائط منتصف القرن الثامن عشر، ولم ينج من هذا المصير إلا الإمبراطورية الروسـية التي ظلت تزحف عبر آسيا محتفظة دائما بضخامتها وأكثر.



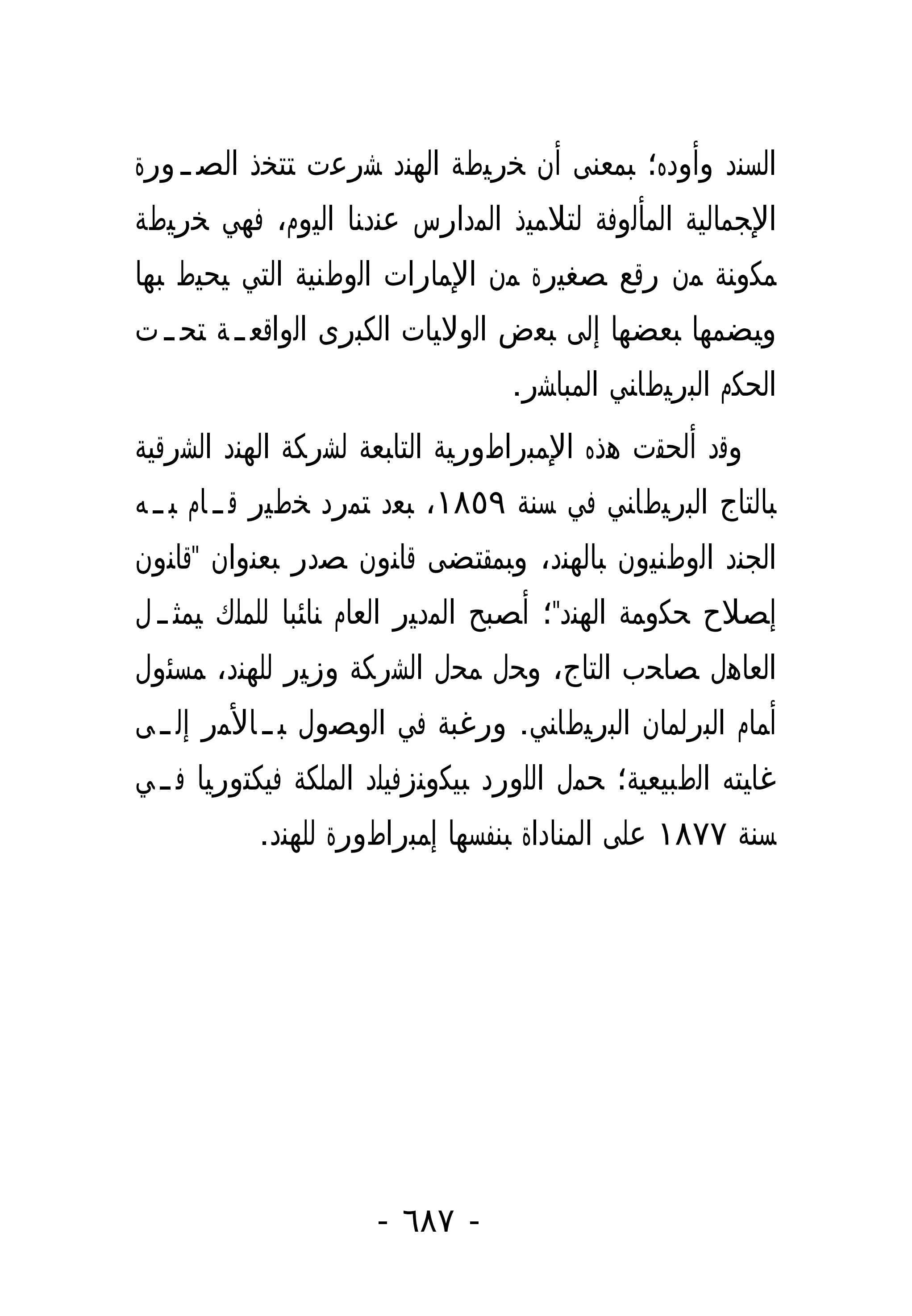
وكانت الإمبراطورية البريطانية تتكون من ١٨١٥ مـن مناطق كندا الساحلية القليلـة السـكان ونواحيهـا المحيطـة بالأنهار والبحيرات، وأقاليم داخلية ضخمة من البراري؛ كان كل ما فيها من المستقرات لا يتجاوز حتـى ذلـك التـاريخ محطات تجارة الفراء التابعة لشركة خليج هدسـون، فضـلاً عن ثلث شبه جزيرة الهند الذي تحكمه شركة الهند الشرقية، والمناطق الساحلية عند رأس الرجاء الصـالح التـي كـان يسكنها السود، وبعض المستقرين الهولنـديين ذوي النفـوس المتمردة، ثم بضع محطات تجارية علـى سـاحل إفريقيـا الغربية، ثم صخرة جبل طارق وجزيرة مالطـة وجمايكـا، وممتلكات قليلة صغيرة تقوم على العمال الأرقـاء بجزائـر الهند الغربية، وغيانا البريطانية بأمريكا الجنوبية، كما كـان لها عدا ذلك مستودعان للمجرمين يقومان في آخر أطـراف العالم عند خليج بوتاني بأستراليا، وبجزيـرة تسـمانيا. أمـا إسبانيا فاحتفظت بجزيرة كوبا، وبضع مسـتقرات بجزائـر الفلبين، على حين تبقى للبرتغال بقايا ضئيلة مما كانت تدعي ملكيته قديما.



أما هولندة فكانت لها جزائر وممتلكات متنوعة بجزائر الهند الشرقية، وبقيت لفرنسا جزيرة أو اثنتان بالهند الغربية وغيانا الفرنسية، وكأنما كان ذلك هو القدر الذي تحتاج إليه الدول الأوروبية، أو الذي يحتمل أن تحصل عليه من بقية أجزاء هذا العالم، ولم يكن ثمة أحد يبدي روح التوسع إلا شركة الهند الشرقية.

وبينما كانت أوروبا مشتبكة في حروب نابليون؛ كانت شركة الهند الشرقية تلعب في الهند - برياسة جمهرة متعاقبة من المديرين - الدور ذاته الذي لعبه بتلك البلاد من قبل التركمان ومن شابههم من غزاة شماليين. وواصلت الشركة أعمالها بعد معاهدة فيينا؛ من جباية للضرائب، وشن للحروب، وإرسال للسفراء إلى الدول الآسيوية؛ كأنما هي دولة شبة مستقلة، ولكنها دولة ذات ميل ملحوظ إلى إرسال الثروات إلى بلاد الغرب.

ولا يتسع المقام هنا لتفاصيل الطريقة التي استطاعت بها الشركة البريطانية أن تشق طريقها نحو السيادة، بأن تكون تارة حليفًا لهذه الدولة، وتارة أخرى حليفًا لتلك، حتى غدت في النهاية قاهرة الجميع، امتد سلطانها حتى شمل أسام وإقليم



السند وأوده؛ بمعنى أن خريطة الهند شرعت تتخذ الصـورة الإجمالية المألوفة لتلاميذ المدارس عندنا اليوم، فهي خريطة مكونة من رقع صغيرة من الإمارات الوطنية التي يحيط بها ويضمها بعضها إلى بعض الولايات الكبرى الواقعـة تحـت الحكم البريطاني المباشر.

وقد ألحقت هذه الإمبراطورية التابعة لشركة الهند الشرقية بالتاج البريطاني في سنة ١٨٥٩، بعد تمرد خطير قـام بـه الجند الوطنيون بالهند، وبمقتضى قانون صدر بعنوان "قانون إصلاح حكومة الهند"؛ أصبح المدير العام نائبا للملك يمثـل العاهل صاحب التاج، وحل محل الشركة وزير للهند، مسئول أمام البرلمان البريطاني. ورغبة في الوصول بـالأمر إلـى غايته الطبيعية؛ حمل اللورد بيكونزفيلد الملكة فيكتوريا فـي سنة ١٨٧٧ على المناداة بنفسها إمبراطورة للهند.

والهند وبريطانيا ترتبطان في الوقت الحاضر على هـذه الأسـس العجيبـة الخارقـة[1]. ذلـك أن الهنـد لا تـزال إمبراطورية "المغولي العظيم"، ولكن المغولي العظيم قد حلت محله جمهورية بريطانيا العظمى المتوجة؛ فالهند دولة حكـم مطلق ليس بها عاهل مطلق، فحكمها يجمـع بـين مسـاوئ الملكية المطلقة، وبين ما للموظفين في ظل الديمقراطية من حكم غير مسئول، ولا يمت إلى النـواحي الشخصـية بـأي علاقة؛ فالهندي الذي له ظلامة لا يجد أمامه عاهلاً يلجأ إليه، فما إمبراطوره إلا رمز من ذهب؛ لذا لم يكن أمامه مفر من إذاعة النشرات بإنجلترا، أو الإيحاء إلى النواب بإلقاء سـؤال بمجلس العموم البريطاني. وكلمـا زاد البرلمـان انشـغالاً بالشئون البريطانية؛ قل ما تلقاه الهند من التفاتـه ورعايتـه، وزاد وقوعها تحت رحمة زمرتهـا الصـغيرة مـن كبـار الموظفين.

([1]) استقلت الهند في عام ١٩٤٧، وإن ظلت عضوا في الكومنولث (أي مجموعة الأمم البريطانية)، ثم أعلنت بها الجمهورية. [المترجم]

وفيما عدا الهند لم يتيسـر لأي إمبراطوريـة أوروبيـة الحصول على أي توسع عظيم، حتى بلغت المراكب البخارية والسكك الحديدية أقصى أثر فعال لها. وكانت مدرسة كبيـرة من المفكرين السياسيين ببريطانيا تميل إلى اعتبار الممتلكات وراء البحار مصدرا لضـعف الدولـة لا قوتهـا. ونمـت المستوطنات الأسترالية ببطء حتى أدى اكتشاف مناجم ثمينة للنحاس في سنة ١٨٤٢، وأخرى للذهب في سنة ١٨٥١؛ إلى إعطائها أهمية جديدة، كما أن تحسن وسـائل النقـل جعـل الصوف الأسترالي سلعة تجارية قابلة للتصريف المتزايد في الأسواق الأوروبية، هذا إلى أن كندا لم تصب تقدما ملحوظًا إلا في عام ١٨٤٩؛ إذ كانت تمزق كلمتها الخلافـات بـين سكانها الفرنسيين والبريطانيين؛ لذا حدثت بها عدة ثـورات خطيرة، فلم يخف من متابعها الداخلية في النهاية إلا صدور دستور جديد في سنة ١٨٦٧، أنشأ دومنيون كندا الاتحـادي. والسكك الحديدية هي لا جرم صاحبة الفضـل فـي تغييـر مستقبل كندا، فإنها مكنتها – مثلما مكنت من قبلها الولايـات المتحدة - من التوسع غربا، ومن بيع قمحها وغيـره مـن المنتجات في أوروبا، كما مكنتها على الـرغم مـن نموهـا

السريع المترامي؛ من أن تظل مجتمعا واحدا تجمعـه اللغـة والعاطفة والمصلحة المشتركة. والواقع الذي لا شك فيـه أن السكة الحديدية والسفينة التجارية، وأسلاك التلغراف البحري؛ كانت تغير تماما جميع أحوال التطور الاستعماري.

وكانت للإنجليـز مسـتقرات بجزيـرة نيوزيلنـدة قبـل عام ١٨٤٠، كما أن شركة لأراضي نيوزيلنـدة كانـت قـد تأسست لاستثمار موارد الجزيرة، ولم تلبـث نيوزيلنـدة أن أُلحقت هي أيضا في سنة ١٨٤٠ بالممتلكـات الاسـتعمارية للتاج البريطاني.

وكانت كندا كما ذكرنا آنفًا أول الممتلكات البريطانية التي استجابت بقوة للإمكانيات الاقتصادية الجديدة، التـي فتحـت أبوابها وسائل النقل الجديدة. وسرعان ما أخذت جمهوريـات أمريكا الجنوبية (خاصة منها جمهورية الأرجنتين) تشعر من حيث تجارة المواشي واللحوم وزراعة البن؛ بتزايـد قـرب السوق الأوروبية، وإلى ذلك الحين كانت أهم السـلع التـي تجتذب دول أوروبا إلى اقتحام المناطق الهمجية غير الآهلـة بالسكان؛ هي الذهب أو غيـره مـن المعـادن أو التوابـل والأفاوية أو العاج أو العبيد، ولكن زيادة السكان بأوروبا في

الربع الأخير من القرن التاسع عشر أخذت تجبر الحكومـات على البحث في الخارج عن الأغذية الرئيسية، كما أن نمـو الصناعة القائمة على أسس علمية أوجد الحاجة إلى مواد خام جديدة (كالشحوم والزيوت) من جميع الأصناف، والمطـاط، ومواد أخرى كان يغفل شأنها قبل الآن، وكان جليا للعيان أن بريطانيا العظمى وهولندة والبرتغال كانـت تجنـي ثمـارا وميزات تجارية عظيمة ومتزايدة بسبب سـيطرتها الكبيـرة على منتجات الأقاليم الحارة، ثم شرعت ألمانيـا بعـد عـام ١٨٧١، ومن ورائها على الفور فرنسا فإيطاليا فيمـا بعـد؛ تشخص ببصرها باحثة عن مناطق للمواد الخام لم يضـمها إليه أحد، أو عن بلاد شرقية يمكن قيام الطابع العصري بهـا بصورة مثمرة ومربحة.

وهكذا بدأ تسابق وتزاحم جديد عم العالم كله، ولم ينـتج منه إلا أمريكا التي وقف فيها مبدأ مونرو آنذاك حـائلاً دون مثل تلك المغامرات الباحثة عن أرض لا تجد مـن يحميهـا سياسيا.

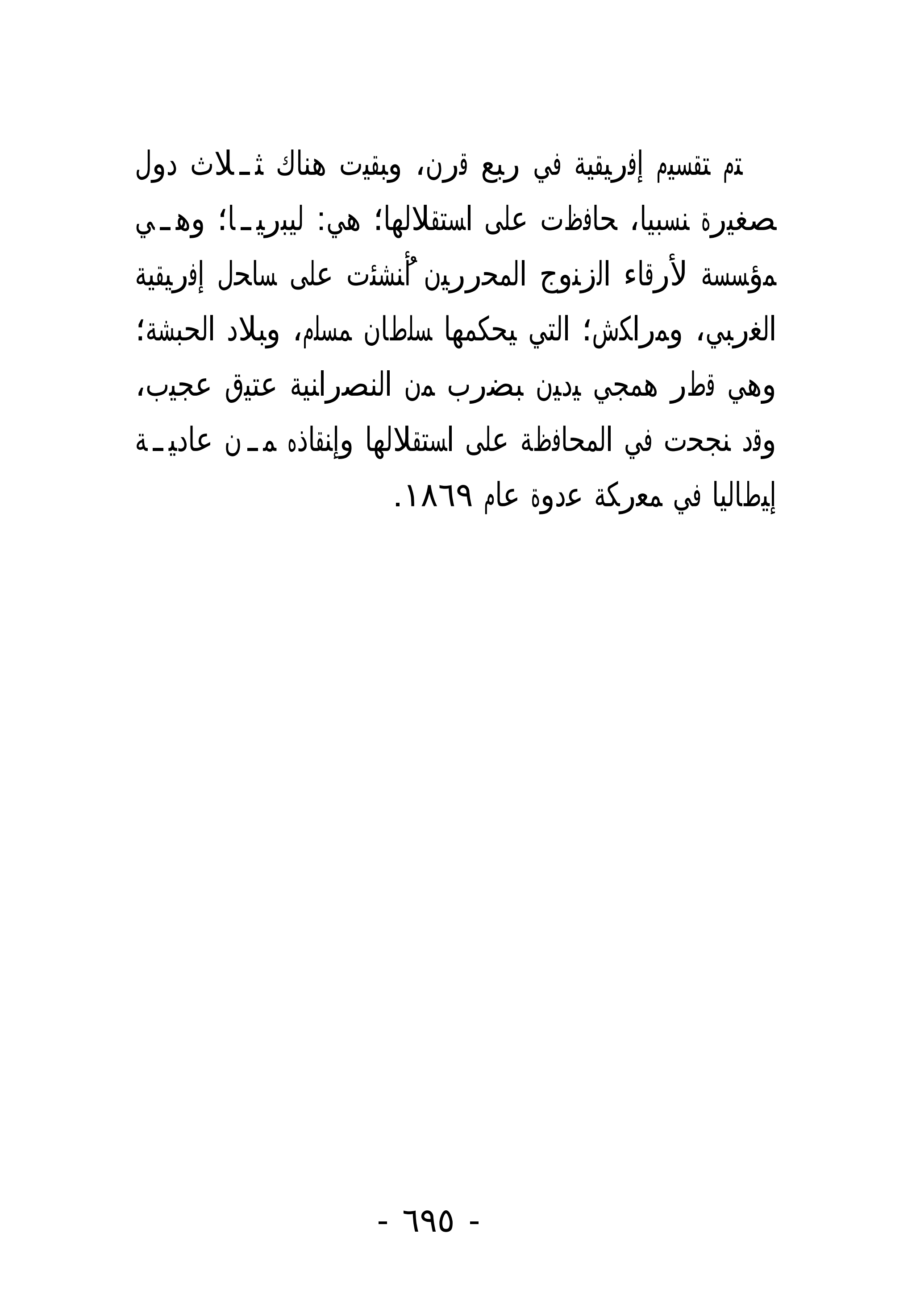
وكانت إفريقية أقرب القارات إلى أوروبا، وهـي مليئـة بالإمكانيات، التي يكتنفها الغموض والإبهام. كانت في عـام ١٨٥٠ بلادا تحيط به الأسرار القاتمة السـوداء؛ فلـم يكـن معروفًا من أقطارها إلا مصر والأقاليم السـاحلية، ويضـيق المقام هنا عن قصة المستكشفين والمغامرين المدهشة، الذين اخترقوا لأول مرة ظلمات تلك المجاهل الإفريقية، وعن ذكر العملاء السياسيين والمديرين والتجار والمستوطنين، ورجال العلم الذين ما لبثوا أن ساروا في إثـرهم. وبفضـل ارتيـاد إفريقية رفع اللثام عن أجناس بشرية مدهشة كالأقزام مـثلاً، وعن حيوانات عجيبة كالأوكابي، وعـن فواكـه وأزهـار وحشرات بديعة، وأمراض فظيعة، ومناظر أخـاذة للغابـات والجبال، وبحار داخلية هائلة وأنهار عظيمة، ومساقط مائيـة ضخمة؛ عالم جديد بأسره، بل لقد بلغ الأمر أن اكتشفت (عند زمبابو) بقايا حضارة بائدة لم يسجلها التـاريخ، هـي آثـار مغامرة اتجهت جنوبا لشعب قديم غير معروف. إلـى هـذا العالم الجديد وفد الأوروبيون، ووجدوا البندقية به في أيـدي تجار الرقيق العرب، كما وجدوا حياة الزنوج في اضـطراب شامل.

وما انقضت خمسون عاما وحلت سنة ١٩٠٠؛ حتى كانت إفريقية كلها قد رسمت خريطتها، وارتيدت مجاهلها، وقُدرت قيمتها، وقُسمت بين الدول الأوروبية، ولم يعن أحد في أثناء معركة التسابق والتطاحن هذه بمصلحة السكان الأصـليين. أجل إن النحاس العربي لم يطرد من الميدان فقط بـل أُبيـد تماما؛ ولكن الجشع والشراهة علـى المطـاط الـذي كـان محصولاً بريا يجمعه الأهالي قسرا في إقليم الكونغو البلجيكي (وهو جشع تفاقم شره بسبب الاصطدامات التي نشبت بـين الحكام الأوربيين غير ذوي الخبرة وبين الأهالي) أفضى ذلك كله إلى اقتراف أشنع الفظائع، ولا تستطيع دولـة أوروبيـة واحدة أن تدعي طهارة اليد تماما من آثام تلك الحقبة.

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الوسيلة التي تمكنـت بهـا بريطانيا العظمى من الاستيلاء على مصر في عـام ١٨٨٢، والبقاء فيها، على الرغم من أن مصر كانـت مـن الناحيـة الدولية جزءا من الإمبراطورية التركية، ولا كيف أوشك هذا التخاطف على المستعمرات أن يؤدي إلى نشوب الحرب بين فرنسا وبريطانيا العظمى في عـام ١٨٩٨، عنـدما حـاول الكولونيل مارشاند في فاشودة أن يستولي على النيل الأعلـى في أثناء عبوره أواسط إفريقية من الساحل الغربي.

ولن يتيسر لنا أيضا أن نحدثك كيف سـمحت الحكومـة البريطانية أولاً للبوير (أي المستوطنين الهولنديين بمنطقتـي نهر الأورانج والترنسفال) أن ينشئوا جمهوريـات مسـتقلة بمناطق إفريقية الداخلية، ثم عادت فندمت على مـا فعلـت وضمت جمهوريات الترنسفال في عـام ١٨٧٧، ولا كيـف ناضل بوير الترنسفال في سبيل الحرية حتى فازوا بها بعـد معركة تل ماجوبا في عام ١٨٨١. وأثيرت حول معركة تل ماجوبا حملة صحفية لجوج جعلتها كالغصة في حلق الشعب البريطاني، أو القرحة في ذاكرته؛ لذا لم تلبـث الحـرب أن اندلعت من جديد مع كل من الجمهوريتين في عـام ١٨٩٩، وكانت حربا دامت ثلاث سنين، كبدت الشـعب البريطـاني نفقات طائلة، وانتهت بتسليم الجمهوريتين.

على أن فترة خضوعهما لم تدم طويلاً؛ إذ لم يلبـث حـزب الأحرار البريطاني فـي عـام ١٩٠٧ بعـد سـقوط الـوزارة الاستعمارية التي قهرتهما؛ أن أخذ على عاتقه حل مشكلة جنوب إفريقية، وأن أصبحت هاتان الجمهوريتان السابقتان حرتين، وأن صارتا بدافع رغبة شريفة عضوين مع مستعمرة الرأس وناتال، في اتحاد ضم جميع ولايات جنوب إفريقية بين دفتي جمهوريـة موحدة، تستمتع بالحكم الذاتي في ظل التاج البريطاني.



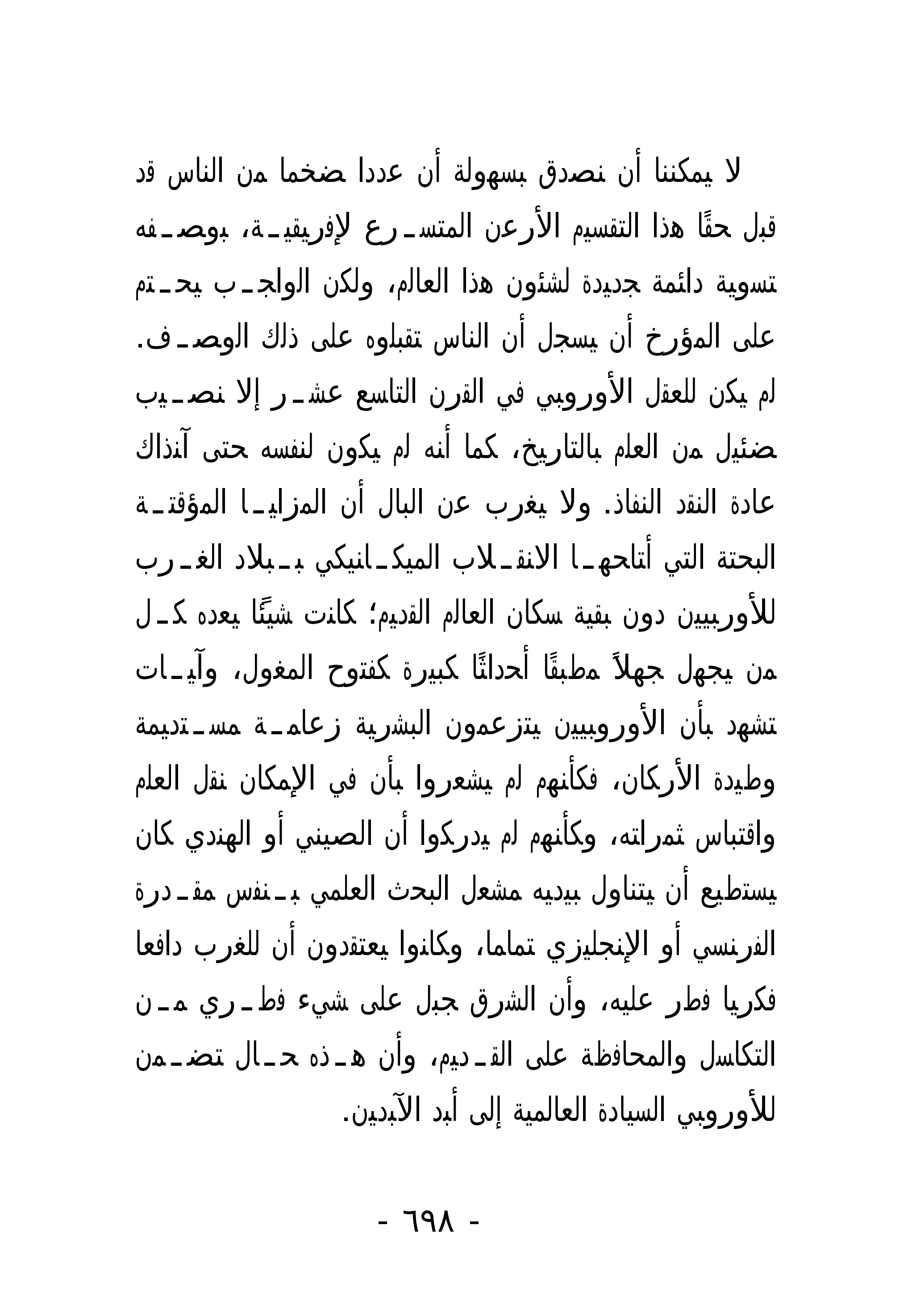
تم تقسيم إفريقية في ربع قرن، وبقيت هناك ثـلاث دول صغيرة نسبيا، حافظت على استقلالها؛ هي: ليبريـا؛ وهـي مؤسسة لأرقاء الزنوج المحررين أُنشئت على ساحل إفريقية الغربي، ومراكش؛ التي يحكمها سلطان مسلم، وبلاد الحبشة؛ وهي قطر همجي يدين بضرب من النصرانية عتيق عجيب، وقد نجحت في المحافظة على استقلالها وإنقاذه مـن عاديـة إيطاليا في معركة عدوة عام ١٨٦٩.


الامبراطورية البريطانية سنة ١٨١٥
أمريكا الشمالية
كندا
نيوفوندلند
برمودا
بهاما
ترنداد
جامايكا
هندوراس البريطانية
المحيط الهادى
أمريكا الجنوبية
جبل طارق
مالطة
أوربا
آسيا
افريقيا
غمبيا
سيراليون
ساحل الذهب
المحيط الأطلسى
سانت هلانة
مستعمرة الكاب
موريشس
الهند
سيلان
المحيط الهندى
المحيط الهادى
ويلز الجديدة الجنوبية
تسمانيا

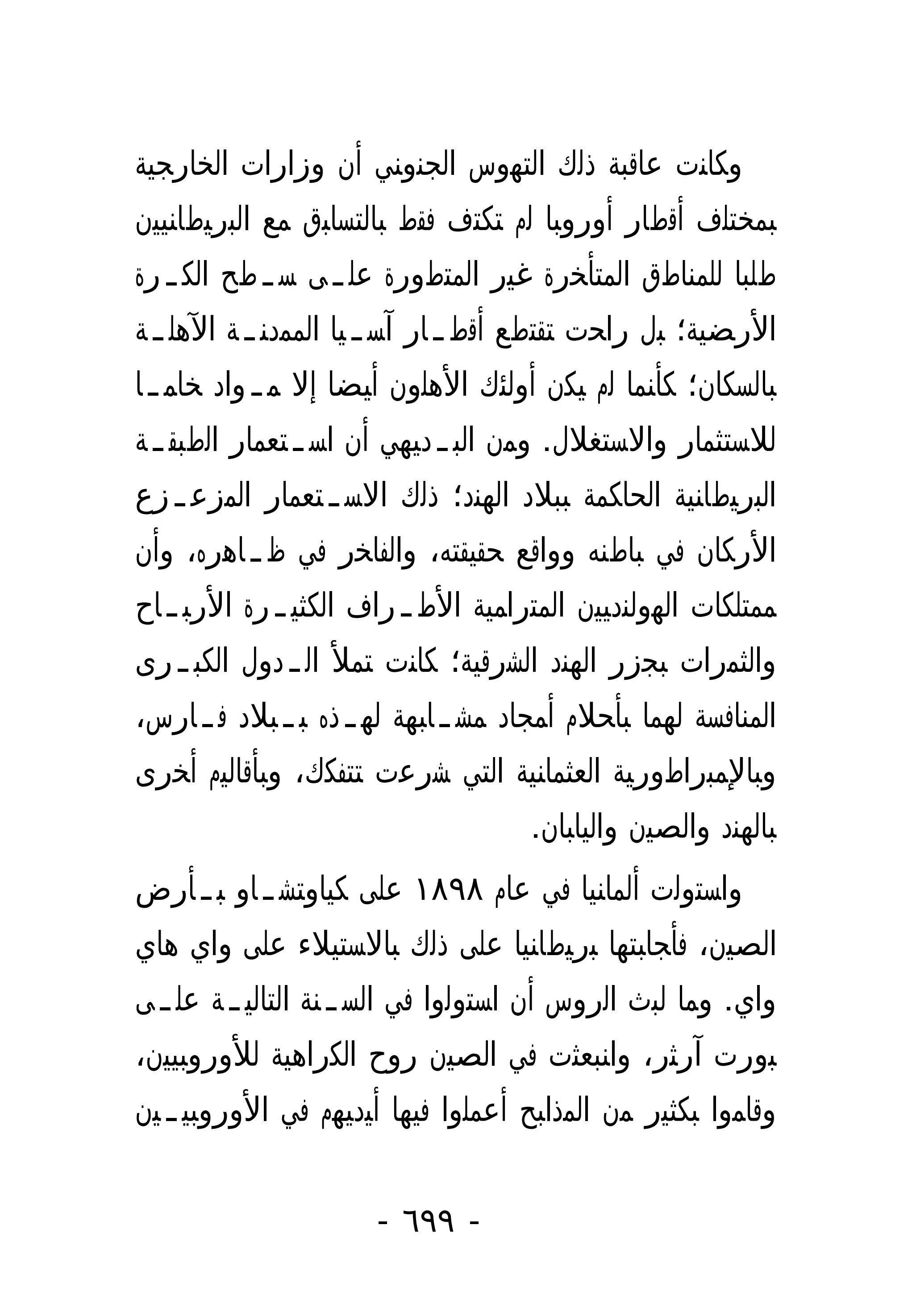
الفصل الثالث والستون

العدوان الأوروبي على آسيا

ونهوض اليابان

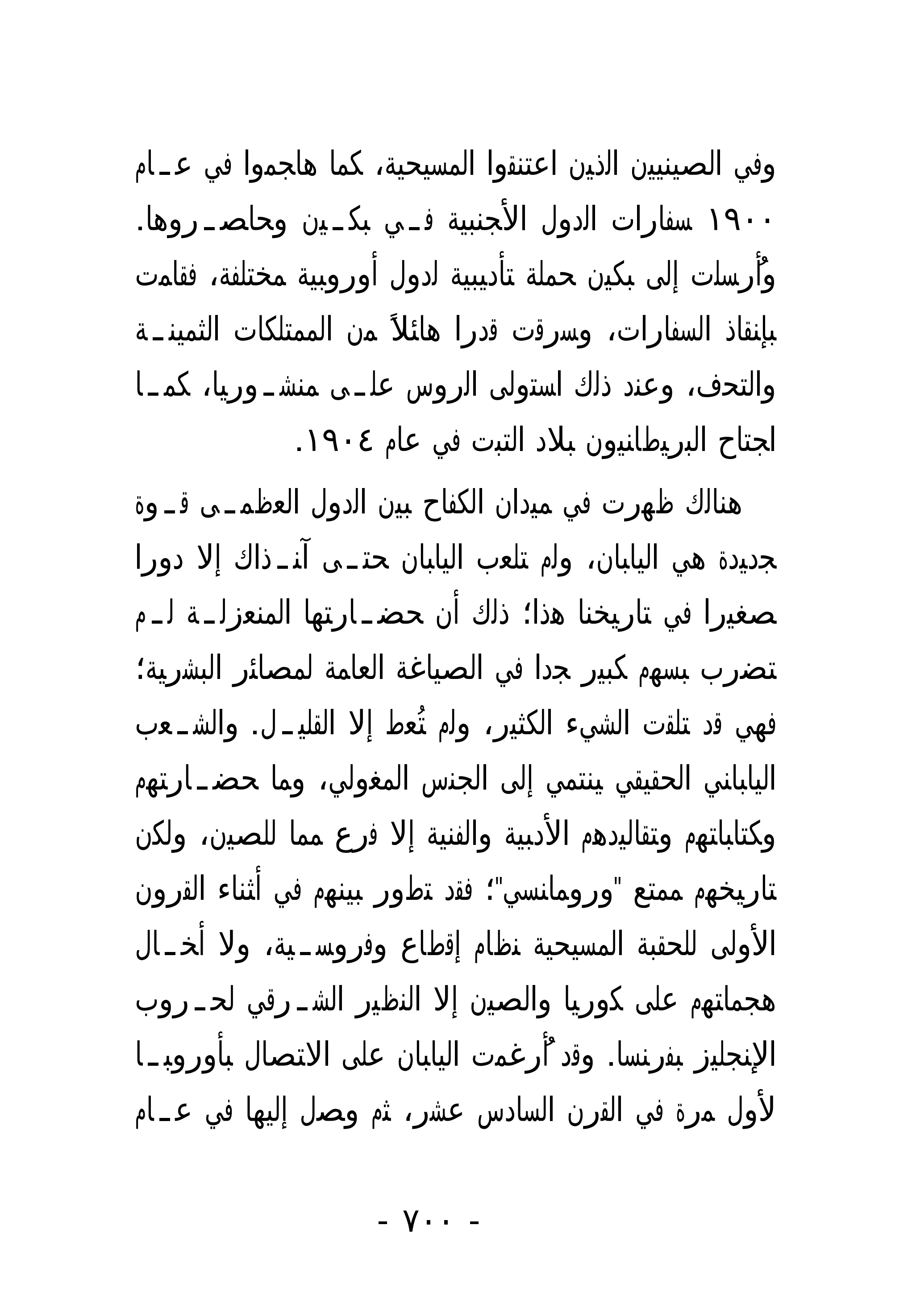


لا يمكننا أن نصدق بسهولة أن عددا ضخما من الناس قد قبل حقًا هذا التقسيم الأرعن المتسرع لإفريقية، بوصفه تسوية دائمة جديدة لشئون هذا العالم، ولكن الواجب يحتم على المؤرخ أن يسجل أن الناس تقبلوه على ذلك الوصف. لم يكن للعقل الأوروبي في القرن التاسع عشر إلا نصيب ضئيل من العلم بالتاريخ، كما أنه لم يكون لنفسه حتى آنذاك عادة النقد النفاذ. ولا يغرب عن البال أن المزايا المؤقتة البحتة التي أتاحها الانقلاب الميكانيكي ببلاد الغرب للأوربيين دون بقية سكان العالم القديم؛ كانت شيئًا يعده كل من يجهل جهلاً مطبقًا أحداثًا كبيرة كفتوح المغول، وآيات تشهد بأن الأوروبيين يتزعمون البشرية زعامة مستديمة وطيدة الأركان، فكأنهم لم يشعروا بأن في الإمكان نقل العلم واقتباس ثمراته، وكأنهم لم يدركوا أن الصيني أو الهندي كان يستطيع أن يتناول بيديه مشعل البحث العلمي بنفس مقدرة الفرنسي أو الإنجليزي تماما، وكانوا يعتقدون أن للغرب دافعا فكريا فطر عليه، وأن الشرق جبل على شيء فطري من التكاسل والمحافظة على القديم، وأن هذه حال تضمن للأوروبي السيادة العالمية إلى أبد الآبدين.



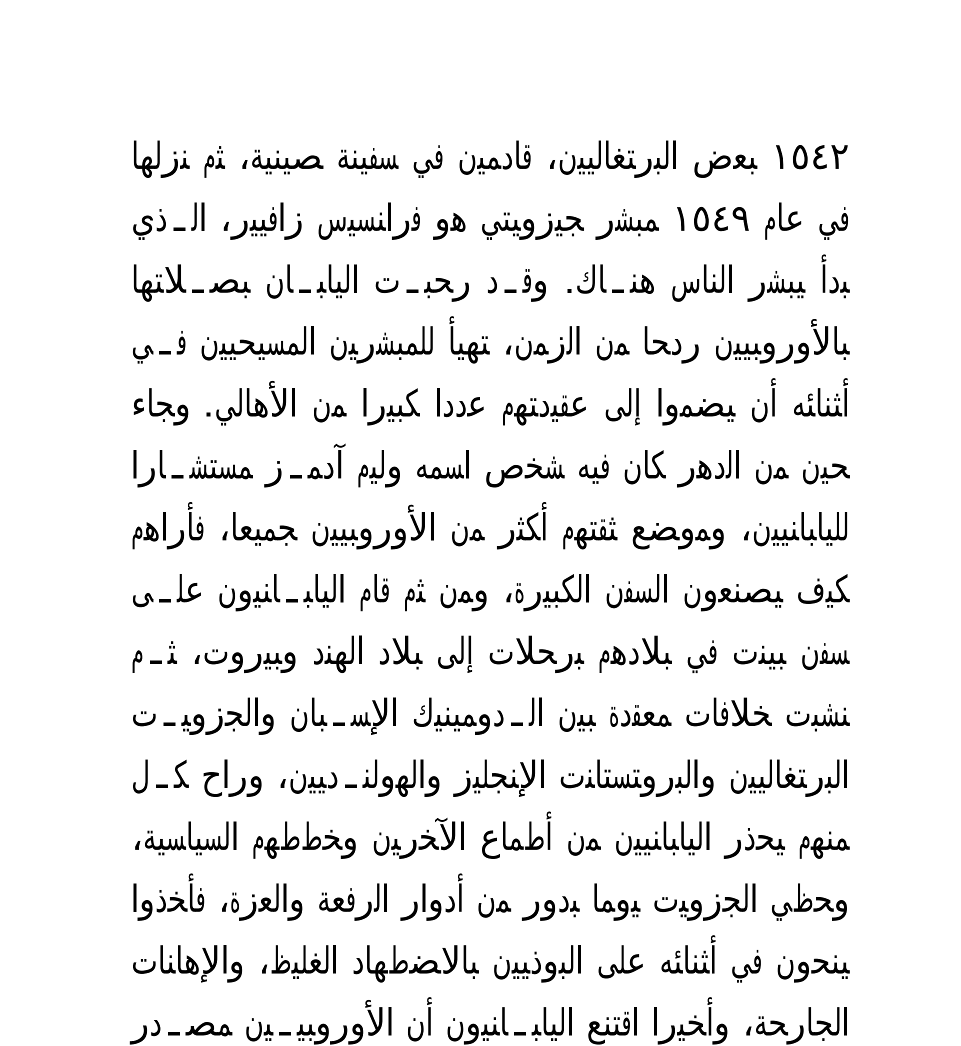
وكانت عاقبة ذلك التهوس الجنوني أن وزارات الخارجية بمختلف أقطار أوروبا لم تكتف فقط بالتسابق مع البريطانيين طلبا للمناطق المتأخرة غير المتطورة علـى سـطح الكـرة الأرضية؛ بل راحت تقتطع أقطـار آسـيا الممدنـة الآهلـة بالسكان؛ كأنما لم يكن أولئك الأهلون أيضا إلا مـواد خامـا للاستثمار والاستغلال. ومن البـديهي أن اسـتعمار الطبقـة البريطانية الحاكمة ببلاد الهند؛ ذلك الاسـتعمار المزعـزع الأركان في باطنه وواقع حقيقته، والفاخر في ظـاهره، وأن ممتلكات الهولنديين المترامية الأطـراف الكثيـرة الأربـاح والثمرات بجزر الهند الشرقية؛ كانت تملأ الـدول الكبـرى المنافسة لهما بأحلام أمجاد مشـابهة لهـذه بـبلاد فـارس، وبالإمبراطورية العثمانية التي شرعت تتفكك، وبأقاليم أخرى بالهند والصين واليابان.

واستولت ألمانيا في عام ١٨٩٨ على كياوتشـاو بـأرض الصين، فأجابتها بريطانيا على ذلك بالاستيلاء على واي هاي واي. وما لبث الروس أن استولوا في السـنة التاليـة علـى بورت آرثر، وانبعثت في الصين روح الكراهية للأوروبيين، وقاموا بكثير من المذابح أعملوا فيها أيديهم في الأوروبيـين



وفي الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية، كما هاجموا في عـام ١٩٠٠ سفارات الدول الأجنبية فـي بكـين وحاصـروها. وأُرسلت إلى بكين حملة تأديبية لدول أوروبية مختلفة، فقامت بإنقاذ السفارات، وسرقت قدرا هائلاً من الممتلكات الثمينـة والتحف، وعند ذلك استولى الروس علـى منشـوريا، كمـا اجتاح البريطانيون بلاد التبت في عام ١٩٠٤.

هنالك ظهرت في ميدان الكفاح بين الدول العظمـى قـوة جديدة هي اليابان، ولم تلعب اليابان حتـى آنـذاك إلا دورا صغيرا في تاريخنا هذا؛ ذلك أن حضـارتها المنعزلـة لـم تضرب بسهم كبير جدا في الصياغة العامة لمصائر البشرية؛ فهي قد تلقت الشيء الكثير، ولم تُعط إلا القليـل. والشـعب الياباني الحقيقي ينتمي إلى الجنس المغولي، وما حضـارتهم وكتاباتهم وتقاليدهم الأدبية والفنية إلا فرع مما للصين، ولكن تاريخهم ممتع "وروماسي"؛ فقد تطور بينهم في أثناء القرون الأولى للحقبة المسيحية نظام إقطاع وفروسـية، ولا أخـال هجماتهم على كوريا والصين إلا النظير الشـرقي لحـروب الإنجليز بفرنسا. وقد أُرغمت اليابان على الاتصال بأوروبـا لأول مرة في القرن السادس عشر، ثم وصل إليها في عـام

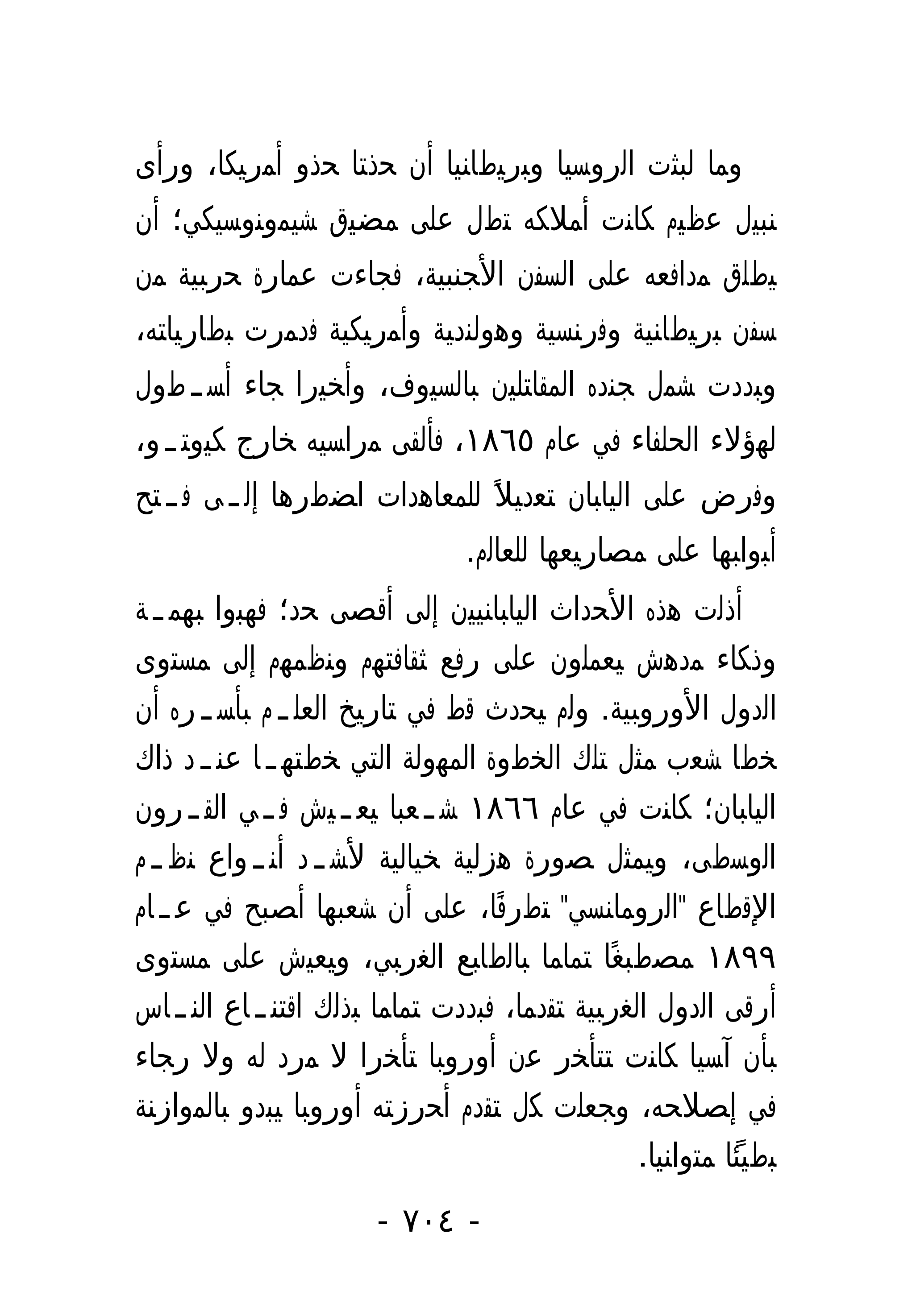


١٥٤٢ بعض البرتغاليين، قادمين في سفينة صينية، ثم نزلها في عام ١٥٤٩ مبشر جيزويتي هو فرانسيس زافيير، الذي بدأ يبشر الناس هناك. وقد رحبت اليابان بصلاتها بالأوروبيين ردحا من الزمن، تهيأ للمبشرين المسيحيين في أثنائه أن يضموا إلى عقيدتهم عددا كبيرا من الأهالي. وجاء حين من الدهر كان فيه شخص اسمه وليم آدمز مستشارا لليابانيين، وموضع ثقتهم أكثر من الأوروبيين جميعا، فأراهم كيف يصنعون السفن الكبيرة، ومن ثم قام اليابانيون على سفن بينت في بلادهم برحلات إلى بلاد الهند وبيروت، ثم نشبت خلافات معقدة بين الدومينيك الإسبان والجزويت البرتغاليين والبروتستانت الإنجليز والهولنديين، وراح كل منهم يحذر اليابانيين من أطماع الآخرين وخططهم السياسية، وحظي الجزويت يوما بدور من أدوار الرفعة والعزة، فأخذوا ينحون في أثنائه على البوذيين بالاضطهاد الغليظ، والإهانات الجارحة، وأخيرا اقتنع اليابانيون أن الأوروبيين مصدر تكدير لهم لا سبيل إلى الصبر عليه، وأن المسيحية الكاثوليكية بوجه خاص لم تكن إلا ستارا تستتر وراءه أطماع البابا السياسية وأحلام ملوك إسبانيا(الذين كانوا يملكون آنفًا

جزائر الفلبين)، فأنزلوا بالمسيحيين اضطهادا عظيمـا، ثـم أقفلوا أبواب اليابان في عام ١٦٣٨ إقفالاً تامـا فـي وجـه الأوروبيين، فظلت كذلك ما يربو على مائتي سنة، وانقطعت صلة اليابانيين في أثناء هذين القرنين عن بقية أجزاء العـالم تماما، حتى لكأنهم يعيشون في كوكب آخر غير الأرض؛ إذ حرم عليهم بناء أي سفينة يكبر حجمها عـن حجـم زورق الانتقال الساحلي، وحظر على اليابانيين مغادرة الـبلاد إلـى الخارج، ومنع الأوروبيون من دخول البلاد.

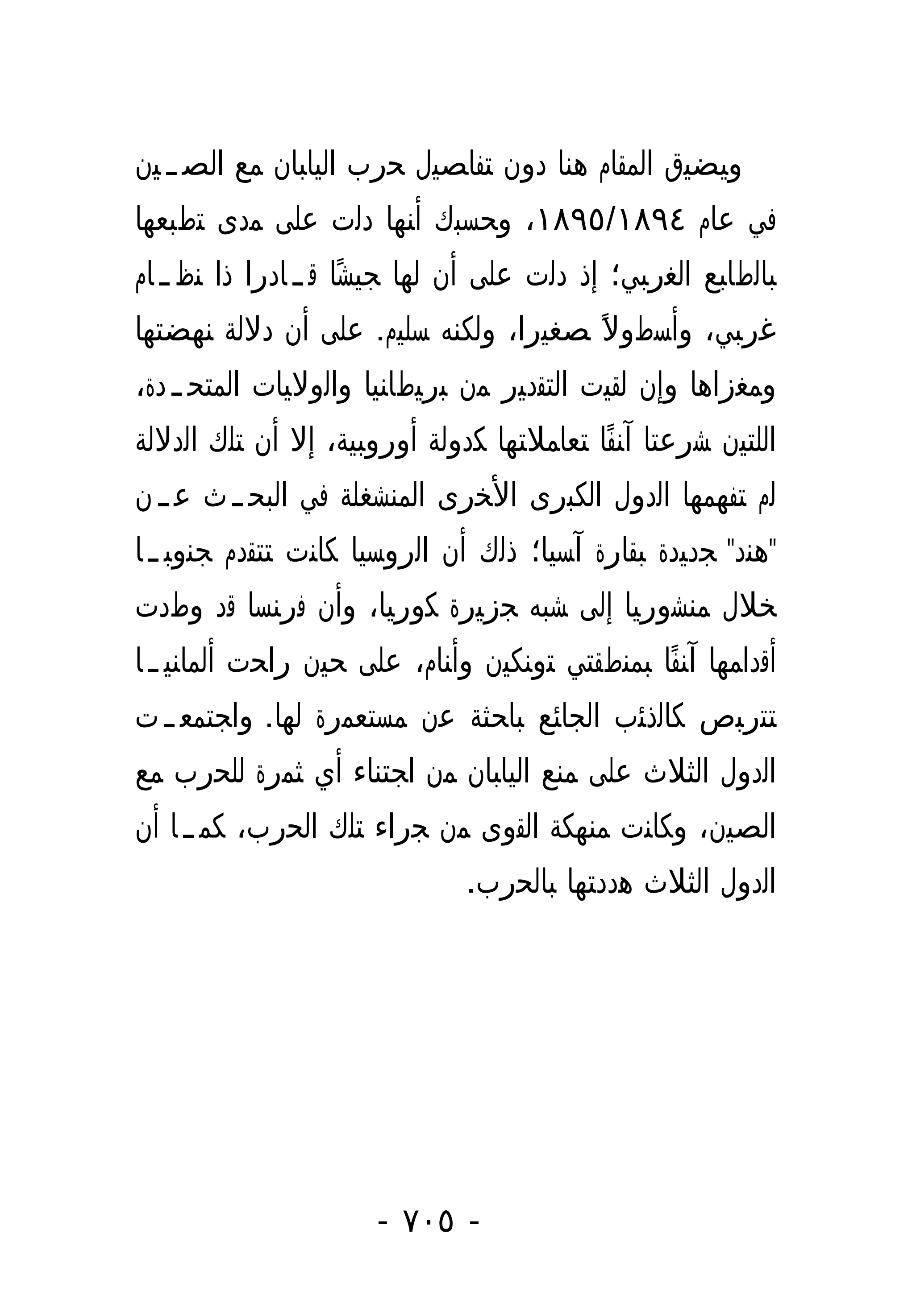
ظلت اليابان قرنين كاملين بمعزل عن مجـرى التـاريخ الرئيسي، وواصلت العيش في ظل إقطـاع جـذاب، كانـت خمسة في المائة من السكان في أثنائهما هي الساموراي (أي المقاتلة) ومعهم النبلاء وعائلاتهم؛ تحكم بقية السكان حكمـا جائرا مطلقًا لا ضابط له ولا حدود. حدث ذلك كله والعـالم الخارجي الضخم يواصل تقدمه ويوسع آفاق آرائـه وفلـك قواه. فتكاثرت السفن العجيبة الشـكل التـي تمـر بجـوار الرءوس الأرضية اليابانية الممتدة في البحر، وكانت بعـض السفن تتحطم أحيانًا ويجلب نوتيتها إلى الشاطئ، ثم جـاءتهم النذر عن طريق المستوطنة الهولندية القائمة علـى جزائـر ديشيما (وهي همزة الوصل بينهم وبين العالم الخارجي)؛ أن

اليابان لم تكن تساير ركب القوة في العالم الغربي، وأقبلـت في عام ١٨٣٧ سفينة دخلت خليج بيدو، رافعة علما عجيبـا من نجوم وشقق ملونة، وقد حملت بعض الملاحين اليابانيين الذين التقطتهم والتيار يدفعهم بعيدا فـي المحـيط الهـادي، وعندئذ أطلقت المدافع على السفينة فاضطرت إلى الانسحاب. وسرعان ما عاد هذا العلم إلى الظهور ثانية يرفـرف فـوق سفن أخرى، منها واحدة جاءت في عـام ١٨٤٩ للمطالبـة بإطلاق سراح ثمانية عشر بحارا، تحطمت سفينتهم باليابان، ثم جاءت في عام ١٨٥٣ أربع سفن حربية أمريكيـة بقيـادة قائد الأسطول بري Perry، ورفضت أن تنسـحب؛ فـألقى القائد مراسيه في المياه المحرمة على الأجانب، وأرسل رسله إلى الحاكمين اللذين كانا يشتركان وقتئذ في حكم اليابان، ثـم عاد في عام ١٨٥٤ بعشرة سفن (سفن ضخام مذهلة، يدفعها البخار، وقد زودت بالمدافع الكبيرة)، وقدم مقترحات تتعلـق بالتجارة والاتصال بالخارج، لم يسع اليابـانيين إلا قبولهـا. ونزل القائد إلى البر يحف به حرس مكون مـن خمسـمائة رجل؛ لكي يوقع المعاهدة، ووقفت الجماهير وهـي لا تكـاد تصدق أعينها، تشهد هؤلاء الزوار الوافـدين مـن العـالم الخارجي، وهم يخترقون شوارع مدينتهم.

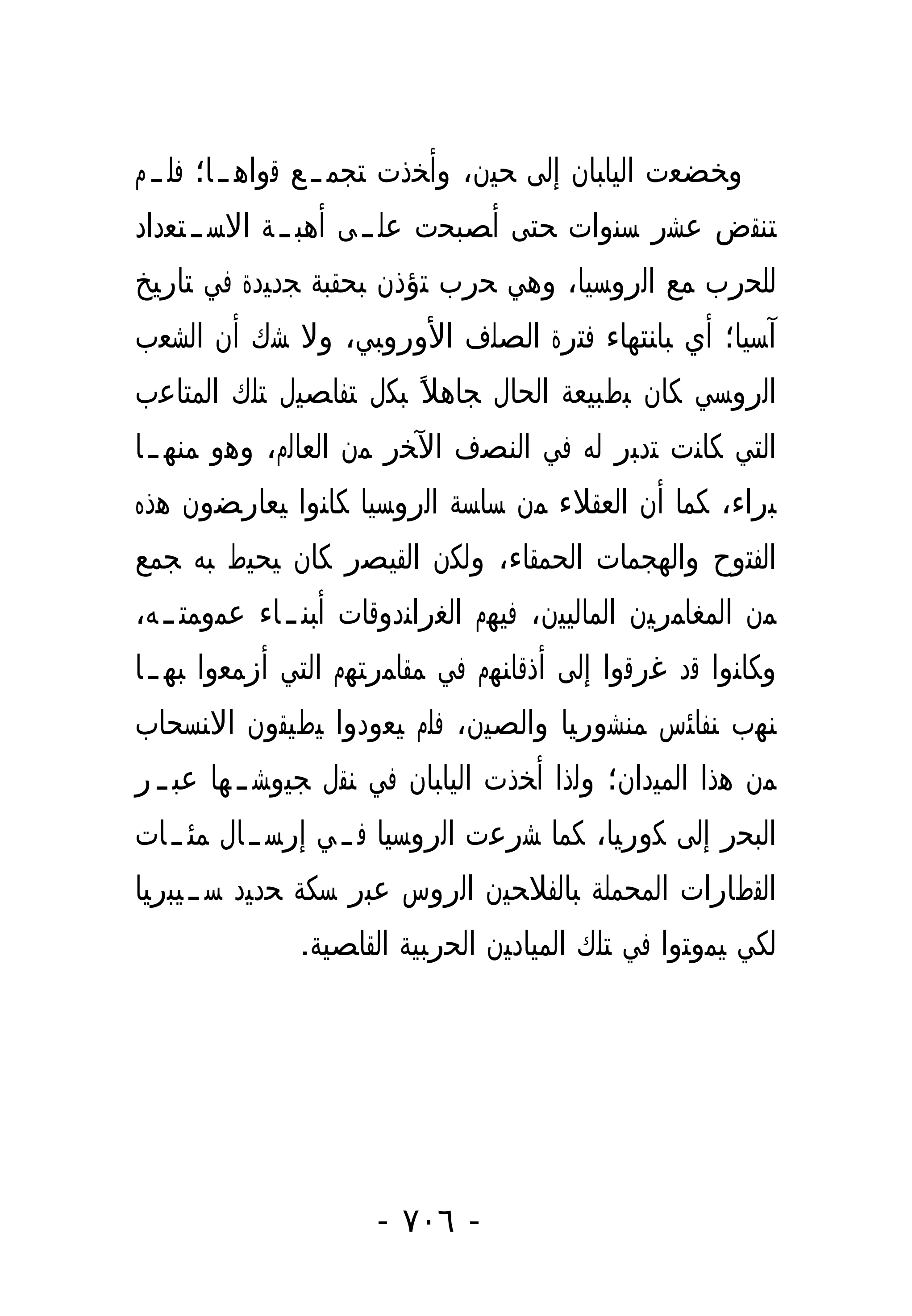


وما لبثت الروسيا وبريطانيا أن حذتا حذو أمريكا، ورأى نبيل عظيم كانت أملاكه تطل على مضيق شيمونوسيكي؛ أن يطلق مدافعه على السفن الأجنبية، فجاءت عمارة حربية من سفن بريطانية وفرنسية وهولندية وأمريكية فدمرت بطارياته، وبددت شمل جنده المقاتلين بالسيوف، وأخيرا جاء أسـطول لهؤلاء الحلفاء في عام ١٨٦٥، فألقى مراسيه خارج كيوتـو، وفرض على اليابان تعديلاً للمعاهدات اضطرها إلـى فـتح أبوابها على مصاريعها للعالم.

أذلت هذه الأحداث اليابانيين إلى أقصى حد؛ فهبوا بهمـة وذكاء مدهش يعملون على رفع ثقافتهم ونظمهم إلى مستوى الدول الأوروبية. ولم يحدث قط في تاريخ العالـم بأسـره أن خطا شعب مثل تلك الخطوة المهولة التي خطتهـا عنـد ذاك اليابان؛ كانت في عام ١٨٦٦ شـعبا يعـيش فـي القـرون الوسطى، ويمثل صورة هزلية خيالية لأشـد أنـواع نظـم الإقطاع "الرومانسي" تطرفًا، على أن شعبها أصبح في عـام ١٨٩٩ مصطبغًا تماما بالطابع الغربي، ويعيش على مستوى أرقى الدول الغربية تقدما، فبددت تماما بذلك اقتنـاع النـاس بأن آسيا كانت تتأخر عن أوروبا تأخرا لا مرد له ولا رجاء في إصلاحه، وجعلت كل تقدم أحرزته أوروبا يبدو بالموازنة بطيئًا متوانيا.



ويضيق المقام هنا دون تفاصيل حرب اليابان مع الصين في عام ١٨٩٥/١٨٩٤، وحسبك أنها دلت على مدى تطبعها بالطابع الغربي؛ إذ دلت على أن لها جيشًا قادرا ذا نظام غربي، وأسطولاً صغيرا، ولكنه سليم. على أن دلالة نهضتها ومغزاها وإن لقيت التقدير من بريطانيا والولايات المتحدة، اللتين شرعتا آنفًا تعاملاتها كدولة أوروبية، إلا أن تلك الدلالة لم تفهمها الدول الكبرى الأخرى المنشغلة في البحث عن "هند" جديدة بقارة آسيا؛ ذلك أن الروسيا كانت تتقدم جنوبا خلال منشوريا إلى شبه جزيرة كوريا، وأن فرنسا قد وطدت أقدامها آنفًا بمنطقتي تونكين وأنام، على حين راحت ألمانيا تتربص كالذئب الجائع باحثة عن مستعمرة لها. واجتمعت الدول الثلاث على منع اليابان من اجتناء أي ثمرة للحرب مع الصين، وكانت منهكة القوى من جراء تلك الحرب، كما أن الدول الثلاث هددتها بالحرب.



وخضعت اليابان إلى حين، وأخذت تجمـع قواهـا؛ فلـم تنقض عشر سنوات حتى أصبحت علـى أهبـة الاسـتعداد للحرب مع الروسيا، وهي حرب تؤذن بحقبة جديدة في تاريخ آسيا؛ أي بانتهاء فترة الصلف الأوروبي، ولا شك أن الشعب الروسي كان بطبيعة الحال جاهلاً بكل تفاصيل تلك المتاعب التي كانت تدبر له في النصف الآخر من العالم، وهو منهـا براء، كما أن العقلاء من ساسة الروسيا كانوا يعارضون هذه الفتوح والهجمات الحمقاء، ولكن القيصر كان يحيط به جمع من المغامرين الماليين، فيهم الغراندوقات أبنـاء عمومتـه، وكانوا قد غرقوا إلى أذقانهم في مقامرتهم التي أزمعوا بهـا نهب نفائس منشوريا والصين، فلم يعودوا يطيقون الانسحاب من هذا الميدان؛ ولذا أخذت اليابان في نقل جيوشـها عبـر البحر إلى كوريا، كما شرعت الروسيا فـي إرسـال مئـات القطارات المحملة بالفلاحين الروس عبر سكة حديد سـيبريا لكي يموتوا في تلك الميادين الحربية القاصية.

وهزم الروس برا وبحرا لسوء قيادتهم، وعدم النزاهة في إمداداتهم. وأقلع الأسطول الروسي ببحـر البلطيـق حـول إفريقية لكي يدمره اليابانيون عن آخره بمضـيق تسوشـيما، وثار العامة في الروسيا، وقد أغضبهم إلى أقصى حد هـذه المذبحة القاصمة التي نزلت بأبنائهم بتلك البلاد القاصية دون مبرر، فاضطر القيصر إلى إنهاء الحرب في عـام ١٩٠٥، فأعاد إلى اليابان النصف الجنوبي من جزيرة سخالين الـذي استولت عليها الروسيا في عام ١٨٧٥، وتخلى عن منشوريا، وتنازل عن كوريا لليابان. لقد أقبلت نهاية اجتيـاح أوروبـا لآسيا، وأخذت أوروبا توقف كل محاولة لها أرادت بها فـي الماضي عجم عود تلك القارة أو سبر أغوارها.

الفصل الرابع والستون

الإمبراطورية البريطانية

في عام ١٩١٤

ربما جاز لنا أن نلحظ هنا في شيء من الإيجاز اخـتلاف طبيعة الأجزاء التي تتكون منها الإمبراطورية البريطانية في عام ١٩١٤، التي أتاحت السفينة البخارية والسكك الحديديـة ضم أجزائها بعضها إلى بعض؛ كانـت ولا تـزال خليطاً سياسيا فريدا في بابه تماما؛ إذ لم ير العالم لها من قبل مثيلاً.

ومركز تلك المجموعـة كلهـا وأول دولـة فيهـا هـي الجمهورية المتوجة المسماة بالمملكة البريطانية المتحدة، التي تحتوي أيضا على أيرلندة (ضد رغبة شطر عظيم من الشعب الأيرلندي[1]). وكانت الأغلبية فـي البرلمـان البريطـاني المكون من البرلمانات المتحدة الثلاثة في إنجلتـرا و"ويلـز" وأسكتلندة وأيرلندة؛ هي التي تعين رئيس الـوزارة ونوعهـا وسياستها، وتحدد ذلك بناء على اعتبارات السياسة البريطانية الداخلية؛ فهذه الوزارة هي الحكومة العليـا الفعالـة، ولهـا سلطات إعلان الحرب، وعقـد الصـلح فـي كـل أرجـاء الإمبراطورية.

([1]) قد تغيرت هذه الحال الآن بالنسبة لأيرلنـدة، فأعلنـت جمهوريـة مستقلة، وأصبح لها برلمان خاص.

ويلي الولايات المتحدة البريطانية فـي ترتيـب الأهميـة السياسية الجمهوريات المتوجة بأستراليا وكندا، ونوفاوندلاند (وهي أقدم الممتلكات البريطانية عـام ١٥٨٣)، ونيوزيلنـدة وجنوب إفريقية، وكلها مستقلة فعلاً، كما أنهـا دول تحكـم نفسها بنفسها في تحالف مع بريطانيا العظمى، ولكن يقيم بكل منها ممثل للتاج تعينه الحكومة المتربعة في دست الحكم.

وبعد ذلك تجئ الإمبراطورية الهندية، وهي صورة مكبرة لإمبراطورية المغولي الأعظم، وقد أصبحت الآن بما فيهـا من ولايات تابعة ومحميات، تمتد من بلوخستان إلى بورمـا، وتضم كذلك محمية عدن، وفي تلك الإمبراطورية الضـخمة يلعب التاج البريطاني ووزارة الهند (تحت رقابة البرلمـان) دور الأسرة التركمانية القديمة.

ثم تجيء مصر؛ ذات المركز الغامض التي لا تزال اسميا جزءا من الإمبراطورية التركية، ولا تزال تحـتفظ بعاهلهـا الخاص وهو الخـديوي، ولكنهـا تحـت حكـم المـوظفين البريطانيين؛ ذلك الحكم الذي يكاد يكون استبداديا، ثم ولايـة السودان المصري الإنجليزي، الذي هـو فـي حـال أشـد غموضا، والذي يحتله ويديره البريطانيون بالاشـتراك مـع الحكومة المصرية (الواقعة تحت الهيمنة البريطانية). ثـم إن

هناك عددا من المجتمعات المستمتعة بالحكم الذاتي إلى حـد ما، منها ما هو إنجليزي الأصل، ومنها ما ليس كذلك، وفيها المجالس التشريعية المنتخبة، والهيئـات التنفيذيـة المعينـة بأوامر ومراسيم مثل مالطة وجمايكا وجزائر بهاما وبرمودة، وبعد ذلك مستعمرات التاج، التي قـد يقتـرب فيهـا حكـم الحكومة البريطانية (عن طريق وزارة المستعمرات) من نوع الحكم الاستبدادي المطلق، كما هو الشأن في سيلان وترينيداد وفيجي (التي كان لها مجلس معين)، وجبل طـارق وسـنت هيلانة (اللتين لها حاكم)، ثم مساحات متراميـة مـن أقـاليم مدارية (بوجه خاص)؛ وهي أقاليم لإنتاج المواد الخام، لهـا مجتمعات ضعيفة سياسيا ومتأخرة حضاريا، وكلها محميـات اسمية، يديرها مندوب سامٍ يعين فوق حكام من الأهالي (شأن باسوتولاند)، أو فوق شركة تستمتع بمرسوم ملكي (كما هـو الحال في روديسيا). وكانت وزارة الخارجيـة فـي بعـض الحالات، ووزارة المستعمرات في بعضها الآخـر، ووزارة الهند أحيانًا؛ هي التي عملت علـى الحصـول علـى تلـك الممتلكات التي تقع تحت هذا الصنف الأخير، الذي يعد مـن حيث المركز أدنى الممتلكات شأنًا وتحديـدا، ولكـن وزارة المستعمرات أصبحت الآن مسئولة عنها في معظم الحالات.

لعله قد اتضح الآن مما تقدم أن وزارة واحدة لم تنضم قط إلى الإمبراطورية البريطانية كلها، ولا تفرد لإدراكها عقل واحد؛ فهي خليط من أجزاء صغيرة كبرت أو فلذات تراكمت بعضها فوق بعض؛ خليط يختلف تماما عن كل شيء حمل اسم الإمبراطور قبلاً، كما أنها أصبحت تضمن قيام سلام وأمن متسعي الرقعة؛ من أجل ذلك تحملها وناصرها كثير من الشعوب التابعة لها، على الرغم مما أبداه موظفوها من مظالم وعدم كفاية، وعلى الرغم مما تجلى في جمهورها بريطانيا نفسها من إهمال وعدم رعاية للأمانة المنوطة بعنقه. والإمبراطورية البريطانية تمتد أملاكها وراء البحار شأن الإمبراطورية الأثينية؛ فطرقها طرق بحرية، كما أن همزة الوصل بين أطرافها هي الأسطول البريطاني؛ فإن تماسكها ككل الإمبراطوريات يعتمد كل الاعتماد على وسائل المواصلات. وقد أدى تطور فنون الملاحة وبناء السفن والبواخر بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر إلى إمكان قيام سلام مناسب على يديها؛ هو السلام البريطاني (Pax Britanica)، كما أن ظهور تطورات جديدة في وسائل النقل الجوي أو البري السريع ربما أفضت في أي لحظة من اللحظات إلى حرمانها تلك المزية، وجعلها غير مناسبة.

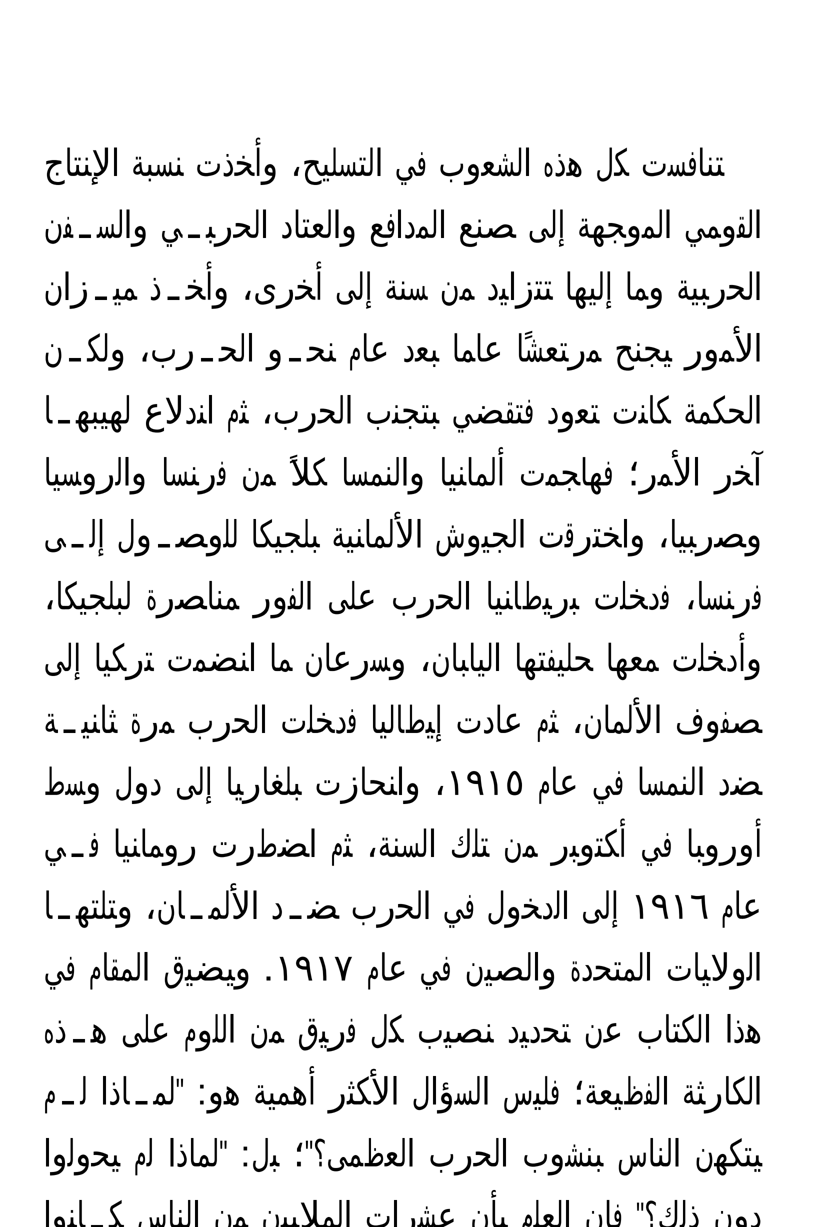
الفصل الخامس والستون

عصر التسلح في أوروبا والحرب العظمى

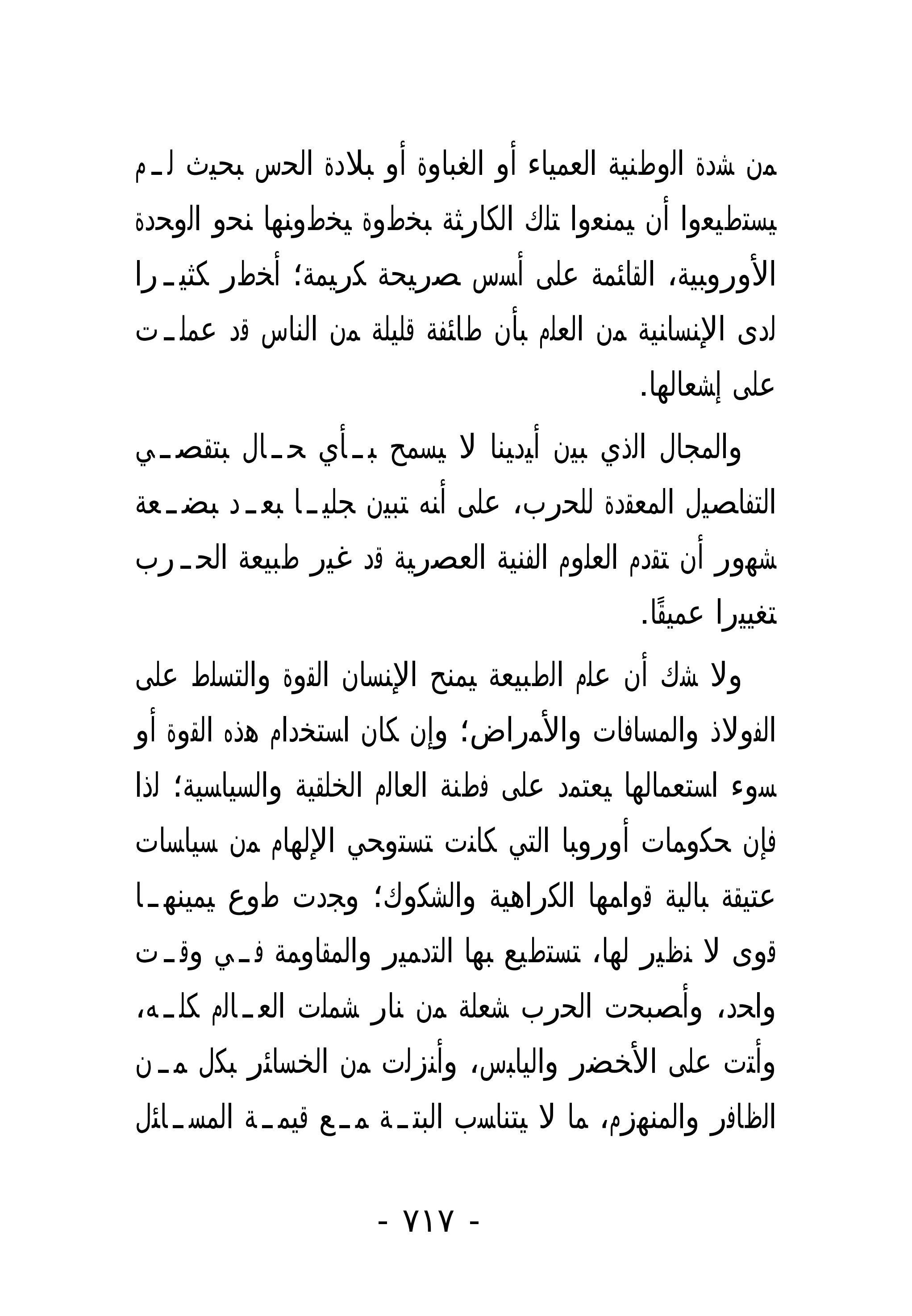
١٩١٤-١٩٨١

إن تقدم العلوم الطبيعية والمادية الذي تولدت عنه جمهورية أمريكا الهائلة هذه التي تعتمد على الزورق البخاري وسكة الحديد، وتمخض عن قيام الإمبراطورية البريطانية المقلقة والقائمة على الباخرة، وامتدادها في كل أرجاء العالم؛ قد أفضى إلى قيام نتائج أخرى مختلفة عن هذه تماما في الأمم المزدحمة بالسكان في قارة أوروبا؛ ذلك أنها وجدت نفسها محصورة داخل تخوم وضعت في أثناء عصر الحصان والطريق البري، وأن كل أمل لها في التوسع وراء البحار قد سبقتها إليه بريطانيا العظمى إلى حد كبير. وكانت الروسيا هي الوحيدة التي وجدت أمامها سبيلاً إلى التوسع شرقا؛ فمدت عبر سيبريا خطًا حديديا عظيما ما زالت به حتى تورطت في القتال مع اليابان، ثم تقدمت جنوبا بشرق نحو حدود فارس والهند؛ فأزعجت بريطانيا بذلك. أما بقية الدول الأوروبية؛ فكانت في حال من ازدحام السكان متزايدة التفاقم، فاضطروا إلى تنظيم شئونهم على أساس أرحب، رغبة منهم في الوصول إلى أقصى ما في الحياة الإنسانية وجهازها من إمكانيات؛ وذلك إما بإقامة ضرب من الاتحاد الإرادي، وإما بالخضوع لاتحاد تفرضه عليهم دولة أخرى متسلطة. وقد مالت الآراء العصرية في معظم الدول إلى إنشاء تلك الاتحادات الإرادية، ولكن التقاليد السياسية كانت تدفع بكل قواها قارة أوروبا نحو النوع الثاني من الاتحاد.

كان سقوط إمبراطورية نابليون الثالث، وتأسيس الإمبراطورية الألمانية الجديدة؛ إشارة وجهت الناس (وهم بين خائف وجل، وراجٍ مستبشر) نحو فكرة توحيد أوروبا كلها بزعامة الألمان، وانقضت أربعة وأربعون عاما من السلم القلق المضطرب، كانت سياسة أوروبا في أثنائها تتركز حول ذلك الاحتمال، ولكن فرنسا منافس ألمانيا الدائم على العظمة في أوروبا منذ أيام تقسيم إمبراطورية شارلمان، حاولت أن تصلح من ضعفها الطبيعي بعقد محالفة وثيقة مع الروسيا، كما أن ألمانيا ربطت نفسها بأوثق رباط بالإمبراطورية النمساوية (التي زال عنها اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ أيام نابليون الأول)، كما ربطت نفسها إلى حد أقل بمملكة إيطاليا الحديثة النشوء. وظلت بريطانيا العظمى في البداية مترددة كعادتها تقدم رجلاً في شئون أوروبا وتؤخر أخرى، ولكنها اضطرت بالتدريج إلى الارتباط الوثيق بالفريق الفرنسي الروسي بسبب تضخم الأسطول الألماني تضخما بادي العدوان. وقد أفضت أطماع الإمبراطور غليوم الثاني (١٨٨٨-١٩١٨) في العظمة الباذخة إلى اندفاع ألمانيا قبل الأوان في مغامرات وراء البحار، انتهت إلى انتظام اليابان والولايات المتحدة مع بريطانيا العظمى في دائرة أعدائها.



تنافست كل هذه الشعوب في التسليح، وأخذت نسبة الإنتاج القومي الموجهة إلى صنع المدافع والعتاد الحربي والسفن الحربية وما إليها تتزايد من سنة إلى أخرى، وأخذ ميزان الأمور يجنح مرتعشًا عاما بعد عام نحو الحرب، ولكن الحكمة كانت تعود فتقضي بتجنب الحرب، ثم اندلاع لهيبها آخر الأمر؛ فهاجمت ألمانيا والنمسا كلاً من فرنسا والروسيا وصربيا، واخترقت الجيوش الألمانية بلجيكا للوصول إلى فرنسا، فدخلت بريطانيا الحرب على الفور مناصرة لبلجيكا، وأدخلت معها حليفتها اليابان، وسرعان ما انضمت تركيا إلى صفوف الألمان، ثم عادت إيطاليا فدخلت الحرب مرة ثانية ضد النمسا في عام ١٩١٥، وانحازت بلغاريا إلى دول وسط أوروبا في أكتوبر من تلك السنة، ثم اضطرت رومانيا في عام ١٩١٦ إلى الدخول في الحرب ضد الألمان، وتلتها الولايات المتحدة والصين في عام ١٩١٧. ويضيق المقام في هذا الكتاب عن تحديد نصيب كل فريق من اللوم على هذه الكارثة الفظيعة؛ فليس السؤال الأكثر أهمية هو: "لماذا لم يتكهن الناس بنشوب الحرب العظمى؟"؛ بل: "لماذا لم يحولوا دون ذلك؟" فإن العلم بأن عشرات الملايين من الناس كانوا



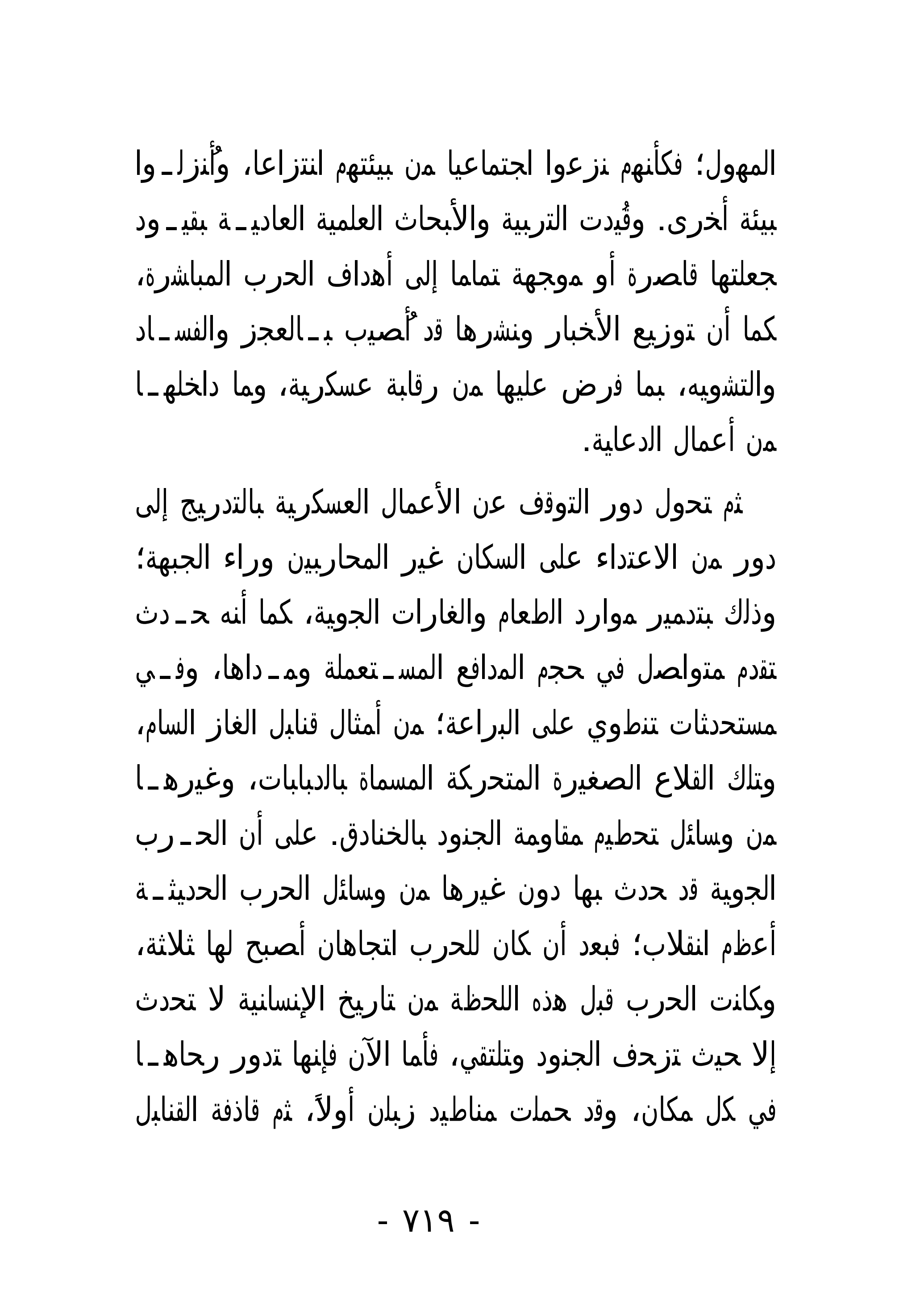
من شدة الوطنية العمياء أو الغباوة أو بلادة الحس بحيث لـم يستطيعوا أن يمنعوا تلك الكارثة بخطوة يخطونها نحو الوحدة الأوروبية، القائمة على أسس صريحة كريمة؛ أخطر كثيـرا لدى الإنسانية من العلم بأن طائفة قليلة من الناس قد عملـت على إشعالها.

والمجال الذي بين أيدينا لا يسمح بـأي حـال بتقصـي التفاصيل المعقدة للحرب، على أنه تبين جليـا بعـد بضـعة شهور أن تقدم العلوم الفنية العصرية قد غير طبيعة الحـرب تغييرا عميقًا.

ولا شك أن علم الطبيعة يمنح الإنسان القوة والتسلط على الفولاذ والمسافات والأمراض؛ وإن كان استخدام هذه القوة أو سوء استعمالها يعتمد على فطنة العالم الخلقية والسياسية؛ لذا فإن حكومات أوروبا التي كانت تستوحي الإلهام من سياسات عتيقة بالية قوامها الكراهية والشكوك؛ وجدت طوع يمينهـا قوى لا نظير لها، تستطيع بها التدمير والمقاومة فـي وقـت واحد، وأصبحت الحرب شعلة من نار شملت العـالم كلـه، وأتت على الأخضر واليابس، وأنزلت من الخسائر بكل مـن الظافر والمنهزم، ما لا يتناسب البتـة مـع قيمـة المسـائل

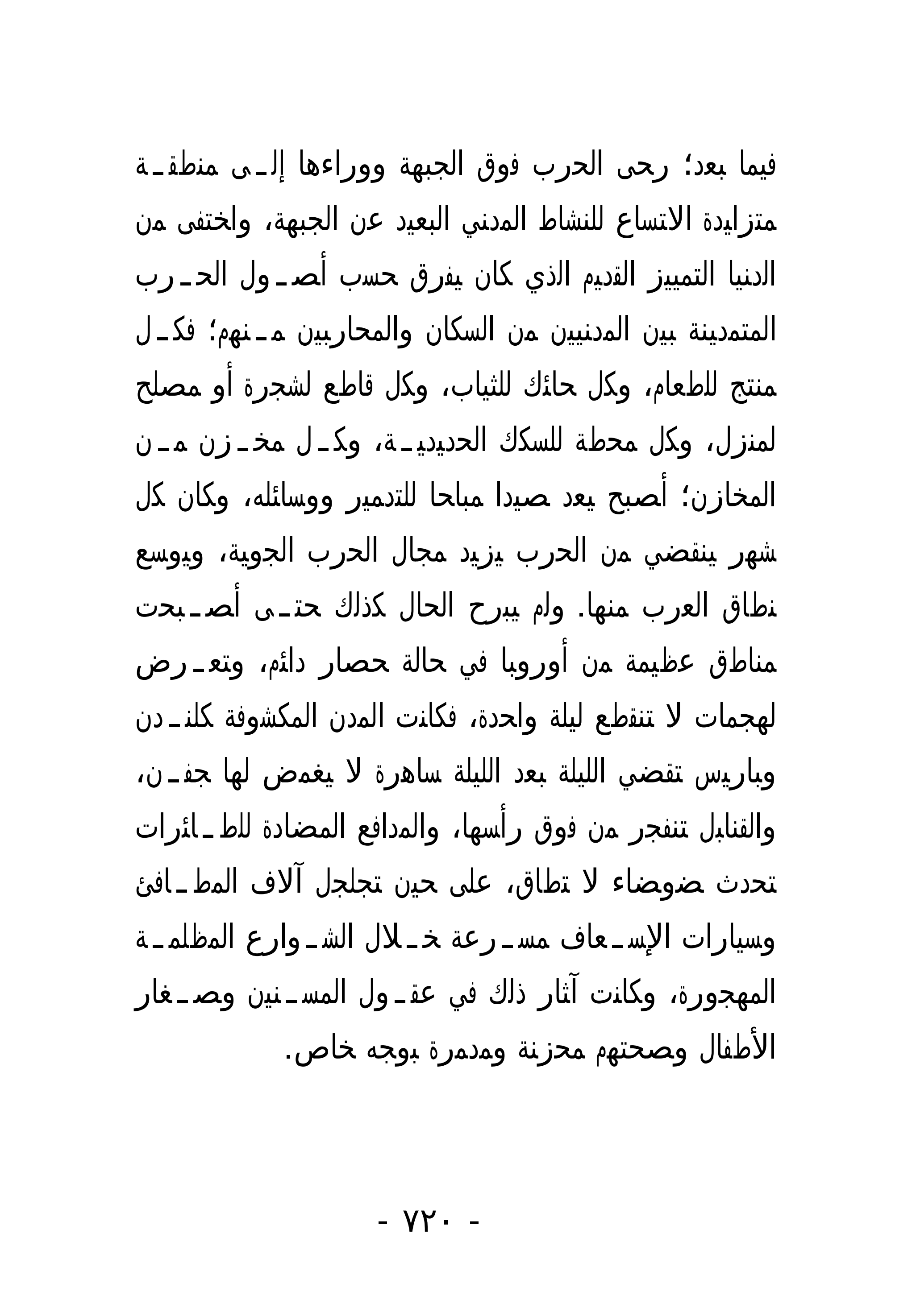
المتنازع عليها، وابتدأت الحرب بمرحلة من الاندفاع الهائـل من الألمان نحو باريس، قابله في الشرق اجتيـاح الـروس لبروسيا الشرقية، ولكن هذين الهجومين صدا، ورد المهـاجم على عقبيه في الحالين، ثم تطورت قـوة الـدفاع؛ فأُدخلـت التحسينات السريعة على حرب الخنادق، حتـى اضـطرت جيوش الفريقين أن تظل ردحا من الزمن في خنادق تمتد في أوروبا من أقصاها إلى أقصاها، دون أن يمكنها القيام بـأي تقدم بغير تكبد خسائر فادحة، وكانت جيوش كل من الطرفين تعد بالملايين، وقد نظم من ورائهم السكان بكامل عددهم بغية إمداد جبهة القتال بالميرة (الطعام) والذخيرة؛ فكأن كل أنواع النشاط الإنتاجي قد انقطعت تقريبا إلا ما أسهم بنصيب فـي العمليات الحربية.

وأُخذ كل شباب أوروبا ورجالها القادرون على العمل إلى الجيوش أو الأساطيل، أو إلى المصانع التي أُنشـئت آنـذاك على الفور لخدمة الجيش والأسطول، وحلـت النسـاء فـي الصناعة محل الرجال إلى درجة هائلة، وأغلـب الظـن أن أكثر من نصف السكان في الدول الأوروبية المتحاربـة قـد غيروا أعمالهم ومهنهم تغييرا تاما في أثنـاء ذلـك الكفـاح

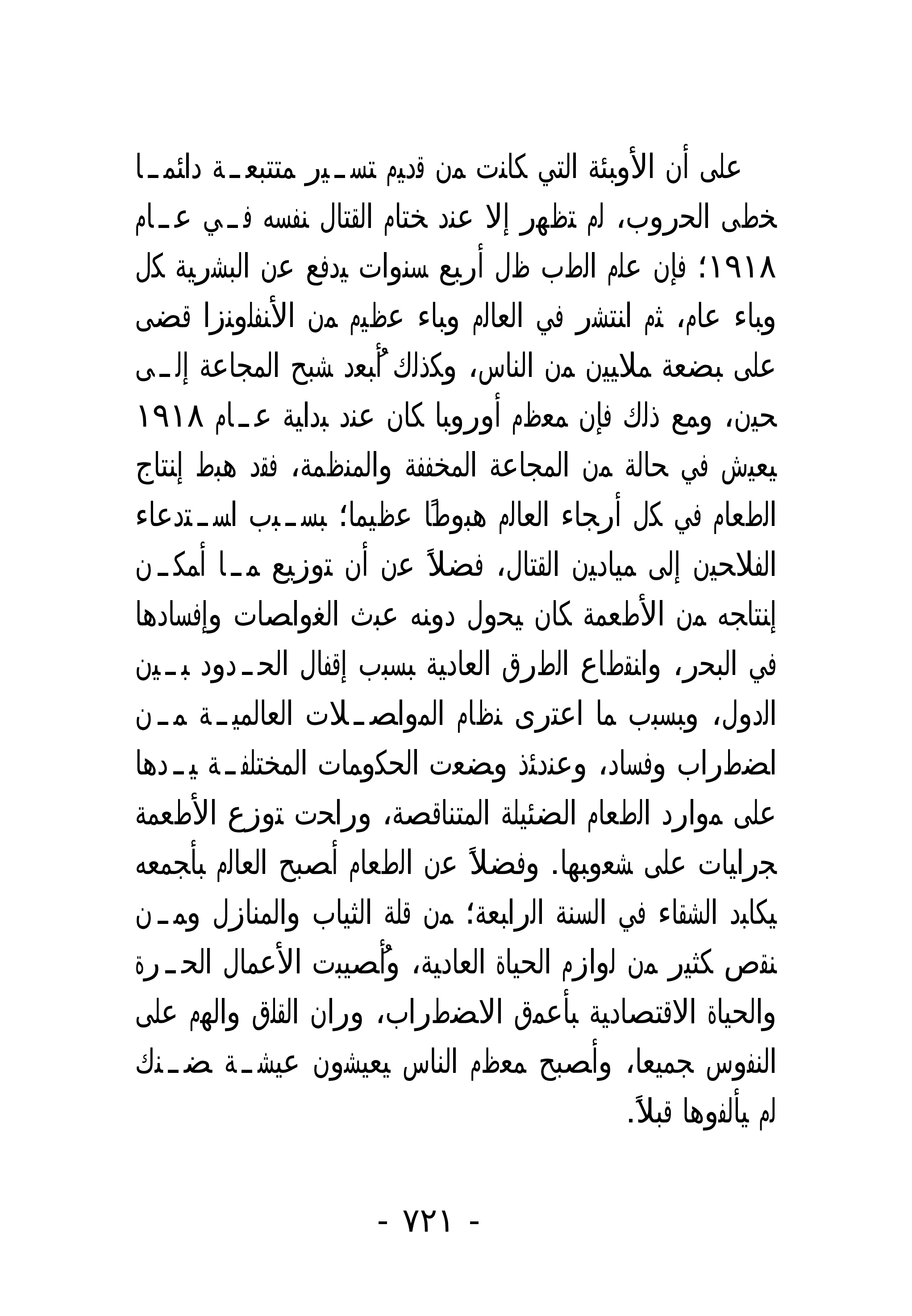


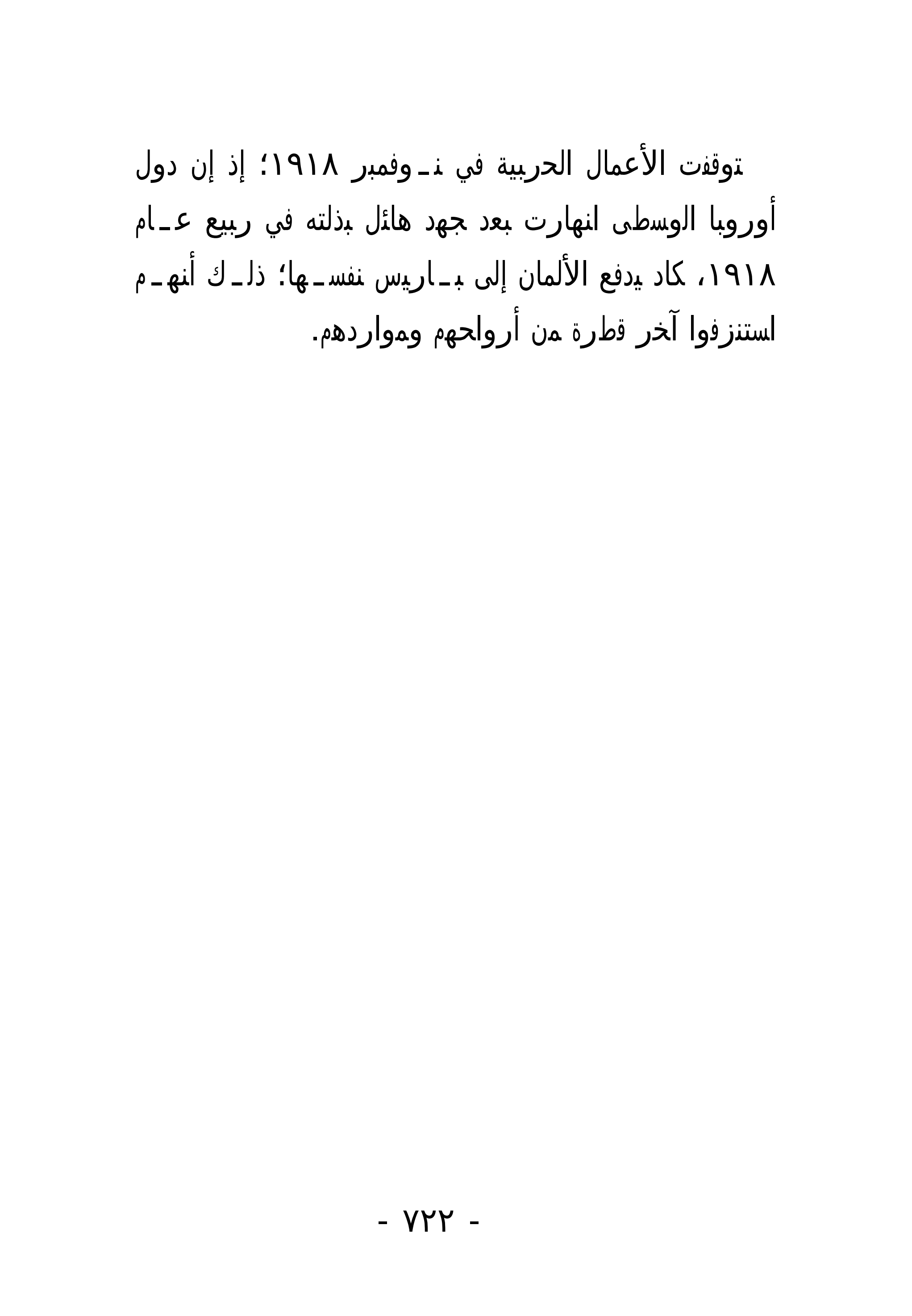
المهول؛ فكأنهم نزعوا اجتماعيا من بيئتهم انتزاعا، وأُنزلوا بيئة أخرى. وقُيدت التربية والأبحاث العلمية العادية بقيود جعلتها قاصرة أو موجهة تماما إلى أهداف الحرب المباشرة، كما أن توزيع الأخبار ونشرها قد أُصيب بالعجز والفساد والتشويه، بما فرض عليها من رقابة عسكرية، وما داخلها من أعمال الدعاية.

ثم تحول دور التوقف عن الأعمال العسكرية بالتدريج إلى دور من الاعتداء على السكان غير المحاربين وراء الجبهة؛ وذلك بتدمير موارد الطعام والغارات الجوية، كما أنه حدث تقدم متواصل في حجم المدافع المستعملة ومداها، وفي مستحدثات تنطوي على البراعة؛ من أمثال قنابل الغاز السام، وتلك القلاع الصغيرة المتحركة المسماة بالدبابات، وغيرها من وسائل تحطيم مقاومة الجنود بالخنادق. على أن الحرب الجوية قد حدث بها دون غيرها من وسائل الحرب الحديثة أعظم انقلاب؛ فبعد أن كان للحرب اتجاهان أصبح لها ثلاثة، وكانت الحرب قبل هذه اللحظة من تاريخ الإنسانية لا تحدث إلا حيث تزحف الجنود وتلتقي، فأما الآن فإنها تدور رحاها في كل مكان، وقد حملت مناطيد زبلن أولاً، ثم قاذفة القنابل

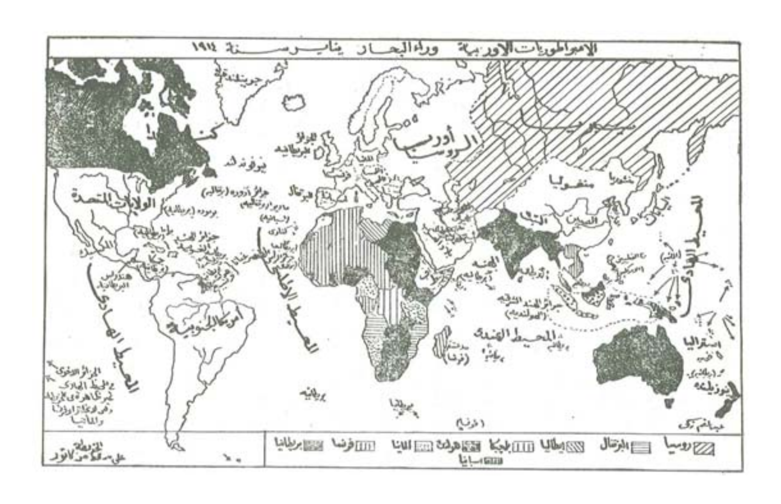


فيما بعد؛ رحى الحرب فوق الجبهة ووراءها إلى منطقة متزايدة الاتساع للنشاط المدني البعيد عن الجبهة، واختفى من الدنيا التمييز القديم الذي كان يفرق حسب أصول الحرب المتمدينة بين المدنيين من السكان والمحاربين منهم؛ فكل منتج للطعام، وكل حائك للثياب، وكل قاطع لشجرة أو مصلح لمنزل، وكل محطة للسكك الحديدية، وكل مخزن من المخازن؛ أصبح يعد صيدا مباحا للتدمير ووسائله، وكان كل شهر ينقضي من الحرب يزيد مجال الحرب الجوية، ويوسع نطاق العرب منها. ولم يبرح الحال كذلك حتى أصبحت مناطق عظيمة من أوروبا في حالة حصار دائم، وتعرض لهجمات لا تنقطع ليلة واحدة، فكانت المدن المكشوفة كلندن وباريس تقضي الليلة بعد الليلة ساهرة لا يغمض لها جفن، والقنابل تنفجر من فوق رأسها، والمدافع المضادة للطائرات تحدث ضوضاء لا تطاق، على حين تجلجل آلاف المطافئ وسيارات الإسعاف مسرعة خلال الشوارع المظلمة المهجورة، وكانت آثار ذلك في عقول المسنين وصغار الأطفال وصحتهم محزنة ومدمرة بوجه خاص.


على أن الأوبئة التي كانت من قديم تسـير متتبعـة دائمـا خطى الحروب، لم تظهر إلا عند ختام القتال نفسه فـي عـام ١٩١٨؛ فإن علم الطب ظل أربع سنوات يدفع عن البشرية كل وباء عام، ثم انتشر في العالم وباء عظيم من الأنفلونزا قضى على بضعة ملايين من الناس، وكذلك أُبعد شبح المجاعة إلـى حين، ومع ذلك فإن معظم أوروبا كان عند بداية عـام ١٩١٨ يعيش في حالة من المجاعة المخففة والمنظمة، فقد هبط إنتاج الطعام في كل أرجاء العالم هبوطًا عظيما؛ بسـبب اسـتدعاء الفلاحين إلى ميادين القتال، فضلاً عن أن توزيع مـا أمكـن إنتاجه من الأطعمة كان يحول دونه عبث الغواصات وإفسادها في البحر، وانقطاع الطرق العادية بسبب إقفال الحـدود بـين الدول، وبسبب ما اعترى نظام المواصـلات العالميـة مـن اضطراب وفساد، وعندئذ وضعت الحكومات المختلفـة يـدها على موارد الطعام الضئيلة المتناقصة، وراحت توزع الأطعمة جرايات على شعوبها. وفضلاً عن الطعام أصبح العالم بأجمعه يكابد الشقاء في السنة الرابعة؛ من قلة الثياب والمنازل ومـن نقص كثير من لوازم الحياة العادية، وأُصيبت الأعمال الحـرة والحياة الاقتصادية بأعمق الاضطراب، وران القلق والهم على النفوس جميعا، وأصبح معظم الناس يعيشون عيشـة ضـنك لم يألفوها قبلاً.

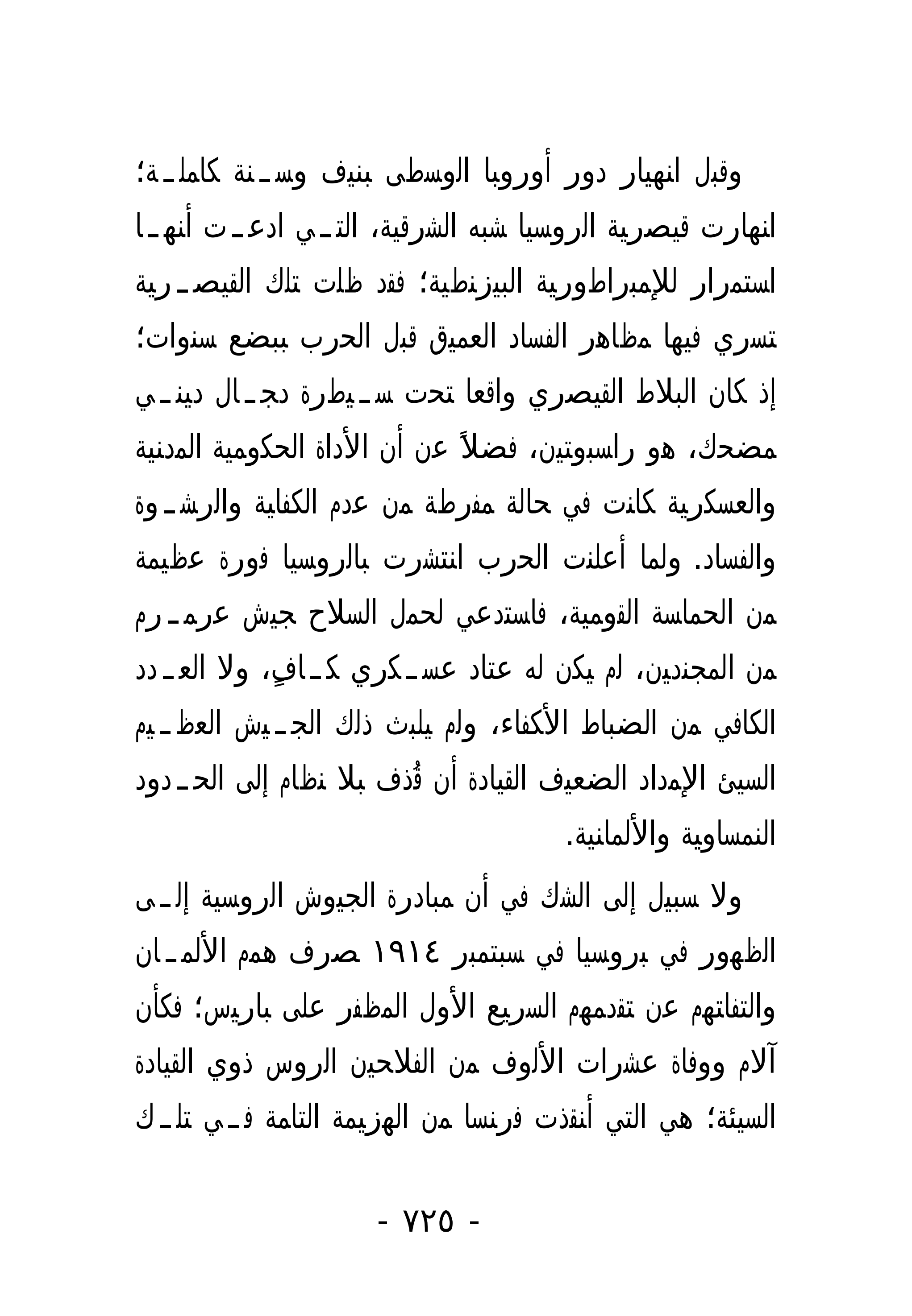


توقفت الأعمال الحربية في نـوفمبر ١٩١٨؛ إذ إن دول أوروبا الوسطى انهارت بعد جهد هائل بذلته في ربيع عـام ١٩١٨، كاد يدفع الألمان إلى بـاريس نفسـها؛ ذلـك أنهـم استنزفوا آخر قطرة من أرواحهم ومواردهم.


الإمبراطوريات الأوربية وراء البحار يناير سنة ١٩١٤
أوربا
الروسيا
منغوليا
التبت
الصين
الهند
الولايات المتحدة
أمريكا الجنوبية
المحيط الأطلسي
المحيط الهادي
المحيط الهندي
أستراليا
نيوزيلنده
روسيا
البرتغال
إيطاليا
بلجيكا
هولندة
ألمانيا
فرنسا
بريطانيا
إسبانيا

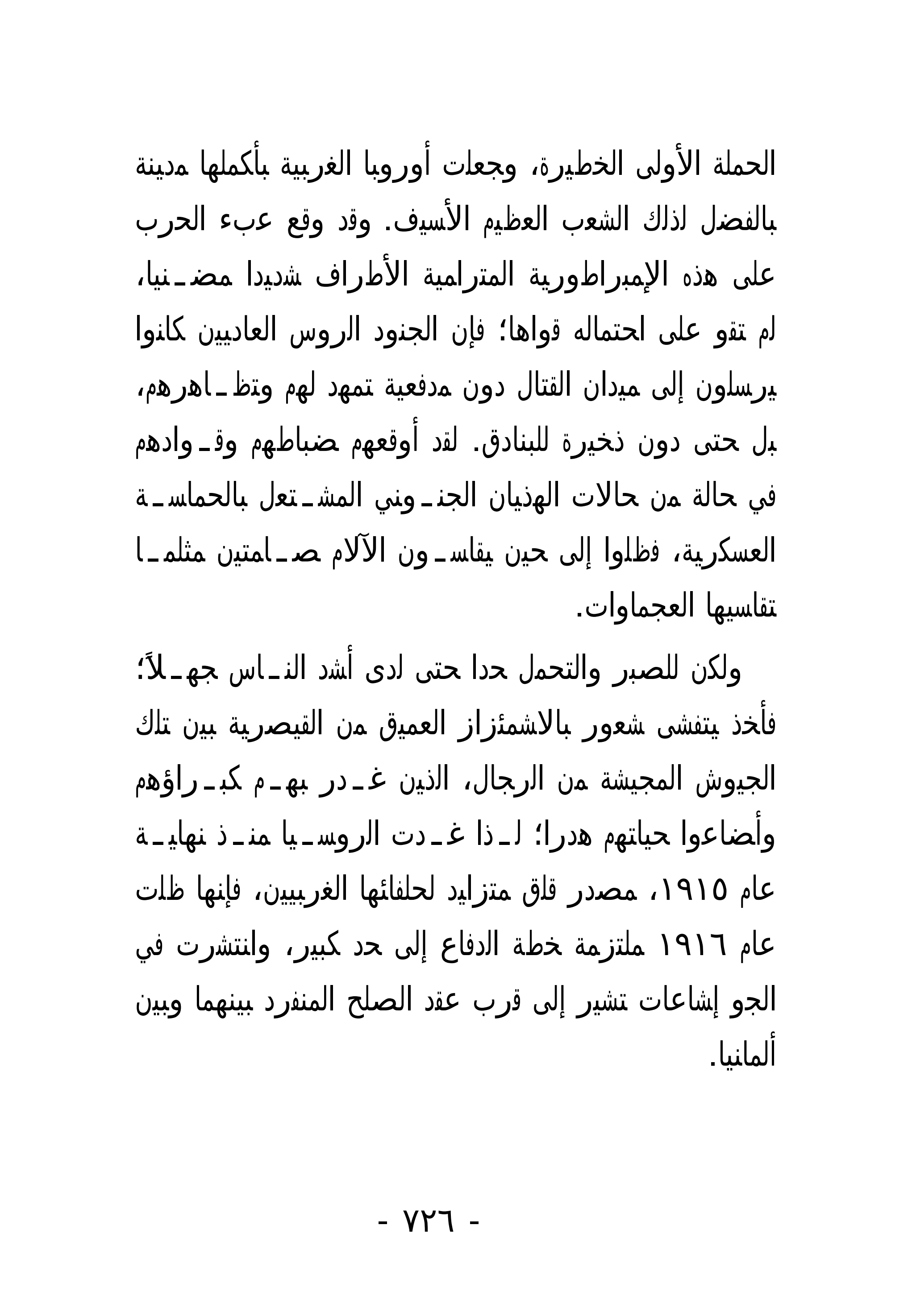
الفصل السادس والستون

النظام الجديد بالروسيا



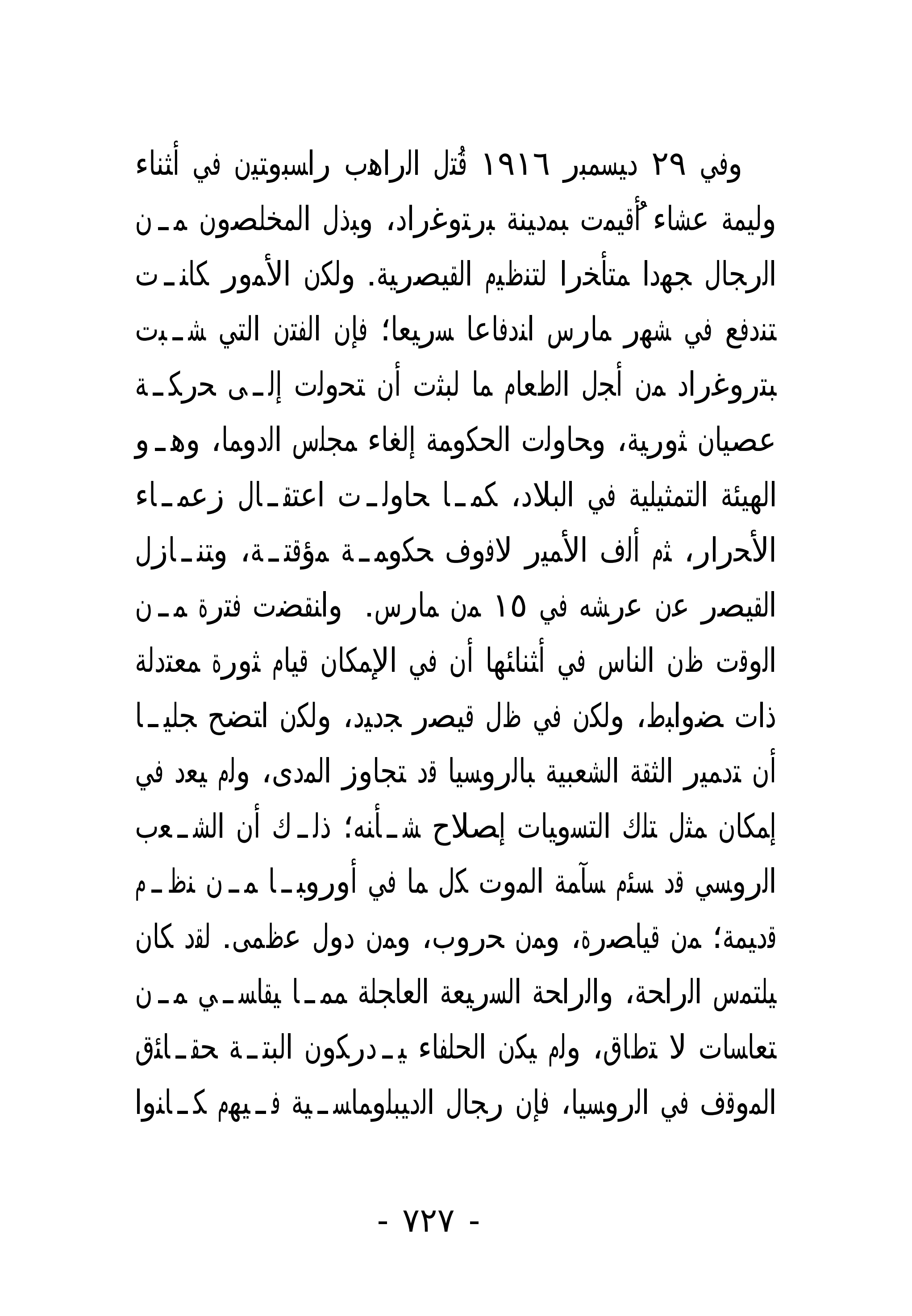
وقبل انهيار دور أوروبا الوسطى بنيف وسـنة كاملـة؛ انهارت قيصرية الروسيا شبه الشرقية، التـي ادعـت أنهـا استمرار للإمبراطورية البيزنطية؛ فقد ظلت تلك القيصـرية تسري فيها مظاهر الفساد العميق قبل الحرب ببضع سنوات؛ إذ كان البلاط القيصري واقعا تحت سـيطرة دجـال دينـي مضحك، هو راسبوتين، فضلاً عن أن الأداة الحكومية المدنية والعسكرية كانت في حالة مفرطة من عدم الكفاية والرشـوة والفساد. ولما أعلنت الحرب انتشرت بالروسيا فورة عظيمة من الحماسة القومية، فاستدعي لحمل السلاح جيش عرمـرم من المجندين، لم يكن له عتاد عسـكري كـافٍ، ولا العـدد الكافي من الضباط الأكفاء، ولم يلبث ذلك الجـيش العظـيم السيئ الإمداد الضعيف القيادة أن قُذف بلا نظام إلى الحـدود النمساوية والألمانية.

ولا سبيل إلى الشك في أن مبادرة الجيوش الروسية إلـى الظهور في بروسيا في سبتمبر ١٩١٤ صرف همم الألمـان والتفاتهم عن تقدمهم السريع الأول المظفر على باريس؛ فكأن آلام ووفاة عشرات الألوف من الفلاحين الروس ذوي القيادة السيئة؛ هي التي أنقذت فرنسا من الهزيمة التامة فـي تلـك

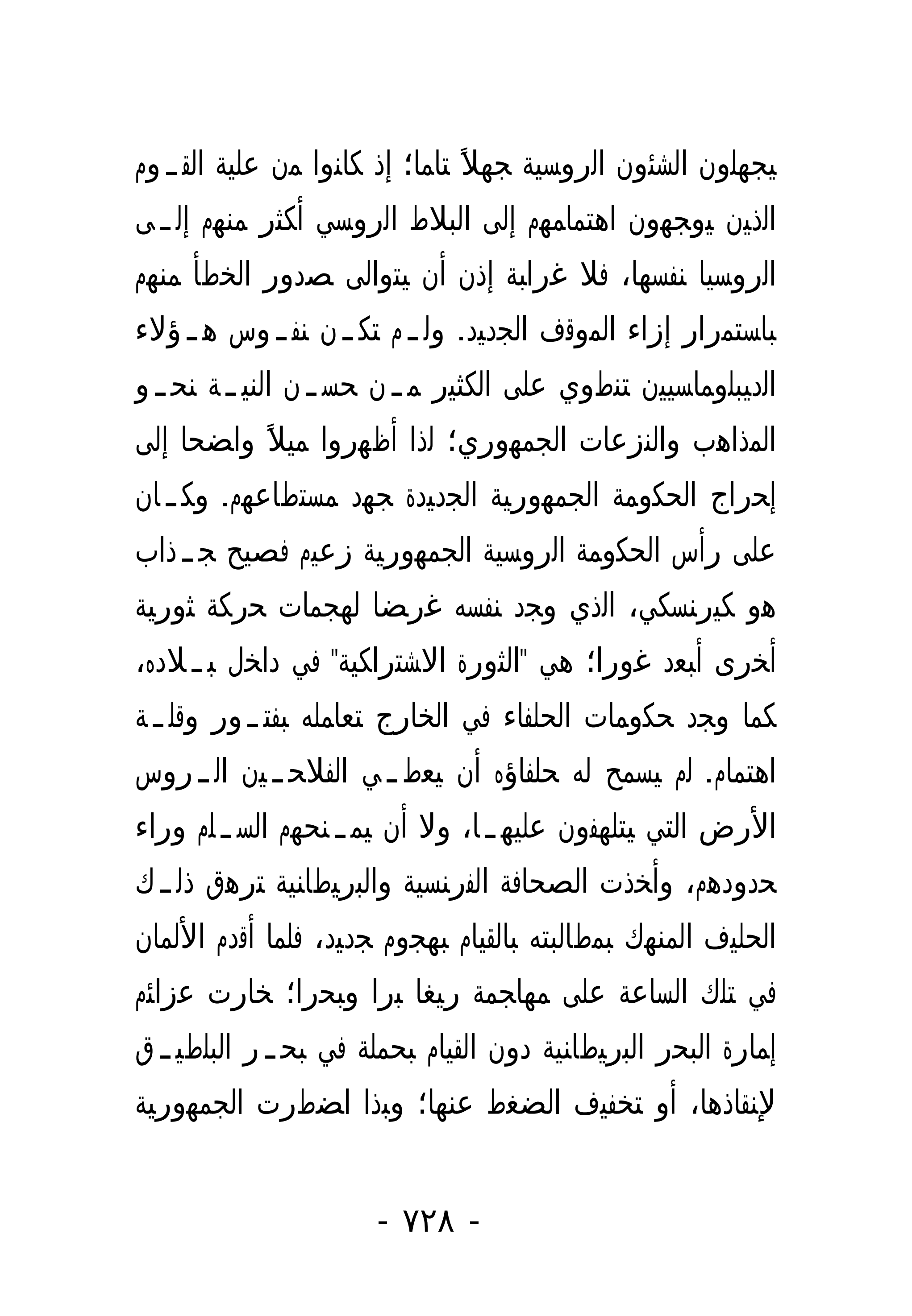


الحملة الأولى الخطيرة، وجعلت أوروبا الغربية بأكملها مدينة بالفضل لذلك الشعب العظيم الأسيف. وقد وقع عبء الحرب على هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف شديدا مضـنيا، لم تقو على احتماله قواها؛ فإن الجنود الروس العاديين كانوا يرسلون إلى ميدان القتال دون مدفعية تمهد لهم وتظـاهرهم، بل حتى دون ذخيرة للبنادق. لقد أوقعهم ضباطهم وقـوادهم في حالة من حالات الهذيان الجنـوني المشـتعل بالحماسـة العسكرية، فظلوا إلى حين يقاسـون الآلام صـامتين مثلمـا تقاسيها العجماوات.

ولكن للصبر والتحمل حدا حتى لدى أشد النـاس جهـلاً؛ فأخذ يتفشى شعور بالاشمئزاز العميق من القيصرية بين تلك الجيوش المجيشة من الرجال، الذين غـدر بهـم كبـراؤهم وأضاعوا حياتهم هدرا؛ لـذا غـدت الروسـيا منـذ نهايـة عام ١٩١٥، مصدر قلق متزايد لحلفائها الغربيين، فإنها ظلت عام ١٩١٦ ملتزمة خطة الدفاع إلى حد كبير، وانتشرت في الجو إشاعات تشير إلى قرب عقد الصلح المنفرد بينهما وبين ألمانيا.



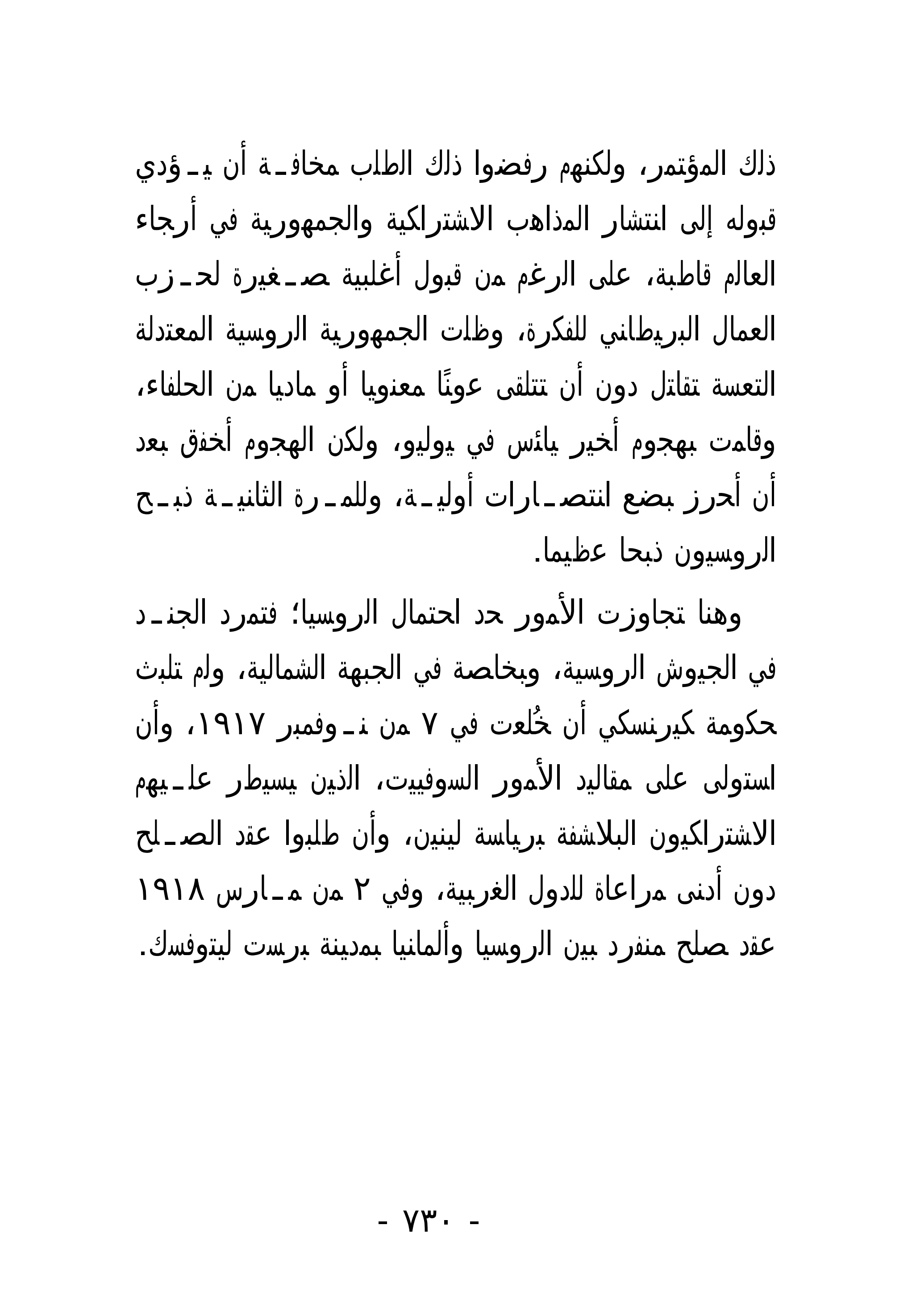
وفي ٢٩ ديسمبر ١٩١٦ قُتل الراهب راسبوتين في أثناء وليمة عشاء أُقيمت بمدينة بترغراد، وبذل المخلصون من الرجال جهدا متأخرا لتنظيم القيصرية. ولكن الأمور كانت تندفع في شهر مارس اندفاعا سريعا؛ فإن الفتن التي شبت بتروغراد من أجل الطعام ما لبثت أن تحولت إلى حركة عصيان ثورية، وحاولت الحكومة إلغاء مجلس الدوما، وهو الهيئة التمثيلية في البلاد، كما حاولت اعتقال زعماء الأحرار، ثم ألف الأمير لافوف حكومة مؤقتة، وتنازل القيصر عن عرشه في ١٥ من مارس. وانقضت فترة من الوقت ظن الناس في أثنائها أن في الإمكان قيام ثورة معتدلة ذات ضوابط، ولكن في ظل قيصر جديد، ولكن اتضح جليا أن تدمير الثقة الشعبية بالروسيا قد تجاوز المدى، ولم يعد في إمكان مثل تلك التسويات إصلاح شأنه؛ ذلك أن الشعب الروسي قد سئم سآمة الموت كل ما في أوروبا من نظم قديمة؛ من قياصرة، ومن حروب، ومن دول عظمى. لقد كان يلتمس الراحة، والراحة السريعة العاجلة مما يقاسي من تعاسات لا تطاق، ولم يكن الحلفاء يدركون البتة حقائق الموقف في الروسيا، فإن رجال الديبلوماسية فيهم كانوا



يجهلون الشئون الروسية جهلاً تاما؛ إذ كانوا من علية القـوم الذين يوجهون اهتمامهم إلى البلاط الروسي أكثر منهم إلـى الروسيا نفسها، فلا غرابة إذن أن يتوالى صدور الخطأ منهم باستمرار إزاء الموقف الجديد. ولـم تكـن نفـوس هـؤلاء الدبلوماسيين تنطوي على الكثير مـن حسـن النيـة نحـو المذاهب والنزعات الجمهوري؛ لذا أظهروا ميلاً واضحا إلى إحراج الحكومة الجمهورية الجديدة جهد مستطاعهم. وكـان على رأس الحكومة الروسية الجمهورية زعيم فصيح جـذاب هو كيرنسكي، الذي وجد نفسه غرضا لهجمات حركة ثورية أخرى أبعد غورا؛ هي "الثورة الاشتراكية" في داخل بـلاده، كما وجد حكومات الحلفاء في الخارج تعامله بفتـور وقلـة اهتمام. لم يسمح له حلفاؤه أن يعطـي الفلاحـين الـروس الأرض التي يتلهفون عليهـا، ولا أن يمـنحهم السـلام وراء حدودهم، وأخذت الصحافة الفرنسية والبريطانية ترهق ذلـك الحليف المنهك بمطالبته بالقيام بهجوم جديد، فلما أقدم الألمان في تلك الساعة على مهاجمة ريغا برا وبحرا؛ خارت عزائم إمارة البحر البريطانية دون القيام بحملة في بحـر البلطيـق لإنقاذها، أو تخفيف الضغط عنها؛ وبذا اضطرت الجمهورية

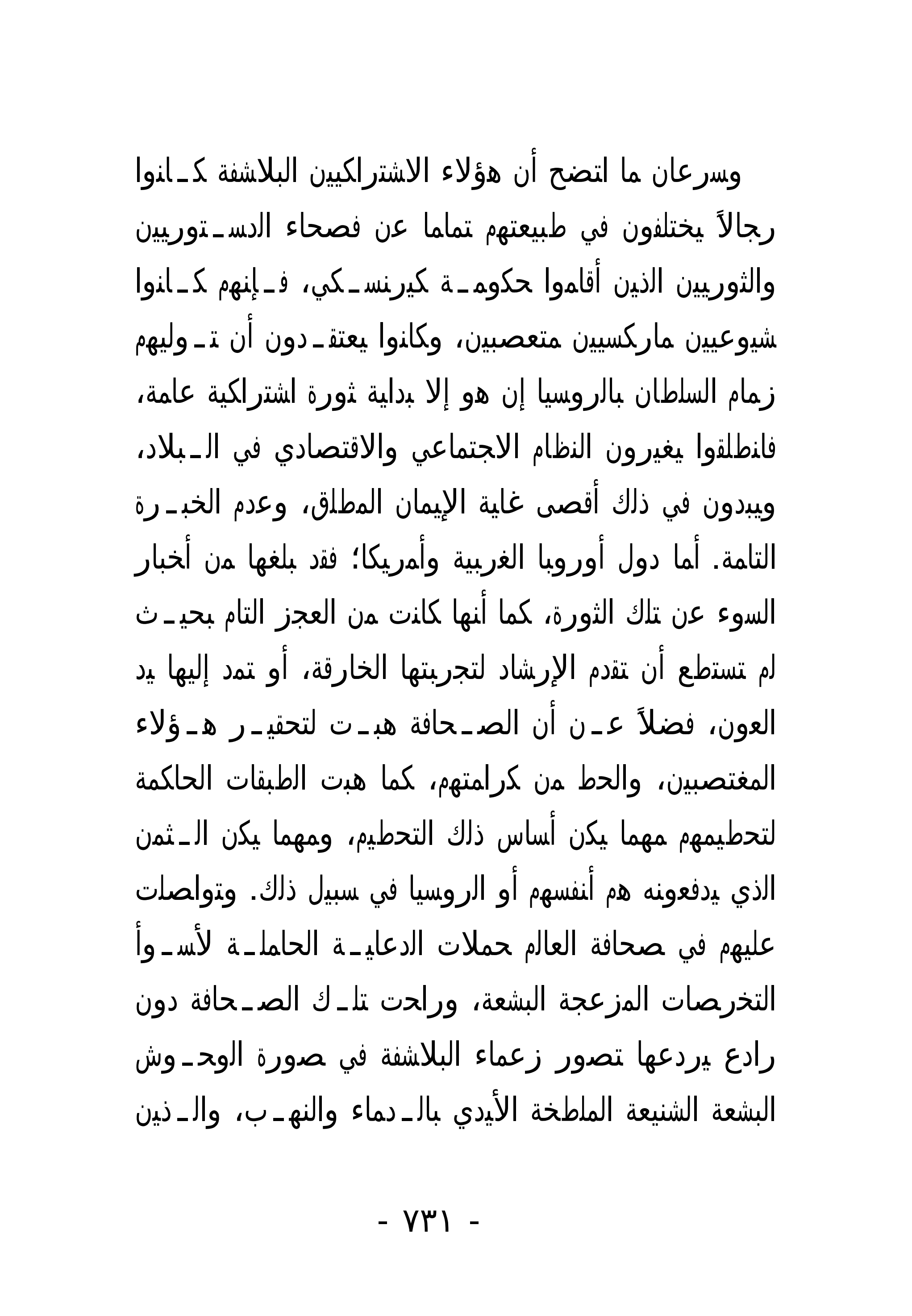
الروسية الجديدة أن تقاتل الألمان وحدها، دون معاونة مـن أحد. وينبغي لنا أن نلحظ هنا أن البريطانيين وحلفاءهم تركوا للألمان السيادة التامة على بحر البلطيق طوال الحرب كلها، فيما عدا بضع هجمات قامت بها غواصاتهم؛ وذلـك علـى الرغم من تفوقهم البحري، ومـن الاعتراضـات المريـرة التي قدمها لـورد فيشـر الأميـرال الإنجليـزي العظـيم (١٨٤١-١٩٢٠).

ومع ذلك فإن الشعب الروسي كان مصمما على وضع حد للحرب، مهما كلفه ذلك من ثمن؛ فقد ظهـرت إلـى عـالم الوجود بمدينة بتروغراد هيئة تمثل العمال وعامة الجند؛ هي هيئة السوفييت، التي أخذت تطالـب بعقـد مـؤتمر دولـي للاشتراكيين بمدينة أستوكهلم. وكانت فتن الطعام تحدث فـي ذلك الأوان ببرلين، وتغلغل السأم من الحرب بكل من النمسا وألمانيا إلى قرارة النفوس، وتدلنا الأحـداث التاليـة دلالـة لا سبيل إلى الشك معها أنه لو أن ذلك المؤتمر عقد لعجـل بعقد صلح معقول فـي عـام ١٩١٧، يقـوم علـى أسـس ديمقراطية، ولأحدث بألمانيا ثورة في ذلك الوقت نفسه. وأخذ كيرنسكي يتضرع إلى حلفائه الغربيين أن يسـمحوا بانعقـاد

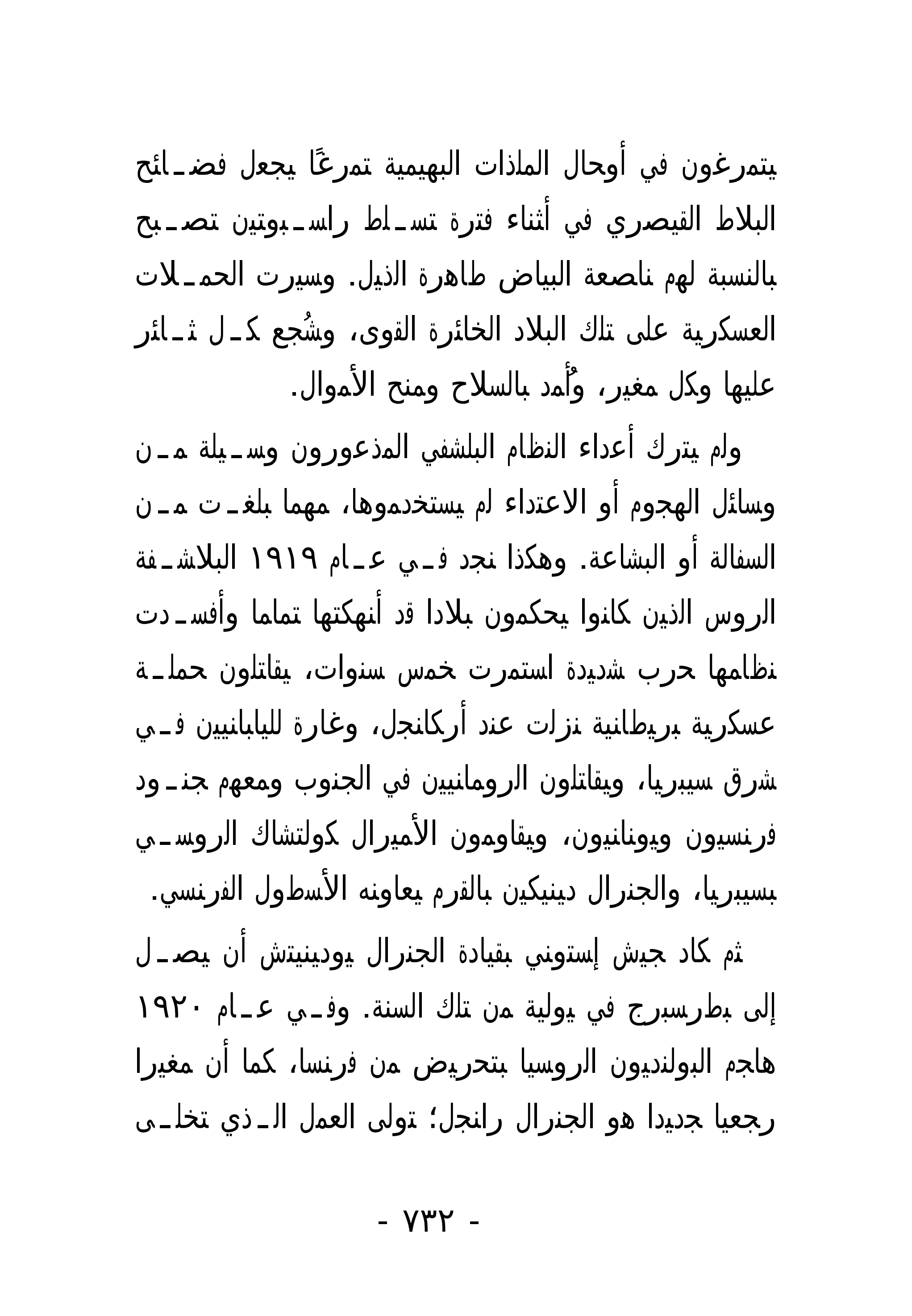


ذلك المؤتمر، ولكنهم رفضوا ذلك الطلب مخافة أن يؤدي قبوله إلى انتشار المذاهب الاشتراكية والجمهورية في أرجاء العالم قاطبة، على الرغم من قبول أغلبية صغيرة لحزب العمال البريطاني للفكرة، وظلت الجمهورية الروسية المعتدلة التعسة تقاتل دون أن تتلقى عونًا معنويا أو ماديا من الحلفاء، وقامت بهجوم أخير يائس في يوليو، ولكن الهجوم أخفق بعد أن أحرز بضع انتصارات أولية، وللمرة الثانية ذبح الروسيون ذبحا عظيما.

وهنا تجاوزت الأمور حد احتمال الروسيا؛ فتمرد الجند في الجيوش الروسية، وبخاصة في الجبهة الشمالية، ولم تلبث حكومة كيرنسكي أن خُلعت في ٧ من نوفمبر ١٩١٧، وأن استولى على مقاليد الأمور السوفييت، الذين يسيطر عليهم الاشتراكيون البلاشفة برياسة لينين، وأن طلبوا عقد الصلح دون أدنى مراعاة للدول الغربية، وفي ٢ من مارس ١٩١٨ عقد صلح منفرد بين الروسيا وألمانيا بمدينة برست ليتوفسك.



وسرعان ما اتضح أن هؤلاء الاشتراكيين البلاشفة كـانوا رجالاً يختلفون في طبيعتهم تماما عن فصحاء الدسـتوريين والثوريين الذين أقاموا حكومـة كيرنسـكي، فـإنهم كـانوا شيوعيين ماركسيين متعصبين، وكانوا يعتقـدون أن تـوليهم زمام السلطان بالروسيا إن هو إلا بداية ثورة اشتراكية عامة، فانطلقوا يغيرون النظام الاجتماعي والاقتصادي في الـبلاد، ويبدون في ذلك أقصى غاية الإيمان المطلق، وعدم الخبـرة التامة. أما دول أوروبا الغربية وأمريكا؛ فقد بلغها من أخبار السوء عن تلك الثورة، كما أنها كانت من العجز التام بحيـث لم تستطع أن تقدم الإرشاد لتجربتها الخارقة، أو تمد إليها يد العون، فضلاً عـن أن الصـحافة هبـت لتحقيـر هـؤلاء المغتصبين، والحط من كرامتهم، كما هبت الطبقات الحاكمة لتحطيمهم مهما يكن أساس ذلك التحطيم، ومهما يكن الـثمن الذي يدفعونه هم أنفسهم أو الروسيا في سبيل ذلك. وتواصلت عليهم في صحافة العالم حملات الدعايـة الحاملـة لأسـوأ التخرصات المزعجة البشعة، وراحت تلـك الصـحافة دون رادع يردعها تصور زعماء البلاشفة في صورة الوحـوش البشعة الشنيعة الملطخة الأيدي بالـدماء والنهـب، والـذين



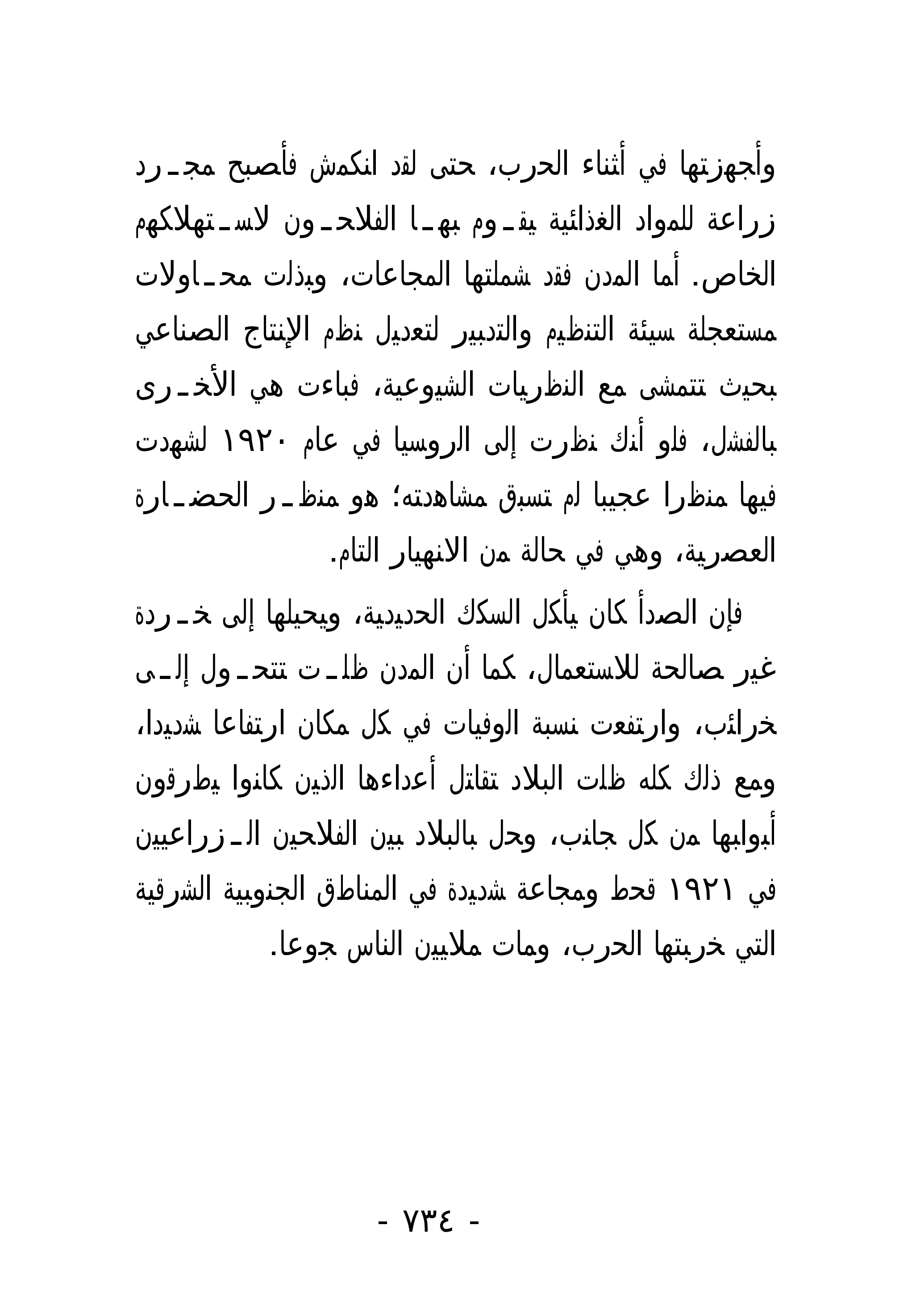
يتمرغون في أوحال الملذات البهيمية تمرغًا يجعل فضائح البلاط القيصري في أثناء فترة تسلط راسبوتين تصبح بالنسبة لهم ناصعة البياض طاهرة الذيل. وسيرت الحملات العسكرية على تلك البلاد الخائرة القوى، وشُجع كل ثائر عليها وكل مغير، وأُمد بالسلاح ومنح الأموال.

ولم يترك أعداء النظام البلشفي المذعورون وسيلة من وسائل الهجوم أو الاعتداء لم يستخدموها، مهما بلغت من السفالة أو البشاعة. وهكذا نجد في عام ١٩١٩ البلاشفة الروس الذين كانوا يحكمون بلادا قد أنهكتها تماما وأفسدت نظامها حرب شديدة استمرت خمس سنوات، يقاتلون حملة عسكرية بريطانية نزلت عند أركانجل، وغارة لليابانيين في شرق سيبريا، ويقاتلون الرومانيين في الجنوب ومعهم جنود فرنسيون ويونانيون، ويقاومون الأميرال كولتشاك الروسي بسيبريا، والجنرال دينيكين بالقرم يعاونه الأسطول الفرنسي.

ثم كاد جيش إستوني بقيادة الجنرال يودينيتش أن يصل إلى بطرسبرج في يولية من تلك السنة. وفي عام ١٩٢٠ هاجم البولنديون الروسيا بتحريض من فرنسا، كما أن مغيرا رجعيا جديدا هو الجنرال رانجل؛ تولى العمل الذي تخلى

عنه الجنرال دينيكين، وراح يغزو وطنه ويعيث في أرجائـه فسادا. ثم إن بحارة الأسطول الراسي عند كرونستاد تمردوا في مارس ١٩٢١. ولكن الحكومة الروسية برئاسـة لينـين تحملت كل هذه الهجمات؛ بل لقد أبدت قوة تماسك عجيبـة، وظاهرها عامة الشعب في الروسيا دون تردد في أثناء تلـك الظروف المفرطة العسر. حتى إذا وافت نهاية عـام ١٩٢١ كانت بريطانيا العظمى وإيطاليا قد اعترفتـا علـى صـورة ما بالحكم الشيوعي في الروسيا.

ولكن لئن وقفت الحكومة البلشفية في مكافحتهـا للتـدخل الأجنبي والثورات الداخلية؛ فإنها كانت أقل حظا من التوفيق في إقامة نظام اجتماعي جديد بالروسيا مؤسس على الأفكار الشيوعية؛ ذلك أن الفلاح الروسي مالك صغير متلهف علـى امتلاك الأرض، بعيد عن الشيوعية في فكره وأساليبه بعـد السماء عن الأرض؛ أجل أعطته الثورة أراضي المالك الكبير السابق، ولكن الثورة لم تستطع أن تحمله على زراعة المواد الغذائية مقابل أي شيء إلا العملة القابلة للتـداول، كمـا أن الثورة دمرت قيمة النقود تقريبا، وأُصيب الإنتاج الزراعـي بضربة شديدة من جراء اخـتلال نظـام السـكك الحديديـة



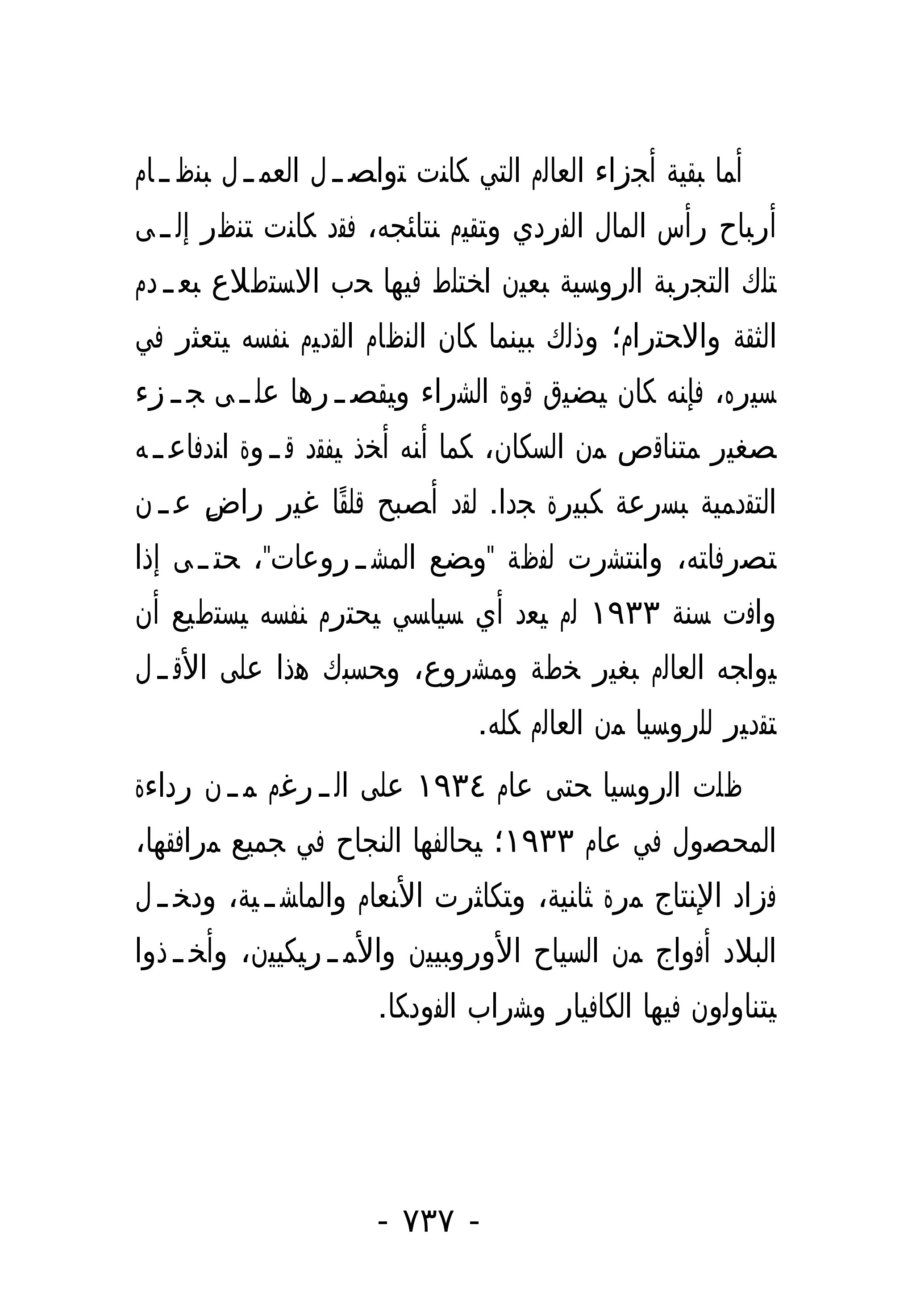
وأجهزتها في أثناء الحرب، حتى لقد انكمش فأصبح مجـرد زراعة للمواد الغذائية يقـوم بهـا الفلاحـون لاسـتهلاكهم الخاص. أما المدن فقد شملتها المجاعات، وبذلت محـاولات مستعجلة سيئة التنظيم والتدبير لتعديل نظم الإنتاج الصناعي بحيث تتمشى مع النظريات الشيوعية، فباءت هي الأخـرى بالفشل، فلو أنك نظرت إلى الروسيا في عام ١٩٢٠ لشهدت فيها منظرا عجيبا لم تسبق مشاهدته؛ هو منظـر الحضـارة العصرية، وهي في حالة من الانهيار التام.

فإن الصدأ كان يأكل السكك الحديدية، ويحيلها إلى خـردة غير صالحة للاستعمال، كما أن المدن ظلـت تتحـول إلـى خرائب، وارتفعت نسبة الوفيات في كل مكان ارتفاعا شديدا، ومع ذلك كله ظلت البلاد تقاتل أعداءها الذين كانوا يطرقون أبوابها من كل جانب، وحل بالبلاد بين الفلاحين الـزراعيين في ١٩٢١ قحط ومجاعة شديدة في المناطق الجنوبية الشرقية التي خربتها الحرب، ومات ملايين الناس جوعا.

إزاء هذه الظروف المحزنة عزم المسئولون على التقليـل من سرعة عمليات البناء والتعمير، وتبنـى القـوم سياسـة اقتصادية جديدة، وأباحوا قدرا من حرية الملكيـة الخاصـة، وأعادوا نظام النشاط الشخصي والجهد الخاص، فترتب على ذلك أن عادت إلى حد ما مياه النشاط الإنتاجي إلى مجاريها. وعندئذ أحس الناس كأنما الروسيا تنحـرف عـن مـذاهب الاشتراكية الإنشائية، وتعيد إظهار أحوال تكاد تماثـل تلـك التي شملت الولايات المتحدة قبل ذلك بمائة عـام، ونشـأت بالبلاط طبقة من المزارعين الأثرياء هـم الكـولاك، وهـم النظير الذي يقابل المزارع الأمريكي الصغير، وتكاثر عـدد صغار التجار الموسرين. على أن الحزب الشيوعي لم يكـن ميالاً إلى التخلي عن أهدافه على تلك الصورة، وإلى السماح لروسيا بأن تتبع الخطوات التي اجتازتها أمريكا قبـل ذلـك بمائة سنة؛ لذا ما لبث أن ظهرت في عام ١٩٢٨ حملة قوية لإعادة البلاد إلى المنهاج الشيوعي في التطـور والتنميـة، فأنشئ مشروع لخمس سنوات، رمى إلى إحداث توسع سريع عنوة في الصناعة تحت إشـراف الدولـة، وخاصـة فـي المنتجات الأساسية الثقيلة، وفي نفس الوقت استُبدلت الزراعة

الحشدية (الجماعية) ذات النطاق الواسع بإنتاج المـزارعين الفرادى. وقد حرمت الروسيا من قيادة لينين الحكيمـة فـي ٢١ من يناير ١٩٢٤، وكانت طريقة معالجة خليفته سـتالين للأمور أخشن من طريقته. ووضعت تلك الخطـة موضـع التنفيذ، على الرغم مما اعترضها من صعاب هائلة، أهمهـا جهل العامة وأميتهم وتأخرهم العام، وقلة عدد الأكفـاء مـن رؤساء العمال والصناع الفنيين، وامتناع العالم الغربي عـن بذل أي مساعدة؛ بل واتخاذه جانب الخصومة الإيجابية.

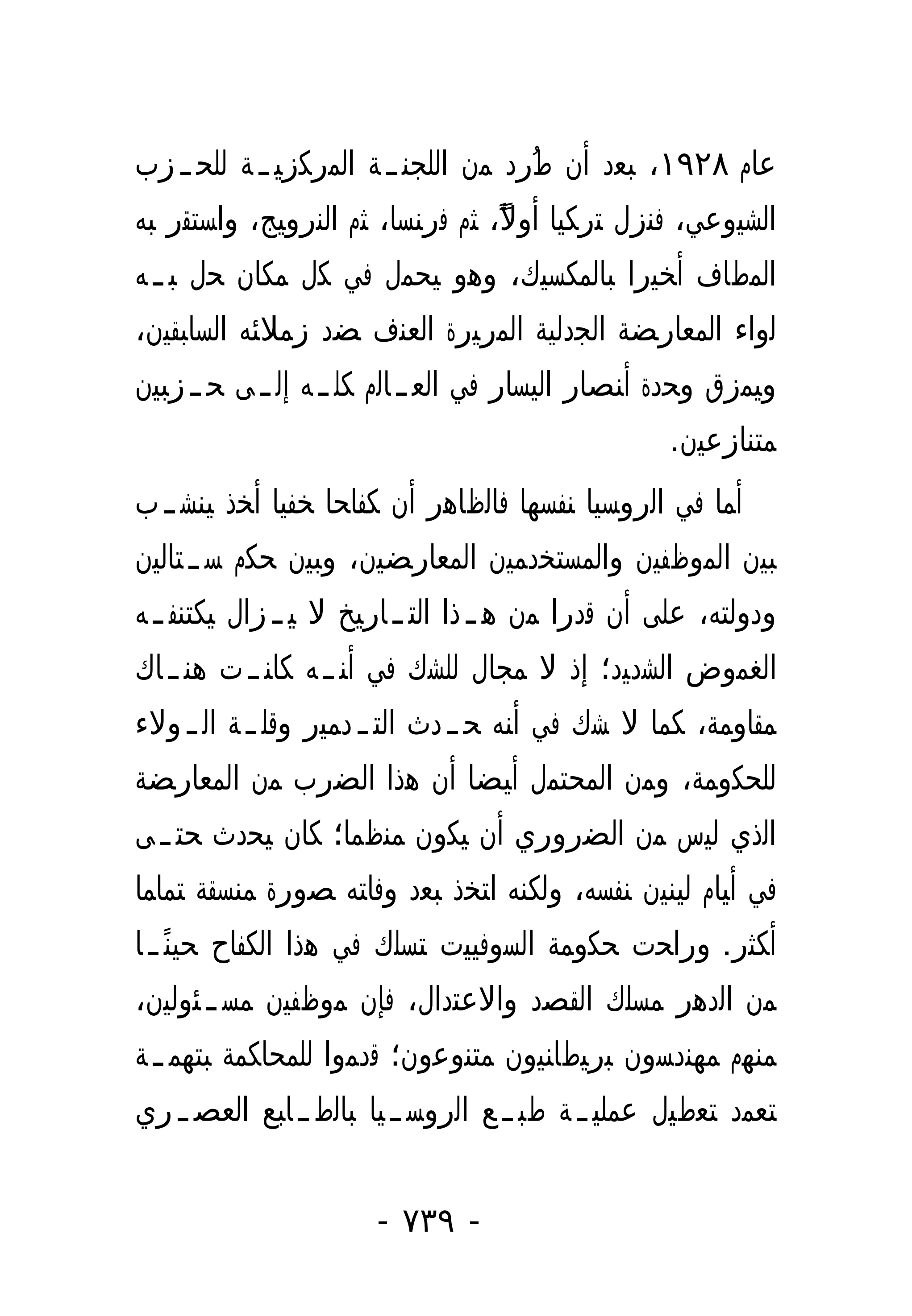
ومع ذلك فإن القوم أعلنوا أن الجانب الصناعي منا الخطة أصاب قدرا جسيما من النجاح. نعم أضاعوا الشيء الكثيـر هدرا، وأعوزهم إيجاد التناسب الضروري بين الأمور، غير أنهم أصابوا من الخير ما لا سبيل إلى إنكاره، ومع ذلك فإن أثر هذه التغيرات الجريئة السريعة لم يكن مرضيا تماما فـي حالة الإنتاج الزراعي، كما أن شتاء أعـوام ١٩٣٣ و١٩٣٤ أنزل بالروسيا للمرة الثانية نقصا عظيما في الأطعمة.



أما بقية أجزاء العالم التي كانت تواصـل العمـل بنظـام أرباح رأس المال الفردي وتقيم نتائجه، فقد كانت تنظر إلـى تلك التجربة الروسية بعين اختلط فيها حب الاستطلاع بعـدم الثقة والاحترام؛ وذلك بينما كان النظام القديم نفسه يتعثر في سيره، فإنه كان يضيق قوة الشراء ويقصـرها علـى جـزء صغير متناقص من السكان، كما أنه أخذ يفقد قـوة اندفاعـه التقدمية بسرعة كبيرة جدا. لقد أصبح قلقًا غير راضٍ عـن تصرفاته، وانتشرت لفظة "وضع المشـروعات"، حتـى إذا وافت سنة ١٩٣٣ لم يعد أي سياسي يحترم نفسه يستطيع أن يواجه العالم بغير خطة ومشروع، وحسبك هذا على الأقـل تقدير للروسيا من العالم كله.

ظلت الروسيا حتى عام ١٩٣٤ على الـرغم مـن رداءة المحصول في عام ١٩٣٣؛ يحالفها النجاح في جميع مرافقها، فزاد الإنتاج مرة ثانية، وتكاثرت الأنعام والماشـية، ودخـل البلاد أفواج من السياح الأوروبيين والأمـريكيين، وأخـذوا يتناولون فيها الكافيار وشراب الفودكا.

وقامت في البلاد نهضة عظيمة في البحث العلمي، وخاصة في المسائل التناسلية والاستكشافات القطبية، ونفذت أشغال عامة عظيمة؛ منها سد الدنيبر وستروا، وسكة حديد التركستان/ سيبريا، وأنجزت البلاد قدرا جسيما من المباني المجددة، وعكفت على إعادة تجديد مرافقها وعتادها. غير أنها ظلت تعاني الكبت التام لكل نقد؛ مما اضطر أي نوع من المعارضة إلى الاستتار. ولا يغرب عن البال أن كل معارضة مكبوتة لا بد أن تتحول في النهاية إلى معارضة إجرامية. وكانت الفرقة والانقسام تنخر في كيان النظام الجديد؛ إذ قد تلت وفاة لينين قبل الأوان مناضلة شديدة على السلطان بين تروتسكي الذي يرجع إلى قيادته العسكرية النابهة الفضل الأكبر في نجاح الدفاع عن الجمهورية (١٩١٩-١٩٢٠)، وستالين السكرتير السابق للحزب الشيوعي، ولا تزال التفاصيل المضبوطة والمعقدة لذلك النضال خافية علينا، ولكن أحدا من الرجلين لم يوهب قوة، لينين الفكرية ولا رحابة نفوذه الشخصية، كان تروتسكي إنسانًا موهوبا ولكنه كان مغرورا، وأوتي ستالين صفة العناد الرهيب، وما لبث تروتسكي أن نُفي خارج البلاد في يونية


عام ١٩٢٨، بعد أن طُرد من اللجنـة المركزيـة للحـزب الشيوعي، فنزل تركيا أولاً، ثم فرنسا، ثم النرويج، واستقر به المطاف أخيرا بالمكسيك، وهو يحمل في كل مكان حل بـه لواء المعارضة الجدلية المريرة العنف ضد زملائه السابقين، ويمزق وحدة أنصار اليسار في العـالم كلـه إلـى حـزبين متنازعين.

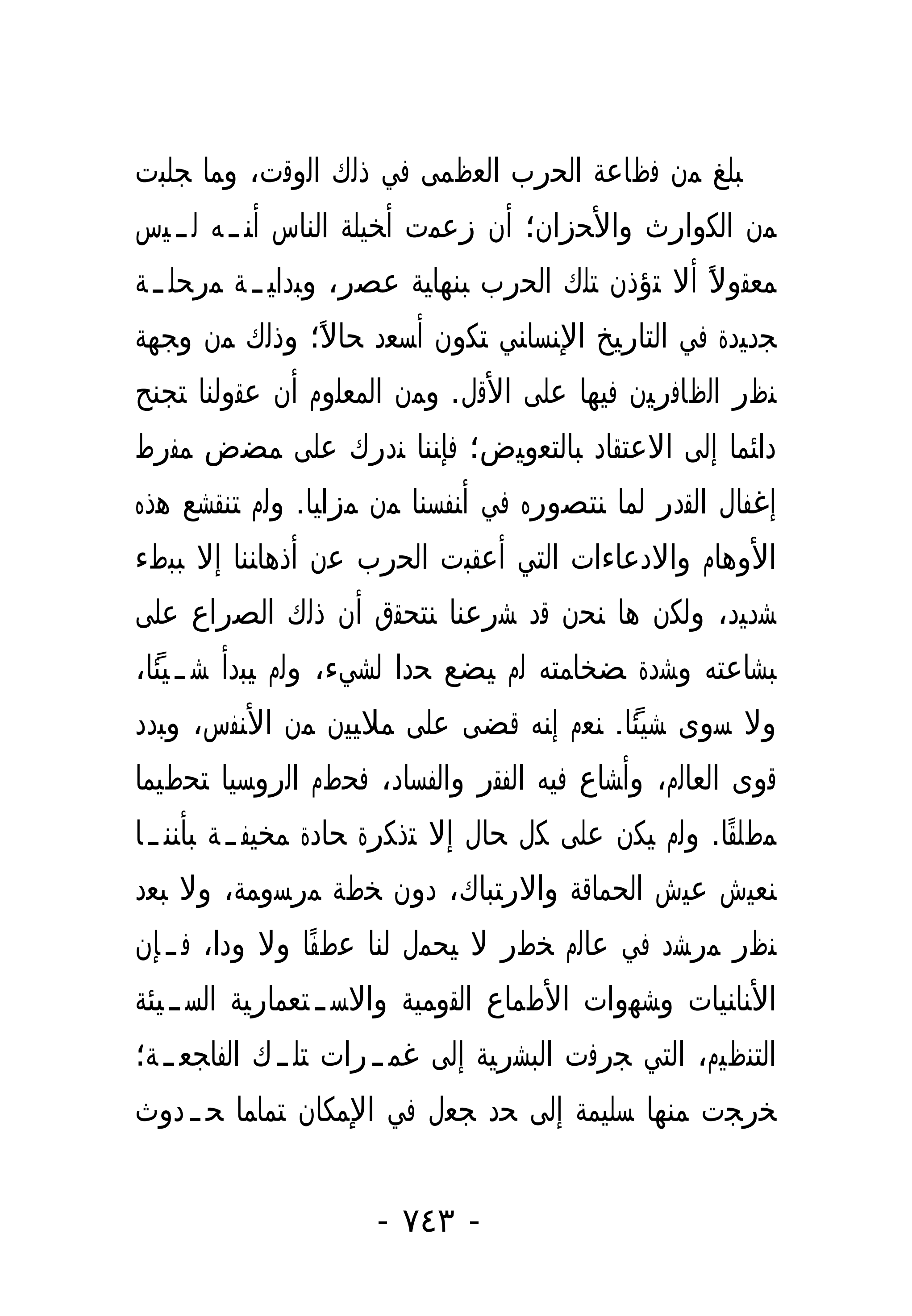
أما في الروسيا نفسها فالظاهر أن كفاحا خفيا أخذ ينشـب بين الموظفين والمستخدمين المعارضين، وبين حكم سـتالين ودولته، على أن قدرا من هـذا التـاريخ لا يـزال يكتنفـه الغموض الشديد؛ إذ لا مجال للشك في أنـه كانـت هنـاك مقاومة، كما لا شك في أنه حـدث التـدمير وقلـة الـولاء للحكومة، ومن المحتمل أيضا أن هذا الضرب من المعارضة الذي ليس من الضروري أن يكون منظما؛ كان يحدث حتـى في أيام لينين نفسه، ولكنه اتخذ بعد وفاته صورة منسقة تماما أكثر. وراحت حكومة السوفييت تسلك في هذا الكفاح حينًـا من الدهر مسلك القصد والاعتدال، فإن موظفين مسـئولين، منهم مهندسون بريطانيون متنوعون؛ قدموا للمحاكمة بتهمـة تعمد تعطيل عمليـة طبـع الروسـيا بالطـابع العصـري

والميكانيكي مع سبق الإصرار، ثم ظهرت في الأفق في أثناء المحاكمات التالية عناصر المؤامرات والتدبيرات السياسـية. على أن معظم المتهمين كان لا يحكـم علـيهم إلا بالسـجن أو بالنفي، حتى قُتل واحد من أشد الوزراء الذين وثق فـيهم ستالين واطمأن إليهم في أول ديسـمبر ١٩٣٤. فبعـد تلـك الحادثة اشتدت الأمور في الروسيا عصـفًا وتجهمـا. وقـد توفيت زوجة ستالين على حين بغتة في ربيـع ١٩٣٤ فـي ظروف لا يزال يغشاها إلى اليوم الغمـوض، ولقـد زعـم بعضهم أنها انتحرت حزنًا على ما يقاسـيه الفلاحـون مـن العذاب في ظل مشروع الخمس السنوات الأول، ولا شك في أن تزايد عداوة خلطائه القدماء له قد زاد رويدا رويدا مـن مدى عزلته وتباعده. والظاهر أنه لم يبق له صديق مخلـص إلا الكاتب مكسيم جوركي الذي مـات فـي عـام ١٩٣٦. وتعاقبت المحاكمات السياسية الواحدة تلو الأخرى، وأخـذت بوادر القسوة تتجلى في استخلاص أدلة الإدانة وبيناتها، كما أصبحت عقوبة الإعدام هي القصاص العادي، فأُعدم زعماء البلشفية السابقون واحدا بعد آخر، حتى لم يبق منهم إلا اثنان أو ثلاثة، وأُعدم أطباء جوركي بتهمة أنهم تسببوا في وفاته،

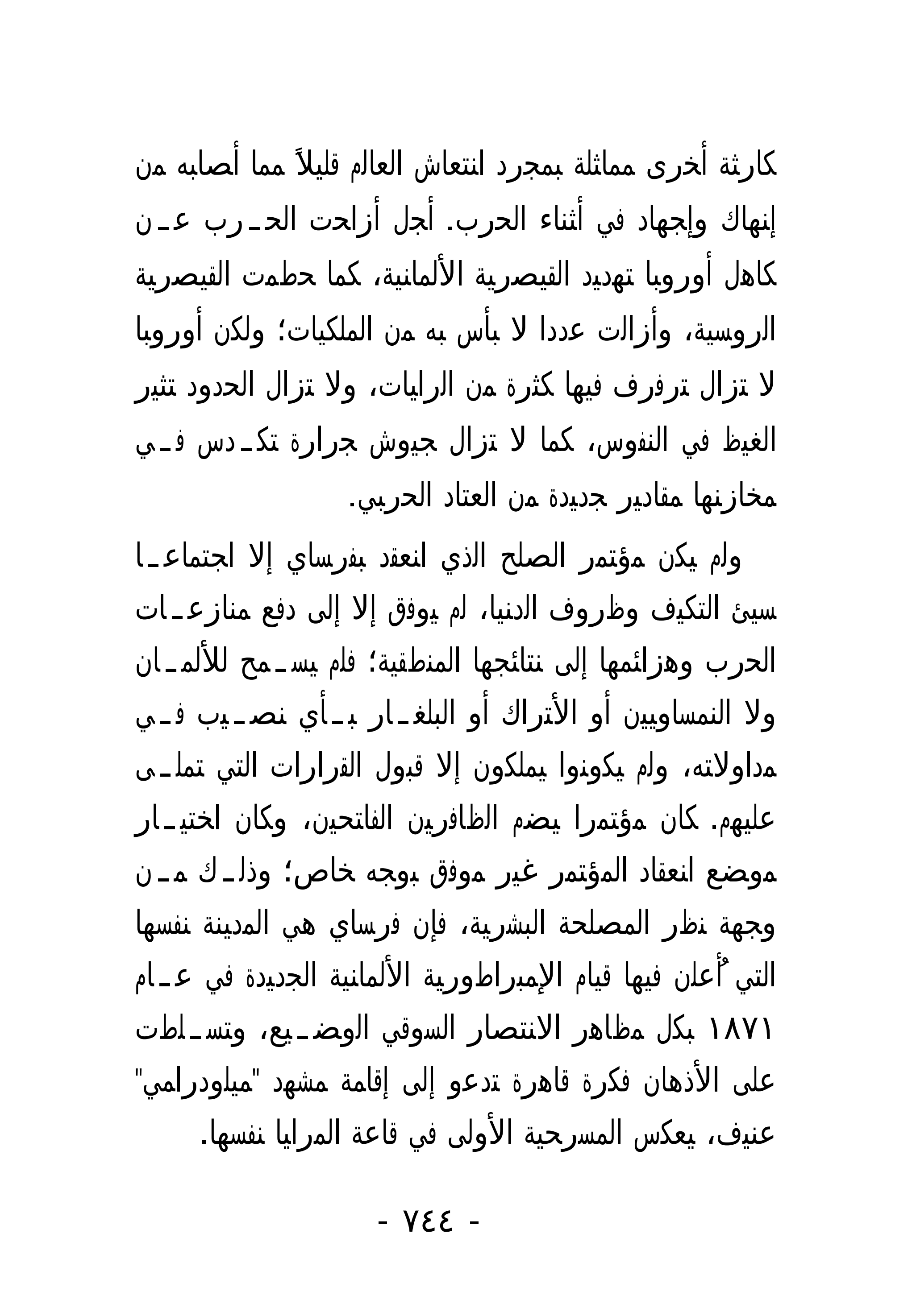
ولم يزل ستالين يزداد في عتوه درجة بعد أخرى حتى أصبح مستبدا لا يقبل صلحا ولا تراجعا، ولكن على الرغم مـن أن هذا هو حال الكرملين في أثناء كتابة هذه السطور (في ربيع ١٩٣٨)؛ فالظاهر أن حياة الروسيا المادية تسير في طريـق الجد التام، مع تناقص الصعوبات بالتدريج، وتضاؤل التذمر الشعبي إلى درجة لا تكاد تذكر. وليس لهذا الموقـف مـن سابق في التاريخ، كما أنه يكاد يكون مـن المحـال التنبـؤ باحتمال إبلال الروسيا مما بها، وبطبيعة ذلـك الإبـلال إذا حدث.

الفصل السابع والستون

عصبة الأمم

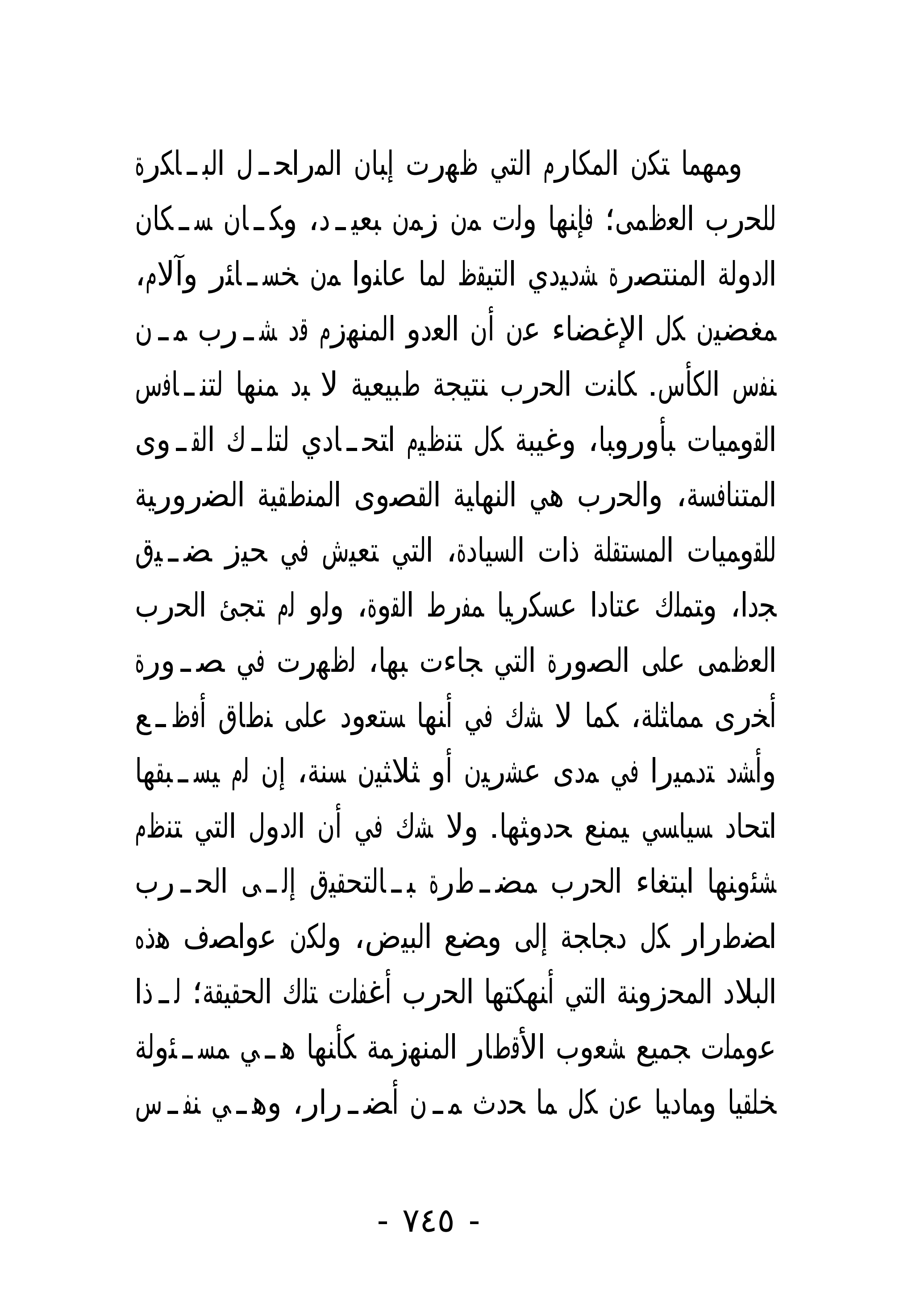


بلغ من فظاعة الحرب العظمى في ذلك الوقت، وما جلبت من الكوارث والأحزان؛ أن زعمت أخيلة الناس أنه ليس معقولاً ألا تؤذن تلك الحرب بنهاية عصر، وبداية مرحلة جديدة في التاريخ الإنساني تكون أسعد حالاً؛ وذلك من وجهة نظر الظافرين فيها على الأقل. ومن المعلوم أن عقولنا تجنح دائما إلى الاعتقاد بالتعويض؛ فإننا ندرك على مضض مفرط إغفال القدر لما نتصوره في أنفسنا من مزايا. ولم تنقشع هذه الأوهام والادعاءات التي أعقبت الحرب عن أذهاننا إلا ببطء شديد، ولكن ها نحن قد شرعنا نتحقق أن ذلك الصراع على بشاعته وشدة ضخامته لم يضع حدا لشيء، ولم يبدأ شيئًا، ولا سوى شيئًا. نعم إنه قضى على ملايين من الأنفس، وبدد قوى العالم، وأشاع فيه الفقر والفساد، فحطم الروسيا تحطيما مطلقًا. ولم يكن على كل حال إلا تذكرة حادة مخيفة بأننا نعيش عيش الحماقة والارتباك، دون خطة مرسومة، ولا بعد نظر مرشد في عالم خطر لا يحمل لنا عطفًا ولا ودا، فإن الأنانيات وشهوات الأطماع القومية والاستعمارية السيئة التنظيم، التي جرفت البشرية إلى غمرات تلك الفاجعة؛ خرجت منها سليمة إلى حد جعل في الإمكان تماما حدوث



كارثة أخرى مماثلة بمجرد انتعاش العالم قليلاً مما أصابه من إنهاك وإجهاد في أثناء الحرب. أجل أزاحت الحـرب عـن كاهل أوروبا تهديد القيصرية الألمانية، كما حطمت القيصرية الروسية، وأزالت عددا لا بأس به من الملكيات؛ ولكن أوروبا لا تزال ترفرف فيها كثرة من الرايات، ولا تزال الحدود تثير الغيظ في النفوس، كما لا تزال جيوش جرارة تكـدس فـي مخازنها مقادير جديدة من العتاد الحربي.

ولم يكن مؤتمر الصلح الذي انعقد بفرساي إلا اجتماعـا سيئ التكيف وظروف الدنيا، لم يوفق إلا إلى دفع منازعـات الحرب وهزائمها إلى نتائجها المنطقية؛ فلم يسـمح للألمـان ولا النمساويين أو الأتراك أو البلغـار بـأي نصـيب فـي مداولاته، ولم يكونوا يملكون إلا قبول القرارات التي تملـى عليهم. كان مؤتمرا يضم الظافرين الفاتحين، وكان اختيـار موضع انعقاد المؤتمر غير موفق بوجه خاص؛ وذلـك مـن وجهة نظر المصلحة البشرية، فإن فرساي هي المدينة نفسها التي أُعلن فيها قيام الإمبراطورية الألمانية الجديدة في عـام ١٨٧١ بكل مظاهر الانتصار السوقي الوضـيع، وتسـلطت على الأذهان فكرة قاهرة تدعو إلى إقامة مشهد "ميلودرامي" عنيف، يعكس المسرحية الأولى في قاعة المرايا نفسها.



ومهما تكن المكارم التي ظهرت إبان المراحـل البـاكرة للحرب العظمى؛ فإنها ولت من زمن بعيـد، وكـان سـكان الدولة المنتصرة شديدي التيقظ لما عانوا من خسـائر وآلام، مغضين كل الإغضاء عن أن العدو المنهزم قد شـرب مـن نفس الكأس. كانت الحرب نتيجة طبيعية لا بد منها لتنـافس القوميات بأوروبا، وغيبة كل تنظيم اتحـادي لتلـك القـوى المتنافسة، والحرب هي النهاية القصوى المنطقية الضرورية للقوميات المستقلة ذات السيادة، التي تعيش في حيز ضـيق جدا، وتملك عتادا عسكريا مفرط القوة، ولو لم تجئ الحرب العظمى على الصورة التي جاءت بها، لظهرت في صـورة أخرى مماثلة، كما لا شك في أنها ستعود على نطاق أفظـع وأشد تدميرا في مدى عشرين أو ثلاثين سنة، إن لم يسـبقها اتحاد سياسي يمنع حدوثها. ولا شك في أن الدول التي تنظم شئونها ابتغاء الحرب مضـطرة بـالتحقيق إلـى الحـرب اضطرار كل دجاجة إلى وضع البيض، ولكن عواصف هذه البلاد المحزونة التي أنهكتها الحرب أغفلت تلك الحقيقة؛ لـذا عوملت جميع شعوب الأقطار المنهزمة كأنها هـي مسـئولة خلقيا وماديا عن كل ما حدث مـن أضـرار، وهـي نفـس

الطريقة التي كانوا سيعاملون بها دون شك الشعوب المنتصرة لو كانت نتيجة الحرب في صالح أولئك المنهزمين. وزعم الفرنسيون والإنجليز أن الألمان ملومون على ما حدث، وزعم الألمان أن الملوم هو الروس والفرنسيون والإنجليز، ولكن أقلية ذكية أدركت أن الملوم في الموضوع هو الوضع السياسي لأوروبا. وكان المقصود من معاهدة فرساي أن تكون مثالية وانتقامية؛ فحتمت على المغلوبين عقوبات فادحة؛ إذ حاولت أن تمنح التعويضات للمنتصرين وشعوبهم الجريحة المتألمة، بفرض ديون باهظة على أمم قد أفلست من قبل، كما أن محاولتها إعادة تكوين العلاقات الدولية بتأسيس عصبة للأمم تسعى لمنع الحرب؛ كانت محالة تجلى صراحة أنها غير مخلصة وغير كافية.

ومن المشكوك فيه أن أوروبا – لو تُركت وشأنها - كانت تبذل أي محاولة لتنظيم العلاقات الدولية تنظيما يكفل سـلاما دائما، فإن فكرة عصبة الأمم قد أدخلها إلى معترك السياسـة العملية الرئيس ولسن، رئيس الولايات المتحـدة الأمريكيـة، وكانت دعامتها الرئيسية هي أمريكـا؛ ذلـك أن الولايـات المتحدة (تلك الدولة العصرية الجديدة) لم تنتج حتى الآن أي فكرة مميزة تتعلق بالعلاقات الدولية، عدا مبدأ مونرو، الـذي وقى العالم الجديد غائلة التدخل الأوروبي، وهـا هـي الآن تُستدعى فجأة للمساهمة الفكرية في مشـكلة ذلـك الزمـان الهائلة، ولكن قريحتها لم تسـعفها بشـيء، وكـان الشـعب الأمريكي يجنح بفطرته نحو السلام العالمي الـدائم، وذلـك بغض النظر عما يرتبط بذلك الاتجاه من عدم الثقـة وسـوء الظن التقليدي في سياسة العالم القديم، وعما ألفه الأمريكيون من عادة التباعد عن اشتباكات العالم القديم ومشكلاته؛ فكـأن الأمريكيين لم يكادوا عند ذلك يبدأون في تكوين فكـرة عـن إيجاد حل أمريكي لمشكلات العالم عنـدما جـرتهم حماـة الغواصات الألمانية إلى معترك الحرب في صـف الحلفـاء أعداء الألمان، ولم يكن مشروع الرئيس ولسن لتكوين عصبة

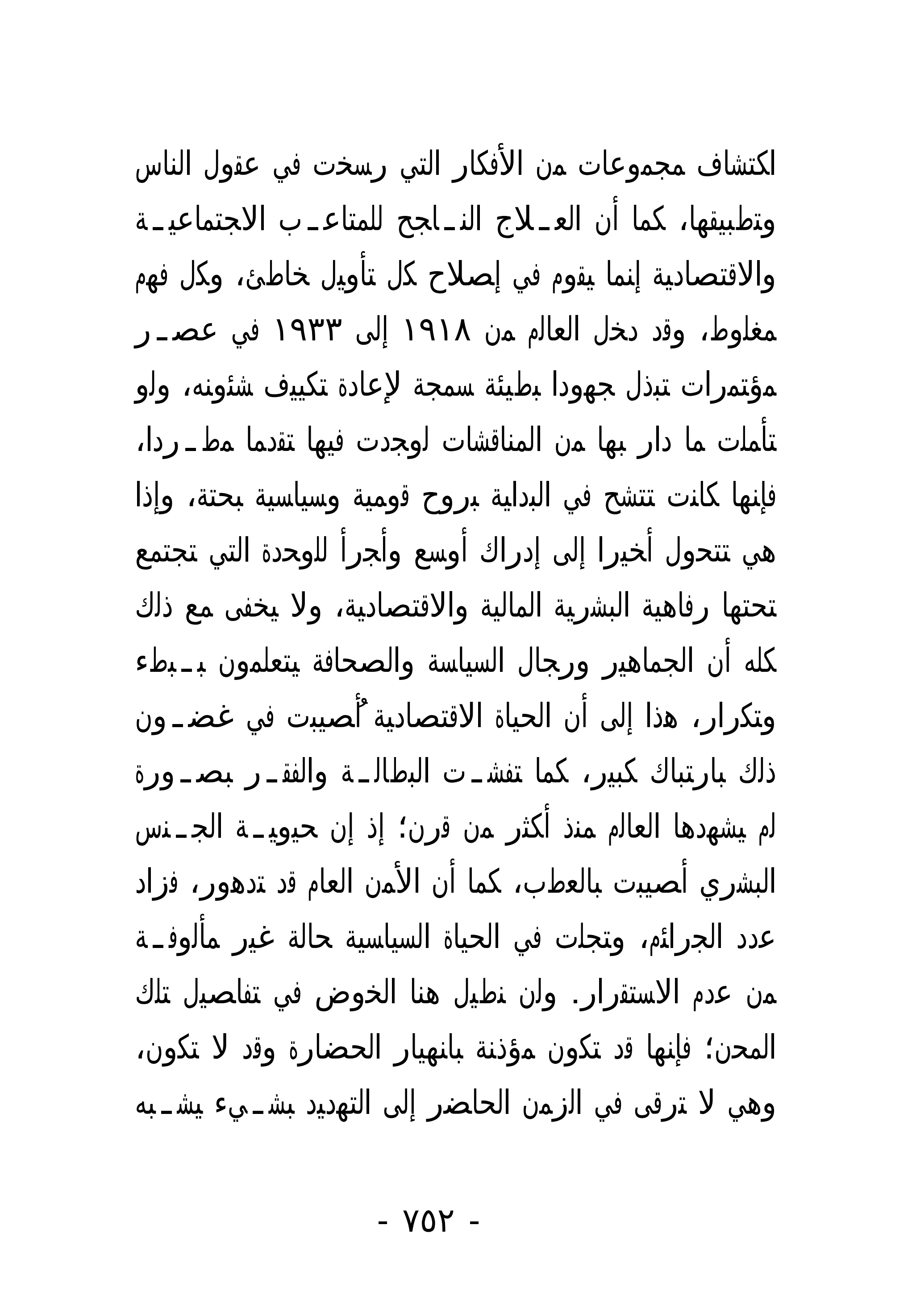
الأمم إلا محاولة مبتسرة متعجلة لإيجـاد مشـروع عـالمي أمريكي النزعة تماما، فأنشأ لها تصميما فجا وناقصا وخطرا، ولكنه ُأخذ في أوروبا على أنه وجهة نظر أمريكية ناجحـة؛ ذلك أن البشرية عموما كانت في عام ١٩١٩/١٩١٨ قد اشتد بها الضيق بالحرب، والتلهف بأي ثمن أو تضحية على إقامة كل ما من شأنه منع حدوثها ثانية، ولكن حكومة واحدة فـي العالم القديم لم تشأ أن تتنزل قيد أنملة عما تستمتع بـه مـن سيادة واستقلال في سبيل الوصول إلى تلك الغاية، والظـاهر أن التصريحات العلنية التي فاه بها الـرئيس ولسـن حـول مشروع عصبة الأمم العالمية، قد وقعت موقع القبـول مـن قلوب شعوب الأرض كلها، وإن تخطت الحكومات، وزعـم الناس أن تلك التصريحات تعبر عن مقاصد أمريكا الحقـة، وكانت استجابتهم لها هائلة، ومن سوء الحـظ أن الـرئيس ولسن كان مضطرا أن يتعامل مع الحكومات لا مع الشعوب، وكان رجلاً تصدر عنه ومضات هائلة من الرؤى والأحلام، فإذا هو وضع موضع التجربة تبين أنه أناني محـدود؛ فـلا غرابة إذن أن تتبدد موجة الحماسة العظيمـة التـي أثارهـا وتذهب سدى.

يقول الدكتور ديلون في كتابه: "مؤتمر السلام": "كانت أوروبا عندما مس الرئيس شواطئها كقطعة من صلصال لا يعوزها إلا يد الصانع الماهر؛ إذ لم يحدث قبل ذلك قط أن اشتد شوق الناس إلى اتباع زعيم كموسى يأخذهم إلى أرض الميعاد التي طال انتظارها، والتي تمنع الحروب، وتجهل الحصار البحري، وقد تصوروا أنه ذلك الزعيم، وانحنى الناس أمامه في فرنسا بدافع الرهبة والمحبة، وأخبرني زعماء العمال بباريس أنهم سكبوا دموع الفرح بين يديه، وأن إخوانهم مستعدون لخوض لجج الماء وألسنة النيران لمعاونته على تحقيق خططه النبيلة، وكان اسمه عند الطبقات العالمة بإيطاليا بوقًا يدوي صوته في أفلاك السماوات، فتهتز جنبات الأرض له، وتعود جديدة مطهرة، واعتبره الألمان هو ومذهبه وسيلة منجاتهم وملاذهم الأكبر، وقال الهر مهلن الشجاع الباسل: لو أن الرئيس ولسن خاطب الألمان وحكم عليهم حكما قاسيا، لتقبلوه بصدر رحب ودون أدنى تذمر ولبدأوا في تنفيذه على الفور، فأما بلاد النمسا الألمانية فقد بلغت شهرته فيها شهرة المسيح المخلص. وكان مجرد ذكر اسمه بلسما للمتألمين وترياقًا للمنكوبين..."

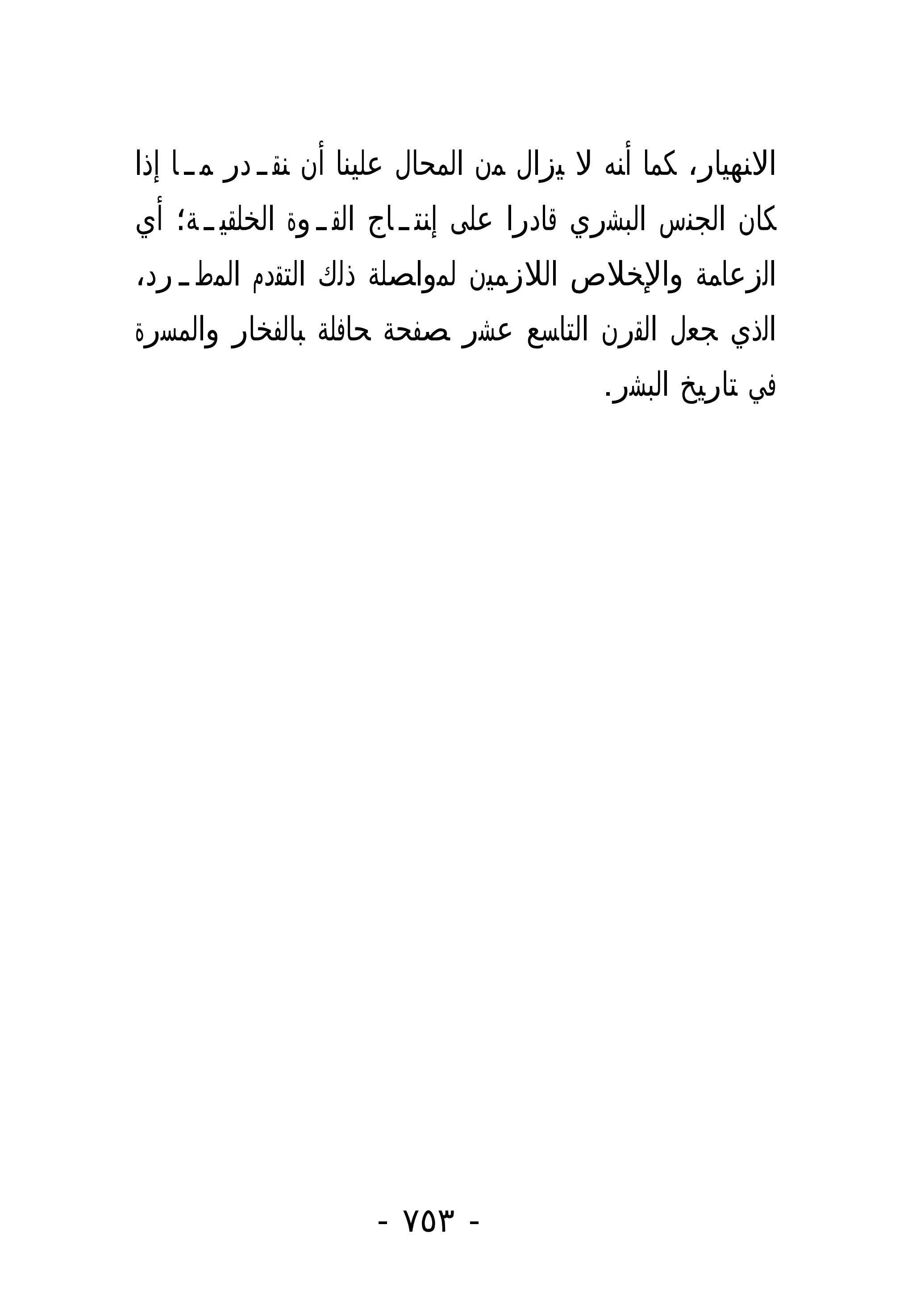
تلك وأمثالها هي الآمال الجارفة التي أثارها في النفـوس الرئيس ولسن، ولكن القصة المحزنة حقًا هي أنه خيب تلـك الآمال تماما، وأن العصبة جاءت ضعيفة غيـر ذات غنـاء؛ فكأنه شخصيا قد زاد من وقع فاجعتنا الإنسانية المشتركة؛ إذ إنه بلغ الغاية في عظم أحلامه، والنهاية في عدم الكفاية فـي أعماله، وقد تمردت أمريكا على تصرفات رئيسها، وأبت أن تقبل العصبة التي تقبلتها منه أوروبـا؛ إذ إن الشـعب أخـذ يتحقق ببطء أنه دفع بسرعة في تيار تجربة لم يتهيأ لها أبدا، وتحققت أوروبا من جهتها بأن أمريكا لم تعـد تملـك شـيئًا تستطيع تقديمه للعالم القديم وهو يرزح في محنته. ولدت تلك العصبة قبل الأوان، وتشوهت منذ ميلادها فأصـبحت هـي ودستورها التفصيلي غير العملي وتحـدد سـلطاتها الجلـي الواضح؛ عقبة كأداة في طريق أي تسوية فعالة، وأي تنظـيم جديد مثمر للعلاقات الدولية، وألقـت تلـك العصـبة علـى المسائل ظلا من الإبهام الذي ما كان يغشاها لو لم تنشأ تلـك العصبة، ومع هذا فإن ذلك اللهيب الحماسي الذي شمل العالم في البداية ترحيبا بالمشروع، ذلك الاستعداد الجميـل الـذي أبداه الناس في كل صقع من أصقاع العالم (وأقول الناس ولا

أقول الحكومات) لإقامة ضوابط عالية تتحكم في الحرب؛ إنما هو شيء جديد ينبغي تسجيله في أي سفر تاريخي، مع القدر اللازم من التأكيد والتشديد؛ ذلك أنه تقوم في هذه الأيام وتنمو باطراد من وراء ظهور الحكومات قصيرة النظر التي تفرق كلمة البشرية وتسيء تدبير شئونها؛ قـوة حقيقيـة تطالـب بالوحدة العالمية والنظام العالمي.

غير أن تلك القوة لا تزال تلتمس التطبيق الفعـال؛ فـإن صلح فرساي كان صلحا سياسيا بحتًا، كما أن العصبة نفسها كانت منظمة سياسية. كانت محاولة لترقيع أحوال البشـرية في الوقت الذي قبلت فيه – على علاتها - الحكومة القائمـة والأفكار السائدة المتعلقة بالدولة، بوصفهما شـئونًا لا مفـر منها؛ وهنا يكمن الخطأ الذي أخذ يتضـح بالتـدريج لعـين البشرية، فإن الحكومات والدول ليست إلا أمورا مؤقتة، كما أن في الإمكان تعديلها، بل لا بد من تعديلها بحيث تتناسـب وتغيرات الحاجات الإنسانية واتساع مداها. على أن القـوى الاقتصادية أساسية وجوهرية أكثر، وهي تعتمد على الفكرات الخاصة بالملكية والسلوك، كما أن هذه الأفكار بدورها تتولد عن التربية، ولا شك أن تكوين الأحوال البشرية إن هـو إلا



اكتشاف مجموعات من الأفكار التي رسخت في عقول الناس وتطبيقها، كما أن العـلاج النـاجح للمتاعـب الاجتماعيـة والاقتصادية إنما يقوم في إصلاح كل تأويل خاطئ، وكل فهم مغلوط، وقد دخل العالم من ١٩١٨ إلى ١٩٣٣ في عصـر مؤتمرات تبذل جهودا بطيئة سمجة لإعادة تكييف شئونه، ولو تأملت ما دار بها من المناقشات لوجدت فيها تقدما مطـردا، فإنها كانت تتشح في البداية بروح قومية وسياسية بحتة، وإذا هي تتحول أخيرا إلى إدراك أوسع وأجرأ للوحدة التي تجتمع تحتها رفاهية البشرية المالية والاقتصادية، ولا يخفى مع ذلك كله أن الجماهير ورجال السياسة والصحافة يتعلمون بـبطء وتكرار، هذا إلى أن الحياة الاقتصادية أُصيبت في غضـون ذلك بارتباك كبير، كما تفشـت البطالـة والفقـر بصـورة لم يشهدها العالم منذ أكثر من قرن؛ إذ إن حيويـة الجـنس البشري أصيبت بالعطب، كما أن الأمن العام قد تدهور، فزاد عدد الجرائم، وتجلت في الحياة السياسية حالة غير مألوفـة من عدم الاستقرار. ولن نطيل هنا الخوض في تفاصيل تلك المحن؛ فإنها قد تكون مؤذنة بانهيار الحضارة وقد لا تكون، وهي لا ترقى في الزمن الحاضر إلى التهديد بشـيء يشـبه

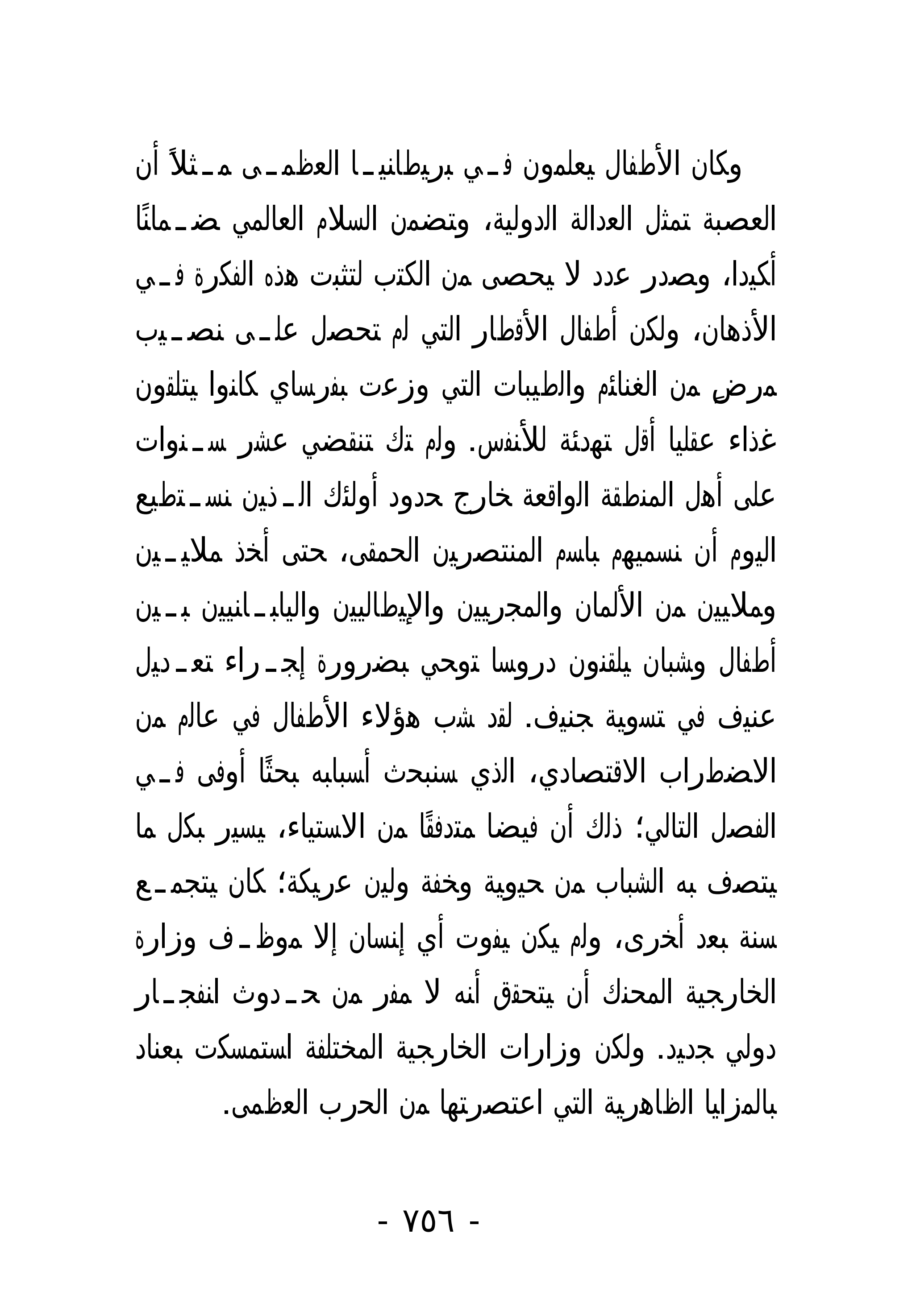


الانهيار، كما أنه لا يزال من المحال علينا أن نقـدر مـا إذا كان الجنس البشري قادرا على إنتـاج القـوة الخلقيـة؛ أي الزعامة والإخلاص اللازمين لمواصلة ذلك التقدم المطـرد، الذي جعل القرن التاسع عشر صفحة حافلة بالفخار والمسرة في تاريخ البشر.

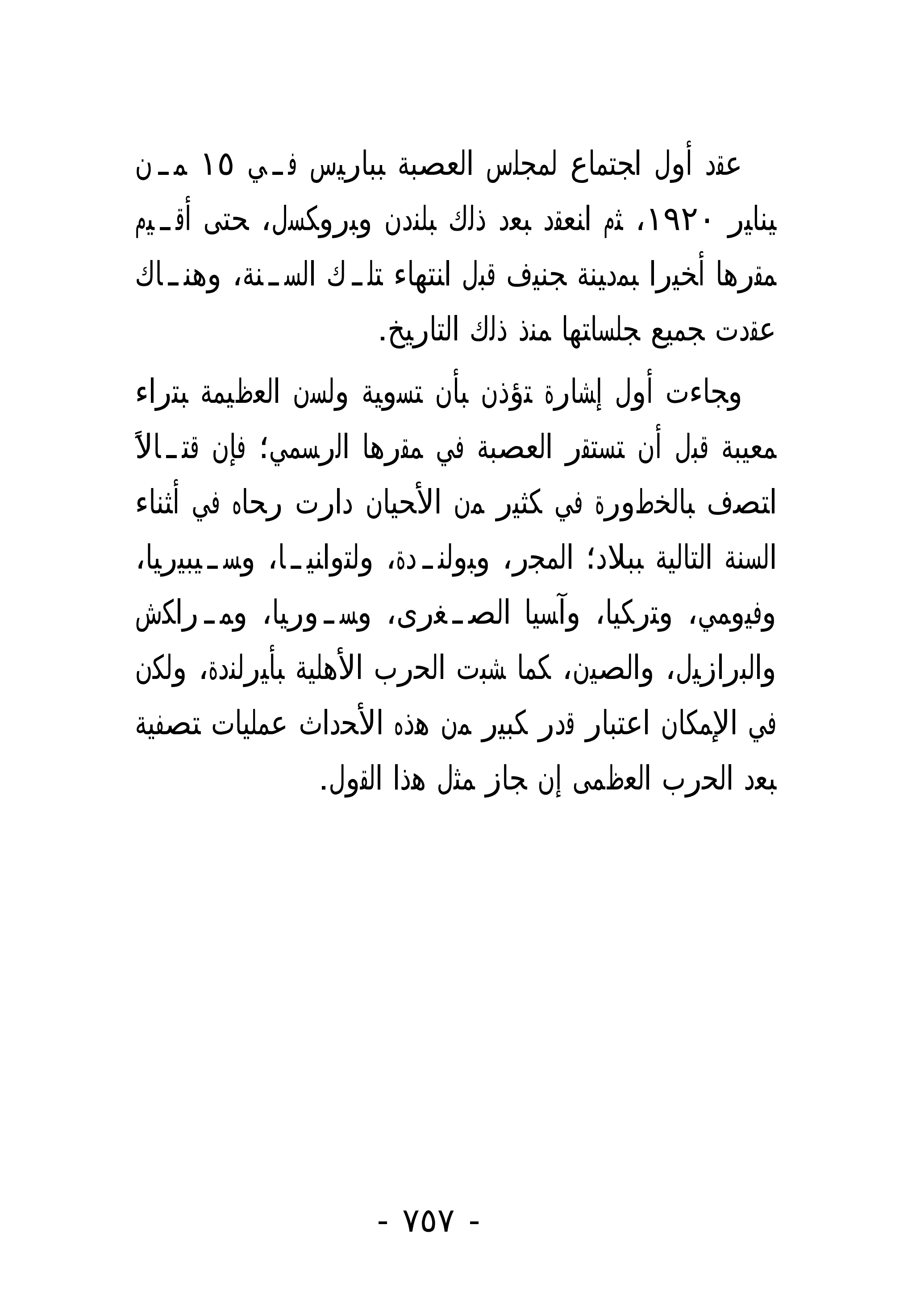
الفصل الثامن والستون

إخفاق عصبة الأمم

كانت عصبة الأمم حتى منذ بدايته الأولى عصبة محاربين منتصرين، كما أن غرضها الصريح كان المحافظـة علـى الحدود التي أقامتها معاهدة فرساي، وهـي الحـدود التـي تحكمت في رسمها روح الانتقام كما ذكرنا آنفًا، مع تجاهـل العواقب الاقتصادية التـي تـنجم عنهـا، ففرضـت علـى المنهزمين كما أسلفنا مبالغ فادحـة يـدفعونها علـى سـبيل التعويض، كما أن شهوة التملـك التقليديـة لـدى وزارتـي الخارجية البريطانية والفرنسية قد اتشحت بغشاء شفاف مـن العبارات الرشيقة. حقًا إنه لم تضم على الطريقـة القديمـة المستعمرات الألمانية وراء البحار، ولا أجزاء كثيـرة مـن الإمبراطورية التركية المحطمة، ولكنهـا وضـعت تحـت "انتداب" المنتصرين؛ وهي لفظة مباركة أنتجتهـا قـريحتهم الوقادة!!.. فإن عصبة الأمم أخذت تلك الـبلاد ثـم سـلمتها لأصحاب الشأن، وحتى الحلفاء أنفسهم لم يبدوا أي سـماحة نفس في اقتسام الغنائم فيما بينهم، فنالت فرنسـا وبريطانيـا نصيب الأسد، وأشبعت مطامع إيطاليا واليونان واليابان على أسوأ صورة، ونكص الأحـرار والاشـتراكيون ببريطانيـا العظمى والدول الديمقراطية الأخرى عن مواجهة تلك الحقيقة بما يلزمها من صراحة وفكر، فأصيبت السياسة التقدمية فـي العالم كله بالشلل من جراء ذلك مدة عشرين عاما تقريبا.

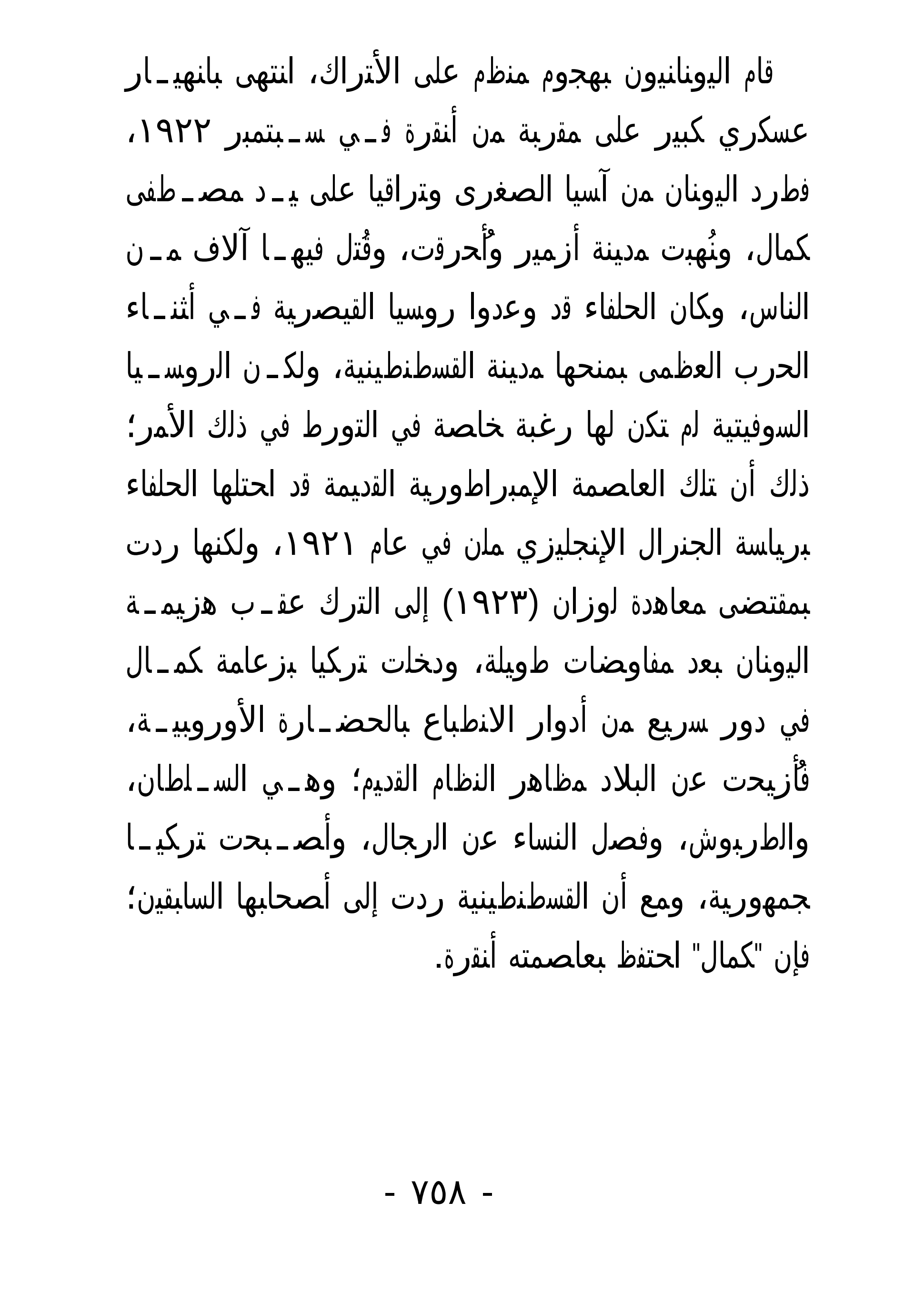


وكان الأطفال يعلمون فـي بريطانيـا العظمـى مـثلاً أن العصبة تمثل العدالة الدولية، وتضمن السلام العالمي ضـمانًا أكيدا، وصدر عدد لا يحصى من الكتب لتثبت هذه الفكرة فـي الأذهان، ولكن أطفال الأقطار التي لم تحصل علـى نصـيب مرضٍ من الغنائم والطيبات التي وزعت بفرساي كانوا يتلقون غذاء عقليا أقل تهدئة للأنفس. ولم تك تنقضي عشر سـنوات على أهل المنطقة الواقعة خارج حدود أولئك الـذين نسـتطيع اليوم أن نسميهم باسم المنتصرين الحمقى، حتى أخذ ملايـين وملايين من الألمان والمجريين والإيطاليين واليابـانيين بـين أطفال وشبان يلقنون دروسا توحي بضرورة إجـراء تعـديل عنيف في تسوية جنيف. لقد شب هؤلاء الأطفال في عالم من الاضطراب الاقتصادي، الذي سنبحث أسبابه بحثًا أوفى فـي الفصل التالي؛ ذلك أن فيضا متدفقًا من الاستياء، يسير بكل ما يتصف به الشباب من حيوية وخفة ولين عريكة؛ كان يتجمـع سنة بعد أخرى، ولم يكن يفوت أي إنسان إلا موظـف وزارة الخارجية المحنك أن يتحقق أنه لا مفر من حـدوث انفجـار دولي جديد. ولكن وزارات الخارجية المختلفة استمسكت بعناد بالمزايا الظاهرية التي اعتصرتها من الحرب العظمى.

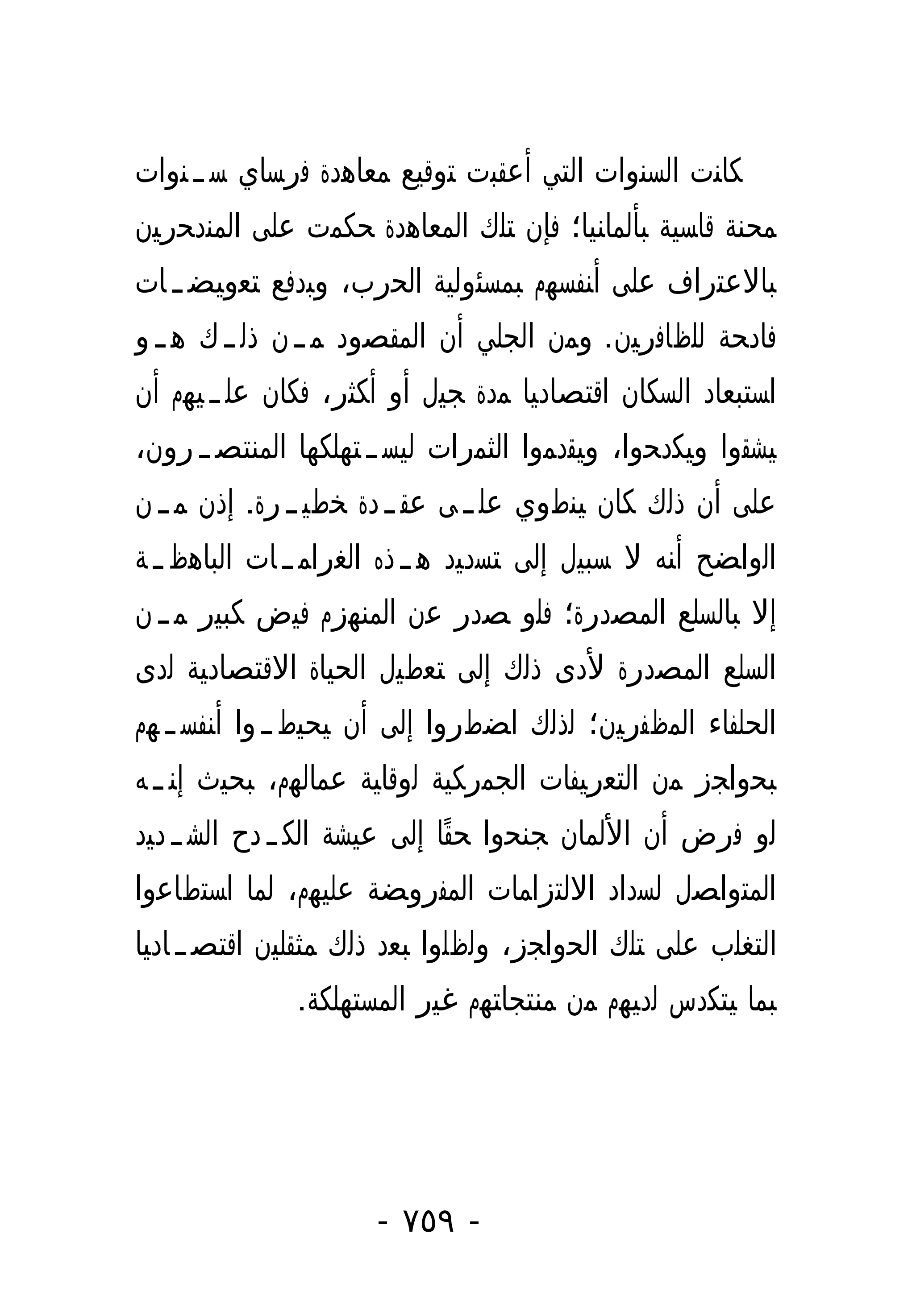


عقد أول اجتماع لمجلس العصبة بباريس فـي ١٥ مـن يناير ١٩٢٠، ثم انعقد بعد ذلك بلندن وبروكسل، حتى أقـيم مقرها أخيرا بمدينة جنيف قبل انتهاء تلـك السـنة، وهنـاك عقدت جميع جلساتها منذ ذلك التاريخ.

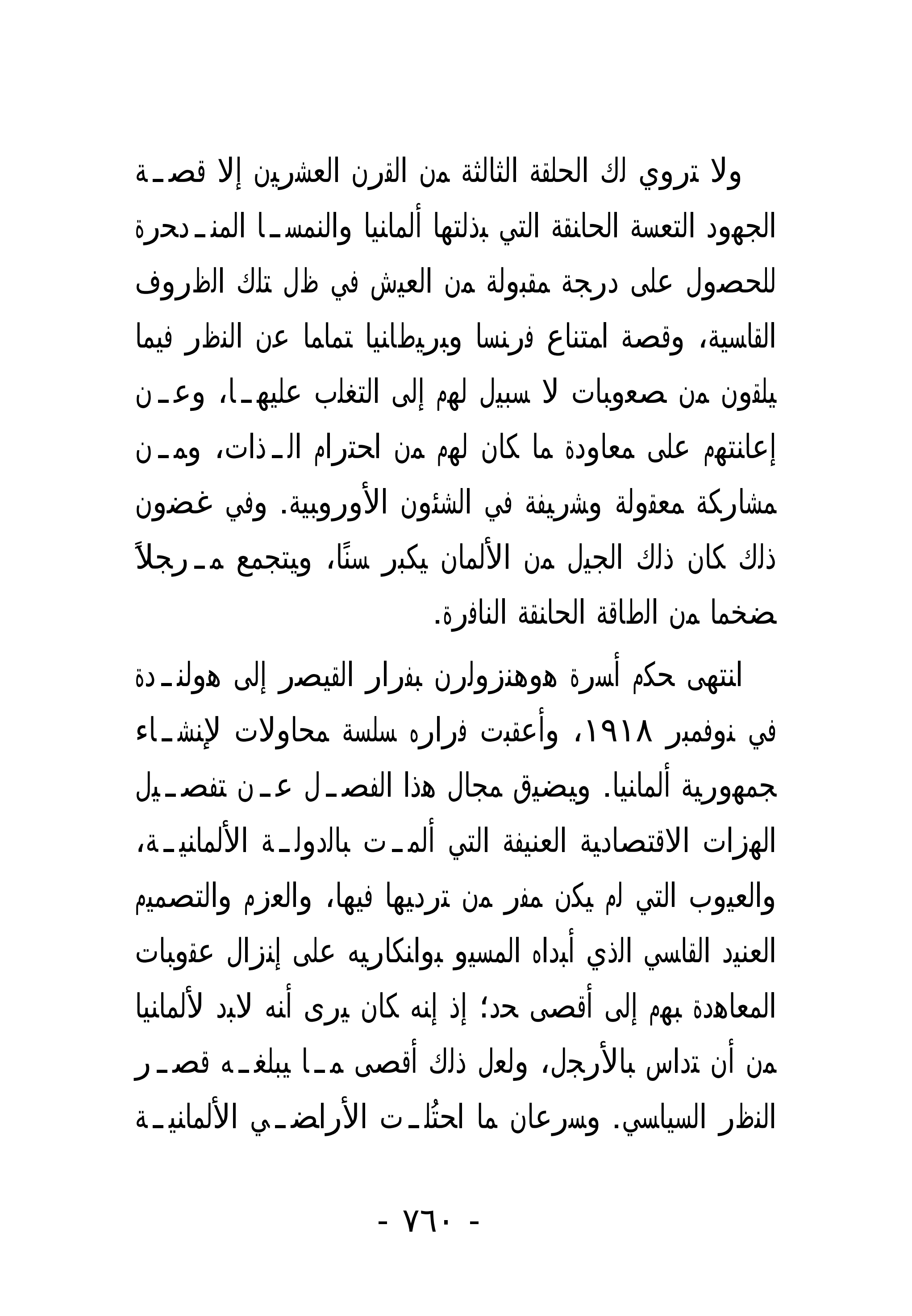
وجاءت أول إشارة تؤذن بأن تسوية ولسن العظيمة بتراء معيبة قبل أن تستقر العصبة في مقرها الرسمي؛ فإن قتـالاً اتصف بالخطورة في كثير من الأحيان دارت رحاه في أثناء السنة التالية ببلاد؛ المجر، وبولنـدة، ولتوانيـا، وسـيبيريا، وفيومي، وتركيا، وآسيا الصـغرى، وسـوريا، ومـراكش والبرازيل، والصين، كما شبت الحرب الأهلية بأيرلندة، ولكن في الإمكان اعتبار قدر كبير من هذه الأحداث عمليات تصفية بعد الحرب العظمى إن جاز مثل هذا القول.



قام اليونانيون بهجوم منظم على الأتراك، انتهى بانهيـار عسكري كبير على مقربة من أنقرة فـي سـبتمبر ١٩٢٢، فطرد اليونان من آسيا الصغرى وتراقيا على يـد مصـطفى كمال، ونُهبت مدينة أزمير وأُحرقت، وقُتل فيهـا آلاف مـن الناس، وكان الحلفاء قد وعدوا روسيا القيصرية فـي أثنـاء الحرب العظمى بمنحها مدينة القسطنطينية، ولكـن الروسـيا السوفيتية لم تكن لها رغبة خاصة في التورط في ذلك الأمر؛ ذلك أن تلك العاصمة الإمبراطورية القديمة قد احتلها الحلفاء برياسة الجنرال الإنجليزي ملن في عام ١٩٢١، ولكنها ردت بمقتضى معاهدة لوزان (١٩٢٣) إلى الترك عقـب هزيمـة اليونان بعد مفاوضات طويلة، ودخلت تركيا بزعامة كمـال في دور سريع من أدوار الانطباع بالحضـارة الأوروبيـة، فأُزيحت عن البلاد مظاهر النظام القديم؛ وهـي السـلطان، والطربوش، وفصل النساء عن الرجال، وأصـبحت تركيـا جمهورية، ومع أن القسطنطينية ردت إلى أصحابها السابقين؛ فإن "كمال" احتفظ بعاصمته أنقرة.



كانت السنوات التي أعقبت توقيع معاهدة فرساي سنوات محنة قاسية بألمانيا؛ فإن تلك المعاهدة حكمت على المندحرين بالاعتراف على أنفسهم بمسئولية الحرب، وبدفع تعويضات فادحة للظافرين. ومن الجلي أن المقصود من ذلك هو استبعاد السكان اقتصاديا مدة جيل أو أكثر، فكان عليهم أن يشقوا ويكدحوا، ويقدموا الثمرات ليستهلكها المنتصرون، على أن ذلك كان ينطوي على عقدة خطيرة. إذن من الواضح أنه لا سبيل إلى تسديد هذه الغرامات الباهظة إلا بالسلع المصدرة؛ فلو صدر عن المنهزم فيض كبير من السلع المصدرة لأدى ذلك إلى تعطيل الحياة الاقتصادية لدى الحلفاء المظفرين؛ لذلك اضطروا إلى أن يحيطوا أنفسهم بحواجز من التعريفات الجمركية لوقاية عمالهم، بحيث إنه لو فرض أن الألمان جنحوا حقًا إلى عيشة الكدح الشديد المتواصل لسداد الالتزامات المفروضة عليهم، لما استطاعوا التغلب على تلك الحواجز، ولظلوا بعد ذلك مثقلين اقتصاديا بما يتكدس لديهم من منتجاتهم غير المستهلكة.



ولا تروي لك الحلقة الثالثة من القرن العشرين إلا قصـة الجهود التعسة الحانقة التي بذلتها ألمانيا والنمسـا المنـدحرة للحصول على درجة مقبولة من العيش في ظل تلك الظروف القاسية، وقصة امتناع فرنسا وبريطانيا تماما عن النظر فيما يلقون من صعوبات لا سبيل لهم إلى التغلب عليهـا، وعـن إعانتهم على معاودة ما كان لهم من احترام الـذات، ومـن مشاركة معقولة وشريفة في الشئون الأوروبية. وفي غضون ذلك كان ذلك الجيل من الألمان يكبر سنًا، ويتجمع مـرجلاً ضخما من الطاقة الحانقة النافرة.

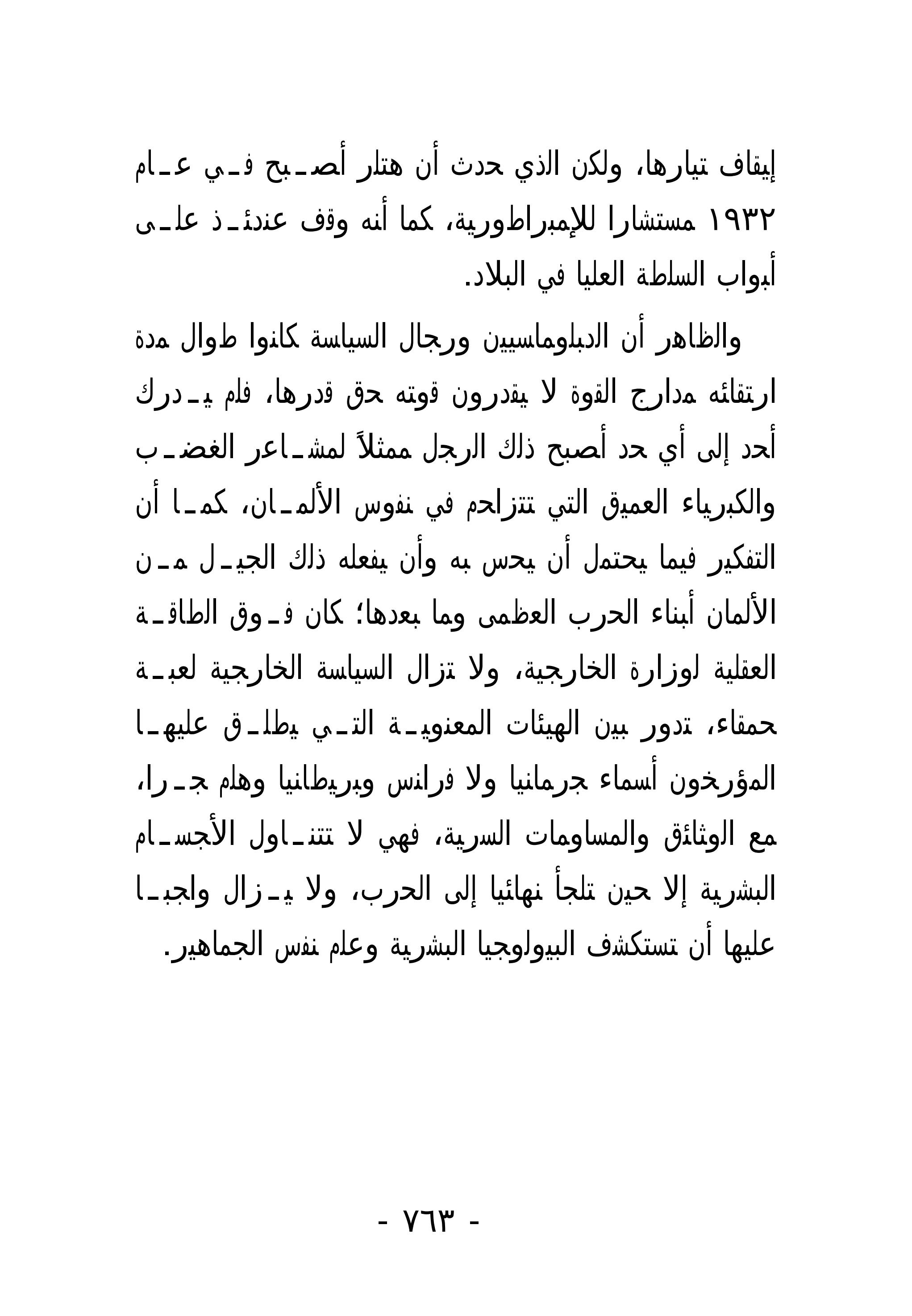
انتهى حكم أسرة هوهنزولرن بفرار القيصر إلى هولنـدة في نوفمبر ١٩١٨، وأعقبت فراره سلسة محاولات لإنشـاء جمهورية ألمانيا. ويضيق مجال هذا الفصـل عـن تفصـيل الهزات الاقتصادية العنيفة التي ألمـت بالدولـة الألمانيـة، والعيوب التي لم يكن مفر من ترديها فيها، والعزم والتصميم العنيد القاسي الذي أبداه المسيو بوانكاريه على إنزال عقوبات المعاهدة بهم إلى أقصى حد؛ إذ إنه كان يرى أنه لابد لألمانيا من أن تداس بالأرجل، ولعل ذلك أقصى مـا يبلغـه قصـر النظر السياسي. وسرعان ما احتُلـت الأراضـي الألمانيـة

احتلالاً تأديبيا، ورابط بوادي الروهـر جنـود سـود مـن السنغال؛ وهي إهانة لم يغتفرها الألمان بسهولة، وبذلت أيضا محاولة لسلخ منطقة الراين عن ألمانيا، وإنشاء جمهورية بها تحت رعاية الفرنسيين، كما حدثت بـالبلاد عـدة ثـورات شيوعية، وظهرت إلى عالم الوجود ديكتاتورية ملكية بزعامة الجنرال لودندورف، دامت أياما قليلة بمدينة ميونيخ، وكـان الدكتور شترزمان (ومعه الرئيس إيبرت) يكافح بكل جهد في برلين في ظل هذه الولايات جميعا، في سبيل المحافظة على ضم شتات ألمانيا في ريخ محرر.

وبينما ألمانيا غارقة في خضم هذا الارتباط المضني؛ أخذ صوت جديد يرتفع ويملأ الأسماع، كان صوتًا غليظـًا يهـز الغضب نبراته، ولكنه كان يقول ما كان يحس به ملايين من الألمان الذين جن جنونهم، خاصة مـنهم جمـاهير شـباب ما بعد الحرب المتزايدي العدد. "لقد خدع الأعـداء ألمانيـا وخانوها"؛ تلك هي النغمة التي أخذ يضـرب عليهـا ذلـك الصوت، "ولا بد من جهد فائق لإرجاعها إلى مكانة العـزة التي كانت تحتلها قبل عام ١٩١٤، مهما تكن التضحية التـي تبذل في سبيل ذلك"، ثم يقول الصوت "إن ألمانيا لم تهزم قط؛

لأن ذلك ضرب من المحال، كما أنها غُدر بها من الداخل؛ إذ خانها بوجه خاص رعاياها اليهود، وأربـاب الفكـر فيهـا، ورجال الشيوعية الدولية. فلا بد لها من العودة إلـى نقائهـا العنصري، إلى حياة المحارب العنيفة التي كانت للتيوتـوني الآري"، ذلك هو صوت نقاش نمساوي اسمه أدولف هتلر، لم تكد تستمع إليه الآذان حتى كان له صدى لا سبيل إلـى رده في قلوب طبقة الشباب الهائلة المتزايدة العدد، الذين صـاروا آنذاك يعيشون دون مطمع معقول لهم في الحيـاة، وتكونـت على تلك الفكرة منظمة أخذت تنمو ويشتد عودها، وقام عليها حزب سياسي عسكري هـو الحـزب القـومي الاشـتراكي (النازي).

وكانت منافسة اليهود الاقتصادية والاجتماعية، بالإضـافة إلى إصرارهم المزعج على العيش كشعب منفصل يختلـف في كثير من الأوجه عن الروح القومي العـام؛ سـببا فـي اختصاص الشعب لهم لا بالمعاملة الانتقامية فقط بل وبالنهب أيضا، ولا يتسع المجال هنا لتتبع حظ حركة النازية هذه من النجاح، وتقلبه بين العنف المتمرد والقوة والسلطان، ولا كفاح العناصر الأكثر اعتدالاً في الحياة السياسية الألمانية في سبيل

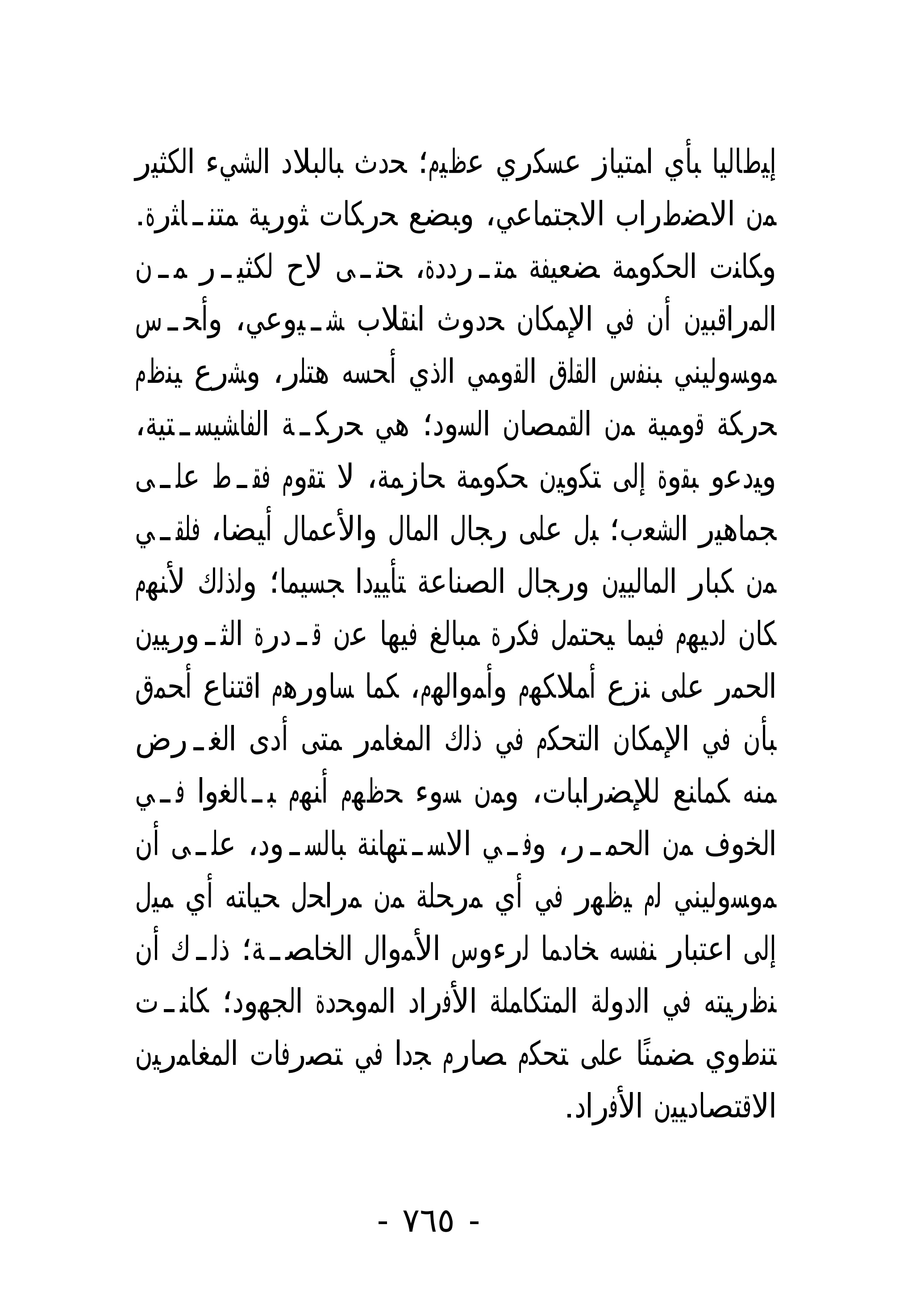


إيقاف تيارها، ولكن الذي حدث أن هتلر أصـبح فـي عـام ١٩٣٢ مستشارا للإمبراطورية، كما أنه وقف عندئـذ علـى أبواب السلطة العليا في البلاد.

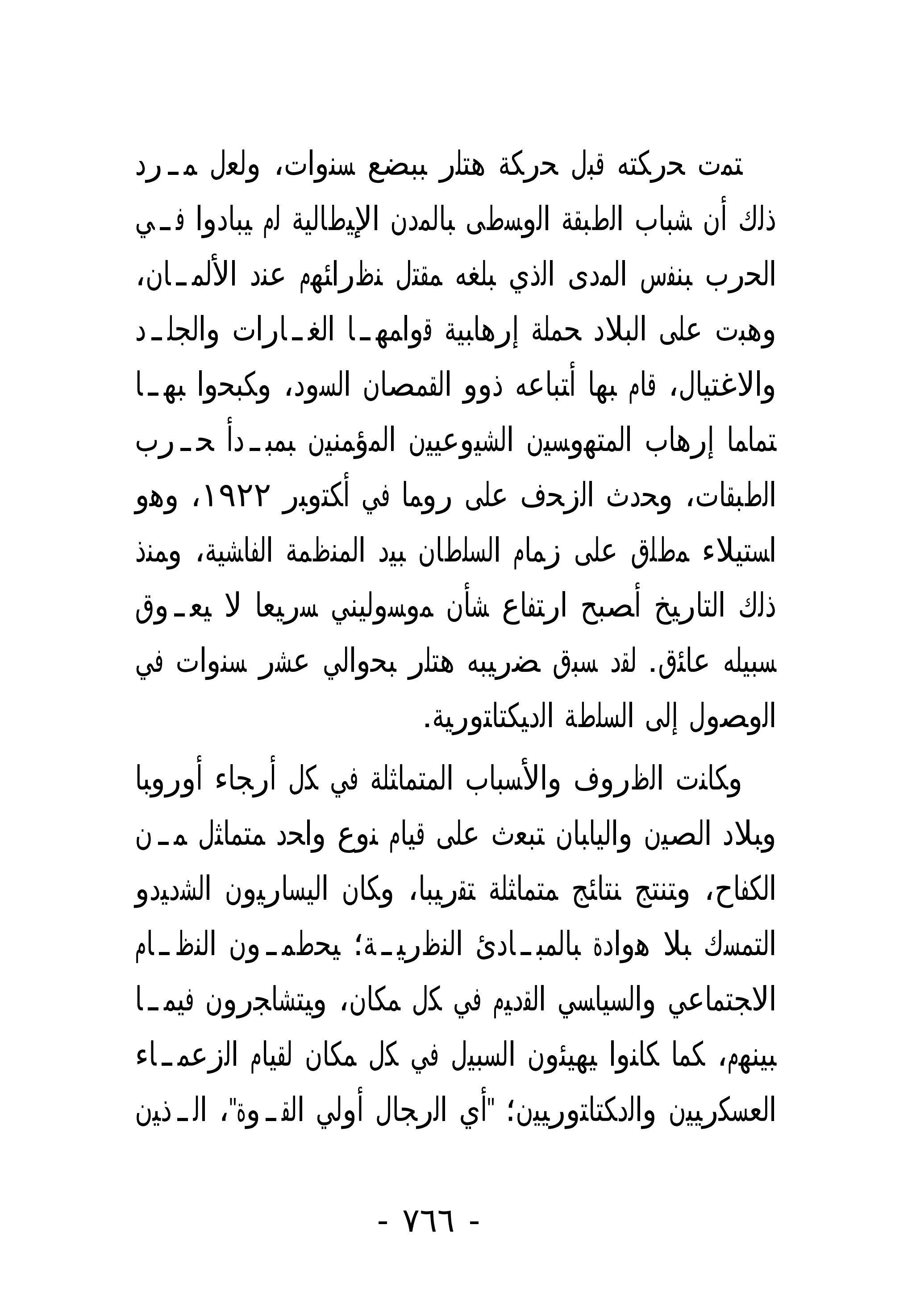
والظاهر أن الدبلوماسيين ورجال السياسة كانوا طوال مدة ارتقائه مدارج القوة لا يقدرون قوته حق قدرها، فلم يـدرك أحد إلى أي حد أصبح ذلك الرجل ممثلاً لمشـاعر الغضـب والكبرياء العميق التي تتزاحم في نفوس الألمـان، كمـا أن التفكير فيما يحتمل أن يحس به وأن يفعله ذلك الجيـل مـن الألمان أبناء الحرب العظمى وما بعدها؛ كان فـوق الطاقـة العقلية لوزارة الخارجية، ولا تزال السياسة الخارجية لعبـة حمقاء، تدور بين الهيئات المعنويـة التـي يطلـق عليهـا المؤرخون أسماء جرمانيا ولا فرانس وبريطانيا وهلم جـرا، مع الوثائق والمساومات السرية، فهي لا تتنـاول الأجسـام البشرية إلا حين تلجأ نهائيا إلى الحرب، ولا يـزال واجبـا عليها أن تستكشف البيولوجيا البشرية وعلم نفس الجماهير.

وكانت تحدث في إيطاليا أيضا أحداث ظهرت فيها علـى الفور أوجه خلاف للحركة النازية؛ "ذلك أنها لم تكـن مـثلاً تعادي اليهود". وكلما نمـت الحركتـان زاد أثـر إحـداهما الملحوظ في الأخرى، أجل إنهما كانتا في البداية مسـتقلتين تماما، وكان زعيم إيطاليا هو بنيتـو موسـوليني، وكانـت معلومات كل من الرجلين عن صاحبه ضئيلة جدا في مراحل حياتهما العملية الأولى، ولكنهما ما لبثا حتى اكتشفا فيما بعـد أوجه التماثل بينهما في شيء من الدهشة. والـرجلان همـا الثمرة الطبيعية للتطور الاجتماعي للعصر؛ وأعنـي بـذلك أنهما نظما طبقة الشباب المتمردة المحرومة من كل هـدف، التي تظهر الآن في كل قطر يتحطم اقتصـاديا، ومنحوهـا وسيلة للتعبير وإظهار المناشط.

بدأ موسوليني حياته اشتراكيا ثوريـا؛ إذ كـان محـررا لصحيفة اشتراكية هي الأفـانتي Avanti، واشـتهر قبـل الحرب بأنه زعيم جريء وقوي، فاختلف مع معظم زملائـه اليساريين حول مسألة انضمام إيطاليا في تلك الحـرب إلـى صف الحلفاء، واستقال من رئاسة تحرير صحيفة الأفـانتي، وأصدر صحيفة IL Peopolo del, Italia ليشـرح فيهـا آراءه. حتى إذا وضعت الحرب أوزارها دون أن تحظى فيها

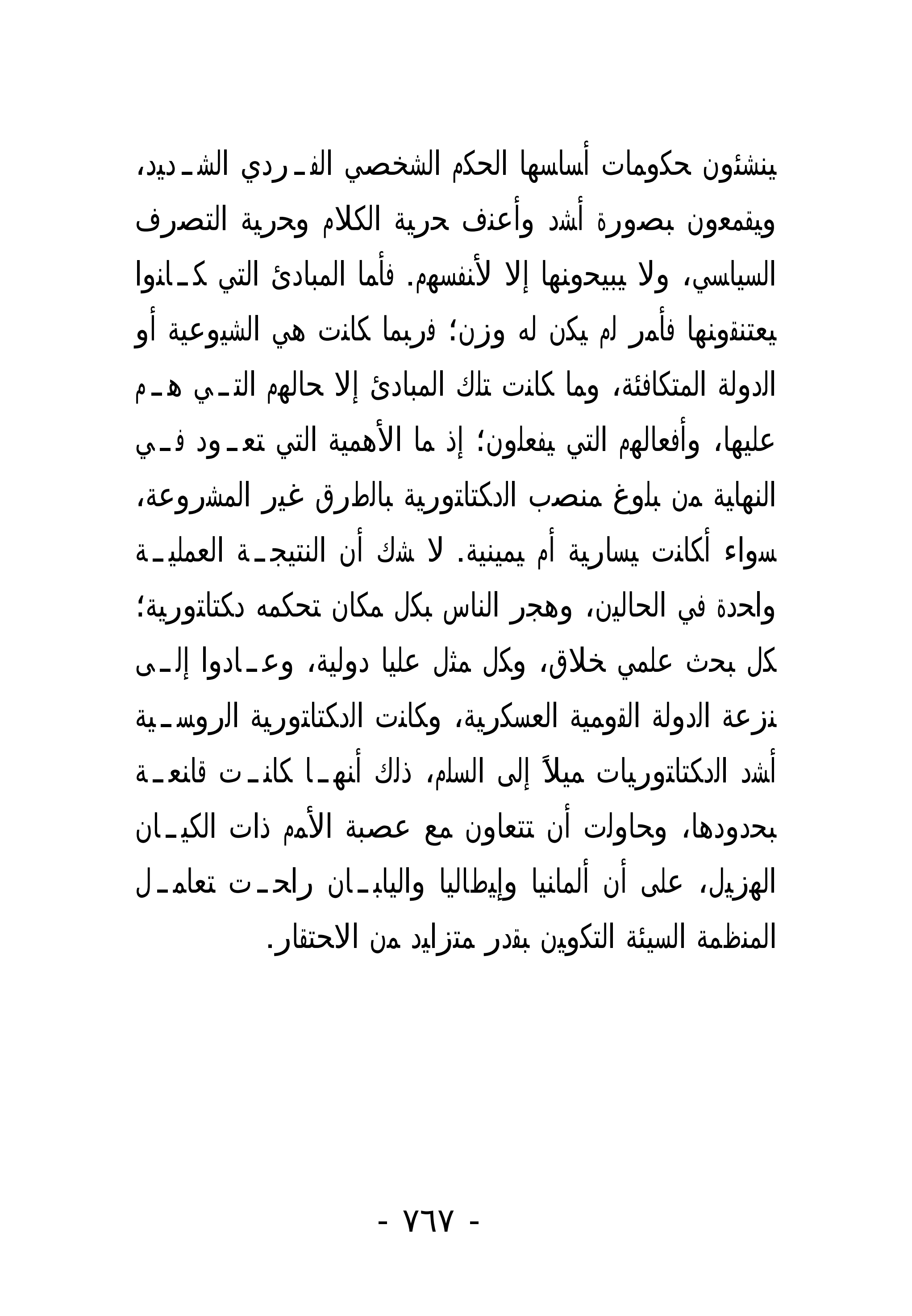


إيطاليا بأي امتياز عسكري عظيم؛ حدث بالبلاد الشيء الكثير من الاضطراب الاجتماعي، وبضع حركات ثورية متنـاثرة. وكانت الحكومة ضعيفة متـرددة، حتـى لاح لكثيـر مـن المراقبين أن في الإمكان حدوث انقلاب شـيوعي، وأحـس موسوليني بنفس القلق القومي الذي أحسه هتلر، وشرع ينظم حركة قومية من القمصان السود؛ هي حركـة الفاشيسـتية، ويدعو بقوة إلى تكوين حكومة حازمة، لا تقوم فقـط علـى جماهير الشعب؛ بل على رجال المال والأعمال أيضا، فلقـي من كبار الماليين ورجال الصناعة تأييدا جسيما؛ ولذلك لأنهم كان لديهم فيما يحتمل فكرة مبالغ فيها عن قـدرة الثـوريين الحمر على نزع أملاكهم وأموالهم، كما ساورهم اقتناع أحمق بأن في الإمكان التحكم في ذلك المغامر متى أدى الغـرض منه كمانع للإضرابات، ومن سوء حظهم أنهم بـالغوا فـي الخوف من الحمـر، وفـي الاسـتهانة بالسـود، علـى أن موسوليني لم يظهر في أي مرحلة من مراحل حياته أي ميل إلى اعتبار نفسه خادما لرءوس الأموال الخاصـة؛ ذلـك أن نظريته في الدولة المتكاملة الأفراد الموحدة الجهود؛ كانـت تنطوي ضمنًا على تحكم صارم جدا في تصرفات المغامرين الاقتصاديين الأفراد.

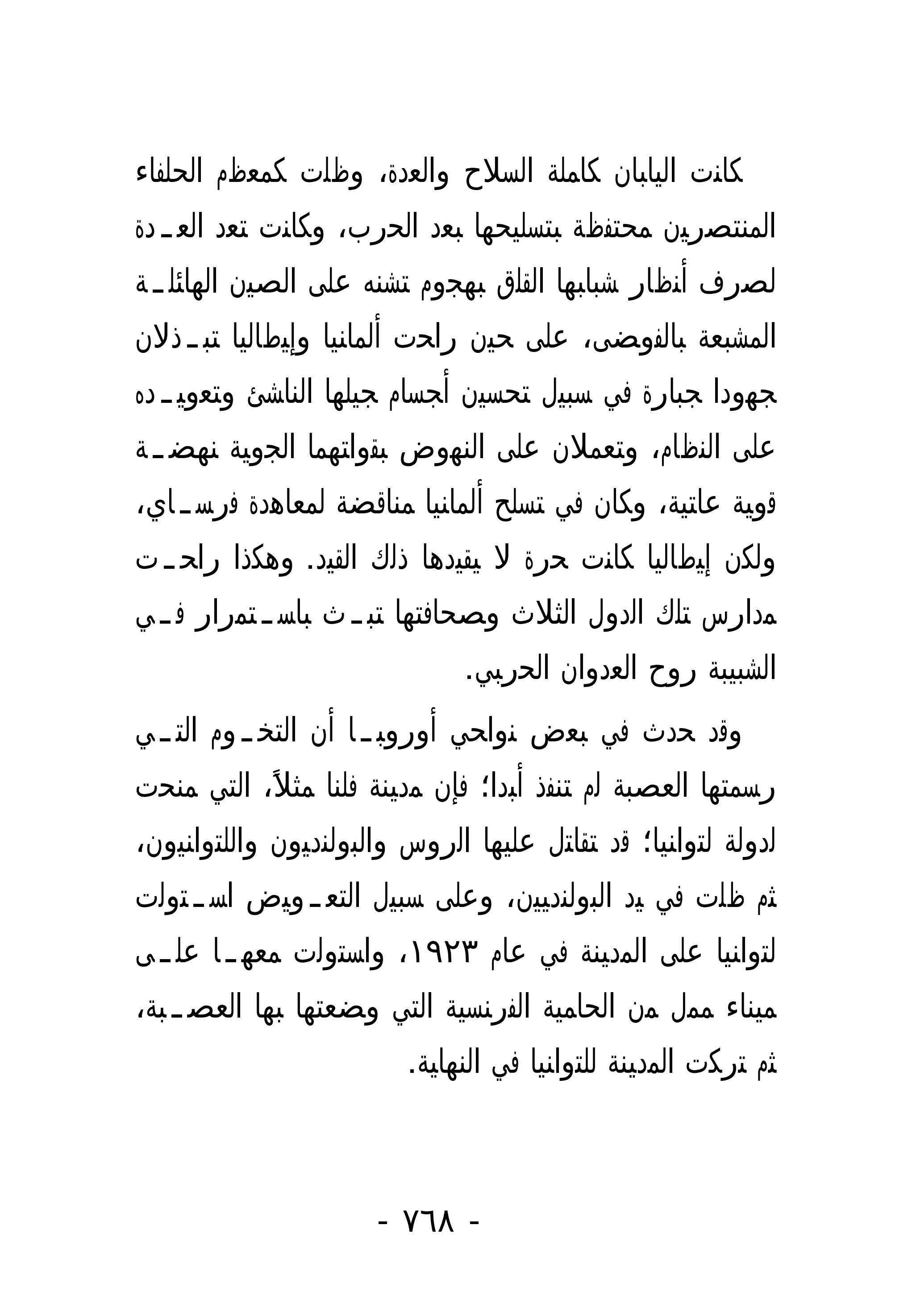


تمت حركته قبل حركة هتلر ببضع سنوات، ولعل مرد ذلك أن شباب الطبقة الوسطى بالمدن الإيطالية لم يبادوا في الحرب بنفس المدى الذي بلغه مقتل نظرائهم عند الألمان، وهبت على البلاد حملة إرهابية قوامها الغارات والجلد والاغتيال، قام بها أتباعه ذوو القمصان السود، وكبحوا بها تماما إرهاب المتهوسين الشيوعيين المؤمنين بمبدأ حرب الطبقات، وحدث الزحف على روما في أكتوبر ١٩٢٢، وهو استيلاء مطلق على زمام السلطان بيد المنظمة الفاشية، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ارتفاع شأن موسوليني سريعا لا يعوق سبيله عائق. لقد سبق ضريبه هتلر بحوالي عشر سنوات في الوصول إلى السلطة الديكتاتورية.

وكانت الظروف والأسباب المتماثلة في كل أرجاء أوروبا وبلاد الصين واليابان تبعث على قيام نوع واحد متماثل من الكفاح، وتنتج نتائج متماثلة تقريبا، وكان اليساريون الشديدو التمسك بلا هوادة بالمبادئ النظرية؛ يحطمون النظام الاجتماعي والسياسي القديم في كل مكان، ويتشاجرون فيما بينهم، كما كانوا يهيئون السبيل في كل مكان لقيام الزعماء العسكريين والدكتاتوريين؛ "أي الرجال أولي القوة"، الذين

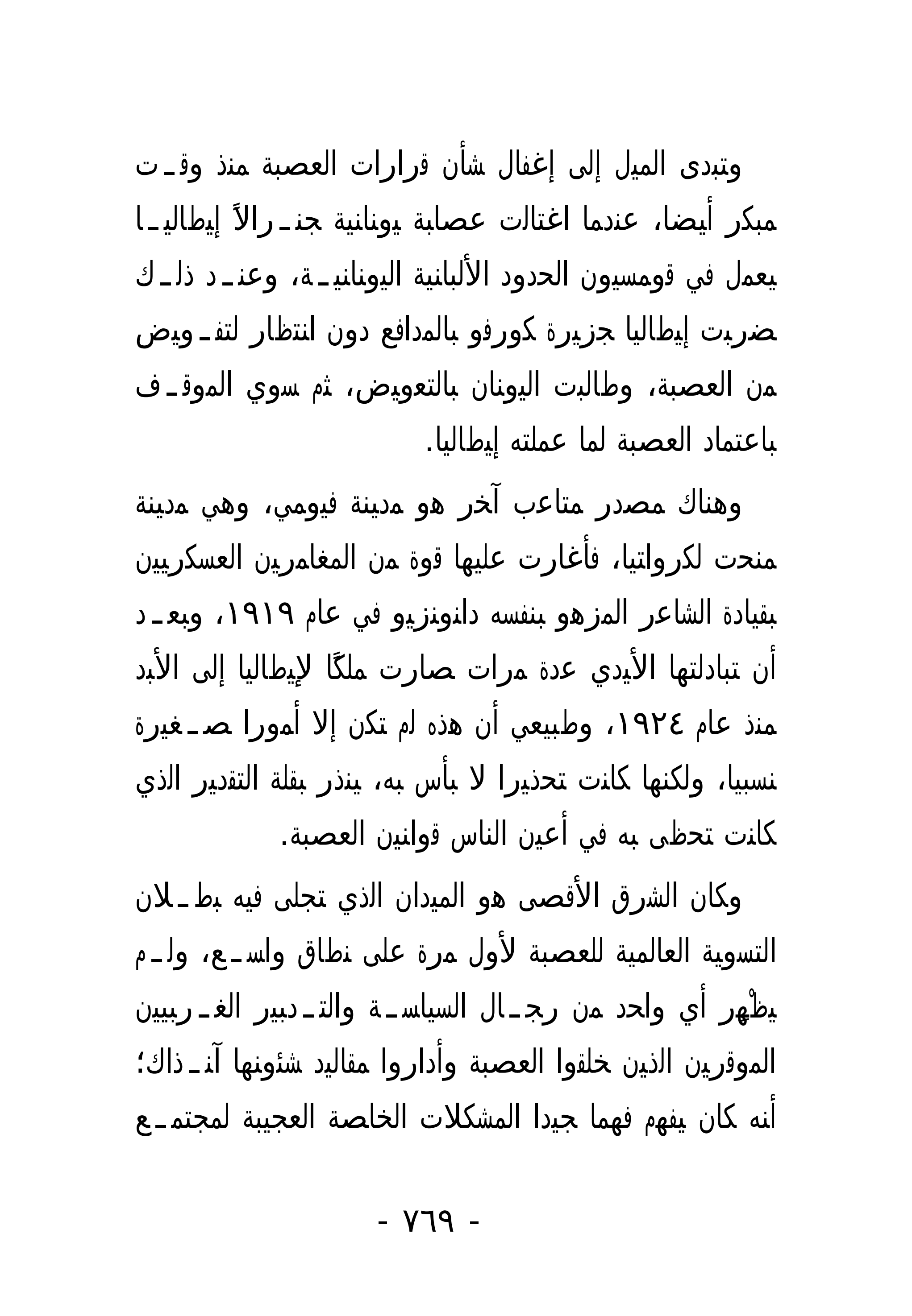


ينشئون حكومات أساسها الحكم الشخصي الفـردي الشـديد، ويقمعون بصورة أشد وأعنف حرية الكلام وحرية التصرف السياسي، ولا يبيحونها إلا لأنفسهم. فأما المبادئ التي كـانوا يعتنقونها فأمر لم يكن له وزن؛ فربما كانت هي الشيوعية أو الدولة المتكافئة، وما كانت تلك المبادئ إلا حالهم التـي هـم عليها، وأفعالهم التي يفعلون؛ إذ ما الأهمية التي تعـود فـي النهاية من بلوغ منصب الدكتاتورية بالطرق غير المشروعة، سواء أكانت يسارية أم يمينية. لا شك أن النتيجـة العمليـة واحدة في الحالين، وهجر الناس بكل مكان تحكمه دكتاتورية؛ كل بحث علمي خلاق، وكل مثل عليا دولية، وعـادوا إلـى نزعة الدولة القومية العسكرية، وكانت الدكتاتورية الروسـية أشد الدكتاتوريات ميلاً إلى السلم، ذلك أنهـا كانـت قانعـة بحدودها، وحاولت أن تتعاون مع عصبة الأمم ذات الكيـان الهزيل، على أن ألمانيا وإيطاليا واليابـان راحـت تعامـل المنظمة السيئة التكوين بقدر متزايد من الاحتقار.



كانت اليابان كاملة السلاح والعدة، وظلت كمعظم الحلفاء المنتصرين محتفظة بتسليحها بعد الحرب، وكانت تعد العـدة لصرف أنظار شبابها القلق بهجوم تشنه على الصين الهائلـة المشبعة بالفوضى، على حين راحت ألمانيا وإيطاليا تبـذلان جهودا جبارة في سبيل تحسين أجسام جيلها الناشئ وتعويـده على النظام، وتعملان على النهوض بقواتهما الجوية نهضـة قوية عاتية، وكان في تسلح ألمانيا مناقضة لمعاهدة فرسـاي، ولكن إيطاليا كانت حرة لا يقيدها ذلك القيد. وهكذا راحـت مدارس تلك الدول الثلاث وصحافتها تبـث باسـتمرار فـي الشبيبة روح العدوان الحربي.

وقد حدث في بعض نواحي أوروبـا أن التخـوم التـي رسمتها العصبة لم تنفذ أبدا؛ فإن مدينة فلنا مثلاً، التي منحت لدولة لتوانيا؛ قد تقاتل عليها الروس والبولنديون واللتوانيون، ثم ظلت في يد البولنديين، وعلى سبيل التعـويض اسـتولت لتوانيا على المدينة في عام ١٩٢٣، واستولت معهـا علـى ميناء ممل من الحامية الفرنسية التي وضعتها بها العصـبة، ثم تركت المدينة للتوانيا في النهاية.

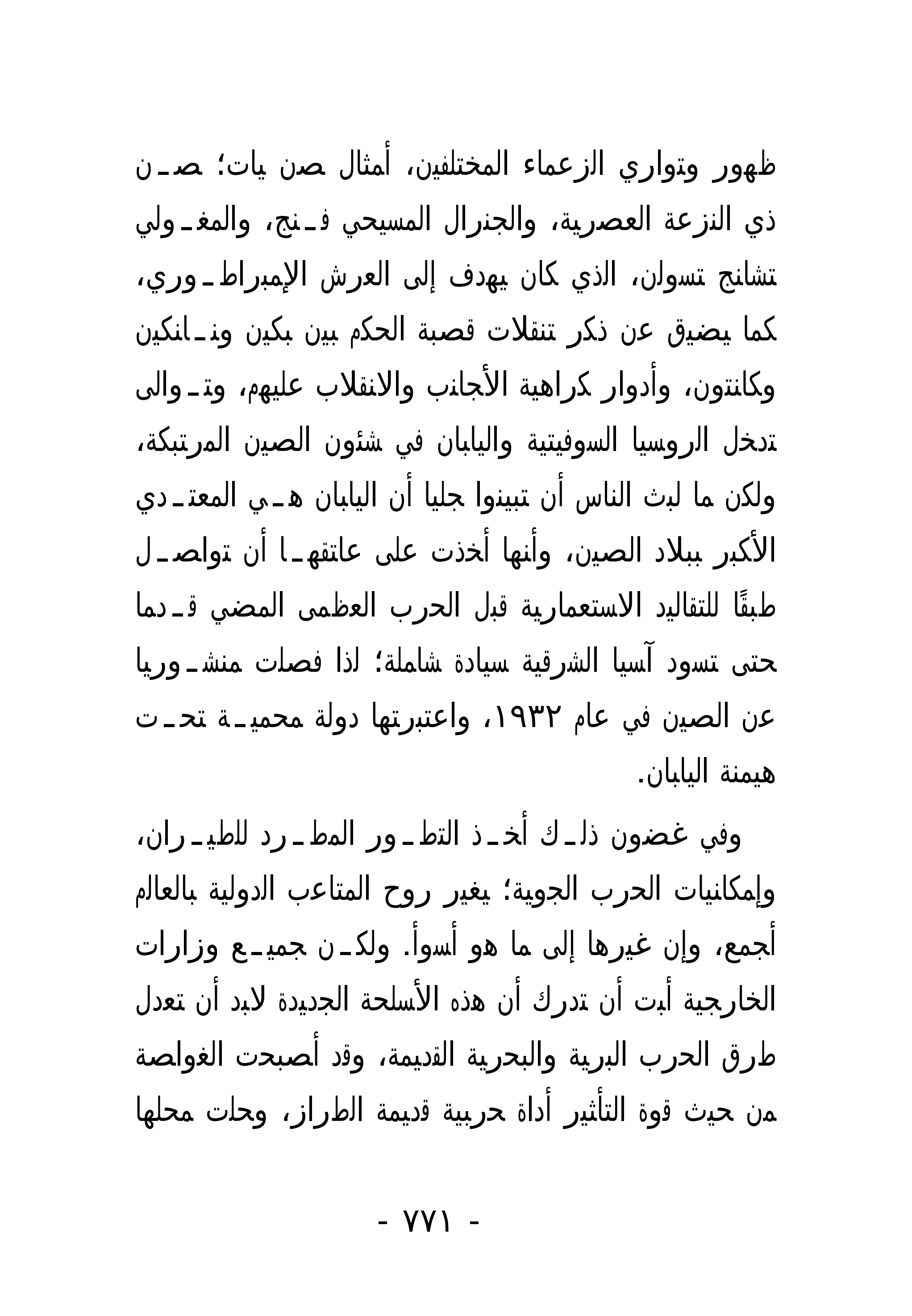


وتبدى الميل إلى إغفال شأن قرارات العصبة منذ وقـت مبكر أيضا، عندما اغتالت عصابة يونانية جنـرالاً إيطاليـا يعمل في قومسيون الحدود الألبانية اليونانيـة، وعنـد ذلـك ضربت إيطاليا جزيرة كورفو بالمدافع دون انتظار لتفـويض من العصبة، وطالبت اليونان بالتعويض، ثم سوي الموقـف باعتماد العصبة لما عملته إيطاليا.

وهناك مصدر متاعب آخر هو مدينة فيومي، وهي مدينة منحت لكرواتيا، فأغارت عليها قوة من المغامرين العسكريين بقيادة الشاعر المزهو بنفسه دانونزيو في عام ١٩١٩، وبعـد أن تبادلتها الأيدي عدة مرات صارت ملكًا لإيطاليا إلى الأبد منذ عام ١٩٢٤، وطبيعي أن هذه لم تكن إلا أمورا صـغيرة نسبيا، ولكنها كانت تحذيرا لا بأس به، ينذر بقلة التقدير الذي كانت تحظى به في أعين الناس قوانين العصبة.

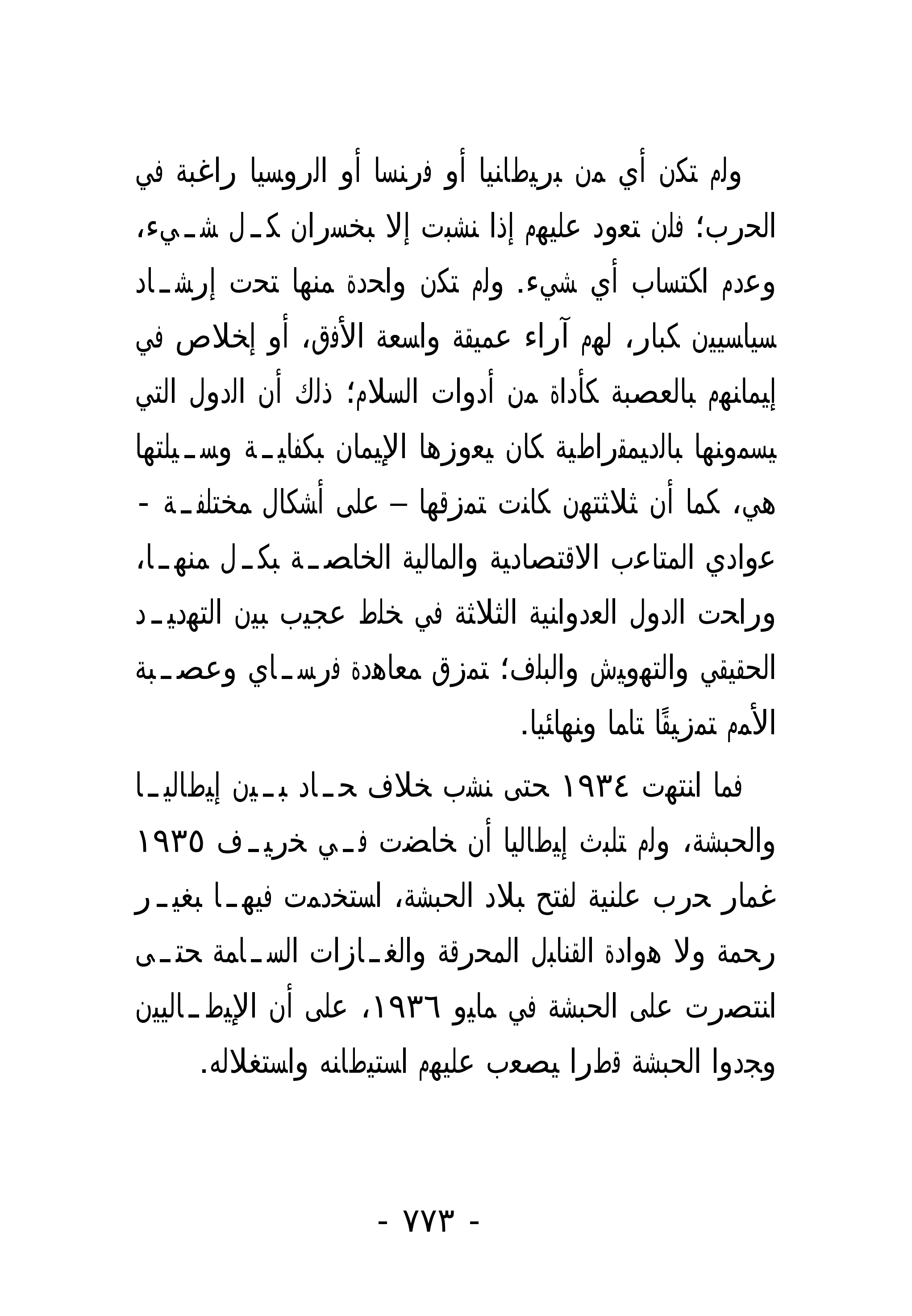
وكان الشرق الأقصى هو الميدان الذي تجلى فيه بطـلان التسوية العالمية للعصبة لأول مرة على نطاق واسـع، ولـم يظهر أي واحد من رجـال السياسـة والتـدبير الغـربيين الموقرين الذين خلقوا العصبة وأداروا مقاليد شئونها آنـذاك؛ أنه كان يفهم فهما جيدا المشكلات الخاصة العجيبة لمجتمـع

ربما بلغ عدده أربعمائة مليون إنسان، وقـد انهـار هيكلـه السياسي القديم والاجتماعي والاقتصادي في مدى جيل واحد؛ ذلك أن الصين لم تكن في نظرهم إلا واحدة من تلك الكائنات الأسطورية ذات الوجود القـانوني [أعنـي دولـة] كفرنسـا أو بريطانيا أو ألمانيا، التي كانت تستمتع بوحدة تجمع شملها، والتي تستطيع أن تقاضي الـدول ويقاضـونها، وأن تقـوم بالتعهدات وتتحمل الديون وتتجشم الجزاءات، وبينما الصـين غارقة في لجة هذه الفوضى الشاملة، أخذ نفر من المتعلمـين الصينيين يتمثلون للصين الجديدة صـورة معنويـة جديـدة، وأنشأوا منظمة هي الكومنتانج، التي ظلت بضع سنوات بعد عام ١٩١٢ تكافح في سبيل خلق "وطنية" ذات طابع عصري بالصين. ولم يكن مفر من أن تحدث في ذلك القطر الهائـل خلافات عظيمة في الرأي، وفي المشاعر المحلية الإقليميـة، وأن تتولد بها الفرص العظيمة للصوصية وقطـع الطـرق. ومما زاد الموقف تفاقما أنه على الرغم من كل مـا تدعيـه العصبة من احترام القوميات؛ سلمت لليابان مقاطعة شانتونج، التي استولت عليها ألمانيا قبل الحرب، ثم تخلت عنها اليابان، ثم عادت فاحتلتها. ويضيق هذا الكتاب الموجز عن متابعـة


ظهور وتواري الزعماء المختلفين، أمثال صن يات؛ صـن ذي النزعة العصرية، والجنرال المسيحي فـنج، والمغـولي تشانج تسولن، الذي كان يهدف إلى العرش الإمبراطـوري، كما يضيق عن ذكر تنقلات قصبة الحكم بين بكين ونـانكين وكانتون، وأدوار كراهية الأجانب والانقلاب عليهم، وتـوالى تدخل الروسيا السوفيتية واليابان في شئون الصين المرتبكة، ولكن ما لبث الناس أن تبينوا جليا أن اليابان هـي المعتـدي الأكبر ببلاد الصين، وأنها أخذت على عاتقهـا أن تواصـل طبقًا للتقاليد الاستعمارية قبل الحرب العظمى المضي قـدما حتى تسود آسيا الشرقية سيادة شاملة؛ لذا فصلت منشـوريا عن الصين في عام ١٩٣٢، واعتبرتها دولة محميـة تحـت هيمنة اليابان.

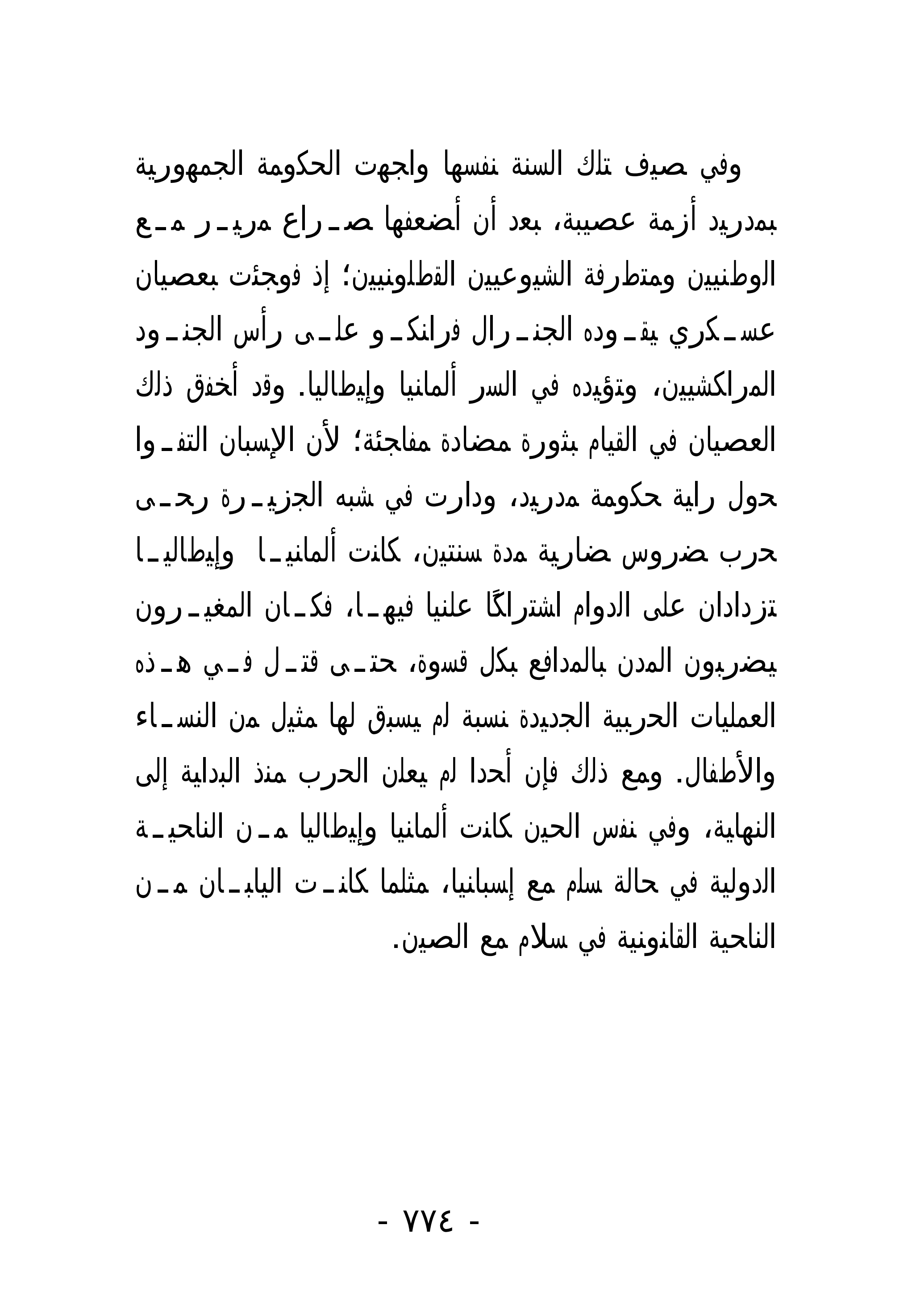
وفي غضون ذلـك أخـذ التطـور المطـرد للطيـران، وإمكانيات الحرب الجوية؛ يغير روح المتاعب الدولية بالعالم أجمع، وإن غيرها إلى ما هو أسوأ. ولكـن جميـع وزارات الخارجية أبت أن تدرك أن هذه الأسلحة الجديدة لابد أن تعدل طرق الحرب البرية والبحرية القديمة، وقد أصبحت الغواصة من حيث قوة التأثير أداة حربية قديمة الطراز، وحلت محلها

قاذفة القنابل السريعة، كما أن كل الأفكار القديمـة المتعلقـة "بالجبهة البرية"، "والطرق البحرية" قد صارت إلى اضمحلال وزاول، وكانت الدول الميالة إلى الانتقام والعـدوان أرهـف الجميع إحساسا بهذا التغير في الظروف؛ لذا راحـت تنمـي سلاحها الجوي تنمية سريعة وخفية وبالغة، أمـا بريطانيـا وفرنسا التي كان لهما تفوق عسكري لا ينازعهما فيه منازع في "العشرينيات الحمقاء من القرن"؛ فإنهما أدركتا بغتة أنهما فقدتا تفوقهما الجوي إبان الفترة التي نسميها باسم "ثلاثينيات الخوف". ولم يبرح روح ألمانيـا الجديـدة بزعامـة هتلـر وجورنج وإيطاليا الفاشية يزداد على الأيام جسـارة، فأخـذا يواجهان دول الغرب بثقة واطمئنـان متزايـدين، وأدركـت الطائفة العسكرية باليابان قيمة توزع التفات أوروبا؛ فـزادت من عدوانها على الصين؛ ومن ثم شرعت الجيوش اليابانيـة التي تسيطر آنفًا على منشوريا في غزو ولاية جيهـول فـي نهاية عام ١٩٣٢، فبلغت سور الصين الأعظـم فـي عـام ١٩٣٣.



ولم تكن أي من بريطانيا أو فرنسا أو الروسيا راغبة في الحرب؛ فلن تعود عليهم إذا نشبت إلا بخسران كـل شـيء، وعدم اكتساب أي شيء. ولم تكن واحدة منها تحت إرشـاد سياسيين كبار، لهم آراء عميقة واسعة الأفق، أو إخلاص في إيمانهم بالعصبة كأداة من أدوات السلام؛ ذلك أن الدول التي يسمونها بالديمقراطية كان يعوزها الإيمان بكفايـة وسـيلتها هي، كما أن ثلاثتهن كانت تمزقها – على أشكال مختلفـة - عوادي المتاعب الاقتصادية والمالية الخاصـة بكـل منهـا، وراحت الدول العدوانية الثلاثة في خلط عجيب بين التهديـد الحقيقي والتهويش والبلف؛ تمزق معاهدة فرسـاي وعصـبة الأمم تمزيقًا تاما ونهائيا.

فما انتهت ١٩٣٤ حتى نشب خلاف حـاد بـين إيطاليـا والحبشة، ولم تلبث إيطاليا أن خاضت فـي خريـف ١٩٣٥ غمار حرب علنية لفتح بلاد الحبشة، استخدمت فيهـا بغيـر رحمة ولا هوادة القنابل المحرقة والغـازات السـامة حتـى انتصرت على الحبشة في مايو ١٩٣٦، على أن الإيطـاليين وجدوا الحبشة قطرا يصعب عليهم استيطانه واستغلاله.

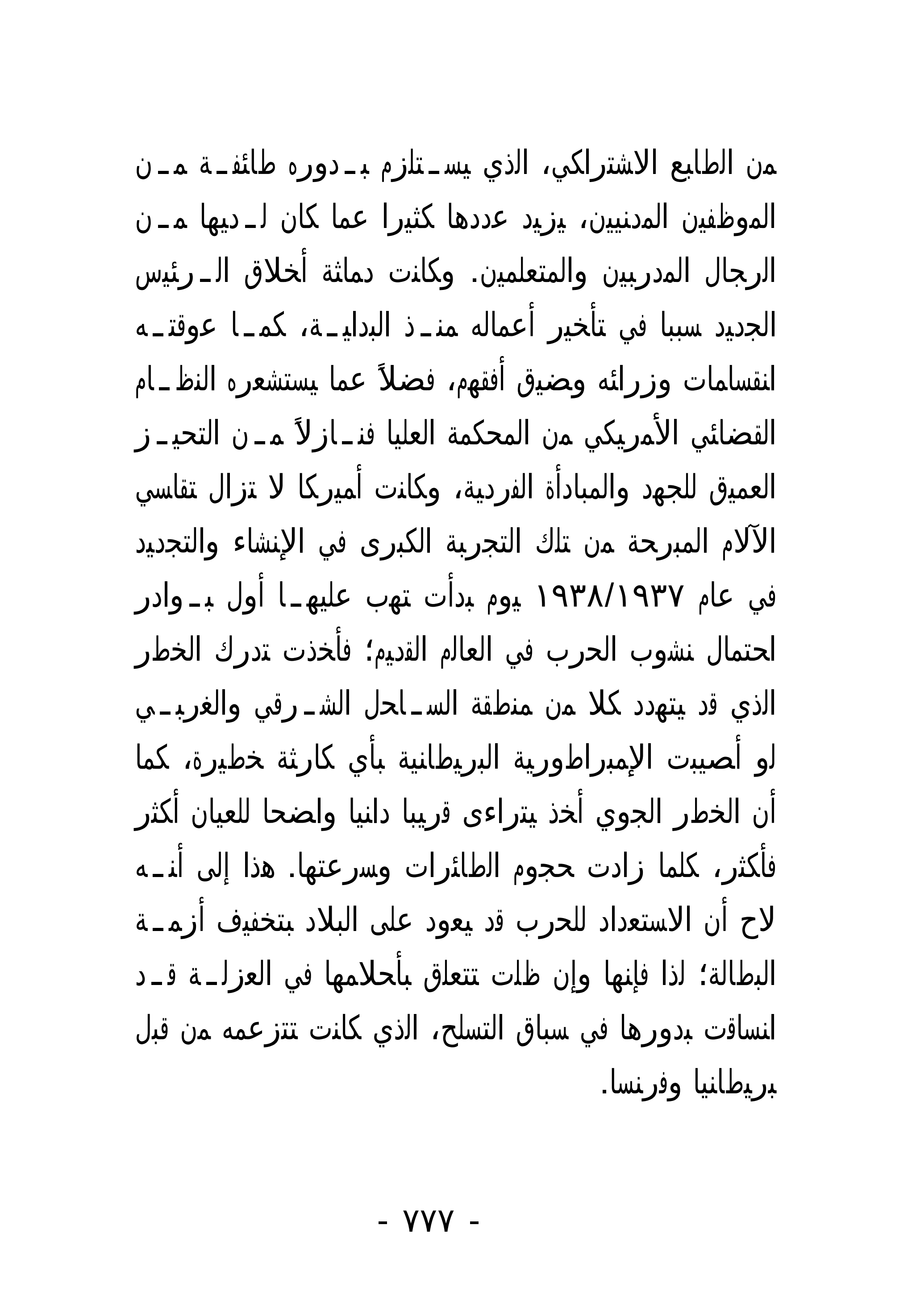


وفي صيف تلك السنة نفسها واجهت الحكومة الجمهورية بمدريد أزمة عصيبة، بعد أن أضعفها صـراع مريـر مـع الوطنيين ومتطرفة الشيوعيين القطلونيين؛ إذ فوجئت بعصيان عسـكري يقـوده الجنـرال فرانكـو علـى رأس الجنـود المراكشيين، وتؤيده في السر ألمانيا وإيطاليا. وقد أخفق ذلك العصيان في القيام بثورة مضادة مفاجئة؛ لأن الإسبان التفـوا حول راية حكومة مدريد، ودارت في شبه الجزيـرة رحـى حرب ضروس ضارية مدة سنتين، كانت ألمانيـا وإيطاليـا تزدادان على الدوام اشتراكًا علنيا فيهـا، فكـان المغيـرون يضربون المدن بالمدافع بكل قسوة، حتـى قتـل فـي هـذه العمليات الحربية الجديدة نسبة لم يسبق لها مثيل من النسـاء والأطفال. ومع ذلك فإن أحدا لم يعلن الحرب منذ البداية إلى النهاية، وفي نفس الحين كانت ألمانيا وإيطاليا مـن الناحيـة الدولية في حالة سلم مع إسبانيا، مثلما كانـت اليابـان مـن الناحية القانونية في سلام مع الصين.

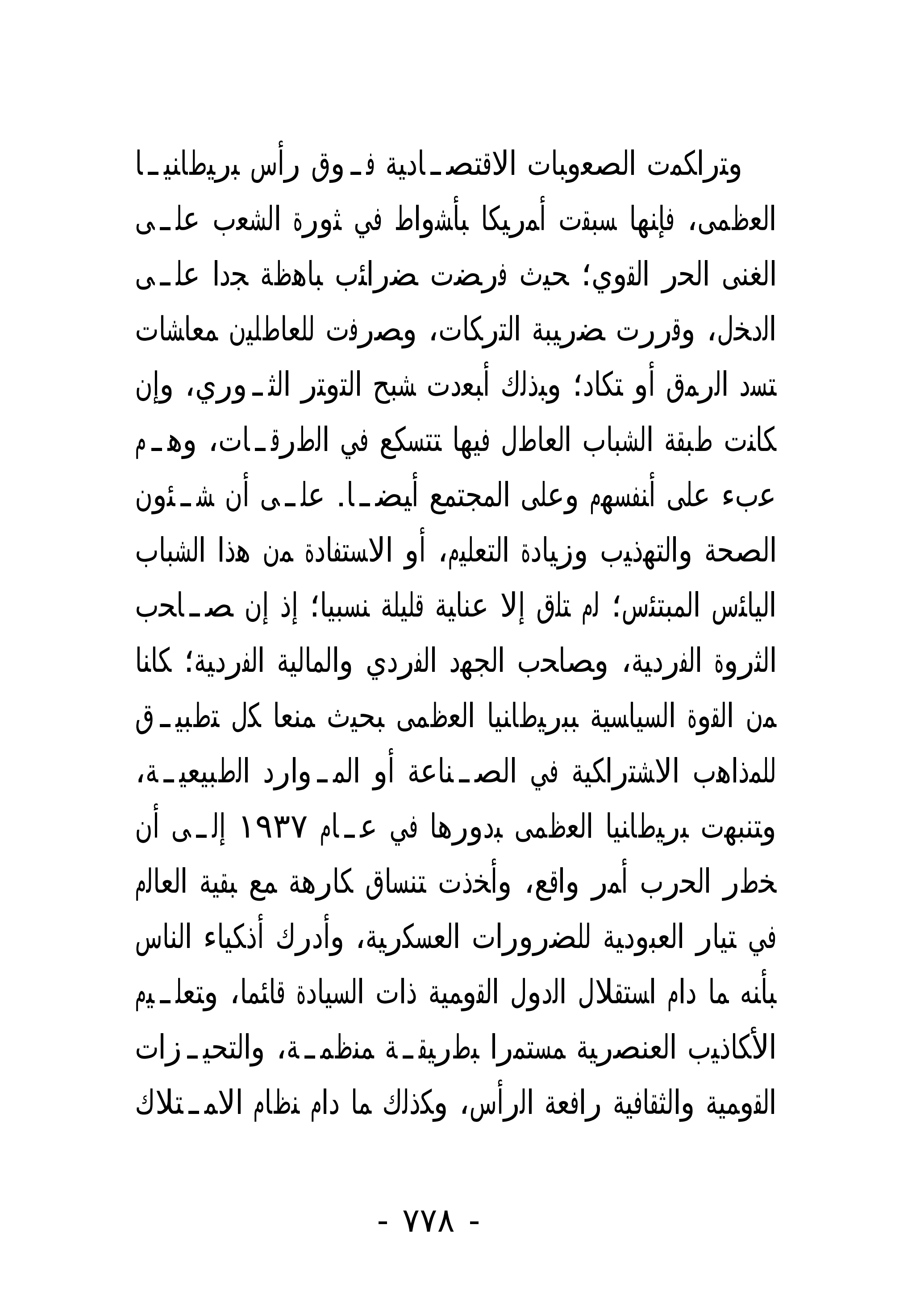
وفي ربيع عام ١٩٣٨ اجتاحت جيوش هتلر فجـأة بـلاد النمسا وضمتها لألمانيا، في تحدٍ صريح للمنع الذي نصـت عليه معاهدة فرساي في هذا الصدد، ولم تلـق الحركـة أي مقاومة فعالة لا من داخل النمسا ولا من خارجها، ومنذ ذلك الوقت صار هتلر (ومن ورائه موسوليني حليفـه المتـيقظ) المتسلط المتحكم بصورة ملحوظة وشعورية في شئون العالم، كما زاد بروز ألمانيا النازية بوصفها الدولة العزيزة الجانب، المسموعة الكلمة. على أن الخوف من الهجوم الجوي (ولعله كان خوفًا مبالغًا فيه) قد شل الدول الديمقراطية عن كل فكر أو حركة، وعندئذ ابتدأ سباق جنوني على التسلح، يفوق فـي فداحة تكاليفه وإنهاكه للدول السباق الـذي انتهـى بنشـوب الحرب العظمى (١٩١٤ – ١٩١٨).

إن عدم اتباع سياسة رائدها العزم والبساطة في تلك اللعبة الدولية، وتبخر كبرياء أمريكا وفرنسا وبريطانيا، بل حتـى ثقتها بنفسها؛ أمور لن تتضح إلا إذا أدركنا أن كل واحدة من هذه الدول صاحبة السلطان والقوة في الماضي القريب كانت تقاسي من الاضطراب العام الناجم عن الظروف الاقتصادية المتغيرة، والتي يساء فهمها وإن اختلفت صور العناء في كل

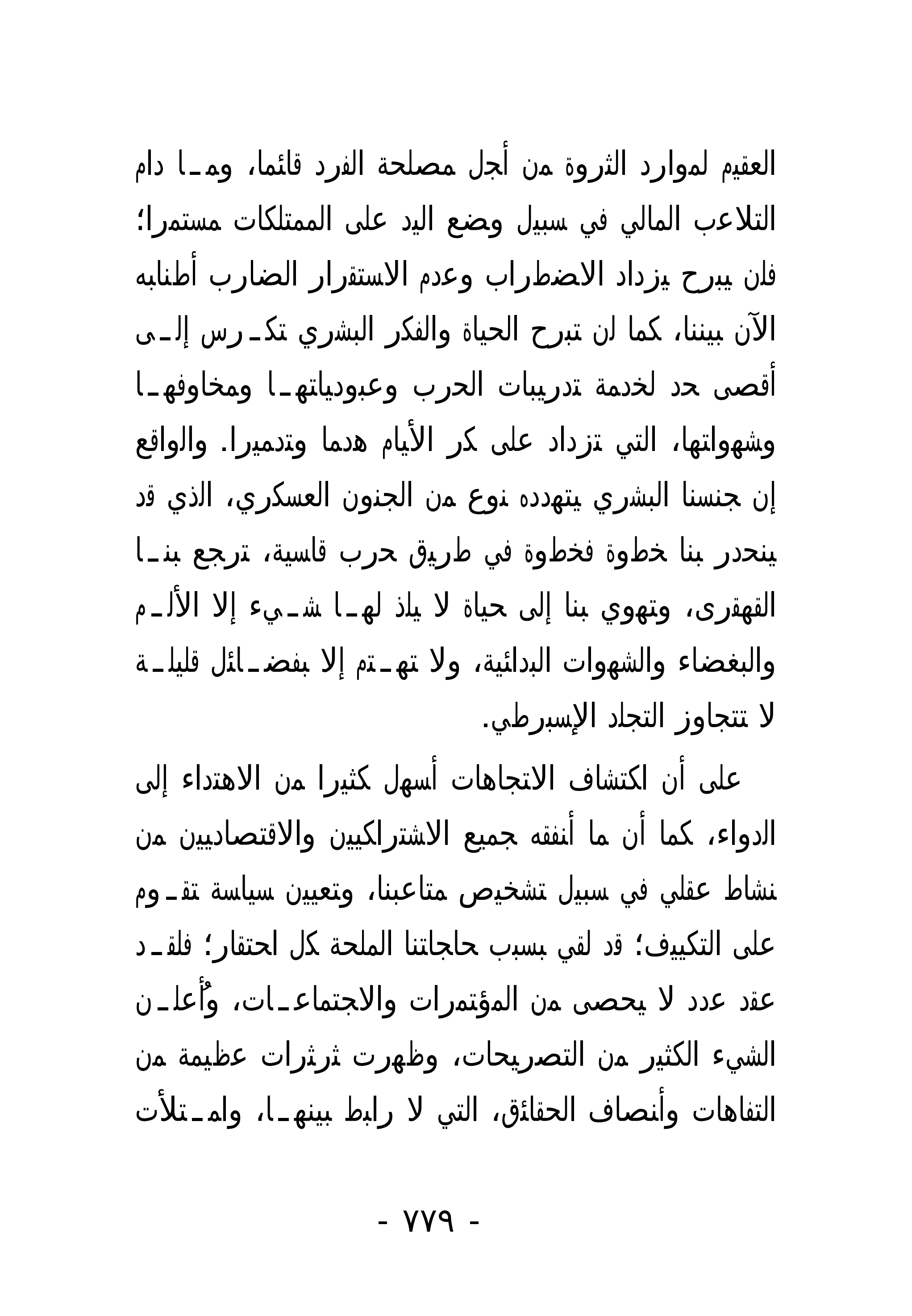
منها؛ فإنها هي أيضا كان يحدث بها انقلاب جـوهري فـي طرائق الإنتاج واضطراب في التوزيع؛ أخذا يقضيان علـى الطلب المستديم للعمال الدائمين، كما أخذا مع مضي الـزمن ونمو الصغار يضعان محل طبقة العمال المدربة القديمة طبقة أخرى من العاطلين القلقين الساخطين، وظهر أثر ذلك التوتر بالولايات المتحدة في شكل هبوط في استهلاك السلع. ولمـا كان استثمار الأموال قد انتشر انتشارا كبيرا جدا فـي أثنـاء الحرب، ثم في فترة الاستقرار المالي بعد الحرب؛ فقد نشـأ عن ذلك تهافت الناس على بيع الصكوك المالية، ومـن ثـم تولدت عنه أزمة مالية، ولم تلبث الأزمة أن مست عددا كبيرا من المصارف الأمريكية كان حرا قبل ذلك من كـل رقابـة مالية. على أن البلاد كانت حسنة الحظ في أثناء فترة الـذعر المالي (١٩٣١-١٩٣٣) التي نجمت عـن تلـك الحـال؛ إذ وجدت على رأسها زعيما هو فرانكلين روزفلـت، فوضـع البنوك تحت رقابة لم يسبق لها مثيل، وحول وجهة الدولة من النزعة الفردية التقليدية التي كانت تكدس الثـروات وتبـدد موارد البلاد في عملية التكديس تلك؛ إلى اقتصـاد مرسـوم الخطة، مطبوع بالطابع العصري؛ هو حركة النظام الجديـد The New Deal. ولكن ذلك المشروع كان يتطلب قـدرا



من الطابع الاشتراكي، الذي يستلزم بدوره طائفة من الموظفين المدنيين، يزيد عددها كثيرا عما كان لديها من الرجال المدربين والمتعلمين. وكانت دماثة أخلاق الرئيس الجديد سببا في تأخير أعماله منذ البداية، كما عوقته انقسامات وزرائه وضيق أفقهم، فضلاً عما يستشعره النظام القضائي الأمريكي من المحكمة العليا فنازلاً من التحيز العميق للجهد والمبادأة الفردية، وكانت أميركا لا تزال تقاسي الآلام المبرحة من تلك التجربة الكبرى في الإنشاء والتجديد في عام ١٩٣٨/١٩٣٧ يوم بدأت تهب عليها أول بوادر احتمال نشوب الحرب في العالم القديم؛ فأخذت تدرك الخطر الذي قد يتهدد كلا من منطقة الساحل الشرقي والغربي لو أصيبت الإمبراطورية البريطانية بأي كارثة خطيرة، كما أن الخطر الجوي أخذ يتراءى قريبا دانيا واضحا للعيان أكثر فأكثر، كلما زادت حجوم الطائرات وسرعتها. هذا إلى أنه لاح أن الاستعداد للحرب قد يعود على البلاد بتخفيف أزمة البطالة؛ لذا فإنها وإن ظلت تتعلق بأحلامها في العزلة قد انساقت بدورها في سباق التسلح، الذي كانت تتزعمه من قبل بريطانيا وفرنسا.



وتراكمت الصعوبات الاقتصـادية فـوق رأس بريطانيـا العظمى، فإنها سبقت أمريكا بأشواط في ثورة الشعب علـى الغنى الحر القوي؛ حيث فرضت ضرائب باهظة جدا علـى الدخل، وقررت ضريبة التركات، وصرفت للعاطلين معاشات تسد الرمق أو تكاد؛ وبذلك أبعدت شبح التوتر الثـوري، وإن كانت طبقة الشباب العاطل فيها تتسكع في الطرقـات، وهـم عبء على أنفسهم وعلى المجتمع أيضـا. علـى أن شـئون الصحة والتهذيب وزيادة التعليم، أو الاستفادة من هذا الشباب اليائس المبتئس؛ لم تلق إلا عناية قليلة نسبيا؛ إذ إن صـاحب الثروة الفردية، وصاحب الجهد الفردي والمالية الفردية؛ كانا من القوة السياسية ببريطانيا العظمى بحيث منعا كل تطبيـق للمذاهب الاشتراكية في الصـناعة أو المـوارد الطبيعيـة، وتنبهت بريطانيا العظمى بدورها في عـام ١٩٣٧ إلـى أن خطر الحرب أمر واقع، وأخذت تنساق كارهة مع بقية العالم في تيار العبودية للضرورات العسكرية، وأدرك أذكياء الناس بأنه ما دام استقلال الدول القومية ذات السيادة قائما، وتعاليـم الأكاذيب العنصرية مستمرا بطريقـة منظمـة، والتحيـزات القومية والثقافية رافعة الرأس، وكذلك ما دام نظام الامـتلاك



العقيم لموارد الثروة من أجل مصلحة الفرد قائما، ومـا دام التلاعب المالي في سبيل وضع اليد على الممتلكات مستمرا؛ فلن يبرح يزداد الاضطراب وعدم الاستقرار الضارب أطنابه الآن بيننا، كما لن تبرح الحياة والفكر البشري تكـرس إلـى أقصى حد لخدمة تدريبات الحرب وعبودياتهـا ومخاوفهـا وشهواتها، التي تزداد على كر الأيام هدما وتدميرا. والواقع إن جنسنا البشري يتهدده نوع من الجنون العسكري، الذي قد ينحدر بنا خطوة فخطوة في طريق حرب قاسية، ترجع بنـا القهقرى، وتهوي بنا إلى حياة لا يلذ لهـا شـيء إلا الألـم والبغضاء والشهوات البدائية، ولا تهـتم إلا بفضـائل قليلـة لا تتجاوز التجلد الإسبرطي.

على أن اكتشاف الاتجاهات أسهل كثيرا من الاهتداء إلى الدواء، كما أن ما أنفقه جميع الاشتراكيين والاقتصاديين من نشاط عقلي في سبيل تشخيص متاعبنا، وتعيين سياسة تقـوم على التكييف؛ قد لقي بسبب حاجاتنا الملحة كل احتقار؛ فلقـد عقد عدد لا يحصى من المؤتمرات والاجتماعـات، وأُعلـن الشيء الكثير من التصريحات، وظهرت ثرثرات عظيمة من التفاهات وأنصاف الحقائق، التي لا رابط بينهـا، وامـتلأت

الآفاق بدعوة التآزر والتناسق دون أي تضحية بالذات، وعم العالم تلهف على شيء اسمه السلام، دون مبادرة عظيمة إلى إنشاء حياة سليمة وقوية وخلاقة. ومن العجيب أن كل دعوة للتهدئة والسلم تنطوي على عنصر جسيم من الكسل والتراخي، وإذا قدر للناس يوما أن يجمعوا في أيديهم من القوة ما يكفل قيام منظمة للسلام تتصف بالكفاية في أرجاء العالم وصيانتها؛ فلن يتم ذلك عن طريق محفوف بالورود، خالٍ من كل مقاومة. ألا ترى أن السلم الروماني Pax Romana كان ثمرة الاستيلاء والفتح، فكذلك السلام العالمي (Pax Vunid) يتطلب بالتأكيد تصميما وعزما راسخًا، ومعالجة حازمة لكل تمنع أو معاندة.

الفصل التاسع والستون

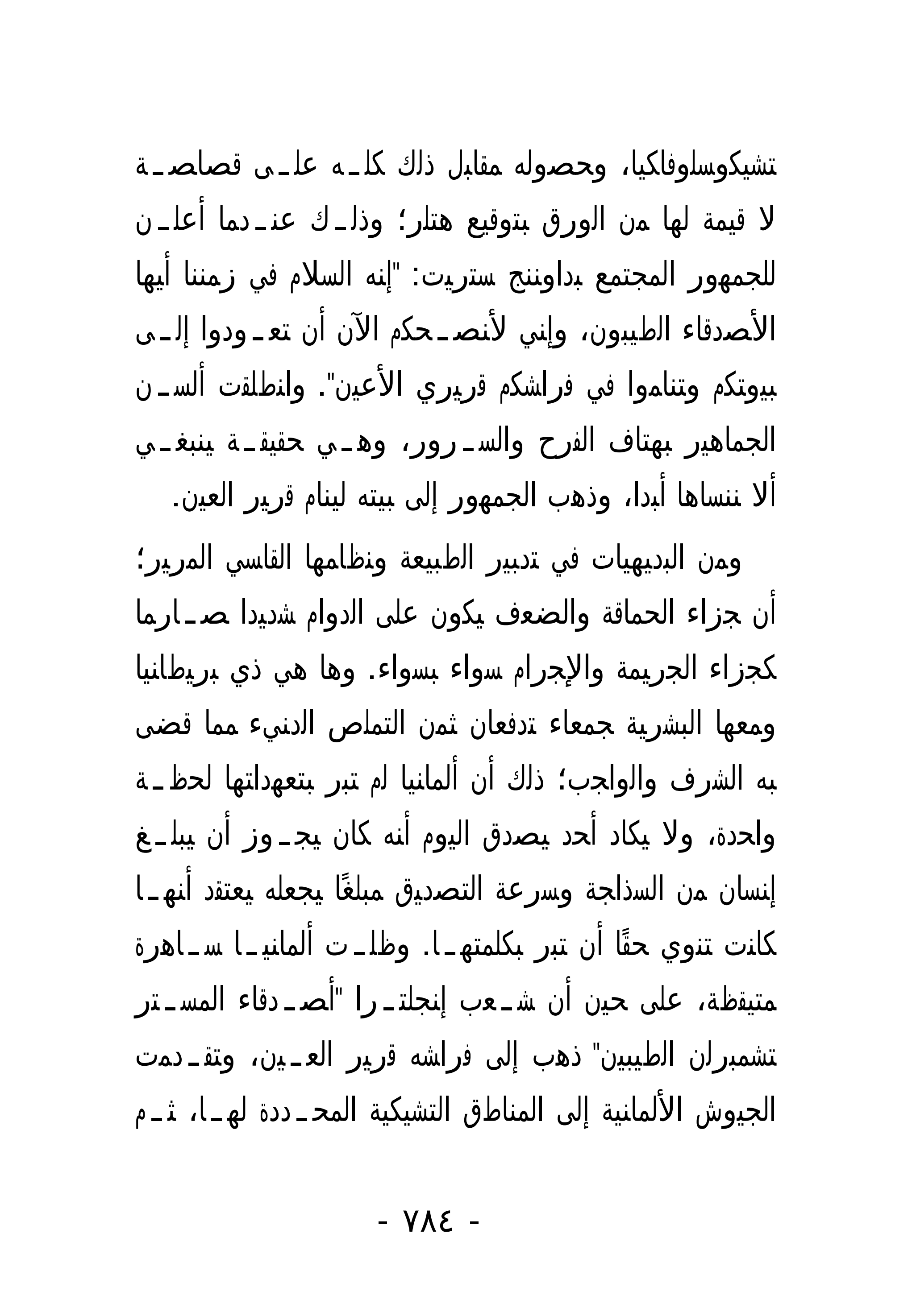
الحرب العالمية الثانية

سنقص الآن في تفصيل نبأ الأحداث المتعاقبة التـي أدت إلى نشوب الحرب التي لا تزال رحاها تدور اليوم[1].

ففي مارس ١٩٣٨ اقترح المستر لتفينوف وزير الخارجية الروسية أن تعقد حكومات بريطانيا وفرنسا وأمريكا والروسيا السوفيتية مؤتمرا للتباحث في ضرورة القيام مجتمعين بعمل مشترك لمنع العدوان في المستقبل، وخاصـة فـي أواسـط أوروبا. ولم تُدع ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان للمشاركة فـي هذا التشاور؛ وذلك كما قال المستر لتفينوف: "لأننا لا نريـد أن نتناقش في أمر العدوان مع المعتدي نفسه". وكـان ذلـك اقتراحا واضحا بسيطًا ربما أمكن به تجنب الحرب الأوروبية تماما، أو القضاء عليها على الأقل قبل أن تستفحل، بيـد أن جنون كراهية الشيوعية لدى الأغلبية البريطانيـة المحافظـة كان أقوى كثيرا من خوفها من الخطر الألماني. وقد ظل هذا الاقتراح الـذي ردد صـداه سـتالين فـي مـارس ١٩٣٩ ومولوتوف في مايو؛ سياسة الروسيا العلنية الدائمة إلى مـا قبل إعلان الحرب على ألمانيا بوقت يسير، حتـى بعـد أن ظهر أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد أبت أن تتضـامن مـع الروسيا لحماية الولايات البلطيقية من الاعتداء الألماني.

([1]) كتب المؤلف هذا الفصل قبل أن تنتهي الحرب كما هو واضح من السياق.

وكانت الخطوة التالية في البرنامج الألماني هي القضـاء على تشيكوسلوفاكيا، فإن ضم النمسا لألمانيا جعل ذلك البلـد الصغير الهام القوي الشكيمة محاطًا بالألمان من ثلاث نواحٍ، وعندئذ بدأت أبواق الدعاية في بث دعوة صـاخبة مجلجلـة دفاعا عن الألمان، الذين أصر واضـعو معاهـدة فرسـاي (تمسكًا بفكرة التخوم الاستراتيجية الحربية) على ضمهم إلى بوهيميا، وتلت ذلك تهديـدات بـإعلان الحـرب، وبعـض مفاوضات هزلية عجيبة، والواقع إنها كانت هزلية وعجيبـة حقًا، فلئن اختارت ألمانيا أن تواجه العالم في شخص مجنون معتدٍ قاسٍ؛ فإن بريطانيا بدورها قد وقـع اختيارهـا علـى المستر تشمبرلن المغرور عديم الكفاية، المعاند الغر رئيسـا للدولة؛ ذلك أن غدواته وروحاته إلى ألمانيـا فـي سـبتمبر عام ١٩٣٨ أصبحت اليوم مصدر الأسف الشديد والمهاترات المريرة لدى كل إنجليزي ذكي، ولكن لا يغرب عن البال أنه عندما عاد إلى مطار هستن بعد تخليه عن الـدكتور بنـيش، ونبذه الضرورة الواضحة القاضية بالمبادرة إلى قمع ألمانيـا قمعا جماعيا مشتركًا بـين الروسـيا وفرنسـا وبريطانيـا وتشيكوسلوفاكيا، وبعد تسليمه كل ميزة عسكرية امتازت بها

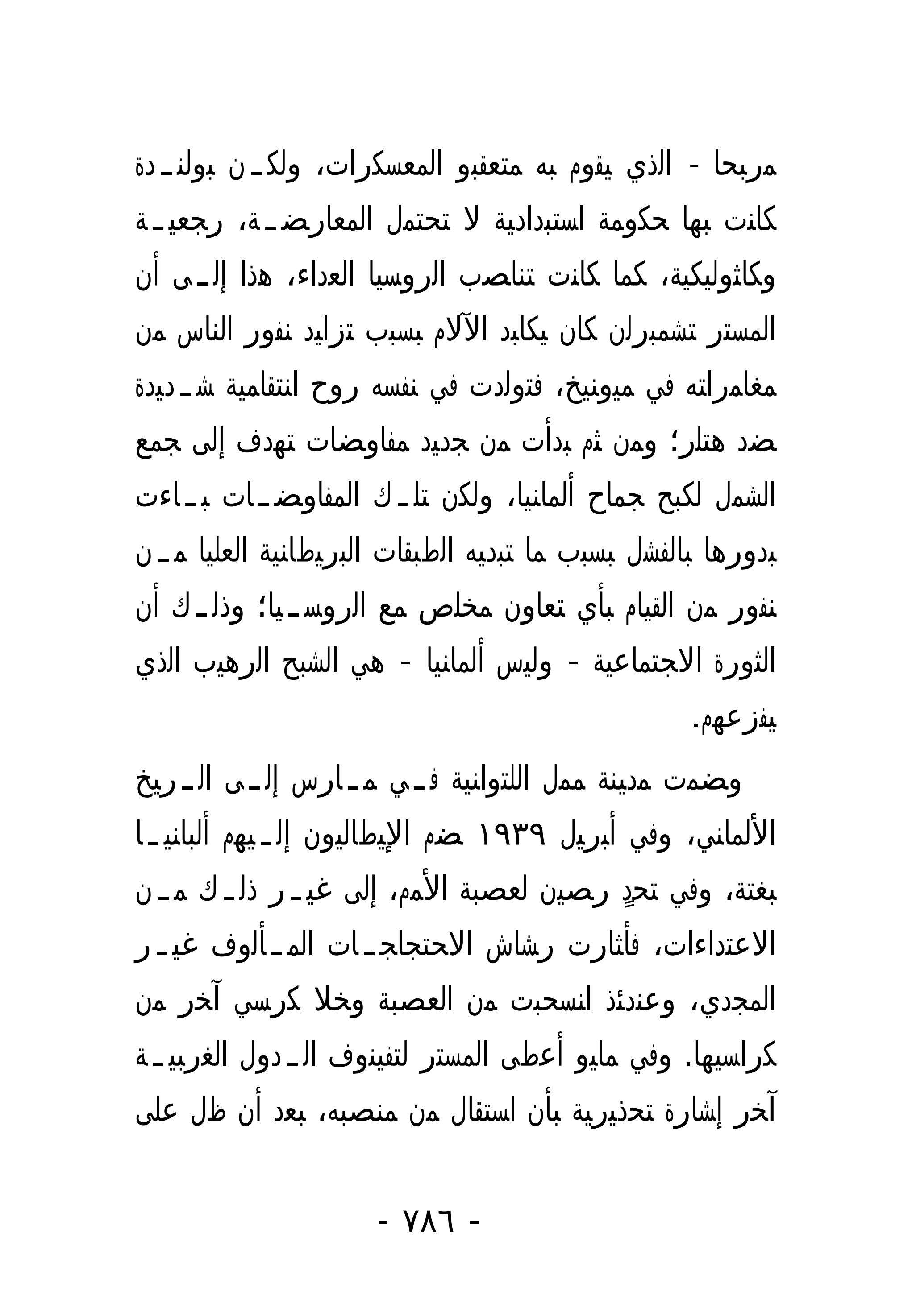


تشيكوسلوفاكيا، وحصوله مقابل ذلك كلـه علـى قصاصـة لا قيمة لها من الورق بتوقيع هتلر؛ وذلـك عنـدما أعلـن للجمهور المجتمع بداوننج ستريت: "إنه السلام في زمننا أيها الأصدقاء الطيبون، وإني لأنصـحكم الآن أن تعـودوا إلـى بيوتكم وتناموا في فراشكم قريري الأعين". وانطلقت ألسـن الجماهير بهتاف الفرح والسـرور، وهـي حقيقـة ينبغـي ألا ننساها أبدا، وذهب الجمهور إلى بيته لينام قرير العين.

ومن البديهيات في تدبير الطبيعة ونظامها القاسي المرير؛ أن جزاء الحماقة والضعف يكون على الدوام شديدا صـارما كجزاء الجريمة والإجرام سواء بسواء. وها هي ذي بريطانيا ومعها البشرية جمعاء تدفعان ثمن التماص الدنيء مما قضى به الشرف والواجب؛ ذلك أن ألمانيا لم تبر بتعهداتها لحظـة واحدة، ولا يكاد أحد يصدق اليوم أنه كان يجـوز أن يبلـغ إنسان من السذاجة وسرعة التصديق مبلغًا يجعله يعتقد أنهـا كانت تنوي حقًا أن تبر بكلمتهـا. وظلـت ألمانيـا سـاهرة متيقظة، على حين أن شـعب إنجلتـرا "أصـدقاء المسـتر تشمبرلن الطيبين" ذهب إلى فراشه قرير العـين، وتقـدمت الجيوش الألمانية إلى المناطق التشيكية المحـددة لهـا، ثـم

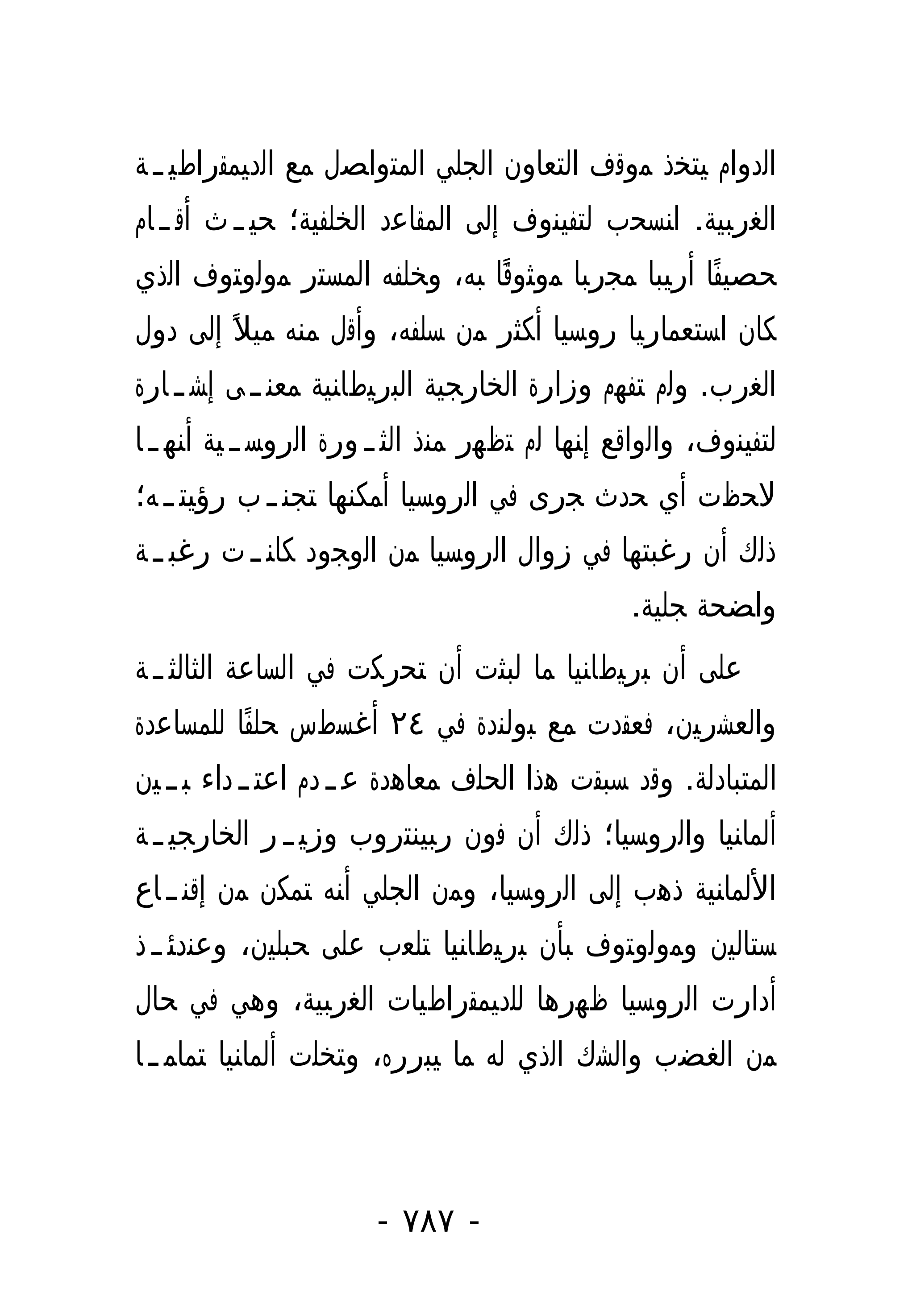
واصلت سيرها فأثارت استياء المستر تشمبرلن، وزالت تشيكوسلوفاكيا من الوجود في مارس ١٩٣٩، وأخذت مصانع سكودا تنتج الذخائر للجيوش الألمانية التي أخذت قوتها تتضاعف بمرور الوقت، ولم تلبث بولندة والمجر أن وثبتا بشراهة على الدولة الصريعة، غير آبهة بما قد يصيبها هي نفسها، فالتهمت بولندة منطقة تشكن  Tescten، واستولت المجر على سلخة من منطقة أوكرانيا.

ولم تترك بولندة مدة طويلة تهنأ فيها بسلام بامتلاك أملاكها الجديدة؛ إذ إنها كانت الهدف الثاني للزحف الألماني، وهنا جعلت مسألة دانزج سببا ظاهريا للخلاف الواضح المعروف، وأخذ الموقف يتطور سريعا، ولكن تردد المستر تشمبرلن وبلاده بريطانيا أصبح يدعو إلى المزيد من الرثاء. ومن قبل جبنت بريطانيا عن الدفاع عن تشيكوسلوفاكيا، وكان ذلك راجعا إلى حد كبير إلى خشيتها من البلشفية وشكوكها فيها. وكانت لا تزال فيما يظهر تصدق قول هتلر بأن غرضه الحقيقي هو تحطيم الشيوعية، كما لا تزال تداعبها الآمال في أن تزحف ألمانيا شرقًا، على حين أن كل ما فعله الغرب هو القيام بالدور غير الكريم – وإن يكن



مربحا - الذي يقوم به متعقبو المعسكرات، ولكـن بولنـدة كانت بها حكومة استبدادية لا تحتمل المعارضـة، رجعيـة وكاثوليكية، كما كانت تناصب الروسيا العداء، هذا إلـى أن المستر تشمبرلن كان يكابد الآلام بسبب تزايد نفور الناس من مغامراته في ميونيخ، فتولدت في نفسه روح انتقامية شـديدة ضد هتلر؛ ومن ثم بدأت من جديد مفاوضات تهدف إلى جمع الشمل لكبح جماح ألمانيا، ولكن تلـك المفاوضـات بـاءت بدورها بالفشل بسبب ما تبديه الطبقات البريطانية العليا مـن نفور من القيام بأي تعاون مخاص مع الروسـيا؛ وذلـك أن الثورة الاجتماعية - وليس ألمانيا - هي الشبح الرهيب الذي يفزعهم.

وضمت مدينة ممل اللتوانية فـي مـارس إلـى الـريخ الألماني، وفي أبريل ١٩٣٩ ضم الإيطاليون إلـيهم ألبانيـا بغتة، وفي تحدٍ رصين لعصبة الأمم، إلى غيـر ذلـك مـن الاعتداءات، فأثارت رشاش الاحتجاجـات المـألوف غيـر المجدي، وعندئذ انسحبت من العصبة وخلا كرسي آخر من كراسيها. وفي مايو أعطى المستر لتفينوف الـدول الغربيـة آخر إشارة تحذيرية بأن استقال من منصبه، بعد أن ظل على

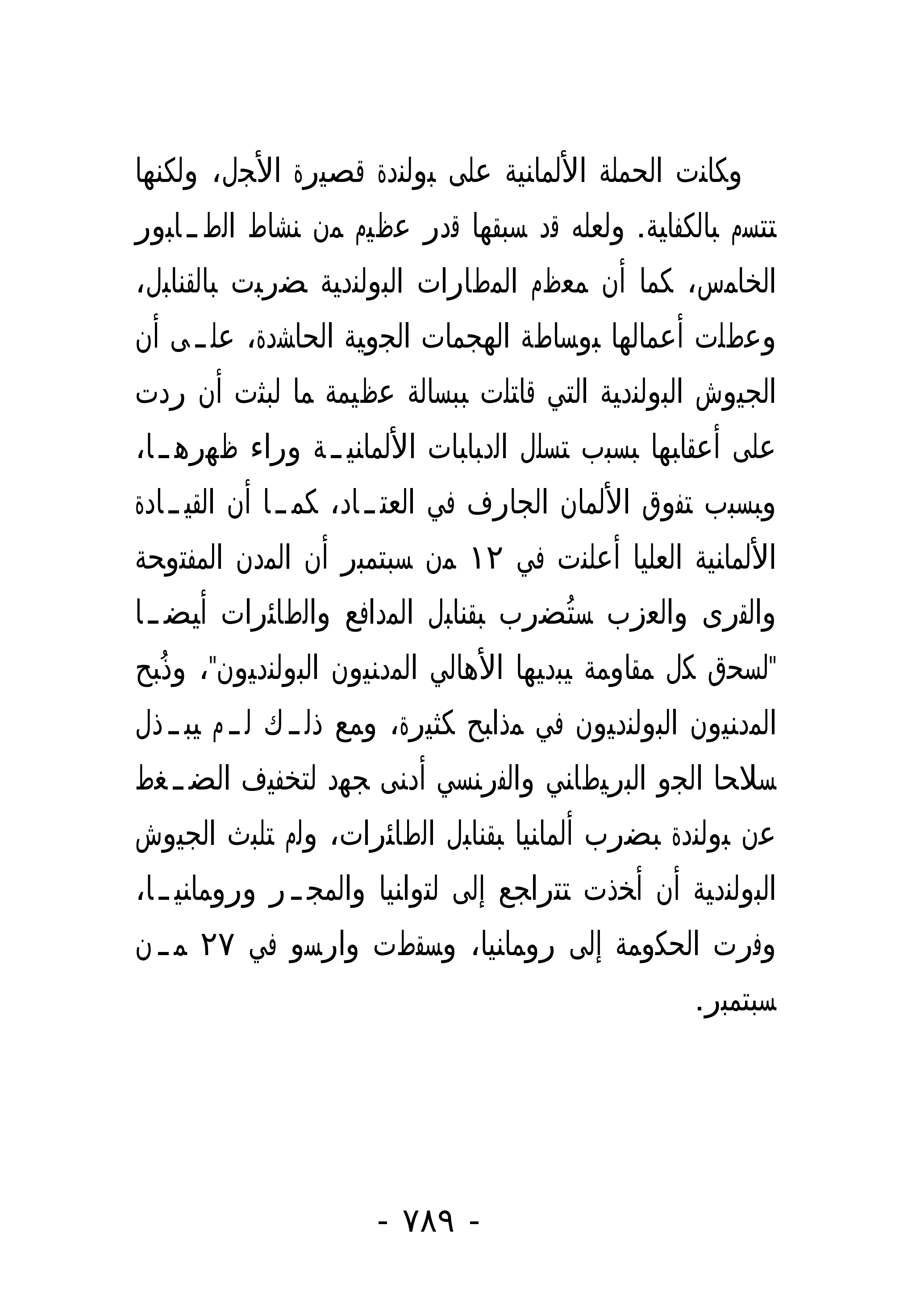


الدوام يتخذ موقف التعاون الجلي المتواصل مع الديمقراطيـة الغربية. انسحب لتفينوف إلى المقاعد الخلفية؛ حيـث أقـام حصيفًا أريبا مجربا موثوقًا به، وخلفه المستر مولوتوف الذي كان استعماريا روسيا أكثر من سلفه، وأقل منه ميلاً إلى دول الغرب. ولم تفهم وزارة الخارجية البريطانية معنـى إشـارة لتفينوف، والواقع إنها لم تظهر منذ الثـورة الروسـية أنهـا لاحظت أي حدث جرى في الروسيا أمكنها تجنـب رؤيتـه؛ ذلك أن رغبتها في زوال الروسيا من الوجود كانـت رغبـة واضحة جلية.

على أن بريطانيا ما لبثت أن تحركت في الساعة الثالثـة والعشرين، فعقدت مع بولندة في ٢٤ أغسطس حلفًا للمساعدة المتبادلة. وقد سبقت هذا الحلف معاهدة عـدم اعتـداء بـين ألمانيا والروسيا؛ ذلك أن فون ريبنتروب وزيـر الخارجيـة الألمانية ذهب إلى الروسيا، ومن الجلي أنه تمكن من إقنـاع ستالين ومولوتوف بأن بريطانيا تلعب على حبلين، وعندئـذ أدارت الروسيا ظهرها للديمقراطيات الغربية، وهي في حال من الغضب والشك الذي له ما يبرره، وتخلت ألمانيا تمامـا

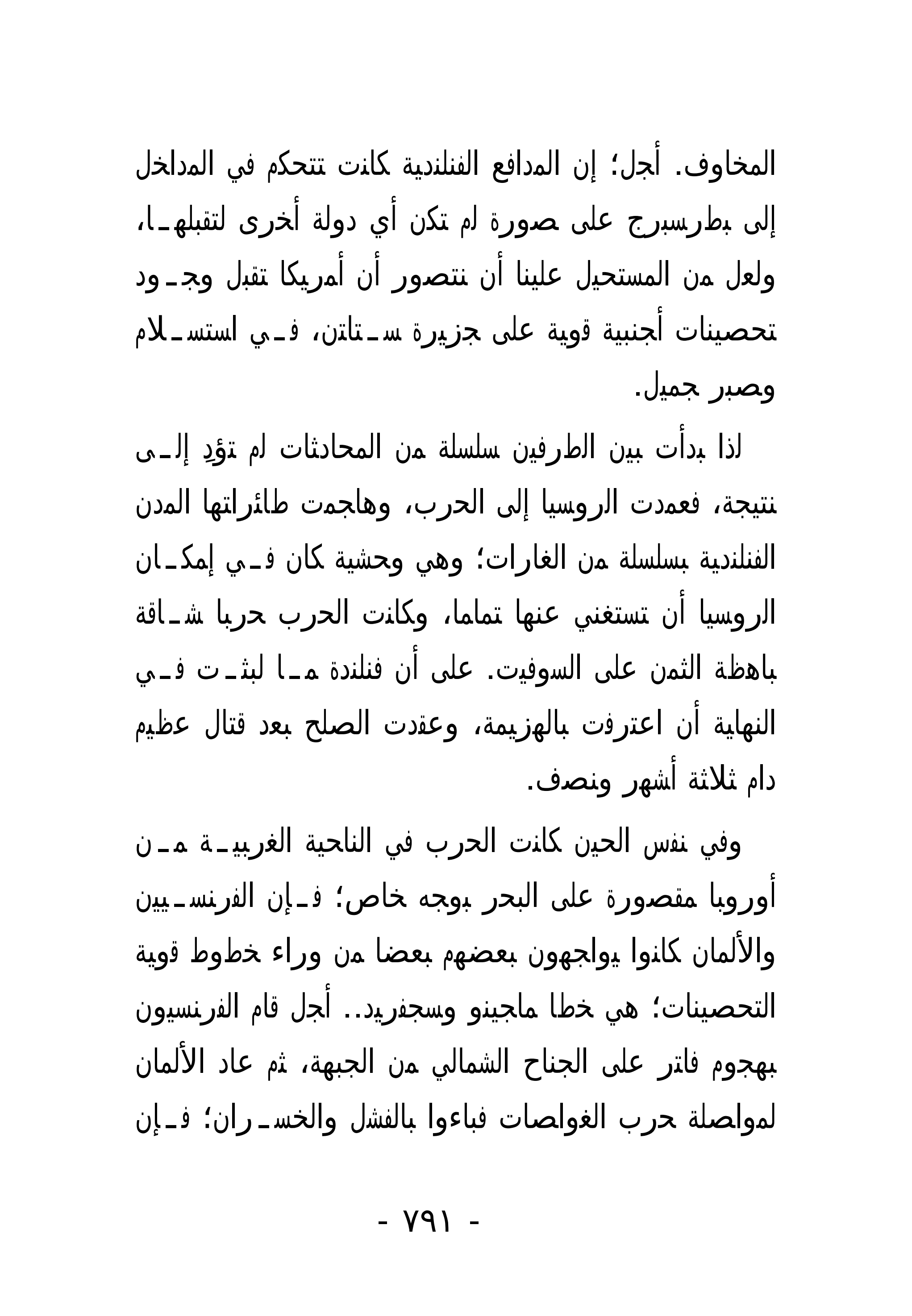
عن كل ما كانت تدعيه من العداء للكومنترن[1]؛ ذلك العـداء الذي كان له حتى آنذاك أكبر الفضل في وجود عطف علـى النازية بين الطبقات المسموعة الكلمـة بفرنسـا وبريطانيـا العظمى، فإن هذا العداء قد أدى الغرض المطلوب منه؛ فـإن الألمان اجتازوا حدود بولندة فـي أول سـبتمبر، وأعلنـت بريطانيا وفرنسا الحرب في الثالث من سبتمبر. وهكذا صحا سكان بريطانيا الطيبون قريرو الأعـين مـن نـومهم، وإذا بلادهم مشتبكة في الحرب مع أحكم وأدق الشعوب المقاتلـة تنظيما، وإذا بهم يجدون أنفسـهم ناقصـي العتـاد، وغيـر مستعدين للحرب، وعلى رأسهم حكومة ظاهرة العجز عديمة الكفاية، غير جديرة بالثقة، وقد نفر منهم تماما في ذات الحين أقوى حلفائهم شكيمة، ومع ذلك فإنهم قضوا نصـف السـنة التالية في حال من السبات العميق؛ وذلك لسـوء اسـتعدادهم عسكريا ونفسيا، ولأنهم طمئنوا تطمينًا غير كريم.

([1]) الكومنترن: هي الهيئة الشيوعية الدولية، أو الهيئة الدولية الثالثـة. [المترجم]



وكانت الحملة الألمانية على بولندة قصيرة الأجل، ولكنها تتسم بالكفاية. ولعله قد سبقها قدر عظيم من نشاط الطـابور الخامس، كما أن معظم المطارات البولندية ضربت بالقنابل، وعطلت أعمالها بوساطة الهجمات الجوية الحاشدة، علـى أن الجيوش البولندية التي قاتلت ببسالة عظيمة ما لبثت أن ردت على أعقابها بسبب تسلل الدبابات الألمانيـة وراء ظهرهـا، وبسبب تفوق الألمان الجارف في العتـاد، كمـا أن القيـادة الألمانية العليا أعلنت في ١٢ من سبتمبر أن المدن المفتوحة والقرى والعزب ستُضرب بقنابل المدافع والطائرات أيضـا "لسحق كل مقاومة يبديها الأهالي المدنيون البولنديون"، وذُبح المدنيون البولنديون في مذابح كثيرة، ومع ذلـك لـم يبـذل سلاحا الجو البريطاني والفرنسي أدنى جهد لتخفيف الضـغط عن بولندة بضرب ألمانيا بقنابل الطائرات، ولم تلبث الجيوش البولندية أن أخذت تتراجع إلى لتوانيا والمجـر ورومانيـا، وفرت الحكومة إلى رومانيا، وسقطت وارسو في ٢٧ مـن سبتمبر.

وفي السادس عشر من سبتمبر عبرت الجيوش الروسـية الحدود البولندية دون أن تلقى إلا مقاومة ضئيلة؛ وذلك بعـد أن أدركت الحكومة الروسية أن بولندة قد غُلبت على أمرها تماما، وتقدمت تلك القوات إلى نفس التخـوم التـي كانـت للروسـيا بـين عـامي ١٩١٨ و١٩٢٠ بمقتضـى اتفاقيـة كيرزون، وقل جدا من أجزاء تلك المنطقة التي عادوا إلـى امتلاكها؛ ما كان به من سكان بولنديين حقيقيين. وعند ذلـك ردت إلى لتوانيا مدينة فلنا، التي أُخذت من قبل تحديا لعصبة الأمم، ثم اتجهت الروسيا بعد ذلك إلى عقد الاتفاقيـات مـع دول البلطيق الثلاث (التي رفضت فرنسـا وبريطانيـا كمـا ذكرنا قبل ذلك أن تمنحاها ضـمانًا مشـتركًا)، وتـم لهـا بمقتضاها التحكم الفعلي في وسائل دفاعها الجوية والساحلية، بوساطة القوات الروسية، واتضح للعيان أن الروسيا رأت أن تستفيد من الموقف لتقوية قبضتها وهيمنتها على سواحل بحر البلطيق؛ ذلك أنها كانت على الـدوام فـي خـوف مـن أن تهاجمها الدول الرأسمالية مجتمعة، وكـان لهـا مـا يبـرر اعتقادها في أن تعد فنلندة رأس الحربة التـي يأتيهـا هـذا الهجوم من قبلها، وربما كانت الروسـيا مبالغـة فـي هـذه



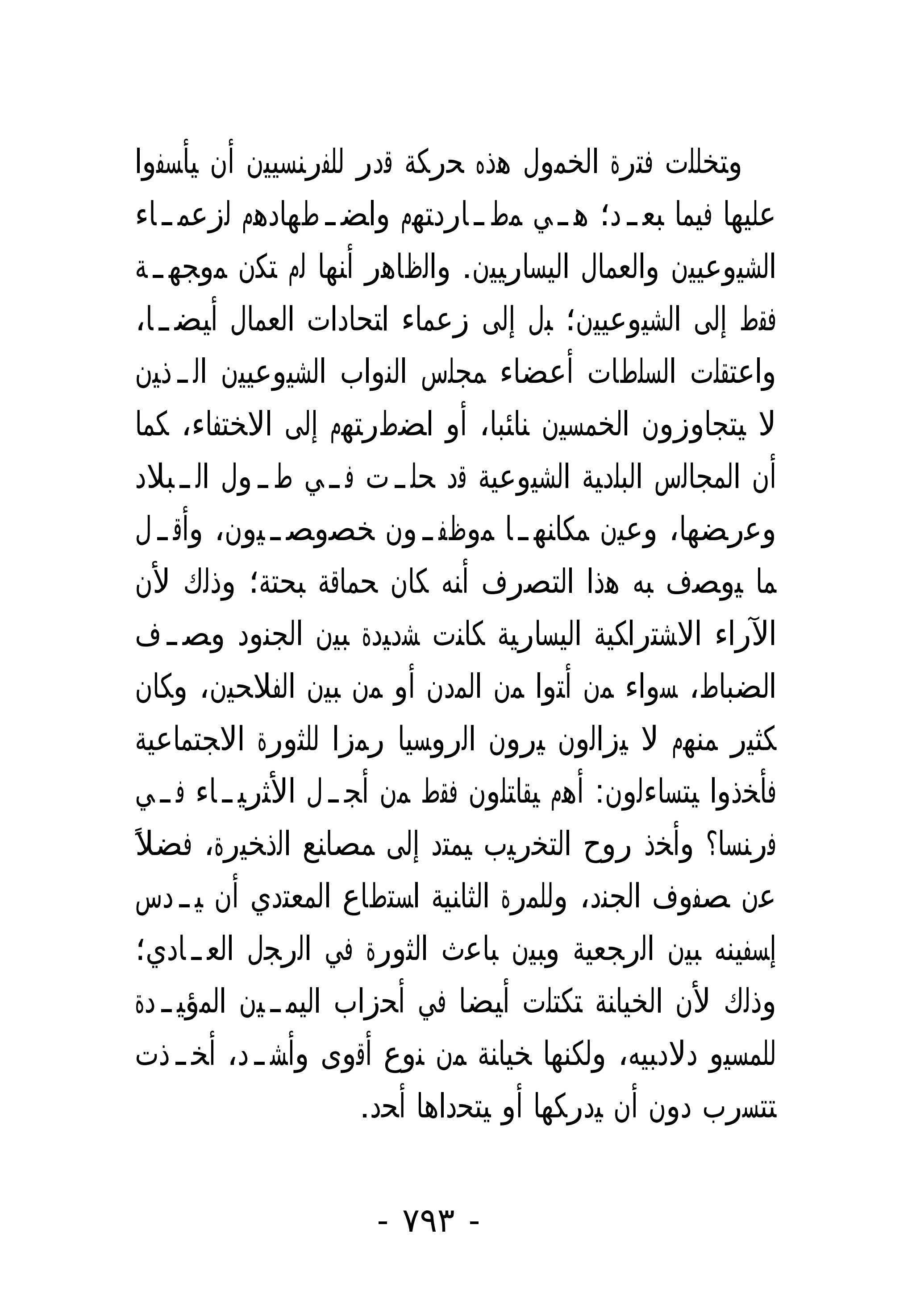
المخاوف. أجل؛ إن المدافع الفنلندية كانت تتحكم في المداخل إلى بطرسبرج على صورة لم تكن أي دولة أخرى لتقبلهـا، ولعل من المستحيل علينا أن نتصور أن أمريكا تقبل وجـود تحصينات أجنبية قوية على جزيرة سـتاتن، فـي استسـلام وصبر جميل.

لذا بدأت بين الطرفين سلسلة من المحادثات لم تؤدِ إلـى نتيجة، فعمدت الروسيا إلى الحرب، وهاجمت طائراتها المدن الفنلندية بسلسلة من الغارات؛ وهي وحشية كان فـي إمكـان الروسيا أن تستغني عنها تماما، وكانت الحرب حربا شـاقة باهظة الثمن على السوفيت. على أن فنلندة مـا لبثـت فـي النهاية أن اعترفت بالهزيمة، وعقدت الصلح بعد قتال عظيم دام ثلاثة أشهر ونصف.

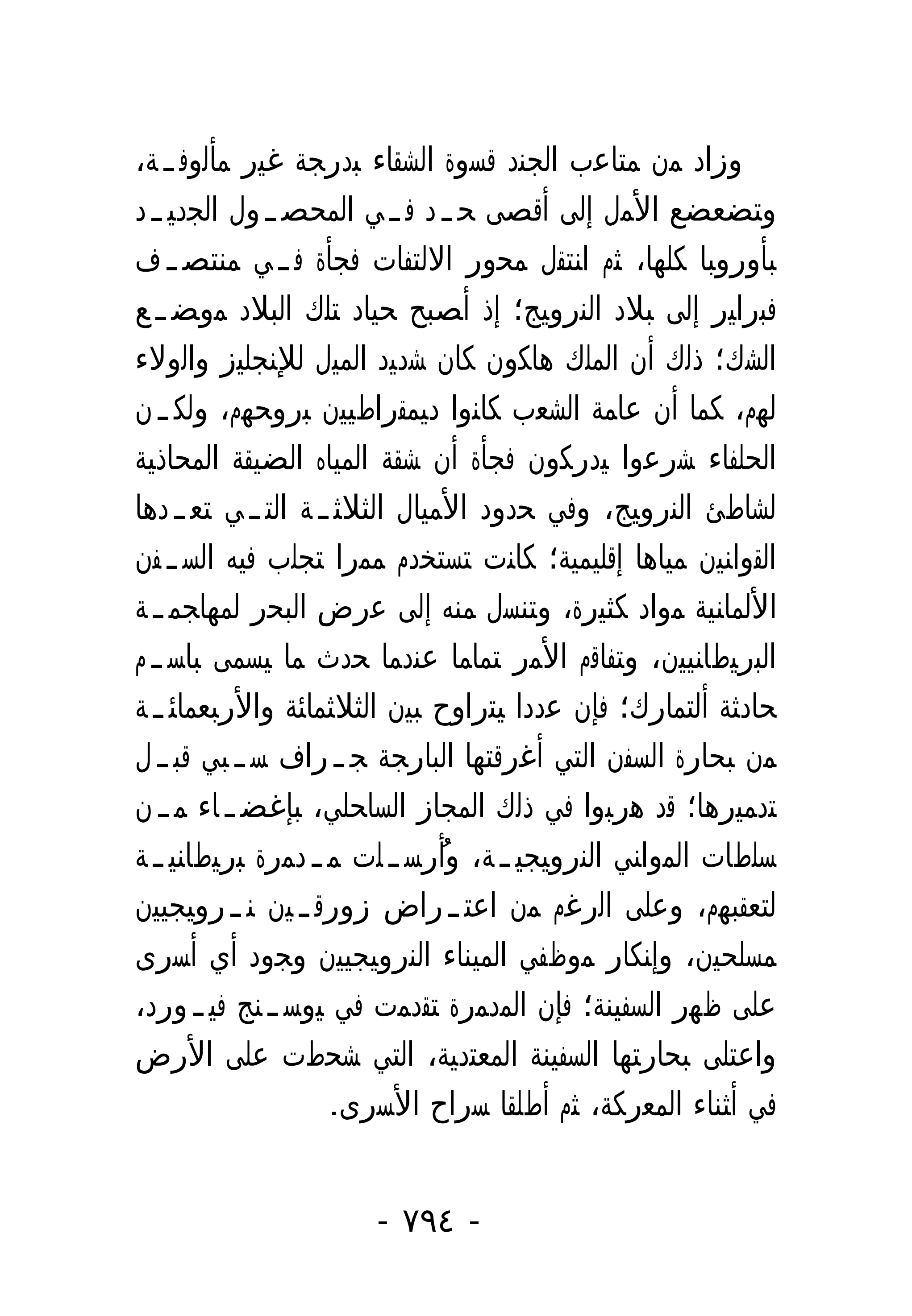
وفي نفس الحين كانت الحرب في الناحية الغربيـة مـن أوروبا مقصورة على البحر بوجه خاص؛ فـإن الفرنسـيين والألمان كانوا يواجهون بعضهم بعضا من وراء خطوط قوية التحصينات؛ هي خطا ماجينو وسجفريد.. أجل قام الفرنسيون بهجوم فاتر على الجناح الشمالي من الجبهة، ثم عاد الألمان لمواصلة حرب الغواصات فباءوا بالفشل والخسـران؛ فـإن

الأسطول البريطاني عمد إلى استخدام وسائل فنيـة جديـدة، استطاع بها القضاء على تلك الآفة بهمة عظيمة، ولم يلق في سبيل ذلك إلا خسارة ضئيلة لا مناص منها؛ وهـي بارجـة أو ما إلى ذلك، وحاملة طائرات ضخمة اسمها الكوراجيوس، فضلاً عن بضع سفن صـغرى، وكانـت خسـارة السـفن المحروسة في القوافل أقل كثيرا من كل ما كان متوقعا؛ لـذا وصلت المؤن والإمدادات بوفرة إلى بريطانيا العظمى، بـل لقد استولى البريطانيون على عدد من السفن يفوق ما فقـده، فإن البارجة سبي قد ضيق عليها الخناق، وانقضـت عليهـا ثلاث سفن أصغر منها وأضعف؛ هـي: إكسـتر Exeter، وأخيل Achilles، وأجاكس Aax، حتى اضطرت فيما بعد إلى تفضيل إغراق نفسها على معاودة القتـال، ثـم انتحـر ربانها.

ثم جاءت نصف سنة أخرى دامت في أثنائها حالة الخمول والتوقف التي شملت الجبهة الغربية، وزادت همة بريطانيـا في الاستعداد للحرب، وأخذت حشود أكثر فأكثر من الجنود، ومقادير هائلة من المدافع والمعدات الحربيـة تعبـر بحـر المانش.

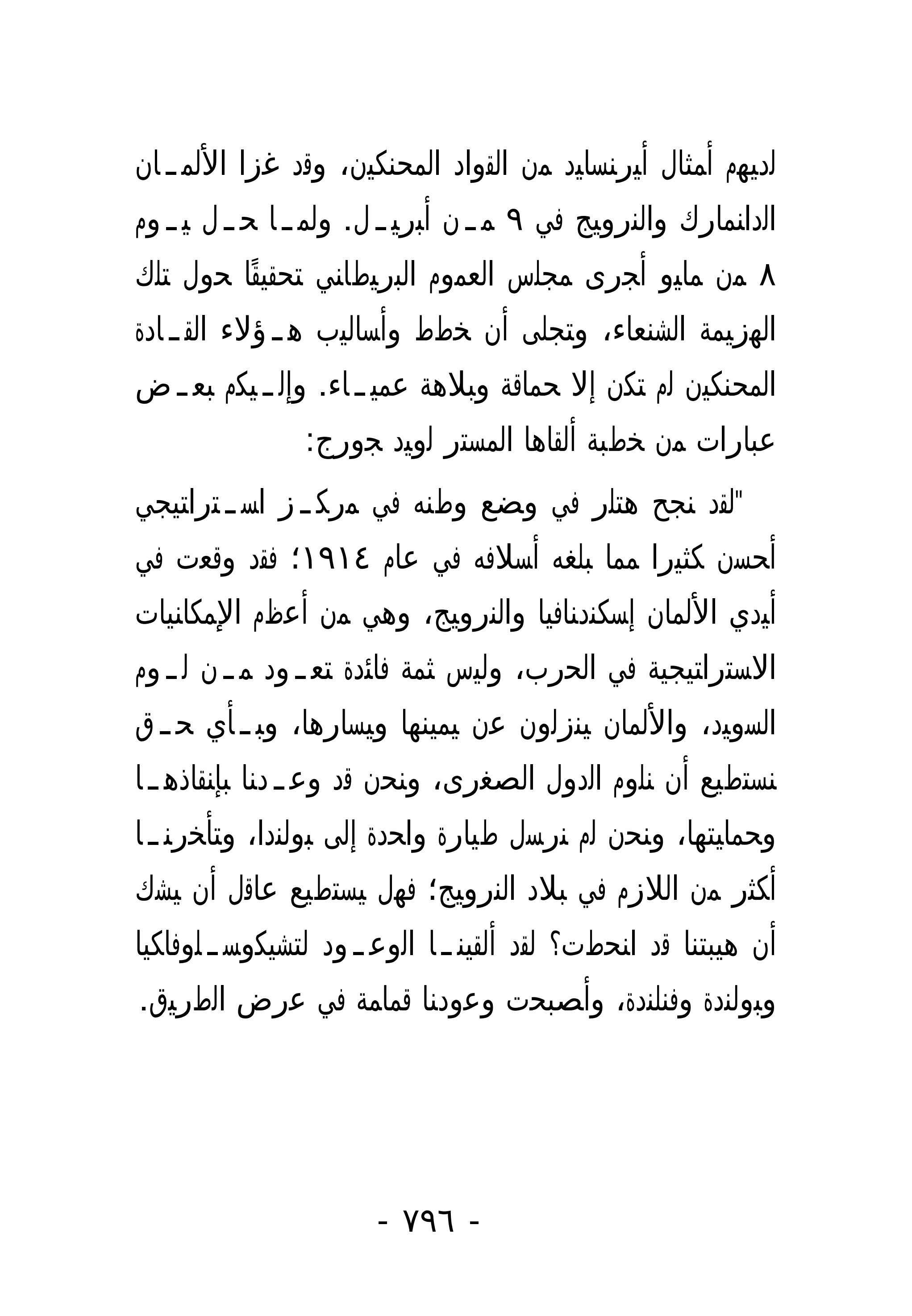


وتخللت فترة الخمول هذه حركة قدر للفرنسيين أن يأسفوا عليها فيما بعـد؛ هـي مطـاردتهم واضـطهادهم لزعمـاء الشيوعيين والعمال اليساريين. والظاهر أنها لم تكن موجهـة فقط إلى الشيوعيين؛ بل إلى زعماء اتحادات العمال أيضـا، واعتقلت السلطات أعضاء مجلس النواب الشيوعيين الـذين لا يتجاوزون الخمسين نائبا، أو اضطرتهم إلى الاختفاء، كما أن المجالس البلدية الشيوعية قد حلـت فـي طـول الـبلاد وعرضها، وعين مكانهـا موظفـون خصوصـيون، وأقـل ما يوصف به هذا التصرف أنه كان حماقة بحتة؛ وذلك لأن الآراء الاشتراكية اليسارية كانت شديدة بين الجنود وصـف الضباط، سواء من أتوا من المدن أو من بين الفلاحين، وكان كثير منهم لا يزالون يرون الروسيا رمزا للثورة الاجتماعية فأخذوا يتساءلون: أهم يقاتلون فقط من أجـل الأثريـاء فـي فرنسا؟ وأخذ روح التخريب يمتد إلى مصانع الذخيرة، فضلاً عن صفوف الجند، وللمرة الثانية استطاع المعتدي أن يـدس إسفينه بين الرجعية وبين باعث الثورة في الرجل العـادي؛ وذلك لأن الخيانة تكتلت أيضا في أحزاب اليمـين المؤيـدة للمسيو دلادبيه، ولكنها خيانة من نوع أقوى وأشـد، أخـذت تتسرب دون أن يدركها أو يتحداها أحد.



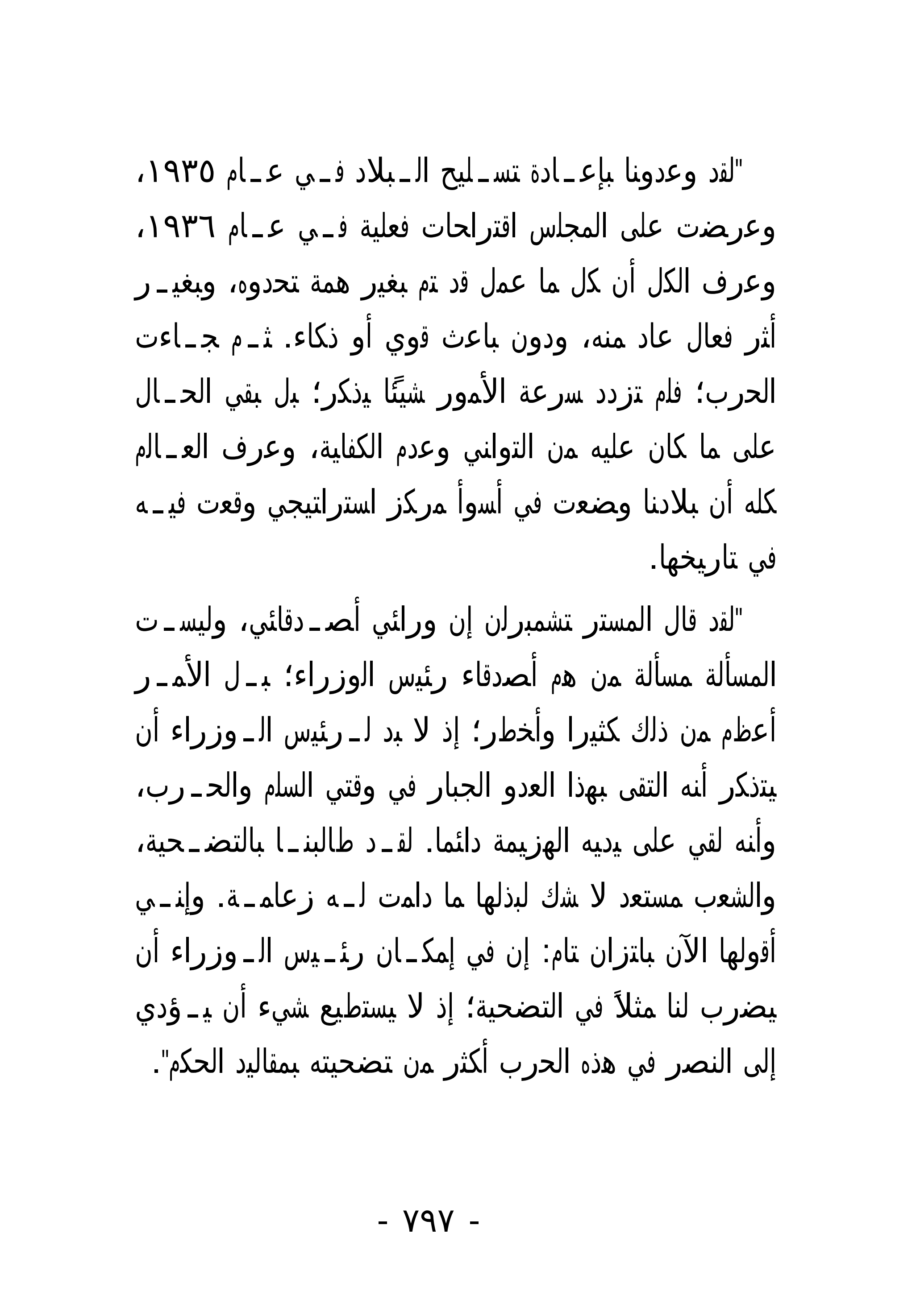
وزاد من متاعب الجند قسوة الشتاء بدرجة غير مألوفة، وتضعضع الأمل إلى أقصى حد في المحصول الجديد بأوروبا كلها، ثم انتقل محور الالتفات فجأة في منتصف فبراير إلى بلاد النرويج؛ إذ أصبح حياد تلك البلاد موضع الشك؛ ذلك أن الملك هاكون كان شديد الميل للإنجليز والولاء لهم، كما أن عامة الشعب كانوا ديمقراطيين بروحهم، ولكن الحلفاء شرعوا يدركون فجأة أن شقة المياه الضيقة المحاذية لشاطئ النرويج، وفي حدود الأميال الثلاثة التي تعدها القوانين مياها إقليمية؛ كانت تستخدم ممرا تجلب فيه السفن الألمانية مواد كثيرة، وتنسل منه إلى عرض البحر لمهاجمة البريطانيين، وتفاقم الأمر تماما عندما حدث ما يسمى باسم حادثة ألتمارك؛ فإن عددا يتراوح بين الثلاثمائة والأربعمائة من بحارة السفن التي أغرقتها البارجة جراف سبي قبل تدميرها؛ قد هربوا في ذلك المجاز الساحلي، بإغضاء من سلطات المواني النرويجية، وأُرسلت مدمرة بريطانية لتعقبهم، وعلى الرغم من اعتراض زورقين نرويجيين مسلحين، وإنكار موظفي الميناء النرويجيين وجود أي أسرى على ظهر السفينة؛ فإن المدمرة تقدمت في يوسنج فيورد، واعتلى بحارتها السفينة المعتدية، التي شحطت على الأرض في أثناء المعركة، ثم أطلقا سراح الأسرى.

تطور الموقف بإسكندنافيا منذ تلك اللحظة؛ فغزا الألمـان النرويج والدانمرك في وقت واحد، وسلمت الدانمرك علـى الفور، وقاومت أوسلو هجوم المعتدين، ولكن خانها الحـزب الفاشستي النرويجي نفسه، وانقضت بعد ذلك بضعة أسـابيع من المقاومة المضطربة، وفي تلك الأثنـاء كـان الجمهـور ببريطانيا يغذى بما لا نهاية له من الأكاذيب والفخر الأجوف؛ فكان كل من المستر تشمبرلان، والسـير إدمونـد أيرنسـايد Ironside رئيس هيئـة أركـان الحـرب الإمبراطوريـة؛ يتباريان في الفخار الأجوف الكاذب، فيقول الجنرال أيرنسايد إن هتلر قد "فاته القطار"، وردد المستر تشمبرلان هذه العبارة الحافلة بالإلهام، خاصة وأن هتلر قـد كشـف نفسـه الآن، وأخرجت الترسة رأسها من بين أطباق درقتها، وستضـرب بريطانيا ضربتها الآن، وربما كان يمكنها توجيـه ضـربتها فعلاً، ولكنها لم تفعل؛ وذلك لأن قيادتهـا العليـا، وإمـارة البحرية فيها؛ لم يؤتيا الكفاية والعزم اللازمين للقيام بـذلك. وقال الجنرال أيرنسايد: إن الجيش الألمـاني جـيش رفيـع الامتياز حقًا، ولكن ليس فيه ضابط خدم في الحرب السـابقة برتبة أعلى من رتبة اليوزباشي، غير أن البريطانيين كـان



لديهم أمثال أيرنسايد من القواد المحنكين، وقد غزا الألمـان الدانمارك والنرويج في ٩ مـن أبريـل. ولمـا حـل يـوم ٨ من مايو أجرى مجلس العموم البريطاني تحقيقًا حول تلك الهزيمة الشنعاء، وتجلى أن خطط وأساليب هـؤلاء القـادة المحنكين لم تكن إلا حماقة وبلاهة عميـاء. وإلـيكم بعـض عبارات من خطبة ألقاها المستر لويد جورج:

"لقد نجح هتلر في وضع وطنه في مركـز اسـتراتيجي أحسن كثيرا مما بلغه أسلافه في عام ١٩١٤؛ فقد وقعت في أيدي الألمان إسكندنافيا والنرويج، وهي من أعظم الإمكانيات الاستراتيجية في الحرب، وليس ثمة فائدة تعـود مـن لـوم السويد، والألمان ينزلون عن يمينها ويسارها، وبـأي حـق نستطيع أن نلوم الدول الصغرى، ونحن قد وعـدنا بإنقاذهـا وحمايتها، ونحن لم نرسل طيارة واحدة إلى بولندا، وتأخرنـا أكثر من اللازم في بلاد النرويج؛ فهل يستطيع عاقل أن يشك أن هيبتنا قد انحطت؟ لقد ألقينـا الوعـود لتشيكوسـلوفاكيا وبولندة وفنلندة، وأصبحت وعودنا قمامة في عرض الطريق.

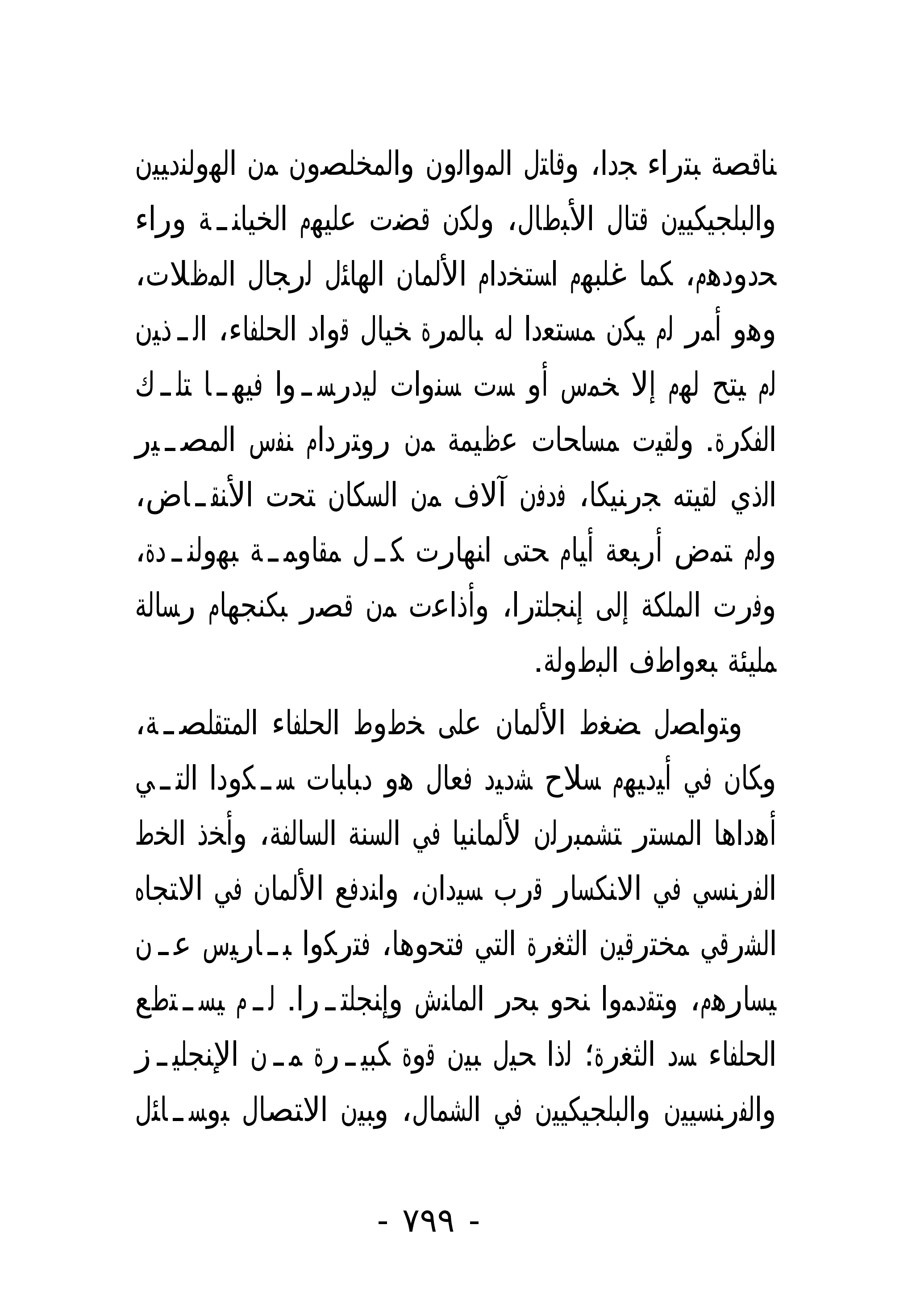


"لقد وعدونا بإعـادة تسـليح الـبلاد فـي عـام ١٩٣٥، وعرضت على المجلس اقتراحات فعلية فـي عـام ١٩٣٦، وعرف الكل أن كل ما عمل قد تم بغير همة تحدوه، وبغيـر أثر فعال عاد منه، ودون باعث قوي أو ذكاء. ثـم جـاءت الحرب؛ فلم تزدد سرعة الأمور شيئًا يذكر؛ بل بقي الحـال على ما كان عليه من التواني وعدم الكفاية، وعرف العـالم كله أن بلادنا وضعت في أسوأ مركز استراتيجي وقعت فيـه في تاريخها.

"لقد قال المستر تشمبرلن إن ورائي أصـدقائي، وليسـت المسألة مسألة من هم أصدقاء رئيس الوزراء؛ بـل الأمـر أعظم من ذلك كثيرا وأخطر؛ إذ لا بد لـرئيس الـوزراء أن يتذكر أنه التقى بهذا العدو الجبار في وقتي السلم والحـرب، وأنه لقي على يديه الهزيمة دائما. لقـد طالبنـا بالتضـحية، والشعب مستعد لا شك لبذلها ما دامت لـه زعامـة. وإنـي أقولها الآن باتزان تام: إن في إمكـان رئـيس الـوزراء أن يضرب لنا مثلاً في التضحية؛ إذ لا يستطيع شيء أن يـؤدي إلى النصر في هذه الحرب أكثر من تضحيته بمقاليد الحكم".

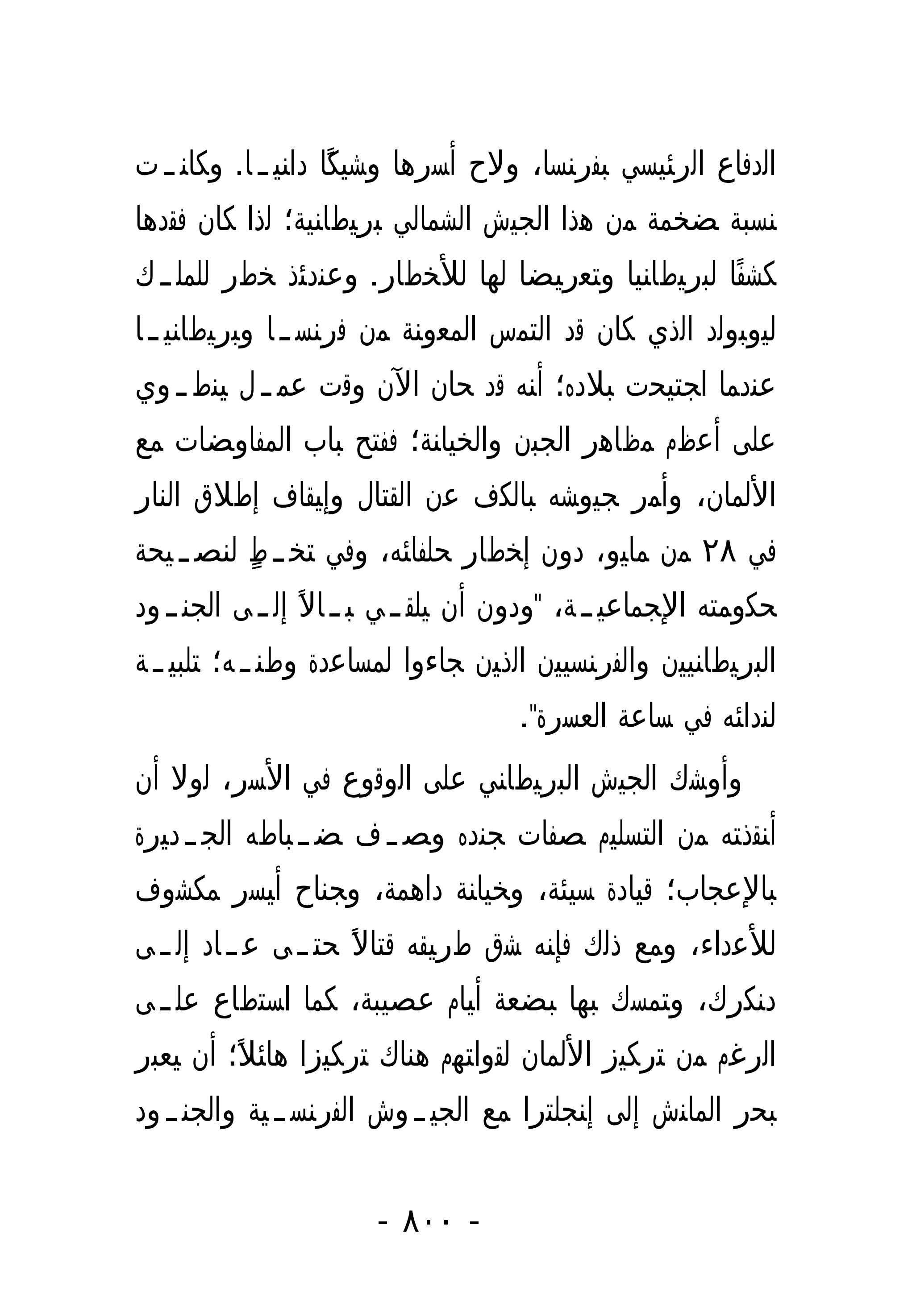
وبينما بريطانيا لا تزال تحاول بكل جهد إزاحة كـابوس المستر تشمبرلن الجاثم على صدرها كرئيس لوزرائها؛ ظلت ألمانيا تتجسد بلا هوادة في صورة الثالوث الشرس الرهيـب جورنج وجوبلز وهتلر، واستمرت آمـال البشـرية تـتحطم وترجع القهقرى، ولم يفكر أحد حتى في عزل السير إدمونـد أيرنسايد من منصبه. وما لبثت أن وثبت للاشتراك في كارثة جديدة أدهى وأمر بفرنسا (فإن الضربة التالية لفنون الحـرب الفرنسية البريطانية المتداعية قد أُنزلت في العاشر من مايو)؛ عندما اجتاحت ألمانيا بلاد هولندة والبلجيك ولكسمبرج فـي وقت واحد.

ومهما بدا عجيبا لعين دارس التاريخ في السنوات التاليـة (إن بقي للتاريخ دارس في السنوات التالية) فالواقع إن واحدة من تلك الأقطار الثلاثة لم تفكر يوما - على الرغم من هـذا الخطر المحتمل البسيط - في إعداد خطة للدفاع بالاشـتراك مع فرنسا وبريطانيا. ولعبت نفس العناصر الخائنة المتـرددة دورها فيما أعقب ذلك من كارثة. ومن الأسف أن الفرنسيين لم يمدوا خط ماجينو بعد الحدود البلجيكية، وأن خطة الحلفاء للقيام بحرب "حركة" في الجناح الأيسـر المكشـوف كانـت



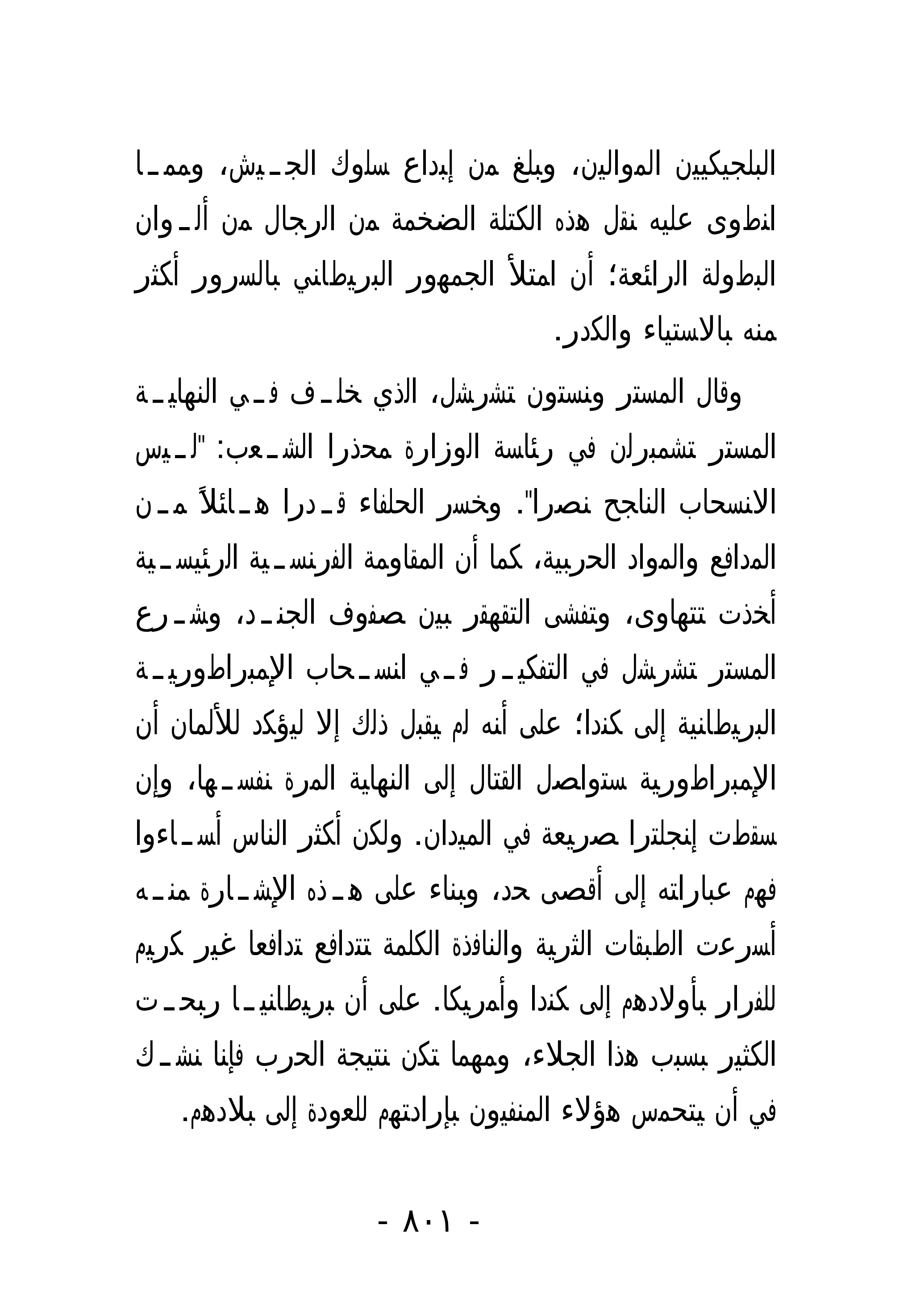
ناقصة بتراء جدا، وقاتل الموالون والمخلصون من الهولنديين والبلجيكيين قتال الأبطال، ولكن قضت عليهم الخيانـة وراء حدودهم، كما غلبهم استخدام الألمان الهائل لرجال المظلات، وهو أمر لم يكن مستعدا له بالمرة خيال قواد الحلفاء، الـذين لم يتح لهم إلا خمس أو ست سنوات ليدرسـوا فيهـا تلـك الفكرة. ولقيت مساحات عظيمة من روتردام نفس المصـير الذي لقيته جرنيكا، فدفن آلاف من السكان تحت الأنقـاض، ولم تمض أربعة أيام حتى انهارت كـل مقاومـة بهولنـدة، وفرت الملكة إلى إنجلترا، وأذاعت من قصر بكنجهام رسالة مليئة بعواطف البطولة.

وتواصل ضغط الألمان على خطوط الحلفاء المتقلصـة، وكان في أيديهم سلاح شديد فعال هو دبابات سـكودا التـي أهداها المستر تشمبرلن لألمانيا في السنة السالفة، وأخذ الخط الفرنسي في الانكسار قرب سيدان، واندفع الألمان في الاتجاه الشرقي مخترقين الثغرة التي فتحوها، فتركوا بـاريس عـن يسارهم، وتقدموا نحو بحر المانش وإنجلتـرا. لـم يسـتطع الحلفاء سد الثغرة؛ لذا حيل بين قوة كبيـرة مـن الإنجليـز والفرنسيين والبلجيكيين في الشمال، وبين الاتصال بوسـائل



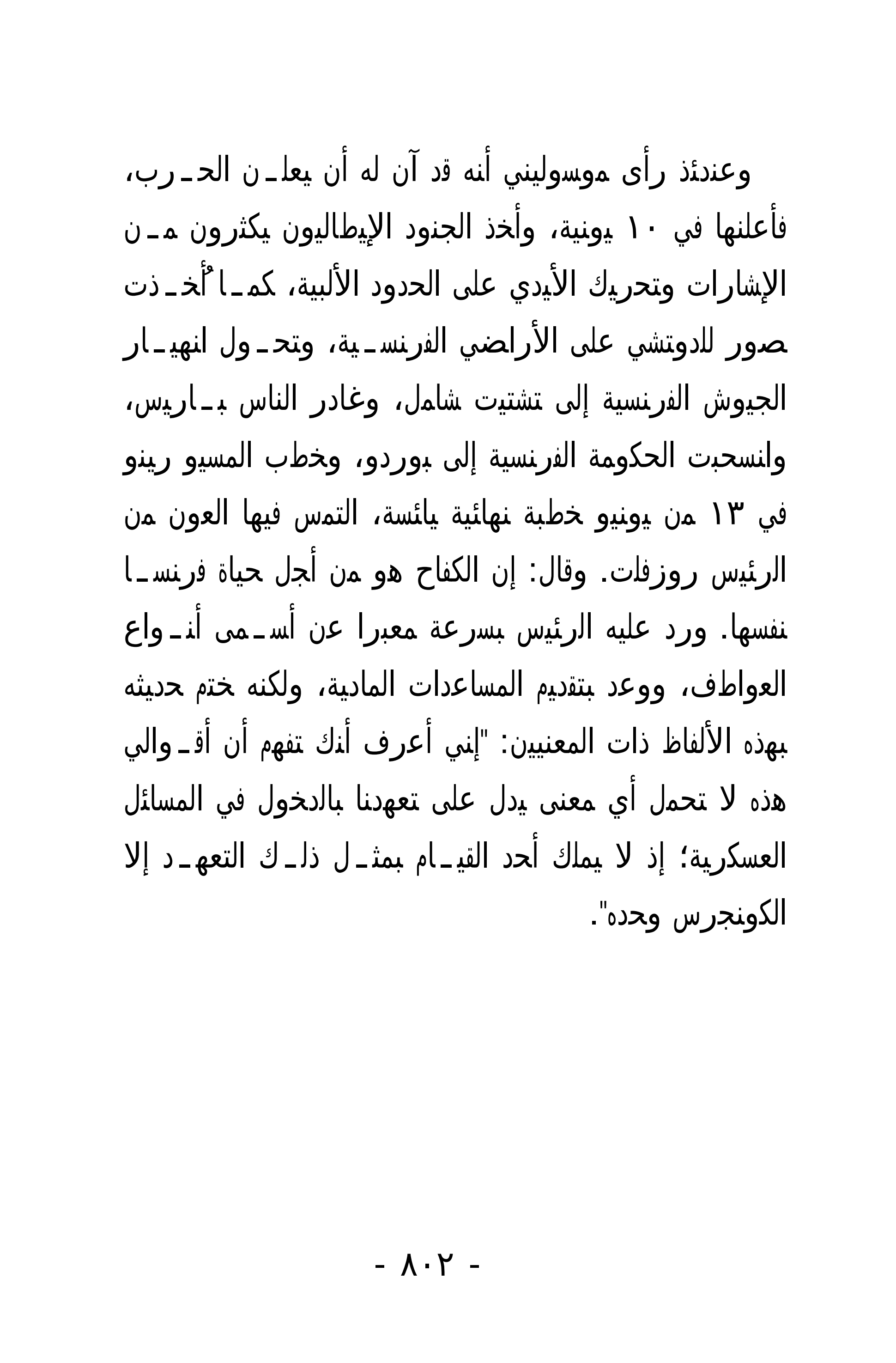
الدفاع الرئيسي بفرنسا، ولاح أسرها وشيكًا دانيا. وكانت نسبة ضخمة من هذا الجيش الشمالي بريطانية؛ لذا كان فقدها كشفًا لبريطانيا وتعريضا لها للأخطار. وعندئذ خطر للملك ليوبولد الذي كان قد التمس المعونة من فرنسا وبريطانيا عندما اجتيحت بلاده؛ أنه قد حان الآن وقت عمل ينطوي على أعظم مظاهر الجبن والخيانة؛ ففتح باب المفاوضات مع الألمان، وأمر جيوشه بالكف عن القتال وإيقاف إطلاق النار في ٢٨ من مايو، دون إخطار حلفائه، وفي تخطٍّ لنصيحة حكومته الإجماعية، "ودون أن يلقي بالاً إلى الجنود البريطانيين والفرنسيين الذين جاءوا لمساعدة وطنه؛ تلبية لندائه في ساعة العسرة".

وأوشك الجيش البريطاني على الوقوع في الأسر، لولا أن أنقذته من التسليم صفات جنده وصف ضباطه الجديرة بالإعجاب؛ قيادة سيئة، وخيانة داهمة، وجناح أيسر مكشوف للأعداء، ومع ذلك فإنه شق طريقه قتالاً حتى عاد إلى دنكرك، وتمسك بها بضعة أيام عصيبة، كما استطاع على الرغم من تركيز الألمان لقواتهم هناك تركيزا هائلاً؛ أن يعبر بحر المانش إلى إنجلترا مع الجيوش الفرنسية والجنود



البلجيكيين الموالين، وبلغ من إبداع سلوك الجـيش، وممـا انطوى عليه نقل هذه الكتلة الضخمة من الرجال من ألـوان البطولة الرائعة؛ أن امتلأ الجمهور البريطاني بالسرور أكثر منه بالاستياء والكدر.

وقال المستر ونستون تشرشل، الذي خلـف فـي النهايـة المستر تشمبرلان في رئاسة الوزارة محذرا الشـعب: "لـيس الانسحاب الناجح نصرا". وخسر الحلفاء قـدرا هـائلاً مـن المدافع والمواد الحربية، كما أن المقاومة الفرنسـية الرئيسـية أخذت تتهاوى، وتفشى التقهقر بين صفوف الجنـد، وشـرع المستر تشرشل في التفكيـر فـي انسـحاب الإمبراطوريـة البريطانية إلى كندا؛ على أنه لم يقبل ذلك إلا ليؤكد للألمان أن الإمبراطورية ستواصل القتال إلى النهاية المرة نفسـها، وإن سقطت إنجلترا صريعة في الميدان. ولكن أكثر الناس أسـاءوا فهم عباراته إلى أقصى حد، وبناء على هـذه الإشـارة منـه أسرعت الطبقات الثرية والنافذة الكلمة تتدافع تدافعا غير كريم للفرار بأولادهم إلى كندا وأمريكا. على أن بريطانيـا ربحـت الكثير بسبب هذا الجلاء، ومهما تكن نتيجة الحرب فإنا نشـك في أن يتحمس هؤلاء المنفيون بإرادتهم للعودة إلى بلادهم.



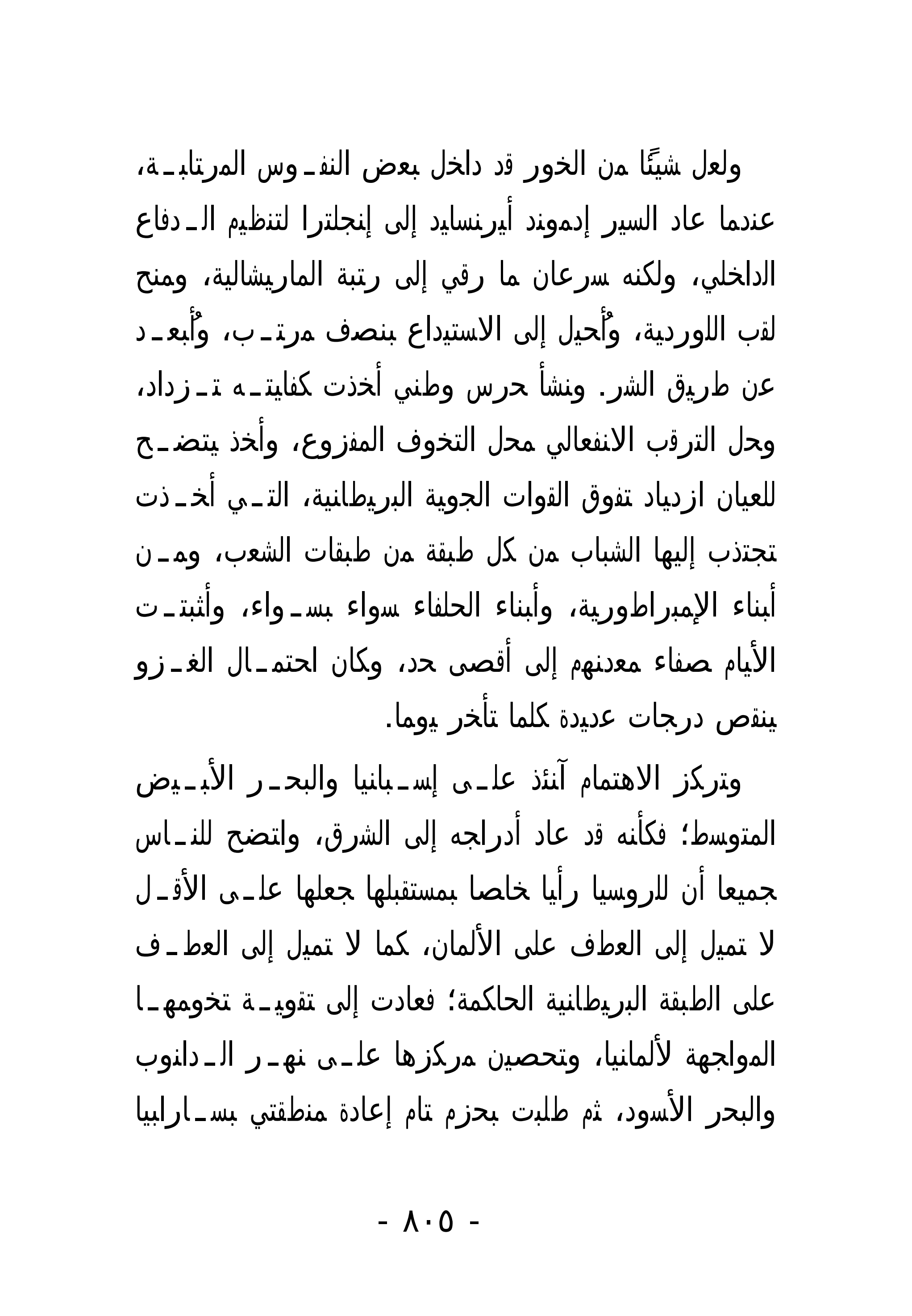
وعندئذ رأى موسوليني أنه قد آن له أن يعلن الحرب، فأعلنها في ١٠ يونية، وأخذ الجنود الإيطاليون يكثرون من الإشارات وتحريك الأيدي على الحدود الألبية، كما أُخذت صور للدوتشي على الأراضي الفرنسية، وتحول انهيار الجيوش الفرنسية إلى تشتيت شامل، وغادر الناس باريس، وانسحبت الحكومة الفرنسية إلى بوردو، وخطب المسيو رينو في ١٣ من يونيو خطبة نهائية يائسة، التمس فيها العون من الرئيس روزفلت. وقال: إن الكفاح هو من أجل حياة فرنسا نفسها. ورد عليه الرئيس بسرعة معبرا عن أسمى أنواع العواطف، ووعد بتقديم المساعدات المادية، ولكنه ختم حديثه بهذه الألفاظ ذات المعنيين: "إنني أعرف أنك تفهم أن أقوالي هذه لا تحمل أي معنى يدل على تعهدنا بالدخول في المسائل العسكرية؛ إذ لا يملك أحد القيام بمثل ذلك التعهد إلا الكونجرس وحده".

وعند ذلك استقال المسيو رينو، وخلفه في رئاسة الوزارة الماريشال بيتان، الشيخ الكبير الفاني، وتـولى معـه وزارة الدفاع الجنرال فيجان الأصغر منه قليلاً، وعند ذلك تقـدمت الحكومة الفرنسية الجديدة لتسليم وطنها للعدو تسـليما تامـا، يكاد يخالطه شيء من الـتحمس!! ثـم عمـدت الحكومـة البريطانية في اللحظة الأخيرة إلى تقـديم اقتـراح بتوحيـد بريطانيا وفرنسا معا.

وكانت بريطانيا وفرنسا قد تعاهدتا على عدم القيام بصلح منفصل، ولكن ذلك العهد نُسي آنذاك، وللمرة الثانيـة وجـد البريطانيون أنفسهم يسحبون من فرنسا جنـودا يحـيط بهـا الأعداء، وانهالت الجيوش الألمانية المظفرة علـى فرنسـا، وذُهل البريطانيون حين وجدوا جزائر بحر المـانش (وهـي البقية الأخيرة من دوقية نورمندي التي ظلت تابعـة للتـاج البريطاني عام ١٠٦٦) تقع في يد الألمان، وعندئـذ شـعر البريطانيون بخطورة مركزهم، ولكن قوة فعالة جديدة دبـت إليهم، ووجدت لسانها المعبر في المستر تشرشل.

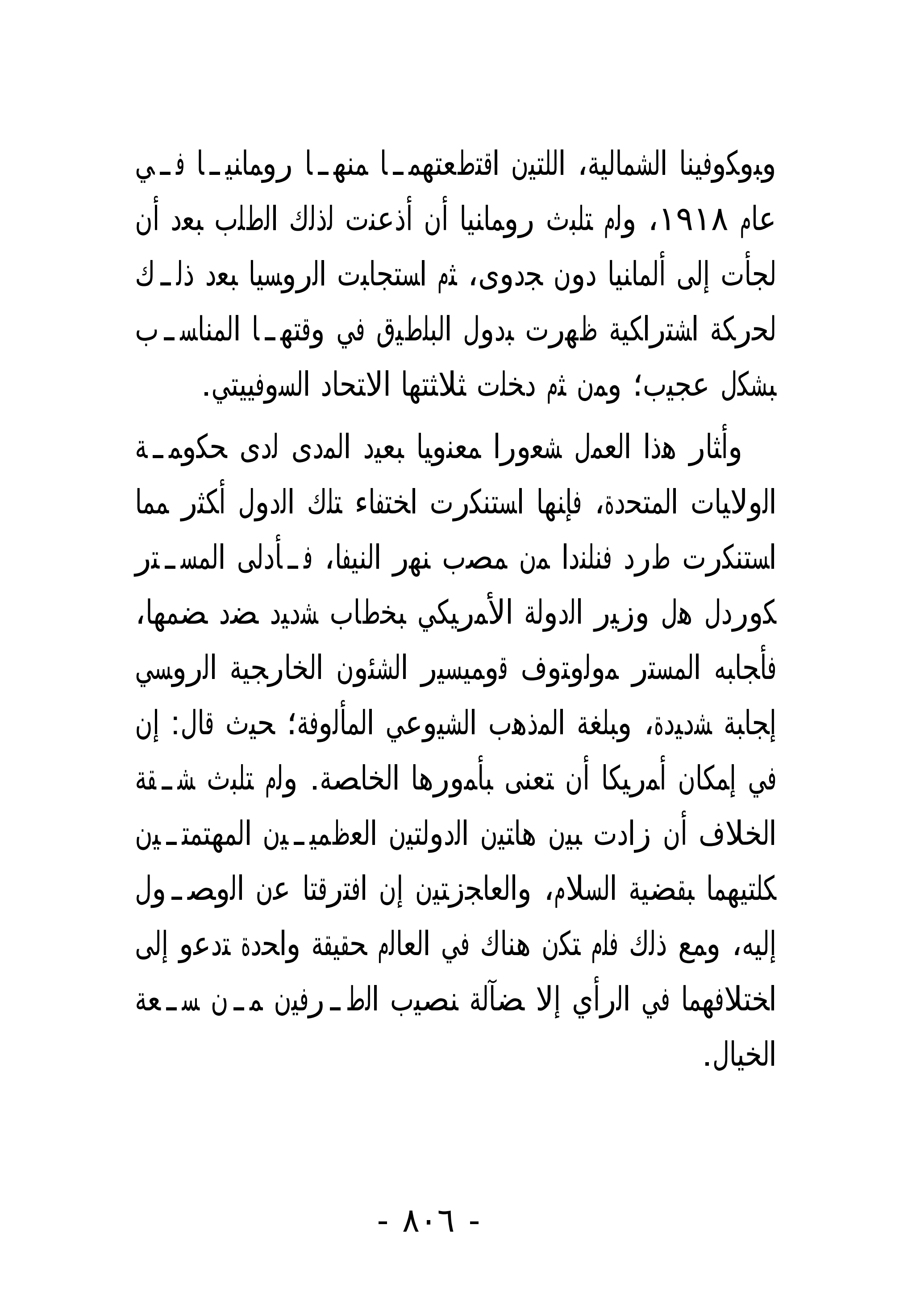
وكانت موانئ فرنسا الحربية وأسطولها أيضا فـوق كـل شيء مصدر تهديد لا يمكن الاستهانة به، وانضمت بعـض السفن الفرنسية إلى البريطانيين طائعة، وأُقيمت في لندن لجنة قومية فرنسية برياسة الجنرال ديجول (de Gaulle) لتنظيم استرداد فرنسا من براثن الأعـداء، علـى حـين أن بقيـة الأسطول الفرنسي قد قُبض عليه، أو عطل مـن السـلاح، أو ضم إلى بريطانيا. وهـاجم الأميـرال سـومرفيل قـوة معارضة لبريطانيا عند وهران، منها بارجتان من الدرجـة الأولى هما استراسبورج ودنكرك، وعطلها عن العمل.

ولما التقى البريطانيون بالأسـطول الإيطـالي أول لقـاء بحري خطير، راحت ضحيته البارجة الإيطاليـة الممتـازة بارثولوميو كوليوني، وهي أسرع بوارج العالم؛ إذ أصـابتها على الرغم من ذلك قذيفة من المـدمرة الأسـترالية سـدني وأغرقتها. حتى إذا عاد البريطانيون فاستقروا علـى ظهـر جزيرتهم، وعلى متن الهواء وصفحة الماء؛ أخذ معدنهم الحر ينفض عنه الصدأ الذي ظل يتجمع على سطحه فـي أثنـاء سنوات الانحطاط الطويلة.



ولعل شيئًا من الخور قد داخل بعض النفـوس المرتابـة، عندما عاد السير إدموند أيرنسايد إلى إنجلترا لتنظيم الـدفاع الداخلي، ولكنه سرعان ما رقي إلى رتبة الماريشالية، ومنح لقب اللوردية، وأُحيل إلى الاستيداع بنصف مرتـب، وأُبعـد عن طريق الشر. ونشأ حرس وطني أخذت كفايتـه تـزداد، وحل الترقب الانفعالي محل التخوف المفزوع، وأخذ يتضـح للعيان ازدياد تفوق القوات الجوية البريطانية، التـي أخـذت تجتذب إليها الشباب من كل طبقة من طبقات الشعب، ومـن أبناء الإمبراطورية، وأبناء الحلفاء سواء بسـواء، وأثبتـت الأيام صفاء معدنهم إلى أقصى حد، وكان احتمـال الغـزو ينقص درجات عديدة كلما تأخر يوما.

وتركز الاهتمام آنئذ علـى إسـبانيا والبحـر الأبـيض المتوسط؛ فكأنه قد عاد أدراجه إلى الشرق، واتضح للنـاس جميعا أن للروسيا رأيا خاصا بمستقبلها جعلها علـى الأقـل لا تميل إلى العطف على الألمان، كما لا تميل إلى العطـف على الطبقة البريطانية الحاكمة؛ فعادت إلى تقويـة تخومهـا المواجهة لألمانيا، وتحصين مركزها علـى نهـر الـدانوب والبحر الأسود، ثم طلبت بحزم تام إعادة منطقتي بسـارابيا



وبوكوفينا الشمالية، اللتين اقتطعتهما منها رومانيا في عام ١٩١٨، ولم تلبث رومانيا أن أذعنت لذلك الطلب بعد أن لجأت إلى ألمانيا دون جدوى، ثم استجابت الروسيا بعد ذلك لحركة اشتراكية ظهرت بدول البلطيق في وقتها المناسب بشكل عجيب؛ ومن ثم دخلت ثلاثتها الاتحاد السوفييتي.

وأثار هذا العمل شعورا معنويا بعيد المدى لدى حكومة الولايات المتحدة، فإنها استنكرت اختفاء تلك الدول أكثر مما استنكرت طرد فنلندا من مصب نهر النيفا، فأدلى المستر كوردل هل وزير الدولة الأمريكي بخطاب شديد ضد ضمها، فأجابه المستر مولوتوف قوميسير الشئون الخارجية الروسي إجابة شديدة، وبلغة المذهب الشيوعي المألوفة؛ حيث قال: إن في إمكان أمريكا أن تعنى بأمورها الخاصة. ولم تلبث شقة الخلاف أن زادت بين هاتين الدولتين العظميين المهتمتين كلتيهما بقضية السلام، والعاجزتين إن افترقتا عن الوصول إليه، ومع ذلك فلم تكن هناك في العالم حقيقة واحدة تدعو إلى اختلافهما في الرأي إلا ضآلة نصيب الطرفين من سعة الخيال.

ولئن أخذ اتحاد الدول البريطانية في صيف ١٩٤٠ فـي تجميع قواته ليقاتل قتالاً جديا؛ فإن دعاية ذلك الاتحاد كانـت مبهمة حمقاء، وأُنشئت هيئة خفية وشبه سـرية هـي لجنـة سوينتون لمعالجة شئون جموع اللاجئين والأجانب الحاشـدة المتزايدة ببريطانيا العظمى، وكان على رأس هـذه اللجنـة شخص اسمه المستر لويد جريم، اتخذ اسم كانليف ليستر في عام ١٩٢٤، ثم منح لقب اللوردية في عام ١٩٢٩، تحت اسم اللورد سوينتون، ويلوح أنه باشر عمله بصورة تذكرنا بذوي النزعة السادية[1] في بغض الأجانب الجنوني، أو بعميل من عملاء النازية، وتلا ذلك إنزال أقسى وأعنـف الاضـطهاد بأبناء الشعوب نفسها التي كان ينبغـي علـى بريطانيـا أن تشخص إليهم طلبا للمعونة في أثناء كفاحها في سبيل إعـادة ألوية الحرية إلى أوروبا؛ فقد لقوا معاملة شـريرة وحشـية لا تنطوي على أي حكمة، معاملة ألحقت بشـرف بريطانيـا ضررا لا سبيل إلى إصلاحه؛ فاعتُقل أعداء ألـداء للنازيـة والفاشية، ولقوا معاملة فظيعة جـدا، وحيـل بيـنهم وبـين

([1]) السادية: ضرب من الانحراف الجنسي، القسوة أبـرز مظـاهره، وهناك نوع من الجنون يسمى جنون بغض الأجانب.

زوجاتهم وعائلاتهم، وأُبعدوا عن البلاد، ودفع كثير منهم إلى الانتحار. وقديما إبان الماضي العظيم لعهد كننج وبلمرستون وملبورن، الذي واجهت فيه بريطانيا المحالفة المقدسة؛ جرت سياستها على مصادقة وإيواء ومسـاعدة رجـال الحركـات الثورية في كل دولة أوروبية. وبريطانيا العظمى هي التـي أوقفت تجارة الرقيق، وكان مما يفخر به البريطـانيون أنـه حيثما رفرف علمهم اتشح الناس بثوب الحرية. فأما الآن فإن العالم وقف كالمصعوق يسائل نفسه: أنسيت إنجلتـرا ذلـك الماضي المجيد؟ أكان كل ذلك الحـديث عـن الديمقراطيـة مجرد دعوى جوفاء؟

ومما زاد من الواقع السيئ لهذا الاضطهاد أن الحكومـة البريطانية تشبثت في عناد بعدم إصدار أي بيان واضح عن أهدافها من الحرب، وكانت كل قوة حرة في العـالم خـارج الإمبراطورية وداخلها تتوسل مطالبة بإصدار ذلـك البيـان. ومع ذلك فإن الشعوب البريطانية التي أخذت تستيقظ وجدت نفسها غير قادرة على تخليص أيديها مـن أغـلال نزعـات المحافظين التورية[1] القاسية التي أوقعتهم في الحرب..

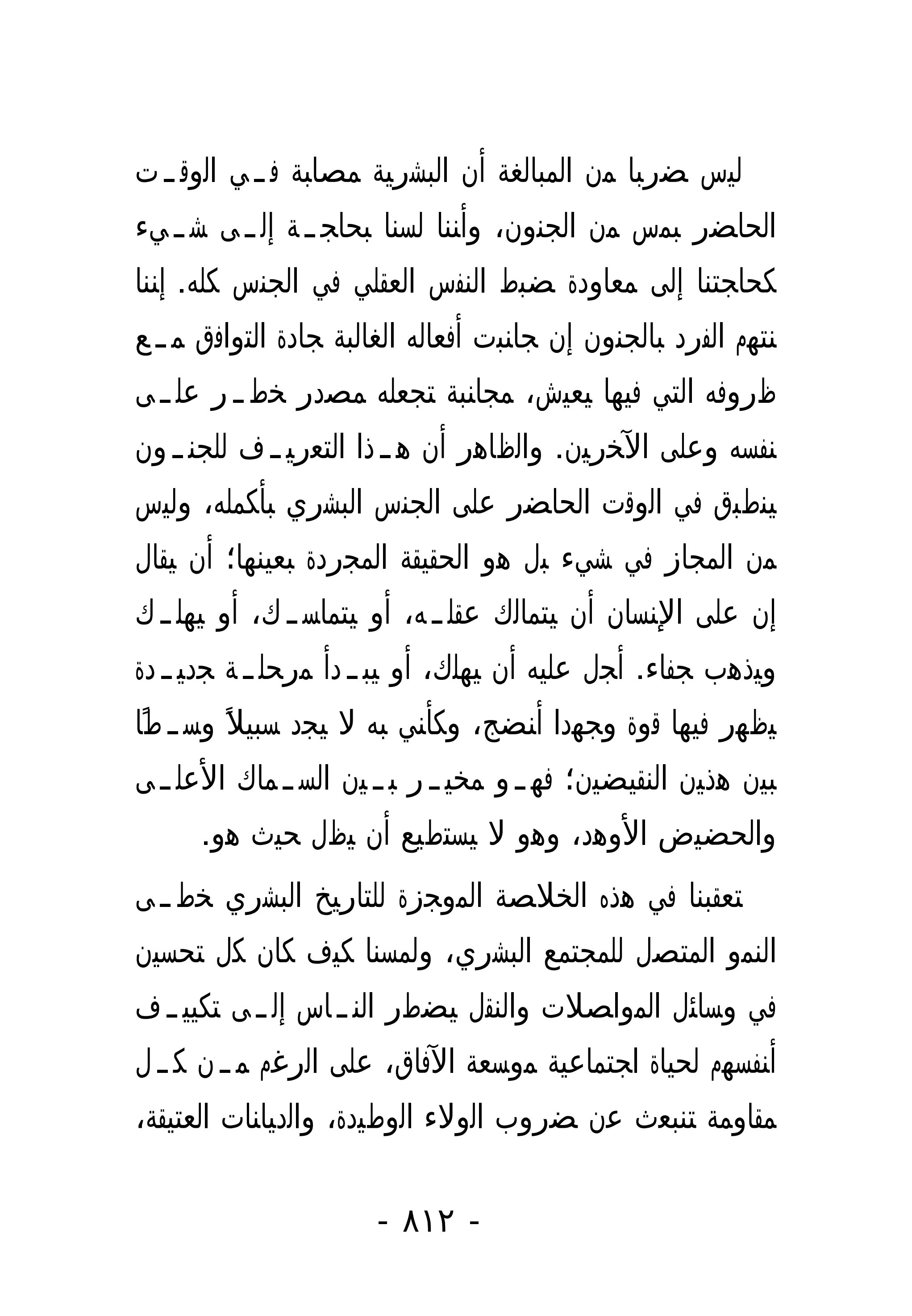
([1]) التورية Torysim مذهب شديد المحافظة على القديم.

هكذا واصل البريطانيون القتال في الوقت الذي ساد فيـه ببلادهم كفاح اجتماعي مطرد النمو، وحدث هجـوم جـوي عظيم ومتواصل على لندن في سـبتمبر وأكتـوبر، وأبـرز للعيان تجلد عامة الشعب وصبرهم القوي، كما أظهر التزايد المتواصل في السلاح الجوي البريطاني، وأخـذت أمريكـا بزعامة فرنكلين ديلانو روزفلت تزداد على الأيام عطفًا على ما يبذل البريطانيون من جهد في الحرب، وبانقضاء السـنة دخلت الحرب في مرحلة جديدة، فإن جيوش موسوليني كانت تسير حثيثًا في طريقها إلى مصر وقناة السويس، وبلغ مـن ثقته بالنصر أنه ضم إليه ألبانيا (١٩٣٩)، وهاجم بلاد اليونان (١٩٤١). وكانت هذه مرحلة مد أخيرة لذلك المخلوق المنتفخ الأوداج، وعند ذلك كان أمثال جورت وأشباه أيرنسـايد قـد أُبعدوا عن رياسة القـوات البريطانيـة، كمـا أن الجيـوش اليونانية قد سما بكفايتها الـرئيس متكسـاس إلـى الدرجـة القصوى، وظهر قائد بريطاني من طراز جديد أكثر كفاية هو الجنرال ويفل، فضرب الجيوش الإيطالية بشـمال إفريقيـة وأرتريا والحبشة ضربة قاصمة وسـريعة، أدهشـت أبنـاء قومه، كما أدهشت الإيطاليين أنفسهم. ولـم تـنقض عشـرة

أسابيع حتى تمزقت المثانة الفاشيستية المنتفخـة، وهزمـت قوات الكومونولث البريطاني (الناهضة، القليلة العدد، والقوية العزم، الجيدة العتاد) الجيوش الإيطالية المتناثرة من البحـر الأحمر إلى طرابلس وأسرتها، كما قهر اليونانيون بمـؤازرة السلاح الجوي البريطاني الجيوش الإيطالية بألبانيا. ولا شك أنه لو أُتيح للبريطانيين قيادة كهذه تمتاز بالـذكاء والعـزم؛ لأمكنهم في عام ١٩٤٠ تحطيم هجمة النازيين على النرويج. ولم تبرح الأكذوبة المسماة بالنازية قائمة حتى ساعة كتابـة هذه السطور (مارس ١٩٤١)، ولكن لو أن أمريكا مدت يـد العون المادي فليس من شك أن البريطانيين كانوا يستطيعون أن يعالجوا شأنها على النحو الـذي عـالجوا بـه الفاشـية. ولا يزال المحيط الأطلنطي معتركًا لكفاح غيـر مضـمون العاقبة؛ فالسفن البريطانية تغرق فيه بوفرة، كما تغرق أخرى موالية لبريطانيا. وعلى الرغم من ذلك فإن الأمل فـي قيـام عالم جديد لا يزال يملأ النفوس بالرجاء؛ فهل يتحقـق ذلـك الأمل؟

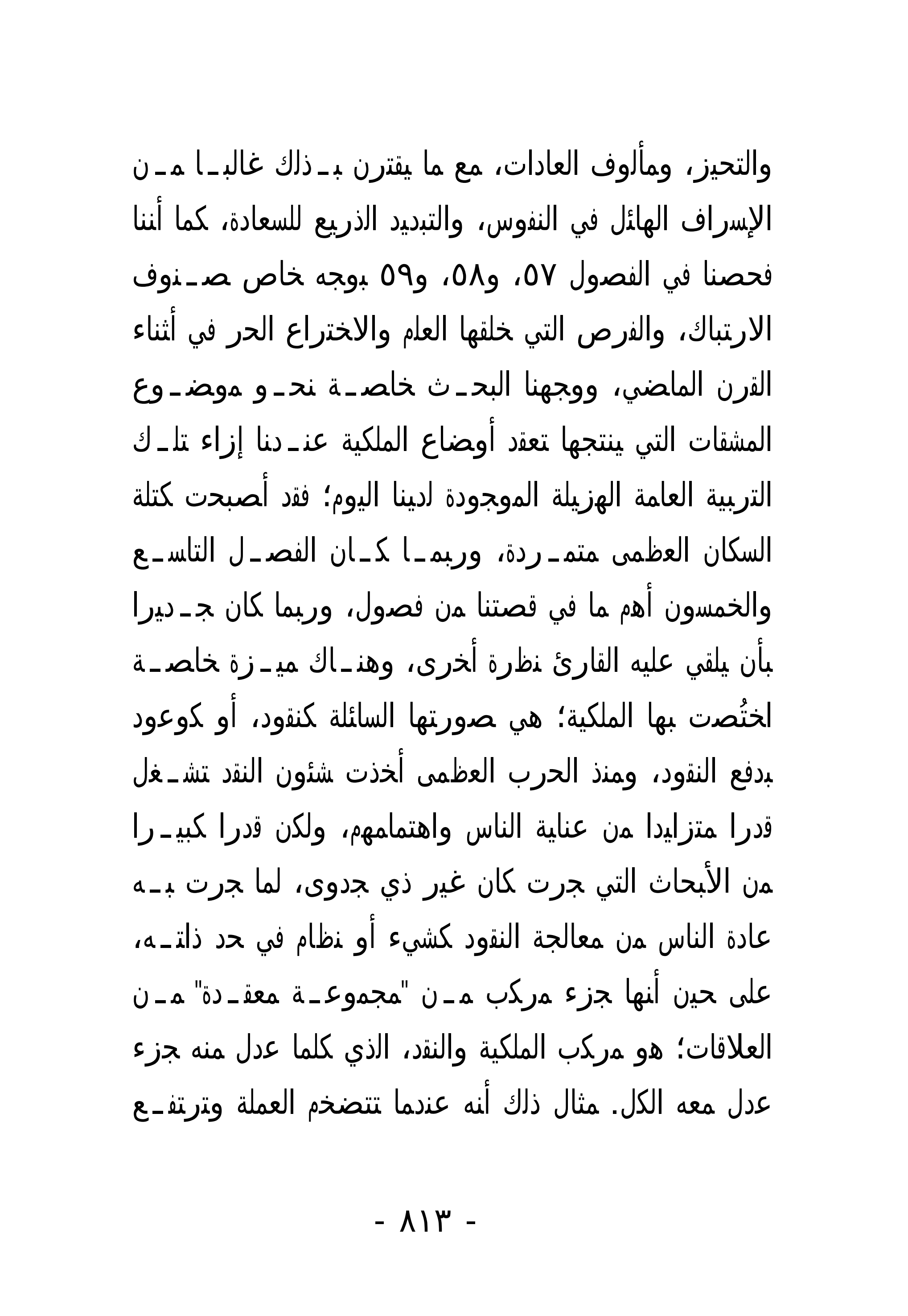
الفصل السبعون

أزمة التكيف البشري



ليس ضربا من المبالغة أن البشرية مصابة فـي الوقـت الحاضر بمس من الجنون، وأننا لسنا بحاجـة إلـى شـيء كحاجتنا إلى معاودة ضبط النفس العقلي في الجنس كله. إننا نتهم الفرد بالجنون إن جانبت أفعاله الغالبة جادة التوافق مـع ظروفه التي فيها يعيش، مجانبة تجعله مصدر خطـر علـى نفسه وعلى الآخرين. والظاهر أن هـذا التعريـف للجنـون ينطبق في الوقت الحاضر على الجنس البشري بأكمله، وليس من المجاز في شيء بل هو الحقيقة المجردة بعينها؛ أن يقال إن على الإنسان أن يتمالك عقلـه، أو يتماسـك، أو يهلـك ويذهب جفاء. أجل عليه أن يهلك، أو يبـدأ مرحلـة جديـدة يظهر فيها قوة وجهدا أنضج، وكأني به لا يجد سبيلاً وسـطًا بين هذين النقيضين؛ فهـو مخيـر بـين السـماك الأعلـى والحضيض الأوهد، وهو لا يستطيع أن يظل حيث هو.

تعقبنا في هذه الخلاصة الموجزة للتاريخ البشري خطـى النمو المتصل للمجتمع البشري، ولمسنا كيف كان كل تحسين في وسائل المواصلات والنقل يضطر النـاس إلـى تكييـف أنفسهم لحياة اجتماعية موسعة الآفاق، على الرغم مـن كـل مقاومة تنبعث عن ضروب الولاء الوطيدة، والديانات العتيقة،

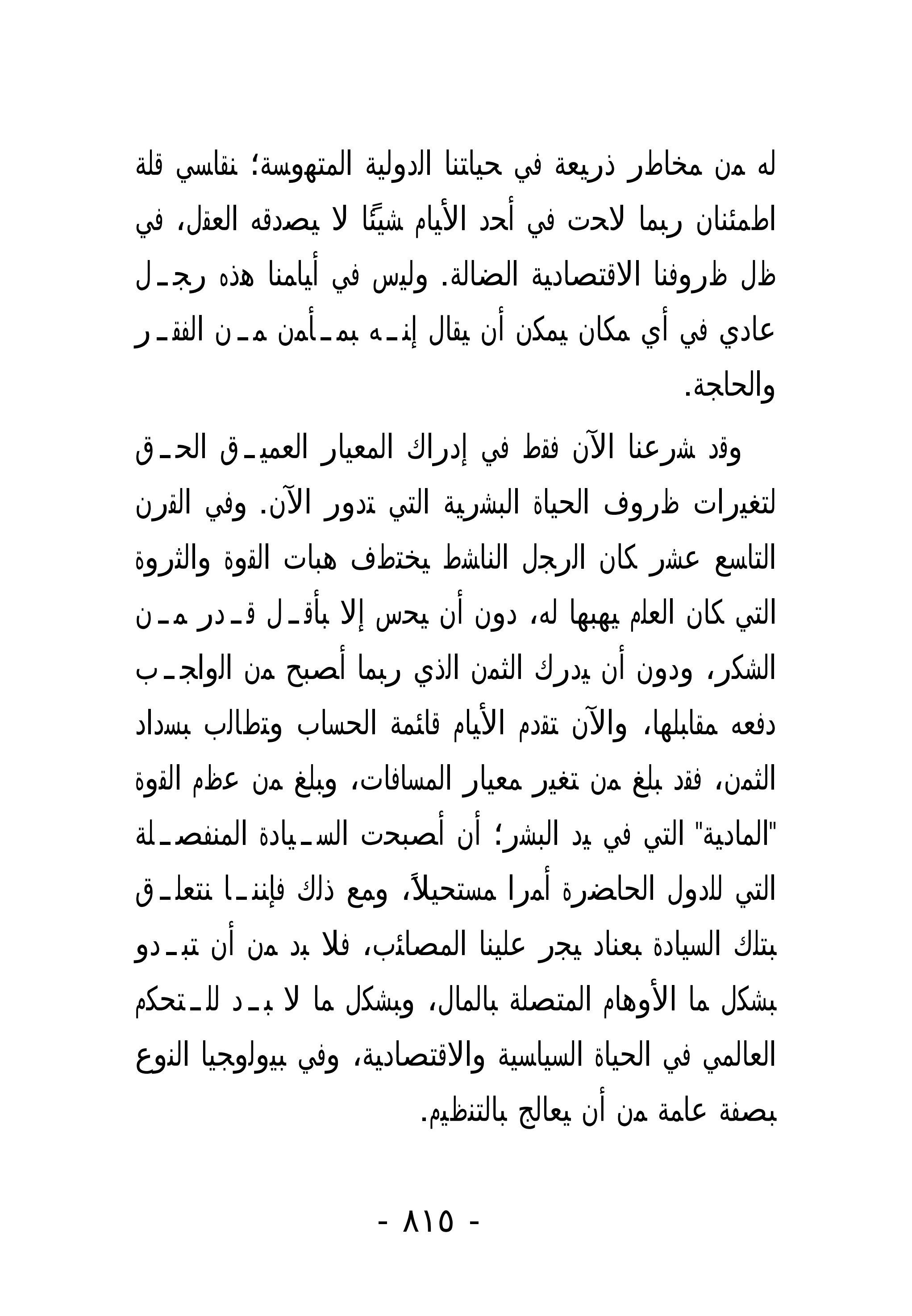


والتحيز، ومألوف العادات، مع ما يقترن بذلك غالبا من الإسراف الهائل في النفوس، والتبديد الذريع للسعادة، كما أننا فحصنا في الفصول ٥٧، و٥٨، و٥٩ بوجه خاص صنوف الارتباك، والفرص التي خلقها العلم والاختراع الحر في أثناء القرن الماضي، ووجهنا البحث خاصة نحو موضوع المشقات التي ينتجها تعقد أوضاع الملكية عندنا إزاء تلك التربية العامة الهزيلة الموجودة لدينا اليوم؛ فقد أصبحت كتلة السكان العظمى متمردة، وربما كان الفصل التاسع والخمسون أهم ما في قصتنا من فصول، وربما كان جديرا بأن يلقي عليه القارئ نظرة أخرى، وهناك ميزة خاصة اختُصت بها الملكية؛ هي صورتها السائلة كنقود، أو كوعود بدفع النقود، ومنذ الحرب العظمى أخذت شئون النقد تشغل قدرا متزايدا من عناية الناس واهتمامهم، ولكن قدرا كبيرا من الأبحاث التي جرت كان غير ذي جدوى، لما جرت به عادة الناس من معالجة النقود كشيء أو نظام في حد ذاته، على حين أنها جزء مركب من "مجموعة معقدة" من العلاقات؛ هو مركب الملكية والنقد، الذي كلما عدل منه جزء عدل معه الكل. مثال ذلك أنه عندما تتضخم العملة وترتفع

الأسعار، يجرد الدائنون مما يملكـون، فـإذا زال التضـخم وانكمشت العملة حمل المدينون عبئًا ثقيلاً. والنقـود تتغيـر طبيعتها إذا أنت غيرت ما يمكن شراؤه وبيعـه، ويصـرح العليمون في شيء من التمويه أن إيجاد الائتمان علـى يـد البنوك الخاصة يعد ضربا من اغتصاب السـلطة، والنقـود تتغير طبيعتها بتغير النواحي التي تستخدم فيها، وليس هناك عملة واحدة، بل عملات عديدة. وللشيوعية نوع من النقـود، كما أن هناك نوعـا آخـر لأنصـار المـذهب الفـردي[1] المتطرف، ونوعا لكل نظام آخر يمكن أن يتواضع عليه في شئون التملك والتوجيه وحرية التصرف.

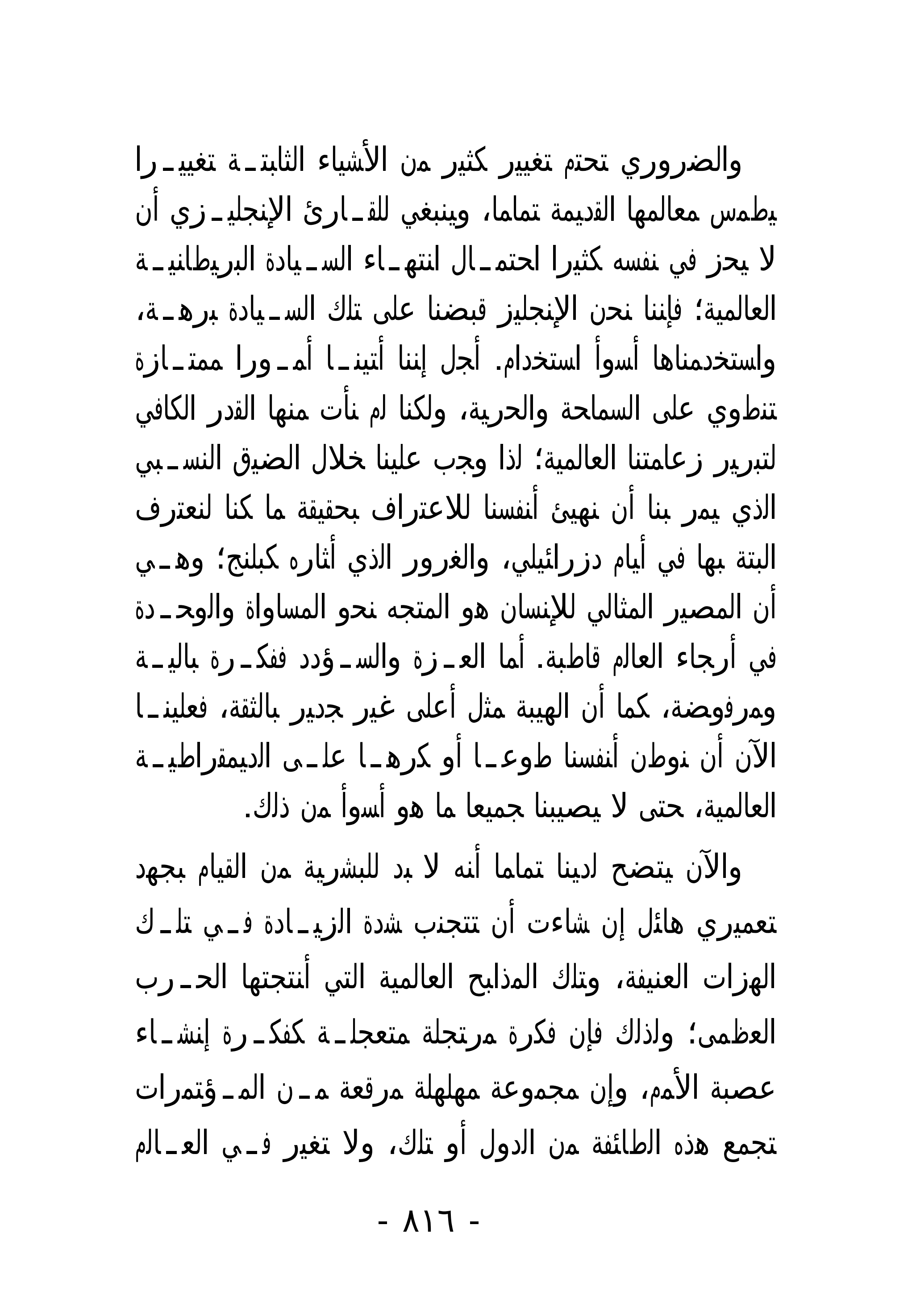
فإذا أعوز جهاز العملة والائتمان القدر الكافي من القـوة العقلية، ومن التنظيم والقيادة؛ ظل ميدانًا يرتع فيه المغـامر والمضارب، وظل مصدرا لإفساد لا نهاية له لنظـام الحيـاة الاقتصادية اليومية، ولكن أين لنا بالتعويذة التي تبـدد هـذا الارتباك. لا جرم أن ذلك يستلزم جهدا عقليا هائلاً ومنظمـا، ولن نبرح نقاسي حتى نبذل ذلك الجهد، فضلاً عما سنتعرض

([1]) مذهب الفردية: مذهب اجتماعي واقتصادي يعلـو بحقـوق الفـرد ومصلحته على حقوق الجماعة والدولة ومصلحتهما. [المترجم]



له من مخاطر ذريعة في حياتنا الدولية المتهوسة؛ نقاسي قلة اطمئنان ربما لاحت في أحد الأيام شيئًا لا يصدقه العقل، في ظل ظروفنا الاقتصادية الضالة. وليس في أيامنا هذه رجـل عادي في أي مكان يمكن أن يقال إنـه بمـأمن مـن الفقـر والحاجة.

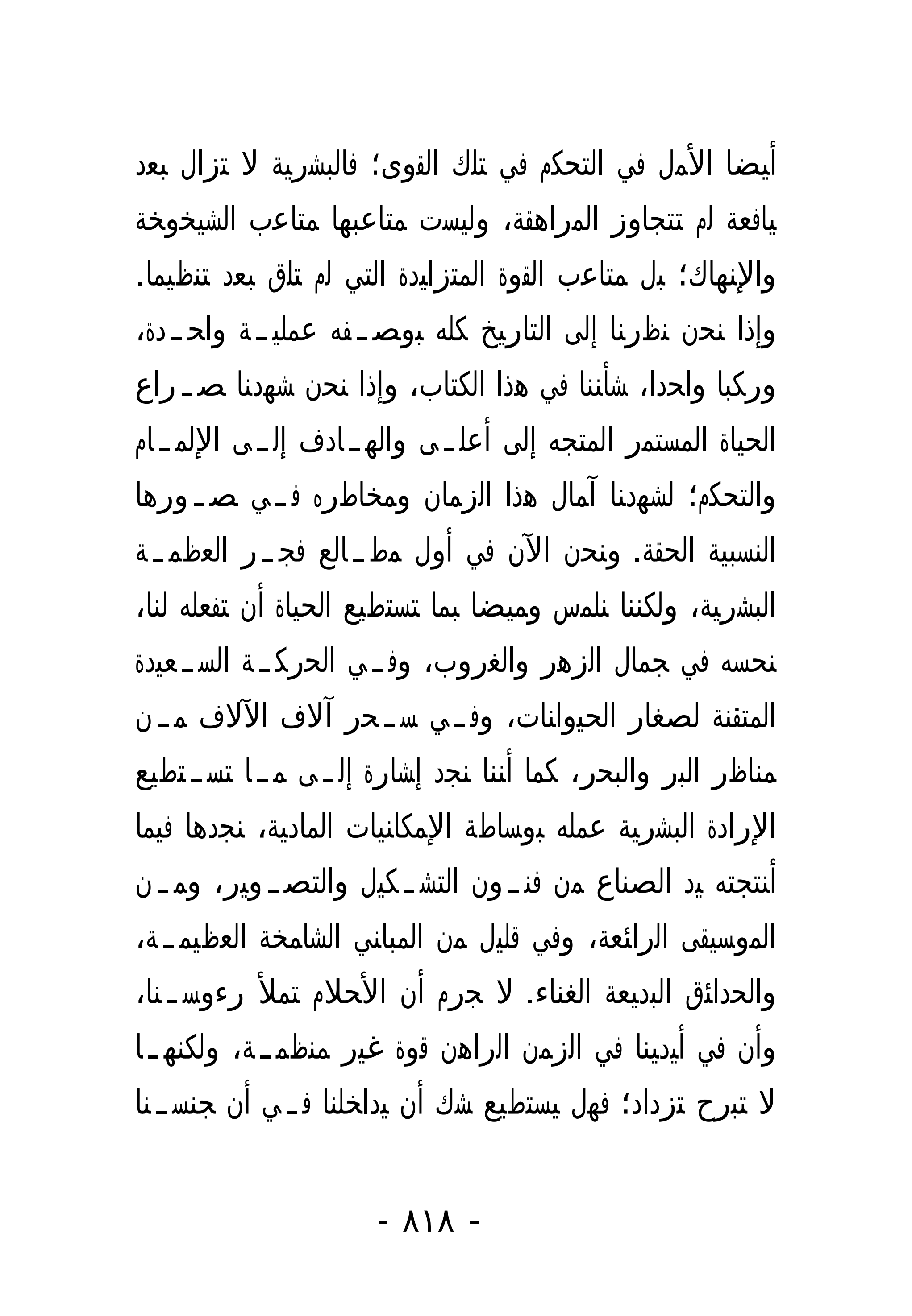
وقد شرعنا الآن فقط في إدراك المعيار العميـق الحـق لتغيرات ظروف الحياة البشرية التي تدور الآن. وفي القرن التاسع عشر كان الرجل الناشط يختطف هبات القوة والثروة التي كان العلم يهبها له، دون أن يحس إلا بأقـل قـدر مـن الشكر، ودون أن يدرك الثمن الذي ربما أصبح من الواجـب دفعه مقابلها، والآن تقدم الأيام قائمة الحساب وتطالب بسداد الثمن، فقد بلغ من تغير معيار المسافات، وبلغ من عظم القوة "المادية" التي في يد البشر؛ أن أصبحت السـيادة المنفصـلة التي للدول الحاضرة أمرا مستحيلاً، ومع ذلك فإننـا نتعلـق بتلك السيادة بعناد يجر علينا المصائب، فلا بد من أن تبـدو بشكل ما الأوهام المتصلة بالمال، وبشكل ما لا بـد للـتحكم العالمي في الحياة السياسية والاقتصادية، وفي بيولوجيا النوع بصفة عامة من أن يعالج بالتنظيم.


والضروري تحتم تغيير كثير من الأشياء الثابتـة تغييـرا يطمس معالمها القديمة تماما، وينبغي للقـارئ الإنجليـزي أن لا يحز في نفسه كثيرا احتمـال انتهـاء السـيادة البريطانيـة العالمية؛ فإننا نحن الإنجليز قبضنا على تلك السـيادة برهـة، واستخدمناها أسوأ استخدام. أجل إننا أتينـا أمـورا ممتـازة تنطوي على السماحة والحرية، ولكنا لم نأت منها القدر الكافي لتبرير زعامتنا العالمية؛ لذا وجب علينا خلال الضيق النسـبي الذي يمر بنا أن نهيئ أنفسنا للاعتراف بحقيقة ما كنا لنعترف البتة بها في أيام دزرائيلي، والغرور الذي أثاره كبلنج؛ وهـي أن المصير المثالي للإنسان هو المتجه نحو المساواة والوحـدة في أرجاء العالم قاطبة. أما العـزة والسـؤدد ففكـرة باليـة ومرفوضة، كما أن الهيبة مثل أعلى غير جدير بالثقة، فعلينـا الآن أن نوطن أنفسنا طوعـا أو كرهـا علـى الديمقراطيـة العالمية، حتى لا يصيبنا جميعا ما هو أسوأ من ذلك.

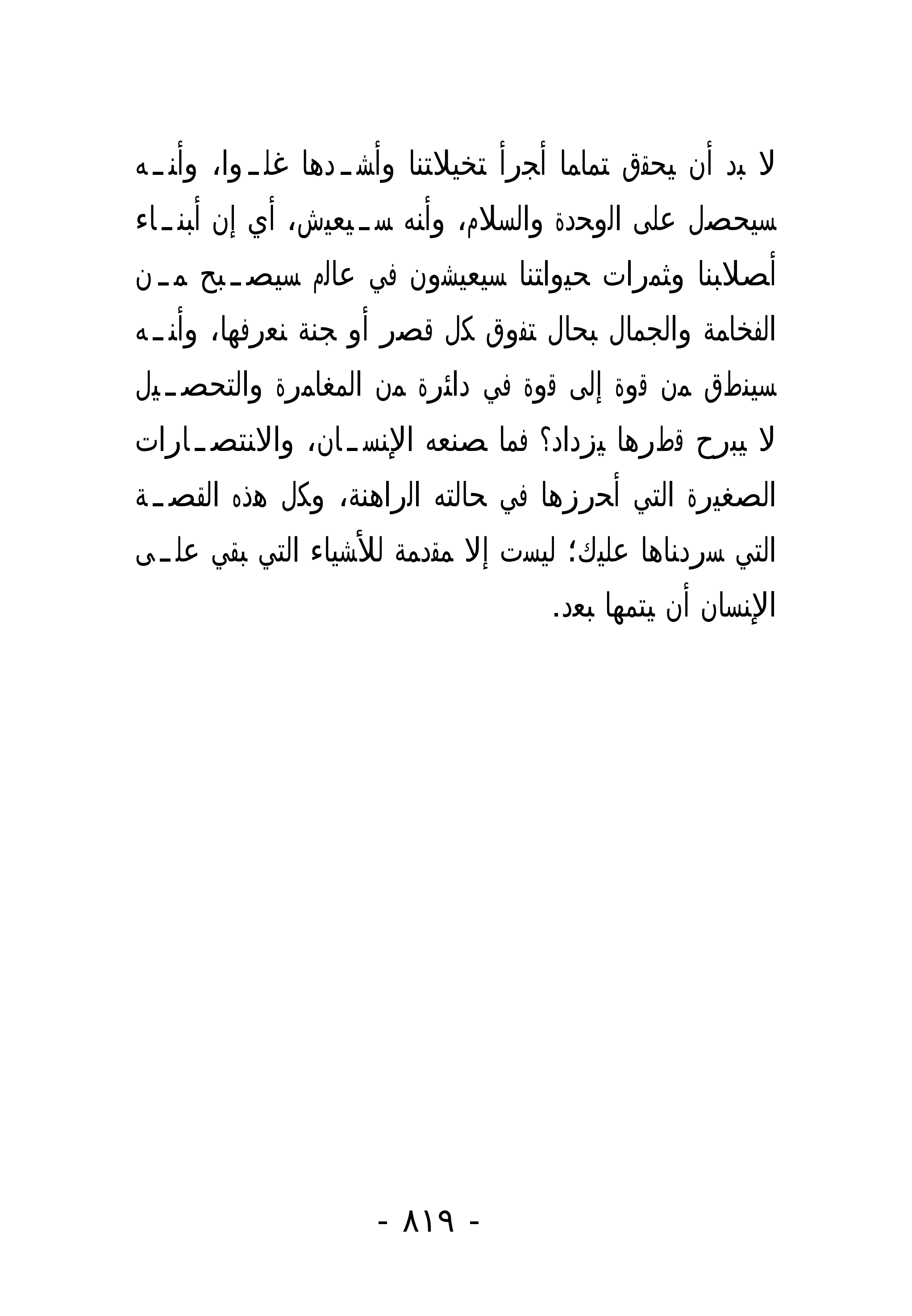
والآن يتضح لدينا تماما أنه لا بد للبشرية من القيام بجهد تعميري هائل إن شاءت أن تتجنب شدة الزيـادة فـي تلـك الهزات العنيفة، وتلك المذابح العالمية التي أنتجتها الحـرب العظمى؛ ولذلك فإن فكرة مرتجلة متعجلـة كفكـرة إنشـاء عصبة الأمم، وإن مجموعة مهلهلة مرقعة مـن المـؤتمرات تجمع هذه الطائفة من الدول أو تلك، ولا تغير فـي العـالم

شيئًا، مع إدعائها تسوية كل شيء؛ لن تكون علاجا للحاجات السياسية المعقدة للعصر الجديد الذي ينتظرنا. ومهما تكن الأمور مستعجلة وخطيرة؛ فلا بد من أن يسبق كل تنظيم عالمي جديد وفعال نهضة عقلية كبرى، ولا بد من نشوء تطور منظم، وتطبيق منظم لعلوم العلاقات البشرية، ولعلم النفس الفردي، وعلم النفس الجماعي، ولعلم المالية والاقتصاد والتربية، وكلها علوم لا تزال في مهد طفولتها؛ فأما الأفكار الضيقة والبائدة والميتة والمحتضرة - سواء منها الخلقي أو السياسي - فلا بد من استبدالها بفكرة أخرى أوضح وأبسط، توضح اشتراك الجنس البشري كافة في الأصول والمصائر.

وإذا كانت الأخطار والارتباكات والكوارث التي تتكدس على رأس الإنسان في هذه الأيام هائلة فوق كل خبرة ماضية مرت به؛ فما ذلك إلا لأن العلم جلب له من القوة ما لم يكن له من قبل إطلاقًا، كما أن المنهج العلمي القائم على الفكر غير الهياب والتعبير الواضح إلى أقصى حد، والتخطيط الناقد والمتحرز إلى أقصى حد؛ أقول إن ذلك المنهج نفسه الذي وهبه هذه القوى التي لم يتهيأ له بعد التحكم فيها يمنحه



أيضا الأمل في التحكم في تلك القوى؛ فالبشرية لا تزال بعد يافعة لم تتجاوز المراهقة، وليست متاعبها متاعب الشيخوخة والإنهاك؛ بل متاعب القوة المتزايدة التي لم تلق بعد تنظيما. وإذا نحن نظرنا إلى التاريخ كله بوصفه عملية واحدة، وركبا واحدا، شأننا في هذا الكتاب، وإذا نحن شهدنا صراع الحياة المستمر المتجه إلى أعلى والهادف إلى الإلمام والتحكم؛ لشهدنا آمال هذا الزمان ومخاطره في صورها النسبية الحقة. ونحن الآن في أول مطالع فجر العظمة البشرية، ولكننا نلمس وميضا بما تستطيع الحياة أن تفعله لنا، نحسه في جمال الزهر والغروب، وفي الحركة السعيدة المتقنة لصغار الحيوانات، وفي سحر آلاف الآلاف من مناظر البر والبحر، كما أننا نجد إشارة إلى ما تستطيع الإرادة البشرية عمله بوساطة الإمكانيات المادية، نجدها فيما أنتجته يد الصناع من فنون التشكيل والتصوير، ومن الموسيقى الرائعة، وفي قليل من المباني الشامخة العظيمة، والحدائق البديعة الغناء. لا جرم أن الأحلام تملأ رءوسنا، وأن في أيدينا في الزمن الراهن قوة غير منظمة، ولكنها لا تبرح تزداد؛ فهل يستطيع شك أن يداخلنا في أن جنسنا



لا بد أن يحقق تماما أجرأ تخيلاتنا وأشـدها غلـوا، وأنـه سيحصل على الوحدة والسلام، وأنه سـيعيش، أي إن أبنـاء أصلابنا وثمرات حيواتنا سيعيشون في عالم سيصـبح مـن الفخامة والجمال بحال تفوق كل قصر أو جنة نعرفها، وأنـه سينطق من قوة إلى قوة في دائرة من المغامرة والتحصـيل لا يبرح قطرها يزداد؟ فما صنعه الإنسـان، والانتصـارات الصغيرة التي أحرزها في حالته الراهنة، وكل هذه القصـة التي سردناها عليك؛ ليست إلا مقدمة للأشياء التي بقي علـى الإنسان أن يتمها بعد.

الفصل الحادي والسبعون

من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٤

العقل البشري في أقصى توتره[1]

([1]) هذا الفصل أضافه المؤلف قبيل وفاته، وظهر فـي أحـدث طبعة للكتاب. [المترجم]

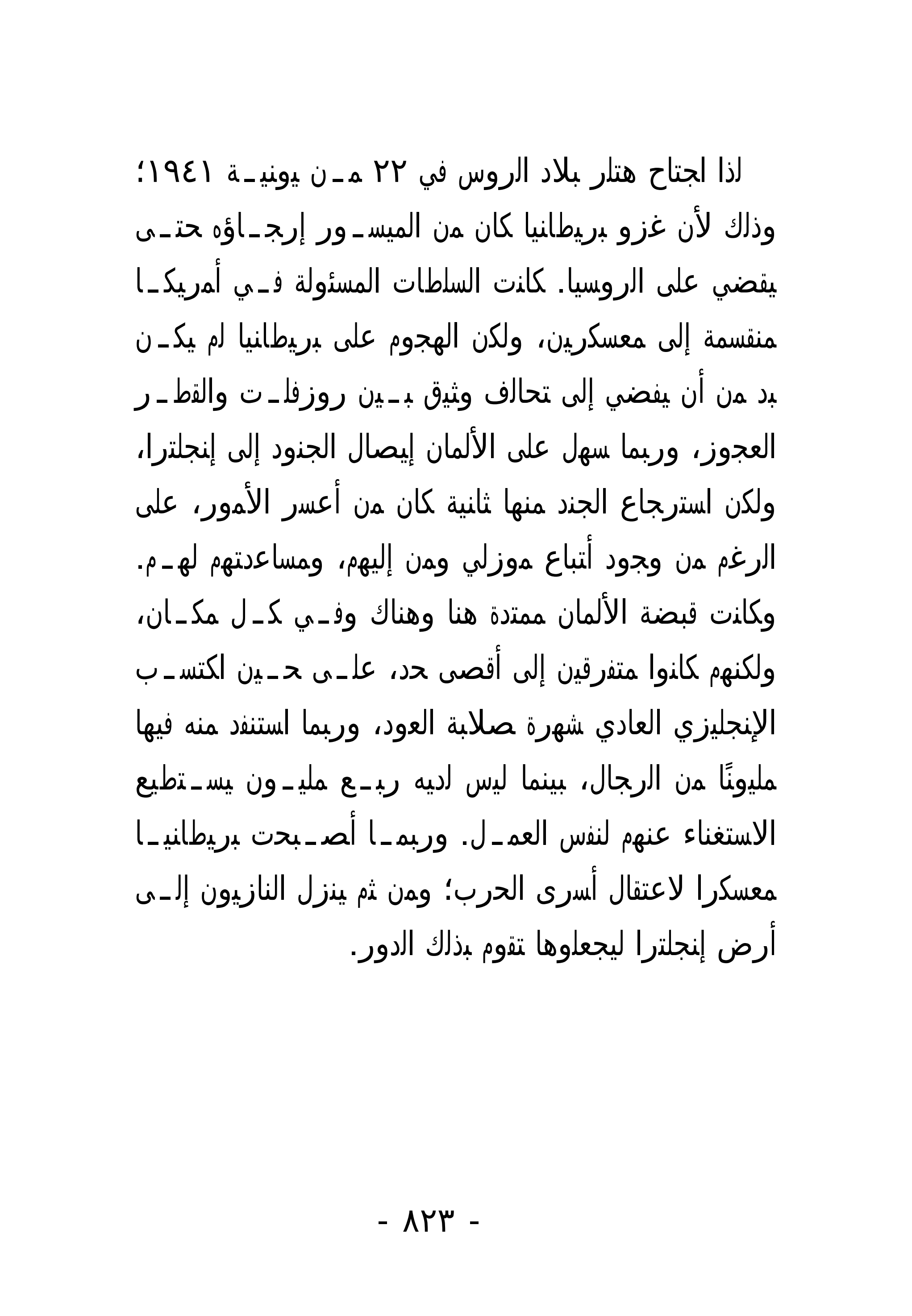
-١-

الأحداث بين ١٩٤١، و١٩٤٤

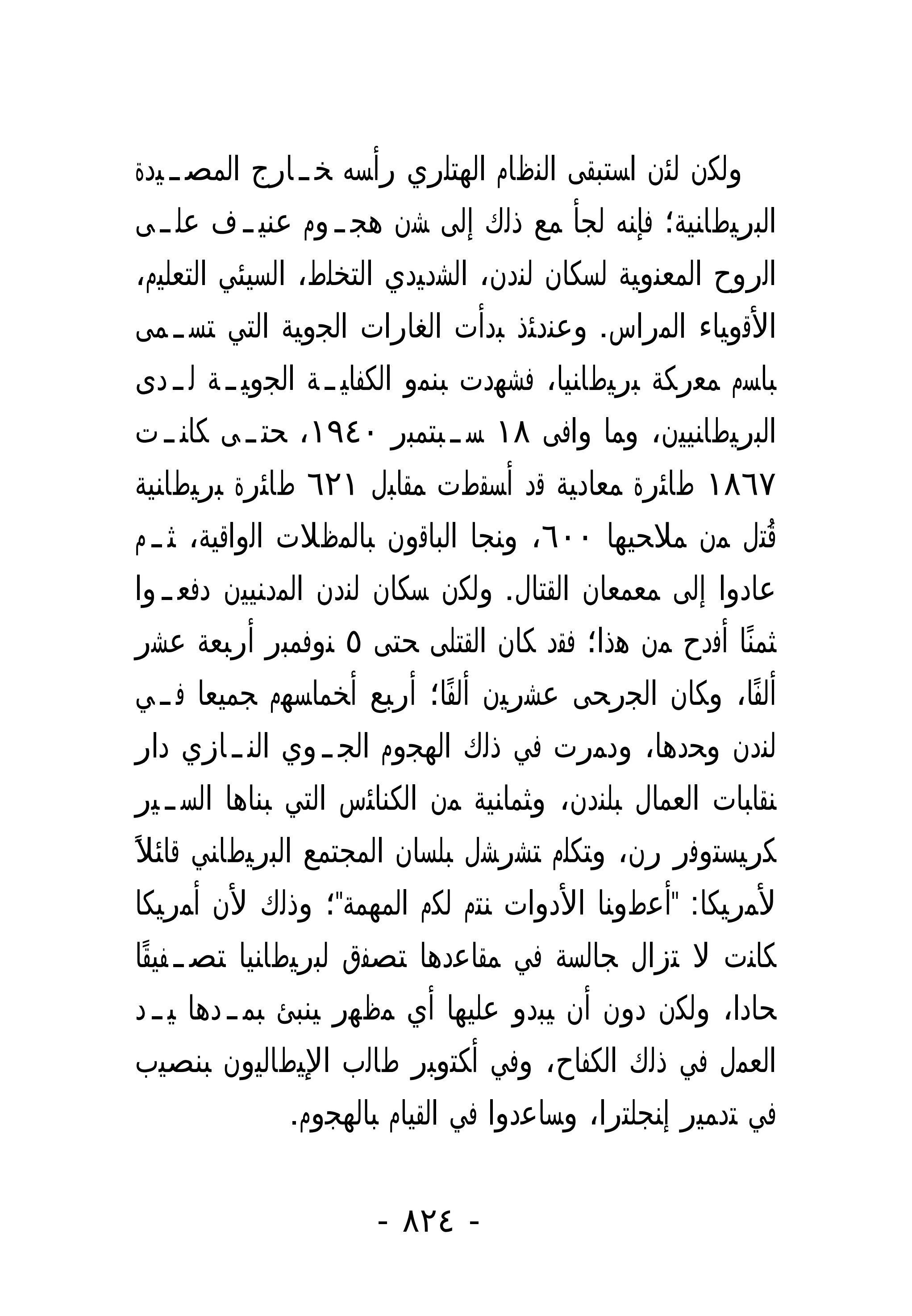
أوصلت الفصول السابقة هذا السفر في تاريخ الحياة حتى عام ١٩٤١/١٩٤٠، وليس هناك ما يستحق التغيير إلا النذر اليسير من حيث تتابع الحوادث. وقد حذفت بعض العبارات في بعض النسخ لدواعٍ سياسية، ولكنها أعيدت الآن إلى هذه النسخة. وقد سجل الكتاب اليوم، وحفظت حقوق نشره للمؤلف ككل متكامل، ولن يكون لأحد عذر ولا إذن بإجراء مثل ذلك الحذف.

ولئن ظل تتابع الحقائق في هذا الكتاب منزها عن كل تغيير، ويمكننا الآن إعادته إلى سيرته الأولى الكاملة؛ فلقد ألم تغير جسيم بالقيم المناطة بتتابعها. على أنه يجدر بنا قبل الخوض في ذلك الموضوع أن نتذكر أحداث تلك الفترة، وفي إمكاننا أن نفعل ذلك باختصار؛ وذلك لأن كثيرا من تلك الأحداث لا تزال ناضرة في ذاكرة القارئ. وفي عام ١٩٤١/١٩٤٠ كان جميع العالم غير المستعد يحتال التماسا للوقت، ويضمر الاسترابة بأصدقائه المحتملين. واستطاع

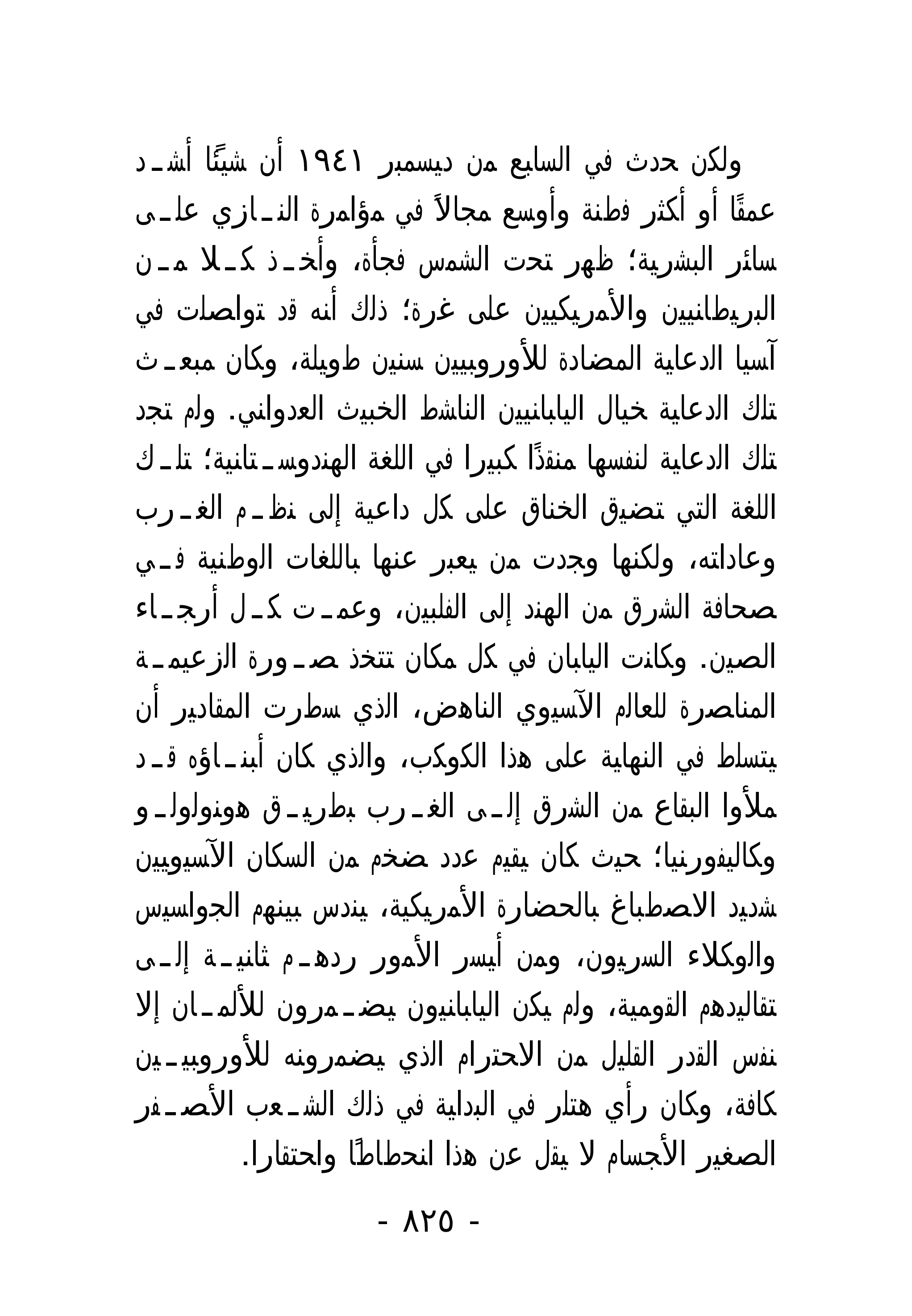
هتلر على الرغم ممـا كـان يصـدر عنـه مـن أكاذيـب لا يكاد يصدقها عقل أن يعقد المعاهدات، ويتفاهم مع جميـع ضحاياه الذين قرر إيقاعهم في شراكه، عدا اليهـود الـذين كانت نقمته عليهم قاطعة. ويلوح أن الأمريكيين كانوا بمنأى عن دائرة أطماعه في تلك الآونة، فكان هدفه غـزو العـالم المتركز حول أوروبا. وسار مولوتـوف وبـوريس (ملـك بلغاريا وممثل للحكومـة الألعوبـة الهزيلـة القائمـة فـي يوغوسلافيا) في أثر خطوات المسـتر تشـمبرلن، وذهبـوا للمفاوضة مع هتلر، وظلت بريطانيا تتحمل وحـدها عـبء هجوم لم تبرح شدته تزداد كل يوم، على أن هتلر أحس بعد التقائه مع مولوتوف بالقلق مـن ناحيـة الروسـيا. وكانـت الروسيا تسترد قوتها من ساعة لأخرى؛ لذلك كانت أقـرب مصدر للخطر عليه. أجل قد تكون بريطانيا قوية في دفاعها، ولكنها كانت حتى ذلك الحين غير مستعدة للهجوم.



لذا اجتاح هتلر بلاد الروس في ٢٢ مـن يونيـة ١٩٤١؛ وذلك لأن غزو بريطانيا كان من الميسـور إرجـاؤه حتـى يقضي على الروسيا. كانت السلطات المسئولة فـي أمريكـا منقسمة إلى معسكرين، ولكن الهجوم على بريطانيا لم يكـن بد من أن يفضي إلى تحالف وثيق بـين روزفلـت والقطـر العجوز، وربما سهل على الألمان إيصال الجنود إلى إنجلترا، ولكن استرجاع الجند منها ثانية كان من أعسر الأمور، على الرغم من وجود أتباع موزلي ومن إليهم، ومساعدتهم لهـم. وكانت قبضة الألمان ممتدة هنا وهناك وفـي كـل مكـان، ولكنهم كانوا متفرقين إلى أقصى حد، علـى حـين اكتسـب الإنجليزي العادي شهرة صلابة العود، وربما استنفد منه فيها مليونًا من الرجال، بينما ليس لديه ربـع مليـون يسـتطيع الاستغناء عنهم لنفس العمـل. وربمـا أصـبحت بريطانيـا معسكرا لاعتقال أسرى الحرب؛ ومن ثم ينزل النازيون إلـى أرض إنجلترا ليجعلوها تقوم بذلك الدور.



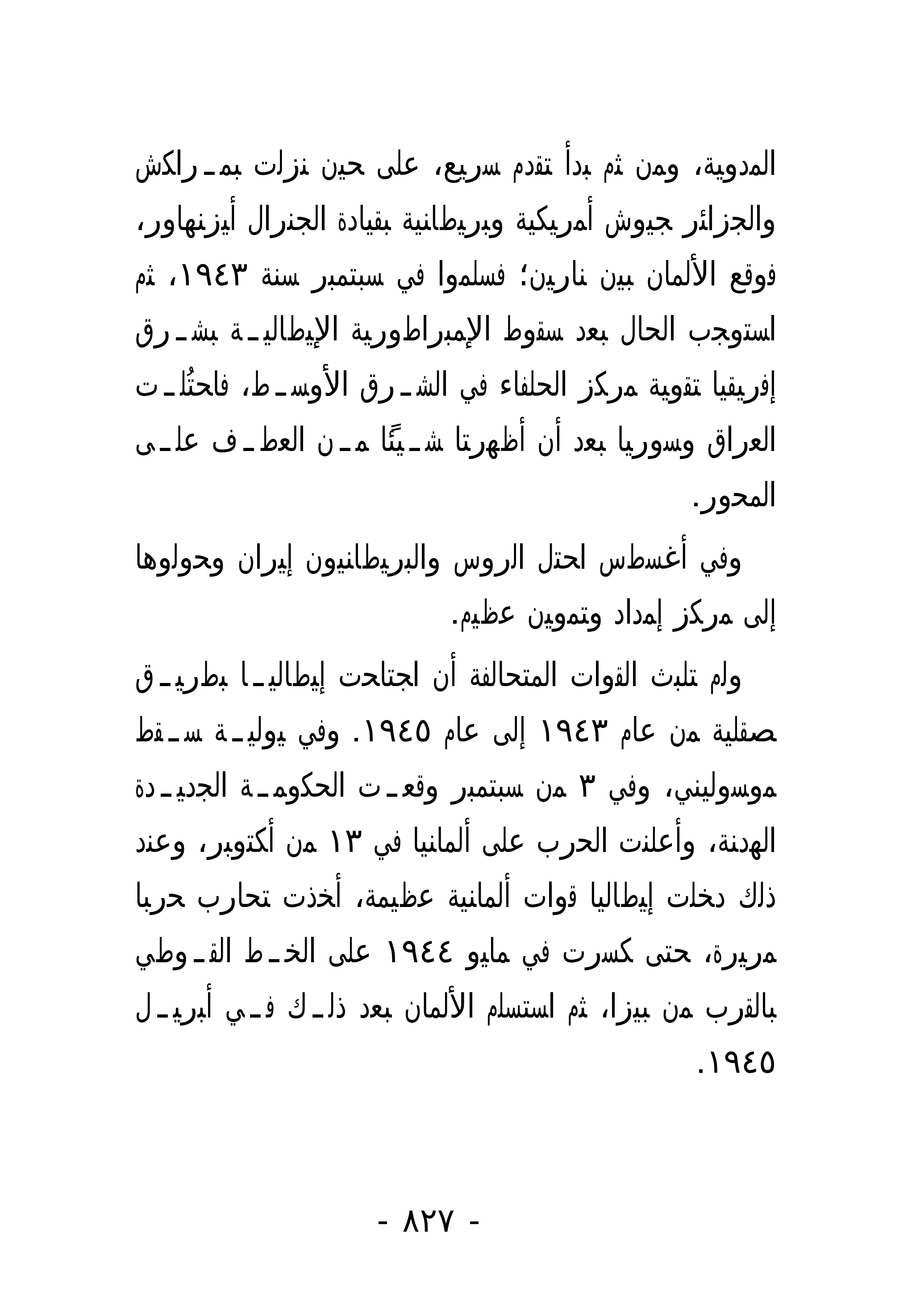
ولكن لئن استبقى النظام الهتلري رأسه خـارج المصـيدة البريطانية؛ فإنه لجأ مع ذلك إلى شن هجـوم عنيـف علـى الروح المعنوية لسكان لندن، الشديدي التخلط، السيئي التعليم، الأقوياء المراس. وعندئذ بدأت الغارات الجوية التي تسـمى باسم معركة بريطانيا، فشهدت بنمو الكفايـة الجويـة لـدى البريطانيين، وما وافى ١٨ سـبتمبر ١٩٤٠، حتـى كانـت ١٨٦٧ طائرة معادية قد أسقطت مقابل ٦٢١ طائرة بريطانية قُتل من ملاحيها ٦٠٠، ونجا الباقون بالمظلات الواقية، ثـم عادوا إلى معمعان القتال. ولكن سكان لندن المدنيين دفعـوا ثمنًا أفدح من هذا؛ فقد كان القتلى حتى ٥ نوفمبر أربعة عشر ألفًا، وكان الجرحى عشرين ألفًا؛ أربع أخماسهم جميعا فـي لندن وحدها، ودمرت في ذلك الهجوم الجـوي النـازي دار نقابات العمال بلندن، وثمانية من الكنائس التي بناها السـير كريستوفر رن، وتكلم تشرشل بلسان المجتمع البريطاني قائلاً لأمريكا: "أعطونا الأدوات نتم لكم المهمة"؛ وذلك لأن أمريكا كانت لا تزال جالسة في مقاعدها تصفق لبريطانيا تصـفيقًا حادا، ولكن دون أن يبدو عليها أي مظهر ينبئ بمـدها يـد العمل في ذلك الكفاح، وفي أكتوبر طالب الإيطاليون بنصيب في تدمير إنجلترا، وساعدوا في القيام بالهجوم.



ولكن حدث في السابع من ديسمبر ١٩٤١ أن شيئًا أشـد عمقًا أو أكثر فطنة وأوسع مجالاً في مؤامرة النـازي علـى سائر البشرية؛ ظهر تحت الشمس فجأة، وأخـذ كـلا مـن البريطانيين والأمريكيين على غرة؛ ذلك أنه قد تواصلت في آسيا الدعاية المضادة للأوروبيين سنين طويلة، وكان مبعـث تلك الدعاية خيال اليابانيين الناشط الخبيث العدواني. ولم تجد تلك الدعاية لنفسها منفذًا كبيرا في اللغة الهندوسـتانية؛ تلـك اللغة التي تضيق الخناق على كل داعية إلى نظـام الغـرب وعاداته، ولكنها وجدت من يعبر عنها باللغات الوطنية فـي صحافة الشرق من الهند إلى الفلبين، وعمـت كـل أرجـاء الصين. وكانت اليابان في كل مكان تتخذ صـورة الزعيمـة المناصرة للعالم الآسيوي الناهض، الذي سطرت المقادير أن يتسلط في النهاية على هذا الكوكب، والذي كان أبنـاؤه قـد ملأوا البقاع من الشرق إلـى الغـرب بطريـق هونولولـو وكاليفورنيا؛ حيث كان يقيم عدد ضخم من السكان الآسيويين شديد الاصطباغ بالحضارة الأمريكية، يندس بينهم الجواسيس والوكلاء السريون، ومن أيسر الأمور ردهـم ثانيـة إلـى تقاليدهم القومية، ولم يكن اليابانيون يضـمرون للألمـان إلا نفس القدر القليل من الاحترام الذي يضمرونه للأوروبيـين كافة، وكان رأي هتلر في البداية في ذلك الشـعب الأصـفر الصغير الأجسام لا يقل عن هذا انحطاطًا واحتقارا.

ولم يلبث هذا المشروع الذي طال الأمد بإعداده أن قُـذف على العالم في ٧ من ديسـمبر ١٩٤١، علـى حـين كـان الدبلوماسيون اليابانيون لا يبرحون يخففون من الشبهات ضد بلادهم بإجراء المفاوضات في واشنطون. وكـان أسـطول الولايات المتحدة الباسيفيكي يرقد هادئًا في مياه بيرل هاربور قاعدته البحرية عندما فاجأه اليابانيون، وفُقـدت فـي تلـك المفاجأة أو دمرت بارجتـان وثـلاث مـدمرات وسـفينتان أخريان، وأعلنت القيادة اليابانية العليا أنها في حـرب مـع بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وأغرقت البارجتـان البرنس أوف ويلز والريبالس (لأنهمـا كانتـا بـلا عـون جوي!!!) بطرابيد أُلقيت من الطائرات اليابانية، وهل لي أن أكرر هذه الكلمات المشحونة بالمعاني الأسيفة.. لأنهما كانتـا بلا عون جوي؟! ولسنا نعرف إلى يومنـا هـذا مـن كـان المسئول عن ذلك التقصير...

لقد صد ويفل هجوم الإيطاليين، وتقدم إلى غزالة، ولكـن سحب جيوشه إلى البلقان أضعف حملته، فتقدم رومل حتـى أصبح على مسيرة ٧٠ ميلاً من الإسكندرية، وفاز الجنـرال مونتجومري في أكتوبر ونوفمبر عام ١٩٤٢ بمعركة العلمين



المدوية، ومن ثم بدأ تقدم سريع، على حين نزلت بمراكش والجزائر جيوش أمريكية وبريطانية بقيادة الجنرال أيزنهاور، فوقع الألمان بين نارين؛ فسلموا في سبتمبر سنة ١٩٤٣، ثم استوجب الحال بعد سقوط الإمبراطورية الإيطالية بشرق إفريقيا تقوية مركز الحلفاء في الشرق الأوسط، فاحتُلت العراق وسوريا بعد أن أظهرتا شيئًا من العطف على المحور.

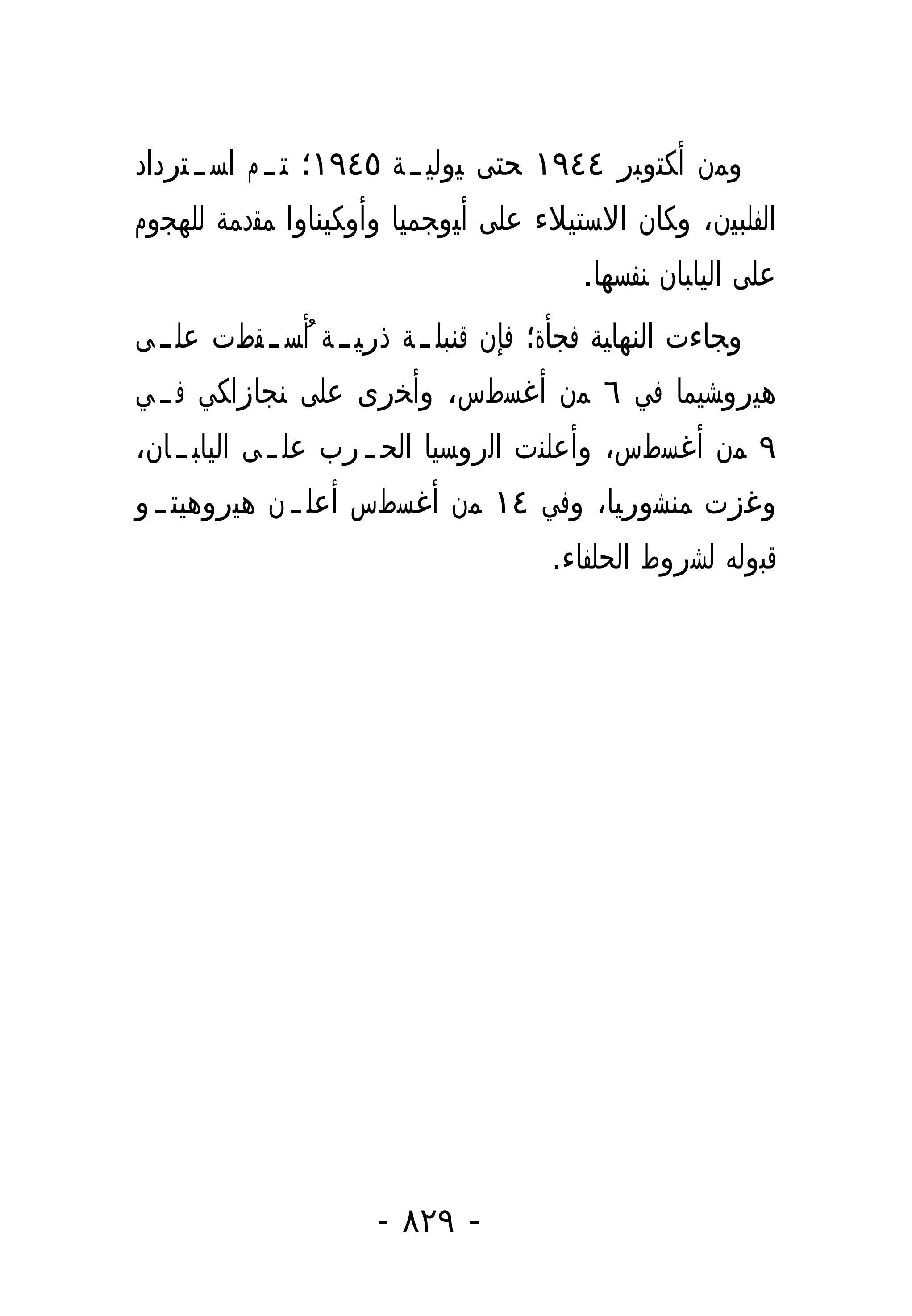
وفي أغسطس احتل الروس والبريطانيون إيران وحولوها إلى مركز إمداد وتموين عظيم.

ولم تلبث القوات المتحالفة أن اجتاحت إيطاليا بطريق صقلية من عام ١٩٤٣ إلى عام ١٩٤٥. وفي يولية سقط موسوليني، وفي ٣ من سبتمبر وقعت الحكومة الجديدة الهدنة، وأعلنت الحرب على ألمانيا في ١٣ من أكتوبر، وعند ذلك دخلت إيطاليا قوات ألمانية عظيمة، أخذت تحارب حربا مريرة، حتى كسرت في مايو ١٩٤٤ على الخط القوطي بالقرب من بيزا، ثم استسلم الألمان بعد ذلك في أبريل ١٩٤٥.

وفشل الألمان عند ستالينجراد عشر مرات، ثم قام الروس بهجومهم العظيم في ربيع ١٩٤٤، وحرروا جميع أوكرانيـا، ودخلوا رومانيا، ثم بدئ هجوم عـام أُخرجـت بـه فنلنـدة ورومانيا وبلغاريا من الحرب، ودخل الروس بروسيا الشرقية وبولندة ويوغوسلافيا، ودخلت القوات البريطانية بلاد اليونان في أكتوبر، وفي نهاية ١٩٤٤ كانت معظم البلقان قد خرجت من أيدي الألمان، وأسدى أنصار تيتو إلى الحلفاء مسـاعدة ثمينة، وثمة هجوم روسي أخيـر حـرر بولنـدة، ودخـل تشيكوسلوفاكيا، وبلغ برلين (يناير – مايو ١٩٤٥).

ومهد الطريق للجبهة الثانية في الغـرب بقـذف ألمانيـا بالطائرات بغاية الشدة، وفُتحت الجبهة بشمال فرنسا الغربية بقيادة أيزنهاور، ثم تقدمت الجنود المتحالفـة مـن السـاحل بمنطقة الأردن Ardennss فصدها إلى حين، ثم ما لبثت أن كسرت خط سيجفريد وعبرت الراين في مارس، وفي ٧ من مايو سلمت ألمانيا بلا قيد ولا شرط.

وسرعان ما اجتاح اليابانيون شبه جزيرة الملايو، وبسـطوا نفوذهم على معظم جزائر المحيط الهندي والهادي، ثـم أخـذت الهزائم تتوالى على اليابانيين، فاستُردت بورما في يناير ١٩٤٥.



ومن أكتوبر ١٩٤٤ حتى يوليـة ١٩٤٥؛ تـم اسـترداد الفلبين، وكان الاستيلاء على أيوجميا وأوكيناوا مقدمة للهجوم على اليابان نفسها.

وجاءت النهاية فجأة؛ فإن قنبلـة ذريـة أُسـقطت علـى هيروشيما في ٦ من أغسطس، وأخرى على نجازاكي فـي ٩ من أغسطس، وأعلنت الروسيا الحـرب علـى اليابـان، وغزت منشوريا، وفي ١٤ من أغسطس أعلـن هيروهيتـو قبوله لشروط الحلفاء.

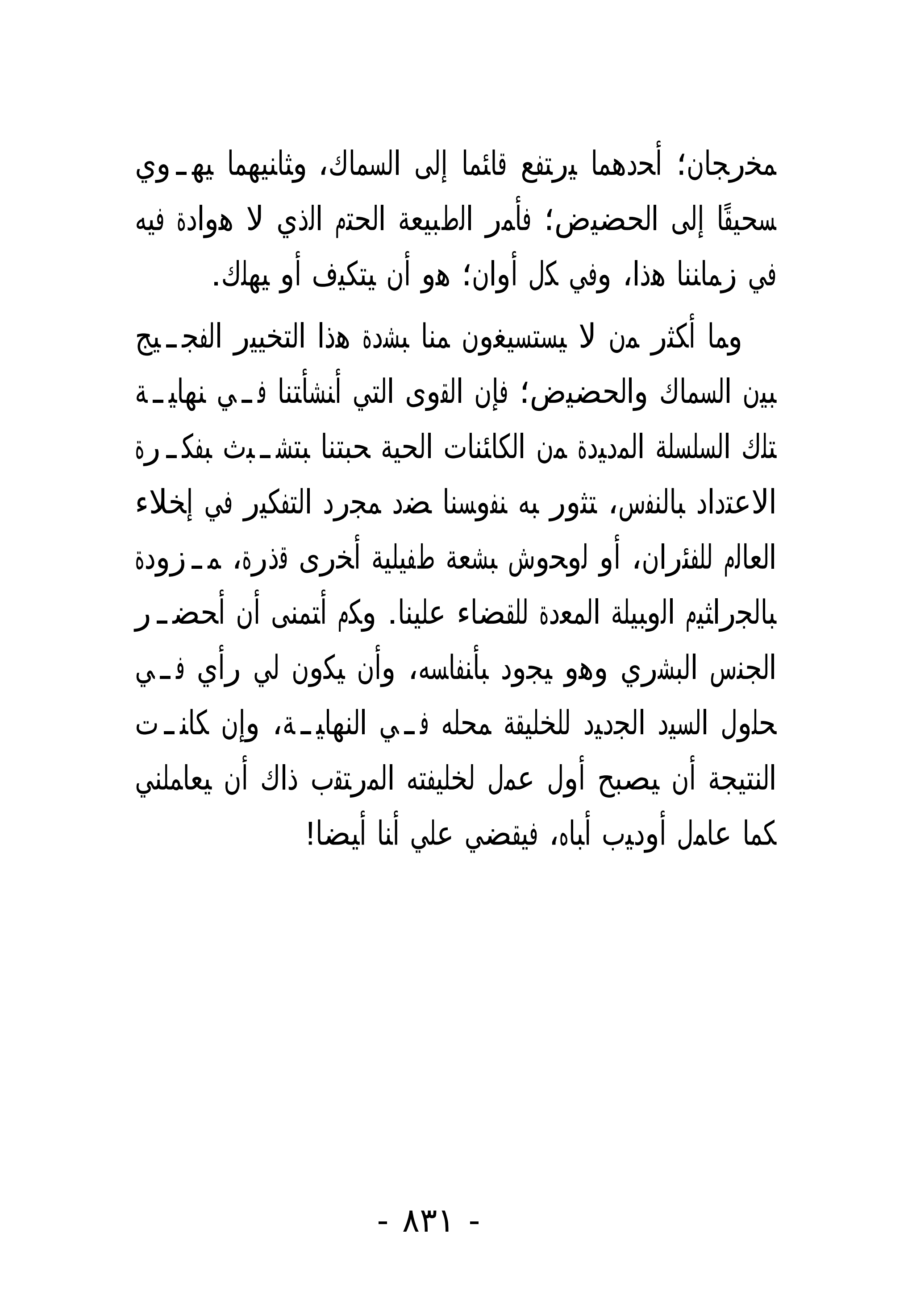
-٢-

معرفتنا الحاضرة بطبيعة الحياة

أوصل الفصل السبعون تاريخنا هذا إلى ١٩٤٠[1] ومنـذ ذلك الحين حدثت سلسلة متعاقبـة مـن الأحـداث أرغمـت المشاهد الذكي إرغاما على أن يدرك أن قصة البشـرية قـد بلغت غايتها آنفًا، وأن الإنسان العاقل Homo sapiens وهو الاسم الذي سره أن يطلقه على نفسه؛ يعد في صورته الحالية شيئًا منهوكًا لا غناء فيه، ذلك أن النجوم في مسـالكها قـد انقلبت عليه، ولا بد له من أن يخلي مكانـه لحيـوان آخـر أحسن تكيفًا لمواجهة المصير الذي لا يبـرح يطبـق علـى البشرية بصورة أسرع وأسرع.

وربما كان ذلك الحيوان المتكيف الجديد صنفًا آخر غريبا عنا تماما، وربما نشـأ كتعـديل جديـد للفصـيلة البشـرية Homindae؛ بل حتى كاستمرار مباشر للأمـة البشـرية، ولكن لا شك في أنه لن يكون بشريا، فليس أمام الإنسـان إلا

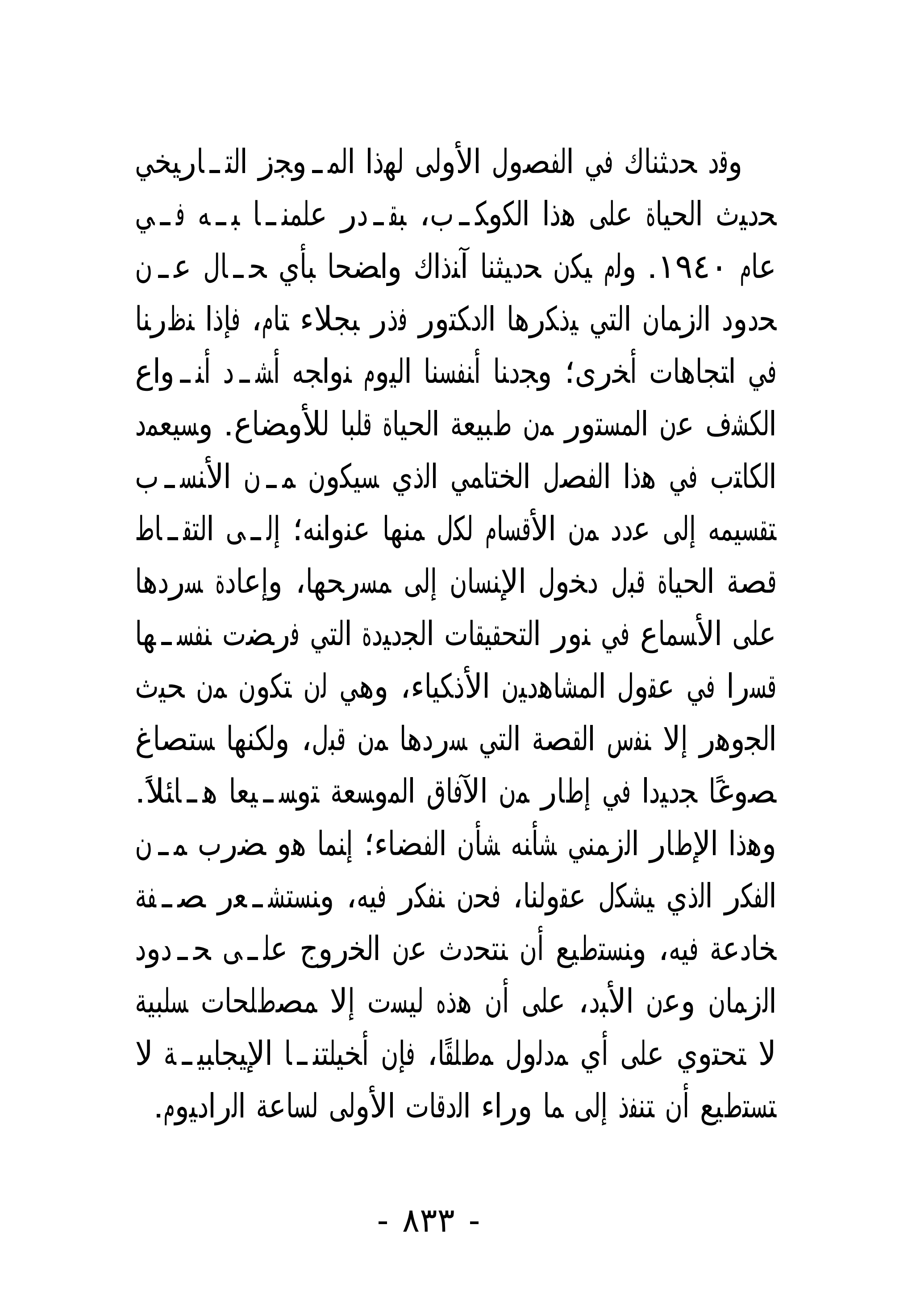
([1]) وأضاف المترجم نبذة عما عقب ذلك من أحداث الحرب العظمى.



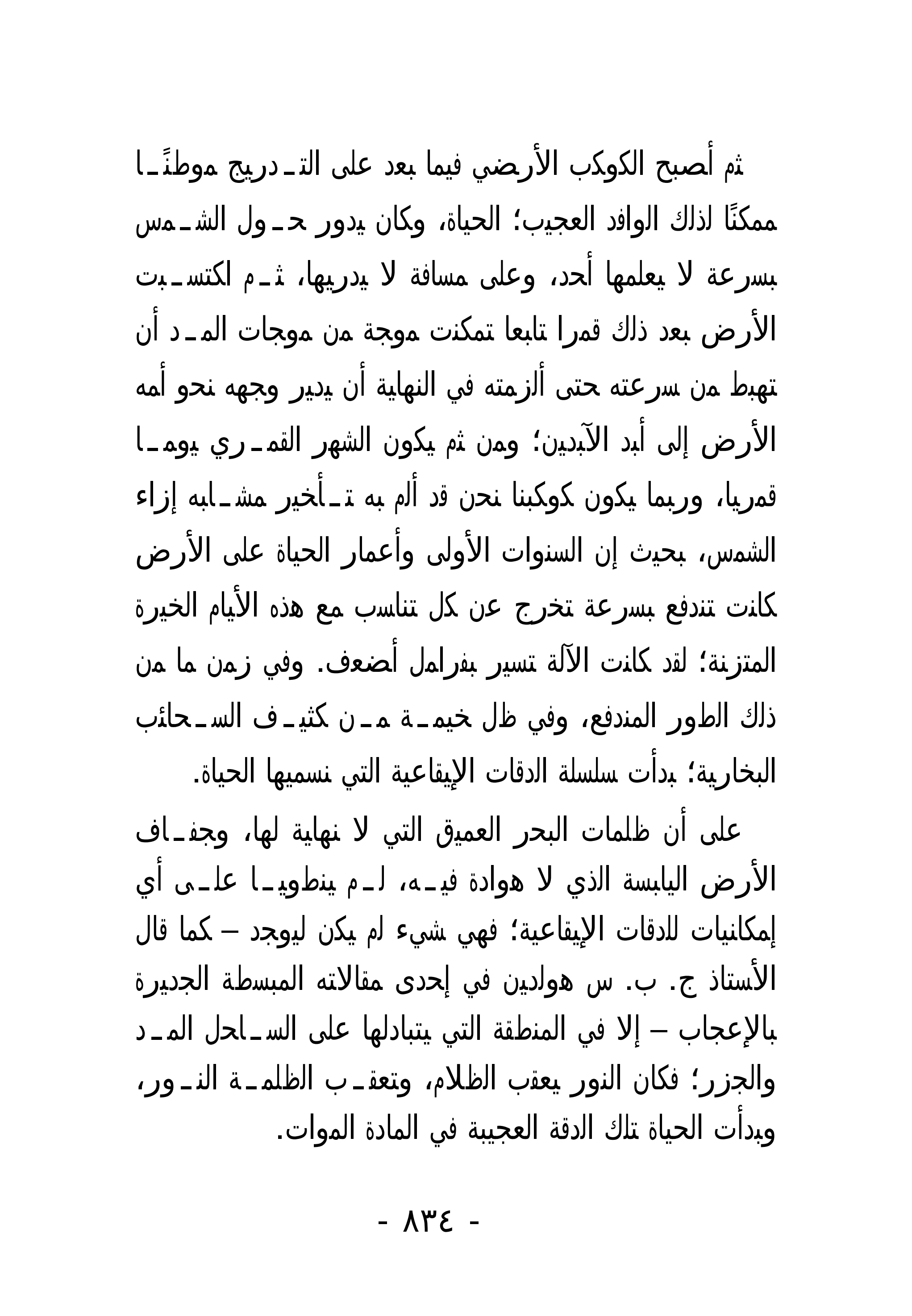
مخرجان؛ أحدهما يرتفع قائما إلى السماك، وثانيهما يهـوي سحيقًا إلى الحضيض؛ فأمر الطبيعة الحتم الذي لا هوادة فيه في زماننا هذا، وفي كل أوان؛ هو أن يتكيف أو يهلك.

وما أكثر من لا يستسيغون منا بشدة هذا التخيير الفجـيج بين السماك والحضيض؛ فإن القوى التي أنشأتنا فـي نهايـة تلك السلسلة المديدة من الكائنات الحية حبتنا بتشـبث بفكـرة الاعتداد بالنفس، تثور به نفوسنا ضد مجرد التفكير في إخلاء العالم للفئران، أو لوحوش بشعة طفيلية أخرى قذرة، مـزودة بالجراثيم الوبيلة المعدة للقضاء علينا. وكم أتمنى أن أحضـر الجنس البشري وهو يجود بأنفاسه، وأن يكون لي رأي فـي حلول السيد الجديد للخليقة محله فـي النهايـة، وإن كانـت النتيجة أن يصبح أول عمل لخليفته المرتقب ذاك أن يعاملني كما عامل أوديب أباه، فيقضي علي أنا أيضا!

قلب الطرف فيما حولك من هذا الكوكـب؛ تجـد بقايـا الإنسان وأعماله منتشرة في أرجائه، ولا بد لمعظمنا من بذل جهد فكري هائل قبل أن يدركوا أن هـذا التوزيـع المتسـع للمنتجات الإنسانية ليس إلا ثمرة المائة ألف سـنة الأخيـرة. ولا بد أن المواد ذات النشاط الإشـعاعي، وعمليـة تحلـل الراديوم؛ قد بدأت في المجموعة الشمسية في مـدة تقـارب ثلاثة آلاف مليون من السنين، وإنها توقفت فعـلاً قبـل أن صارت الحياة ممكنة على الأرض بـزمن طويـل. يقـول الدكتور ن. هـ. فذر بمعمل كافندش بكمبردج : "إن جميـع الأنواع ذات النشاط الإشعاعي طبيعية بحتة؛ بمعنى أنه لا بد أن أحوالاً قد حدثت في مرحلة مـا مـن مراحـل التطـور الكوني، ولعلها لا تزال تحدث في بطـون النجـوم الأشـد حرارة، التي حدث بها إنتاجها ولا يزال ممكن الحدوث، على أن هذه الأحوال لم تنشأ على الأرض منذ ساعة انفصالها عن الشمس، كما أننا كسكان للأرض قد جرت عادتنـا التقليديـة بألا نعد من الأمور الطبيعية إلا تلك العناصر الإشعاعية التي يظهر لنا أنها عاشت على كوكبنا تلك الفترة التـي تقـارب ثلاثة آلاف المليون سـنة (٣×١٠^{٩} سـنة) منـذ أن حـدث الانفصال".



وقد حدثناك في الفصول الأولى لهذا المـوجز التـاريخي حديث الحياة على هذا الكوكـب، بقـدر علمنـا بـه فـي عام ١٩٤٠. ولم يكن حديثنا آنذاك واضحا بأي حـال عـن حدود الزمان التي يذكرها الدكتور فذر بجلاء تام، فإذا نظرنا في اتجاهات أخرى؛ وجدنا أنفسنا اليوم نواجه أشـد أنـواع الكشف عن المستور من طبيعة الحياة قلبا للأوضاع. وسيعمد الكاتب في هذا الفصل الختامي الذي سيكون مـن الأنسـب تقسيمه إلى عدد من الأقسام لكل منها عنوانه؛ إلـى التقـاط قصة الحياة قبل دخول الإنسان إلى مسرحها، وإعادة سردها على الأسماع في نور التحقيقات الجديدة التي فرضت نفسـها قسرا في عقول المشاهدين الأذكياء، وهي لن تكون من حيث الجوهر إلا نفس القصة التي سردها من قبل، ولكنها ستصاغ صوغًا جديدا في إطار من الآفاق الموسعة توسـيعا هـائلاً. وهذا الإطار الزمني شأنه شأن الفضاء؛ إنما هو ضرب مـن الفكر الذي يشكل عقولنا، فحن نفكر فيه، ونستشـعر صـفة خادعة فيه، ونستطيع أن نتحدث عن الخروج علـى حـدود الزمان وعن الأبد، على أن هذه ليست إلا مصطلحات سلبية لا تحتوي على أي مدلول مطلقًا، فإن أخيلتنـا الإيجابيـة لا تستطيع أن تنفذ إلى ما وراء الدقات الأولى لساعة الراديوم.



ثم أصبح الكوكب الأرضي فيما بعد على التـدريج موطنًـا ممكنًا لذلك الوافد العجيب؛ الحياة، وكان يدور حـول الشـمس بسرعة لا يعلمها أحد، وعلى مسافة لا يدريها، ثـم اكتسـبت الأرض بعد ذلك قمرا تابعا تمكنت موجة من موجات المـد أن تهبط من سرعته حتى ألزمته في النهاية أن يدير وجهه نحو أمه الأرض إلى أبد الآبدين؛ ومن ثم يكون الشهر القمـري يومـا قمريا، وربما يكون كوكبنا نحن قد ألم به تـأخير مشـابه إزاء الشمس، بحيث إن السنوات الأولى وأعمار الحياة على الأرض كانت تندفع بسرعة تخرج عن كل تناسب مع هذه الأيام الخيرة المتزنة؛ لقد كانت الآلة تسير بفرامل أضعف. وفي زمن ما من ذلك الطور المندفع، وفي ظل خيمـة مـن كثيـف السـحائب البخارية؛ بدأت سلسلة الدقات الإيقاعية التي نسميها الحياة.

على أن ظلمات البحر العميق التي لا نهاية لها، وجفـاف الأرض اليابسة الذي لا هوادة فيـه، لـم ينطويـا علـى أي إمكانيات للدقات الإيقاعية؛ فهي شيء لم يكن ليوجد – كما قال الأستاذ ج. ب. س هولدين في إحدى مقالاته المبسطة الجديرة بالإعجاب – إلا في المنطقة التي يتبادلها على السـاحل المـد والجزر؛ فكان النور يعقب الظلام، وتعقـب الظلمـة النـور، وبدأت الحياة تلك الدقة العجيبة في المادة الموات.

فإن علماء الحفريات الذين يبحثون على الدوام عن شـيء يهديهم في ظلمات سجل الصخور؛ يجدون إشـارات تنبـئ بوجود طور حرم من كل أثر للحياة، لا يعلم أحد مداه قبل أن تنفذ أشعة الشمس فعلاً خلال ذلك الستار البخاري، وتفتـتح العملية المسماة بالحياة.

ولا تزال فقرات تعاقب هذه الدقات الإيقاعية البعيدة شـيئًا غير محقق؛ فإنها كانت في درجة أوليـة قصـوى، بحيـث لا يوجد أقـرب نظيـر لهـا إلا فـي العناصـر الغشـائية الميكروسكوبية للحياة المعاصرة، أو في مياه البحر السطحية، فكان هناك تكاثر هائل في الدياطيم(1) وما ماثلها، وحدث في زمن مبكر جدا من القصة أن أنتجت طفـرة مواتيـة مـادة خضراء هي الكلورفيل، التي كانت تنتج تحت نور الشـمس مزيجا شبه دائم، يستمر ما دام النور موجودا؛ ولذا فإن سجل الصخور يتحول فجأة من انعدام الحياة، إلى أضرب كثيـرة من أشكال الحياة بمنطقة المد والجزر.

([1]) الديطوم (Diatom): أحد أفراد فصيلة مـن فصـائل الطحالـب المجهرية ذات الخلية الواحدة، ولها محارتان، وتنطبقان كالصندوق وغطائه.

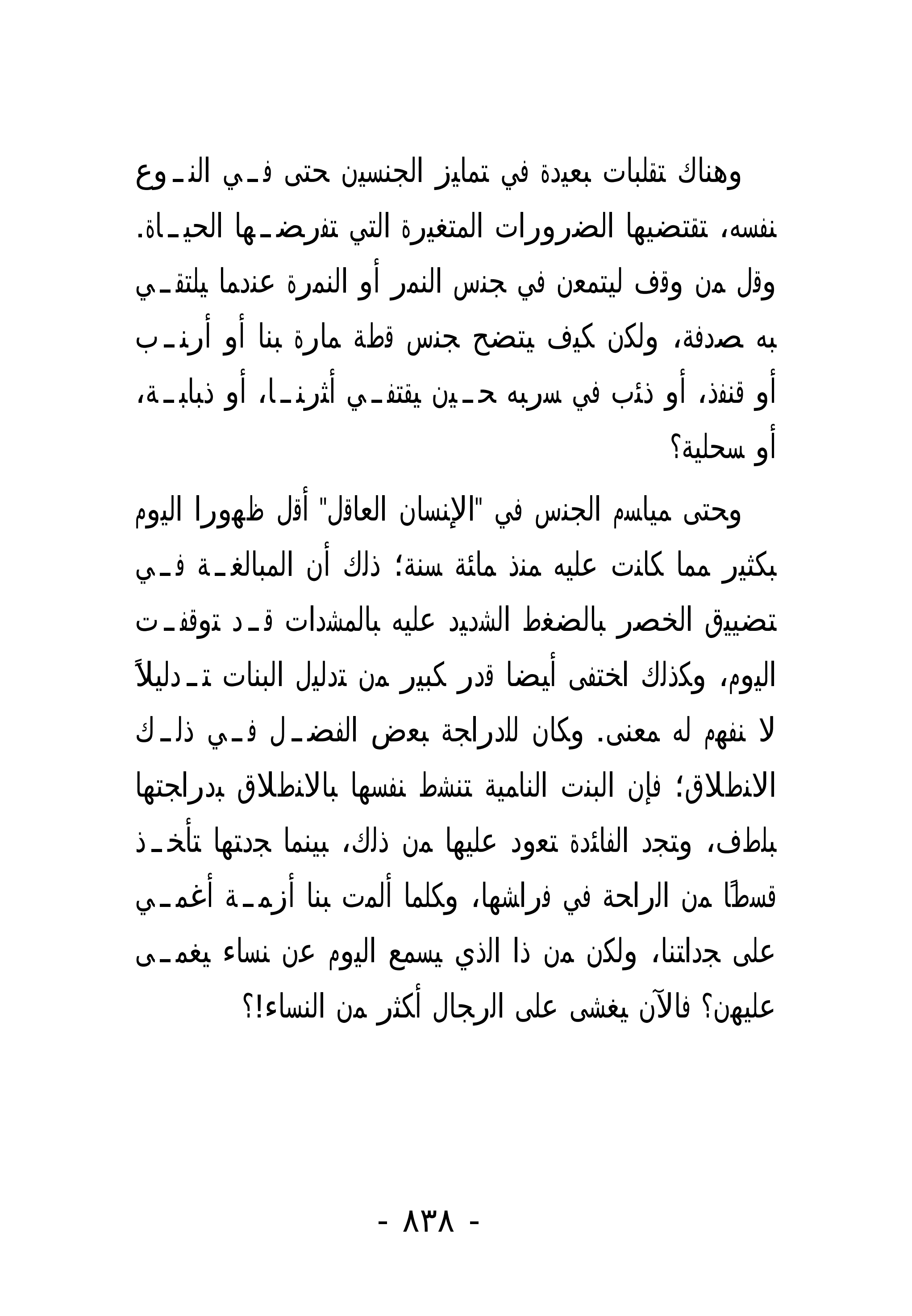
وهذه الأشكال بكل ما حوت من أضرب، يتجلى فيها ميل مشترك؛ هو النزوع إلى فرض وجودها Leanviol، وهـي تُظهر في أبسط الصور ذلك التنازع على البقاء، الذي أصبح الموضوع الجوهري لتاريخ الحياة، ثم لا تلبث هـذه المـادة الحية أن تنقسم في لحظة باكرة جدا إلى أجزاء فردية، يمكنها أن تواجه الظروف المتغيرة، وتظل حيـة هنـا، وإن جـف غيرها هناك أو هلك، وكأني بهذه الأفراد خالية من أي دافع للصراع مع الطعام الذي تتناوله، أو مع إحداها الأخرى. فإذا هي التقت تدفقت معا، ثم تباعدت ثانية، وقد زادها الالتقـاء قوة ظاهرة، ويحدث تجديد الشباب والحيوية ذاك دون وجود أي علامة للتمايز الجنسي؛ فهي أمر يتم بين أنداد.

-٣-

بزوغ فجر العائلة

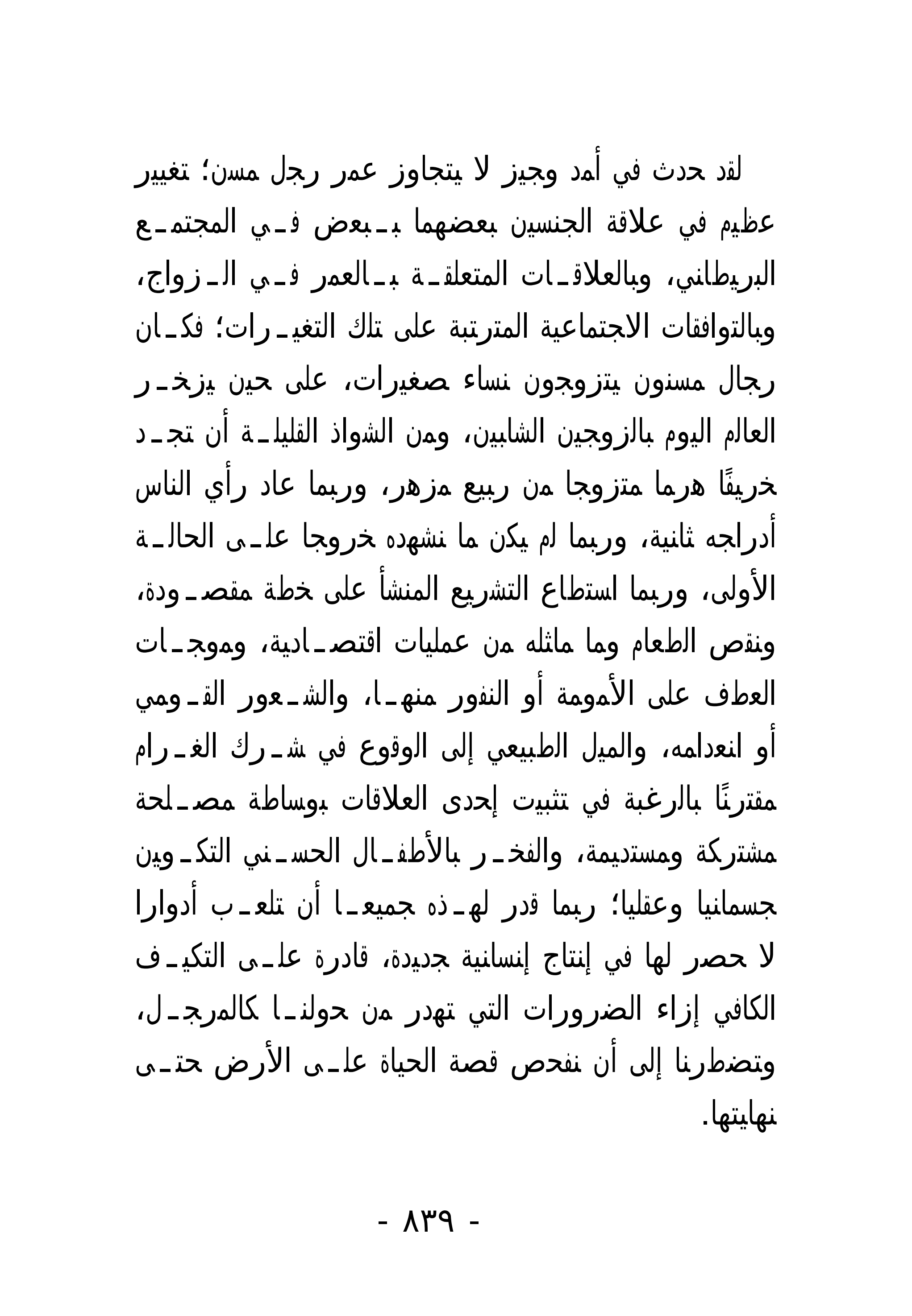
من الأمور التي بدأت بداية واضحة في تـاريخ الحيـاة؛ تكوين فارق بين الأفراد؛ بحيث ينفرد فريق منهم للمخاطرة، ويتعرض للتجارب، وللموت النهائي، على حـين يواصـل صنف آخر بقاء النوع بلا نهاية.

والغالبية العظمى للكائنات ذوات الخلايا المتعددة على هذا الكوكـب، تبـدأ وتنتهـي كبويضـات مخصـبة، ومنهـا ما يتبرعم وينقسم، ومنها ما ينتشر بالتقطع أو التوالد العذري (كما في الذبابة الخضراء) وما ماثل ذلك، ولكن أمثال وسائل التوالد هذه تبقي النوع ثابتًا، غير قابل للتكيف، وبعيدا عـن كل مناعة، ولا بد أن يحدث إن عاجلاً أو آجـلاً، إن قـدر للنوع البقاء؛ تغيير غايته القوة والتنويع في الذكر والأنثـى، اللذين نجدهما مستقرين آنفًا في صورتهما الراهنة في أبكـر فصل من فصول الحفريات عثرنا عليه.

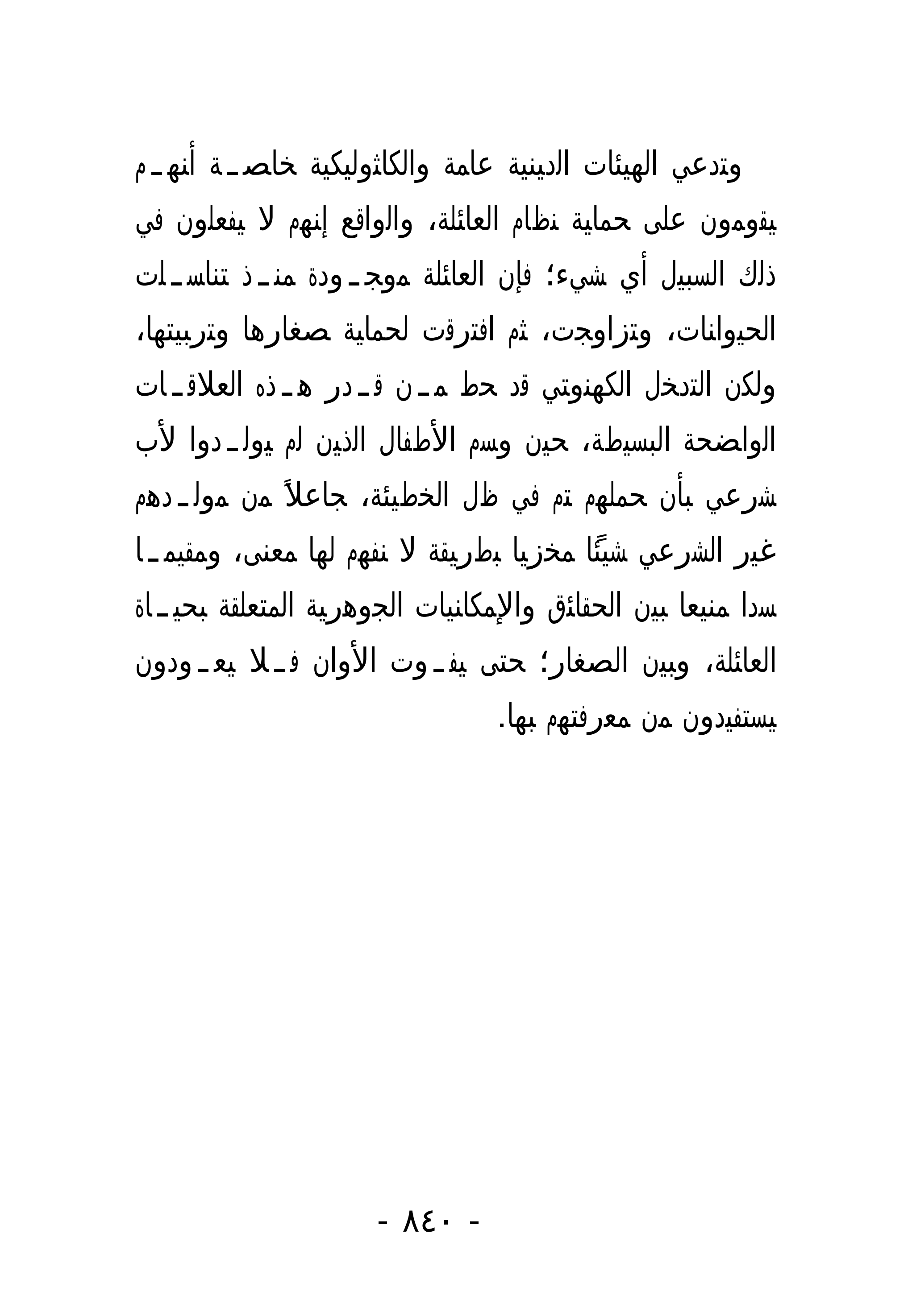


وهناك تقلبات بعيدة في تمايز الجنسين حتى في النوع نفسه، تقتضيها الضرورات المتغيرة التي تفرضها الحياة. وقل من وقف ليتمعن في جنس النمر أو النمرة عندما يلتقي به صدفة، ولكن كيف يتضح جنس قطة مارة بنا أو أرنب أو قنفذ، أو ذئب في سربه حين يقتفي أثرنا، أو ذبابة، أو سحلية؟

وحتى مياسم الجنس في "الإنسان العاقل" أقل ظهورا اليوم بكثير مما كانت عليه منذ مائة سنة؛ ذلك أن المبالغة في تضييق الخصر بالضغط الشديد عليه بالمشدات قد توقفت اليوم، وكذلك اختفى أيضا قدر كبير من تدليل البنات تدليلاً لا نفهم له معنى. وكان للدراجة بعض الفضل في ذلك الانطلاق؛ فإن البنت النامية تنشط نفسها بالانطلاق بدراجتها بلطف، وتجد الفائدة تعود عليها من ذلك، بينما جدتها تأخذ قسطًا من الراحة في فراشها، وكلما ألمت بنا أزمة أغمي على جداتنا، ولكن من ذا الذي يسمع اليوم عن نساء يغمى عليهن؟ فالآن يغشى على الرجال أكثر من النساء!؟



لقد حدث في أمد وجيز لا يتجاوز عمر رجل مسن؛ تغيير عظيم في علاقة الجنسين بعضهما ببعض في المجتمع البريطاني، وبالعلاقات المتعلقة بالعمر في الزواج، وبالتوافقات الاجتماعية المترتبة على تلك التغيرات؛ فكان رجال مسنون يتزوجون نساء صغيرات، على حين يزخر العالم اليوم بالزوجين الشابين، ومن الشواذ القليلة أن تجد خريفًا هرما متزوجا من ربيع مزهر، وربما عاد رأي الناس أدراجه ثانية، وربما لم يكن ما نشهده خروجا على الحالة الأولى، وربما استطاع التشريع المنشأ على خطة مقصودة، ونقص الطعام وما ماثله من عمليات اقتصادية، وموجات العطف على الأمومة أو النفور منها، والشعور القومي أو انعدامه، والميل الطبيعي إلى الوقوع في شرك الغرام مقترنًا بالرغبة في تثبيت إحدى العلاقات بوساطة مصلحة مشتركة ومستديمة، والفخر بالأطفال الحسني التكوين جسمانيا وعقليا؛ ربما قدر لهذه جميعا أن تلعب أدوارا لا حصر لها في إنتاج إنسانية جديدة، قادرة على التكيف الكافي إزاء الضرورات التي تهدر من حولنا كالمرجل، وتضطرنا إلى أن نفحص قصة الحياة على الأرض حتى نهايتها.



وتدعي الهيئات الدينية عامة والكاثوليكية خاصـة أنهـم يقومون على حماية نظام العائلة، والواقع إنهم لا يفعلون في ذلك السبيل أي شيء؛ فإن العائلة موجـودة منـذ تناسـلات الحيوانات، وتزاوجت، ثم افترقت لحماية صغارها وتربيتها، ولكن التدخل الكهنوتي قد حط مـن قـدر هـذه العلاقـات الواضحة البسيطة، حين وسم الأطفال الذين لم يولـدوا لأب شرعي بأن حملهم تم في ظل الخطيئة، جاعلاً من مولـدهم غير الشرعي شيئًا مخزيا بطريقة لا نفهم لها معنى، ومقيمـا سدا منيعا بين الحقائق والإمكانيات الجوهرية المتعلقة بحيـاة العائلة، وبين الصغار؛ حتى يفـوت الأوان فـلا يعـودون يستفيدون من معرفتهم بها.

- ٤ -

انتحار الجنس بالتضخم

يعيش الفرد البشري إلى سن كبيرة جدا، بالقياس إلى حياة المخلوقات المحيطة به. وساعة الراديوم[1] تعطينـا كعمـر للحياة فترة عظمى أقل كثيرا من عشرة آلاف مليـون مـن السنين الأرضية، ولعلها أقل كثيرا من خمسة آلاف مليـون سنة، وفي كل هذه الفترة الزمنية كان يحدث تعاقب مسـتمر في أشكال الحياة التي تسود الموقف على ظهـر البسـيطة. أجل لقد ساد كل منها بدوره، ثم عاد كل منها فـأزيح مـن المشهد بدوره أيضا، وحل محله شكل أحسن تكيفًا. وانصاع كل منها لمجموعة معينة من القوانين، لا مفر من إطاعتهـا، لاح أنها كانت قطعة من طبيعة الأشياء نفسها.

([1]) المفروض أن المؤلف يشبه إشعاع الراديوم المنـتظم علـى مـر العصور بدقات الساعة التي تحسب الزمن. [المترجم]

وكان أول هذه القوانين هو أن العدوان أمر حـتم؛ فـالأمر الذي لا مرد له هو أن تعيش؛ أجل عش، وبأكبر ما يمكن مـن الوفرة الزاخرة، عش أكثر من إخوانك، وكن أكبر حجما منهم، والتهم منهم أكثر. وفي الأيام الأولى كان ذلك الأمر الحتم غير مقيد بأي دافع يدعو إلى المساعدة المتبادلة ضد منافس مشترك؛ لذا أكل الأفراد الكبار طعام الصغار، وإن لم يـأكلوهم فعـلاً، فكبرت أجسامهم أكثر وأكثر، فسجل الصخور لا يظهـر فيـه دائما في نهاية كل فصل من فصوله إلا الأفراد الضخام.

ويدور كوكبنا ويتغير مناخه تغيرا يجعـل سـيد الخليقـة القديم المفرط النمو غير متجانس مع ما يحيط به من بيئـة، وإذن فلا مفر له من أن يذهب. والعادة – وإن لم يكن ذلـك دائما - أن يخلفه شكل للحياة مختلف تماما، ولعلـه يصـنع صنيع القروش فيتضاءل عدده حتى يدركه الطعام، وعندئـذ يعود إلى وفرة عدده الأولى، وإن لم تكن الطبيعة قد أعـدت بديلاً منه. ومن المعلوم أن القروش وأشباهها تعيش وتموت بعنف، ولا يبقى منها شيء يصبح حفرية. ونحن نعـرف أن هناك في هذا العصر قروشًا هائلة، تصطلي هي وأمثالها في ضياء الشمس منذ عصور متعاقبة، منذ أن وجد لهـا القـدر الكافي من الأسماك، تلتهمه وتغتذي به؛ فنحن في ذلك كلـه نتخبط في غياهب الحدس والتخمين.

-٥-

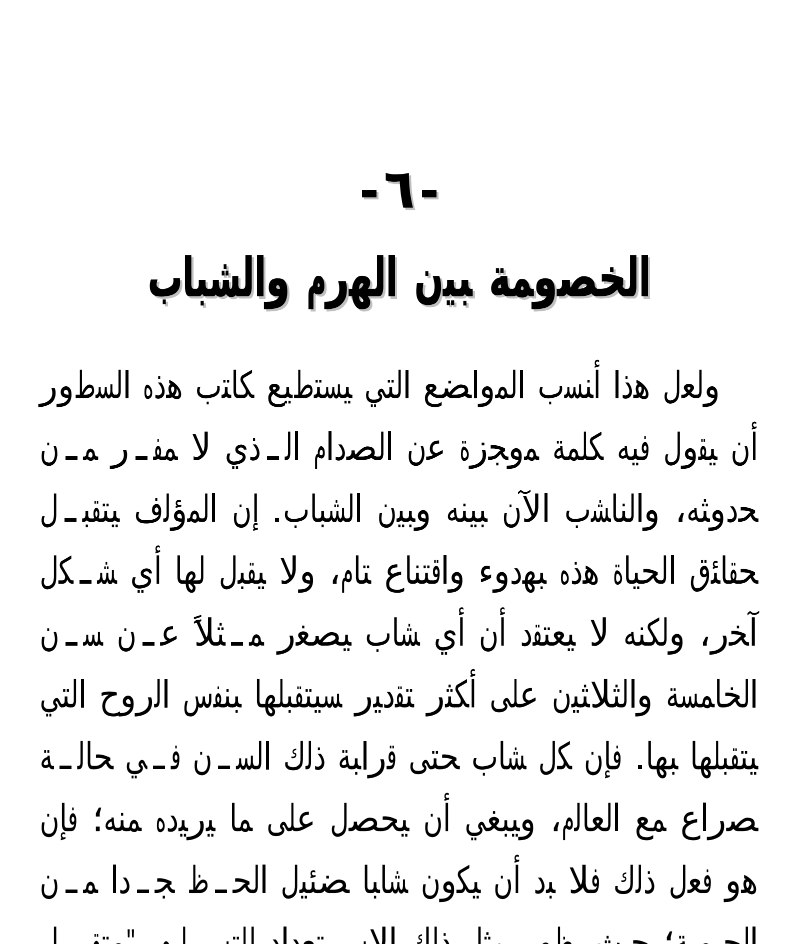
النضج المبادر: إحدى وسائل البقاء

أنتجت الطبيعة في لعبها الأبله بإمكانيات الحياة مستحدثات مباغتة في السـجل، بزيـادة سـرعة إخصـاب البويضـة وإنضاجها بالنسبة للأطوار الأخرى من دورة الحياة. وينبغي ألا يذهب عن بالنا دائما في مثل هذه المسائل أن ما نرثه إنما هو دورة حياة كاملة، وليس شكلاً ثابتًا لبالغ، وحدث المـرة بعد المرة أن الطبيعة قد فصلت شكلاً بالغًا من السجل فصلاً تاما، وألغته، وجعلت مرحلة اليرقة Larva الشـكل النـاجح تناسليا.

وجاء على السجل حين مبكر كانت سـيدة الخليقـة فيـه الشويكيات Echinoderms والسمك النجمي وما إليها، بمـا حوت من تكوين إشعاعي، ولم يكن لديها شيء من قوة التنقل الحركي في أثناء طور بلوغها، أو كان لديها منه قدر قليـل، كما كان الكثير منها (كالزنبقيـات Crinoids) مثبتًـا فـي الجذور، وقد تحولت المزنـرات Junicata هـي وبعـض الأشكال البشعة الأخرى إلى إنتاج السليلوز، وكانت بـارزة

النزعة النباتية في طريقة عيشها وعاداتها، وكانت تلقي فـي الماء ببيضها المخصب، وساعد على انتشار هـذا البـيض نشوء تكوينات إضافية، صأب بها عود اليرقات المنقذفة على غير هدى، وهبت محركاتها قوة دافعة مستقلة، وسمي العمود الفقري لهذه الأشكال المنبعثة المتنقلة باسم الحبـل الظهـري Notochord، كما أُطلق اسم الحبليات على شـكلي الحيـاة المسميين الطبيعة الجديدة New Fore، و"الطراز المتـأخر "Aft" الذي كان الحبل الظهري هو البشير الآذن بهما؛ سميا الحبليات Chordata كنقيض لسلسلة الأشكال التي ليس لهـا حبل ظهري من أمثال السمك النجمي، وقنفذ البحر، وخيـار البحر، وهكذا دواليك، وكلها كانت سادة للخليقة في زمانهـا. ولا يخفى أن عالم الحيوانات الفقارية الضخم بأجمعه، بما في ذلك الإنسان؛ يدين بوجوده لهذه النزوة التي أصابت الطبيعة، ولم تكن تنطوي على أي سبب عقلي بأي حال؛ لقد حـدثت هكذا وكفى.

يتبدى الحبل الظهري في تطور الحيوانات الفقارية جميعا، ولكن تغزوه وتحل محله في جميع الأشـكال العليـا مـادة غضروفية أو عظيمة، وهـو يظـل فـي سـمك الجريـث Hagtsh والجلكيات Lampreys طول حياتها، وهـو يصل إلى موائدنا ممثلاً في هذا النوع الأخير.

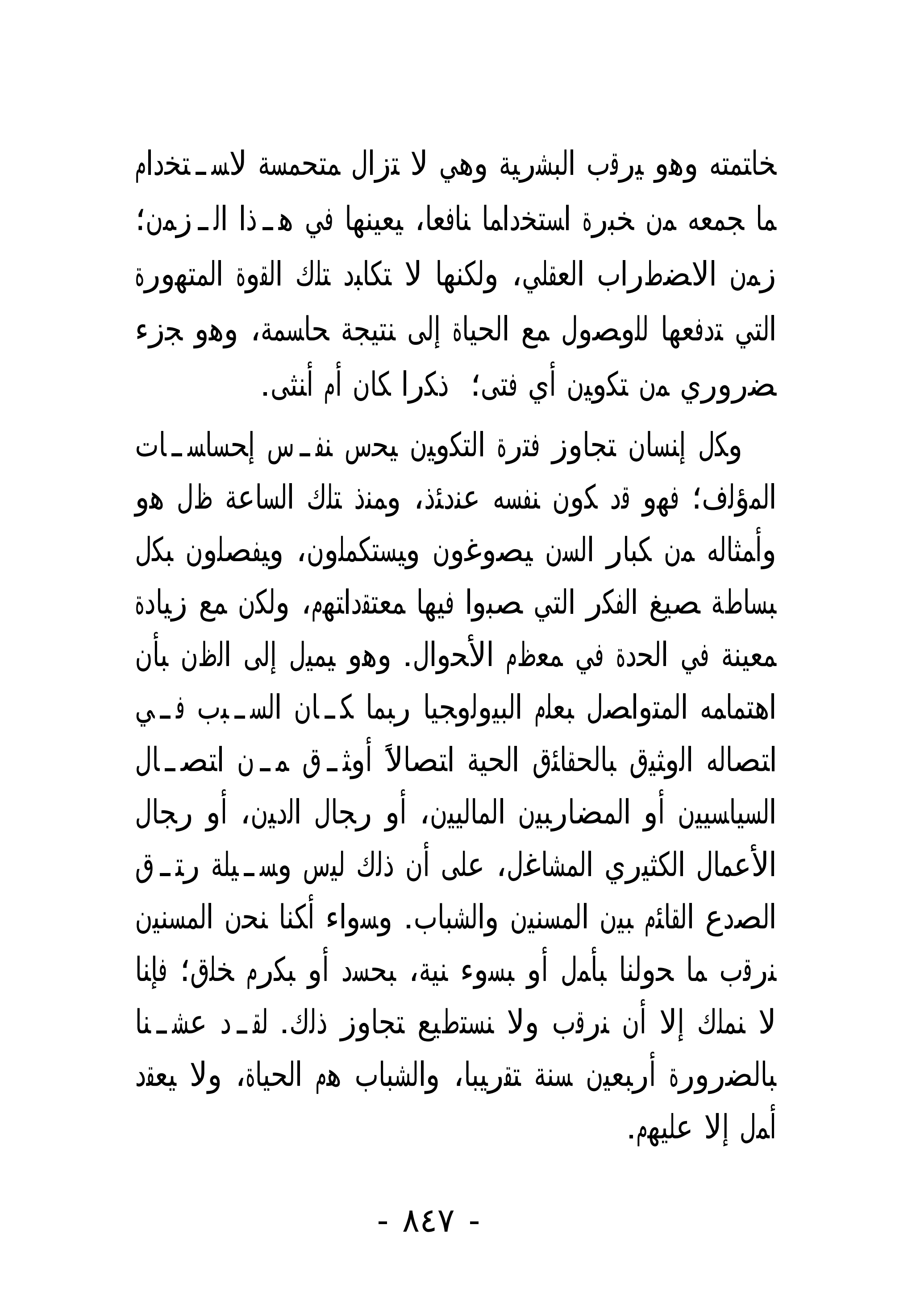


-٦-

الخصومة بين الهرم والشباب

ولعل هذا أنسب المواضع التي يستطيع كاتب هذه السطور أن يقول فيه كلمة موجزة عن الصدام الذي لا مفر من حدوثه، والناشب الآن بينه وبين الشباب. إن المؤلف يتقبل حقائق الحياة هذه بهدوء واقتناع تام، ولا يقبل لها أي شكل آخر، ولكنه لا يعتقد أن أي شاب يصغر مثلاً عن سن الخامسة والثلاثين على أكثر تقدير سيتقبلها بنفس الروح التي يتقبلها بها. فإن كل شاب حتى قرابة ذلك السن في حالة صراع مع العالم، ويبغي أن يحصل على ما يريده منه؛ فإن هو فعل ذلك فلا بد أن يكون شابا ضئيل الحظ جدا من الحيوية؛ حيث يظهر مثل ذلك الاستعداد للتسليم، "وتقبل الأشياء على علاتها".

ولكن كاتب هذه السطور يدلف في سنته التاسعة والسبعين، بعد أن عاش عيش المرح واليسار، وقد دفأ كلتا يديه على نار الحياة، وها هو الآن مستعد للرحيل عنها، وقد أخذت تنحدر به في دور من العلة والوسوسة. وهكذا ينتظر



خاتمته وهو يرقب البشرية وهي لا تزال متحمسة لاسـتخدام ما جمعه من خبرة استخداما نافعا، يعينها في هـذا الـزمن؛ زمن الاضطراب العقلي، ولكنها لا تكابد تلك القوة المتهورة التي تدفعها للوصول مع الحياة إلى نتيجة حاسمة، وهو جزء ضروري من تكوين أي فتى؛ ذكرا كان أم أنثى.

وكل إنسان تجاوز فترة التكوين يحس نفـس إحساسـات المؤلف؛ فهو قد كون نفسه عندئذ، ومنذ تلك الساعة ظل هو وأمثاله من كبار السن يصوغون ويستكملون، ويفصلون بكل بساطة صيغ الفكر التي صبوا فيها معتقداتهم، ولكن مع زيادة معينة في الحدة في معظم الأحوال. وهو يميل إلى الظن بأن اهتمامه المتواصل بعلم البيولوجيا ربما كـان السـبب فـي اتصاله الوثيق بالحقائق الحية اتصالاً أوثـق مـن اتصـال السياسيين أو المضاربين الماليين، أو رجال الدين، أو رجال الأعمال الكثيري المشاغل، على أن ذلك ليس وسـيلة رتـق الصدع القائم بين المسنين والشباب. وسواء أكنا نحن المسنين نرقب ما حولنا بأمل أو بسوء نية، بحسد أو بكرم خلق؛ فإنا لا نملك إلا أن نرقب ولا نستطيع تجاوز ذلك. لقـد عشـنا بالضرورة أربعين سنة تقريبا، والشباب هم الحياة، ولا يعقد أمل إلا عليهم.

-٧-

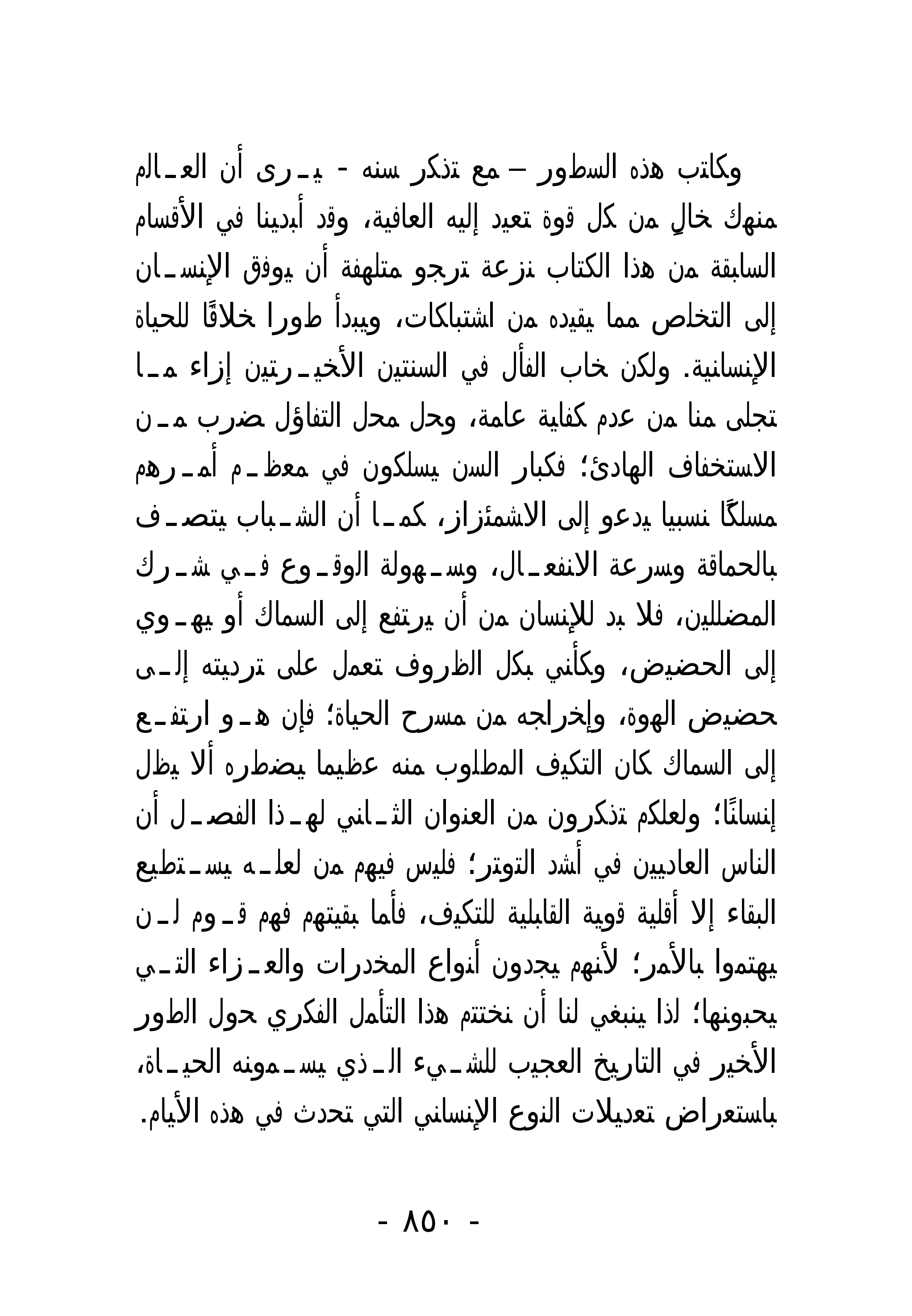
ضوء جديد على سجل الصخور

سبق أن أشرنا (ص ٤) إلـى أن دوران الأرض حـول نفسها ودورتها السنوية في مدارها قد أخذت سرعتهما فـي الهبوط، فكل ما اكتشفناه منذ أن كتبت مسودات تلك الفصول الأولى يؤكد الفكرة القائلة بأن امتداد العصور الباكرة لسجل الصخور (إذا هو قيس بدقة وضبط ساعة الراديوم) لا بد أن يلحقه تخفيض هائـل يتناسـب تمامـا وسـرعة العصـر الكانوزوي. أجل إن الأشكال هي نفسها لم يـداخلها تغييـر، ولكن النسب مختلفة. وربما كان ذلك التباطؤ الدنيوي مستمرا وربما لم يكن كذلك، على أن استمراره هو الأرجح في نظر المؤلف، ولكن من يدري؟ على أن أحـوال حيـوات الفـرد والنوع يلوح أنها كانت تتقلب سريعا ومتسعا في تلك الأزمنة المندفعة.

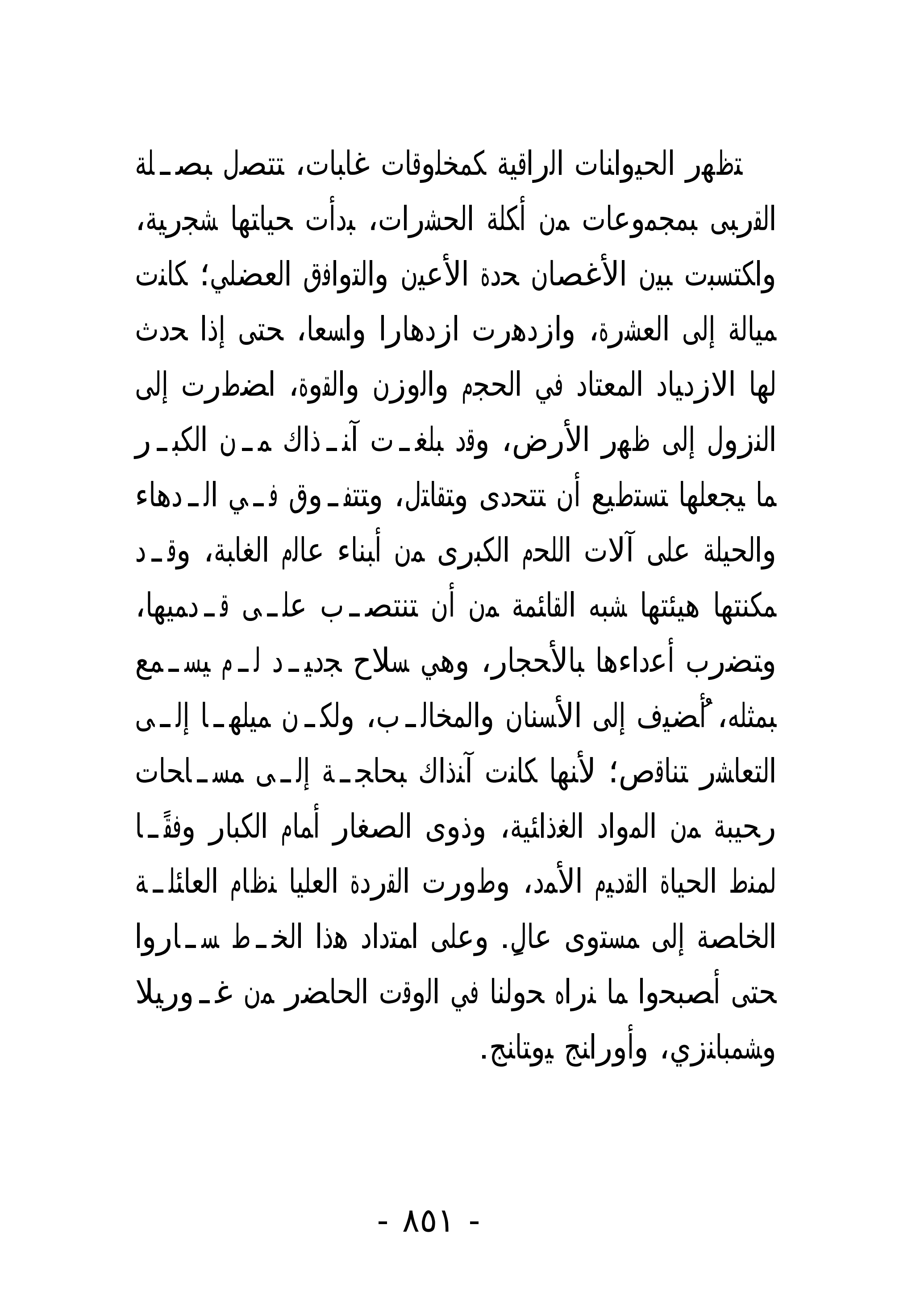
ولكنا على يقين من شيء واحد؛ وذلك أنه على الرغم مما اجتمع لنا من المجموعة الهائلة من الحقائق؛ فإن حقيقـة لـم تستطع أن تلقي ظلاً من الشك على ما يسميه العلمـاء إلـى الآن باسم "نظرية" النشوء والارتقاء العضوي". وعلى الرغم من عنيف الكذب والعواء الذي أذاعه المتقـون المتـدينون، فليس ثمة عقل يحكم النزعة العقلية Rational يسـتطيع أن يمس بأي سوء الطبيعة المنيعة لقضية النشـوء والارتقـاء. وهناك كتيب جدير بالإعجاب كتبـه أ. م. دافيـز، وأسـماه "النشوء والارتقاء وناقدوه المحدثون[1]" ولخص فيـه هـذه القضية تلخيصا وافيا ومقنعا. فإلي ذلك الكتيب ينبغي أن يلجأ القارئ الذي لا يجد موردا جديرا بالثقة ينتهل منه.

أما الشيء الذي يظهر الآن بالفعل؛ فهـو تبـاطؤ هـذه الحيوية الأرضية في سرعتها؛ ذلـك أن السـنوات والأيـام أخذت تطول، والعقل البشري لا يزال فعالاً ناشـطًا يتعقـب النهايات والموت، ويدبر لهم الوسيلة..

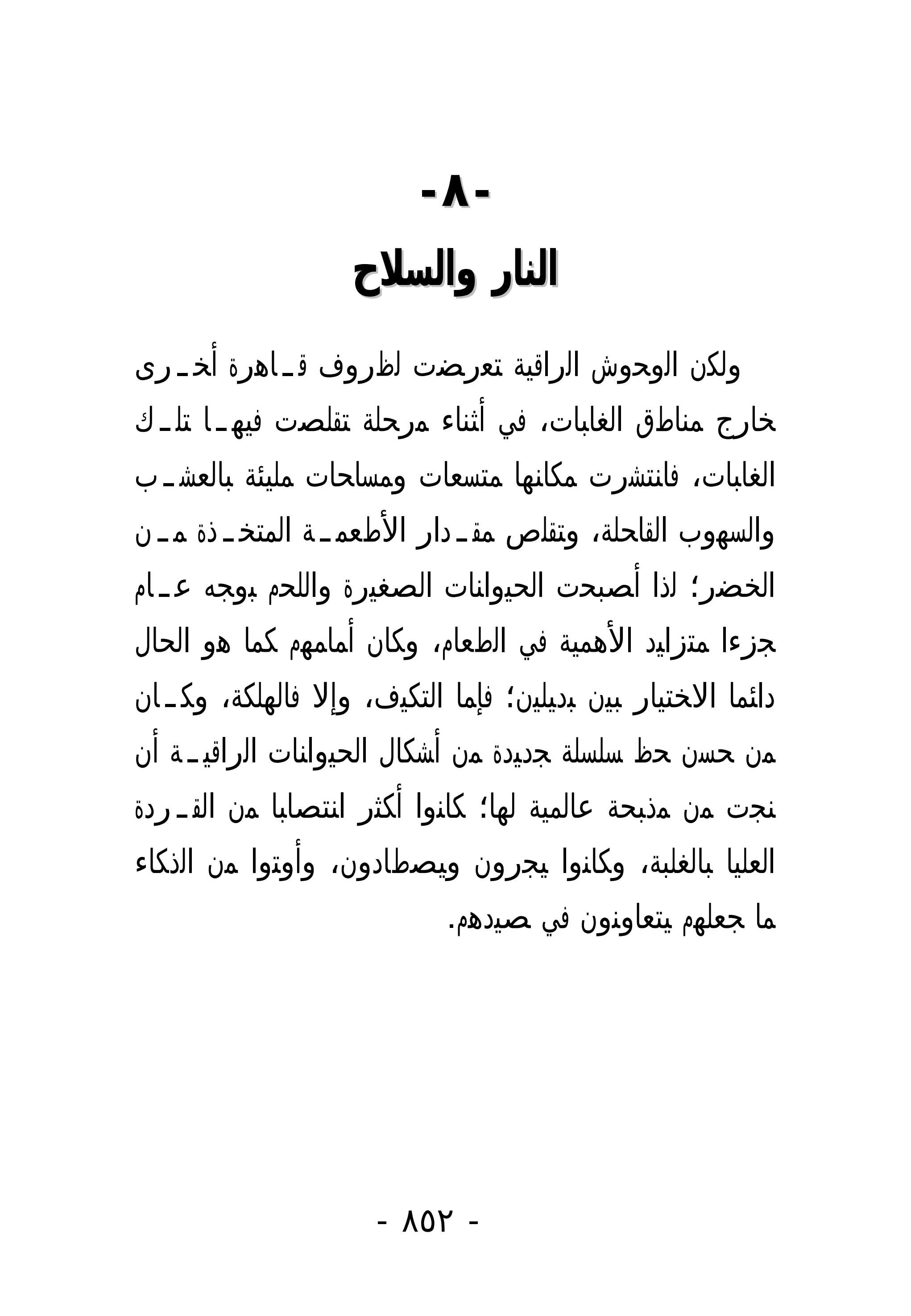
A, M. Davies: Evlution & its Modern Critics. ([1])



وكاتب هذه السطور – مع تذكر سنه - يـرى أن العـالم منهك خالٍ من كل قوة تعيد إليه العافية، وقد أبدينا في الأقسام السابقة من هذا الكتاب نزعة ترجو متلهفة أن يوفق الإنسـان إلى التخلص مما يقيده من اشتباكات، ويبدأ طورا خلاقًا للحياة الإنسانية. ولكن خاب الفأل في السنتين الأخيـرتين إزاء مـا تجلى منا من عدم كفاية عامة، وحل محل التفاؤل ضرب مـن الاستخفاف الهادئ؛ فكبار السن يسلكون في معظـم أمـرهم مسلكًا نسبيا يدعو إلى الاشمئزاز، كمـا أن الشـباب يتصـف بالحماقة وسرعة الانفعـال، وسـهولة الوقـوع فـي شـرك المضللين، فلا بد للإنسان من أن يرتفع إلى السماك أو يهـوي إلى الحضيض، وكأني بكل الظروف تعمل على ترديته إلـى حضيض الهوة، وإخراجه من مسرح الحياة؛ فإن هـو ارتفـع إلى السماك كان التكيف المطلوب منه عظيما يضطره ألا يظل إنسانًا؛ ولعلكم تذكرون من العنوان الثـاني لهـذا الفصـل أن الناس العاديين في أشد التوتر؛ فليس فيهم من لعلـه يسـتطيع البقاء إلا أقلية قوية القابلية للتكيف، فأما بقيتهم فهم قـوم لـن يهتموا بالأمر؛ لأنهم يجدون أنواع المخدرات والعـزاء التـي يحبونها؛ لذا ينبغي لنا أن نختتم هذا التأمل الفكري حول الطور الأخير في التاريخ العجيب للشـيء الـذي يسـمونه الحيـاة، باستعراض تعديلات النوع الإنساني التي تحدث في هذه الأيام.



تظهر الحيوانات الراقية كمخلوقات غابات، تتصل بصـلة القربى بمجموعات من أكلة الحشرات، بدأت حياتها شجرية، واكتسبت بين الأغصان حدة الأعين والتوافق العضلي؛ كانت ميالة إلى العشرة، وازدهرت ازدهارا واسعا، حتى إذا حدث لها الازدياد المعتاد في الحجم والوزن والقوة، اضطرت إلى النزول إلى ظهر الأرض، وقد بلغـت آنـذاك مـن الكبـر ما يجعلها تستطيع أن تتحدى وتقاتل، وتتفـوق فـي الـدهاء والحيلة على آلات اللحم الكبرى من أبناء عالم الغابة، وقـد مكنتها هيئتها شبه القائمة من أن تنتصـب علـى قـدميها، وتضرب أعداءها بالأحجار، وهي سلاح جديـد لـم يسـمع بمثله، أُضيف إلى الأسنان والمخالـب، ولكـن ميلهـا إلـى التعاشر تناقص؛ لأنها كانت آنذاك بحاجـة إلـى مسـاحات رحيبة من المواد الغذائية، وذوى الصغار أمام الكبار وفقًـا لمنط الحياة القديم الأمد، وطورت القردة العليا نظام العائلـة الخاصة إلى مستوى عالٍ. وعلى امتداد هذا الخـط سـاروا حتى أصبحوا ما نراه حولنا في الوقت الحاضر من غـوريلا وشمبانزي، وأورانج يوتانج.



-٨-

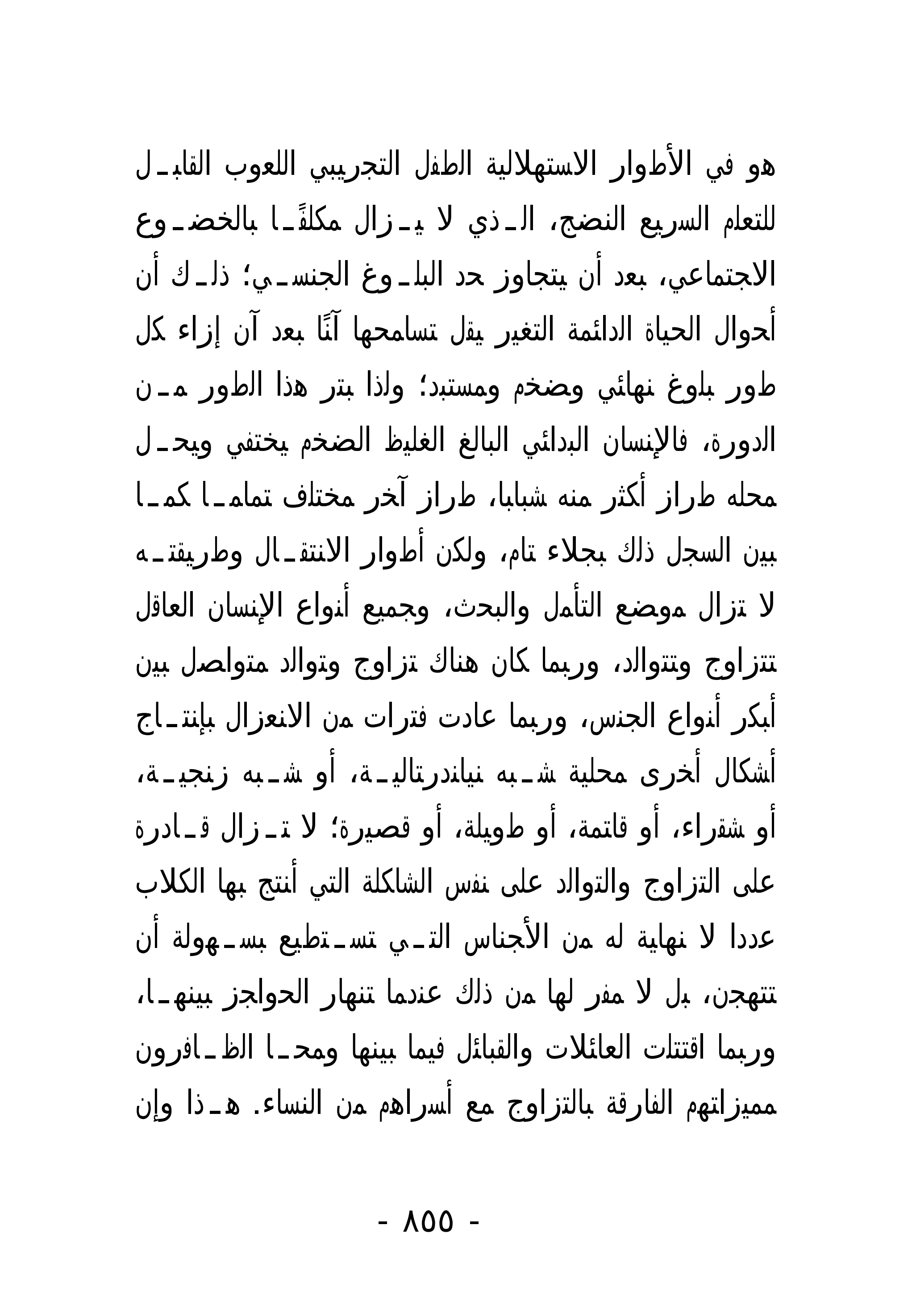
النار والسلاح

ولكن الوحوش الراقية تعرضت لظروف قـاهرة أخـرى خارج مناطق الغابات، في أثناء مرحلة تقلصت فيهـا تلـك الغابات، فانتشرت مكانها متسعات ومساحات مليئة بالعشـب والسهوب القاحلة، وتقاص مقـدار الأطعمـة المتخـذة مـن الخضر؛ لذا أصبحت الحيوانات الصغيرة واللحم بوجه عـام جزءا متزايد الأهمية في الطعام، وكان أمامهم كما هو الحال دائما الاختيار بين بديلين؛ فإما التكيف، وإلا فالهلكة، وكـان من حسن حظ سلسلة جديدة من أشكال الحيوانات الراقيـة أن نجت من مذبحة عالمية لها؛ كانوا أكثر انتصابا من القـردة العليا بالغلبة، وكانوا يجرون ويصطادون، وأوتوا من الذكاء ما جعلهم يتعاونون في صيدهم.

كانت هذه القـردة الأرضـية هـي الفصـيلة البشـرية Hominidae، وهي سلسلة حيوانية جائعة وكاسـرة. ولمـا كانت حيوانات تعيش في العراء، ولها قدر كافٍ من الـذكاء يجنبها الغرق؛ كانت البقايا المنحفرة والدالة علـى ظهورهـا قليلة العدد متباعدة، ولكن فيها الكفاية؛ فلئن لم يتركوا كثيـرا من العظام، فلقد نثروا في العالم أدواتهم، ذلـك أن وضـعها القائم حرر يدها وعينها، وأوجد بينهما تعاونًا أدق وأضـبط. كانت هذه الوحوش تتواصل بأصوات غليظة شاذة، وكانـت تستطيع القبض على الهراوات والأحجـار لتسـتخدمها فـي أغراضها، وكانت تطرق الأحجار العظيمة لتجعل لها شـكلاً أكثر حدة، فإذا تطاير الشرر بين الأوراق الجافة التي كـان يجثم بينها، وظهرت النار الحمراء كالأزهار؛ كان ظهورهـا هادئًا ومألوفًا بحيث يبعث في قلبها الخوف، ولـم يكـن أي كائن حي آخر قد شهد النار إلا في أثناء النكبـات الباعثـة الرعب في قلوب الحيوانات؛ حيث كانت تتعقب كـل شـيء دون رحمة، وكانت الدببة – حتى دببة الكهوف - تفر مـن النار والدخان، على حين أن الفصيلة البشرية اتخـذت مـن النار صديقًا وخادما، وكلما قرصها البرد أو هاجمها أعداؤها من أكلة اللحم، قابلت ذلك بالزحف إلـى داخـل المغـارات وأمثالها من الأماكن المستترة، وتركت نيران الدار موقدة.

وهكذا سادت هـذه الوحـوش العظيمـة الغليظـة شـبه الإنسانية، وانتشرت في أثناء أطوار الزمهرير لعصور الجليد المتعاقبة. كانت تخرج للصيد بصيحاتها وحركاتها الغليظـة الشاذة. وكانت وهي في شكلها البالغ أكثر وأثقل كثيرا مـن الإنسان، فالأيدي الثقيلة التي اقتطعت من الخصـر الأدوات الشليانية كانت أكبر من أي يد بشرية، ويستطيع مهرة عمال الظران (الصوان) أن يصوغوا تلك الآلات الرفيقـة نسـبيا، التي صنعها رجال العصر الحجري القديم المتأخر بمنتهـى النجاح، بيد أن الأداة الشليانية الزائفة لا تقل صعوبة وثقـلاً عن أي آلة حجرية شبه إنسانية؛ فالأداة الشليانية إنمـا هـي قلب ظرانة عظيمة، بينما الأداة الإنسانية التالية شطفة مـن قلب ظرانة بضربة.

يخرج المخلوق المسمى بالإنسان العاقل من بين الأنـواع المبكرة للفصيلة البشرية خروجا جليا جـدا، بوصـفه فلتـة أخرى من فلتات دورة الحياة، نحو صورة طفيليـة، وشـكل أكثر مرونة من الناحية البيولوجية، وهي فلتات لعبـت دورا هاما جدا في التاريخ المتقلب للكائنات الحيـة، وهـو لـيس المعادل للبالغ القبيح من إنسان هيدلبرج أو نياندرتال؛ وإنمـا


هو في الأطوار الاستهلالية الطفل التجريبي اللعوب القابـل للتعلم السريع النضج، الـذي لا يـزال مكلفًـا بالخضـوع الاجتماعي، بعد أن يتجاوز حد البلـوغ الجنسـي؛ ذلـك أن أحوال الحياة الدائمة التغير يقل تسامحها آنًا بعد آن إزاء كل طور بلوغ نهائي وضخم ومستبد؛ ولذا بتر هذا الطور مـن الدورة، فالإنسان البدائي البالغ الغليظ الضخم يختفي ويحـل محله طراز أكثر منه شبابا، طراز آخر مختلف تمامـا كمـا بين السجل ذلك بجلاء تام، ولكن أطوار الانتقـال وطريقتـه لا تزال موضع التأمل والبحث، وجميع أنواع الإنسان العاقل تتزاوج وتتوالد، وربما كان هناك تزاوج وتوالد متواصل بين أبكر أنواع الجنس، وربما عادت فترات من الانعزال بإنتـاج أشكال أخرى محلية شـبه نياندرتاليـة، أو شـبه زنجيـة، أو شقراء، أو قاتمة، أو طويلة، أو قصيرة؛ لا تـزال قـادرة على التزاوج والتوالد على نفس الشاكلة التي أنتج بها الكلاب عددا لا نهاية له من الأجناس التـي تسـتطيع بسـهولة أن تتهجن، بل لا مفر لها من ذلك عندما تنهار الحواجز بينهـا، وربما اقتتلت العائلات والقبائل فيما بينها ومحـا الظـافرون مميزاتهم الفارقة بالتزاوج مع أسراهم من النساء. هـذا وإن

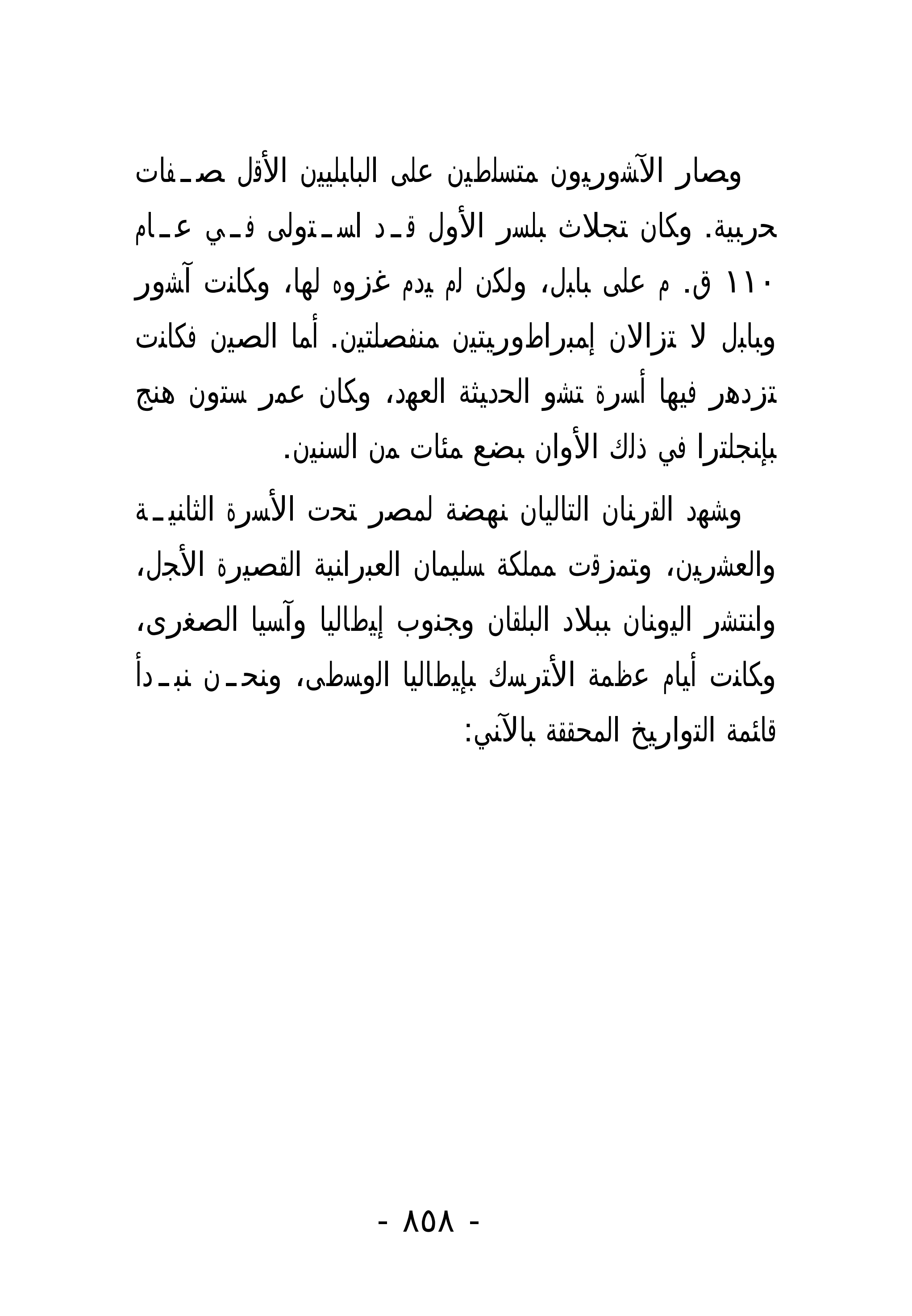
علم البشريات المقارن يحل ببطء معقدات قصة الطريقة التي ذوى بها الإنسان البدائي Homo الـذي بلـغ جنسـه حـد الكهولة، والذي لم يعد لوجوده الآن ضـرورة، تاركًـا مـن وراءه الإنسان العاقل الشبيه جنسه بالطفل، الذي هـو فـي أحسن أحواله محب للاستطلاع، قابل للتعلم، ميال للتجريـب من مهده إلى لحده.

هذا وإن عبارة "في أحسن أحواله" هي زبدة هذا القسـم. أجل إن من الممكن أن تكون هناك اختلافات بعيدة في مـدى قابلية البشرية المعاصرة للتكيف العقلي، ومن الممكن أيضـا أن كتلة البشرية المعاصرة قد لا تكون سهلة التقبل للأفكـار الحديثة كعقول الأجيال الأبكر والأصغر منها والأكثر طفولة، كما أن من المحتمل كذلك أن التفكير الخائل العميق الشـديد لم يزد إلى الحد الذي يساير به امتداد الجماعات والمنظمات الإنسانية وتعقيداتها، وتلك هي أحلك ظلال اليأس التي تسقط على آمال الإنسانية.

ولكن روحي ومزاجي يجعلاني لا أشك مطلقًا كما قلـت آنفًا في أنه ستوجد تلك الأقلية الصغيرة التي ستوفق إلى تتبع الحياة حتى نهايتها.

جدول تاريخي زمني

أخذت الشعوب الآرية تستقر حوالي عام ١٠٠٠ ق. م في شبه الجزيرة الإسبانية، وفي إيطاليا والبلقان، كما أنهم كانوا مستقرين في تلك الأثناء بشمال الهند، وكانت يد التدمير قـد امتدت آنفًا إلى كنوسوس، كما أن عصور مصر المتراميـة (عصور: تحتمس الثالث، وأمينـوفيس الثالـث، ورمسـيس الثاني) كانت ولت منذ ثلاثة قرون أو أربعة، وكـان يحكـم وادي النيل ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعاف، وكانت إسرائيل متحدة في ذلك الأوان تحت حكم ملوكهـا الأوائـل، وربما كان شاؤول أو داوود أو لعله سليمان متربعـا آنـذاك على العـرش. وفـي ذلـك العـام كـان سـرجون الأول (٢٧٥٠ ق.م) ملك الإمبراطورية الآكادية السومرية ذكـرى سحيقة في التاريخ البابلي، أبعد في عالمهم من بعد قسطنطين الأكبر من عالمنا الحاضر. وقد توفي حمورابي قبـل ذلـك بألف سنة.



وصار الآشوريون متسلطين على البابليين الأقل صفات حربية. وكان تجلاث بلسر الأول قد استولى في عام ١١٠ ق. م على بابل، ولكن لم يدم غزوه لها، وكانت آشور وبابل لا تزالان إمبراطوريتين منفصلتين. أما الصين فكانت تزدهر فيها أسرة تشو الحديثة العهد، وكان عمر ستون هنج بإنجلترا في ذلك الأوان بضع مئات من السنين.

وشهد القرنان التاليان نهضة لمصر تحت الأسرة الثانية والعشرين، وتمزقت مملكة سليمان العبرانية القصيرة الأجل، وانتشر اليونان ببلاد البلقان وجنوب إيطاليا وآسيا الصغرى، وكانت أيام عظمة الأترسك بإيطاليا الوسطى، ونحن نبدأ قائمة التواريخ المحققة بالآتي:

قبل الميلاد
٨٠٠ بناء قرطاجنة.
٧٩٠ غزو الإثيوبيين مصر، وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين.
٧٧٦ إقامة أول أولمبياد ببلاد اليونان.
٧٥٣ بناء روما.
٧٤٥ فتح تجلات بلسر الثالث بابل، وأسس الإمبراطورية البابلية الآشورية الجديدة.
٧٢٢ سلح سرجون الثاني الآشوريين بأسلحة من الحديد.
٧٢١ نقل الإسرائيليين من بلادهم.
٦٨٠ أسرحدون يستولي على طيبة بمصر، ويخلع الأسرة الخامسة والعشرين الإثيوبية.
٦٦٤ استرجع أبسماتيك الأول حرية مصر، وأسس الأسرة السادسة والعشرين (حتى ٦١٠).
٦٠٨ نخاو ملك مصر يهزم يوشع ملك يهوذا في معركة مجدو.
٦٠٦ استيلاء الكلدان والميديين على نينوى. تأسيس الإمبراطورية الكلدانية.

٦٠٤ رد نخاو إلى نهر الفرات، وتغلب نبوخذ نصر الثاني عليه (أرجع نبوخذ نصر اليهود إلى بابل).
٥٥٠ خلف قورش الفارسي سياكسارس الميدي. قورش يقهر كريسوس.
٥٥٠ بوذا كان يعيش قرابة ذلك الزمان، وكذلك أيضا كونفشيوس ولاهوتسي.
٥٣٩ استولى قورش على بابل وأسس الإمبراطورية الفارسية.
٥٢١ حكم دارا الأول بن هستاسبس من الدردنيل إلى نهر السند. حملته على بلاد الإسكيذيين (الروسيا).
٤٩٠ معركة ماراثون.
٤٨٠ معركتا ثرموبيلاي وسلاميس.
٤٧٩ معركتا بلاتيا وميكالي تنهيان طرد فارس.
٤٩٤ الإغريق الصقليون يدمرون أسطول الأترسك.
٤٣١ بدء حرب البيلوبونيز (حتى ٤٠٤).
٤٠١ تراجع العشرة آلاف.
٣٥٩ أصبح فيليب ملكًا على مقدونيا.
٣٣٨ معركة خايرونيا.

٣٢٦ عبور الجند المقدونية إلى آسيا ومقتل فيليب.

٣٣٤ معركة جرانيكوس.

٣٣٣ معركة إبسوس.

٣٢١ معركة أربيلا.

٣٣٠ مقتل دارا الثالث.

٣٢٣ وفاة الإسكندر الأكبر.

٣٢١ قيام شندرا جوبتا بالبنجاب: السمنيور يهزمون الرومان تماما بمعركة مفارق كودين Caudin Forks.

٢٨١ غزا بيروس إيطاليا.

٢٨٠ معركة هرقليا.

٢٧٩ معركة أسكولم.

٢٧٨ أغار الغالة على آسيا الصغرى واستوطنوا غلاطية.

٢٧٥ بيروس يغادر إيطاليا.

٢٦٤ الحرب البونية الأولى (بدأ حكم آسوكا بإقليم بيهار حتى ٢٢٧)

٢٦٠ معركة ميلاي.

٢٥٦ "إكنوموس.

٢٤٦ أصبح شي هوانج تي ملكًا على تس أن.

٢٢٠ صار شي هوانج تي إمبراطورا للصين.
٢١٤ بدء بناء سور الصين الأعظم.
٢١٠ وفاة شي هوانج تي.
٢٠٢ معركة زاما.
١٤٦ تدمير قرطاجنة.
وهب تالوس مملكة برجامة لروما.
١٠٢ صد ماريوس الألمان.
١٠٠ انتصار ماريوس.(الصينيون يفتحون وادي نهر تاريم).
٨٩ أصبح الإيطاليون جميعا مواطنين رومانيين.
٧٣ ثورة الرقيق بقيادة سبارتاكوس.
٧١ هزيمة سبارتاكوس ونهايته.
٦٦ بومبي يقود الجيوش الرومانية إلى بحر قزوين ونهر الفرات، ويلتقي بقبائل الآلاني.
٤٨ هزم يوليوس قيصر بومبي عند فاراسالوس.
٤٤ مقتل يوليوس قيصر.
٢٧ تعيين أوغسطس أميرا (حتى ١٤ ب. م).
٤ التاريخ الحقيقي لمولد يسوع الناصري.

بعد الميلاد
بدء الحقبة المسيحية ١٤ وفاة أوغسطس، وتولية الإمبراطور تبريوس. ٣٠ صلب يسوع الناصري. ٤١ كلوديوس (أول إمبراطور تعينه الكتائب) يوليه الحرس البريتوري العرش بعد مقتل كاليجولا. ٦٨ انتحار نيرون (تولي جالبا وأوتووفتيلوس على التعاقب). ٦٩ الإمبراطور فسبازيان. ١٠٢ بان تشو على بحر قزوين. ١١٧ هادريان يخلف تراجان الإمبراطورية الرومانية في أوسع مدى بلغته. ١٣٨ (كان الهندواسكيذيون يقضون عندئذ على آخر آثار الحكم الهلليني بالهند). ١٦١ ماركوس أوريليوس يخلف أنطونيوس بيوس. ١٦٤ بدأ الطاعون الكبير، وامتد حتى وفاة ماركوس أوريليوس (١٨٠)، كما أنه أفسد آسيا كلها (بدأ في الإمبراطورية الرومانية قرن من الفوضى والحرب).

١٢٠ نهاية أسرة هان، بدأ عصر انقسام بالصين دام ٤٠ سنة.
٢٢٧ أردشير الأول أول شاه ساساني يقضي على الأسرة الأرشكية بفارس.
٢٤٢ بدء ماني تعالميه.
٢٤٧ عبر القوط الدانوب في غارة كبيرة.
٢٥١ نصر عظيم للقوط، مقتل الإمبراطور ديكيوس.
٢٦٠ سابور الأول ثاني شاه ساساني استولى على أنطاكية، وأسر الإمبراطور فاليريان، ويقطع عليه الطريق أثناء عودته أوذيناسيوس ملك تدمر.
٢٧٧ صلب ماني بفارس.
٢٧٤ أصبح دقاديانوس إمبراطورا.
٣٠٣ اضطهد دقاديانوس المسيحيين.
٣١١ جاليريوس يتخلى عن اضطهاد المسيحيين.
٣١٢ أصبح قسطنطين الأكبر إمبراطورا.
٣٢٣ قسطنطين يرأس مجلس نيقيا.
٣٣٧ تعميد قسطنطين على فراش موته.

٣٦١-٣٦٣ اول جوليان الكافر أن يحل المثرائية محل المسيحية.

٣٩٢ ثيودسيوس الأكبر إمبراطور للشرق والغرب.

٣٩٥ وفاة ثيودسيوس الأكبر، أعاد هنوريوس وأركاديوس تقسيم الإمبراطورية تحت حماية ستيليكو وآلاريك.

٤١٠ استيلاء القوط الغربية بقيادة آلاريك على روما.

٤٢٥ الوندال يستقرون في جنوب إسبانيا، والهون في بانونيا والقوط في دالماشيا، والقوط الغربية والسويفي في البرتغال، وشمال إسبانيا والإنجليز يغزون بريطانيا.

٤٣٩ الوندال استولوا على قرطاجنة.

٤٥١ أغار أتيلا على بلاد الغالة وهزمه الفرنجة. الأليماني والرومان عند ترويس.

٤٥٣ وفاة أتيلا.

٤٥٥ نهب الوندال روما.

٤٧٦ أودواكر الملك على خليط من القبائل التيوتونية يبلغ القسطنطينية أنه لا إمبراطور بالغرب، نهاية الإمبراطورية الغربية.

٤٩٣ ثيودوريك القوطي الغربي يفتح إيطاليا، ويصبح ملكًا عليها، ولكنه خاضع اسميا للقسطنطينية (ملوك قوط في إيطاليا، والقوط ينزلون أرضا خاصة يصادرونها بوصفهم حامية)

٥٢٧ الإمبراطور جستنيان.

٥٢٩ جستنيان أغلق مدارس أثنيا، بعد أن ازدهرت حوالي ألف عام. استولى قائد جستنيان على نابلي.

٥٣١ بدء حكم كسرى الأول.

٥٤٣ الطاعون الأعظم بالقسطنطينية.

٥٥٣ طرد جستنيان القوط من إيطاليا.

٥٦٥ وفاة جستنيان، وغزا اللومبارد معظم شمال إيطاليا (تاركين رافا وروما لبيزنطة).

٥٧٠ مولد النبي محمد ﷺ.

٥٧٩ وفاة كسرى الأول. يسود اللومبارد في إيطاليا.

٥٩٠ الطاعون يفتك في روما بشدة.

بدء حكم كسرى الثاني.

٦١٠ بدء حكم هرقل.

٦١٩ مصر وبيت المقدس ودمشق بيد كسرى الثاني، وجيوشه تطل على الدردنيل. بدء حكم أسرة تانج بالصين.

٦٢٢ الهجرة.

٦٢٧ هزيمة الفرس الكبرى عند نينوى على يد هرقل. أصبح تاي تسنج إمبراطورا للصين.

٦٢٨ قباذ الثاني يقتل أباه كسرى الثاني، ويخلفه على العرش، محمد يكتب الرسائل إلى كل حكام الأرض.

٦٢٩ عودة محمد إلى مكة.

٦٣٢ وفاة النبي، تولية أبو بكر الخلافة.

٦٣٤ معركة اليرموك. المسلمون يستولون على سوريا. عمر يصبح الخليفة الثاني.

٦٣٥ تاي تسنج يستقبل مبشرين من النساطرة.

٦٣٧ معركة القادسية.

٦٣٨ بيت المقدس تسلم للخليفة عمر.

٦٤٢ وفاة هرقل.

٦٤٣ عثمان الخليفة الثالث.

٦٥٥ هزيمة الأسطول البيزنطي على يد المسلمين.

٦٦٨ هاجم الخليفة معاوية مدينة القسطنطينية بحرا.
٦٨٧ بيبين الهرستالي يعيد توحيد استرازيا ونوستريا.
٧١١ غزا جيش المسلمين إسبانيا من إفريقيا.
٧١٥ أملاك الخليفة الوليد الأول تمتد من جبال البرانس إلى بلاد الصين.
٧١٧-٧١٨ سليمان أخو الوليد وخليفته يفشل في الاستيلاء على القسطنطينية.
٧٣٢ هزم شارل مارتل المسلمين قرب بواتييه.
٧٥١ بيبين يتوج ملكًا على فرنسا.
٧٦٨ وفاة بيبين.
٧٧١ شرلمان هو الملك الوحيد.
٧٧٤ شرلمان يفتح لومباردي.
٧٨٦ هارون الرشيد الخليفة العباسي ببغداد (حتى ٨٠٩).
٧٩٥ أصبح ليو الثالث بابا (حتى ٨١٦).
٨٠٠ ليو يتوج شرلمان إمبراطورا للغرب.
٨٠٢ إجبرت الذي كان لاجئًا إنجليزيا ببلاط شرلمان يثبت نفسه على مملكة وسكس.
٨١٠ كروم البلغاري يهزم ويقتل الإمبراطور نقفور.

٨١٤ وفاة شرلمان.
٨٢٨ أصبح إجبرت أول ملك لإنجلترا.
٨٤٣ وفاة لويس التقي، وتمزق الإمبراطورية الكارلوفينجية، لم يكن هناك تعاقب منتظم على عرش الدولة الرومانية المقدسة حتى عام ١٩٦٣، وإن ظهر اللقب بين الفينة والأخرى.
٨٥٠ وحوالي ذلك الزمن أصبح روريك (وهو نورماني) حاكما على نوجفورود وكييف.
٨٥٢ بوريس أول ملك مسيحي لبلغاريا (حتى ٨٨٤).
٨٦٥ أسطول الروس (النورمان) يهدد القسطنطينية.
٩٠٤ الأسطول الروسي (النورماني) خارج القسطنطينية.
٩١٢ رودلف الجانجر يؤسس مملكة بنورماندي.
هنري الصياد ينتخب ملگا على ألمانيا.
٩٣٦ أوتو الأول يخلف أباه هنري الصياد في عرش ألمانيا.
٩٤١ عاد الأسطول الروسي إلى تهديد القسطنطينية من جديد.
٩٦٢ أوتو الأول ملك ألمانيا يتوج إمبراطورا (وهو أول إمبراطور سكسوني) بيد البابا يوحنا الثاني عشر.

٩٨٧ هيوكابت أصبح ملكًا على فرنسا انتهاء سلالة الكارلوفنجيين من الملوك الفرنسيين.

١٠١٦ أصبح كانوت ملكًا على إنجلترا والدنمرك والنرويج.

١٠٤٣ الأسطول الروسي يهدد القسطنطينية.

١٠٦٦ وليم دوق نورماندي يفتتح إنجلترا.

١٠٧١ انتعاش الإسلام تحت حكم الأتراك السلاجقة، معركة ملاذجرد.

١٠٧٣ أصبح هادبراند بابا (باسم البابا جريجوري السابع حتى ١٠٨٥).

١٠٨٤ نهب روبرت جويسكارد النورماني مدينة روما.

١٠٨٧-١٠٩٩ أصبح إربان الثاني بابا.

١٠٩٥ دعا إربان الثاني إلى الحملة الصليبية الأولى بمدينة كليرمونت.

١٠٩٦ مذبحة الحملة الصليبية الشعبية.

١٠٩٩ جودفري البويوني يستولي على أورشليم.

١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية.

١١٦٩ صلاح الدين يصبح سلطانًا على مصر.

١١٧٦	فردريك بربروسا يعترف بسيادة البابا إسكندر الثالث بالبندقية.
١١٧٧	صلاح الدين يسترد بيت المقدس.
١١٨٩	الحملة الصليبية الثالثة.
١١٩٨	تولية البابا إنوسنت الثالث (حتى ١٢١٦). أصبح فردريك الثاني ملك صقلية تحت وصايته (وعمره أربع سنوات).
١٢٠٢	الحملة الصليبية الرابعة تهاجم الإمبراطورية الشرقية.
١٢٠٤	استيلاء اللاتين على القسطنطينية.
١٢١٤	سقطت بكين بيد جنكيز خان.
١٢٢٦	وفاة القديس فرنسيس الأسيسي (مؤسس جمعية الفرنسيسكان).
١٢٢٧	وفاة جنكيز خان بعد أن كان خانًا من بحر قزوين إلى المحيط الهادي وخلفه أوجادي خان.
١٢٢٨	شرع فردريك الثاني في الحملة الصليبية السادسة وحصل على أورشليم.
١٢٤٠	دمر المغول مدينة كييف الروسيا تصبح تابعة للمغول.

١٢٤١ انتصار المغول عند ليجنتز بسيليزيا.

١٢٥٠ وفاة فردريك الثاني آخر إمبراطور من أسرة هوهنشتاوفن. العرش الألماني شاغر حتى عام ١٢٧٣.

١٢٥١ أصبح مانجوخان هو الخان الأعظم. أصبح قوبلاي خان حاكما للصين.

١٢٥٨ هولاكو خان يستولي على بغداد ويدمرها.

١٢٦٠ أصبح قوبلاي خانًا أعظم.

١٢٦١ استولى اليونان على القسطنطينية ثانية من اللاتين.

١٢٧٣ انتخب رودلف آل هابسبرج إمبراطورا. كون السويسريون حلفهم الدائم.

١٢٨٠ أسس قوبلاي خان أسرة يوان بالصين.

١٢٩٢ وفاة قوبلاي خان.

١٢٩٣ وفاة روجر باكون نبي العلم التجريبي.

١٣٤٨ الطاعون الأعظم: الموت الأسود.

١٣٦٠ في الصين سقوط أسرة يوان المغولية، وتولية أسرة منج (حتى ١٦٤٤).

١٣٧٧ عودة البابا جريجوري الحادي إلى روما.

١٢٧٨ الصدع الأعظم بالكنيسة، مع وجود إربان السادس بروما وكلمنت السابع بأفنيون.

١٣٩٨ هس يبشر بمذاهب ويكليف في براغ.

١٤١٤-١٤١٨ مجمع كونستانس.

هس (١٤١٥).

١٤١٧ انتهاء الصدع الأعظم.

١٤٥٣ الأتراك العثمانيون يفتحون القسطنطينية بقيادة السلطان محمد الثاني.

١٤٧٠ إيفان الثالث، غراندوق موسكو منذ الولاء للمغول.

١٤٨١ وفاة السلطان محمد الثاني وهو يستعد لفتح إيطاليا.

١٤٨٦ برثلميو دياز يدور حول رأس الرجاء الصالح.

١٤٩٢ عبر كولمبس الأطلسي إلى أمريكا.

١٤٩٣ أصبح مكسمليان الأول إمبراطورا.

١٤٩٨ فاسكو دي جاما يسير إلى الهند حول رأس الرجاء.

١٤٩٩ أصبحت سويسرا جمهورية.

١٥٠٠ مولد شارل الخامس.

١٥٠٩ هنري الثامن على عرش إنجلترا.

١٥١٤ ليو العاشر يصبح بابا.

١٥١٥ فرنسيس الأول ملك فرنسا.

١٥١٩ يقلع ماجلان للطواف حول العالم.

١٥٢٠ صار سليمان القانوني سلطانًا (حتى ١٥٦٦)، يحكم من بغداد إلى المجر. شارل الخامس يصبح إمبراطورا.

١٥٢٥ بابر ينتصر بمعركة بانيبات، ويستولي على دلهي ويؤسس الإمبراطورية المغولية.

١٥٢٧ استولى الجنود الألمان بإيطاليا بقيادة كونستابل بوربون على روما وعاثوا فيها فسادا.

١٥٢٩ حاصر سليمان فيينا.

١٥٣٠ شارل الخامس يتوجه البابا.

بدأ هنري الثامن خلافه مع البابوية.

١٥٣٩ تأسيس جمعية اليسوعيين.

١٥٤٦ وفاة مارتن لوثر.

١٥٤٧ إيفان الرابع الرهيب يتلقب بلقب قيصر الروسيا.

١٥٥٦ تنازل شارل الخامس عن العرش. أكبر يصبح المغولي الأعظم (حتى ١٦٠٥). وفاة إغناطيوس ليولا.

١٥٥٨ وفاة شارل الخامس.

١٥٥٨-١٦٠٣ حكم الملكة إليزابيث.

١٥٦٦ وفاة سليمان القانوني.

١٦٠٣ جيمس الأول يصبح ملكًا على إنجلترا وأستكلندة.

١٦٠٧ جيمس تون يسكنها الإنجليز.

١٦٢٠ بعثة السفينة ماي فلور تؤسس مدينة نيوبليموث. نزول أول الزنوج بجيمس تون.

١٦٢٥ شارل الأول على عرش إنجلترا.

١٦٢٦ وفاة السير فرنسيس باكون (لورد فريولام).

١٦٤٣ بدأ لويس الرابع عشر حكما دام ٦٢ سنة بفرساي.

١٦٤٤ أنهى المانشو حكم أسرة منج.

١٦٤٨ معاهدة وستفاليا، وبها اعتُرف بهولندة وسويسرا كجمهوريات حرة، وأصبحت لبروسيا أهمية، ولم تعط المعاهدة نصرا تاما للتاج الإمبراطوري، ولا للأمراء.

حرب الفروند، وقد انتهت بالانتصار التام للتاج الفرنسي.

١٦٤٩ إعدام شارل الأول ملك إنجلترا.

١٦٥٨ أصبح أورانجزيب المغولي الأعظم. وفاة كرومويل.

١٦٦٠ تولي شارل الثاني على إنجلترا.

١٦٨٤ نيو أمستردام تصبح بريطانية نهائيا بحكم معاهدات أبرمت وتسمى نيويورك.

١٦٣٨ آخر هجوم للأتراك على فيينا يصده يوحنا الثاني ملك بولندا.

١٦٨٩ بطرس الأكبر قيصر الروسيا (حتى ١٧٢٥).

١٧٠١ فردريك الأول ملك لبروسيا.

١٧٠٧ وفاة أورانجزيب. تمزيق إمبراطورية المغولي الأكبر.

١٧١٣ مولد فردريك الأكبر البروسي.

١٧١٥ لويس الخامس عشر ملك فرنسا.

١٧٥٥-١٧٦٣ بريطانيا وفرنسا تتقاتلان على أمريكا والهند.

فرنسا متحالفة مع النمسا والروسيا ضد بروسيا وإنجلترا (١٧٥٦-١٧٦٣). حرب السبع سنوات.

١٧٥٩ الجنرال ولف البريطاني يستولي على كويبك.

١٧٦٠ تولي جورج الثالث عرش بريطانيا.

١٧٦٣ معاهدة باريس. تسليم كندا لبريطانيا، سيادة البريطانيين على الهند.

١٧٦٩ مولد نابليون بونابرت.
١٧٦٩ بدء عهد لويس السادس عشر.
١٧٧٦ إعلان الاستقلال في الولايات المتحدة الأمريكية.
١٧٨٣ معاهدة الصلح بين بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية الجديدة.
١٧٨٧ مؤتمر فيلادلفيا الدستوري ينشئ الحكومة الاتحادية للولايات. يتضح إفلاس فرنسا.
١٧٨٨ أول كونجرس اتحادي بالولايات المتحدة يعقد في نيويورك.
١٧٨٩ اجتماع مجلس الطبقات الفرنسي. هدم الباستيل.
١٧٨٩ جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية.
١٧٩١ فرار لويس إلى فارن.
١٧٩٢ أعلنت فرنسا الحرب على النمسا. أعلنت بروسيا الحرب على فرنسا. معركة فالمي. أصبحت فرنسا جمهورية.
١٧٩٣ قتل لويس السادس عشر.
١٧٩٤ مقتل روبسبير وانتهاء جمهورية اليعاقبة.

١٧٩٥ حكومة الإدارة، قضى بونابرت على إحدى الثورات وعين قائدا عاما في إيطاليا.

١٧٩٨ دخل بونابرت مصر، معركة النيل.

١٨٩٩ عودة بونابرت إلى فرنسا، حيث أصبح قنصلاً أول يستمتع بسلطات هائلة.

١٨٠٣ شراء لويزيانا.

١٨٠٤ أصبح بونابرت إمبراطورا، فرنسيس الثاني يتخذ لقب إمبراطور النمسا في عام ١٨٠٥، ثم أسقط لقب الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عام ١٨٠٦، وبذلك انتهت الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

١٨٠٦ هزيمة بروسيا في معركة يينا.

١٨٠٨ عين نابليون أخاه جوزيف على إسبانيا.

١٨١٠ استقلال جمهوريات أمريكا الإسبانية.

١٨١٢ تقهقر نابليون من موسكو.

١٨١٢-١٨١٥ الحرب بين الولايات المتحدة وإنجلترا.

١٨١٤ تنازل نابليون عن العرش، وتولية لويس الثامن عشر.

١٨٢٣ صدور مبدأ مونرو.

١٨٢٤ تولية شارل العاشر ملكًا على فرنسا.

١٨٢٥ تولي نيقولا الأول على الروسيا. إنشاء أول سكة حديد من أستوكتن إلى دارلنجتن.

١٨٢٧ معركة نوارين.

١٨٢٩ استقلال اليونان.

١٨٣٠ عام اضطراب وفوضى. لويس فيليب طرد شارل العاشر. انفصال بلجيكا عن هولندة. أصبح ليوبولد أمير ساكس كوبرج جوثا ملكًا على هذه المملكة الجديدة وهي بلجيكا. القسم الروسي من بلوندة يثور ثورة فاشلة.

١٨٣٥ استعمال لفظة "الاشتراكية" لأول مرة.

١٨٣٧ تولية الملكة فكتوريا.

١٨٤٠ تزوجت الملكة فكتوريا ألبرت أمير ساكس كوبرج جوثا.

١٨٤٦-١٨٤٨ الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك.

١٨٥٢ أصبح نابليون الثالث إمبراطورا على فرنسا.

١٨٣٥ اشتُريت جادزدن وبها تمت رقعة الولايات المتحدة بقارة أمريكا.

١٨٥٤-١٨٥٦ حرب القرم.

١٨٥٦ القيصر إسكندر الثاني الروسي.

١٨٥٩ غارة جون براون على هاربرفري.

١٨٦١ الملك فكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا. أصبح إبراهام لنكولن رئيسا للولايات المتحدة. بدء الحرب الأهلية الأمريكية.

١٨٦٥ التسليم عند أبوماتوكس كوت هاوس. اغتيال لنكولن. فتح أبواب اليابان للعالم.

١٨٦٧ الولايات المتحدة تشتري ألاسكا من الروسيا.

١٨٧٠ أعلن نابليون الثالث الحرب على بروسيا.

١٨٧١ (يناير) سلمت باريس. أصبح ملك بروسيا إمبراطورا لألمانيا. صلح فرانكفورت.

١٧٧٨ معاهدة برلين. ابتدأت بأوروبا الغربية هدنة مسلحة دامت ٣٦ سنة.

١٨٨٨ أباطرة ألمانيا فردريك الثاني (مارس)، وغليوم الثاني (يونية).

١٩١٢ أصبحت الصين جمهورية.

١٩١٧ الثورتان الروسيتان: تأسيس النظام البلشفي بالروسيا.
دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية في صف الحلفاء.

١٩١٨ الهدنة.

١٩٢٠ أول اجتماع لعصبة الأمم، التي منعت منها ألمانيا والنمسا والروسيا وتركيا، ولم تمثل فيها الولايات المتحدة.

١٩١٢ تجاهل اليونان عصبة الأمم، وواصلوا الحرب مع الأتراك.

١٩٢٢ هزيمة اليونان الكبرى بآسيا الصغرى على يد الأتراك.
زحف الفاشيين على روما.

١٩٢٤ وفاة لينين.

١٩٢٧ تفاقم الخلاف بين ستالين وتروتسكي، ونفي تروتسكي من البلاد.

١٩٢٨ ابتداء أول مشروع الخمس سنوات بالروسيا.

١٩٢٩ الذعر في سوق الأوراق المالية في الولايات المتحدة وابتداء الأزمة.

١٩٣٠ ظهور حزب هتلر بمظهر القوة بالريشستاغ الألماني.

١٩٣١ الأزمة المالية ببريطانيا العظمى، والتخلي عن معيار الذهب.

عصبة الأمم ترفض السماح بقيام اتحاد جمركي بين ألمانيا والنمسا.

صارت إسبانيا جمهورية.

١٩٣٢ أنشأت اليابان دولة مانشوكو.

انتخب فرانكلين روزفلت رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية.

١٩٣٣ الإجازة العامة للبنوك بالولايات المتحدة. انتخاب روزفلت للمرة الأولى. النار بالريشستاغ ببرلين والانقلاب النازي، أصبح هتلر ديكتاتورا لألمانيا. المؤتمر الاقتصادي العالمي بلندن يفشل. خرجت اليابان على العصبة في أبريل وألمانيا في أكتوبر.

١٩٣٤ دخلت الروسيا عصبة الأمم.

اغتيال كيروف

١٩٣٥ عودة إلسار إلى ألمانيا. الحبشة تلجأ إلى عصبة الأمم على إيطاليا دون جدوى. حرمان اليهود من حقوق المواطنية الألمانية وحظر زواجهم بالآريين.

١٩٣٦ وفاة الملك جورج الخامس.

فتح إيطاليا للحبشة فعلاً. ثورة فرانكو بإسبانيا. تنازل الملك إدوارد الثامن الإنجليزي عن العرش.

١٩٣٧ حصار مدريد وإصابة قوات الحكومة الإسبانية بالإنهاك تدريجيا.

١٩٣٨ غزت ألمانيا بلاد النمسا، وضمتها إليها دون مقاومة مسلحة.

١٩٣٩ نشوب الحرب العالمية الثانية.

١٩٤٠ احتلت ألمانيا النرويج والدانمرك وهولندة وبلجيكا. سقوط فرنسا، وانضمام المجر ورومانيا وسلوفاكيا للمحور. الإيطاليون يفشلون في غزو بلاد اليونان. تشرشل يرأس الوزارة البريطانية. روزفلت ينتخب للمرة الثالثة رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية. أجرت بريطانيا قواعد الأطلسي للولايات المتحدة. اغتيال تروتسكي بالمكسيك.

١٩٤١ تقلبات الحرب بشمال إفريقية. تقدم البريطانيون في ليبيا ١٩٤١، ثم انسحبوا ثانية في الربيع، وتقدموا في نوفمبر وانسحبوا مرة ثانية في ربيع ١٩٤٢.

انضمت بلغاريا إلى المحور.

احتلت ألمانيا بلاد اليونان ويوغوسلافيا وكريت. تحريـر الحبشة. البريطانيون والفرنسيون يحتلون سـوريا. ألمانيـا تغزو الروسيا (٢٢ يونيـة). ميثـاق الأطلنطـي. احـتلال البريطانيين والروس لإيران. سقوط كييف بيد الألمان. فشل هجوم الألمان على موسكو. هاجمت اليابان الولايات المتحدة. أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا.

١٩٤٢ سقوط سنغافورة. فتوح اليابانيين في المحيط الهادي وبورما. معركة جزيرة مداوي. هجوم رومل في ليبيا أوصل الألمان إلى مصر. معركة مصر بالعلمين. نزول البريطانيين والأمريكان بشمال إفريقيا.

ظلت تونس بأيدي الألمان حتى ١٩٤٣، عندما طهر شمال إفريقيا تماما. اغتيال الأميرال دارلان الفرنسي في الجزائر. سقوط سباستبول بيد الألمان الذين دخلوا بلاد القوقاز ولكنهم أوقفوا عند ستالينجراد.

١٩٤٣ مؤتمر الدار البيضاء. الإصرار على التسليم بلا قيد ولا شرط. احتلال الإنجليز والأمريكان لتونس. غزو صقلية. غزو إيطاليا. تقدم الأمريكيين في الباسيفيكي. يسترد الروس خركوف وسمولنسك وكييف. مؤتمر كويبك. مؤتمر طهران.

١٩٤٤ نزول الحلفاء في فرنسا. تحرير فرنسا وبلجيكا. الحلفاء يحاربون على حدود ألمانيا. تحرير اليونان زحف الروس خلال رومانيا وبلغاريا إلى بلاد المجر ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، انتخاب روزفلت للمرة الرابعة.

الأمريكيون ينزلون بالفلبين.

١٩٤٥	تسليم ألمانيا بلا قيد ولا شرط. وفاة روزفلت. ٦ أغسطس قنبلة هيروشيما الذرية. ٩ أغسطس قنبلة ناجازاكي الذرية. الروسيا تعلن الحرب على اليابان. استسلام اليابان رسميا ٢ سبتمبر. ميثاق سان فرانسسكو بإنشاء هيئة الأمم المتحدة بمنظمتيها: الجمعية العامة، ومجلس الأمن لتحقيق السلام العالمي.
١٩٤٦	إنشاء هيئة اليونسكو؛ أي منظمة التربية والعلوم والثقافة.

(أ)

(ب)

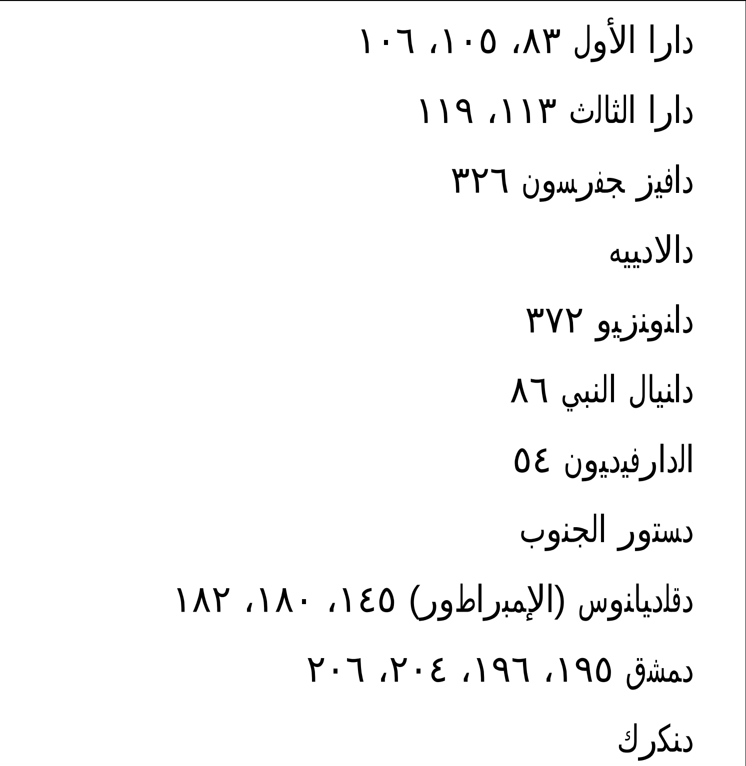
(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)



(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)